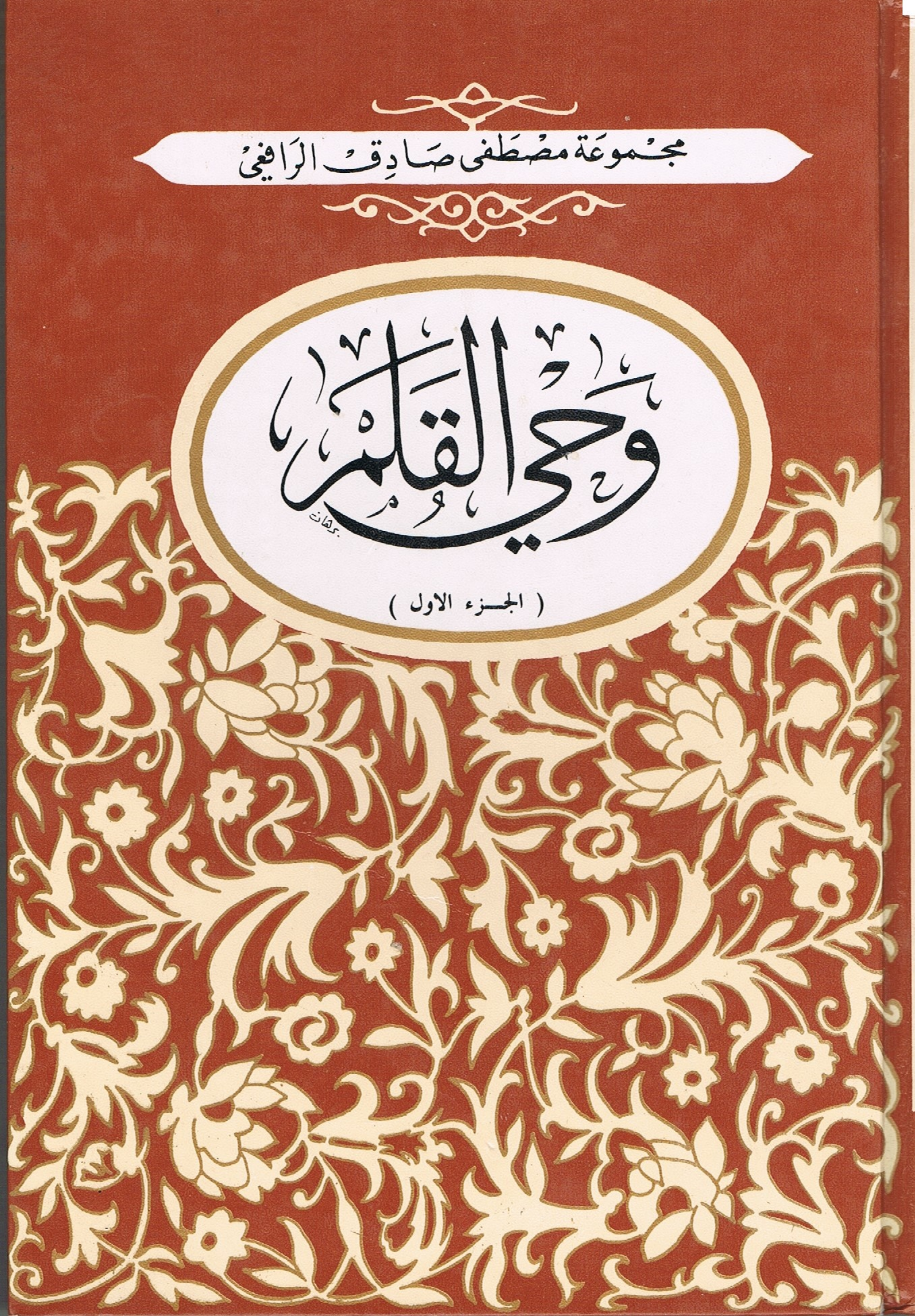


مجموعة مصطفى صادق الرافعي
وحي القلم
(الجزء الاول)



« بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل ، »
« أَو قَبسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم »
سعد باشا زغلول

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الأول

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان


وحي القلم

مؤلفات الكاتب

تاريخ آداب العرب .
إعجاز القرآن .
تحت راية القرآن .
المعركة بين القديم والجديد .
كتاب المساكين .
حديث القمر
رسائل الأحزان .
السحاب الأحمر .
أوراق الورد .
ديوان الرافعى .
ديوان النظرات .
السفّود .

ضبطه وصممه وعلى حواشيه
محمد سعيد العريان

بسم الله الرحمن الرحيم

« ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَيٰهُمُ ٱقْتَدِهِ »

دعوة الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله
لمؤلف « وحى القلم » فى أول عهده بالأدب

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدبا

لله ما أثمر أدبك ولله ما ضمن لي قلبك لا أقارضك ثناء بثناء فليس ذلك
شأن الآباء مع الأبناء ولكني أعدك من خلص الأولياء وأقدم صفك على صف
الأقرباء وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل وأن يقيمك
في الأواخر مقام حسان في الأوائل والسلام

محمد عبده
٥ شوال ١٣٢١

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندى صادق الرافعى : زاده الله أدبًا.

لله ما أثْمَرَ أدَبُك، ولله ما ضَمِنَ لى قلبُك، لا أقارِضُكَ ثناءً بثناء، فليس ذلك شأنَ الآباء مع الأبناء ، ولكنى أعُدُّك من خُلَّصِ الأولياء، وأقدِّمُ صفَّك على صفِّ الأقرباء. وأسألُ اللهَ أن يجعلَ للحق من لسانك سيفًا يمحقُ الباطل ، وأن يُقيمك فى الأواخرِ مَقَامَ حَسَّان فى الأوائل . والسلام .

٥ شوال سنة ١٣٢١ *　　　　محمد عبده

* يوافق هذا التاريخ ١ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ للميلاد .

تصدير

بقلم

محمد سعيد العريان

« .. ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، وبأنه محير ، ولكن الحسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك » .

الرافعى

هذا كتاب ، آخر كتاب أنشأه الرافعى ، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسه ، والنبْضة الأخيرة من قلبه ، والوَمْضَةُ الأخيرة من وجدانه . . . أفرأيت الليل المطبق كيف تتروَّح نسماته الأخيرة بعبير الشجر وتتندَّى أزهارُه فى نسيم السحر ؟

ألا وإنه إلى ذلك أولُ كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته ، فقد عاش الرافعى ما عاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه ، لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يُحيل فكرةً فى رأسه أو لمحةً فى خاطره أو خَفْقَةً فى قلبه — إلى تعبير فى لسانه أو معنى فى ديوانه ، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه إلى قارئه كما أراده أو يُغلقَ دونَه ، فلما اتصل سببه بمجلة « الرسالة » * رأى لقارئه عليه حقاً أكثر من حقِّ نفسه ، فكان أسلوبه الجديد الذى أنشأ به هذا الكتاب .

على أن هذا الكتاب — وشأنه ما قدَّمْت — يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميِّزةً بوضوح ، فمن شاء فليقرَأه دون سائر كتبه ، فسينكشف له الرافعى فى سائر كتبه . والأديب الحقُّ تستعلِن نفسُه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحواله وما يحيط به .

* * *

---

* اتصل الرافعى بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنوات ، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة ، فلم يكن له قبلها صلة (صحافية) بجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ، وقد كان لذلك أثره فى أسلوبه من قبل ومن بعد إلى أسباب أخرى وانظر (فترة جمام) و (عمله فى الرسالة) و (نقلة اجتماعية) من كتابنا (حياة الرافعى) .

والرافعي عند، طائفة من قراء العربية أديب عَسِرُ الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلِّف لايُصدر عن طبع ، وعند بعضهم غامض مُعَمًّى لاتَخلص إليه النفس ، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البيانى الخالص ، أديب الأمة العربية المسلمة ، يعبِّر بلسانها ، وينطق عن ذات نفسها ، فما يعيب عليه عائبٌ إلا من نقص فى وسائله ، أو كدرة فى طبعه ، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطق الرافعي بلسانها — حجاباً يباُعد بينه وبين ما يقرأ روحًا ومعنى .

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوّق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه ، فليستوثق من نفسه قبلُ ، ويستكمل وسائله ، فإن اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البيانى ،وأحسَّ إحساسَ النفس العربية المسلمة فيما تحبُّ وماتكره وما يخطر فى أمانيها — فتَذوّقُه ذوق وحُكمه حكم ، وإلا فليُسقط الرافعيَّ من عداد من يقرَأ لهم أو فليسقط نفسَه من عداد هذه الأمة .

* * *

على أنه إذا حق لنا أن نرِّتب كُتبَ الرافعى ترتيبًا يُعين قارئه على تذوُّقه أو دراسة أدبه فإن « وحى القلم » فى رَأس هذا الثبت . هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغي أن يقرأ له ، وإن البدء به لحقيقٌ أن يعوِّد قارئه أسلوبَ الرافعى فيَسْلَس له صَعْبُه وينقاد .

* * *

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب ، على أن قارئه قد يقف منه عند مواضع فليسأل نفسه : كيف تأتىَّ للرافعى أن يعالج موضوعه على هذا الوجه ؟ وكيف تهيَّأ له ذلك المعنى ؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر ؟ وفى أىِّ أحواله كان يكتب ؟ وعلى أىِّ نسق كان يؤلف موضوعه ويجمع أشتاته ويحشد خواطره ويصنف عبارتَه ؟ . . .

. . . ولست أرى من حقى أن أطيل القول هنا فى هذا الكتاب وقد ذكرتُه فى كتاب « حياة الرافعى » ، وإن موضوع هذا الكتاب لَهُوَ الحقيق بالدرس والعناية .

والكتاب كما يُشعِر به عنوانه ، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص ،

من وحى القلم وفيض الخاطر فى ظروف متباينة ، وأكثره ما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ، ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة ، سببٌ أوحى إليه موضوعَها وأملى عليه القولَ فيها ، ولقد كنت على أن أثبتَ عند رأس كل موضوع منها باعثه وحادثتَه ، لعلّ من ذلك نورًا يكشف عن معنى مغلق أو يوضّح فكرة يكتنفها بعضُ الغموض ، ولكن بعض الضرورات قد ألزمتْنى أن أقتصد فى البيان هنا اكتفاء بما بينتُه فى موضعه وأشرت إليه فى هامش موضوعه .

ولقد يقرأ القارئ بعض القِصص فى هذا الكتاب ، فيسأل عن بعضها : أهذا حقٌ يرويه أم باطل يدّعيه ؟ويسأل عندبعضها : أهذا مما ينقل من مأثورات الأدب والتاريخ القديم ، أم إنشاء مما يُبدعه الخيال وتُوشيه الصنعة ؟ ثم يقرأ رأى الرافعى فى القصة وكتاب القصة* فيقول : أين رأيه من حقيقته ؟ وأين عمله من دعواه ؟

ولهذه القصص حديث طويل ، ولكن حسْبى أن أقول إن الرافعى — وإن هجر القصة ولم يحفل بها زمانًا — كانت القصة فى أدبه وفى طبعه .

* * *

وكما قلت من قبل : إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميِّزةً بوضوح فى أسلوبه ، كذلك أقول هنا إنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح فى موضوعه ، ففيه خُلُقه ودينه ، وفيه شبابُه وعاطفته ، وفيه تزمّتُه ووقارُه ، وفيه فكاهته ومَرَحُه ، وفيه غضبه وسخطه ، فمن شاء أن يعرف الرافعى عِرفانَ الرأى والفكرة والمعاشرة فليعرفْه فى هذا الكتاب .

* * *

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد خلفه المؤلف رحمه الله — على مكتبه قصاصات من صحف وصفحات من كتب ومجلات ، فعاد كتابًا بين دفتين ، وقد رتّبتُ فصولَه على ما بدا لى ، إذ لم أجد فيما خلّفَ المؤلف من أوراق ما يشير إلى رأيه فى ترتيبه ، ولكنه جمع أكثر مواده فى غلاف وأودعه درجَ مكتبه

* الجزء الثالث من وحى القلم .

إلى ميعاد ، ثم عاجلته منيتُه . وقد جمعتُ ما قدرت عليه بعد ، فأضفتُه إلى ما جَمَعَ المؤلِّف ، ورتَّبت كل ذلك وهيَّأتُه للمطبعة فإن كان قد فاتنى شيء مما ينبغى إضافتُه إلى ذلك الجزء ، أو قصَّر بى الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل ، فمعذرة إلى قارئه .

وللمؤلف فى ذيل بعض الصحائف تعليقات ، ولى تعليقاتٌ غيرها اقتضاها مكانُها وموضوعُها ، فإذا رأى القارئُ رمزَ التعليق فى الصلب وفى الهامش نجماً أو نجوماً (*)(**) فهو مما علَّقتُه ، وإن كان الرمز رقماً فهو مما علَّقه المؤلِّف — رحمه الله — لبيان معنى أو تفسير كلمة .

وإن فى الكتاب لفناً وفكراً وبياناً ، وإنَّ فيه لمواضع تقتضى البسط والتطويل فى الحديث ، وإنَّ فيه لمذاهبَ فى الإنشاء حقيقةً بالدرس والنظر ، ولكنى أجتزئُ من ذلك كله بالعرض دون البيان ، لأدع لقارئه أن يقول ما يشاء ويحكم ، ثم لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدث عن مذهبه فى البيان وهو عليه أقدر .

محمد سعيد العريان

صدر الكتاب

البيان

لا وجُودَ للمقالة البيانيةِ إلا فى المعانى التى اشتملتْ عليها يُقيمها الكاتبُ على حُدود ويديرها على طريقة، مُصيباً بألفاظه مَواقعَ الشعور، مُثيراً بهامكامن الخيال، آخذاً بوَزْنٍ تاركاً بوزن لتأخذَ النفسُ كما يشاء وتترك.

ونقلُ حقائقِ الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر، هو انتزاعُها من الحياة فى أسلوب وإظهارُها للحياة فى أسلوب آخرَ يكون أوفى وأدق وأجملَ، لوضعه كلَّ شيء فى خاصٍّ معناه وكَشْفِه حقائقَ الدنيا كَشْفَةً تحت ظاهرها الملتَبِس. وتلك هى الصناعةُ الفنيةالكاملة؛ تَستَدْرِكُ النقصَ فتُتِمُّه، وتتناولُ السر فتُعلنُه، وتلمسُ المقيَّدَ فتُطْلِقُه، وتأخذ المطلَقَ فتحُدُّه، وتكشفُ الجمال فتُظهره، وترفع الحياة درجةً فى المعنى وتجعل الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به.

فالكاتبُ الحقُّ لايكتبُ ليكتب؛ ولكنه أداةٌ فى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود، تُصوِّر به شيئاً من أعمالها فنًّا من التصوير. الحكمةُ الغامضةُ تريده على التفسير، تفسيرِ الحقيقة؛ والخطأ الظاهرُ يريده على التبيين، تبيينِ الصواب؛ والفَوضى المائجةُ تسأله الإقرار. إقرارَ التناسب؛ وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلةً بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مَرْحَلَةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزل. ومن ذلك لايُخلق المُلْهَمُ أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله فى قلبه الرقيقِ مواضعُ مُهيَّأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعةُ الروحانيةُ وتتساقط منها بالمعانى.

وإذا اختير الكاتبُ لرسالة ما، شعر بقوة تفرض نفسَها عليه؛ منها سِنَادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانه، ومنها جمالُ ما يأتى به، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً، له بنفسه وجودٌ وله بها وجودٌ آخر؛ ومن ثَمَّ يُصبح عالَماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه؛ ويُلقَى فيه مثلُ السر الذى يُلْقَى فى الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعيّ يُرَى سهلاً كلَّ السهل حين يتمُّ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعب حين يَبدأ.

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المفردة في ذهنه معنى تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة ، وهي تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتدخله في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهي هي التي تميز طريقته وأسلوبه ؛ وكما خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاع في بيانه[1] .

ولابد من البيان في الطبائع الملهمة ليتسع به التصرف ، إذ الحقائق أسمى وأدق من أن تعرف بيقين الحاسة أو تنحصر في إدراكها . فلو حددت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبس الملائكة بهذا اللحم والدم أبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرة الصور البيانية الجميلة ، للحقيقة الجميلة ، هي كل ما يمكن أو يتسنى من طريقة تعريفها للإنسانية .

وأي بيان في خضرة الربيع عند الحيوان من آكل العشب ، إلا بيان الصورة الواحدة في معدته ؟ غير أن صور الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد الندى ينضرها حسناً كما ينضره .

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى — كالإيمان والجمال ، والحب ، والخير والحق — ستبقى محتاجة في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة .

* * *

وفي الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم ومعانيهم فناً عقلياً غايته صحة الأداء وسلامة النسق ، فيكون البيان في كلامهم على ندرة كوخز الخضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا . ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة . أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ويدف ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري . ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا في معان وألفاظ ؛ وترى الإلهام في الأسلوب الآخر يطالعك أنه هنا في جلال وجمال وفي صور وألوان .

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التي صنع منها الكون .

ودَوْرَةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى دورةُ خَلْق وتركيب ، تخرج بها الألفاظُ أكبرَ مما هى ، كأنها شَبَّتْ فى نفسه شباباً ؛ وأقوى مما هى ، كأنما كَسَبَتْ من روحه قوة ؛ وأدلَّ مما هى ، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتبُ العلمىُّ تمرُّ اللغةُ منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابعُ واضعيها ؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع وتخرج عليها طابعُه هو . أولئك أزاحوا اللغةَ عن مرتبة سامية ، وهؤلاء عَلَوْا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شىء إلا الفكرُ والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسَّة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأى .

وللكتابة التامة المفيدة مثلُ الوجهين فى خلْق الناس : ففى كل الوجوه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمع إلى تمام الخَلْق جمالَ الخَلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذّةَ الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك ، يُرى ويؤثَّر ويُعشَق .

وربما عابوا السموّ الأدبىّ بأنه قليل ، ولكنَّ الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مُحيِّر ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتبُ البيانىٌّ فلا تنتظر الأدب .

مصطفى صادق الرافعى

اليمامتان

جاء فى تاريخ الواقدى «أن (المُقَوْقِس) عظيم القِبْطِ فى مصر ، زوّج بنتَه (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هِرَقْل) وجهّزها بأموالها حشَماً لتسير إليه ، حتى يَبْنِيَ عليها فى مدينة قَيْسَارِيَة (١) ؛ فخرجت إلى بُلْبَيْس وأقامتْ بها . . . وجاء عَمْرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حِصَاراً شديدا ، وقاتلَ مَن بها ، وقتل منهم زُهاء ألفِ فارس ، وانهزم مَن بقى إلى المقوقس ، وأخذت أرمانوسةُ وجميعُ ما لَها ، وأخذ كلُّ ما كان للقبط فى بلبيس . فأحبَّ عمرٌو ملاطفةَ المقوقس ، فسيّر إليه ابنتَه مكرَّمةً فى جميع مالَها ، (مع قَيْس بن أبى العاص السَّهْمى) ؛ فسُرَّ بقدومها . . . » .

* * *

هذا ما أثبتَه الواقدى فى روايته ، ولم يكن مَعْنيًّا إلا بأخبار المَغازِي والفُتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية ؛ أما ما أغفله فهو ما نَقُصُّه نحن :

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مُوَلَّدةٌ تُسَمَّى (ماريَة) ، ذاتُ جمال يونانىّ أتمَّته مصرُ ومَسَحَتْه بسحرها ، فزاد جمالُها على أن يكون مصريًّا ، ونَقَصَ الجمالُ اليونانىّ أن يكُونَه ؛ فهو أجملُ منهما ، ولمصرَ طبيعةٌ خاصة فى الحسن ؛ فهى قد تُهْمِلُ شيئًا فى جمال نسائها أو تُشَعِّث منه ، وقد لاتوفِّيه جُهدَ محاسنها الرائعة ؛ ولكن متى نشأ فيها جمالٌ ينْزِعُ إلى أصل أجنبى أفرغتْ فيه سحرَها إفراغا ، وأبتْ إلا أن تكون الغالبةَ عليه ، وجعلته آيتَها فى المقابلةِ بينه فى طابَعِه المصرىّ ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنةً ما كانت ؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلى .

وكانت ماريةُ هذه مسيحيةً قويةَ الدين والعقل ، اتخذها المقوقسُ كنيسةً حيةً لابنته ، وهو كان واليًا وبَطْرِيَرْكًا على مصر من قِبَلِ هِرَقْل ؛ وكان من

(١) بلدة بفلسطين . وبلبيس هى المدينة المعروفة بمحافظة الشرقية بمصر .

عجائب صُنْعِ الله أن الفتحَ الإسلاميّ جاء فى عهده ، فجعل اللهُ قلبَ هذا الرجل مِفتاحَ القُفْلِ القبطيّ ، فلم تكن أبوابُهم تُدافِعُ إلا بمِقدارِ ما تُدفَع ، تُقاتِل شيئًا من قتال غيرِ كبير ، أما الأبوابُ الروميةُ فبقيتْ مستَغْلِقةً حصينةً لاتُذْعِنُ إلا للتحطيم ، ووراءها نحوُ مائة ألفِ رومى يقاتلون المعجزةَ الإسلاميّةَ التى جاءتهم من بلاد العرب أوّلَ ما جاءت فى أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخِرَ ما زادوا على اثنى عشر ألفًا . كان الروم مائة ألف مُقاتل بأسلحتهم — ولم تكن المدافع معروفة — ولكن رُوح الإسلام جعلت الجيش العربيّ كأنه اثنا عشر ألفَ مِدْفع بقنابلها ، لايقاتِلون بقوّة الإنسان ، بل بقوّة الروح الدينية التى جعلها الإسلامُ مادةً منفجرةً تُشْبه الدِّيناميتَ قبل أن يُعْرَفَ الدِّيناميت !

ولما نزل عمرٌو بجيشِه على بُلبيس ، جَزِعتْ مارية جزَعًا شديداً ؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ يَنْفضُهم الجدْبُ على البلاد نَفْضَ الرمالِ على الأعين فى الريح العاصف ؛ وأنهم جَرادٌ إنسانيّ لايغزو إلا لِبَطْنه ؛ وأنهم غِلاظُ الأكباد كالإبل التى يمتطونها ؛ وأن النساء عندهم كالدّوابّ يُرْتَبَطْن على خَسْفٍ ؛ وأنهم لاعهدَ لهم ولا وفاء ، ثَقُلت مطامعُهم وخفّت أماناتُهم ؛ وأن قائدَهم عَمْرَو بن العاص كان جزّاراً فى الجاهليّة ، فما تَدَعُه روحُ الجزّار ولا طبيعتُه ؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناسِ وشُذّاذِهم ، لا أربعةِ آلاف مقاتل من جيش له نظامُ الجيش !

وتوهّمتْ ماريةُ أوهامَها ، وكانتْ شاعرةً قد درست هى وأرمانوسةُ أدبَ يونانَ وفلسفتَهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقّد يُشْعِرُها كلّ عاطفة أكبرَ مما هى ، ويضاعِف الأشياءَ فى نفسها ، وينزعُ إلى طبيعته المؤنّثة ، فيبالغُ فى تهويل الحزنِ خاصّة ، ويجعل من بعض الألفاظ وَقُوداً على الدم . . .

ومن ذلك استُطِيرَ قلبُ مارية وأفزعتها الوساس ، فجعلت تَنْدُبُ نفسَها ، وصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمتُه :

جاءكِ أربعةُ آلافِ جزّار أيّتُها الشاةُ المسكينة !
ستذوق كلُّ شعرة منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبَحى !

جاءكِ أربعةُ آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!
قوِّني ياإلهي ، لأغمِدَ في صدري سِكِّينًا يردُّ عني الجزّارين !
يا إلهي ، قوِّ هذه العذراءَ ، لتتزوَّج الموتَ قبل أن يتزوجَها العربي.. . !

* * *

وذهبت تتلو شعرَها على أرمانوسةَ في صوت حزين يتوجَّع ؛ فضحكتْ هذه وقالت : أنتِ واهمةٌ يا مارية ؛ أنسيتِ أن أبي قد أهدَى إلى نبيهم بنتَ (أنْصِنا)(١)، فكانت عنده في مملكةٍ بعضُها السماء وبعضُها القلب ؟ لقد أخبرني أبي أنه بَعَثَ بها لتكشفَ له عن حقيقة هذا الدين وحقيقةِ هذا النبيِّ؛ وأنها أنفذتْ إليه دَسيسًا يُعْلِمُه أن هؤلاءالمسلمين هم العقلُ الجديدُ الذي سيضع في العالَم تمييزَه بين الحق والباطل ، وأن نبيَّهم أطهرُ من السحابة في سمائها ، وأنهم جميعًا ينبعثون من حُدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتها ؛ وإذا سلُّوا السيفَ سلُّوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون . وقالت عن النساء: لأنْ تخافَ المرأةُ على عفتها من أبيها أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحاب هذا النبيّ ؛ فإنهم جميعًا في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضميرُ الإسلاميُّ في الرجل منهم — يكون حاملاً سلاحًا يضربُ صاحبَه إذا همّ بمخالفته .

وقال أبي : إنهم لايُغيرُون على الأمم ، ولايحاربونها حربَ المُلْك ؛ وإنما تلك طبيعةُ الحركة للشريعة الجديدة ، تتقدَّم في الدنيا حاملةً السلاحَ والأخلاق ، قويةً في ظاهرها وباطنها ، فمن وراء أسلحتِهم أخلاقُهم ؛ وبذلك تكون أسلحتُهم نفسُها ذاتَ أخلاق !

وقال أبي : لها إن هذا الدينَ سيندفعُ بأخلاقِه في العالَم اندفاعَ العُصارة الحيةِ في الشجرةِ الجرداء ؛ طبيعةٌ تعملُ في طبيعة ؛ فليس يمضي غيرُ بعيد حتى تخضَرَّ الدنيا وترمِيَ ظِلالها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تُشْبه في

(١) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت من (أنصنا) بالوجه القبلي .

عملها الظاهر المُلَفَّقِ ما يُعَدُّ كطلاء الشجرة الميتةِ الجرداء بلون أخضر . . .
شَتَّانَ بين عمل وعمل ، وإن كان لونٌ يشبه لونًا . . .

فاسترْوَحَتْ ماريةُ واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضَيْرَ علينا إذا فتحوا البلد ، ولايكون ما نَسْتَضِرُّ به ؟

قالت أرمانوسة : لاضيرَ يا مارية ، ولايكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا ؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العُلوج من الروم ، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحِرص عليه ، والحاجة إلى حلاله وحرامه ، فهم القُساةُ الغِلاظُ المُستكلِبون كالبهائم ؛ ولكنهم يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه ، فهم الإنسانيُّون الرُّحماء المتعففون .

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسةُ ، إن هذا لعجيب ! فقد مات سقراط وأفلاطونُ وأرِسْطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتبَ التى كتبوها . . . ! فلم يخرِجوا للدنيا جماعةً تامةَ الإنسانية ، فضلا عن أمة كما وصفْتِ أنتِ من أمر المسلمين ؛ فكيف استطاع نبيُّهم أن يُخرِجَ هذه الأمةَ وهم يقولون إنه كان أميًّا ؟ أفتسْخَرُ الحقيقةُ من كبار الفلاسفةِ والحكماء وأهل السياسة والتدبير ؛ فتدعُهم يعملون عَبَثًا أو كالعبث ، ثم تستسلم للرجل الأمِّيِّ الذى لم يكتُب ولم يقرأ ولم يدرُس ولم يتعلم ؟

قالت أرمانوسة : إن العلماء بهيئةِ السماء وأجرامِها وحسابِ أفلاكها ، ليسوا هم الذين يَشُقُّون الفجر ويُطلعون الشمس ؛ وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملُها فى الحياة إيجادَ الأفكار العمليَّةِ الصحيحةِ التى يسير بها العالم ، وقد درستُ المسيحَ وعملَه وزمنَه ، فكان طِيلةَ عمره يحاول أن يوجِد هذه الأمة ، غير أنه أوجدها مُصغَّرة فى نفسه وحواريِّيه ، وكان عملُه كالبدء فى تحقيق الشىء العسير ؛ حَسْبُه أن يُثبِتَ معنى الإمكان فيه .

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأمِّيِّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها ؛ وبرهانها القاطعُ أنها بذلك فى مظهرها الإلهيِّ . والعجيبُ يا مارية ، أن هذا النبى قد خذله قومُه وناكروه وأجمعوا على خِلافه ، فكان فى ذلك كالمسيح ، غير أن

المسيحَ انتهى عند ذلك ؛ أما هذا فقد ثبت ثباتَ الواقع حين يقع ؛ لايرتدُّ ولا يتغير ؛ وهاجَر من بلده ، فكان ذلك أول خُطا الحقيقةِ التى أعلنت أنها ستَمشى فى الدنيا ، وقد أخذتْ من يومئذ تمشى [1]. ولو كانت حقيقةُ المسيح قد جاءت للدنيا كلهاّ لها جرتْ به كذلك ، فهذا فرقٌ آخر بينهما . والفرقُ الثالثُ أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هى عبادةُ القلب ، أما هذا الدينُ فعلمتُ من أبى أنه ثلاثُ عبادات يشُدُّ بعضها بعضاً : إحداها للأعضاء، والثانيةُ للقلب ، والثالثةُ للنفس ؛ فعبادةُ الأعضاء طهارتُها واعتيادُها الضبط ؛ وعبادةُ القلبِ طهارتُه وحبُّه الخير ؛ وعبادةُ النفسِ طهارتُها وبذلُها فى سبيل الإنسانية . وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ؛ فلن تُقهرَ أمةٌ عقيدتُها أن الموتَ أوسعُ الجانبين وأسعدُهما .

قالت مارية : إن هذ والله لسرٌّ إلـهىٌّ يدلُّ على نفسه؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعثَ نفسُه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والموتَ إلا فى أحوال قليلة ، تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ، والحبّ الأعمى ، والتكبُّرِ الأعمى ؛ فإذا كانت هذه الأمّةُ الإسلاميةُ كما قلتِ منبعثةً هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدينَ هو شعورُ الإنسان بسموّ ذاتيته ، وهذه هى نهايةُ النهاياتِ فى الفلسفة والحكمة .

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنكِ تتهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية !

فاستَضحكَتَا معاً وقالت مارية : إنما ألقيتِ كلاماً جاريتُكِ فيه بحَسَبِه ، فأنا وأنتِ فكرتان لامسلمتان .

• • •

قال الراوى : وانهزم الرومُ عن بُلبيس ، وارتدُّوا إلى المقوقس فى (مَنْف) ، وكان وحىُ أرمانوسةَ فى ماريةَ مدةَ الحِصار — وهى نحو الشهر — كأنه فكرٌ سكَنَ فكراً وتمدَّد فيه ؛ فقد مر ذلك الكلامُ بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنعُ المؤلفُ بكتاب ينقّحه ، وأنشأ لها أخيِلةً

---

[1] (١) انظر المقالات النبوية فى صدر الجزء الثانى من هذا الكتاب .

تُجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكَّد لأنه مؤكَّد .

ومن طبيعة الكلام إذا أثر فى النفس ، أن ينتظم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تُلقَى للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة فى عقل مارية هكذا : « المسيحُ بدْءٌ وللبدء تكْمِلة ، ما من ذلك بدٌّ . لاتكون خدمةُ الإنسانية إلا بذاتٍ عالية لاتبالى غيرَ سموِّها. الأمةُ التى تبذل كل شيء وتستمسكُ بالحياة جُبْنًا وحِرصًا لاتأخذ شيئًا ، والتى تبذل أرواحَها فقط تأخذ كل شيء » .

وجعلتْ هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالُها تُعرِّب هذ العقلَ اليونانى ؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى ماريةَ قالت لها : لايَجْمُلُ بمن كانت مثلَكِ فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة ، تـتَوَجَّهُ حيث يُسارُ بها ؛ والرأى أن تبدئى هذا القائدَ قبل أن يبدأكِ ؛ فأرسلى إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، وأسأليه أن يُصْحِبَك بعضَ رجاله؛ فتكونى الآمرةَ حتى فى الأسْر ، وتصنعى صُنْعَ بناتِ الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منكِ فى لسانكِ ودَهائك ؛ فاذهبى إليه من قِبَلى ، وسيَصحبُك الراهبُ (شطـا) ، وخُذى معك كوكبةً من فرساننا .

* * *

قالت ماريةُ وهى تقصُّ على سيِّدتها : لقد أديتُ إليه رسالتَكِ فقال : كيف ظنُّها بنا ؟ قلت : ظنُّها بفعلِ رجلٍ كريم يأمره اثنان : كرمُه ، ودينُه . فقال : أبلغيها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال: « استَوْصُوابالقبطِ خيراً فإن لهم فيكم صِهراً وذِمة» . وأعلميها أننا لسنا على غارة نُغيرُها ، بل على نفوس نُغيِّرُها .

قالت : فَصِفيه لى يا مارية .

قالت : كان آتيًا فى جماعة من فرسانه على خيولهم العِراب ، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنسٍ آخر ؛ فلما صار بحيث أتبيَّنُه أوْمأ إليه التَّرجُمانُ — وهو (وَرْدانُ) مولاه — فنظرتُ ، فإذ هو على فرَس كُمَيْت

أحَمّ (١) لم يخلُص للأسْوَدِ ولا للأحمر ، طويلِ العنق مُشْرِف له ذُؤابةٌ أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة ، ذيَّالٍ يتبختر بفارسه ويُحَمْحِمُ كأنه يريد أن يتكلم ، مُطهَّم . . .

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتكِ صفةَ جودِه . . .

قالت مارية : أما سلاحُه . . .

قالت : ولا سلاحه ، صِفيه كيف رأيتهِ (هو) !

قالت : رأيتُه قصيرَ القامةِ علامةَ قوة وصلابة ، وافرَ الهامةِ علامةَ عقل وإردة ، أدعجَ العينين . . .

فضحكتْ أرمانوسة وقالت: علامة ماذا ؟ . . .

. . . أبلجَ يُشْرِقُ وجهُه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء، أيِّداً اجتمعتْ فيه القوَّةُ حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . . داهيةً كتبَ دَهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنىً يأخذ من يراه ؛ وكلما حاولتُ أن أتفرَّسَ فى وجهه رأيتُ وجهَه لا يُفسِّرُهُ إلا تكررُ النظر إليه . .

وتضرَّجتْ وجنتاها ، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عينَىْ أرمانوسة . . . وقالت هذه : كذلك كلُّ لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارُها . . .

فغضَّت ماريةُ من طَرْفِها وقالت : هو والله ما وَصَفْتُ ، وإنى ما ملأتُ عيني منه ، وقد كدتُ أنكر أنه إنسان لما اعترانى من هيبته . . .

قالت أرمانوسة : من هَيبته أم عَينيه الدعجاويْن . . . ؟

* * *

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها فى صحبة (قَيس) ، فلما كانوا فى الطريق وَجَبَت الظُّهر ، فنزل قيسٌ يُصلِّى بمن معه والفتاتان تنظران ؛ فلما صاحوا : « الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية، وسألت الراهبَ (شطا) : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمةٌ يدخلون بها صلاتَهم ، كأنما يخاطِبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ فى وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدىْ من هو أكبر

---

(١) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب للسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فإذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كميت مدمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها) .

من الوجود ؛ فإذ أعلنوا انصرافَهم عن الوقت ونزاع الوقت وشَهَوات الوقت ، فذلك هو دخولُهم فى الصلاة ؛ كأنهم يَمْحُون الدنيا من النفس ساعةً أو بعضَ ساعة ؛ ومَحْوُها من أنفسهم هو ارتفاعُهم بأنفسهم عليها ؛ انظرى ، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتهم سِحْراً فهم لايلتفتون فى صلاتهم إلى شىء ؛ وقد شملتهم السكينة ، ورَجَعوا غَير مَن كانوا ، وخشَعوا خشوع أعظمِ الفلاسفة فى تأمُّلِهم ؟[1] .

قالتْ مارية : ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفية ! لقد تَعِبَت الكتبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يستقرُّون ساعةً فى سكينةِ الله عليهم فما أفلحتْ ، وجاءت الكنيسة فَهوَّلَت على المُصلّين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان ، لتُوحِيَ إلى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديسِ المعنى الدّينىّ ، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوِّهم إلى جوِّها ؛ فكانت كساقى الخمر ؛ إن لم يُعطك الخمرَ عَجزَ عن إعطائك النَّشْوة . ومن ذا الذى يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار ؟

قالتْ أرمانوسة : نعم إن الكنيسةَ كالحديقة ؛ هى حديقةٌ فى مكانها ، وقلما تُوحى شيئا إلا فى موضعها ؛ فالكنيسةُ هى الجدرانُ الأربعة ، أما هؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع .

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنو بها وانغمسوا فيها — فستكون هذه الصلاةُ بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ .

قالت مارية : وهل تُفتَح عليهم الدنيا ، وهل لهم قُوّاد كثيرون كعَمْرو .. ؟

قال : كيف لاتُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموْج فى المدّ المرتفع ؛ ليس فى داخلها إلا أنُفسٌ مندفعةٌ إلى الخارج عنها ؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمماً ليس فى الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهربَ إلى الداخل . . . !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتَنا على دِين عَمرو . . . .

* * *

(١) انظر مقاله (حقيقة المسلم) فى الجزء الثانى .

وانفتل قيسٌ من الصلاة ، وأقبل يترحّل ، فلما حاذَى ماريةَ كان عندها كأنما سافر ورجع ؛ وكانت ما تزال فى أحلام قلبها ؛ وكانت من الحُلم فى عالَم أخذَ يتلاشى إلا من عَمرو وما يتصل بعمرو . وفى هذه الحياةِ أحوالٌ « ثلاثٌ » يغيب فيها الكونُ بحقائقه : فيغيبُ عن السكران ، والمخبول ، والنائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثّل فى إنسان محبوب .

وقالت مارية للراهب شطا : سَلْهُ : ما أَرَبُهم من هذه الحرب ، وهل فى سياستهم أن يكونَ القائدُ الذى يفتح بلداً حاكما على هذا البلد . . . ؟

قال قيس : حَسْبُكِ أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلا عاملاً فى تحقيق كلمةِ الله ، أما حظٌّ نفسهِ فهو فى غير هذه الدنيا .

وترجَمَ الراهبُ كلامَه هكذا : أما الفاتحُ فهو فى الأكثر الحاكم المقيم ، الحربُ فهى عندنا الفكرةُ وأما المُصْلِحَةُ تريد أن تَضربَ فى الأرض وتعمل ، وليس حظٌّ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ و بهذا تكون النفسُ أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برُعونتها وحماقاتها وشَهَواتها كالطفل بين يدىْ رجل ، فيهما قوةُ ضبطِه وتصريفِه . ولو كان فى عقيدتنا أن ثوابَ أعمالنا فى الدنيا ، لانعكس الأمر .

قالت مارية : فسَلْهُ : كيف يصنعُ (عمروٌ) بهذه القِلَّةِ التى معهُ والرومُ لايُحصَى عَدَدُهم ؛ فإذا أخفقَ (عمرو) فمَن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو أكبرُ قُوَّادِهم ، أو فيهم أكبرُ منه ؟

قال الراوى : ولكن فرَسَ قيس تمطّر وأسرع فى لِحَاقِ الخيل على المقدّمة كأنه يقول : لَسْنا فى هذا . . .

• • •

وفُتحتْ مصرُ صُلحًا بين عمرو والقِبط ، وولّى الرومُ مُصْعِدين إلى الإسكندرية ، وكانت ماريةُ فى ذلك تستقرئُ أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلال من شخصٍ بعيد ؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لايملكٌ إلا حُبَّهُ أن يأخذَها ؛ وجعلت تذوِى وشَحَبَ لونُها وبدأت تنظر

النظرةَ التائهة : وبان عليها أثر الرُّوح الظَّمْأى ؛ وحاطها اليأسُ بجوّه الذى يُحرق الدم ؛ وبَدَت مجروحةَ المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوّان : شعورُ أنها عاشقة ، وشعورُ أنها يائسة !

ورقَّتْ لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضًا تتعلق فتًى رومانيًّا ، فسَهِرَتا ليلةً تُديران الرأى فى رسالة تحملها ماريةُ من قبلها إلى عمرو كى تصلَ إليه ، فإذا وصلتْ بلَّغت بعينيها رسالةً نفسها . . .

واستقرّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن ماريةَ القبطية وخبرِها ونسلها ومايتعلَّقُ بها مما يطول الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة . فلما أصبحَتا وقَع إليها أن عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبر أنه لما أمر بفُسْطاطه أن يُقَوَّضَ أصابوا يمامةً قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه فقال : « قد تحَرَّمَتْ فى جوارنا ، أقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِرَاخُها » . فأقَرُّوه !

* * *

ولم يمض غيرُ طويل حتى قضت ماريةُ نحبها ، وحَفِظت عنها أرمانوسةُ هذا الشعر الذى أسمته : نشيد اليمامة :

على فُسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضُن بَيْضَها .
تركها الأميرُ تَصنعُ الحياة ، وذهب هو يَصنعُ الموت !
هى كأسعدِ امرأة ؛ ترَى وتلمسُ أحلامَها .
إن سعادةَ المرأة أولُها وآخرُها بعضُ حقائق صغيرة كهذا البيض .

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .
لو سُئلَتْ عن هذا البيض لقالتْ : هذا كَنْزِى .
هى كأهنأ امرأة ، ملَكَتْ ملْكها من الحياة ولم تفتقِر .
هل أُكلِّف الوجودَ شيئًا كثيراً إذا كلَّفْتُهُ رجُلاً واحداً أحبه !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .

الشمسُ والقمرُ والنجوم ، كلُّها أصغرُ فى عينها من هذا البيضِ .
هى كأرقّ امرأة ؛ عرفت الرّقّةَ مرتين : فى الحبّ ، والولادة .
هل أُكلف الوجود شيئًا كثيراً إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها .
تقول اليمامة : إن الوجودَ يحب أن يُرى بلونين فى عين الأنثى ؛
مرةً حبيبًا كبيراً فى رَجُلها ، ومرة حبيبًا صغيراً فى أولادها .
كلُّ شىء خاضعٌ لقانونه ؛ والأنثى لاتريد أن تخضع إلا لقانونها .

* * *

أيتُها اليمامة ، لم تعرفى الأميرَ وتركَ لكِ فسطاطَه !
هكذا الحظّ : عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية ، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحية أخرى .
احمدى اللهَ أيتُها اليمامة ، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان ،
عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة .

* * *

على فساط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها ،
يمامةٌ سعيدةٌ ، ستكون فى التاريخ كهُدْهُد سليمان ،
نُسبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو .
واهًا لكَ يا عَمرو ! ما ضَرَّ لو عرفْتَ (اليمامة الأخرى) . . . !

اجتلاء العيد

جاء يوم العيد ؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَهُ لايستمرُّ أكثرَ من يوم .

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحك ، تفرضُهُ الأديانُ على الناس ، ليكونَ لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ فى هذه الحياة التى انتقلت عن طبيعتها .

يومُ السلام ، والبِشْر ، والضَّحك ، والوفاء ، والإخاء ، وقول الإنسانِ للإنسان : وأنتم بخير .

يومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ فى هذا اليوم .

يومُ الزينة التى لايراد منها إلا إظهارُ أثَرِها على النفس ليكونَ الناسُ جميعًا فى يوم حب .

* * *

يومُ العيد ؛ يومُ تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلوَ الكلماتُ فيه . . .

يوم تعُمُّ فيه الناسَ ألفاظ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوة إلهية فوق منازَعات الحياة .

ذلك اليومُ الذى ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة ، وإلى أهلهِ نظرةً تُبصر الإعزاز ، وإلى داره نظرةً تُدرك الجمال ، وإلى الناسِ نظرةً ترى الصداقة .

ومن كل هذه النظرات تستوِى له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياة والعالَم ؛ فتبتهجُ نفسُه بالعالم والحياة .

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جمالُه فى الكل !

* * *

وخرجتُ أجتلى العيدَ فى مظهره الحقيقىّ على هؤلاء الأطفالِ السعداء .

على هذه الوجوهِ النضرة التى كبِرَتْ فيها ابتساماتُ الرَّضاع فصارت ضَحِكات .

وهذه العيونِ الحالمةِ الحالمةِ التى إذا بكت بكت بدموع لاثِقْلَ لها .

وهذه الأفواهِ الصغيرة التى تنطق بأصوات لاتزال فيها نبراتُ الحنان من تقليد لغةِ الأمّ .

وهذه الأجسامِ الغضّةِ القريبةِ العهد بالضّمات واللثّمات فلا يزال حولها جوُّ القلب .

* * *

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لايعرفون قياساً للزمن إلا بالسرور .

وكلٌّ منهم مَلِكٌ فى مملكة ؛ وظَرفُهم هو أمرُهم الملوكى .

هؤلاء المجتمعين فى ثيابهم الجديدة المصبّغة اجتماعَ قوسِ قُزَحَ فى ألوانه .

ثيابٌ عَمِلتْ فيها المصانعُ والقلوب ، فلا يتم جمالُها إلا بأن يراها الأبُ والأمُّ على أطفالهما .

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونها فيكونون هم أنفسُهم ثوباً جديداً على الدنيا .

* * *

هؤلاء السَّحَرةُ الصغارُ الذين يُخرِجون لأنفسهم معنى الكنزِ الثمين من قرشين . . . . .

ويَسْحَرون العيدَ فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلُهم جاء يدعوهم إلى اللَّعب . . .

وينتبهون فى هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غُروب الشمس .

ويُلْقُون أنفسَهم على العالَم المنظورِ ، فيبنون كلَّ شىء على أحد المعنيين الثابتين فى نفس الطفل : الحبِّ الخالص ، واللهو الخالص .

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكونُ هذا بعينه هو قُرْبَهُم من حقيقتها السعيدة .

* * *

هؤلاء الأطفالُ الذين هم السهولة قبل أن تتعقّد .

والذين يرَوْن العالَم فى أول ما ينمو الخيالُ ويتجاوزُ ويمتدّ .

يُفتّشون الأقدارَ من ظاهرها ؛ ولايَسْتَبْطِنُون كيلا يتألموا بلا طائل .

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسِهم للأشياء كيلا يُوجِدوا لها الهمّ .

* * *

قانعون يكتفون بالثَّمرة ، ولايحاولون اقتلاعَ الشجرة التى تحملُها .
ويعرفون كُنْه الحقيقة ، وهى أن العِبرَةَ بروح النعمة لابمقدارها . . .
فيجدون من الفرح فى تغيير ثوبٍ للجسم ، أكثر مما يجده القائدُ الفاتحُ فى تغيير ثوب للمملكة .

* * *

هؤلاء الحكماء الذين يُشْبِه كل منهم آدمَ أولَ مجيئه إلى الدنيا ،
حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنع الإنسان المتحضّر .
حِكْمتُهم العليا : أن الفكرَ السامىَ هو جعلُ السرورِ فكراً وإظهارُه فى العمل .
وشِعْرهم البديعُ : أن الجمالَ والحبَّ ليسا فى شىء لا فى تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح .

* * *

هؤلاء الفلاسفةُ الذين تقوم فلسفتُهم على قاعدة عملية ، وهى أن الأشياء الكثيرةَ لاتكثُرُ فى النفس المطمئنَّة .
وبذلك تعيشُ النفسُ هادئةً مستريحة كأنْ ليس فى الدنيا إلا أشياؤها المُيَسَّرة .
أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتِها فهى التى تُبْتَلَى بهموم الكثرة الخيالية ،
ومثَلُها فى الهمّ مَثَلُ طُفَيْلِىّ مغفَّل يَحزنُ لأنه لا يأكل فى بطنين . . .

* * *

وإذا لم تكثُرِ الأشياء الكثيرةُ فى النفس ، كَثُرت السعادةُ ولو من قِلَّة .
فالطفلُ يقلِّب عينيه فى نساء كثيرات ، ولكن أمَّه هى أجملُهن وإن كانت شَوْهاء .
فأمُّه وحدَها هى هى أمُّ قلبِه ، ثم لامعنى للكثرة فى هذا القلب .
هذا هو السرُّ ؛ خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير !

* * *

وتأملتُ الأطفال ، وأثَرُ العيدِ على نفوسهم ، التى وَسِعَتْ من البشاشة فوقَ مِلْئها ؛

فإذا لسانُ حالهم يقولُ للكبار : أيتها البهائم ، اخلعى أرسانَكِ ولو يوما . . .

أيها الناسُ ، انطلقوا فى الدنيا انطلاقَ الأطفال يوجِدون حقيقتَهم البريئةَ الضاحكة ، لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاق الوحش يُوجِد حقيقته المفترسة .

أحرارٌ حريَّةَ نشاطِ الكون ينبعث كالفَوْضَى ، ولكن فى أدقِّ النواميس .

يُثيرون السخطَ بالضَّجيج والحركة ، فيكونون مع الناس على خِلاَف ، لأنهم على وِفَاق مع الطبيعة .

وتَحتدمُ بينهم المعارك ، ولكن لاتتحطَّم فيها إلا اللُّعَب . . .

أما الكِبارُ فيصنعون المِدْفَعَ الضخمَ من الحديد،للجسمِ الليِّنِ من العَظْم .

أيتها البهائمُ ، اخلعى أرسانَكِ ولو يومًا . . .

* * *

لايفرح أطفالُ الدار كفرحهم بطفل يُولد ؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى عقولهم الصغيرة .

ويملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيقى الكامن فى سر الْخَلْقِ ، لقُرْبهم من هذا السر .

وكذلك تحمل السنَةُ ثم تلد للأطفال يومَ العيد ؛فيستقبلونه كأنه محتاج إلى لهوِهم الطبيعى . ويملؤهم الشعوُر بالفرح الحقى الكامن فى سر العالم لقربهم من هذا السر .

* * *

فيا أسَفَا علينا نحن الكِبار ! ما أبْعَدَنا عن سرِّ الْخَلْقِ بآثام العمر !

وما أبعدنا عن سرِّ العالَم ، بهذه الشهوات الكافرة التى لاتؤمن إلا بالمادة !

يا أسَفَا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !

تكاد آثامُنا واللهِ تجعلُ لنا فى كل فَرْحَة خَجْلَة . . .

* * *

أيتها الرياضُ المنوّرَةُ بأزهارها ،

أيتها الطيورُ المغرّدةُ بألحانها ،
أيتها الأشجارُ المصفّـقة بأغصانها ،
أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم ،
أنتِ شتّى ؛ ولكنكِ جميعًا فى هؤلاء الأطفال يوم العيد !

* * *

المعنى السياسى فى العيد

ما أشدّ حاجتَنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادَنا فهمًا جديداً ، نتلقاها به ونأخذُها من ناحيته ، فتجىء أيامًا سعيدة عاملةً ، تنبّه فينا أوصافَها القوية ، وتجدّد نفوسَنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالِحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى ، أكبرُ عملها تجديدُ الثياب ، وتحديدُ الفراغ ، وزيادةُ ابتسامةٍ على النفاق . . .

فالعيدُ إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليومُ نفسُه ، وكما يفهمُ الناسُ هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ؛ وكان العيدُ فى الإسلام هو عيدَ الفكرة العابدة ، فأصبح عيدَ الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادةُ الفكرة جمْعَها الأمةَ فى إرادةٍ واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عَبَثُ الفكرة جمعَها الأمةَ على تقليدٍ بغير حقيقة ؛ له مظهرُ المنفعة وليس له معناها .

كان العيدُ إثباتَ الأمة وجودَها الروحانى فى أجمل معانيه ، فأصبح إثباتَ الأمةِ وجودَها الحيوانىَّ فى أكثر معانيه ؛ وكان يومَ استرواح القوة من جِدّها ، فعاد يومَ استراحةِ الضعفِ من ذُله ؛ وكان يومَ المبدأ ، فرجع يومَ المادة !

* * *

ليس العيدُ إلا إشعارَ هذه الأمة بأن فيها قوةَ تغيير الأيام ، لا إشعارَها بأن الأيام تتغير ؛ وليس العيدُ للأمة إلا يومًا تَعرض فيه جمالَ نظامِها الاجتماعى ، فيكون يومَ الشعور الواحد فى نفوس الجميع ، والكلمةِ الواحدة فى ألسنة الجميع ؛ يومَ الشعور بالقدرة على تغيير الأيام ، لا القدرةِ على تغيير الثياب . . . كأنما العيدُ هو استراحةُ الأسلحة يوما فى شعبها الحربى .

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف تتسع روحُ الجِوار وتمتدّ ، حتى يرجعَ البلدُ العظيمُ وكأنه لأهله دارٌ واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العَملى ، وتظهرُ فضيلة الإخلاص مُستَعْلِنةً للجميع ، ويُهدِى الناسُ بعضُهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة ؛ وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روح الأُسرَةِ الواحدة فى الأمة كلها .

وليس العيدُ إلا إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة ؛ وإلاذاتيةَ للأمم الضعيفة ؛ ولانشاطَ للأمم المستعبَدة . فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة : أخرجى يومَ أفراحك ، أخرجى يوماً كأيام النصر !

وليس العيدُ إلا إبرازَ الكُتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشَّعبى ، مفصولةً من الأجانب ، لابسةً من عمل أيديها ، معلنةً بعيدها استقلالَين فى وجودها وصناعتها ، ظاهرةً بقوتين فى إيمانها وطبيعتها ، مبتهجة بفرحَين فى دُورها وأسواقها ؛ فكأن العيدَ يومٌ يفرح الشعب كله بخصائصه .

وليس العيد إلاَّ التقاء الكبار والصغار فى معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة فى طريقها ، وتركَ الصغار يلقون درسَهم الطبيعىَّ فى حماسة الفرح والبهجة ، ويعلّمون كبارَهم كيف تُوضَع المعانى فى بعض الألفاظ التى فرَغَتْ عندهم من معانيها ، ويُبَصِّرُونهم كيف ينبغى أن تعملَ الصفاتُ الإنسانيةُ فى الجموع عملَ الحليف لحليفه ، لا عملَ المُنابِذ لمُنابِذه ؛ فالعيدُ يومُ تسلُّط العنصر الحىِّ على نفسية الشعب .

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف توجِّه بقوتها حركةَ الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت ؛ فقد وضع لها الدينُ هذه القاعدةَ لتُخرِجَ عليها الأمثلة ، فتجعلَ للوطن عيداً ماليًّا اقتصاديًّا تبتسم فيه الدراهم بعضُها إلى بعض ، وتخترع للصناعة عيدَها ، وتوجد للعلم عيدَه ، وتبتدع للفن مَجالىَ زينته ؛ وبالجملة تُنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القُوَّاد العسكريِّين فى قيادة الشعب ، يقودُه كلّ يوم منها إلى معنى من معانى النصر .

* * *

هذه المعانى السياسيةُ القوية هى التى من أجلها فُرض العيدُ ميراثاً دهريًّا فى الإسلام ، ليستخرجَ أهلُ كل زمنٍ من معانى زمنهم فيُضيفوا إلى المثال أمثلةً مما يُبدعه نشاطُ الأمة ، ويحققه خيالُها ، وتقتضيه مصالحُها .

وما أحسب الجمعةَ قد فُرِضت على المسلمين عيداً أسبوعيًّا يُشترط فيه الخطيبُ والمنبر والمسجدُ الجامع — إلا تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له ؛ ففى كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجىء فيُشْعِرُ الناسَ معنى القائد الحربى للشعب كله.

ألا ليت المنابر الإسلاميةَ لايخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع ، لارجالٌ فى أيديهم سيوف من خشب [١] . . . .

---

(١) انظر (قصة الأيدى المتوضئة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

الربيع

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُصبح كالمعشوق الجميل ، لايقدّم لعاشقه إلا أسبابَ حبه !

وكيف تكونُ كالحبيب ، يزيدُ فى الجسم حاسّةَ لمسِ المعانى الجميلة !

وكنتُ كالقلب المهجور الحزين ، وجد السماء والأرض ، ولم يجد فيهما سماءه وأرضَه .

ألا كم آلاف السنينَ وآلافها قد مضت منذُ أُخرج آدمُ من الجنة !

ومع ذلك فالتاريخُ يعيد نفسَه فى القلب ؛ لايَحزنُ هذا القلبُ إلا شعر كأنه طُرِدَ من الجنة لساعته .

* * *

يقف الشاعرُ بإزاء جمال الطبيعة ، فلا يملك إلا أن يتدفّقَ ويهتزّ ويطرَب .

لأن السرّ الذى انبثَقَ هنا فى الأرض ، يريد أن ينبثقَ هناك فى النفس .

والشاعرُ نبيٌّ هذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها إصلاحُ الناسِ بالجمال والخير .

وكل حُسن يلتمس النظرةَ الحيةَ التى تراه جميلاً لتُعْطيَه معناه .

وبهذا تقف الطبيعة مُحْتَفِلَةً أمام الشاعرِ ، كوقوف المرأة الحسناء أمامَ المصوِّر .

* * *

لاحت لى الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقةٌ مُغَشّاةٌ باستعارات ومَجازات .

والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء . فيه تعبيرٌ من لابستِه .

وكلُّ زهرة كابتسامة ، تحتها أسرارٌ من معانى القلب المعقّدة .

أهى لغةُ الضوء الملوَّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة ؟

أم لغة الضوء الملوَّن من الخد ؛ والشفة ؛ والصدر ؛ والنحر ؛ والديباج ؛ والحلى ؟

* * *

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة فى هذه الأزاهر الجميلة ؟

أتُشير لهم بالزهر إلى أن عُمرَ اللذة قصير ، كأنها تقول: على مقدار هذا ؟

أتُعْلمهم أن الفرقَ بين جميل وجميل ، كالفرق بين اللونِ واللون ، وبين الرائحة والرائحة ؟

أتُناجيهم بأن أيامَ الحب صُوَرُ أيام لاحقائق أيام ؟

أم تقولُ الطبيعة : إن كلَّ هذا لأنكِ أيتها الحشراتُ لاتنخدعين إلا بكل هذا[1] . . . ؟

* * *

فى الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض ، وتظهر ألوانُ النفس على النفس .

ويصنع الماء صُنْعَه فى الطبيعة فتُخْرِجُ تَهاويلَ النبات ، ويصنع الدمُ صنعَه فيُخرج تهاويلَ الأحلام ،

ويكون الهواء كأنه من شِفاه متحابَّة يتنفَّس بعضُها على بعض ،

ويعود كلُّ شيء يلتمع لأن الحياةَ كلَّها ينْبِضُ فيها عِرْقُ النور ، ويرجع كلُّ حيّ يُغَنّى لأن الحبَّ يُريد أن يرفع صوتَه .

* * *

وفى الربيع لايضيء النورُ فى الأعين وحدها ، ولكن فى القلوب أيضًا .

ولا ينفذُ الهواء إلى الصدور فقط ، ولكن إلى عواطفها كذلك .

ويكون للشمس حرارتان إحداهما فى الدم .

ويطغَى فَيَضَانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تَجْرِبَةُ مَنْظَر من مناظر الجنة فى الأرض .

والحيوانُ الأعجمُ نفسُه تكونُ له لفَتَاتٌ عقليةٌ فيها إدراك فلسفةِ السرور والمرَح .

* * *

---

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كى تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة .

وكانت الشمسُ في الشتاء كأنها صورةٌ معلّقةٌ في السحاب .
وَكانَ النهارُ كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس .
وكان الهواء مع المطر كأنه مطرٌ غيرُ سائل .
وكانت الحياة تضع في أشياء كثيرة معنى عُبوس الجوّ .
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفالِ رجعتْ أمُّهم من السفَر .

* * *

وينظر الشبابُ فتظهرُ له الأرض شابّة .
ويشعر أنه موجودٌ في معاني الذات أكثر مما هو موجودٌ في معاني العالَم .
وتمتلىء له الدنيا بالأزهار ، ومعاني الأزهار ، ووحْي الأزهار .
وتُخرِج له أشعةُ الشمس ربيعًا وأشعةُ قلبِه ربيعًا آخر .
ولاتنسى الحياة عجائزَها ، فربيعُهم ضوء الشمس . . .

* * *

ما أعجَبَ سرّ الحياة ! كلُّ شجرة في الربيع جمالٌ هندسيٌّ مستقل .
ومهما قطعتَ منها وغيرتَ من شكلها أبرزتْها الحياةُ في جمال هندسيّ جديد كأنك أصلحتَها .
ولو لم يبق منها إلا جِذْرٌ حيّ أسرعت الحياةُ فجعلت له شكلاً من غصون وأوراق .
الحياة الحياة . إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائمًا هداياها .
وإذا آمنتَ لم تَعُدْ بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن .

* * *

[فانظر إلى آثار رحمةِ الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها] .
وانظر كيف يخلُق في الطبيعة هذه المعانيَ التي تبهج كلّ حيّ ، بالطريقة التي يفهمُها كلُّ حي .
وانظر كيف يجعلُ في الأرض معنى السرور ، وفي الجو معنى السعادة .
وانظر إلى الحشَرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملؤُها وتطمئن ؟
انظر انظر ! أليس كل ذلك ردًّا على اليأس بكلمة : لا . . . ؟

عرشُ الورد *

كانت جَلوَةُ العَروس كأنها تصنيفٌ من حُلم، توافَتْ عليه اخيلة السعادة فأبدعت إبداعَها فيه ، حتى إذا اتَّسقَ وتمّ ، نقلته السعادةُ إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدَةِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العددُ القليل ، لتُحَقّق للحيّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيه فيما يُنسَى مالا يُنسى .

خرج الحُلُم السعيدُ من تحت النوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثّلَ قصيدةً بارعةً جعلت كل ما في المكان يحيا حياةَ الشعر ؛ فالأنوارُ نساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتمّم من كل شيء معناه ، والمكانُ وما فيه ، وزْن في وزن ، ونَغَم في نغم ، وسحرٌ في سحر .

* * *

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليل ، فيها دَارةُ القمر ، وفيها نَشْرَةٌ من النجوم الزُّهْر ، فنزلتْ فحلَّت في الدار ، يتوضَّحْن ويأتَلِقن من الجمال والشعاع ، وفي حسن كل منهن مادة فجر طالع ، فكنّ نساء الجلوة وعَروسَها .

ورأيتُ كأنما سُحر الربيع ، فاجتمع في عرش أخضر ، قد رُصّع بالورد الأحمر ، وأقيم في صدر البَهْوِ ليكون منَصَّةً للعروس ، وقد نُسقَت الأزهارُ في سمائه وحواشيه على نظْمين : منهما مُفَصَّلٌ ترى فيه بين الزَّهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونَهما ؛ ومنهما مُكَدَّسٌ بعضُه فوق بعض ، من لون متشابه أو متقارب ، فبدا كأنه عُشٌ طائر مَلَكيّ من طيور الجنة أبدع في نَسْجه وترصيعه بأشجار سقى الكَوْثَرُ أغصانَها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ، رَبْوَتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانهُ ، يحملُهما خَمْلٌ من ناعم النّسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تَتَهافَتُ من رقتها ونُعومتها .

---

* يصف المؤلف في هذه القطعة زفاف ابنته « وهيبة » إلى ابن عمها وهي أول من تزوج من ولده ، وانظر « عمله في الرسالة » من كتابنا (حياة الرافعي) .

وعُقِدَ فوق هذا العرش تاجٌ كبيرٌ من الورد النادر ، كأنما نُزِع عن مَفْرِق مَلِك الزمن الربيعى ؛ وتنظر إليه يسطع فى النور بجماله الساحر ، سُطوعا يخيّل إليك أن أشعةً من الشمس التى رَبَّتْ هذا الوردَ لاتزال عالِقةً به ، وتراه يزدهى جَلالاً ، كأنما أدرك أنه فى موضعه رمزُ مملكة إنسانية جديدة ، تألفت من عَروسين كريمين . ولاح لى مراراً أن التاجَ يضحكُ ويستحى ويتدلّل ، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسانِ يمثل وجهَ الوَرد .

ونُصَّ على العرش كرسيان يتوهج لونُ الذهب فوقهما ، ويكسوهما طِرازٌ أخضرُ تلمع نَضَارتُه بِشراً ، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرِحة لِمسةٌ من فرَحها الحىّ .

وتدلَّت على العرش قلائدُ المصابيح ، كأنها لؤلؤٌ تخلَّق فى السماء لافى البحر ، فجاء من النور لامن الدُّر ؛ وجاء نوراً من خاصَّته أنه متى استضاء فى جوّ العَروس أضاء الجوَّ والقلوبَ جميعاً .

وأتى العروسان إلى عرش الورد ، فجلسا جِلْسَةَ كوكبين حدودُهما النورُ والصفاء ؛ وأقبلت العَذَارى يتخطَّرْنَ فى الحرير الأبيض كأنه من نُور الصبح ، ثم وقفن حافَّات حول العرش ، حاملات فى أيديهن طاقات من الزَّنبق ، تراها عَطِرةً بيضاء ناضرة حَيِيَّة ، كأنها عَذارى مع عَذارى ، وكأنما يحملن فى أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانىَ قلوبهنَّ الطاهرة ؛ هذه القلوبِ التى كانت مع المصابيح مصابيحَ أخرى فيها نورُها الضاحك .

واقتعدَتْ دَرَجَ العرش تحت رَبْوَتَى الزَّهر ودون أقدام العروسين — طفلةٌ صغيرةٌ كالزهرة البيضاء تحملُ طفولتَها ، فكانت من العرش كلّه كالماسة المدلاَّة من واسطة العِقْد ، وجعلت بوجهها للزهر كلّه تماماً وجمالاً ، حتى ليظهر من دونها كأنه غَضبانُ مُنْزَوٍ لايريد أن يُرَى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له روحَ طفل بَغتته مَسرَّةٌ جديدة .

وكانت جالسةً جِلْسَةَ شِعْرٍ تمثل الحياةَ الهنيئة المبتكَرة لساعتها ليس لها ماضٍ فى دنيانا .

ولو أن مُبدِعًا افتَنَّ في صُنع تمثال للنية الطاهرة ، وجيء به في مكانها ، وأخذَتْ هي في مكانه لتشابها وتشاكَلَ الأمر .

وكان وُجودُها على العرش دعوةً للملائكة أن تَحضُرَ الزفافَ وتباركَه .

وكانت بصِغَرِها الظريف الجميلِ تعطى لكل شيء تماما ، فيُرَى أكبرَ مما هو ، وأكثرَ مما هو في حقيقته . كانت النقطةَ التي استعلنتْ في مركز الدائرة ، ظهورُها على صِغَرِها هو ظهورُ الإحكام والوزنِ والانسجام في في المحيط كلّه .

* * *

لايكون السرورُ دائما إلا جديداً على النفس ، ولا سرورَ للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن في كل دينار قوةٌ جديدةٌ غيرُ التي في مثله لما سُرّ بالمال أحد ، ولا كان له الخطَر الذي هُوَ له ؛ ولو لم يكن لكل طعام جوعٌ يُورِدُه جديداً على المعدة لما هَنَأ ولا مَرَأ ؛ ولو لم يكن الليلُ بعد نهار ، والنهارُ بعد ليل ، والفصول كلها نقيضًا على نقيضه . وشيئًا مختلفًا على شيء مختلف — لما كان في السماء والأرض جمال ، ولامنظَرُ جمال ، ولا إحساسٌ بهما ؛ والطبيعةُ التي لاتُفلح في جعلك معها طفلا تكون جديداً على نفسك — لن تُفلح في جعلك مسروراً بها لتكون هي جديدةً عليك .

وعرشُ الورد كان جديداً عند نفسي على نفسي ، وفي عاطفتي على عاطفتي ، ومن أيامي على أيامي ؛ نزل صباحُ يومِه في قلبي بروح الشمس ، وجاء مساء ليلته لقلبي برُوح القمر ؛ وكنتُ عنده كالسماء أتلألأ بأفكاري كما تتلألأ بنجومها ؛ وقد جعلتني أمتدُّ بسروري في هذه الطبيعة كلّها ، إذ قَدَرْتُ على أن أعيشَ يومًا في نفسي ؛ ورأيتُ وأنا في نفسي أن الفرحَ هو سر الطبيعة كلها ، وأن كلّ ما خلق الله جمالٌ في جمال ، فإنه تعالى نورُ السموات والأرض ، وما يجيء الظلام مع نوره ، ولايجيء الشرُّ مع أفراح الطبيعة إلامن محاولة الفكر الإنساني خَلْقَ أوهامِه في الحياة ، وإخراجِه النفسَ من طبائعها ، حتى أصبح الإنسانُ كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعَها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يَزيغَ بالنفس التي فطرها الله .

ياعجبا ! ينفرُ الإنسانُ من كلمات الاستعباد ، والضَّعَة ، والذّلة ، والبؤس ،

والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردّها ، وهو مع ذلك لايبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها .

* * *

إن يومًا كيوم عرش الورد لايكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحًا ؛ لأنه من الأيام التى تجعل الوقتَ يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكونُ بالعواطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لابقديمها .

كان الشبابُ فى موكب نصره ، وكانت الحياةُ فى ساعةِ صُلْحٍ مع القلوب ، حتى اللغةُ نفسها لم تكن تُلْقِى كلماتها إلا ممتلئةً بالطرب والضحك والسعادة ، آتيةً من هذه المعانى دون غيرها ، مُصَوَّرَةً على الوجوه إحساسَها ونَوازعَها ، وكلٌّ ذلك سِحْرُ عرش الورد ، تلك الحديقةِ الساحرةِ المسحورةِ ، التى كانت النسَماتُ تأتى من الجو ترفرفُ حولها متحيرةً كأنما تتساءل : أهذه حديقةٌ خُلِقت بطيور إنسانية ؛ أم هى شجرة ورد من الجنة بمن يتفيَّأن ظِلَّها ويَتنسَّمْنَ شذَاها من الحُور ؛ أم ذاك منبعٌورديٌّ عطريّ نُورانيّ لحياة هذه المليكة الجالسة على العرش ؟

يانَسَماتِ الليلِ الصافيةَ صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياةُ المقبلة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المُبْهِجِ ، والعطرِ المنعش ، والضوء المُحْيِي ؛ فإن هذه العروسَ المعتليةَ عرشَ الورد :

هى ابنتى . . .

أيها البحر ! *

إذا احتدم الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ[١] للزمن فصلا جديداً يسمى « الربيعَ المائى » .

وتنتقلُ إلى أيامك أرواحُ الحدائق ، فتنبتُ فى الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيَّةِ كأنها الثمرُ الحلْوُ الناضجُ على شجره .

ويُوحى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر ، إلا أنه أرقُّ وألطف .

ويرى الشعراء فى ساحلك مثلَ ما يرَوْن فى أرض الربيع ، أنوثةً ظاهرة ، غير أنها تلدُ المعانىَ لا النبات .

ويُحِسُّ العشاقُ عندك ما يُحسُّونه فى الربيع : أن الهواء يتأوَّه . . .

* * *

فى الربيع ، يتحرك فى الدم البشرىّ سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائى » يتحرك فى الدم سرُّ هذه السُّحُب .

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب .

وبالربيعَيْن الأخضرِ والأزرقِ ينفتح بابان للعالم السحرىّ العجيب : عالمِ الجمال الأرضىّ الذى تدخله الروحُ الإنسانية كما يدخلُ القلبُ المحب فى شعاع ابتسامةٍ ومعناها .

* * *

فى « الربيع المائى » ، يجلسُ المرء ، وكأنه جالسٌ فى سحابة لا فى الأرض .

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثيابًا من الظلّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواء قد تنزَّه عن أن يكون هواء التراب .

---

* كتبها فى مصيفه بالإسكندرية .

(١) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر .

وتخيفُ على نفسه الأشياء ، كأن بعضَ المعانى الأرضية انتُزِعتْ من المادة.
وهنا يدركُ الحقيقة : أن السرورَ إن هو إلا تنبُّهُ معانى الطبيعةَ فى القلب .

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك فى « دنيا الرزق » .
تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتَغرُبُ على الأعمال التى يعملُ الجسمُ فيها .
تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنَع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة .
تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنّ الناسَ — وأسفاه — يكونون فى ساعاتهم المظلمة . . .
الشمسُ هنا جديدة ، تُثبتُ أن الجديدَ فى الطبيعة هو الجديدُ فى كيفية شعور النفس به .

* * *

والقمرُ زاه رفّافٌ من الحسْن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر .
أو كأنه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طلَع فى أوائل الليل ؛ فحصرَته السماءَ فى مكانه ليستمرّ الليل .
فجرٌ لا يُوقظ العيونَ من أحلامها ؛ ولكنه يُوقظُ الأرواحَ لأحلامها .
ويُلقى من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستَبْهِمةً كأنها أحلامٌ معلّقة .
للقمر هنا طريقةٌ فى إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبّله أولَ مرة .

* * *

و « للربيع المائى » طيورُه المغرّدة وفَراشُه المتنقّل :
أما الطيورُ فنساء يتَضاحكْنَ ، وأما الفَراشُ فأطفالٌ يتواثبون .
نساء إذا انغمَسْنَ فى البحر ، خُيّلَ إلىّ أن الأمواجَ تتَشاحنُ وتتخاصَمُ على بعضهن . . .

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسَةَ حوّاء قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلهى ! قد انتقل معنى الغَرَق إلى الشاطئ . . .
إن الغريقَ مَن غَرِقَ فى مَوْجة الرملِ هذه . . .

* * *

والأطفالُ يلعبون ويصرُخون ويضِجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا .
وخُيِّل إليهم أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم ياأسماكَ التراب . . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فَوَكَزَ البحر برِجْله !
فضحك البحر وقال : انظروا يا بنى آدم ! !
أعَلَى الله أن يَعْبَأَ بالمغرور منكم إذا كَفَر به ؟ أعَلَىَّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقولَ إنه ركلَنِى برجله . . . ؟

* * *

ايها البحر ، قد ملآتْك قوةُ الله لتُثبِتَ فراغَ الأرضِ لأهل الأرض .
ليس فيك ممالكُ ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسان المغرور .
وتجيش بالناس وبالسفُنِ العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشًّا ترمى به .
والاختراعُ الإنسانىُّ مهما عَظُم لا يُغنى الإنسانَ فيك عن إيمانه .
وأنت تملأ ثلاثةَ أرباع الأرض بالعظمَةَ والهوْل،ردًّا على عَظَمة الإنسان وهوله فى الربع الباقى ؛ ما أعظمَ الإنسانَ وأصغره !

* * *

ينزل فى الناس مالك فيتساوَوْن حتى لايختلفَ ظاهرٌ عن ظاهر ،
ويركبون ظهرك فى السفُن فيحِنُّ بعضُهم إلى بعض حتى لايختلف باطنٌ عن باطن .
تُشعرهم جميعًا أنهم خرجوا من الكُرَة الأرضيةِ ومن أحكامِها الباطلة .
وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجومَ نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها فى الأرض .
يا سحرَ الخوف ، أنت أنت فى اللُّجَّة كما أنت أنت فى جهنم .

* * *

وإذا ركبك الملحدُ أيها البحر ، فرجفتَ من تحته ، وهدرتَ عليه وثُرتَ به ، وأريتَهُ رأى العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقفلان عليه — تركتَه يتطأطأ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معًا ، وتُدحرجُهُ وتدحرجُها .

وأطرتَ كلَّ ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل .

وكشفت له عن الحقيقة : أنَّ نسيانَ الله ليس عملَ العقل ، ولكنه عملُ الغفلة والأمنِ وطولِ السلامة .

* * *

ألا ما أشبهَ الإنسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر!

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضتْ ، أو مادتْ ، فليس ذلك منها وحدَها ، بل مما حولها .

ولن تستطيعَ هذه السفينةُ أن تملكَ من قانون ما حولها شيئًا ، ولكن قانونَها هى الثباتُ ، والتوازنُ ، والاهتداء إلى قصدها ، ونجاتُها فى قانونها .

فلا يَعْتِبَنَّ الإنسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهدْ أن يحكم نفسَه :

فى الربيع الأزرق[1]
خواطر مرسلة *

ما أجمل الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْن البحرِ والسماء ؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُ نفسَه مرسومًا فى صورة إلٰهية .

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَىْ طفل يتخيل أن البحرَ قد مُلِئ بالأمس، وأن السماء كانت إناء له ، فانكفأ الإناء فاندفَق البحر ، وتَسرَّحْتُ مع هذا الخيال الطفلىّ الصغير فكأنما نالنى رَشاشٌ من الإناء . . . .

إننا لن ندركَ رَوعةَ الجمال فى الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها ، ومرَح الطفولةِ ، ولَعبِها ، وهَذَيانِها .

* * *

تبدو لك السماء على البحر أعظمَ مما هى ، كما لوكنتَ تنظر إليها من سماء أخرى لامن الأرض .

* * *

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ، شعرتُ أولَ وَهْلَة من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لوأن الجبلَ أوالصحراء أو البحرَ قد سافرتْ هى وجاءت إلىّ .

* * *

فى جمال النفس يكون كلُ شيء جميلا ، إذ تُلْقى النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها فى سَعَة النفس لافى مساحتها هى ، وتَعرفُ لنور النهار عُذوبةً كعذوبة الماءِ على الظمأ ، ويظهر الليلُ كأنه معرضُ جواهرَ أقيم للحور العين فى السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماتـه كأنه جنةٌ سابحةٌ فى الهواء .

---

* كتبها فى مصيفه بالإسكندرية .

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة

فى جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة ؛ وَيْ كأن الله أمرَ العالَم ألا يَعبَسَ للقلب المبتسم .

* * *

أيامُ المصيف هى الأيامُ التى ينطلق فيها الإنسانُ الطبيعىُّ المحبوسُ فى الإنسان ؛ فيرتدُّ إلى دهرِه الأول ، دهرِ الغابات والبحار والجبال .

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى .

* * *

ليست اللذةُ فى الراحة ولا الفراغ ، ولكنها فى التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ .

* * *

لاتتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفسُ من شعور إلى شعور ؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبرحْ .

* * *

الحياةُ فى المصيف تُثبت للإنسان أنها إنما تكونُ حيث لايُحفَلُ بها كثيراً .

* * *

يشعر المرء فى المُدُن أنه بين آثار الإنسانِ وأعماله ، فهو فى رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما فى الطبيعة فيُحِسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية ، فهو هنا فى رُوح اللذة والسرور والجلال .

* * *

إذا كنتَ فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفَرِّغْه للنَّبْت والشجر ، والحجَر والمَدَر ، والطير والحيوان ، والزهرِ والعُشْب ، والماء والسماء ، ونورِ النهار ، وظلام الليل ، حينئذ يَفتحُ العالَم بابَه ويقول : ادخل . . .

* * *

لُطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عَظَمة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ فى غصن ، فخيِّل إلىَّ أن لها عَظَمةَ البحر لو صَغُرفعُلِّق على ورقة .

* * *

فى لحظة من لحظات الجسد الروحانية حين يفورُ شِعرُ الجمالِ فى الدم ، أطـَلـْتُ النظرَ إلى وردة فى غصنها زاهية عـَطِـرة ، متأنقة ، متأنـّثة ؛ فكدت أقول لها : أنت أيتها المرأة ، أنت يافلانة . . . .

* * *

أليس عجيبًا أن كلَّ إنسان يرى فى الأرض بعضَ الأمكنة كأنها أمكنةٌ للروح خاصة ؛ فهل يدلُّ هذا على شىء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوَّاء، لايزال يعملُ فى النفس الإنسانية ؟

* * *

الحياةُ فى المدينة كشُرب الماء فى كُوب من الخـَزَف ؛ والحياةُ فى الطبيعة كشرب الماء فى كُوب من البـَلـُّور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماء وهذا يحتويه ويـُبدى جمالـَه للعين .

* * *

وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة : إن دقـَّةَ الفهم للحياة تـُفسدها على صاحبها كدقةِ الفهم للحب ، وإن العقلَ الصغيرَ فى فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ الكاملُ فى التذاذِه بهما . وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة !

* * *

فى هذا الأيام الطبيعيةِ التى يجعلها المصيفُ أيامَ سرور ونسيان ، يشعرُ كل إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هـَزْل ودُعابة . . . .

* * *

من لم يـُرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياء الطبيعة إلا فى أسمائها وشِيـَاتـِها ، دون حقائقها ومعانيها ، كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلـَّهن سواء ، فإذا عشق رأى فيهن نساء غيرَ من عرَف ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذى فى قلبه .

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجـُه الحياة ،أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تـَلـَذُّه الحياة ، وهذا هو الذى يغيـّر الطبيعةَ ويجعلُ الجوَّ نفسـَه هناك جوَّ مائدة ظـُرفاء وظريفات . . . .

* * *

تعمل أيام المصيفِ بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخالُ بعضِ الشّعر فى حقائق الحياة .

* * *

هذه السماء فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيبَ أن أكثرَ الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلتَ العالَم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع ، وحقائقَ الهموم تصغُرُ وتَضيق ، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقتْ فأنت الضيِّقُ لا هى .

* * *

فى الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملى ، وفى العاشرة أعمل كَيْتَ ، وفى الحاديةَ عشرةَ أعملُ كَيتَ وكَيت ؛ وهنا فى المصيف تفقدُ التاسعةُ وأخواتُها معانيها الزمنيةَ التى كانت تضعها الأيامُ فيها ، وتستبدلُ منها المعانىَ التى تضعها فيها النفسُ الحرة .

هذه هى الطريقة التى تُصنَع بها السعادةُ أحياناً ، وهى طريقةٌ لا يقدر عليها أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال .

* * *

إذا تلاقَى الناسُ فى مكان على حالة متشابهة من السرور وتَوَهُّمه والفكرةِ فيه ، وكان هذا المكانُ مُعَدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهِها — فتلك هى الروايةُ وممثلوها ومَسْرَحُها[1] ، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنيّة ومدنية الإنسان .

* * *

ما أصدَق ما قالوه : إن المرئىَّ فى الرائى . مرضتُ مدةً فى المصيف ، فانقلبت الطبيعةُ العَروسُ التى كانت تتزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كلَّ يوم إلى الطبيب . . .

---

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح . وأن صوابها المزرح ولكن الصاحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم .

حديث قِطَّين

جاء فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤) فى موضوع الإنشاء ما يأتى :

« تقابَلَ قطَّان : أحدُهما سَمينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة ، والآخرُ نحيفٌ يدل منظرهُ على سُوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدَّث كل منهما صاحبَه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذُ الصغارُ فيما يضَعون على لسان القطَّين ، ولم يعرفوا كيف يوجّهون الكلامَ بينهما ، وإلى أىّ غاية ينصرفُ القولُ فى مُحاورتهما ؛ وضاقوا جميعًا وهم أطفال — أن تكونَ فى رءوسهم عقولُ السَّنانير ؛ وأعياهم أن تنزلَ غرائزُهم الطيبةُ فى هذه المنزلة من البهيميَّة ومن عيشها خاصَّة ، فيكتَنهوا تدبيرَ هذه القِطَاط لحياتها ، وينفُذوا إلى طبائعها ، ويندَمجوا فى جُلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزّقوا بمَخَالبها .

قال بعضُهم : وسَخِطنا على أساتذتنا أشدَّ السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلّمونا من قبل — أن نكونَ حَميراً ، وخيلا ، وبغالا ، وثيرانًا ، وقِرَدَةً ، وخنازير ، وفئرانًا ، وقِطَطَةً ، وما هبَّ ودبَّ ، وما طار ودَرَجَ ، وما مَشَى وانْسَاح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقّنونا مع العربية والإنجليزية لغاتِ النَّهيق ، والصَّهيل ، والشَّحيج ، والخُوار ، وضَحِكَ القرد ، وقُبَاعَ الخنزير ، وكيف نَصِىء ونَموء ، ونَلْغَط لَغَطَ الطَّير ، ونَفُحّ فَحيحَ الأفعى ، ونَكِش كَشيشَ الدبَّابات (١) ، إلى ما يتم به هذا العلمُ اللغوىُّ الجليلُ ، الذى تقوم به بلاغةُ البهائم والطير والحشرات والهمَج أشباهها . . . . ؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزت . قال أستاذه : أجدتَ وأحسنتَ ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال : كتبت هكذا :

---

(١) هذه أصوات هذه الأجناس فى اللغة .

يقول السَّمين : نـَاوْ ، ناوْ ، ناوْ . . . فيقولُ النحيف : نـَوْ ، ناوْ نـَوْ . . . فيردُّ عليه السمين : نـَوْ ، ناوْ ، ناوْ . . . فيغضبُ النحيف ، ويكْشِرُ عن أسنانه ، ويحرك ذيلَه ويصيح : نـَوْ ، نـَوْ ، نـَوْ . . . فيلطمهُ السمينُ فيَخْدِشُه ويصرخ : ناوْ . . . فيثبُ عليه النحيفُ ويصْطَرِعان ، وتختلط « النَّوْنَوَة » لايمتاز صوتٌ من صوت ، ولا يَبِينُ معنًى من معنى ، ولايمكنُ الفهمُ عنهما فى هذه الحالة إلا بتعب شديد ، بعد مراجعة قاموس القِطاط . . . !

قال الأستاذ : يا بنىّ ، بارك الله عليك ! لقد أبدعتَ الفنَّ إبداعًا ، فصنعتَ ما يصنع أكبرُ النوابغ ، يُظهر فنَّه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القِطّ بلغتنا إلامُعجِزةً لنبىّ ، ولانبىَّ بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلا سبيلَ إلاما حكيتَ ووصفتَ ، وهو مذهبُ الواقع ، والواقعُ هو الجديدُ فى الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِرًّا ، فكنت فى إجابتك هِرًّا أستاذاً ، ووافقتَ السَّنانيرَ وخالفتَ الناس ، وحقَّقتَ للممتحِنين أرقى نظريات الفن العالى ، فإن هذا الفن إنما هو فى طريقة الموضوع الفنية ، لافى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ، ولو حفظوا حرمةَ الأدب ورَعَوا عهد الفن لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلامًا طويلاً بارعًا فى النادرة والتهكم ، وغرابةِ العبقرية ، وجمالها وصدقِها ، وحسنِ تَنَاوِلها، وإحكام تأديتها لما تؤدّى[1] ؛ ولكن ما الفرق يابنى بين « ناوْ » بالمد ، و « نـَوْ » بغير مد . . ؟ قال التلميذ : هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية : شَرْطة ونقطة وهكذا .

قال : يابنى ، ولكن وَزَارة المعارف لاتُقِرُّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحّحُ أستاذاً لاهِرًّا . . . والامتحان كتابىّ لاشَفَوى .

قال الخبيث : وأنالم أكن هِرًّا بل كنت إنسانًا ، ولكن الموضوع حديث قِطَّين ، والحكم فى مثلهذا لأهله القائمين به ، لالمتكلّفين له،المتطفّلين عليه ؛ فإن هم خالفونى قلتُ لهم : اسألوا القِطاط ؛ أوْ لا فليأتوا بالقِطين : السمينِ والنحيفِ ، فليجمعوا بينهما ، وليُحَرّشوهما ، ثم ليُحْضِروا الرُّقباء هذا

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر .

الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعونه ، وليصفوا منهما ما يرونه ، فو الذى خلق السنانيرَ والتلاميذَ والممتحنين والمصححين جميعًا — ما يزيدُ الهران على « نَو ، وناو » ، ولا يكونُ القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفتُ ، وما بُدٌّ من المهارشة والمواثبة بما فى طبيعةِ القوىّ والضعيف ، ثم فرارِ الضعيف مهزومًا ، وينتهى الامتحان !

* * *

إن مثلَ هذا الموضوع يشبه تكليفَ الطالبِ الصغيرِ خلقَ هرّتين لا الحديثَ عنهما ؛ فإن إجادة الإنشاء فى مثل هذا الباب ألوهيةٌ عقلية تخلق خلقَها السوىَّ الجميلَ نابضًا حيًّا ، كأنما وَضعتْ فى الكلام قلبَ هرّ ، أوجاءت بالهر له قلبٌ من الكلام وأين هذا من الأطفال فى الحادية عشرةَ والثانية عشرةَ وما حولهما ؛ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويُداخلوا أسرارَ الخليقة ، ويُصبحوا مع كل شىء رَهْنًا بعلَله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية : « كن زهرةً وصِفْ . واجعلْ نفسَك حبةَ قمح وقُلْ » . وإنما هذا ونحوُه غايةٌ من أبعد غايات النبوّة أو الحكمة ؛ إذ النبىّ تعبيرٌ إلهىٌّ تتخذه الحقيقةُ الكاملةُ لتنطقَ به كلمتَها التى تسمى الشريعة ، والحكيمُ وجهٌ آخرُ من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقةُ لتُلقى منه الكلمةَ التى تسمَّى الفن .

وقد كان فى القديم امتحانٌ مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحن هو الله جلّ جلالهُ ؛ والموضوعُ حديثُ النملة مع النمل ؛ والناجحُ سليمان عليه السلام .

[قالت نملةٌ : يأيها النملُ ، ادخلوا مساكنكم ، لايَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودُه وهم لايشعرون . فتبسم ضاحكًا من قولها] .

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً ، وكان سرُّ كل شىء هو من النور ، والشعاعُ يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء ، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوُبٌ روحانىّ هو بذاته تعبيرٌ فى البصيرة وإدراكٌ فى الذهن ، وهو أساسُ الفن على اختلاف

أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثال والنغمة ؛ أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لايكون البيانُ العالى أتمَّ إشراقًا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أورذيلتها على السواء ؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكونَ تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنىّ ، هو الوجهَ الآخرَ لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التى ينتهى فيها العلوُّ من مُحيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّفْل ؛ ومن ثَمَّ كانت الفنونُ لاتُعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمَعْزِل . فالأصلُ هناك سموُّ التعبير وجمالهُ ، وبلاغةُ الأداء ورَوْعتُها ؛ ولا يكون السؤال الفنىُّ ماهى قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقتُها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن ، كما للجنة حق فى نوابغه ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة . أفلا تقول الجحيمُ : وهذه بلاغةُ رذائلى ؟ وكيف لَعمرى يستطيع إبليسُ أن يؤدىَ عملَه الفنى . . . ويصوّرَ بلاغتَه العاليةَ إلا فى ساقطينَ من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل . . ؟

• • •

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتبَ من حديثهما وخبرَهما .

كان القطَ الهزيلُ مرابطًا فى زُقاق ، وقد طارد فأرةً فانْجَحَرَتْ فى شقّ ، فوقف المسكينُ يتربَّص بها أن تخرج ، ويؤامر نفسَه كيف يُعالجها فيبتزُّها ، وما عقْلُ الحيوان إلا من حرفة عيشه لامن غيرها . وكان القطُ السمينُ قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّجَ عن نفسه بأن يكون ساعةً أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذَوى عنايتهم ، وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلّع تخلُّعَ الأسد فى مشيته ، وقد ملأ جلدتَه من كل أقطارها ونواحيها ، وبَسطَتْه النعمةُ من أطرافه ، وانقلبت فى لحمة غلَظًا ، وفى عَصَبه شدةً ، وفى شَعره بَريقًا ، وهو يموجُ فى بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابُه ينشقُّ سمَنًا وكدْنة . فانكسرت نفسُ الهزيل ، ودخلَته الحسرة ، وتَضَعْضَعَ لمرأى هذه

النعمة مَرِحَةً مختالة . وأقبل السمينُ حتى وقف عليه، وأدركته الرحمة له ، إذ رآه نحيفاً متقبّضاً ، طاويَ البطن ، بارزَ الأضلاع ، كأنما همت عظامُه أن تترك مسكنَها من جلده لتجدَ لها مأوًى آخر .

فقال له : ماذا بك ، ومالى أراك متيبّساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ، ومالك أعطيتَ الحياةَ غير أنك لم تحيَ ، أو ليس الهرُّ منا صورةً مختزَلةً من الأسد ، فمالك — ويحكَ — رجعتَ صورةً مختزلةً من الهر ؛ أفلا يسقُونك اللبن ، ويُطعمونك الشَّحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمَك ، ويقطعون لك من الجبن أبيضَ وأصفر ، ويفتُّون لك الخبزَ فى المَرق، ويُؤثرك الطفلُ ببعض طعامه ، وتدللك الفتاةُ على صدرها ، وتَمسَحُك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجلُ كما يتناول ابنَه . . . . ؟ وما لجلدك هذا مُغبَرًّا كأنك لاتلْطَعُه بلُعابك ، ولاتتعهَّده بتنظيف ، وكأنك لم ترقط فتًى أوفتاةً يجرى الدّهانُ بَريقاً فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنعَ بلعابك لشعرك صنيعَهما ؛ وأراكَ متزايلَ الأعضاء متفككاً حتى ضَعُفْتَ وجَهِدتَ ، كأنه لايركبك من حُب النوم على قَدْر من كسلك وراحتك ، ولايركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورَفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفِسَةً ولاحَشِيّةً ولاوِسادةً ولابِساطاً ولاطِرازاً ، وما أشبهكَ بأسد أهلكه ألاّ يجد إلا العُشْبَ الأخضر والهشيمَ اليابس ، فما لله لحمٌ يجيء من لحم ، ولا دمٌ يكون من دم، وانحطَّ فيه جسمُ الأسد ، وسكنتْ فيه روحُ الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمةً وشَحمةً ، ولبناً وسمكاً ، وجُبناً وفُتاتاً ، وإنك لتقضى يومَك تَلْطَعُ جلدَك ماسِحاً وغاسلاً ، أو تتطرّح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدّداً ؟ أمَا والله لقد جاءتك النعمةُ والبلادةُ معاً ، وصلحتْ لك الحياة وفسدتْ منك الغريزة ، وأحكمتَ طبعاً ونقَضْتَ طِباعاً ، وربحتَ شِبَعاً وخسِرْتَ لذة ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطفَ على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقلّ ، وقد صرتَ معهم كالدَّجاجة تُسمَّن لتُذبح ، غير أنهم يذبحونك دَلالاً ومَلالاً .

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك ، وتنظرُ إليهم يأكلون ، وتطمع فى

مؤاكلتهم ، فتَشبع بالعين والبطنِ والرغبةِ ثم لاشيء غيرُ هذا ، وكأنك مُرتَبَط بحبالٍ من اللحم تأكل منها وتحتَبسُ فيها .

إن كان أولُ ما فى الحياة أن تأكل فأهونُ ما فى الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شىء كاستواء الحال ، ولا يُحييك شىء كتَفَاوتها ؛ والبطنُ لايتجاوز البطن ولذته لذتُه وحدَها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العلَل الباطنة التى تحرّكنا إلى لذات أعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتَهَبُنا من كل ذلك وجودَنا الأكبر ، وتجعلنا نعيشُ من قِبَل الجسم كله ، لا من قبَل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياة ، وأرانى بإزائك معدوماً بزَوال أسلافى منى ، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك منك . ناشدتُكَ اللهَ إلا ما وصفتَ لى هذه اللذاتِ التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشّبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمتَ — ويحك — أن المِحْنةَ فى العيش هى فكرة وقوة ، وأن الفكرةَ والقوةَ هما لذةٌ ومنفعة ، وأن لهفةَ الحِرمان هى التى تضع فى الكَسْب لذةَ الكسب ، وسُعَارَ الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ماعُدل به عنك من الدنيا لاتعوّضك منه الشّحمةُ واللحمة ، فإن رغباتنا لابد لها أن تجوعَ وتغتذىَ كما لابد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجِدَ كلٌّ منهما حياتَه فى الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراضٌ مطمئنة . فإن لم تَنقُصْ من لذتها فهى لن تزيدَ فى لذتها ، ولكنَّ مكابدةَ الحياة زيادةٌ فى الحياة نفسها .

وسرُّ السعادة أن تكون فيك القُوَى الداخليةُ التى تجعل الأحسن أحسنَ مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكونَ أسوأ مما هو . وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصورٌ من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ إنك كالأسد فى القفَص ، صَغُرت أجَمَتُهُ ولم تزل تصغُر حتى رجعتْ قفصاً يحدُّه ويحبسه ، فصغُرَ هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركةً فى جلد . أما أنا فأسدٌ على مَخَالبى

ووراء أنيابى ، وغَيْضَتِى أبداً تتّسع ولاتزال تتسع أبداً . وإن الحريةَ لتبعثنى أتشمّمُ من الهواء لذةً مثل لذة الطعام ، وأستَرْوِحُ من التراب لذة كلذّة اللحم ، وما الشقاء إلا خلّتان من خلال النفس : أما واحدة فأن يكونَ فى شَرَهك ما يجعل الكثيرَ قليلاً ، وهذه ليست لمثلى ما دمتُ على حدّ الكفَاف من العيش ؛ وأما الثانية فأن يكونَ فى طمعك ما يجعلُ القليلَ غيرَ قليل ، وهذه ليس لها مثلى ما دمتُ على ذلك الحد من الكفاف . والسعادةُ والشقاء كالحق والباطل ، كلاهما من قِبَل الذات ، لامن قِبل الأسباب والعلل ، فمن جاراها سَعِد بها ، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقَى .

ولقد كنتُ الساعةَ أختِلُ فأرةً انجحرتْ فى هذا الشق . فوجدت منها لذةً وإن لم أطعم لحمًا ، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فأحدثَ لى وجعًا ، ولكن الوجعَ أحدث لى الاحتراس ، وسأغشَى الآن هذه الدار التى بإزائنا ، فأيةُ لذة فى السلّة والخطْفة والاستِراقِ والانتهاب ثم الوثْب شدًّا بعد ذلك ؟ هل ذقتَ أنت برُوحك لذةَ الفُرصة والنهزة ، أو وجدتَ فى قلبك راحة المخالَسةِ واستراق الغفلة من فأرة أو جُرَذ ، أو أدركت يومًا فرحةَ النجاة بعد الرَّوَغان من عابثٍ أو باغٍ أوظالم ؟ وهل نالتك لذةُ الظفَر حين هَوَّلَك طفلٌ بالضرب ، فهوَّلتَه أنت بالعضّ والعقْر ، ففرّ عنك منهزمًا لايلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذاتُ كلها وأنا لا أدرى ؟ هلمّ أتوحشْ معك ، ليكونَ لى مثل نُكْرِك ودهائك واحتيالك ، فيكونَ لى مثلُ راحتك المكدودة ، ولذتك المتعَبة ، وعُمرِك المحكوم عليه منك وحدك . وسأتصدّى معك للرزق أطارِدُه وأواثبه ، وأغاديه وأراوحُه . . . فقطع عليه الهزيل وقال :

يا صاحبى ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامةَ أسرك ، فلا يلقانا أولُ طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً ، وأهوى علَىَّ بالضرب لأنطلق حُرًّا ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاء علَىَّ .

وكانت الفأرةُ التى انجحرتْ قد رأت ما وقع بينهما ، فسرَّها اشتغالُ الشر

بالشر . . . وطالت مراقبتُها لها حتّى ظنت الفرصة ممكنةً ، فوثبت وثبةَ من ينجو بحياته ودخلت فى باب مفتوح ، ولمحها الهزيلُ ، كما تلمح العينُ برقًا أو مض وانطفأ . فقال للسمين : اذهب راشداً ، فحسبُك الآن من المعرفة بنفسك وموضعِها من الحياة ، أن الوقوفَ معك ساعةً هو ضَياعُ رزق ، وكذلك أمثالك فى الدنيا ، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل . . .

بين خروفين

« اجتمع ليلةَ الأضْحى خروفان من أضاحِي العيد ، فتكلَّما ؛ فماذا يقولان ؟ »

هذا هو الموضوعُ الذى استخرجه أصغرُ أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنًّا ، ترفُّ عليه النَّسمةُ الثالثةَ عشرةَ من ربيع حياته * بارك الله له فيها حاضرةً ومُقْبِلة .

ولأستاذنا هذا كلمةٌ هي شعارُه الخاصُّ به فى الحياة ، يحفظُها لتحفظَه ، فلا يميلُ عن مَدْرَجتها ، ولا يَخرجُ من معناها ؛ وهى هذه الكلمةُ العربية : « كالفَرَس الكريم فى مَيْعةِ حُضْرِه[1]، كلما ذهب منه شَوْط جاء شَوط » . فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل ، ولا يُغنِى شىء منهما عن شىء ؛ وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعَفَ القوّة بطبيعته ، عظيمَ الأمل بهذه القوة المضاعَفة ، نزّاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم ، مترفّعاً عن الضعف والهُوَينا بهذا النُّزوع ، متميزاً فى نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصالِ فيه على أتمّها وأحسنها . فمن ثَمَّ لايَرى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغ الأمَدَ الأبعدَ فى كل ما يحاوله ، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة ، مستمدًّا قوةً بعد قوة ، محقّقاً السحرَ القادرَ الذى فى نفسه ، متلقياً منه وسائلَ الإعجاز فى أعماله ، مُرسِلاً فى نبوغه من توهُّج دمه أضواء كأضواء النجم ، تُثبتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لاشىء آخر .

ولما قدَّم إلىَّ (الأستاذ) موضوعَه فى هذا الوزن المدرسىِّ — وأظنه قد نزَعتْه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه — قلتُ : حُبًّا وكَرامة . وهأنذا أكتبه منبعثاً فيه « كالفرس الكريم فى معية حُضره » . . . ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يثورُ فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر . . . !

* * *

---

* كان ذلك فى عام ١٩٣٤ .

(١) هذا كما يقال بالعامية : فى عز جريه .

اجتمع ليلةَ الأضحى خروفان من الأضاحيِ في دارنا: أما أحدُهما فكبشٌ أقرنُ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين، وقد انتهى سِمَنُه حتى ضاق جِلدُه بلحمه، وسحَّ بدنه بالشحم سحًّا، فإذا تحرّك خلتَه سحابةً يضطربُ بعضُها في بعض، ويهتزُّ شيء منها في شيء؛ وله وافرةٌ[1] يجرُّها خلفه جرًّا، فإذا رأيتَها من بعيد حسبتَها حملاً يتبعُ أباه؛ وهو أصوفُ، قد سَبَغَ صوفُه واستكثَفَ وتراكم عليه؛ فإذا مشى تبختَرَ فيه تبخترَ الغانية في حُلّتها، كأنما يشعر مثلَ شعورها أنه يلبسُ مسرّاتِ جسمِه لاثوبَ جسمه؛ وهو من اجتماع قوّته وجبرُوتِه أشبهُ بالقلعة، يعلوها من هامته كالبُرج الحربيّ فيه مِدفعان بارزان. وتراه أبداً مُصعِّراً خدّه كأنه أمير من الأبطال، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ في أمرِه ونهيه، لايَخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره.

وأما الآخر فهو جَذَعٌ في رأس الحَوْل الأول من مَوْلده، لم يُدْرِكْ بعدُ أن يُضَحَّى، ولكن جيء به للقَرَم إلى لحمه الغَضّ؛ فالأول أضْحيّة وهذا أكُولةَ؛ وذاك يُتَصَدّقُ بلحمه كلِّه على الفقراء، وهذا يُتصدق بثُلُثيه ويبقى الثلثُ طعامًا لأهل الدار.

وكان في لِينه وتَرجرُجِه وظَرف تكوينه ومَرَح طبعه، كأنما يُصوّر لكَ المرأةَ آنسة رقيقةً متُودِّدة. أما ذاك الضخمُ العاتى المتجبّر الشامخُ، فهو صورةُ الرجل الوحشيّ أخرجته الغابةُ التي تخرج الأسدَ والحيةَ وجذوعَ الدَّوْحة الضخمة، وجعلتْ فيه من كل شيء منها شيئًا يُخافُ ويُتَّقَى.

وكان الجذَعُ يَثْغو لاينقطع ثُغاؤه، فقد أخذ من قطيعه انتزاعًا فأحسّ الوحشةَ، وتنبهتْ فيه غزيرةُ الخوف من الذئب، فزادته إلى الوحشة قلَقًا واضطرابًا؛ وكان لايستطيع أن ينْفلت، فهو كأنما يهربُ في الصوت ويعدو فيه عدْوا.

أما الكبشُ فيَرى مثلَ هذا مَسَبّةً لقرنيه العظيمين، وهو إذا كان في القطيع كان كبشَه وحاميَه والمُقَدَّمَ فيه، فيكونُ القطيعُ معه وفي كنَفِه

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية.

ولايكون هو عند نفسه مع القطيع ؛ فإذا فقد جماعتَه لم يكن فى منزلة المنتظر أن يَلحق بغيره ليحتميَ به فَيَقْلَقَ ويضطرب ، ولكنه فى منزلة المرتقِب أن يَلحقَ به غيرُه طلباً لحمايته وذِماره ، فهو ساكن رابطُ الجأش مغتبِطُ النفس ، كأنما يتصدَّقُ بالانتظار . . .

* * *

فلما أدبر النهارُ وأقبل الليلُ ، جيء للخروفين بالكَلأ من هذا البرسيم يَعتلفانِه ، فأحسَّ الكبشُ أن فى الكلأ شيئاً لم يدرِ ما هو ، وانقبضت نفسُه لما كانت تنبسطُ إليه من قبل ، وعَرَته كآبة من روحه ، كأنما أدركتْ هذه الروحُ أنه آخرُ رزقِه على الأرض ، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يُذبح ، وعافَ أن يَطْعَم ، ورجَع كأوّل فِطامه عن أمه لايعرف كيف يأكل ، ولايتناولُ من أكله إلا أدنى تَناوُل .

وكأنما جَثَم الظلامُ على شحمه ولحمه ؛ فإنه متى ثَقُلَ الهمُّ على نفس من الأنفس ، ثقل على ساعتها التى تكون فيها ، فتطولُ كآبتُها ويطولُ وقتُها جميعاً . فأراد الكبشُ أن يتفرَّجَ مما به ، ويُنفّسَ عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد أنس إلى المكان والظلمة ، وأقبل يعتلفُ ويَخْضِمُ الكَلأَ ، فقال له الكبش : أراك فارهاً ياابْن أخي ، كأنك لاتجدما أجد ؛ إنى والله أعلم علماً لاتعلمه ، وإنى لأحسُّ أن القدرَ طريقُه علينا فى هذه الليلة ، فهو مُصَبِّحُنا ما من ذلك بُدّ .

قال الصغير : أتعنى الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لكَ به لو أنه الذئب ؛ إن صوفى هذا دِرْع من أظافره ، وهو كالشبكة يَنْشَبُ فيها الظّفر ولايتخلص ، ومن قرنيَّ هذين تُرْس ورُمح ، فأنا واثق من إحراز نفسى فى قتله ، ومَن أحرز نفسه من عدّوه فذلك قتلُ عدوه ، فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فنٌّ من القتل . وهذا القَرن الملتفُّ الأعقدُ المذرَّبُ كالسّنان ، لايكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطِمةُ عظامه ، فيَحْدُثُ له من الفزَع ما تنحلُّ به قوّتُه ، فما يُواثِبُنى إلا مُتَخاذلاً ، ولا يُقدِمُ علىَّ إلا تَوَهُّمَ الذئبيّة للخَرُوفيّة ، فإن أساسَ القوة والضعف

كليهما فى السُّوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أنى خرجت من الخروفية إلى الجاموسيّة...!
فما يُعَلِّمه ذلك إلا بَقْرُ بطنه أو التطويح به من فوق هذا القَرن ، أقْذفُه قذفةً عاليةً تُلقيه من حَالِق ، فتدقُّ عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا فهى إنما تضرب منك الصوفَ لا الظهر .

قال الكبشُ : ويحك ! وأىّ خروف يخشى العصا ؟ وهى إنما تكون عصا من يَعلِفهُ ويَرعاه ، فهى تنزلُ عليه كما تزلُ على ابن آدم أقدارُ ربه ، لا حطْمًا ولكن تأديبًا أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبلها النعمةُ ، وتكون معها النعمة ، وتجئُ بعدها النعمة ؛ أفبلغ الكفرُ ما يبلغ كفر الإنسان بنعمة ربه : إذا أنعم عليه أعرضَ ونأى بجانبه ، وإذا مسَّه الشر انطلق ذا صُراخ عريض ؟

وكيف ترانى (ويحك) أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سُلالة الكبش الأسدىّ ؟

قال الصغير : وما الكبشُ الأسدىّ ، وكيف علمتَ أنك من نَجْله ، ولا علم لى أنا إلا هذا الكلأ والعلفُ والماء والمَراحُ والمَغْدى ؟

قال الكبش : لقد أدركت أمى وهى نعجةٌ قَحْمَةٌ كبيرة ، وأدركتُ معها جَدَّتى وقد أفرطَ عليها الكِبَرُ حتى ذهب فمُها ، وأدركت معهما جدّى وهو كبش هَرِمٌ مُتقَدّدٌ أعجفُ كأنه عظام مُغطاة ، فعن هؤلاء أخذتُ ورويتُ وحفظت :

حدثتنى أمى ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفِداء الذى فدَى اللهُ به إسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام ، وكان كبشًا أبيضَ أقرَنَ أعيَنَ ، اسمه حَرير .

(قال) : واعلم يا ابن أخى أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يُدركه غيرى ، أن جدنا هذا كان مكسواً بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمى حريراً . . .

(قالت أمى) : والمحفوظُ عند علمائنا أن ذاك هو الكبشُ الذى قرَّبه هابيلُ حين قتَل أخاه ، لتتمّ البليةُ على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوان معًا .

(قالوا) : فتقبّل منه وأرسل الكبشُ إلى الجنة فبقى يرعى فيها حتى كان اليوم الذى هم فيه إبرهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوّة ، وطاعةً لما ابتُلى به من ذلك الامتحان ، وليُثْبِتَ أن المؤمنَ بالله إذا قوى إيمانُه لم يجزع من أمر الله ولو جرّ السكّينَ على عنُق ابنه ، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه !

(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كلّه .

أما فخر سُلالتى أنا ، فذاك ما حدثتنى به جدتى ، ترويه عن أبيها ، عن جدها ، وذاك حين توسّمتْ فىّ مخايلَ البُطولة ، ورَجَتْ أن أحفظَ التاريخ . قالت : إن أصلنا من دمشق ، وإنه كان فى هذه المدينة رجل سبّاع ، قد اتخذ شبلَ أسد فربّاه وراضه حتى كبر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذّى به الناس ، فقيل للأمير[1] : هذا السبُعُ قد آذى الناس ، والخيلُ تنفر منه وتجد من ريحه ريحَ الموت ، وهو ما يزال رابضاً ليلَه ونهارَه على سُدّة بالقرب من دارك . فأمر فجاء به السبّاعُ وأدخله إلى القصر ، ثم أمر بخروف مما اتُّخذ فى مطبخه للذبح ، وأدخلوه إلى قاعة ، وجاء السبّاع فأطلق الأسدَ عليه ، واجتمعوا يرون كيف يسطُو به ويفترسُه .

قالت جدتى : فحدّثنى أبى ، قال : حدّثنى جدك : أن السبّاع أطلق الأسدَ من ساجُوره[2] وأرسلَه ، فكانت المعجزةُ التى لم يفُزْ بها خروف ولم تؤثر قطّ إلا عن جدنا ، فإنه حسب الأسدَ خروفاً أجمّ لا قرون له ، ورأى دقة خَصْره ، وضُمورَ جنبيه ، ورأى له ذيلاً كالألية المُفْرَغة الميتة ، فظنه من مهازيل الغنم التى قتلها الجدب ، وكان هو شبْعان ريّان ، فما كذبَ أن حمل على الأسد ونطحه ، فانهزم السبُعُ مما أذهله من هذه المفاجأة وحسب جدّنا سبُعاً قد زاده الله أسلحةً من قرنيه ، فاعتراه الخوفُ وأدبر لايلوى . وطمع جدُّنا فيه فاتبعه ، وما زال يُطارِدُه وينطحه ، والأسد يفرُّ من وجهه ويدورُ حول البرْكة ، والقومُ قد غلبهم الضحك ، والأمير ما يملك نفسه

---

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصها فى كتابه (الاعتبار) ؛ والأمير المذكور فى القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا فى عبارة القصة .

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما .

إعجاباً وفخراً بجدّنا . فقال : هذا سبعٌ لئيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخوه . فأخذ الأسدُ وذُبح ، وأعتق جدّنا من الذبح ، وكان لنا فى تاريخ الدّنيا : إنسانها وحيوانها أثران عظيمان ؛ فجدّنا الأول كان فداء لابن نبيّ ، وجدنا الثانى كان الأسد فداءه !

* * *

قال الصغير للكبش : قلتَ : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟

قال الكبش : هذه السنّة الجاريةُ بعد جدنا الأعظم ، وهى الباقية آخرَ الدهر ؛ فينبغى لكل منا أن يكون فداء لابن آدم !

قال الصغير : ابن آدم هذا الذى يخدمنا ويحتزُّ لنا الكلأ ، ويقدّم لنا العلَف ، ويمشى وراءنا فنسحبُه إلى هنا وههنا . . . . ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أوْلا ، فأنت يا أخا جدّى . . . قد كبرتَ وخرِفْت !

قال الكبش : ويحكَ يا أبله ! متى تتحلّل هذه العقدة التى فى عقلك ؟ إنك لو علمتَ ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولرَجَعْتَ من القلق والاضطراب كحبة القمح فى غربال يهتزُّ وينتفض !

قال الصغير : أتعنى ذلك الغربال وذلك القمح وما كان فى القرية ، إذ تناولت ربة الدار غربالَها تنفُض به قمحَها ، فغافلْتُها ونطحت الغربالَ فانقلب عن يدها وانتثرَ الحب ، فأسرعت فيه التقاطاً حتى ملأت فمى قبل أن تُزيحَنى المرأة عنه ؟

فهز الكبش رأسه فِعْلَ مَن يريدَ الابتسامَ ولايستطيعه ، وقال : أرأيتَ حانوتَ القصّاب ، ونحن نمرّ اليوم فى السوق ؟

قال : وما حانوت القصّاب ؟

قال : أرأيتَ ذلك السّليخَ من الغَنم البيضِ المُعلّقة فى تلك المَعاليق ، لاجِلْدَ عليها ولاصُوف ، وليس لها أرؤسٌ ولاقوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السّليخ ؟ إنه إن صح ما حدّثتَنى به عن أملك ، فهذه غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ثم تجىء إلى الأرض مع الصبح ، وإنى لمترقب شمسَ الغد ، لأذهب فأراها وأملأ عينىَّ منها .

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك . . لقدرأيت أخي مذ كنت جذَعا مثلك؛ ورأيت صاحبنا الذى كان يعلفه ويُسمّنه قد أخذه ، فأضجعه ، فجثم على صدره شرًّا من الذئب ، وجاء بشَفْرة بيضاء لامعة ، فجرّها على حلقه ، فإذا دَمُه يَشْخَب ويتفجّر ، وجعل المسكين ينتفص ويدْحَص برجله ، ثم سكَن وبرد ؛ فقام الرجل ففصَل عنقه ، ثم نخَس فى جلده ونفخه حتى تطبَّل ورجع كالقربة التى رأيتها فى القرية مملوءة ماء فحسبتها أمَّك ؛ ثم شقَّ فيه شقًّا طويلاً . ثم أدخل يده بين الجلد والصِّفاق ، ثم كشطه وسحَف الشَّحم عن جنبيه ، فعاد المسكين أبيضَ لاجِلد له ولا صوف عليه ، ثم بقَر بطنه وأخرج ما فيه ، ثم حطَم قوائمه ، ثم شدَّه فعلَّقه فصار سَليخًا كغنم الجنة التى زعمت ! وهذا — أيها الأبله — هو الذبح والسلخ!

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كلَّه ؟

قال : الشَّفرة البيضاء التى يسمونها السِّكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرة عند حلقه حِيالَ فيه ؛ فلماذا لم ينتزعْها فيأكلَها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذى لايعلم شيئًا ولايحفظ شيئًا ، لوكانت خضراء لأكلها !

قال : وما خطْب أن تجيء الشَّفرة على العنق ، أفلم يكن الحبل فى عنقك أنت فجعلتَ تجاذِب فيه الرجلَ حتى أعييته ، ولولا أنى مشيت أمامك لما انقَدْتَ له ؟

قال الكبش : ما أدرى والله كيف أفهمُك أن هذا كلَّه سيجرى عليك ، فسترى أموراً تنكرها ، فتعرف ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاء فى القُدور تُضْرَم عليها النار ، فيأكلُك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلأ . . !

قال الصغير : وماذا عليَّ أن يأكلنى ابن آدم ، ألا ترانى آكل العُشْب ، فهل سمعتَ عُوداً منه يقول : الرجُل والسكين ، والذبح والسلخ . . . ؟

قال الكبش فى نفسه : لعَمرى إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة

الشيوخ فى الشيوخ، وما نَفْع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يمضيه، كرأى الشيخ الفانى ؛ يرى بعقله الصوابَ حين يكون جسمه هو الخطأ مركبًا فى ضعفه غلطةٌ على غلطة لاعضواً على عضو ... ؟ وهل الرأى الصحيح للعالم الذى نعيش فيه إلا بالجسم الذى نعيش به ؛ وما جدوى أن يعرفَ الكبير حكمةَ الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهيّن ، فضلاً عن المرض المُعْضِل، فضلاً عن المرض المُزْمِن، فضلاً عن الموتِ نفسه ؛ وماخطَر أن يجهلَ الشباب تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لايبالى الموتَ ، فضلاً عن المرض ؟

لو أُذنَ الشابُّ من الفتيان بيوم انقطاع أجَلهِ ، وعلم أنه مُصْبِحُه أو مُمْسِيه ، لأمدّته نفسُه بأرواح السنينَ الطويلة ، حتى ليرى أن صبحَ الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ؛ فما يتبينه إلا كالفكر المنسىّ مضى عليه ثلاثون سنةً أو أربعون . ولو أذنَ الشيخ بيوم مَصْرَعه ، وأيقن أن له مُهْلةً إلى تمام الحول ، لطار به الذّعْر واستفرَغه الوجَل من ساعته ؛ ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليه من الصبح ، وابتلتْه طبيعة جسمه المختلّ بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها كما تجتلب الرياحَ صُدوع المنزل الْخَرِب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ؛ فيعيش فى اليوم القصير مثلَ العام رَخِيًّا ممدوداً ؛ فهو رابطٌ جَلْد ؛ وهذا بالكِبَر يقبض الزمن عليه فيعيش فى العام الطويل مثلَ اليوم متلاحِقًا آخره بأوّلِه ، فهو قَلِقٌ طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ماتضعه النفس فى الأيام .

* * *

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغيرَ قد أخذته عينه واستثقَلَ نومًا ، فقال : هنيئًا لمن كان فيه سرُّ الأيامالممدودة . إن هذا السرَّ هو كسرّ النبات الأخضر، لايُقْطَع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئًا ، قائلاً على المصائب : هأنذا . . .

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودةٌ له ، والذبحُ بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو فى زمنين ؛ أحدهما من نفسه ، فبه ينام ، وبه يلهو ، وبه

يسخَر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه .

إن الألم هو فهمُ الألم لاغير . فما أقبحَ علمَ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه . حَسْبُ العلم والعلماء فى السخرية بهم وبه هذه الحقيقةُ من النفس . أنا لو ناطحتُ كبشًا من قُروم الكباش ، ووقفتُ أفكر وأدبِّر وأتأمل ، وأعتبرُ شيئًا بشىء – ذهب فكرى بقوتى ، واسترخى عَصَبى ، وتحلَّل غضبى كلّه ، وكان العلمُ وبالاً علىّ ؛ فإن حاجتى حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابِها أضعافُ حاجتى إلى العلم . والروح لاتعرف شيئًا اسمُه الموتُ ، ولاشيئًا اسمه الوَجَع ؛ وإنما تعرف حظّها من اليقين ، وهدوءها بهذا الحظ ، واستقرارَها مؤمنةً ما دامت هادئةً مستيْقِنة .

وقد والله صَدَقَ هذا الجذَعُ الصغير ؛ فما على أحدنا أن يأكلَه الإنسان ؟ وهل أكْلُنا نحن هذا العُشبَ ، وأكلُ الإنسان إيانا ، وأكلُ الموت للإنسان – هل كلٌّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة فى شكل من أشكالها ؟

يُشبهُ والله إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له ، أن أكونَ كخروف أحمق لاعقل له ، فظنّ إطعامَ الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقتُه ! وهل أوجبَ نفقتى على الإنسان إلا لحمى ؟ فإذا استحقّ له فلعمرى ما يُنبغى لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحمَ إلا إذا أقررتُ على نفسى بَدِيًّا أنى أنا ظلمتُه العلَفَ وسرقتُه منه .

كلُّ حىّ فإنما هو شىء للحياة أعْطِيَها على شرطها ، وشرطُها أن تنتهى ؛ فسعادته فى أن يعرفَ هذا ويقررَ نفسَه عليه حتى يستيقنَه ، كما يستيقنُ أن المطر أول فصل الكلأ الأخضر . فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن ، جاءت النهايةُ متممةً له لاناقصةً إياه ، وجَرَتْ مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعَدّ لها . أما إذا حسب الحىُّ أنه شىء فى الحياة ، وقد أعطيَها على شرطه هو ، من تَوَهُّم الطمع فى البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك ، وفى عمله على هذا الوهم ؛ إذ لاتكون النهايةُ حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أنزلتْ بالعمر كلّه ، وتجىء هادمةً منغّصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقَها آلامُها ؛ فتؤلِم قبل أن تجىء ، شرًّا مما تؤلم حين تجىء !

لقد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعِداً لها ؛ فإن كان مُعِداً لها عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها كان عمرَه فى حاضر مستمر ، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولَها ويُحس آخرَها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغّصَ عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه ، غيرَ محاولٍ فى الليل أن يُبعِدَ الصبح ، ولا فى الصبح أن يُبعد الليل . قال لى جدّى : والإنسانُ وحدَه هو التَّعِس الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقَى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح الظلمةَ المُمتدَّةَ على الأرض ، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليلَ بقرنيه ويزحزِحُه . . . !

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوانَ منا إذا جمع على نفسه همًّا واحدًا ، صار بهذا الهم إنسانًا تَعِسًا شقيًّا ، يُعطَى الحياةَ فيقلبُها بنفسه على نفسه شيئًا كالموت ، أو موتًا بلا شىء . . . !

* * *

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع فى قلبى أنك السلحة كنتَ فى شأن عظيم ، فما بالك منتفخًا وأنت ههنا فى المَنْحَر لا فى المَرعَى !

قال الصغير : يا أخا جدّى . . . . لقد تحققتُ أنك هَرِمتَ وخَرِفتَ ، وأصبحتَ تَمُجُّ اللُّعابَ والرأى . . . . !

قال الكبش : فما ذاك ويلك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الإنسان غاد علينا بالشَّفْرة البيضاء ، ووصفتَ الذبحَ والسلخَ والأكل ؛ وأنا الساعةَ قد نمتُ فرأيت فيما أرى ، أننى نطحتُ ذاك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وهِجْتُ به حتى صرعتُه ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى ، فثلمته فى نحره حتى ذبحته ، ثم افتلَذتُ منه مُضْغةً فلُكْتُها فى فمى ؛ فما عرفتُ والله فيما عرفت لَخَنًا ولا عَفَنًا فى الكلأ هو أقبحُ مذاقًا منه !

إن الإنسانَ يستطيبُ لحمنا ، ويتغذى بنا ، ويعيش علينا : فما أسعدَنا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياة ، وإذا كان الفَناء سعادةً نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناء هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا . وما هلاكُ الحىّ لقاء منفعة له أو منفعة منه

إلا انطلاق الحقيقة التى جعلتْه حيًّا ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها .

قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرف من الإنسان ؛ فإنه يقضى العمر آخذاً لنفسه ، متكالبًا على حظها ، ولا يُعطِى منها إلا بالقَهر والغَلَبة والخوف . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تعالَ أيها الإنسانُ لنعطيك ؛ تعالَ أيها الشحاذ . . . . !

الطفولتان

(عصمت) ابن فلان باشا طفل مُتْرَفٌ يكادُ ينعصرُ لينًا ، وتراه يرِف رَفيفًا مما نشأ فى ظلال العزّ ، كأن لروحه من الرقّة مثلَ ظلّ الشجرة حولَ الشجرة . وهو بين لِداته من الصّبيان كالشّوكة الخضراء فى أملُودها الريّان، لها منظرُ الشوكةِ ؛ على مجسّة لينة ناعمة تُكَذّب أنها شوكةٌ إلا أن تيْبسَ وتتوقّح .

وأبوهُ « فلان » مديرٌ لمديرية كذا ، إذا سُئل عنه ابنه قال : إنه مدير المديرية . لايكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعلَ أباه مديراً مرّتين . . . . وكثيراً ما تكون النعمةُ بذيئةً وقاحًا سيّئةَ الأدب فى أولاد الأغنياء ، وكثيراً ما يكون الغِنى فى أهله غِنى من السيئات لاغير !

وفى رأى (عصمت) أن أباه من علُوّ المنزلة كأنه على جَناح النّسر الطائر فى مَسْبَحه إلى النجم ، أما آباء الأطفال من الناس فهم عنده من سُقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبَعوض !

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يتروّح منها إلا وراءه جُنْدى يمشى على أثره فى الغَدْوة والرّوْحة إذ كان ابنَ المدير ، أى ابنَ القوّة الحاكمة ، فيكون هذا الجندىُّ وراء هذا الطفل كالمتنبّهة له عند الناس ، تُفْصِحُ شارتُهُ العسكريةُ بلغات السابلة جَمعاء أن هذا هو ابنُ المدير . فإذا رآه العربىّ أو اليونانى ، أو الطليانىُّ أو الفرنسىُّ ، أو الإنجليزىُّ أو كائنٌ مَن كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لايَفهَمُ لسانٌ منها عن لسان — فهموا جميعًا من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير ؛ وأنه من الجندىّ الذى يَتْبعُهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح . . . . !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصّبيانىّ . لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِد ابنَ عشر سنينَ كاملة لتشهَد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قد انصدعتْ به مُعجزة ! وإلا فكيف يمشى الجندىُّ من جنود

الدولة وراء طفل فيتبعه ويخدمه وينْصاع لأمره ؛ وهذا الجندى لو كان طريد هزيمة قد فرّ فى معركة من معارك الوطن ، وأريد تخليده فى هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير — لما صُوِّر إلا جندياً فى شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم ؛ فى صورة يُكتب تحتها : « نُفاية عسكرية ! »

* * *

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه فى مصر إلا تأويل واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعانى ، وإن صغُرتْ تلك وجلّت هذه ؛ ومن هنا يكذب الرجلُ ذو المنصب ، فيُرفع شخصه فوق الفضائل كلها ؛ فيكبُر عن أن يكذبَ فيكون كذبه هو الصدق ، فلا ينكر عليه كذبه أى صدقه . . . !
ويخرج من ذلك أن يتقرر فى الأمة أن كذب القوّة صدقٌ بالقوّة !

وعلى هذه القاعدة يُقاس غيرُها من كل ما يُخذَل فيه الحق . ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعانى السامية طفقتْ هذه المعانى تموجُ موجها محاولةً أن تعلو ، مُكْرَهةً على أن تنزل ؛ فلا تستقيم على جهة ولا تنتظمُ على طريقة ؛ وتُقبِل بالشيء على موضعه ، ثم تكُرُّ كرَّها فتُدبِرُ به إلى غير موضعه ، فتضلُّ كل طبقة من الأمة بكُبرائها ، ولاتكون الأمةُ على هذه الحالة فى كل طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارُهم ؛ وتلك هى تهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتُليتْ بالذى هو أكبرُ من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ فى الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصّغَرُ من الكِبَر ، وتنتظم به ألْفةُ الحياة بين الذلّة والصّولة !

* * *

وتخلّفَ الجندىُّ ذاتَ يوم عن موعد الرَّواح من المدرسة ، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبدا له أن يتسكّع فى بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابنُ المدير ، وحنّ حنينه إلى المغامرة فى الطبيعة ، ولبستْ الطرق فى خياله الصغير زينتَها الشعريةَ بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوّشون ويتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتّى وكأنهم أبناء بيت واحد مسّتْ بكل من كل رَحِمٌ ، إذ لاينتسبون فى اللهو إلا إلى الطفولة وحدها .

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التى

يمشي فيها الجندىّ وراء ابن المدير ، وتَغلْغَل في الأزقّة لايبالى ما يعرفه منها وما لايعرفه، إذ كان يسير فى طرق جديدة على عينه كأنما يحلُم بها فى مدينة من مدن النوم .

وانتهى إلى كَبْكَبَة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى ، فانْتَبذَ ناحيةً ووقف يُصغى إليهم متهيّباً أن يُقْدِمَ ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمّع فإذا خبيثٌ منهم يعلمّ الآخرَ كيف يضرب إذا اعتَدى أو اعتُدِىَ عليه، فيقول له : اضرب أينما ضربت ، من رأسِه ، من وجهِه ، من الْحُلقوم ، من مَرَاقّ البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقُل إنى أنا علّمتُك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أمَا قلتُ لك : إنه تعلّم السرقةَ من رؤيته اللصوصَ فى السِّيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السّيما كن لصّاً واعملْ مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوْا وقولوا لى : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكنا لانستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد فى صوت واحد : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات .

فنظر إليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشترِ لك أبوك حذاء ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا سعادة المدير ، فأرسِلنى إلى المدرسة وقتَ الظهر فقط . . . !

* * *

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترِفّ بإحساسها ، كالورقة الخضراء عليها طَلّ الندى ، وأخذ قلبُه يتفتّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ، وسَكِر بما يسكَر به الأطفالُ حين تقدّم لهم الطبيعة مكانَ اللهو مُعَدّاً مهيّأ.

كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة ، وتمامُ لذتها أن الزمنَ فيها منسى ، وأن العقل فيها مُهمَل . . .

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعةَ حين ينطلق فيها جماعةُ الأطفال على سَجيتهم وسجيتها – إنما هى المدرسة التى لاجُدرانَ لها ، وهى تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتُبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتُفرِغُه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد وبذلك تكسِبهُ نمو نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه إلى أن يُبدعَ بنفسه ولاينتظر من يُبدع له ، وتجعلُ خُطاه دائما وراء أشياء جديدة ، فتُسدّده من هذا كلّه إلى سر الإبداع والابتكار ، وتلقّيه العِلمَ الأعظمَ فى هذه الحياة ، عِلمَ نَضْرة نفسه وسرورِها ومرَحِها ، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل ، وتَتدَفق به على دنياه كالفيَضان فى النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ، لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكلَ الطفل وليس له وجودُه ولاعالَمُه ، فيكونُ المسكين فى الحياة ولايجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً ، وقد جمعوا له همومَ رجل كامل !

ودبّت روحُ الأرضِ دبيبَها فى (عصمت) ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بطفولتهم ، وأنه هو وأمثالُه هم الفقراء والمساكينُ فى الطفولة ؛ وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ؛ وأن الألعابَ خير من العلوم ، إذ كانت هى طِفْليَّةَ الطفل فى وقتها ، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزَقَةٌ به قبل وقتها تُوقّرُه وتحوّله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولةَ ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون فى الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً .

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيتَه الواسعَ الذى لايتحرّجُ أن يصرخَ فيه صُراخَه الطبيعى ، ويتحرك حركتَه الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلَبة ، ولا حاملو العصِىّ من الضبّاط ؛ بل حقّ البيت الواسع أن تكونَ فيه الأبوّة الواسعة ، والأخوّةُ التى تَنفسِح للمئات ؛

فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل، على تدريج فى التوسّع شيئاً فشيئاً ، من البيت ، إلى المدرسة ، إلى العالم .

* * *

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولته تَشِبّ وتسترجِل ، ورَخاوته تشتدّ وتماسك ؛ وكانت حركاتُ الأطفال كأنها تُحرّكه من داخِله ، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين ، يَستطيرُه الفرحُ ، ويتوثب فيه الطفلُ الطبيعى بمرَحِه وعُنْفُوانِه ، وتتقلّصُ عضَلاته ، ويتكَشّفُ جِلْده ، وتجتمع قوتُه ؛ حتى كأنه سيُظاهر أحدَ الخصمين ويَلكم الآخر فيُكَوّرُه ويصرعه، ويفُض معركةَ الضرب الحديدىّ بضربته اللينة الحريرية . . !

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشّن ، وما كذّب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفالُ ولهوُهم وعبثُهم ، إقبالَ الجوّ على الطير الحبيس المعلّق فى مسمار إذا انفرج عنه القفص؛ وإقبالَ الغابة على الوحش القَنيصِ إذا وثب وثبةَ الحياة فطار بها؛ وإقبالَ الفلاةِ على الظّبى الأسير إذا ناوَص فأفلَتَ من الحِبالة .

وتقدم فادغَمَ فى الجماعة وقال لهم : أنا ابنُ المدير . فنظروا إليه جميعًا ، ثم نظر بعضُهم إلى بعض ، وسَفَرَتْ أفكارُهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير .

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير . . . .

فقال الثالث : ليست كأمّك يابعْطيطى ولا كأم جُعْلُص[1] !

قال الرابع : ياويلك لو سمع جُعلص ، فإن لكَماتِه حينئذ لاتترك أمّك تعرف وجهَك من القفا !

قال الخامس : ومن جُعلص هذا ؟ فليأت لأرِيَكم كيف أصارعه ،فأجتذبُه فأعصِرُه بين يدىّ ، فأعتقلُ رِجلَه برجلى ، فأدفعُه ، فيتخاذل ، فأعرُكُه ، فيخِرّ على وجهه ؛ فأسمّره فى الأرض بمسمار!

---

(١) للعامة أسماء ونسب غريبة منها هذه .

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جُعلص لو تناولك فى يده . . . !

فصاح السابع : ويلكم ! هاهو ذا . جُعلص ، جُعلص ، جُعلص !

فتطايَـر الباقون يميناً وشمالاً كالورَق الجافّ تحت الشجر ضربته الريح العاصف . وقهقه الصبى من ورائهم ، فثابوا إلى أنفسهم وتراجعوا . وقال المُـسْـتَطيل منهم : أما إنى كنت أريد أن يعدوَ جعلص ورائى ، فأستطردُ إليه قليلاً أطمعُه فى نفسى ، ثم أرتدُّ عليه فآخذه كما فعل « ماشيست الجبار »[1] فى ذلك المنظر الذى شاهدناه .

وقهقه الصبيانُ جميعاً . . . . ! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشّاق بمعشوقة جميلة ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون المقرب المخصوصَ بالحظْوة ، لامن أجل أنه ابنُ المدير فحسْبُ ، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش . . . فلو وجدت القروش مع ابن زبّال لما منعه نسبُه أن يكون أميرَ الساعة بينهم إلى أن تنفدَ قروشُه فيعود ابن زبال . . . !

وتنافسوا فى (عصمت) وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المديرُ نفسُه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبنّاء وحمّال ، وحوذىّ وطباخ ؛ وأمثالهم من ذى المهنة المَكْسِبَة الضئيلة — لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير ، أكبر من مطامع الآباء فى المدير .

وجرت المنافسةُ بينهم مجراها ، فانقلبت إلى مُلاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة إلى مشاحنة ، وعاد ابنُ المدير هَدَفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه ، إذ لايقصد أحدٌ منهم أحداً بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ، ليكون أنكأ له وأشد عليه !

وتظاهرَوا بعضُهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائل ، وأفسدهم هذا الغنى المتمثلُ بينهم . وياما أعجبَ إدراكَ الطفولة وإلهامَها ! فقد اجتمعت نفُوسهم على رأى واحد ، فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ،

---

(١) بحار إيطالى كالمارد ؛ عريض الألواح ، وثيق التراكيب ، يعجب الأطفال به أشد الإعجاب ، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فى ساعة واحدة .

فخاطره أحدُهم فى اللعب فقمرَه، فأبى إلا أن يعلوَ ظهرَه ويركبه ؛ وأبى عليه ابنُ المدير ودافعه ، يرى ذلك ثَلْمًا فى شرفه ونسبه وسَطوةِ أبيه ؛ فلم يكد يعتلّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرّفهم آباءهم ... هاجت حتى كبرياؤهم، وثارت دفائنُهم، ورقصت شياطينُ رءوسهم ؛ وبذلك وضع الغنيُّ حقدَ الفقر بإزاء سُخرية الغنى ؛ فألتى بينهم مسألةً المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرَحها للحلّ . . . . !

وتنفّشُوا للصَّولة عليه ، فسخِرَ منه أحدُهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالثُ لسانَه ؛ وصدمه الرابع بمنكبه ، وأفحشَ عليه الخامس ؛ ولكزه السادس ؛ وحثا السابعُ فى وجهه التراب !

وجهَد المسكينُ أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جُدران فبطَل إقدامُه وإحجامُه ، ووقف بينهم كما كتب الله . . . ثم أخذته أيديهم فانجدَل على الأرض ، فتجاذبوه يُمرّغونه فى التراب !

وهم كذلك إذا انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفأ الذى يليه ، وأزيح الثالث ، ولُطِمَ الرابع ، فنظروا فصاحوا جميعًا : « جُعْلُص ، جعلص ! » وتواثبوا يشتدُّون هَربًا . وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ الترابُ من ثيابه وهو يبكى بدمعه ، وثيابُه تبكى بترابها . . . ! ووقف ينظر هذا الذى كشفَهم عنه وشردتهم صَوْلتُه ، فإذا جُعلص وعليه رَجَفَانٌ من الغضب ، وقد تَبرْطمَتْ شفتُه ، وتَقَبَّض وجهه ، كما يكون « ماشيست » فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء .

وهو طفل فى العاشرة من لدات (عصمت) ، غير أنه مُحْتَنِكٌ فى سن رجل صغير ؛ غليظٌ عَبْلٌ شديد الجِبِلّة متراكِبٌ بعضُه على بعض[1] ، كأنه جِنّى مُتقاصِرٌ يَهُمُّ أن يطولَ منه المارد ، فأنِسَ به (عصمت) ، واطمأن إلى قوّته، وأقبل يشكو له ويبكى !

قال جعلص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير . . . !

قال جعلص : لا تَبْكِ يا ابن المدير . تعلَّمْ أن تكون جَلْداً ، فإن الضرب

---

(١) أى شديد فتل العضل مكتنز اللحم .

ليس بذُل ولا عار ، ولكن الدموع هى تجعله ذلا وعاراً ؛ إن الدموعَ لَتجعلُ الرجل أنثى . نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنىّ يا ابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ ، ولكنه ينكسر بلمْسة ، وحَشوُهُ مثلُ القطن !

ماذا تتعلم فى المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكونَ رجلاً يأكلُ من يريدُ أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحالتين فى خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معى العسكرى !

قال جعلص : ويحك ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت : آه لو كان معى العسكرى!

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعلص : من أنى أعْتَمِلُ بيدى فأنا أشتدّ وإذا جعتُ أكلتُ طعامى ؛ أما أنت فتستَرخى ، فإذا جعتَ أكلك طعامُك ؛ ثم من أنّى ليس لى عسكرى ..!

قال عصمت : بل القوةُ مِن أنك لستَ مثلنا فى المدرسة ؟

قال جعلص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفلٌ من وَرَق وكراسات لا من لحم ، وكأن عظامَك من طَباشير ! أنت يا ابن المدرسة هو أنتَ الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابن الحياة ، فأنا من الآن ، وعلىّ أن أكونَ « أنا » من الآن !

أنتَ . . .

* * *

وهنا أدركهما العسكرىُّ المسخَّر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن (عصمت) ، لاحبًّا فيه ، ولكن خوفًا من أبيه ؛ فما كاد يرى هذا العفَرَ على أثوابه حتى رنَّت صفعتُه على وجه المسكين جُعلص .

فصعَّر هذا خده ، ورشقَ عصمت بنظرِه ، وانطلق يعدو عَدْوَ الظَّليم! ياللعدالة! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير، وكان الباكى منها ابنَ الغنىّ..!

* * *

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غنِى بَطَلِ الحرب فى المال والنعيم ، ولكن بالجراح والمشقَّاتِ فى جسمه وتاريخه .

أحلام فى الشارع * (١)

على عتَبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرّخامَ البارد ، ويلتحفان جوًّا رخاميًّا فى برده وصلابته على جسميهما .

الطفل مُتَكَبْكِبٌ فى ثوبه كأنه جسم قُطّعَ ورُكمتْ أعضاؤه بعضُها على بعض ، وسُجّيَتْ بثوب ، ورُمِىَ الرأسُ من فوقها فمال على خده .

والفتاة كأنها من الهزال رَسْمٌ مُخَطَّط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تُعجبه . كتَب الفقرُ عليها للأعين ما يكتبُ الذُّبولُ على الزهرة : أنها صارت قَشًّا . . .

نائمةٌ فى صورةِ ميّتة ، أو كميّتة فى صورةِ نائمة ؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها ، وبقى وجهُ أخيها فى الظل ؛ كأن فى السماء ملَكًا وجَّه المصباح إليها وحدَها ، إذ عرف أن الطفلَ ليس فى وجهه علامةُ هم ، وأن فى وجهها هى كل همها وهمّ أخيها .

من أجل أنها أنثى قد خُلقتْ لتَلِدَ ــ خُلق لها قلبٌ يحمل الهمومَ ويلدها ويربّيها .

من أجل أنها أعدّت للأمومة ، تتألم دائمًا فى الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم .

من أجل أنها هى التى تَزيد الوجودَ ، يزيدُ هذا الوجودُ دائما فى أحزانها . وإذا كانت بطبيعتها تُقَاسى الألمَ لايُطاقُ حين تلدُ فَرَحَها ، فكيف بها فى الحزن . . . !

* * *

وكان رأسُ الطفل إلى صدر أختِه ، وقد نام مطمئنا إلى هذا الوجود النّسْوىّ ، الذى لابد منه لكل طفل مثله ، ما دام الطفلُ إذا خرج من بطن أمه خرج إلى الدنيا وإلى صدرها معًا .

---

* اقرأ قصة هذه المقالة فى (عمله فى الرسالة) من كتاب حياة الرافعى .

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك) .

ونامت هى ويدُها مُرْسَلَةٌ على أخيها كيَدِ الأم على طفلها . يا إلهى ! نامت ويدُها مستيقظة !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التى شَقِيتْ بالسعداء فعوضها الله من رحمته ألا تجدَ شقيًّا مثلَها إلا تضاعفت سعادتُها به ؟

تمثالان يصوران كيف يَسْرى قلبُ أحد الحبيبين فى الجسم الآخر ، فيجعلُ له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها ، ولا سعادتَها وشقائِها ، لأنه وجودُ الحب لا وجودُ العمر ؛ وجودٌ سحرىّ ليس فيه معنى للكلمات ، فلا فرقَ بين المال والتراب ، والأمير والصُّعلوك ؛ إذ اللغةُ هناك إحساسُ الدم ، وإذ المعنى ليس فى أشياء المادة ولكن فى أشياء الإرادة .

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت ، فيكونَ بعده للمال معنى وللتراب معنى . . . ؟ هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيهًا بما يفعله الموتُ فى نقلهِ الحياةَ إلى عالم آخر ، بَيْدَ أن أحدَ العالَمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

* * *

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفلُ المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد ، خف ثقلُ الدنيا على قلبه .

لم يبالِ أن نَبَذَه العالَمُ كلُّه ، ما دام يجد فى أخته عالَمَ قلبِه الصغير وكأنه فرخٌ من فِراخ الطير فى عُشّه المعلّق ، وقد جَمَعَ لحمَه الغَضّ الأحمرَ تحت جَناح أمه ، فأحسّ أهنأ السعادة حين ضيَّق فى نفسه الكونَ العظيم ، وجعله وُجوداً من الريش .

وكذلك يَسعد كلٌّ من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفى هذا تفعلُ الطفولةُ فى نشأةِ عمرها ما لا تفعلُ بعضَه معجزاتُ الفلسفة العُليا فى جملة أعمارِ الفلاسفة .

وما صنع الذين جُنُّوا بالذهب ، ولا الذين فُتنوا بالسُّلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطَّموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثًا أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتُعطيَهم فى الذهب والسلطةِ والحبّ والشهواتِ ما نَولَتْه هذا الطفلَ المسكينَ النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب رُوحه الأرضى .

ألا إن أعظمَ الملوك لن يستطيعَ بكل ملكه أن يشترىَ الطريقةَ الهنيئةَ التى يَنْبِضُ بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل .

* * *

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقنٌ أن حولَهما ملائكةً تصعد وملائكةً تنزل ؛ وقلت هذا موضعٌ من مواضع الرحمة ، فإن الله مع المنكسِرة قلوبُهم ، ولعلّى أن أتعرضَ لنفْحة من نفَحاتها ، ولعل ملَكًا كريمًا يقول : وهذا بائسٌ آخر ، فيَرُفُّنى بجناحه رفّةً ما أحوج نفسى إليها ، تجدُ بها فى الأرض لمسةً من ذلك النور المتلألئ فوقَ الشمس والقمر .

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحًا ، كأنه سجنٌ أقفل على شيطان يُمسكه إلى الصبح ، ثم يُفتَح له لينطلق مُعَمِّرًا ، أىْ مخرّبا . . . أو هو جسمُ جبار كفَر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظِ نفسه فمسخه الله بناء ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره . . .

ياعجبا! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطَّوَى والهم ، ثم لايكون وِسادُهما إلا عتَبة البنك ! ترُى مَن الذى لعَن (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعَهما ذلك ليثبتَ للناس أن ليس البنك خزائنَ حديديةً يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب . . . ؟

* * *

وقفتُ أرى الطفلين رؤيةَ فكر ورؤية شعر معًا ، فإذا الفكرُ والشعر يمتدان بينى وبين أحلامهما ، ودخلت فى نفسين مضّهما الهمُّ واشتد عليهما الفقر ، وما من شىء فى الحياة إلا كادّهما وعاسَرَهما ؛ ونمت نومتى الشعرية . . .

قال الطفل لأخته : هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقفَ على باب (السيما) نتفرجُ مما بنا ، فنرَى أولادَ الأغنياء الذين لهم أبٌ وأم .

انظرى هاهم أولاء يُرَى عليهم أثرُ الغِنى ، وتُعرَف فيهم رُوحُ النعمة ؛ وقد شَبِعوا . . . إنهم يلبسون لحمًا على عِظامهم ؛ أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء ؛ إنهم أولادُ أهليهم ؛ أما نحن فأولادُ الأرض ؛ هم أطفال ،

ونحن حَطَبٌ إنسانيّ يابِس ؛ يعيشون فى الحياةِ ثم يموتون ؛ أما نحن فعيشُنا هو سكَرات الموت ، إلى أن نموتَ ؛ لهم عيشٌ وموتٌ ، ولنا الموتُ مكرراً .

وَيَلِى على ذلك الطفلِ الأبيضِ السمين ، الحَسَنِ البِزَّةِ ، الأنيقِ الشاردة ، ذاك الذى يأكل الحلوى أكل لصٍّ قد سرق طعامًا فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ماسرق ؛ هو الغِنَى الذى جعله يبتلعُ بهذه الشراهة ، كأنما يشرَبُ ما يأكل ، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوق ؛ ونحن — إذا أكلنا — نَغَصٌ بالخبز لاأدْم معه ، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجدْ إلاالبَشيعَ من الطعام ، وأصبناه عَفِنًا أو فاسداً لايَسُوغُ فى الحَلق ، فإذا انخفضنا فليس إلا ما نَتقَمَّم من قُشور الأرض ومن حُتَاتِ الخبز كالدوابّ والكلاب ؛ وإن لم نجد ومسَّنا العُدْمُ وقفنا نَتَحيَّنُ طعامَ قوم فى دار أو نُزُل ، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولانطمع أن نستطعمَهم وإلا أطعمونا ضَرْبًا فنكونُ قد جئناهم بألم واحد فردُّونا بألمين ، ونفقد بالضرب ما كان يُمسك رَمَقَنا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفالُ يتضوَّرون شهوةً كلما أكلوا ، ليعودوا فيأكلوا ؛ ونحن نتضور جوعًا ولا نأكل ، لنعودَ فنجوعَ ولانأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم وبصَرهم ؛ ما من أنَّة إلا وقعتْ فى قلب ، وما من كلمة إلا وجدتْ إجابة ؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرِها ، أنينٌ ضائع ، ودموعٌ غيرُ مرحومة !

آه لوكَبرتُ فصرتُ رجلاً عريضًا ؟ أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إننى أخنق بيدىَّ كلَّ هؤلاء الأطفال !

— سَوْأة لك يا أحمد ، كلُّ طفل من هؤلاء له أمٌّ مثلُ أمنا التى ماتت ، وله أختٌ مثلى ؛ فما عسى ينزل بى لوثَكِلْتُكَ إذا خنقك رجلٌ طويل عريض ؟

— لا ، لاأخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير . . . أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أرأيتِ عربةَ الإسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشًا للرجل

الهرِم المحطَّم الذى أعمى عليه فى الطريق ؟ سمعتُهم يقولون : إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غُفلٌ لم يتعلم من الحياة مثلَنا ، ولم تُحكِمْه تجاربُ الدنيا ؛ فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرِها لايُحييه المديرُ ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجدُ من الناس من يبتدرونه لنَجدتِه وإسعافِه بقلوب إنسانية رحيمة ، لابقلبِ سوّاق عربة ينتظر المصيبةَ على أنها رزقٌ وعَيش .

إن عَرباتِ الإسعاف هذه يجب أن يكونَ فيها أكْل . . . ويجب أن تحمل أمثالَنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أمٌ تطعمه وتؤويه فلتَصْنَع له أمٌ .

كلُّ شىء أراه لا أراه إلا على الغلَط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبِرَة إدبارها ، وما قطُّ رأيتُ الأمور فى بلادنا جاريةً على مَجاريها ؛ فهؤلاء الحكام لاينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكمُوا بقانون الفقر والرحمة ، لابقانون الغنى والقسوة ، وليتقحَّموا الأمورِ العظيمةَ المشتبهةَ بنفوس عظيمة صريحة قد نبتتْ على صلابة وبأس ، وخُلُق ودين ورحمة ؛ فإنه لاينهزم فى معركة الحوادث إلا روحُ النعمةِ فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرقُ من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحمًا ودمًا هم لحم الحاكم ودمُه فإن كان صُلبًا خَشِنًا فيه رُوحُ الأرض ورُوحُ السماء فذاك ، وإلا قَتَل اللينُ والترَفُ الحكمَ والحاكمَ جميعًا . وهؤلاء الحكامُ من أولاد الأغنياء لايكون لهم همٌ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطةُ درجةٌ فوق الغِنى ، ومن نال هذه استَشْرَف لتلك ، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلُق الظالم الذى يصوّر لهم الاعتداء قوةً وسطوة وعلوًا ، من حيث عَدِموا الخلُقَ الرحيمَ الذى يصوّر لهم هذه القوة ضعفًا وجُبنًا ونذالة . إن أحدَهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للإنسانية . يحرصون على ما به تمامُهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرصِ أخلاقَه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانَعة والمهاوَنة ، نازلاً فنازلاً إلى دَرَكٍ بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ما داموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعةَ والتجارةَ ، ليجدوا عملا شريفًا يُصيبون منه رزقَهم بأيديهم لابأيدى آبائهم ، فإنه والله لولا العمى الاجتماعىُّ لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطل فى أملاك أبيه من القصور والضياع ، وابن الفقير متبطّل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعفُّفِه وكرمِه ، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانةَ والصدق ، إذ هو لا يكذبُ ولا يسرق ما دام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابنُ الفقير الذى يضطره العيشُ أن يكون تاجراً أو صانعًا ، فتكونَ حرفته التجارة وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثرَ عُمرِه مادّةَ كَذِب وإثم ولصوصية .

آه لو صرتُ مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوة إلى الإنسانية ، وأحملُهم عليها حملاً ، صلح فيهم صفاتِها التى أفسدَها الترَف واللين والنعمة ، ثم أصلح ما أخل به الفقرُ من صفات الإنسانية بالفقراء ، وأحملُهم على ذلك حملا ، فيستوِى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولدَه القانون . ألاَ إن سقوطَ أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الإنسانية فى أفرادها ، فتَقطَّعَ ما بينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهلُ وطنهم .

ومتى أحكِمَت الصفاتُ الإنسانية فى الأمة كلها ودانى بعضُها بعضًا — صار قانونُ كل فرد كلمتين ، لا كملة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حقّى) ونحن نريد أن يكون (حقّى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام — إلا قانونُ الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . . لستُ المديرَ بما فى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . . كلا ، أنا عملٌ اجتماعىٌ منظَّم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خُلقٌ ثابت يوجّه أخلاقَهم بالقوة ، أنا الحياة الأمُّ مع الحياة الأطفالِ الاخرة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمةُ ، عندى الجنة

ولكن عندى جهنم أيضاً ما دام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد، لكنى الإصلاح .

هأنذا قد صرتُ مديراً أعُس فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفل وأخته على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقَّعة ، فى دُنيا تمزقتْ عليهما ، قم يا نبيّ ، لاتُرَعْ إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول إنك ما نمتَ من الجوع ، ولكن مَضْمَضْتَ عينك بشُعاع النوم ؟

ياولدى المسكينين . بأيّ ذنب من ذنوبكما دقّتكما الأيام دقّاً وطحنتكما طحناً ، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلان باشا ، وبنتُ فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنّقان فيه ، ما الذى ضرّ الوطنَ منكما فتموتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا ؟

إن كنتَ يابنى لاتملك لنفسك الانتصار من هذه الظّليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق .

إلى يا ابن فلان باشا و بنتَ فلان باشا .

يا هذا عليكَ أخاك أحمد ولتكن به حَفِيّاً ، ويا هذه ، عليك أختك الآنسة أمينة . . . .

أتأبيان ، أنَفْرَةً من الإنسانية ، وتمرُّداً على الفضيلة ، أحقّاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ؟ ! خُلقتما أبيضين سخريةً من القدَر وأنتما فى النفس من أحْبوشة الزنج ومَناكيد العبيد .

ورفع أحمد يدَه . . . .

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، وإليه حراسةُ البنك ، قد توَسَّنَهما[1] ودخلته الرِّيبة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة ، وقبل أن تنزلَ يدُ سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى قد ركَلَه برجله ، فوثَب قائماً واجتذب أختَه وانطلقا عَدْوَ الخيل من ألْهُوبِ السَّوط .

... ...

وتمجَّدت الفضيلة كعادتها . . ! . . أن مسكيناً حَلَم بها . .

---

(١) توسنهما : أتاهما نائمين

أحلام فى قصر *

كان فلانٌ بنُ الأمير فلان يتنبَّل فى نفسه بأنه مُشْتَقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تيَّاهًا صَلِفًا يشمَخُ على قومه بأنه ابنُ أمير ، ويختالُ فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء ، ويرى من تَجَبُّرِه أن ثيابه على أعطافه كحدود الملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملوك .

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفى دمهم شعاعُ السيف ، وبريقُ التاج ، ونخوةُ الظفَر ، وعِز القَهرْ والغلَبة ؛ ولكنَّ زمنَه الحصار ضربَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره ، فتراجعتْ فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تمشيد الإمارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وغَبَرَ دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاترُ حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة .

وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولادُ أمراء ، فيكونون من التكبُّر والغرور كأنما رَضُوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط . . .

* * *

وانتقل الأميرُ البخيل إلى رحمة الله ، وترك المالَ وأخذ معه الأرقام وحدَها يُحاسَب عنها ، فورِثَه ابنُه وَأمَرَّ يدَه فى ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للإحسان . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة : جُمع للشيطان .

أما الشيطانُ فكان له عملٌ خاص فى خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لايُلبِسه ثيابًا بل أفكاراً وآراء وأخْيِلَة . وكان يجهدُ أن يُدخِل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرِجَ منها دنيا جديدةً مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهى أعصابٌ مريضة ثائرة متلهِّبة لايكفيها ما يكفى غيرَها فلا

---

* انبعثت خواطر هذه المقالة فى نفس الرافعى على أثر كتابته مقالة « أحلام فى الشارع » السابقة ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمان .

تَبرحُ تسأل الشيطانَ بين الحين والحين: ألاَ تُوجد لذةٌ جديدة غيرُ معروفة؟ ألاَ يستطيعُ إبليسُ القرنِ العشرين أن يخترعَ لذةً مبتكرة ؟ ألا تكونُ الحياة إلا على هذه الوتيرة من صُبحها لصُبحها ؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترعَ كأساً تَسَعُ نهراً من الخمر ، أو يجدَ له امرأة واحدةً وفيها كلُّ فنون النساء واختلافِهنّ . وكان يريد من الشيطان أن يُعينَه فى اللّذة على الاستغراق الرُّوحانى ويَغمُرَه بمثل التجلّيات القُدسية التى تنتهى إليها النفسُ من حِدَّة الطرب وحِدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثَمّ كان معه فى جهْدٍ عظيم حتى ضجر منه ذاتَ مرة فهمّ أن يرفع يدَه عنه ويَدَعَه يدخلُ إلى المسجد فيصلّى مع بعض الأمراء الصالحين .

وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ؛ فهمُّهم دائماً الألَذّ والأجملُ والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذّة منتهاها ولم تجدْ عاطفتُهم من اللذاتِ الجديدة ما يُسْعِدُها ، ضاقت بهم فظهرتْ مظهرَ الذى يُحاول أن ينتحر ، وذلك هو الملل الذى يُبتَلون به . والفاسقُ الغنىُّ حين يملُّ من لذاته يُصبح شأنُه مع نفسه كالذى يكون فى نفَق تحت الأرض ويريد هناك سماء وجوّاً يطير فيهما بالطيارة . . .

* * *

قالوا : واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذٌ مريضٌ قد أسنّ وعجز يتحاملُ بعضُه على بعض ، فسأله أن يُحسن إليه وذكر عَوَزَه واختلالَه ، وجعل يَبُثُّه من دُموعه وألفاظِه . وكان إبليسُ فى تلك الساعة قد صَرَفَ خواطرَ الشاب إلى إحدى الغانيات الممتنعات عليه ، وقد ابتاع لها حِليةً ثمينة اشتطّ بائعُها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قَدرٌ من قادر ... وقَطَعَ عليه الشحاذُ المسكين أفكارَه المضيئةَ فى الشخص المضىء ، فكان إهانةً لخياله السامى . . . ووجد فى نفسه غَضاضةً من رؤية وجهِه ، واشمأزّ فى عُروقه دمُ الإمارة ، وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم . . .

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءه عليه ، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَذِر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أميرٌ يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا

الشيطانَ الذى فيه . وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرىّ الخَرِب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينار عند مُومِس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير . أنت أمير ، فهل تثْبِتُ الحياةُ أنك أمير أو هذا معنى فى كلمة من اللغة؟ إن كانت الحياةَ فأين أعمالُك، وإن اللغةُ فهذه لفظةٌ بائدة تدلُّ فى عصور الانحطاط على قِسْطِ حاملها من الاستبداد والطغيان والجَبَروت ، كأن الاستبدادَ بالشعب غنيمةٌ يتناهَبُها عظماؤه ، فقِسْمٌ منها فى الحاكم وقسمٌ فى شبه الحاكمُ يترجَم عنه فى اللغة بلقب أمير .

ألاَ قُلْ للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم . . .

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جَرَم أهين الشحاذُ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو .

ونام ابنُ الأمير تلك الليلةَ فكانت خيالتُه[1] من دنيا ضميره وضميرِ الشحاذ: فرأى فيما يرى النائم أن مَلكاً من الملائكة يهتف به :

ويلكَ ! لقد طَردتَ المسكينَ تخشى أن تنالك منه جراثيمُ تمرضُ بها ، وما علمتَ أن فى كل سائل فقير جراثيمَ أخرى تمرض بها النعمة ؛ فإن أكرمته بقيتْ فيه ، وإن أهنتَه نَفَضها عليك . لقد هلكت اليومَ نعمتُك أيها الأمير ، واستردّ العاريةَ صاحبُها ، وأكلت الحوادثُ مالَك فأصبحتَ فقيراً محتاجاً ترومُ الكِسْرَةَ من الخبز فلا تتَهيأ لك إلا بجهد وعمل ومشَقة ؛ فاذهبْ فاكْدَح لعيشك فى هذه الدنيا ، فما لأبيك حقّ على الله أن تكونَ عند الله أميراً .

قالوا : وينظر ابنُ الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الإمارة كانت وهماً فرضه على الناس قانونُ العادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوُها إنما كانت مَكْراً من المكْر لإثبات هذا الظاهر والتعزُّز به . وينظر ابنُ الأمير ، فإذا هو بعد ذلك صُعلوكٌ أبترُ مُعْدِمٌ رَثٌّ

---

(١) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه .

الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظًا : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابنُ الأمير ؟

قالوا : ويهتفُ به ذلك الملك : ويحكَ إن الأقدار لاتُدلّلُ أحداً ، لاملِكا ولاابنَ ملِك ، ولاسُوقيًّا ولا ابن سُوقى ، ومتى صرتم جميعًا إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير . . . .

* * *

قالوا : وفكّر الشاب المسكينُ فى صواحبه من النساء ، وعندهن شبابهُ وإسرافُه ، ونفقَاته الواسعة ، فقال فى نفسه : أذهبُ لإحداهن ؛ وأخذ سَمْتَه إليها ، فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبَذاذته وفقره حتى أمرتْ به فجُرَّ بيديه ودُفِـع فى قفَاه . ولكن دمَ الإمارة نزا فى وجهه غضَبًا ، وتحركت فيه الوراثة الحربية ، فصاح وأجْلَب واجتمع الناس عليه واضطربوا ، وماج بعضُهم فى بعض . فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتةٌ فأبصر غلامًا قد دخل فى غُمارِ الناس ، فدَسَّ يدَه فى جيب أحدهم فنَشل كيسَه ومضى .

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحقَ بالغلام فيكْبِسَه كبسةَ الشُّرْطى وينتزعَ منه الكيس وينتفعَ بما فيه ، فتسلَّل من الزحام وتبع الصبىَّ حتى أدركه ثم كَبسَه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنزَ ، فإذا ليس فيه إلا خاتمَ وحجاب وبعضُ خرَزَات مما يتبرك العامة بحمله ، ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظًا وفار دمُ الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه . وألم الصبىُّ بما فى نفسه ، وحَدَسَ على أنه رجل أفّاقٌ مُتَبطّل ، لانَفَاذَ له فى صناعة يرتزقُ منها ، فرثَى لفقره وجهلِه ودعاه إلى أن يعلّمه السرقةَ وأن يأخذَه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة ، فإذا دخلتَ القسم الإعدادىَّ منها تعلمتَ كيف تحمل المِكْتَل[1] فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرقَ الباليةَ من الدُّور حتى إذا سنَحَتْ لك غَفلة انسللتَ إلى دار منها ، فسرقتَ ما تناله يدُك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تُحْكِمَه ، ومتى حذقته ومَهَرْتَ فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

---

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص .

فصاح ابن الأمير : أُغرُبْ عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الإعدادىّ والثانوىّ معًا .

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينا هو يمشى وقد توزَّعتْه الهمومُ ، أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدِّين، وتلك العللِ التى ينتحلونها للكُدْية كالذى يتعامى والذى يتخارج والذى يُحدِث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دَم الإمارة اشمأز فى عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية ! وبَصُر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّض لمعروفه ، وأفضى إليه بهمّه ، وشكا ما نزل به ثم قال: وإنى قد أمَّلْتك وظنّى بك أن تصطفينى لمنادمتك أو تُلحقَنى بخدمتك ، وما أريد إلا الكَفافَ من العيش ، فإن لم تبلغ بى ، فالقليلُ الذى يعيش به المُقِلّ . وصعَّد فيه الشاب وصوَّب ثم قال له : أتحسن أن تلطُف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقةٌ فى هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . ؟

فانتفض غضباً وهمَّ أن يبطُشَ بالفتى لولا خوفُه عاقبةَ الجريمة، فاستخذَى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقًا فأمَّل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت ، غيرَ أن أصحابَها جعلوا يزجرونه مرةً ويطردونه مرة، إذ وقعتْ به ظِنَّةُ التلصُّص، وكادوا يُسلِمونه إلى الشرطِى فمضى هارباً ؛ وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسَه ودهرَه وإمارتَه وبؤسَه جميعاً .

قالوا : ومر فى طريقه إلى مَصْرعه بامرأة تبيع الفُجْلَ والبصلَ والكُراث ، وهى بادنَة وَضيئةَ ممتلئةُ الأعلى والأسفل، وعلى وجهها مَسْحةُ إغراء ، فذكر غزلَه وفتنتَه واستغواءه للنساء ، ونازعتْه النفسُ ، وحسب المرأةَ تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لاتُعجِزه ولاتفوتُه وهو فى هذا الباب خرَّاجٌ ولاَّجٌ منذ نشأ . . — غير أن ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو فى عينه ثم هرت فى وجهه هَريراً منكراً واستَعْدَتْ عليه السابلةَ فأطافوا به وأخذه الصفعُ بما قَدُمَ وما حدُث ، وما زالوا يتَعاورونه حتى وقع مغشيًّا عليه .

ورأى فى غَشْيته ما رأى من تمام هذا الكَرب ، فضُرِب وحُبس وابتُلى بالجنون وأرسل إلى المارستان ، وساح فى مصائب العالَم ، وطاف على نكَبات

الأمراء والسُّوقة بما يعى وما لايعى ، ثم رأىأنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فراشِه الوثير .

* * *

ويا ليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يُحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

ياليت من يدرى ! فإن الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبرَ عندما انقطع الصفع . . . .

بنت الباشا . . . *

كانت هذه المرأةُ وضَّاحةَ الوجه، زَهراء اللون كالقمر الطالع ، تحسبها لجمالها غذَّتْها الملائكة بنور النهار ، وروَّتها من ضَوء الكواكب .

وكانت بَضَّةً مُقَسَّمَةً أبدعَ التقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئًا على شيء التفافًا هندسيًّا بديعًا ، يرتفع عن أجسام الغِيدِ الحسان ؛ أفْرغَ فيها الجمالُ بقدر ما يمكن — إلى أجسام الدُّمى العبقريةِ التى أفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمةً أبداً ما يتلألأ الفجر ، حتى كأن دمها الغزَلىَّ الشاعرَ يصنع لثغرها ابتسامتَها ، كما يصنع لخديها حُمرتَهما .

ما لَها جلست الآن تحتَ الليل مُطْرِقةً كاسِفةً ذابلة ، تأخذُها العينُ فما تَشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبعُ نُور وغاض ! وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقْعَةٌ من الحياة أقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العينِ الكحيلة تُذرِى الدمعَ وتسترْسِلُ فى البكاء وتَلجُّ فيه ، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقًا تُفضى منه نفسُها إلى الحبيب الذى لم يَعُد فى الدنيا ؛ إلى وحيدها الذى أصبحتْ تراه ولاتلمسه ، وتكلِّمه ولا يَرُدُّ عليها ؛ إلى طفلها الناعمِ الظريفِ الذى انتقل إلى القبر ولن يرجع ، وتتمثلُهُ أبداً يريد أن يجىء إليها ولا يستطيع ، وتتخيلهُ أبداً يَصيح فى القبر يناديها : « يا أمى ، يا أمى . . . »

قلبُها الحزينُ يُقَطَّع فيها ويُمَزَّقُ فى كل لحظة ؛ لأنه فى كل لحظة يُريد منها أن تضمَّ الطفلَ إلى صدرها ، ليستشعرَهُ القلبُ فيفرحَ ويتهنَّأ إذ يَمَسُّ الحياةَ الصغيرة الخارجةَ منه ولكن أين الطفل ؟ أين حياة القلبِ الخارجةُ من القلب ؟

* انظر خبر هذه القصة وحديث « الزبال الفليسوف » فى « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » .

لاطاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب ، ولا طاقةَ لقلبها أن يَهْدَأَ عمّا يطلب ؛ فهو من الغيظ والقَهر يحاولُ أن يُفَجّرَ صدرها ، ويريد أن يَدُقّ ضلوعَها ، ليَخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبه !

مسكينةٌ تتَرَنّحُ وتتلَوّى تحت ضَربات مُهْلكة من قلبها ، وضَربات أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيشُ فى مثل اللحظة التى تكون فيها الذّبيحةُ تحت السكّين . ولكنها لحظةٌ امتدّت إلى يوم ، ويومٌ امتد إلى شهر . يا ويلَها من طول حياة لم تَعدُ فى آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدّة الذّبح للمذبوح .

ولو كان للموت قطارٌ يقفُ على محطّة فى الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافرَ من وُجود إلى وجود ، وكانت هذه الأمُّ جالسةً فى تلك المحطة منتظرةً تتربّص ، وقد ذُهلَتْ عن كل شيء ، وتجردتْ من كل معانى الحياة ، وجمدت جمودَ الانتقال إلى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة فى مجلسها الآن فى شُرفتها من قصرها ؛ تُطلُّ على الليل المظلم وعلى أحزانها . . . !

* * *

هى فلانة بنت فلان باشا وزوجةُ فلان بك . تَرادَفَت النّعمُ على أبيها فيما يَطلبُ ومالا يطلُب ، وكأنما فرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعجب الزمانَ ذلك ، فأخذ يقترحُ له ويصنع ما يقترح ، ويزيدُه على رَغمه نعَماً تتوالَى !

وكان قد تقدم إلى خطْبة ابنته شاب مهذّب ، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلم ، ومن أسلافه العُنصرَ الكريمَ والشرفَ الموروث ؛ ومن أخلاقه وشمائله ما يُكاثرُ به الرجالَ ويُفاخر . بَيْدَ أنه لا يملك من عيشه إلا الكَفافَ والقلّة ، وأمَلاً بعيداً كالفجر وراء ليل لابد من مُصابرته إلى حينِ يَنْبَثقُ النور .

وتقدم صاحبُنا إلى الباشا فجاءه كالنّجم عاريا ؛ أى فى أزهَى نُورانيّته وأضوَئها . وكان قد عَلقَ الفتاةَ وعلّقتْه ، فظنّ عند نفسه أن الحبَّ هو مال الحب ، وأن الرجولةَ هى مالُ الأنوثة ، وأن القلوبَ تتعامل بالمسَرّات لا بالأموال ، ونَسىَ أنه يتقدم إلى رجل مالىّ جعلتْه حقَارةُ الاجتماع رُتبة ، أو إلى رتبة

ماليّة جعلتها حمّارةُ الاجتماع رجلاً.. وأن كلمة «باشا» وأمثالـَها إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم: مذهبِ الألوهية الكاذبة التي انتحلـَها فـِرْعونُ وأمثالـُه، لـيَتَعَبَّدُوا الناس منها بألفاظِ قلوبهم المؤمنة؛ فإذا قيل «إلـٰه» كان جواب القلب: «عزّ وجلّ»، «سُبْحانه»....

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس، تلطـَّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية، لتتعبّدَ الناسَ بألفاظِ عقولهم الساذَجة؛ فإن قيل «باشا» كان جوابُ العقل الصغير: «سعادتلو أفندم!»[1].

نسي الشاب أنه «أفندى» سيتقدم إلى «باشا» وأعماه الحبُّ عن فـَرْقِ بينهما؛ وكان ساميَ النفس، فلم يـُدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحلَ السموَّ انتحالا، وأن الشعبَ الذى لايجد أعمالا كبيرة يتمجَّد بها، هو الذى تـُخْتـَرَع له الألفاظُ الكبيرةُ ليتلهـّى بها؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ؛ فإن قيل «باشا»، فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعيُّ العظيم فى أمم الألفاظ، ومعناها العلميّ: قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل؛ ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظُ «الآلة البخارية»، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصانـًا أو أقل أو أكثر[2]!

نسي هذا الشاب أن «أمم الأكل والشرب» فى هذا المشرقِ المسكين، لاتتم عظـَمتـُها إلا بأن تـَضـَع لأصحاب المال الكثير ألقابـًا هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعية للمـَعدة التى تأكل الأكثرَ والأطيبَ والألذّ، وتملك أسبابَ القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر.

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع، ويتواضع وينكمش، ولايألوه تمجيداً وتعظيمـًا؛ ولكن أين هو من الحقيقة؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق؛ إذ لم يعرف أن تقدُّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة. فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة. وقد أرادت بها رفع الأعلى، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل.

(٢) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى.

« أفندى» تطاولتْ إلى كلمة « باشا » بالسبّ علَنا . . . !

* * *

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضًا كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة .

و« بك » منَبْهَةٌ للاسم الخاطب، وشَرفٌ وقَدْرٌ وثناء اجتماعى، وذِكْر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرُمَات اللازمة للإسم لزومَ السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بِك) رجلٌ ، فإن تحتها على كل حال (بك) . . . ! وأنْعَمَ له الباشا، ووصل يَده بيد ابنته فألبَسها وألبَستْه ، وأعلمها أبوها أنه قد فَحَصَ عن البك فإذا هو (بك) قوة مائتى فدان . . . . أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسىّ الاجتماعىّ أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر . . . !

وخَنَسَ الأفندى وتراجَعَ مُنْخَزِلاً ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوَّج لقبَه قبل أن يزوج ابنَته، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه « أمم الأكل والشرب » من حق المعدة، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌّ مُفْلِس أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال .

وقدَّمت مائتَا الفدانِ مهرها « الطّينىَّ » العظيم بما تعبيرُهُ فى اللغة الطينية : ثمنُ عشرين ثوراً، ومثلها جاموسًا ، ومثلها بِغالاً وأحمِرة ، وفوقها مائةُ قنطارِ قطنًا ، ومائة إردب قمحًا ؛ ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والمجموعُ الطينىُّ لذلك ألفُ جنيه ، وعزّى الباشا أنه مستطيعُ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلتها الأزْمة قَبَّحَها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا» زِفافًا طينيًّا بهذا المعنى أيضًا ، كان تعبيرُهُ : أنه أنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارِ بصلاً ، ومائةِ غِرارةٍ من السَّماد الكيماوى ، كأنما فُرِش بها الطريق . . . !

وَطفِقَ الباشا يُفاخِر ويتمدَّحُ ، وَيتَبَذَّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى

بالطين ومعانى الطين ؛ فردَّت الأقدارُ كلامَه ، وجعلت مَرْجعَه فى قلبه ، وهيَّأتْ لبنت الباشا معيشةً « طِينية » بمعنى غير ذلك المعنى . . .

* * *

ومات الطفل ؛ فردَّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها التّرابَ والطين .

ولجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لاترى إلا القبرَ ، ولاتتمنى إلا القبر ، تلحق فيه بولدها ؛ فوضعت الأقدارُ من ذلك فى رُوحِها معنى الطين والتراب .

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها ؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عَمَلَ الطين ، فى تحليله الأجسامَ وإذابتِها تحت البِلَى .

* * *

وكان وراء قصرها حِوَاء[1] يأوى إليه قوم من « طين الناس » بنسائهم وعيالهم ، وفيهم رجلٌ « زَبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ مَفَاخره وأجملَ آثاره ، ولايزال يرفع صوتَه متمَدِّحًا بهم ، ويخترع لذلك أسبابًا كثيرة لكى يَسمعَه جيرانُه كل ليلة مُفاخراً ، مرة بأحمد ، ومرة بحَسَن ، ومرة بعَلِىّ ، وأعجَبُ أمرِه أنه يرى أولاده هؤلاء متمِّمين فى الطبيعة لأولاد « الباشوات » . . . وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترِسِ لصغاره ؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعةَ قوَّته ، فلا يزال يَحُوطُهم ويتمِّمهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقاتلُ الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجُودُهم ، وأن الطبيعة وهبتْ له منهم مَسَرَّاتِ قلبه ، ذلك القلبِ الذى انحصرت مسرَّاتُه فى النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ إلى نهاية الحب . وكذلك الزبَّالُ الأسد[2] .

---

(١) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الأحياء .

(٢) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا ليتمم فلسفته . والكاتب يعرف الرجل ويبره أحياناً وكان (حضرته) قد طلب إلينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الأغنية التى يراها القارئ بعد وهو يصدح بها فى لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله .

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ما وصفْنا ، وفى ضلوعها قلبٌ يُفَتِّتُ من كبدها ، ويُمزّق من أحشائها .

وبينا تُناجى نفسَها وتَعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتَستَحْمق أباها فيما أقدم عليه من نبذ كُفْئها لعجزه عن مهرِ باشا ، وإيثار هذا المهر الطينىّ ، وتَبَاهيه به أمام الناس ، وانْدِرائه بالطَّعن على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطين — بَيْنا هى كذلك إذا بالزبال ؛ كانسِ التراب والطين يهتفُ فى جوف الليل ويتغنّى :

يا لِيلْ ، يا لِيلْ ، ياليلْ ما تِنْجلى يا ليــــل

* * *

القلب(١) أهــو راضى لكَ حمــدى يا ربى
مِن الهــمومْ فاضى إفــرحْ لى يا قــلبى

* * *

يا دُوبْ كــدا يا دوبْ زَىّ الحــــمامْ عَايِشْ
ما يِمتْلِكْ غيرْ تُوبْ طُولْ عمرُه فيِه نافــشْ ...
ياليلْ ، يا ليلْ ، يا لِيلْ ما تنْجِلى يــا لِيـــلْ

* * *

إن قلت أنا فَــرْحَــانْ دا مِــينْ يِــكَدّبْنى
واكْتَرْ مِــنَ السلطانْ فــرحــانْ أنا يا بْنى

* * *

بين السيوفْ يا ناسْ لَم انكَسَرْ سِــيفى
وابْن الغِنَى مِحتَاسْ وأنـــا عـــل كـيفى . . .
ياليلْ ، يا ليلْ ، ياليلْ ما تِنْجِلى يا ليــــلْ

* * *

---

(١) انظر هامش الصفحة السابقة رقم (٢) .

وابْن الغِنَى فِ هَموم   والحالى خالى البالْ
والفقْر ما بِيِدُومْ   وتْدُومْ همومِ المالْ

* * *

يا طِيرْ يا طِيرْ ، يا طير   الحُرّ فوْقِ اللُّومْ
والخيرْ ، جميع الخير   لُقْمَهْ ، وعافْيَه ، ونُومْ
يا ليل ، ياليلْ ، ياليل   ما تِنْجِلِى يا ليل

* * *

ولم تخترْ الأقدارُ إلا زبالا تُرْسِلُ فى لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا . . . . !

وكسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ   وحَطْمُ نَفْسٍ بحطْمِ نفسِ
ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسى   كُنَاسةً هُيِّئَتْ لِكَنْسٍ . .

ورقة ورد*

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شيء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها ، فى المعانى التى أفردناه لها ؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، فرأينا ألا ننفرد بها ، وهى هذه : »

. . . كانت لها نفسٌ شاعرة، من هذه النفوسِ العجيبةِ التى تأخذُ الضِّدَّين بمعنى واحدٍ أحيانًا ؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحْزِنَها وتستدعىَ غضبَها ، ويُحْزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغ رضاها ، كأنْ ليس فى السرور ولا فى الحزن معانٍ من الأشياء ولكنْ من نفسها ومشيئتها .

وكان خيالُها مشبوبًا ، يُلْقِى فى كلِّ شيء لَمَعَانَ النور وانطفاءه ؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألْبسها الليلُ ، مُلِئت بأشيائها مبعثَرة مضيئةً خافتةً كالنجوم .

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلُها أحيانًا من بلاغة حِسّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها ؛ ويجعلها فى بعض الأحيان من دِقةِ هذا الحسّ واهتياجه كأنها بغير عقل . . .

وهى ترى أسمى الفكرِ فى بعضِ أحوالها ألا يكونَ لها فكر ؛ فتتركُ من أمورها أشياء للمصادفة ، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عُشّاقها . على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحِها وجسمِها : فالذكاء فى عقلها فَهْم ، وفى روحها فِتنة ، وفى جسمها . . . خَلاعة .

وكنت أراها مَرِحَةً مستطارة مما تَطْرَبُ وتتفاءل ، حتى لأحسبُها تودُّ أن

* انظر سبب إنشاء هذا الفصل فى « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى .

يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعدُ متَضَوِّرةً مهمومة تحزَن وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكونَ همًّا ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة ــ جميلةً ظريفة ، قد تمَّت لها الصورةُ التي تخلق الحب ، والأسرارُ التي تبعثُ الفتنة ؛ والسحرُ الذي يُميِّزُ روحَها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هي بوجهها الفاتن .

* * *

وكان حبي إياها حريقًا من الحب . فمثِّلْ لعينيك جسمًا تناوَل جِلْدَهُ مَسٌ من لَهَب ، فتسلَّع هذا الجلد[1] هنا وهناك من سَلْخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عُروقٌ من الجمر انتشرت في هذا الجسم . إنك إن تمثَّلتَ هذا الوصفَ ثم نَقَلْتَه من الجلد إلى الدم ــ كان هو حريقَ ذلك الحبِّ في دمي !

والحبُّ ــ إن كان حبًّا ــ لم يكن إلا عذابًا ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوةِ فعل الحقيقة التي في المعشوق ، ليس حالٌ منه في عذابه ، إلا وهي دليلٌ على شيء منها في جبَروتها .

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصيةِ المحب بشخصية محبوبه ، فيَسقُطُ العالَمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين ؛ وينتفي الواقعُ الذي يجرى الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائقُ لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجيء منه ، ويُصبح هذا الكونُ العظيم كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحملُ شيئًا إلا الصورةَ التي جُنَّ بها !

وتالله لكأنّ قانونَ الطبيعة يقضي ألا تحبَّ المرأةُ رجلاً يسمى رجلا ، وألاّ تكون جديرةً بحُبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ في الحرب . . . تلك الأهوال يُمثّلها الحيوانُ المتوحّشُ عملاً جسميًّا بالقتال على الأنثى ، ثم تَرِقُّ في الإنسانِ المتحضر فيمثّلُها عملاً قلبيًّا بالحبّ . . .

* * *

---

(١) أي تشقق وتسلخ .

أحببتُها جهْدَ الهوى حتى لامَزيدَ فيه ولا مطمعَ في مزيد،ولكن أسرارَ فتنتها استمرَّت تتعدَّدُ فتدفعُني أن يكون حبي أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكنُ في الحبِّ أشدُّ من هذا ؟

ولقد كنتُ في استغاثتي بها من الحب كالذي رأى نفسَه في طريق السَّيل ففرَّ إلى رَبْوَة عالية في رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالذي فاجأه البركانُ بجنونه وغِلظتِه فهرب في رقةِ الماء وحِلمه ؛ ولاسيلَ ولابركانَ إلا حُرقتي بالهوى وارتماضي من الحبّ .

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هي الطبيعة ، هي الطبيعةُ في العاشق .

هي الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسْفِها ، وتعنُّتِها . إذا استراح الناسُ جميعًا قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقِلَ الناس جميعًا قالت في العاشق : إلا هذا . . .

إذا بَرَأتْ جِراحُ الحياةِ كلُّها قالت : إلا جَرْحَ الحبّ . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدَّمعةِ والدمعة ، قالت : إلا هَمَّ العشق . . . !

إذا تغيَّر الناسُ في الحالة بعد الحالة ، قالت في الحبيب : إلا هو . . . !

إذا انكشف سرُّ كلِّ شيء ، قالت : إلا المعشوقَ ؛ إلا هذا المحجَّبَ بأسرار القلب . . . !

* * *

ولما رأيتها أوّلَ مرةٍ ، ولَمَسَني الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلستُ إليها أتأمَّلُها وأحتَسِي من جمالها ذلك الضياء المُسْكِرَ ، الذي تُعرْبِدُ له الروحُ عَرْبدَةً كلّها وقارٌ ظاهر . . . فرأيتُني يومئذ في حالة كغَشْية الوحْي ، فوقها الآدميةُ ساكنةٌ ، وتحتها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري .

وكنتُ ألْقَى خواطرَ كثيرة ، جَعَلَتْ كلَّ شيء منها ومما حولها يتكلم في نفسي ، كأن الحياةَ قد فاضتْ وازدحمت في ذلك الموضع تجلس فيه ، فما شيءٌ يمرُّ به إلا مسَّتْه فجعلته حيًّا يرتعش ، حتى الكلمات .

وشَعَرْتُ أوّلَ ما شعرْتُ أن الهواء الذي تتنفَّسُ فيه يرقُّ رِقَّةَ نسيمِ

السَّحَر، كأنما انخدع فيها فحَسِبَ وجهها نورَ الفجر!

وأحسستُ فى المكان قوةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتْنى مُبَعْثَراً حولَ هذه الفتَّانة ، كأنها محدودةٌ بى من كلِّ جهة .

وخُيِّلَ إلىَّ أن النواميسَ الطبيعيةَ قد اختلَّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أعْظُمُ أمامَها مرةً ، وأصغُر مرة .

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورة من الوجود النسائىِّ الشاذِّ ، وقع فيها تنقيحٌ إلٰهىٌّ لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوَّاءَ فى الجنة .

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ؛ وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمرَح ، لأن الله وَضعه فى هذا السرورِ الحىِّ المخلوقِ امرأة .

والتمستُ فى محاسنها عيبًا ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

* إذا عِبْتُها شبَّهتُها البدر طالعا . . . ! *

* * *

ورأيتها تضحكُ الضَّحِكَ المُسْتَحِى : فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . .

وتَبَسم ابتسامات تقول كل منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !

ويغمرُها ضَحِكُ العين والوجهِ والفمِ وضحكُ الجسمِ أيضًا باهتزازِه وتَرَجْرُجِه فى حركات كأنما يبسم بعضُها ويُقَهْقِهُ بعضُها . . .

وتُلْقِى نظراتٍ جَعَل الله معها ذلك الإغضاءَ وذلك الحياء ليضعَ شيئًا من الوقاية فى هذه القوةِ النَّسْوِيَة ، قوّةِ تدمير القلب .

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها حتى لايتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ، وكأنه جسمٌ ملائكىٌّ ليس له إلا الجلالُ طوعا أو كَرْهًا ؛ جسم كالمعْبَد ، لايَعرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشَع .

وتطالعُك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لاتُفْهَم أبداً : أىْ تريد الفهمَ الذى لاينتهى ؛ أىْ تطلب الحبَّ الذى لاينقطع .

وهى أبداً فى زينة حسنها كأنها عروس فى معرِض جَلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعةً ، ولها هى كلُّ ساعة .

* * *

أما طَرفُها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائفٌ ، أنا خائف !

ووجهُها تتغالبُ عليه الرزانةُ والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها .

وهى مِثلُ الشعر ، تُطرِبُ القلبَ بالألم يوجَدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم .

وهى مِثلُ الخمر ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرقرِقاً فيها بكل إغرائه !

وكلما تناولتْ أمامى شيئاً أو صنعتْ شيئاً خلقتْ معه شيئاً ؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس .

فيا كَبِداً طارت صدُوعا من الأسى . . . . !

* * *

ورأيتُنى يومئذ فى حالة كغَشيةِ الوحْى ، فوقها الآدميّةُ ساكنةً ، وتحتها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجرى .

* * *

يا سِحْرَ الحب ! تركتَنى أرى وجهَها من بَعدُ هو الوجه الذى تضحكُ به الدنيا ، وتعبسُ وتَتغيظ وتَتحامق أيضاً . . .

وجعلتَنى أرى الابتسامةَ الجميلةَ هى أقوى حكومة فى الأرض . . . !

وجعلتنى يا سحرَ الحب ؛ وجعلتنى يا سحرَ الحب مجنوناً . . . !

سُمُوُّ الحب*

صاح المنادى فى موسم الحج : « لايُفتى الناسَ إلا عَطاءُ ابنُ أبى رَباح »[١] وكذلك كان يفعلُ خلفاء بنى أمية ؛ يأمرون صائحَهم فى الموسِم ، أن يدلَّ الناس على مفتى مكة وإمامها وعالمِها ، ليَلقَوْه بمسائلهم فى الدين ، ثم ليُمسِكَ غيرُه عن الفَتْوَى ، إذ هو الحجةُ القاطعة لاينبغى أن يكون معها غيرُها مما يختلف عليها أو يُعارضُها ، وليس للحُجج إلا أن تُظاهرَها وتترادفَ على معناها .

وجلس عطاءٌ يتحيَّنُ الصلاةَ فى المسجد الحرام ، فوقف عليه رجلٌ وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتَيْتَ كما قال الشاعر :

سَل المُفتيَ المكيَّ : هل فى تزاوُرٍ … وَضَمَّةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ ؟
فقال : مَعاذَ اللهِ أن يُذهِبَ التُّقَى … تَلاصُقُ أكبادٍ بهن جِراحُ !

فرفع الشيخُ رأسه وقال : والله ما قلتُ شيئاً من هذا ، ولكنَّ الشاعر هو نحَلَنى هذا الرأيَ الذى نَفَثَه الشيطانُ على لسانه ، وإنى لأخافُ أن تَشيعَ القالةُ فى الناس ، فإذا كان غدٌ وجلستُ فى حلْقتى فاغْدُ علىَّ ، فإنى قائل شيئاً .

وذهب الحبرُ يؤُجُّ كما تؤجُّ النار ، وتعالَمَ الناسُ أن عطاءً سيتكلَّم فى الحبّ ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يُحْسِنُ أن يقول فيه مَن غَبَرَ عشرين سنة فراشهُ المسجد ، وقد سمع من عائشة أمِّ المؤمنين ، وأبى هُريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس بحرِ العلم !

وقال جماعةٌ منهم : هذا رجلٌ صامتٌ أكثرَ وقته ، وما تكلم إلا خُيِّل إلى الناس أنه يُؤيَّدُ بمثل الوحى ، فكأنما هو نَجِيٌّ ملائكة يَسمع ويقول ، فلعل السماء مُوحِيةٌ إلى الأرض بلسانه وحياً فى هذه الضلالة التى عمَّت الناس وفتَنَتْهم بالنساء والغناء .

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى .

(١) ولد هذا الإمام سنة ٢٧ هـ وتوفى سنة ١١٥ قالوا : ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا .

ولما كان غدٌ جاء الناسُ أرسالاً إلى المسجد ، حتى اجتمع منهم الجمعُ الكثير . قال عبدُ الرحمن بنُ عبد الله أبي عمّار : وكنتُ رجلاً شابًّا من فِتْيان المدينة ، وفي نفسي ومِن الدنيا ومِن هَوى الشباب ، فغدوتُ مع الناس ، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيته من قبلُ ، فنظرتُ إليه فإذا هو في مجلسه كأنه غرابٌ أسود ، إذ كان ابنَ أمَةٍ سوداء تسمى « بَرَكَةَ » ورأيتُه مع سوادِه أعورَ أفطسَ أشلَّ أعرجَ مُفَلْفَلَ الشَّعر ، لايتأمل المرء منه طائلاً ، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده — والله — أن هذه قطعةُ ليل تسْطَعُ فيها النجوم ، وتصعدُ من حولها الملائكةُ وتنزل .

قال : وكان مجلسُه في قصة يوسف عليه السلام ، ووافقتُه وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى : [وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بيتها عَنْ نَفْسِه وَغَلَّقَتِ الأبْوَابَ وقالت : هَيْتَ لك . قال : مَعَاذَ الله ،إنَّهُ رَبِّي أحْسَنَ مَثْوايَ ، إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظّالمون . ولقد هَمَّتْ بهِ وهَمَّ بها لوْلاَ أن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ؛ كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ .

قال عبد الرحمن : فسمعتُ كلامًا قُدْسيًّا تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتَها مِن رضًى وإعجابٍ بفقيه الحجاز . حَفِظْتُ منه قوله :

عَجَبًا للحب ! هذه مَلِكَةٌ تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجُها بثمن بَخْس ؛ ولكنْ أين مُلْكُها وسطوةُ مُلْكِها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تَزِدِ الآية على أن قالت : [وراودته التي] و « الَّتي » هذه كلمة تدلُّ على كل امرأة كائنةً من كانت ؛ فلم يَبْقَ على الحبِّ مُلْك ولا مَنْزِلة ؛ وزالَتِ المِلِكَّةُ من الأنثى !

وأعْجَبُ من هذا كلمة « رَاوَدَتْه » وهي بصيغتها المفردة حكايةٌ طويلةٌ تشير إلى أن هذه المرأة جعلتْ تعترض يوسفَ بألوان من أنوثتها لَوْنٍ بعدلون ؛ ذاهبةً إلى فن ،راجعةً من فن ؛ لأنالكلمةَ مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها ؛ تذهبُ وتجيء في رِفْق . وهذا يُصَوِّر حَيْرَةَ المرأة العاشقة ، واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتَها أن تنفُذَ إلىغايتها ؛كما يصوِّر كبرياء الأنثى إذ تختالُ وتترفّقُ في عرض ضعفها الطبيعيّ كأنما الكبرياءُ شيءٌ آخر غيرُ طبيعتها ؛ فهما تتهالكْ

على مَن تحبُّ وَجَب أن يكون لهذا « الشيء الآخر » مَظهرُ امتناع أو مظهر تحيُّر أو مظهرُ اضطراب ، وإن كانت الطبيعةُ من وراء ذلك مندفِعةً ماضيةً مصمِّمة .

ثم قال : « عن نفسه » ليدُلَّ على أنها لاتطمع فيه ، ولكن فى طبيعته البشرية ، فهى تَعرِض ما تعرض لهذه الطبيعةِ وحدها ، وكأن الآيةَ مصرِّحةٌ فى أدبٍ سامٍ كلَّ السموِّ ، منزِّهٍ غايةَ التنزيه بما معناه : « إن المرأة بذلتْ كل ما تستطيع فى إغرائه وتَصبّيه ، مقْبِلةً عليه ومتدللةً ومتبذلةً ومُنْصَبَّةً من كلِّ جهة ، بما فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضةً كلَّ ذلك عَرْضَ امرأةٍ خلعتْ ـ أوّل ما خلعتْ ـ أمام عينيه ثوبَ المُلك » .

ثم قال : [وغلَّقت الأبوابَ] ولم يقل « أغلقتْ» وهذا يُشعر أنها لما يئست ، ورأت منه محاولةَ الانصراف ، أسرَعتْ فى ثَورة نفسِها مهتاجةً تتخيّل القُفلَ الواحدَ أقفالاً عِدّة ، وتجرى من بابٍ إلى باب ، وتضطربُ يدُها فى الأغلاق ، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقَها فقط .

[وقالت هيْتَ لك] ومعناها فى هذا الموقفِ أن اليأسَ قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لاملكَةً ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانيةً صِرْفةً ، متكشّفة مصرِّحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغَلَيانها .

هذه ثلاثةُ أطوار يترقى بعضُها من بعض ، وفيها طبيعةُ الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها . فإذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شيءٌ تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمَّ عظَمةُ الرجولة السامية المتمكِّنةِ فى معانيها ، فقال يوسف : [مَعَاذَ اللهِ] ثم قال : [إنه ربى أحْسَنَ مَثْواى] ثم قال : [إنه لايُفْلِحُ الظالمون] . وهذه أسْمَى طريقةٍ إلى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة ، إذ كان أساسُ ضميرها فى كل عصر هو اليقينَ بالله ، ومعرفةَ الجميل ، وكراهةَ الظلم . ولكنَّ هذا التنبيهَ المترادفَ ثلاثَ مرّات لم يكسر من نَزْوَتِها ، ولم يَفْثَأ تلك الحِدّة ، فإن حبَّها كان قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكلِّ أسبابها فى زمنٍ فى مكانٍ فى رَجُل ، فهى فكرةٌ مُحْتَبَسَة كأن الأبوابَ

مغلَّقةٌ عليها أيضاً ؛ ولذا بقيت المرأة ثائرةً ثورةَ نفسِها . وهنا يعود الأدبُ الإلٰهيّ السامى إلى تعبيره المعجز فيقول: [ولقد هَمَّتْ به] كأنما يُومِئُ بهذه العبارة إلى أنها ترامَتْ عليه ، وتَعَلَّقَتْ به ، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة ، وهى لَمْسُ الطبيعةِ بالطبيعة لإلقاء الجمرةِ فى الهشيم . . . !

جاءت العاشقةُ فى قضيتها ببرهان الشيطان يَقْذِفُ به فى آخِرِ محاولته . وهنا يقَع ليوسفَ عليه السلام برهانُ ربّه كما وقع لها هى برهانُ شيطانها . فلولا برهانُ ربّه لكان رجُلاً من البَشَر فى ضعفه الطبيعى .

قال أبو محمد : وههنا ههنا المعجزةُ الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفَى عن يوسف عليه السلام فُحولةَ الرجولة ، حتى لايُظَنّ به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلّم الرجالُ ، وخاصةَ الشبانَ منهم ، كيف يتسامَوْن بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالةِ مَلَكةٍ مطاعة فاتنة عاشقة مُختَلِية مُتَعَرِّضة متكشِّفة متهالكة . هنا لاينبغى أن ييأس الرجُل ، فإن الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئًا من هذا — هى أن يرى برهانَ ربّه .

وهذا البرهانُ يُؤَوِّله كلٌّ إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلِّها فيفُضُّها كلها ؛ فإذا مثل الرجلُ لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتَصِبان أمام الله يراهما ، وأن أمانى القلب التى تهجِس فيه ويظنها خافيةً إنما هى صوتٌ عالٍ يسمعه اللهُ ؛ وإذا تذكرَ أنه سيموت ويُقْبَر ، وفكّر فيما يصنعُ الثرى فى جسمه هذا ، أو فكر فى موقفه يوم تَشْهَدُ عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكّر فى أن هذا الإثم الذى يقترِفُه الآن سيكون مَرْجِعُه عليه فى أخته أو بنته — إذا فكّر فى هذا ونحوه رأى برهانَ ربّه يُطالعه فجأة ، كما يكون السائرُ فى الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرى برهانَ عَيْنِه ؛ أترَوْنه يتردَّى فى الهاوية حينئذ ، أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمةَ الواحدة التى فيها أكثرُ الكلام ، وأكثرُ الموعِظة ، وأكثرُ التربية ، والتى هى كالدِّرْع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمةَ « رأى برهانَ ربّه » .

* * *

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سُهَيْلِ بن عبد الرحمن: ولزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك ، وأجْمَعْتُ أن أتَشبَّهَ به ، وأسلكَ فى طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعتُ إلى المدينة وقد حفظتُ الرجلَ فى نفسى كما أحفظ الكلام ، وجعلتُ شِعارى فى كل نَزْعة من نزَعات النفس هذه الكلمةَ العظيمة : [رأى برهانَ ربّه] ، فما ألممتُ بإثم قطّ ، ولا دانيتُ معصيةً ، ولا رَهِقَنى مَطْلَبٌ من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا ، وأرجو أن يَعْصِمَنى الله فيما بقِى ، فإن هذه الكلمة ليست كلمة ، وإنما هى كأمرٍ من السماء تحمله ، تمرُّ به آمِناً على كل مَعَاصى الأرض ، فما يَعْتَرِضك شىء منها ، كأن معك خاتَمَ المَلَك تجوزُ به .

قال سُهيل : فلهذا لقَّبكَ أهل المدينة « بالقَسّ » لعبادتك وزهدك وعزُوفِكَ عن النساء ، وقليلٌ لك — واللهِ — يا أبا عبد الله ، فلو قالوا : ما هذا بَشَراً إن هذا إلا مَلَكٌ ، لصدقوا .

* * *

قالت سَلاّمة جارية سُهيل بن عبد الرحمن المُغَنِّيَةُ ، الحاذقةُ الظريفةُ ، الجميلةُ الفاتنةُ ، الشاعرةُ القارئة ، المؤرخةُ المتحدثة ، التى لم يجتمع فى امرأة مثلِها حُسنُ وجهها ، وحُسنُ غِنائها ، وحُسنُ شِعرها — قالت : واشترانى أمير المؤمنين يزيدُ بن عبد الملك بعشرين ألفَ دينار « عشرة آلاف جنيه » وكان يقول : ما يُقِرُّ عينى ما أوتيتُ من الخلافة حتى أشترىَ سلاّمة ؛ ثم قال حين ملكنى : ما شاء بعدُ من أمر الدنيا فَلْيَفُتْنى ! قالت : فلما عُرِضتُ عليه أمرنى أن أغنّيه ، وكنت كالمخبولةِ من حبّ عبد الرحمن القَسّ ، حبّاً أراه فالِقاً كبدى ، آتيا على حُشاشتى : فذهب عنى والله كلُّ ما أحفظه من أصواتِ الغناء ، كما يُمسَحُ اللوحُ مما كُتِبَ فيه ، وأنسيتُ الخليفة وأنا بين يديه ، ولم أرَ إلا عبدَ الرحمن ومجلسَه منى يوم سألنى أن أغنّيه بشعرِه فِىَّ ، وقَوْلى له يومئذ: حُبّاً وكرامةً وعَزَازةً لوجهك الجميل . وتناولتُ العودَ وجسسته بقلبى قبل يدى ، وضربتُ عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن ، بيد أنى فيها عقلاً يحتال حيلةَ امرأةٍ عاشقةٍ . ثم اندفعتُ أغنى بشعر حبيبى :

إن التي طَرَقَتْكَ بين ركائبٍ   تمشي بمِزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ
لِتَصِيدَ قلبكَ، أوجزاءَ مودَّةٍ   إن الرفيقَ له عليكَ ذِمَامُ
باتت تُعَلِّلُنَا وتَحْسِبُ أننا   في ذاك أيقاظٌ ، ونحن نيامُ

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البال ، ورددته كما ردَّدته لعبد الرحمن ، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أوَّلَ ما تتفتَّح . وأنا أنظر إليه وأتبين لصوتي في مِسْمعيه صوتاً آخر . . . وقطَّعته ذلك التقطيعَ ، ومدَّدتُه ذلك التمديدَ ، وصِحت فيه صيْحةَ قلبي وجوارحي كلِّها كما غنيتُ عبدَ الرحمن لكيما أؤديَ إلى قلبه المعنى الذي في اللفظ والمعنى الذي في النفس جميعًا ، ولكيما أسْكِرَه – وهو الزاهدُ العابد – سكرَ الخمر بشيء غير الخمر!

وما أفَقْتُ من هذه إلا حين قطعْتُ الصوت ، فإذا الخليفةُ كأنما يسمع من قلبي لامن في وقد زَلْزَلَهُ الطرب ، وما خَفِيَ عَلَيَّ أنه رجلٌ قد ألَمَّ بشأن امرأة ، وخشيتُ أن أكونَ قد افْتَضَحْتُ عنده ؛ ولكنْ غلبتْه شهوتُه ، وكان جَسَداً بما فيه يريد جسداً لما فيه ، فمِنْ ثَمَّ لم يُنْكِرْ ولم يتغيَّر .

واشتراني وصِرْتُ إليه ، فلما خَلَوْنا سألني أن أغنى فلم أشعر إلا وأنا أغنّيه بشعر عبد الرحمن :

ألا قُلْ لهذا القلب: هل أنتَ مُبْصِرُ   وهل أنتَ عن سلاَّمةَ اليومَ مُقْصِرُ
إذا أخَذَتْ في الصوتِ كاد جليسُها   يطيرُ إليها قلبُه حين تنظرُ

وأدَّيتُه على ما كان يستحسنه عبدُ الرحمن ويطربُ له ، إذ يسمعُ فيه هَمْسًا من بكائي ، ولهفةً مما أجدُ به ، وحَسرةً على أنه ينسكبُ في قلبي وهو يَصُدُّ عني ويتحاماني ، وما غنَّيتُ : « وهل أنتَ عن سلاَّمةَ اليومَ مُقْصِرُ » إلا في صوتٍ تنوح به سلاَّمةُ على نفسها وتندُب وتتفجَّع !

فقال لي يزيد وقد فَضَحَتْ نفسي عنده فضيحةً مكشوفة : يا حبيبتي مَن قائلُ هذا الشعر ؟

قلت : أحدِّثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حدِّثيني .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبي عمار الذي يلقبونه بالقَسِّ لعبادته ونُسكه ،

وهو فى المدينة يشبه عطاء بن أبى رَبَاح ، وكان صديقاً لمولاى سُهَيْل . فمرّ بدارنا يوماً وأنا أُغنى فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحْوَصُ »[1] ، فقال : ويْحكُمْ ؟ لكأنّ الملائكةَ والله تتلو مزاميرَها بحَلْق سلاّمة ، فهذا عبدُ الرحمن القَسّ قد شُغِل بما يَسمع منها ، وهو واقفٌ خارجَ الدار . فتسارعَ مولاى فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمعَ منّى ، فأبى ! فقال له : أما علمْتَ أن عبد الله بن جعفر ، وهو مَنْ هو فى محلّه وبيته وعلمه قد مَشَى إلى جميلة أستاذة سلاّمة حين علِمَ أنها آلَتْ أليّةً ألا تُغَنّى أحداً إلا فى منزلها ؛ فجاءها فسمع منها ، وقد هيّأتْ له مجلسها ، وجعلت على رءوس جواريها شعوراً مُسْدَلةً كالعناقيد ، وألبستهن أنواع الثياب المصبّغة ، ووضعتْ فوق الشعور التيجان ، وزينتهنّ بأنواع الحلَى ، وقامتْ هى على رأسه ، وقام الجوارى صَفّيْن بين يديه ، حتى أقسم عليها فجلستْ غير بعيد ، وأمرَتِ الجوارى فجلْسن ، ومع كلّ جارية عودُها ، ثم ضربْن جميعاً وغنّتْ عليهن ، وغنى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ما ظننتُ أن مثل هذا يكون !

وأنا أُقعِدُكَ فى مكان تسمع مِن سلاّمة ولاتراها ، إن كنتَ عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغْها عبدُ الله بن جعفر !

قالت سلاّمة : وكانت هذه والله — يا أمير المؤمنين — رُقْيَةٌ من رُقَى إبليس ؛ فقال عبد الرحمن : أمّا هذا فنَعَمْ . ودخل الدارَ وجلس حيث يسمع ، ثم أمرنى مولاى فخرجْت إليه خروجَ القمرِ مَشْبُوباً من سحابة كانت تغطيّه ؛ فأما هو فما رآنى حتى عَلِقَتْ بقلبه ، وسبّحَ طويلاً طويلاً ؛ وأما أنا فما رأيتُه حتى رأيتُ الجنةَ والملائكةَ ، ومُتُّ عن الدنيا وانتقلتُ إليه وحده . . . .

* * *

قالت سلامة : وافتَضَحْتُ مرةً أخرى ، فتَنَحْنَحَ يزيد . . . فضحكتُ وقلت : يا أمير المؤمنين ، أحدّثُك أم حسبك ؟ قال : حدّثينى ويْحكِ ! فوالله لوكنتِ فى الجنة كما أنت لأعدْتِ قصةَ آدمَ مع واحدٍ واحدٍ من أهلها حتى يُطرَدوا جميعاً من حُسْنِها إلى حسنك ! فما فعلَ القَسُّ ويحكِ ؟

---

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف .

قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه يُدْعَى القسَّ قبل أن يهوانى .
فقال يزيد : وهل عَجَبٌ وقد فتنته أن يطردَه « البطريق » ؟
قلت : بل العجبُ وقد فتنتُه أن يصير هو البطريق . . . !

فضحك يزيد وقال : إيه ، ما أحسب الرَّجلَ إلا قد دُهِيَ منك بداهية ! فحدثينى فقد رفعتُ الغَيْرة ؛ إنى والله أرى هذا الرجل فى أمره وأمرك إلا كالفحل من الإبل ، قد تُرِكَ من الركوب والعمل ، ونُعِّمَ وسُمِّنَ للفحلة فنَدَّ يوماً ، فذهب على وجهه ، فأقحم فى مفازة، وأصاب مرتعاً فتوحَّش واستأسد، وتبيَّن عليه أثر وحشيته ، وأقبلَ قبالَ الجنّ من قوة ونشاط وبأس شديد ؛ فلما طال انفراده وتأبُّده عرَضتْ له فى البَرّ ناقةٌ كانت قد نَدّتْ من عطنها ، وكانت فارهة جسيمة قد انتهت سمناً ، وغطاها الشحمُ واللحم ، فرآها البازلُ الصئولُ ، فهاجَ وصال وهدَر ، يخبطُ بيده ورِجْله ، ويُسْمَع لجَوْفِه دَوِيٌّ من الغليان ، وإذا هى قد ألقتْ نفسَها بين يديه !

أما والله لو جعَلَ الشيطان فى يمينه رجلاً فحلاً قويًّا جميلاً ، وفى شماله امرأةً جميلةً عاشقةً تهواه ؛ ثم تمطى متدافعاً ومدّ ذراعيه فابتعدا ؛ ثم تراجع متداخلاً وضمّ ذراعيه فالتقيا ؛ لكان هذا شأنَ ما بينك وبين القَسّ !

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ما كان صاحبى فى الرجال خلاًّ ولاخمراً ، وما كان الفحلَ إلا الناقةُ . . ! وما أحسبُ الشيطان يعرف هذا الرجل ، وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول : إنى أعرف دائماً فكرتى وهى دائماً فكرتى لا تتغير . ذاك رجل أساسه كما يقول : [برهانُ ربّه] ولقد تصنَّعْتُ له مرةً يا أميرَ المؤمنين ، وتشكَّلت وتحلَّيت وتبرّجتُ ، وحدّثت نفسى منه بكثير ، وقلت إنه رجلٌ قد عَبَرَ شبابَه فى وجودٍ فارغٍ من المرأة ، ثم وجد المرأة فىّ وحدى . وغنيته يا أمير المؤمنين غناءَ جوارحى كلّها ، وكنت له كأنى حريرٌ ناعم يترجرجُ وينْشَر أمامه ويُطْوَى . . . . وجلست كالنائمة فى فراشها وقد خلا المجلس ، وكنت من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوة تقول لمن يراها : « كُلْنى . . . ! »

قال يزيد : ويحك ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا يا أمير المؤمنين ، وهو يهوانى الهوى البَرْحَ ، ويعشقنى العشقَ المُضْنى — لم يرَ فى جمالى وفتنتى واستسلامى إلا أن الشيطانَ قد جاء

يَرْشوه بالذهب . . . الذى يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا والله ، لقد عَرَضَ الشيطانُ منك ذهبَه ولؤلؤَه وجواهرَه كلَّها ، فكيف لَعَمرى لم يُفْلح ؛ وهو لو رشانى من هذا كلّه بدرهم لوجد أميرَ المؤمنين شاهدَ زور . . . !

قلت : ولكنى لم أيأس يا أمير المؤمنين ، وقد أردت أن أظهرَ امرأةً فلم أفلح ، وعملتُ أن أظْهَرَ شيطانةً فانخذلْت ، وَجَهَدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى إلا بغير طبيعة ، وكلما حاولتُ أن أنزل به عن سَكينته ووَقاره رأيتُ فى عينيه مالا يتغير كنور النجم ، وكانت بعضُ نظراته والله كأنها عصا المؤدّب ، وكأنه يرى فى جمالى حقيقةً من العبادة ، ويرى فى جسمى خُرافةَ الصنم ، فهو مُقْبِل علىَّ جميلةً ، ولكنه مُنْصرفٌ عنى امرأة .

لم أيأس على كلِّ ذلك ياأمير المؤمنين ، فإن أولَ الحب يطلب آخرَه أبداً إلى أن يموت . وكان يُكثِرُ من زيارتى ، بل كانتْ إلىّ الغَدْوَةُ والرَّوحةُ ، من حُبّه إياى وتعلّقه بى ؛ فواعدتُه يوماً أن يجىء متى وارى الليل أهلَه لأغنّيه : « ألا قل لهذا القلب . . . . » وكنت لحَّنته ولم يسمعْه بعد . ولبثتُ نهارى كلّه أسْتَرْوحُ فى الهواء رائحةَ هذا الرجل مما أتلهَّفُ عليه ، وأتمثّل ظلامَ الليل كالطريق الممتدّ إلى شيء مخبوء أعلِّل النفسَ به . وبلغْتُ ما أقدرُ عليه فى زينة نفسى وإصلاحِ شأنى ، وتشكلتُ فى صُنوف من الزهر ، وقلت لأجملهنّ وهى الوردةُ التى وضعتها بين نَهْدَىَّ : يا أختى ، اجْذبِى عينه إليك ، حتى إذا وقَفَ نظرُه عليكِ فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً . . .

قال يزيد وهو كالمحموم : ثُمّ ثمّ ثمّ ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وإنّ المجلسَ لَخالٍ ما فيه غيرى وغيرُه ، بما أكابِدُ منه وما يُعانى منى فغنّيته أحرَّ غناء وأشجاه ، وكان العاشقُ فيه يَطْرَب لصوتى ، ثم يَطْرَبُ الزاهدُ فيه من أنه استطاع أن يطرب ، كما يَطيش الطفلُ ساعةَ ينطلقُ من حبس المؤدِّب .

وما كان يسوءنى إلا أنه يُمارِس فىّ الزهدَ مُمارَسة ، كأنما أنا صُعوبةٌ إنسانيةٌ فهو يريد أن يغلبَها ، وهو يُجرِّب قُوى نفسِه وطبيعتِه عليها ؛ أوكأنه

يرانى خيالَ امرأة فى مرآة ، لا امرأةً ماثلةً له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ، أو أنا عنده كالحورية من حُور الجنة فى خيالِ من هى ثوابهُ ، تكون معه ، وإنّ بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأجمعتُ أن أحطم المرآةَ ليرانى أنا نفسى لا خيالى ، واستنجدتُ كلَّ فتنتى أن تجعله يفرُّ إلىّ كلما حاول أن يفرَّ منى .

فلما ظننتُنى ملأتُ عينيه وأذنيه ونفسَه وانصببتُ إليه من كل جوارحه ، وهِجْتُ التيّارَ الذى فى دمه ودفعتُه دفعًا — قلتُ له : « أنت يا خليلى شىء لايُعرَف ، أنت شىء مُتَلَفِّفٌ بإنسان ، ومَن التى تعشق ثوبَ رجل ليس فيه لابسُه ؟ »

ورأيته والله يطوفُ عند ذلك بفكره ، كما أطَوِّفُ أنا بفكرى حول المعنى الذى أردتُه . فملتُ إليه وقلت[1] : « أنا والله أحبك ! »

فقال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو . . . »

قلت : « وأشتهى أن أعانقَك وأقبلك ! »

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لَخَالٍ ! »

قال : « يمنعنى قولُ الله عزّ وجلّ : [الأخِلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عَدوٌّ إلا المتقين] فأكره أن تحُولَ مودّتى لكِ عداوةً يوم القيامة » .

إنى أرى [برهانَ ربى] يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتكِ وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحببتُ الأنثى لوجدتُكِ فى كل أنثى ، ولكنى أحب ما فيك أنتِ بخاصّتِك ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه ، هو معناكِ يا سلاّمة لاشخصُك .

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ما عاد بعد ذلك ، وترك لى ندامتى وكلامَ دموعه ؟ وليتنى لم أفعل ، ليتنى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة — فى بعض حالاتها — تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تُلق حجابها بل ألقتْ ثيابها . . . .

---

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى — إلى قوله : (يوم القيامة) ؛ وهو كل القصة فى كتابه .

قصة زواج *
وفلسفة المهر

قال رسولُ عبد الملك : ويحكَ (يا أبا محمد) لكأن دمكَ والله من عدوك ؛ فهو يفور بك لتلجّ فى العناد فتُقتل ، وكأنى بك والله بين سبُعين قد فغرا عليك ؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تفرُّ من حتف إلا إلى حتف ، ولا ترحمك الأنيابُ إلا بمخاليبها .

ههنا هشامُ بنُ إسماعيل عاملُ أمير المؤمنين ، إن دخلته الرحمةُ لك استوثق منك فى الحديد ، ورمى بك إلى دمشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يُطعم لحمك السيفَ يعض بك عض الحية فى أنيابها السمّ ؛ وكأنى بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه ، وبهذا الوجه مضرجا بدمائه ، وبهذه اللحية معفّرةً بترابها ، وبهذا الرأس مُحتَزًّا فى يد (أبى الزُّعيزعة) جلّادِ أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رَمْيَ الغُصن بالثمرة قد ثقلتْ عليه .

وأنت (يا سعيد) فقيهُ أهل المدينة وعالمُها وزاهدُها ، وقد علم أميرُ المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لسَرَّه » فإن لم تكْرُمْ عليك نفسُك فلْيَكْرُمْ على نفسك المسلمون ؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفِقْهُ فى جميع الأمصار إلى الموالى ؛ ففقيهُ مكّةَ عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبى كثير ، وفقيهُ البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعيّ ، وفقيهُ الشام مكحول ، وفقيه خراسانَ عطاء الخراسانى . وإنما يتحدث الناسُ أن المدينة من دون الأمصارِ قد حرسها الله بفقيهها القرشيّ العربيّ (أبى محمد بن المُسيَّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علم أهلُ الأرض أنك حججتَ نيّفاً وثلاثين حجّة ، وما فاتتك التكبيرةُ الأولى فى المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمتَ إلا فى موضعك من الصفّ الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل فى الصلاة ؛ ولا وجد الشيطانُ ما يعرِضُ لك من قبلِه فى صلاتك ولا قفا رجلٍ ؛ فاللهَ اللهَ يا أبا محمد ، إنى والله ما أغشُّك فى النصيحة ؛ ولا أخدعك عن الرأى ، ولا أنظر لك إلا خيرَ ما أنظر لنفسى ؛ وإن عبد الملك ابنَ مروانَ مَنْ علمتَ ؛ رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبُه

* انظر « قصص الرافعى » فى « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

وترهيبُه، فهو آخذُك على ماتكره إن لم تأخذه أنت على مايُحبّ؛ وإنه والله يا أبامحمد، ماطَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثنى إليك إلا وكأنه يسعَى بين يديك، رعايةً لمنزلتك عنده، وإكباراً لحقّك عليه؛ وما أرسلنى أخطُب إليك ابنتَك لِوَلِيِّ عهده إلا وهو يبتذلُ نفسَه ابتذالاً ليَصِلَ بك رَحِمَهُ، ويُوَثِّقَ آصِرتَه؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به و بمُلْكه وَرَعًا وزَهادة، فما أحوجَ أهلَ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهارَ (الوليد) فيَستَدْفِعُوا شَرًّا ما به عنهم غنى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنىً عنه، ولستَ تدرى ما يكون من مَصادر الأمور ومواردها. وإنك والله إن لججتَ فى عنادك وأصْرَرْتَ أن تردّنى إليه خائبًا، لَتَهِيجَنّ قَرَمَ سيوفِ الشام إلى هذه اللحوم ولَحمُكَ يومئذ من أطيبها، ولأمير المؤمنين تارتان: لينٌ وشدة؛ وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلْنى رسولَ الثانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأن الكلام لايَتخلَّصُ إلى نفسه إلا بعد أن تتساقطَ معانيه فى الأرض، هَيبةً منه وفرقًا من إقدامها عليه؛ وقد لان رسولُ عبد الملك فى دَهائه حتى ظن عند نفسه أنه سَاغَ من الرجل مَساغَ الماءِ العذْبِ فى الحلْق الظامئ، واشتدّ فى وَعيده حتى ما يشكّ أنه قد سقاه ماء حميما فقطّع أمعاءه؛ والرجلُ فى كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض، لو تحوّل الناس جميعًا كنّاسين يُثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماءُ ضاحكةً صافيةً تتلألأ.

وقلّب الرسولُ نظرَه فى وجه الشيخ، فإذا هو هو ليس فيه معنى رغبةٍ ولا رهبة، كأن لم يَجعلْ له الأرضَ ذهبًا تحت قدميه فى حالة، ولم يملأ الجوّ سيوفا على رأسه فى الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم كالصبىّ الغِرّ قد رأى الطائرَ فى أعلى الشجرة فطمعَ فيه، فجاء من تحتها يناديه: أن انزلْ إلىّ حتى آخذَك وألعبَ بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال:

يا هذا، أمّا أنا فقد سمعتُ، وأما أنت فقد رأيتَ، وقد روينا أن هذه

الدنيا لا تَعدِلُ عند الله جَناحَ بعوضة، فانظر ما جئتني أنت به، وقسْه إلى هذه الدنيا كلّها، فكمْ - رحمك الله - تكون قد قَسَمْتَ لي من جناح البعوضة . . ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى نيّفٍ وثلاثين ألفًا لآخُذَها، فقلت: لا حاجةَ لي فيها ولا في بني مرْوان، حتى ألقى الله فيحكمَ بيني وبينهم « وها أنذا اليوم أُدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها؛ أفأقبضُ يدى عن جمْرة ثم أمدّها لأملأَها جمراً؟ لا والله مارغب عبدُ الملك لابنه في ابنتي، ولكنه رجلٌ من سياسته إلصاقُ الحاجة بالناس ليجعلَها مَقادةً لهم فيُصرّفَهُمْ بها؛ وقد أعجزه أن أبايعَه، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بَيعتين، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزُّبير، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جئت لابنتى وابنه، ولكن جئت تخطبنى أنا لبيعته . . .

قال الرسول: أيها الشيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن مَنْ عسى أن تجدَ لكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله إليك؟ إنك لراعٍ وإنها لرعيةٌ وستُسألُ عنها، وما كان الظنُّ بك أن تُسيء رِعْيتَها وتبخسَ حقّها، وأن تَعْضِلَها وقد خطبها فارسُ بنى مروان، وإن لم يكن فارسهم فهو ولىُّ عهد المسلمين، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ بن أمير المؤمنين؛ وأدنى الثلاث أرفعُ الشرف فكيف بهنّ جميعًا، وهنّ جميعًا فى الوليد؟

قال الشيخ: أمّا إنى مسئول عن ابنتى، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى. وقد علمتَ أنت أن الله يسألنى عنها فى يومٍ لعل أميرَ المؤمنين وابنَ أمير المؤمنين وألفافَهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشِها ودُعّارِها وفجّارها[1]. يخرجون من حساب الفَجَرَةِ إلى حساب القَتَلَة، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغصْب، إلى حساب أهل البغْى، إلى حساب التفريط فى حقوق المسلمين. ويخفّ يومئذ عبيدُها وأوباشُها ودعّارُها وفجارُها فى زِحام الحشر، ويمشى أميرُ المؤمنين وابنُ المؤمنين ومن اتصل بهما، وعليهم أمثالُ الجبالِ من أثقال الذنوب وحقوقِ العباد.

فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى، لو لم أضِنّ بها على أمير المؤمنين

---

(١) الضمير راجع إلى الدنيا.

وابن أمير المؤمنين لأوْبَقتُ . لا والله ما بيني وبينكم عمل ، وقد فرغْتُ مما على الأرض فلا يمرُّ السيفُ مني في لحمٍ حيّ .

* * *

ولما كان غداةُ غدٍ جلس الشيخ في حَلْقته في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديثِ والتأويل ، فسأل رجلٌ من عُرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، إن رجلاً يُلاحيني في صَداق بنته ويكلّفني مالا أطيق . فما أكثرُ ما بلغ إليه صداقُ أزواجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداقُ بناته ؟

قال الشيخ : رَوَيْنا أن عمر (رضي الله عنه) كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : « ما تزوّج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا زَوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم »[1] ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مَكْرُمةً لسبق إليها رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) .

ورَوَيْنا عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « خير النساء أحسنُهنّ وجوهًا وأرخصُهنّ مهوراً » .

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتي أن تكونَ المرأة الحسناءُ رخيصةَ المهر ، وحُسنُها هو يُغْلِيها على الناس ؛ تَكْثُر رغبتُهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : انظر كيف قلت . أهم يُساومون في بهيمةٍ لا تَعقل ، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بِضاعةٌ من مطامع صاحبها يُغْلِيها على مطامع الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت على جمال وجهها ، في أخلاقٍ كجمال وجهها ، وكان عقلُها جمالاً ثالثًا ؛ فهذه إن أصابت الرجلَ الكُفْء ، يَسَّرَتْ عليه ، ثم يسَّرت ، ثم يسَّرت ؛ إذ تعتبر نفسَها إنسانًا يريد إنسانًا ، لامتاعاً يطلب شاريًا ، وهذه لايكون رخصُ القيمة في مَهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالُها يأبى إلا مضاعفةَ الثمن لحسنها ، أيْ لحُمْقها ؟ وهي بهذا المعنى من شِرار النساء ، وليست من خيارهن .

---

(١) الدرهم : خمسة قروش .

ولقد تزوج رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بعضَ نسائه على عشرة دراهم وأثاثِ بيت ، وكان الأثاث : رحى يدٍ ، وجَرَّةَ ماء، ووِسادةٌ من أَدَم حشْوها ليف . وأوْلَم على بعض نسائه بِمُدَّين من شعير ، وعلى أخرى بمدَّين من تمر ومدَّين من سَوِيق . وما كان به (صلى الله عليه وسلم) الفقر ، ولكنه يَشْرَعُ بسنتِه ليُعلِّم الناسَ من عمله أن المرأة للرجل نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لامتاعٌ لشاريه ؛ والمتاع يُقَوَّم بما بُذِلَ فيه إن غالياً وإن رخيصاً ، ولكن الرجلَ يُقَوَّم عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحْمَل إلى داره ، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحْمَلَ إلى داره؛ مهْرها معاملتُها ، تأخذ منه يوماً فيوماً ، فلا تزال بذلك عَروساً على نفْسِ رجُلِها ما دامت فى معاشرته . أما ذلك الصداق من الذهب والفضة ، فهو صداقُ العروس الداخلةِ على الجسم لاعلى النَّفْس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ، أفلا ترى هذه الغاليةَ — إن لم تجد النفْس فى رجُلها — قد تكون عروس اليوم ومطلَّقة الغد ؟!

وما الصداق فى قليله وكثيره ، إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدْرتِها ، فهو إيماء ، ولكنّ الرجلَ قبْل . إن كل امرئٌ يستطيع أن يحمل سيفاً ، والسيفُ إيماء إلى القوة ، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواء ، وقد يحمل الجبانُ فى كل يد سيفاً ، ويملك فى داره مائة سيف ؛ فهو إيماء ، ولكنّ البطلَ قبْلُ ، ولكن البطَل قَبْل .

مائة سيفٍ يمْهَر بها الجبان قوَّتَه الخائبة ، لا تغْنى قوّتَه شيئاً ، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله . ويُوشِك أن يكونَ المهر الغالى كالتدليس على الناس وعَلَى المرأة ، كى لاتعلمَ ولايعلم الناس أنه ثمنُ خيبتها ؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيُسْر مهرها ، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكَفَّتْ حماقتَها أن تُفْسد عليه .

فصاح رجلٌ فى المجلس أيها الشيخ ، أفى هذا من دليل أو أثر ؟

قال الشيخ : نعم ؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى : [خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا] . فهى زَوْجُه حين تجده هو لاحين تجد مالَه ؛ وهى زوجه حين تُتَمِّمُه لاحين تنقصُه ، وحين تلائمه

لاحين تختلف عليه ؛ فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معاً كالنَّفْس الواحدة ، على ما ترى للعضو من جسمه ؛ يريد من جسمه الحياةَ لاغيرها .

وأما من كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد روينا : « إذا أتاكم مَنْ ترْضَوْن دِينَه وأمانَته فزوّجوه ؛ إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير » .

فقد اشترط الدِّينَ ، على أن يكون مَرْضِيًّا لا أيَّ الدين كان ؛ ثم اشترط الأمانةَ ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ؛ وأيسرها أن يكون الرجلُ للمرأة أميناً ، وعلى حقوقها أميناً ، وفى معاملتها أميناً ؛ فلا يبخسُها ولا يُعْنِتُها ، ولا يُسىء إليها ؛ لأن كل ذلك ثَلْمٌ فى أمانته ؛ فإن ردَّت المرأة مَنْ هذه حالُه وصفتُه من أجل المهر — تقدَّم إليها بالمهر من ليست هذه حالَه وصفتَه ، فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرجل ، وفسد هُوَ بها ، وفسد النسل بهما جميعاً ، وأهْمِلَ من لايملك ، وتعنَّسَتْ من لاتجد ، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه ، ويتقارب النساءُ والرجالُ على رغم المهرِ والدينِ والأمانة ؛ فيقع معنى الزواج ، ويبقى المعطَّلُ منه هو اللفظ والشرع .

هل علمت المرأة أنها لاتدخُل بيتَ رجلها إلا لتجاهدَ فيه جهادَها ، وتبلوَ فيه بلاءها ؟ وهل يقوم مال الدنيا بحقِّها فيما تعمل وما تجاهد ، وهى أم الحياة ومُنْشِئتُها وحافظتُها ؟ فأين يكون موضع المال ومكان التَّفرقةِ فى كثيره وقليله ، والمال كلُّه دون حقِّها ؟

ولن يتفاوتَ الناس بالمال تختلف درجاتهم به ، وتكون مراتبهم على مقداره ، تكثُر به مرة وتقلُّ مرة — إلا إذا فسد الزمان ، وبطلت قضيةُ العقل ، وتعطَّل مُوجِب الشرع ، وأصبحت السجايا تتحوَّل ، يملكها من يملك المال ، ويَخسرها من يخسره ؛ فيكون الدِّين على النفوس كالدَّخيل المزاحم لموضعه ، والمتَدَلى فى غير حقه ؛ وبهذا يرجع باطل الغَنىّ دِيناً يتعاملُ الناسُ عليه ، ودينُ الفقير بَهْرَجاً لا يروجُ عند أحد ؛ وليس هذا من ديننا ، دينِ النفس والخلق ، وإن ألفَ بعير يقْنوها الرجل خالصةً عليه ، ثابتةً له ، لاتزيد فى منزلة دِينه قدْر

نملة ولا ما دونها . والحجَران : الذهب والفضة — قد يكون شُعاعُهما فى هذه الدنيا أضوأ من شمسها وقمرها ، ولكنهما فى نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذهما من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنهما فى قدرِ الشمس والقمر .

وهلاكُ الناس إنما يُقْضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناسًا بعيوبهم وذنوبهم ؛ فهذا هو الإنسان المدْبِر عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لا يكون أبوه أبًا فى عطفه ، ولا أمه أمًّا فى محبتها ، ولا ابنُه ابنًا فى بِره ، ولا زوجتُه زوجةٌ فى وفائها ؛ وإنما يكونون له مَهالِكَ ، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل علَى يد زوجته وأبويه وولَده ؛ يعيّرونه بالفقر ، ويكلّفُونه مالا يُطيق ؛ فيدخل المَداخلَ التى يذهب فيها دينُه فيَهلِك » .

* * *

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسَه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج إلى داره ، فتلقتْه ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت : يا أبت كنت أتلو الساعة قولَه تعالى : [رَبَّنَا آتِنَا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة] . فما حَسَنَةُ الدنيا قال : يا بُنَيَّة ، هى التى تَصلُح أن تُذْكَرَ مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ الصالحةَ ، ولا للمرأة . . .

وطُرِق الباب ، فذهب الشيخ يفتح ، فإذا الطارق (عبد الله بن أبى وَدَاعة) ؛ وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقتَه ، ولكنه فقده أيامًا ؛ فدخل فجلس . قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تُوفِّيَتْ أهلى فاشتغلْتُ بها » .

قال الشيخ : « هلاّ أخبرتنا فشهدناها » . ثم أخذ يُفيض فى الكلام عن الدنيا والآخرة ؛ وشعَر بن أبى وداعة أن القبر ما يزال فى قلبه حتى فى مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ، فقال (سعيد) :

« هل استحدثْتَ امرأةً غيرَها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومَن يُزَوِّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا . . . . . . »

* * *

أنا ، أنا ، أنا . . . دوَّى الجوُّ بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكةَ تنشد نشيداً في تسبيح الله يَطِنُ لحنُه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد ، وكأنها كلمةٌ زوّجْته إحدى الحور العين .

فلما أفاق من غَشْيَةِ أذنيه . . قال : « وتَفعَل ؟ »

قال (سعيد) : « نعم » وفسر (نعمْ) بأحسنِ تفسيرها وأبلغِه ؛ فقال : قم فادع لى نفراً من الأنصار فلما جاءوا حمد الله وصلى علَى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وزوّجه علَيّ ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) .

ثلاثة دراهم مهرُ الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

وغشَّى الفرح هذه المرة عينى الرجل وأذنيه ، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكة يطن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه ما يصنع ، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرَّفُ إليها بهذا الصوت الذى لايزال يطنُّ فى أذنيه « أنا ، أنا ، أنا . . »

وصار إلى منزله وجعل يفكر : مِمّن يأخذ ، ممن يستدين ؟ فظهرت له الأرضُ خَلاءً من الإنسان ، وليس فيها إلا الرجلُ الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . »

وصلى المغربَ وكان صائماً ، ثم قام فأسرج ، فإذا سراجُه الخافتُ الضئيلُ يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأن فى نوره وجهَ عروسٍ تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وقدّم عَشاءه ليُفطر ، وكان خبزاً وزيتاً ، فإذا البابُ يقرع ؛ قال : من هذا قال الطارق : سعيد . . . .

سعيد ؟ سعيد ! من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؛ أبو على ؛ أبو الحسن ؟ فكّر

الرجل فى كل من اسمُه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب ؛ إلا الذى قال له: « أنا . . .
لم يخالجه أن يكونَ هو الطارق ، فإن هذا الإمام لم يَطْرق بابَ أحد قَطّ ،
ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فإذا به سعيدُ بن المسيَّب ، فلم تأخذه عينه حتى رَجعَ القبرُ
فَهَبَطَ فجأة بظلامه وأمواته فى قلب المسكين ، وظن أن الشيخ قد بدَا له ،
فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيعَ الخبر ، ويتعذَّرَ إصلاحُ الغلطة ! فقال :
« يا أبا محمد ،لو . . . لو . . لو — لو أرسلتَ إلىَّ لأتيتُك ! »

قال الشيخ : « لأنْت أحقُّ أن تُؤْتَى » .

فما صكَّت الكلمةُ سمعَ المسكين حتى أبْلَس الوجودُ فى نظره ، وغشِىَ
الدنيا صمتٌ كصمت الموت ، وأحسَّ كأن القبر يتمدد فى قلبه بعُروق الأرض
كلِّها ! ثم فاءَ لنفسه ، وقدر أن ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر ، وليس محله هو
إلا أن يطيع ، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكون مَعرَّةً على الرجولة، ثم نَكَس وَتنكَّسَ
وقال بذِلَّة ومسكنة : « ما تأمرنى ؟ »

تفتحت السماء مرَّةً ثالثة ، وقال الشيخ : « إنك كنتَ رجلاً عزبًا ،
فتزوجت ، فكرهتُ أن تبيت الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتُك ! »

وانحرفَ شيئًا ، فإذا العروسُ قائمةٌ خلفه مستترةٌ به ، ودفعها إلى الباب
وسلَّم وانصرف .

وانبعث الوجود فجأة ، وظنَّ لَحنْ الملائكة فى أذن أبى وداعة : « أنا ،
أنا ، أنا . . . »

* * *

دخلت العروس البابَ وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانَها ، واستوثق
من بابه ، ثم خطا إلى القصعة التى فيها الخبزُ والزيت ، فوضعها فى ظل السراج
كى لا تراها ؛ وأغمض السراجُ عينَه ونشر الظلّ . . .

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيرانَ بحُصَيَّات ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه ،
وأن قد وَجبَ حقُّ الجار على الجار (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس
التلفون اليوم) فجاءوه على سُطوحهم وقالوا : « ما شأنُك ؟ »

قال : « وَيْحَكُمْ ! زَوَّجَنِي سعيدُ بن المسيَّب ابنتَه اليوم ؛ وقد جاء بها الليلةَ على غفلة » .

قالوا : « وسعيد زَوَّجَكَ ! أهو سعيد الذى زَوَّجَكَ ! أزَوَّجَكَ سعيد؟ »

قال : « نعم » .

قالوا : « وهى فى الدار ؟ أتقول إنها فى الدار ؟ »

قال : « نعم » .

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار . وغشيت الرجلَ غشيةٌ أخرى ، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان ، وكأنما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

* * *

قال عبد الله بن أبى وداعة : « ثم دخلتُ بها ، فإذا هى من أجمل الناس وَأحْفَظِهِمْ لكتاب الله تعالى ، وأعْلَمِهِمْ بسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعْرَفِهِمْ بحقّ الزوج . لقد كانت المسألة المعضِلة تُعيي الفقهاءَ فأسألها عنها فأجد عندها منها علْما » .

قال : ومكثت شهراً لايأتينى سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيتهُ وهو فى حلقته فسلَّمْتُ ، فردّ علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتّى تفرق الناس من المجلس وخلا وجهُه ، فنظر إلىّ وقال :

« ما حالُ ذلك الإنسان . . . ؟ » .

* * *

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولىّ العهد ابن أمير المؤمنين ، وبين حجرة ابن أبى وداعة التى تُسَمَّى داراً . . . ! إلا أن هناك مضاعفةَ الهمّ ، وهنا مضاعفة الحُبّ .

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة — ستَخْفِتُ الروحُ من نورٍ بعد نورٍ ، إلى أن تنطفئ فى السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) إلى القبر مدةَ الحياة — تسطع الروح بنور على نور ، إلى أن تشتعلَ فى السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حتى وقعت به المِحنةُ ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطاً فى يوم بارد ، وصبّ عليه جرّة ماء ، وعرّضه على السيف ، وطاف به الأسواق عارياً فى تُبّان [1] من الشعر ، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرّذيلة ، وبهذه الْمَخْزَاة ، قال عبد الملك بن مروان : « أنا . . . ؟ »

* * *

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سروال قصير يلبسه الملاحون .

ذيل القصة
وفلسفة المال

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيِّب وتزويجِهِ ابنتَه من طالب علم فقير ، بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجاً لوليّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتُوَلْوِلُ . . . . . وحدّثنا أديبٌ ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان . . . . !

أفتَراها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من ولي عهده ؟

على أن للقصة ذيلاً ، فإن الطبيعةَ الآدميةَ لاعصر لها ، بل هى طبيعةُ كل عصر ؛ والفضيلةُ الإنسانية يبدأ تاريخُها من الجنة ، فهى هى لا تتجدد ولا تزالُ تلوحُ وتختفى ؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسِها ، فهى هى لاتتغير ولا تزالُ تظهرُ وتَستتِرُ .

* * *

لما زوج الإمامُ ابنتَه من ابن أبى وَدَاعة ، أخذها بنفسه إليه فى يوم زوَّجَها منه ، ومشى بها فى طريقٍ حَصاه عنده أفضلُ من الدُّرّ ، وترابُه أكرمُ من الذهب — طارت الحادثةُ فى الناس ، واستَفاضَ لهم قولٌ كثير ؛ [فأما الذين آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يَستَبْشِرُونَ] . وقد قال جماعةٌ منهم : تاللهِ لئن انقطع الوحىُ ، إن فى معانيه بقيَّةً ما تزال تنزلُ على بعض القلوب التى تُشبه فى عَظَمتها قلوبَ الأنبياء ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا فى معنى سُورةٍ من السُّور قد انشقّت لها السماءُ ، ونزل بها جبريلُ يَخفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان .

[وأما الذين فى قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهِم] . وقال أناسٌ منهم : أمَا واللهِ لو تَهَيَّأ لأحدنا أن يكون لصّاً يسرق أمير المؤمنين ، أو ابنَ أمير المؤمنين ، لَركب رأسَهُ فى ذلك ، ما يَرُدُّه عن السرقة شىء ؛

فكيف بمن تهيَّأ له الصِّهرُ والحَسَب ، وجاءه الغنىّ يطرُقَ بابَه — ما بالُه يردُّ كل ذلك ويُخزِى ابنتَه برجل فقير تعيشُ فى داره بأسوإ حال ؛ وكيف تَثْقُلُ همتُه وتَبْطُؤُ وتموتُ ، إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة ؛ ثم ينبعث ويمضى لا يتلكّأ عزمُه ، إذا كان العلم والفقرُ والدينُ والتقوى ؟

وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم ، فلم يَجِئْهُ إلا من الظن خَفِيًّا خَفِيًّا ، كأنما هى أقوالٌ حَسِبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألفِ سنة (فى زمننا هذا) حين يكون هو فى معانى السماء، ويكون القائلون فى معانى التراب النَّجِس الذى نَفَضَتْه على الشرق نعالُ الأوربيين . . . ؟

قال الراوى : ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يواجهَ الإمامَ بشَفَةٍ أو بنتِ شفة ، لامُضَيِّقًا عليه من قلبه ولا مُوَسِّعًا ، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة ، وقد مال الناسُ بعد الصلاة إلى حلْقة الشيخ ، وتَقَصَّفوا بعضُهم على بعض، فغصَّ بهم المسجد ، وكان إمامُنا يفسّر قوله تعالى : [وما لَنَا ألا نَتَوَكَّلَ على الله وقد هدانا سُبُلَنا ، ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمُونا . وعلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون] .

قال الراوى : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِىَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى فى الحياة إما عِداء له ، وإما معارَضةً ، وإما رَدًّا ، فهو منها فى الأذَى ، أو فى معنى الأذى ، أو عُرْضَةٌ للأذى . لقد وَجَد الطريقَ ولكنه أصاب العقَباتِ أيضًا ، وهذه حالة لا يَمضى فيها الموَفَّقُ إلى غايته ، إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أولاهما العزمُ الثابت ، وهذا هو التوكلُ على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصِر ، وهذا هو الصبرُ على الأذى .

ومتى عزم الإنسانُ ذلك العزمَ ، وأيقن ذلك اليقين — تحولت العقبات التى تصدّه عن غايته ، فآل معناها أن تكون زيادةً فى عزمه ويقينه ، بعد أن وُضِعْنَ ليَكُنَّ نقصاً منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تعين على الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحه على الطريق، فما بُدٌّ أن يغلبَ على الطريق وما فيها . ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئًا — على سَعَتِها وتَناقُضِها—

إلا سبيله وما حَوْلَ سبيله ، فهو ماض قُدُمًا لا يِتَرَادُّ ولا يَفْتُرُ ولا يكلُّ ، وهذه حقيقةُ العزم وحقيقةُ الصبر جميعًا .

ومن ثَمّ لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت — إلا نَفَاذاً من طريق واحدة دون التَّخبُّط فى الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمرُ مهما طال إلا مدةَ صبر فى رأى المؤمن .

وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر ، هما الضوء الروحانى القوىّ ، الذى يكتسح ظلُماتِ النفس ، مما يسميه الناس خمولاً ودَعَةً وتهاونًا وغفلة وضجراً ونحوَها .

قال : ولكن كيف يُعان المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين إعجازُ الآية الكريمة ؛ فقد ذكرِ فيها التوكُّلُ ثلاث مرات ، وافتُتحتْ به وخُتمت ؛ والتوكلُ هو العزمُ الثابت كما أوضحنا . وذُكرتْ فى الآية بين ذلك هدايةُ المرء سبيلَه ؛ وهذه الإضافة (سُبلنا) تُعينُ أنها هدايةُ الإنسان إلى سبيلِ نفسه ؛ أىْ سبيله الباطنىّ الذى هو مَناطُ سعادته فى الشعور بالسعادة[1] . ثم ذُكر الصبرُ على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا فى حيوانية الإنسان ، ولا يؤثّر إلا فيها . فكأن الآية مُصرِّحةٌ أن نجاح المؤمن ونَفاذَه فى الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرَها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت . وأن الصبر ليس شيئًا يُذكر ، أو شيئًا يُجدِى ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية فى أفظع وحشيتها ؛ فالروحُ لا تؤذِى الروح ، ولكنّ الحيوانَ يؤذى الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيُسمى اعتداءً من غيرك ، ويسمى أذى لك ، هو شىء ينبغى أن يجعله العزم فخراً لقوّة الاحتمال فيك ، كما جعله البطشُ فخراً للقدرة عند المعتدى .

وبهذا يكون العزم قد فَصَل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانىّ ، ووَهَبك حقيقةَ الشعور ، وصحّحَ بمعانى رُوحيتك معانىَ حيوانيتكَ ؛ وحينئذ ترى السعادةَ حق السعادةِ ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها ، ولو انقلب فى الشخصِ الحيوانىّ منك أذى وألمًا . ذلك صبرُ أُولى العزم من الرسل .

---

(١) سيأتى فى كلام الإمام بسط لهذا المعنى .

* * *

قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسَّه عاملُ الخليفة ، ليسألَ الشيخَ سؤالاً على ملأ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ؛ وقد مكَرَ العاملُ فاختاره شيخاً كبيراً أعقَفَ ، ليرحم الناسُ رِقَّةَ عظمه وكبرَ سنه فلا يَعرضون له بأذى، ثم ليكونَ صوتهُ كأنه صوتُ الدهر من بعيد . قال الصائح : ذلك أيها الشيخُ صبرُ أولى العزم من الرسل ، أوصبرُ ابنتك على مكاره العيش مع ابن أبى وداعة ، لايجد إلا رُمْقَةً يُمْسِكُ بها الرَّمَقَ عليها ، وقد كانت النعمة لها مُعْرِضة ، فدفعتها إليه — زعمتَ — لتُهلِكَ به شخصَها الحيوانىَّ ، وتوكلتَ على الله وألقيتَ ابنتك فى اليَمّ . . . ؟

فتربَّدَ وجهُ الشيخ وأطرق هُنَيَّات ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلمَ آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادْنُ مِنّى . فتقاعَسَ الرجلُ كأنما تهيَّب ما فرَط منه . فاستدناه الثانية ؛ فقام يتخطَّى الناس حتى وقف بإزائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخ قوله تعالى : [وبرَزُوا لله جميعاً ، فقال الضُّعفاءُ للذين استكبروا : إنا كُنَّا لكم تبعاً ، فهل أنتم مُغْنونَ عنا من عذاب اللهِ من شيء ؟ قالوا: لو هدانا اللهُ لهَدَيْناكم، سواءٌ علينا أجزِعنا أم صبَرْنا، ما لنا من محِيص]

ثم قال : أيها الرجل ، لاتَسمعْنى بأذُنِك وحدها . أرأيتَك[1] لوسمعتَ خبراً ليس فى نفسك أصلٌ من معناه ، أو وَرَدَ عليك الخبَرُ ونفسُك عنه فى شُغُلٍ قد أهمَّها ؛ أفكنت تَنْشَطُ له نشاطَك للخبر احتفلتْ له نفسُك أوأصاب هوًى منك أو رأيتَه موضعَ اعتبار ؟

قال : لا .

قال الشيخ : فإذا سمعتَ بأذنك وحدها فإنما سمعتَ كلاما يمرُّ بأذنك مرّاً ، وإذا أردت الكلامَ لنفسك سمعتَ بأذنك ونفسِك معاً ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : فكلُّ ما لاتنفرد به حاسةٌ واحدة ، بل تشارك فيه الحواسُّ

---

(١) أرأيتك : بمعنى أخبرنى ، تبقى تاؤه على حالها فى الإفراد والتثنية والجمع ويسلط التغيير على الكاف : أرأيتك أرأيتكما ، أرأيتكم إلخ .

كلها أو أكثرُها ـ لا يكون إلا موضعَ اهتمام للنفس ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرحُ والحزن كلاهما إذا شاركتْ فيهما الحواس. فيأتى كل منهما كثيراً مهما قلَّ ، وتزيد كلُّ حاسَّة فى اللذة لذةً وفى الألم ألمًا ، فتعمل النفس فى ذلك أعمالا تَسْحَرُ بها ، فيكون الشيء لصاحبه غيرَ ما هو للناس ، كالصوت الباكى أو الضاحكِ فى لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكلِّ حواسك ، فإذا أنت سمعتَ الصوت عينه من لسان رجل فى الناس رأيتَه غير ذاك أكذلك هو ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفيكونُ السرورُ بالغًا عجيبًا أكثرَ ما هو بالغ ، حين يجدُ المالَ والغِنى فى الإنسان ، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى ؟

قال : بل حين يَجِدُ فى النفس . . . .

قال الشيخ : أرأيت الإنسان يكون سعيداً بما يتوهَّم الناسُ أنه به غنىٌّ سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بَعدُ فيما لايتوهم الناسُ فيه الغَنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره .

قال الشيخ : أفلا توجدُ فى الدنيا أشياء من النفس تكونُ فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ؛ كالطفل عند أمه ، كلُّ ما تعلَّق به من شيء وُزِن به هو لابغيره ، وكان الاعتبارُ عليه لاعلى سواه ، أتعرف أمًّا ترضى أن يُذْبَح ابنُها فى حِجرها لِقاء أن يُمْلأ حجرُها ذهبًا وإن كانت فقيرة مُعْدِمة ؟

قال : لا .

قال الشيخ : فإذا كانت النفسُ تشعرُ أكثرَ مما ترى ؛ أفيذهب ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورُها هو وحدَه الذى يَلْبَسُ ما حولها ويصوّره ويُصرّفه ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفس قوية من هذا العالم الذى نعيش فيه عالَمًا آخر هو عالَم أفكارِها ، وإحساسها ، وفيه وحدَه لذاتُ إحساسِها وأفكارِها ؟

قال نعم .

قال الشيخ : أفرأيتَ المرأةَ إذا صحّ حبُّها أو فرحُها أو عزمها ، أرأيتها تكون إلا فى عالَم أفكارِها ؟ أرأيت كل ما يتصل برغبتِها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا ؟ أرأيتها لاتعيش فى هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبِها الذى لا يأكل ولايشرب ولايلبس ولايجمع المالَ ولايريد إلا الشعورَ فقط ؟

قال : نعم هو ذاك .

قال الشيخ : أرأيت إذا كان الإيمانُ قد وُلِد ونشأ وترَعْرَعَ فى قلب المرأة ، ألا يكون هو طفل قلبِها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أرأيتَ إذا كانت الخمرُ عند مُدْمِنها شيئًا عظيما ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجودِه الضعيفِ المختلّ ، فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلاّ بها ؛ أفيلزمُ من ذلك أن تكون الخمرُ من ضَرورات صاحبِ الوجود القوىّ المنتظم ؟

قال : لا .

قال الشيخ : أفَمُوقِنٌ أنت لابدّ من آخِرٍ لأيام الإنسان ولياليه فى هذه الدنيا فينقطعُ به العيش ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفيُؤرِّخُ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه .

قال الشيخ : فإذا كنتَ صاحبَ حرْبٍ ، وكنتَ بطلاً من الأبطال ، ومِسْعَرًا من المَساعير ، وأيقنتَ الموتَ فى المعركة ، أيكونُ الحقيقىُّ عندك فى هذه الساعة هو الموت أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهْمٌ وباطل .

قال الشيخ : فتنفِرُ فى تلك الساعة إلى الحياة ولذّاتِها فى خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفرارُ منها ، فإن خيالها يكون خبَالا .

قال الشيخ . ففي تلك الساعة التي هي عُمْرُ نفسك، وعَمَلُ نفسك، ورجاءُ نفسك؛ تستشعر اللذةَ في موتك بطلاً ، أم تُحسُّ الكرْبَ، والمقْتَ من ذلك؟

قال بل أستشعرُ اللذة .

قال الشيخ : إذن فهي كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أيّ أشكالها ولو في الذهب .

قال : هي تلك .

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا ، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا .

قال : نعم .

قال الإمام : يرحمك الله ؛ كذلك مُحِيَ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحِيَ المالُ والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة ؛ ومن رحمة الله أن كل مَن هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة ، استطاع أن يصنَع بنفسه لنفسه سعادتَها في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمات ؛ فإن السَّعَة سَعَة الخُلُقِ لا المال ، وإن الفقرَ فقرُ الخلُق لا العيش .

* * *

قال الراوي : ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال : أما إني — علِمَ الله — ما زوّجتُ ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنيًّا ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة . وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلةِ نفسِها فضيلةَ نفسه، فيتجانسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا مَهْنأ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعهُ طبعَها ، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتَرِي هذه المجانسة ، وأنها لاتكون إلا هديةَ قلبٍ لقلب يأتلفان ويتحابّان .

ثم قال الإمام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[1]

(١) توفي سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل ، وعنه أكثر روايته .

ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ما شح دره فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة ، وهن على ذلك ، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها ، وما فقرهن إلا كبرياء الجنة نظرت إلى الأرض فقالت : لا . . . ![1]

يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس ، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء ؛ ويرى الغافل أن مثلهن هالكات في تعب الجهاد ، ويعلمن من أنفسهن غير ما يرى ذلك المسكين — يعلمن أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها .

كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولاتزال متسامية صاعدة، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها، ولاتزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ؛ ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل ، وهي باسمها في الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحمران : الذهب والزعفران »[2] أي الطمع في الغنى والعمل له ، والميل إلى التبرج والحرص عليه .

ونفس الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع — هو يخصصها بخصائص الجسد ، ويعطيها من حكمه ، وينزلها على إرادته ؛ وهذه هي المزلة ، فتهبط المرأة أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوى ، وتفسد أكثر مما تصلح . إن نفس الأنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده .

---

(١) انظر مقالة : (درس من النبوة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) هذان هما فتنة النساء في كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والحلي وما كان من بابهما ، أما الزعفران ففيها المعجزة ، لأنها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والعطور ، إلى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت ، أي فعلت ذلك . (فالزعفران) كما ترى ، كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة ، وكل ماأفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . .

رأيتُ أزواجَ النبى (صلى الله عليه وسلم) فقيرات مَقتُوراً عليهن الرّزق ، غير أن كلاً منهن تعيش بمعانى قلبها المؤمنِ القوى ، فى دار صغيرة فَرَشَتها الأرض ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران . إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعَدْن عن حماقة الدنيا التى لا تكون إلا فى الغنى .

أفٍّ أفٍّ! أتريدون أن أزوج ابنتى من ابن أمير المؤمنين فيُخزيها الله على يدىّ، وأدفعُها إلى القصر وهو ذلك المكان الذى جمع كلَّ أقذار النفس ودَنَسِ الأيام الليالى ؛ أأزوّجها رجلاً تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه ، فتكون زَوجةَ جسمه ومطلَّقةَ رُوحِه فى وقت معًا ؟

ألا كم من قَصر هو فى معناه مَقبرةٌ ، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهِم ونسائهم إلا جِيَفٌ يُبلى بعضُها بعضًا !

• • •

قال الراوى : وضجّ الناس لحمامةٍ صغيرة قد جَنَحَتْ من الهواء ، فوقعتْ فى حِجر الشيخ لائذةً به من مَخافة ، وجعلتْ تَدِفُّ بِجناحيها وتضطرب من الفزَع ، ومرّ الصقرُ على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تمطّر ومرّق فى الهواء إذ رأى الناس . . .

وتناولها الإمام فى يده وهى فى رَجْفَتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعَروس مُسَرْوَلَةٌ قد غابت ساقاها فى الريش ، وعلى جسمها من الألوان نَمْنمةٌ وتحبير ، ولها رُوحُ العَروس الشابة يُهدُونها إلى مَن تكْره ويزفّونها على قاتِلها الذى يُسمى زوجَها .

وأدناها الشيخُ من قلبه ، ومَسَحَ عليها بيده ، ونظر فى الهواء نظرة . . . وهو يقول : نَجوْتِ نَجوْتِ يا مسكينة !

• • •

زوجة إمام

جلس جماعةُ أصحابِ الحديثِ في مسجد الكوفة، يَتَنَظَّرون قُدومَ شيخِهم الإمام «أبي محمد سليمان الأعمش»[1] ليسمعوا منه الحديث، فأبطأ عليهم؛ فقال منهم قائل: هلمُّوا نتحدثْ عن الشيخ فنكونَ معه وليس معنا، فقال أبو معاويةَ الضَّرير: إلى أن يكونَ معنا ولسنا معه . ! فخطرت ابتسامةٌ ضعيفة تهتزُّ على أفواه الجماعة، لم تبلغ الضحك، ومرت لم تُسمَع، وكأنها لم تُرَ، وانطلقتْ من المباح المعْفُوِّ عنه . ولكنْ أكبرَها أبوعَتّاب منصورُ بن المُعْتَمِر . فقال: ويلكَ يا أبا معاوية! أتَتَنَدَّرُ بالشيخ وهو منذُ الستين سنةً لم تَفُتْه التكبيرةُ الأولى في هذا المسجد، وعلى أنه مُحدِّث الكوفة وعالمُها، وأقرأ الناس لكتاب الله، وأعلمُهم بالفرائض، وما عَرفتِ الكوفةُ أعبدَ منه ولا أفقهَ في العبادة ؟

فقال محمد بنُ جُحَادة[2]: أنت يا أبا عتّاب، رجل وحدَك، تُواصِلُ الصومَ منذ أربعين سنة، فقد يَبِسْتَ على الدهر، وأصبح الدهرُ جائعًا منك، وما برِحتَ تبكي من خشية الله، كأنما اطلعت على سَواء الجحيم، ورأيتَ الناسَ يتَواقَعُون فيها وهي لَهَبٌ أحمرُ يلتفُّ على لَهبٍ أحمرَ، تحت دُخَانٍ أسودَ يتضرّبُ في دخان أسود؛ يتَغامَسُ الإنسانُ فيها وهي مِلءُ السموات، فما يكون إلا كالذُّبابة أوقدُوا لها جبلاً ممتدًّا من النار، ينْطادُ بين الأرض والسماء، وقد ملأ ما بينهما جمراً وشُعَلاً ودُخانًا، حتى لتتهاربُ السُّحُبُ في أعلى السماء من حرِّه، وهو على هَوْله وجَسامته لِحرْقِ ذبابة لاغيرِها، بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحْرَقُ أبداً ولا تموتُ أبداً، فلا تزالُ ولايزالُ الجبل!

فصاح أبو معاوية الضَّرير: ويحكَ يا محمد! دَعِ الرجلَ وشأنَه؛ إن لله عباداً متاعُهم مما لانعرف، كأنهم يأكلون ويشربون في النوم، فحياتُهم من وراء حياتنا، وأبو عتّابٍ في دنيانا هذه ليس هو الرجلَ الذى اسمهُ «منصور»، ولكنه

---

(١) ولد هذا الإمام العظيم سنة ٦١ للهجرة، وتوفي سنة ١٤٨ .

(٢) الجحادة هي الفرارة الممتلئة، فكانت أمه تشبه بها لضخامتها .

العملُ الذى يعمله « منصور » . هل أتاكم خبَرُ قارئُ المدينة « أبى جعفر الزاهد» ؟

قال الجماعة : ما خبره يا أبا معاوية ؟ قالَ : لقد تُوُفّى من قريب ، فرُئِى بعد موته على ظهر الكعبة ؛ وستَرون أبا عتاب – إذا مات – على منارة هذا المسجد !

فصاح أبوعتاب : تخَلّلْ يا أبا معاوية ؛ أما حفظتَ خبر ابن مسعود : « كنا عند النبى (صلى الله عليه وسلم) فقام رجل ، فوقَع فيه رجلٌ من بعده ؛ فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : " تخلّلْ " قال : " ممَّ أتخلّلُ ؟ ما أكلتُ لحمًا ؟ " قال : " إنك أكلتَ لحم أخيك ! "

فتَقلْقل الضرير فى مجلسه ، وتَنحنحَ ، وهَمْهَم أصواتًا بينه و بين نفسه ، وأحسّ الجماعةُ شأنَه ، وقد عرفوا أن له شرًّا مُبْصِراً ، كالذى كان فيه من المزْح والدّعابة ، وشرًّا أعمى هذه بوادرُه ؛ فاستْلَبَ ابنُ جُحادةَ الحديثَ مما بينهما وقال : يا أبا معاوية ، أنت شيخُنا و بركتُنا وحافظُنا ، وأقربُنا إلى الإمام ، وأمسُّنا به ؛ فحدّثنا حديثَ الشيخ كيف صنع فى ردّه على هشام بن عبد الملك[1] ، وما كانَ بينك و بين الشيخ فى ذلك ؛ فإن هذا مما انفردتَ أنت به دون الناس جميعًا ، إذ لم يسمعه غيرُ أذنيك ، فلم يحفظه غيرُك وغيرُ الملائكة .

فأسْفرَ وجهُ أبى معاوية ، وسُرّىَ عنه ، واهتزَّ عِطْفاه ، وأقبل عليهم بعفْوالقادر . . . وأنشأ يحدّثهم . قال :

إن هِشامًا – قاتله الله – بعث إلى الشيخ : أن اكتبْ لى مناقبَ عثمانَ ومَساوئَ علىّ . فلما قرأ كتابه كانت داجِنَةٌ إلى جانبه ، فأخذ القرطاسَ وألْقمَه الشاةَ ، فلاكَتْهُ حتى ذهب فى جوفها ، ثم قال لرسول الخليفة : قل له : هذا جوابُك ! فخشى الرسولُ أن يرجعَ خائبًا فيقتلَه هشام ، فما زال يتحمّلُ بنا ، فقلنا : يا أبا محمد ، نجّه من القتل . فلما ألححْنا عليه كتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ يا أمير المؤمنين ، فلو كانت لعثمانَ (رضى الله عنه) مناقبُ أهل

---

(١) بويع هشام سنة ١٠٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٢٥ .

الأرض ما نفعتْك ، ولو كانت لعليّ (رضى الله عنه) مساوئ أهل الأرض ما ضرّتْك فعليك بخُوَيصةِ نفسِك ، والسلام » .

فلما فَصَلَ الرسولُ قال لى الشيخ : إنه كان فى خُرَاسَانَ مُحدِّثٌ اسمه « الضحّاكُ بن مُزاحِم الهلالى » وكان فقيهَ مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبيّ يتعلمون ؛ فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حماراً ودارَ به فى المكتب عليهم ، فيكونُ إقبالُ الحمار على الصبيّ همًّا وإدبارُه عنه سروراً . وما أرى الشيطانَ إلا قد تعب فى مكتبه وأعيا ، فركب أمير المؤمنين . . . ليدورَ علينا نحن يسألنا : ماذا حفظنا من مساوئ عليّ ؟

قلت : فلماذا ألقمتَ كتابَه الشاةَ ؟ ولو غسلتَه أو أحرقتَه كان أفهمَ له وكان هذا أشبهَ بك . فقال : ويحك يا أبله ! لقد شابت البلاهة فى عارِضَيك ؛ إن هشامًا سيتَقَطع منها غيظًا ، فما يخفى عنه رسولُه أنى أطعمتُ كتابه الشاة ، وما يُخفى عنه دَهاؤه أن الشاة ستَبْعَرُه من بَعْدُ . . . !

قلت : أفلا تخشى أميرَ المؤمنين ؟

قال : ويحك ! هذا الأحولُ عندك أميرُ المؤمنين ؟ أبِمَا ولدته أمُّه من عبد الملك ؟ فَهَبْها ولدته من حائكٍ أوحجّام ! إن إمارةَ المؤمنين يا أبا معاوية ، هى ارتفاعُ نفس من النفوس العظيمة إلى أثرِ النبوّة ؛ كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنين جميعًا ثم رضى منهم رجلاً للزمن الذى هو فيه ، ومتى أصيبَ هذا الرجلُ القرآنيُّ ، فذاك وارثُ النبيّ فى أمته وخليفتُه عليها ، وهو يومئذ أميرُ المؤمنين ، لامن إمارة المُلْك والترَف ، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة .

هذا الأحولُ الذى التفّ كدودة الحرير فى الحرير ، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب ، ولكن للهو والحَلْبَة ، حتى اجتمع له من جياد الخيل أربعةُ آلاف فرس لم يجتمع مثلُها لأحد فى جاهلية ولا إسلام ، وعَمِلَ الخزَّ وقَطُفَ الخزّ ، واستَجادَ الفَرْشَ والكُسوة ، وبالغَ فى ذلك وأنفقَ فيه النفقات الواسعة ، وأفسد الرجولة بالنعيم والترفِ ، حتى سلك الناسُ فى ذلك سُنَّتَه ، فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم ، وصنعوا الخيرَ صنعةً جديدةً بصرفه إلى حظوظهم ، وتركوا الشرَّ على ما هو فى الناس ، فزادوا الشرَّ وأفسدوا الخير ، ولم

يَعُدِ الفقراءُ والمساكينُ عندهم هم الفقراء والمساكين من الناس ، بل بطونَهم وشهواتِهم . . . ! ولقد كان الرجلُ من أغنياء المسلمين يقتصدُ فى حظ نفسه ليَسعَ بِبرّه مائةً أو مائتين أو أكثرَ من إخوانه وذوى حاجته ، فعاد هذا الغنىُّ يتّسعُ لنفسه ثم يتسع ، حتى لا يكفيه أن يأكل رزقه مائة أو مائتين أو أكثر !

إن هذا الإسلامَ يجعل أحسنَ المسرّات أحسنَها فى بذلها للمحتاجين ، لافى أخذِها والاستئثارِ بها ، فهى لاتضيع على صاحبها إلا لتكونَ له عند الله ، وكأن الفقر والحاجةَ والمسكنةَ والإنفاقَ فى سبيل الله — كأن هذه أرَضُون يُغْرَس فيها الذهبُ والفضة غرسًا لايُؤتى ثمرَه إلا فى اليوم الذى ينقلبُ فيه أغنى الأغنياء على الأرض ، وإنه لأفقر الناسَ إلى درهم من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم ؛ فيقالُ له حينئذ : خُذْ من ثمار عملك ، وخُذْ مِلءِ يديك !

والسلطانُ فى الإسلام هو الشرع مَرْئيًّا يُتابِعهُ ، متكلما يفهمُه الناسُ ، آمرًا ناهيًا يُطيعه الناس . ولقد رأى المسلمون هذا الأحولَ ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا ؛ فمنعوا مافى أيديهم ، فانقطع الرّفْد ، وقل الخير ، وشحّت الأنفس ، وأصبح خيرُهم خيرَهم لبطنه وشهواته ، وصار الزمانُ أشبهَ بناسِه ، والناس أشبه بمَلِكِهم ، ومِلكُهم فى شهواته « فقيرُ المؤمنين » لا أميرُ المؤمنين !

إن هذه الإمارةَ يا أبا معاوية ، إنما تكون فى قرب الشبه بين النبىّ ومن يختاره المؤمنون للبيْعة . وللنبىّ جهتان : إحداهما إلى ربه ، وهذه لايطمع أحدٌ أن يبلغ مَبلَغه ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هى التى يقاس عليها « وهى كلُّها رفْقٌ ورحمةٌ وعملٌ ، وتدبير وحِياطة وقوة ، إلى غيرها مما يقَومُ به أمرُ الناس ؛ وهى حقوقٌ وتَبِعاتٌ ثقيلةٌ تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه ، وبهذا الانصراف تجذبُ الناس إلى صاحبها . فإمارةُ المؤمنين هى بقاء مادّة النور النبوىّ فى المصباح الذى يضىء للإسلام ، بإمداده بالقدْرِ بعد القدْر من هذه النفوس المضيئة . فإن صَلُحَ التّرابُ أو الماء مكانَ الزيت فى الاستضاءة ، صَلُحَ هشامٌ وأمثاله لإمارة المؤمنين !

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبى مثل ما بين دِينَين مختلفين . ويلٌ يومئذ للمسلمين ! ويلٌ يومئذ للمسلمين !

* * *

فلما أتمّ الضريرُ حديثَه قال ابن جُحادة : إن شيخنا على هذا الجدّ ليَمزح ، وسأحدّثكم غيرَ حديث أبى معاوية ، فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرَفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له : اضحكْ منّى ومن أهلى . ولكنّ وقارَه ودينَه ارتفعا به أن يضحكَ بفمه ضَحِكَ الجهلاء والفارغين فضَحِك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره .

لقد كنتُ عنده فى مَرْضتِه ، فعاده « أبو حنيفة » صاحبُ الرأى ، وهو جبَلُ عِلْم شامخ ، فطوَّلَ القعودَ مما يُحبُّه ويأنسُ به ، إذ كانت الأرواحُ لاتَعرف مع أحبابها زمنًا يطول أو يقصر . فلما أراد القيامَ قال له : ما كأنى إلا ثقَلْتُ عليك . فقال الشيخ : إنك لثقيلٌ علىّ وأنتَ فى بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة كأنه طفل يُلاَغيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها ، أو أبٌ داعَبَه طفله بكلمة فيها غيرُ معناها .

وجاءه فى الغَداة قومٌ يعودونه ، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وِسادتَه وقام منصرفًا ، وقال لهم : قد شَفَى الله مريضكم . . . !

فقال الضرير : تلك روْحَةٌ من هواء دُنْباوَنْد(١) ، فإن أبا الشيخ كان من تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأمُّه حاملٌ ؛ فوُلِدَ هنا ؛ فكأن فى دمه ذلك النسيمَ تهبُّ منه النفْحة بعد النفحة فى مثل هذه الكلمات المُتَنَسِّمة ؛ ثم هى رُوحُه الظريفةُ الطيِّبةُ تَلْمِس بعض كلامه أحيانًا ، كما تلمس روحُ الشاعر بعضَ كلام الشاعر ؛ وما رأيت أدقَّ النوادر الساخرة وأبلغَها وأعجبَها يجىء إلا من ذوى الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدةِ الغَوْر ، كأنما النادرةُ من رؤية النفس حقيقتين فى الشىء الواحد . والإمامُ فى ذلك لايسخَر من أحد ، إلا إذا كانت الأرضُ حين تُخرج الثمرةَ الحلوةَ تسْخَر بها من الثمرة المرة .

والعجيبُ أن النادرةَ البارعةَ التى لاتتفق إلا لأقوى الأرواح ، يتفق مثلها لأضعفِ الأرواح ؛ كأنها تسْخَر من الناس كما يسخرون بها فهذا « أبو حَسَن » مُعلِّم الكُتَّاب ، جاءه غلامان من صِبْيتِه قد تعلق أحدهما بالآخر ؛ فقال :

---

(١) ناحية من رستاق الرى فى الجبال الثلجية وهى بلاد العجم .

يا مُعلِّم ، هذا عَض أذنى . فقال الآخر : ما عضضتُها ، وإنما عضَّ أذنَ نفسِه . . . فقال المعلم : وتمكُرُ بى يا ابن الخبيثة ؟ أهو جملٌ طويل العُنق حتى ينالَ أذنَ نفسه فيعضّها . . . !

* * *

وطلع الشيخُ عليهم وكأنما قرأ نفسَ أبى معاوية فى وجهه المتفتّح . ومن عجائب الحكمة أن الذى يُلْمَحُ فى عينى المبصِر من خوالج نفسه ، يُلْمَحُ على وجه الضرير مُكَبَّراً مجسَّما . وكان الشيخ لايأنسُ بأحدٍ أُنْسَه بأبى معاوية ، لذكائه وحِفظه وضبْطِه ، ولمُشاكلَة الظَّرف الروحىّ بينهما ؛ فقال له :

— « فِيمَ كان أبو معاوية ؟ »

— « كان أبو معاوية فى الذى كان فيه ! »

— « وما الذى كان فيه ؟ »

— « هو ما تسأل عنه ! »

— « فأجبْنى عما أسأل عنه »

— « قد أجبتُك! »

— « بماذا أجبتَ ؟ »

— « بما سمعتَ! »

فقبَّضَ وجه الشيخ وقال : « أههنا وهناك معًا ؟ لو أن هذا من امرأة غضْبَى على زوجها لكان له معنى ، بل لامعنى له ولا من امرأةٍ غضبى على زوجها. أحْسَبُ لولا أن فى منزلى من هو أبغضُ إلىَّ منكم ما خرجتُ ؟ » فقال الضرير : « يا أبا محمد ، كأننا زوجاتُ العِلم ، فأيتنا التى حَظِيتْ وبظيت . . . »

فغطَّى الجماعةُ أفواهَهم يضحكون، وتبسَّم الشيخ ، ثم شرع يحدّث فأفضى من خَبَر إلى خبر ، وتَسرَّح فى الرواية حتى مرّ به هذا الحديث :

عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن هلاكَ الرجالِ طاعتُهم لنسائهم » .

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) : « هلاكُ الرجل طاعته لامرأته » ؛ فإن هذا لايستقيم ؛ إذ يكون بعضُ النساء

أحيانًا أكملَ من بعض الرجال ، وأوفرَ عقلاً وأسدَّ رأياً ، وقد تكون المرأة هى الرجلَ فى الحقيقة عزمًا وتدبيراً وقوّة نفس ، ويتلينّ الرجلُ معها كأنه امرأة . وكثيرٌ من النساء يكُنَّ نساءً بالحِلْية والشكل دون ما وراءهما ، كأنما هيِّئْن رجالاً فى الأصل ثم خُلِقْن نساء بعدُ ، لإحداثِ مايريد الله أن يُحْدِثَ بهنّ ، مما يكون فى مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين فى الخير أو الشر .

وإنما عمّ الحديثُ ليدلّ على أن الأصلَ فى هذه الدنيا أن تستقيم أمورُ التدبير بالرجال ؛ فإن البأس والعقل يكونان فيهم خِلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان فى النساء : كما أن الرقة والرحمة فى خِلقة النساء وطبيعتهن أكثرُ مما هما فى الرجال ، فإذا غلبتْ طاعةُ النساء فى أمة من الأمم ، فتلك حياة معناها هلاكُ الرجال ، وليس المرادُ هلاكَ أنفسِهم ، بل هلاكَ ما هم رجالٌ به ، والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته ، والحجرُ حجر بشدّته واجتماعه ؛ فإن ذاب الأولُ أو تفلّل ، وتناثر الآخر أوتفتت ، فذاك هلاكهما فى الحقيقة ، وهما بعدُ لايزالان من الحجر والحديد .

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها ، وهى على ذلك تأبى أن تكونَ ضعيفةً أو تُقرَّ بالضعف ، إلا إذا وجدت رجلَها الكامل ، رجلَها الذى يكون معها بقوّته وعقله وفِتْنتِه لها وحبِّها إياه ، كما يكون مِثالٌ مع مثال . ضَعْ مائةَ دينار بجانب عشرة دنانير ، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدّعِيَ وتستطيل ؛ قد تقول : إنها أكثرُ إشراقًا ، أوأظرفُ شكلاً ، أو أحسنُ وضعًا وتصفيفًا ؛ ولكن الكلمةَ المحرَّمة هنا أن تزعم أنها أكبرُ قيمةً فى السوق . . . . !

قال الشيخ : ومَن مِنَ النساء تُصيبُ رجلَها الكاملَ أو القريبَ من كماله عندها ، أى طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كمالِ جِسم مُفصَّلٍ لجسمٍ ، تفصيلَ الثوب الذى يلبسُه ويختالُ فيه ؟ أما إن هذا من عمل الله وحده ؛ كما يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقْدِر ، يبسُطُ مثلَ ذلك للنساء فى رجالهن ويقْدِر .

فإذا لم تُصِب المرأةُ رجلَها القويّ — وهو الأعمُّ الأغلب — لم تستطع أن تكون معه فى حقيقة ضعفها الجميل ، وعمِلَت على أن يكون الرجلُ هو الضعيف ، لتكونَ معه فى تزوير القوّة عليه وعلى حياته ، وبهذا تخرجُ من حيِّزها ؛

وما أولُ خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى ؛ فإن كثُر خروجهن فى الطريق، وتسكّعن ههنا وههنا، فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضاً ..

قال الشيخ : وكأن فى الحديث الشريف إيماء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلن عن بعض الحق الذى لهن إبقاء على نظام الأمة ، وتيسيراً للحياة فى مجراها ؛ كما ينزل الرجل عن حقه فى حياته كلها إذا حارب فى سبيل أمته، إبقاءً عليها وتيسيراً لحياتها فى مجراها . فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسُه جهادُها وحربُها فى سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرجل يُقتَلُ أو يجرحُ فى جهاده .

ألاَ وإن حياةَ بعض النساء مع بعض الرجال تكونُ أحياناً مثلَ القتل ، أو مثلَ الجَرْح ، وقد تكون مثلَ الموت صبراً على العذاب ! ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمُزَوَّجة يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها : « فأين أنت منه ؟ » قالت ما آلُوه إلا ما عجَزْتُ عنه ! قال : « فكيف أنتِ له ؟ فإنه جنّتُكِ ونارُك » .

آه ! آه ! حتى زواجُ المرأة بالرجل هو فى معناه مرورُ المرأةِ المسكينة فى دنيا أخرى إلى موت آخر ، ستُحاسَب عنده بالجنة والنار ، فحسابُها عند الله نوعان : ماذا صنعت بدنياكِ ونعيمها وبؤسِها عليكِ ؛ ثم ماذا صنعتِ بزوجك ونعيمِه وبؤسه فيكِ ؟

وقد روينا أن امرأةً جاءت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقالت : يا رسول الله ، إنى وافدةُ النساء إليك ؛ ثم ذكرتْ ما للرجال فى الجهاد من الأجر والغَنيمة ؛ ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « أبلغِى من لقيتِ من النساء أن طاعةً للزوج ، واعترافاً بحقه — يعدِلُ ذلك ؛ وقليلٌ منكنّ من يفعلُه ! »

وقال الشيخ : تأملوا اعجبوا من حكمة النبوّة ودقّتها وبلاغتها ؛ أيقالُ فى المرأة المُحبّةِ لزوجها المفتتنة به المعجَبةِ بكماله : إنها أطاعته واعترفت بحقه ؟ أو ليس ذلك طبيعةَ الحب إذا كان حباً ؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأة رجلها المفصَّل لها ، بل رجلاً يُسمَّى زوجاً ؛ وهنا يظهر كرمُ

المرأة الكريمة ، وههنا جهادُ المرأة وصبرُها ، وههنا بَذْلُها لا أَخْذُها ؛ ومن كل ذلك ههنا عملها لجنتها أو نارها .

فإذا لم يكن الرجل كاملا بما فيه للمرأة ، فلتُبْقِه هي رجلاً بنزولها عن بعض حقها له ، وتركِها الحياةَ تجرى فى مجراها ، وإيثارِها الآخرةَ على الدنيا ، وقيامها بفريضةِ كمالها ورحمتها ، فيبقى الرجلُ رجلاً فى عمله للدنيا ، ولا يُمْسَخُ طبعُه ولا ينتكِسُ بها ولا يَذِلُّ ، فإن هى بَدَأَتْ وتسلَّطت وغلَبت وصرَّفت الرجلَ فى يدها ، فأكثرُ ما يظهر حينئذ فى أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم — إنما هو طيشُ ذلك العقلِ الصغير وجُرْأَتُه ، وأحيانًا وقاحتُه ؛ وفى كل ذلك هلاكُ معانى الرجولة ، وفى هلاك معانى الرجولة هلاكُ الأمة ؟ !

قال الشيخ : والقلوبُ فى الرجال ليست حقيقةً أبداً ، بطبيعة أعمالهم فى الحياة وأمكنتِهم منها ، ولكن القلبَ الحقيقى هو فى المرأة ، ولذا ينبغى أن يكون فيه السُّموُّ فوق كل شيء إلا واجبَ الرحمة ؛ ذلك الواجبُ الذى يتَّجه إلى القوىِّ فيكون حبًّا ، ويتجه إلى الضعيف فيكون حَنانًا ورقّة ، ذلك الواجبُ هو اللطف ؛ ذلك اللطفُ هو الذى يُثبت أنها امرأة .

• • •

قال أبو معاوية : وانفضَّ المجلس ، ومنعنى الشيخُ أن أقوم مع الناس ، وصَرَفَ قائدى ؛ فلما خلا وجهُه قال يا أبا معاوية ، قُمْ معى إلى الدار . قلتُ : ما شأنٌ فى الدار يا أبا محمد ؟ قال : إن (تلك) غاضبةٌ علىَّ ، وقد ضاقت الحالُ بينى وبينها ، وأخشى أن تباعَد ، فأريدُ أن تُصْلِح بيننا صُلحًا .

قلت : فِمَ غضبُها ؟ قال : لا تَسألُ المرأة مِمَّ تغضب ، فكثيراً مايكون هذا الغضبُ حركةً فى طباعها ، كما تكون جالسةً وتريد أن تقوم فتقوم ، وتريدُ أن تمشى فتمشى !

قلت : يا أبا محمد ، هذا آخرُ أربع مرات[1] تغضبُ عليك غَضَبَ الطلاق ، فما يَحبِسُك عليها والنساء غيرها كثير .

قال : ويحكَ يا رجل ! أبائعُ نساء أنا ، أما علمتَ أن الذى يطلّق امرأةً

---

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس « هذه رابع مرة » .

لغير ضرورةٍ مُلجئة ، هو كالذى يبيعها لمن لايدرى كيف يكون معها وكيف تكون معه ؟ إن عمْرَ الزوجة لو كان رقبةً وضُربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق !

وهل تعيشُ المطلّقةُ إلا فى أيام ميتة ؟ وهل قاتِلُ أيامها إلا مطلقُها ؟

قال أبو معاوية : وقمنا إلى الدار ، واستأذنت ودخلت على (تلك) . . .

زوجة إمام
بقية الخبر

قال أبو مُعاوية الضرير : وكنتُ فى الطريق إلى دار الشيخ ، أُرَوِّئُ فى الأمر ، وأمتَحِنُ مذاهبَ الرأى ، وأقلّبها على وجوهها ، وأنظرُ كيف أحتالُ فى تأليف ما تَنَافَرَ من الشيخ وزوجته ؛ فإن الذى يَسفُرُ بين رجلٍ وامرأته إنما يمشى بفكرِه بين قلبين ، فهو مُطْفِئٌ نائرةً[1] أو مُسْعِرُها ، إذ لا يضعُ بين القلبين إلا حُمقَه أو كِياستَه ، وهو لن يردَّ المرأةَ إلى الرأى إلا إذا طافَ على وجهها بالضحِك ، وعلى قلبها بالخَجَل ، وعلى نفسها بالرقَّة ، وكان حكيمًا فى كل ذلك ؛ فإن عقلَ المرأة مع الرجلِ عقلٌ بعيدٌ ، يجئ من وراء نفسها ، من وراء قلبها .

وجعلتُ أنظرُ ما الذى يُفسدُ مَحل الشيخ من زوجته ، ومثَّلتُ بينه وبينها ، فما أخرجَ لى التفكيرُ ، إلا أن حُسنَ خلُقِه معها دائما هو الذى يستدعى منها سوء الخلُقِ أحيانًا ؛ فإن الشيخ كما ورد فى وصف المؤمن : « هَيِّنٌ لَيِّنٌ كالجمل الأنُف[2]، إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخَ على صخرةٍ استَنَاخ » ، والمرأةُ لاتكون امرأةً حتى تطلبَ فى الرجل أشياء : منها أن تحبَّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ، ومنها أن تخافَه بأسبابٍ يسيرة من أسباب الخوف . فإذا هى أحبته الحبَّ كلَّه ، ولم تخَفْ منه شيئًا ، وطال سكونُه وسكونُها ، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تُنَخِّيه وتُذَمِّرُه ، ليكونَ معها رجلاً فيُخيفَها الخوفَ الذى تستكملُ به لذةَ حبها ، إذ كان ضعفُها يحب فيما يحبه من الرجل ، أن يقْسُوَ عليه الرجلُ فى الوقت بعد الوقت ، لاليؤذِيَهُ ولكن ليُخْضِعَه ؛ والآمرُ الذى لايُخاف إذا عُصِيَ أمرُه ، هو الذى لايعبأ به إذا أُطيع أمرُه .

---

(١) النائرة الغضب .

(٢) أى المأنوف ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذى عقر أنفه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولا سمحاً .

وكأن المرأة تحتاج طبيعتُها أحيانًا إلى مصائبَ خفيفةٍ ، تؤذِي برقّةٍ أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمسَها به، لتتحركَ في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها؛ فإن طال ركودُ هذه الطبيعة ، أوجدتْ هي لنفسها مصائبها الخفيفةَ ، فكان الزوجُ إحداها . . .

وهذا كله غير الجرْأة أو البَذَاءِ فيمن يُبغضْن أزواجَهن، فإن المرأة إذا فَرِكَتْ زوجهَا لمنافَرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفُها الأنثَويُّ الذي يتم به جمالها واستمتاعُها والاستمتاعُ بها ، وتعقد بذلك لينُها أو تصلّب أو استحْجَر ، فتكونُ مع الرجل بخلاف طبيعتها ، فينقلبُ سُكْرُها النسائيُّ بأنوثتها الجميلةِ عربدةً وخِلافًا وشرًّا وصَخَبًا ، ويخرُج كلامُها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لا في صوت واحد . ولعل هذا هو الذي أحسَّه الشاعر العربيُّ بفطرته — من تلك المرأة الصخّابة الشديدةِ الصوت الباديةِ الغيظ ، فضاعفَ لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صُلُبَّةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيقُها[1]

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ، ودخلتُ بعد أن استوثقتُ أن عندها بعضَ مَحارمِها؛ فقلت: أنعم الله مساءَكِ يا أم محمد . قالت: وأنتَ فأنعم الله مساءك .

فأصغيتُ للصوت ، فإذا هو كالنائم قد انتبهَ يتَمَطّى في استرخاءٍ ، وكأنها تَقَبلني به وتردُّني معًا ، لا هو خالصٌ للغضَب ولا هو خالص للرضى .

فقلت : يا أم محمد ، إني جائع لم أَلِمَّ اليومَ بمنزلي . فقامت فقرّبت ماحضَر وقالت مَعْذِرَةً يا أبا معاوية ، فإنما هو جهْدُ المُقِلّ ، وليس بعدُو إمساكَ الرَّمَق . فقلت : إن الجَوْعانَ غيرُ الشَّهوان؛ والمؤمنُ يأكل في مِعًى واحد[2]، ولم يخلق الله قمحًا للملوك وقمحًا غيره للفقراء .

ثم سمَّيْتُ ومددتُ يدي أتحسَّسُ ماعلى الطبقَ ، فإذا كِسَرٌ من الخبز ، معها شيء من الجزَر المسلوق، فيه قليلٌ من الخل والزيت؛ فقلت في نفسي : هذا

---

(١) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ . ورواية لسان العرب : « (شديدة) الصيحة » وليست بشيء ، فليصححها من يقتني اللسان من القراء .

(٢) في بعض الأثر : المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء . وهذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط .

بعضُ أسباب الشر ؛ وما كان بى الجوعُ ولاسَدَه ، غيرَ أنى أردتُ أن أعرفَ حاضرَ الرزقِ فى دار الشيخ ، فإن مثلَ هذه القلة فى طعام الرجل هى عند المرأة قِلّةٌ من الرجل نفسه ؛ وكلُّ ما تَفْقِدُه من حاجاتها وشهواتِ نفسِها ، فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدُهما من الأشياء ، والآخر من الرجل: كلما أكثر الرجلُ من إتحافها كثُر عندها ، وإن أقلّ قلّ . وإنما خُلقت المرأةُ بطنًا يلدُ ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتِها ، وهذه غايتُها وغايةُ الحكمةِ فيها ؛ لاجَرَمَ كان لها فى عقلها مَعِدَةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحِلى والثياب والزينةِ والمال ، وطماحُها إليها ، واستهلاكُها فى الحرص والاستشرافِ لها — إلا مظهراً من حكم البطنِ وسُلطانه ؛ فذلك كلُّه إذا حقّقتَه فى الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسُّلطة ، وكان فقدُه من ذرائع الضعف والقِلّة ؛ فإذا حققتَه فى المرأة ألفيتَه عندها من معانى الشِبَع والبطر ، وكان فقدُه عندها كأنه فنٌّ من الجوع ، وكانت شهوتُها له كالقَرَمِ إلى اللحم عند من حُرِمَ اللحم ؛ وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء ؛ فلن يكون عقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة فى معانيها « البطنيّة » فحُسِبَتْ لها الزيادةُ ههُنا بالنقص هناك ؛ فهن ناقصاتُ عقلٍ ودين كما ورد فى الحديث : أما نقصُ العقل فهذه علته ؛ وأما الدينُ فلغلَبة تلك المعانى على طبيعتها كما تَغلب على عقلها ؛ فليس نقصُ الدين فى المرأة نقصاً فى اليقين أو الإيمان ، فإنها فى هذين أقوى من الرجل ؛ وإنما ذاك هو النقصُ فى المعانى الشديدة التى لايكمل الدينُ إلا بها ؛ معانى الجوع من نعيم الدنيا وزينتِها ، وامتدادِ العينِ إليها ، واستشرافِ النفس لها ؛ فإن المرأة فى هذا أقلُّ من الرجل ؛ وهى لهذه العلةِ ما برحتْ تُؤْثِرُ دائمًا جمالَ الظاهر وزينتَه فى الرجال والأشياء ، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة .

* * *

قال أبو معاوية : وأريتُها أنى جائع ، فنَهَشْتُ نهشَ الأعرابى ، كيلا تفطنَ إلى ما أردتُ من زَعْمِ الجوع ؛ ثم أحببت أن أستَدْعِيَ كلامَها وأستَميلَها لأن تضحكَ وتُسر ، فأغيِّرَ بذلك مافى نفسها ، فيجدَ كلامى إلى نفسها مذهبًا ؛ فقلت : يا أم محمد ، قد تحرَّمتُ بطعامكِ ، ووَجَبَ حقى عليك ، فأشيرى على

برأيك فيما أستصلح به زوجتي ، فإنها غاضبة عليّ ، وهي تقول لي : والله ما يُقيم الفأر في بيتك إلا لحبّ الوطن . . . وإلا فهو يسترزق من بيوت الجيران .

قالت : وقد أعدمتْ حتى من كِسَر الخبز والجزَر المسلوق ؟ اللهَ منك! لقد استأصلْتَها من جذورها ؛ إن في أمراض النساء الحُمَّى التي اسمها الحميّ ، والحميّ التي اسمُها الزَّوج . . . .

فقلت : اللهَ اللهَ يا أم محمد ؛ لقد أيسَرْتِ بعدنا ، حتى كأن الخبز والجزرَ المسلوقَ شيءٌ قليل عندك من فَرْط ما يتيسَّر ؛ أو ما علمتِ أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسِهم ، يصوم عن أصحابه اليومَ واليومين . . . وكأنكِ سمعتِ شيئًا من أخبار أمهات المؤمنين ، أزواج ، رسول لله (صلى الله عليه وسلم) ونساء أصحابه (رضوانُ الله عليهم) ؛ فما خيرُ امرأة مسلمةٍ لاتكون بأدبها وخُلُقها الإسلاميّ كأنها بنت إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنتَ محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ أفكان ينقلك هذا إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العيش ؛ وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ في أحلام نفسِها ، أو بنتَ نبيٍّ تعيش في حقائق نفسِها العظيمة ؟

تقولين : إنني استأصلت أمَّ معاوية من جُذورها ؛ فما أمُّ معاويةَ وماجذورها ؟ أهي خيرٌ من أسماء بنت أبي بكر صاحبِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد قالت عن زوجها البطلِ العظيم : تزوّجَني وما لَه في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ، ولاشيء غير فرَسِه وناضحه[1] ، فكنت أعْلف فرَسَه وأكفيه مؤنتَه وأسُوسُه ، وأدقُّ النَّوى لناضحهِ وأعلُفه ، واستقي الماء وأخْرُزُ غَرْبَه[2]وأعجن ؛ وكنت أنقلُ النوى على رأسي من ثلثي فرسخ ، حتى أرسل إليَّ أبوبكر بجارية ، فكفتني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني .

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والإباء والقوة ، والكبرياء بالنفس على الحياة كائنةً ما كانت ، والرضا والقناعة ومؤازرةِ الزوج وطاعته ، واعتبارِ مالَهن عند الله لا مالَهنّ عند الرجل ، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك في أنفسهن ، وتكون المرأة منهن وما في دارها شيء ، وعندها أن في دارها الجنة . وهل الإسلامُ

---

(١) النواضح : الإبل يستقى عليها ، واحدها ناضح وسائقها النضاح .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور .

إلا هذه الروحُ السماوية التى لاتهزمُها الأرضُ أبداً ، ولاتُذِلها أبداً ، ما دام يأسُها وطمعُها معلَّقين بأعمال النفسِ فى الدنيا ، لابشهوات الجسم من الدنيا ؟

هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الإسلام ، إلا مثلُ الحرب يثور حولَها غبارُها، ويكون معها الشظَف والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر ، إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوةَ الإنسانية لاالضعف ، وأن يكون اليقينَ الإنسانىَّ لا الشك، وأن يكون الحقَّ فى هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تُمِدَّ هذه الحربَ بأبطالها ، وعَتَادِ أبطالها ، وأخلاقِ أبطالها ؛ ثم ألاَّ تكونَ دائماً إلا من وراء أبطالها ؟ وكيف تلد البطلَ إذا كان فى أخلاقها الضعةُ والمطامعُ الذليلةُ ، والضجرُ والكسلُ والبلادة ؟ ألا إن المرأة كالدار المبنيَّة ، لايَسْهل تغيير حدودها إلا إذا كانت خَرابا .

فاعترَضتْه امرأةُ الشيخ وقالت : وهل بأسٌ بالدار إذا وُسِّعَتْ حدودُها من ضيق ؟ أتكون الدار فى هذا إلى نقصِها أو تمامِها ؟

قال أبو معاوية : فكدتُ أنقطعُ فى يدها ، وأحببت أن أمْضِيَ فى استمالتها ، فتركتُها هُنَيْهَةً ظافرةً بى ، وأريتُها أنَّها شدَّتنى وَثاقًا ، وأطرقت كالمفكِّر ؛ ثم قلت لها : إنما أحدثك عن أم معاوية لأبى معاوية ؛ وتلك دارٌ لاتملك غيرَ أحجارها وأرضها فبأى شيء تتسع ؟

زعموا أنه كان رجلٌ عامل يملك دُوَيرةً قد التصقتْ بها مساكنُ جيرانه ، وكانت له زوجةٌ حمقاءُ ، ما تزال ضيِّقةَ النفس بالدار وصغَرِها ، كأن فى البناء بناءً حول قلبها : وكانا فقيرين ، كأم معاوية وأبى معاوية ؛ فقالت له يوما : أيها الرجلُ ، ألا توسِّع دارَك هذه ، ليعلم الناس أنك أيسرتَ وذهب عنك الضرُّ والفقر ؟ قال : فبماذا أُوسِّعها وما أملك شيئًا ، أأُمسك بيمينى حائطًا وبشمالى حائطًا فأمدُّهما أباعِد بينهما ...؟ وهبينى ملكت التَّوسِعةَ ونفقتَها، فكيف لى بدور الجيران وهى ملاصقةٌ لنا بَيْتَ بيت ؟

قالت الحمقاء : فإننا لانريد إلا أن يتعالَم الناس أننا أيسرنا ؛ فاهدِم أنت الدار ، فإنهم سيقولون : لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المالُ فى يدهم لما هدموا . . . . !

قال أبو معاوية: وغاظتنى زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها هَمْسةً من الضحك لِمَثَل الحمقاء ، وما اخترعتُه إلا من أجلها تريد أن يذهبَ عملى باطلاً ؛ فقلت: وهل تتسع أمٌ معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابى فى صلاحه ؟

قالت : وما خبرُ الأعرابى ؟

قلت : دخل علينا المسجدَ يومًا أعرابى جاء من البادية ، وقام يصلى فأطال القيامَ والناس يرمقونه ، ثم جعلوا يتعجبون منه ، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح ؛ فقطع الأعرابى صلاته وقال لهم : مع هذا إنى صائم . . .

قال أبومعاوية : فما تمالكت أن ضحكت، وسمعت صوت نفسها ، وميزتُ فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذى أتسببُ له . ثم قلت :

وإذا ضاقت الدار فلمَ لاتتسع النفسُ التى فيها ؟ المرأةُ وحدها هى الجوّ الإنسانىٌ لدار زوجها ، فواحدةٌ تدخل الدّارَ فتجعل فيها الروضةَ ناضرةً مُتَرَوِّحة باسمةً ، وإن كانت الدّار قَحطَةً مَسْحُوتةً ليس فيها كبيرُ شىء ؛ وامرأة تدخل الدّارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقَيظها وعواصفها ، وإن كانت الدّار فى رياشها ومتَاعها كالجنة السُندسيَّة ؛ وواحدة تجعل الدار هى القبر . والمرأةُ حقٌ المرأة هى التى تترك قلبَها فى جميع أحواله على طبيعته الإنسانية ، فلا تجعلُ هذا القلبَ لزوجها من جنس ماهى فيه من عيشة : مرة ذهبًا ، ومرة فضة ، ومرة نحاسًا أو خشباً أو ترابًا ، فإنما تكون المرأة مع رجلها من أجْله ومن أجل الأمة معًا ؛ فعليها حقان لاحقٌ واحدٌ ، أصغرهما كبير . ومن ثمّ فقد وجب عليها إذا تزوجتْ أن تستشعرَ الذات الكبيرة مع ذاتها ، فإن أغضبها الرجل بهفوة منه ، تجافَتْ له عنها ، وصَفَحتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى ؛ وعليها أنّ تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لابطبيعة نفسها ، وهى طبيعة تأبى التفرقَ والانفراد ، وتقومُ على الواجب ، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصة .

والإسلام يضع الأمة ممثلة فى النسل بين كل رجل وامرأته ، ويوجب هذا المعنى إيجابًا ، ليكونَ فى الرجل وامرأته شىء غيرُ الذكورة والأنوثة ، ويجمعهما ويقيّد أحدَهما بالآخر ، ويضعُ فى بهيميّتهما التى من طبيعتها أن تتفق وتختلف ، إنسانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف .

ومتى كان الدينُ بين كل زوج وزوجته ، فهما اختلفا وتَدَابَرا وتعقّدت

نفساهما ، فإن كلَّ عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلِّها ، ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه ، وهو اليُسْرُ والمُساهَلةُ ، والرحمةُ والمغفرةُ ، ولينُ القلب وخشيةُ الله ؛ وهو العهدُ والوفاء ، والكرمُ والمؤاخاةُ والإنسانية ؛ وهو اتساع الذات وارتفاعُها فوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيِّقة .

قال أبو معاوية : فحقُّ الرجلِ المسلم على امرأته المسلمةِ ، هو حقٌّ من الله ، ثم من الأمة ، ثم من الرجل نفسه ، ثم من لطفِ المرأة وكرمها ، ثم مما بينهما معًا . وليس عجيبًا بعد هذا ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ ، لأمرت النساء أن يَسْجُدْنَ لأزواجهن ، لِما جعل الله لهم عليهن من الحق » .

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشرَ النساء ، لو تَعلمنَ بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأةُ منكن تمسح الغبار عن قَدَمَى زوجِها بِحُرِّ وجهِها .

* * *

قال أبو معاوية : وكان الشيخ قد استبطأنى وقد تركته فى فِناء الدار ، وكنت زوّرت فى نفسى كلامًا طويلاً عن فَروته الحقيرة التى يلبسها ، فيكون فيها من بَذاذة الهيئة كالأجير الذى لم يجد من يستأجره ، فظهرَ الجوعُ حتى على ثيابه . . . وقد مرّ بالشيخ رجل من المُسَوِّدة(١) وكان الشيخ فى فروته هذه جالسًا فى موضع فيه خليجٌ من المطر ، فجاءه المسوّد فقال : قم فاعبُر بى هذا الخليج . وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك .

وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحوَ فى السماء لايكون فقراً فى السماء ، وإن فروةَ الشيخ تعرف الشيخَ أكثر من زوجته ، وإن المؤمنَ فى لذات الدنيا ، كالرجل الذى يضع قدميه فى الطين ليمشى ، أكبرُ همّه ألا يجاوزَ الطين قدميه .

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال معاوية : فبَدرْتُ وقلت : بسم الله ادخل ؛ كأنى أنا الزوجة . . .

---

(١) الذين يلبسون السواد ، وهم شيعة العباسيين .

وسمعتُ همساً من الضحك؛ ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة ؛ فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورَعه وزهده لَيُشبعه ما يُشبع الهُدهُد ، ويُرويه ما يروى العُصفور ، ولئن كان متهدّماً فإنه جَبَل علم ، « ولا تنظرى إلى عَمَش عينيه ، وحُموشةِ ساقيه ، فإنه إمام وله قَدْرٌ »[1] .

فصاح الشيخ : قم أخزاك الله ، ما أردتَ إلا أن تعرّفها عيوبى !

قال أبو معاوية : ولكنى لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده . .

(١) ما بين القوسين هو الوارد فى التاريخ ، وعليه بنينا هذه القصة .

قبح جميل

دخل أحمدُ بن أيمن (كاتبُ ابن طولون) البصرة ، فصنعُ له مسلم بن عمران التاجرُ المتأدبُ صنيعًا دعا إليه جماعةً من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحب الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يَدَى أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النظرَ إليهما ، ويُعْجَب من حسنهما ، وبَزَّتهما ورُوائهما ، حتى كأنما أفْرِغا فى الجمال وزينته إفراغا ، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لامن أبوين من الناس ، أو هما نبتا فى مثل تَهاويل الزهر من زينته التى تُبدِعُها الشمس ، ويَصْقُلُها الفجر ، ويتندَّى بها رُوحُ الماء العذب ؛ وكان لايصرف نظرَه عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالَهما لاينتهى فما ينتهى الإعجاب به .

وجعل أبوهما يُسارِقُه النظرَ مُسارَقةً ، ويبدو كالمتشاغِل عنه ، ليَدَع له أن يتَوسَّمَ ويتأمل ما شاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتَيْه ومَخايلهما ؛ بَيْدَ أن الحُسنَ الفاتنَ يأبى دائما إلا أن يسمعَ من ناظره كلمةَ الإعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحيانًا ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليُحس أنَّ غريزةً فى داخله كلَّمهَا الحُسن من كلامِه فردَّت عليه من كلامها .

قال ابن أيمن ، سبحانَ الله ؛ ما رأيت كاليوم قَطّ دُمْيَتَيْنِ لاتفتَح الأعين على أجملَ منهما ؛ ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكة ثيابًا من الجنة ، ما حسبت أن تصنعَ الملائكة أظرفَ ولا أحسنَ مما صنعت أمهما .

فالتفت إليه مسلم وقال : أحب أن تعوِّذهما . فمد الرجل يدَه ومَسَحَ عليهما ، وعوّذهما بالحديث المأثور ، ودعالهما ، ثم قال : ما أراك إلا استَجَدْتَ الأمّ فحَسُنَ نسلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضُه بعضًا ، صِغاره من كباره ؛ وماعليك ألاّ تكونَ قد تزوجت ابنةَ قَيصرَ فأولدتَها هذين ، وأخرجَتْهما هى لك فى

صيغتها الملوكية(١) من الحسن والأدب والرونق ، وما أرى مثلهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلالُ الملك ووقارُه ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غير مصدّق إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلةَ التى تصف ، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمة هى بدمامتها أحبُّ النساء إلىَّ ، وأخفهن على قلبى ، وأصلحهن لى ، ما أعدلُ بها ابنةَ قيصرَ ولا ابنة كسرى .

فبقى ابنُ أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطينَ ويستطيبه لفساد فى طبعه ، فلا يحلو السُكَّر فى فمه وإن كان مكرّراً خالصَ الحلاوة ؛ ورَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكونَ هذا الرجل الجِلْف قد ضارّها(٢) بتلك الدميمة أو تَسرَّى بها عليها ؛ فقال وما يملك نفسه : أمَا والله لقد كفرتَ النعمة ، وغدَرْت وجحدْتَ وبالغتَ فى الضُّر ، وإن أمَّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوقَ النساء ، إذ لم يتَبيَّنْ فى ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدُورِ نفسها ، وقد كان يَسَعُها العذر لو جعلتْهما سَخْنَةَ عين لك وأخرجتْهما للناس فى مَساوئك لا فى محاسنك ، وما أدرى كيف لا تَسنُدُ عليك ، ولا كيف صَلُحتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت ، واستقامتْ بمقدار ما التويتَ ، وعجيبٌ والله شأنُكما !! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ، وما أحب إلا امرأة دميمةً قد ذهبت بى كل مذهب ، وأنستنى كل جميلة فى النساء ، ولئن أخذتُ أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القُبح والشَّوْهَة والدَّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لا تجىء إلا دالَّةً على أجمل معانى المرأة عند رجلها فى الحظْوة والرضى وجمال الطبع ؛ وانظر كيف يلتئم أن تكونَ الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادةً فى الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائه ، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسّ ؟

قال ابنُ أيمن : والله إنْ أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عجّل الله لك

---

(١) تجىء هذه الكلمة فى كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب ، وهو الأفصح فى رأينا ، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جنى كتابه : « التصريف الملوكى » .

(٢) المضارة : اتخاذ الضرة على الزوجة .

من هذه الدميمة زوجتَك التي كانت لك في الجحيم ، لتجتمعا معًا على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين ، وما أدري كيف يتصلُ ما بينكما بعد هذا الذي أدخلتَ من القبح والدمامة في معاشرتها ومُعايشتها ، وبعد أن جعلتَها لاتنظرَ إليك إلا بنظرتها إلى تلك . أفبَهِيمَةٌ هي لاتعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس في الناس ، أم أنا لاأفقه شيئًا ؟

فضحك مسلم وقال : إن لي خبرا عجيبًا : كنت أنزل « الأُبُلَّةَ » وأنا مُتَعَيِّش(١) فحملت منها تجارةً إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثُر مالي ، ثم بدا لي أن أتَّسع في الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسطَ يدي للمال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت في مَيْعة الشباب وغُلَوَائه ، وأول هَجْمه الفتوّة على الدنيا ، وقلت : إن في ذلك خلالاً ؛ فأرى الأممَ في بلادها ومَعَايشها ، وأتقلّب في التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأُفيدُ عِظةً وعبرة ، وأعلم عِلمًا جديداً ، ولعلني أصيبُ الزوجةَ التي أشتهيها وأصورٌ لها في نفسي التصاوير ، فإن أمري من أوله كان إلى عُلُوٍّ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمي إلا للسَّبَق ، ولا أرضى أن أتخلفَ في جماعة الناس . وكأني لم أر في الأبلّة ولا في البصرة امرأةً بتلك التصاوير التي في نفسي ، فتأخذَها عيني ، فتعجبَني ، فتصلُح لي ، فأتزوجَ بها ، وطمعتُ أن أستنزل نجمًا من تلك الآفاق أحْرِزُه في داري ؛ فما زلتُ أرمي من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ »(٢) من أجلّ مدن خُراسان وأوسعِها غَلّة ؛ تُحْمَل غَلّتُها إلى جميع خراسان وإلى خُوارزْم ؛ وفيها يومئذ — كان — عالمُها وإمامُها « أبو عبد الله البَلْخي » وكنا نعرف اسمَها في البصرة ؛ إذ كان قد نزلها في رحلته وأكثر الكتابةَ بها عن الرُّواة والعلماء ؛ فاستَخَفّتْني إليه نَزِيَّةٌ من شوق إلى الوطن ، كأن فيه بلدي وأهلي ؛ فذهبت إلى حلْقته ، وسمعتُه يفسر قولَ النبي (صلى الله عليه وسلم) : « سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد » . فما كان الشيخ إلا في سحابة ، وما كان كلامه إلا وحيًا يوحى إليه . سمعت والله كلامًا لاعهدَ لي بمثله ، وأنا من أول نشأتي

---

(١) أي متكسب ليعيش لا ليغتني ؛ وهذا يسميه العامة (المتسبب) .

(٢) موقعها اليوم في بلاد الأفغان .

أجلس إلى العلماء والأدباء ، وأداخِلُهم فى فُنون من المذاكرة، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخىّ ، ولقد حفظته حتى ما تفوتُنى لفظة منه ، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله ، ويدفعنى إلى معانيه دفعًا ، حتى أتى علىّ ما سأحدّثك به . إن الكلمةَ فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا .

قال ابن أيمن : اطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لى كلام البلخى ، فقد تعلَّقتْ نفسى به .

قال : سمعت أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث : أمّا فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا(صلى الله عليه وسلم) ، وهو من أعجب الأدب وأبرعِه ، ما علمت أحداً تَنَبَّهَ إليه ؛ فإنه(صلى الله عليه وسلم) لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كَنَى بها عما تحت السواد ، وما فوقَ السواد ، وما هو إلى السواد ، من الصفات التى يتَقَبَّحُها الرجال فى خِلقة النساء وصُوَرِهِنّ ؛ فألْطَفَ التعبيرَ ورَقّ به، رفعاً لشأن النساء أن يصفَ امرأة منهن بالقُبح والدّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهًا للسانه النبوىّ ؛ كأنه (صلى الله عليه وسلم) يقول : إن ذِكْرَ قُبْح المرأة هو فى نفسه قبيحٌ فى الأدب ، فإن المرأة أمّ أو فى سبيل الأمومة ؛ والجنةُ تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخَيّل فى الحسن تحت قدمى امرأة، ثم يجوز أدبًا أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أمَا إن الحديث كالنَّصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصفَ امرأةً بقبح الصورة ألبتَّة ، وألاّ يجرىَ فى لسانه لفظ القبح وما فى معناه ، موصوفًا به هذا الجنس الذى منه أمه : أيَوَدُّ أحدكم أن يمزّق وجهَ أمه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العرب يُفَصّلون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظًا كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية ؛ أما أكمل الخلْق (صلى الله عليه وسلم) ، فما زال يوصّى بالنساء ويرفع شأنَهن حتى كان آخر ما وصى به ثلاثَ كلمات ، كان يتكلم بهن إلى أن تَلَجْلَجَ لسانُه وخَفِىَ كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة .... الصلاة. وما ملكتْ أيمانُكم لاتكلّفوهم ما لايطيقون؛ الله اللهَ فى النساء » .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هى إنما هى صلاةٌ تتعبَّد بها الفضائل ، فوجبتْ رعايتها وتلقِّيها بحقها ؛ وقد ذكرَها بعد الرقيق، لأن الزواج بطبيعته نوعُ رِقّ ؛ ولكنه ختَمَ بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج فى حقيقته نوعُ عبادة .

قال الشيخ: ولوأن أمًّا كانت دميمةً شوهاء فى أعين الناس، لكانت مع ذلك فى عين أطفالها أجملَ من ملِكة على عرشها ؛ فى الدنيا من يصفُها بالجمال صادقًا فى حسِّه ولفظه ، لم يكذبْ فى أحدهما ؛ فقد انتفى القبحُ إذن ، وصار وصفُها به فى رأى العين تكذيباً لوصفها فى رأى النفس ، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارَضا فلا جمال ولادمامة .

قال الشيخ : وأما فى معنى الحديث ، فهو (صلى الله عليه وسلم) يقرّر للناس أن كرمَ المرأة بأمومتها ، فإذا قيل : إن فى صورتها قبحًا ، فالحسناء التى لاتلد أقبح منها فى المعنى. وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذى يقال إن الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولتَ الحديثَ رأيته دائراً على تقدير أنْ لاقبحَ فى صورة المرأة ، وأنها منزَّهة فى لسان المؤمن أن توصفَ بهذا الوصف ، فإن كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبّ المرأة حبًّا على طريقة البهائم ، من حيث تَفْضُلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه فى غرائزه وشهواته ، لايتكذَّب فى الغريزة ولا فى الشهوة بتلوينهما ألوانًا من خياله ، ووضعهما مرّة فوق الحدّ ، ومرّة دون الحدّ(١) .

فأكبر الشأن هو للمرأة التى تجعل الإنسانَ كبيراً فى إنسانيته ، لا التى تجعله كبيراً فى حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هى التى يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهى القبيحةُ لاالجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيشَ فيما يصلُح به الناس ، لا فيما يصطلح عليه الناس ؛ فإن الخروجَ من الحدود الضيِّقة للألفاظ ، إلى الحقائق الشاملة ، هو الاستقامةُ بالحياة على طريقها المؤدى إلى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرةٌ فيه ،

---

(١) بسطنا هذا المعنى فى كتابنا (السحاب الأحمر) .

وهو إنما يصل من هذه إلى تلك ، فلا ينبغى أن يَحْصُرَ السماويةَ الواسعةَ فى هذه الترابيَّة الضيِّقة ؛ والقبح إنما هو لفظ ترابىّ يشار به إلى صورة وقع فيها من التشويه مثل معانى التراب ، والصورة فانية زائلة ، ولكنّ عملَها باق ؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل ؛ فالعملُ هو لاغيره الذى تَتَعَاوَرُه ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمالِ فى النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجلُ الفاضلُ من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا إلى الشوهاء ، ولكن إلى الحُور العين . إنهما فى رأى العين رجلٌ وامرأة فى صورتين متنافرتين جمالاً وقبحًا ؛ أما فى الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحىّ ، فهما إرادتان متّحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبيةَ عشق ، وتلتقيان معًا فى النفسين الواسعتين ، المرادِ بهما الفضيلةُ وثوابُ الله والإنسانية ؛ ولذلك اختار الإمامُ أحمدُ بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختُها جميلة ، فسأل : مَن أعقلُهما ؟ فقيل : العوراء : زوّجونى إياها . فكانت العوراء فى رأى الإمام وإرادتِه هى ذاتَ العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديثُ الشريفُ بعد كلّ هذا الذى حكيناه يدلّ على أن الحبَّ متى كان إنسانيًّا جاريًا على قواعد الإنسانية العامَّة ، متَّسعًا لها غيرَ محصورٍ فى الخصوص منها — كان بذلك علاجًا من أمراض الخيال فى النفس ، واستطاعَ الإنسان أن يجعل حبَّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويردُّ على نفسه من لذّاتها ، فإن لم يُسعدْه شيءٌ بخصوصه ، وجدَ أشياء كثيرةً تُسْعِدُه بين السماء والأرض ، وإن وقع فى صورة امرأته ما لايُعَدُّ جمالاً ، رأى الجمالَ فى أشياء منها غير الصورة ، وتَعَرَّف إلى مالا يَخْفَى ، فظهر له ما يَخْفَى .

وليست العين وحدَها هى التى تُؤامَر فى أىّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقلُ والقلب ، فجوابُ العينِ وحدها إنما هو ثلثُ الحق . ومتى قيل : « ثلثُ الحق » فضياعُ الثُلثين يجعله فى الأقل حقًّا غير كامل .

فما نكرهه من وجهٍ ، قد يكون هو الذى نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملَها الإنسانىّ بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين

دون أن أضيقهما [فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً] .

* * *

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور فى المجلس مما دخله من طَرَبِ الحديث ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا ابْن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعتَه من أبى عبد الله ؛ إنه والله قد حبَّب إلىّ السوداء والقبيحةَ والدميمة ، ونظرتُ لنفسى بخير النظَرين ، وقلتُ : إن تزوَّجْتُ يومًا فما أبالى جمالاً ولا قبحًا ، إنما أريد إنسانِيَّةً كاملة منى ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ فى كل امرأة ، ولكن ليس العقل فى كل امرأة .

قال : ثم إنى رجعتُ إلى البصرة ، وآثَرْتُ السكْنى بها ، وتَعالَمَ الناسُ إقبالى ، وعلمتُ أنه لايَحْسُنُ بى المُقامُ بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدّ هذين الغلامين ، وكانت له بنت قد عَضَلَها وتَعرَّض بذلك لعداوة خُطَّابِها ؛ فقلت : ما هذه البنت بدٌّ من شأن ، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملَهن ، ما ضنَّ بها أبوها رجاوةَ أن يأتيَه من هو أعلى . فحدثتْنى نفسى بلقائه فيها ، فجئتُه على خلوة . .

فقطع عليه ابن أيمن وقال ؛ قد علمنا خبرَها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التى تَعشَّقتَها .

قال : مهلاً فستنتهى القصةُ إليها . : ثم إنى قلت : يا عمّ ، أنا فلانٌ بن فلان التاجر . قال ما خَفِىَ عنى محلك ومحلُّ أبيك . فقلت : جئتُك خاطبًا لابنتك . قال : والله ما بى عنك رغبة ، ولقد خطبها إلىّ جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لكارهٌ إخراجَها عن حضْنى إلى من يُقَوِّمُها تقويمَ العبيد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسالك أن تدخِلَنى فى عَدَدِكَ ، وتَخْلِطَنى بِشَمْلك .

فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لابدّ . قال : اغْدُ علَىَّ برجالك .

فانصرفتُ عنه إلى ملأٍ من التجار ذوى أخطارٍ ، فسألتهم الحضور فى غد ؛ فقالوا : هذا رجل قد ردَّ من هو أثرى منك ، وإنك لتُحرِّكُنا إلى سَعْىٍ ضائع .

قلت : لابدّ من ركوبكم معى . فركبوا على ثِقة من أنه سيردّهم .

فصاح ابن أيمن وقد كادت روحُه تخرج : فذهبتَ ، فزوّجك بالجميلة الرائعة أمّ هذين ؛ فما خبرُ تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياسيدى قد صبرتَ إلى الآن ، أفلا تصبر على كلماتٍ تُنَبِّئُكَ من أين يبدأ خبرُ الدميمة ، فإنى ما عرفتها إلا فى العُرْسِ . . . !

قال : وغَدَوْنا عليه فأحْسَنَ الإجابة وزوّجنى ، وأطعم القومَ ونحر لهم ، ثم قال : إن شئتَ أن تبيتَ بأهلكَ فافعل ، فليس لها ما يُحْتاجُ إلى التَّلوُّم عليه وانتظارِه .

فقلت : هذا ياسيدى ما أحبه . فلم يزل يُحَدِّثنى بكل حَسَنٍ حتى كانت المغرب ، فصلاّها بى ، ثم سبّح وسبَّحتُ ، ودعا ودعوتُ ، وبقى مقبِلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفتُ لغير ذلك ، فأمضَّنى — علم الله — كأنه يرى أن ابنتَه مُقْبِلة منى على مصيبة ، فهو يتضرَّع ويدعو . . . !

ثم كانت العَتَمَةُ فصلاّها بى ، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فُرِشَتْ بأحسن فَرْشٍ ، وبها خَدَم وجوارٍ فى نهايةٍ من النظافة ؛ فما استقرَّ بى الجلوس حتى نهض وقال : أستَوْدعك الله، وقدَّم الله لكما الخير وأحْرَزَ التوفيق .

واكتنفنى عجائزُ من شمله ، ليس فيهنّ شابّة إلا من كانت فى الستين . . . فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى ، وإذا أجسامٌ بالية يتَضَامُّ بعضها إلى بعض ، كأنها أطلالُ زمنٍ قد انقضّ بين يدىّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دَميمتك لعجوزٌ أيضًا . . . ؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلتَ أمّ الغلامين . . . !

قال مسلم : ثم جَلَوْن ابنتَه عَلَىَّ وقد ملأن عينىَّ هرمًا وموتًا وأخيِلَةَ شياطين وظلالَ قُرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتى ، حتى أسرعْن فأرخَيْن الستورَ علينا ؛ فحمدتُ الله لذهابهن ، ونظرت . . .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلْتَ علينا ، فَستَحكى لنا قصتَك إلى الصباح ، قد علمناها ويلك ، فما خبرُ الدميمة الشوهاء ؟

قال مسلم : لم تكن الدميمةُ الشوهاء إلا العروس . . . .

* * *

فزاغت أعينُ الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةَ مَن وَرَد عليه ما حيَّرَه ؛ ولكن الرجل مَضى يقول :

ولما نظرتُها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظتُه عن أبى عبد الله البلخىّ ، وقلتُ : هى نفسى جاءت بى إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فىّ ويُديرنى ويُصرّفنى ؛ وما أسرع ما قامت المسكينةُ فأكبَّتْ على يدى وقالت :

« يا سيدى ، إنى سرٌّ من أسرار والدى ، كتمه عن الناس وأفضى به إلياك ، إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تخفِرْ ظنَّه فيك ، ولو كان الذى يُطلَب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْنِ تدبيرها وعفافها لعظُمتْ محنتى ، وأرجو أن يكون معى منهما أكثرُ مما قصَّر بى فى حُسْن الصورة ؛ وسأبلغ محبتك فى كل ما تأمرنى ؛ ولو أنك آذيتَنى لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعَنى كرمُك وسَتْرُك ؟ إنك لاتعامل اللهَ بأفضلَ من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى . أفلا تحرصُ يا سيدى ، على أن تكون هذا السببَ الشريف . . . . »

ثم إنها وثبتْ فجاءت بمال فى كيس ، وقالت : ياسيدى ، قد أحلّ الله لك معى ثلاثَ حرائر ، وما آثرْتَه من الإماء ؛ وقد سوّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط !

* * *

قال أحمد بن أيمن : فحلَف لى التاجر : أنهاملكتْ قلبى مِلْكا لاتصلُ إليه حسناءُ بحسنها ؛ فقلت لها : إن جزاء ماقدَّمت ماتسمعينه منى : « والله لأ جعلنَّك حظِّى من دنيايَ فيما يُؤثِره الرجلُ من المرأة ، ولأضربَنّ على نفسى الحجابَ ، ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبداً » . ثم أتممتُ سرورَها ، فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخىّ . فأيقنتْ — والله يا أحمد — أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها وجعلتْ تَحْسُن وتحسُن ، كالغصن الذى كان مَجروداً ، ثم وَخَزَتْه الخُضْرَةُ من هنا ومن هنا .

وعاشرتُها ، فإذا هى أضبطُ النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقُهن علىّ ، وأحبُّهنّ لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوّلُ أمرها وآخرُه ؛ وإذا عقلُها وذكاؤها

يُظهران لى من جمال معانيها مالا يزال يكثُر ويكثر ، فجعل القبح يقلّ ويقل ، وزال القبح باعتيادى رؤيتَه ، وبقيت المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة .

ولما ولدتْ لى ، جاء ابنها رائعَ الصورة ؛ فحدثتْنى أنها كانت لاتزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوّجَ وتلد أجملَ الأولادَ ، ولم تدعْ ذلك من فكرها قط ، وألّف لها عقلُها صورة غلام تتمثّلُه وما برحتْ تتمثله ؛ فإذا هى أيضاً كان لها شأنٌ كشأنى ، وكان فكرُها عملاً يعملُ فى نفسها ، ويُديرها ويصرّفها .

ورزقنى الله منها هذين الابْنَيْن الرائعين لك ، فانظر ؛ أىُّ معجزتين من معجزات الإيمان . . . !

* * *

الطائشة

١

قال صاحبُها وهو يُحدّثني من حديثها :

كانت فتاةً متعلّمةً، حلوةَ المنظر، حلوةَ الكلام، رقيقةَ العاطفة، مُرْهَفَةَ الحسّ ، فى لسانها بيانٌ ولوجهها بيانٌ غيرُ الذى فى لسانِها، تَعْرِفُ فيه الكلامَ الذى لاتتكلم به . . .

ولها طبعٌ شديدُ الطّرَب للحياة، مُسْتَرْسِلٌ فى مَرَحِه ، خفيفٌ طَيّاشٌ ، لو أثقلْتَه بجبَل لخفَّ بالجبل ؛ تحسبُها دائمًا سَكْرَى تتَمايلُ من طربها ، كأن أفكارَها المرِحةَ هى فى رأسها أفكارٌ وفى دَمِها خَمرْ . . .

وكان هذا الطبعُ السكرانُ بالشباب والجمال والطرب — يعملُ عملين متناقضين ؛ فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم ، وهو أيضًا جُرْأةٌ مُندفعةٌ متهجّمة .

وهزيمةُ الدلالِ فى المرأة إنْ هى إلا عَمَلٌ حَرْبِيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّةُ والهجوم ؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتَ المعنيَيْن : نظرةٌ واحدةٌ ؛ بها تُؤنِّبك المرأةُ على جراءتك معها ، وبها أيضًا تَعْذلك على أنك لستَ معها أجرأَ مما أنت . . . !

* * *

قلت : ويحكَ يا هذا ! أتعرفُ ما تقول ؟

قال : فمَنْ يعرفُ ما يقول إذا أنا لم أعرف ؟ لقد أحببتُ خمْسَ عشرةَ فتاة ؛ بل هُنّ أحببْنَنِى وفرَّغْنَ قلوبَهن لى، ما اعتزَّتْ علىَّ منهن واحدة ، وقد ذهبن بى مذهبًا ، ولكنى ذهبتُ بهن خمسةَ عَشَر !

قلت : فلا ريبَ أنك تحملُ الوِسامَ الإبليسيَّ الأوّل من رُتبة الجَمْرة . . . فكيف استَهامَ بك خمسَ عشرةَ فتاة ؛ أجاهلاتٌ هنّ ، أعَمْياواتٌ هن . . . . ؟

قال : بل متعلّمات مُبصِراتٌ يرَيْنَ ويُدْرِكن ، ولاتُخْطئُ واحدةٌ منهن فى فهم أن رجلاً وامرأةً قصةُ حُبّ . . . وما خمسَ عشرةَ فتاة ؟

وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن الحائر البائر، الذى كسد فيه الزواج، ورق فيه الدين، وسقط الحياء، والتهبت العاطفة، وانتشر اللهو، وكثرت فنون الإغراء، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معا .. ؛ وأطلقت الحرية للمرأة، وتوسعت المدارس فيما تقدم للفتيات، وأظهرت من الحفاوة بهن أمراً مفرطاً حتى أخذن منها ربع العلم . . ؟

قلت : وثلاثة أرباع العلم الباقية ؟

قال : يأخذنها من الروايات والسيما .

علم المدارس، ما علم المدارس ؟ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهادات هى مكافأة الحفظ وإجازة النسيان من بعد؛ أما علم السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن . . . ورب منظر يشهده فى السيما ألف فتاة بمرة واحدة، فإذا استقر فى وعيهن، وطافت به الخواطر والأحلام — سلبهن القرار والوقار فمثلنه ألف مرة بألف طريقة فى ألف حادثة !

يظنون أننا فى زمن إزاحة العقبات النسائية واحدة بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقبات النسائية عقبة بعد عقبة . وقد كان عيب الجاهلة المقصورة فى دارها أن الرجل يحتال عليها، فصار عيب المتعلمة المفتوح لها الباب أنها هى تحتال على الرجل؛ فمرة بإبداع الحيلة عليه، ومرة بتلقينه الحيلة عليها . والغريب فى أمر هذا العلم أنه هو الذى جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهول بجهل . . . !

قلت : وما الطريق المجهول ؟

قال : الطريق المجهول هو الرجل، وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريات : حرية الفتاة، وحرية الحب ؛ والأخرى حرية الزواج، ولما انطلق ثلاثتهن، معاً تغير ثلاثتهن جميعاً إلى فساد واختلال .

أما الفتاة فكانت فى الأكثر للزواج، فعادت للزواج فى الأقل وفى الأكثر للهو والغزل؛ وكان لها فى النفوس وقار الأم وحرمة الزوجة، فاجترأ عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة ؛ وكانت مقصورة لا تنال بعيب ولا يتوجه عليها ذم، فمشت إلى عيوبها بقدميها، ومشت إليها العيوب بأقدام

كثيرة . . . وكانت بجملتها امرأةً واحدةً، فعادت مما تَرى وتَعرفُ وتكابدُ كأنّ جسمَها امرأة ، وقلبَها امرأةٌ أخرى ، وأعصابَها امرأةٌ ثالثة . . .

وأما الحبُّ ، فكان حبًّا تتعرّف به الرجولة إلى الأنوثة فى قيودٍ وشروط ، فلما صار حرًّا بين الرجولةِ والأنوثة ، انقلبَ حيلةً تَغترُّ بها إحداهما الأخرى؛ ومتى صار الأمرُ إلى قانون الحيلة ، فقد خرج من قانون الشرف ، ويرجعُ هذا الشرفُ نفسُه كما نراه، ليس إلا كلمةً يُحتال بها .

وأما الزواجُ ، فلما صار حرًّا جاء الفتاةَ بشِبْه الزوج لا بالزوج. . . وضعُفَتْ منزلتُه ، وقلّ اتفاقُه ، وطال ارتقابُ الفتياتِ له ، فضعف أثرُه فى النفس المؤنّثة ؛ وكانت من قبلُ لَفْظتَا (الشابّ ، والزوج) شيئاً واحداً عندالفتاة وبمعنى واحد ، فأصبَحتا كلمتين متميزتَين : فى إحداهما القوة والكثْرة والسهولة ، وفى الأخرى الضعفُ والقِلّةُ والتعذُّر ؛ فالكلُّ شبّانٌ وقليلٌ منهم الأزواج ؛ وبهذا أصبح تأثيرُ الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقْنعُها منه أخَسُّ بُرهاناتِه ، لا بأنه هو مُقْنع ، ولكنْ بأنها هى مهيّأةٌ للاقتناع ...

وفى تلك الأحوال لايكونُ الرجلُ إلا مغفّلا فى رأى المرأة — إذا هو أحبَّها ولم يكن محتالاً حيلةَ مثله على مِثلها ، ويظلُّ فى رأيها مغفّلا حتى يخدَعها ويستنزِلها ؛ فإذا فعل كان عندها نَذْلاً لأنه فعل . . . وهذه حريةٌ رابعة فى لغة المرأةِ الحرّةِ والزواج الحرّ والحب الحرُ !

وانظر — بعيشِكَ — ما فعلت الحريةُ بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحتْ هذه الكلمةُ الساميةُ من مَبْذُوء الكلام ومكروهِه حتى صارت غيرَ طبيعيّة فى هذه الحضارة، ثم كيف أحالتها فجعلتها فى هذا العصرِ أشهرَ كلمةٍ فى الألسنة، يُتَهكّمُ بها على الدين والشرفِ وقانون العُرْفِ الاجتماعىّ فى خوف المعرّة والدنيئةِ والتّصاوُن من الرذائلِ والمبالاةِ بالفضائل ؛ فكلُّ ذلك (تقاليد) . .

وقد أخذت الفتَياتُ المتعلّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك ، وأجرَيْنَها فى اعتبارِهن مكروهةً وحِشْيةً ، وأضَفْن إليها من المعانى حَواشىَ أخرى ، حتى ليكاد الأبُ والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » . . . أهى كلمةٌ أبدعتْها الحرية ،أم أبدعَها جهلُ العصر وحماقتُه، وفجورُه وإلحادُه ؟

أهي كلمةٌ تَعلّقَها الفتياتُ المتعلماتُ لأنها لغةٌ من اللغة ، أم لأنها من لغة ما يُحبِبن . . . ؟

« تقاليد » . . . ؟ فما هي المرأةُ بدون التقاليد . . . ؟ إنها البلادُ الجميلةُ بغير جَيش ، إنها الكنزُ المخبوء مُعرَّضاً لأعين اللصوص ، تَحوطُه الغفلةُ لا المراقبة . هَبِ الناسَ جميعاً شُرفاء مُتعففينَ مُتصاونين ؛ فإن معنى كلمة « كنزٍ » متى تُرِكتْ له الحريةُ وأغْفِلَ من تقاليد الحِراسة ،أوجدتْ حريتُه هذه بنفسها معنى كلمة « لصٍّ »

* * *

قال صاحبنا : أما الفتاةُ المحرَّرَةُ من (التقاليد) .. كما عرفتُها فهي هذه التي أقصُّ عليك قصتَها ، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رُشدَين : يَثبتُ أحدُهما بالسِّن ، ويثبت الآخرُ بالزواج . ولو أن عانِساً ماتت في سن الخمسين أو الستين لوَجبَ أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصِر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأةِ نصفَ الرجل ، إذ تمامُ شرفِها الاجتماعي أن يكون الرجلُ مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشْدِ الفتاة بالغةً ما بلغتْ .

وأساسُ المرأة في الطبيعة أساسٌ بدني لاعقليّ ، ومن هذا كانت هي المصنعَ الذي تصنعُ فيه الحياة ، وكانت دائما ناقصةً لاتتمّ إلا بالآخر الذي أساسُه في الطبيعة شأنُ عقله وشأنُ قُوّته . . .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَدرُسُ وتتعلّم وتَنْبُغ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوُفُور عقلِها وذكائِها ، وتُقرّظها بنبوغها وعبقريتِها ، ثم رأتك لم تُلقِ كلمةً ولا إشارةً ولانظرةً على جسمِها ومحاسنِها ــ لتحوّل عندها كلُّ مدحِكَ ذمّاً ، وكلُّ ثنائك سُخرية ؛ فإن النبوغَ هاهنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرار كونِها هي ، هذا الكونِ البدنيّ الفاتن ، أو الذي تزعمه هي فاتناً ، أو الذي لاترضاه ولاترضى أن تكونَ صاحبتَه إلا إذا وجدت من يزعُم لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ ، مزيّنٌ بشمسه وقمرِه وطبيعتهِ المتنَضّرةِ التي تجعلُ مَسّه مَسّ ورَقِ الزّهر .

مِثلُ هذه إنما يكونُ الثناء عندها حينما يكونُ أقلُه باللسان العلميّ

ولغتِه ، وأكثرُه بالنظر الفنّىّ ولغتِه . وهذا على أنها عالمةُ الجنسِ ونابغتُه ، ودليلُ شذوذه العقلىّ ، والواحدةُ التى تجىء كالفَلْتة المفرَدة بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمَن دونَها ، وكيف بالنساء فيما هُنَّ نساء به ؟

دعْ جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذى بيَّنتُ لك ، فيأتون بامرأة جميلة نابغة ، فيضعونها بين رجال لاتسمعُ من جميعهم إلا : ما أعقلَها ، ما أعقلَها ، ما أعقلَها ! ولاترى فى عينَىْ كلٍّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلمة فى سنّ جدَّته . . . فهذه لن تكونَ بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين : إما أن يخرجَ عقلُهامن رأسها ، أو . . . أو تخرجَ فى وجهها لحية . . . !

(ما أعقلَها !) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لايأبَيْنها ولا يذمُمْنَها ، غيرأن الكلمةَ البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ ، هى عندهن كلمةٌ أخرى ، هى : (ماأجملَها!) ؛ إن تلك تُشبه الخبزَ القَفارَ لا شىء معه على الخِوان ، أما هذه فهى المائدة مُزيَّنةً كاملةً بطعامها وشرابها وأزهارِها وفكاهتِها وضحكِها أيضاً .

وكأن العقلَ الإنسانىّ قد غضِب لمَهانة كلمته وما عَرَّها به النساء ، فأراد أن يُثبتَ أنه عقلٌ ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : (ماأعقلَها) كلَّ الشأن والخطر ، وكلَّ البلاغة والسحر ، عند . . . عند الطفلة . . . تفرحُ الطفلة أشدَّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلَها . . . !

* * *

فقلت لمحدِّثى : كأنك صادقٌ يافتى ! لقد جلستُ أنا ذاتَ يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرفٌ وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا ... وكانت (التقاليدُ) كالحاشية لى ؛ فعلمتُ بعدُ أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدى كيف استطاع أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه ، أذكِّرُه أنى إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتَحُ ما شاء منها ويغلِق » .

قال محدِّثى : فهذا هذا ؛ إن إحساسَ المرأة بالعالَم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ، أو تَهُمُّ أن تختارَه ، أو تودُّ أن تختاره ؛ ثم إحساسِها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلِها فى أولادها . وحياةُ المرأة لا أسرارَ فيها ألبتَّة ، حتى إذا دخلها الرجلُ عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتبيَّنتْ أن هذا الجسم الآخرَ هو فلسفةٌ لجسمها وعقلِها .

قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة، وأنا مُغْضَبٌ أوكالمغضَب ... ثم تَلاَحَيْنا وطال بيننا التَّلاحي ؛ فقالت لى : أنت بجانبي وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فإنك لست كلك الذى بجانبي !

قال : ومذهبي فى الحب، الكبرياءُ ، كما قلتَ أنتَ ، غيرَ أنها الكبرياءُ التى تدرك المرأةُ إمنها أنى قويّ لا أنى مُتكبِّر ؛ كبرياء الرجل إمَّا مَهيبٌ مَرِح يملكُ أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب.

إن المرأة لاتحبّ إلا رجلا يكون أولُ الحسن فيه حُسْنَ فهمِها له ، وأوّلُ القوّةِ فيه قوّةَ إعجابِها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءها هي بحبِّه وكبرياءها بأنه رجل . هذا هو الذى يجتمعُ فيه للمرأة اثنان : إنسانُها الظريف ، ووَحْشُها الظريف !

* * *

قلتَ : لقد بعُدْنا عن القصة فما كان خَبَرُ صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب ، ووصفتْنى لها صفةَ الإحساسِ لاوصف الكلام ؛ فكأنما تنبَّهتْ فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاةِ بأنها فتاة ، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأتْ فى إخضاعى لجمالها عملاً تعملُه بجمالها .

ومتى كانت الفتاة مستَخفَّةً « بالتقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلِّمة — رأت كلمةَ (الزوج) لفظًا على رجُل كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى المعنى . ولايختلفان إلا فى (التقاليد) . . .

وعَرَضَتْ لى كما يَعْرِض المصارعُ للمصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات ، اللواتى يحسبْن أن فى قوّتهن العلميَّة تيَّاراً زاخراً لنهرنا الاجتماعىّ الراكد ؛ فتاة تخرَّجتْ فى مدرسة أو كلِّية ، أوجاءت من أوربا بالعالميَّة . . . أفتدرى أية معجزةٍ مصريةٍ فى هذا تُباهى بها مصر؟

إن المعجزَة أن هذه الفتاةَ صارت مدرّسة، أومفتِّشة، أوناظرةً فى وزارة المعارف ؛ أو مؤلِّفة كتُب وروايات ، أومحرِّرةً فى صحيفة من الصحف . ولايَصْغُرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة ، فهى والله معجزةٌ ما دام يتحقّقُ بها

خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها ، وبقاؤها فى الاجتماع المصرىّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير !

وكيف لايكون من المعجزات أنّ تأليفَ رواية قد أغنى عن تأليف أسْرَة ؛ وأن فتاةً تعيش وتموت وما ولدت للأمّة إلا مقالات . . . . ؟

فقلت : ياصاحبى ، دع هؤلاء وخذِ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجةِ على التقاليد ، وقد قلتَ إنها عرَضَتْ لك كما يعرض المصارع للمصارع .

قال : عرَضَتْ لى تريد أن تُصَرِّفَنى كيف شاءت ، فَنَبوْت فى يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة ، فتعسَّرْتُ معها ؛ فزادت إلى هذه كلِّها ثورَة كبريائها ، فلم أتَسَهَّل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبةِ الخياليةِ التى هى أول العبثِ والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى : رغبةِ تعذيبى بها لأنها مُتعذِّبةٌ بى .

ثم ردَّتها الطبيعةُ صاغرةً إلى حقائقها السَّلبيَّةِ ، فإذا الكبرياء فيها إنما كانت خضوعًا يتَراءى بالعِصْيان وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماسًا لأن تَنْعمَ به ، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجرئته ودفعه أن يستبد ويملك؛ وردتها الطبيعة إلى هذه الحقيقةِ النِّسويةِ الصريحةِ ، التى بُنيتِ المرأة عليها شاءتْ أم أبتْ ، وهى أن تُعانى وتصبرَ على ماتُعانى !

أما أنا فأحببتُها حبًّا عقليًّا ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لاحُب ؛ وكانت إذا سألتْنى عن أمر ترتاب فيه ، قالت : أجبْنى بلسانِ الصدق لا بلسان الشفقة . وكانت تقول : إن فى عينيها بكاءً لاتستطيع أن تُذِيلَه مع الدمع : وسيقتلُها هذا البكاء الذى لايُبكَى ، وقد اتخذت لها فى دارها خلوةً سمتها : (محرابَ الدَّمع !) ، قالت : لأنها تبكى فيها بكاء صلاةٍ وحبّ ، لابكاء حب فقط !

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى . . . . !

* * *

قلت : وما الطيشة الكبرى ؟

قال : إنها كتبتْ إليّ هذه الرسالة :

« عزيزى رَغْمَ أنفى . . .

« لقد أذللتَنى بشيئين : أحدُهما أنك لم تَذِلّ لى ، وجعلتَنى — على تعليمى — أشدّ جهلاً من الجاهلة ؛ وقد نسيتَ أن المرأةَ المتعلّمةَ تعرفُ ثم تعرفُ مرتين : تعرف كيف تُخطئْ إذا وجب أن تخطئْ ، وهذه هى المعرفة الأولى ؛ أما المعرفة الثانية فتوَهّمْها أنتَ ، فكأنى قلتُها لك . . .

« اعلمْ — ياعزيزى رغمَ أنفى — أنى إذا لم أكن عزيزتَكَ رغم أنفك ، فسآتى ما يجعلك سَلَفًا ومَثَلاً ، وستكتب الصحفُ عنك أوّلَ حادث يقع فى مصر عن أوّلِ رجل اختطفتْه فتاة . . . !

« وبعدُ ، فقد أرسلتُ روحى تُعانق روحَك ، فهل تشعر بها ؟»

قال : فوجَمْتُ ساعةً وتَبيّنتْ لى خفتُها ، وظهر لى سَفاهُها وطيشُها ، فأسرعتُ إليها فجئتها فأجدها كالقاضى فى محكمته ، لا عقلُ له إلا عقل الحكم القانونىّ الذى لايتغير ، ولاإنسانَ فيه إلا الإنسانُ المقيَّد بمادة كذا إذا حدثَ كذا ، والمادةِ كذا حين يكون وصف المجرِم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الذى تَعلّمتِه ؟ ألا يكون علمُ المرأةِ خليقًا أن يجعلَ صاحبتَه ذات عقلَين إذا كانت الجاهلةُ بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم .

قلت : يا حبيبى ، إن هذا العلمَ هو الذى وضعَ المسدّس فى يد المرأة الأوربيّة لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقتْ قليلاً وتنهدّتْ وقالت : والعلم هو الذى جعل الفتاةَ هناك تتزوج بإرشاد الرواية التى تقرؤها ولو انقلب الزواج رواية . . . والعلم هو الذى كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثم عادفكشف حياء وجهها ، وأوجب عليها أن تُواجه حقائقَ الجنس الآخر وتعرفَها معرفةً علميّة . . . والعلمُ هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسىّ معْفُوًّا عنه مادام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهَرَب منها . . . والعلم هو الذى جعل المرأةَ مُساويةً للرجل ، وأكد لها أن واحداً وواحداً هُما واحدٌ وكلاهما أوّل . . .

والعلم هو الذى عرّى أجسامَ الرجال والنساء ببرهان أشعة الشمس . . .
والعلم ياعزيزى هو العلم الذى محا من العالَم لفظةَ (أمسِ) لا يعرفُها وإن كانت فيها الأديان والتقاليد . . .

* * *

قال صاحبُها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنه تعليم معرّاتها ونقائصها ، لاتعليمُ فضائلها ومحاسنها . . . .

قالت : لا ، ولكنّ عقلَ المرأة هو عقلُ أنثى دائمًا ، ودائمًا عقلُ أنثى ؛ وفى رأسها دائمًا جوُّ قلبها ، وجوُّ قلبها دائمًا فى رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستُها متمِّمةً لدارها وما فى دارها ، تمَّمتْ فيها الشارعَ وما فى الشارع .

العلم للمرأة ؛ ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأبِ أمراً مقرَّراً فى العلم ، والأخُ وطاعةُ الأخِ حقيقةٌ من حقائق العلم ؛ والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئًا ثابتًا فى العلم ، والاجتماعُ وزواجرُه الدينيةُ والاجتماعيةُ قضايا لا ينسَخُها العلم . بهذا وحده يكونُ النساء فى كل أمة مصانعَ علميَّةً للفضيلة والكمال والإنسانية ؛ ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامَّة ، لأنه يبدأ من المرأة التامَّة .

أما بغير هذا الشرط ، فالمرأةُ الفلاحةُ فى حِجْرها طفلٌ قذِر ، هى خير للأمة من أكبر أديبةٍ تُخرج ذُرِّيَّةً من الكتُب . . .

انظر ياعزيزى برغمِ أنفى ، هذه رسالة جاءتنى اليوم من صديقتى فلانة الأديبة الـ . . . فاسمع قولَها :

« . . . وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأنى أعيشُ فى بعضِ خفايا الحبيب . .

« وفى الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدرِه القوىّ ، وحينما نسيتُ على صدرِه القوىّ صدرى . . . »

أسمعتَ ياعزيزى ؟ إن كنت لمَّا تعلَم أن هذا هو علمُ أكثر الفتياتِ المتعلماتِ حين يكسَدُ الزواج — فاعلمْهُ . ومتى عمِىَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فإن حريةَ المرأة لاتكون أبداً إلا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة !

* * *

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . ودسَّ يدَه فى جيبه فأخرج أوراقًا كتب فيها روايةً صغيرة أسماها : (الطائشة) .

الطائشة

٢

وهذا مُحَصَّلُ رواية «الطائشة» ، نقلناه من خطّ الكاتب على مَسَاقِ ما دَوَّنه فى أوراقه ، وعلى سَرْدِه الذى قَصَّ به الخبَر ؛ وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُّ إليه أن هذه «الطائشةَ» هى من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يَأْتفِكْ حديثًا ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنتقِصْها بمعَرَّة ؛ ثم أشهَدَ على قوله كُتُبَ صاحبته الأديبة المُسْتَهترةِ التى لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها ؛ وهذه الكتبُ رسائلُ : منها المُوجزُ ومنها المستفيضُ ، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنَّنة ، وتنزلُ الرواية منها منزلةَ اللُّمَعِ المقتَضبة وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضًا ، فكلٌّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض .

قال كاتب (الطائشة) :

كنت رجلاً غَزِلا ولم أكن فاسقًا ، ولستُ كهؤلاء الشبَّان أصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقِّقون المدنيَّة فحققوا كل شىء إلا المدنية .

ترى أحدهم شريفاً يأنف أن يكون لصًّا وأن يسمى لصًّا ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص فى استلاب العفافِ وسرقةِ الفتَيَاتِ من تاريخهنَّ الاجتماعى ؛ وتراه نَجْداً يَستنكِفُ أن يكونَ فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم يأبى إلا أن يقطعَ الطريقَ فى حياة العَذارى وشرفِ النساء .

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يعرِضون للفتيَات المتعلماتِ بوجوه مصقولة تحتملُ شيئين : الحب والصفع . . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعن القبلةَ فى مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فعادت بقايا لا تَستَمسك ؛ وبصَّرهنّ بأشياء تزيد قوةَ الحياة فيهن خطرا ، وتُوحِى إليهنّ وحْيها من حيث يَشعُرْنَ ولا يشعرن ؛ وصوَّر فى أوهامهنّ صُوَراً مَحتِ الصُوَر التى كانت فى عقائدهن ؛ وأخرجهنّ من السَّلْب الطبيعىّ الذى حماهنّ الله به ، فلهنّ العفةُ والحياء ، ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغَريزىُّ الذى يجىء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتٌ منهن يَخْشَيْنَ العارَ وسمعَتَهُ الاجتماعيةَ ولكنْ

خشيةَ فقهاءِ الحِيَلِ الشرعية ، قد أرصدوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ إليه حاجة . . .

والعقلُ الذى به التفكيرُ يكون أحياناً غيرَ العقل الذى به العمل ؛ ففى بعض الجاهلات يكونُ عقلُ الحياء والعفةِ والشرفِ والدين — غريزةً كغرائز الوحْش ، هى الفكرةُ وهى العملُ جميعاً ، وهى أبداً الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغير ولا تتبدَّل ، ولا يقعُ فيها التنقيحُ الشعرىُّ ولا الفلسفىُّ . . . وما غريزةُ الوحشِ إلا إيمانُه بمن خلقه وحشاً ؛ وكذلك غريزةُ الشرفِ فى الأنثى هى عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أنثى .

وشرفُ المرأة رأسُ مالٍ للمرأة ، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكيةٌ بحَسَبِه تنظر فيه نظرَها وتَزيغُ زَيغَها وتقضِى حكمها ؛ وأكثرُ من عرفتُ من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوْا بطبيعتهم العلميةِ إلى الرضى بهذه الاشتراكية ، وإلى التسامح فى كثير ، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذراً ، ومن هٰهنا كان بعض الجاهلات كالحِصْن المُغْلَقِ فى قِمَّةِ الجبلِ الوَعْر ، وكان بعضُ المتعلمات دونَ الحِصن ، ودون القِمَّة ، ودون الجبل ، حتى تنزلَ إلى السهل فتراهنَّ ثَمَّة .

لقد غَفَلت الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفتْ لعرفتْ أن الإنسانيةَ لا تقوم إلا بالدين والعِلم كليهما ؛ فإن فى الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصاً مذكَّراً ، وفى المرأة إنسانٌ عامٌّ كذلك ، ونوعٌ خاصٌّ مؤنث . والدينُ وحده هو الذى يُصلِح النوعَ بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ، وهو الذى يُحاجِزُ بين الغريزتين ، وهو الذى يضعُ القوةَ الروحيةَ فى طبيعة المتعلم ؛ فإن كانت طبيعة التعليم قويةً ، كانت الروحيةُ زيادةً فى القوة ؛ وإن كانت ضعيفةً كما هى الحالُ فى هذه المدنية ، لم تجمع الروحية على المتعلم ضَعْفَين ، يبتلى كلاهما الآخر ويزيدُه .

• • •

فلانٌ وفلانٌ تَعلَّقَا فتاتَين جاهلةً ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صدَّت صاحبَها وامتنعتْ منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنها كالوحْش ، وإن صُدودَها ليس صدوداً حَسْبُ ، بل هو ثورةٌ من فضيلتِها وإيمانِها ، فيها المعنى الحربيُّ مجاهداً مُتَحَفزاً للقتل . . .

وأما المتعلمةُ فيقول(فلانُها)إنها ككل امرأة ، وإن صدودَها ثورةٌ ، ولكن من دلالها تُرضِي به أولَ ما ترضِي وآخرَ ما تُرضِي — كبرياء الجمال فيها لا الإيمانَ ولاالفضيلة . فكأنها إيحاء للطامع أن يزيدَ طمعًا أو يزيدَ احتيالاً . . .

وفلانٌ هذا يقول لى : إن ضعفَاء الإيمان من الشبان المتعلمين — وأكثرُهم ضعفاءُ الإيمان — لوحقَّقتَ أمرَهم وبَلَوْتَ سرائرَهم ، لتبيَّنتَ أنهم جميعًا لايرون قلبَ الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للإيجار) . . !

* * *

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صحّ عندى أن سياسة أكثرِ المتعلماتِ هى سياسةُ فتحِ العينِ حَذَراً من الشبان جميعًا ؛ وإغماض العين لواحد فقط . . .

وهذا الواحدُ هو البلاء كله على الفتاة ، فإنها بطبيعتها تتقيَّدُ ولاتنفصلُ إلا مُكرَهَة ، وهو بطبيعته قَيدُه لذتُه ، فيتَّصلُ وينفصل ؛ غير أنها لابد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحِي إليها بالحياة لايجعلُ فى ذلك موضعًا للتَّكير عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثة بغيرْه مُظلمةٌ فى حياتها ، راكدةٌ فى طباعِها ، ثقيلةٌ على نفسِها ، ما دام « الشعاعُ » لايلمسُها . . .

والدينُ يأبى أن يكون ذلك الصديقُ إلا الزوجَ فى شروطه وعُهوده ، كيلا تتقيدَ المرأة إلا بمن يتقيدُ بها ؛ والعلم لا يأبى أن يكونَ الصديقُ هو الحب ؛ والفن يوجب أن يكونَ هو الحب ؛ وليس فى الحب شروطٌ ولاعهود ، إلاوسائلَ تُختَلَقُ لوقتِها ، وأكثرُها من الكذبِ والنفاقِ والخديعة ؛ ولفظُ الحب نفسُه لِصٌّ لُغَوِيٌّ خبيثٌ ، يَسْرِقُ المعانيَ التى ليست له ويُنْفِقُ مما يَسرق . وليس من امرأة يختَدِعُها عاشقٌ إلا انكشف لها حبُّه كما ينكشف اللص حين يُمسَك .

يقول كاتب « الطائشة » .

تلك فلسفةٌ لا بد منها في التوطئةِ للكتابة عن (عزيزتي رغم أنفي) . ومَن كانت مثلَها في أفكارها واستدلالها وحُججِها وطريقتِها ـ كان خليقًا بمن يكتب قصتها أن يجعلَ القصةَ من أولها مُسلَّحة . . .

لقد تكارهْت على بعض ما أرادتْ مني ما دام الحبُّ (رغمَ أنفي) ، وما دامت السياسةُ أن أداريَها وأتَّبعَ محبتَها ؛ غيرَ أني صارحتُها بكلمةٍ شمسية تلمعُ تحت الشمس ، أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البريء لاغيره ، وأن ذلك جهد ما أنا قوى عليه وفيٌّ به .

قالت : فليكنْ ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولو من هذا الحب المتكبر الذى لايَصدُق كيلا يكذب . . . إن هذا النوعَ من الحب يطيشُ بعقل المرأة ، ولكنه هو أولُ ما يَستهيمُها ويُعجبُها ويُورثها التياعَ الحنين والشوق .

* * *

كتبتْ لى : « أنا لا أتألم في هواك بالألم ، ولكن بأشياء منكَ أقلُّها الألم ؛ ولا أحزَنُ بالحزن ، ولكن بهموم بعضُها الحزن .

« إنك صنعتَ لى بكاء ودموعًا وتنهدات ، وجعلتَ لى ظلامًا منك ونوراً منك يا نَهاري وليلي . ترى ما اسمُ هذا النوعِ من الصداقة ؟

« اسمُه الحبُّ ؟ لا .

« اسمُه الكبرياء ؟ لا .

« اسمُه الحنان ؟ لا .

« اسمه حبُك أنتَ ، أنتَ أيها الغامضُ المتقلب . ألا ترى ألفاظى تبكى ، ألا تسمعُ قلبي يصرُخ ، بأىّ عَدْلِك أو بأىّ عدلِ الناسِ تريد أن أحيا فى عالم شمسُه باردة . . . هذا قَتْلٌ ، هذا قتل» .

فكتبتُ إليها : « إن لم يكن هذا جنونًا فإنه لقريبٌ منه » .

فردتْ على هذه الرسالة :

« أتكاتبُني بأسلوب التلغراف ... ؟ لو أهديتَ إلى عِقدا من الزمرد حبّاته بعدد هذه الكلمات لكنتَ بخيلاً ، فكيف وهى ألفاظ؟ إنى لأبكى فى غَمْضَة

واحدة بدموع أكثرَ عدداً من كلماتك ، وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى ؛ وتلك ألفاظٌ من لهوِك وعَبَثك !

« ما كان ضرَّكَ لو كتبتَ لى بضعةَ أسطر تنسَخُها من تلغرافات رُوتر . . مادمتَ تَسْخَرُ منى ؟ أأنت الشبابُ وأنا الكُهولة ، فليس لك بالطبيعة إلا الانصرافُ عنى ، وليس لى بالطبيعة إلا الحنينُ إليك ؟ »

* * *

لا أدرى كيف أحببتُها ، ولا كيف دَعَتْنى إليها نفسى ؛ ولكن الذى أعلمه أنى تَخَادَعْتُ لها وقلتُ : إن المستحيلَ هو منعُ الشر ، والممكنَ هو تخفيفه ؛ ثم أقبلتُ أرْثى لها ، وأخفّفُ عنها ، أقبلتْ هى تُضاعِفُ لى مكرَها وخديعتَها وكان الأمرُ بيننا كما قالت : « فى الحب والحربِ لايكونُ الهجومُ هجوماً وفيه رِفْقٌ أو تَراجُع » .

إن المرأة وحدَها هى التى تعرف كيف تُقاتِلُ بالصبر والأناة ؛ ولا يشْبِهها فى ذلك إلا دُهاةُ المستَبِدّين .

* * *

سألتنى أن أهدىَ إليها رسمى ؛ فاعْتَلَلْتُ عليها بأنْ قلتُ لها : إن هذا الرسمَ سيكون تحت عينيك أنت رسمَ حبيب ، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم مُتَّهَم .

وظننتُنى أبلَغْتُ فى الحجة وقَطَعْتُها عنى ؛ فجاءتنى من الغدِ بالرد المفحم ، جاءتنى بإحدى صديقاتها لتَظهرَ فى الرسم إلى جانبى كأننى من ذوى قرابتها . . . فيكونُ الرسمُ رسمَ صديقتها ، ويكون مُهدًى منها لا منى ، وكأننى فيه حاشيةٌ جاءت من عمَّة أو خالة . .

وأصررْتُ على الإباء ، ونافرَتْنى القولَ فى ذلك ، تردُّ علَىَّ وأردُّ عليها ، وتَغاضَبنا وانكسرتْ حزنًا وذهبتْ باكية ؛ ثم تَسَبَّبتْ إلى رضاىَ فرضيت .

* * *

حدثتْنى أن صديقتَها فلانة الأديبةَ استطاعت أن تَستَنْزِرَ صاحبهَا فلاناً فى مخدعها ، فى دارها ، بين أهلها ، مُنْتَصَفَ الليل . قلتُ : وكيف كان ذلك ؟

قالت : إنها تحمل شهادة . . . وهى تلتمس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمتْ لذويها أنها عثرتْ فى كتاب كذا على رُقْيةٍ من رُقَى السِّحر ، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصفِ الليل إذا مُحِقَ القمرُ ؛ وأنها ستُطْلِق البخور وتبقى تحتَ ضبابتهِ إلى الفجر تُهمْهِمُ بالأسماء والكلمات . . .

ثم إنها اتعدَتْ وصاحبَها ليوم ، وأجافَتْ بابَ دارِها ولم تُغلِقه ، وأطلقت البَخورَ فى مِجْمَرٍ كبير أثارَ عاصفةً من الدخان المعطَّرِ ، وجعل مخدَعَها كمخدع عروس من مَلِكات التاريخ القديم ؛ وبقى صاحبُها تحت الضبابة يُهَمْهِمُ وتُهمْهِم . . . ثم خرجَ فى أغْبَاش السَّحَر .

هكذا قالت ؛ وما أدرى أهو خبَرٌ عن تلك الصديقة وفلانِها ، أم هو اقتراحٌ عَلَىَّ أنا من « فلانَى » لأكونَ لها عفريتَ الضبابة . . ؟

* * *

لم يخْفَ عليها أن لَذْعَةَ حبها وقعتْ فى قلبى ، وأن صبرَها قد غلَبَ كبريائى ، وأن كثرة التلاقى بين رجل وامرة يطمع أحدهما فى الآخر — لا بد أن ينقلَ روايتَهما إلى فصلها الثانى ، ويجعل فى التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السِّياق . . وإلحاحُ امرأةٍ على رجل قد خلَبها وجفَا عن صلَتها ، إنما هو تَعرُّضها للتعقيد الذى فى طبيعته الإنسانية ؛ فإن هى صابرَتْهُ وأمعنَتْ ، فقلَّما يدَعُها هذا التعقيدُ من حَلٍّ لمعضلتها . وبمثل هذه العجيبةِ كان تعقيداً وكان غيرَ مفهوم ولا واضح ؛ وقد ينقلبُ فيه أشدُّ البغضِ إلى أشد الحب ، وقد تعملُ فيه حالةٌ من حالات النفس ما لا يعملُ السحر ؛ وكذلك يقعُ للرجل إذا أحب المرأة فَنبَتْ عن مودّته فَعرضَ للتعقيد الذى فى طبيعتها وأمعنَ وثَبتَتْ وصابرَ .

رأت الجمرةَ الأولى فى قلبى فأضرمتْ فيه الثانيةَ ، حين جاءتنى اليومَ بكتاب زعمتْ أن فلاناً أرسله إليها يطارِحُها الهوى ويَبُثُّها وَلَهَ الحنين والتياعَ الحب .

ويقول لها فى هذا الكتاب : « أنا لم أشربْ خمراً قط ، ولكنى لا أرانى أنظر إلى مَفَاتِنِكَ ومحاسنِك إلا وفى عينىَّ الخمر ، وفى عقلى السُّكْر ، وفى قلبى العَرْبدَة . جعلتِ لى ويحكِ نظرَةَ سِكيرٍ فيها نِسيانُ الدنيا وما فى الدنيا ما عدا الزجاجة . . . »

ويختتمه بهذه العبارة :

« آه لو استطعتُ أن أجعل كلامى فى نفسك ناعمًا ، ساحراً ، مُسكِراً ، مثل كلام الشَّفَةِ للشَّفة حين تُقبِّلها . . . ! »

عند هذا وقع الشيء المنتظر فى الفصل الثانى من الرواية ، وخُتِم هذا الفصلُ بأول قُبلةٍ على شفتَى (الممثلة) .

* * *

قالت : هذه القبلةُ كانت (غَلطةٌ مطبعية)، ومضت تسمِّيها كذلك ، واستمرت المطبعة تغلط . . . وماعلمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتابَ الذى استَوْقَدَتْ به غَيرتى ، إنما كان من عملِها ومكْرِها .

* * *

وجاءتنى اليوم بآبِدَةٍ من أوابدها ، قالت :

أنت رَجْعىٌّ محافظٌ على التقاليد . قلتُ : لأنى أرى هذه التقاليد كالصباح الذى يتكرَّر فى كل يوم وهو فى كل يوم ضياءٌ ونور .

قالت : أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلامٌ وسَواد !

قلت : ليس هذا إلىَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر .

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياةُ اليوم علمية أوربية ، والزمنُ حَثِيثٌ فى تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون فى موضعهم قد فاتهم الزمَن ، ولذلك يسمونهم (متأخِّرين) . أما علمتَ أن الفضيلة قد أصبحت فى أوربا زِيًّا قديمًا ، فأخذ المِقَصُّ يعملُ فى تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا . . . ! ؟

اسمع أيها « المتأخر » ، وتأملْ هذا البرهانَ الأوربىَّ العصرىَّ :

أخبرتنى صديقتى فلانة حاملة شهادة . . . أنها كانت فى القِطار بين الإسكندرية والقاهرة ، وكانت معها فتاةٌ من جيرتها تحملُ الشهادةَ الابتدائية ؛

فجمعهما السفرُ بشاب وسيم ظريف يُشاركُ فى الأدب، غير أنه رجعىٌّ (متأخر)، وصديقتى تعرفُ من كل شىء شيئًا، وتأخذُ من كل فن بطرَف؛ فجرى الحديثُ بينهما مجراه، وتركت الصديقةُ نفسَها لدواعيها، وانطلقت على سجيتها الظريفة، ووضعت فنَّ لسانِها فى الكلام فجعلتْ فيه روحَ التقبيل . . . !

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرتْ ذلك (المتأخر) ووقعتْ من نفسه، ودفعتْه إلى الزمنِ الذى هو فيه. فلما همَّت بوداعه سألهما: أين تذهبان؟

فأغضتْ صاحبةُ الشهادة الابتدائية، وأطرقتْ حياءً، ورأت فى السؤال تهمةً وريبة، فأنَّبتْها الصديقةُ وأيقظتها من حيائها، وقالت لها: ألا تزالين شرقيةً متأخرة؟ إن لم يسعدنا الحظ أن تكونَ لنا حريةُ المرأة الأوربية فى المجتمع وفى أنفسنا؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو فى أنفسنا؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها، فأطعمه ردُّها، فسألها أن تتنزّه معه فى بعض الحدائق، فأبت صاحبةُ الابتدائية ولجَّتْ عمايتُها الشرقيةُ المتأخرة، ورأت فى ذلك مَسْقَطةً لها، فلوَتْ إلى دارِها وتركتهما إنسانًا وإنسانًا لا فتى وفتاة؛ وتنزّها معًا، وعرف الشابُّ الرجعى الحبَّ، والخمرَ التى هى تحيةُ الحب!

ولم تستطع الفتاةُ الماكرة أن ترجعَ إلى دارها وهى سكْرى كما زعمت للشابّ — فأوَتْ إلى فُندق، وختُمت روايتُهما بإعراض من الشاب أجابت هى عليه بقولها: ألا زلت (متأخراً) . . . . ؟

قالت «الطائشة»:

نعم ياعزيزى (المتأخر)، إن مذهبَ المرأة الحرة . . . . فى الفرقِ بين الزوج وغيرِ الزوج، أن الأولَ رجلٌ ثابتٌ، والآخرُ رجل طارئٌ. والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو؛ والطارئُ طارئٌ عليها بحقها هى ... فإن كانت حرةً فلها حقُّها ...

قال كاتب الطائشة: وهنا، هنا، هنا، كاد الشيطانُ يرفع الستارَ عن فصل ثالث فى هذه الرواية، رواية «الطائشة» . . .

* * *

نقول نحن: وإلى هنا ينتهى نصف الرواية؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها: (الطائش والطائشة) . . .

دموع
من رسائل الطائشة(١)

ورسائلُ هذه الطائشة إلى صاحبها ، تُقرَأ فى ظاهرها على أنها رسائلُ حبٍّ ، قد كُتِبَتْ فى الفنون التى يَترَسَّلُ بها العشاق؛ ولكنّ وراء كلامها كلامًا آخر، تُقْرَأُ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلْتاعة لاتزال شُعلةُ النار فيها تَتَنَمَّى وترتفع ؛ وقد فَدَحَتْها بظلمها الحياةُ إذ حَصَرَتْها فى فنٍّ واحدٍ لايتغير ، وأوقعتها تحت شرط واحد لايتحقّق ، وصَرَّفتْها بفكرة واحدة لاتزال تخيب .

وأشدُّ سُجُون الحياة فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها ، لا هو مُستطيعٌ أن يدَعها ، ولا هو قادرٌ أن يحقّقها ؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدّ ولايزال كأنه على أوّله لايتقدّم إلى نهاية؛ ويتألم مايتألم ولاتزال تُشْعِرُه الحياةُ أن كلَّ ما فات من العذاب إنما هو بدْءُ العذاب .

والسعادةُ فى جملتها وتفصيلها أن يكونَ لك فكرٌ غيرُ مقيَّدٍ بمعنى تتألم منه ، ولا بمعنى تخافُ منه ، ولا بمعنىً تَحذَرُ منه ؛ والشقاء فى تفصيله وجملته انحباسُ الفكر فى معانى الألم والخوفِ والاضطراب .

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصوّرةَ التى يَبْرُقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه ؛ وهى فيها عَذْبةُ الكلام من أنها مُرّةُ الشعور ، متّسقة الفكرِ من أنها مختلّةُ القلب ، مُسددةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس؛ تلك إحدى عجائب الحب؛ كلما كان قَفْراً مُمْحِلاً اخضَرّتْ فيه البلاغةُ وتفنّنَتْ والتفّتْ ؛ وعلى قِلّةِ المُتْعة من لذّاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه ؛ ولَكأنَّ هذا الحبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تُروَى بالنار فتُخْصِبُ عليها وتَتَفَتّقُ بمعانيها ، كما تُرْوَى الأرضُ بالماء فتُخْصِبُ وتتغطّى بنباتها ؛ فإنْ

---

(١) نحن لم نخترع الطائشة ، فهى فتاة متعلمة أديبة ، وقد أحبت رجلا متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه ، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت . وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة ، فكانت تقول : إنها منهن كالغائب المحكوم عليه ، لا هو يملك دفاع الذنب ، ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب .

رَوِيَ الحبُّ من لذّاته وبَرَدَ عليها، لم يُنْبِتْ من البلاغة إلا أخفَّها وزنًا وأقلَّها معانيَ ، كأوّلِ ما يبدو النباتُ حين يتفطّرُ الثرى عنه ، تراه فتحسبُه على الأرض مَسْحةَ لون أخضر ؛ أو لم يُنْبِتْ إلا القليلَ القليلَ كالتعاشيبِ[1] فى الأرض السَّبِخَة . . .

إن قصةَ الحب كالرواية التمثيلية ، أبلغُ ما فيها وأحسنُه وأعجبُه ما كان قبل « العُقدة » ، فإذا انحلتْ هذه العقدةُ فأنت فى بقايا مُفَسَّرَةٍ مشروحةٍ تُريد أن تنتهى ، ولاتحتملُ من الفنّ إلا ذلك القليلَ الذى بينها وبين النهاية .

* * *

وهذه هى رسالة الطائشة إلى صاحبها :

« . . . .

« ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظ حقيقتى وحقيقتك ؟

« يُخيَّل إلى أن ألفاظَ خُضوعى وتَضَرُّعى متى انتهتْ إليكَ انقلبتْ إلى ألفاظ شِجَار ونزاع !

« أىُّ عَدْل أن تلمسَكَ حياتى لَمْسَةَ الزَّهرةِ الناعمة بأطراف البنان، وتَقْذِفَنى أنت قَذْفَ الحجَر بملْء اليدِ الصُّلْبةِ مُتَمَطِّيةً فيها قوةُ الجسم ؟

« جعلْتَنى فى الحب كآلة خاضعة تدار فتَدور ، ثم عَبِثْتَ بها فصارت متمرّدة تُوَقِّف ولاتَقِف ؛ والنهايةُ — لاريبَ فيها — اختلالٌ أو تحطيم !

« وجعلتَ لى عالمًا ؛ أما لَيْلُه فأنتَ والظلامُ والبكاء ، وأما نهارُه فأنتَ والضِّياء والأملُ الخائب . هذا هو عالَمى : أنتَ أنت . . . !

«سمائى كأنها رُقْعةٌ أطبقَتْ عليها كلُّ غيوم السماء ، وأرضى كأنها بُقْعة اجتمعتْ فيها كلُّ زَلازِلِ الأرض ! لأنك غَيْمَةٌ فى حياتى ، وزِلزلةٌ فى أيامى .

« يا بُعدَ ما بين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى !

* * *

---

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك .

«ما يَجْمُلُ منكَ أن تُلْزِمَنِى لومَ خطأ أنت المخطئُ فيه . سلنى عن حبى أُجِبْكَ عن نكبتى ، وسَلْنى عن نكبتى أُجِبْكَ عن حبى !

«كان ينبغى أن تكونَ لىَ الكبرياءُ فى الحب ، ولكن ماذا أصنعُ وأنت منصَرِفٌ عنى ؟ وَيلاهُ من هذا الانصرافِ الذى يجعل كبريائى رِضًى منى بأن تَنسى ! فتنسى . . .

« ليس لى من وسيلة تَعْطِفُكَ إلا هذا الحبُّ الشديدُ الذى هو يَصُدُّك، فكأن الأسبابَ مقلوبةٌ معى منذُ انقلبتَ أنت .

« ويُخيَّل إلىَّ من طُغيانِ آلامى أن كلَّ ذى حُزْنٍ فعندى أنا تمامُ حُزنه!

« ويخيل إلى أنى أفصَحُ من نَطقَ بآه !

« عذابى عذابُ الصادق الذى لايَعرفُ الكَذِب أبداً أبداً ، بالكاذبِ الذى لايعرف الصدق أبداً أبداً !

« كم يقولُ الرجالُ فى النساء ، وكم يَصِفُونَهن بالكَيْد والغدر والمكْر ؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّه فىَّ أنا وحدى . . . ؟

« ما لِكلامى يَتَقطع كأنما هو أيضاً مُختَنِق ؟

* * *

« لَشدَّما أتمنَّى أن أشترىَ انتصارِى ، ولكنَّ انتصارى عليكَ هو عندى أن تنتصرَ أنت .

« إن المرأةَ تطلبُ الحرّيةَ وتَلِجُّ فى طلبها ، ولكنَّ الحياةَ تنتهى بها إلى يقين لاشكَّ فيه هو أن ألطفَ أنواعِ حريتها فى ألطفِ أنواع استعبادِ ها !

« حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمر النَّاهى أيها القاسى . لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لايعجِبُنى منك إلا هذا . . . !

« ويزيدك رِفْعةً فىعينى أنك تحاول قطُّ أن تزيدَ رِفْعةً فى عينى .

« فالمرأةُ لاتُحبّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلفِتَها دائمًا ليرفعَ من شأنه عندها .

« إن الطبيعةَ قد جعلت الأنوثةَ (فى الإنسان) هى التى تَلْفِتُ إلى نفسها بالتصنُّع والتَّزَيُّدِ ، وعَرْضِ ما فيها وتَكلُّف ما ليس فيها ؛ فإن يَصْنَعِ الرجلُ

صنيعَها فما هو فى شىء إلا تزيينَ احتقاره !

« التَّزَيُّدُ فى الأنوثه زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التَّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى !

* * *

« ارْفع صوتَك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين : صوتَك وقلبى .

« ليست هى كلماتى لَدَيك أكثرَ مما هى أعمالُك لَدَىَّ .

« وليس هو حبى لك أكبرَ مما هو ظلمكَ لى !

« ما أشدَّ تَعْسِي إذا كنتُ أخاطبُ منك نائما يسمعُ أحلامَه ولا يسمعُنى !

« ما أتعسَ مَن تُبكيه الحياةُ بكاءها المفاجئَ على ميّت لا يرجع ، أو بكاءها المألوفَ على حبيب لا ينال !

* * *

« ولكن فَلْأصبِرْ ولْأصبر على الأيام التى لا طعمَ لها ، لأن فيها الحبيبَ الذى لا وفاء له !

« إن المصابَ بالعمَى اللَّوْنىّ يرى الأحمرَ أخضر ، والمصابَ بعَمَى الحب يرى الشخصَ القَفْرَ كلَّه أزهار .

« عَمًى مركَّبٌ أن تكونَ أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبَق .

« وعَمًى فى الزمن أيضًا أن ينظرَ إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ، فيرى الأيامَ كلَّها فى حكم هذه الساعة .

« وعَمًى فى الدم ، أن يَشعر بالحبيب يوما فلا يزالُ من بعدها يُحيى خياله ويغذّيه أكثرَ مما يُحيي جسمَ صاحبه .

« وعَمًى فى العقل ، أن يَجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النهارِ على الدنيا ، تَظهرُ الأشياءُ فى لونه ، وبغير لونه تنطفئ الأشياء .

« وعَمًى فى قلبى أنا ، هذا الحبُّ الذى فى قلبى !

* * *

« ليس الظلامُ إلا فِقدانَ النور ، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم .

« وظلمُ الرجالِ للنساء عملُ فِقدانِ المساواة لاعملُ الرجال .

« كيف تَسخرُ الدنيا من متعلِّمةٍ مِثلى ، فتضعُها موضعًا من الهَوان والضعفِ بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بِطاقة ، لما كتبت تحت اسمِها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . ؟

« وحتى فى ضَعفِ المرأة لامساواةَ بين النساء فى الاجتماع ، فكلُّ متزَوجة وظيفتُها الاجتماعيةُ أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عِشقَها وظيفتُها . . .

« وحتى فى الكلام عن الحب لامساواة ، فهذه فتاةٌ تُحبُّ فتتكلم عن حبها فيقال : فاجرةٌ وطائشة . ولاذنبَ لها غير أنها تكلمتْ ؛ وأخرى تحبُّ وتكتمُ ، فيقال : طاهرةٌ عفيفة . ولافضيلةَ فيها إلا أنها سكتتْ .

« أولُ المساواة بين الرجال والنساء أن يتَساوَى الكلُّ فى حرّية الكلمة المخبوءة . .

« لالا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . .

* * *

« إن القلَقَ إذا استمرَّ على النفس انتهى بها آخرَ الأمرِ إلى الأخذ بالشَّاذَّ من قوانين الحياة .

« والنساء يُقَلْقِنَ الكونَ الآنَ مما استقرَّ فى نفوسهن من الاضطراب ، وسيُخَرّبنَه أشنعَ تخريب .

« ويلٌ للاجتماع من المرأة العصريةِ التى أنشأها ضعفُ الرجل ! إن الشيطانَ لو خُيِّرَ فى غيرِ شكله لما اختار إلا أن يكونَ امرأةً حرَّةً متعلمةً خياليَّةً كاسدةً لاتجد الزوج . . . !

« ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرةٍ خيالية ، تريد أن تفرَّ من أنها عذراء ! لقد امتلأت الأرضُ من هذه القنابل . . . ولكن ما من امرأةٍ تفرّط فى فضيلتها إلا وهى ذنبُ رجل قد أهمل فى واجبِه .

* * *

« هل تَملكُ الفتاةُ عِرْضَها أوْلا تملك ؟ هذه هى المسألة . . .

« إن كانت تملك ، فلها أن تتصرّفَ وتُعطى ؛ أوْ لاَ ، فلماذا لا يتقدَّمُ المالك . . . ؟

« هذه المدنيةُ ستنقلبُ إلى الحيوانية بعينها ؛ فالحيوانُ الذى لايعرفُ النسَبَ لاتعرفُ أنثاه العِرْض . . . !

« وهل كان عَبَثًا أن يفرضَ الدينُ فى الزواج شروطًا وحقوقًا للرجل والمرأة والنسل ؟

« ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مَدَّنوه هو أيضًا . . . !

* * *

« طالت رسالتى إليك ياعزيزى ، بل طاشت ، فإنى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُك أجدُها .

« ولقد تكلمتُ عن الدِّين لأنى أراكَ أنتَ بنصفِ دين . . . !

« فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوّجتَ اثنتين . . . !

« لا لا ، قد رجعتُ عن الرأى . . . »

(طبق الأصل)

فلسفة الطائشة

. . . وهذا مجلسٌ من مجالس (الطائشة) مع صاحبها ، مما تَسقّطهُ من حديثها ؛ فقد كان يكتبُ عنها ما تُصيبُ فيه وما تخطئُ ، كما يكتب أهلُ السياسة بعضُهم عن بعض إذا فاوضَ الحليفُ حليفَه ، أو ناكرَ الخصمُ خصمَه ؛ فإن كلامَ الحبيبِ والسياسيّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلم وحده ، بل فيه نطقُ الدولة . . . وفيه الزمنُ يُقبِلُ أو يُدْبِر .

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّوَل التي تُرْغِم صديقًا على الصداقة ، لأنه في طريقها أو طريقِ حوادثها ؛ وكان يسميها « جيشَ احتلال » إذ حطَّت في أيامه واحتلتها فتَبوَّأتْ منها ما شاءت على رغمه ، واستباحتْ ما أرادت مما كان يَحميه أو يمنعُه . وقد كان في مدافعَته حبَّها واستمساكه بصداقتها كالذى رأى ظلّ شيء على الأرض فيحاولُ غسلَه أو كنسه أو تغطيتَه .. فهذا ليس مما يُغْسَل بالماء ، ولا يكنَس بالمِكْنَسة، ولا يغطَّى بالأغطية ؛ إنما إزالتُه في إزالةِ الشَّبَح الذى هو يُلقيه ، أو إطفاء النور الذى هو يُثْبِتُه .

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية ، والسخريةُ من الحسن الفاتن الذى تقدّسه ، تأتى من اشتهاء هذا الحسن ؛ فذاك إسقاطُه سقوطًا مقدّسًا . . . أو ذاك تقديسُه إلى أن يسقُط ، أو هو جَعلُ تقديسه بابًا من الحيلة في إسقاطه . لابد من سُفل مع العلو يكون أحدُهما كالسخرية من الآخر ؛ فإذا قال رجلٌ لامرأةٍ قد فتَنتَه أو وَقعتْ من نفسه: « أحبُّك » . أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استَهامها فى هذه الكلمةِ الناعمة اللطيفة كلُّ معانى الوقاحة الجنسية ، وكلُّ السُّخرية بالمحبوب سخريةً بإجلالٍ عظيم . . وهى كلمةُ شاعرٍ في تقديس الجمال والإعجاب به ، غير أنها هى بعينها كلمةُ الجزّار الذى يرى الخروفَ في جماله اللحميّ الدُّهنيّ ، فيقول : « سَمين . . . ! »

لهذا يمنع الدينُ خَلوةَ الرجل بالمرأة ، ويُحرّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس ، ويَفْصِل بمعانى الحجابِ بين السالبِ والمُوجِب ، ثم يضعُ لأعينِ

المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخرَ من الأمر بغَضّ البصَر ، إذ لا يكفى حجاب واحد ، فإن الطبيعةَ الجنسيةَ تنظر بالداخل والخارج معًا ؛ ثم يطردُ عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها ، وعن الرجلِ إلا أن تكونَ من زوجته ؛ إذ هى كلمة حيلة فى الطبيعة أكثرُ مما هى كلمةُ صدق فى الاجتماع ، ولا يؤكِّد فى الدين صدقَها الاجتماعى إلا العقْدُ والشهودُ لربطِ الحقوق بها ، وجعلِها فى حياطةِ القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارِها فى موضعها من النظام الإنسانى ؛ فليس ما يمنع أن يكونَ العاشقُ من معانى الزّوج ، أما أن يكونَ من معنى آخر أو يكونَ بلا معنًى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ، ما دامت هى وحدها التى تَلِد، وما دامت لا تَلِدُ للبيع . . .

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأة ذكية مطّلعة مُحيطة مفكِّرة ، تُبْصِرُ لكتب العقلِ والحوادثِ جميعًا ، وقد أصبحت بعد سَقْطةِ حبها ترى الصواب فى شكلين لا شكلٍ واحد : فتراه كما هو فى نفسه ، وكما هو فى أغلاطها .

وقد أسقطنا فى روايةِ مجلسها ما كان من مُطارحَاتِ العاشقة ، واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة . .

* * *

قال صاحبُ الطائشة : ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه وتلميذاته . . . حتى لكأنها تجربةُ ثلاثين سنة لآرائه فى تحرير المرأة . فقالت : إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتُنا نحن إلى تلميذها القديم ؟

قالت : وأبلَغُ من يَردُّ على قاسم اليومَ هى أستاذتهُ التى شبّتْ بها أطوارُ الحياةِ بعد، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر فى عهد بعينه ولم يُتبِعِ الأيامَ نظرَه، ولم يستقرئْ أطوارَ المدنية ؛ فلم يُقدّرْ أن هذا الزمنَ المتمدّن سيتقدم فى رذائله بحكم الطبيعة أسرعَ وأقوى مما يتقدم فى فضائله ، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة، فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم ، وكأن الرجلَ كان يظن أنه ليس تحت الأرض زَلازِلُ ولا تحت الحياة مثلُها .

مزّق البرقع وقال : «إنه مما يزيدُ فى الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان فى مجموع خِلْقها — على الغالب — ما يردُّ البصَر عنها ». فقد زال

البرقع ، ولكن هل قدَّر قاسم أن طبيعةَ المرأة منتصرةٌ دائمًا فى الميْدان الجنسيّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لكلّ معركة أسلحتَها ، وأنها إن كشفت برقُعَ الخزّ فستضعُ فى مكانه برقعَ الأبيضِ والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تُظهر وعملِ ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يُخفيان شخصيتَها فلا تخاف أن يعرفَها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنتُ فلان ، أ زوجُ فلان كانت تفعل كذا ؛ فهى تأتى كلّ ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » . فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدَّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى ، فتجعلُ ثيابها تعبيراً دقيقًا عن أعضائها ، وبدلاً من أن تُلبِسَ جسمها ثوبًا يكسوه ، تُلبسهُ الوثبَ الذى يكسوه ويزيّنه ويظهره ويحرّكه فى وقت معًا ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمهُ . . وهذا الموضع اسمه . . . وانظر هنا وانظر هاهنا. . . ما زادت المدنية على أن فكّكَت المرأة الطيّبة ثم ركّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلّمنا الحبَّ لنربطَ به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرّأنا على الحب الذى فرَّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ ليُعجبها وتُعجبَه فيصيرا زوجين ــ إنما تخالط فى هذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته ، فتكون طبيعتُه وطبيعتها هى محلّ المخالطة قبل شخصيَتيْهما ، أو تحت ستارِ شخصيهما ؛ وهو رجلٌ وهى امرأة ، وبينهما مصارَعَةُ الدم . . وكثيراً ما تكون المسكينة هى المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهر يُصْنَعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابهِ فى « هوليود » وغيرها من مُدُن السينما ،فإن رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفّةِ والوقار قال : بلادةٌ فى الدم ، وبلاهةَ فى العقل ، وثِقَل أىّ ثقل ؛ وإن رأى غيرَ ذلك قال : فُجورٌ وطيش ، واستهتارٌ أىّ استهتار . فأين تستقرٌّ المرأة ولامكانَ لها بين الضدين ؟

أخطأ قاسم فى إغفال عامل الزمن من حسابه،وهاجمَ الدينَ بالعُرف ؛ وكان من أفحش غلطه ظنُهُ العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرقَ بين الدين وبين العُرف ، هو أن هذا الأخيرَ دائمُ الاضطراب ، فهو دائمُ التغيّر ،فهو لايصلح أبداً قاعدةً للفضيلة ؛ وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْيِ ، وأصبحنا

نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا فى جزيرتهم أو محلتهم أوناديهم رجلاً يلبس فى حقويه تبّاناً قصيراً كأنه ورق الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء — إذا رأوا هذا المتعفف بخرقة .. أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . من ؛ من هذا الراهب . . . ؟

ونسى قاسم — غفر الله له — أن للثياب أخلاقا تتغير بتغيرها ، فالتى تفرغ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة ، وتلبس وجهها ألوان التصوير — لاتفعل ذلك إلا وهى قد تغير فهمها للفضائل ، فتغيرت بذلك فضائلها ، وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروح المسجد غير روح الحانة، وهذه غير روح المرقص ، وهذه غير روح المخدع ، ولكل حالة تلبس المرأة لبساً فتخفى منها وتبدى . وتحريك البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها . وأين أخلاق الثياب العصرية فى امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ تبدلت بمشاعر الطاعة ، والصبر ، والاستقرار ، والعناية بالنسل ، والتفرغ لإسعاد أهلها وذويها — مشاعر أخرى ، أولها كراهية الدار والطاعة والنسل ؛ وحسبك من شر هذا أوله وأخفه !

كان قاسم كالمخدوع المغتر بآرائه، وكان مصلحاً فيه روح القاضى ،والقاضى بحكم عمله مقلد متتبع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائما إلى نص لم يكن له فيه شأن ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة ، أن الأولى « لاتكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها، هو نفسها ، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلمات ، إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لايحل لهن ، لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب (. . .) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت (! ! ! !)وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها ، ولاتسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟ ؟ ؟ ؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف (؟ ؟ ؟ ؟) . . . »[1]

---

(١) ص ٥١ من كتاب «تحرير المرأة» ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخبط .

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ المدَنيّين المتفلسِفين على مذهب (لمبروزو) يقول لإحدى الفاجرَتين : أيتها الجاهلةُ الحمقاء، كيف لم تتَحاشَيْ ولم تتَستَّرى فلا يكونَ للقانون عليك سبيل ؟

وحتى فى هذا، قد أثبت قاسم أنه لايعرفُ الأرنبَ وأذنيها[١] وإلا فمتى كان فى الحب اختيار ، ومتى كان الاختيارُ يقعُ « فيما يجرى به القَدَرُ » ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجيًّا كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . فتدرس الصفات والشمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتُصَفيَها كلها فى واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك ! هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ فى هذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خرّيجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ؛ ففسّر لى أنت كلام قاسم ، وأفْهِمنى كيف يكون اثنان واثنان خمسةً وعشرين ؟ وكيف يكون فرارُ متعلّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقةِ فيمن لايكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حسابَ الزمن فى هذا أيضًا ، فكثير من المنكَرات والآثام قد انحلّ منها المعنى الدينىُّ ، وثبت فى مكانه معنى اجتماعى مقررٌ ، فأصبحت المتعلمة لاتتخوَّف من ذلك على نفسها شيئًا ، بل هى تُقَارِفُهُ وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدّم فيه للرجال المهذّبين مرةً ذراعها ، ومرة خَصرها . .

أقرأتَ (شهر زاد) ؟ إن فيها سطراً يجعل كتابَ قاسم كله ورقا أبيض مغسولاً ليس فيه شىء يُقرأ :

قالت شهر زاد المتعلّمةُ ، المتفلسفةُ ، البيضاء ، البضّةُ ، الرشيقةُ ، الجميلة ؛ للعبد الأسود الفظيع الدميم الذى تهواه : « ينبغى أن تكونَ أسودَ اللون ؛ وضيعَ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ؛ تلك وصفاتك الخالدةُ التى أحبّها . . . »[٢]

فهذا كلام الطبيعة لا كلامُ التأليفِ والتلفيقِ والتزوير على الطبيعة .

---

(١) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أى يعرف الشىء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف .

(٢) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب اللقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ — ٥٢ وفى غيره من كتبنا .

قال صاحبُ الطائشة :

فقلتُ لها: فإذا كان قاسم لايُرضيكِ ،وكان الرجلُ مصلحًا دخلَته روحُ القاضي ، فخلَطَ رأيًا صالحًا وآخر سيئًا ،فلعل « مصطفى كمال » همُّكِ من رجل فى تحرير المرأةِ تحريراً مزّق الحجاب والا . . ؟

قالت : إن مصطفى كمال هذا رجل ثائرٌ ، يسوقُ بين يديه الخطأ والصوابَ بعَصًا واحدة ، ولايمكن فى طبيعة الثورة إلا هذا ،ولا يبرحُ ثائراً حتى يتمَّ انسلاخُ أمتِه . وله عقلٌ عسكرى كان يمكرُ به مكرَ الألمان ، حين أكرهَهم الحلفاء على تحويل مصانع (كروب) ،فحوّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات . وليس الرجل مُصلحًا ألبتّة ،بل هو قائدٌ زَهـَاه النصرُ الذى اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمةُ :« أريد . . » وجعل بعد ذلك إذا غَلِطَ غلطةً أرادها منتَصِرة ،فيفرضها قانونًا على المساكين الذين يستطيع أن يفرضَ عليهم ، فيقهرهم عليها ولايناظرهم فيها ،ويأخذهم كيف شاء ، ويَدَعهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحدة :هو مؤلف الرواية ، والقانون نفسُه أحدُ الممثِّلين . . .

وحِقْدُه على الدين وأهل الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لامصلح ؛ فإن أخصَّ أخلاق الثورة حِقْدُ الثائرين ،وهذا الحقدُ فى قوة حربٍ وحدَها ، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة . والرجلَ يحتذى أوربا ويعملُ على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرّها ،ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم ، يتبرّءون منها ويُلحِقُها هو بقومه ، فكأنه يَعْتَنفُ الآراء ويأخذُها أخذاً عسكريًّا ، ليس فى الأمر إلا قولةُ « أريد » . فيكون ما يريد . هولم يحكم على شبر من أوربا يجعله تركيًّا ، ولكنه جَعل رذائلَ أوربا تتجنَّس بالجنسية التركية . . .

وتالله إنه لأيسَرُ عليه أن يجىء بملائكة أو شياطين من المرَدَة ، ينفخون أرض تركيا فيَمُطُّونها مطًّا فيجعلونها قارّة ،من أن يُكرِه أوربا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهَدْمِ مسجد . إنه لايزال فى أول التاريخ ، وهذا

الشعبُ الذى انتصر به لم تَلِدْه مبادئه ، ولاأنشأه هَدْمُ العلماء ؛ بل هو الذى ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعْوِزُه إلا القائدُ الحازمُ المصمّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فتنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبيًّا ، فهذا شيء آخر له اسمٌ آخر .

ولنفرْض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيعَ أن نجعلَ مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثَها بحثًا علميًّا ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر فى إنجلترا ؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدُّويلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لاعلى مثلِ براميل النبيذ .. . ثم يستعزُّ الرجلُ بدالَّتهِ على قومه ، ويدْخله الغرور ، فيتصنَّع لهم مرة ، ويتَزَيَّن لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبِدَة فيُسَفِّه دينهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهَدْمِ كنائسهم ، لأن هذا هو الإصلاحُ فى رأيه . أفتُرَى الإنجليز حينئذ يَضْوُون إليه ويلتفّون حوله ويقولون : قائدنا فى الحرب ، ومُصلِحنا فى السلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ، وظفِرْنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله .. ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسرُ على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يَتدافَعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسة واحدة يومئذ لايكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن العجزَ ممهَّدٌ من تلقاء نفسه ، والأرضُ المنخسفةُ هى التى يَستَنْقِعُ فيها الماء ، فله فيها اسمٌ ورَسْمٌ ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ ، فإذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كُلِّ جوانبه ، وأفاضهَ إلى أسفل. . . ![1]

* * *

قال صاحبُ الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيَكِ للنساء ، فكيف لاترَيْن مثل هذا لنفسك ؟

فتَضَعْضَعَت لهذه الكلمةِ ولَجْلَجَت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتَني الرأيَ لنفسى ، ووضعتَني فى الحقيقة التى لاتتقيد بقانون الخير والشر .

---

(١) أفردنا مقالا خاصاً لهذا الإلحاد التركى الذبابى . . . . فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، تقرؤه ،فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

قلت : فإذا كانت كلُّ امرأة تغلطُ لنفسها فى الرأى ، وتنصَحُ بالرأى الصائب غيرَها ، فيُوشِكُ ألاّ يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولايعودُ فى المدرسة كلها عاقلُ إلا الكتاب . . . .

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ دينُنا الإسلامىّ مع المرأة ، فهو يخلقُ طبائعَ المقاومة فى المرأة ، ويخلقُها فيما حولها ، حتى ليخيَّل إليها أن السماء عيون تراها ، وأن الأرض عقول تُحصِى عليها ؛ وهل أعجبُ من أن هذا الدينَ يقضى قضاء مبرمًا أن تكونَ ثيابُ المرأة أسلوبَ دفاع لا أسلوبَ إغراء ، وأن يضعَها من النفوس موضعًا يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث فى (الراديو) له دوىّ فى الدنيا ، فيقيم عليها الحجابَ ، وغَيرةَ الرجل ، وشرفَ الأصل ؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوةَ منها كأنها جنين يكبَرُ ولايزال يكبَرُ حتى يكونَ عارَ ماضيها وخِزْىَ مستقبلها .

هذه كلها حُجُب مضروبة لاحجابٌ واحد ، هى كلّها لخلق طبائع المقاومة ، لتيسير المقاومة ؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقا ، ولم يكن أبداً إلا الحجابَ الأخيرَ كالسُّور حول القلعة ؛ ولكن قبَحَ الله المدنيةَ وفنَّها ؛ إنها أطلقت المرأةَ حرّة ، ثم حاطتها بما يجعلُ حريتها هى الحريةَ فى اختيار أثقل قيُودها لا غير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ولكن بين اللصوص ؛ كأنك فى هذا لستَ حرًّا إلا فى اختيار من يجنى عليك . . . !

لم تعد المرأة العصريةُ انتصارَ الأمومة ، والاانتصارَ الخلُقِ الفاضل ، ولاانتصارَ التعزية فى هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة .

قال صاحب الطائشة : فضحكتُ وقلتُ : وانتصارى . . . !

(طبق الأصل)

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولاكل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هى فى الدنيا ، ليس فيها كلمة من المريخ ولامن زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ أما الفاسد فيرى ويعتبر ولعله يرد بها نفسه . ومذهبنا دائما وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ .

تربية لؤلؤية

كتبتْ إلىّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى :

. . . أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننا وظننتْ ، فاقرأ الفصل الذى انتزعتهُ لك من مجلة * . . . وستعرفُ منه وتنكِر ، وترى فيه النهار مبْصِراً والليل أعمى . . . وتجدُ فتاة اليوم على ما وقع بها من الظِنَّة ، وكثْر فيها من أقوال السوء — لاتَشْمَسُ على الرِّيبة ولاتريد أن تنتفِى منها ، بل هى تعملُ لتحقيقها ،وتبغى مع تحقيقها أن يتَعالَم الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت ، ويُسَوِّغوها مُقَارفَة الإثم ، ويُقِرُّوها على منكَراتها .

أمَا إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلاتُ هنّ أمسَنا الذاهب بلا فائدة ، فإن فتياتِنا المتعلماتِ هن يومُنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَدُ ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمةُ لم تكد تَنْفُقُ ومعها الرذيلة ، ولَتاجرٌ أمىٌّ طاهرُ الاسم تتحرك سُوقُه وتحيا ، خيرٌ من تاجر متعلم نَجِس الاسم قد قامت سوقه وخَمَدتْ ، فما تتنفَّسُ من درهم ولادينار .

لقد احتذيْنا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكَمتْه المتعلماتُ منا ، كنّ بين الشرق والغرب كالسَّبِخَة النشَّاشة من الأرض ، طَرفٌ لها بالفلاة وطرفٌ بالبحر ؛ فهى رملٌ فى ماء فى مِلْح ، لاتَخْلُصُ لفساد ولاصحة ، فاعتبر هذه وهذه نستجدهما بحكاية واحدة أصلا وطبق الأصل .

* * *

وقرأت الفصل الذى أومأت إليه السيدة ، وكان فى كتابها ، فإذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علَم الجهاد لحرية المرأة) ، وإذا فى أوله :

« كتبت آنسة أديبة فى عدد سابق من . . . الأغر تقول : " أجلْ ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فإن أخطأناهم أزواجاً فلن نخطئهم أصدقاء !!!! " وكتب بعد هذا أديب فاضل، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا)هذا المنحى ،ويطرقان نفس السبيل(كذا) التى اختطتها الآنسةالجريئة

* مجلة الأسبوع المصرية ١٩٣٤ .

فى غير حق ، الثائرة فى نزق . ثم قالت بعد ذلك : " قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حَيَوية صارخة! ! ! ! فجزعت ، لأن (قاسم أمين) عندما رفع علَم الجهاد من أجل حرية المرأة ، و (ولى الدين يكن) عندما جاهر بعده فى سبيل السفور ، و(هدى شعراوى) عندما رفعت صوتها عاليًا تطالب بحرية المرأة — ما ظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة ، تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها ، من أجل الزواج . . . "»

* * *

وأنا فلست أدرى والله مِمَّ تَعجبُ هذه الكاتبة ، وإنى لأعجبُ من عجبها ، وأراها كالتى تكتب عبثًا وهزلاً وهُوينْا ، مُظهِرةً الجدَّ والقصد والغضب . أئِنْ أطْلِق للنساء أن يَثُرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذ ها ، فانطلقتْ لشأنِها ، فأوغلتْ فى حريتها ، فامتدَّ بها أمدُها شوطًا بعد شَوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يُسْفِر سفوره ويرفعُ الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضًا فى غير مُداراة ولاحذق ولا كِياسة ، يريد أن يقتحم طريقَه ويسلك سبيلَه ، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكَسِراً مما به من اللفة والوثْبة يتوجع ، يتنهد ، يتلذَّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أئِن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جَرى عليكِ وكنت حرة ، وتَزعزعْتِ وكنتِ ثابتة ، وأفحشتِ وكنتِ عفيفة ، وتَعَهَّرْت وكنتِ طاهرة ؟

أفلا تقول لها : سَفَرتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرةً بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنت مُخلاَّةً مهمَلة ، وغَلَوْتِ إذ كنتِ فى المبالغة من البدء ؟

أفلا تقول لها : لقد تَلَطفْتِ فجئتِ بالمعنى المجازىّ لكلمة (العُرْى) ، ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأةً ظريفةً اجتماعية مَخيلَةً للشعر والفن ، وحققتِ أن واجب الظريفة الجميلة إعطاء الفن غذاء مِنْ . . . ، ومن . . . ؛ ومن لحمها . . . ؟

نعم إن قاسم أمين (رحمة الله) لم يكن يظن . . . ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لايجعلُ الخطأ صوابًا ؟ بل هو أحرى أن يُلبِّسَه على الناس فيُشبِّهَه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلَهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يومًا إلى أن يَنْتَسِف خطؤه صوابَه ، ويغطِّيَ

باطله على حقه ثم تَستطرقُ إليه عواملُ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد إليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدُّ له فى الغىّ مدًّا . ثم تنتهى هى أيضاً إلى نهايتها ، وتَئُول إلى حقائقها ؛ فإذا كل ذلك قد داخَل بعضُه ، وإذا الشر لايقفُ عندما كان عليه ، وإذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين ، ولانزعم أن له خَفِيَّة سوء أو مُضْمَر شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة ، ولكنى أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسَه به وأراه قد تكلَّف ما لا يُحسن ، وذهب يقول فى تأويل القرآن وهو لاينفُذُ إلى حقائقه ، ولا يستبْطِنُ أسرار عربيَّته ، وكان مناظِروه فى عصره قوماً ضعفاء ، فاستعلاهم بضعفِهم لابقوته ، وكانت كلمةُ الحجاب قد انتفختْ فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيَها الدقيقة ، فأخذها ممتلئةً وجاء بها فارغة ، وقال للنساء : غَيِّرْن وبدِّلْن . فلما أطعْنه وبدَّلن وغيَّرْن ، وجاء الزمنُ بما يفسّر الكلمة من حقائقِه وتصاريفِه لا من خيالاتِ المتخيِّل أو المتشيِّع — إذا معنى التغيير والتبديل هو ما رأيت ، وإذا الحجابُ الأول على ضلاله كان نصف الشر ، وإذا المرأة التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج ! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ، ولكن نفياً للمرأة ذاتِها وراء حدود الأسرة ، كأنها مجرمة عُوقبتْ على فساد سياستها ؛ وهى قارّة فى بيتها ولكنها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلها.

كانوا يحتجُّون لنفى الحجاب بالفلاَّحات فى سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهُنَّ من كونهن لسن فى المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة ؛ ومثل هذا السفور لايكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعىّ فطرىّ أساسُه الخلطُ فى الأعمال لاالتمييزُ بينها ، والاشتراكُ فى شىء واحد هو كَسْبُ القُوتِ[1] لا الانفرادُ بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللّجاجة ، أو « الحيوية الصارخة» التى ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمةِ المتصرفةِ بها ؛ ويَحسبْنَه توسعاً من

---

(١) ولهذا لايكاد يغتنى الفلاح ولو أيسر الغنى ، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمعناها فى نفسه .

الطبيعة فى الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلّها بعد نبذ الحجاب؛ وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالَم والحقوق ، ورغبةً منها فى أن تُحدَدَّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كلُّه بما فيه ، وتُعْطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتُطلقَها بزعمك من حجابها ، وتُخرجَها إلى النور والحرية ، فإنما أعطيتَها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتَها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خَشباً لاثمراً ، ومنظر شجَرة لاشجرة ، لقد أعطيتَها من علمك لامن حياتها ، وجهلت أنها من أطباقِ الثرى فى قانون حياتها ، لا فى قانون حجابها . أفليست كذلك جذورُ الشجرة الإنسانية ؟

كلُّ ما يتغير يسهلُ تغييرُه على من شاء ، ولكنَّ النتائج الآتية من التغيير لاتكون إلا حتماً مقضيًّا كما يُقضى ، فلن يسهل تبديلُها ولاتحويلُها ولاردُّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبُّوا للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسُه الرائحة الزكية فى البخور . . . ![1]

* * *

وما هو الحجابُ إلا حفظُ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءُ سِعرها فى الاجتماع ، وصونُها من التبذُّلِ الممقوتِ ، لضبطها فى حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم ، قانونِ العَرْض والطلَب ؛ والارتفاعُ بها أن تكون سلْعةً بائرةً ينادى عليها فى مَدارج الطرق والأسواق : العيونُ الكحيلة ، الخدودُ الوردية ، الشفاهُ الياقوتية ، الثغورُ اللؤلؤية ، الأعطافُ المرتجَّة ، النهود ا . . ا . . أوليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادِين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لايظهَرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا ؟

وهذه التى كتبت اليوم تطلبُهم مُخادِنين إن أخطأتهم أزواجاً ، وتفتِّش

---

(١) أى طب الدجالين .

عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجةً أخرى فى مُخزيات هذا التطور ، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَمُوحا مَطْرُوفَة ، تذهبُ عيناها هنا وههنا تلتمسُ من يخطو إليها الخطوةَ المقابلة . . ؟

ما هو الحجابُ الشرعىّ إلا أن يكونَ تربيةً عمليةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصُّها الرحمة ؟ هذه الصفةُ النادرةُ التى يقوم الاجتماعُ الإنسانىُّ على نزعها والمنازعة فيها ما دامت سنةُ الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعا خاصاً مسالما للفرد تحفظُ المرأةُ به منزلتها ، وتؤدّى فيه عملَها ، وتكون مَغْرِساً للإنسانية وغارسةً لصفاتها معاً .

لقد رأينا مَواليدَ الحيوان تولَد كلّها : إما ساعيةً كاسبةً لوقتها ، وإما محتاجةً إلى الحَضانة وقتاً قليلاً لايلبثُ أن ينقضىَ فتكدَحَ لعيشها ؛ إذ كانت غايةُ الحيوان هي الوجودَ فى ذاته لافى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفل لا فى الأعلى . غير أن طفلَ المرأة يكون فى بطنها جنيناً تسعةَ أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك ، سنةً بكل شهر . فهل الحجابُ إلا قَصرُ هذه المرأة على عملها ، لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؟ وهل قَصرُها فى حجابها إلا تربيةٌ طبيعية لرحمتها وصبرِها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمةً ذاتَ ولَد ، تترك ابنَها فى أيدى الخدم بعد وَصَاة علمية سيكولوجية . . . وتمضى ذاهبةً عن يمين الصباح ويمضى زوجُها عن شماله . . وقد رأيت هذا الطفل مرة ، فرأيته شيئاً جديداً غيرَ الأطفال ، له سِمَةٌ روحانية غيرُ سِماتِهم ، كأنما يقول لى : إنه ليس لى أبٌ وأم ، ولكن أبٌ رقم (١) ، وأب رقم (٢) . . . !

* * *

وقد كنتُ كتبت كلمة عن الحجاب الإسلامى قلت فيها : « ما كان الحجابُ مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تُجاوز مقدارَها أو يُخالطَها السوء أو يتَدَسَّسَ إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو

حجاب ، وليس يؤدّى إليها شىء إلا أن تكونَ المرأة فى دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى » .

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجابُ إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه ورُوحِه الدينية المَعْبَدِيَّة ، وهو كالصدَفة لاتحجبُ اللؤلؤةَ ولكن تربيها فى الحجاب تربيةً لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازنِ والاستقرارِ والهدوء والاطراد ، وأخلاقُ هذه المعانى وروحُها الدينىُّ القوى ، الذى ينشئُ عجيبةَ الأخلاق الإنسانية كلها ؛ أى صبرَ المرأة وإيثارَها . وعلى هذين تقوم قوةُ المدافعة ، وهذه القوةُ هىِ تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهى سرُّ المرأة الكاملة ؛ فلن تجدَ الأخلاقَ على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذاتِ الدين والصبرِ والمدافعة . إنها فيها تشبه أخلاقَ نبىّ من الأنبياء .

وقد مُحِقَ الدين والصبر ، وتراخت قوةُ المدافَعة فى أكثر الفتيات المتعلمات ، فابتُلِينَ من ذلك بالضجَر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العفَن فى الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتَهن ، فما منهن من عرفتْ أن طبيعتها سلبية فى ذاتها ، وأنه لايشدّها ويقيمُها إلا الصفاتُ السلبية ، وملاكُها الصبرُ فروعُه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزُها وحارسُها والمعينُ عليها هو الحجابُ وحده . إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطئُ المرأة فى شىء خطأها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلِها إيجابية ، وانتحالها صفاتِ الإيجاب ، وتمردها على صفات السلب ، كما يقع لعهدنا ؛ فإن هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكونَ منه إلا أن تعتبرَ هذه المرأةُ نقائصَ أخلاقها من أخلاقها ، كما نرى فى أوربا ، وفى الشرق من أثر أوربا ؛ فمن هذا تُلْقى الفتاةُ حياءها وتَبذُؤ وتُفحِش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعاً فبالمعانى وحدَها ، وإن لم يكن بهذه ولابتلك فبالفكر فى هذه وتلك ؛ وكانت الاستجابةُ لهذا ما فَشا من الروايات الساقطة ، والمجلات العارية ؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون عِلْمَ الفكرِ الساقط .

وعادت الفتاةُ من ذلك لاتبتغى إلا أن تكونَ امرأةَ رواية : إما فوق الحياة ، وإمّا فى حقائقَ جميلة تختارها اختياراً وتفرضُها فرضاً على القدَر !

تنسَى الحمقاء أنها أحدُ الطرفين ، وليست الطرفين جميعًا ؛ فتحاول أن تقررَ للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛ فانسلختْ من كل شيء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخَ من غريزة الأنوثة طاشت طيشَها الأخير ، فانسلختْ من إنسانية الغريزة .

* * *

أما إن غلطةَ الرجل فى المرأة لاتكون إلا من غلطة المرأة فى نفسها . وهى قد أُعطيت فى طبيعتها كل معانى حجابها ؛ فإحساسُها محتجبٌ مختبئ أبداً كأنه فى إتْب[1] ومُلاءة وبرقع ، وأفكارُها طويلةُ الملازمة لها لاتكاد تتركها ، كأنها منها فى بيت ؛ وطبيعةُ الحذَر لاتبرحُها كأنها الحارسُ الثابتُ فى موضعه ، القائمُ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ؛ وطولُ التأمل مُوَكَّلٌ بها كأن عمله مصاحبةُ وَحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حولَ المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكنَّ لها دنيا فى داخلها هى قلبُها تذهبُ الأقدارُ فيه مذاهبَ أخرى ؛ وضَغطةُ الحياة طبيعية فيها ، حتى لايُساوِرَها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها . والتى تمزقها الحياة كلما ولَدت لا تكونُ الحياةُ إلا رحيمةً بها إذا ضغطتها !

فخروجُ المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها ، فهو إضعافٌ لها ، وتَضْرِيةٌ للرجال بها . وماذا تُجدى عادةُ الحذَر إذا أفسدتها عادةُ الاسترسال والاندفاع ؟ فيكونُ حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكونُ إغفالاً ليعودَ الزَّلةَ والغلطة ؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول السقوط ، ومبدأ الانقلاب والتحوّل . وليس الفرق بين امرأة نَفُورٍ من الريبة ، شَمُوسٍ لاتُطلع الرجالَ ولاتُطمِعُهم ؛ وبين امرأة قَرُورٍ على الريبة ، هَلوكٍ فاجرة — ليس الفرق إلا حجابَ الحذَر أُسْدِلَ على واحدة، وانكشف عن أخرى

وإذا قرَّتْ المرأة فى فضائلها ، فإنما هى فى حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غيرَ الرجل ؛ فهو مسمًّى

(١) الإتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (الملس) .

بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأى لايدركون مذهبَه ، ولايحققون ما ينتهى إليه ، وينفذون فى حكمهم على الظاهر لاعلى البصيرة — هؤلاء لايعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكِساء والأبنية ، كأن حجابَ الأخلاق النسوية شئ يصنعهُ الحائك والبانى والمستَعْبِد ، ولاتصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ؛ فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم ، يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكونَ قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة تكون قوةَ سلب ؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجِّبٌ صابر هادئ منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعى تتم به الطبيعة .

وينبغى أن يكونَ العلم قوة لصفات المرأة لاضعفاً ، وزيادةً لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالَم إذا خرج صوتُها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحةً فى معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمَعاً على طاعته ، كصوت الأم فى بيتها .

* * *

أيتها الفتاة، إنَّ صدقَ الحياة تحتَ مظاهرِها لا فى مظاهرها التى تكذبُ أكثر مما تَصْدق ؛ فساعدى الطبيعة واحجُبى أخلاقَك عن الرجل ، لتعملَ هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين : منها ومنك ، فيُسرع انقلابُه إليك وبحثه عنكِ ؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبَغَايا ، ولكنَّ الرجلَ الصحيحَ الرجولة لن يجدَ غيركِ .

وإنما سفورك وسفور أخلاقكِ إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكينٌ للرجل نفسه أن يُرْجِفَ بكِ الظنَّ ، ويسيء فيك الرأى ؛ وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبَوار ؛ عقاب الطبيعةِ لمستقبلك بالحرمان ، وعَقاب أفكارك لنفسك بالألم !

س . ا . ع [1]

هؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء تجمعهُم صفةَ العزوبة ، ويحبّون المرأةَ حبّاً خائفاً يُقدّم رِجلاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبِل إلا أدبر ، ولا يَعزِم إلا انحلّ عزمُه . بلغوا الرجولةَ وكأنْ ليست فيهم ؛ وتمرُّ بهم الحياة مرورَها بالتماثيل المنصوبة ، لاهذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك ؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معانيَ وجودِهم ، لاليطلبوا سعادةَ وجودهم ، ويُمخرِقون فى شعوذة الحياة بالنهار على الليل ، وبالليل على النهار ؛ يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالىَ ، إذ لايعرفون لأنفسهم من العُزوبة إلا نهاراً واحداً ، نصفُه أسود مُقفِرٌ مظلِم . . . !

فأما « س » فرجلٌ « كشيخ المسجدِ » يكاد يرى حصيرَ المسجد حيث وَطِئتْ قدماه من الأرض . . . ذو دينٍ وتقوى ، ما يزال ينقبضُ وينكمشُ ويتزايل حتى يرجعَ طفلاً فى ثلاثينَ من عمره . . . وهو حائرٌ بائر لايتّجهُ لشىء من أمر المرأة ، وقد فقدَ منها مما يحِلُّ وما يحرُم ، ولاجُرأةَ لنفسه عليه ، فلا جرأةَ له على المُوبِقات ، ولايزيِّن له الشيطان ورطةً منها إلا املّسَ منه ، فإن له ثلاثةَ أبواب مفتوحة للهرب : إذ يخشى الله ، ويتوقّى على نفسه ، ويستحْيى من ضميره .

وأما « ا »فرجلٌ معزابةٌ ، ولكنه كالإسفنْجة ، امتلأت حتى ليسَ فيها خلاءٌ لقطرة ، ثم عُصرتْ حتى ليس فيها بلالٌ من قطرة ؛ وقد بلغَ ما فى نفسه وقضى نَهْمتَه حتى مما أراد ؛ ثم قلَبَ الثوب . . . فإذا له داخِلةٌ ناعمةٌ من الخزِّ والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيفُ الدَّخْلة ، ما تنطلقُ له نفسٌ إلى مأثم ، ولايعرف الشيطانُ كيف يتسبَّبُ لصُلْحه ومُراجعته الودّ . . .

وأما « ع » فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل

---

(١) هم الأصدقاء سعيد . . . وأمين حافظ شرف وعبد الله عمار .

واحدة ، ولكنه يمشى . . . . وهو « مَلِكُ الشوارع » لايزال فيها مقبلاً مُدبِراً طرَفًا من النهار وزُلَفًا من الليل ؛ فإذا لم يكن فى الشارع نساء ظَنّ الشارعَ قد هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته . . . ولهذه الشوارع أسماء عنده غيرُ أسمائها التى يتَعارَفُها الناسُ ويستدِلّون بها . فقد يكونُ اسمُ الشارع مثلاً : « شارع طه* الحكيم » ويسمّيه هو « شارع مارى » . . . ويكون اسمُ الآخر : « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطّويلة » . . . ودرْبٌ اسمهُ « دربُ الملاّح » واسمه عنده « دربُ الْمَلِيحة » . . . . وهلمَّ جرًا ومَسْخًا .

وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخَرَ من الشيطان دخل المسجدَ فصلّى ، وإذا أراد الشيطانُ أن يسخرَ منه دَحْرَجَه فى الشوارع . . . !

* * *

وافيتُ هؤلاء الثلاثةَ مجتمعين يتَدارَسُون مقالةَ « تربية لؤلؤية» ، يناقِشُونها بثلاثةِ عقول ، ويفتِّشونها بستّ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأةَ السافرةَ التى نبذَتْ « حجابَ طبيعتها » على ما بيّنته فى تلك المقالة — إن هى إلا امرأةٌ مجهولةٌ عند طالبى الزواج ، بقدر ما بالغَتْ أن تكونَ معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة ، قدرَ ما اقتربتْ من خَيالها الفاسد؛ وأتقنتْ الغَلَطَ ليصدّقَها فيه الرجلُ ، فلم يكذّبْها فيه إلا الرجل ؛ وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . . !

وأردتُ أن أعرفَ كيف تَنْتَصِفُ الطبيعةُ من الرجل العَزَبِ للمرأة التى أهملها أو تركها مُهْمَلة . . . وأين تبلغ ضَرَبَاتُها فى عيشه ، وكيف يكون أثرُها فى نفسه ، وكيف تكون المرأةُ فى خائنةِ الأعين ؛ فتسرّحْتُ مع أصحابنا فى الكلام فنًّا بعد فن ، وأزلْتُ حِذارَهم الذى يحذرون ، حتى أفضَوْا إلىّ بفلسفة عقولهم وصدورِهم فى هذه المعانى .

قال « س » : حسْبى واللهِ من الآلامِ وآلام معها — شعورى بحرمانى المرأةَ ؛ فهو بلاء منَعنى القرار ، وسلبنى السّكِينة ؛ وكأنه شعورٌ بمثل الوَحْدة التى يُعاقَب السجينُ لها مصرفاً عن الحياة مصروفةً عنه الحياة؛ تجعلُه جُدرانُ

* ما يأتى هنا من أسماء الشوارع هو من شوارع طنطا . وفى شارع طه الحكيم كانت دار الرافعى .

سجنه يتمنّى لو كان حَجَراً فيها فينجوَ من عذاب إنسانيته الذليلةِ المجرمة ، المخلّى بينها وبينه تُوسِعُه مما يكره ؛ شعورٌ بالوحدة والعزْلةِ حتى مع الناس وبين الأهل فما فىّ إلا عواطفُ خُرْسٌ لاتستجيب لأحد ولايجاوبُها أحدٌ فى « ذلك المعنى » .

وتمامُ الذلّة أن يجدَ العَزَبَ نفسَه أبداً مُكْرَهًا على الحديث عن آلامه لكل من يُخالطه أو يجلسُ إليه، كأنه يحمل مصيبةً لايُنَفِّسُ منها إلا كلامُه عنها . وهذا هو السرُّ فى أنك لاتجد عَزَبًا إلا عرفتَه ثرثاراً لاتزالُ فى لسانه مَقَالةٌ عن معنى أو رجل أو امرأة ، وأصبْتَه كالذباب لايطيرُ عن موضع إلا ليقعَ على موضع .

ومع جَهْدِ الحرمان جَهْدٌ شر منه فى المقاومة وكفّ النفس ؛ فذلك تَعَبٌ يَهلِكُ به الآدمىُّ، إذ لا يدعُه يَتَقَارُّ على حالة من الضجر فيما تُنازعُه الطبيعةُ إليه ، وهو كالمنَزْعِ فى أعصابه ، يُحِسُّها تُشَدُّ لتُقْطَع ، ودائمًا تُشَدّ لتقْطع .

وقد رَهِقنى من ذلك الضّنَى النّسوىّ ما عِيلَ به صبرى وضَعُفَ له احتمالى ؛ فما أرانى يومًا على جِمَامٍ من النفس ، ولاارتياحٍ من الطبع ؛ وكيف وفى القلب مادةُ همه، وفى النّفس عِلّةُ انقباضها ، وفى الفكر أسبابُ مَشْغَلَتِه ؟ وقد أوقدتْ سَوْرةُ الشباب نارَها على الدم، تَلْتَعِجُ فى الأحشاء ؛ وتطيرُ فى الرأس ، وتصبغُ الدنيا بلون دُخانِها ، وفى كل يوم يتخلّف منها رَمادٌ هو هذا السوادُ الذى رَانَ على قلبى .

وما حالَ رجل عذابُه أنه رجل ، وذُلهُ أنه رجل ؟ يلبس ثيابَه الإنسانية على مثل الوحش فى سلاسِله وأغلالِه،ويحملُ عقلاً تَسُبُّه الغريزةُ كلّ يوم ، وتراه من العقول الزُّيُوف لاأثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرَة الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعةً أو بعض ساعة إلا أخذتْه الغريزة مُجْتَرِحًا جريمة فكر . . .

وفى دُون هذا ينكرُ المرء عقلَه؛ وأىُّ عقلٍ تَراه فى رجلٍ عَزَبٍ يقع فى خياله أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى « فلانة » ، وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ،

وأنه من أجلها كان عَزُوفًا عن الفحشاء بعيداً من المنكَر ؛ وفاء لها وحفظاً لعهد الله فيها ، وقد دلَّهته بفنونها التى يبتدعها فكره ؛ وهى ساعةً تؤاكله على الخوان ، وساعة تضاحكه ، ومرةً تعابثه ، وتارة تجافيه ، وفى كل ذلك هو ناعمٌ بها ، يحدّثها فى نفسه ، ويسمُرُ معها ، ويتصنّع له ؛ ويعاتبها أحياناً فى رقة ، وأحياناً فى جفاء وغلظة : وقد ضربها ذات مرة . .

ألا إن فكرة المرأة عندى هى هذا الجنونُ الذى يرجع بى إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمى بى فى كهف أو غابة ، فأرانى من وراء الدهور كأنى أبدأ الحياة منفرداً وأجدُنى رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الإنْس ، دنياه أحجارٌ وأشجار ، وهو حجرٌ له نموُّ الشجر .

لقد توزَّعتْ المرأة عقلى فهو متفرّقٌ عليها ، وهى متفرقة فيه ، لا أستطيعُ والله أن أتصوَّرها كاملة ، بل هى فى خيالى أجزاء لا يجمعُها كلٌّ ؛ هى ابتسامةٌ ، هى نظرةٌ ، هى ضحكةٌ ، هى أغنية ، هى جسم ، هى شىء ، هى هى هى .

أكلُّ تلك المعانى هى المرأة التى يعرفُها الناس ، أم أنا لى امرأةٌ وحدى ؟

وإنى على ذلك لأتخوَّف الزواج وأتحاماه ؛ إذْ أرى الشارع قد فضح النساء وكشفهنّ ؛ فما يُريني منهنّ إلا امرأةً تَزْهَى بثيابها وصنْعة جمالها ، أو امرأةً كالهاربة من فضائلها ؛ والبيتُ إنما يطلب الزوجة الفاضلةَ الصَّناعَ ، تخيطُ ثوبَها بيدها فتُباهى بصنعته قبل أن تُباهى بلبسه ، وتُزْهَى بأثر وجهها فىَّ ، لا بأثر المساحيقِ فى وجهها . وإنَّ مكابدة العفَّة ، ومصارعة الشيطان ، وتوهُّج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطَّيْرةِ الجنُونية بالعقل — كلُّ ذلك ومثلُه معه أهون من مكابدَة زوجةٍ فاسدةِ العلمِ أو فاسدةِ الجهل ، أُبْتَلَى منها فى صديق العُمر بعدوّ العُمر .

إن أثَر الشارع فى المرأة هو سوء الظنّ بها ، فهى تحسبُ نفسَها معلنةً فيه أنوثتَها ، وجمالها ، وزينتَها ؛ ونحن نراها معلنةً فيه سُوء أدب ، وفساد خُلُق ، وانحطاطَ غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظنّ بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله فى كل واحدة ؛ ومن كان عفيفاً سَمِعَ من الفاسق فوجد

من ذلك مُتَعلِّقًا يتعلَّق به ، وقياسًا يقيسُ عليه ؛ والفتنةُ لاتُصيب الذين ظلموا خاصَّة ، بل تعُمّ .

آه لو استطعت أن أوقِظ امرأةً من نساء أحلامى . . . !

* * *

وقال « ا » : لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صُوراً بديعةً من الشعر تستخفُّنى إليها العاطفة ، ولايزال منها فى قلبى لكل يوم نَازِيةٌ تَنْزو . وكانت المرأةَ بذلك حديث أحلامى ونَجِيَّ وساوِسى ، وكنتُ عفيف البنطلون[1] ؛ ولكنَّ النساء أيقظْنَنى من الحُلُم ، وفجعْنَنى فيه بالحقيقة ، ووضعْن يدى على ما تحت ملمَس الحيَّة . ولو حدثْتُك بجملة أخبارهن ، وما مارستُ منهن لتكَرَّهْتَ وتَسخَّطْت ، ولأيقنْت أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانت خطأً مطبعيًّا ، وصوابها : (تجرير المرأة) ... فهؤلاء النساء أو كثرتُهن — لم يُدْلِن الحجاب إلا لتَخرج واحدةٌ مما تجهلَ إلى ما تريد أن تعرف ، ولتخرج الأخرى مما تعرفُ إلى أكثر مما تعرفه ، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة . . . .

لقد عرفت فيمن عرفتُ منهن الخفيفة الطيَّاشة ، والحمقاء المتساقِطة ، والفاحشة ذات الرِّيبة ؛ وكلٌ أولئك كان تحريرُهن أى — تجريرُهن — تقليداً للمرأة الأوربية ؛ تهالكْن على رذائلها دون فضائلها ، واشتدَّ حرصُهن على خيالها الروائى دون حقيقتها العلمية ، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لانأخذ الرذائل كما هى ، بل نزيد عليها ضعفَنا فإذا هى رذائل مضاعَفة .

كان الحُلُم الجميل فى الحجاب وحده ، وهو كان يُسعِّر أنفاسى ويَستطير قلبى ، ويُرغمنى مع ذلك على الاعتقاد أن هٰهنا علامة التكرُّم ، ورمز الأدب ، وشَارة العفة ، وأن هذه المحصَّنة المخدَّرة — عذراء أو امرأةً — لم تُلق الحجاب عليها إلا إيذانًا بأنها فى قانون عاطفة الأمومة لاغيرها ؛ فهى تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها ، ورمز الفصل بين ما يَحسن ومالا يَحسن ، ولأن وراءه صفاء روحها الذى تخشى أن يكدَّر ، وثبات كِيانها الذى تخشى أن يُزعْزع .

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحلِى وصنوف الزينة

---

(١) يقول العرب فى الكناية عن العفة : وهو عفيف الإزار ، وترجمتها فى عصرنا ما رأيت .

والكُسوة الحسنة : « يا هؤلاء ، إنكم إنما تعلمونهن محبّة الأغنياء لامحبة الأزواج» ، وأحكم من هذا قول الرجل الإلهىّ الصارم عمر بن الخطاب : « إضربُوهنّ بالعُرى» فقد عُرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريرها ، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها . فلو مُنِعت الثياب الجميلة حبَستْها طبيعتُها فى بيتها . فماذا تقول الشوارع لو نطقت ؟ إنها تقول : يا هؤلاء ، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لامعرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت وسمعت من محاسنهن وفضائلِهن وحيائهن ، ولقد كان الحجاب معنى لصعوبة المرأة واعتزازها ؛ فصار الشارع معنى لسُهولتها ورخْصها ؛ وكان مع تحقّق الصعوبة أو تَوهمها أخلاقٌ وطباعٌ فى الرجل ، فصار مع توهم السهوله أو تَحقّقِها أخلاقٌ وطباع أخرى على العكس من تلك ؛ مازالت تَنْمِى وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّى بمن لمس المرأة فى الطريق من « الجُنحة » إلى « الجناية » .

وتَخنّث الشبّانَ والرجال ، ضُروباً من التخنث بهذا الاختلاطِ وهذا الابتذال ، وتحلّلتْ طباع الغَيْرة ، فكان هذا سريعاً فى تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعاً فى إفساد اعتقادهم ، وفى نَقْضِ احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة ، وأعرضوا عنها بالقلب ؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة ، وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قل طلاّب الزواج ، وكثر روّاد الخَنَا .

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنجليزية ، وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معانى الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه : « سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية » قالت فى آخره : « إذا كانت هذه الحرية التى كسبناها أخيراً ، وهذا التنافس الجنسى ، وتجريد الجنسين من الحجُب المشوّقة الباعثة التى أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيُصبحُ كلُّ أثره أن يتولّى الرجالُ عن النساء ، وأن يزول من القلوب كلُّ ما يحرّك فيها أوتار الحب الزوجى فما الذى نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خِطَطنا ، بل قد نستقرّ طوعاً وراء الحجاب الشرقى ، لنتعلم من جديد فنّ الحب الحقيقى » .

* * *

وقال « ع » : لستُ فيلسوفًا ، ولكنّ فى يدى حقائق من علم الحياة لاتأتى الفلسفةُ بمثلها ، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع .

فاعلَمْ أن العزّاب من الرجال يتعلم بعضُهم من بعض ، وهم كاللصوص لايجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياةُ اللص معناها وجود السرقة ، وحياةُ العَزَب معناها وجودُ البِغاء والفسْق .

ومن حُكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يُباهِى بإظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقةُ من ظهور أمرها : وهذه إشارةٌ من الطبيعة إلى أن المرأة مِسكينةٌ مظلومة. فما ابتذالُ الحجاب ، ولااستِهتاكُ النساء إلاجوابٌ على انتشار العزُوبة فى الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجًا لولا الضغطُ نازلاً فنازلا إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلجُ ماء يعتذرُ من تحوُّله وانقلابه بعذر طبيعىّ قاهر ، له قوةُ الضرورة المُلْجِئة ، وكذلك المرأةُ المُذالةُ أو الطامحةُ أو المتبذّلة أو المتهتكة — ماصفاتُهن إلا توكيدٌ لأعذارهن .

وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم ، فالعَزَبُ وإن كان رجلاً حرًّا فى نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقَّها فيه ؛ فتى جحد هذا الحقّ ، واستكبر عليه ، رجع حالُه مع المرأة إلى مثل شأن الغَريم مع غريمه ؛ ليس للفصْل فيه إلا الدولةُ أوحكامُها وقوتُها التنفيذية .

وإذا أطلِقت الحرية للرجال فصاروا كلُّهم أو أكثرُهم أعزابًا ، فماذا يكونُ إلا أن تمحى الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلاشى الفضائل ؟ فالعزُوبةُ من هذا جريمة بنفسسها ، ولاينبغى أن تتربَّص بها الحكومةُ حتى تعمّ ، بل يجب اعتبارُها باعتبار الجرائم من حيثُ هى ، ويجب تفسيرُ كلمة « العَزَب» فى اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكَّرة ساخطة متمرِّدة على حقوق مختلفةٍ للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساَء رأىُ العزّاب فى النساء والفتَيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لايعرفون المرأة إلا فى أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزناً يستمتعون فيه ، ولكنهم يَهلِكون ويُهلكون به . هم والله لأساتذةُ الدروس السافلةِ فى كل أمة، وهم والله بُغَاةٌ من الرجال فى حكم البغايا من النساء ، يَجْرُون جميعاً مَجْرًى واحداً . ومَنْ هى البَغيّ فى الأكثر إلا امرأة فاجرة لازوج لها ؟ ومَنْ هو العَزَب فى الأكثر إلا رجلٌ فاسق لازوجة له ؟ على أن مع المرأة عذر ضعفِها أو حاجتها ، ولكن ما عذرُ الرجل ؟

ماذا تُفيدُ الدولة أو الأمة من هذا العَزَب الذى اعتاد فَوْضى الحياة ، وسَيْرها على نظامها ، وتَحقُّقَها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؛ وأىُّ عزبٍ يجد الاستقرار ، أو تجتمع له أسبابُ الحياة الفاضلة ؛ وهو قد فقد تلك الروح التى تتم روحَه ، وتُنقِّحها ، وتمسكها فى دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقِها ، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التى تُشعره التَّبِعة والسيادة معاً ، وتمتدّ به ويمتدّ بها فى تاريخ الوطن ؟

كيف يُعتبَر مثلُ هذا موجوداً اجتماعيًّا صحيحاً وهو حىّ مختلّ فى وجود مُستعار ، يقضى الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضى النهار نافراً من حياة الليل ؛ فيقضى عمره كلَّه هارباً من الحياة ، وكأنه لايعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل بالممكنِ من بعضها ... !

أيةُ أسْرةٍ شريفة تَقْبل أن يساكِنَها رجلٌ عزب ، وأيَّةُ خادم عفيفةٍ تطمئن أن تخدُم رجلاً عزباً ؟ هذه هى لعنةُ الشرف والعفة لهؤلاء الأعزابَ من الرجال !

* * *

قال الراوى : وهنا انتفض «س»و«ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويردَّاها إلى حلْق «ع» . ثم سألنى ثلاثتُهم أن أسْقِطَها من المقال ، بَيْدَ أنى رأيتُ أنّ خير من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا«س» و«ا» و «ع»

استنوق الجمل . . .

قال الشاب : لاقِبَل لى بهذا التعَب المُعنِّى الذى يسمّونه « الزواج » فما هو إلا بيتٌ ثقْلُه على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسى ؛ وامرأةٌ همُّها فى موضعين : فى دارها ، وفى قلبى ؛ وما هو إلا أطفالٌ يُلْزموننى عمل الأيدى الكثيرةِ من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأتحمَّلُ فيهم رهَقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامى ، وأجمعُ هموم رؤوسهم كلها فى رأس واحد هو رأسى أنا .

يُولَد كلٌّ منهم بمَعِدة تَهضُم لتوّها وساعتِها ، ثم لاشىء معها من يدٍ أو رجلٍ أوعقلٍ إلا هو عاجزٌ لايستقلّ ، متَخاذلٌ لايُطيق ولايقْدر .

قال : وإذا كان أولُ الزواج أىْ عَسَلُهُ وحَلْواه أنه امرأةٌ تُذْهِب عُزوبتى . فأنا وأمثالى ما نزالُ فى عَسَلٍ وحَلوى . . . ولكلّ وقتٍ زواج ، ولكل عصرٍ أفكار ، وما أسخف الليالى إذا هى ترادفَتْ على ضرْبٍ واحد من أحلامها ، فهذا يجعلُ النوم حكماً بالسجن عشَر ساعات . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العُزَّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتُهم فنِّيَّة ، وفضيلتُهم فنِّية ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكلُّ شىء فى الفن هو لموضعه من الفن لامن غيره ؛ فإذا قلتَ : هذا خالٍ من الفضيلة ، عار من الأدب ؛ وعِبْت الفنَّ لذلك — فما هو إلا كَعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لِحْية . . ! هات الظلام وسواده ، فإنه لونٌ كالنور وإشراقه ، لابدّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنىُّ إنما يكون فى تناسُب الأشياء لافى الأشياء ذاتِها ؛ ويد الفنىّ كيَد الغنىِّ ؛ هذه لايقع فيها الذهبُ إلا ليعددّ ثم يتعدد ؛ وتلك لاتقع فيها المرأة وإلا لتتعدَّد ثم تتعدد ؛ وفى كل دينار قوةٌ جديدة ، وفى كل امرأة فن جديد . . .

قال : ومذهبُنا فى الحياة أن نستمتع بها ضُروباً وأفَانِين ؛ مَن أطاق لم يقتصر على نوعين ، ومن قَدَر على نوعين لم يرض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قَطَرات النَّدى ، لثَقُل منها على حياتنا ما يثقُلُ

من الحديد والصوّان ؛ إذ هي لاتلدُ أشعة كواكب ، ولاقطرات ندى ؛ وحَسْبُ الجسد برأس واحد حِملاً .

قال : ومَن الذي تَعرضُ عليه الحياةُ سلامَها وتحيّاتِها وأشواقَها فى مثل رسالة غرام ، ثم يدعُ هذا ويسألها غضبَها وخِصامَها ولَجاجتَها فى مثل قضيةٍ من قضايا المحاكم كلُّ ورقة فيها تلد ورقة . . ؟

ثم قال الشاب : لاتحسَبنَّ أن المرأة هى السافرةُ عندنا ، ولكنَّ اللذة هى السافرة ؛ وما أحكَمَ الشرع ! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة : — ما أحكم الشرع الذى لم يُرخِّصْ فى كشف وجه المرأة إلا لضرورة ، فإن الواقع فى الحياة أن هذا الكشف كثير ما يكون كنقْب اللص على ما وراء النَّقْب ؛ وإذا كُسِر ما فوق القُفل من الخِزانة المكتَنِز فيها الذهبُ والجوهرُ ، فالبابُ الحديدُ كله سخرية وهُزُؤ من بَعْدُ . . !

* * *

هذه عقليةُ شابّ محام طَوى عقلَه على الكتب القانونية ، وطوى قلبَه على مثلها من غير القانونية . . . وليس يَمتَرى أحدٌ فى أنها عقليةُ السواد من شبابنا المثقّف الذى لَبِسَ الجلد الأوربى . ومن البلاء على هذا الشرق أنه ما برح يُناهِضُ المستعمرين ويُواثبُهم ، غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التى تُناهِضُه وتواثبه ، جاهلاً أن أوربا تستعمرُ بالمذاهب العلمية كما تستعمرُ بالوسائل الحربية ؛ وتَسوقُ الأسطول والجيش ، والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة والحب .

ولو أن عدوًّا رماك بالنار فاستطارتْ فى ثيابك أومتاعِك لما دخلَكَ الشك أن عدوّك هو النارُ حتى تفرغ من أمرها . فكيف — لَعمرى — غَفَل الشرقيون عن أخلاق ناريّة حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مَساغاً ، وألين أخْذاً ، وأسرع فى الهضم . . . !

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا فى أعصابه ، وأما مصرُ ونساؤها ورجالُها فعلى طَرف لسانه لاتكون إلاصيْحة ، وليس بينه وبينها فى الحياة عمل إلامن ناحية لذته بها ، لا من ناحية فائدتها منه .

وتلك المعانى كلُّها مشتقٌّ بعضُها من بعض ، ومَرْجِعُها إلى أصلٍ واحدٍ ،

كالأمراض التى تبتلى الجسم يُمَهِّد شىءٌ منها لشىء ، ما دامت طبيعةُ هذا الجسم زائغةً أو مختلَّة ، أو متراجعةً إلى الضعف ، أو ذاهبةً إلى الموت .

وأولئك شبانٌ وقف بهم الشبابُ موقف بلادة ، فلا يخطو إلى الرجولة ، ولايكمُلُ بنموّه الاجتماعى كما يكمل الرجلُ الوطنى ؛ فمن ثَمَّ يكون خوَّاراً لايستطيع أن يَحمل أثقالاً مع أثقاله ، ويَستوطئُ العجز والخُمول ؛ فلايكون إلا قاعد الهمة ، رخْو العزيمة ، قد استنام إلى أسباب عجزه وتخاذُله ؛ ولايكونُ فى بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حَميلةً على ذويه ، ضُجعَةً لايمشى ، نُومَةً لاينتهض ، مستريحًا لايعمل .

وبهذه المَكْسَلَة الاجتماعية فى الشبان يبدأ الشعبُ يتحول من داخله فينصرفُ عن فضائله ، ويتخذ فى مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قومًا غير قومه ، ويجلبُها لبيئة غير بيئته ، ويَقْسِرُها على أن تَصْلُح له وهى فساد ، ويكْرِهُها على أن تنفعَه وهى ضرر ، وتلك حالةٌ يُغامِر فيها الشعبُ بكيانه فلاتلبثُ أن تَصْدعَه وتفرِّقه .

ولو أن فى السحاب مطَراً وغَيثًا لما كان له فى كل ساعة لونٌ مصبوغ ، ولو أن فى الشباب دينًا لما صبغته تلك الأخلاقُ الفاسدة ، وما ذهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوةُ للصوص إليه ، وهل كان الدينُ إلا واجبات وتَبِعات وقيوداً يراد من جميعها إعدادُ الإنسان لأمثالها فى الاجتماع ، حتى يقَرَّ فى إنسانيته الصحيحة على النحو الذى يصلُح له منفرداً ويصلُح له مجتمعًا ؟ فليست الزوجة وحدها هى التى خَسِرت الشاب بل خسره معها الوطنُ والدينُ والفضيلةُ جميعًا ، وبهذا انعكس وضعُه من الجماعة ، فوجب فى رأيه أن تُسَخَّر الجماعةُ له ، وأن يستقلَّ هو بنفسه ، وبهذا العكس ، وهذا السقوط ، وهذا الاستمتاع الذى يجد سعادتَه فى نفسه ؛ أصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدِّم لهم بغَايا لا زوجات . . . . بغَايا حتى من الزوجات . . . . !

قبَّح الله عصراً يجهلُ الشاب فيه أن الرجل والمرأة فى الوطن كلمتان تفسِّر الإنسانيةُ إحداهما بالأخرى تفسيراً إنسانيًّا دينيًّا بالواجبات والقيود والأحمال ، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق كما تفسِّر الحيوانيةُ الذكر والأنثى .

والنفسُ الدنيئة أو المنحطَّةُ فى أخلاقها ومَنازعِها من الحياة لاتكون إلا دنيئةً أو منحطةً فى أحلامها وأخيلتِها الروحية ، دنيئةً كذلك فى طاعتها إن قَضت عليها الحياةُ بموضع الخضوع ، دنيئةً فى حكمها إن قضت لها الحياةُ بمنزلة من السلطة . ولو تنبهت الحكومةُ لطردت من عملها كلَّ موظف غير متأهِّل ، فإنها إنما تستعملُ شرًّا لا رجلاً يمنع الشر ، وكلُّ شاب تلك حالُه هو حادثة تَرْتدفُ الحوادث وتستلزمها ، وما يأتى السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه .

* * *

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة فى طبيعة ثالثة تقومُ بالاثنتين معًا ، وهى طبيعةُ الشعب . فمِن سقوط النفس ولؤمِها ودناءتِها أن يفرَّ الشابُّ القوىُّ من تَبِعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانية ؛ ولايقيم لوطنه جانبًا من بناء الحياة فى نفسه وزوجِه وولده ، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوق نفسه ، وفوق الإنسانية والفضيلة والوطن جميعًا ؛ ولايعرفُ أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعافٌ فى طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل فى أىِّ أسبابها عَرَضتْ .

ومن فُسُولة الطبع ولؤمِه ودناءته أن يهرب هذا الجندىُّ من مَيْدانه الذى فَرَضت عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهِد فيه لأداء واجبه الطبيعى متعلِّلاً لفِراره المُخزى بمشقة هذا الواجبِ وما عسى أن يعانى فيه كما يحتج الجبانُ بخوف الهلاك وعَناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات ، وبَوارهُن على الوطن ؛ وأن يتواطأوا على نَبْذ هذه الأحمال ، وإلقائها فى طرُق الحياة ، وتركِها لمقَادِيرها المجهولة . كأنهم ــ أصلَحهم الله ــ لايعلمون أن ذلك يضيع بأخَواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم فى أمَّهات الجيلِ المقبل ، ويضيع بالفضيلة فى تركهم حمايتَها وتخلِّيهم عن حمل واجباتها وهُمومها السامية .

إن الجمل إذا استَنْوَق تخنَّث ولان وخضع ، ولكنه يحمل ؛ وهؤلاء إذا استنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا . .

ومن سقوط النفسِ فى الرجل النِّكْسِ العاجز المقصر أن يحتجَّ لعُزوبته

بعلمه وجهل الفتيات ؛ أو تمدنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولايدرى هذا المنحطُّ النفس أن الزواج فى معناه الإنسانىّ الاجتماعىّ هو الشكلُ الآخر للاقتراع العسكرى ، كلاهما واجبٌ حَتْمٌ لا يُعتذر منه إلا بأعذار معيَّنة ، وما عداها فجبنٌ وسقوطٌ وانخذالٌ ولعنةٌ على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يَغْنَى الشابُّ عن الزواج لفُجوره فيقرَّه ، ويُمكِّن له ، وكأنه لايعلم أنه بذلك يَحْطِمُ نفسين ، ويُحْدثُ جريمتين ، ويجعلُ نفسَه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفسِ أن يَغْتَرَّ الشاب فتاةً حتى إذا وافق غِرَّتَها مَكَر بها وتركَها بعد أن يُلْبِسَها عارها الأبدى ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيثٍ فاتك ، هو أبداً عند من يسرقُهم فى باب الخسائر والنكَبات ، لافى باب الربح والمكْسَب ؛ وعند المجتمع فى باب الفساد والشر ، لافى باب المصلحة والخير ؛ وعند نفسه فى باب الجريمة والسرقة ، لافى باب العملِ والشرف .

* * *

فسقوطُ النفس وانحطاطها هو وحده نكبةُ الزواج فى أصلها وفُروعها الكثيرة التى منها المغَالاةُ والشَّطط فى المُهور ، ومنها بحثُ الشاب عن الزوجة الغنية ، وإهمالُ ذات الدِّين والأصلِ الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء ، وعزُوفها عن الفاضل ذى الكَفَافِ أو اليسير على غِنى فى رجولته وفضائله ، كأنما هو زواجُ الدينار بالسبيكة ، والسبيكةِ بالدينار ، وكأن الطبيعةَ قد ابتُليت هى أيضا بالسقوط ، فأصبحت تعتبرُ الغِنى والفقر ، فتجعلُ فى دمِ أولاد الأغنياء رُوحَ الذهب واللؤلؤ والماس ، وتُلقى فى دم أولاد الفقراء رُوحَ النُّحاس والخشَب والحجارة . . . على حينِ أن الجميعَ مُسْتَيْقِنون لايتَدَافَع اثنان منهم فى أن الطبيعةَ لاتبالى إلا بوراثة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط فى رأيى هو ضعفُ التربية الدينية فى الجنسين ، وخاصة الشبان ، ظنًّا من الناس أن الدينَ شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لاغيرُه نظامُ هذه الحياة وقِوَامُها فى كل ما يتصل منها بالنفس . وليست المدنيةُ الصحيحة

– كما يحسبُ المفتونون – هى نوعَ المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوعَ العقيدة بالحياة ومعانيها ؛ وإلى هذا ترمى كلُّ مبادئُ الإسلام، فإن هذا الدين القويَّ الإنسانيّ لايعبأ بزخارفَ كهذه التى تتلبَّسُ بها المدنيةُ الأوربية القائمة على الاستمتاع ، وفنونِ اللذات ، وانطلاقِ الحرية بين الجنسين ؛ فهذا بعينه هو التحطيمُ الإنسانى الذى ينتهى بتهدُّم تلك المدنية وخرابها : وإنما يعبأ الإسلامُ بالعقيدة التى تنظِّم الحياةَ تنظيماً صحيحاً مُتَساوِقاً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة بعيداً من الخلط والفوضى .

ويقابلُ ضعفَ التربية الدينية مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعفُ التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سببٌ آخر هو تخنث الطباع واسترسالُها إلى الدَّعةَ والراحة ، وفرارُها من حمل التَّبِعة « المسئولية » التى هى دائما أساسُ كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى .

وبذلك الضعف وذلك السقوطِ وُضعت المرأةُ البغيُّ العاهرةُ فى الموضع الطبيعى للأم، ونزل الرجلُ السافلُ المنحط فى المكان الطبيعى للأب، وتحللَّتْ قُوَى الوطن بانحراف عُنْصريه العظيمين عن طبيعتهما ، وجَعَلت فضيلةُ الفتيات المسكينات تتأكَّلُ من طول ما أهمِلَتْ ، وأخذَ سُوسُ الدم يتركها فضائلَ نَخِرة ،

ولاعاصم ولادافع إلا قوةُ القانون وسطوتُه ، ما دامت الفضيلةُ فى حكم الناس وتصريفهم قد تَركَتْ مكانَها للقوانين ، وما دامت قوةُ النفس قد أخلَتْ موضعَها للقوة التنفيذية .

لقد قُتِلتْ رُوحيَّةُ الزواج ، وهى على كل حال جريمةُ قتل ، فمن القاتلُ ياصاحبنا المحامى ؟

قال الشاب : هو كل رجل عَزَب .

قلت : فما عقابُه ؟

فسكَتَ ولم يَرْجِعْ إلىَّ جواباً .

قلت : كأنى بك قد تأهَّلْتَ وَخَلاكَ ذمٌّ . . فما عقابُه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب ، فليعاقبْهم الشعبُ بتسميتهم « أرامل الحكومة » . . واحدُهم : رجلٌ أرملة حكومة . . .

ثم قال : اللهمُ يَسِّرْها ولاتَجعلنى رجلاً بغلطتين : غلطةٍ فى نساءِ الأمة، وغلطةٍ فى ألفاظ اللغة .

أرملة حكومة . . . .

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا[١] هو الرجلُ العَزَب ، يكون مُطيقاً للزواج ، قادراً عليه ، ولايتزوج ؛ بل يركبُ رأسَه فى الحياة ، ويذهبُ يُمَوِّهُ على نفسه كذباً وتدليساً ، وينتحِلُ لها المعاذيرَ الواهية ، ويَمْتَلِقُ العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلْحِقَ نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ، ويرميهنَّ بالسوء وهو السوء عليهن ، ويتَنَقَّصُهُنَّ ومنه جاء النقص ، ويَعيبُهُنَّ وهو أكبرُ العيب ؛ لايتذكر إلا الذى له ، ولايتناسَى إلا الذى عليه ، كأنما انقلبت أوضاعُ الدنيا ، وتبدّلتْ رُسومُ الحياة ، فزالت الرجولة بتَبِعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثةُ بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تحمِلَ تلك ما كان يحمل هذا ، فتُقْدِمَ ويقَرَّ وادعاً ، وتتعبَ ويستريح ، وتعانىَ الهمومَ الساميةَ فى الحياة الاجتماعية ، ويعانىَ المخنَّثُ ابتساماتِه ودموعَه ، متكِئاً فى مجلسه النَّسيميِّ تحت جَناح المِرْوحة . . فأما المرأةُ فتشْرف على هَلَكَتِها ، وتُخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيبقى من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائفُ المُبَهْرَجُ ، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزوراً ؛ إذ لاتكملُ الرجولة بتكوينها حتى تكملَ بمعانى تكوينها ؛ وأخصُّ هذه المعانى إنشاء الأسرة والقيامُ عليها ، أى مغامرةُ الرجل فى زمنه الاجتماعىّ ووجودِه القومىّ ، فلا يعيش غريباً عنه وهو معدودٌ فيه ، ولاطُفيْليّاً فيه وهو كالمنفىِّ منه ، ولايكون مَظهراً لقوة الجنس القوىّ هاربةً هروب الجبن من حَمْل ضَعف الجنس الآخر المحتمِى بها ، ولالمروءة العَشيرِ مُتَبَرِّئَة تَبَرُّؤَ النذالة من

---

(١) انظر مقالة « استنوق الجمل » . والتاء فى « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هى تاء جديدة فى العربية ، تزاد فى هذه الكلمة خاصة واسمها تاء الهزؤ . . . وياحبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عزب « أرملة الحكومة » فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر ، حامضاً لغوياً كحامض الفنيك . . . !

مؤازَرة العشير الآخر المحتاج إليها ؛ ولا يرضى لنفسه أن يكونَ هو والذلُّ يعملان في نساء أمته عملاً واحداً ، وأن يصبح هو والكسادُ لايأتى منهما إلا أثرٌ متشابه ، وأن يبيتَ هو والفناء فى ظُلمة واحدة كظلُمات القبر ، تنقلُ الأجداثَ إلى الدُّور ، فتجعلُ البيتَ – الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌّ وأطفال – بيتا خاويا كأنما ثكلَ الأمَّ والأطفال ، وبقيت فيه البقيةُ من هذا الرجل العزَبِ الميتِ أكثرُ تاريخه . . . !

لقد رأيتُ بعينيَّ أداةَ العزَب وأثاثَه فى بيته ، كأنما يقصُّ عليه كلُّ ذلك قصةَ شؤمه ووَحدته ، وكأنما يقول له الفَرْشُ والنَّجْدُ والطِّراز : « بِعْنى يا رجل وردَّنى إلى السوق ؛ فإنى هنالك أطمعُ أن يكونَ مصيرى إلى أب وأم وأولاد ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودى ، وأصيب من معاشرتهم بعضَ ثوابى ، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكونُ قد عملتُ عملاً إنسانياً . أما عندك ، فأنت خشبةٌ مع الخشَب ، وأنت خِرْقةٌ بين الخِرَقِ . واسمع الكرسىَّ إنه يقول : أفٍّ . وأصغ إلى فراشك إنه يقول : تُفٍّ . . »

شَهِدَ العزَبُ وربِّ الكعبة على نفسه أنه مُبْتَلًى بالعافية ، مستعبَدٌ بالحرية ، مجنونٌ بالعقل ، مغلوبٌ بالقوة ، شقيٌّ بالسعادة ، وشهدت الحياةُ عليه وربِّ البيت أنه فى الرجولة قاطعُ طريق ؛ يقطع تاريخَها ولا يؤمِّنُه ، ويَسرق لذَّاتِها ولا يكسبَها ويخرج على شَرْعِها ولا يدخُل فيه ، ويعصى واجباتِها ولا ينقادُ لها . وشَهد الوطن – والله – عليه أنه مخلوق فارغ كالواغِل على الدنيا ؛ إن كان نعمةً بصلاحه ، انتهتْ النعمةُ فى نفسها لاتمتد ؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لاتنقطع . وأنه شحَّاذُ الحياة أحسن به الأجدادُ نسلا باقيا ، ولا يُحْسِن هو بنسل يبقى . وأنه فى بلاده كالأجنبى ، مهبطُه على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرِهما ؛ ثم يموتُ وُجودُ الأجنبى بالنَّقْلَةِ إلى وطنه ، ويموتُ وجودُ العزَبِ بالانتقال إلى ربه ؛ فيستويان جميعا فى انقطاع الأثر الوطنىِّ ، ويتفقان جميعا فى انتهابِ الحياة الوطنية ؛ وأن كليهما خرجَ من الوطن أبْتَرَ لا عَقِبَ له ، ويذهبان معا فى لُجج النسيان : أحدُهما على باخرة ، والآخر على النعش !

* * *

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة الدقةُ البالغةُ فى الرقْم والخطّ والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذرُ البالغ أن يختلّ شىء أو ينحرفَ ، أو يتقاصرَ أو يطولَ ، أو يزيدَ أو ينقصَ ، أو يَدْخلَه السَّهو ، أو يقعَ فيه الخطأ ؛ إذا كان الحاضرُ فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة ، وكان الخيالُ للحقيقة ؛ وكان الخَرْقُ هنا لايقبلُ الرُّقْعة . ومتى فَصَلَتِ الأرقامُ الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرحُ والضربُ والقسمة ، ورجع الحسابُ حينئذ وهو حسابُ عقلِ المهندس ؛ فإما عقلٌ دقيق منتِظم ، أوعقل مأفونٌ مختلّ .

بَيْد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد خَلَتْ حياتُه من الهندسة . . وانتهى فيها من التحريف المضْحِك — حتى فيما لا يخطئ الصغارُ فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة: « إياكَ نعبدُ وإياك نستعين» فقد رَوَوا أن إمام قرية من القُرى فى الزمن القديم كان يخطب أهلَ قريته ويصلى فى مسجدها ، فنزل به ضيفٌ من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائلَ فى الدين لم يتوجَّه لى وجهُ الحق فيها ، ولاأزال متحيِّر الرأى ، وكنتُ من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمةَ ، فأريد أن أسألك عنها .قال العالم: سَلْ ما أحببت .

قال الخطيب : أشْكَلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياكَ نعبد وإياك» . . . أى شىء بعده. « تِسْعين أوسَبعين » . . ؟ أشْكلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها : تِسعين . أخذاً بالاحتياط . . . !

كذلك مهندسُنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عَزَبٌ أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تُكلِّفنى الزواجَ وتُكرِهنى عليه ، وتُعَنِّفنى على العُزوبة وتَعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكنَ وخذ المستحيل ؛ إن استحالةَ الزواج هى التى جعلتْنى عَزَبًا ، والعزوبةُ هى التى جعلتنى فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب، إما أن تكسدَ الفتاة، وإما أن تتصلَ بها العَدْوَى. والعزَبُ لايأبى أن يُقالَ فيه إنه للنساء طاعونٌ أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موتٌ أسود وبلاء أزرق :

قلت : لقد هوَّلتَ عليّ ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولِمَ استحالَ عليك ما أمكن غيرَك ، وكيف بلغت مصر خمسةَ عشر مليونًا ؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا ، أم زُرِعوا زرعا فى أرض الحكومة ؟ اسمع — ويحك — ألاَ يكونُ الرجالُ قد أقبلوا وتراجَعْت ، وتجلَّدوا وتوجَّعْت ، أو أقْدَموا وخَنَسْت ، واستَرجلوا وتأنَّثْت ؟

قال : ليس شىء من هذا .

قلت : فإن المسألة هى كيف ترىَ الفكرة ، لا الفكرةُ نفسُها ، فما حَمَلك على العزوبة وأنت موظف وظيفتُك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يَصْدُق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عَمَدَ إلى حَجر لانفلَقَ له عن رزق .

قال : أليس مستحيلاً ثُمّ مستحيلاً أن يجمعَ مثلِى يدَه على مائة جنيه يدفعها مهراً ؛ وما طرقتُ — علم الله — باباً إلا استقبلونى بما معناه : هل أنت معجزة مالية ؟ هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فإن عملك فى الحكومة يُغِلّ عليك فى السنة مائة وثمانين ديناراً فلم لاتعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لايستطيع الرجلُ العزَب أن يدَّخر أبداً ؛ فهو فى كل شىء مبدَّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتُك على نفسك بالسَّفَه والخُرْق والتبذير ؛ تُنفق ما يكفى عدداً وتضيقُ بواحدة ، وماذا يَرْتَئى مثلُكَ فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبَّدَ فيبقى عزَبًا فهو ينُفق ما جمع فى شهوات حياته ، ويتوسَّع فيها ضروبًا وألوانًا ليكونَ وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة ، كل منهم فى موضع رذيلة أومكانِ لهو ؛ وكأن منه رجالاً هو كاسِبُهم وعائلهم ، يُنفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى الملاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى ...؟ إن كان هذا هو أصلَ الرأى عند العزَب ، فالعزَبُ سفيه مجرم ، وهو إنسانٌ خَرِبٌ من كل جهة إنسانية ، وهو فى الحقيقة ليس المتَّسِعَ لنفَقات خمسة ، بل كأنه قاتلُ من أبناء وطنه ؛ إذ كان بهذا مُطِيقًا أن يكونَ أبًا ينفق على أبنائه ، لاسفيهًا يُنفق على شياطينه .

فإن كان قد بنى رأيه على أن يتعزَّب مدةً ثم يتأهل ، فهذا أحرى أن يعينَه

على حسن التدبير ، وهو مَضْراةٌ له على شهوة الجمع والادّخار ؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يَكْدَحُ لعيالِه وهو فى سَعَة منهم بعدُ ، وهم لا يزالون فى صُلْبه على الحال التى لا يسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهِمماً وعزائم يَرِثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا .

إنما العزَبُ أحدُ رجلين : رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائلِ الإنسانية ، قاعدته : جُرَّ الحبلَ ما انجرَّ لك . وهذا داعرٌ فاسقٌ ، مبذِّر متلافٌ إن كان من المَيَاسير ، أو مُرِيبٌ دنىء حقيرُ النفسِ إن كان من غيرهم . . . ورجلٍ غيرِ ذلك ، فهو فى وثاقِ الضرورة إلى أن تُطْلِقَه الأسباب ، ومن ثَمَّ فهو يعمل أبداً للأسباب التى تُطْلِقه ، ويعرف أنه وإن لم يكن آهِلاً فلا تزال ذمتُه فى حق زوجةٍ سيَعُولُها ، وفى حقوقِ أطفال يأبُوهُم ، وواجبات وطن يخدمه بإنشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده ، والقيامِ على سياستها ، والنهوضِ بأعبائها . فانظر ويحكَ أىُّ الرجلين أنت ؟

قال : فتريدنى أن أقامرَ بتعب سنةٍ وأنا بعد ذلك ما يُقْدَرُ لى ، قد أشترى بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كلهِ ؟

قلت : فهذه هى خِسَّةُ الفرديَّة ، ودناءتُها الوحشيةُ فى جِنايتها على أهلها ، وسوء أثرِها فى طباعهم وعزائمهم ؛ فهى فرديَّةٌ تضرب فيهم العاطفة الاجتماعية ضرْبَ التَّلَف[1] ، وتبتليهم بالخوف من التَّبِعات حتى ليَتوهَّم أحدُهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة ، ولكن على معركة . وهى تُصيبهم بالقسوة والغِلْظة ؛ فما دام الواحدُ منهم واحداً لنفسه ، فهو فى تصريف حُكم الأثَرة ، وفى قانون الفِتنة بأهواء النفس ومنافعِها ؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كلُّه مَعِدَة ، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير .

قال : ولكن الزواج عندنا حظٌّ مخبوء « لوتريَّة » والنساء كأوراق السحب ، منهن ورقةٌ هى التوفيقُ والغنى بين آلاف هُنَّ الفقر والخيبَة المحقَّقة .

قلت : هل اعتدتَ أن تتكلم وأنت نائم ؟ فلعلك الآن فى نَومة عقل ، أوْ لاَ فأنت الآن فى غَفلة عقل .

---

(١) يقال ضربه ضرب التلف ، أى الضرب الذى يقتله ويتلفه .

إن هذا المسكينَ الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لايخلو منها ؛ يعلم علماً أكثرَ من اليقين أن عيشَه هو من مسح الأحذية لامن الأخيِلة التى فى هذه الأوراق ؛ فهو لايعتدُّ بها فى كبير أمر ولا صغيره ، وما يُنْزِلُها فى حساب رغيفِه وثوبه إلا يومَ يُخالِطُ فى عقله فيتنزّه أن يمسحَ أحذيةَ الناس ، ويرى أن عظيماً مثله لايمسح إلا أحذيةَ الملائكة . . .

أنت يا هذا مهندس ، ولك بعضُ الشأن وبعضُ المنزلة ، فهَبْكَ ارتأيتَ أنه لايَحسن بك أولا يَحْسُنُ لك إلا أن تتزوجَ بنتَ ملك من الملوك ، فهذه وحدها هى عندك « النمرة الرابحة » ، وسائر النساء فقر وخيبةٌ ، ما دام الأمرُ أمر رأيك وهواك ؛ غيرَ أنك إذا عَرضْتَ لتلك « النمرة الرابحة » لم تعرفك هى إلا صُعلوكًا فى الصعاليك ، وأحمقَ بين الحمقى .

إن تلك الأوراق تُصْنَعُ صنعتَها على أن تكونَ جملتُها خاسرةً إلا عدداً قليلاً منها ؛ فإذا تعاطيتَ شراءها فأنت على هذا الأصلِ تأخذها ، وبهذا الشرط تَبذلُ فيها ؛ وما تَمْتَرِى أنت ولاغيرُك أن القاعدة ههنا هى الخيبة ، وشُذوذَها هو الربح ؛ وليس فى الاحتمال غيرُ ذلك ؛ ومن ثَمّ فقد بَرِئَ إليك الحظُّ إن لم يُصبك شىء منه ؛ وأين هذا وأين النساء ، وما منهن واحدةٌ إلاوفيها منفعة تكثُرُ أو تقِلّ ، بل الرجالُ للنساء هم أوراقُ السَّحب فى اعتبارات كثيرة ، ما دامت طبيعة اتصالهما تجعلُ المرأةَ هى فى قوانين الرجل أكثَرَ مما تجعل الرجلَ فى قوانينها ، وهل ضاعت امرأة إلا من غَفلة رجل أو قسوتِه أو فُسولته أوفُجوره ؟

قال المهندس : فإنى أعلم الآن — وكنت أعلم — أن لاصلاحَ لى إلا بالزواج ، وأن طريقى إلى الزوجة هو كذلك طريقى إلى فضيلتى وإلى عقلى . وتالله ما شىءٌ أسوأ عند العزَب ولا أكره إليه من بقائه عزَبًا ؛ غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقَرَتْ إليه نفسُه ، وكلما رأى أن له حالاً ينفردُ بها فى سخط الله وسخط الإنسانية . ولامَكْذِبةَ ، فقد والله أنفقتُ فى رذائلى مايجتمع منه مهرُ زوجة سَرِية تَشْتَطُّ فى المهر وتَغلو فى الطلَب ؛ ولكن كيف بى الآن وماجبرنى من قبلُ إصلاحٌ ، ولاأعانني اقتصاد ، ومن لى بفتاة من طبقتى بمَهر لا أتحمل

منه رَهَقًا ، ولاتتقاصَرُ معه أمورى ، ولاتختلُّ معيشتى ؟

قلت : فإذا لم يحملك الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية ؛ فإنه يحملك إلى قليوب أو طوخ . وفى النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقليوب ، وطوخ ؛ وما قَرُب وبَعُد ، وما رَخُص وغلا .

قال : ولكنْ بلدى الإسكندرية . . .

قلت : ولكنك لاتملكُ إلا حماراً . . . وللمرأة من كل طبَقةٍ سِعْرُها فى هذا الاجتماع الفاسد ؛ ولو تعَاوَنَ الناسُ وصلُحوا وأدركوا الحقيقةَ كما هى ، لَمَا رأينا الزواجَ من فقر المُهور كأنما يَركبُ سُلَحْفاةً يمشى بها . . . ونحن فى عصر القِطار والطيارة ، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار والجمل — كأنه وحدَه من السرعة فى طيارة أو قِطار .

* * *

حين يَفْسُدُ الناسُ لايكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال ، إذ تنزل قيمتُهم الإنسانية ويبقى المال وحدَه هو الصالح الذى لاتتغير قيمتُه. فإذا صلحُوا كان الاعتبارُ فيهم بأخلاقهم ونفوسهم ، إذ تنحط قيمةُ المال فى الاعتبار ، فلايغلبُ على الأخلاق ولايسخرها . وإلى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لطالب الزواج : « التمسْ ولو خاتَمًا من حديد »[1] . يريد بذلك نفى الماديَّةِ عن الزواج ، وإحياء الروحيَّة فيه ، وإقرارَه فى معانيه الاجتماعية الدقيقة ، وكأنما يقول : إن كفايةَ الرجل فى أشياء إن يكنْ منها المالُ فهو أقلُّها وآخرها . حتى إن الأخسَّ الأقلَّ فيه ليُجْزِئ منه كخاتَم الحديد؛ إذ الرجلُ هو الرجولةُ بعظَمتها وجلالها وقوّتها وطباعِها ، ولن يُجزِئ منه الأقلُّ ولا الأخس مع المال ، وإن ملء الأرض ذهبًا لايُكَمل للمرأة رجلاً ناقصًا ؛ وهل تُتِمُّ الأسنانُ الذهبيةُ اللامعةُ ؛ يَحملُها الهَرِم فى فمه ؛ شيئًا مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنَع قواطعُ الذهب الخالص وطواحنُه لهذا المسكين بعد أن نطق تحَاتُّ أسنانِه العظْميَّة وتناثُرُها أنه رجلٌ حَلَّ البِلى فى عظامه . . . ؟

---

(١) انظر «قصة زواج ، وفلسفة المهر» .

رؤيا فى السماء

قال أبو خالد الأحولُ الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخِنا أبى ربيعةَ الفقيهِ الصوفىّ ، ذهبْتُ مع جماعة من الناس فشَهِدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُوِّىَ عليها ، قام شيخُنا على قبرها وقال : يرحمكِ الله يافلانة ؟! الآن قد شُفِيتِ أنت ومَرِضتُ أنا ، وعُوفِيتِ وابتُلِيتُ ، وتركتِنى ذاكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بكِ معنى ، فستكونُ بعدكِ بلا معنى ؛ وكانت حياتُكِ لى نصفَ القوّة ، فعاد موتُكِ لى نصفَ الضَّعف ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتِكِ هموماً فى صُوَرِها المخفَّفة ، فستأتينى بعد اليومِ فى صُوَرِها المضاعَفة ؟ وكان وجودُكِ معى حجاباً بينى وبين مَشقَّات كثيرة ، فستخلُصُ كلُّ هذه المَشَاقّ إلى نفسى ؛ وكانت الأيام تمرُّ أكثرَ ماتمرُّ رقّتَك وحَنانَك ، فستأتينى أكثرَ ماتأتى مُتَجرِّدَةً فى قَسوتها وغِلْظتها . أمَا إنى —والله— لم أرْزَأْ منكِ فى امرأة كالنساء ، ولكنى رُزِئْتُ فى المخلوقةِ الكريمة التى أحسسْتُ معها أن الخليقةَ كانت تتلطَّف بى من أجْلها !

قال أبو خالد : ثم استَدْمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزّى الناسُ بعضُهم بعضاً ، وأحفظَ لما وَرَدَ فى ذلك؛ غيرَ أن للكلام ساعات تَبطُلُ فيها معانيه أو تَضْعُف ، إذ تكونُ النفسُ مُسْتَغْرِقةَ الهمِ فى معنى واحدٍ قد انحصرتْ فيه ، إما من هَوْل الموت ، أوحب وقع فيهِ من الهَوْل ظلُّ الموت ، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحب ، أو لَجاجة وقع فيها ظلُّ الرغبة . فكنتُ أحدّثه وأعزّيه ، وهو بعيدٌ من حديثى وتعزيتى ؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلْنا وما فيها أحد ؛ فنظَرَ يمْنَةً ويَسْرةً ، وقلَّبَ عينيه ههنا وههنا ، وحَوْقَلَ واسْتَرْجَع ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضاً يا أبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة التى تتحرّكُ فى داخله ؛ وما دام هو الذى يحفظُها للرجل ، فهو فى عين الرجل كالمُطْرَف[1] تلبسُه فوق ثيابها من فَوقِ جسمِها :

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها ، وهو المسمى (الروب) .

وانظرْ كم بين أن تَرى عيناكَ ثوبَ امرأة في يد الدلال في السوق ، وبين أن تراه عيناك يَلْبسُها وتَلبسه ! ولكنك ياأبا خالد لاتفقهُ من هذا شيئًا ، فأنت رجلٌ آليْتَ لاتقْرَبُ النساء ولايقْرَبْنك ، ونجوتَ بنفسك منهن وانقطعتَ بها لله ؛ وكأن كلّ نساء الأرض قد شاركْنَ في ولادتك فحرُمْنَ عليك! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظًا ، كما لاتفهمُ أنت ما أجدُ الساعةَ إلا ألفاظًا ؛ وشتّانَ بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلّف .

فقلتُ له: يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطّرَحْتَ أثقالكَ وانبتّتْ أسبابُك من النساء — أن تعيشَ خفيفَ الظهر ، وتفرُغَ للنُّسْك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسماء انقشعَ غيمُها فسطَعتْ فيها الشمس ؛ فإنه يقالُ : إن المرأة ولو كانت صالحةً قانِتةً — فهي في منزل الرجل العابد مَدْخلُ الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابدَ كان يسكن في حَسَناته لا في دارٍ من الطوب والحجارة لكانت امرأتُه كوّةً يقتحم الشيطانُ منها . ولقد كان آدمُ في الجنة ، وبينها وبين الأرض سمواتٌ وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلّق رُوحُ الأرض بالشيطان ، فيتعلقَ الشيطانُ بحوّاء ، وتتعلّقَ هي بآدم ؛ ومكَر الشيطانُ فصوّرها لهما في صِيغة مسألة علمية ، ومَكَرَتْ حوّاء فوضَعتْ فيها جاذبيّةَ اللحم والدم ، فلم تعد مسألةَ علم ومعرفة ، بل مسألةَ طبع ولَجاجة . فأكَلا منها فبَدَتْ لهما سَوْءاتهمَا .

وهل اجتمع الرجلُ والمرأةُ من بعدها على الأرض إلا كانا من نَصَب الحياة وهمومها ، وشهواتها ومطامعها ، ومَضَارّها ومعايِبها — في معنَى « بَدَتْ لهما سَوءاتُهُمَا » . . . ؟

كِلانا يا أبا ربيعةَ ممنْ لهم سَيْرٌ بالباطن في هذا الوجود غيرُ السيرِ بالظّاهر ، وممن لهم حركةٌ بالفكر غيرُ الحركة بالجسم ، فقبيحٌ بنا أن نتعلّق أدنى مُتَعلَّق بنواميسِ هذا الكونِ اللّحْميّ الذي يُسمَّى المرأةَ ، فهو تَدلٍّ وإسفافٌ منا .

ولعلك تقول : « النَّسْل وتكثيرُ الآدميّة » فهذا إنما كُتِب على إنسانِ الجوارح والأعضاء ، أما إنسانُ القلبِ فله معناه وحُكمُ معناه ؛ إذ يعيشُ بباطنه ، فيعيشُ ظاهرُه في قوانين هذا الباطن ، لا في قوانين ظاهرِ الناس . وإنه لشرٌّ

كل ما نَقَلَكَ إلى طبع أهلِ الجوارح وشَهواتِهم ، فزَيَّنَ لك ما يزَيِّن لهم ، وشغَلَك بما يَشْغَلُهم ؛ فهذا عندنا — يرحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب المجُون الذى ينقُلُ الرجلَ إلى طَبْع الصَّبيِّ .

فاطْمِسْ يا أخى على موضعها من قلبك، وألْقِ النورَ على ظِلها ؛ فالنورُ فى قلب العابد نُورُ التحويل إن شاء، ونورُ الرؤية إن شاء ؛ يرى به المادّةَ كما يريد أن تكونَ لا كما تكون . وأنت قد كانت فيك امرأة، فحَوِّلْها صلاةً، واعملْ بنورك عكسَ ما يعمَلُ أهلُ الجوارح بظلامهم، فقد تكونُ فى أحدهم الصلاةُ فيُحولُها امرأة . . .

قال أبو ربيعة : تالله إنه لرأىٌ ؛ والوَحْدةُ بعد الآن أرْوَحُ لقلبى ، وأجْمعُ لهمى ؛ وقد خلعَنى اللهُ مما كنتُ فيه ، وأخذ القبرُ امرأتى وشَهواتى معًا ، فسأعيشُ ما بقِىَ لى فيما بقِى منى . وزوالُ شيء فى النفس هو وجودُ شيء آخر . ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيامِها إلى القبر ، فالبَدْء الآن من القبر ومعانيه وأيامِه .

* * *

وتَواثَقَا على أن يسيرا معًا فى (باطنِ) الوجود . . . ! وأن يعيشا فى عُمر هو ساعةٌ معدودةُ اللّحَظات ، وحياة هى فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرة .

قال أبو خالد : ورأيتُ أن أبيتَ عنده وفاء بحقّ خدمته ، ودَفعًا للوحشةِ أن تُعاودَه فتَدخلَ على نفسه بأفكارها ووَساوِسها . وكان قد غَمَرَنا تعبُ يومِنا ، وأعْيا أبو ربيعة ، وخذلَتْه القوة؛ فلما صلَّينا العِشاء قلت : يا أبا ربيعة ، أحبُّ لك أن تَنْعَسَ فتُريحَ نفسك ليذهبَ ما بك ، فإذا اسْتَجْمَمْتَ أيقظتُك فقمنا سائرَ الليل .

فما هو إلا أن اضطجع حتى غَلَبه النُّعاس . وجلستُ أفكر فى حاله وما كان عليه وما اجتهدتُ له من الرأى ؛ وقلتُ فى نفسى : لعلّنى أغريتُه بما لاقِبَل له به ، وأشرْتُ عليه بغير ما كان يَحسنُ بمثله ، فأكون قد غششتُه . وخامرَنى الشكّ فى حالى أنا أيضًا ، وجعلتُ أقابلُ بين الرجلِ متزوّجا عابداً ، وبين الرجلِ عابداً لم يتزوج ؛ وأنظرُ فى ارتياضِ أحدهما بنفسه وأهلِه وعيالِه ، وارتياضِ

الآخر بنفسه وحدها ؛ وأخذتُ أذهبُ وأجيء من فكر إلى فكر ، وقد هدأ كلُّ شيء حولى كأن المكانَ قد نام، فلم ألبثْ حتى أخذتنى عينى فنمتُ واستثقلتُ كأنما شُدِدْتُ شداً بحبال من النوم لم يجىء من يقطعها .

ورأيتُ فى نومى كأنها القيامةُ وقد بُعثَ الناس ، وضاق بهم المحشر ، وأنا فى جملة الخلائق، وكأننا من الضغطة حَبٌّ مبثوثٌ بين حجرَىْ الرّحى . هذا والموقفُ يغلى بنا غليان القدْر بما فيها ، وقد اشتدَّ الكربُ وجهدَنا العطش ، حتى ما منّا ذو كبد إلا وكأن الجحيمَ تتنفّس على كبده ، فما هو العطشُ بل هو السُّعارُ واللّهب يحتدِمُ بهما الجوفُ ويتأجّج .

فنحن كذلك إذا ولدانٌ يتخللونَ الجمعَ الحاشد، عليهم مناديلُ من نور ، وبأيديهم أباريقُ من فضة وأكوابٌ من ذهب، يملئون هذه من هذه بسلسال برود عذْب ، رُؤْيته عطشٌ مع العطش ، حتى ليتلوّى مَنْ رآه من الألم ، ويتلعلعُ كأنما كُوِىَ به على أحشائه .

وجعل الولدانُ يسقون الواحد بعد الواحد ويتجاوزون مَنْ بينهما ، وهم كثرةٌ من الناس ؛ وكأنما يتخللون الجمعَ فى البحث عن أناس بأعيانهم ، ينضحون غليل أكبادهم بما فى تلك الأباريق من روْح الجنة ومائها ونسيمها .

ومرَّ بى أحدهم ، فمددتُ إليه يدى وقلت : « اسقِنى فقد يبستُ واحترقتُ من العطش ! »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحول الزاهد . . »

قال : « ألكَ فى أطفال المسلمين ولدٌ افترطتهُ صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألكَ ولدٌ كبر فى طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ نالتكَ منه دعوةٌ صالحة جزاء حقّك عليه فى إخراجه إلى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبتَ فى تقويمه ، وقُمْتَ بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمكَ الله، إنى كلما قلتُ " لا " أحسستُ " لا " هذه تمرُّ على لسانى كالمِكْواةِ الحامية . . . »

قال : « فنحن لانسقى إلا آباءنا ؛ تَعِبوا لنا فى الدنيا، فاليومَ نتعبُ لهم فى الآخرة ، وقدَّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم فى هذا الموقف الذى قامت فيه محكمةُ الحسَنَةِ والسيئة . وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشَدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال ، فما للطفل معنى من معانى آثامِكم يَحتبِسُ فيه لسانُه أويَلْجلِجُ به » .

قال أبو خالد : فجُنَّ جنونى ، وجعلتُ أبحثُ فى نفسى عن لفظةِ « ابن » فكأنما مُسِحَت الكلمةُ من حِفظى كما مُسِحتْ من وجودى ؛وذكرتُ صَلاتى وصيامى وعبادتى ، فما خطرتْ فى قلبى حتى ضحك الوليدُ ضَحِكًا وجدتُ فى معناه بكائى ونَدَمى وخَيبتى .

وقال : ياويلَك ! أما سمعتَ : « إن من الذنوب ذنوبًا لاتكَفرها الصلاةُ ولا الصيامُ ، ويُكَفرها الغمُّ بالعِيال » . أتعرفُ من أنا يا أبا خالد؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابنُ ذاك الرجل الفقير المُعِيل، الذى قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد : « طُوبى لك ! فقد تفرَّغتَ للعبادة بالعزوبة» . فقال له إبراهيم : « لَرَوْعةٌ تنالُكَ بسبب العِيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه . . » ، وقد جاهدَ أبى جِهادَ قلبه وعقلِه وبدنِه ، وحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهلِ والولدِ حَمْلَهَا الإنسانى العظيم ، وفكَّر لغير نفسه ، واغتمَّ لغير نفسه ، وعمِلَ لغير نفسه ، وآمن وصَبِر ، ووثِقَ بوِلاية الله حين تزَوَّجَ فقيراً ، وبِضَمانِ الله حين أعقَب فقيراً ؛ فهو مُجاهِد فى سُبُل كثيرة لا فى سبيل واحدة كما يُجاهد الغزاة ؛ هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، أما هو فيستشهد كل يوم مرة فى همومه بنا ، واليومَ يرحمه الله بفضلِ رحمته إيانا فى الدنيا .

أمَا بَلَغَكَ قولُ ابن المبارَك وهو مع إخوانه فى الغَزْو : « أتعلمون عملاً

أفضلَ مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نَعْلَمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل مُتَعَفِّفٌ على فقره ، ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر إلى صبيانه نياماً مُتَكَشِّفِين ، فستَرهم وغطّاهم بثوبه ؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مما نحن فيه . . . »

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبَه على صِبْيته لِيُدْفِئَهُم به ويتلقّى بجلد البردَ في الليل ، إن هذا البرد — يا أبا خالد — تحفظه له الجنة هنا في حَرّ هذا الموقف كأنها مُؤتَمَنَةٌ عليه إلى أن تُؤدِّيَه . وإن ذلك الدفء الذى شمل أولادَه يا أبا خالد — هو هنا يقاتل جهنم ويدفعُها عن هذا الأب المسكين .

قال أبو خالد : ويَهُمُّ الوليدُ أن يمضيَ ويدَعَني ، فما أملكُ نفسي ، فأمدُّ يدي إلى الإبريق فأنْشِطُهُ من يده ، فإذا هو يتحوّل إلى عظْم ضَخْم قد نَشِب في كَفّي وما يليها من أسَلَةِ الذراع[١] . فغابتْ فيه أصابعي ، فلا أصابعَ لي ولا كَفَّ . وأبي الإبريقُ أن يسقيَني وصار مُثْلَةً بي ، وتجسَّدتْ هذه الجريمةُ لتشهَدَ عليّ ، فأخذني الهولُ والفزَع ، وجاء إبريقٌ من الهواء ، فوقع في يد الوليد ، فتركني ومضى .

وقلت لنفسي : ويحكَ يا أبا خالد ! ما أراكَ إلا مُحَاسِبًا على حسناتك كما يُحَاسَب المذنبون على سيئاتهم ، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله !

وبلغَتْني الصَّيحةُ الرهيبة : أين أبو خالد الأحولُ الزاهدُ العابد ؟

قلت : هأنذا .

قيل : طَاوُوسٌ من طواويس الجنة قد حُص[٢] ذَيْلُه فضاع أحسنُ ما فيه! أين ذَيْلُكَ من أولادك ، وأين محاسنُك فيهم ؟ أخُلِقتْ لك المرأةُ لتتجنَّبها ، وجعلْتَ نَسْلَ أبويك لتتبرّأ أأنت من النسل ؟

جئتَ من الحياة بأشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعتَ للحياة نفسها إلا أن هربتَ منها ، وانهزمتَ عن ملاقاتها ؛ ثم تأمُلُ جائزةَ النصر على هَزيمة . . . !

---

(١) الأسلة : ما يلى الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها . فالأسلة هى العظمة التى تشد عليها ساعة اليد .

(٢) حص ذيله : قطع وجذ .

عَمِلَتِ الفضيلةُ فى نفسك ونشأتِك ، ولكنها عَقِمَتْ فلم تعملْ بك . لك ألفُ ألفِ ركعة ومثلُها سَجدَاتٌ من النوافل ، ولَخَيْرٌ منها كلِّها أن تكون قد خرجتْ من صُلبك أعضاءٌ تركع وتسجد .

قتلتَ رجولتَك ، ووَأدْتَ فيها النَّسل ، ولبثتَ طِوالَ عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبةَ الأب ! فلئن أقمتَ الشريعة ، لقد عطَّلتَ الحقيقة ، ولئنْ . . .

قال أبوخالد : ووقعتْ غُنَّةُ النونِ الثانية فى مِسْمَعِىّ من هول ما خفتُ مما بعدها كالنَّفخ فى الصُّور ؛ فطار نومى وقمتُ فَزِعًا مشتَّتَ القلب ، كمن فتح عينيه بعد غَشْية ، فرأى نفسَه فى كفَنٍ فى قبر سُدَّ عليه . . . !

وما كدْتُ أعِي وأنظر حولى وقد بَرَقَ الصبحُ فى الدار حتى رأيتُ أبا ربيعة يتقلَّب كأنما دَحْرجتْهُ يد ، ثم نهض مُسْتطارَ القلب من فزَعِه وقال أهلكتَنى يا أبا خالد ، أهلكتَنى والله .

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله !

قال : إنى نمتُ على تلك النية التى عرفتَ أن أجمع قلبى للعبادة ، وأخلُصَ من المرأة والولد ، ومن المعاناة لهما فى مَرَمَّةِ المعاش والتَّلفيقِ بين رغيف ورغيف ، وأن أُعْفِيَ نفسى من لأوائهم وضَرَّائهم وبَلائهم ، لأفرغَ إلى الله وأقبِلَ عليه وحده . وسألتُ الله أن يَخِيرَ لى فى نومى ؛ فرأيتُ كأن أبوابَ السماء قد فُتحتْ ، وكأن رجالا ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبعُ بعضُهم بعضًا ، أجنحةً وراء أجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر إلىّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وينظر هذا الآخرُ إلىّ ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

ومازالت « المشئوم ، المشئوم » حتى مرُّوا ؛ لا يقولون غيرَها ولا أسمع غيرَها ، وأنا فى ذلك أخاف أن أسألهم ، هيبة من الشؤم ، ورجاء أن يكون المشئوم إنسانًا ورائى يبصرونه ولا أبصره . ثم مرَّ بى آخرهم ، وكان غلامًا . فقلت له : يا هذا ، من هو المشئوم الذى تُومِئون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولِمَ ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملَك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتحزّنْتَ على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعْنا عملك درجةً أخرى ؛ ثم أُمِرْنا الليلةَ أن نضع عملَك مع الخالفِين الذين فرّوا وجَبُنوا ! . . .

* * *

إن سُموَّ الرجُلِ بنَفْسِهِ عن الزَّوْجَةِ والولَدِ طَيَرانٌ إلى الأعلَى . .
ولكنَّه طَيَرانٌ على أجْنِحَةِ الشَّيَاطِين !
طَيَرانٌ بالرجُلِ إلى فُوَّهَةِ البُرْكانِ الَّذِى فى الأعلى . . !

* * *

بنته الصغيرة

١

فرغ أبو يحيى مالكُ بن دينار ، زاهدُ البَصْرة وعالمُها ، من كتابة المُصْحَف ؛ وكان يكتبُ المصاحفَ للناس ، ويعيش مما يأخذ من أجرة كتابته ؛ تعفُّفاً أن يَطْعَم إلا من كَسْب يده — ثم خرَج من دارِه وَجْهُهُ المسجدُ ، فأتاه فصلى بالناس صلاةَ العصر ، وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع وسجَد ما شاء اللهُ حتى قضى نافلَتَه ، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى أُسْطُوانته[1] التي يستند إليها ، وتَحَلَّقَ الناسُ حوله جُموعاً خلْف جموع خلفَ جموع ، يذهبُ فيهم البصرُ مرةً هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادِهم ، حتى تغطَّى بهم المسجد على رُحْبِه . ومدَّ الإمامُ عينَه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة ، والناسُ كأن عليهم الطيرَ مما سكنوا لهيبته ، ومما عَجِبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخُ رأسَه وقد تَنَدَّتْ عيناه ، فما نَظَر إليهم حتى كأنما اطَّلعَ على أرواحهم فجرٌ رَطْبٌ من سِحْر ذلك الندى .

وبَدَرَ شاب حَدَثٌ فسأله : ما بكاء الشيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام فى سَمْتِ بصرِه[2] ، فتأمَّله الشيخُ طويلاً يقلب فيه الطرْفَ كالمتعجب ، ولَبِثَ لا يجيبه كأنما عَقَدَ لسانهُ أو أخذته من نفسه حالٌ ، فما يُثْبِتُ شيئاً مما يرى .

وازداد الناسُ عجباً ؛ فما جرَّبوا على الشيخ من قبلها حَصَراً ولا عيًّا ، ولا قَطَعَه سؤالٌ قَطّ ، ولا تخلَّف عن جواب ؛ وقالوا إن له لشأناً ، وما بُدٌّ أن تكونَ من وراء حُبْسَتِه شعاب فى نفسه تَهَدْ ربسَيْلها وتعتلج ؛ فما أسرعَ ما يلتقى السيلُ ، فيجتمع ، فيُصَوَّبُ إلى مجراه ، فيتَقَاذَف .

وتبسم الإمام وقال : أمَا إنى قد ذكرتُ ذِكرَى فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا

---

(١) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد ، وهى أعمدته ، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب .

(٢) أى أمامه فى الخط الذى يمتد فيه البصر .

فتبسَّمتُ لها ؛ أما الذكرى ، فهل تعلمون أن هذا المسجدَ الذى يَفْهَقُ بهذا الحَشْدِ العظيم ، وتقع فيه المدينةُ لكل أذان وتطير — هل تعلمون أنه خلا قَطّ من الناس وقد وَجَبَت الفَريضة ؟ قالوا : ما نَعْلمه .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَتْ فى مَوْت الحسن[1] ، فقد مات عَشِيَّةَ الخميس ، وأصبحنا يومَ الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبعَ أهلُ البصرة كلُّهم جنازتَه واشتغلوا به ، فلم تُقَم صلاةُ العصر بهذا المسجد ، وما تركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذ ؛ ومثل الحسَن لاتموت ساعةُ موته من عُمْرِ مَن شَهِدَها ، فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهارُه البصرَة كلَّها فى كَفَن أبيض ، فما بقيتْ فى نفس رجل ولا امرأة شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كلٌّ إنسان من باطلة ، كما يَفرغ مَن أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلاساعة ؛ وظهر لهم الموتُ فى حقيقة جديدة بالغةِ الرَّوْع لايراها الأبناء فى موت آبائهم وأمهاتِهم ، ولا الآباء والأمهاتُ فى موت مَن ولَدوا ، ولاالمحبُّ فى موت حبيبه ، ولا الحميمُ فى موت حميمه ؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذى ليس غيرُه فى الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكونُ الموتُ واحداً وتتعدّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة !

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكَبر ، وانكمشت فيه الحياةُ وصغُرتْ ، وتحاقَرَت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التى يُلقَى فيها الملوكُ والصعاليك والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لايَصغُر عنها الصغير ، ولا يكبرُ عنها الكبير ؛ لابل دون ذلك ، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعَراء ، تنكشف للأبصار عن شَوْهَاء نَجسة قد أرَمَّت[2] لاتُطاق على النظر ، ولا على الشمّ ، ولا على اللمس ؛ وما تتفجَّر إلا عن آفة ، وما تتفجَّر إلا لهوامّ الأرض .

تلك هى الذكرى ، وأما الرؤيا فقد طالعتْنى نفسى من وجه هذا الفتى ، فأبصرتُنى حين كنتُ مثلَه يافعاً مُترَعْرِعاً داخلاً فى عصر شبابى ، فكأنما

---

(١) هو الحسن البصرى الإمام العظيم ، وسيأتى وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١١٠ ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠ .

(٢) أرمت : بدأت تتعفن وتبلى .

انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتك خبيث كان فى جناياته فى أغلاله فى سجنه، ومات طويلاً ثم بُعِثَ !

إنى مُخْبِركم عنى بما لم تُحيطوا به، فأرْعُوه أسماعَكم، وأحْضِروه أفهامَكم، واستجمعوا له، فإنه كان غَيْبَ شيخكم، وأنا محدِّثُكم به كيلا ييأس ضعيف، ولا يقنَطُ يائس، فإن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين.

* * *

لقد كنتُ فى صدْر أيامى شُرْطيًّا، وكنت فى آنِفَةِ الحَداثةِ مِن قبلها أتَفَتَّى وأتَشَطَّرُ، وكنت قويًّا معصوباً فى مثل جِبْلةِ الجَبل من غِلَظٍ وشدّة، وكنت قاسياً كأن فى أضلاعى جَنْدلةً لا قلبا، فلا أتندمّ ولا أتأثم؛ وكنت مُدمِناً على الخمر، لأنها رُوحانيّةٌ من عَجزَ أن تكونَ فيه روحانية، وكأنها إلهيّةٌ يُزَوِّرها الشيطانُ — لعنه الله — فيَخْلُق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويثيبها ثواب ساعة ليست فى الزمن بل فى خيالِ شاربها. وكأن جَهْلَ العقل نَفْسَه فى بعض ساعات الحياة، هو — فى عِلْم الشيطان وتعليمه — معرفةُ العقل نَفْسَه فى الحياة !

فبينا أنا ذاتَ يوم أجولُ فى السوق، والناسُ يَفُورون فى بيعهم وشرائهم، وأنا أرقُبُ السارق، وأعِدّ للجانى، وأتهيأ للنزاع — إذ رأيتُ اثنين يتَلاحَيان، وقد لبَّبَ أحدُهما الآخر؛ فأخذتُ إليهما، فسمعتُ المظلوم يقول للظالم: لقد سَلَبْتَنى فَرَحَ بُنَيَّاتى، فسيدْعونَ الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيراً، فإنى ما خرجتُ إلا اتباعا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «خرج إلى سُوق من أسواق المسلمين، فاشترى شيئاً، فحمله إلى بيته، فخَصَّ به الإناثَ دون الذكور؛ نَظَرَ الله إليه».

قال الشيخ: وكنت عزباً لازوجةَ لى، ولكن الآدميَّةَ انتبهتْ فىَّ، وطمعتُ فى دعوة صالحة من البُنَيَّات المسكينات، إذا أنا فرّحْتُهُنَّ؛ ودخَلتْنى لهن رِقّةٌ شديدة، فأخذتُ للرجل من غريمه حتى رضى، وأضعفتُ له من ذاتِ يدى لأزيدَ فى فرح بناته، وقلت له وهو ينصرف: عَهْدٌ يحاسبُك الله عليه، ويَستوفيه لى منك، أن تجعلَ بناتِك يدعون لى إذا رأيتَ فَرَحَهنَّ

بما تحمل إليهن ، وقل لهن : مالك بن دينار .

وبِتُّ ليلتى أتقلّب مفكّراً فى قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعانيه الكثيرة ، وحثّه على إكرام البنات ، وأن مَن أكرمَ بناتِه كَرُمَ على الله ، وحِرْصِه أن ينشأن كريمات فَرِحات ؛ وحدّثنى هذا الحديثُ ليلتى تلك إلى الصبح ، وفكّرتُ حينئذ فى الزواج ، وعلمت أن الناس لايزوّجوننى من طيّباتهم مادمتُ من الخَبيثين ؛ فلما أصبحتُ غدوت إلى سُوق الجوارى ، فاشتريتُ جاريةً نفيسة ، ووقعتْ منى أحسنَ موقع ، وولَدَت لى بنتاً فشُغِفْتُ بها ، وظهرتْ لى فيها الإنسانيّةُ الكبيرة التى ليست فىّ ، فرأيت بُعْدَ ما بينى وبين صورتى الأولى ؛ ورأيتها سماويةً لا تملك شيئاً وتملك أباها وأمّها ، وليس لها من الدنيا إلا شَبَع بطنها وما أيسَرَه ، ثم لها بعد ذلك سرورُ نفسها كاملاً تَشُبُّ عليه أكثرَ مما تَشُبُّ على الرَّضاع ؛ فعلمتُ من ذلك أن الذى تكْتَنِفُه رحمة الله يملكُ بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوتَهُ دنيا غيره ؛ وأن الذى يجد طهارة قلبه يجدُ سرورَ قلبه وتكونُ نفسُه دائماً جديدةً على الدنيا ؛ وأن الذى يحيا بالثقة تُحْيِيه الثقة ؛ والذى لايبالى الهمَّ لا يبالى الهمُّ به ؛ وأن زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلب من الهم — كلُّ ذلك من صِغرِ العقل فى الإيمان حين يكبر العقلُ فى العلم !

كانت البنَيّة بدء حياة فى بيتى وبدء حياة فى نفسى ، فلما دبَّت على الأرض ازددتُ لها حبًّا ، وألِفَتنى وألفتُها ، فرُزِقَتْ روحى منها أطهر صداقة فى صديق ، تتجدّد للقلب كلَّ يوم ، بل كلَّ ساعة ، ولاتكونُ إلا لمحضِ سرورِ القلب دونَ مطامعه ، فتُمِدُّه بالحياة نفسِها لابأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء فى المحبة ولاتنقص منها ، على خِلاف ما يكون فى الأصدقاء بعضِهم من بعض واختلافهم على المضَرّة والمنفعة .

* * *

قال الشيخ : وجَهَدْتُ أن أتركَ الخمر فلم يأت لى ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبّ ابنتى وضع فى الخمر إثمها الذى وضعتْه فيها الشريعة ، فكرِهتُها كُرْهاً شديداً ، وأصبحت كالمكرَه عليها ، ولم تَعُدْ فيها

نَشْوتَها ولارِيَّها ؛ وكانت الصغيرةُ فى تمزيق أخيلتها أبرعَ من الشيطان فى هذه الأخيلة ، وكأنما جرّتنى يدُها جراً حتى أبعدتْنى عن المنزلةِ الخَمْرية التى كان الشيطانُ وضعنى فيها ، فانتقلتُ من الاستهتار والمكابَرة وعدمِ المبالاة إلى الندم والتَحوُّبِ والتأثُّم ، وكنتُ من بَعدها كلما وضعْتُ المسكر ، وهممتُ به دبَّت ابنتى إلى مجلسى ؛ فأنظر إليها وتنتَشِرُ عليها نفسى من رقَّة ورحمة ، فأرقُبُ ما تصنع ، فتجىء فتُجاذبنى الكاسَ حتى تُهرِقَها على ثوبى ، وأرانى لاأغضب ، إذكان هذا يسرُّها ويُضحكها ، فأسرّلها وأضحك .

ودام هذا منى ومنها ، فأصبحتُ فى المنزلة بين المنزلتين ؛ أشربُ مرةً وأترك مراراً ، وجعلتُ أستقيم على ذلك ، إذ كانت النَّشْوة بابنتى أكبرَ من النشوة بالزجاجة ، وإذ كنتُ كلما رجعتُ إلى نفسى وتدبَّرتُ أمرى ، أستعيذ بالله أن تَعقِل ابنتى معنى الخمر يوماً فأكون قد نجَّستُ أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعلىَّ ذنوبُها فوق ذنوبى ، ويترحَّم الناسُ على آبائهم وتلعنُنى إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وُجِدتُ فى الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين .

ومضيتُ على ذلك وأنابها أصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرتْ فضليتى ، فلما تمَّ لها سنتان ، ماتت !

* * *

قال الراوى : وسكت الشيخ ، فعَلِقَتْ به الأبصار ، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لذِكرِ موتِ الطفلة ، وخامر المجلسَ مثلُ السكْر بهذه الكأس المُذْهِلة ؛ ولكن الطفلة دبَّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبَت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكمدنى الحزنُ عليها ، ووَهَنَ جأشى ، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أتأسَّى به ، فضاعفَ الجهلُ أحزانى ، وجعلَ مصيبتى مصائب . والإيمانُ وحدَه هو أكبرُ علوم الحياة ، يُبصِّرُك إن عميتَ فى الحادثة ، ويَهديك إن ضَللْتَ عن السكينة ، ويجعلك صَديقَ نفسِك تكونُ وإياها على المصيبة ، لاعَدُوَّها تكون المصيبةُ وإياها عليك ، وإذا أخرجَتِ الليالى من الأحزان

والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس أو محاصرتها ، فما يدفعُ المالُ ولاترد القوة ولا يمنع السلطان ، ولا يكونُ شيء حينئذ أضعف من قوّة القوىّ ، ولا أضيعَ من حيلة المحتال ، ولا أفقرَ من غِنَى الغنىّ ، ولاأجهلَ من علم العالم، ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوّة والعلمُ والغِنى والسلطانُ — للإيمان وحده ؛ فهو يكسر الحادث ويقلّل من شأنه ، ويؤيد النفسَ ويضاعفَ من قوّتها، ويَرُدُّ قَدَرَ الله إلى حكمة الله ؛ فلا يلبثُ ما جاء أن يرجع ، وتعودُ النفس من الرضا بالقَدَرَ والإيمانِ به ، كأنما تَشهد ما يقع أمامها لاما يقعُ فيها .

قال الشيخ : ورجعتُ بجهلى إلى شر مما كنتُ فيه ، وكانت أحزانى أفراحَ الشيطان ؛ وأراد — أخزاه الله — أن يَفتَتَنّ فى أساليب فرحِه ، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبانَ — وكانت ليلةَ جمعة ، وكانت كأوّلِ نور الفجر من أنوار رمضان — سوّل لى الشيطانُ أن أسكر سكْرةً ما مثلُها ؛ فبتُّ كالميت مما ثمِلت ، وقذَفتنى أحلام إلى أحلام، ثم رأيتُ القيامة والحشر،وقد وَلدت القبورُ من فيها ، وسِيقَ الناسُ وأنا معهم ، وليس وراء ما بى من الكَرب غاية ؛ وسمعتُ خلفى زَفيراً كفَحيح الأفعى ، فالتفتُّ فإذا بِتنّينٍ عظيم ما يكون أعظمُ منه ؛ طويلٌ كالنخلة السَّحوق ، أسودُ أزرقُ ، يُرسِل الموتَ من عينيه الحمراوين كالدم ، وفى فمه مثلُ الرّماح من أنيابه ، ولجَوْفِه حرٌّ شَديدٌ لوزفَر به على الأرض ما نبتتْ فى الأرض خضراء ، وقد فَتح فاه ونَفخ جوفَه وجاء مُسرعًا يريد أن يَلْتقمَنى ، فمررتُ بين يديه هاربًا فَزعًا ؛ فإذا أنا بشيخ هَرِم يكاد يموت ضَعفًا ، فَعُذْتُ به وقلت أجرنى وأغثنى . فقال : : أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر علىهذا الجبار ،ولكن مُرَّ وأسرعْ،فلعلالله أن يسبّبَ لكأسبابًاللنجاة .

فولّيتُ هاربًا وأشرفتُ على النار وهى الهولُ الأكبر ، فرجعتُ أشتدُّ هربًا والتنين على أثرى ؛ ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستَجرتُ به فبكى من الرحمةلى وقال : أنا ضعيفكما ترى ، وما أقدرعلى هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل ، فلعل الله يُحدث أمراً .

فنظرتُ فإذا جبلٌ كالدار العظيمة ، له كُوًى عليها سُتُور ، وهو يَبْرُقُ كشعاع الجوهر ؛ فأسرعتُ إليه والتنين من ورائى، فلما شارفتُ الجبلَ فُتِحت الكُوى ، ورفعت الستور ، وأشرفتْ على وجوهٌ أطفال كالأقمار ، وقرب التنينُ

منى ، وصرتُ فى هواء جوْفه وهو يتَضرّم علىّ ، ولم يبق إلا أن يأخذنى ؛ فتَصايَح الأطفالُ جميعًا : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فإذا ابنتى التى ماتت قد اشرفتْ علىّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكتْ ، ثم وثبتْ كـرَمْية السهم ، فجاءت بين يدىّ ، ومدّت إلىّ شمالَها فتعلّقتُ بها ، ومدّت يمينَها إلى التنّين فولى هاربًا ، وأجلستْنى وأنا كالميت من الخوف والفزع ، وقعدَتْ فى حجرى كما كانت تصنع فى الحياة ، وضربتْ بيدها إلى لحيتى وقالت : يا أبت . . [ألَمْ يأن لِلَّذينَ آمَنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقّ ؟] .

فبكيتُ وقلتُ : يا بُنيَّة ، أخبريني عن هذا التنّين الذى أراد هلاكى . قالت ذاك عملكَ السوء الخبيث ، أنت قوّيْتَه حتى بلغ هذا الهولَ الهائل ، والأعمال تَرجعُ أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخُ الضعيفُ الذى استجرْتُ به ولم يُجرْنى ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملُك الصالح ، أنت أضعفْتَه فضَعُفَ حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثَك من عملك السيئ ؛ ولو لم أكن لك هنا ، وللو ولو لم تكن اتبعتَ قولَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيمن فرّح بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شِمالٌ تتعلّق بها ، ويمينٌ تَطْرُد عنك .

* * *

قال الشيخ : وانتبهتُ من نومى فزعًا ألعن ما أنا فيه ، ولا أرانى أستقر ، كأنى طَريدةُ عملى السَّيِّئ ؛ كلما هَرَبتُ منه هَرَبت به ؛ وأين المَهْرَبُ من الندم الذى كان نائمًا فى القلب واستيقظ للقلب ؟

وأمّلتُ فى رحمة الله أن أربَح من رأس مال خاسر ، وقلت فى نفسى : إن يومًا باقيًا من العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغى أن يُستهان به ؛ وصحّحتُ النّيةَ على التوبة ، لأُرجعَ الشبابَ إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمِّن عظامَه ، حتى إذا استجرْتُ به أجارنى ولم يقل : « أنا ضعيف كما ترى ! »

وسألتُ فدُلِلْتُ على أبى سعيد الحسَن بن أبى الحسن البصرىّ ، سيِّد البقيّة من التابعين ؛ وقيل لى : إنه جَمَع كلّ علم وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانَه السِّحر ، وإن شخصَه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن فى صدره

إنجيلاً لم يُنزَّل ، وإن أمَّه كانت مولاةً لأم سَلمة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكى ، [فترضعه أمّ سلمة تُعلله بثَديها فيَدرُّ علته ، فكانت بينه وبين بَركة النبوّة صلة .

وغدوتُ إلى المسجد والحسنُ في حَلْقته يقصّ ويتكلّم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس ، وما كان غيرَ بعيد حتى عرَتني نَفْضةٌ كنفضة الحمَّى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : [ألَمْ يأْنِ للذين آمَنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ] ؛ فلو لفظتنى الأرضُ من بطنها ، وانشقَّ عنى القبرُ بعد الموْت ما رأيتُ الدنيا أعجبَ مما طالعتْنى فى تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسرُ الآية ، فصنع بى كلامُه ما لو بُعِث نبىٌّ من أجْلى خاصةً لما صنَع أكثرَ منه .

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس ، وغيرُ كلام العلماء ؛ فإنه يتكلم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ، وناهيكم من رجل خاشع متَصَدِّع من خشية الله ، لم يكن يُرَى مُقْبِلاً إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكِرَت النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان فى الحياة لتتكلَّم الحياة بلسانه أصدقَ كلماتِها .

فصاح صائح : يا أبا يحيى ، التفسير التفسير ! وصاح المؤذّن : الله أكبر . فقطع الشيخ وقال : التفسيرُ إن شاء الله فى المجلس الآتى .

* * *

بنته الصغيرة

٢

. . . وجاء من الغد أبو يحيى مالك بنُ دينار إلى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم تحوّل إلى مجلس درسه وتعكّفوا حوله ؛ وكانوا إلى بقيّة خبره فى لهفة كأن لها عُمراً طويلاً فى قلوبهم ، لاظمأً ليلة واحدة .

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلتُ فِداك ، ما كان تأويلُ الحسَن لتلك الآية من كلام الله تعالى، وكيف رجع الكلام فى نفسك مَرْجعَ الفكر تَتَبّعُه ، وأصبح الفكرُ عندك عملاً تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت فى وَرَعك و . . . ؟

فقطع الإمامُ عليه وقال : هوّن عليك يا هذا ؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهبَ فى وصفه يميناً أو شمالاً ، وقد روى لنا الحسَن يوما ذلك الخبر الواردَ فيمن يُعذّب فى النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « ياليتنى كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يا بنيّ ، هو الحسن . . . !

فضجّ الناسُ وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ، قتلتنا يأساً . وقال الأول : إذا كان هذا فأوشِكْ أن يعمّنا اليأسُ والقُنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ، ولانأتى عملاً ينفع .

قال الشيخ : هوِّنوا عليكم ، فإن للمؤمن ظنّين : ظنّاً بنفسه، وظنّاً بربه ؛ فأما ظنُّه بالنفس فينبغي أن ينزلَ بها دون جمَحاتِها ولا يفتأ ينزل ؛ فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً أوجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائما يدفعها ؛ وكلما أكثرتْ من الخير قال لها : أكثِرى . وكلما أقلّتْ من الشرّ قال لها : أقلّى . ولا يزال هذا دأبَهُ ما بقى ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغى أن يعلوَ به فوق الفترات والعِلَل والآثام ، ولا يزال يعلو ؛ فإن الله عند ظنّ عبده به ، إنْ خيراً فله وإن شرّاً فله . ولقد روينا هذا الخبر : «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتَل تسعاً وتسعين

نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فُدلَّ على راهب فأتاه ، فقال : : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ! فقتله فكمَّل به مائة ! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومَن يَحولُ بينك وبين التوبة ؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله عزوجل ، فاعبدالله معهم ولاترجع إلى أرضك ، فإنها أرضُ سَوْء .

فانطلَقَ ، حتى إذا نصَّف الطريقَ أتاه ملَكُ الموت ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكةُ الرحمة : جاء تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملَكٌ فى صورة آدمىّ فجعلوه حكَماًبينهم ، فقال : قيسواما بين الأرْضَين ، فإلى أيِّهما كان أدنى فهوَ له . فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضتْه ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رجُل لمَّا مشى بقلبه إلى الله حُسِبت له الخطوةُ الواحدة ، بل الشبرُ الواحد ؛ ولو أنه طوَّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان كالعظام المحمولة فى نعش ؛ قبرُها فى المشرق هو قبرها فى المغرب ، وليس لها من الأرض ولاللأرض منها إلا معنى واحدٌ لايتغير ؛ هو أنه بجملته ميّت ، وأنها بجملتها حفْرة .

والإنسانُ عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيتِه التى تبدو عليه ، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنّه الذى يَظنُّ به ؛ وما هذا الجسمُ من القلب إلا كقشرة البيضة[1] مما تحتها . فيالها سخريةً أن تزعم القشرةُ لنفسها أن بها هى الاعتبارَ عند الناس لابما فيها ، إذ كان ما تحويه لايكون إلا فيها هى ؛ ومن ثم تُبْعِدُ فى حماقتها فتسأل : لماذا يرمينى الناس ولا يأكلوننى . . . . ؟

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ فى هذا الإنسان لا تجد تمامَ معناها إلا فى حالة بعينها من أحوال القلب ، وهى حالةُ خشوعه على وصفها الذى شرحته الآية الكريمة : [ألَمْ يأْنِ للذين آمنُوا أن تَخْشعَ قُلوبُهُمْ لِذِكْر الله ومَا نزَلَ مِنَ الحقِّ ؟]

---

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيض بفتح القاف وسكون الياء ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تسمى الغرقى بكسر الغين والقاف .

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقِّ معًا ، وهى كلُّها فى خشوع القلب لهذين ؛ فإن من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلِّها .

قال الشيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واستَنَنْتُ بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخ قلبى لافى تاريخ الدنيا ، وأدركتُ من يومئذ أن ليس حفظُ القرآن حِفْظَه فى العقل ، بل حفظُه فى العمل به ؛ فإن أنت أثبتَّ الآيةَ منه ، وكنتَ تعمل بغير معناها ، وتعيش فى غير فضيلتها ، فهذا ــ ويحك ــ نسيانُها لاحفظُها . وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية ؛ فيها ورَقُها الأخضر وزهرُها ، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها ، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه ، أصبحوا كالشجرة اليابسة ، عليها ورقُها الجافُّ ، ليس فى بقائه ولاسقوطه طائل .

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسيرَ الآية إلا فى حياةٍ منها ، وهذه الآية هى التى دلَّتنى بمعانيها أن ليست الحياةُ الأرضيَّةُ شيئًا إلا ثورةَ الحيِّ على ظلم نفسه ، يَستكفُّ عنها أكثرَ مما يَستَجِرُّ لها ، والناسُ من شقائهم على العكس ، يستجرُّون أكثرَ مما يستكفُّون ، وإنما السعيدُ مَن وَجَدَ كلمات روحانيةً إلهيةً يعش قلبُه فيهن ، فذاك لايعمل أعماله كما يأتى ويتفق ، بل يحذو على أصلٍ ثابت فى نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ، ومِن ثمَّ لايكون جهادُه مُراغَمَةً أو خضوعا فى سبيل الوجود كالحيوان ، بل فى سبيل صحَّة وجوده ؛ ولايكون غرضُه أن يُلابِسَ الحياةَ كما تأخذه هى وتَدَعُه ، بل أن يحيا فى شرف الحياة على ما يأخذها هو ويَدَعُها .

إن الشقاء فى هذه الدنيا إنما يَجُرُّه على الإنسان أن يعملَ فى دفع الأحزان عن نفسه بمقُارَفَتِه الشهوات ، وبإحساسِه غرورَ القلب ؛ وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسه ليجلِبَها على نفسه فى صُوَرٍ أخرى !

* * *

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحَسَن قوله :

إن كل كلمة فى الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمةُ فى القرآن كما تكون فى غيره ، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام ، أنها تحمل معنى ، وتُومئُ إلى

معنى ، وتَستَتْبعُ معنى ؛ وهذاما ليس فى الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه كِتَابٌ أحْكِمتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ] (١)

يقول الله تعالى : [ألم يَأن للذين آمنوا أن تَخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق] .

[ألم يأن] هذه الكلمة حثٌّ ، وإطماعٌ ، وجدالٌ ، وحُجة ؛ وهى فى الآية تُصرِّح أن خشُوعَ القلب الذى تلك صفتُه هو كمال للإيمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمالُ العمر ، وكيف يعرف المؤمنُ أنه (سيأنى) له أن يعيشَ ساعة أو ما دونها ؟ إذنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول : الآنَ الآنَ قبل ألاّ يكون آن . أىْ : البدَارَ البدَارَ ما دمتَ فى نَفَس من العمر ؛ فإن لحظة بعد (الآن) لايضمنها الحىّ . وإذا فَنِى وقتُ الإنسان انتهى زمنُ عمله فبقى الأبد كله على ما هو ؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذى يدرك الحقيقة ، وإنْ هو إلا اللحظةُ الراهنةُ من عمره التى هى (الآن) . فانظر — ويحك — وقد جُعِلَ الأبد فى يدك ؛ انظر كيف تصنع به ؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره ، على كثرة المعانى .

ثم قال : [للذين آمنوا] وهذا كالنَّص على أن غير هؤلاء لاتخشع قلوبُهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقومُ بهم الفضيلة ، ولاتستقيم بهم الشريعة ، وعالِمهُم وجاهلُهم سواء ؛ لايخشعان إلا للمادة ؛ وكأن إنسانَهم إنسانٌ تُرابىّ ، لايزالُ يضطربُ على مَكَرْ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان : عَيْشِه وموتِه ؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على الناس إلا بِهم ، وما ترقُّ رقَّتَها إلا بالمؤمنين .

وجَعل الخشوعَ للقلوب خاصةً ، إذ كان خشوعُ القلب غيرَ خشوع الجسم ، فهذا الأخير لايكون خشوعًا ، بل ذلاً ، أوضَعَةً ، أورياءً أو نفاقًا ، أوماكان أما خشوعُ القلب فلن يكون إلا خالصًا مُخلَصًا مَحْضَ الإرادة .

---

(١) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن ، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة ؛ كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت فى المقالات الأخرى ؛ فالبحث فى فهم القرآن يجب أن يكون فى اللفظة ، ووجه اختيارها ، وسياق تركيبها ، وما تدل عليه فى كل ذلك ، وما يدل كل ذلك بها . وقد بسطنا هذا فى كتابنا : إعجاز القرآن .

واشترطَ « القلبَ » كأنه يقول : إنما القلب أساسُ المؤمن ، وإن المؤمنَ ينبع من قلبه لامن غيره ، متى كان هذا القلبُ خاشعًا لله وللحق . فإن لم يكن قلبُه على تلك الحال ، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم الطاغيةُ وكلُّ ذى شر . ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معانى الخُلُق ، بالحبَّة تَنسَرِحُ منها الشجرة ؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت ؛ حُلواً من حُلو ، ومُرًّا من مُرّ .

وخشوعُ القلب لله وللحق، معناه السموُّ فوق حب الذات ، وفوق الأثَرة والمطامع الفاسدة؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة ، ويجعلُها فى قانونَين لاقانون واحد ؛ ومتى خشع القلبُ لله وللحق ، عَظُمتْ فيه الصغائر من قوّة إحساسِه بها ، فيراها كبيرةً كبيرة وإن عَمِيَ الناسُ عنها ، ويراها وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب : يكون فى لوح الجوّ ولايغيب عن عينه ما فى الثَّرَى .

وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعًا هو شرٌّ من الطغيان والقسوة ؛ فتقييدُ خشوع القلب « بذكر الله » ، هو فى نفسه نَفْىٌ لعبادة الهوى ، وعبادة الذات الإنسانية فى شهواتها . وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلهُ ساعتها . فياما أحكمَ وأعجب قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لايزنى الزانى حين يَزنى وهو مؤمن ، ولايَسرقُ السارقُ حين يَسرق وهو مؤمن، ولايَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » . جعَلَ نزعَ الإيمان موقوتًا « بالحين » الذى تُقترَفُ فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقىّ هو إله ذلك « الحين » .

والخشوعُ لِمَا « نزَلَ من الحقّ » هو فى معناه نَفىٌ آخرُ للكبرياء الإنسانية التى تُفسِد على المرء كلَّ حقيقة ، وتَخرج به من كل قانون ؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته لابحدودها هى من الحقوق والفضائل .

ويَخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية ، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دون غيرهما ، وقهرُها للذات وشهواتِها ، وجعلُها الكبرياء الإنسانية كبرياء على الدنايا والخسائس ، لا على الحقوق والفضائل ؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس ، ومحو الفَوضى منها ، وجَعْل نظامها فى إحساس القلب وحده ؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنى السامى ، ويكون نبْضُه علامةَ الحياة فى ذاتها ، وخشوعُه لله وللحق علامةَ الحياة فى كمالها .

وقال : [ما نزَلَ من الحقّ] كأنه يقول : إن هذا الحق لايكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضيًّا ، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرّره الناسُ بعضُهم على بعض ، لم يجاوز فى ارتفاعه رأسَ الإنسان ، وأفسدتْه العقول ؛ إذ كان الإنسان ظالمًا متمرّدًا بالطبيعة ، لاتحكمه من أول تاريخه إلا السماءُ ومعانيها ، وما كان شبيهًا بذلك مما يجيئُه من أعلى ؛ أىْ بالسلطان والقوة ؛ فيكون حقًّا « نازلاً » مُتدَفِّعًا كما يتصوَّب الثُّقْلُ من عال ليس بينه وبين أن ينفُذَ شىء .

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعًا آخر هو الذى أفسد ذاتَ البين من الناس ، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب إليها بإيمان الطمع لاالحق .

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنَّصفَةُ بين الناس ؛ فيكون العدل فى كل مؤمن شعوراً قلبيًّا ، جاريًا فى الطبيعة لامُتكلَّفًا من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتة عن الحق فى كل طريق ، لا إرادة لكل طريق ، وتستمرّ هذه الإرادة مُتَّسقةً فى نظامها مع إرادة الله ، لانافرةً منها ولامتمرّدةً عليها ؛ وهذا وذلك يُثبِّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوالُ الدنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُموُّه وقوّتُه وثباته ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة ، وما أيسر الصبرَ على لحظة ! ما أهونَ شرّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده .

ألمْ يأن ؛ ألمْ يأن ؛ ألمْ يأن . . .

* * *

قال الشيخ : وكان الحسَنُ فى معانيه الفاضلة هو هذه الآيةَ بعينها ؛ فما كانت حياتُه إلا إسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المُشرق الذى سمعته منه ؛ شعارُه أبداً : « الآنَ قبل ألاّ يكون آن » وإمامُه : « خُذْ نفْسَك من قلْبك » وطريقته « شرَفُ الحياة لا الحياةُ نفسُها » .

وكان يرى هذه الحياةَ كوَقْعة الطائر ؛ هى جَناحين مستوْفزَين أبداً لعمل آخر هو الأقوى والأشدّ ، فلا ينزلان بطائرهما على شىء إلا مَطْويين على

قُدْرة الارتفاع به، ولايكونان أبداً إلا هَفْهافَين خَفيفين على الطيران؛ إذ كانا فى حكم الجوّ لافى حكم الأرض .

وآلةُ الوقوع والطَّيَرَان بالإنسان شهواتُه ورَغَباتُه ؛ فإن حَطَّته شهوةٌ لاترفعه ، فقد أوبَقَته وأهلكتْه وقذفت به ليؤخَذ .

لقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : لايَبلُغُ العبدُ أن يكونَ من المتَّقين حتى يدَعَ مالا بأسَ به حذَراً مما به بأس » ، وهذا ضَربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلّ له : يَدَع أشياء كثيرةً لا بأس عليه فيها لو أتاها ؛ ليَقوَى على أن يدعَ ما فيه بأس ، فإن الذى يترك ما هُوَ له يكون أقوى على ترك ما ليس له .

والنفسُ لابدَّ راجعة يوماً إلى الآخرة ، وتاركةٌ أداتَها ؛ فقوام نظامها فى الحياة الصحيحة أن تكون كلَّ يومٍ كأنها ذهبتْ إلى الآخرة وجاءت . وتلك هى الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الإسلامية من عبادة راتبة تكون جزءاً من عمل الحياة فى يومِها وليلتها . فإذا لم تكن النفسُ فى حياتها كأنها دائما تذهب إلى مصيرها وترجع منه ، طَمسَها الجسمُ وحبَسها فى إحدى الجهتين ، فلم يبقَ لها فيه إلا أثر ضئيل لايتجاوزُ النُّصح ، كاعتراض المقتول على قاتله : يحاول أن يَرُدَّ السيفَ بكلمة . . . ! وبذلك يتضاعف الجسمُ فى قوّته ، ويشتدّ فى صَولته ، ويتصرّف فى شهواته ، كأن له بطنين يجوعان معًا . . . فتستْهلكُ شهواتُ المرء دينه ، وتقذف به يمينًا وشمالاً ، على قصد وعلى غير قصد ، وتمضى به كما شاءت فى مَدْرجةٍ مَدْرجةٍ من الشرّ .

ومثلُ هذا المسرف على نفسه لايكون تمييزُه فى الدين ، ولا إحساسُه بالخير ، إلا كذلك السكّير الذى زعموا أنه أراد التوبة ، وكانت له جَرَّتان من الخمر ، فلما اتَّعظَ وبلغ فى النظر إلى نفسه وحظ إيمانه ، وأراد أن يطيعَ الله ويتوب . نظر إلى الجرَّتين ثم قال : أتوبُ عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه . . . !

* * *

قال الشيخ : ثم إنى تبتُ على يد الحسن ، وأخلصتُ فى التوبة وصَحَّحتُها ، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدّين هى كبرياء النفس على شرّها وظلمِها

وشهواتها ، وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم، هي في النفس أختُ الشجاعة القاتلة للعدوّ الباغي : يفخر البطلُ الشجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك ؛ وأن خشوع القلب هو في معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها .

وحدّثتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤياي[1] ، وما شُبِّه لي من عملي السيئ وعملي الصالح ، فاستدمعَتْ عيناه ، وقال :

إن البنتَ الطاهرةَ هي جهادُ أبيها وأمها في هذه الدنيا ، كالجهاد في سبيل الله ، وإنها فوزٌ لهما في معركة من الحياة ، يكونان هما والصبرُ والإيمانُ في ناحية منها قَبيلاً ، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزنُ في الجهة المُناوِحَة قبيلا آخر .

إن البنتَ هي أمٌّ ودار ، وأبَواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبرِ عليها واليَقَظة لها — كأنما يحملان الأحجارَ على ظهرَيْهما حجراً حجراً ، ليَبْتَنِيا تلك الدارَ في يوم يوم إلى عشرين سنة أو أكثر ، ما صَحِبَتْهُ وما بقيتْ في بيته .

فليس ينبغي أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُه ، ثم أمُّ أولادِها ، ثم أمُّ أحفادِه ؛ فهي بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقُّها عليه أكبرُ من الحقّ ، فيه حُرْمتها وحرمةُ الإنسانية معًا ؛ والأبُ في ذلك يُقرض اللهَ إحسانًا وحنانًا ورحمة ، فحقٌّ على الله أن يُوفِّيه من مثلها ، وأن يُضْعِفَ له .

والبنت ترى نفسَها في بيت أهلها — ضعيفةً كالمنقطِعة وكالعالَة ، وليس لها إلا اللهُ ورحمة أبويها ؛ فإن رَحِمَاها ، وأكرماها فوقَ الرحمة ، وسَرَّاها فوقَ الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها في الدين وحَفِظا نفسَها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبة — فقد وضعا بين يدَي الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة ، وكما وضعاه بين يدى الإنسانية . فإذا صارا إلى الله كان حقًّا لهما أن يجدا في الآخرة يمينًا وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من كان له ابنةٌ فأدّبَها فأحسنَ تأديبها ، وغَذَاها فأحسن غذاءها ، وأسبغَ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه — كانت له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً من النار إلى الجنة » .

---

(١) ذكرت الرؤيا في القسم الأول من هذه المقالة .

فهذه ثلاثٌ لابد منها معًا ، ولا تُجزِئُ واحدةٌ عن واحدة فى ثواب البنت : تربيةُ عقلها تربيةَ إحسان ، وتربيةُ جسمها تربيةَ إحسان وإلطاف ، وتربيةُ روحها تربيةَ إكرام وإلطاف وإحسان .

* * *

قال الشيخ : والله أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة ؛ والله أكرمُ أن يضيعَ الإحسان عنده ، والله أكبر . . .

وهنا صاح المؤذِّن : الله أكبر .

فتبسَّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

الأجنبية *

أحَبَّها وأحبَّتْه ، حتى ذهب بها فى الحب مَذهبًا قالت له فيه : « لوجاءنى قلبى فى صورة بشَرِيَّة لأراه كما أحِسُّه ، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ فى رقَّتك وعطفك وحنانك » وحتّى ذهبتْ به فى الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لاتكون أبدعَ فنًّاولا أحسنَ جمالاً ، ولاأكثرَ إمتاعًا — لوخُلِقتْ امرأةً يهواها رجل — إلا أن تكون هى أنت ! » فقالت له : « ويكونَ هو أنتَ . . . ! » .

وتَدَلَّهتْ فيه ، حتى كأنما خلَبها عقلَها ووضعَ لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذات نفسها : « إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتِها متبرِّئةً من أنها إرادة ، مُقِرةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُذْعِنةً أنها قد سلَّمت كبرياءها لهذا الحبيب ، لتراه فى قوته ذا كبريائين » .

وافتتَنَ بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخَذ ، فملأتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينَه من أشياء ؛ فكان يقول لها فى نجْواه : « إنى أرى الزمَن قد انْتَسَخَ مما بينى وبينك ، فإنما نحن بالحب فى زمن من نَفْسَيْنا العاشقتين ، لايُسمّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور ؛ وإنما نعيشُ فى أيام قلبيَّة ، لاتدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها ، ولكن السعادة بحقائقها ولذَّاتِها » .

وتحابـَّا ذلك الحبَّ الفنيَّ العجيبَ ، الذى يكون ممتلئًا من الروحين يكاد يفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لايَبْرحُ يطلبُ الزيادة ، ليتخيل من لذتها ما يتخيلُ السكِّيرُ فى نَشْوته إذا طَفحتْ الكأس ، فيرى بعينيه أنها ستتسع لأكثر ما امتلأتْ به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتِها، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم .

تحابـَّا ذلك الحبَّ الفوَّار فى الدم ، كأن فيه من دوْرته طبيعة الفراقِ والتلاقى بغيرِ تلاق ولافراق ؛ فيكونان معاً فى مجلسهما الغزَلىّ ،جنْبَه إلى جنبها وفاها إلى فيه[1] وكأنماهربتْ ثم أدْركَها ، وكأنما فرّتْ ثم أمْسكَها . وبين القُبْلة والقُبلة هِجران وصُلح ، وبين اللفْتةِ واللفتة غَضب ورضى .

---

* انظر « الرافعى العاشق » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعانقين .

وهذا ضرْب من الحب يكونُ فى بعض الطبائع الشاذّة المسرفة ، التى أفرطت عليها الحياةُ إفراطها فيلفّ الحيوانية بالإنسانية ، ويجعل الرجل والمرأة كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها ؛ لاتلتقى إلا لتمازج ، ولاتمازجُ إلا لتتحد ولاتتحدُ إلا ليبتلع وجودُ هذا وجود ذاك .

* * *

وضَرب الدهرُ من ضَرباته فى أحداث وأحداث ؛ فأبغضتْه وأبغضَها ، وفَسدت ذاتُ بينهما ، وأدبر منها ما كان مُقْبِلاً ؛ فوثَب كلاهما من وجود الآخر وثْبة فنَزع على وجهه . أما هو فسَخِطَها لعيوب نفسها ، وأما هى ... وأما هى فتَكَرَّهَتْه لمحاسنِ غيره !

وانْسربتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسَارِبِهَا تحت الزمن العميق الذى طَوى ولا يزالُ يَطْوى ولا يبرحُ بعد ذلك يطوى ؛ كما يغورُ الماءُ فى طِباقِ الأرض . فأصبح الرجل المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلة أقارب وأصدقاء وأحباءَ ماتوا بعضُهم وراء بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْره ، فكانوا له مادّة حسرة ولَهْفة . أما هى .. أما هى فانشقّ الزمنُ فى فكرها بِرجّةِ زلزلة ، وابتلع تلك الأيام ثم التأم ... !

* * *

فحدّثَنا « الدكتور محمد* » رئيسُ جماعة الطلبة المصريين فى مدينة ... بفرنسا ، قال : « وانتهى إلىّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة وأنه قادم من مصر ، فتَخَالَجنى الشوقُ إليه ، ونَزعَتْ إلى لقائه نفسى ، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرى قَدِم من مصر ؛ وخُيِّل إلىّ فى تلك الساعة مما اهْتَاجَنى من الحنين إلى بلادى العزيزة ، أن ليس بينى وبين مصر إلا شارعان أقطعُهما فى دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مَثْواه ، كما يصنعُ الطيرُ إذا ترامى إلى عُشه فابْتَدرهُ من قُطْرِ الجوّ .

---

* هو ولده الدكتور محمد الرافعى ، وكان يدرس وقتئذ فى جامعة ليون ، وقد أنشأ من أجله هذه القصة لتكون رسالة إليه برأيه فى موضوع بخصوصه .

قال : وأصبتُه واجماً يعلوه الحزن ، فتعرَّفتُ إليه ، فما أسرعَ ماملأمن نفسي وما ملأتُ من نفسه . وكما يَمَّحي الزمان بين الحبيبَين إذا التقيا بعد فُرقة — يتلاشَى المكانُ بين أهلِ الوطن الواحد إذا تلاقَوا في الغرُبة . فذابت المدينةُ الكبيرةُ التي نحن فيها ، كأن لم تكن شيئاً ؛ وتجلى سحرُ مصر في أقوى سَطوته وأشدها فأخذَنا كلَينا ، فما استشعرْنا ساعتَئذ إلا أن أوربا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللْنا مصر في محلها .

وطغَى علينا نازعُ الطرَبِ طُغياناً شديداً ، فأرسلْتُ من يجمعُ الإخوان المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعر الفطرة ، فنَزا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤذّن فيهم لإقامة الصلاة . وجاءوا يُهَروِلُون هَرْولة الحَجيج ، فلو نَطَقتِ الأرضُ الفرنسية التي مَشَوا عليها تلك المِشْية لقالت : هذه وطْأةُ أسود تتخيّل خُيَلاءها من بَغْيِ النشاطِ والقوة .

ألا ما أعظمك يامصر ، وما أعظم تعنتك في هذا السحر الفاتن ! أينبغي أن يغترب كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبويّ العظيم : «مصر كِنانةُ الله في أرضه» . فيعرفوا أنك من عزّتك معلقة في هذا الكون تعليق الكنانة في دار البطَل الأرْوع ؟

قال «الدكتور محمد» : واجتمعنا في الدار التي أنزلُ فيها ، فراع ذلك صاحبة مَثْواي [1] ، فقلت لها : إنّ ههنا ليلةً مصريةً ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهَد كيف تَسْتَعْلِنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقّتها وظَرفِها وحماستِها ، وكيف تُفسر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوق من أشواقها الحنانة ، وكيف تكون هذه الروحُ في جوٍّ موسيقيَّتها الطبيعية حين تُناجِي أحبابها ، فيجيءُ حديثُها بطبيعته كأنه دِيباجةُ شاعر في صفائها وحلاوتها ورنينِ ألفاظها ؟

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخِذ زينتي ، وأصلح من شأني ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

---

(١) صاحبة المثوى هي ربة البيت الذي ينزل فيه الضيف ومن كان في حكمه ، يقول العربي : من كانت صاحبة مثواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون .

قال الدكتور : وأخذنا فى شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسنُ الصوت ، فقام إلى البيـانة[١] وغنَّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التى تُطقطِقُ فيها النفس ، فجعل يمطُلُ صوتهُ بآه وآه ودار اللحنُ دورةً تأوَّهتْ فيها الكلماتُ كلُّها . ثم اعتور البيانة طالبٌ آخر فما شذَّ عن هذه السنة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوِبُ النائحة ! فمالت علىَّ السيدة الفرنسية وأسرَّتْ إلىَّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخى ذو مقطوعتين ، كانت تتطارحُه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة ... فأعجِبت المرأةُ أشدَّ الإعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوق المصرىَّ أن نكرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملِكة المصرية الجميلة ، وطربت لذلك أشدَّ الطرب ، وملكها غرور المرأة ، فجعلت تستعيد : « يالوعتى ياشقاى ياضنى حالى ... » وتقول : ماكان أرقَّ كيلوباترة ! ماكان أرقَّ أنطونيو ! يالَفتنةِ الحب الملكى .. !

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنث ، ومن تلفيق الذى لفقتُه للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضْت انتفاضةَ من يملؤه الغضب ، وقد حمِىَ دمُه ، وفى يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوقح ؛ وثُرْتُ إلى البيانة فأجريت عليها أصابعى ، وكأنَّ فى يدىَّ عشرةَ شياطين لا عشر أصابع ، ودوَّى فى المكان لحنُ : « اسلمِى يا مصر » وجلْجَلَ كالرعد فى قبة الدنيا ، تحت طِباق الغَيم ، بين شرارِ البرق . فكأنما تزلزلَ المكانُ على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً وصرخ أجدادُنا يزْءرون من أعماق التاريخ : « اسلمِى يا مصر ... »[٢]

ولما قطعْتُ التفتُّ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبانَ المصريين .

ثم راجعْنا صاحبَنا الضيفَ ، وأحفيناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعَنا طويلاً : إنه يُحسن شيئاً من الموسيقى وإن له لحناً سيُطارحُنا به لنأخذَه عنه . فطرنا

---

(١) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات .

(٢) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول ، وهو اليوم النشيد الوطنى لمصر كلها ، يحفظه جميع الطلبة ، والكشافة ، والأندية الرياضية ، وغيرها .

بلَحنه قبل أن نسمعَه ، وقلنا له : افعلْ متفضلاً مشكوراً ومازلنا حتى نهض متثاقلاً ، فجلس إلى البيانة وأطرق شيئًا ، كأنه يُسوّى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجَى بهذا الصوت :

أضاعَ غَدى مَن كان فى يَدِهِ غَدِى — وحَطمنى من كان يَجْهَدَ فى سَبْكِى!

فإن كنتُ لا آسَى لنفسى فَمَنْ إذن؟ — وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يَبكى[٢]؟

قال« الدكتور محمد» : فكان الغناء يَعتَلِجُ فى قلبه اعتلاجًا ، وكانت نفسُه تبكى فيه بكاءَها وتَغَصّ من غُصّتها ، وكأن فى الصوتِ فكراً حزينًا يستعلِن فى همّ موسيقى ،وخيل إلينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارحُ هذا الرجلَ عواطفَها وأحزانَها ، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوتٍ إنسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقُّه .

فأطَفْنا به وقلنا له : لقد كتمتَنا نفسَك حتى نَمّ عليها ما سمعنا، وماهذا بغناء ، ولكنه همومٌ مُلَحنةٌ تلحينًا ، فلن ندعَك أو تُخَبرَنا ما كان شأنُك وشأنها .

فاعتَل علينا ودافعَنا جهدَه ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفلِتَكَ وقد صرتَ فى أيدينا ، وإنك ما تزيدُ على أن تَعِظَنا بهذه القصة ؛ فإن أمسكت عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا ، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلم من علم الحياة نُفيدُهُ منكَ ؛ وأنت ترانا نعيش هاهنا فى اجتماع فاسد كأنه قِصصٌ قلبيّة ، بين نساءٍ لا يَلْبَسْنَ إلا ما يعرّى جمالَهن ، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية ، حتى دخلَ فيها مَخْدعُ الزوجة ... !

قال الدكتور : ونظرتُ فإذا الرجل كاسِفٌ قد تَغير لونُه وتَبَيّنَ الانكسارُ فى وجهه ، فألمَمْتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دهى فى زوجة ، من هؤلاء الأوربيات ، اللواتى يتزوّجن على أن يكونَ مخدعُ المرأة منهن حرًّا أن يأخذَ وَيَدَعَ ، ويُغيّرَ ويبدّل ،وَيقْسِمَ كلمةَ «زوج» قسمين وثلاثةً وأربعة وماشاء ..

وكأنما مَسستُ الباروذَ بتلك الشرارة ، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصة ما أفظعَها !

* * *

قال : يا إخوانى المصريين ، قبل أن أنفُضَ لكم ذلك الخبر أسدِيكم هذه

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . . !

النصيحةَ التى لم يَضَعها مؤلف تاريخي لسوء الحظّ ، إلا فى الفصل الأخير من رواية ِ شقائى :

إياكم إياكم أن تَغْتَرّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانىَ الزوجة ؛ وفَرِّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ، فإن فى كل زوجة ٍ امرأة ، ولكن ليس فى كل امرأة زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة ، كهذا السحاب الملوّن فى الشفق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسخُ مَسخًا ؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلّه .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوج بها مصرىّ ، هى مُسَدّسُ جرائمَ فيه ستُّ قذائف :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصرية وضياعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج ؛ وتلك جريمةٌ وطنية . فهذه واحدة .

والثانية : إقحام الأخلاقِ الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا – فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينُه بها وصَدْعُه ؛ وهى جريمةٌ أخلاقية .

والثالثة : دَسُّ العُروقِ الزائغةِ فى دمائنا ونَسْلِنا ؛ وهى جريمةٌ اجتماعية .

والرابعة : التمكين للأجنبيّ فى بيت من بيوتنا ، يملكهُ ويحكُمُه ويُصرِّفهُ على ما شاء ؛ وهى جريمة سياسية .

والخامسة : للمُسْلِم منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة ، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين ، ما يعجبُه وما لايعجبُه ؛ ثم إلقاؤه السمَّ الدينيّ فى نَبْع ذرّيته المقبلة ، ثم صَيْرُورَتُه خزيًا لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنّ سَبَايا ، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذتْه هى رقيقًا لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد[1] . . . وهذه جريمةٌ دينية .

والسادسة : بعد ذلك كله ، أن هذا المسكين يُؤثِر أسفلَه على أعلاه . . .

---

(١) يريد : بعد عشيقها .

ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة .

وهذه السادسة جريمة إنسانية !

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى ، وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية إلى مصر ، أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى ومصائبى ! ولم يكن وَعَظَنى أحدٌ بما أعِظُكم به الآن ، ولا تنبهتُ بذكائى إلى أن الزوجةَ الأجنبيةَ تثبتُ لى غُربتى فى بلادى ! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنى أو غير تامّ الوطنية ، ثم تكونُ منى حماقةٌ تثبتُ للناس أنى أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعودُ مشكلةً دولية فى بيتى ، يزورها أبناء جنسها ويَستَزيرونها رغم أنفى وفى ووجهى كله ! ويستطيلون بالحماية ، ويسترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويُرخون ستاراً على فصل . . . وأنا وحدى أشهدُ الرواية . . !

إن الشيطانَ فى أوربا شيطانٌ عالم مخترع . فقد زين لى من تلك الزوجة ثلاثَ نساء معًا : زوجةً عقلية ، وروجةً قلبية ، وزوجة نفسية ؛ ثم نَفَثَ اللعينُ فى رُوعى أن المرأة الشرقيةَ ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجةُ الجسم وحده ، فلا تسمو إلى العقل ، ولا تتصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ الحسّ ، خَشِنَةُ الطبع ، لاتكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصريةُ مع فلاّحها . . .

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع ! ما علمتُ إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ ، هى كالمنْجَم الذى تِبْرُهُ فى تُرابه ، وماسُه فى فَحْمِه ، وجوهرُه فى معدنه ؛ وأن صعوبتَها من صعوبة العفة الممتنِعة ، وأن خشونتَها من خشونة الحب المعتز بنفسه ، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لايَدخُله العجز ، وكان لها الوفاء الذى لاتَلحقُه الشبهة ، وكان لها الإيثار الذى لايُفسِده الطمع .

هى جاهلةٌ ، ولها عقل الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحس ولها أرَقُّ ما فى الزوجة

لزوجها وحده ؛ وخشنة الطبع ؛ لأنها تتنزّه أن تكون ملمساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك . . . لاكامرأة الحب الأوربية ، التى تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . امرأة أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاق مخرّبة مدمرة تنفجر بين الوقت والوقت .

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات ، يتهموننا به من عمى وجهل وسخافة . انظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعية الرجولة والأنوثة ، ودينية الحياة الزوجية فى أىّ أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلانُ بطولة الرجل الشرقىّ الأنوف الغيور ، أن الزوجةَ تتعدّد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوجَ يتعدّد عند المرأة . . . !

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقها وواجباتها — بقوة الشرع والقانون — نافذةً مؤدّاة ؛ ثم لايتهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادنةً ليس لها حقّ على أحد ، ولا واجبٌ من أحد ، بل هى تتقاذفها الحياةُ من رجل إلى رجل ، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار .

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنث ، الذى يجعلُ للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجها الرجلُ الشرقى ، أصابعَ « أوتوماتيكية » ، ما أسرعَ ما تمتد فى نزوةٍ من حماقاتها إلى رجلها بالمسدّس ، فإذا الرصاصُ والقتل ؛ وما أسرعَ ما تمتدّ فى نزوة من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار ، فإذا الخيانة والعهر ! !

ماذا تتوقعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنثة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالاً لا رجلاً واحداً ، وقد ضعفت روحيةُ الأسرة فى رأيها ، وابتُذلت الروحيةُ فى مجتمعها ابتذالا ، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواجُ حقاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فإن كان الزوجُ مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجلَ قلبها — فعليه أن يدعَ لها الحرية لتختارَ زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة

المرأة مع الزوج الشرعيّ . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مُخيَّباً ، وكان قد بَلَغَ إلى قلبها زمناً ثم ملـه قلبُها — فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتتنقل وتَلذّ بلذات الهوى ، ويقولَ لها : شأنَكِ بمن أحببتِ ! فإن هذا المنحوس المخيَّب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية إنسانيةٌ انتهى الفصلُ الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخَر بحوادثَ غير تلك . فلِمَن يشهدُ الروايةَ أن يتبرَّمَ ما شاء ، ويستثقلَ كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنية هى امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلْبِسُه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معانى العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة .

تقوى العاطفةُ فتجيء بها إلى رجل ، ثم تقوى الثانيةَ فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتُقَيد نفسها إن شاءت ، وتُسرِّح نفسها إن شاءت؛ وما بُد من أن تَبْلوَ الحياة كما يبلوها الرجلُ وأن تخوضَ فى مشاكلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسَها إحدى مشاكلها . . . ! ولامندوحةَ من أن تتولى شأنَ نفسها بنفسها ، فإذا خاسَتْ أو غدَرتْ فكلٌّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلٌّ ذلك رأىٌ وحقّ ، إذ كان محْوَرُها الذى تدورُ عليه هو عاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة ، فمَن هذا يُقَرِّر لها خطتَها ، ويُملى عليها واجباتها ، ويزَوِّر لها الأسماء على إرادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتِها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوَّلَه الحقّ أن يقرر وأن يُملى ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذى قبلَها سافرةً لاتعرف رُوحُها ولاجسمُها الحجاب ؛ ما بالُهُ يريد أن يضربَ الحجابَ على عاطفتها ، ويتركَها محبوسةً فى شرَفِه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبةً فى الدار ؟

ما علمتُ يا إخوانى إلا مِن بعد ، أن الزوجةَ الغربية قد تكونُ مع زوجها الشرقى كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكَها عليه ، ولن يُكْرِهها على الوفاء له ، إلا أن تكونَ حُثَالةً يزهدُ فيها حتى ذُبابُ الناس ؛ فيأسُها هو يجعل هذا المسكينَ مطمَعَها ، وهى مع ذلك لو خلطَتْه بنفسها

لبقيتْ منها ناحيةٌ لاتختلط ، إذ ترى أمتَه دون أمتها ، وجنسَه دون جنسها ؛ فما تَسُب أمةَ زوجها وبلادَه بأقبحَ من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقى حين يأتى بالأجنبية لتَلوِين حياته بألوان الأنثى .... لايكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائبِ حياته ! وقد يكون هناك ما يَشذّ ، ولكن هذه هى القاعدة .

* * *

أما قصتى يا إخوانى.......

قال الدكتور محمد : قد حكيتَها « يرحمك الله » .

قصيدة مترجمة عن الشيطان

لحوم البحر *

لكأنما والله تمدَّد على سيفِ البحر فى الإسكندرية شيطانٌ ماردٌ من شياطينِ ما بينَ الرجلِ والمرأة ، يخدعُ الناسَ عن جهنمَ بتبريدِ معانيها . . . وقد امتلأ به الزمانُ والمكان ؛ فهو يُرْعِشُ ذلك الرملَ بذلك الهواء رَعشةَ أعصاب حية ؛ ويُرْسل فى الجو نفخاتٍ من جُرأة الخمر فى شاربها ثارَ فعربد ، ويُطلِعُ الشمسَ للأعين فى منظرِ حسناء عُريانة ألقتْ ثيابَها وحياءها معًا ؛ ويُرخِي الليلَ ليغطيَ به المخازِي التى خجل النهارُ أن تكونَ فيه .

ولعَمرى إن لم يكن هو هذا الماردَ ، ما أحسبُه إلا الشيطانَ الخبيثَ الذى ابتدع فكرةَ عرضِ الآثامِ مكشوفةً فى أجسامها تحت عين التقىّ والفاجر ، لتعملَ عملَها فى الطباع والأخلاق ؛ فسوَّلَ للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاجُ الملَل من الحر والتعب ، حتى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشابكوا ، سوَّلَ لهم الأخرى أن الشاطئ هو كذلك علاج الملَل من الفضيلة والدين !

وإن لم يكن اللعينان فهو الرجيمُ الثالث ، ذلك الذى تألّى أن يُفْسِد الآدابَ الإنسانيةَ كلها بفساد خُلُق واحد ، هو حياء المرأة ؛ فبدأ يكشفُها للرجال من وَجهها ، ولكنه استمرَّ يكشف . . . وكانت تظنة نَزْعَ حجابها فإذا هو أولُ عُرْيها . . . وزادت المرأةُ ، ولكن بما زاد فجورَ الرجال ؛ ونقصتْ ، ولكن بما نقصَ فضائلَهم ؛ وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع ؛ فإذا تلك المرأة ممن يُقرُّونها على تبذّلها بين رجلين لا ثالثَ لهما : رجلٍ فجرَ ، ورجل تخنث . . .

* * *

هناك فكرةٌ من شريعة الطبيعة هى عقلُ البحر فى هؤلاء الناس ، وعقلُ

---

* كتبها فى مصيفه بالإسكندرية .

هؤلاء الناس فى البحر ؛ إذا أنت اعترضتَها فتبينتها فتعقبتَها ، رأيتَها بلاغةً من بلاغة الشيطان فى تزيينه وتَطْويعه ، وأصبتَ فكرَه مستقرًّا فيها استقرارَ المعنى فى عبارته ، آخذاً بمداخلها ومَخارجها . وما كان الشيطانُ عَيِيًّا ولاغبيًّا ، بل هو أذكى شعراء الكون فىخَيَاله ، وأبلغُهم فى فطنته، وأدقُّهم فى منطقه ، وأقدرُهم على الفتنة والسحر ؛ وبتمامه فى هذا كلّه كان شيطاناً لم تَسَعْه الجنةُ إذ ليس فيها النار ، ولم تُرضِه الرحمةُ إذ ليس معها الغضَب ، ولم يُعجبه الخضوعُ الملائكى إذ ليس فيه الكِبرياء ، ولم يَخْلص إلى الحقيقة إذ لاتحملُ الحقيقةُ شِعرَ أحلامه .

وما أتى الشيطانُ أحداً ، ولا وسوسَ فى قلب ، ولاسَوَّلَ لنفس ، ولا أغوى من يغويه — إلا بأسلوب شعرىّ مُلْتَبِسٍ دقيقٍ ، يجعلُ المرء يعتقد أن اطراحَ العقلِ ساعةً هو عقلُ الساعة ، ويُفْسِدُ برهانهُ مهما كان قويًّا ؛ إذ يرتدُّ به من النفس إلى أخيِلة لاتقبلُ البرهانات ، ويقطعُ حجتَه مهما كانت دامغة ؛ إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجِهها كيف داربها الدم لا كيف دار بها المنطق .

فكرةٌ من شريعة الطبيعة ، ظاهرُها لِبَعْضِ الأمر من الشمسِ والهواء والبحر ومالا أدرى ، وباطنُها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغتِه وشعره وما لا أدرى ؛ وما كانت الشرائعُ الإلهيةُ والوضعيةُ إلا لإقرار العقل فى شريعة الطبيعة كى تكون إنسانيةً لإنسانها كماهى الحيوانيةُ لحيوانها ، وليجد الإنسانُ ما يحفظُ به نفسَه من نفسه التى هى دائمًا فَوضى ، ولاغاية لها لولا ذلك العقلُ إلا أن تكون دائمًا فوضى . . .

وبالشرائع والآدابِ استطاع الإنسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذةِ عليه جوابًا ، وأن يرى فى هذه الطبيعة أثر جَوابه ؛ فكلمتُها هى : أيها الإنسان ، أنت خاضعٌ لى بالحيوانىّ فيك . وكلمته هى : أيتها الطبيعة ، وأنتِ لى خاضعة بالإلهىّ فىّ .

* * *

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنّية التى نظمَها الشيطانُ على رمل الشاطئ فى الإسكندرية ؛ وقد نقلتها أترجمها فصلا بعد فصل عن تلك الأجسام عاريةً

وكاسية ، وعن معانيها مكشوفةً ومغطَّاة ، وعن طباعها بريئةً ومتهمة ، حتى اتَّسقَت الترجمةُ على ما ترى :

قال الشيطان :

« ألا إن البهيمة والعقلية فى هذا الإنسان ؛ مجموعُهما شيطانية . . .

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به .

هنا تتعرَّى المرأة من ثوبها ، فتتعرى من فضيلتها .

هنا يخلعُ الرجلُ ثوبَه ، ثم يعودُ إليه فيلبسُ فيه الأدب الذى خلَعه . . .

رؤية الرجلِ لحم المرأةِ المحرَّمةِ نظرٌ بالعين والعاطفة .

يَرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصَّيد .

ونَظَرُ المرأةِ لحم الرجلِ رؤيةُ فكر فقط . . .

تُحوِّلُ بصرها أو تخفِضُه ، وهى من قلبها تنظر . . .

يا لحوم البحر ! سلخَكِ من ثيابك جزَّار . . . !

* * *

« يالحوم البحر ! سلخكِ جزارٌ من ثيابك .

جزارٌ لايذبح بألم ولكن بلذَّة . . .

ولا يَحزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة . . .

ولا يُميت الحيَّ إلا موتًا أدبيًّا . . .

إلى الهيجاء يا أبطال معركةِ الرجال والنساء .

فهنا تلتحِمُ نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق .

للطبيعة أسلحة العُرْى ، والمخالطة ، والنظر ، والأنس ، والتَّضاحُك ، ونزُوعِ المعنى إلى المعنى . . .

وللأخلاقَ المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صدِئَ ؛ وسلاحٌ من الحياء مكسور !

يالحوم البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . .

* * *

« الشاطئ كبيرٌ كبير ، يسعُ الآلاف والآلاف .

ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير ، حتى لايكون إلا خلْوة . . .

وتقضِي الفتاة سنتَها تتعلم ، ثم تأتى هنا تتذكر جهلَها وتعرفُ ماهو . . . .
وتُمْضِي المرأة عامَها كريمة ، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعى . . .
لو كانت حَجَّاجَةً صوَّامَةً ، للعنتْها الكعبةُ لوجودها فى "استانلى" .
الفتاة ترى فى الرجال العُرْيانين أشباح أحلامِها ، وهذا معنى من السقوط .
والمرأة تُسارِقُهم النظَر تنويعاً لرجُلِها الواحد ، وهذا معنى من المَواخِير . .
أين تكونُ النيةُ الصالحةُ لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين ؟
ياحوم البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . . . !

* * *

« هناك التربية ، وهنا إعلانُ الإغفال والطَّيش .
وهناك الدين ، وهنا أسبابُ الإغراء والزلَل .
هناك تَكلُّفُ الأخلاق ، وهنا طبيعةُ الحرية منها .
وهناك العزيمةُ بالقَهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد يوم .
والبحرُ يعلِّم اللائى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر . . .
لو درى هؤلاء وهؤلاء مَعَرَّة اغتسالهِم معاً فى البحر ، لاغتسلوا من البحر .
فقطرةُ الماء التى نجَّستْها الشهواتُ قد انسكبتْ فى دمائهم .
وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ فى الشاطئ ، ستكبَرُ حتى تصير بيتاً نَجِساً لأب وأم . . .
ياحوم البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . . !

* * *

« يجيئون للشمس التى تَقْوى بها صفاتُ الجسم ؛
ليجد كل من الجنسين شمسَه التى تضعُفُ بها صفاتُ القلب .
يجيئون للهواء الذى تتجدَّد به عناصرُ الدم ؛
ليجدوا الهواء الآخر الذى تَفْسُدُ به معانى الدم .
يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية ؛
ليأخذوا عنه أيضاً شريعتَه الطبيعية : سمكةٌ تطارِدُ سمكة . . .

ويقولون ليس على الـمُصيِّفِ حَرَج ،
أي لأنه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حَرَج .
ياحوم البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . . !

* * *

« المدارس ، والمساجد ، والبِيَعُ ، والكنائس ، ووزارة الداخلية ؛
هذه كلّها لن تهزم الشاطئ .
فأمواجُ النفسِ البشرية كأمواج البحرِ الصاخب ، تنهزمُ أبداً لترجع أبداً .
لايهزم الشاطئَ إلا ذلك "الجامعُ الأزهر" ، لو لم يكن قد مُسِخ مدرسة !
فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح .
وتردُّ الأمواج نقيةً بيضاء[1] ، كأنها عمائم العلماء .
وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصلِ بين الرجال والنساء .
ولكنى أرى زمناً قد نَقل حتى إلى المدارس رُوح « الكازينو » . . . !
ياحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . . !

* * *

« هنا على رغم الآداب ، مملكةٌ للصيف والقَيْظ ، سلطانُها الجسمُ المؤنثُ العارى .
أجسامٌ تَعرِضُ مَفَاتِنَهَا عَرض البضائع ؛ فالشاطئ حانوتٌ للزواج !
وأجسامٌ تَعرِضُ أوضاعَها كأنها فى غُرفةِ نومها فى الشاطئ . . . .
وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها ، تُحيط بها معانيها ملتمِسةً معانيه ؛ فالشاطئ سوقٌ للرقيق . . .
وأجسام خَفِرةٌ جالسةٌ للشمسِ والهواء ؛ فالشاطئ كدار الكُفْرِ لمن أُكْرِه[2] .
وأجسامٌ عليلة تَقْتَحِمُها الأعينُ فتزدريها ، لأنها جَعلتِ الشاطئ مستشفى . . . !

---

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ، ولسنا من هذا الرأى ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه ، لغفلتهم عن السير فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد ، ومرة فى الوصف بالجمع .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « . . . إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وأجسامٌ خليعة أضافت من (استانلى) وأخـَواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية ــ مَزْبلَة الإسكندرية . . .

كان جدالُ المسلمين فى السفور ، فأصبح الآن فى العُرْى .

فإذا تطورَّ ، فماذا بقى من تقليد أوربا إلا الجدالُ فى شرعية جمعِ المرأة بين الزوج وشبْه الزوج[1] ؟ »

* * *

انتهى ما استطعتُ ترجمته ، بعد الرجوع فى مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحية . . . إلى بعض شبان الشاطئْ .

---

(١) يسمى هذا فى اللغة الضمد بفتح الضاد والميم ، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج ، ومنه قول الشاعر :

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد

ومن هذا يقال فى الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) أى ذاق الطعم الذى وصفه أناتول فرانس . . . .

قصيدة مترجمة عن الملَك :

احذرى . . . !

ترجَمْنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر) . وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة؛ رآنى جالساً تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحاذِرُهُ أو تتَوجَّسُ منه الشرَّ؛ فتَخايَل الملكُ بأضوائه فى الضوء، وسَنَح لى برُوحه، وبَثَّ فىَّ من سرّه الإلهى ، فجعلتُ أنظرُ فى قلبى إلى فجر من هذا الشعر يَنْبُعُ كلمةً كلمة ، ويُشْرِقُ معنى معنى ، ويَستطيرُ جملةً جملة ، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ فى حُلُم من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك الملَك وتركها فى يدى لُغَةً من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكيتها :

• • •

احــــذرى . . . !

« احذرى أيتُها الشرقيةُ وبالغِى فى الحذر ، واجعلى أخصَّ طباعِك الحذر وحده .

احذرى تمدُّن أوربا أن يجعل فضيلَتكِ ثوباً يُوسَّعُ ويُضيَّق ؛ فلُبْسُ الفضيلةِ على ذلك هو لُبْسُها وخَلْعُها . . .

احذرى فنَّهم الاجتماعىَّ الخبيث الذى يَفْرِضُ على النساء فى مجالس الرجالِ أن تؤدّى أجسامُهُنَّ ضريبة الفن . . .

احذرى تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة ؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظَّرْف والرقة إلى . . . إلى الفَضيحة .

احذرى تلك النسائية[1] الغَزَليَّة ؛ إنها فى جملتِها تَرخِيصٌ اجتماعى للحُرَّة أن . . . أن تُشارِك البَغِىَّ فى نصفِ عملها .

---

(١) نحن نستعمل : النسائية والنسوية ، وكلاهما عندنا صحيح ، والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه .

أيتُها الشرقية ! احذ رى احذرى !

* * *

« احذرى التمدن الذى اخترع لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدّس ، لقب " المرأة الثانية " . . .

واخترع لقتل لقبِ العذراء المقدّس ، لقب « نصف عذراء » . . .

واخترع لقتل دِينيةِ معانى المرأة ، كلمة « الأدب المكشوف » . . .

وانتهى إلى اختراع السُّرعة فى الحب . . . فاكتفى الرجلُ بزوجةِ ساعة . . .

وإلى اختراع استقلالِ المرأة ، فجاء بالذى اسمُهُ (الأبُ) من الشارع ، لتلقى بالذى اسمُهُ (الابنَ) إلى الشارع . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى وأنتِ النَّجْمُ الذى أضاء منذُ النبوّة ، أن تقلّدى هذه الشمعة التى أضاءتْ منذُ قليل .

إن المرأة الشرقية هى استمرارٌ متصلٌ لآدابِ دينِها الإنسانىّ العظيم .

هى دائمًا شديدةُ الحفاظ حارِسَةٌ لحَوْزتها ؛ فإن قانون حياتها دائمًا هو قانونُ الأمومة المقدّس .

هى الطُّهر والعفة ، هى الوفاء والأنَفة ، هى الصبرُ والعزيمة ، هى كلُّ فضائِل الأمّ .

فما هو طريقُها الجديدُ فى الحياة الفاضلة ، إلا طريقُها القديمُ بعينه ؟

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى (ويحكِ) تقليد الأوربية التى تعيشُ فى دنيا أعصابها محكومةً بقانونِ أحلامها . . .

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيّةً نفسيّةً فقط ، بل حالةً عقليّةً أيضًا تَشُكُ وتُجادِل . . .

أنوثةٌ تَفَلْسَفَتْ فرأتِ الزواج نصف الكلمة فقط . . والأمّ نصف

المرأه فقط . . .

ويا ويل المرأةِ حين تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ ، فتنفجرُ بالدواهى على الفضيلة . . .

إنها بذلك حُرَّةٌ مساوِيةٌ للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى خَجَلَ الأوربية المترجِّلةِ من الإقرار بأنوثتها .

إن خَجَلَ الأنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها . . .

إنه يُسقِطُ حياءها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعيَّة ،

إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى . . .

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية ، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجة إنسانيةً بالزواج .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى تَهَوُّس الأوربية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوتهُ فى الذهابِ إلى الحلاق ، ولكن الحلاَّق لم يجد فى وجهها اللِّحْية . . .

إنها خُلقت لتَحْبيب الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادّة تبغيض .

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبَى أبداً أن تَتَساوى المرأةُ بالرجلِ إلا إذا خَسِرتْه.

والأعجبُ أنها حين تخضع ، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُه عن المساواة بالرجل إلى السيادة عليه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى أن تَخسرى الطباع التى هى الأليقُ بأمّ أنجبت الأنبياء فى الشرق .

أمٌ عليها طابَعُ النفسِ الجميلة ، تَنْشُرُ فى كل موضعٍ جَوَّ نفسِها العالية .

فلو صارت الحياةُ غَيماً ورعداً وبَرقاً ، لكانت هى فيها الشمس الطالعة .

ولو صارت الحياةُ قَيْظاً وحَرُوراً واختِناقاً ، لكانت هى فيها النسيم يتَخَطَّر .

أمٌ لاتُبالى إلا أخلاق البُطولةِ وعزائمَها ، لأن جَدَّاتِها ولَدْن الأبطال .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى .!

* * *

« احذرى هؤلاء الشبَّان المتمدنين بأكثر من التمدن . . .

يُبالغُ الخبيثُ فى زينته، وما يدرى أن زِينتَه مُعْلِنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر . .

ويبالغُ فى عَرض رُجولتِه على الفَتيَات ، يحاولُ إيقاظ المرأةِ الراقدَة فى العذراء المسكينة !

ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد ؛ فالرجالُ جميعاً مَصائبُها إلا واحداً .

وإذ هى خالطتِ الرجال ، فالطبيعىُّ أنها تُخالط شَهَوات ، ويجب أن تحذَرَ وتُبالغ .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى ؛ فإن فى كل امرأة طبائعَ شريفةً مُتَهوِّرة ؛ وفى الرجالِ طبائع خسيسة متهوِّرة .

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرفِ فيه الميل إلى النزول ، وبين الخِسَّةِ فيها الميل إلى الصُّعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ ، والحَنان ، والإيثار ، والإخلاص ، كلما كَبُرْتِ كَبُرَتْ .

طبائع خَطِرَة ، إن عملت فى غير موضعها . . . جاءت بعكس ما تعملُه فى موضعها .

فيها كلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ ، فإذ انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعينها : هى فَنِّيَّة الجمال أو فنيَّة الأنوثة .
وافهميها أنتِ هكذا : واجبات الأنوثة وواجبات الجمال .
بكلمةٍ يكون الإحساس فاسداً ، وبكلمة يكون شريفاً .
ولا يَتَسَقَّط الرجل امرأةً إلا فى كلمات مُزَيَّنَة مثلِها . . .
يجب أن تَتَسَلَّحَ المرأة مع نظرتها ، بنظرةِ غضَب ونظرةِ احتقار .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى أن تُخْدَعى عن نفسك ؛ إن المرأةَ أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة .
إن الكلمةَ الخادعةَ إذ تقال لك ، هى أخت الكلمةِ التى تقال ساعةَ إنفاذِ الحكمِ للمحكومِ عليه بالشَّنْق . . .
يَغْتَرُّونك بكلماتِ الحب والزواج والمال ، كما يقال للصاعِد إلى الشنَّاقة[1] ماذا تشتهى ؟ ماذا تريد ؟
الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صَلاَة الثعلب حين يَتظاهر بالتقوى أمام الدَّجاجة . . .
الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحمَ الدَّجاجة ! بعض كلماتِ الثعلب هى أنياب الثعلب . . .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى .

* * *

« احذرى السقوط ؛ إن سقوطَ المرأة لهولِهِ وشدَّتِه ثلاث مَصائبَ فى مصيبة :

---

(١) كلمة « المشنقة » ليست عربية ، ولكن لها وجهاً فى الاشتقاق ، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة ، وكان اسمها قديماً « الشناقة » ، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ، وهى أفصح وأخف ، فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة . . . .

سقوطُها هى ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوط من تُوجِدهم !

نوائب الأسرةِ كلها قد يَستُرها البيت ، إلا عارَ المرأة .

فبيَد العار تَقَلّب الحيطانَ كما تقلب اليد الثوبَ فتجعل مالا يُرى هو ما يُرى .

والعار حكمٌ يُنفذه المجتمع كلُّه ، فهو نَفْىٌ من الاحترام الإنسانى :

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« لو كان العار فى بئر عميقة لقلبها الشيطان مِئْذنةً وقفَ يُؤذّن عليها .

يفرَح اللعين بفضيحةِ المرأة خاصّةً ، كما يفرح أبٌ غنىٌّ بمولود جديد فى بيته . . .

واللصُّ ، والقاتل ، والسكّير ، والفاسق ، كلُّ هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحرّ والبرد :

أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هى الزّلزلة .

ليس أفظعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض ، إلا عارَ المرأة حين يشق الأسرة

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى ! »

الجمال البائس *

١

« وكيف يُشعَب صَدْعُ الحبِّ في كَبِدِي » ، كيف يُشعب صدع الحب ؟

لَعمْري ما رأيت الجمالَ مرةً إلا كان عندي هو الألمَ في أجملِ صوَرِه وأبدعِها ؛ أتُراني مخلوقًا بجُرْحٍ في القلب ؟

ولاتكون المرأة جميلةً في عيني ، إلا إذا أحسست حين أنظر إليها أن في نفسي شيئًا قد عرفها ، وأن في عينيها لَحَظات موجَّهةً ، وإن لم تنظر هي إليَّ .

فإثبات الجمالِ نفسَه لعيني ، أن يُثْبِتَ صداقتَه لروحي باللَّمْحة التي تدلُّ وتتكلم : تدلُّ نفسي وتتكلم في قلبي .

* * *

كنت أجلس في (الإسكندرية) بين الضُّحَى والظهرِ، في مكان على شاطئ البحر ، ومعي صديقي الأستاذ(ح) ** من أفاضل رجال السلك السياسي ، وهو كاتبٌ من ذوي الرأي ، له أدبٌ غَضٌّ ونوادر وظرائف ؛ وفي قلبه إيمانٌ لاأعرف مثلَه في مثله ، قد بلغ ماشاء الله قوة وتمكُّناً ، حتى لأحسب أنه رجلٌ من أولياء الله قد عُوقب فحُكِم عليه أن يكونَ محاميًا ، ثم زيد الحكم فجُعل قاضيًا ، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسيًّا . . .

وهذا المكانُ ينقلب في الليل مَسْرَحًا ومَرقَصًا وما بينهما ... فيتَغَاوَى فيه الجمال والحب ، ويَعرِضُ الشيطانُ مصنوعاتِه في الهزْل والرقص والغناء[1] ، فإذا

---

* انظر قصة صاحبة الجمال البائس في « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعي .

** الأستاذ حافظ عامر (بك) .

(١) انظر مقالة (لو . . .) في الجزء الثاني ، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه .

دخلتَه فى النهار رأيتَ نورَ النهار كأنه يغسلُه ويغسلك معه ، فتُحس للنور هناك عملاً فى نفسك .

ويُرَى المكانُ صدْراً من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل ، فما تجيئه من ساعة بين الصبح والظهر ، إلا وجدتَه ساكناً هادئاً كالجسم المستثقِل نوماً ؛ ولهذا كنتُ كثيراً ما أكتب فيه ، بل لا أذهبُ إليه إلا للكتابة .

فإذا كان الظهرُ أقبل نساء المسرح ومعهن من يُطارِحُهن الأناشيدَ وألحانَها ، ومن يُثقِّفهن فى الرقص ، ومن يُرَوِّيهِنَّ ما يُمثِّلْنَ إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتُساقِطَ عليهن الليالى بالموت ليلةً بعد ليلة .

وكنَّ إذا جئْنَ رأينَنى على تلك الحال من الكتابة والتفكير ، فينصرفْنَ إلى شأنِهن ، إلا واحدةً كانت أجملَهن * وأكثرُ هؤلاء المسكينات يَظهرْنَ لعين المتأمل كأن منهن مثلُ العنزِ التى كُسِر أحدُ قرنيها ، فهى تحمل على رأسها علامةَ الضعفِ والذلةِ والنقص ، ولو أن امرأةً تتبدَّدُ حينا فلاتكونُ شيئًا ، وتجتمعُ حيناً فتكون مرة شيئًا مقلوبًا ، وأخرى شكلاً ناقصًا ، وتارةً هيئة مُشوَّهة ؛ لكانت هى كلَّ امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتى يمشينَ فى المسرَّات إلى المخاوف ، ويعشْنَ ولكن بمقدَّمات الموت ، ويجدْنَ فى المال معنى الفقر ، ويتَلقَّينَ الكرامةَ فيها الاستهزاء ، ثم لايعرفن شابًّا ولارجلاً إلا وقعت عليهنَّ من أجله لعنة أب أو أم أو زوجة .

* * *

وتلك الواحدة التى أومأتُ إليها كانت حزينةً مُتَسلِّبةً[1] فكأنما جذَبها حزنُها إلىّ ، وكانت مفكرة فكأنما هداها إلىّ فكرُها ، وكانت جميلةً فدلَّها علىّ الحب ، وما أدرى والله أىُّ نفسَيْنا بدأتْ فقالت للأخرى أهلاً . . .

ورأيتُها لاتصرفُ نظرَها عنى إلا لتردَّه إلىّ ، ولاتردُّه إلا لتصرفَه ؛ ثم رأيتُها قد جال بها الغزَلُ جَوْلةً فى معركته . . . فتشاغلتُ عنها لا أُرِيها أنى أنا الخَصْمُ الآخرُ فى المعركة . .

* يعنى راقصة هناك اسمها « بنوتشيا » .

(١) يقال : تسلبت المرأة . إذا أحدت ، أى لبست ثياب الحداد .

بَيْدَ أنى جعلتُ آخذُها فى مَطارِح النظر ، وأتأملُها خُلْسَةً بعد خُلسة فى ثوبها الحريرىّ الأسود ، فإذ هو يَشُبُّ لونَها(١) فيجعلُه يتلألأ ، ويُظهِرُ وجهَها بلون البدر فى تِمِّه ، ويُبديه لعينىَّ أرقَّ من الورد تحت نور الفجر .

ورأيتُ لها وجهًا فيه المرأةُ كلّها باختصار ، يُشرِقُ على جسم بَضٍّ ألْيَنَ من خَمْلِ النّعام ، تَعْرِضُ فيه الأنوثةُ فنَّها الكامل ؛ فلو خُلِقَ الدلالُ امرأةً لكانَتْها .

وتَلُوحُ للرائى من بعيد كأنها وَضَعت فى فمها (زِرَّ وَرْد) أحمرَ مُنْضمًّا على نفسه : شفتان تكادُ ابتسامتُهما تكون نداء لشفَتَىْ مُحبٍّ ظمآن . . . !

أما عيناها فما رأيتُ مثلَهما عينَىِ امرأة ولا ظَبْية ؛ سوادُهما أشدُّ سواداً من عيون الظباء ؛ وقد خُلِقَتا فى هيئة تُثبت وجودَ السحرِ وفعْلَه فى النفس ؛ فهما القوةُ الواثقةُ أنها النافذةُ الأمر ، يُمازِجُها حَنانٌ أكثرُ مما فى صدر أم على طفلها ؛ وتمامُ الملاحَةِ أنهما هما ، بهذا التكحيل ، فى هذه الهيئة ، فى هذا الوجهِ القَمَرِىّ .

يا خالقَ هاتينِ العينين ! سبْحانَك سبحانَك !

* * *

قال الراوى :

وأتغافَلُ عنها أياماً ؛ وطال ذلك منى وشَقَّ عليها ، وكأنى صَغَّرتُ إليها نفسها ، وأرهقتها بمعنى الخضوع ، بيد أن كبرياءها التى أبت لها أن تقدم ، أبتْ عليها كذلك أن تنهزم .

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أسْتَنْشِى العِطرَ يكون مُتَضَوِّعًا فى الهواء : لا أنا أستطيعُ أن أمَسَّه ولا أحدٌ يستطيع أن يقولَ أخذْتَ منى . ثم لاتدفعُنى إليه إلا فِطرة الشعرِ والإحساسِ الرُّوحانىّ ، دون فطرةِ الشرّ والحيوانية(٢) ومتى أحسستُ جمالَ المرأة أحسستُ فيه بمعنىً أكبرَ من المرأة ، أكبرَ منها ؛ غيرَ أنه هو منها .

---

(١) يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال .

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، فلم نتوسع فيه هنا .

قال الراوى :

فإنى لجالس ذات يوم وقد أقبلت على شأنى من الكتابة ، وبازائى فتى رَيِّقُ الشبابِ ، فى العُمرِ الذى تَرى فيه الأعينُ بالحماسةِ والعاطفة ، أكثرَ مما ترى بالعقل والبَصيرة ، ناعمٌ أملَدُ تمّ شبابُه ولم تتِمّ قوتُه ، كأنما نكَصَتِ الرجولةُ عنه إذ وافتْه فلم تجدْه رجلا ... أو تلك هى شيمةُ أهل الظَّرفِ والقَصْفِ من شبان اليوم : ترى الواحدَ منهم فتعرفُ النُّضجَ فى ثيابه أكثرَ مما تعرفه فى جسمه ، وتأبَى الطبيعةُ عليه أن يكونَ أنثى فيجاهِدُ ليكونَ ضَرْبًا من الأنثى ..! إنى لجالسٌ إذ وافَتِ الحسناء فأومأتْ إلى الفتى بتحيتها ، ثم ذهبتْ فاعتَلَتْ المِنَصَّةَ مع الباقيات ، ورقصتْ فأحسنتْ ما شاءت ، وكأن فى رقصها تعبيراً عن أهواء ونزَعات تريدُ إثارَتَها فى رجل ما ... فقلتُ لصاحبنا الأستاذ(ح) : إن كلمة الرقص إنما هى استعارةٌ على مثل هذا ، كما يستَعِرْنَ كلمةَ الحب لجمع المال ؛ ولارقصَ ولاحبَّ إلا فُجورٌ وطمعٌ .

ثم إنها فرغت من شأنها فمرّتْ تتَهَادَى حتى جاءت فجلستْ إلى الفتى ... فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمّ بما فى نفسها : أتُراها جعلته ههنا مَحَطّةً ... ؟

قال الراوى : أما أنا فقلتُ فى نفسى لقد جاء الموضوع ... وإنى لفى حاجة أشدّ الحاجةِ إلى مقالة من المكْحُولات ، فتفرّغتُ لها أنظرُ ماذا تصنع ، وأنا أعلم أن مثلَ هذه قليلاً ما يكونُ لها فكرٌ أوفلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفةَ والمعانىَ كلها تكون فى نظرها وابتساماتِها وعلى جسمها كلِّه .

* * *

وكان فتاها قد وَضَع طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهدٍ رَجعَ حكمُ الطربوشِ فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة ... فأسفر ذاك من طربوشه ، وأسفرتْ هذه من نقابها — قال الراوى : فما جلستْ إلى الفتى حتى أدْنتْ رأسَها من الطربوش ، فاستنامَتْ إليه ، فألصقت به خدّها ...

ثم التفتتْ إلينا التفاتةَ الخِشْفِ المذعور استرْوَحَ السَّبُعَ[1] ووجدَ مقدَّماتِه في الهواء ، ثم أرْخت عينيها في حياء لا يَستَحِي . . . .

وأنشأتْ تتكلم وهي في ذلك تُسارِقُنا النظرَ ، كأن في ناحيتنا بعضَ معاني كلامها . . .

ثم لا أدري ما الذي تَضاحَكَتْ له ، غير أن ضحكتها انشقّتْ نصفين ، رأينا نحن أجملَهما في ثغرِها . . .

ثم تزَعزَعتْ في كرسيِّها كأنما تَهُمُّ أن تنقلبَ، لتمتَدَّ إليها يدٌ فتُمسِكها أن تنقلب . . .

ثم تسانَدَت على نفسها ، كالمريضةِ النائمةِ تَتَناهَضُ من فِراشها فيكاد يئن بعضها من بعضها ، وقامتْ فمشتْ ، فحاذَتنا ، وتجاوزَتْنا غير بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكَسِّرَةً كأن فيها قوةً تُعلِنُ أنها انتهت . . .

* * *

قال الراوي :

ونظرتُ إليها نظرةَ حزن ؛ فتغضَّبَتْ واغتاظت ، وشاجَرَتْ هذه النظرةَ من عينيها الدَّعجَاوَيْن بنظرات متهكِّمة ، لا أدري أهي توَبخُنا بها ، أم تتَّهمنا بأننا أخذنا من حُسنها مجَّانًا . . . ؟

فقلتُ للأستاذ (ح) ، وأنا أجْهَرُ بالكلام ليَبْلُغَها :

أما ترى أن الدنيا قد انتكَستْ في انتكاسها ، وأن الدهرَ قد فسَدَ في فساده ، وأن البلاء قد ضوعِفَ على الناس ، وأن بقيةً من الخير كانت في الشرّ القديم فانتُزِعت ؟

قال : وهل كان في الشر القديم بقيةُ خير وليس مثلُها في الشر الحديث ؟

قلت : ههنا في هذا المسرح قِيانٌ لو كانت إحداهن . . . في الزمن القديم ، لتَنَافَسَ في شرائها الملوكُ والأمراء وسَرَاةُ الناسِ وأعيانُهم ، فكان لها في عَهارة الزمن صَوْنٌ وكرامة ، وتتقلَّبُ في القصور فتجعلُ لها القصورُ حرمةً تمنعها

---

(١) الخشف : ولد الغزال ، يطلق على الذكر والأنثى . واسترْوح السبع : أي وجد ريحه في الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان .

ابتذالَ فنِّها لكل من يدفع خمسةَ قروش ، حتى لِرُذّال الناس وغَوْغائِهم وسَفِلَتِهم ؛ ثم هى حين يُدْبِرُ شبابُها تكون فى دار مولاها حَمِيلةً على كرَم يحملُها ، وعلى مُروءة تعيش بها .

وقديمًا أخذتْ سَلاّمةُ الزرقاء فى قُبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم ، تبلغ ألفى جنيه . فهل تأخذُ القَيْنَةُ من هؤلاء إلا دَخِينةً[1] بمليمين . . . . ؟

قال الأستاذ(ح) : ما أبعدَكَ يا أخى عن (بورصة) القُبْلة وأسعارِها . . ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الراوى :

كانت سَلاّمةُ هذه جاريةً لابن رَامين[2] ، وكانت من الجمال بحيث قيل فى وصفها : كأن الشمس طالعةٌ من بين رأسِها وكتفَيْها ؛ فاستأذن عليها فى مجلس غِنائها الصَّيرفىُّ الملقَّب بالماجن ، فلما أذِنتْ له ، دخل فأقْعَى بين يديها ، ثم أدخل يدَه فى ثوبه فأخرجَ لؤلؤتين ، وقال : انظرى يا زرقاء جُعِلتُ فِدَاك . ثم حَلَفَ أنه نقدَ فيهما بالأمسِ أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنعُ بذاك ؟ قال : أردتُ أن تعلمى . . .

ثم غنَّت صوتًا وقالت : يا ماجِنُ هبْهما لى ويحك . . قال : إن شئتِ والله فعلتُ .قالت : قد شئتُ .قال : واليمينُ التى حلفتُ بها لازمةٌ لى إنْ أخذتِهما إلا بشفتيكِ من شفتىَّ . . . . . .

* * *

قال الراوى :

ورأيتُها قد أذِنَتْ لى ، وأنصتتْ لكلامى ، وكأنما كانت تَسمعُنى أعتذِر إليها ، واستيقنَتْ أنْ ليس بى إلا الحزنُ عليها والرثاء لها ، فبدَتْ أشدَّ حَيَاء من العذراء فى أيام الخِدْر . . . .

ثم قلتُ : نعم كان ذلك الزمنُ سفيهًا ، ولكنها سفاهةُ فنّ . . .

---

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة ، وجمعها الدخائن .

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) ، كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة ، بمائة ألف درهم .

لاسفاهةُ عـرْبدَة وتـصَعْلك كما هى اليوم .

فنظرتْ إلىَّ نظرةً لن أنساها ؛ نظرةً كأنها تـدْمـع ، نظرةً تقول بها : ألستُ إنسانة ؟ فلم أملك أن قلتُ لها : تـَعالى تعالى .

وجاءت أحلى من الأمل المعترِض سـَنـَحـَتْ به الفـُرصة ، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ . . .

الجمال البائس

٢

جاءتْ أحلى من الأمل المعترِض سَنَحتْ به فرصة ؛ وعلى أنها لم تَخطُ إلينا إلا خطوةً وتمامها ، فقد كانت تجدُ فى نفسها ما تجدُه لو أنها سافرتْ من أرضٍ إلى أرضٍ ، ونقلها البُعْدُ النازحُ من أُمَّة إلى أمة .

يا عجبًا ! إن جلوسَ إنسان إلى إنسان بإزائه ، قد يكونُ أحيانًا سفرًا طويلاً فى عالَم النفس ؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ فى دنيًا فارغة من خلالٍ كثيرة : كالتقوى ، والحياءِ ، والكرامة ، وسموِّ الروح ، وغيرها ؛ فإذا عرَضَ لها من يُشْعِرُها بعضَ هذه الخلال ، وينْتزعُها من دنيا اضطرارِها وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً — فما تكونُ قد وجدتْ شخصًا ، بل كشفتْ عالمًا تدْخُلُه بنفسٍ غيرِ النفسِ التى تُدَبِّرُها فى عالَمِ رزقها . . . .

ولا أعجبَ من سحر الحبِ فى هذا المعنى ؛ فإن العاشقَ ليكونُ حبيبُه إلى جانبه ، ثم لا يُحسُّ إلا أنه طوَى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جنةَ الخُلدِ فى قُبْلة . . .

* * *

جلستْ إلينا كما تجْلسُ المرأةُ الكريمةُ الخفِرَة : تُعطيك وجهَها وتبتعدُ عنكَ بسائرها ، وتُريك الغُصْنَ وتَخبأُ عنك أزهارَه . فرأيناها لم تستقبل الرجلَ منا بالأُنثى منها كما اعتادت ؛ بل استقبلتْ واجبًا برعاية ، وتلطفًا بحنان ، وأدبًا من فنٍّ بأدبٍ من فن آخر ؛ وكان هذا عجيبًا منها ؛ فكلَّمها فى ذلك الأستاذ (ح) فقالت : أمَّا واحدةٌ فإننا نتَّبِعُ دائمًا محبَّةَ من نجالسُهم ، وهذه هى القاعدة . وأما الثانيةُ ، فإننا لا نجدُ الرجلَ إلا فى النَّدْرة ؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يتَسوَّمونَ بسيما الرجال ، كحيلة المحتالِ على غفْلة المغفَّل ؛ وهم معنا كالقُدرةِ بالثمنِ ما يشتريه الثمن ؛ ليسوا علينا إلا قهْرًا من القهر ؛ ولسنا عليهم إلا سَلْبًا من السَّلب ، مادةٌ مع مادة ، وشرٌّ على شر ؛ أما الإنسانيةُ منا ومنهم فقد ذهبَتْ أو هى ذاهبة .

قال(ح) : ولكن . . .

فلم تدعه يستدرك بل قالت : إنّ « لكن » هذه غائبةٌ الآن .... فلا تجيء في كلامنا . أتريد دليلاً على هذا الانقلاب ؟ إن كل إنسانٍ يعلم أن الخطّ المستقيمَ هو أقربُ مسافةٍ بين نقطتين ؛ ولكنّ كلّ امرأةٍ منّا تعلم أن الخطّ المعوَجّ هو وحدَه أقرب مسافة بينها و بين الرجل . . . .

قالت : فإذا وجدَتْ إحدانا رجلا بأخلاقه لا بأخلاقها . . ردّتْها أخلاقُه إلى المرأةِ التي كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتُها الزَّهْوَ بهذا الرجل النادر ، فتكونُ معه في حالةٍ كحالةِ أكملِ امرأة ، بَيْدَ أنه كمالُ الحُلمِ الذي يستيقظُ وَشيكًا ؛ فإن الرجلَ الكاملَ يكملُ بأشياءَ ،منها وا أسفا ... ! منها ابتعادُه عنا.

ثم قالت : وصاحبُك هذا منذُ رأيتُه ، رأيتُه كالكتاب يشغَلُ قارئه عن معاني نفسِه بمعانيه هو . . . .

* * *

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه ، فمتى كان الكتابُ عند هذه كتابًا يشغلُ بمعانيه ؟ غيرَ أني رأيتها قد تكلمتْ واحتفلَتْ ، وأحسنَت وأصابت ؛ فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح) ، وغبتُ عنهما غيْبةَ فكر ؛ وأنا إذا فكَّرْتُ انطبق عليّ قولهم: خلّ رَجُلاً وشأنَه. فلا يتصلُ بي شيءٌ مما حولي . وكان كلامُها يسطعُ لي كالمصباح الكهربائيّ المتوقّد ، فقدَّمها فكرُها إليّ غيرَ ما قدّمتها إليّ نفسُها، ورأيتُ لها صورتين في وقتٍ معًا ، إحداهما تعتذرُ من الأخرى . . . .

وكنتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ في تَذْكرة خواطري هذه الكلمةَ التي استوحيتُها منها ؛ لأضعَها في مقالة عنها وعن أمثالها ، وهي :

« إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشَريعتها ، فهل بقي منها إلا الأنثى مجرّدةً تجريدَها الحيوانيّ المتكشّفَ ، المتعرّض للقوة التي تناله أو ترغب فيه ؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى ؟

« وما الذي استرْعاها الاجتماعُ حينئذٍ فترعاه منه وتحفظُه له ، إلا ما استرعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة ؟ إن الليلَ ينطوِي على آفتين : أولئك اللصوصِ ، وهؤلاء النساء .

« وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة مادامت رذائلها دائماً وراء عينيها ، وما دام بإزاء عينيها دائما الأُمّهاتُ والمُحْصَنَاتُ من النساء ، وليس شأنُها من شأنهن ؟ إن خيالَها يُحْرزُ فى وَعْيِه صورتَها الماضيةَ من قبل أن تزِلَّ ، فإذا خلَتْ إلى نفسها كانت فيها اثنتان ، إحداهما تلعنُ الأخرى ، فترى نفسَها من ذلك على ما ترى .

« وهى حين تُطالعُ مرآتَها لِتتبرَّجَ وتحتفِلَ فى زينتها ، تنظرُ إلى خيالها فى المرآة بأهواءِ الرجال لابعينىْ نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة ؛ فلا تُعْنَى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة ، بل مُثْمِرةً كالتاجر . . . وتَكَسُّبُها بجمالها يكونُ أولَ ما تفكِّر فيه ؛ ومن ذلك لايكونُ سرورُها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكْسبُ منه ؛ بخلاف الطبع الذى فى المرأة ، فإن سرورَها بمَسْحَةِ الجمالِ عليها هو أولُ فكرها وآخرُه .

« إن الساقطةَ لاتنظر فى المرآة — أكثرَ ما تنظر — إلا ابتغاء أن تتعهَّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرَات الفُجور وأسبابَ الفتنة ، وما يَسْتَهْوِى الرجلَ وما يُفسِدُ العفَّة عليه ؛ فكأن الساقطةَ وخيالَها فى المرآة ، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأةٍ ، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسِها . . . »

* * *

ذهبتُ أفكر فى هذه الكلمةِ التى كتبتُها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألبسَ فى هذه القضية وجهَ القاضى ؛ فدخلَتْنى رِقةٌ شديدةٌ لهذا الجمالِ الفاتنِ ، الذى أراه يبتسم وحولَه الأقدارُ العابسة ؛ ويلهو وبين يديه أيامُ الدموع ؛ ويجتهدُ فى اجتذابِ الرجال والشبَّان إلى نفسه ، والوقتُ آتٍ بالرجال والشبَّان الذين سيجتهدون فى طَردِه عن أنفسهم .

وتَغَشَّانى الحزنُ ، ورأتْ هى ذلك وعرفتْه ؛ فأخرجتْ منديلَها المعطَّرَ ومسحتْ وجهَها به ، ثم هزَّته فى الهواء ، فإذا الهواء منديلٌ معطَّرٌ آخر مَسَحَتْ به وجهى . . .

وقال الأستاذ(ح) : آه من العِطر ! إنَّ منه نوعاً لاأستَنشيه مرةً إلا ردَّنى إلى حيث كنتُ من عشرين سنةً خلَتْ ، كأنما هو مُسَجَّلٌ بزمانهِ ومكانهِ فى دماغى . . .

فضحكتْ هي وقالت : إن عِطرنا نحن النساء ليس عِطراً بل هو شُعورٌ نُثبِتُه في شعورٍ آخر . . .

فقلت أنا : لاريبَ أن لهذه الحقيقةِ الجميلةِ وجهاً غيرَ هذا . قالت : وما هو؟ قلت : إن المرأةَ المعطَّرة المتزينةَ ، هي امرأةٌ مُسلَّحةٌ بأسلحتِها . أفي ذلك ريب ؟ قالت : لا .

قلت : فلماذا لايُسمَّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخانقةِ الغَرامية . . . ؟

فضحكتْ فُنوناً ؛ ثم قالت : وتسمَّى (البودرة) بالديناميت الغرامى .

ونقلنى ذلك إلى نفسى مرة أخرى ، فأطرقتُ إطراقةً ؛ فقالت : ما بك ؟

قلت : بى كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهبَتْ فى قلبى جَمرةً كانت خامدة .

قالت : أوْ حرَّكَتْ نقطةَ عِطْر كانت ساكنة . . . !

فقلت : إن الحب يضعُ روحانيته فى كل أشيائه ، وهو يغير الحالة النفسية للإنسان ، فتتغيرُ بذلك الحالةُ للأشياء فى وَهْم المحب . (فعِطرُ كذا) مثلاً . . . هو نوعٌ شَذِيٌّ من العِطر ، طيِّبُ الشَّميم ، عاصِفُ النَّشوة ، حادُّ الرائحة ؛ لكأنه يَنْشُرُ فى الجو رَوضةً قد مُلئتْ بأزهارِه تُشَمُّ ولاتُرى ؟ وإنه ليجعلُ الزمنَ نفسَه عَبِقاً بريحه ، وإنه ليُفْعِمُ كلَّ ما حوله طِيباً ، وإنه ليسحَرُ النفسَ فيتحوَّلُ فيها . . .

وهنا ضحكتْ وقطعتْ علىَّ الكلامَ قائلة : يظهرُ لى أن (عِطر كذا) هاجِرٌ أو مخاصِم . . .

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتَشَقْتُ أرَجَهُ مرةً إلا حسبتُه ينَفَحُ من الجنة .

فما أسرعَ ما تلاشَى من وجهها الضحِكُ وهيئتُه ، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها . ولمحت فى وجهها معنًى بكيتُ له بكاءَ قلبى .

جمالُها ، فتنتها ، سحرُها ، حديثُها ، لهوُها ؛ آه حين لايبقَى لهذا كلِّه عَينٌ ولاأثر ، آه حين لايبقَى من هذا كله إلا ذُنوبٌ ، وذنوبٌ ، وذُنوب !

* * *

وأردنا أنا و(ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ، ألا نُوحِشَها من إنسانيتنا ، وأن نَبُلَّ شوقَها إلى ما حُرِمتْه من قَدرها قدرَ إنسانة فيما نَتَعاطاه بيننا . والمرأة من هذا النوع إذا طَمِعَتْ فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع — طمعَتْ فى الاحترام من رجل شريف متعفّف ، ولو احترامَ نظرة ، أوكلمة . تقنعُ بأقلّ ذلك وترضى به ؛ فالقليلُ مما لايدرَكُ قليله ، هوعند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنالُ كثيره .

ومثل هذه المرأة ، لاتَدرى أنت : أطافَتْ بالذّنب أم طافَ الذنبُ بها ؟ فاحترامُها عندنا ليسَ احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوُجُوم أمام المصيبة فى لحظة من لحظَات رَهْبَةِ القدَر وخُشوعِ الإيمان.

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفةُ مما هى فيه ، وهذا هو جانبهن الإنسانىُّ الذى يُنظَر إليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى ، وحسرةٍ أخرى، وندمٍ آخر . كم يَرحمُ الإنسانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغَمَةَ . على أنّ تعاشِرَ من تكرهه ، فلا يزالُ يَغلى دمُها بوَساوِسَ وآلام من البغض لاتنقطع ! وكم يَرْثى الإنسان للزوجةُ الغيور، يغلِى دمُها أيضاً ولكن بوساوِسَ وآلامٍ من الحب ! ألا فاعلم أن كلّ من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثلَ هم مائةِ زوجة كارهة مرغَمة مستعبَدَة، يُخالطُه مثلُ همّ مائةِ زوجة غيور مكابِدَة منافِسة ؛ ولَقد تكونُ المرأةُ منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبُها فى السَّبعين من عُمر قلبها أو أكثر .

وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى ، ولم تكن معنا لافى زمانِها ولافى مكانِها ولا فى أسبابِها ، وقد فتحت البابَ الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفَرِ والحياء ، وحوّلت جمالَها من جمال طابَعُهُ الرذيلةُ ، إلى جمال طابعُه الفنّ ، وأشعرتْ أفراحَها التى اعتادتها رُوحَ الحزن من أجلنا ، فأدخلتْ بذلك على أحزانها التى اعتادتها رُوحَ الفرَح بنا .

من ذا الذى يعرفُ أن أدبه يكون إحساناً على نفسٍ مثلِ هذه ثم لايُحسِن به[1] ؟

---

(١) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربيطة) ، كتبناه فى مثل موضوع (الجمال البائس) ، غير أنه بمنحى آخر ومعان أخرى . والربيطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوربيون المرأة البغى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة . .

* * *

تتجدَّدُ الحياةُ متى وَجَد المرء حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً فى سرورها . وهذه المرأةُ المسكينةُ لا يَعنيها مِن الرجلِ من هو ؟ ولكن كَم هو... لم ترَ فينا نحن الرجل الذى هو « كم » ، بل الذى هو « مَن » . وقد كانت من نفسِها الأولى على بُعد قصىّ كالذى يمد يده فى بئر عميقة ليتناول شيئاً قد سقط منه ؛ فلما جلستْ إلينا ، اتصلتْ بتلك النفسِ من قُرْب ؛ إذ وجدتْ فى زمنها الساعةَ التى تصلحُ جِسْراً على الزمن .

قال الراوى :

كذلك رأيتها جديدةً بعد قليل، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التى جاءت من هذه . إن قلبَها يَنشُرُ الآن حولَها نوراً كالمصباح إذا أُضىء ، وأراها كالزهرة التى تفتَّحتْ ؛ هى هى التى كانت ، ولكنها بغيرِ ما كانت .

فقالت هى : إنى أحسبُك تحبُّنى ؛ بل أراك تحبنى ؛ بل أنت تحبنى . . . لم يخْفَ علىّ منذُ رأيتكَ ورأيتَنى .

قلتُ هَبِيه : صحيحاً، فكيف عرفْتهِ ولم أُصانِعْكِ ، ولم أتملَّقْ لك ، ولم أزدْ على أن أَجِىء إلى هنا لأكتب ؟

قالت : عرفته من أنك لم تصانعنى ، ولم تتملقُ لى ، ولم تزْد على أن تجىء إلى هنا لتكتب . . . .

قلتُ : ويحكِ ، لو كُحِلَتْ عينُ (المكرسكوب) لكانت عينَك . وضحكنا جميعاً؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كثُر وُرودُها على القاضى جَعلتْ له عيناً باحثة .

* * *

قال الراوى :

وأنظرُ إليها، فإذا وجهُها القمرىُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونُه، وظهر فيه من الحياء ما يظهرُ مثلُه على وجهِ العذراء المخدَّرةِ إذا أنتَ مسستَها بريبة[1] ؛ فما شككتُ أنها الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلحَ وجهُها وحَياؤُها، وهما أبداً متعاديان فى كل امرأة مكشوفةِ العفَّة . . .

---

(١) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال .

وذهبت أستدرك وأتأول ، فقلتُ لها : ما ذلك أردتُ ، ولاحدستُ على هذا الظن ، وإنما أنا مُشفق عليك متألم بك ، وهل يعرضُ لك إلا الطبقة النظيفة... من المُجرمين والخُبثاء وأهل الشرّ ؛ أولئك الذين أعاليهم فى دُور الخلاعة والمسارح ، وأسافلهم فى دُور القضاء والسجون ؟

فقالت : أعترفْ بأنك لم تُحسنْ قلْبَ الثوب ، فظهر لكل عينٍ أنه مقلوب ؛ لكنك تحبنى . . . وهذا كافٍ أن ينهضَ منه عُذْر !

قال الأستاذ (ح) : إنه يحبكِ ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه ؟ هذا بابٌ يضعُ عليه دائمًا عِدَّةً من الأقفال .

قالت : فما أيسرَ أن تجدَ المرأة عِدةً من المفاتيح . . .

قال : ولكنه عاشقٌ يُنيرُ العشقُ بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعينِ الناسِ : ما تطمعُ إلا أن تراه ، وما يطمعُ إلا أن يراها ، ولا شىء غير ذلك ؛ ثم لايزالِ حسنُها عليه ولايزالُ هواه إليها ، وليس إلا هذا .

قالت : إن هذا لعجيب .

قال : والذى هوأعجب أن ليس فى حبه شىءٌ نهائى ، فلا هَجْرٌ ولاوصلٌ ؛ ينساكِ بعد ساعة ، ولكنك أبداً باقيةٌ بكل جمالك فى نفسه . والصغائرُ التى تُبكى الناسَ وتتَلذّع فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً فى همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهواتِ الحب – تبكيه هو أيضًا وتَعتَلِجُ فى قلبه ، ولكنها تظلُّ عنده صغائرَ ولايعرفُها إلا صغائر ؛ وهذا هو تَجَبُّرُه على جبَّار الحب .

* * *

قال الراوى :

ونظرتُ إليها ونظرتْ ، وعاتبتْ نفسٌ نفسًا فى أعيُنِهما ، وسألت السائلةُ وأجابت المُجيبة ، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ . . .

الجمال البائس

٣

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتْ : أما هى ، فَرَنتْ إلىّ فى سكون ، وكانت نظرتُها مُعَاتِبَةً طويلةً التملُّقُ والتوجُّع ، وفيها الانكِسارُ والفُتور ، وفيها الاسترخاءُ والدلال .

وبَينَا كان طَرْفُها ساجِيًا فاتراً كأنه ينظرُ أحلامَه ، إذْ حدَّدته إلىّ فجأةً ونظرتْ نظرةَ مَدْهوش ، فبَدَتْ عيناها فَزِعَتين ولكن فى وجهٍ مطمئنّ .

ثم لم تكدْ تفعلُ حتى ضيَّقَتْ أجفانَها وحدَّقت النظرَ مُتَلألئًا بمعانيه ، فبدَتْ عيناها ضاحكتين ولكن فى وجهٍ متألم .

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينيها معًا ، وأتمَّتْ بذلك أجملَ أساليبِ المرأةِ الجميلةِ المحبوبةِ فى اعتراضها على من تحبه ، وجدالِها مع فكره ، وكَسْرِ حُجَّته فى كِبريائه ، وانتزاعِ الفكرةِ المستقلّة من نفسه .

وأما أنا ؛ فكانَ نظرى إليها ساكنًا متألمًا يُقِرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ عينيها وسيبقَى عاجزاً عن جواب عينيها . . .

إن وجهَها هو الابتسامُ ورُوحُ الابتسام ، وجسمَها هو الإغراء وروحُ الإغراء ، وفنَّها هو الفتنةُ ورُوحُ الفتنة ؛ وهى بهذا كلِّه ، هى الحبُّ وروحُ الحب ؛ غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامَها عَداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنها رذيلةً فى جمالها ؛ وهى بهذا كله ، هى الشقاء ورُوحُ الشقاء .

* * *

أمَّا أنى أُحبُّ فَنَعمْ ونِعِمَّا ، بل أراه حبًّا فالقًا كَبدى ، وليس يخلو

فؤادى أبداً من سوالف حُب مضى ؛ وأما أنى أسترذلُ فى الحب وأمتهنُ فضيلتى وأنزلُ بها ، فلا وأبداً .

إن ذلك الحبَّ هو عندى عملٌ فنى من أعمال النفس ، ولكن الفضيلةَ هى النفسُ ذاتُها ؛ الحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ فى زمنى ؛ أما الفضيلةُ فهى زمنى كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبيةِ الأرضِ فى مدَّتها القصيرة ، ولكنّ الفضيلةَ جاذبيةُ السماء فى خُلودها الأبدى .

على أنه لامُنَافَرَة بين الحب والفضيلة فى رأيى ، فإن أقوى الحب وأملأَه بفلسفة الفَرَح والحزن ، لايكون إلا فى النفس الفاضلة المتورِّعة عن مُقَارَفَة الإثم . وههنا يتحولُ الحبُّ إلى ملَكة سامية فى إدراكِ معانى الجمال ، فيكونَ الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحيٍ للنفس العاشقة ؛ وبهذا الوحى والاستمداد منه ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفعُ بالآدميَّة إلى الملائكية[1] ، ليتلقى النورَ منها فنًّا بعد فن ، والفرحَ معنى بعد معنًى ، والحزنَ السماوىَّ فضيلةً بعد فضيلة .

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيَّةٌ لاتِّساعِ بعض العقولِ المهيَّأة للإلهام ، كى تحيطَ بأفراح الحياة وأحزانِها ، فتبْدِعَ للدنيا صورةً من صُوَر التعبير الجميلة التى تُثير أشواقَ النفس ؛ كأن كلَّ محب وحبيبتَه من هؤلاء الملهَمين ، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء ، فى حالة جديدة من معنى ترك الجنة ، لإيجاد الصورة الجديدة من الفرَح الأرضى والحزن السماوى .

والخطَرُ فى الحب ألايكونَ فيه خطَر . . . فهو حينئذ نداءُ الجنس ، لايكون إلا دنيئًا ساقطا مبذولاً ، فلا قيمةَ له ولا وحيَ فيه ؛ إذ يكونُ احتيالاً من عملِ الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبَها النُّورانىَّ من شوق الروح لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتَّصَل بينهما خلعت الغريزةُ هذا الثوبَ واستعلَنَتْ أنها الغريزةُ ، فانحصرَ الحبُّ فى حيوانيته ، وبطلتْ أشواقه الخياليةُ أجمع .

* * *

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف ، ونرى أن مخالفة القاعدة هى القاعدة فى هذه اللفظة وفى ألفاظ أخرى .

قال الراوى :

وعرفت الحسناء هذا كلّه من عَرْضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرَها ، فقالت للأستاذ(ح) : أمّا أن يكونَ مع أثر الشعر والفكر فى الجمال ودعوى الحب ، أثرُ الزهد فى الجسم الجميل وادّعاءُ الفضيلة — فإنّ بعيداً أن يجتمعا .

قال (ح) : وأين تبْعِدينَه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إنى لأعرف مَن هو أعجبُ من هذا !

قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفَه ؟

قال : أعرفُ متزوّجا ، أحبّ أشدّ الحب وأمَضّه ، حتى استهامَ وتدَلّه ، فكان مع هذا لايكتبُ رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذِنَ فيها زوجتَه ، كيلا يعتدِيَ على شىء من حقها . وزوجتُه كانت أعرفَ بقلبه وبحبّ هذا القلب ، وهى كانت أعلمَ أن حبّه وسُلوانَه إنما هما طريقتان فى الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها .

فتنهّدَت وقالت : يا عجبًا ! وفى الدنيا مثلُ هذا الزوجِ الطاهر ، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجة الكريمة ؟

ثم إنهاوَجَمَتْهُنَيْهَةً تجتمعُ فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استَدْمَعَتْ ، ثم أرسلتْ عينيها تبكى ؛ فبدَرْتُ أنا أُرَفِّهُ عنها حتى كفكَفَتْ من دمعها ، وكأن(ح) قد وخزَها فى قلبها وخزةً أليمةً بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجةَ الطاهرة ، ثم الطاهرةَ حتى فى وسوسةِ شيطان الغَيْره . ارتفع ثلاثَ مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينةُ أنها سافلةٌ ثلاثَ مرات ؛ وكأنه بهذا لم يكلمها ، بل رَسَمَ لها صورتَها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى . . . . . .

* * *

وياما كان أجملَها يترَقرَقُ الدمعُ فى عينيها الفاتنتين الكَحيلتين ، فيبُثُّ منهما حزنًا يخيل لمن رآه ، أنه من أجلها سيَحزنُ الوجودُ كلّه !

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هوُ فنٌّ الحزن يضع جمالا جديداً فى فن الحُسن . وأكاد أعجَبُ كيف وجَدَ الدمعُ مكانًا بين المعانى الضاحكةِ فى وجهها ، لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء

ليظهرَ على وجهها الفنّ الآخرَ من جمال المعانى الباكية .

* * *

وسألتُها : ما الذى خامَرَ قلبَكِ من كلام الأستاذ(ح) فأبكاكِ ، وأنت كما أرى يتألّقُ النورُ على جدرانِ المكان الذى تَحُلين به ، فيظهرُ المكانُ وكأنه يضحك لك ؟

فتَشَكّكَتْ لحظةً ثم قالت : أبكَ ما تقول أم أنت تتهكّم بى ؟

قلت : كيف يخطرُ لك هذا وأنا أحترمُ فيك ثلاثَ حقائق : الجمال ، والحب ، والألم الإنسانى ؟

قالت : لاتَثْريبَ عليك[1] ولكن صَوِّرْ إلى ببلاغتك كيف أحببتُك وأنت غير متَحبّب إلىّ ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداورْتُها ، وكلما عزمتُ انحلّ عزمى ؟ فهذا مالا أكاد أعرفُ كيف وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرةٌ من الماء الصافى العذْبِ ، فضع عليها (المكرسكوب) ياسيدى ، وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالاً . فما الذى خامَرَ قلبَكِ من كلام (ح) فبكيتِ له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةً من الماء ، بل تلك دمعةٌ من دموعى ، فضع عليها المكرسكوب ياسيدى .

قال الراوى :

وكانت حزينةً كأنها لم تسكتْ عن البكاء إلا بوجهها ، وبقيتْ روحُها تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ(ح) أن يستدركَ لغلطته الأولى فقال : إنكِ الآن تسألينه حقًّا من حقوقكَ عليه ، فكل امرأةٍ يحبها هى عَروسُ قلمه ولها على هذا القلم حقّ النفَقَة . . .

فضحكتْ نوعًا من الضحك الفاتر ، كأنما ابتكره ثغرُها الجميل لساعة حزنها ؛ ونظرتْ إلى فقلت : إن كان الأمرُ من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلاشىء) جُحا .

فضحكت أظرفَ من قبل ، وخُيِّل إلىّ أن ثغرَها انطبقَ بعد افترار على

---

(١) أى لا عتب عليك .

قُبلةٍ أفلتتْ منه فأمسكها من آخرِها . . . .

ثم قالت : ما هو (لاشيء) جُحا ؟

قلت : زعموا أن جُحا ذهب يحتطِبُ ، وحملَ فوقَ ما يُطيق ، فبهَظَه الحِملُ وبلغَ به المشقّة ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهَ فاستعانَ به ، فقال الرجل : كم تُعطينى إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشيء) . قال : رضيت .

ثم حمل الأبلهُ وانطلق معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطنى أجرى . قال جحا : لقد أخذتَه . واختلفا : هذا يقول أعطنى ، وهذا يقول أخذتَ ؛ فلبَّبَهُ الرجل[1] ومضى يرفعه إلى القاضى ، وكانت بالقاضى لُوثَةٌ ، وعلى وجهه رَوْعةُ الحُمق[2] تُخبِرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه ، فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت فى الحبس أو تُعطيهُ (اللاشيء) . . .

قال جُحا فى نفسه : لقد احتجْتُ لعقلى بين هذين الأبلهين ؛ ثم إنه أدخل يده فى جيبه وأخرجها مطبَقة ، وقال للرجل : تقدَّمْ وافتح يدى . فتقدم وفتحها . قال جُحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشيء) .

فقال له جُحا : خذ (لاشيئَك) وامضِ فقد برِئت ذمتى .

قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضى : مَهْ ! أنت أقررتَ أنك رأيت فى يده (لاشيء) ، وهو أجرُك فخذه ولاتطمعْ فى أزيدَ من حقك . . . !

* * *

وضحكتْ وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكونَ عَروسَ القلم ؛ فليُجْرِ علىَّ القلم نفقتى ، وليصوِّرْ لى كيف أحببتُ ، وكيف آمَرتُ نفسى وجادلتُها ؟

قلت : لاأتكلم عنكِ أنتِ ولا أستطيعه . بَيْدَ أنى لو صنَّفتُ روايةً

---

(١) أخذ بتلابيبه .

(٢) اللوثه (بضم اللام) : مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحمق ، وروعة الحمق : علاماته ، وهى معروفة فى علم الفراسة .

يكونُ فيها هذا الموقفُ ، لوضعتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تُحدِّثُ به نفسَها .

تقول : كيف كنتُ وكيف صرت ؟ لقد رأيتُنى أعاشرُ مائةَ رجل فأخالطُهم فى شتَّى أحوالهم ، وأصرفهم فى هوایَ ، وكلُّهم يَجهدُ جُهدَه فى استمالتى ، وكلُّهم أهلُ مودة وبَذْل ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ ، قد أنِقَ وتجمَّل وراع حسنُه ؛ كأنما هرَبَ إلىَّ فى ثياب عُرسه ليلةَ زفافِه ، وترَكَ من أجلى عروساً تبكى وتَصيح بوَيلها . ثم أنا مع ذلك مُغْلَقةُ القلب دونهم جميعاً : أصْدُقهُم المودةَ والصحبة ، وأكْذبُهم الحبَّ والهوى ؛ فلستُ أُحبهم إلا بما أنالُ منهم ، ولستُ أتحبَّبُ إليهم إلا ما أُنوِّلهم منى ، وهم بين عقلى وحيلتى رجالٌ لاعقولَ لهم ، وأنا بين أهوائهم وحَماقَاتهِم امرأةٌ لا ذات لها .

ثم أرى بغتةً رجلاً فَرداً أكاد أنظر إليه وينظرُ إلىَّ حتى يَضَعَ فى قلبى مسألةً تحتاجُ إلى الحلِّ . . .

وأرتاعُ لذلك فأحاولُ تناسِيَه والإغضاءَ عنه ، فتَلِجُّ المسألةُ فى طلبِ حلِّها ، وتشغَلُ خاطرى ، وتتمدَّد فى قلبى ؛ وهو هو المسألة . . .

فأفزعُ لذلك وأهتمُّ له ، وأجهَدُ جهدى أن أكونَ مرةً حازمةً بصيرةً ، كرجالِ المال فى حق الثروة عليهم ؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً ، كرجال الحرب فى واجبِها عندهم ؛ ومرة خبيثةً مُنكَرة ، كرجال السياسةِ فى عملها بهم ؛ ولكنى أرى المسألة تلينُ لى وتتشكَّل معى وتحتملُ هذه الوجوهَ كلها ، لتبقى حيثُ هى فى قلبى ؛ فإنه هو هو المسألة . . .

وأغتمُّ لذلك غمًّا شديداً ، وأرانى سأسقُطُ بعد سقوطى الأول وأقبحَ منه ؛ إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِداع ، وهذا يُفْسِدُه الإخلاص ؛ وبالمكْر ، وهذا يعطِّلهُ الوَفاء ؛ وبالنسيان ، وهذا يُبطله الحبّ ؛ وإذ عواطفُنا كلُّها متجرِّدةٌ لغرض واحد ،هو كَسْبُ المال وجمعُه وادِّخارُه ؛ وفضيلتُنا عمليةٌ لاتتَخيَّل ، حِسَابيَّةٌ لاتختلُّ ؛ فيستوِى عندنا الرجلُ بلغ جمالُه القمرَ فى سمائه ، والرجلُ بلغتْ دَمامتُه الذبابَ فى أقذاره ؛ والحبُّ معنا هو : كم فى كم ويبقَى ماذا . . . أو كما يقول أهلُ السياسة : هو « النقطة العملية فى المسألة» . ولكن

المسألة التى فى قلبى لاترى هذا حلاً لها ؛ لأنه هو هو المسألة . . .

فيزيدُ بى الكَرْبُ ، ويشتدُّ على البلاء ، وأحتالُ لقلبى وأُدبِّر فى خَنقه ، وأذهبُ أُقنِعه أن الرجلَ إذا كان شريفًا لم يحبَّ المرأةَ الساقطةَ ، إذ يُعابُ بصُحبتها والاختلاف إليها ، فإذا كان ساقطًا لم تحبَّه هى ، فإنما هو صَيدُها وفَريستها ، وموضعُ نقمتِها من هذا الجنس ؛ وأُسْرِفُ على قلبى فى الملامَة والتعذيل فأقولُ له : ويحك يا قلبى ! إن المرأة منا إذا تفتَّحَ قلبُها لحبيب ، تفتَّح كالجُرح ليَنزِفَ دِماءَه لاغير . فيقتنعُ القلبُ ويُجمِعُ على أن ينسَى ، وأن يَرجعَ عن طلبه الحب ؛ وأرى المسألةَ قد بطلتْ وكان بُطلانُها أحسنَ حلٍّ لها ، وأنامُ وادعة مطمئنة ، فيأتى هو فى نومى ويَدخل فى قلبى ، ويُعيدُ المسألةَ إلى وضعها الأول ، فما أستيقظُ إلا رأيته هو هو المسألة . . .

فأتناهَى فى الخوف على نفسى من هذا الحب ، وأراه سجنها وعقابَها ، وقهرَها وإذلالَها ، فأقول لها : ويلكِ يا نفسى ! إنما همُّكِ فى الحياة وَسائلُ الفَوز والغلَب ، فأنتِ بهذا عَدوّةٌ مسماةٌ فى غَفْلة الرجال صديقة ، وقد وُضِعْتِ فى موضع تعيشين فيه بإهاناتٍ من الرجال ، يسمونها فى نَذالتهم بالحب ؛ فأنتِ عدوّةُ الرجال بمعنًى من الدهاء والخُبث ، وعدوّةُ الزوجاتِ بمعنًى من الحقدِ والضغينة ، وعدوّة البَغَايا أيضًا بمعنى من المغالبة والمنافسة ، وكلُّ ما يستطيعُ الدَّهاء أن يعملَه فهو الذى علىَّ أنا أن أعملَه ، فماذا أصنع وأنا أحب ؟ وكيف أنجحُ وأنا أحب ؟ ولكنَّ النفسَ تجيبنى على كل هذا بأن هذا كلَّه بعيدٌ عن المسألة ما دام هو هو المسألة . . .

* * *

قال الراوى :

وكانت كالذاهلة مما سمِعتْ ، ثُم قالت : ألك شيطانٌ فى قلبى ؟ فهذا كلُّه هو الذى حدث فى سبعة أيام .

قال(ح) : ولكن كيف يقَعُ هذا الحب ؟ وهَبْكَ صنَّفتَ تلك الرواية ، ووضعتَ على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فماذا كنتَ تُنطقُها فى وصفِ حبها وما اجتذبها من رجل فاز بقلبها ولم يُداوِرْها ، بعد مائة رجل كلُّهم داوَرَها

ولم يَفُزْ منهم أحد ؟ أتكون فى وجه هذا الرجلِ أنوارٌ كتباشيرِ الصبح تدلُّ على النهار الكامنِ فيه ؟

قالت هى : نعم نعم . بماذا كنتَ تُنطقها ؟

قلتُ : كنت أضعُ فى لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تعذُلُها :

تقول : لا أدرى كيف أحببتُه ، ولكنَّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتْنى إليه ، وجعلت الهواء فيما بينى وبينه مُفْعَمًا بالمغناطيس مَصْدَرُه ، ومعناه هو ، ولا شىء فيه إلا هو .

عرَضَتْه لى شخصيتُه ظاهراً لأن جوابَ شخصيته فىَّ ، وأصبحَ فى عينىَّ كبيراً لأن جوابَ شخصيتى فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسُها تزيده كلَّ يوم ظهوراً ، وتزيدُنى كل يوم بَصَراً ، وأعطاه حقه فى الكمالِ عندى حقَّه فى اضـ منى ؛ وبتلك الشخصية التى جوابها فى نفس، أصبح ضرورة من ضرورات نفسى .

* * *

قال الراوى :

ولما رأيتها فى جوى كنسيمه وعاصفته ، أرادتها على قصتها وشأنها ، فماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ . . .

الجمال البائس

٤

قلتُ لها : إن قلبي وقلبَكَ يتَجالَيان[1] في هذه الساعة ويتباكَيان ؛ أتدرين ماذا يقول للكِ قلبي ؟

إنه ليقولُ عني : أعزِزْ عليَّ بأن تكوني هٰهنا ، وأن تتألفَ منك هذه القصةُ التي تَبدأُ بالوَصْمَة وتنتهي بالاستخذاء ، فتنطلقُ المرأةُ في مَتالفها ومهاويها ليبلغَ بها القدرُ ماهو بالغ ؛ وليس إلاالضرورة وسطوتها بها ، والإذلالُ ومَهانتُه لها ، والاجتماعُ وتهكُّمُه عليها ، والابتذالُ واستعبادُه إياها ؛ ومهما يأت في القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكنْ من موقف فليس فيها موقفُ الحياء ؛ ومهما يَجرِ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة ، وأعزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبُوبَ الذي وُضع ليُضيء ما حوله ، قد انقلب فجعلَ يُحرِقُ ما حوله ؛ وكان يتلألأ ويتوقَّد ، فارتدَّ يتَسعَّر ويتضَرَّم ويَجْني ما يتصلُ به ، وسقطَ بذلك سَقْطةً حمراء . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبُك ؟

إنه يقول عنكِ : يا بُؤْسَنا من نساء ! لقد وُضعْنا وَضعًا مقلوبًا ، فلا تَستقيمُ الإنسانيةُ معنا أبداً ، وكلُّ شيء منقلبٌ لنا متنكِّر ؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاء نفسها تهكمًا بنا ؛ فنبكي من شفقةِ بعض الناس ، كما نبكي من ازدراء بعضِ الناس . يا بؤسَنا من نساء !

* * *

قالت : صدقتَ ، وكذلك تنقلبُ أسبابُ الحياة معنا أسبابًا للمرض والموت ؛ فاليَقَظةُ ليس لها عندنا النهارُ بل الليل ، والصَّحْو لايكون فينا بالوعْيِ بل بالسُّكْر ، والراحةُ لاتكون لنا في السكون والانفراد، بل في الاجتماع والتبذُّل ؛ وماذا يردُّ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ والسكْرُ والعَربدةُ ، والتبذّلُ ، وتَدريبُ الطباع بالوَقاحة ، وتَضْرِيَةُ النفسِ على الاستغواء ، والتَصدّي بالجمال للكَسْب من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهم ، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليب

(١) أي يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح .

خرُها الهوانُ والمذلّة ، واستماحتُهم بأساليبَ أولها الخداعُ والمكْر ؟

إن حياةً هذه هى واجباتُها ، لايكونُ البكاء والهمُّ إلا من طبيعةِ من يحياها ، وكثيراً ما نُعالج الضحكَ لنفتحَ لأنفسنا طُرُقاً تتهاربُ فيها معانى البكاء ؛ فإذا أثقلنا الهمُّ وجلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّف السرور ، ختلْنا العقلَ نفسَه بالخمر ؛ فما تسكرُ المرأةُ منا للسكْر أو النَّشوة ، بل للنسيان ، وللقُدرة على المرَح والضحك ، ولإمدادِ محاسنِها بالأخلاقِ الفاجرة ، من الطَّيش والخلاعةِ والسَّفَهِ وهذَيانِ الجمال الذى هو شعرُه البليغ . . . عند بُلغاء الفُسَّاق .

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضرُ الغادةِ منكن هو الشبابُ والصِّبى والجمالُ وإقبالُ العيش ، فكيف بها فيما تَسْتَقْبِل ؟

قالت : إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُه على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ فى هذه الصناعة إلا وهى مُعِدَّةٌ لمستقبلها : إما نوعاً من الانتحار ، وإما ضَرْباً من ضُروب الاحتمالِ للذل والخسْف ؛ وليس مستقبلُنا هذا كمستقبل الثمار النَّضِرة إذا بقيتْ بعد أوانها ، فهو الأيام العَفِنَةُ بطبيعةِ مامضى . . . بلى إن مستقبلَ المرأة البغىِّ هو عقابُ الشر .

* * *

قال (ح) : هذا كلامٌ ينبغى أن تعلمه الزوجات ؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تتبرَّم بزوجها وتضْجَر وتغتمُّ ، وتزعُم أنها مُعَذَّبة ؛ فتتَسخَّطُ الحياةَ ، وتندُبُ نفسَها ؛ ثم لاتعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحد ، تألفهُ ، فتعتادُه ، فتُرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه ، فيسكنُ بهذا نِفَارُها ؛ وتلك نعمةٌ واجبُها أن تحمدَ الله عليها ، ما دام فى النساء مثلُ الشَّهيدات ، تتعذبُ الواحدةُ منهن فُنوناً من العذاب بمائة رجل ، وبألفِ رجل ، وهم مع ذلك يَبْتَلُونَ روحَها بعددِهم من الذنوب والآثام .

وقد تستثقِلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوج والنَّسل والدار ، فتغتاظُ وتشكو من هذه الرَّجْرَجة اليومية فى الحياة ؛ ثم لاتعلم أن نساءً غيرَها قد انقلبتْ بهن الحياةُ فى مثل الخَسْف بالأرض .

وقد تجزعُ للمستقبل وتَنسى أنها فى أمانِ شَرَفِها ، ثم لاتعلم أن نساءً يَترقَّبْن هذا الآتىَ كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة ، من يومٍ فيه الشُّرْطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كلِّه .

فقلتُ : وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العَزاء كلُّ العزاء للزوجات ، وهى أن الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتِها ، والأخرى لاتشعر إلا بضياع ذاتها .

والزوجة امرأة تجدُ الأشياءَ التى تتوزعُ حبها وحنان قلبها ، فلا يزال قلبها إنسانيًّا على طبيعته ، يفيضُ بالحب ، ويستمدُّ من الحب ؛ والأخرى لاتجد من هذا شيئًا ، فتنقلب وحشيَّةَ القلب ، يفيضُ قلبُها برذائلَ ، ويستمدُّ من رذائل ؛ إذ كان لايجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنَّسل .

والزوجةُ امرأة هى امرأة خالِصة الإنسانية ، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادة مُهْلِكة .

وتَمامُ السعادةِ أن النسلَ لايكونُ طبيعيًّا مستَقِرًّا فى قانونه إلا للزوجات وحدَهن ؛ فهو نِعمتُهنَّ الكبرى ، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن، وبرَكتُهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةً بزوجها ، فإن زوجَها قد أولدَها سعادتَها ، وهذه وحدها مزية ونعمة ؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة[1] ؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها ؛ وهو غِنًى إنسانىٌّ ، ولكنه عندهن لايكون إلا فقراً ؛ وهو رحمة ، ولكنها لاتكونُ إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعة فى موضع حبِّ الولَد الجديدِ من قلوبهن ، حبَّ الرجلِ الجديد، فكانت هذه نقمةً أخرى .

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثانىَ بعد الأول ، أو الثالثَ بعد الثانى ، أو الرابعَ بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديدُ عليهن هو الواحدَ بعد الواحدِ إلى آخر العدد ، ولكنه الرجلُ الذى يكون وحدَه بالعدد جميعًا ؛ إذهو عندهن يُشبه الزوجَ فى الاختصاص وفى شَرَف الحب ، فهو الحبيبُ الشريف الذى تتعلَّقُه إحداهن وتريد أن تكونَ معه شريفة : ولكن من نقمة الطبيعة أن ممن وجدتْه منهن لاتجدُه إلا لتعانِىَ ألمَ فقده .

---

(١) يقال ليس له عاقبة ، أى ليس له نسل وعقب .

ياعجباً ! كلُّ شيء فى الحياة يُلقِي شيئًا من الهم أو النكَدِ أو البؤسِ على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة . . .

قالت هى : وليست الحجارةُ هى الحجارة فقط ، بل منها ألفاظ تُرجَمُ بها المسكينةُ كألفاظك هذه . . . وكتسميةِ الناسِ لها « بالساقطة » ؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لاحجر .

* * *

ثم تنهدتْ وقالت : مَن عَسِي يعرفُ خَطَرَ الأُسْرة والنسلِ والفضيلةِ كما تعرفُها المرأة التى فقدتها ؟ إننا نُحِسُّها بطبيعة المرأة، ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسْرةِ على فقدها، ثم برؤيتها فى غيرنا ؛ نعرفها أربعةَ أنواع من المعرفة إذا عرفتْها الزوجةُ نوعًا واحداً . ولكن هل يُنصِفنا الرجالُ وهم يتَدَافَعُوننا ؟ هل يرضَوْن أن يتزوَّجوا منا ؟

قلت : ولكنَّ الأسرةَ لاتقومُ على سوادِ عينى المرأةِ وحُمرةِ خدَّيها ، بل على أخلاقِها وطباعها ؛ فهذا هو السببُ فى بقاء المرأة الساقطةِ حيثُ ارتطمتْ ؛ وهى متى سقطتْ كان أولُ أعدائها قانونَ النسل .

ومن ثَم كانت الزَّلةُ الأولى ممتدةً مُتَسَحِّبةً إلى الآخر ؛ إذ الفتاةُ ليست شخصًا إلا فى اعتبارها هى ، أما فى اعتبار غيرها فهى تاريخٌ للنسل ، إن وقعتْ فيه غلطة فسد كلُّه وكذَبَ كلُّه فلا يُوثَقُ به .

وهذه الزَّلة الأولى هى بدءُ الانهيار فى طباعٍ رقيقة مُتَداخِلة مُتَسانِدَة ، لايُقيمُهما إلا تَماسُكُها جُملةً ؛ وما لم يتماسكْ إلا بجملته فأولُ السقوطِ فيه هو استمرارُ السقوطِ فيه ؛ ولهذا لايعرفُ الناسُ جريمةً واحدةً تُعدُّ سِلسلةَ جرائمَ لاتنتهى ، إلا سقطةَ المرأة ؛ فهى جريمة مجنونة كالإعصارِ الثائرَ يلِفها لفًّا ؛ إذ تتناول المرأة فى ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترعى إلى مستقبلها ونَسلها ؛ فَيَهتكُها الناسُ هى وسائرَ أهلِها مَن جاءت منهم ومن جاءوا منها .

والمرأةُ التى لايَحميها الشرفُ لايحميها شىء ، وكلُّ شريفة تعرفُ أن لها حياتين إحداهما العفَّة ، وكما تُدافِعُ عن حياتها الهلاكَ ، تُدافعُ السقوطَ عن عفتها ؛ إذ هو هلاكُ حقيقتِها الاجتماعية ؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أنَ لها عقلين تحتمِي بأحدِهما من نزَواتِ الآخر ، وما عقلُها الثانى إلا شَرَفُ عِرْضها .

* * *

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هي الحقيقة، فما تسامح الرجالُ في شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصفِ عقلٍ فاندفعتْ إلى الطيش والفجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفُّوا تَعِفَّ نساؤكم » . فإن عَفافَ المرأة لا تحفظه المرأةُ بنفسها ، ما لم تتهيأْ لها الوسائلُ والأحوالُ التي تُعينُ نفسها على ذلك ؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تَشدُّدُ الرجالِ في قانون العِرض والشرف .

فإذا تراخَى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل ، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعفِ تنبثق حريةُ المرأة متوجِّهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر ، على ما تكون أحوالُها وأسبابُها في الحياة . وهذه الحريةُ في المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغْضوا ويَتَسمَّحوا ، فتهافتَ النساء عندهم ، تنالُ كلٌّ منهن حكْمَ قلبِها ويَخْضَعُ الرجل . .

على أن هذا الذي يسميه القومُ حريةَ المرأة، ليس حريةً إلا في التسمية، أما في المعنى فهو كما ترى :

إما شُرودُ المرأة في التماسِ الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذي يَعُولُها أو يَكْفيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثلُ هذه هي حُرةٌ حريةَ النكَدِ في عيشها ؛ وليس بها الحريةُ ، بل هي مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة .

وإما انطلاقُ المرأةِ في عَبَثاتِها وشهواتِها مُستجيبةً ، بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في الرجال ، بمقدار ما يشتريه المال ، أو تُعين عليه القوة ، أو يسوِّغُه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفُنون؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حريةَ سقوطِها ؛ وما بها الحرية ، بل يستعبِدُها التمتع .

والثالثة حريةُ المرأة في انسلاخِها من الدين وفضائله ، فإن هذه المدنيةَ قد نسخَتْ حرامَ الأديان وحلالها بحرامٍ قانونيّ وحلال قانوني ، فلا مَسْقَطة للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانوناً . . . فيما كان يُعَدُّ من قبلُ خِزْياً أقبحَ الخِزْيِ وعاراً أشدَّ العار ؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حريةَ فسادِها ، وليس بها الحرية، ولكن تستعبِدُها الفَوْضى .

والرابعةُ غَطْرَسةُ المرأة المتعلمة ، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا ؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفَّاز الحرير فى يدِها ، ولا الزَّوجَ المؤنَّث الذى يقولُ لها نحن امرأتان ... فهى من أجل ذلك مُطْلَقةٌ مُخَلَاَّة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمْرة ؛ فمثلُ هذه حرةٌ بانقلاب طبيعتها وزيغها ، وهى مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتِها .

حريةُ المرأة فى هذه المدنية أوّلها ما شئتَ من أوصاف وأسماء ، ولكن آخرَها دائمًا إما ضَياعُ المرأة وإما فَسادُ المرأة .

والدليلُ على الْتِواء الطبيعةِ فى المدنية، استواء الطبيعة فى البادية؛ فالرجال هناك قَوَّامون على النساء ، والنساء بهذا قوَّاماتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكرَ انتقامًا يَفُورُ دمًا ؛ وبهذه الوحشية يقرّرون شَرَفَ العِرض فى الطبيعة الإنسانية ، ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيُحاَجِزُون بين الرجال والنساء أولَ شىء بالضمير الشريفِ الذى يجدُ وسائلَه قائمةً من حوله .

* * *

قال الراوى :

وغطتْ وجهَها بيديها وقالت : إنك لاتزالُ ترجُم بالحجارة ... إن فيكَ متوحشًا .

قلت بل متوحشة . . .

إنك أنتِ قد تكلمتِ فىَّ ، فجمالك الذى يضع الإنسانَ فى ساعة مجنونة ليمتعَه بطيشها ، قد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتعَنا بعقلها ؛ وإذًا قلتُ جمالك ، فقد قلتُ وحيُك ، إذ لاجمالَ عندى إلا ما فيه وحى .

أمَا قلتِ : إنك لوخُيِّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً نابغةً يكتبُ ويفكر ويتلقَّى الوحىَ من الوجوه الجميلة ؟

فدقتْ صدرَها بيدِها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرَتْ لحظةً وقالت : إذا كنتَ أنت تزعمُ أنى قلتُه ، فأظنُّ أنى قلته . . .

قال (ح) : رجل؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هى شيئًا من هذا ؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذوق .

قالت : بل قل أربعُ غلطات جميلة من فنّ الذوق ؛ إن الرجل الظريفَ القوى الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرة . . .

قال (ح) : لتضحكَ منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحك له . . .

قلت : فلى إليك رجاء .

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل .

* * *

فماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ . .

الجمال البائس

٥

قلتُ لها : إن كلمةَ الكفرِ لاتكون كافرةً إذا أُكْرِه عليها من أكْرِه وقلبُه مطمئن بالإيمان، وكلمةُ الفُجورِ أهون منها وأخفُّ وزنًا وشأنًا، ثم لاتكون إلا فاجِرةً أبداً، إذلا إكراهَ على هذه الدَّعارة إكراهًا لاخِيارَ فيه . وما أولُ الدَّعارة إلا أن تمدَّ المرأةُ طَرْفَها من غير حياء ، كما يمدُّ اللصُّ يدَه من غير أمانة .

ومن اضطُرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأ مِحْرابَ المسجد فى أعماقِه فيصلى ثمةَ ، ولكنَّ الفجورَ لايترُكُ فى النفس موضعًا للدين ولا لإيمان ؛ إذ هو دائبٌ فى إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترْسِلة بلاضابط ، فيجعلُ المرأةَ تحيا بعيدةً عن ضميرها ، فيُضعِف منها أولَ ما يضعفُ آثارَ الآدابِ والأخلاق، فيُهلكُ فيها أولَ ما يهلكُ إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورَها بمجد هذا المعنى .

فإذا انتهت المرأةُ إلى هذا ، لم يكن لها مبدأٌ ولاعقيدة إلا أنَّ على غيرها أن يتحمَّلَ عواقبَ أعمالها ، وهذه بعينها هى حالةُ المجنون جنونَ عقله؛ أفلا تكون المرأةُ حينئذٍ مجنونةً جنونَ جسمها . . . ؟

* * *

فساءها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكتْ على ما فى نفسها ؛ والمرأةُ من هؤلاء لايمشى أمرها فى الناس ولايتصلُ عيشُها ، إلا إذا كثُرتْ طباعُها كثرةَ ثيابها ، فهى تخلَعُ وتلبسُ من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ؛ فينبعثُ منها الغضبُ وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهى فى أشد الغيظ ، وكأن لم تغضب ولم ترضَ لأنها ليستْ لأحد ولالنفسها .

وتسايَر غضبها ثم قالت : كان كلامك أنَّ لك رجاء إلى ، فأنا أحب . . .
. . . أحب أن أعلم .

قلت : وأنا كذلك أحب . . . أحب أن أعلم .

فضحكتْ وسُرِّى عنها ، وثَبتتْ على شفتيها ابتسامةٌ لوجاء مَلَكٌ من السماء ليضعَ فى ثغرها ابتسامةً أجملَ منها ، لما وجد أجملَ منها .

ثم قالت : تُحب أن تعلمَ ماذا ؟

قلت : أحبُّ أن أعلم منك قصةَ هذه الحياةِ ما كان أولُها ؟

قالت : لقد قضيتَ من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ، فلكل ليلٍ مُظلمٍ كوكبهُ ؛ والكوكب الوقاد المعلَّق فوق ليل المرأة منا هو إيمانُها ؛ نعم إنه ليس كإيمان الناس فى واجباته ، لكنه كإيمان الناس فى تعزيته ، والله ربُّنا وربُّكم !

قلت : لو أُطيع الله بمعصيته لاستقام لكِ هذا ؛ وإنما أنت تصفين الإيمانَ الأولَ الذى كان عملاً ، فصار ذكرى ، فصارت الذكرى أملاً ، فظننتِ الأملَ هو الإيمان .

قالت : ثم إننا جميعًا مكرَهاتٌ على هذه الحياة ، فنحن إلا صرعَى المصادَمة بين الإرادة الإنسانية وبين القَدر .

قلت : ولكن لم تهف واحدة منكن فى غلطتها الأولى وهى مستكرَهةٌ على غلطة ؛ بل هى راغبة فى لذة ، أو مبادرة لشهوة ، أو طالبة لمنفعة .

قالت : هذا أحَد الوجهين ؛ أما الآخر فالتماسُ الرزق وصلاح العيش ؛ فالرجل مع الرجل ، رأس مالهِ قوتُه ، وعمله بقوته ؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتُها ، وعمل أنوثتها . وفى الوجْه الأول — وجه اللذة والمنفعة — تحتال كلمة الفُجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة ، منها الحبُّ والزواج والسعادة ، فتستسْلم المرأة مضطرةً ليقعَ شىء من هذا . وفى الوجْه الثانى — وجهِ الرزق والعيش — تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعَفَة بكلمات رهيبة قاتلة ، منها الجوع والفقر والشقاء ، فتسقط المرأة مضطرةً خيفةَ أن يقعَ شىء من هذا ؛ وفى أحد الوجهين يكون الرجلُ هو الفاجرَ لفساد آدابه ، وفى الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمَع لفساد مبادئه .

* * *

قلت : أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطتْ فى هذه المدنيَّة ، لم تقع أبداً إلا فى موضع غلطة من غلَطات القوانين ؛ وآفةُ هذه القوانين أنها لم تُسَنّ لمنع الجريمة

أن تقعَ ، ولكن للعقابِ عليها بعد وقوعها ؛ وبهذا عجزتْ عن صيانة المرأة وحفظِها ، وتركتْها لقانون الغريزة الوحشيّ فى هؤلاء الوحوش الآدميين ، الذين يأخذُهم السُّعار من هذه الرائحة التى لايعرفونها إلا فى اثنين : المرأة الجميلة والذهب. فما ألجأت امرأةً حاجتُها أو فقرُها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً ، إلا ضربَه ذلك السُّعار ؛ فإن استخفَّت بِنزواته وتعسرَتْ عليه ، طردَها إلى الموت ، ومنعَها أن تعيش من قِبَلِه ؛ وإن صَلحت له وتيسرَتْ ، آواها هى وطَرد شرفَها . .

وبخلاف ذلك الدين ؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها ، فهو فى أمر المرأة يُلْزِمُ الرجل واجباتٍ ، ويُلْزم المجتمعَ واجبات غيرَها ، ويُلزم الحكومةَ واجبات أخرى :

أما الرجل فينبغى له أن يتزوجَ ، ويتحصَّنَ ، ويغارَ على المرأة ، ويعملَ لها ؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدَّب ، ويستقيم ، ويُعينَ الفردَ على واجباتِ الفضيلة ، ويتَدامجَ ويَشُدَّ بعضُه بعضًا ؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمىَ المرأة ، فتُعاقبَ على إسقاطها عِقابَ الموت والألم والتشهير ؛ لتقيمَ من الثلاثة حُرَّاسًا جبابرةً ، من لايَخْشَ اللهَ خَشيها ؛ فليس يمكن أبداً أن يكون فى ديننا موضعُ غلطة تسقُط فيه المرأة .

قال الأستاذ(ح) : صدقتَ ، فالحقيقةُ التى لامِراء فيها ، أن فكرة الفُجور فكرة قانونية ؛ وما دام القانونُ هو أباحها بشروط ، فهو هو الذى قررها فى المجتمع بهذه الشروط ؛ ومِن هذا التقرير يُقْدِمُ عليها الرجلُ والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان ؛ ومن ثَمَّ تأتى الجُرْأةُ على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون ، ومن هذا الاندفاع تأتى الساقطةُ بآخر معانيها وأقبح معانيها .

وتقريرُ سيادة المرأة فى الاجتماع الأوربى ، وتقديمها على الرجال ، والتأدب معها ؛ كلٌّ ذلك يجعل جراءةَ السفهاءِ عليها جراءةً متأدبةً ، حتى كأنَّ المتحكِّك منهم فى امرأة يقول لها : من فضلك كونى ساقطة . . . أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحةٌ معًا ، وذلك هو سرُّها .

القانون كأنما يقول للرجال : احتالوا على رضى النساء ، فإن رضينَ الجريمةَ فلا جريمة ؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن بَراعة الرجلِ الفاسقِ إنما هى فى الحيلة

على المرأة وإيقاظِ الفطرةِ فى نفسها ، بأساليبَ من الملَق والرياء والمكْر ، تتركها عاجزةً لاتملك إلا أن تذْعِن وترضى ؛ وبهذا ينصرف كلُّ فاجرٍ إلى إبداع هذه الأساليب التى تُطْلِق تلك الفطرةَ من حَيائها ، وتُخرجها من عفتها ، « تطبيقًا للقانون » . . .

ولاسيادةَ فى اجتماعنا للمرأة ، ولكنَّ القانونَ جعلها سيدةَ نفسها ، وجلعها فوق الآداب كلها ، وفوق عقوبة القانونِ نفسه إذا رضيتْ ؛ إذا رضيت ماذا . . . ؟

* * *

قلتُ : فإذا كان القانون هنا فى مسألتنا هذه يَعْدِل بالظلم ، ويَحمِى الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة ؛ فهو إنما يُفسد الدين ، ويَصرف الناس عن خوف الله إلى خوفِ ما يخاف من الحكومة وحدها ؛ وبهذا لايكون عملُه إلا فى تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة ، ويَدَع الباطن يُسرُّ ما شاء من خُبثه وحيلتِه وفساده ؛ فكأنه ليس قانونًا إلا لتنظيم النِّفاق وإحكامِ الخديعة ؛ فلا جَرَم كان قانونًا لحالة الجريمة لا للجريمةِ نفسها ؛ فإذا أخِذت المرأة مُلاينَةً ورضى فهذا فجورٌ قانونىّ . . . وإن كانت الملاينة هى عمل الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكْر ، وإن ضاعت المرأة وسقَطتْ ، وذهب شرفُها باطلاً ، وألحقه الناس بما لايكون من تَوبة إبليس فلا يكون أبداً . أما إذا أخِذت المرأة مُكارَهَةً وغَصْبًا ، فهذه هى الجريمة فى القانون ؛ ويسميها القانون جريمةَ الاعتداء على العِرض ، وهى بأن تُسمَّى جريمة العجز عن إرضاء المرأة ، أحقّ وأولى .

على أن المسكينةَ لم تُؤخَذ فى الحالتين إلا غَصْبًا ، ولكن اختلفت طريقة الرجلِ الغاصب ؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة ، هى إخراجها من شرفها ، وحرمانُها حقوقَ إنسانيتها فى الأسرة ، وطردُها وراء حدود الاعتبار الاجتماعى ، وتركُها ثمةَ مُخَلاَّةً لمجارى أمورها ، فلا يتيسرُ لها العيش إلا من مثل الرجل الفاجر ، فلا تكون لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثالها ، كما يجتمع فى الموضع الواحدِ ، أهلُ المصيرِ الواحدِ ، على طريقةِ القطيع فى المجزرة . . .

* * *

فقالت هي : الحقُّ أن هذه الجريمةَ أولها الحب ؛ وهي لاتقع إلا من بين نقيضَيْن يجتمعان في المرأة معًا : كِبَرُ حبها إلى ما يفوت العقل ، وصِغَر عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأة تظلُّ هادئةً ساكنةً رزينة ، حتى تصادفَها اللِّحاظ النارية من العين المقدَّرة لها ، فلا يكون إلا أن تملأها ناراً ولَهَبا ؛ ولتكن المرأة من هي كائنةٌ ، فإنها حينئذ كمستودَع البارود ، يَهُول عِظَمُه وكِبَره ، وهو لاشيء إذا اتصلتْ به تلك الشرارة المهاجِمَة .

وليست حِراسة المرأة شيئًا يُؤبَه به أو يُعْتَدُّ به أو يسمَّى حراسة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودَع البارود من النار ؛ فيستوى في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة ، والفزَع من الحريق الأعظم ؛ فيُحتَاط لاثنيهما بوسائلَ واحدة في قَدْرٍ واحد واعتبار واحد .

وإذًا تُركت المرأة لنفسها تحرسُها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرِك لنفسه مستودَع البارود تحرسُه جدرانه الأربعة القوية . . .

والرجال يعلمون أن للمرأة مَظاهرَ طبيعيةً ، من الخُيَلاء والكبرياء والاعتدادِ بالنفس والمباهاةِ بالعفة ؛ ولكن هؤلاء الرجالَ أنفسهم يعلمون كذلك ، أن هذا الظاهرَ مخلوقٌ مع المرأة كجلْد جسمِها الناعمْ ، وأن تحته أشياء غيرَ هذه تعمل عملَها وتصنع البارودَ النسائيَّ الذى سينفجر . . .

* * *

قلت : إذا كان هذا فَقَبَّحَ الله هذه الحريةَ التى يريدونها للمرأة . هل تعيش المرأةُ إلا فى انتظار الكلمةِ التى تحكمها بلطف ، وفى انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إن هذا حقٌّ لاريب فيه ، وأوسعُ النساء حريةً أضيعُهنَّ فى الناس ؛ وهل كالمومِسِ فى حريتها فى نفسها ؟

ولكن ياشُؤْمَها على الدنيا ! إنها هى بعينها كما قلتَ أنت : حريةُ المخلوق الذى يُترك حرًّا كالشَّريد ، لتُجرِّبَ فيه الحياةُ تجاريبَها . وماذا فى يد المرأة من حريةٍ هى حرية القَدَرِ فيها ؟

قلتُ : ولهذا لا أرجع عن رأيى أبداً : وهو أنه لاحريةَ للمرأة فى أمة من

الأمم ، إلا إذا شعر كلُّ رجلٍ فى هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أهينتْ واحدةٌ ثار الكلُّ فاستَقَادوا لها ، كأن كراماتِ الرجالِ أجمعين قد أهينتْ فى هذه الواحدة ؛ يومئذٍ تُصبح المرأةُ حرةً ، لابحريتها هى ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال . . .

فضحكتْ وقالت : (يومئذ) ! هذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان . . . ؟

* * *

قال الأستاذ (ح) : ولكنا أبعدْنا عن قصةِ هذه الحياة، ما كان أولها ؟

قالت : إن الشبانَ والرجالَ عِلمٌ يجب أن تعلَّمه الفتاة قبل أوانِ الحاجة إليه ؛ ويجب أن يَقرَّ فى ذهنِ كل فتاة ، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالمحل الذى تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجةً من العطر ، فيه إكرامُها وخدمتُها .

وأساسُ الفضيلة فى الأنوثة الحياء ؛ فيجب أن تعلم الفتاةُ أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجَّمتْ ، أى توقَّحتْ ، أى تبذلتْ ، استوى عندها أن تذهبَ يمينًا أو تذهبَ شمالاً ، وتهيأتْ لكلٍّ منهما ولأيهما اتَّفق : وصاحباتُ اليمين فى كَنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة ، وصاحباتُ الشمال ماصاحباتُ الشمال . . . ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياءُ، الحياء لاغيرُه ؛ فهل هو إلا وسيلةٌ أعانت الطبيعةُ بها المرأةَ لتسموَ على غريزتها متى وجب أن تسموَ ، فلا تلقَى رجلاً إلا وفى دَمِها حارسٌ لايَغفُل . وهل هو إلا سَلْبٌ جمعته الطبيعةُ إلى ذلك الإيجاب الذى لوانطلق وحده فى نفس المرأة لاندفعتْ فى التبرج والإغراء ، وَعَرْض أسرار أنوثتها فى المعرض العام . . . ؟

قالت : ذاك أردتُ ، فكلٌّ ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفَتَيات وأجسامِهن فى الطرق ، فلاتَعُدَّنه من فَرْط الجمال ، بل من قلة الحياء .

واعلم أن المرأة لاتخضعُ حقَّ الخضوع، فى نفسها إلا لشيئين : حيائها وغريزتها .

قلت : ياعجبًا ! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية : « تجوعُ الحرَّةُ ولاتأكلُ بثَدْييها » . فإن اختَضعَت المرأةُ للحياء كفَّتْ غريزتَها . .

قالت : . . . وجعلَها الحياءُ صادقةً فى نفسها وفى ضميرها ، فكانت هى المرأةَ الحقيقيةَ الجديرة بالزوج والنسل وتوريثِ الأخلاق الكريمة وحفظِها للإنسانية .

قلت : ومن هذا يكون الإسرافُ فى الأنوثةِ والتبرجِ أمام الرجال كَذِبًا من ضمير المرأة .

قالت : ومن أخلاقِها أيضًا ؛ ألا ترى أن أشدَّ الإسراف فى هذه الأنوثة وفى هذا التبرج لايكون إلا فى المرأة العامة . . ؟

قلت : والمرأة العامة امرأةٌ تجاريَّةُ القلب . فكأن المسرفةَ فى أنوثتها وتبرُّجِها ، هذه سبيلُها ، فهى لاتؤمَنُ على نفسها .

قالت : قد تؤمَن على نفسها ، ولكنها أبداً مُومِسُ الفكر فى الرجال ، فيُوشِكُ ألا تُؤمَن ؛ وهى رَهنٌ بأحوالها وبما يقع لها ، فقد يتقدم إليها الجرىء وقد لايتقدم ، ولكنها بذلك كأنها مُعْلِنةٌ عن نفسها أنها « مستعِدة ألاَّ تُؤمَن» . .

قال (ح) : لكن يقال إن المرأة قد تتبرجُ وتتأنَّث لترى نفسَها جميلةً فاتنة ، فيعجبُها حسنُها ، فيسرُّها إعجابُها .

قالت : هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذى رأيتَه هنا ، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصة تتأوَّدُ وتهتزُّ وتتَرَجْرَج . إن هذا الرقَّاصَ فيه الحركةُ الفنِّية كما هى حركةٌ ليس غير ؛ فهو كالميزانِ أو القياسِ أو أىِّ آلات الضبط ؛ أما فتنةُ الحركة وسحرُها ومعناها من المرأة الفاتنة فى وهم الرجل المفتون بها ؛ فهذا كله لايكونُ منه شيء فى أستاذ الرقص ، وإن كان أستاذَ الرقص .

إن أجملَ امرأة تَبصُقُ بفمِها على وجهها فى المرآة ، إذا مُحِىَ الرجلُ من ذهنها ، أو لم يُطلَّ بعينيه من وراء عينَيها ، أو لم تكن ممتلئةَ الحواسِّ به ، أو بإعجابِه ، أوبالرغبةِ فى إعجابه ؛ فمهما يكنْ من جمال هذه فإنها لاترى وجهَها حينئذ إلا كالدنيا إذا خلَتْ من العدل . . .

* * *

قلت : ولكنا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ! »

قالت : سأفعل ذلك لموضعكَ عندى : إن قصتى فى الفصل الأول منها هى قصةُ جمالى ؛ وفى الفصل الثانى هى قصةُ مرض العذراء ؛ وفى الفصل الثالث هى قصةُ الغفلة والتهاوُنِ فى الحراسة ؛ وفى الفصل الرابع هى قصةُ انخداع الطبيعةِ النِّسوية المبنية على الرقة وإيجاد الحب وتلقِّيه والرغبة فى تنويعهِ أنواعًا للأهلِ والزوج والولد ؛ ثم فى الفصل الخامس هى قصةُ لؤم الرجل : كان محبًّا شريفًا يُقْسِمُ بالله جَهْدَ أيمانِه، فإذا هو كالمزوِّر والمحتالِ واللص وأمثالهم ممن لا يُعْرَفون إلا بعد وقوع الجريمة .

ثم سكتتْ هُنَيهةً ، فكان سكوتُها يُتِمُّ كلامَها . . . .

وقال (ح) : فما هو مَرَضُ العذراء الذى كان منه الفصلُ الثانى فى الرواية ؟

قالت : كلُّ عذراءَ فهى مريضةٌ إلى أن تتزوج ؛ فيجب أن يُعْلِمَها أهلُها أن العلاجَ قد يكون مسمومًا ؛ وينبغى أن يَحُوطوها بقريب من العناية التى يُحاط المريضُ بها ، فلا يُجعَلُ ما حوله إلا ملائمًا له ، ويُمنَع أشياء وإن أحبَّها ورغِبَ فيها ، ويُكْرَهُ على أشياء وإن عافها وصدَف عنها .

قال (ح) : فيكون القانونُ الاجتماعىُّ تصديقًا للقانون الدينىّ من أن الذكورةَ هى فى نفسها عَداوةٌ للأنوثة ، وأن كلَّ رجل ليس ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ (١) يجبُ أن يكونَ مرفوضًا إلا فى الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ ، وهى الزواج .

قالت : فتكون المشكلةُ الاجتماعية هى : من ذا يُرغِم الذكورةَ على هذه الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ كيلا تضيعَ الأنوثة ؟

قال : ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جنايةَ « الزواج المزوَّر » ، فما عسى أن يكون سقوطُ بعضِ المتزوجات ؟

قالت : هو جنايةُ « الزواج المنقَّح » . . . تريد أنفسُهن الخبيثةُ تنقيحَ الزَّوج ؛ والمومِسَات أشرفُ منهن ، إذ لا يعتدينَ على حق ولا يَخُنَّ أمانة .

* * *

(١) يقال ذو رحم محرم : أى لا يحل للمرأة ، كأبيها وأخيها إلخ .

ورفَّ على وجهها فى هذه اللحظة شُعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت ؛ ورأتنى أتأملـه ، فقالت : أنا مُنْتَشِيَةٌ بحظّى فى هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها .

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمةَ النور حتى جاء حظُّها الحقيقى من حياتها . . . وهو رجل يتَحَظَّاها ؛ كلما أخذتْه عينُها ابتسمتْ له ابتساماً من الذلّ ، لولم تجعلْه هى ابتساماً لكان دموعاً ؛ ثم وقفتْ وما تماسَك من الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » ؛ ثم حيَّتْ وسلَّمتْ وودَّعت ؛ وبعد « واوات » أخرى . . . مشتْ ساكنةً ومَرْآها يَضِجُّ ويَبكى .

فوداعاً يا أوهامَ الذكاء التى تَلْتَمِسُ الحقائقَ بقوة خالقة تَزيد فيها !

ووداعاً يا أحلامَ الفكر التى تضع مع كلِّ شىء شيئاً يُغيِّره !

ووداعاً يا حُبَّها . . .

عروبة اللُّقَطاء . . .*

جلستُ على ساحل الشاطئ فى (اسكندرية) أتأمل البحر ، وقد ارتفع الضُّحَى ، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظُّهر .

وجاءت عَربة اللُّقَطَاء فأشرفَتْ على الساحل ، وكأنها فى منظرها غمَامةٌ تتحرك ، إذ تعلوها ظُلَّةٌ كبيرة فى لَون الغَيْم . وهى كعَربات النقل ، غيرَ أنها مُسوَّرةٌ بألواح من الخشب كجوانب النعش تُمْسِك مَن فيها من الصِّغار أن يتدحرجوا منها إذ هى تَدرُج وتَتَقَلْقَل .

ووقفتْ فى الشارع لتُنْزِل ركبَها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيج لَقيط ومَنْبوذ ، وقد انكمشوا وتَضاغَطُوا إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربة فتَتَسعَهم ، ولكن يمكن أن يُكَبْبَسُوا ويتداخلُوا حتى يَشْغَلَ الثلاثة أو الأربعة منهم حَيِّزَ اثنين . ومَن منهم إذا تألَّم سيذهب فيشكو لأبيه . . . ؟

وتَرى هؤلاء المساكينَ خَليطًا مُلْتَبِسًا يُشْعِرك اجتماعُهم أنهم صَيْدٌ فى شَبَكة لا أطفالٌ فى عَربة ، ويدلك منظرهم البائس الذليل أنهم ليسوا أولادَ أمَّهاتٍ وآباء ، ولكنهم كانوا وساوِسَ آباء وأمهات . . .

* * *

هذه العربة يجرُّها جوادان أحدهما أدهم والآخر كُمَيْت[1] . فلما وقفت لَوَى الأدهم عُنقَه والتفتَ ينظر : أيفرِغون العربةَ أم يزيدون عليها . . . ؟ أما الكُمَيْت فحرَّك رأسه وعَلَكَ لجامَه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكرَ فى تخفيف العبْء الذى تَحملُه يجعلُه أثقلَ عليك مما هو ، إذ يُضيف إليه الهمَّ ، والهمُّ أثقل ما حملتْ نفس ؛ فما دمتَ فى العملِ فلا تتَوهَّمَنَ الراحةَ ، فإن هذا يُوهِن القوة ، ويَخْذُلُ النشاط ، ويَجْلِبُ السأم ؛ وإنما رُوحُ العمل الصبر ، وإنما رُوح الصبر العزم .

---

* كتبها فى مصيفه بسيدى بشر سنة ١٩٣٥

(١) الأدهم : الأسود . والكميت : الأحمر .

ورآهم الأدهم يُنْزِلون اللُّقَطَاء ، فاستخفَّه الطرب ، وحرّك رأسه كأنما يسخَر بالكميت وفلسفته ، وكأنما يقولُ له : إنما هو النّزُوعُ إلى الحرية ، فإن لم تكن لك فى ذاتها ، فلتكنْ لك فى ذاتك ، وإذا تعذّرَت اللذةُ عليك ، فاحتفظْ بخَيالها ، فإنه وُصْلَتُكَ بها إلى أن تُمكِنَ وتتَسهّل ؛ ولا تجعلَنّ كلّ طباعِك طباعا عاملةً كادحةً ، وإلا فأنت أداةٌ ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك ، وليكن لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملةِ ، فتكونَ لك الحياةُ كما تريدك وكما تريدها .

إن الدنياشىء واحدٌ فى الواقع ؛ ولكنّ هذا الشىء الواحدَ هو فى كل خيال دنيـا وحدَها .

* *

وفى العربة امرأتان تَقُومان على اللقطاء ؛ وكلتاهما تزويرٌ للأم على هؤلاء الأطفالِ المساكين ؛ فلما سكَنت العربةُ انحدرتْ منهما واحدة وقامت الأخرى تُناوِلُها الصغارَ قائلةً : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . إلى أن تمّ العدد وخلا قَفَصُ الدّجاجِ من الدجاج . . . !

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مُستَسلِمةٌ ، مُستكينة ، مُعترِفة أن لاحقّ لها فى شىء من هذا العالَم ، إلاهذا الإحسانَ البخْسَ القليل .

جاءوا بهم لينظروا الطبيعةَ والبحرَ والشمس ، فغَفَلَ الصغارُ عن كل ذلك وصرَفوا أعينهُم إلى الأطفالِ الذين لهم آباءٌ وأمّهات . . .

* * *

واكَبِدى ! أضنَى الأسَى كَبِدِى ؛ فقد ضاق صدرى بعد انفساحه ، ونالنى وَجَعُ الفكرِ فى هؤلاء التُّعساء ، وعَرَتْنى منهم عِلّة كَدَس الحمّى فى الدم ؛ وانقلبتُ إلى مَثْوايَ ، والعربةُ وأهلُها ومكانُها وزمانُها فى رأسى .

فلما طافَ بى النومُ طاف كلُّ ذلك بى ، فرأيتُنى فى موضعى ذاك ، وأبصرتُ العربةَ قد وقفتْ ، وتحاورَ الأدهم والكُميت ؛ فلما أفرغوها وشَعَرَ الجوادان بخفّتها التفتا معًا ، ثم جمعا رأسيهما يتحدّثان !

قال الكُميت : كنتُ قبلَ هذا أجرُّ عربةَ الكلابِ التى يقتلها الشُّرْطةُ بالسُّم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلابِ المسكينة ، ثم أرجعُ بها مَوْتَى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء فى كل مراد ومُضْطَرَب من شوارع المدينة وأزقَّتها وسِكَكِها ، ولا أشعر بغير الثِّقْلِ الذى أجره ؛ فلما ابتُليتُ بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسستُ ثقلاً آخرَ وقع فى نفسى وما أدرى ما هو ؟ ولكن يُخَيَّلُ إلىَّ أنَّ ظلَّ كلِّ طفل منهم يُثْقِلُ وحدَه عربة .

قال الأدهم : وأنا فقد كنتُ أجرُّ عربةَ القُمَامةِ والأقذار ، وما كان أقذَرَها وأنتَنها ، ولكنها على نفسى كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ؛ كنت أجِدُ ريحها الخبيثةَ ما دمت أجرها ؛ فإذا أنا تركتُ العربة استَرْوَحْتُ النَّسيم واستطعَمْتُ الجوّ ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ فى الزمن نفسِه ، كأن هذا الزمنَ قد أرْوَحَ وأنتنَ منذ قُرِنْتُ بهؤلاء وعربتهم .

قال الكُميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه ، إذ يكونُ وراءها كالقِطْعة المتمِّمة لها ، ولا تقبل أمه إلا هذا ، ولا يَصْرِفُها عنه صارف ، فتُرغم الوجودَ على أن يتقبلَ ابنها ، وعلى أن يُعطيَه قوانينَه ؛ أما هؤلاء الأطفال فقد طرَدَهم الوجود منه كما طرد الله آباءهم وأمهاتِهم من رحمته ؛ وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ما نشعر به ؛ فلسنا نجرُّ للناس ولكن للشياطين ..

* * *

وهنا وقف على حُوذىّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال : مَن هؤلاء يا أبا على ؟

قال الحوذى : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم .

قال أبو هاشم : سبحانَ الله أما تترك طبعَك فى النكتة يا شيخ ؟

قال الحوذى : وهل أعرفُهم أنا ؟ هم بِضاعة العربة والسلام : اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كلُّ ما أسمع .

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطًا عليهم ، كأنهم أولادُ أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعرى من يدرى أىُّ رجلٍ سيخرج من هذا الطفل ، وأيةُ امرأةٍ ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلَّقتْ هذه البنتْ وعمرُها سنتان ، فى عُنُق هذا الولد الذى كان من سنتين ابنَ سنتين[١] . . . لأرانى أحملُ فى عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملُهم العربات إلى أبواب دُورهم ؛ فإن هؤلاء اللقطاء يُحمَلون إلى باب الملْجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يُرسل إلا إليها .

أنا والله يا أبا هاشم ، ضيِّقُ الصدر ، كاسفُ البال من هذه المِهْنة ؛ ويخيَّل إلىَّ أنى لا أحملُ فى عربتى إلا الجنونَ والفُجور والسرقةَ والقتلَ والدَّعارةَ والسكْر وعواصفَ وزوابعَ . . .

قال أبو هاشم : ولكنَّ هؤلاء الأطفالَ مساكين ، ولا ذنبَ لهم .

قال الحوذى : نعم لا ذنبَ لهم ، غير أنهم هم فى أنفسهم ذنوب ؛ إن كلَّ واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبِتُ امتدادَ الإثم والشر فى الدنيا ؛ ولدتْهم أمهاتُهم لِغَيَّة[٢] .

فقطع صاحبُه عليه وقال : وهل وَلَدْنَهُمْ إلا كما تلد سائرُ الأمهات أولادَهن ؟

قال : نعم ، إنه عملٌ واحد ، غير أن أحوالَه فى الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوى حالُ من يشترى المتاع ، ومن يسرقُ المتاع ؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه — وما سموُّه إلا الزواج — فتَسَفَّل وانحط ، ورجَع فِسقًا ، وعاد أولُه على آخره : كان أولُه جُرْمًا فلا يزالُ إلى آخره جُرْمًا ، ولا يزال أبداً يعودُ أولُه على آخره ؛ فلما حملت المرأة وفاءتْ إلى أمرِها ، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معًا ؛ انطوتْ للرجال على الثأر والحِقد والضغينة ؛ فلا يكون ابنُ العارِ إلا ابنَ هذه الشرورِ أيضًا .

والأمهاتُ يُعْدِدْن لأجنَّتهن الثيابَ والأكْسيةَ قبل أن يُولدوا ، ويُهيِّئْن لهم بالفكرِ آمالا وأحلامًا فى الحياة ، فيَكْسِبْنَهُم فى بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياةِ الهنيئة والرغبةَ فى السموِّ بها ؛ ولكنَّ أمهات هؤلاء

---

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات .

(٢) ولدته لغية : أى من سفاح . وضده لرشدة بفتح الراء .

يُعدِدْن لهم الشوارعَ والأزقّة منذُ البَدْء، ولاتترقّبُ إحداهن طولَ أشهرِ حَملِها أن يجيئها الوليد، بل أن يتركَها حيًّا أو مقتولاً؛ فيورِثْنهم بذلكَ وهم أجنّة شعورَ اللّهفةِ والحسْرة والبُغضِ والمَقْت، ويَطبَعْنَهم على فكرة الخطيئةِ والرغبةِ فى القتل، فلا يكونُ ابنُ العارِ إلا ابنَ هذه الرذائل أيضًا.

وتَظلُّ الفاسقةُ مدةَ حملها تسعةَ أشهر فى إحساسٍ خائف، مترقّب، منفرد بنفسه، منعزِل عن الإنسانية، ناقم، متبرّم، متستر، منافِق؛ فلو كان السَّفِيحُ من أبوين كريمين لجاء ثُعبانًا آدميًّا فيه سُمُّه من هذا الإحساس العنيف. ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذَا بطنها[1] قطعتْه لِتَوِّه من روابط أهلِه وزمَنِه وتاريخهِ ورمتْ به ليموت؛ فإن هلك فقد هلك، وإن عاش لمثلِ هذه الحياةِ فهو موت آخر شرٌّ من ذلك؛ ومهما يتَوَلَّهُ الناسُ والمحسِنون، فلا يزالُ أولُه يعود على آخره؛ مما فى دَمِه وطباعِه الموروثة؛ ولايبرحُ جريمةً ممتدَّةً متطاولة، ولاينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ، وفيها خطيئةٌ ولَعنة.

فهؤلاء كما رأيتَ أولاد الجُرأة على الله، والتعدّى على الناس، والاستخفاف بالشرائع، والاستهزاء بالفضائل؛ وهم البغض الخارج من الحب، والوقاحة الآتية من الخجَل، والاستهتارُ المنبعِثُ من النَّدامة؛ وكلٌّ منهم مسألةُ شرّ تطلبُ حلَّها أوتعقيدَها من الدنيا، وفيهم دماءٌ فوَّارة تجمعُ سمومَها شيئًا فشيئًا كلما كبروا سنةً فسنة.

قال أبو هاشم: ألالعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغْتَرَّ تلك المرأة فاستزلَّها وهوَّرَها فى هذه المَهْواة. أكان حق الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمىّ. أما كان ينبغى أن يكونَ هذا الآخِرُ هو الأولَ فى الاعتبار، فيعلمَ أن هذا اللقيطَ المسكينَ هو سبيلُه إلى صاحبته، وهو البلاغُ إلى ما يحاولُه منها؛ فيكونَ كأنما دخل بين الاثنين ثالثٌ يراهما . . . . فلعلهما يستَحيان.

قال الحوذىُّ الفيلسوف: لعنةُ الله على ذلك الرجل، ولَعَنَاتُ الله كلُّها، ولَعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التى انقادتْ له واغترّت به. إن الرجلَ ليس شيئًا فى هذه الجريمة، فقد كانت بَصقةٌ واحدةٌ تُغرقُه، وكانت

(١) أى وضعت وولدت، وهو تعبير عربى بليغ.

صفعةٌ واحدةٌ تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ، ومعها جهنمُ أيضا .

ألم تعلم الحمقاء أن الرجلَ الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعةَ لو أيقنتْ أنه رجلٌ لما حرّمت عليها أن تخالطهَ ؟ إنه ليس الرجلُ هو الذى ساورَ هذه المرأة ، بل مادةُ الحياة التى رأت فى المرأة مُستودَعها ، فتريدُ أن تقتحمَ إلى مَقَرّها عَنْوَةً أوخداعا أو رضًى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن تُوجَد ، ولا شىء إلا أن توجَد ؛ فلا تعرفُ خيراً ولا شرًّا ، ولا فضيلةً ولا رذيلة .

لأيِّهما يجبُ التحصين : أللصاعقة المنقضة ، أم للمكان الذى يُخشَى أن تنقضَّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعةُ الإسلامية : حَصِّنوا المكان . ولكن المدنية أجابت : حصِّنوا الصاعقة . . . !

* * *

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللُّقطاء تتناجَيان ، فقالت الكبرى منهما :

ياحَسْرَتَا على هؤلاء الصغار المساكين ! إن حياةَ الأطفال فيما فوقَ مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحِهم ؛ وحياةُ هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط .

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالُهم فى نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجُهم من « الملجأ » وهو كلُّ النظام فى دنياهم ، ليس بعدَه إلا التشريدُ والفقرُ وابتداء القصة المحزنة .

فقالت الصُّغرى : ولِمَ لا يفرحون كأولاد الناس ، أليست الطبيعةُ لهم جميعًا ، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتَها عن هؤلاء لتُضاعِفَها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتِك حياةٌ بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغيرَ الذى كان تحت قلبك تسعةَ أشهر ؛ وإنما أنتِ مع هؤلاء (موظَّفة) لا تعرفين منهم إلا جانبَ النظام وقانونَ الملجأ .

لقد ولدتُ يا ابنتى خمسةَ أطفال ، وبالعين البليغة التى أنظرُ بها إليهم أنظر إلى هؤلاء ، فما أراهم إلا منقَطعين من صِلة القلب الإنسانى : يعبَسُ لهم

حتى الجوّ، ويُظلِم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صغَره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره .

يالهْفى على عود أخضرَ ناعمٍ ريّانَ كان للثمر فقيل له: كن للحطب !

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيتُه نفسَه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به . وهؤلاء اللقطاء فى حياة عامّة قد نُزِعَتْ منها الأمُّ والأبُ والدارُ ، فليس لهم ماض كالأطفال ، وكأنهم يبدءون من أنفسِهم لا من الآباء والأمهات .

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال .

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غيرَ أنهم طُردوا من حقوق الطفولة كما طُردوا من حقوق الأهل . وحسبُكِ بشقاء الطفل الذى لم يَعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتلْه ، ولا من شفقتها إلا أنها طرَحتْه فى الطريق .

إن الطبيعةَ كلَّها عاجزة أن تعطِىَ أحدَهم مكانًا كالموضع الذى كان يتبوّؤه بين أمه وأبيه .

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صُوَراً مُبهمةً صغيرةً من كل جمال العالم ، تفسِّرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة ؛ فأينَ أينَ العيونُ التى فيها تفسيرُ هذه الصُّور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذالِ الطّغام الذين أَولدوا النساء هؤلاء المنبوذين ! يزعمون لأنفسِهم الرجولةَ، فهذه هى رجولتُهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتُهم ، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابُهم . . . !

عجبًا ، إن سيِّئات اللصوص والقَتلةِ كلها يُنسَى ويتلاشَى ، ولكنَّ سيئاتِ العشاق والمحبين تعيشُ وتكبر . . .

أكان ذنبُ المرأة أنها صادقة فصدّقتْ ، وأنها مُخْلِصة فأخلصتْ، وأنها رقيقة فلانَتْ، وأنها مُحسنة فرَحمَتْ ، وأنها سليمة القلب فانخدعتْ ؟

واكَبِدى للمسكينةِ ! هل انخدعتْ إلا من ناحيةِ الأمومة التى خُلِقت لها ؟ هل انخدعتْ إلا الأمُّ التى فيها ؟ وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأب الذى فيه ؟

واكَبدِى لمن تُفْجَع بالنكبةِ الواحدة ثلاثَ فجائعَ : فى كرامتها التى ابتُذِلَتْ ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها ، وفى طفلِها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كُتِب عليه . . .!

إن هذا لايُعوِّضه فى الطبيعة إلا أن يكونَ لكل رجل من أولئك الأنذالِ ثلاثُ أرواح ، فيُقتَلَ ثلاثَ مرات : واحدةً بالشنق ، والثانيةَ بالحرق ، والثالثةَ بالرَّجْم بالحجارة .

* * *

وكان اللقطاء قد تبَعْثَروا على الساحل جَماعاتٍ وَشتَّى ، فوقف أحدُهم على طفل صغير يلعبُ بما بين يديه ، وأمُّه على كَثَبٍ منه ، وهى تتلهَّى بالخرَّم تتلوَّى فيه أصابعُها .

فنظر الطفلُ إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال له : أأنتم جميعًا أولادُ هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

قال اللقيط . هما المراقِبتَا ن؛ وأنتَ أفليستْ هذه التى معك مُراقِبة ؟

قال الطفل : ما معنى مُراقِبة؟ هذه ماما !

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مُراقِبة .

قال الطفل : وكلكم أهلُ دار واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا .

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردتَ شيئًا ليعطوك ؛ ثم تغضَبُ إذا أعطوك ليَزيدوك ؟ وهل يُسكِتُونك بالقرش والحلْوَى ؟ والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهبُ معكم إلى الملجأ ؛ فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لاتعطِيَنى شيئًا إذا بكيت ، ولاتزيدَنى إذا غضبت ، ولا . . . .

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رَقْم عشرة . . . فلَوَى اللقيطُ المسكينُ وجهَه ، وانْصاعَ وأدبر .

« ومشَى الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلِمةٌ ، مستكينةٌ ، معترِفة أن لاحقَّ لها فى شىء من هذا العالَم إلا هذا الإحسانَ البخس القليل » . . .

الله أكبر *

جلستُ وقد مضى هَزيعٌ من الليل، أهيِّئ في نفسي بناء قصة أديرُها على فتىً كما أحبّ .. خبيث داعر، وفتاة كما أحبّتْ . . . عذراءَ متماجنة ؛ كلاهما قد دَرَسَ وتخرَّجَ في ثلاثة معاهد : المدرسة ، والروايات الغرامية ، والسِّيما . وهو مصريٌّ مسلم ، وهي مصرية مسيحيّة . وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لايتنزَّه ولايتورَّع ؛ وهو من شبابه كالماء يغلي ، ومن أناقته بحيث لم يَبْقَ إلا أن تلْحقَه تاء التأنيث . . . وقد تشعَّبت به فنونُ هذه المدنيّة ، فرفَع الله يدَه عن قلبه لايُبالي في أيِّ أوْديَتها هلَك ؛ وهو طِلْبُ نساء ، دأبُه التَّجْوالُ في طُرقهن ، يتَتبّعُهنّ ويتعرضُ لهن ، وقد ألِفتْه الطرق حتى لوتكلّمت لقالت : هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عَرَبات الكَنْس . . . !

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتك ، يَعْبَثُ بها العبَثُ نفسه ، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنث الأوربيّ القائم على فلسفة الغريزة ، وما يُسمّونه « الأدب المكشوف » كما يُصوِّره أولئك الكُتّابُ الذين نقَلوا إلى الإنسانية فلسفةَ الشهوات الحرّة عن البهائم الحرة . . فهي تَبْرُزُ حين تَخرج من بيتها ، لا إلى الطريق ، ولكن إلى نظرات الرجال ؛ وتَظهرُ حين تظهر ، مُصوّرة لابتلْوين نفسِها مما يجوزُ وما لايجوز ، ولكن بتلْوين مرآتها مما يُعجِب وما لايُعجِب .

وكِلا اثنيْهما لايُقيم وزنًا للدين ، والمسلم والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ وحده ؛ إذ كان من وَضْع الوالدين (رحمهما الله !) ؛ والدِّينُ حرّية القَيد لاحرّية الحرية ؛ فأنت بعد أن تُقيِّدَ رذائلك وضرَاوتكَ وشرّك وحيوانيّتك — أنت من بعد هذا حر ما وَسِعَتْك الأرضُ والسماء والفكر ؛ لأنك من بعد هذا مُكمِّلٌ للإنسانيّة ، مستقيمٌ على طريقتها ؛ ولكن هَبْ حِماراً تفَلْسَفَ وأراد أن يكونَ حرًّا بعقله الحماريّ ؛ أي تقرير المذهب الفلسفي الحماريّ في الأدب . . . فهذا إنما يبتغي إطلاقَ حريته ، أي تسليطَ حِماريّتِه الكاملة على كل ما يتصل به من الوجود .

---

* كتبها في الأسبوع الأخير من رمضان .

وتَمْضِى قصتى فى أساليبَ مختلفة تَمْتَحِنُ بها فنونُ هذه الفتاة شهوَات هذا الفتى ، فلا يزال يَمشى مِن حيث لايَصل ، ولاتزال تمنعه من حيث لاترده ؛ وما ذلك من فضيلة ولاامتناع ، ولكنها غريزة الأنوثة فى الاستمتاع بسُلطانها ، وإثباتِها للرجل أن المرأة هى قوّة الانتظار ، وقوّة الصبر ؛ وأن هذه التى تحمل جنينَها تسعةَ أشهر فى جوفها ، تُمسِكُ رغبتَها فى نفسها مدّة حَملٍ فكْرىٍّ إذا هى أرادت الحياة لرغبتها ، ليكونَ لوقوعها وتَحققها مثلُ الميلاد المفْرِح .

ولكنّ الميلادَ فى قصتى لايكون لرذيلة هذه الفتاة ، بل لفضيلتها ؛ فإن المرأة فى رأيى — ولو كانت حياتُها محدودة من جهاتها الأربع بكبائر الإثم والفاحشة — لايزال فيها من وراء هذه الحدود كلِّها قلبٌ طبيعتُه الأمومة ، أى الاتصالُ بمصدر الخَلْق ، أى كلٌّ فضائل العقيدة والدين ؛ وما هو إلا أن يتنبه هذا القلبُ بحادث يتّصلُ به فيبلغُ منه ، حتى تتحوّلَ المرأةُ تَحوُّلَ الأرض من فصلها المقشَعِرّ المجدب ، إلى فصلها النَّضر الأخضر .

فى قصتى تُذْعِنُ الفتاة لصاحبها فى يوم قد اعتَرَتْها فيه مخافةٌ ، ونزلَ بها همٌّ ، وكادتْها الحياةُ مِن كَيدها ؛ فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة . وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مَصدر الغيب ، مؤمِّلٌ فى رحمة القدَر ؛ ويَخلِبُها الشابُّ خلَابَةَ رُعُونته وحبِّه ولسانه ، فيعطيها الألفاظَ كلَّها فارغةً من المعانى ، ويقرُّ بالزواج وهو منْطوٍ على الطَّلاق بعد ساعة ؛ فإذا أوشكت الفتاة أن تُصرَعَ تلك الصَّرعة دوَّى فى الجوّ صوتُ المؤذّن : « الله أكبر ! »

وتُلْسَعُ الفتاةُ فى قلبها ، وتتّصلُ بهذا القلب رُوحانّيةُ الكلمة ، فتقعُ الحياةُ السماويةُ فى الحياة الأرضية ، وتنتبه العذراء إلى أن الله يَشْهَدُ عارَها ، ويَفجؤها أنها مُقْدِمةٌ على أن تفْسِدَ من نفسها مالايُصْلِحُه المستحيلُ فضلاً عن الممكنِ ، وترنو بعين الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسمِ بَغِىٍّ ليستْ هى تلك التى هى ؛ وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسق ليس هو ذاك الذى هو ؛ ويَحكى لها المكانُ فى قلبها المفطورِ على الأمومة — حكايةً تَثُور منها وتشمئز ؛ ويَصرُخُ الطفلُ المِسكينُ صَرْختَه أذنها قبل أن يُولَدَ ويُلْقَى فى الشارع . . . !

الله أكبر ! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغةِ صاحبِها ولامن صَوْتهِ ولا من خِسّته ، كأنما تُفْرِغُ السماء فيه مِلءَ سحابة على رِجْسِ قلبها فتُنْقيه حتى ليس به ذرّةٌ من دَنَسِه الذى رَكِبَهُ الساعة . كان لِصاحبها فى حِسٍّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسودُ ، المنطفىء ، المبهَم ، المتلَجْلِج مما فيه من قوّة شهواته ؛ للمؤذّن صوتٌ آخَر فى رُوحها ؛ صوتٌ أحمرُ ، مشتعلٌ كمعْمَعَةِ الحريق ، مُجَلْجِلٌ كالرعد ، واضحٌ كالحقيقة فيه قوّةُ الله !

سمعتْ صوتَ السِّلسلة وقَعْقَعَتَها تَلوَى وتشَدُّ عليها ، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسَرُ حديدُها ويتحطَّمُ .

كانت طهارتُها تختنِقُ فنفذتْ إليها النَّسَمات ؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجوّ ، بعد أن كانت أسَفَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض . طارت الحمامة ، لأن الطبيعةَ التفتتْ فيها لفتةً أخرى .

ويكرّر المؤذّنُ فى ختام أذانه : « اللهُ أكبرُ الله أكبر ! » فإذا . . .

* * *

وتبَلّدَ خاطرى ، فوقفتُ فى بناء القصَّة عند هذا الحد ، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ « إذا . . . » فتركتُ فكرى يعمل عَمَله كما تُلْهِمه الواعيةُ الباطنة ، ونِمْت . . .

ورأيتُ فى نومى أنى أدخُل المسجدَ لصَلاة العيد وهو يَعُجُّ بتكبير المصَلين : « الله أكبر الله أكبر ! » ولهم هَدِيرٌ كهدير البحرِ فى تَلاطُمِه . وأرى المسجدَ قد غَصَّ بالناس فاتَّصلوا وتلاحَموا ؛ تجِدُ الصفَّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ فى الكتاب : ممدوداً محتَبِكاً ينتظمهُ وضْعٌ واحد ، وأراهم تتابعوا صفّاً وراء صفّ ، ونَسَقاً على نَسَق ، فالمسجدُ بهم كالسُّنْبُلَةِ مُلِئت حبّاً مابين أوّلها و آخرِها ؛ كلُّ حبة هى فى لِفٍّ من أهلِها وشملِها ، فليس فيهن على الكثرة حبَّةٌ واحدة تُميِّزُها السنبلةُ فَضلَ تمييز ، لا فى الأعلى ولافى الأسفل .

وأقف متحيراً مُتَلَدِّداً ألتفتُ ههنا وههنا ، لا أدرى كيف أخلُصُ إلى موضع أجلس فيه ؛ ثم أمضى أتخطَّى الرِّقابَ أطمعُ فى فُرْجَة أقتحمها وما تنفرج ، حتى أنتهِيَ إلى الصفّ الأوّل ؛ وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادِناً يملأ

موضعَ رَجلين ، وقد نَفَحَ منه ريحُ المِسك ، وهو فى ثياب من سُندُس خُضْر ؛ فلما حاذيْتُه جمعَ نفسَه وانكمش ، فكأنما هو يُطوَى طيًّا ، ورأيت مكانًا وَسِعَنى فحَطَطتُ فيه إلى جانبه ، وأنا أعجَبُ للرجل كيف ضاق ولم أُضيِّق عليه ، وأين ذهبَ نِصفُه الضخمْ وقد كان بعضه على بعضه زِيَمًا على زِيَم [١] وامتلاءً على امتلاء.

وجعلتُ أحْدسُ عليه ظنى ، فوقع فى نفسى أنه مَلَكٌ من ملائكة الله قد تمثَّل فى الصورة الآدمية فاكتَمَ فيها لأمر من الأمر .

وضجَّ الناسُ : « الله أكبرُ الله أكبر ! » فى صوت تقشعرُّ منه جُلود الذين يخشَوْنَ ربَّهم ، غير أن الناسَ مما ألِفوا الكلمةَ ومما جهلوا من معناها — لايسمعونها إلا كما يسمعون الكلام ؛ أما الذى إلى جانبى فكان ينتفضُ لها انتفاضة زجَّتْنِي معه رَجًّا ، إذ كنتُ ملتصِقًا به مُناكِبًا له ؛ وكأن المسجدَ فى نَفْضه إيانا كان قِطاراً يجرى بنا فى سرعة السحاب ، فكلٌّ ما فيه يرتجٌّ ويهتزّ . ورأيتُ صاحبي يَذْهَل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحًا لايزال ينطفىء ويشتعل ؛ فقطعتُ الرأى أنه من الملائكة .

ثم أقيمت الصلاةُ وكبَّر أهلُ المسجد ، وكنتُ قرأتُ أن بعضهم صلى خلْفَ رجل من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته ؛ قال : فلما كبَّرَ قال : « اللهُ . . » ثم بُهِتَ وبقى كأنه جَسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله الله تعالى ؛ ثم قال : « أكبر » يَعْزِم بها عَزْمًا ، فظننتُ أن قلبى قد انقطعَ من هيبة تكبيره .

قلتُ أنا : أمَّا الذى إلى جانبي ، فلما كبر مدّ صوته مدا ينبثق من رُوحه ويستطير ، فلو كان الصوتُ نوراً لَمَلأ ما بين الفجر والضُّحى .

* * *

وعرفتُ والله من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتى كأنى لم أدخلْه من قبل ، فكان هذا الجالسُ إلى جانبي كضوء المصباح فى المصباح ؛ فانكشفَ لى المسجدُ فى نوره الرُّوحيّ عن معانٍ أدخلتنى من الدنيا فى دُنْيا على حِدَة . فما المسجد

(١) أى كتلا على كتل ، والزيم المتفرق من اللحم .

بناء ولامكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيحٌ للعالَم الذى يَموج من حَوْله ويضطرب ؛ فإن فى الحياة أسبابَ الزَّيغ والباطل والمنافَسة والعداوة والكَيْدِ ونحوها ، وهذه كلُّها يمحوها المسجدُ إذ يجمع الناسَ مراراً فى كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءةِ القلب، وروحانيَّة النفس ؛ ولاتدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرةً منزَّهة مُسْبِغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارَ الطُّهرِ الذى يُسمَّى الوضوء ، كأنما يغسلُ الإنسانُ آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد .

ثم يستوى الجميعُ فى هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً فى نفسيَّةٍ واحدة؛ وليس هذا وحدَه، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله ؛ فليس لِرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ؛ ومن ثَمَّ فليس لذات على ذات سلطان . وهل تُحقَّق الإنسانيَّةُ وَحْدَتها فى الناس بأبدعَ من هذا ؟ ولعمرى أين يجدُ العالَمُ صوابَه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرة المصحِّحةِ لكلِّ ما يَزيغُ به الاجتماع . هو فِكْرٌ واحدٌ لكلِّ الرءوس ؛ ومن ثَمَّ فهو حَل واحدٌ لكل المشاكل، وكما يُشَقُّ النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لاتتقدم، يُقام المسجدُ فتقف الأرضُ بمعانيها التُّرابيَّة خلف جدرانه لاتَدْخُله .

* * *

وما حَرَكةٌ فى الصلاة إلا أوَّلُها « الله أكبر » وآخرُها « الله أكبر » ؛ ففى ركعتين من كلِّ صلاة إحدى عشرةَ تكبيرةً يَجْهَرُ المصلُّون بها بلسان واحد؛ وكأنى لم أفطن لهذا من قبل ، فأىُّ زمامٍ سياسى للجماهير وروحانيَّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة التى هى أكبرُ ما فى الكلام الإنسانىّ ؟

* * *

ولما قُضيَت الصلاةُ سلَّمْتُ على الملَك وسَلَّم علىّ ، ورأيتُه مقبلاً محتفياً ، ورأيتُنى أثيراً فى نفسه، وجالت فى رأسى الخواطرُ فتذكَّرتُ القصةَ التى أريد أن أكتبَها؛ وأن المؤذِّنَ يكرر فى خاتمة أذانه: « الله أكبرُ الله أكبر » فإذا ... وقلت : لأسألَنَّه ، وما أعظم أن يكونَ فى مقالتى أسطرٌ يلْهِمها مَلَكٌ من

الملائكة ! ولم أكد أرفعُ وجهى إليه حتى قال :

« . . . فإذا لَطْمتان على وجه الشيطان ، فَوَلّى مُدْبراً ولم يُعقّبْ ؛ ووَضعتِ الكلمةُ الإلهيَّةُ معناها فى موضعه من قلب الفتاة ، فَلأْياً بِلأْى ما نجَت .

إن الدينَ فى نفس المرأة شعورٌ رقيق ، ولكنه هو الفُولاذُ السميكُ الصُّلْبُ الذى تُصفَّح به أخلاقُها المدافِعة .

الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تُنْشدُ هذا النشيد :

* * *

بيْنَ الوقت والوقتِ من اليوم تَدُقُّ ساعةُ الإسلام بهذا الرَّنين : الله أكبرُ الله أكبر ، كما تدقُّ الساعةُ فى موضع ليتكلمَ الوقتُ برنينها .

* * *

الله أكبر ! بيْنَ ساعات وساعاتٍ من اليوم تُرْسِلُ الحياةُ فى هذه الكلمة نداءها تهتِفُ : أيُّها المؤمن ! إن كُنتَ أصبتَ فى الساعات التى مضتْ ، فاجتهدْ للساعات التى تتلو ؛ وإن كنتَ أخطأتَ ، فكفِّرْ وامْحُ ساعةً بساعة ؛ الزمن يمحو الزمن ، والعملُ يُغيِّر العمل ودقيقةٌ باقيةٌ فى العمرِ هى أملٌ كبير فى رحمة الله

* *

بين ساعات وساعات ، يتناولُ المؤمنُ ميزانَ نفسِه حين يسمع : الله أكبر ، ليعرفَ الصِّحّةَ والمرضَ من نِيَّتِه ؛ كما يضَعُ الطبيبُ لمريضه بينَ ساعات وساعات مِيزانَ الحرارة .

* * *

اليومُ الواحد فى طبيعة هذه الأرض عُمْرٌ طويلٌ للشرّ ، تكاد كلُّ دقيقة بشرِّها تكون يوماً مختوماً بليْل أسود ؛ فيجب أن تَقسمَ الإنسانيَّةُ يومها بعدد قارَّات الدنيا الخَمْس ، لأن يومَ الأرض صورةٌ من الأرض ؛ وعند كل قسم : من الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعِشاء — تصيح الإنسانيةُ المؤمنةُ مُنبِّهةً نفسَها : الله أكبر ، الله أكبر !

* * *

بين ساعاتٍ وساعات من اليوم يَعْرِض كلُّ مؤمن حسابَه ، فيقومُ بين يَدَيِ الله ويرفعه إليه . وكيف يكون من لايزال ينتظر طولَ عُمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ ـــ الله أكبر . . . ؟

* * *

بين الوقْتِ والوقت من النهار والليل تُدَوِّى كلمةُ الروح : الله أكبر . ويُجيبها الناسُ : الله أكبر . ليعتادَ الجماهير كيف يُقادُون إلى الخير بسهولة ، وكيف يحقِّقون فى الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد ؛ فتكون الاستجابةُ إلى كل نداء اجتماعى مغروسةً فى طبيعتهم بغير استِكْراه .

* * *

النفسُ أسْمى من المادّةِ الدنيئة ، وأقوى من الزمن المخرّب ، ولادِينَ لمن لاتشمئزُّ نفسُه من الدناءة بأنَفَة طبيعية ، وتحمل همومَ الحياة بقوة ثابتة .

لاتضطربوا ؛ هذا هو النظام . لاتنحرفوا ؛ هذا هو النَّهْج . لاتراجَعوا ؛ هذا وهو النداء . لن يكبرَ عليكم شىء ما دامت كلمتُكم : الله أكبر . . . !

فى اللّهب ولا تحترق*

أفى الممكن هذا ؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلّ ، مُفاكِهة مُداعِبة ، تُحيي ليلَها راقصةً مغنية ؛ حتى إذا اعتدل الليلُ ليمضى ، وانتبه الفجر ليُقْبِل — انكفأت إلى دارها فنَضَتْ وَشْيَها ، وخرجتْ من زينتها ، وخلعتْ رُوحًا ولبست روحًا ، وقالت : اللهم إليك ، ولبَّيك اللهم لَبيك . ثم ذهبت فتوضأت وأفاضَتْ النورَ عليها ، وقامت بين يدى ربها تصلى . . . !

* * *

هى حسناء فاتنة ، لو سَطَع نورُ القمر من شىء فى الأرض لسطَع من وجهها . وما تراها فى يوم إلا ظهرت لك أحسنَ مما كانت ، حتى لتظن أن الشمسَ تَزيد وجهَها فى كل نهار شُعاعةً ساحرة ، وأن كلَّ فجر يترك لها فى الصبح رَيقًا ونَضْرةً من قطَرات النَّدى .

وتحسبُ أن لها دَماً يَطْعم فيما يَطعم أنوارَ الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسماتِ الليل .

وإذا كانت فى وَشْيها وتَطارِيفها وأصباغها وحِلاها لم تجدها امرأة ، ولكن جَمرةً فى صورة امرأة ؛ فلها نور بصيص ولهَب ، وفيها طبيعة الإحراق . . . . إن الذى وضَع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهْبة ، وضع على جمالها خاتَمَ قُرص الشمس .

فإذا رأيتَها بتلك الزينة فى رقصها وتَثنّيها ، قلتَ : هذه روضة مُفْتَنَّة اشتهتْ أن تكونَ امرأة فكانت ، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيم على أعضائها

وهى متى نفذتْ إلى البقعة المجدِبةِ من نفسك أنشأتْ فى نفسك الربيع ساعة أو بعض ساعة .

---

* انظر قصة هذه الراقصة وما كان من شأنها وشأنه فى « عمله فى الرسالة » من كتاب « حياة الرافعى » .

وتنسجم أنغامُ الموسيقى فى رشاقتها نَغْمةً إلى حركة ؛ لأن جسمَها الفاتن الجميلَ هو نفسُه أنغام صامتة تُسمَع وتُرى فى وقت معًا .

وتنسكبُ روحُها الظريفةُ بين الرقص والموسيقى ، لتُخرجَ لك بظَرفها صراحةَ الفن من إبهامين ، كلاهما يُعاون الآخر .

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركاتِ أعضائها أشواق الحياة وأفراحَها وأحزانَها ، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسم المرأة .

وكأن الليلَ والنهارَ فى قلبها ؛ فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضَوءاً وظلمة .

وهى إلى القِصَر ، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامَها ، حسبتَها طالت لساعتها .

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فإذا هى رابية كأن بعضَها كان مختبئًا فى بعض .

ويخيل إليك أحيانًا فى فن من فنون رقصها أن جسمَها يتثاءب برعشة من الطرب ، فإذا جسمُك يهتزّ بجوابِ هذه الرّعشة ، لايملك إلا أن يتثاءب . . . ويُجَن رقصُها أحيانًا ، ولكن لتحقّقَ بجنونِ الحركة أن العقل الموسيقىّ يُصرِّف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفنّ فى تأوُّدِها ولفتتها ونظرتِها وابتسامِها وضحكها — ففى وجهها دائمًا علامةُ وقار عابسةٌ تقول للناس : افهَمونى .

* * *

ولما رأيتُها شَهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها مُتحرّزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن ، يبسط الأمنَ والسلامةَ على ظاهرها ؛ وأن لها عينًا عذراء لاتحاول التعبير ، لاسؤالاً ولاجوابًا ولااعتراضًا بينهما ؛ وأن قوةَ جمالها تستظهرُ بقوة نفسها ، فيكونُ ما فى جمالها شيئًا غير ما فى النساء — شيئًا عبقريًّا بالغَ القوة ، يكُفُّ الدواعى ، ويَحسِمُ الخواطر ، ويُرغمُ الإعجابَ أن يكون ذُهولاً وحَيرة ، ويُكرِه الحبَّ أن يرجعَ مَهابة واحتشامًا .

والرواية كلُّها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهُها

إلا الشاشةُ البيضاء لهذه « السيما » ، وهل يكون على الوجه إلا أخيِلةُ القلبِ أو الفكر ؟

وعندى أن المرأةَ إذا كان لها رأىٌ دينىٌ ترجعُ إليه ، وكان أمرها مجتمعًا فى هذا الرأى ، وكانت أخلاقُها محشودةً له ، متحفِّلةً به — فتلك هى الياقوتة التى تُرمى فى اللهب ولاتحترق ، وتظل مع كل تجربة على أول مُجاهدَتِها ؛ إذ يكون لها فى طبيعة تركيبها الياقوتىّ ما تهزم به طبيعةَ التركيب النارىّ .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعةً ياقوتية ، هى فطرتُها الدينية التى فيها : إن بقيتْ لها هذه بقيتْ معها تلك ؛ ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تَخذلها الفطرة والطبيعةُ معًا ؛ فيجعلُ الله عِقابَها فى عملها ، ويَكلُها إلى نفسها ؛ فإذا هى مقبلةٌ على أغلاطها ومَساوئها بطُرُق عقلية إن كانت عالمة ، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة . وما بُدٌّ أن تَستَسرّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوةُ الاستحالة إلى الفساد ؛ ويرجعُ ضميرُها الخالى محاولاً أن يمتلئ من ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها ، وتُصبح المرأة بعد ذلك فى حكم أسباب حياتها ، مصرَّفةً بهذه الأسباب ، خاضعةً لما يُصرّفها ؛ ويذهب الدّين وينزل فى مكانه الشيطان ؛ ويزولُ الاستقرارُ ويحلُّ فى محله الاضطراب ، وتنطفئُ الأشعةُ التى كانت تذيب الغُيوم وتمنعها أن تراكم ، فإذا الغيومُ ملتف بعضُها على بعض ؛ وتُخذَلُ القوةُ السامية التى كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرُها بذلك على أقوى الرجال ؛ فإذا المرأةُ من الضعف إلى تَهافُت ، تَغلبُها الكلمةُ الرقيقة ، وتَغترُّها الحيلةُ الواهنة ، وتُوافقُ انخداعَها كلُّ رغبة مزيَّنة ، ويستذلها طمعُها قبل أن يستذلها الطامعُ فيها ؛ ولتكنْ بعد ذلك مَن هى كائنة أصلاً وحسبًا وتهذيبًا وعقلاً وأدبًا وعلمًا وفلسفة ، فلو أنها امرأةٌ من « الأسمنت المسلّح » لتفتَّتتْ بالطبيعة التى فى داخلها ، ما دامت الطبيعةُ متوجهةً إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تَهدِمَ وأن تنهدم .

لقد رقَّ الدينُ فى نسائنا ورجالنا . فهل كانت علامةُ ذلك إلا أن كلمةَ : « حرام ، وحلال » قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلتْ عند كثير من الشبان والفتيات إلى « معاقَبٍ عليه قانونًا ،

ومباح قانوناً . . . » ثم انحطت آخراً عند السواد والدّهماء إلى « ممكن ، وغير ممكن . . . » ؟

* * *

قالت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت فى نفسى أن الصلاةَ لاتصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفسه طاهراً يصلى لله مع الجسم ، فإن كانت الصلاةُ بالجسم وحده لم يزدد المرءُ من رُوح الصلاة إلا بعداً . وقَرَّ هذا فى نفسى واعتدته ، إذ كنتُ أتعبّد على مذهب الإمام الشافعى (رضى الله عنه) ، فأصحح الفكرَ ، وأستحضرُ النيّةَ فى قلبى ، وأنحصرُ بكلى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقولَ : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلَع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرجَ منها ثم يعودَ إليها ؛ ونشأتْ فيه القوةُ المصمِّمةُ التى تجعلُه قادراً على أن ينصرفَ بى عما يُفسِدُ رُوحَ الصلاة فى نفسى ، وهى سرُّ الدين وعمادُه .

ويا لها حكمةً أنْ فرضَ الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقَى الروح أبداً إما متصلةً أو مهيّأةً لتتصل . ولن يَعجزَ أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملِكَ نفسَه بضعَ ساعات ، متى هو أقرَّ اليقينَ فى نفسه أنه متوجِّه بعدها إلى ربه ، فخاف أن يقفَ بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو إذا ملك نفسَه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضةَ الأخرى ، وأنها بضعُ ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفسِ وطهارتها فى عُمر على صيغة واحدة لايتبدّل ولا يتغيَّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملُ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيتُ أبى يصلى ، وكذلك رأيتُ أمى ، فلا تكاد تُلِمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى ، فأكره أن أستَلئِمَ إليهما فأكونَ الفاسدةَ وهما الصالحان ، واللئيمةَ وهما الكريمان ؛ فدمِي نفسه — ببركة الدينِ — يحرسُنى كما ترى .

قلتُ : فهذا الرقص . . . ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِيَ علىّ أن أكونَ راقصة ، وأن ألتمسَ العيشَ من

أسهلِ ثلاثِ طُرُق وألْينها وأبعدِها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهرَها ؛ أريد : الرقص ، أو الخدمةَ فى بيت ، أو العملَ فى السوق . وأنا مُطيقةٌ لحريتى فى الأولى ، ولكنى لن أملكَها فى الأخيرتين ما دام علىّ هذا الميسم من الحسن ؛ وكم من امرأة متحجّبة وهى عاريةُ الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجّبة ؛ إن كنتَ لاتعلم هذا فاعلمه ؛ وليس السؤال ما سألتَ ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ما ترى هو فى ثيابى فقط ، أو هو فى ثيابى ونفسى ؟

ها أنتَ ذا تُغَلْغِلُ نظرتَك فى عينىّ إلى المعانى البعيدة ، فهل ترى عينىْ راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينَىْ راقصة ، ولكنْ عينى مُجاهِد فى سبيل الله . . . ! فاستضحكتْ وقالت : بل قل : عينى مجاهد يهزم كلّ يوم شيطانًا أو شياطين .

إنى لأرقصُ وأغنى ، ولكن أتدرى ما الذى يُحرزُنى من العاقبة ، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريضِ النفس؟ فاعلم أنى لاأشعر بالجمهور ولا بِرُوحِ المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيّعين إليها ؛ فهيهات بَعْدَ ذلك هيهات ! ومن هذا لاأحس بقلوبهم ولابشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملاً فنيًّا على مَلأ من الأساتذة الممتحِنين ، والنظّارَةُ يحكمون لها أو عليها ؛ فهى فى فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا . . .

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعَهم ، يخطئ فى طريقة تناوله السيّالَ الكهربائى المنبعثَ من نفسى ، ولكن لاعلَىّ ، فهذا السيالُ نفسُه ينبعث مثلُه من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكرياتٌ قديمة ، أو نبّهتْ ببعض معانيها بعضَ معانيه ؟

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ أضطربُ وجوهًا من الاضطراب فى جذْب الناس ودَفْعِهم معًا . وإذا سَلِمَت المرأةُ من أن يغلبَها الطمع على فكرها ، سلمتْ من أن يغلبها الرجلُ عن فضيلتها . وفى النساء حواسٌّ مغناطيسية كاشِفَةٌ منبّهةٌ خُلقت فيهن كالوقاية الطبيعية ، لتسلَمَ بها المرأةُ من أن تُخْطِرَ عِفتَها

لغرض ، أو تُغرّر بنفسها لإنسان ، فإنك لتكلم المرأة ، وتزيّن لها ما تزيّن ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى مافى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفّك يَشِف ويفضَح ، لافى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يُبطِل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعُها المادىُّ فى المال والمتاع والزينة ؛ فإن هذا الطمعَ هو القوة التى يغلب بها الرجل المرأة ، فبنفسها غلبَها ! وإذا تبذّلَ طمع امرأة فى رجل فهى مُومس ، وإن كانت عذراء فى خدرها .

ويا عجبًا ! إن وجودَ الطبيعة فى النفس غير الشعور بها ؛ فليس يُشعر المرأةَ بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة ؛ فكأن الحكمةَ قد وقتْها وعرّضتْها فى وقت معًا ، لتكونَ هى الواقيةَ أو المُخْطِرةَ لنفسها ، فبعملها تُجْزَى ، ومن عملها ما تَضحَك وتَبكى .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمعَ فى شىء من أشياء الناس ، وسَخوْتُ عن كل ما فى أيديهم ؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى ، وحسْبى أن يبقَى لعينى قلبى ضوءهما المبصر . وأنا أعتمد على شهامة الرجل ، فإن لم أجدها علمت أنى بإزاء حيوان إنسانى ، فأتحذّره حذَرى من مصيبة مقبلة . وإذا جاءنى وَقحٌ خلَق اللهُ وجههَ الحسَنَ مَسبّةً له ، أو خلقه هو مَسبّةً لوجهه القبيح ، ذكرت أنى بعدَ ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعداً وإن كان بإزائى ، فأُغلِظُ له وأتسخّط ، وأُظهِر الغضبَ وأصفعهُ صَفعتى .

قلت : وما صفعتُك ؟

قالت : إنها صفعة لا تَضْربُ الوجهَ ولكن تُخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة ؛ أما تعرفُ يا سيدى أنى أُصلى وأقولُ « الله أكبر » فهل أنتَ أكبر . . . ؟ أأقيم لك البرهانَ على صَغارك وحقارتك ، أأنادى الشرطى . . . ؟!

* * *

تختنق بالرقص وتنتعشُ بالصلاة ، وفى كل يوم تختنق وتنتعش .

ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى المترادف شرعا : رَقَصَتْ وصلّت . . . ؟

المشكلة *

قالت لى صاحبةُ « الجمال البائس »[1] فيما قالت : إن المرأةَ الجميلةَ تخاطبُ فى الرجُل الواحد ثلاثة : الرجلَ ، وشيطانَه ، وحيوانَه . فأما الشيطانُ فهو معَنا وإن لم نكن معه . . . وأما الحيوانُ فله فى أيدينا مَقَادَةٌ من الغَبَاوة ، ومَقَادَةٌ من الغريزة ، إذا شمَسَ فى واحدة أصْحَبَ فى الأخرى وانقاد؛ ولكن المشكلة هى الرجلُ تكون فيه رجولة .

* * *

نعم إن المشكلة التى أعْضَلَتْ على الفساد هى فى الرجل القوىّ الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته ، ولهذا أوجب الإسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت فى اليوم خارجًا من صلاة .

وإنما الرجولة فى خلالٍ ثلاث : عَمَل الرجل على أن يكونَ فى موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون فى هواه ؛ وقبوله ذلك الموضعَ بقبول العامل الواثق من أجْره العظيم ؛ والثالثةُ : قدرتُه على العمل والقَبول إلى النهاية .

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاث أخرى : الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعلِ ما يحبه الإنسانُ وما يكرهُه موافِقا لما أدركَ من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معانى السرور من معانى الألم فيما أحبَّ وكَرِه على السواء .

فالرجولةُ على ذلك هى إفراغُ النفس فى أسلوب قوى جَزْل من الحياة ، مُتَسَاوِق فى نَمط الاجتماع ، بليغٍ بمعانى الدين ، مصقول بجمال الإنسانية ، مُسترسلٍ ببلاغةٍ وقوة وجمال إلى غايته السامية .

ولهذه الحكمةِ أسقطت الأديانُ من فضائلها مبدأ إرضاء النفس فى هواها ، فلامعاملة به مع الله فى إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضِهم

* تقرأ قصة صاحب هذه المشكلة وما كان من خبره وخبر صاحبته فى « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » والقصة تمام لم ينشر بعد .

(١) مرت مقالات (الجمال البائس) فى هذا الجزء .

مع بعض ، فلا يقومُ به إلا الغشُّ والمكرُ والخديعة ، وكلٌّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية ، فإنما ينزِعُ إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافَقةً لمحبتها وتوفيةً لحظها ؛ وعملُه هذا الذى يُلْبِسُه الوصفَ الاجتماعى الساقطَ ويسميه باسمه فى اللغة ، كالرجل الذى يُرضِي نفسَه أن يسرقَ ليغتنى ، فإذا أعْطَى نفسَه رضاها فهو اللص ؛ وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغاشّ ، وكالجندى فى إرضاء جُبنه هو الخائن ، وكالشابّ فى إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمّ جَرًّا وهلمّ جَرْجَرَة . . .

* * *

وأما بعدُ ، فالقصةُ فى هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذَّب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياةُ بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كَسَفَتْ بالَه ، وفرَّقت رأيه ، وكابد فيها الموتَ الذى ليس بالموت ، وعاش بالحياة التى ليست بالحياة .

قال : فقدتُ أمى وأنا غلام أحوج ما يكون القلبُ إلى الأم ، فخشىَ علىَّ أبى أن أستكينَ لذلّةِ فَقْدِها فيكونَ فى نشأتى الذلُّ والضَّراعة ، وكَبُرَ عليه أن أحسَّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحملُ فى ضَياعها مثلَ حزنها لوضاع هو منها ؛ فعلَّمنى هذا الأبُ الشفيقُ أن الرجلَ إذا فَقَدَ أمَّه كان شأنه غير شأن الصبى ، لأن له قوةً وكبرياءَ ؛ وألقى فى رُوعى أنى رجلٌ مثلُه ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلى الآن . . .

وكان من بَعدها إذا دعانى قال : أيها الرجل . وإذا أعطانى شيئًا قال : خذ يارجل . وإذا سألنى عن شأنى قال : كيف الرجل ؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً ، حتى توهمتُ أن معى رجلاً فى عقلى خلقته هذه الكلمة . وتمامُ الرجل بشيئين : اللحيةُ فى وجهه ، والزوجةُ فى داره ، فتجىء الزوجةُ بعد أن تظهرَ اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالا ، أو تكونَ كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معًا سوادَين فى الوجه والحياة . . .

أما اللحيةُ لى أنا أيُّها الرجلَ الصغيرَ فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىء بها ، ولكن الأخرى فى يده وحيلته ؛ فجاءنى ذاتَ نهار وقال لى : أيها الرجل !

إن فلانة مُسَمَّاة عليك[1] منذُ اليوم فهى امرأتُك فاذهبْ لترى فيك رجلَها .

وفلانة هذه طفلة من ذوات القُرْبى ، فأفرحنى ذلك وأبهجَنى ؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيها الرجل . . .

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غُرورى يومئذ وكبريائى ، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقةَ بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غُرورى ذو لحية طويلة . . .

* * *

ونشأتُ على ذلك : صُلْبَ الرأى مُعْتَدًّا بنفسى ، إذا هَمَمْتُ مضَيت ، وإذا مضيتُ لا ألْوى ، وما هو إلا أن يخطرَ لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولأنْ تُكسَرَ لى يَدٌ أو رجل أهونُ علىَّ من أن يكْسرَ لى رأىٌ أو حُكم ؛ وأكسبنى ذلك خَيالاً أكذبَ خيال وأبعدَه ، يخلطُ علىَّ الدنيا خَلْطاً فيدَعُنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشرَ رقما لنصف اليوم الواحد ، فيطالِعُها اثنى عشرَ شهراً للسنة . . .

وترامتْ حريتى بهذا الخيال فجاوزتْ حدُودَها المعقولة ، وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذَبَتْ علىَّ الفكرةُ والطبيعة .

ولستُ جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقِدٌ أن الخطأ فى المرآة . . . إذ هى لا تُظهِر الرجلَ الوضىءَ الجميلَ الذى فى عقلى : ولست نابغةً ، ولكنَّ الرجلَ الذى فى عقلى رجلٌ عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجلٌ متزوج ؛ فيجب علىَّ أنا الطفلَ أن أكونَ رزيناً رزيناً كوالد عشْرة أولاد فى المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى فلانة زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأتْ منى ، فقلتُ فى نفسى : أيها الرجلُ ، إن هذا نُشُوزٌ وعِصْيانٌ ، لا طاعةٌ وحُب . وساءنى ذلك وغمَّنى وكَبُر علىَّ ، فأضمرتُ لها الغَدْر ، فثبتتْ بذلك فى ذهنى صورة (الباب المغلَق) ، وكأنه طلاق بيننا لا باب . . .

* * *

[1] (١) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد : « مخطوبة لفلان » .

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقَّبُ زوجتَه الغائبةَ غَيبةً طويلة : كلُّ أيامِه ظمأ على ظمأ ، وكلُّ يوم يمرّ به هو زيادةُ سنة فى عمر شيطانه . . . وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية ، وأصبح رجل كُتُب وعلوم وفكر وخيال ؛ فعرضَتْ له فتاة كاللواتى يعرضْنَ للطلبة فى المدارس العليا ، ما منهن على صاحبها إلا كالخَيبةِ فى امتحان . . . بيدَ أنَّ (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائلَ المرأة . . . ولم يكد يَستَشرفُ لأواخرها حتى سُمِّيَتْ على غيره ، فخُطبتْ ، فزفَّتْ ؛ زُفَّت بعد نصف زَوج إلى زوج . . . .

وعرف الرجلُ من الفلسفة التى دَرَسَها أنه يجب أن يكونَ حرًّا بأكثر مما يستطيع ، وبأكثرَ من هذا الأكثر . . . فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى .

قالها للحرية ، فما أسرعَ ما ردَّت عليه الحرية بفتاة أخرى . . .

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلَق) تسعُ سنوات ، فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعةُ أبواب مغلَقة ؛ ولكنها مع ذلك مسمَّاةٌ له ، يقول أهلُه وأهلُها : (فلان وفلانة) . وليس (البابُ المغلَق) عندهم إلا الحياءَ والصِّيانة ؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتَظِر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأب الذى سمَّى الفتاةَ له وحبَسَها على اسمه ؛ وليست القُربى إلا شريعةً واجبةَ الحق نافذةَ الحكم .

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيَّد .

وعند أهل الدين ، أن الزواجَ لاينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معانى الفاحشة .

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجةَ إنما هى لبناء الأسْرة ؛ فإن بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذوسُلطة وحقوق (رسميَّة) فى الاحترام ؛ لاتقومُ الأسرة إلا بذلك ، ولا تقوم إلا على ذلك .

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجةَ الطاهرةَ المخلِصةَ الحبِّ لزوجها .

إنما هي معاملة بين زوجها وبين ربه؛ فحيثما وضعها من نفسه في كرامة أو مهانة، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع .

وعند أهل العقل والرأى ، أن كل زوجة فاضلة ، هي جميلة جمال الحق ؛ فإن لم توجب الحب ، وجبت لها المودة والرحمة .

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته ؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة .

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب !

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهى جمالاً ، وكما يشتهى فكرى علماً ، كنت أنا المتزوج وحدى وبقى فكرى عزباً . . . وقد عرفت التي تصلح لى بجمالها وفكرها معاً ، وتبوأت في قلبي وأقمت في قلبها ؛ ثم داخلت أهلها ، فخالطوني بأنفسهم ، وقالوا : شاب وعزب . . . ومتعلم وسرى . . . فلم يكن لدارهم (باب مغلق) ، حتى لو شئت أن أصل إلى كريمتهم في حرام وصلت ، ولكنى رجل يحمل أمانة الرجولة . . .

أما الفتاة فلست أدرى والله : أفيها جاذبية نجم ، أم جاذبية امرأة ؛ وهل هي أنثى في جمالها ، أو هي الجمال السماوى أتى ينقح الفنون الأرضية لأهل الفن ؟

إذا التقينا قالت لى بعينيها : هأنذى قد أرخيت لك الزمام ، فهل تستطيع فراراً منى ؟ ونلتصق فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل في المكان مكان إلا هنا ؟ ونفترق فتحصر لى الزمن كله في كلمة حين تقول : غداً نلتقى .

كلامها كلام متأدب ، ولكنه في الوقت نفسه طريقة من الخلاعة ، تلفتك إلى فمها الحلو ؛ والحركة على جسمها حركة مستحية ، ولكنها في الوقت عينه كالتعبير الفنى المتجسم في التمثال العارى .

إنها والله قد جعلت شيطانى هو عقلى ؛ أما هذا العقلُ الذى يَنْصَحُ ويَعِظ ويقول : هذا خيرٌ وهذا شرٌّ . فهو الشيطانُ الذى يجب أن أتبرأ منه . . .

* * *

قال : وألمّ الأبُ بقصةِ فتاهُ ، ويَحسبُها نَزْوَةً من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول فى نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن ، فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرةً إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولايتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة — ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَرٍ ، فلا ينظر النظرةَ الخياليةَ التى لاتقنع بامرأة واحدة ، بل لاتزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفَاتنَه ، وهى النظرة التى لايقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأسرة ، ولاتصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولاداً لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه ، فقدر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ، ويحارب أهله وربَّه من أجل امرأة ، بَيْدَ أنه قال : إنه هو والده ، وهو ربّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخلُق والشهامةُ والنَّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهتَرَة ، حين تجمع كل معانى الفساد والإباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية) . وقال : إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرض ، لم يكن فيها شىء من هذا ، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبَرّأ من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحَسَب والكمال ، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق ، بل محلُّه فى باب الشهوات وحدها .

ثم جزَمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين ، حَرَى أن يرثَ فى أعصابه

جنونَ اثنين وأمراضَهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ؛ ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ؛ ولهذا يكثر الضعف العصبى فى هذه المدنية الأوربية وينتشر بها الفساد ، فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه .

ولم يكد ينتهى الأبُ إلى حيث انتهى الرأىُ به ، حتى أسرع إلى (الباب المغلَق) يهيئ للزفاف ويتعجَّل لابنه المطيع .. نكبةً ستجىء فى احتفال عظيم ..

* * *

قال الشاب : وجُنَّ جنونى ؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يُلْتقَى منه ، فلجأتُ إلى عمى أستَدْفعُ به النكبةَ ، وأتأيَّدُ بمكانه عند أبى ؛ وبثثتُه حزنى وأفضيتُ إليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كلَّ شىء إلا شيئًا ينتهى بى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلىَّ ؛ وما أنكِر أنها من ذواتِ القُربى ، وأن فى احتمالى إياها واجبًا ورجولة ، وفى سَتْرى لها ثوابًا ومروءة ، وخاصةً فى هذا الزمن الكاسِد الذى بلغتْ فيه العَذَارى سنَّ الجَدَّات . . . ولكنَّ القلبَ العاشقَ كافرٌ بالواجب والرجولة ، والثوابِ والمروءة ، وبالأمِّ والأب ؛ فهو يملكُ النعمةَ ويريد أن يملكَ التنعُّم بها ؛ وكلٌّ من اعترضه دونها كان عنده كاللص . . .

قال : قَبح الله حبا يجعلُ أباك فى قلبك لصًّا أو كاللص .

قلت : ولكنى حر أختارُ من أشاء لنفسى . . . .

قال : إن كنت حرًّا كما تزعم ، فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتَها ؟ ألا تكون حرًّا إلا فينا نحن وفى هَدْم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواجَ إلا بمن . . . . . .

فقطع علىَّ وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنتَ نجاراً أو حداداً أو حوذيًّا ، لأدركتَ بطبيعة الحياة أن الذين يتخَضَّعون للحب وللمرأةِ هذه الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يَقْضِيَ فى قلوبهم كلَّ أوقات فراغه . . .

أما العاملون فى الدين ، والمُغَامِرون فى الحياة ، والعارفون بحقائقِ الأمور ، والطامعون فى الكمال الإنسانى ، فهؤلاء جميعًا فى شغل عن تربية أوهامِهم ، وعن البكاء للمرأة والبكاء على المرأة ؛ ونظرتُهم إلى هذه المرأةِ أعلى وأوسع ؛

وغرضُهم منها أجلُّ وأسمى ؛ وقد قال نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) : « اتَّقوا اللهَ في النساء . » أى انظروا إليهن من جانب تقوى الله ؛ فإن المرأة تُقْدِم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكَراهةُ وما بينهما ، ولاتدرى أيُّ ذلك هو حظُّها ؛ ولو أن كلَّ من أحب امرأةً نبذ زوجةً ، لخربت الدنيا ولفَسَد الرجال والنساءُ جميعًا . وهذه يا بنيَّ أوهامُ وقتِها وعملُ أسبابِها ، وسيمضى الوقتُ وتتغيرُ الأسباب وربما كان الناضجُ اليوم هو المتعفِّنَ غداً ، وربما كان الفجُّ هو الناضجَ بعد ؟

وهبك لاتحب ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرمتَها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكونُ عندك أجملُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكونَ لها هذا الشعورُ فى نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يابنيّ إن لم يكن حبًّا فيه الشهوةُ ، فهو حبٌّ إنسانىٌّ فيه المجد .

* * *

ووقعت المشكلة وزُفَّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(رجاء إلى القراء) : هذه القصة واقعة ، وقد بنى الرجل بامرأته ، وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل) . فماذا يرى له القارئ من الرأى ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل ؟

المشكلة

٢

لما فرغتُ من مقالات (المجنون)(١) وأرسلتُ الأخيرةَ منها، قلتُ فى نفسى: هذا الآخِرُ هو الآخِرُ من المجنون وجنونِه، ومن الفكر فى تخليطِه ونوادره؛ غيرَ أنه عاد إلىَّ أخلاطًا وأضغاثًا فكأنى رأيته فى النوم يقول لى: اكتب مقالاً فى السياسة. قلت: مالى وللسياسة وأنا «موظف» فى الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاقَ الموظفين: لما عرَفُوا من نَقْد أو غَميزة ليكتُمُنَّه ولايُبَيِّنونه؟ فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلُح عذراً، والمخرَجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والحلُّ ممكِن. قلت: فما هو؟

قال: اكتب ما شئتَ فى سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعَك فى آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعى؛ غير موظف بالحكومة» . . .

فهذه طريقة من طرق المجانين فى حل المشاكل المعقَّدة، لايكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذَّر الإمكان، وهى بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذى يرى الصائد فيُغمِضُ عينَه ويلوِى عنقَه ويخبأ رأسَه فى جَناحه ظنًّا عند نفسه أنه إذا لم يرَ الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقَّق أنه اختفى؛ وما عملُه ذاك إلا كقوله للصياد: إنى غيرُ موجود هنا . . . على قِياسِ «غير موظف» . . .

* * *

وقد كنت استَفْتَيْتُ القراء فى (المشكلة)، وكيف يتّقى صاحبُها على نفسه، وكيف تصنع صاحبتُها؛ فتلقيتُ كتبًا كثيرةً أهدتْ إلىَّ عقولاً مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب أُلقِى إلىَّ منها — كتاب مجنونٍ «نابغة» كنابغة القرن العشرين، بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر)

---

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء فى آخره، انتظرنا مدة، وكتبنا فى هذه المدة مقالات (المجنون) فانظرها فى الجزء الثانى.

وهذه عبارته بحرفها و رسمها كما كُتبت وكما تُقرأ ؛ فإن نشرَ هذا النص كما هو ، يكون أيضًا نصًّا على ذلك العقلِ كيف هو . . .

قال : « إن هذا الكونَ تَعِبتِ فيه آراء المصلحين ، وكتب الأنبياء زُهاءُ قرون عديدة ، ودائماً نرى الطبيعة تنتصر . ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه ، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته ، إلا الإنسان . ولقد تفنَّن المشرعون فى أسماء : العادات والتقاليد والمَحمِيَّة والشرف والعِرْض ، وإن جميع هذه الأشياء تز ول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الرو ح ؟

ورأ لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياةَ الواحدة التى يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له ، ما دام قلبه اصطفاها و روحه تهواها ؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواع الانفصال . (كذا) .

وهذا ليس مجرد رأى مجرب ، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن . . . ! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه ، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه فى مجلة (الرسالة) ، وهذا الرأى سيعمل به ، وصاحب هذا الرأى سيخلد فى الدنيا ، وسيضع الأسس والقوانين التى تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال .

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون ، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه . وإلى الملتقى فى ميدان الجهاد »

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة « غير موظف » . . . فليعتقد العاشقُ أنه غيرُ متزوج فإذا هو غيرُ متزوج ، وإذا هو يتقلَّب فيما شاء ؛ وتسأل الكاتبَ ثم ماذا ؟ فيقول لك : ثم الجحيم . . .

وإنما أوردنا الكتابَ بطوله وعرضِه لأننا قرأناه على وجهين ، فقد نبهتنا عبارة « أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن » إلى أن فى الكلام إشارةً من قوة خفية فى الغيب ، فقرأناه على وحيِ هذه الإشارة وهَدْيِها ، فإذا ترجمةُ لغةِ الغيب فيه :

« ويحكَ يا صاحبَ المشكلة ، إذا أردتَ أن تكونَ مجنونًا أو كافراً بالله وبالآخرةِ فهذا هو الرأي . كنْ حيوانًا تنتصرُ فيه الطبيعة والسلام ! »

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب أُلقِيَ إليّ ؛ أما العجيبةُ الثانية فإن آخر كتاب تلقيتُه كان من صاحبة المشكلة نفسِها ؛ وهو كتاب آيةٌ فى الظرف وجمال التعبير وإشراقِ النفس فى أسرارها ، يَمُورُ مَوْرَ الضّباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يَحجبُ جمالاً ليُظْهِرَ منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرِضُ بذلك رأيًا للنظر ورأيًا للتصوُّر ، ويأتى بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها ؛ ولفظُها سهلٌ ، قريبٌ قريب ، حتى كأن وجهها هو يُحدّثك لالفظَها ؛ ومادةُ معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطره وأحزانه ، مُسترسِلٌ إلى الإيمان بما كُتب عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتِب له ، فما به غُرورٌ ولا كبرياءولا حقد ولا غَضَبٌ ، ولا يَكْرُثُهُ ماهوفيه.

ومن نكَدِ الدنيا أن مثلَ هذا القلب لا يُخْلَقُ بفضائله إلا ليُعاقَبَ على فضائله ؛ فغِلْظة الناس عقابٌ لرقته ، وغدرُهم نكايةٌ لوفائه ، وتَهوُّرُهم ردٌّ على أناته ، وحُمقُهم تكديرٌ ، لسكونه وكذِبُهم تكذيبٌ للصدق فيه .

وما أرى هذا القلبَ مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولامُستَهامًا به لذاته ، وإنما هويتعلّق صُوَراً عقليةً جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عرَضَتْ له فى هذا الشباب أولَ ما عرضتْ على مقدارٍ ما ؛ وسيكونُ من عجائب الاتفاق أيضًا أن يزولَ هذا الحب زوالَ الواحدِ إذا وُجدت العشَرة ، وزوالُ العشَرة إذا وُجدت المائة ، وزوالَ المائة إذا وُجد الألف .

وبعد هذا كلّه فصاحبةُ المشكلة فى كتابها كأنما تكتبُ فى نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » . . . . وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدّر بين شاطئيه مُدّعيًا أنه هاربٌ من الشاطئين مع أنه بينهما يَجرى : تحبُّ صاحبها وتلقاه ؛ ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولاعلى زوجته . . . فليت شِعْرى عنها ، ما عسى أن تكونَ الجنايةُ بعد زواج الرجل غيرَ هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنا نقْدِرُ على مُحاباتِك فى ألاّ نقولَ إنك ظالم ؛ هل تقدرُ أنت على ألاّ تعلم أنك ظالم ؟

ورأْيها فى (المشكلة) أن ليس من أحَدٍ يستطيعُ حلَّها إلا صاحبُها ، ثم هو لايستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين : فإما أن تكون ضحيةُ أبيها وأبيه – تعنى زوجته – ضحيتَه هو أيضًا ، ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها ، فيكونُ البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابِدُ من نفسه ومنهم ما إنَّ أقلَّهُ ليَذْهَبُ براحته وينغِّصُ عليه الحبَّ والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحِّيَ بقلبه وعقلِه وبى . . .

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لايستطيع حلّ المشكلة إلا صاحبُها ، غير مستطيعٍ حلَّها إلا بجناية يذهبُ فيها نعيمُه ، أوبجنون يذهب فيه عقله . فإن حلَّها بعد ذلك فهو أحدُ اثنين : إما أحمقُ أو مجنونٌ ما منهما بد . . .

ولسانُ الغيب ناطقٌ فى كلامها بأن أحسنَ حل للمشكلة هو أن تبقى بلاحل ، فإن بعضَ الشر أهونُ من بعض .

* * *

والعجيبةُ الثالثة أن « نابغة القرن العشرين »[1] جاء زائراً بعد أن قرأء مقالات (المجنون) ، فرأى بين يدىَّ هذه الكتبَ التى تلقيتها وأنا أعرِضُها وأنظرفيها لأتخيَّر منها ، فسأل فخبَّرتُه الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنونٌ . . . او امتحنوه فى الجغرافيا وقالوا له : ما هى أشهرُ صناعة فى باريس ؟ لأجابهم : أشهر ما تُعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى . . .

قلتُ : فكيف يرتدُّ هذا المجنونُ عاقلاً ؟ وما عِلاجُه عندك ؟

قال : وَجِّهْ فى طلب (ا.ش) * ليجىء ، فلما جاء قال له اكتب : جلس « نابغة القرن العشرين » مجلسَه للإفتاء فى حل المشكلة فأفتى مُرتجِلاً :

« إن منطقَ الأشياء وعقليةَ الأشياء صريحان فى أن مشكلةَ الحب التى

(١) هولقب المجنون ، فانظر مقالاته فى الجزء الثانى .

* هو الأديب أمين حافظ شرف ، ويأتى له ذكر فى مقالات المجنون .

يَعْسُرحلُّها ويتعذَّر مَجازُالعقلِ فيها، ليست هي مشكلةَ هذا العاشقِ أكرهوه على الزواج بامرأة يحملُها القلبُ أو لايحملُها، وإنما هي مشكلةُ أمبراطور الحبشة يريدون إرغامَه أن يتزوجَ إيطاليا ، ويذهبون يَزفُّونها إليه بالدَّبابات والرشاشات والغازات السامة .

« ولو لم يكن رأسُ هذا العاشق المجنون فارغًا من العقل الذى يعملُ عملَ العقل، إذن لكانت مَجارِى عقله مطَّردةً فى رأسه ، فانحلَّت مشكلتُه بأسباب تأتى من ذات نفسِها أو ذات نفسِه ؛ غير أن فى رأسه عقلَ بطنه لاعقلَ الرأس ، كذلك الشَّرِهِ البخيل الذى طبخ قِدْرًا وقعد هو وامرأتُه يأكلان ، فقال : ما أطيبَ هذه القِدرَ لولا الزحام . . . قالت امرأتُه : أىُّ زحامٍ ههنا ؟ إنما أنا وأنت . قال : كنتُ أحب أن أكونَ أنا والقدر فقط . . .

« فعقلُ النَّهِمَ فى رأس هذا كعقل الشهوة فى رأس ذاك ؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعملُ أعمالَ العقول السليمة ؛ ويريد أحدُهما أن تَبْطُلَ الزوجةُ من أجل رِطلٍ من اللحم ، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك فى رطلٍ من الحب . . .

« وإذا فسد العقلُ هذا الفسادَ ابتَلى صاحبَه بالمشاكل الصبيانيةِ المضحكةِ : لاتكونُ من شىء كبير ، ولايكونُ منها شىء كبير ؛ وهى عند صاحبها لووُزِنَتْ كانت قناطيرَ من التعقيد ؛ ولو كِيلَتْ بلغت أرادبَّ من الحَيرة ؛ ولو قِيسَتْ امتدَّت إلى فراسخَ من الغُموض .

« هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، إما أن تكونا جميعًا امرأتين ، فالمعنى واحدٌ فلامشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين ، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قِرْدة أوهِرْدة ، وههنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين فى اللغة ، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسىّ ولا البهائم. . .)

« فإن زعم العاشقُ أن زوجتَه قِردة فهو كاذب، وإن زعم أنها الهِرْدة فهو أكذَب ؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كل المجانين ، فى مخه موضعٌ أفْرَطَ عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ فى الرأى ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعَمَى

عن الحقيقة ، وجعل زوجته المسكينة معْرِض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا عجب فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبّط فيها المجنونُ مدةَ جنونه ، فتكونُ مَجْلى هذَيانه ومعرِض حماقاته ، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون .

« فإن كانت هذه الحقيقةُ مسئلةً حسابيةً استمرَّ المجنون مدةَ جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثةَ عشَر ، ولا يصدِّق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسئلةً علميةً قضى المجنون أيامه يُشْعِل الترابَ ليجعلَه باروداً ينفجر ويتفرْقَع ، ولايدخلُ فى عقله أبداً أن هذا ترابٌ مطفئٌ بالطبيعة ؛ وإن كانت مسئلةً قلبية استمر المجنونُ يزعم أن زوجتَه قِردة أو هِرْدة ، ولايشعر أبداً أنها امرأة .

« فإن صح أن هذا الرجلَ مجنون فعلاجُه أن يُربَط فى المارستان ، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هردة ؟ ثم لايزالون ولايزالُ حتى يراها امرأةً ، ويعرفها امرأتَه ، فيقال له حينئذ: إن كنت رجلاً فتخلّق بأخلاق الرجال .

« أما إن كان الرجل عاقلاً مميزاً صحيحَ التفكير ولكنه مريضٌ مرضَ الحب ، فلا يرى (النابغة) أشفى لدائه ولا أنجعَ فيه من أن يَستَطِبَّ بهذه الأشْفِيَةِ واحداً بعد واحد حتى يذهب سَقامه بواحد منها أو بها كلِّها :

« الدواء الأول : أن يجمعَ فكرَه قبل نومه فيحصُرَه فى زوجته ، ثم لايزال يقول : زوجتى ، زوجتى . حتى ينام . فإن لم يذهب ما به فى أيام قليلة فالدواء الثانى .

« الدواء الثانى : أن يتجرّعَ شربةً من زيت الخروع كل أسبوع . . . . ويتوهَّم كلَّ مرة أنه يتجرعُها من يد حبيبته ، فإن لم يشفِه هذا فالدواء الثالث .

« الدواء الثالث : أن يذهبَ فيبيتَ ليلةً فى المقابر ، ثم ينظر نظرَه فى أى المرأتين يريد أن يلقى الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها ؛ وأيتُهما هى موضعُ ذلك عند الله تعالى ، فإن لم يُبصر رُشده بعدَ هذا فالدواءُ الرابع .

« الدواء الرابع : أن يخرجَ في (مظاهرة) . . . فإذا فُقِئَتْ له عينٌ أو كُسِرَتْ له يدٌ أو رجْل ، ثم لم تحِلَّ حبيبتُه المشكلةَ بنفسها . . . فالدواء الخامس .

« الدواء الخامس : أن يصنعَ صنيعَ المبتَلى بالحشيش والكوكايين ، فيذهبَ فيُسلم نفسَه إلى السجن ليأخذوا على يدِه فينسَى هذا الترفَ العقلى ؛ ثم ليعرفَ من أعمال السجن جِدَّ الحياة وهزلَها ، فإن لم ينزِعْ عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس .

« الدواء السادس : أنه كلما تحرك دَمُه وشاعتْ فيه حرارةُ الحب ، لايذهبُ إلى من يحبها ، ولايتوخَّى ناحيتَها ، بل يذهب من فَوْره إلى حَجَّام يحجمُه . . ليطفئَ عنه الدمَ بإخراج الدم ؛ وهذه هى الطريقةُ التى يصلُحَ بها مجانينُ العشاق ، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحرَ الحب .

قال « نابغة القرن العشرين » : « فإن بَطَلَتْ هذه الأشفيةُ الستةُ ، وبقى الرجلُ جَمُوحًا لايُرَدُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع .

« الدواء السابع : أن يُضْرَبَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصَكُّ بها[1] واقعةً منه حيثُ تقَع من رأسه وصدره وظهره وأطرافِه ، حتى ينْهَشِمَ عظمُه ، وينقَصِفَ صُلْبُه ، وينْشَدِخَ رأسُه ، ويتَفَرَّى جلدُه ؛ ثم تُطْلَى جراحُه وكُسورُه بالأطْلية والمراهم ، وتُوضَعُ له الأضْمِدَةُ والعصائب ويُترَكُ حتى يبرأ على ذلك :

أعرَجَ مُتخَلِّعًا مبعثَرَ الخلْق مكسورَ الأعلى والأسفل ، فإن فى ذلك شفاءه التامَّ من داء الحب إن شاء الله . . . »

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلةَ الحب ؟

قال : فإن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن .

الدواء الثامن : أن يُعادَ عِلاجُه بالدواء السابع . . . . . .

---

(١) القناة : هى العصا الغليظة التى يقال لها « الشومة » . والصك خاص فى ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة فى هذا العلاج . . . فقد جاز استعمال الصك فى الجسم كله كما رأيت .

المشكلة

٣

أما البقيةُ من هذه الآراء التي تلقيتُها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحدِ ، من وجوب إمساكِ الزوجة والإقبالِ عليها ، وإرسالِ « تلك » والانصراف عنها ، وأن يكونَ للرجل في ذلك عزمٌ لا يتقلقل ومضاء لا ينثني ، وأن يصبرَ للنَّفْرة حتى يستأنسَ منها فإنها ستتحوَّل ، ويجعلَ الأناة بإزاء الضجر فإنها تُصلحه ، والمروءةَ بإزاء الكُره فإنها تحملُه ، وليترك الأيامَ تعملُ عملَها فإنه الآن يعترضُ هذا العملَ ويُعطله ، وإن الأيام إذا عملَتْ فستغيِّر وتبدِّل ؛ ولا يُستقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه ، ولا يُستكثر الكثيرُ تكونُ الأيامُ عليه .

والعديدُ الأكبرُ ممن كتبوا إليَّ ، يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيانَ الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ، ويُحاسبُونه به ، ويُقيمون منه الحجةَ عليه ، ويقولون له : أنت اعترفت ، وأنت أنكرت ، وأنت رددتَ على نفسك ، وأنت نَصَبْتَ الميزانَ فكيف لا تقبَل الوزنَ به ؟ وقد غفلوا عن أن المقالَ من كلامنا نحن ، وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه ونحلْناه ذلك الشابَّ ، ليكونَ فيه الاعتراضُ وجوابه ، والخطأ والردُّ عليه ؛ ولنُظهرَ به الرجلَ كالأبله في حيرته ومشكلته ، تنفيراً لغيره عن مثل موقفه ، ثم لنحركَ به العِلَلَ الباطنةَ في نفسه هو ، فنصرفَه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قرأ قصةَ نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل ، وتلمَّحَ ما خَفِيَ عليه فيما ظهر له ، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق ، وعرف كيف يُخلصُ بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاجَ الماء والخمر . وبذلك الأسلوب جاءت المشكلةُ معقَّدةً منحلَّةً في لسانِ صاحبها ، وبقي أن يُدفعَ صاحبُها بكلام آخرَ إلى موضع الرأي .

وكثيرٌ من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجلَ إلى حق زوجته ، ثم

يدعون الله أن يرزقه عقلاً . . . وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة ، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجن بجنونين : أحدهما فى الداخل من عقله ، والثانى فى الخارج منه ؛ فأصبح لايبالى الإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوة والسرور عند الأخرى ؛ فتعدى طوره مع المرأتين جميعاً ، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية .

وقد تمنى أحد القراء من فلسطين [1] أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب ، ويضعه موضع صاحب المشكلة ، ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرفه على ما يشاء ، ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب .

وهذا رأى حصيف جيد ، فإن العاشق الذى يتلعب الحب به ويصده عن زوجته ، لا يكون رجلا صحيح الرجولة ، بل هو أسخف الأمثلة فى الأزواج ، بل هو مجرم أخلاقى ينتصب لزوجته من نفسه مثال العاهر الفاسق ، ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدرى أو لايدرى ؛ بل هو غبى ، إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجعها إلى نفسها الحزينة ينشئ فى نفسها الحنين إلى رجل آخر ؛ بل هو مغفل ، إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين ، هى بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل . . . .

والمرأة التى تجد من زوجها الكراهية لاتعرفها أنها الكراهة إلا أول أول ؛ ثم تنظر فإذا الكراهة هى احتقارها وإهانتها فى أخص خصائصها النسوية ، ثم تنظر فإذا هى إثارة كبريائها وتحديها ، ثم تنظر فإذا هى دفع غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرة بالحب ، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة ؛ ثم تنظر فإذا برهان كل ذلك لا يجئ من عقل ولا منطق ولا فضيلة ، وإنما يأتى من رجل . . . رجل يحقق لها هى أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب .

* * *

وكأن هذا المعنى هو الذى أشارت إليه الأديبة (ف. ز.) وإن كانت لم

---

(١) هذه الآراء التى سننقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة ، ولكنا لم نخرج عما يرمى إليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه .

تَبَسُّطه ، فقد قالت : « إن صاحبَ هذه المشكلة غبيٌ، ولايكونُ إلا رجلاً مريضَ النفس مريضَ الخلُق ، وما رأيتُ مثلَه رجلا أبعدَ من الرجل . . ومثلُ هذا هو في نفسه مشكلة فكيف تُحَلُّ مشكلتُه ؟ إنه من ناحية زوجته مغفَّل ، لاوصفَ له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن ، والخيانة أولُ أوصافه عندها .

« وهذا الزوجُ يسمِّم الآن أخلاقَ زوجته ويُفْسِدطباعَها ،وينشئُ لها قصةً في أولها غباوتُه وإثمه ، وسيتركها تُتمُّ الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكونُ آخرها . وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلماتُ يعتقدن أن أكثرَ الشُّبان إن لم يكونوا جميعًا ، هم كاذبون في ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغَوَاية ؛ أو هم محبون يكْذِبُ الأملُ بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة .

قالت : « وخيرُ ما تفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثلُ قصتها : فهذه حين علمتْ بزواج صاحبها قذفتْ به من طريقِ آمالها إلى الطريق الذي جاء منه ، وأنزلته من دَرَجة أنه كلُّ الناسِ إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونبَّهتْ حزمَها وعزيمتَها وكبرياءها ، فرأته بعد ذلك أهونَ على نفسها من أن يكونَ سببًا لشقاء أو حسرة أوهمّ ، وابتعدتْ بفضائلها عن طريقِ الحب الذي تعرفُ أنه لايستقيم إلا لزوجة وزوجِها ، فإذا مشتْ فيه امرأةٌ إلى غيرِ زواج ، انحرفَ بها من هنا ، واعوجَّ لها من هنا ، فلم ينته بها في الغاية إلا أن تعودَ إلى نفسها وعليها غبارُه ، وما غبارُ هذا الطريق إلا سوادُ وجه المرأة . . .

«وقد جهَدَ الرجلُ بصاحبته أن تتخذَه صديقًا ، فأبت أن تتقبَّلَ منه برهانَ خيبتها . . . وأظهرت له جَفْوَةً فيها احتقار ، وأعلمته أن نكْثَ العَهْدِ لايخرجُ منه عهد ، وأن الصداقةَ إذا بدأتْ من آخر الحب تغير اسمُها وروحُها ومعناها ، فإما أن تكونَ حينئذ أسقطَ ما في الحب ، أو أكذبَ ما في الصداقة .

ثم قالت الأديبة : « وهي كانت تحبه ، بل كانت مُسْتَهامَةً به ، ، غير أنها كانت أيضاً طاهرةَ القلب ، لاتريد في الحبيب رجلاً هو رجلُ الحيلة عليها فتُخْدَع به ، ولا رجلُ العار فتُسَبُّ به ؛ وفي طهارة المرأة جزاء نفسِها من قوة

الثقة والاطمئنان وحسنِ التمكن ؛ وهذا القلبُ الطاهرُ إذا فقد الحبَّ لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذقِ إن خسِرَ الربح لم يفلِس ، لأن مهارتَه من بعض خصائصِها القدرة على الاحتمال ، والصبرُ للمجاهدة .

قالت : « فعلى صاحبةِ المشكلة التى عرفت كيف تحب وتُجِلُّ ، أن تعرفَ الآن كيف تَحتقر وتَزدرى » .

* * *

وللأديبة (ف . ع) رأىٌ جزْلٌ مُسَدَّد ؛ قالت : « إنها هى قد كانت يوما بالموضع الذى فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنِفتْ أن تكون لِصَّةَ قلوب ، وقالت فى نفسها : إذا لم يُقَدَّرْ لى ، فإن الله هو الذى أراد ، وإنى أستحى من الله أن أحاربَه فى هذه الزوجة المسكينة ! ولئن كنتُ قادرةً على الفوز ، إن انتصارى عليها عند حبيبى هو انتصارُها على عند ربى ، فلأخسرْ هذا الحبَّ لأربحَ اللهَ برأس مال عزيز خَسِرتُه من أجله ، لأُبْقِ على أخلاق الرجل ليبقَى رجلاً لامرأته ، فما يسرنى أن أنالَ الدنيا كلَّها وأهدمَ بيتًا على قلْب ، ولا معنى لحب سيكون فيه اللُّؤم بل سيكون الأمَ اللؤم:

قالت : وعلمت أن الله (تعالى) قد جعلنى أنا السعادةَ والشقاء فى هذا الوضع ليرَى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حِكْمتى أو حُمقى ، وصحَّ عندى أن حسنَ المداخَلة فى هذه المشكلة هو الحلُّ الحقيقى للمشكلة .

قالت : « فتغيرتُ لصاحبى تغيراً صناعيًّا ، وكانت نيَّتى له هى أكبرَ أعوانى عليه ، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعيًّا بعد قليل ؛ وكنت أستمدُّ من قلب امرأته إذا اختانَتْنى الضعفُ أو نالنى الجزَع ، فأشعرُ أن لى قوةَ قلبين . وزدتُ على ذلك النصحَ لصاحبى نُصحًا مُيَسَّراً قائمًا على الإقناع وإثارة النَّخْوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترفقتُ فى التوصل إلى ضميره لأثبتَ له أن عزةَ الوفاء لاتكونُ بالخيانة وبيَّنتُ له أنه إذا طلَّقَ زوجتَه من أجلى فما يصْنَع أكثرَ من أن يقيمَ البرهانَ على أنه لا يصلح لى زوجا ؛ ثم دللتَه برفق على أن خيرَ ما يصنعُ وخيرَ ما هو صانعٌ لإرضائى أن يقلِّدنى فى الإيثار وكَرم النفس ، ويحتذيَنى فى الخير والفضيلة ، وأن يعتقدَ أن دموعَ المظلومين هى فى أعينهم

دموع ، ولكنها فى يد الله صواعقُ يضربُ بها الظالم .

قالت : « وبهذا وبعد هذا انقلب حبُّه لى إكباراً وإعظاما ، وسما فوق أن يكونَ حبًّا كالحب ؛ وصار يجدنى فى ذاتِ نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءاً أو حاول أن يَغُضَّ منها فى نفسه . واعتاد أن يُكْرِمَها فأكرمها ، وصَلُحَتْ له نيتُه فاتصلَ بينهما السببُ ، وكَبِرَت هذه النيةُ الطيبةُ فصارت ودًّا ، وكَبِر هذا الودُّ فعاد حبًّا ، وقامت حياتهما على الأساسِ الذى وضعته أنا بيدى ، أنا بيدى . . . .

أما أنا . . . ؟ »

* * *

وكتب فاضل من حلوان : « إن له صديقًا ابتُلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسهَ فما ردَّه شىء عن الزواج بحبيبته ، وزَفَّ إليها كأنه مَلِكٌ يدخل إلى قَصْرِ خَيَاله ؛ وكان أهلُه يعذلونه ويلومونه ويُخلِصون له النُّصحَ ويجتهدون فى أمرِه جُهْدَهم ، إذ يرَوْن بأعينهم مالا يرى بعينه ، فكان النصحُ ينتهى إليه فيظنه غِشا وتَلبيسًا ، وكان اللَّومُ يبلغه فيراه ظُلمًا وتحاملاً ، وكان قلبُه يُترجِمُ له كلَّ كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لامن الحقائق ، إذ غلبتْ على عقله فبها يَعقل ، وذهبتْ بقلبه فبها يُحِس ، واستبدَّت بإرادته فلها ينقاد ؛ وعادت خواطرُه وأفكارُه تدورُ عليها كالحواشى على العِبارة المغلقة فى كتاب ؛ واستقرَّتْ له فيها قوةٌ من الحب ، أمرُها إذا أرادتْ شيئًا أن تقولَ له كُن . . . .

« ثم مضت الليلةُ بعد الليلة ، وجاء اليومُ بعد اليوم ، والموجُ يأخذُ من الساحل الذرَّة بعد الذرة والساحلُ لايشعر ، إلى أن تصرَّمت أشهرٌ قليلة ، فلم تلبث الطبيعةُ التى ألَّفت الروايةَ وجعلتها قبل الزواج روايةَ المَلِكِ والمليكة ، وقصةَ التاج والعرش ، وحديثَ الدنيا ومُلكِ الدنيا — لم تلبث أن انتقلتْ على فجأة فأدارت الرواية إلى فصلِ السخرية ومنظرِ التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفىِّ وحلَّت العُقدة الروائية .

قال : « ففرغ قلبُ المرأة من الحب ، وظَمِىَ إلى السُّكْر والنَّشوة مرةً أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة . . . وبَرَدَ قلبُ الرجل ، وكان الشيطانُ

الذى يتسعّر فيه ناراً شيطاناً خبيثاً ، فتحولَ إلى لوح من الثلج له طولٌ وعرض . . . .

« وجدّت الحياةُ وهزَل الشيطان ، فاستحمقَ الرجلُ نفسَه أن يكونَ اختار هذه المرأةَ له زوجة ، واستجهلتْ المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجلَ زوجا ، وأنكرها إنكاراً أوّله الملالة ، وأنكرته إنكاراً آخر أوله التبرُّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلفُ إنساناً أن يخلقَ له الأمسِ الذى مضى !

« وضربت الحياة ضَرْبةً أو ضربتين فإذا أبنيةُ الخيال كلُّها هَدْمٌ هَدْم ، وإذا الطبيعة مؤلِّفةُ الرواية . . . قد ختمتْ روايتها وقوَّضتِ المسرح ، وإذا الأحلامُ مفسَّرة بالعكس : فالحب تأويلُه البغض ، واللذة تفسيرُها الألم ، و « البودرة» معناها الجير . . . وتغيَّر كلٌ ما بينهما إلا الشيطانَ الذى بينهما ، فهو الذى زوّج وهو بعينه الذى طلّق . . . »

* * *

وكتب أديب من بغداد يقول : « إنه كان فى هذا الموضع القَلِق موضعِ صاحب المشكلة ، وإن ذات قُرباه التى سُمِّيتْ عليه كانت مُلَفَّفَةً له فى حُجُب عِدّة لا فى حجاب واحد، وقد وُصِفتْ له باللغة . . وفى اللغة : ما أحسَنَ وما أجمل وما أظرف ، وكأنها ظَبيٌ يتلفَّت ، وكأنها غُصنٌ ، يميل وكأن سُنَّةَ وجهها البَدر !

قال : « وشُبِّهتْ له بكل أدوات التشبيه ، وجاءوا فى أوصافها بمذاهبِ الاستعارة والمجاز ، فأخذها قصيدةً قبل أن يأخذها امرأة ؛ وكان لم ير منها شيئاً ، وكانت لغة ذوى قَرابته وقرابتها كلُغَة التجارة فى ألسنةِ حُذّاق السماسرة : ما بهم إلا تَنْفيق السِّلْعة ثم يُخلُّون بين المشترى وحظّه .

قال : : « فرسخ كلامُهم فى قلبى ، فعقدتُ عليها ، ثم أعرَستُ بها ، ونظرتُ فإذا هى ليست فى الكلمةِ الأولى ولا الأخيرةِ مما قالوا ولا فيما بينهما . . . ثم تعرفت فإذا هى تكبُرنى بخمسَ عشرةَ سنة . . . ورأيت اتّضاعَ حالها عندى فأشفقت عليها ، وبتُّ الليلة الأولى مُقْبلاً على نفسى أؤامرها وأناجيها ، وأنظر فى أى موضع رأيِ أنا ؛ وتأملت القصةَ ، فإذا امرأةٌ بين رحمةِ الله ورحمتى ،

فقلت : إن أنا نزعت رحمتى عنها ليُوشِكن الله أن ينزع رحمته عنى ، وما بينى وبينه إلا أعمالى ؛ وقلت : يا نفسى ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات ، فلأجعل هذه المرأة حسنتى عنده ، وما على من عمر سيمضى وتبقى منه هذه الحسنة خالدة مخلدة .

« إنها كانت حاجة النفس إلى المتاع فانقلبت حاجة إلى الثواب ، وكانت شهوة فرجعت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ ما أحب فسأبلغ ما يجب . ثم قلت : اللهم إن هذه امرأة تتنظوها ألسنة الناس إما بالخير إذا أمسكتها ، وإما بالشر إذا طلقتها ، وقد احتمت بى ؛ اللهم سأكفيها كل هذا لوجهك الكريم !

قال : « ورأيتنى أكون ألأم الناس لو أنى كشفتها للناس وقلت انظروا . . . فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أترضاها ، وجعلت أما سحها وألاينها فى القول ، وعدلت عن حظ نفسى إلى حظ نفسها[1] ، واستظهرت بقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ؛ واعتقدت الآية الكريمة أصح اعتقاد وأتمه ، وقلت : اللهم اجعلنها من تفسيرها .

قال : : « فلم تمض أشهر حتى ظهر الحمل عليها ، فألقى الله فى نفسى من الفرح مالا تعد له الدنيا بحذافيرها ، وأحسست لها الحب الذى لا يقال فيه جميل ولا قبيح ، لأنه من ناحية النفس الجديدة التى فى نفسها (الطفل) . وجعلت أرى لها فى قلبى كل يوم مداخل ومخارج دونها العشق فى كل مداخله ومخارجه ، وصار الجنين الذى فى بطنها يتلألأ نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأمل الحلو المنتظر .

قال : « وجاءها المخاض ، وطرقت بغلام ؛ وسمعت الأصوات ترتفع من حجرتها : ولد ! ولد ! بشروا أباه . فوالله لكأن ساعة من ساعات الخلد وقعت فى زمنى أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتنى بكل نعيم الجنة ؛ وما كان ملك العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهبنى ما وهبتنى امرأتى من فرح تلك

---

[1] (١) استوفينا بيان هذه المعانى فى مقالة (قبيح جميل) .

الساعة ؛ إنه فَرحٌ إلهىٌّ أحسست بقلبي أن فيه سلامَ الله ورحمتَه وبركتَه ، ومن يومئذ نَطَقَ لسان جمالها فى صوتِ هذا الطفل . ثم جاء أخوه فى العام الثانى ، ثم جاء أخوهما فى العام الثالث ؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرّبانى فى حوادثَ كثيرة ، وتنفَّسَتْ علىَّ أنفاس الجنة وفسَّرتِ الآية الكريمة نفسَها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح » .

* * *

ويرى صديقُنا الأستاذ (م . . ح . ج) أن صاحبَ المشكلة فى مشكلةٍ من رجولته لامن حبه ؛ فلو أن له ألفَ روح لما استطاع أن يعاشرَ زوجتَه بواحدة منها ، إذ هى كلُّها أرواحٌ صبيانية تبكى على قطعة من الحلوى ممثلة فى الحبيبة ... ولو عرف هذا الرجل فلسفةَ الحب والكره ، لعرف أنه يصنع دموعَه بإحساسه الطفْلىِّ فى هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئًا لأدرك أن الفاصلَ بين الحب والكره منزوعٌ من نفسه ، إذ الفاصل فى الرجل هو الحزم الذى يُوضَع بين ما يجب وما لايجب .

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكلُّ حل لمشكلته هو مشكلةٌ جديدة ، ومِثْلُه بلاء على الزوجة والحبيبة معًا ، وكلتاهما بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يُشْنَقَ بامرأة لا بمشنقة . . .

هذا عندى ليس بالرجل ولابالطفل إلى أن يُثْبِتَ أنه أحدهما ؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكونَ متزوجًا ، وإن كان رجلاً فليحلّ هو المشكلةَ بنفسه ، وحلّها أيسر شىء : حلها تغيير حالته العقلية .

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفرَ بالأحوال التى تشبه هذه الحادثة ، لابالآراء والموعظ والنصائح . أما رأينا ففى البقية الآتية .

المشكلة
٤

صاحبُ هذه المشكلةِ رجلٌ أعور العقل . . . يرى عقلُه من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصف الوجود فى مشكلته ؛ ولو أن عقلَه أبصرَ من الناحيتين لما رأى المشكلةَ خالصةً فى إشكالها ، ولوجَدَ فى ناحيتها الأخرى حظًّا لنفسه قد أصابه ، ومذهبًا فى السلامة لم يُخطِئه ؛ وكان فى هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به ، وكان يُصبح أشقَى الخلق لو رماه الله فى الجِهة التى أنقذه منها ، فتهيأتْ له المشكلة على وجهِها الثانى .

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشكلة لو أن زوجتَك هذه المسكينةَ المظلومة التى بنَيْتَ بها ، كانت هى التى أُكرِهَتْ على الرضى بك ، وحُمِلَتْ على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقًا ، وبها صبًّا ، وفيها متَدَلِّهًا ؛ ثم كانت هى تحبُّ رجلاً غيرَك ، وتَصبُو إليه ، وتفتتِنُ به ، وقد احترقَتْ عشقًا له ؛ فإذا جلَوْها عليك رأتك البَغيضَ المقيتَ ، ورأتكَ الدَّميمَ الكَريه ، وفزِعَتْ منك فزعها من اللّص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدَك فتتَحاماها تحامِيها المجذومَ أو الأبرص ، وتكلُمها فتُحمّ بَرْداً من ثِقَل كلامك ، وتفتَحُ لها ذراعيك فتحسبهُما حبْلَين من مشنقتين ، وتتحبَّبُ إليها فإذا أنتَ أسمجُ خلقِ الله عندها ، إذ تحاول فى نَذالة أن تحِلَّ منها محلَّ حبيبها ؛ وتقبلُ عليها بوجهك فتراه من تقَذّرِها إياكَ ، واشمئزازِها منك ، وجهَ الذبابة مكبّراً بفظاعة وشناعة فى قدرِ صورة وجهِ الرجلِ ، ليتجاوزَ حدَّ القبح إلى حدِّ الغَثَاثة ، إلى حدِّ انقلابِ النفسِ من رؤيته ، إلى حدِّ القَىْء إذا دنا وجهُك من وجهها . . ؟ !

ماذا أنت قائلٌ ياصاحبَ المشكلة لو أن مشكلتَك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجلَ الثانى) لاالمرأةَ الثانية ؟ ألستَ الآن فى رحمة من الله بك ، وفى نعمة كفّتْ عنك مُصيبة ، وفى موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقُبَ فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

* * *

تقول : الحب والخيال والفن . وتذهبُ فى مذاهبها ؛ غيرَ أن « المشكلة» قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبتَ نفسَك منحوسَ الحظ محروماً ، ولا جهلتَ أن فى داخلِ العين من كل ذى فن عيناً خاصةً بالأحلام كيلا تعمَى عينُه عن الحقائق .

الحب لفظٌ وهمى موضوع على أضداد مختلفة : على بُركانٍ وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحا ؛ وهو خِداعٌ من النفس يضع كلَّ ذكائه فى المحبوب ، ويجعلُ كل بَلاَهته فى المحب ، فلا يكونُ المحبوبُ عند محبه إلا شخصاً خياليا ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشريةِ فى وجود تامّ الجمالِ ولاعيبَ فيه ، والناسُ من بعده موجودون فى العيوب والمحاسِن .

وذلك وهم لاتقومُ عليه الحياةُ ولاتصلُح به ، فإنما تقومُ الحياةُ على الروح العملية التى تضعُ فى كل شىء معناه الصحيحَ الثابت ؛ فالحبُّ على هذا شىء غيرُ الزواج ، وبينهما مثلُ ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يُفهَم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعلُه حبا لاغير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحاباً هو أسخفَ زواج بينهما إذا تزوجا .

وذو الفن لايُفيدُ من هذا الحب فائدتَه الصحيحةَ إلا إذا جعله تحت عقلِه لافوق عقله ، فيكون فى حبه عاقلاً بجنونٍ لطيف . . . ويترك العاطفةَ تدخلُ فى التفكير وتضعُ فيه جمالَها وثورتَها وقوَّتَها ؛ ومن ثمَّ يرى مجاهَدَةَ اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفكرية ، ويعرفُ بها فى نفسه ضَرْباً إلهيًّا من السَّكِينة يُولِيه القدرةَ على أن يقهرَ الطبيعةَ الإنسانية ويصرِّفها ويُبدعَ منها عملَه الفنىَّ العجيب .

وهذا الضربُ من السموّ لايبلغه إلا الفكرُ القوىُّ الذى فازَ على شهواته وكبَحَها وتحمَّلها تَغلى فيه غلَيانَ الماء فى المِرْجَل ليخرُجَ منها ألطفُ ما فيها ، ويحوِّلَها حركةً فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبهَ ذا الفنَّ بالشجرة الحية : إن لم تَضْبِطْ ما فى داخلها أصحَّ الضبط ، لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها .

ومثلُ هذا الفكرِ العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجتَه إلى الحبيبة ، وهو فى قوته يجمعُ بين كرامةَ هذه وقُدْسيَّةَ هذه ، لأن إحداهما تُوازِنُ الأخرى ، وتعدِّلها فى الطبع ، وتخفف من طُغيانها على الغريزة ، وتُمْسك القلبَ أن يتبدَّد فى جوّه الخيالى .

* * *

والرجلُ الكاملُ المفكِّرُ المتخيِّلُ إذا كان زوجًا وعَشِق ، أو كان عاشقًا وتزوَّج بغير من يهواها ، استطاع أن يبتدعَ لنفسه فنًّا جميلاً من مسَرات الفكر لايجدُه العاشقُ ولا يناله المتزوج ؛ وإنه ليرى زوجتَه من الحبيبة كالتمثال جَمَدَ على هيئة واحدة ، غير أنه لايُغْفِل أن هذا هو سرٌّ من أسرار الإبداع فى التمثال ، إذ تلك هيئةُ استقرارِ الأسمى فى سموه ؛ فإن الزوجة أمومةٌ على قاعدتها ، وحياةٌ على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدةَ لها ، وهى معان شاردةٌ لاتستقرُّ ، وزائلة لاتثبتُ ؛ وفنها كلُّه فى أن تبقَى حيث هى كما هى ، فجمالُها يحيا كلَّ يوم حياةً جديدةً ما دامت فنًّا مَحْضًا ، وما دام سرُّ أنوثتها فى حجابه .

ومتى تزوج الرجلُ بمن يحبها انهتك له حجابُ أنوثتِها فبطَلَ أن يكون فيها سر ، وعادت له غيرَ من كانت ، وعاد لها غيرَ من كان ؛ وهذا التحولُ فى كل منهما هو زوال كلٍّ منهما من خيَال صاحبه ؛ فليس يصلُح الحبُّ أساسًا للسعادة فى الزواج ، بل أحْرِ به إذا كان وجْداً واحتراقًا أن يكون أساسًا للشؤم فيه ؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حدا يعينُ لهما درجةً من درجةٍ فى الشغَف والصبابة والخيال ، وهما بعدَ الزواج متراجعان وراء هذا الحد مامن ذلك بد ، فإن لم يكن الزوجُ فى هذه الحالة رجلاً تامًّ الرجولة ، أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانيةُ روحه فالتمس فى الزوجة مالم يَعُدْ فيها ، فإذا انكشفَ فراغُها ذهب يلتمسُه فى غيرها ، وكان بلاء عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضعُ أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ، ويفسد إحساسَها فيفسدُ تكوينَها النفسىَّ ؛ وما المرأة إلا حسُّها وشعورُها[1] .

* * *

---

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الإسلام لايبيح اختلاط الزوجين قبل العقد ، إذ لا يعرف الدين الإسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما بينهما ، وتصان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى الحكمة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة .

فالشأن هو فى تمام الرجولة وقوتِها وشهامتِها وفُحولتِها، إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكُنْه . وما من رجل قوى الرجولة إلا وأساسه ديانتُه وكرامتُه ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظْلَم به الزوجة أو يحيف عليها أو يُفسِدُ ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العِشْرة ، بَلْهَ أن يراها كما يقولُ صاحب المشكلة (مصيبة) فيُجافيها ويبالغَ فى إعْناتِها ويشفِيَ غيظَه بإذلالها واحتقارها .

وأىُّ ذى دين يأمنُ على دينه أن يَهلكَ فى بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلبَ خسة ودناءةً ونذالةً فى معاملة امرأة هو لا غيره ذنبُها ؟

إن أساسَ الدين والكرامة ألاّ يخرجَ إنسانٌ عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكدُّ ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك ؛ ومن كان محبًّا لا يَستَنزِلُ المرأة فيُسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الإنسانُ مَن أظهر فى كل ذلك ونحوِ ذلك أثرَهُ الإنسانى لا أثرَه الوحشىَّ ، واعتَبر أمورَه الخاصةَ بقاعدة الجماعة لا بقاعدةِ الفرد . وإنما الدينُ فى السموِّ على أهواء النفس ؛ ولا يتَسامى امرؤٌ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناكَ يتسامى ، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغُ إليه . . . .

وإذا حلَّ اللصُّ مشكلتَه على قاعدته هو فقد حلَّها ، ولكنه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلةً للناس جميعًا ، حتى ليرى الشرعُ فى نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملةِ التى خُلقت له فيأمرُ بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنسُ البشرىُّ كله ينزل منزلة الأبِ فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهارِ لها والدفاع عنها، ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها، وهذا هو حكمها فى الضمير الإنسانى الأكبر ، وإن خالف ضميرَ زوجها العدو الثائر الذى قطعها من مَصادر نفسه ومَوَاردها . أما حكم الحبيبةِ فى هذا الضمير الإنسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحَّاذَة رجال . . .

* * *

لسنا ننكر أن صاحبَ هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقْدَةِ التى فى قلبه ؛ بيد أننا نعرفُ أن ألم العاقل غيرُ ألم المجنون ، وحزنَ الحكيم غيرُ حزنِ الطائش ؛ والقلبُ الإنسانى يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الإنسان لإصلاح دنياه أو إفسادِها ؛ فالحكيمُ من عرف كيف يتصرف بهذا القلب فى آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألمًا جديداً يزيده فيه، ولا يُخرِجُ من الشر شرًّا آخرَ يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهى ، أو أصاب مالا يشتهى ، استطاع أن يخلقَ من قلبه خَلقًا معنويًّا يُوجِدُه الغِنىَ عن ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجدُه الصبر عن هذا الموجود المكروه ؛ فتتوازَنُ الأحوالُ فى نفسه وتعتدلُ المعانى على فكره وقلبه ؛ وبهذا الخلق المعنوىّ يستطيع ذو الفن أن يجعلَ آلامَه كلَّها بدائع فن[1] . وما هو فكرُ الحكماء إلا أن يكونَ مصنعًا ترسَلُ إليه المعانى بصورة فيها الفَوْضَى والنقصُ والألم ، لتخرجَ منه فى صورة فيها النظامُ والحكمةُ واللذةُ الروحية .

يعشق الرجلُ العامىُّ المتزوج ، فإذا الساعةُ التى أو يقَتَه فى المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها : فإما ضرَبَ امرأته بالطلاق ، وإما أهلكَها باتخاذ الضَّرة عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفُجور ، لأن بعضَ العبث من الطبيعة فى نفس هذا الجاهل هو بعينه عَبَثُ الطبيعة بهذا الجاهل فى غيره ، كأن هذه الطبيعة تُطلقُ مدافعَها الضخمةَ على الإنسانية من هذه النفوسِ الفارغة . . .

وليس أسهلُ على الذكر من الحيوان أن يحلَّ مشكلةَ الأنثى حلاً حيوانيًا كحلْ هذا العامىّ ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتولٌ دونها ما دام مطلَقًا مخلًّى بينه وبينها ؛ والحقيقةُ هنا حقيقته هو ، والكونُ كله ليس إلا منفعةً شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يَعجزَ عن نيل هذه المنفعة .

ثم يعشقُ الرجلُ الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجودُ رجل يحل هذه المشكلةَ برجولة ، فإن فيها كرامةَ الزوجة وواجبَ الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عَبَثُ الطبيعة وخداعُها وهزْلُها الذى هو أشدُّ الجدِ بينها وبين الغريزة ؛ وبهذا كلّه تنقلب المشكلةُ إلى

---

(١) استوفينا هذه المعانى فى كثير مما كتبنا ، وبعضها فى مقالات (الجمال البائس) . . .

معركة نفسية لا يَحسِمُها إلا الظفر ، ولا يُعينُ عليها إلا الصبر ، ولا يُفلح فى سياستها إلا تحمل آلامها ، فإذا رُزق العاشقُ صبراً وقوةً على الاحتمال فقد هانَ الباقى وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ؛ فإن فى نفس الإنسان مواقع مختلفةً وآثاراً متباينةً للذة الواحدة ، وموقعٌ أرفعُ من موقع ، وأثرٌ أبهجُ من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفرُ بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامةُ نفسه . وإذا انتصر الدينُ والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفن ، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنىً ولا عظيمُ أثر ، ويتوغَّلُ العاشقُ فى حبه وقد لَبِستَه حالةٌ أخرى كما يكظِمُ الرجلُ الحليمُ على الغيظ : فذلك يحب ولا يَطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضَب . والبطلُ الشديدُ البأس لا ينبغُ إلا من الشدائد القوية ، والداهيةُ الأريبُ لا يخرج إلا من المشكلات المعقَّدة ، والتقىُّ الفاضل لا يُعرفُ إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعَمرى إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصرَ على شهوة من شهوات نفسه ، أو يُبطِل حاجةً من حاجاتها ، فماذا فيه من الحكمة ، وماذا فيه من النفس ؟

* * *

وما عقَّد (المشكلةَ) على صاحبها بين زوجته وحبيبته ، إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ المصلِحة فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلَّها . . . وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يُبصر عندها إلا فروقًا بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ؛ وبهذا أفسد عينهَ كما أفسد خيَاله ؛ فلو تعلَّم كيف يراها لرآها ، ولو تعوَّدها لأحبها .

إنه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمَقادة فى عنقه ؛ فشعورُه بمعنى الحبل وإن كان معنىً ضئيلاً عطَّل فيه كلَّ معانى قوته ، وإن كانت معانىَ كثيرة . وما أقدَرَك أيها الحبُّ على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس !

* * *

وقد بقى أن نذكر ، توفيةً للفائدة ، أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من نقصت فُحولَتُه من الرجال ، فيدَلِّس على نفسه بمثل هذا الحب ، ويبالغ فيه ، ويتجرَّم على زوجته المسكينة التى ابتُليت به ، ويختَلِقُ لها العِلَل الواهية المكذوبة ، ويُبغضُها كأنه هو الذى ابتُلىَ بها ، وكأن المصيبةَ من قِبَلها لا من

قبله ؛ وكلُّ ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكره ، فلم تعد إلا صُوَراً خياليةً لاتعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشدّ الكره إذا شعر فى نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها . . . فهذا لايكونُ رجلاً لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شِفاء الغيظ ، وامرأتُه معه كالمعاهَدة السياسية من طَرَف واحد : لاقيمة ولاحرمة ؛ وإذا أحب هذا كان حبه خياليًّا شديداً ، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن جهة أخرى يكون غيظًا لزوجته ، وردًّا بامرأة على امرأة . . .

فهرست

الجزء الأول من وحى القلم



« بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل ،»
« أو قَبسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم »
سعد زغلول

كتبه
مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت . لبنان

ضبطه وصححه وعلى حواشيه
محمد سعيد العريان


وحي القلم

الإشراقُ الإلهى

وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتُفجِّرُ ينبوعَ الضوء المسمَّى النهار ، يولَد النبيُّ فيوجِدُ فى الإنسانية ينبوعَ النور المسمَّى بالدين . وليس النهار إلا يقظةَ الحياة تحقِّقُ أعمالَها ، وليس الدينُ إلا يقظةَ النفس تحقق فضائلَها .

والشمسُ خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلهيَّ ، فى عملها للمادة تَحَوَّلُ به وتَغَيَّر ؛ والنبيُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابعَ فى عمله تترقَّى فيه وتسمو .

ورَعَشَاتُ الضوء من الشمس هى قصةُ الهداية للكون فى كلامٍ من النور ، وأشعةُ الوحيِ فى النبي هى قصةُ الهداية لإنسانِ الكون فى نورٍ من الكلام .

والعاملُ الإلهيُّ العظيم يعملُ فى نظام النفس والأرض بأداتينِ متشابهتين : أجرامِ النورِ من الشموس والكواكب ، وأجرامِ العقل من الرُّسُلِ والأنبياء .

فليس النبيُّ إنسانًا من العظماء يُقرأ تاريخُه بالفكر معه المنطق ؛ ومع المنطق الشك ، ثم يُدْرَسُ بكل ذلك على أصول الطبيعة البشريةِ العامة ؛ ولكنه إنسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثلِ « التلسكوب » فى الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ؛ ثم يُدْرسُ بكل ذلك على أصول طبيعته النورانيةِ وحدها .

والحياةُ تُنشِئُ علمَ التاريخ ، ولكنَّ هذه الطريقةَ فى درس الأنبياء (صلواتُ الله عليهم) ، تجعلُ التاريخَ هو يُنشئُ علمَ الحياة ؛ فإنما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية ، يُقَوِّمُها فى فلكِها الأخلاقى ، ويجذبُها إلى الكمال فى نظامٍ هو بعينه صورةٌ لقانون الجاذبية فى الكواكب .

ويجىء النبي فتجىء الحقيقةُ الإلهية معه فى مثل بلاغة الفن البيانى ، لتكونَ أقوى أثراً ، وأيسرَ فهمًا ، وأبدعَ تمثيلاً ، وليس عليها خلافٌ من الحس . وهذا هو الأسلوبُ الذى يجعلُ إنساناً واحداً فنَّ الناسِ جميعًا ، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغة بأكملِها ؛ هو الشخصُ المفسِّر إذا تعسَّف الناسُ الحياةَ لايدرون أينَ يؤمُّونَ منها ، ولا كيف يتَهدَّون فيها ، فتضطربُ الملايينُ من

البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا ؛ ثم يُخلَق رجلٌ واحد ليكونَ هو التفسيرَ لما مضى وما يأتى ، فتظهر به حقائق الآداب العالية فى قالَب من الإنسان العامل المرئىِّ ، أبلغَ مما تظهر فى قصة متكلِّمة مروية .

وما الشهادة للنبوّة إلا أن تكونَ نفسُ النبى أبلغَ نفوس قومه ، حتى لَهُوَ فى طباعه وشمائله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها ، كأنها الوضعُ النفسانىُّ الدقيق الذى يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء . وكأن الحقيقةَ الساميةَ فى هذا النبى تُنادى الناس : أن قَابِلُوا على هذا الأصل وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلَط الحياة وتحريفِ الإنسانية .

* * *

ومن ثم فنبىُّ البشرية كلِّها مَن بُعِثَ بالدين أعمالاً مفصَّلةً على النفس أدقَّ تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطى الحياةَ فى كل عصر عقلها العملىَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّم به أحوالَ النفس على مَيْزة وبَصيرة ، ويَدَع للحياة عقلَها العلمىَّ المتجددَ المتغير تنظِّم به أحوالَ الطبيعة على قَصْد وهُدى ؛ وهذه هى حقيقةُ الإسلام فى أخص معانيه ، لايُغنى عنه فى ذلك دينٌ آخر ، ولايؤدِّى تأديتَه فى هذه الحاجة أدبٌ ولاعلم ولافلسفة ، كأنما هو نَبعٌ فى الأرض لمعانى النور ، بإزاء الشمس نبع النور فى السماء .

وكلُّ ذلك تراه فى نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهى فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة ، لايمكن أن تعرف الأرض أكملَ منها ؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألِّهين وجُعِلتْ فى نِصَاب واحد — ما بلغتْ أن يجىء منها مثلُ نفسه (صلى الله عليه وسلم) . ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرَّة فى مَحَارتها ، أو تركيب كتركيب الماس فى منجَمِه ، أو صفة كصفة الذهب فى عِرْقه . وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتَها رأيتَها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسِط وتَضْحَى .

وتلك هى الشهادةُ له (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينَه هو دين الإنسانية الأخير ؛ فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها : صلابتُه بمقدار الحق الإنسانىّ الثابت ، لا بمقدار الإنسان

المتغير الذى يكون عند سبَبٍ جَبَلاً صَلداً يَتَشَمّخ ، وعند سبَب آخرَ ماء عذْباً يجرى .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضَاعَ الدنيا وحكمَ العالم ، ويستفرغ همَّه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكُّمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلُّبها ؛ وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملُها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملُها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعيًّا فى الإسلام ما جاء به من أنه لافضيلةَ إلا وهو يطبع عليها صورةَ الجنة بنعيمها الخالد ، ولارذيلةَ إلا وهو يضعُ عليها صورة النار الأبدية وَقُودُها الناسُ والحجارة ؛ فلا تنظرُ العينُ المسلمةُ إلى أسباب الحياة نظرةَ الفكر المنازع : يحرصُ على ما يكون له ويَشْرَهُ إلى ما ليس له ، ويمكُرُ الحيلةَ ، ويبدعُ وسائلَ الخداع ، ويزيدُ بكل ذلك فى تعقيد الدنيا — بل نظرة القلب المسالم : يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكل مضنون فيها ، فيعفُّ عن كثير ؛ ويعرف الإنسانية ويطمع فى غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويُدرك أن الحلالَ وإن حلَّ فوراءه حسابه ، وأن الحرامَ وإن غرَّ ليس إلا تَعلُّلَ ساعةٍ ذاهبة ثم من ورائه عقابُ الأبد .

ويخرجُ من ذلك أن يكونَ أكبرُ أغراض الإسلام هو أن يجعلَ من خشية الله تعالى قانونَ وجود الإنسان على الأرض ، فمن أىّ عِطْفَيه التفتَ هذا الإنسان وجد على يَمْنَتِه ويَسْرَته مَلَكَين من ملائكة الله يكتبان أعمالَه بخيرها وشرها ، ، فهو كالمتَّهَم المستراب به فى سياسة النفس : لا يمشى خُطوةً إلا بين جاسوسَيْن يحصيان عليه حتى أسبابَ النية ، ويجمعان منه حتى نزَوات الكبِد ، ويترجمان عنه حتى معانىَ النظر .

وإذا قامت هذه الحكمةُ الملائكية وتقررت فى اعتبار النفس ، قام منها على النفس شرعٌ نافذٌ هو قانون الإرادة المميِّزة ، تُريد الحسنات وتعملُ لها ، وتخشَى السيئات وتَنفرُ منها ، فإذا معانى الجسد يحكم بعضُها بعضًا ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة؛ وإذا نواميسُ الطبيعة

المجنونة في هذا الحيوان ، قد نهضتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادة الحكيمة في الإنسان ، وإذا كلٌّ صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تُهمة عند قاضيها في محكمتها ، وإذا كلٌّ ما في الإنسان وما حولَ الإنسان ، لا يرادُ منه إلا سلامُ النفس في عاقبتها ؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرِّف بالإنسانية في دنياها .

وكلٌّ أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هي غايتُها ، وهذه هي فلسفتُها ؛ لايقررها للإنسانية حَسْبُ، بل يَغْرِسُها في الوراثة غرسًا بالاعتياد والمِران الدائم، لتكونَ علمًا وعملاً ، فتمكِّنَ لسلام النفس بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضَرورات الحياة ، في أيدي الأعداء المتألِّبة عليها من شَهَوات الغريزة .

فليس يعمُّ السلام إلا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشَمل الأرضَ أو أكثرَها ؛ فإن قانونَ العالم حينئذ يُصبح منتزَعا من طبيعة التراحُم ، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعي ، وإما كَسَرَ من شِرّته ؛ ويُولد المولودُ يومئذ وتولَد معه الأخلاقُ الإنسانية .

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذَّرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعًا — هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية ؛ ولاصلاحَ للإنسانية بغيره يردُّها إلى سبيل قَصْدِها ، فإن من ذلك تكونُ الصفة العقلية التي تَغْلِبُ على المجتمع ، وتُجانس بين أفراده ، فتوجِّه الإنسانيةَ كلَّها نحو الممكِن من كمالها ، ولاتزال توَجِّهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدَها بصالحها ، وتأخذ عاصيَها بمطيعها ، وتجعل الشرفَ الإنساني غرضَها الأول ، لأن الله الحقَّ غرضُها الأخير ؛ فيصبح المرء — وهذا دينُه — كلما تقدم به العمر كَمُلَ فيه اثنان : الإنسان ، والشريعة . ولايعود طالبُ السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليُمسكَه ؛ فلا يدرك في الآخر شيئًا غيرَ معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع .

والإسلام يحرص أشدَّ الحِرص وأبلغَه على تقرير ذلك المعنى الإلهيِّ العظيم ، لابالمنطق ، ولكن بالعمل ؛ ثم في النفس وعواطفِها ، لا في العقل وآرائه ؛ ثم على

وجه التعميم ، دون الاستثناء والخصوص ؛ وذلك هو سرٌ مشقّته على النفس بما يفرضُه عليها ؛ فإن فلسفته أن هذه النفسَ هى أساسُ العالم، وأن النظامَ الخلقىَّ هو أساسُ النفس ، وأن العملَ الدائم هو أساسُ النظام ، وأن روحَ العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعضَ المشقة ولايبلغ العُسْر والحرَج ، كما تكون فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال .

وللنفس وجهان : ما تُعلِن ، وما تسِرّ ؛ ولا صدقَ لإعلانها حتى يصدقَ ضميرُها ، ولاصلاحَ لجهْرها حتى يصلُحَ السرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعى فاضلاً بمَشْهَدِه حتى يكونَ كذلك بغَيْبِه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضرُه الذى يمر فيه ، وآتيه الذى يمتدُّ له ؛ ولا يُفلِح حاضرٌ منقطعٌ لايُوَرِّث ما بعده كما وَرِث ما قبله ، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقيةً نامية .

وللنظام أيضًا وجهان : نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنَّفْرة منها . ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسُه الطاعةَ فى النفس ، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستَيْقِنُها ، فلا يجد مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالَبة للنصر : كلُّ مرارة من قِبَله هى حلاوةٌ فيه من بَعد ، ولايعرف للمِحْنة يُبتلى بها إلا معناها الحقيقىَّ وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه ؛ صبرٌ فيه من السحر مايكسو الحرمانَ فى بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع ، ويُذيقُ النفسَ فى العجز عن بعض أغراضها — لذةً كلذة إدراكه .

* * *

تلك هى فلسفةُ الإسلام ؛ لا قِوامَ للأمر فيها ولا مِساكَ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابَع الجنة على أعمال الجنة ، وطابَع النار على أعمال النار — وحياطة كل فرد من الناس حياطةً رياضيةً عمليةً بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلَّف من أعمال جسمه وحواسّه ، ثم أعمال قلبه ونيته — وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول

كلُّ إنسان أن يجعلَ بطنَه فى حجْم مملكة أو مدينة أو قرية ، بما ينتقِصُ من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتيةُ كل فرد بما يجبُ له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق فى الأرض : بالمصلحة لا باللذة ؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياةُ لا تجد من أهلها كلَّ ساعة عُقَدًا فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدَه الطريقةُ لإنشاء طبيعة الخير فى الناس على نَسَقِها الطبيعى ، كما أنه هو وحده الطريقةُ لتطهير التاريخ الإنسانى من أوبائه الاقتصادية ، التى جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركت الناسَ يهدم بعضهم بعضًا ، كما يهدم الجارُ حائط جاره ليوسِّعَ بيتَه .

وأساسُ العمل فى الإسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ؛ فيكونُ الفقير مُعْدِمًا ويتعفَّف ، ويكونُ الغنىُّ موسِرًا ويتصدَّق ، ويكون الشَّرِهُ طامعًا ويُمْسِك ، ويكون القوىُّ قادرًا ويُحْجِم ، وكما قال العرب فى تحقيق ناموس الأنَفة والحميَّة وغلبتِه على الناموس الاقتصادى : « تجوع الحرةُ ولا تأكل بثَدْيَيها » .

* * *

تريد الإنسانية امتدادًا غيرَ امتدادها التجارىّ فى الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانَها غير الحيوان الذى فيه ؛ وإذا قاد الغراب قومًا فإنما هو — كما قال شاعرنا — يمرُّ بهم على جِيَف الكلاب . . . والإنسانيةُ اليوم فى مثل ليل حَوْشِيٍّ مظلم اختلط بعضه فى بعض ، وليست معانى الإسلام إلا الإشراقَ الإلهىَّ على هذه الكثافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباحُ لم تجد الظلامَ إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانيةَ الفرد لا تعظُم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحها الصادقَ وتحزنُ حزنَها السامى — إلا أن تعيشَ فى محبوب ؛ فإنسانيةُ العالَم لا تكون مثلَ ذلك إلا إذا عاشت فى نبيِّها الطبيعى ، نبىَّ أخلاقها الصحيحة وآدابِها العالية ونظامِها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوبَ الأعظم إلا فى محمد ودين محمد ؟

وعجيب أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبيّ العظيم خمسَ مرات فى الأذان كل يوم ، يُنادَى باسمه الشريف ملء الجو ؛ ثم حكمةَ ذكره فى كل صلاة من الفريضة والسنّة والنافلة ، يُهْمس باسمه الكريم ملء النفس ! وهل الحكمةُ من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيّهم ولا يومًا واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتدُّ الزمن مهما امتدّ والإسلام كأنه على أوّله ، وكأنه فى يومه لا فى دهرٍ بعيد ؛ والمسلم كأنه مع نبيّه بين يديه تبعثه روحُ الرسالة ، ويسطع فى نفسه إشراقُ النبوة ، فيكونُ دائماً فى أمره كالمسلم الأول الذى غيّر وجهَ الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأولُ بأخلاقه وفضائله وحَميّته فى كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإن كلَّ أرض إسلامية يكادُ لايظهر فيها إلا إنسانها التاريخىُّ بجهله وخرافاته وما وَرثَ من القِدَم ؛ فهنا المسلم الفرعونى ، وفى ناحية المسلم الوثنى ، وفى بلد المسلم المجوسى ، وفى جهة المسلم المعطِّل . . وما يُريدُ الإسلام إلا نفسَ المسلم الإنسانىّ .

أيها المسلم !

لا تنقطعْ من نبيك العظيم ، وعشْ فيه أبداً ، واجعلْه مثلَكَ الأعلى ؛ وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابنَ المُعْجِزة .

حقيقة المسلم*

لا يعرف التاريخُ غيرَ محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغَ الله وجودَه فى الوجود الإنسانىّ كلِّه ؛ كما تَنصبُّ المادّة فى المادة ، لتمتزجَ بها ، فتُحوّلها ، فتُحْدِثَ منها الجديد ، فإذا الإنسانية تتحوّل به وتنمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح هذه الإنسانيّة تنمو به وتتحوّل .

كان المعنى الآدمىُّ فى هذه الإنسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه ، يتَحيَّفُه ويمحوه ويتَعاوَره بالشر والمنكَر ؛ فابْتَعث الله تاريخَ العقل بآدمَ جديد بدأتْ به الدنيا فى تَطَوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته ؛ كما بدأتْ من حيث يُوجَد الإنسانُ فى ذاته ؛ فكانت الإنسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتحَ لها طريقَ المجىء من الجنة ، والثانى فَتحَ لها طريقَ العوْدة إليها : كان فى آدمَ سرُّ وجود الإنسانية ، وكان فى محمدٍ سرُّ كمالها .

* * *

ولهذا سُمِّىَ الدينُ (بالإسلام) ؛ لأنه إسلامُ النفس إلى واجبها ، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكِرُ ذاتَه فيُسْلِمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها فى كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكها على شهواته ومنافعه ، ولكنْ للإنسانية بها الحظّ .

وما الإسلامُ فى جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و (إسلامُها) طائعةً على المُنْشَط والمَكْرَه لفُروضها وواجباتها ؛ وكلما نكَصَتْ إلى منْزَعها الحيوانىّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهىّ ؛ وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة ما دام حيًّا ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ، ليضعَها ما بين يدَىْ حقيقتها الإلهيَّة : يروضُها على ذلك كل يوم وليلة خمسَ مرّات مُسماة فى اللغة خَمْسَ صلوات ، لايكون الإسلام إسلامًا بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ

---

* كتبها لجماعة الكشاف المسلم فى بيروت فى ذكرى المولد النبوى الشريف . وانظر « فترة جمام » و « عود على بده » من كتاب حياة الرافعى .

بهذا المعنى كما وصفها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) هى عِمادَ الدين .

* * *

بين ساعات وساعات فى كلّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أىْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرْض الإلهىّ ، وإنكارٌ لمعانيها الذاتية الفانية التى هى مادةُ الشرّ فى الأرض ، وإقرارُها لحظَات فى حَيّز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامِها ومنكَراتها. ومعنى ذلك كلِّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا فى جملتها طُرُقًا تتشتَّتُ فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تَضلّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجودُ الروحىُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التى جاء الإسلامُ ليَهْدىَ الإنسانيةَ إليها : حالة السلام الروحانىّ الذى يجعل حربَ الدنيا المهلكة حربًا فى خارج النفس لا فى داخلها ، ويجعل ثروةَ الإنسان مُقَدَّرة بما يعامل الله والإنسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفضّتُه ما كتبتْ عليه الدول : « ضُرِبَ فى مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتِبَ عليه : « صُنِعَ فى مملكة نفسى » ؛ ومن ثَمّ لايكون وجودهُ الاجتماعىُّ للأخذ حَسْبُ ، بل للعطاء أيضاً ، فإن قانونَ المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل .

بالانصراف إلى الصلاة وجَمْع النيَّةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه قد حطَّم الحدود الأرضيةَ المحيطةَ بنفسه من الزمان والمكان ، وخَرَج منها إلى رُوحانية لايحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه .

وبالقيام فى الصلاة ، يحقِّقُ المسلمُ لِذاته معنى إفراغ الفكر السامى على الجسم كلِّه ، ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره ، كأنه كائنٌ منتَصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده .

وبالتولِّى شَطْرَ القِبلة فى سَمْتها الذى لايتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت فى روحانية الحياة ؛ فيَحملُ قلبُه معنى

---

(١) هذه هى حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

الاطمئنان والاستقرار على جاذبيَّة الدنيا وقلقها ؛

وبالركوع والسجود بين يدَى الله ، يُشْعِرُ المسلمُ نفسَه معنى السموّ والرّفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيَّات الطيبات ، يكونُ المسلمُ جالسًا فوق الدنيا يحمَدُ اللهَ ويُسلِّم على نبيِّه وملائكته ويشهَدُ ويدعو .

وبالتسليم الذى يَخرجُ به من الصلاة ، يُقبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً : من جهتَى السلام والرحمة .

هى لحظَاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييد ها بين وقت وآخرَ بسلاسلها وأغلالِها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفَناء خمسَ مرات كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتَّسع :

هى خمسُ صلَوات ، وهى كذلك خمس مرَّات يَفْرَغُ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه (صلى الله عليه وسلم) : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة »[1] .

* * *

لم يكن الإسلامُ فى حقيقته إلا إبداعا للصِّيغة العمليَّة التى تنتظم الإنسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرَّاسًا على القلب المؤمن ، كأنها ملائكةٌ من المعانى؛ وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيًّا وقَع به التطوُّرُ فى عالَم الغريزة ، فنَقلَه إلى عالم الخلُق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقِّ ، ثم سَما بالحقِّ إلى الخير العام ؛ فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقَات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلات منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المُسْلمةُ التى أسَّسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لاما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهليها ، لاعلى أهليها؛ وكان الظاهرُ أن الإسلام

---

(١) كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يستبطىء الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه إليها فيقول : « أرِحْنا بها يابلال » ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله : أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه .

يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكنَّ الحقيقةَ أن إقليما من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين .

وكأن اللهَ تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها بَعْثَه الإلهيَّ لأمره ، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدِّ التى يفورُ البحرُ منها ، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسِلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله (تعالى) فى كتابه ، وكلامَ رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، لا كما يسمعون القولَ ، ولكن كما يتلقَّوْن الحكمَ النافذَ المقْضىَّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدَها ، بل رَوْعةَ أمرِ السماء فى بلاغة ؛ واتصلوا بنبيِّهم ، ثم بعضُهم ببعض ، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدّ ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضًا فى قوة واحدة .

وحقَّقوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسىَّ ؛ فكانوا من زَخارِف الحياة وباطلِها فى موضع الحقيقةِ الذى يُرى فيه الشىءُ لا شَىء .

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطةَ الثابتةَ فيما يتضاربُ من خيالاتِ النفس ؛ فكانوا أكبرَ علماء الأخلاقِ على الأرض ، لا من كُتُبٍ ولا علم ولا فلسفة ، بل من قلبِ نبيهم وحدَه .

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمَّتْ هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان ، رجعتْ له الطفولةُ فى رُوحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملكُها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبحَ كأنما يمشى فى الحياة إلى الجنة بخُطُوَات مُسدَّدة لا تزيغُ ولا تنحرف ، فلا شرَّ ولا رذيلة ؛ ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرها ، يملكُها وإن لم يملكْ منها شيئًا ، ما دامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غِنى مما يشعُرُ الناسُ بمعانيه ، بل كلٌّ ما أمكنَ فهو غنىٌّ كامل ، إذ لم تعُدِ القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقصُ بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ النامية المتغلِّبة ، حتى لتجعلُ من النور والهواء ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز القَفَار ، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمة [1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : « أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندى لكسر آ يابسة ، وإنى =

وبذلك لا تتسلَّط ضرورةٌ على الجسم – كالجوع والفقر والألم ونحوها – إلا كان تَسلُّطها كأنه أمرٌ من قوّة فى الوجود إلى قوّة فى هذا الجسم: أن تَظْهرَ لتعملَ عملَها المُعْجزَ فى إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنسُ من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئًا لقالت: إن ثروتى فى الحياة هى الحياةُ نفسُها ، فليس لى فقرٌ ولا غِنى ، بل طبيعةٌ أوْلا طبيعة .

* * *

ولقد كان المسلمُ يُضْرب بالسيف فى سبيل الله، فتقَعُ ضَربات السيوف على جسمه فتُمزّقُه؛ فما يُحِسُّها إلا كأنها قُبَلٌ أصدقاء من الملائكة يَلْقَوْنه ويعانقونه !

وكان يُبْتَلى فى نفسِه وماله ،فلا يشعر فى ذلك أنه المُرَزَّأ المُبْتَلى يُعْرَف فيه الحزن والانكسار، بل تَظهر فيه الإنسانية المنتصرةُ كما يَظهر التاريخ الظافرٌ فى بطله العظيم أصيبَ فى كلّ موضع من جسمه بجراح ، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهى شهادة النصر !

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسبابَ قوة وسمو ؛ كالنَّسْر المخلوق لطبقَات الجوّ العُليا ، ويحمل دائمًا من أجل هذه الطبقَات ثِقْلَ جَناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقةَ التى جعلها النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثَلَهم الأعلى، وأقرَّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله – أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره ، فلا تكون فى الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة ، تجعل المسلم وما هو روح أمته تَعمل به أعمالها هى لا أعمالَه وحدَها ؛

المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه فى معناه الاجتماعىّ حولَ أمته كلِّها ، لا إنسانٌ ضيّقٌ مجتمعٌ حول نفسِه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره فى صدق المعاملة الاجتماعية

...تستحيى أن أقدمها إليك » فقال : « هلميها ! » ، فكسرها فى ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقلت : « ماعندى إلا شىء من خل . » فقال « هلميه ! » فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الإدام الخل يا أم هانىء ،لايقفر بيت فيه خل » أ هـ .

كالتاجر من التاجر ؛ تقول الأمانة لكليهما : لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصَدِّقَه ميزان أخيك .

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تامًّا حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضْبِط طبيعتَه : يقْهرها مرةً وتقهره مراراً ؛ ولكن طبيعة تضبِط شخصها فهي قانون وجوده .

لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟

لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟

لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا في طبيعة مخالبك وأنيابك . . . ؟

وحى الهجرة *

إن التاريخَ ليتكلّم بلغة أوسعَ من ألفاظِه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعضُ نواميس الوجود ، صُوِّرتْ فيها النفسُ الإنسانية كيف اعتَوَرتْ أغراضها ، وكيف مدّت فى نَسَقِها ، وكيف تغلغلتْ فى مسالكِها ، وما تأتّى لها فَجَرَتْ به مَجراها ، وما دفَعها فانحدرتْ منه إلى مَقَارّها ؛ فهو ليس بكلام تستقبلُه تقرأ فيه ، ولكنه أحوالٌ من الوجود تعترضها فتغيّر عليك حسّك بإلهامِها وأحلامِها ، وتتناولها من ناحية فتتناولُك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنىً ، من ورائه طبيعةٌ ، من ورائها سببٌ وحكمة ؛ وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتُها وإلهيّتُها معًا ، وإذا الوجود فى ذهنك كالساعة ترسم لك حدّ الثانية بخَطْرتين ، وحدّ الدقيقة من عدد محدود من الثوانى ، وحدّ الساعة إلى حد اليوم ؛ وإذا البيان فى نفسك من كل هذه الحواشى ، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مُفنّنٌ فى ظاهره وباطنه يَفيء عليك من ألفاظِه ومعانيه بظلال هى صلتُكَ أنت أيها الحىُّ الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخَ الهجرة النبوية فى كتاب أبى جعفر الطّبرى لأكتبَ عنه هذه الكلمة ، فلم أكن — علم الله — فى كتاب ولا فى حكاية ، بل فى عالم انبثق فى نفسى مخلوقًا تامًّا بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهلِه جميعًا ؛ كما يرى المحبُّ حبيبَه : لايكون الجميل فى محل إلا امتلأ مكانه بعاشقه ، فهو مكانٌ من النفس ، لامن الدنيا وحدَها ، وفيه الحياة كما هى فى الوجود بمظهر المادة ، وكما هى فى الحب بمظهر الروح .

وتلك حالةٌ من القراءة بالروح والكتابةِ بالروح ، متى أنت سموتَ إليها رأيتَ فيها غيرَ المعنى يُخرِجُ معنى ، ومِن لا شىءَ تُخلَق أشياء ، لأنك منها اتصلتَ بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلتَ بأسرار فوقها ؛ فيُصبِحُ التاريخُ معك فنّ الوجود الإنسانىّ على الوجه الذى أفضتْ به الحكمة إلى الحياة لتستمرّ بالنفس الإنسانية ، لافنّ علم الناس على الوجه الذى أفضتْ به الحوادث مما بين الحياة والموت .

---

* أولى مقالاته فى الرسالة ، أنشأها للعدد السنوى الخاص بالهجرة .

* * *

نشأ النبي (صلى الله عليه وسلم) فى مكة ، واستُنْبِىء على رأس الأربعين من سنِّه ، وغَبَرَ ثلاثَ عشْرةَ سنةً يدعو إلى الله قبل أن يهاجرَ إلى المدينة ؛ فلم يكن فى الإسلام أولَ بَدْأته إلا رجلٌ وامرأةٌ وغلام : أما الرجل فهو هو (صلى الله عليه وسلم) ، وأما المرأةُ فزوجهُ خديجة ، وأما الغلام فعليٌّ ابن عمه أبى طالب.

ثم كان أول النموّ فى الإسلام بِحُرٍّ وعبد : أما الحرُّ فأبو بكر ، وأما العبد فبلال ، ثم اتسقَ النموُّ قليلاً قليلاً بُبطء الهموم فى سيرها ، وصبر الحرِّ فى تجلده ؛ وكأن التاريخَ واقفٌ لا يتزحزح ، ضيق لايتسع ، جامدٌ لاينمو ؛ وكأن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) أخو الشمس : يطلُع كلاهما وحدَه كل يوم . حتى إذا كانت الهجرة من بَعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تَتَقَلْقَل ، كأنما مرَّ بقدمه على مركزها فحرَّكها ؛ وكانت خطواتُه فى هجرته تَخطُّ فى الأرض ، ومعانيها تخطُّ فى التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكةَ والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان فى مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العرب كما يُعْرَض الذهبُ على المتوحشين : يَروْنه بَريقًا وشُعاعًا ثم لاقيمةَ له ، وما بهم حاجةٌ إليه ، وهو حاجة بنى آدم إلا المتوحشين ، وكانوا فى المحادَّة والمخالفة الحمقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغَ الأوهام والأساطير — كما يكون المريضُ بذات صدره مع الذى يدعوه فى ليلة قارَّة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطانَ نفسَه وضع هذا الصخر فى مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخَ الإسلامى عن الدنيا وأهلها .

وأوذىَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكذِّب وأهين ، ورَجَفَ به الوادى يخطو فيه على زَلازل تتقلَّب ، ونابذَه قومُه وتَذَامَروا فيه ، وحضَّ بعضُهم بعضًا عليه ، وانْصَفَقَ عنه عامةُ الناس وتركوه إلا من حفِظَ اللهُ منهم ؛ فأصيب كبيراً باليُتْم من قومه ، كما أصيب صغيراً باليُتْم من أبويه .

وكان لايسمع بقادم يقدُمُ من العرب له اسمٌ وشرفٌ ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض نفسَه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدعوةُ تلوح وتختفى كما يَشُقُّ

البرقُ من سحابة على السماء : ليس إلا أن يُرَى ثم لا شيء بعد أن يُرى !

* * *

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة فى جملة معناه ، غيرَ أنى لم أقرأه تاريخًا ، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعًا من حكمة إلهية ، وضعه الله كالمقدّمة لتاريخ الإسلام فى الأرض ؛ مقدّمةٌ من الحوادث والأيام تحيا وتمرُّ فى نَسَق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمةُ الله تعمل بقسوة ، وحكمةُ الله تتجلّى فى غموض ؛ فلو أنت حققتَ النظرَ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألّه فى هذه الحقبة ، بحيث لاتقرؤه النفسُ المؤمنةُ إلا خاشعة كأنها تصلّى ، ولاتتدبّره إلا خاضعةً كأنها تتعبّد .

بدأ الإسلامُ فى رجل وامرأة وغلام ، ثم زاد حرًّا وعبداً ؛ أليست هذه الخمسُ هى كلَّ أطوار البشرية فى وجودها ، مخلوقةً فى الإنسانية والطبيعة ، ومصنوعةً فى السياسة والاجتماع ؟ فهاهنا مطلعُ القصيدة ، وأولُ الرمز فى شعر التاريخ .

ولَبثَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) ثلاثَ عشرةَ سنةً لايَبْغيه قومُه إلا شرًّا ، على أنه دائبٌ يطلب ثم لايجد ، ويَعْرِضُ ثم لايُقبَل منه ، ويُخفِق ثم لا يَعْتريه اليأس ، ويَجْهَدُ ثم لا يتخوَّنُه المَلَل ، ويستمرُّ ماضيًا لايتحرَّف ، ومعتزمًا لايتحوَّل ؛ أليست هذه هى أسمى معانى التربية الإنسانية أظهرَها اللهُ كلَّها فى نبيه ، فَعمِلَ بها وثبت عليها ، وكانت ثلاثَ عشرةَ سنةً فى هذا المعنى كعمر طفل وُلِدَ ونشأ وأحكم تهذيبُه بالحوادث ، حتى تسلَّمته الرجولةُ الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقًا يعلِّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم : غِناه فى قلبه ، وقوّته فى إيمانه ، وموضعه فى الحياة موضعُ النافع قبل المنتفِع ، والمصلِح قبل المقلِّد ؛ وفى نفسه من قوة الحياة ما يموتُ به فى هذه النفس أكثرُ ما فى الأرض والناس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العواملُ الأخلاقيةُ هى هى التى أُلقيتْ فى منبع التاريخ الإسلامىّ ليعُبَّ منها تيّارُه ؛ فتدفعُه فى مجراه بين الأمم ، وتجعلُ من أخص

الخصائص الإسلامية فى هذه الدنيا ـ الثباتَ على الخُطْوة المتقدمة وإن لم تتقدّم، وعلى الحق وإن لم يتحقّق ؛ والتبرُّؤَ من الأثرة وإن شَحّتْ عليها النفس ، واحتقارَ الضعف وإن حَكَمَ وتسلّط ، ومقاومةَ الباطل وإن ساد وغلَب ، وحملَ الناس على مَحْض الخير وإن رَدُّوا بالشر ، والعملَ للعمل وإن لم يأت بشىء ، والواجبَ للواجب وإن لم يكن فيه كبيرُ فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كلُّ ما حوله ؟

ثم هى هى البُرهاناتُ القائمةُ للدهر قيامَ المنارة فى الساحل ــ على نبوّة محمد (صلى الله عليه وسلم) : تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه رُوحٌ وغاياتُها المحتومة بالقدَر ، لاجسمٌ ووسائلُه المتغلّبةُ بالطبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابتعثتْه نفسُه ، لتَمحّلَ الحيلَ لسياسته ، ولأحْدَثَ طمعًا من كل مَطْمع ،ولركَدَ مع الحوادث وهَبّ، ولما استمر طوالَ هذه المدة لايتجه وهو فردٌ إلا اتجاهَ الإنسانية كلِّها كأنما هو هى .

ولو هو كان رجلَ المُلك أو رجلَ السياسة ، لاستقام والْتَوَى ، ولأدرك ما يبتغى فى سَنوات قليلة ، ولأوجد الحوادثَ يتعلق عليها ، ولما أفْلتَ ما كان موجوداً منه يتعلّق به ، ولما انتزع نفسَه من محله فى قومه وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تُبعِدُه وهى كانت تُدنيه .

قالوا : إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمتْه قُريش فقال له : يا ابن أخى ، إن قومَك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىّ وعلى نفسك ، ولاتحمِّلْنى من الأمر مالا أطيق . فظن رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء[1] ، وأنه خاذِلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضَعُفَ عن نُصرته والقيام معه ، فقال : يا عمّاه ، لو وضعوا الشمسَ فى يمينى والقمرَ فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركته . ثم استعبرَ (صلى الله عليه وسلم) فبكى !

يا دموعَ النبوة ! لقد أثْبَتِّ أن النفسَ العظيمةَ لن تتعزى عن شىء منها بشىء من غيرها كائنًا ما كان ، لامن ذهبِ الأرض وفضّتِها ، ولا من ذهب

---

(١) أى نشأ له رأى جديد فيه ، وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه .

السماء وفضتها إذا وُضِعَتْ الشمسُ في يد والقمرُ في الأخرى .

وكلُّ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمنِ على أنه زمنُ نبيّ ، لازمنُ مَلِكٍ أو سياسيّ أو زعيم ؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنسان الاجتماعيّ من جهة قوته ، بل يقينَ الإنسان الإلهيّ من جهة قلبه ؛ ودليلَ الحكمة على أن هذا الدينَ ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عَدْوى النفس للنفس ؛ فها هو ذا لايبلغ أهلُه في ثلاثَ عشرةَ سنةً أكثرَ مما تبلغ أسرةٌ تتوالد في هذه الحِقْبة ؛ ودليلَ الإنسانية على أنه وحْي الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية . أفلم يكن خروجُه عن موطنه هو تحقُّقَه في العالم ؟

ثلاثَ عشرةَ سنة، كانت ثلاثة عَشَر دليلاً تثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليس رجلَ مُلك ، ولا سياسة ، ولا زَعامة ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ؛ وليس مبتدعَ شريعةٍ من نفسه ، وإلا لما غَبَر في قومه وكأنه لم يجدْهم وهم حوله ؛ وليس صاحبَ فكرة تعملُ أساليبُ النفس في انتشارها ؛ ولو كانتَه لحملهم على مَحْضها وممزوجها ؛ وليس رجلاً متعلّقًا بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومٍ كُفْرَ يوم ؛ وليس مُصْلِحَ عشيرة يهذّب منها على قَدْر ما تقبل منه سياسةً ومخادعة ، ولا رجلَ وطنه تكون غايتُه أن يشمخَ في أرضه شُموخَ جبل فيها ، دون أن يحاولَ ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلالَ السماء على الأرض ، ولا رجلَ حاضره إذ كان واثقًا دائمًا أن معه الغدَ وآتيَه ، وإن أدبر عنه اليومُ وذاهبُه ؛ ولارجلَ طبيعته البشرية يلتمسُ لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولارجلَ شخصيته يستهوى بها ويسحر ، ولا رجلَ بطشه يغلب به ويتسلّط ، ولا رجلَ الأرض في الأرض ، ولكن رجلَ السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطرافَ الزمن ، وحصره من ثلاثَ عشرةَ سنة في مثل سنة واحدة ، لا تَصدُرُ به الأمور مَصادرَها كي تُثبتَ أنها لاتَصدر به : ولاتستحقُّ به الحقيقة لتدلَّ على أنها ليست من قوته وعمله .

وكان (صلى الله عليه وسلم) على ذلك — وهو في حدود نفسه وضيق

مكانه ـــ يتسع فى الزمن من حيث لا يـَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذى سينتصر فيه ـــ قبل أن تـُشرقَ على الدنيا بثلاثَ عشرةَ سنة ـــ مشرقةً فى قلبه (صلى الله عليه وسلم) .

والفصل من السنة لا يقدّمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سَيْر الكون كله ؛ والسحابة لا يُشْعِلون برقَها بالمصابيح ، ومع النبي من مثل ذلك برهانُ الله على رسالته ، إلى أن نزل قولـُه تعالى : « وقاتِلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين كلُّه لله » فحلَّ الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هى المقدّمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً أن يطّردَ التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خـَراجُك !

فلسفة قصة *

ماتت خديجة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) ومات عمُّه أبو طالب فى عام واحد ، فى السنة العاشرة من النبوة ، فعظُمت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمُّه هذا يمنعه من أذى قريش ، ويقوم دونه فلا يخلُصون إليه بمكروه ؛ وكان أبو طالب من قُريش كالعقيدة السياسية : هى بطبيعتها قوةٌ نافذةٌ على قوة القبيلة ؛ فمن ثَم كان هو وحده المشكِلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التى تعمل قريش جاهدةً فى حلّها ، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته ، وهم أمة تحكمهُم الكلِمة الاجتماعية التى تَسِير عنهم فى القبائل ؛ وتاريخُهم ما يقال فى الألسنة من معانى المدح والذم ، فيخشَوْن المقالةَ أكثرَ مما يخشَوْن الغارة ، وقد لا يُبالون بالقتْلَى والجرحى منهم ، ولكنهم يبالون بالكلِمات المجروحة .

فكان من لَطيف صنْع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره فى حماية نبيه (صلى الله عليه وسلم) — وضْعُ هذه القوة النفسية فى أول تاريخ النبوة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملاً لفراغهم الرُّوحى ، وتُثير فيهم الإشكال السياسىَّ الذى يعطِّلُ قانونَهم الوحشيَّ إلى أن يتمَّ عملُ الأسباب الخفية التى تكْسِر هذا القانون ؛ فإن المصنعَ الإلهىَّ لا يخْرِج أعمالَه التامة العظيمةَ إلا من أجزاءٍ دقيقة .

أما خديجة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت فى هذه المِحْنة قلباً مع قلبِه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نَعم) للكلمة الصادقة التى يقول لها كلُّ الناس (لا) ؛ وما زالت المرأة الكاملةُ المحبوبةُ هى التى تُعطِى الرجلَ مانقص من معانى الحياة ، وتَلِدُ له المسرات من عواطِفها كما تَلِدُ من أحشائها ، فالوجودُ يعملُ بها عملين عظيمين : أحدُهما زيادةُ الحياة فى الأجسام ، والآخرُ إتمامُ نقْصها فى المعانى .

* * *

وبموت أبى طالب وخديجةَ ، أفْرِدَ النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) بجسمه وقلبه ،

* أنشأها لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥ هـ .

ليتجردَ من الحالة التى يَغْلِبُ فيها الحسُّ ، إلى الحالة التى تَغلب فيها الإرادة ، ثم ليخرجَ من أيام الاستقرار فى أرضه ، إلى الأيام المتحركة به فى هجرته ؛ ثم لينتهىَ بذلك إلى غاية قوميّته الصغيرة المحدودة ، فيتصلَ من ذلك بأول عالميّتِه الكُبرى .

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلال الجلال والعظَمة ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكماله . فكانت الحسنة فيه بشهادة السيئة من قومه ؛ فحِلْمهُ بشهادة رُعُونتهم ، وأناتُه بدليل طَيْشهم ، وحكمتُه ببرهان سفَاهتِهم ؛ وبذلك ظهر الروحانىُّ روحانيًّا فى المادة .

قالوا : فنالتْ منه قريش ، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصلُون إليه فى حياةعمه ، حتى نثَرَ بعضُهم الترابَ على رأسه ، كأنما يُعلِمونه أنه أهونُ عليهم من أن يكونَ حُرًّا ، فضلاً عن أن يكونَ عزيزاً ، فضلاً عن أن يكون نبيًّا ؛ قالوا : فدخل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بيتَه والترابُ على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه الترابَ وهى تبكى !

كانت تبكى إذ لاتعلم أن هذا الترابَ على رأس النبىّ العظيم هو شُذوذُ الحياة الأرضية الدنيئة ، فى مقابَلة إنسانِها الشاذّ المنفرد. هذه القَبْضَةُ من التراب الأرضىّ قبضةٌ سفيهةٌ ، تحاولُ ردَّ الممالك الإسلاميةِ العظيمة أن تَنشأ نشأتَها وتعملَ عملَها فى التاريخ ؛ فهى فى مقدارها وسخافتِها ومحاولتِها ، كعقل قُريش حينئذ فى مقداره وسخافتِه ومحاولتِه .

أما النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) فقال لبنته : « يابنَيّة لاتبكى ، فإن الله مانعٌ أباك » . حسبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً ، فأعلَمها أن قبضةً من التراب لاتَطْمُرُ النَّجمْ ، وأن هذه الحَشْوَة الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها الخيلُ فجاءت بنتيجة ، وأن ساعةً من الحزن فى يوم ، لايُحكَمُ بها على الزمن كلّه ، وأن هذه النَّزوةَ التى تحركت الآن هى حمقُ الغباوة : قوّتُها نهايتُها .

« يا بنيَّةُ لا تبكى فإن الله مانعٌ أباك » . أى ليس للنبى كبرياء ينالُها الناسُ أو يَغُضُّون عنها فيأتى الدمعُ مترجماً عن المعنى الإنسانىّ الناقص مُثبتًا أنه ناقص ؛ إنما هى النبوّةُ : قانونُها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان ، وهى

النبوة : تجعل المختارَ لها غيرَ محدود بجسده الضعيف ، بل حدودُه الحقائقُ التى فيها قوتُها؛ فهو فى مَنَعَة الواقع الذى لابد أن يقع ،فلو أمكن أن يُحذفَ يوم من الزمن أو يؤخَّرَ عن وقته ، أمكن أن يؤخَّر النبى أو يُحذف .

« يا بنيةُ لاتبكى إن الله مانعٌ أباك » . لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبىٌّ وَسعَ التاريخَ فى نفسه الكبيرة قبل أن يُوجَدَ هذا التاريخُ فى الدنيا ؛ فكلمتُه هى الإيمانُ والثقةُ إذ يتكلم عن موجود .

ترابٌ ينثُره سفيهٌ على رأس النبى! ويحكِ يا حقَارةَ المادة؛إن ارتفاعَك لعنة ، إن ارتفاعَكِ لعنة .

* * *

قالوا : وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحده إلى الطائف ، يلتمس من ثَقيف النصرَ والمنَعةَ له من قومه ؛ فلما انتهى إلى الطائف عَمدَ إلى نفَر من ثقيف هم يومئذ سادتُهم وأشرافُهم ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته والقيام معه فى الإسلام على من خالفه من قومه ؛ فلم يفعلوا وأغرَوْا به سُفهاءهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناسُ وألجأوه إلى حائط[1] لعُتْبَةَ بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثَقيف من كان يتبعه ، فعمد (صلى الله عليه وسلم) إلى ظل حُبْلَةٍ من عِنَب فجلس فيه ، وابنا ربيعةَ ينظران إليه ويريان ما لقِى من السفهاء .

فلما اطمأنّ (صلى الله عليه وسلم) فى مجلسه قال : « اللهمّ إليكَ أشكو ضعف قوّتى ، وقلةَ حيلتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحمَ الراحمين ، أنت ربُّ المستَضْعَفِين وأنت ربىّ ، إلى من تَكِلُنى ؛ إلى بعيد يتَجهّمُنى ، أو إلى عدوٍّ ملّكتَه أمرى ؛ إن لم يكنْ بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتكَ هى أوسعُ لى . أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقَتْ له الظّلُمات،وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، من أن ينزلَ بى غضبُك ، أويحلّ عَلَىّ سخَطُك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، لاحولَ ولا قوةَ إلا بك ! »

* * *

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط .

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ التى تثبت أن قوةَ الخُلُق هى درجةٌ أرفعُ من الخلُق نفسه ؛ فهذا فنٌّ الصبر لا الصبرُ فقط ، وفنٌّ الحِلم لا الحِلمُ وحده .

قوة الخلُق هى التى تجعلُ الرجلَ العظيم ثابتًا فى مركزِ تاريخه لا متقلْقِلاً فى تواريخ الناس ، محدوداً بعظائم شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصه الفانى ، ناظراً فى الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغيِّر للمنفعة .

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلا معانىَ الظلم ، والشر ، والضعف ، تقول للنبى العظيم الذى جاء يمحوها ويُديلُ منها : إننا أشياء ثابتةٌ فى البشريَّة .

لم يكن منهم الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ ، بل كان منهم العَسْفُ ، والرّق ، والطَّيش ؛ تَسْخَر ثلاثتُها من نبى العدل ، والحرية ، والعقل ؛ فما تَسْخَرُ إلا من نفسِها .

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة ، لتُثبِتَ الصغائرُ أنها الصغائر ، ولتُثْبتَ المجدُ أنه المجد .

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتَين أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لتأكلَ وتستمتعَ وإن أهلكْت ؛ والأخرى عش لتعملَ وتنفعَ الناسَ وإن هلكْت .

كانت الأقدارُ تُبادى هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق ، لينطلقَ الواسعُ من مكانه ويستقبِلَ الدنيا التى عليه أن يُنشئها . فأولئك الأشرافُ والسفهاء والعبيد إن هم إلا الضيقُ ، والركودُ ، وذلٌّ العيش، حولَ السَّعةِ الروحيةِ ، والسموّ ، وطَهارةِ الحياة .

وقف المعنى السماويُّ بين معانى الأرض ؛ ولكنَّ نورَ الشمس ينبسطُ على التراب فلا يُعَفِّرُه التراب ، وما هو بنور يضىء أكثرَ مما هو قوةٌ تعملُ بالعناصر التى من طبيعتها أن تحوّلَ ، فى العناصر التى من شأنِها أن تتحوّل .

وكان بين النبى (صلى الله عليه وسلم) وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى، هى القدرةُ التى تعملُ بهذا النبى للعالم كلّه، وبهذه القدرة لم ينظر النبى إلى قريش وصَوْلتهم عليه إلا كما ينظر إلى شىء انقضى ،فكان الوجودُ الذى يُحيط به غيرَ موجود ، وكانت حقيقةُ الزمن الآتى تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة .

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك الدعاء البليغ الخالد ، يشكو أنه إنسانٌ فيه الضعف وقلة الحيلة ، فينطِقُ الإنسانيُّ فيه بالشَّطر الأول من الدعاء يذكر انفرادَه وَآثارَ انفراده ، ويتوجعُ لما بينه وبين إنسانية قومه ؛ ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجِّهًا إلى مصدَرِه الإلهي قائلاً أول ما يقول : إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالى .

ولعمرى لو نطقت الشمسُ تدعو الله لما خرجتْ عن هذا المعنى ولا زادت على قوله : « أعوذُ بنور وجهك » ؛ تلتمسُ من مصدر النور الأزلىّ حياطةَ وجودها الكامل .

* * *

ولقد هزءوا من قبلُ بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه : ليس نبىٌّ بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته . وبهذا رد عليهم ردَّ من انسلخَ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ،وأخذهم بالشريعةِ الأدبية لا العملية ؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفةِ ليست لكلّ قلب ولا لكل عقل ، ولكنها لمن أعدَّها ؛ وشريعته أكثرها فى التعبير وأقلُّها فى العمل، ولم تجىء بالقوة العاملة فلم يكن بدّ من أن تضَعَ الموعظةَ فى مكانِ السيف ، وأن تكونَ قائمةً على النهى أكثر مما هى قائمة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة : لا تَغْلِى بها الأرض ، وإنما عملُها أن تمهِّدَ هذه الأرضَ لفصلٍ آخر .

أما نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) فلم يُجب المستهزئين ، إذ كانت القوةُ الكامنةُ فى بلاد العرب كلِّها كامنةً فيه ، وكان صدرُه العظيمُ يحملُ للدنيا كلمةً جديدةً لاتقبلُ الدنيا أن تعاملَه عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يردَّ إردَّ الشاعر الذى يُريد من الكلمة معناها البليغَ ، ولكنه سكتَ سكوتَ المشْتَرِع الذى لايريد من الكلمة إلا عملَها حين يتكلم ؛ وكان فى سكوته كلامٌ كثيرٌ فى فلسفة الإرادة والحرية والتطور ، وأن لابد أن يتحولَ القومُ ، وأن لابد أن يتفطَّرَ هذا الشجرُ الأجرَدُ عن وَرَق جديد أخضرَ ينمو بالحياة .

لم يتسخَّط ولم يقلْ شيئًا ، وكان كالصانع الذى لايردُّ على خطأ الآلة بسخْط ولا يأس ، بل بإرسال يده فى إصلاحها .

* * *

قالوا : ورأى ابنا ربيعةَ ، عُتْبةُ وشيبة ما لقى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) من السفهاء ، فتحركتْ له رَحِمُهُمَا ، فدَعَوا غلامًا لهما نَصرانيًّا يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خذ قِطْفًا من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلُ منه . ففعل عدَّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلما وضَعَ يدَه قال : « بسم الله » ثم أكل ؛ فنظر عدَّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلدة .

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ومِن أهلِ أىِّ البلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك ؟

قال : أنا نَصرانى وأنا رجلٌ من أهل نِينَوَى . فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : من قرية الرجل الصالح يُونس بن متَّى ؟ قال : وما يدريك ما يونسُ بن متى ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : ذاك أخى : كان نبيًّا وأنا نبىّ .

فأكبَّ عدَّاس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه و رجليه .

* * *

يا عجبا لرموز القدَر فى هذه القصة !

لقد أسرع الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبلتْ تعتذرُ عن الشر والسفاهةِ والطيش ، وجاءت القُبُلاتُ بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعةَ من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلى أبى طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) من أشراف قريش يسألونه أن يكفَّه عنهم أو يُخَلِّىَ بينهم وبينه ، أو يُنازِلُوه وإياه حتى يهلكَ أحدُ الفريقين ، فانقلبت الغريزةُ الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به الدين ، لأن المستقبل الدينىَّ للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانيةُ تعانق الإسلام وتُعزِّه ، إذ الدينُ الصحيحُ من الدين

الصحيحِ كالأخ من أخيه ، غير أن نَسَبَ الإخْوة الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل .

ثم أتمَّ القدرُ رمزه فى هذه القصة ، بقِطْف العنب سائغًا عَذْبًا مملوءاً حلاوة ؛ فباسم الله كان قِطْفُ العنب رمزاً لهذا العنقود الاسلامىّ العظيم الذى امتلأ حَبًّا كل حبة فيه مملكة .

فوق الآدمية *

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقلَه ، فتعسَّرَ علىَّ وصُرِفْتُ عنه بألم شديد اعترانى ، ونالنى منه ثِقْلةٌ فى الدماغ ؛ ثم كشفَه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فإذا قلمى ينبعثُ بهذه الكلمات :

كيف يَسْتَوْطِىء المسلمون العجزَ ، وفى أول دينِهم تسخيرُ الطبيعة ؟
كيف يَسْتَمْهِدُون الراحةَ ، وفى صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟
كيف يَرْكَنُونَ إلى الجهل ، وأولُ أمرِهم آخِرُ غايات العلم ؟
كيف لايحملون النورَ للعالَم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم ؟

* * *

قصةُ الإسراء والمعراج هى من خصائص نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، هذا النجمُ الإنسانى العظيم ؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لهداية العالم فى حَيْرة ظلُماتِه النفسيَّة ؛ فإن سماء الإنسانِ تُظلِمُ وتُضىء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله (تعالى) قد خلق للعالم الأرضىِّ شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلَّبُ عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنعَ لنفسه شمسَ قلبه وغَمامَها وسحائبَها وما تسفِرُ به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمِّىَ القرآنُ نوراً لعمل آدابِه فى النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يَسْعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهِم » ، وكان أثرُالإيمان والتقوى فى تعبير القرآن الكريم أن يجعلَ الله للمؤمنين نوراً يمشُون به .

وقد حار المفسِّرون فى حكمة ذكر « الليل » فى آية « الإسراء » من قوله تعالى : « سُبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى باركْنا حولَه لنُرِيَه من آياتنا » . فإن السُّرَى فى لغة العرب لايكونُ إلا ليلا .

والحكمةُ هى الإشارةُ إلى أن القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانىِّ العظيم الذى

---

* أنشأها برأى صديقه الأستاذ محمود أبو ريه .

تحوّلَ من إنسانيته إلى نوره السماويّ فى هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبةَ أن آياتِ « المعراج » لم تجئْ إلا فى سورة : « والنَّجم » .

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليل) إشارةٌ إلى قصةِ النجم ، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها ، وتكون فى نَسَقِها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية ؛ فإذا قيل إن نجماً دار فى السماء ، أو قطعَ ما تقطعه النجومُ من المسافات التى تُعْجِزُ الحساب ، فهل فى ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شكٌ أو نظرٌ أو تردُّد ؟ وهل هو إلا من بعضِ ما يُسَبِّح الله بذكره ؟ وهل يكونُ إلا آيةً اتصلت بالآيات التى نَرَاها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأنا ما يكادُ ينقضى عجَبى من قوله تعالى : « لنُرِيَه من آياتنا » . مع أن الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة ، يُخيِّل إليك أن ليس وراءها شىء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فإنها بهذه العبارة نصٌّ على إشراف النبى (صلى الله عليه وسلم) فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواسّ مما مَرْجِعُه إلى قُدرة الله لاقدرة نفسه ؛ بخلاف مالو كانت العبارةُ : (ليرَى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه فى حُدود قوتها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها ، فيضطربُ الكلام ، ويتطرقُ إليه الاعتراض ولاتكونُ ثَمّ معجزة .

وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيتَ ، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائى من شكل إلى شكل كما ستعرفُه ، وهذه معجرة أخرى يسجدُ لها العقل ؛ فتباركَ الله مُنْزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) نَجماً إنسانيًّا فى نوره ، فلن يأتىَ هذا إلا من غَلَبَة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيتُه كانت قواه النفسيةُ مهيَّأة فى الدنيا لمثل حالتها فى الأخرى ؛ فهو فى هذه المعجزة أشبهُ بالهواء المتحرك . فقُل الآن : أيُعترَضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع فى طيَّارة . . . ؟

ومن ثَمّ كان الإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً فى ثبات قواه الروحية ، سما بها دَرجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعانى التى تُسَخِّر غيرَه من الناس ، ونشأتْ له نواميس أخلاقيةٌ غير النواميس التى تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشىء من الأشياء كانت طبائع وجوده هى نواميسه ؛ فالنارُ مثلاً إذا وهى

تضرَّمتْ أوجدت الإحراق فيما يحترق ، فإن وُضع فيها مالا يحترق أبطلَ نواميسَها وغلب عليها .

وكلُّ معجزة تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها فى إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وبهذا يقال : إنها خَرَقَتْ العادة . ومن النور نور لا يَشِفُّ له غيرُ الهواء ، ومنه أشعةُ (رونتجن) الآن تشفُّ لها الجدرانُ والحجُب ؛ فهذه معجزة فى ذاك .

* * *

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ فى إنسانه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة فى روحانيتها ، وما ينزلُ إنسانُه الظاهرُ من الإنسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يَتلقَّى ممن يُعطِى ؛ فذاك الباطنُ هو للحقائق التى لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهرُ لما يمكن أن يبلغَ إليه الكمالُ فى المَثل الإنسانىّ الأعلى ، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاع نبى من الأنبياء أن يحمِلَ همومَ أمة كاملة لا تُضْنيه ولا تغيّرُه ولا تُعجِزُه .

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود فى إنسان مختار جاءت تُصْلِح الوجودَ الإنسانىَّ به لتُقِرَّ فى هذه الحيوانية المهذَّبة مَثَلَهَا الأعلى ، بدَلالتِها على طريقها النفسىِّ مع طريقها الطبيعى ؛ فيكونُ مع الانحطاط الرقىّ ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكّمُ فى الغريزة ، ومع الظلمة الماديَّة الإشراقُ الروحانى .

وما المعجزاتُ إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانِها الظاهر ، ومَن الذى ينكر أن قُوى الوجود هى فى نفسها إعجازٌ للعقل البشرى ؟ وهل ينكر اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوة فى (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمةَ التى تُرسَلُ بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان فى مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسى وما يُبصره النائم وما يسمعُه ، وما ينكشفُ له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويمُ شيئًا إلا تسليطَ الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة ، على الذات الظاهرة المقيَّدة بحواسِّها المحدودة ، فتَطْغَى عليها ، فتُصْبِحُ الحواسُّ مطلقةً شائعةً فى الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها .

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانى بذاته الباطنة ، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ فى الاستهواء ، فينكشفُ له الوجودُ ، ويُبصرُ ما يقع على البعد ، ويرى ما هو آتٍ قبل أن يأتى ؛ وما الكونُ فى هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذى وقع فى قلبه الحب : قد آتيتُك نوراً تنظرُ به جمالى .

* * *

وفى علماء عصرنا من يفكّر فى الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب فى استحضار الأرواح وتسخيرها ؛ وكلُّ ذلك أولُ البرهان الكونىّ الذى سيُلْزِمُ العلمَ فيضطرُّه فى يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج .

ونحن قبل أن نبدىَ رأينا فى القصة نُلمُّ بها إلمامةً موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديثُ ووقع فيها تخليط كثير ، فجاءت فنونًا وأنواعا من طُرُق شتى ، حتى جمعها بعضُهم فى جزأين[1] ، وما تحتمل كلَّ ذلك ولا بعضَه ، ولكنَّ روحَ الرواية فى ذلك الزمن كانت كروح الصّحافة فى هذا العصر : متى فارتْ فَوْرَها استحدثَتْ من كل عبارة عبارةً أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرجُ من العبارتين عبارةٌ ثالثة ، فيكونُ الأصلُ معنى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينه ويساره .

ولا يرون بذلك بأسًا؛ فإنهم يَشُدُّون به الرأىَ ، ويضاعِفُون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً فى نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصلَ واستيقنوه ، فلا حرَجَ أن يؤيِّدَ القولُ بعضُه بعضًا ، باجتهاد فى عبارة ، واستنباطٍ من أخرى ، وزيادةٍ فى الثالثة مما هو بسبيلٍ منها ، على نحو ما نرى من فن الرّواية القصصية ؛ إذ تتعدد الأساليبُ والعباراتُ مختلفةً متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقةٌ واحدة لا تختلف . والقَصصُ الدينىُّ فى هذه اللغة العربية فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسه ، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب .

هذا فى متْن القصة ، أما فى واقعتِها فقد اختلفوا اختلافًا آخر : هل كان الإسراء والمعراجُ يقَظةً أو منامًا ؟ وبالروح وحدها ، أو بالروح والجسم معًا ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليلُ القاطع على أن النبى (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) قال الذهبى : إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الإسراء فى جزأين .

لم يُخبر بشيء من ذلك ، فلم يعيّن لهم وجهًا من هذه الأوجه . والحكمة فى ذلك أن عقولهم لم تكن تحتمل الإدراك العلمىّ الذى أساسه ما عُرِف اليوم من أمر الكهرباء والأثير . . .

والخلاصة التى تتأدّى من القصة : أنه (صلى الله عليه وسلم) كان مضطجعًا ، فأتاه جبريل ، فأخرجه من المسجد ، فأركبه البراق ، فأتى بيت المقدس ، ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عُرِج به إلى السموات ، فاستفتحها جبريل واحدةً واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء (صلوات الله عليهم) ، وصعد فى سماء بعد سماء إلى سِدْرة المنتهى ، فغشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى (صلى الله عليه وسلم) مظهر الجمال الأزلى ، ثم زُجّ به فى النور فأوحى الله إليه ما أوحى .

أما وَشْيُ القصة وطرازُها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التى يُرمَز بها إلى تجسيد الأعمال فى هذه الحياة : تكون تعبًا وتقع فائدة ، أو تُلتمس منفعةً وشهوةً وتقع مَضَرَّة وحماقة ، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنية التى توهّمها أصحابها ، ، وتخلد الصورُ الأبديةُ التى جاءت بها حقائقها .

ومن هذه الرموز البديعة قولُه : فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذتُ اللبن ، فقال جبريل : أخذتَ الفطرة . وأنه مرّ على قوم يزرعون ويحصُدون فى كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ماهذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تُضاعَفُ لهم الحسنةُ سبعمائة ضِعْف . ثم أتى على قوم تُرْضَخ رءوسُهم بالصخر ، كلما رُضِخت عادت كما كانت ولا يُفتَّر عنهم من ذلك شىء ؛ فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضيجٌ فى قِدر ، ولحمٌ آخرُ نىء فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ويدَعون النضيج ؛ فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأة الحلالُ الطيِّبُ فيأتى امرأةً خبيثة ، والمرأةُ تقوم من عند زوجها حلالاً طيبًا فتأتى رجلاً خبيثًا . ثم أتى على رجل قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيع حلها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لايقدر على أدائها وهو يُريد أن يَحمِل

عليها . ثم رأى نساء معلَّقات بثديهن ؛ فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتى أدخلْنَ على الرجال من ليس من أولادهم .

* * *

ونحن على الرأى الذى عليه جمهورُ العلماء : من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معًا على التأويل الذى سنبينه ؛ ويثبتُ ذلك قولُه تعالى فى سورة (والنَّجم) : « إذ يغشَى السِّدرةَ ما يغشَى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلايكون البصرُ يزيغُ ويطغى إلا فى الجسم ، ولاينتفى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله : (وما طغى) : فذلك نصٌّ على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شىء ؛ إذ لايكون طغيانُ البصر إلا من تسلّط الخيال عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصرُ بكونه مقيَّدَ الحاسة ، ولاطغى بكونه مُطْلَقَ الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبى (صلى الله عليه وسلم) ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس » . وقد خلط المفسرون فى هذا أيضًا ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » — وهى التى تكونُ منامًا — لنفى تأثير الحواس على الرائى ، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معًا ، فليس نائمًا كالنائم ، ولا مستيقظًا كالمستيقظ .

وفى أساس القصة جبريلُ والبُراق ؛ وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعية ، أو الروحُ الملائكى والروحُ الطبيعى ؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً ، إذ لا يأتى للعرب أن يفهموا ما يراد منه ؛ وعندنا أنه سُمِّىَ البُراق من البَرق ، وما البَرقُ إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه ؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعت أولَ العالم بآخره ؛ وهذه هى الحكمة فى أن آية الإسراء لم تذكُر أنه كان محمولاً على شىء ، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير .

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعية قد سُخِّرتا له (صلى اللهعليه وسلم)،

فلا معنى لأن يكونَ ذلك للروح دون الجسم ، بل اجتماعُهما معًا فى القصة دليلٌ على أن سرَّ المعجزة إنما كان فى تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحولُ فى صورة كونية ملائكية بين سرّ الملَك وسرّ الطبيعة ، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواسّ ولاأحكام المادة .

ومن الممكن أن تتحولَ الأجسام إلى حالتها الأثيرية فى بعض الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّل طَيُّ الأرض لبعض الروحانيين ، وتُعلل خَوارقُ كثيرةٌ مما يَحدُثُ فى استحضار الأرواح لهذا العهد ، ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه «هوديني» الأمريكي : إذ كانوا يغلّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقًا ؛ ويحبسونه فى السجون المحصَّنة يقوم عليها الحراس وتُمسِكُه فيها الأبواب والجدران ثم يجدونه فى بعض الفنادق .

وليس للعقل أن ينكر شيئًا من هذا ونحوه ، فإن تركيبَ الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصُه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيلُ على الأعمى هو أيسر الممكنات على المبصر .

فأنت ترى أن ذكرَ البراق والملك فى أساس قصة الإسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة ، وهو عينُه صلتها بالبرهان ؛ ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير .

* * *

والقصةُ بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرقُّ وينكشفُ ويستضىء كلما سما الإنسان بروحه ، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّب كلما نزل بها ، وهى من ناحية النبي (صلى الله عليه وسلم) قصةٌ تَصِفُه بمظهره الكونىّ فى عظَمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماوىٌّ فوق هذه الدنيا ، ليشْهَدَ ببصيرته أنوارَ الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّدَ الأعمال الإنسانية فى صورها الخالدة ؛ فيكونُ بتدبُّره القصةَ كأنما يصعَدُ إلى السماء وينزل ؛ فيستريحُ إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة ، فيدفع عن نفسه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح .

ومتى استنار القلبُ كان حيًّا فى صاحبه ، وكان حيًّا فى الوجود كلّه . ومتى سَلِمَتْ الحياةُ من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياةٌ هى الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحب .

الإنسانية العليا *

من أوصافِ النبي (صلى الله عليه وسلم) : أنه كان متواصِلَ الأحزان ، دائمَ الفكرة ، ليست له راحة ، طويلَ السَّكْت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المَهين ، يُعظِّم النعمةَ وإن دقَّت لايذمُّ منها شيئًا ، ولاتُغضبه الدنيا ولاما كان لها ، فإذا تُعُدِّىَ الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصرَ له ، ولا يغضبُ لنفسه ولاينتصرُ لها ؛ وكان خافِضَ الطَّرف ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء ، من رآه بَديهةً هَابَه ، ومن خالَطَه مَعْرفةً أحبَّه ، لايَحسبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه ، ولايَطْوى عن أحد من الناس بِشْرَه ، قد وَسع الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه ، فصارلهم أبًا ، وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ يحسِّنُ الحسَنَ ويقوِّيه ، ويقبِّح القبيح ويُوهِيه ، معتدلُ الأمر غير مختلِف ؛ وكان أشدَّ الناس حياء ، لايثبِّتُ بصَره فى وجه أحد ، له نورٌ يعلوه كأن الشمس تَجرى فى وجهه ، لايُؤْيِس راجيَه ، ولا يخيِّبُ عافيَه ، ومن سأله حاجة لم يردَّهُ إلا بها أو بمَيْسُور من القول ؛ أجودُ الناس بالخير [١] .

* * *

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التى لايجدُ الكمالُ الإنسانىُّ مذهبًا عنها ولاعن شىء منها ، ولايجدُ النقصُ البشرىُّ مَسَاغًا إليها ولا إلى شىء منها ؛ ففيها المعنى التام للإنسانية ، كما أن فيها المعنى التامَّ للحق ، ومن اجتماع هذين يكونُ فيها المعنى التامُّ للإيمان.

هى صفاتُ إنسانِها العظيم ، وقد اجتمعتْ له لتأخذَ عنه الحياةُ إنسانيتَها العالية ؛ فهى بذلك من برهانات نبوّته ورسالته .

ولو جمعتَ كلَّ أو صافه (صلى الله عليه وسلم) ، ونظمتها بعضَها إلى بعض ، واعتبرتَها بأسرارها العلمية — لرأيتَمنها كَوْنًا معنويًّا دقيقًا قائماً بهذا الإنسانِ الأعظم ، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَنه وأصولِ الحكمةِ فيه ، ولأيقنتَ

---

* انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعى .

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

أن هذا النبيَّ الكريمَ إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيّ ألَّفته الحكمةُ الإلهية بعلْم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتتخرَّجَ به الأمةُ التي تُبدعُ العالمَ إبداعاً جديداً، وتُنشئَه النشأة المحفوظةَ له في أطوار كماله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإني لأكادُ كلما تأملتها أحسبُ هذا السموَّ قضاء وقدراً بإنسانٍ على الإنسانية كلها . وهي دليلٌ على أنه الإنسانُ الذي خُلِقَ للدنيا لا لنفسه ؛ فهو لاينمو بما يكونُ على الناس من الحق ، ولكن بما يكونُ للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشَها ، فما تكونُ في الوجود إلا لتقرّرَ وجودَها هي ، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو (صلى الله عليه وسلم) إنسانٌ غُرِسَ في التاريخ غرساً ليكونَ حداً لزمنٍ وأوّلاً لزمن بعده ، وما كانت حياتُه تلك إلا طريقةَ غَرْسِه ، وهو أبداً قائم في مكانه الاجتماعي ، إذْ كان الزمنُ كلما تقدم زاد في إثباته ، وقد أصبح في الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسانٌ من الناس ، فلن يتغيرَ أو يُمْحَى إلا إذا تغير أو مُحي المشرقُ والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضَتْ به كُتُبُ الشمائل من أمثالها ، لانقرؤها أوصافاً ولاحِلْية ، بل نراها صفحةً إلهيةً مصَنَّفَةً أبدعَ تصنيف وأدقَّه ، ومن وراء تأليفها تفسيرٌ طويلٌ لايتَهدّى الفكُر البشريُّ لأحسنَ منه ولا أصحّ ولا أكمل ؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماعَ الأجزاء في المسألة الرياضية : لاينبغي أن تزيدَ أو تنقُص ، إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعُها .

ويكاد الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكونُ هو بعينه صورةً للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ؛ فإن كلَّ جزء منها موضوعٌ وَضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لاموضعَ فيها لقلَّة أو كثْرة ؛ وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي » ، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا الحديث أدركتَ من مَعْنَاتِه أن هناك طبيعةً أخلاقيةً مفردةً تَجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجبُ ما يُدهشنا من مجموع صفاته (صلى الله عليه وسلم) أن فيها دليلاً بيِّنًا على أنه مخلوقٌ خلقةً متميزةً بنفسها ، كخلقة القلب الإنساني : نظامُه حياتُه وحياتُه نظامُه ، وكأنما اعترَتْه حالةٌ نفسيةٌ كالتي تعترى القلبَ في استشعار الخطَر فتُخرجُه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاء الجسم بمَدَدٍ لا ينفَدُ من القوة والصبر . يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءةً وظهرت بغتة ؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائزُ النفس كلُّها إلى جهة واحدة كأنها مقدَّرةٌ بميزان ، مضبوطةٌ بقياس ؛ فترجِعُ على تناقُضها واختلافِها متعاونة يُؤازرُ بعضُها بعضًا ، وكان قانونُها الطبيعيُّ أن تتجاذَبَ وتتساقطَ وتفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى ، فيجيء بها الشيء وضدُّه معًا : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمودِ الساكن ، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز ؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشدُّ بعضُها بعضًا ، ويتمم النَّقيضُ منها نقيضَه ، وتجرى كلها في قانون واحد : هو الدفاعُ بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازعَ منها وإنه لمستقرٌّ في أشدَّ من القيد ، وكأن فيه غيرَ طبيعته .

وهل يُنْبئك مجموعُ صفاته (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه يعيشُ معيشةَ القلب إذا اختلف ما حوله وفجأتْه بغتَاتُ الوجود فتجاوَزَ أن يكون منبعًا للحياة إلى أن يكونَ حافظًا للحياة في منبعها ؟

وتلك الحالةُ — كما مرَّ بك — تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله ، لاوجودَ شهواته وغرائزه ؛ وكذلك عاش نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو مدةَ حياته في وجود إرادته لاغيرها ، حتى ليس عليه سبيلٌ لغميزة أو لائمة ، كأنه خلُقٌ تشُدُّه نيَّةٌ مستيقظة قد نبَّهها ما ينبِّه النفسَ من الغرَر والخطَر . ولعلَّ هذا الشعورَ في نفسه (صلى الله عليه وسلم) هو التفسيرُ لقوله : « نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله » . إلى أحاديثَ كثيرة مما يجرى في معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نيةَ المؤمن لاتنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو — ما دامت نيتُه على صلاحها وسرُّه على إخلاصه — لايَعُدُّ اليسيرَ من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصلُ القائمُ في تلك النية المؤمنة ألاّ يبدأ الشرُّ كي

لا يوجَد ، وألاَّ ينتهىَ الخيرُ كى لا يفنَى ؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخير والكمال أبداً، فى حين أن عملَه بطبيعتِه الإنسانية يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعًا ، ثم لايكونُ إلا عملاً إنسانيًّا على نقص واضطراب والتواء .

وقد لا يستطيع المؤمنُ أن يأتىَ الخيرَ فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائمًا أن ينْويَه ويرغَبَ فيه ويعْزِمَ عليه ، ليحقِّقَ ضميرَه فى كل ما يَهُمُّه به ؛ ويَحصرَ أفكارَه فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساسُ فى علم الأخلاق، لا أساسَ من دونه .

والنيةُ من بعدُ هى حارسُ العمل ؛ فكلُّ إنسان يستطيع أن يذْعِنَ وأن يأبَى ، ومن ثَم تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافَعةً من ناحية ، واستِجابةً ومُطاوَعة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلُحَتْ كانت استقلالاً تامًّا للإرادة ، وكانت مع ذلك ضبطًا لهذه الإرادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانونُ المبدإ السامى .

ثم إنه لاضابطَ لصحة العمل واستقامتِه إلا النيةُ الصحيحةُ المستقيمة ؛ فالتزويرُ والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلَصَتْ .

وهى كذلك ضابطٌ للفضائل تُوجِّه القلوبَ على اختلافها وتَفاوُتِها اتجاهًا واحداً لايختلف ؛ فيكونُ طريقُ ما بين الإنسان والإنسان ، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله .

وأشواقُ الروح بطبيعتها لاتنتهى ، فيعارضُها الجسمُ بجعل حاجاتِه غيرَ منتهية ؛ يحاول أن يَطْمِسَ بهذه على تلك ، وأن يغلِّبَ الحيوانية على الروحانية ، فإذا كانت النيةُ مستيقظةً كفَتْه وأماتت أكثر نزَعاته ، ووضعتْ لكل حاجة حدًّا ونهاية ؛ وبذلك ترجع النيةُ إلى أن تكونَ قوةً فى النفس يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مما يَحُدُّهُ من جسمه ، ليخرجَ بذلك عن كثير مما يحدُّه من معانى الأرض . . .

وهى بعدَ هذا كلِّه تحملُ الإنسانَ أن ينظرَ إلى واجبه كأنه رقيبٌ حىٌّ فى قلبه ، لايُرائيه ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَع من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيين،

ولا يُسكِتُه ما تُسَوِّلُ النفس ،ولايزالُ دائمًا يقول للإنسان فى قلبه : إن الخطأ أكبرَ الخطإ أن تنظِّمَ الحياةَ من حولك وتتركَ الفَوْضَى فى قلبك .

وجملةُ القول فى معانى النِّيَّة أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسم مُتَسَاوِقًا مع ظاهره ، فتتعاونُ الغرائزُ المختلفةُ فى النفس تعاوُنًا سهلاً طبيعيًّا مطَّرِداً ، كما تتعاونُ أعضاء الجسم على اختلافها فى اطِّرادٍ وسهولة وطبيعة .

* * *

وكلُّ صفات النبى (صلى الله عليه وسلم) — مما ذكرناه وما لم نذكره — متى اعتُبِرتْ بذلك الأصل الذى بيَّنَّاه انتظمها جميعًا ، فجاء بعضُها تمامًا على بعض فى نَسَقٍ رياضىٍّ عجيب ، وظهرت حكمةُ كلٍ منها واضحةً مكشوفة ، ورأيتها فى مجموعها تَصِف لك عُمراً هندسيًّا دقيقًا قد بلغ الغايةَ من الكمال والروعة والدقة ، لايُعَدُّ جزء منه جزءاً ، بل كلُّه أجزاؤه ، وأجزاؤه كلُّه ؛ كالوضع الهندسىِّ : إما أن يكونَ بِكُلِّه ، وإما ألا تكونَ فيه الهندسةُ كلُّها .

وليس مجموعُ تلك الصفات فى معناه إلا صنعةَ الإنسان صنعةً جديدة تُخرجُه موجوداً من ذات نفسه ، وتكْسِر القالَبَ الأرضىَّ الذى صُبَّ فيه وتُفْرِغُه فى مثل قالَب الكَوْن ، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضيِّق المنحصر فى جسمه ودَواعى جسمه ، فلا تُخضعُه المادة ، ولايُؤتى من سوء نظره لنفسه ، ولا تَغرُّه الدنيا ،ولا يُمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هى صفات المستعبَد بأهوائه لا الحُرِّ فيها ، والخاضع بنفسه لاالمستقلّ بها ، والمقبور فى إنسانيته لا الحىّ فوقَ إنسانيته ؛ ومثلُ هذا المستعبَد الخاضع المقبور لاوجودَ له إلا فى حكْم حواسِّه ، فعملُه ما يعيش به لاما يعيشُ من أجله ؛ ويتصل بكل شىء اتصالاً مبتوراً ينتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكونَ فى الإنسان الاجتماعىّ حيوانٌ ، تقابلُه الحكمةُ فى الحيوان الأليف بإنسان ، وحكمهما واحدٌ ومنطقُهما لايختلف . فلو أنك سألتَ حيوانَ الأعصاب على صاحِبه الإنسان لقال لك : هو غَلَّتى ومَزْرعتى . ولو سألتَ كلبًا عن حبّه صاحبَه ومبلغ هذا الحب فى نفسه لما زاد فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظْمة . . .

ومتى كان الإنسانُ فى حكم حواسّه لم تَعُد الأشياء عنده كما هى فى نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبتْ كما هى فى وهْمِه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة ، فلا يشعرُ المرء بائتلاف الوجود وتَعاونه ، ولكن باختلافه وتناقُضه ، فمن ثَمّ لا تكونُ أسبابُ اللذة إلا من أسباب الألم ، ويدخلُ فى كل حب بغضٌ ، وفى كل رغبةٍ طمعٌ ، وفى كل خير شرٌّ ، وفى كل صريح خبىء ، وهلمّ جرًّا ؛ إذ لابد من هذا كلِّه متى غلَب الفانى على الباقى ، ولابد من كل هذا فى تمثيل رواية الحواسّ الخادعةِ التى أساسُها التغيّر والتقلّب ، حتى لكأن النفسَ إنما تعيشُ بها فى ظاهرٍ من الحياة لا فى الحياةِ نفسها .

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شىءٍ من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهى ، ثم لاينتهى إلا ليبدأ ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تناله ، ولا يزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسيَّة ؛ ثم إذا هى نالت منالتَها سئِمتُ ، فلا يزال من ذلك مصدرٌ آخرُ لآلامها المعنوية . ولن يجىء الصحيحُ من غير الصحيح ؛ فالكون كلُّه ليس إلا كذِبًا فى النفس الكاذبةِ بحواسِّها .

ولذا كان أخصُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) راجعًا إلى خروجه من سلطان نفسه ، فلا يغضبُ لها ، ولايُطْلِقها من الدنيا فيما تذمُّه أو تمدحُه ، ولايحبُّ فيها ، ولا يُبغِضُ من أجلها ، ولا يُهاوِنُها ، ولايَستلينُ لها فى مأكلٍ ولاملبس ، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية ؛ فأفراحُها أحزانُها ، وآمالها أشواقها ، وأملاكُها أعمالها ، وحسابُها فى طبيعتها ، وحوادثُها من العقل لا من الحواس ، وعظَمتها إثباتُ ذاتِها فى غيرها ، لا إثباتُ غيرها فى ذاتها ؛ وغايتُها فى الباقى لاالزائل ، وفى الخالدِ لا الفانى . وما دام الحاضرُ متحركًا فهو طارئٌ عابر أوْشكُ أمورِ الدنيا زوالاً ، والعملُ له على مقداره فى قلّةِ لُبْثِه وهَوانِ أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لابه .

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لآخرتها ، وآخرُ النفس ما تؤدّى إليه أعمالُ هذه النيّة ؛ فليس فى إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر ؛ وبهذا يُقدَّر صمتُه وكلامُه ، وحركتُه وسكونه ، وما يأتى وما يَدَع ، وما يُحب وما يكره ، إذ كلُّ شىء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه .

وجماعُ الأمر ألاَّ يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةَ استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامةَ استفهام ، ولا علامةَ إنكار .

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبى (صلى الله عليه وسلم) باجتماعها وتساوُقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد ؛ وهى أن جميعَ خصائصه النفسية مُرْهَفَةٌ متيقظة ، وهذا مما يَنْدُرُ وقوعُه وإمكانه ؛ فإن الرجلَ من الناس ليكونُ حياً بالحياة ، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسه قد طاحَ بها الموت ، أو هى مريضةٌ وذلك أولُ الموت ؛ أو غافلة وذلك شِبْه الموت ؛ أما الحى العظيمُ فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحيُّ الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياةُ فيملأ الحياة ، ويتمدَّد السرُّ فيه ليريه حقائقَ الأشياء ويَهْدِيَه ويدلَّه ، فيكون بنفسه رؤيةً للناس وهدايةً ودلالة ؛ ومثلُ هذا يعظُم ثم يعظم حتى ليُرَى الفرقُ بينه وبين غيره كالفرق بين نور لَبِس اللحم والدم ، وبين تراب لَبِس الدمَ واللحم .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتبَ أعلاها الامتيازُ فى النبوة ، ثم تدنو إلى النبوة ؛ ثم تنزلُ إلى الامتياز فى الحكمة ؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشعر . فأكبرُ الشعراء قاطبةً كالنبيِّ فى معناه إلا أنه نبيٌّ صغير ، وإلا أنه فى حُدود قلبه .

وهذه القوى الثلاثُ هى التى أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسموِّ بها ؛ فالشاعرُ يستوحى الجمالَ إذا تألّه الجمالُ فى قلبه ، والحكيمُ يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسه ، والنبىُّ يستوحى الألوهيةَ نفسَها .

* * *

« كان (صلى الله عليه وسلم) متواصلَ الأحزان » ولكنها أحزانُ النبوّة تكسو الحياةَ فرح النفس الكبيرة ؛ وهو فرحٌ كلّه حزن وتأمل ، وفكرةٌ وخشوع ، وطهرٌ وفضيلة ؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراء بطَرب الوجود وجمال الموجودات إلاّ شىء قليلٌ من حزن النبى .

« وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة » إذ هو مكلَّفٌ أن يصنعَ الإنسانَ

الحديدَ وينقّحَ الآدميةَ فيه . وفكرةُ النبى هى معيشتُه بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لايرى أكثرَها تعيشُ فى الناس ، وهى الفردية واستقلالُها وسموُّها ؛ لأنها إطاقةُ النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تُطيقها ، فدأبُها أبداً أن تبحثَ عما تَستعبِدُ له ، أو تنسَى ذاتها فيه ، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومتى كانت النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها ، فهى تفرُّ منه إلى ما يُلهيها عنه ؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ فى امتلاء نفسِه ؛ وعالَمُهُ الداخلىُّ تسمِّيه اللغة أحيانًا : الفكرة ؛ وتسميه أحيانًا : الصمت .

« وكان (صلى الله عليه وسلم) طويل السَّكْت لا يتكلم فى غير حاجة » . ومن الصمت أنواع : فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يُحيط به ؛ ونوعٌ يغشى الإنسانَ العظيم ليكونَ علامةً على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة ؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ فى صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صَمْت الناس وكلامهم ؛ ونوع رابعٌ هو كالفصل بين أعمالِ الجسد وبين الروحِ فى ساعة أعمالها ؛ ونوع خامسٌ يكون صمتًا على دوِىٍّ تحته يشبه نومًا ساكنًا على أحلام جميلة تتحرك .

* * *

على هذا النَمَطِ يجب أن تفسَّر كلُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهى بمجموعها طابَعٌ إلهىٌّ على حياته الشريفة ، يُثبِتُ للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسانُ الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

سُموُّ الفقر *
فى المصلح الاجتماعى الأعظم

١

كان النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) على ما يصفُ التاريخُ من الفقر والقِلَّة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لايجوزُ أن يُوصفَ بالفقر ، ولا تنالُه المعانى النفسيةُ التى تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بعَرَض ، فما كانت به خَلَّة تُحْدِثُ هدمًا فى الحياة فيُرَمِّمَها المال ، ولا كان يتحركُ فى سَعْىٍ يُنْفِقُ فيه من نفسه الكبيرةِ ليجمعَ من الدنيا ، ولا كان يتقلَّب بين البعيد والقريبِ من طمَعٍ أدرك أو طمعٍ أخفق ، ولانظر لنفسه فى الحِسْبَةِ والتدبير لِتَدِرَّ معيشتُه فيَحْتَلِبَها ذهبًا أو فضة ، ولا استقرَّ فى قلبه العظيم ما يجعلُ للدينار معنى الدينار ولا للدِّرهم معنى الدرهم ؛ فإن المعنى الحىَّ لهذا المال هو إظهارُ النفس رابِيةً متجسِّمةً فى صورة تكَبَّر على قدر من السَّعَة والغنى ؛ والمعنى الحىُّ للفقر من المال هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً منزَوِية فى صورة تصغُرُ على قدرٍ من الضِّيق والعُسْرة .

إن فقرَهُ (صلى الله عليه وسلم) كان من أنه يتَّسعُ فى الكونِ لا فى المال ، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبرى التى لم يتنبَّه إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصٌّ به ومن أين تدبَّرته رأيتَه فى حقيقته معجزةً تواضعت وغيَّرت اسمَها ؛ معجزة فيها الحقائقُ النفسيَّةُ والاجتماعيةُ الكبرى ، وقد سبقتْ زمنَها بأربعةَ عَشَرَ قرنًا ، وهى اليوم تُثبت بالبرهان معنىَ قوله (صلى الله عليه وسلم) فى صفةِ نفسِه : « إنما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة » .

نحن فى عصر تكاد الفضيلةُ الإنسانيةُ فيه تَلْحَقُ بالألفاظِ التاريخية التى تدل على ما كان قديمًا . . . بل عادت كلمةً من كلمات الشعر ترادُ لتحريك النَّسيم اللّغوىّ الراكدِ فى الخيال ، كما تقول : السحابُ الأزرق ، والفجرُ الأبيض ، والشفَقُ الأحمر ، والتَّطَارِيفُ الوردِيةُ على ذَيْلِ الشمس . وأصبح

* انظر صفحتى ٢٣٥ ، ٢٤١ من حياة الرافعى .

الناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهم بأعين فيها معنىً وحشيٌّ لو لَمسَ لضَرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح .

وعَملتْ المدنية أعمالَها فلم تزد على أن أخرجت الشكلَ الشعريَّ لإنسانها الفَنِّيِّ مُتَهافِتاً تَرفاً ، ونعمةً ، وافتناناً بين ذلك من أيسر الحلال إلى الفظيع المُتَفَاحِش فى الإباحة ؛ فكأنما وضعت المدنية عقلاً فى وحْش ، فجاء وقد زاغتْ فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلتْه بالشكل الوحشيّ لإنسانها الفقير ، فكأنما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان ، فجاء وقد ضَلَّتْ فيه الطبيعةُ من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَفُ الهوى بالطبيعة ، وكان مع الثانى بالطبيعة سَرَفُ الحماقة .

وقد أصبح من تهكُّم الحياةِ بأهلِها أن يكونَ الفقيرُ فقيراً وهو يعلم أن صناعتَه فى المدنيّة عَمَلُ الغنيَ للأغنياء . . . وأن يكون الغنيُّ غنيًّا وهو يعلم أن عملَه فى المدنية هو صنعةُ الفقرِ لضميره !

وخرجتْ من هذا وذاك مسائل جديدةٌ فى فلسفة المُعَايَشَةِ الإنسانية التى يسمونها « الاجتماع » ؛ إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدُّها ونصِفُها لطال بنا القول ، وكلّها عاملةٌ على نزع الشعور العقليّ من الحياة لتظهرَ أسخفَ مما هى ، وأقبحَ ممن كانت ؛ حتى أصبحت الشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادة وتُلْقِى ليلاً على النفس ، فى حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غيرَ بثّ هذا النور العقلى فى الأشياء والمعانى لتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً ، فتصبحُ أوضحَ مما هى فى نفسها ، وأجملَ مما هى فى الطبيعة .

فى مثل هذه النزَعَات المتقاتِلَةِ التى صَعِدَتْ بالفلسفة ونزلَتْ ، وجعلتْ من العلم فى صدر الإنسانية ملء سماءٍ من الغُيوم بسوادها ورعْدها وصواعقِها ، وتركت العالَم يضجُّ ضجيجَه المزعجَ فى قلب كلّ حيّ حتى لَتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوب الناس إذاعة الأصواتِ إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثلِ هذا البلاء الماحقِ تتلفَّتُ الإنسانيةُ إلى التاريخ تسأله درسًا من الكمال الإنسانيّ القَديم تَطِبُّ منه لهذهِ الحماقات الجديدة ، ولو علمتْ لعلمتْ أن درسَ هذا العصر فى علاج مشاكِله الإنسانيةِ هو « محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، الذى لن يبلغَ أحدٌ فى

وصفه الاجتماعيّ ما بلغ هو فى قوله : « إنما أنا رحمةٌ مُهْداة » .

* * *

هذا المُصْلِحُ الاجتماعيُّ الأعظم يُلْقِي فقرهُ اليومَ درسًا على الدنيا العلمية الفلسفية ، لامن كتابٍ ولا فكر . ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلحُ من فكَّر وكتبَ ، ووعظ وخطب ، ولكنهُ الحيُّ العْظيمُ الذى تلتمسهُ الفكرة العْظيمةُ لتحيا فيه ، وتجعلَ له عُمراً ذِهْنِيًّا يكونُ مُصرَّفا على حكمها ، فيكونُ تاريخه ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرة وتاريخَها .

وما كان محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) إلاعمراً ذِهْنِيًّا مَحْضًا ، تمرُّ فيه المعانى الإلهية لتظهرَ للناس إلهيَّةً مفسَّرة . وكلُّ حياته (صلى الله عليه وسلم) دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الإنسانَ على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكَذِب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرةِ فلا تكن أنت فى الطفولة النَّزِقة ، فإن الرجلَ يَعرفُ ويُدْرك ، فهو بذلك وراء الحقيقىّ ؛ ولكنّ الطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ الدنيا إلا بعينيه ، فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشُه ونَزَقُه . وإيثارُه كلَّ عاجل وإن قلّ ، وعملُه أن تكونَ حياتهُ النفسيةُ الضئيلةُ فى مثل توثُّبِ أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعبُ بظاهره وباطنِه معًا . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياةُ هنا فلا تكن أنت هناك : أى الحياةُ فى ذاتِكَ الداخليةِ وقانونِ كمالها ، فإذا استطعتَ أن تُخْرِجَ للأرض معنًى سماويًّا من ذاتك فهذا هو الجديدُ دائمًا فى الإنسانية ، وأنت بذلك عائش فى القريبِ القريبِ من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشتَ فى دَمِك وأعصابك فهذا هو القديم دائمًا فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائشٌ فى البعيدِ البعيدِ من النفس ، وأنت به شىء أرضىّ كالحجَرِ والتراب .

هنا : أى فى الإرادة التى فيك وحدك . ولا هناك : أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفضائِلك التى لاتَدفعُك إلى طريقٍ من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقًا من طرق الهِداية والحكمة ؛ وليس

هناك ، فى أموالك وَمَعَايِشِك التى تجعلك كاللص مندفعًا إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقًا إلى نَهْبَةٍ أو سرقة . هنا ، فى الروح ، إذ تشعر الروحُ أنها موجودةٌ ، ثم تعملُ لتثبتَ أنها شاعرةٌ بوجودها ، ماضيةٌ إلى مصيرها ، منتهيةٌ بجسدها إلى الموت الإنسانى على سنَّة النفس الخالدة؛ وليس هناك فى الحِسِّ ، إذ يتعلق الحسُّ بما يتقلَّبُ على الجسم ، فهو مهتاجٌ لشعوره بوَشْكِ فَنائه فلا يحْدِثُ إلا الألم إن نال أو لم ينلْ ، وهو منته بجسمه إلى الموتِ الحيوانىِّ بين آكل ومأكول على سنَّة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياةُ هنا فلا تكن أنت هناك .

* * *

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرَّفُ أسرارَها ، لاتكونُ له حياةُ الذى يتعلقُ بظاهرها ولا أخلاقُه ولا نظرتُه ؛ هذا الأخيرُ هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهرُ المادة وخِداعُها عن الحقيقة ؛ وذلك الأولُ هو نفسُه سرٌّ من الأسرار له رَوْعَةُ السِّر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالايُطيقه الناسُ ولا يَضْبِطونه إذا تكلَّفوه ، بل يَنْخَرِقُ عليهم فيكونُ منه العجز الغَلَط ، ويحدثُ من الغلط الزَّلَل .

ونظرةُ نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا الوجوه نظرةٌ شاملة مدرِكةٌ لحقيقة اللانهاية ، فيرى بِدايةَ كل شىء مادىٍّ هى نهايتَه فى التوِّ واللحظة ، فلا وجودَ له إلا عارضًا مارًّا ، فهو فى اعتباره موجودٌ غيرُ موجود ، مبتدئٌ منته معًا ؛ وبذلك تَبطُلُ عنده الأشياء الماديةُ وتأثيرُها ، فلا تتصلُ بنفسه العاليةِ إلا من أضعف جهاتها ، ويجدُها الناسُ فى حياتهم الشجرةَ والفرعَ والثمرة ، وما لها عنده هو جِذْرٌ ولا فرع ؛ وبهذا لم يَفْتِنْه شىء ولم يتعلق به شىء .

وكانت الدنيا تطولُ الناسَ وتتقاصرُ عنه ، وكانت منقطعةَ النَّماء وهو ذاهب فى نموِّه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدمَ (عليه السلام) ؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحياةَ جديدةً خاليةً مما جمع فيها الزمنُ وأهله من طمع وشَرَه ، وجاء آدمُ ليعطِيَ الأرضَ ناسَها من صُلْبِه ، وجاء محمدٌ ليُعطِيَ الناسَ

قوانينَهم من فضائله ؛ فآدم بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتتسع ، ومحمدٌ بشخصه هو دنيا بُعثتْ لتنتظم .

وماذا يُفهَم من الفلسفةِ الأخلاقيةِ النبويةِ العظيمة ؟ يُفهم منها أن الشهواتِ خُلِقت مع الإنسان تتحكم فيه ، لينقلبَ بها إنسانًا يتحكَّم فيها ؛ وأن الإنسانَ الصحيحَ الذى لم تـُزَوِّرْه الدنيا يجب أن يكونَ ذا روح يمتدُّ فيَفيضُ عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبِحَ فى حكمِ النور وانطلاقه وحريته ، ولاينكمشُ فيحصره جسمُه فى غاياته وضروراته فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ فى حكم التراب وأسرِه وعبوديته . فالفقرُ وما إليه ، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه ، والانصرافُ عن الشهوات والرذائل — كلٌّ ذلك إن هو إلا تَراجُعُ النفسِ العالية إلى ذاتها النورانيةِ حالاً بعد حال ، وشيئًا بعد شىء ، لِتُضىء على المادة فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تقيمُ لها وزنًا . فبينما الناسُ يَروْن الأموالَ والشهواتِ مادةَ حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادةَ بحثٍ ومعرفةٍ واعتبارٍ ليس غير ؛ وبهذا تكون النفسُ العظيمةُ فى الدنيا كأستاذِ المعملِ : تدخلُ المادة إلى معمله وهى مادةٌ وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقةٌ ومعرفة ، وعلى أىّ أحوالها فهى إنما تُحَسّ ُ فى ذلك المعمل بأصابعَ علميةٍ دقيقةٍ ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكنْ فيها الذهنُ والفكر ؛ وليس لها طبيعةُ الرغبةِ والغفلة ، ولكن طبيعةُ الانتباه والتحرُّز ، وليست فى أسْرِ المادة ، ولكنْ المادةَ فى أسرها ما شاءت .

ولايسمَّى فقره (صلى الله عليه وسلم) زُهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصولَه النفسية ؛ وأكثرهم يقرأ التاريخَ النبوىَّ بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العينُ إذا ما اختلط الظلامُ ولَبِسَ الأشياء فتراءت مُجْمَلَةً لاتفصيلَ لها ، مُفْرَغةً لا تَبْيِينَ فيها ؛ وما بها من ذلك شىء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لاتَغْمُرها .

وهل الزهدُ إلا أن تطردَ الجسمَ عنكَ وهو معك ، وتنصرفَ عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخريةٌ ومُثْلَة ، وفى رأيى تشويهٌ للجسم بروحه ، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويه الروح بجسمها ؛ فليس يعلم إلا اللهُ وحده : أذاك تفسيرٌ

لإنسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسيرٌ بالتراب . . .

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يملك المالَ ويجدُه ، وكان أجودَ به من الريح المرسَلَة ، ولكنه لا يدعُه يتناسلُ عنده ، ولا يتركه ينبُتُ فى عمله ، وإنما كان عملُه ترجمةً لإحساسه الروحى ؛ فهو رسولٌ تعليميّ ، قلبُه العظيمُ فى القوانين الكثيرةِ من واجباته ، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسانية ، وأن هذا الإنسانَ مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكّرةٌ مميِّزة ، وأن الدينَ قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شىء على شيئيّته ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء ، والمادةُ فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادثُ للروح المؤمنة وتتغير معها ، فإن لم تخضع لم تُخْضِعْها ، وإن لم تتغير الروحُ بها ؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهى لا ينبغى أن يتصرَّفَ بما لا ينتهى .

ما قيمةُ العقيدةِ إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثرُ ما يصنع هذا المالُ : إما الكذبَ الصُّراحَ فى الحياة ، وإما شُبهةَ الكذب ؛ ولهذا تنزّه النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبيُّ الإنسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفةُ ليست كما نرى فى الناس : إيجاداً لحلّ مسائلِ الفرد وتعقيداً لمسائلِ غيره ، ولا توسُّعًا من ناحية وتضييقًا من الناحية الأخرى ، ولا جمعًا من هنا ومنعًا من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفةً إلى إقرار التوازنِ فى الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلافِ مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون ؛ وبهذا العقل الكونىّ السليم ترى المؤمنَ إذا عَرَضَ له الشىء من الدنيا يفْتِنُه أو يَصْرِفه عن واجبه الإنسانى — أبتْ نفسُه العظيمةُ إلا أن ترتفعَ بطبيعتها ، فإذا هو فى قانون السموّ ، وإذا المادةُ فى قانون الثقل ؛ فيرتفعُ وتتهاوَى ، ويصبح الذهبُ — وإنه ذهبٌ — وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب .

سمو الفقر
فى المصلح الاجتماعى الأعظم

٢

قالت عائشةُ (رضى الله عنها) : لم يمتلئ جوفُ النبى (صلى الله عليه وسلم) شِبَعًا قَطّ ، وإنه كان فى أهله لايسألهم طعامًا ولايتشهّاه ؛ إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِل ، وما سقَوْه شَرِب .

وقالت : ما شَبِع آلُ محمد من خبز الشعير يومين متتابِعين حتى قُبِض رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) .

وعنها : كنا آلَ محمد نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار ، إنْ هو إلا التمرُ والماء .

وقالت : ما رَفع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قَط غداء لعَشاء ، ولا عَشاء لغداء ولا اتخذ من شىء زَوجين ؛ لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : تُوفى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عندى شىءٌ يأكله ذو كَبِد ، إلا شطرُ شعير فى رَفٍّ لى .

وقالت : توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَبيتُ الليالىَ المتتابعةَ وأهلَه طاوِيًا لايجدون عَشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « واللهِ ما أمسَى فى آلِ محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعةُ أبيات ! » والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أنّ تتأسّى به أمتُه .

وعن ابن مجير قال : أصاب النبىَّ (صلى الله عليه وسلم) جُوعٌ يومًا ، فعمَدَ إلى حجر فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : « ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ فى

الدنيا ، جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَه وهو مُهينٌ لها ؛ ألا رب مُهينٍ نفسَه وهو مكْرِمٌ لها » .

وخُيِّرَ (صلى الله عليه وسلم) أن يكونَ له مثلُ « أُحُدٍ » ذهبًا فقال : « لا يارب ، أجوعُ يوما فأدعوك ، وأشبعُ يوما فأحمدك ! »

وكان يقول فى دعائه ويُكْثِر منه : « اللهم أحْيِنى مِسكينًا ، وأمِتْنى مِسكينًا ، واحشُرْنى فى زُمرة المساكين » .

* * *

هذا هو سيدُ الأمة ، يُمسكهُ فى الحياة نبيًّا عظيماً ما يُخْرِجُ غيرَه منها ذليلا محتقَراً ، وكأنما أشرق صفاءُ نفسه على تراب الأرض فردَّه أشعةَ نور ، على حين يُلقى الناسُ على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يَبْقى ترابًا بل يرجعُ ظلاما ، فكأنهم إذْ يمشون عليه يَطَئون المجهولَ بخَوْفه ورَوْعته ؛ ثم لايستمر ظلامًا بل يرجعُ آلامًا ، فكأنهم يَنْبُتون على المرض لاعلى الحياة ؛ ثم لايثبتُ آلامًا بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّبًا تكونُ منه نَزَوَاتُ الحمقِ والجنونِ فى النفس .

هؤلاء الذين تعيش أنفسُهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه ، ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناسًا دُوداً كطبع الدُّودِ لايقعُ فى شىء إلا أفسده أو قذَّره ؛ أو قومًا سُوسًا كطبع السُّوسِ لاينالُ شيئًا إلا نَخَره أو عابه ، فهم يوقِعُون الخلَلَ فى نظام أنفسهم ، فإذا هى طائشةٌ تُخيِّل لهم كأنما اختلَّت نواميسُ الدنيا ، وكأن الله قَبضَهم وبسط غيرَهم ، وشَغَلَهم وفَرَّغَ مَن عداهم ، وابتلاهم على مُسْكةِ الرزق[1] بالشهوة المسعورةِ التى لاتتحققُ ، فضربَهم بالمجاهَدة التى لاتنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بَسْطَةِ الرزق بالشجرةِ المسحورةِ التى لاتُقطَعُ منها ثمرة إلا نبت غيرُها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضِرٌ ، وأنه لم يجعلْ نفسَه فى همِّ المال ، ولاجعلته نفسُه فى هم الفقر ، وأنه لقِىَ الحياةَ حاملاً لامحمولاً ، واستقرَّ فيها هادئًا لا مضطربا — كل ذلك إنما يثبتُ للدنيا أنه خُلِقَ وبُعِثَ وعاش ليكونَ درسًا عمليًّا فى حل المشكلات الاجتماعية ،

---

(١) مسكة الرزق : ضد بسطة الرزق ، أى الضيق والسعة .

يعلّم الناسَ أنها لا تتعقّد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها، ولا تستمرّ بقوتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتها ، ولكن بجزعهم منها ؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوء أثرِهم عليها وسوء نظرهم لأنفسِهم ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التى أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَقلّلاً ، ولا فقراً وجُوعا ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تُترجمها نفسُك أو تُحسُّها ضرُورتُك ؛ بل انظر فيها واعتَبِرْها بنفسه هو (صلى الله عليه وسلم) ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيةً مُفصَّلة على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسان من قُوَى الدنيا عناصرَها الحوية ، لتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوةَ عناصرها .

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياة الوادعة ، هما ذكرُ وأنثى ؛ فأما الأولى فهى ما وصفنا وحكَيْنا ، وأما الثانيةُ فهى تَغَلْغُلُ النعمة ، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ فى المال ينمى بعضُه بعضا ، ويَنْبُتُ بعضُه على بعض ، ثم إقامةُ الحياة على الزينة ومُقَوّماتِها ، وقيامُ الزينة على الخداع وطبائعِه ، فيُقْبِلُ المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفَهُ عنها ، ويحبُّ منها ما كان ينبغى أن يباغِضَه فيها . وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ فى رجل قُوَّتُه القوةُ فهو هناك ؛ وكل ما علمتَ ورأيتَ فى أنثى قوتُها الضعفُ فهو هنا .

فالسوادُ الذى تراه فى فقره (صلى الله عليه وسلم) هو السوادُ الحىّ ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروح النَّجْمِيّةِ الساطعة ؛ وذلك التّرابُ هو التّرابُ الحىّ؛ ترابُ الزرع تحت النّضرَة والخُضرَة ؛ وتلك الحاجةُ الجسمية هى الحاجةُ الحية الدافعة إلى حرية النفس ؛ وذلك الإقلالُ من فهم اللذة هو الإقلالُ الحىُّ الذى يزيد قوةَ فهم الجمالِ فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيقُ فى حَيّزِ المتاعِ للحاسّة هو الضيقُ الحىُّ الذى يُوَسّع حَيِّزَ المتاعِ للروح . وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة، وذلك الاحتقارُ للعَرَضِ الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الخالدِ الباقى .

فليس هناك خُبزُ الشعير ، ولا الجوعُ ، ولا رهنُ الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متّزِنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفقِ والحلم والتواضع ، تخبرُ هذه

الدنيا العلميةَ الفلسفيةَ المفكّرةَ أن ذلك النبيّ العظيمَ هو الرجلُ الاجتماعيُّ التامُّ بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعِثَ لتنقيح غريزةِ تنازُع البقاء ، وكَسْرِ هذه الحيوانية ، وقَمْعِ نزَواتها ، وإماتةِ دَواعيها ، والسموِّ بخواطرها ؛ فهو بنفسه صورةُ الكمال الذى بُعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكنُ لاالممتنع ، والحقيقيُّ لاالخيالى .

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ فى ثلاثين صاعا ، ولا الفقرُ ، ولاخبزُ الشعير . كلا، كلا ، بل هناك تقريرُ أن النصرَ فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثّراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدةِ والصبر ؛ وأن التقدمَ الإنسانيَّ لايباع بيعًا ، ولا يؤخَذُ هَوْنًا ؛ بل هو انتزاعٌ من الحوادث بالأخلاق التى تتغلّب على الأزَمَات ولاتتغلب الأزَمَاتُ عليها، وأن هذا المالَ وهذه الشهوات — فى حقائق الحياةِ ومَصَائرها — ككُنوزِ الأحلام : لاتكونُ كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغَفْلةِ والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمقُ أو المخذولُ أو الضائعُ هو الذى يقطع العمرَ نائماً أبداً ليظلّ مالكًا أبداً لهذه الكنوز . . . وهو يعلم أنه لابد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئًا « ووجد اللهَ عنده فوفّاه حسابَه » .

كلا ، كلا، ليس هناك فقرٌ ولاجوعٌ وما إليهما ، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة : ينبغى أن تجدَ نفسَك ، وموضعَ نفسِك ، وإيمانَ نفسِك ، وعزّةَ نفسِك . فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسَك إلى موضعها الحق ، وأقررتَها فيه ، وحبستَها عليه ، وحَدَدتَها بالإنسانية من ناحية وبالله من الناحية المقابلة — رأيتَ إذنْ أن قيمتك الصحيحةَ فى أن تكونَ وسيلةً تُعطى وتعملُ لتُعطى ، لاغايةً تأخذُ وتعملُ لتأخذ ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنما أنت كالشجرةِ الطيبة تأخذُ ترابًا وتصنعُ حلاوة .

وما قطّ نبتتْ شجرةٌ فى مكانها لتأكلَ وتشربَ وتختزِنَ السّمادَ والتراب وتحصِّنَهما وتمنَعَهما عن غيرها ، ولو قد فعلتْ ذلك شجرةٌ لكان هلاكُها فيما تفعل ، إذ تحاولُ أن تضاعِفَ فائدتَها من قانون العالم ، فيكونُ طمعُها سريعًا فى إفسادِ الصلةِ بينهما ، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه ، ومن ثم لاتجدُ فى القانون

نظامَها ، فيُهلِكُها الذى كان يُحييها ، وتستعبدُ لحظَّ نفسها ، فيُفْقِدُها ذلك حريةَ الحياة التى كانت لها فى نفسها .

* * *

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ بكل خير على كل حال ، إن نفسَه تُنْزَعُ من بين جنبيه وهو يَحمدُ الله عزَّ وجلَّ » . فهذا هو أسمى قانون اجتماعىٍّ يمكن أن تظفرَ به الإنسانيةُ ، وما يأتى لها ذلك إلا إذا أصبحتْ تلك المعانى التى أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقرَّراً فى النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفردَ هو صورة المجتمع لاصورةُ نفسه وحدها ، وأن الناسَ كحبِّ القمح فى السُّنبلة ، ليس لجميعه إلا قانونٌ واحد ، فموضعُ كل حبة من السنبلة هو ثروتُها ، علَتْ أو سفَلَتْ ، وكثُرَ ما تأخذُه أو قلَّ ؛ وإذا كان أساسُ الحياة فى الحبة منها أن تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادة الأرض ، فتمامُ الحياة فيها أن يَغْمُرَهَا النورُ مِن حولها ، وأن يستمرَّ النورُ من حولها يغمرُها .

فالحبة من السُّنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنْزَعُ وما بها أنها نُزِعتْ ، ولكنها أدَّت ما تؤدِّى ، وانقطعتْ من قانون لتتصلَ بقانون غيره ، وما اغتنَتْ ولا افتقرتْ ؛ ولا أكثرتْ ولاأخفَّتْ بل حقَّقَت موضعها ، فإنها ما نبتتْ لتبقى ، وما نمتْ إلا لينقطعَ نماؤُها . وكذلك المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ ، الصادقُ النظرِ فى الحياة : هو أبداً فى قانونِ آخرتِه ، فهو أبداً فى عملِ ضميره .

والناسُ فى هذه الحياة كحَشْدٍ عظيم يتدفق من مَضيق بين جبلين ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُونَ إلى هذه النهاية مرُّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرِهم الوقاية ، وفى نظامِهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، ما دام هذا قانونَ جميعهم ؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم فاضطربَ فطاشَ ، هلَكَ وأهلكَ مَن حولَه ، ومن عكَسَ منهم موضعَه ونكَصَ على عقِبيه ، أهلك مَن حولَه وهلَكَ . والموتُ أشقى الموتِ هنا فى هذا المضيقِ بين الجبلين — اعتبارُ الحاضرِ حاضراً فقط ، والضجرُ منه ، وجعلُ كلّ

إنسان نفسَه غاية . والحياةُ أهنأُ الحياة – اعتبارُ الحاضر بما وراءه، والصبرُ على شدته ، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة .

* * *

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلّة والضيق ، ورهنِ الدرع عند يهودى من سيِّدِ الخَلْق وأكملِهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو(صلى الله عليه وسلم) يعلِّم الإنسانية أن الرجلَ العظيمَ النفسِ لايكون فى الحياة إلا ضيفًا نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقرِ العظيم أن خبز الشعير هو رَمزٌ من رموز الحياة على التحلّل من خُلُقِ الأثرَةِ ، والبراءةِ من هوى التَّرَف ؛ ورهنُ الدرع رمزٌ آخرُ على التخلُّص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسرةُ رمز ثالثٌ على مجاهدة الملَل الحيّ الذى يُفْسِد الحياةَ كما يُفسد بعضُ النباتِ النبات . ومجموعُ هذه الرموز رمزٌ بحاله على وجوب الإيقاظِ النفسىّ للأمة العزيزة التى تتعود أنفسَها بمقاساة الشدائد ومجاهدةِ الطباع ، لتكونَ فى كل فرد مادةُ الجيش ، وليصلُحَ هذا الجيشُ قائداً للإنسانية .

على أنه (صلى الله عليه وسلم) حثَّ على طلب اليَسَار ، والتغلُّلِ من الأعمال الشريفة بالغَلَّةِ والمال ، فقال : « إنك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء ، خيرٌ من أن تَدَعَهم عَالَةً يتكفَّفون الناس . » ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلتْ نفسُه جسمَه ، ووصفوا له من زُهدِه وعبادتِه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : « مَن يعولُه » قالوا : كلّنا نعوله . فقال : «كلّكم خير منه ! ...» إلى أحاديثَ كثيرة مرويّة ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إنْ هو إلا عملُ الحىّ .

ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحبُ شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكْدَحُ لعيشِه ، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يومًا ، فلم يقلِّبْ يدَه فى تِلادٍ من المال يرثُه ، ولم يجمعْهما على طَريف منه يُوَرِّثه – فذلك هو ما بيناه وشرحناه ، وذلك كالأمر نافذاً لارُخْصَةَ فيه ، على ألاَّ يتخذَ الغنىُّ من الفقير عبداً اجتماعيًّا لفقرِ هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواةُ النفسية لا غيرُها وإن اختلفت طبقاتُ

الاجتماع . والأكرمُ هو الأتقى لله بمعنى التقوى، والأقومُ بالواجب على معنى الواجب ، والأكفأ للإنسانية فى معانى الإنسانية .

فقرُ ذلك السيدِ الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبطُ السلطةِ الكائنةِ فى طبيعةِ التملك ، لقيام التعاونِ الإنسانىّ على أساسِه العملىّ ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بين المصالح الاقتصادية الطاغية: يمنع أن تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتَهلكَ بها ، ويُوجِبُ أن تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبي الفقيرُ العظيمُ هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى ، كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نَصرالله ُ (تعالى) رسولَه وردَّ عنه الأحزابَ وفتح عليه قُرَيْظَةَ والنَّضير(١) ، ظن أزواجُه (صلى الله عليه وسلم) أنه اختصَّ بنفائسِ اليهود وذخائرِهم ؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة : عائشة ، وحَفْصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجُوَيْرِية ؛ فقعدنَ حوله وقلن : يا رسولَ الله ، بناتُ كِسرى وقَيْصرَ فى الحَلى والحُلَل ِ، والإماء والخَوَل ، ونحن ما تراه من الفاقة والضيق ... وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهن له بتَوْسِعَة الحال ، وأن يعاملَهن بما تُعامِلُ به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلوَ عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قولهُ تعالى : « يا أيها النبىُّ قل لأزواجك : إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمتِّعْكُن وأُسرِّحْكُنَّ سراحًا جميلاً(٢) ؛ وإن كنتن تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمُحسِنات منكن أجراً عظيماً » .

قالوا : وبدأ (صلى الله عليه وسلم) بعائشة — وهى أحبُّهن إليه — فقال لها : « إنى ذاكرٌ لك أمراً ما أُحب أن تعجَلى فيه حتى تَسْتأمِرى أبوَيك » . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيكَ أستأمرُ أبوىَّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسولَه .

ثم تَتَابَعْنَ كلُّهن على ذلك ، فسمَّاهن الله « أمَّهات المؤمنين » ، تعظيماً لحقهن ، وتأكيداً لحرمتهن ، وتفضيلاً لهن على سائر النساء .

* * *

هذه هى القصة كما تُقرأ فى التاريخ وكما ظهرت فى الزمان والمكان ، فلنقرأْها نحن كما هى فى معانى الحكمة ، وكما ظهرتْ فى الإنسانية العالية ؛

---

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة .

(٢) السراح : الطلاق ، ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو — يختلف حسب السعة والإقتار .

فسنجدُ لها غَوْراً بعيداً ، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق .

وهى قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكِرتْ فى القرآن الكريم ، لتكون نصًّا تاريخيًّا قاطعًا يُدافِعُ به التاريخُ عن هذا النبىِّ العظيم فى أمرٍ من أمر العقل والغريزة ، فإن جَهَلَة المشرين فى زمننا هذا ، وكثيراً من أهل الزَّيغ والإلحاد، وطائفةً من قِصَار النظر فى التحقيق — يزعمون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) إنما استكثَر من النساء لأهواءٍ نفسية محضةٍ وشهواتٍ كالشهوات ؛ ويتَطرَّقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهةِ إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأى ؛ وكلّهم غبىٌّ جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحوٍ من قريبه ، لما كانت هذه القصةُ التى أساسُها نفىُ الزينة وتجريدُ نسائه جميعًا منها ، وتصحيحُ النيَّة بينه وبينهن على حياة لاتحيا فيها معانى المرأة ، وتحتَ جوٍّ لايكونُ أبداً جوَّ الزَّهر . . . وأمرُه من قِبَل ربِّه أن يخيِّرهنَّ جميعًا بين سرَاحِهِن فيكنَّ كالنساء ويجدنَ ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكِهن فلا يكنَّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتُها .

فالقصة نفسُها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةَ الشهوة ، ولا سياسةَ معانيها ، ولا أسلوب غضبها أو رضاها . وما ههنا تمليقٌ ، ولاإطراءٌ ، ولا نُعومةٌ ، ولا حرصٌ على لذة ، ولاتعبيرٌ بلغة الحاسة ؛ والقصةُ بعد مكشوفةٌ صريحة ليس فيها معنى ولاشبهُ معنى من حرارة القلب ، ولاأثرٌ ولابقيةُ أثرٍ من ميل النفس ، ولاحرفٌ أو صوتُ حرف من لغة الدم . وهى على منطقٍ آخرَ غير المنطق الذى تُستَمالُ به المرأة ، فلم تقتصر على نفى الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نَفَتِ الأمَلَ فى ذلك أيضًا إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن ، بقَصْر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : اللهُ فى أمره ونهيه ، والرسولُ فى شدائده ومُكابَدَتِه ، والدارُ الآخرةُ فى تكاليفها ومَكارهها . فليس هنا ظرفٌ، ولارقةٌ ، ولاعاطفةٌ ، ولا سياسةٌ لطبيعة المرأة ، ولا اعتبارٌ لمزاجها ،ولازُلْفَى لأنوثتها ؛ ثم هو تخييرُ صريحٌ بين ضدين لاتتلوَّنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معًا ،

ثم هو عامٌّ لجميع زوجاتِه لايستثنى منهن واحدةً ولا أكثر .
والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشىء من هذا ، بل يخاطبُ فى المرأة خيالَها أولَ مايخاطب ، ويُشبِعُه مبالغةً وتأكيداً ، ويُوسِعُه رجاءً وأملاً ، ويقرِّبُ له الزمنَ البعيدَ ، حتى لوكان فى أول الليل وكان الخلافُ على الوقت ، لحقَّق له أن الظهرَ بعد ساعة . . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ ؛ وهو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يتزوَّج نساءه لمتاع مما يمتِّع الخيالُ به ، فلو كان وَضْعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفنِّ الناعم فى الثوب والحِلْية والتشكُّل كما نرى فى الطبيعة الفنيَّة ، فإن الممثلةَ لاتمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظرِه وجَوِّه . . . وقد كان نساؤه (صلى الله عليه وسلم) أعرفَ به ؛ وها هو ذا ينفى الزينةَ عنهن ويخيرهن الطلاقَ إذا أصررن عليها . فهل ترى فى هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحض ؟ وهل كانت متابعَةُ الزوجات التسع إلا تسعةَ بُرهاناتٍ على هذا الكمال ؟!

وكأن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) يُلقى بهذه القصة درساً مستفيضًا فى فلسفة الخيال وسوء أثره ، على المرأة فى أنوثتها ، وعلى الرجل فى رجولته ؛ وأن ذلك تعقيدٌ فى الشهوات يقابله تعقيدٌ فى الطبع ، وكَذِبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ فى الخلُق ؛ وأنه صَرْفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانىِّ والطيش والبطَر والفراغ ، وتعويدُها عادات تُفسِد عاطفتَها ، وتُضيف إليها التصنّعَ فتُضعفُ قوتَها النفسيةَ القائمةَ على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها .

وكل محاسن المرأة هى خيالُ متخيِّل ولا حقيقةَ لشىء منها فى الطبيعة ، وإنما حقيقتُها فى العين الناظرةِ إليها ؛ فلا تكونُ امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتونِ بها ليس غير . ولو ردت الطبيعةُ على من يُشَبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقول لها : هذه محاسنُك وهذه فتنتُك وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت[1] . . .

---

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه ، وخاصة فى كتاب : (السحاب الأحمر) .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقد النظر ؛ فلا يفتن الأعمى جمالُ الصورة ولا سحرُ الشكل ولا فراهةُ المنظر ، وإنما يفتنه صوتُ المرأة ومَجَسَّتُها ورائحتُها .

فلا حقيقةَ في المرأة إلا المرأةُ نفسُها ؛ ولو أخذتْ كلُّ أنثى على حقيقتها هذه لما فسدَ رجلٌ ولا شقيت امرأة ، ولا انتظمت حياةُ كلِّ زوجين بأسبابها التي فيها . وذلك هو المثلُ المضروب في القصة .

يريد النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعلِّم أمتَه أن حَيف الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارِها ، كانت حياتُها استجابةً لجنون الرجل ، وملأتها معاني التزيُّد والتصنُّع ؛ فيُوشكُ أن ينقلَها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرُها في الحرمانِ والإيثار والصبرِ والاحتمال ، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصفات ، فيقومُ أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحةِ والتفادي والضجَرِ والتبرُّم والإلحاح والإزعاج ، ويضعفُ معنى السلْبِ الراسخِ في نفسها من أصل الفطرة ؛ فيتبدَّلُ حياؤُها ، وفي الحياء ردُّها عن أشياء ؛ ويقلُّ إخلاصُها ، وفي الإخلاص ردٌّ لها عن أشياء أخرى ؛ ويكثرُ طمعُها ، وفي قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشر .

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرجل والمرأة المتصنِّعة ؛ فإذا كثُر المتصنِّعات لا يكون من النساء مَشَاكلُ فقط ، بل تكونُ من حُلول المشاكلِ معهن مشاكلُ أخرى ...

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يجعلُ نفسَه في الزواج المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة ، فهو يريد أن تكونَ زوجاته جميعًا كنساء فقراء المسلمين ، ليكونَ منهن المثَلُ الأعلى للمرأة المؤمنةِ العاملةِ الشريفةِ التي تَبرَعُ البراعةَ كلَّها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفةِ والصراحة والقناعة ، فلا تكونُ المرأة زينةً تَطْلُبُ زينةً لتتمَّ بها في الخيال ، ولكن إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنساني لتتمَّ به في الواقع .

وهذه الزينةُ التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورةَ المكر والخداع والتعقُّد ، وكلما أسرفتْ في هذه أسرفتْ في تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمِها

سلاحٌ من أسلحة المعانى : كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لِوحْشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحيَّة التى تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأةُ نفسُها أن الزينةَ على جسمها ثرثرةٌ طويلة تقولُ وتقولُ وتمول ..

* * *

وإنما يكونُ أساسُ الكمال الإنسانى ، فى الإنسان العامل المجاهد : لايحصُرُ نفسَه فى شىء يسمَّى متاعًا أو زينة ، ولايقدّر نفسَه بما يجمع لها أو بما يجمعُ حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) هو الغايةُ فى هذا . دخل عليه مرة عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حَصير وعليه إزارُه وليس عليه غيرُه ، وإذا الحصيرُ قد أثَّر فى جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقَبْضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلَّق[1] ، فابتَدَرَتْ عيناى ، فقال : ما يُبكيكَ يا ابنَ الخطاب ؟ قال : عمر : يا نبىَّ الله ، ومالى لا أبكى وهذا الحصيرُ قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصرُ فى الثمارِ والأنهار وأنت نبىُّ الله وصفوته وهذه خزائنك[2] ؟

وجاء مرة من سفَرٍ فدخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) فرأى على بابها سِتْراً وفى يديها قُلْبَيْنِ من فضة[3] ، فرجع ؛ فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فأخبرتْه برجوع أبيها ، فسأله فى ذلك فقال (صلى الله عليه وسلم) : من أجل الستر والسِّوارين .

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر[4] ونزَعت السوارين فأرسلتْ بهما

---

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء .

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر) .

(٣) القلب (بالضم) : سوار من الفضة غير ملوى ؛ هو الذى يقال له اليوم : (الغويشة) وهو خفيف .

(٤) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشة (رضى الله عنها) فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلى به إلى آل فلان .

بلالاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وقالت : قد تصدقتُ به ، فضعْه حيث ترى . فقال لبلال : اذهبْ فبِعْه وادفعْه إلى أهلِ الصُّفّة[1] . فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم .

يا بنتَ النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضَى لك أبوك حِلية ً بدرهمين ونصف وإنَّ في المسلمين فقراء لا يملكون مثلَها .

أيُّ رجلٍ شَعْبيٍّ على الأرض كمحمدٍ (صلى الله عليه وسلم) ، فيه للأمة كلِّها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحوَّل ، وفيه الطبيعةُ التامة التي يكونُ بها الحقيقيُّ هو الحقيقي .

يا بنتَ النبي العظيم ! إن زينة ً بدرهمين ونصف ، لا تكون زينة ً في رأى الحق إذا أمكن أن تكون صَدَقة ً بدرهمين ونصف ؛ إن فيها حينئذ معنى ً غيرَ معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ؛ وفيها ماليس بضروري قد جار على ما هو الضروري ؛ وفيها خطأٌ من الكمال إن صحَّ في حساب الحلال والحرام لم يصحَّ في حساب الثواب والرحمة .

تعالَوا أيها الاشتراكيون فاعرِفوا نبيَّكم الأعظم ؛ إن مذهَبكم ما لم تُحيْيه فضائلُ الإسلام وشرائعُه — إن مذهبَكم لكالشجرة الذابلة تعلِّقون عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيط . . . كلَّ يومٍ تَحِلُّون ، وكلَّ يوم تَربُطون ، ولا ثمرة في الطبيعة .

ليست قصةُ التخيير هذه مسألة ً من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ؛ فهي صريحةٌ في أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أستاذُ الإنسانية كلِّها ؛ واجبُه أن يكونَ فضيلة ً حية في كل حياةٌ ، وأن يكونَ عزاء ً في كل فقر ، وأن يكونَ تهذيباً في كل غنى ، ومن ثَم فهو في شخصه وسيرته القانونُ الأدبي للجميع .

وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يُريد ليعلِّم الأمةَ بهذه القصة أن الجماعاتِ

---

(١) الصفة : الغرفة ، وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه .

لاتَصلحُ بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ؛ وأن الحاكم على الناس لاينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يُحس فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّط لاالخاضع ، ليكون أولُ استقلاله استقلالَ داخِله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جُرأةُ النفسِ العُظمَى فى تقريرِ حقائقها العملية .

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته (صلى الله عليه وسلم) : « أمَّهاتِ المؤمنين» بعد أن اختَرْن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة ؛ وعلماءُ التفسير يقولون : إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشىء ولافيه كبيرُ معنى ، وإنما تُشْعِرُ هذه التسميةُ بمعنى دقيق هو آيةٌ من آيات الإعجاز ؛ فإن الزوجة الكاملةَ لاتكملُ فى الحياة ولاتكملُ الحياةُ بها إلا إذا كان وصْفُها مع رجُلها كوصفِ الأم : ترى ابنَها بالقلب ومعانيه ، لابالغريزة وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذ ممكِنةُ السعادةِ لهذه الزوجة،وكلُّ شقاء محتمَلٌ بصبر ، وكلُّ جهاد فيه لذتهُ الطبيعية ، إذ يقومُ البيتُ على الحب الذى هو الحبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياة وجودَ الحىِّ نفسه لاوجودَ المادة ، وتُبْنَى النفسُ على الوفاء الطبيعىّ كوفاء الأمّ ، وذلك خُلُقٌ لايَعْسُرُ عليه فى سبيلِ حقيقته أن يتغلَّب على الدنيا وزينتِها .

وآخِرُ ما نستخرجُ من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :

بِحَسْبِ المؤمن إذا دخَلَ دارَه أن يجدَ حقيقةَ نفسِه الطيبة ، وإنلم يجد حقيقةَ كِسْرَى ولا قَيصر .

شهرٌ للثورة . . .*

فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً فى فلسفةِ الصوم وحكمتِه ؛ أما منفعتُه للجسم ، وأنه نوعٌ من الطب له ، وبابٌ من السياسة فى تدبيره ؛ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول فى ذلك ؛ وكأن أيامَ هذا الشهر المبارك إن هى إلا ثلاثون حبّةً تؤخذُ فى كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطةِ أنسجة الجسم ؛ ولكنا الآن لسنا بصَدَدٍ من هذا ، وإنما نستوحى تلك الحقيقةَ الإسلامية الكبرى التى شرّعت هذا الشرعَ لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانيةِ فيها ، كى لا تتبدّلَ النفسُ على تغيرِ الحوادث وتَبَدُّلِها ، ولكيلا تجهل الدنيا معانىَ الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معانى التمزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدّخرُ فى الألفاظ المعروفة فى كل زمنٍ ، حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمن ، فيُجلّيها لوقتها حين يَضِجُّ الزمانُ العلمىُّ فى متاهتِه وحيرته ، فيَشْغَبُ على التاريخ وأهلِه مُسْتَخِفّاً بالأديان ، ويذهبُ يتتبّعُ الحقائق ، ويستقْصِى فى فنون المعرفة ، ليستخلصَ من بينِ كفرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعياً سائغاً ، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضْبِطُها بأسرار العلم ، ويوجّهُها بالعلم إلى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قُواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقّقَ فى إنسانيةِ العالَم هذه الشَّيْئِيَّةَ المجهولةَ التى تتوهمُها المذاهبُ الاجتماعية ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ولا قارَبَها ؛ فما برحتْ سعادةُ الاجتماع كالتجربة العلمية بين يَدى علمائها : لم يحققوها ولم ييأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب الساعة فى دَوْرَتها : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا إلى حيثُ تبدأ...

* * *

يضطربُ الاشتراكيون فى أوربا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يحاول تغيير الإنسانِ بزيادةٍ ونقصٍ فى أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهُم فى الدنيا مذهبَ كُتُب

---

* كتبها فى شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ ، وانظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى .

ورسائل ؛ ولو أنهم تدبّروا حكمةَ الصوم فى الإسلام ، لرأوا هذا الشهر نظامًا عمليًا من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة : فهذا الصومُ فقرٌ إجباريّ تفرضُه الشريعةُ على الناس فرضًا ليتساوى الجميعُ فى بواطنهم ، سواء منهم مَن ملك المليونَ من الدنانير ، ومَن ملك القرشَ الواحد ، ومَن لم يملك شيئًا ؛ كما يتساوى الناسُ جميعًا فى ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التى يفرضُها الإسلامُ على كل مسلم ؛ وفى ذهاب تفاوُتهم الاجتماعى بالحجّ الذى يفرضُه على من استطاع .

فقرٌ إجباريٌّ يراد به إشعار النفسِ الإنسانيةِ بطريقة عملية واضحة كلَّ الوضوح ، أن الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكونُ على أتمها حين يتساوى الناسُ فى الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفُون بإحساس الألم الواحدِ لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

ولو حققْتَ رأيتَ الناسَ لا يختلفون فى الإنسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكامِ هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نكبةُ الإنسانية ، وهو العقلُ العمليٌّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ فى ضرورةٍ ، مدّ البطنُ مدّهُ من قوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يذرْ .

ومن ههنا يتناولُه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناسَ فيه سواءً : ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ ؛ ويُحكِم الأمر فيحولُ بين هذا البطنِ وبين المادة ، ويبالغُ فى إحكامه فيمسكُ حواشيَه العصبيةَ فى الجسم كله يمنعُها تغذيتَها ولذتَها حتى نفْثةً من دخينة[1] .

وبهذا يضعُ الإنسانيةَ كلَّها فى حالةٍ نفسيةٍ واحدة تتلبَّسُ بها النفسُ فى مشارق الأرضِ ومغاربها ، ويُطلّق فى هذه الإنسانيةِ كلِّها صوتَ الروح يُعلِّم الرحمةَ ويدعو إليها ، فيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنة هى كلُّ ما فى مذهب الاشتراكية من الحق ، وهى تلك الفكرةُ التى يكون عنها مساواةُ الغنيّ

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة ، وجمعها دخائن .

للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان والمساواة) ، يكون هدوءُ الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السَّلْبُ والإيجابُ فى هذا الاجتماع الإنسانى ؛ وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرةَ من الاشتراكية بقى هذا المذهبُ كلُّه عَبَثًا من العبث فى محاولة جعْلِ التاريخ الإنسانى تاريخًا لا طبيعةَ له .

* * *

من قواعد النفس أن الرحمةَ تنشأ عن الألم ، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعىّ العظيم فى الصوم ، إذ يبالغُ أشدَّ المبالغة، ويدقق كلَّ التدقيق ، فى منع الغذاء وشبهِ الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة ؛ فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمةِ فى النفس ، ولا طريقةَ غيرُها إلا النكباتُ والكوارث ؛ فهما طريقتان كما ترى : مُبصِرةٌ وعمياء ، وخاصةٌ وعامة ، وعلى نظامٍ وعلى فَجْأة .

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنىِّ للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانيةِ الداخليةِ سلطانُها النافذ ، وحَكَم الوازعُ النفسىُّ على المادة ؛ فيسمع الغنىُّ فى ضميره صوتَ الفقير يقول : « أعطنى » . ثم لا يسمع منه طلبًا من الرجاء ، بل طلبًا من الأمر لا مفرَّ من تلبيته والاستجابةِ لمعانيه ، كما يُواسِى المبتَلَى من كان فى مثل بلائه .

أية معجزةٍ إصلاحية أعجبُ من هذه المعجزة الإسلامية التى تقضى أن يحذَفَ من الإنسانية كلها تاريخُ البطن ثلاثين يومًا فى كل سنة ، ليحِلَّ فى محله تاريخُ النفس[1] ؟ وأنا مُستيقِنٌ أن هناك نسبةً رياضيةً هى الحكمة فى جعلِ هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثنى عشر شهراً ، وأن هذه النسبةَ متحقِّقةٌ فى أعمال النفس للجسم ، وأعمالِ الجسم للنفس ؛ كأنه الشهرُ الصّحىُّ الذى يفرضه الطبُّ فى كل سنة للراحة والاستجمام وتغييرِ المعيشة ، لإحداثِ الترميم العصبىّ فى الجسم ، ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دَوْرة الدم فى الجسم

---

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه فى شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن فى الليل ما منعوه فى النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل . . . ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده .

الإنسانى وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل فى المُحاق ؛ إذ تنتفخ العروقُ وتربو فى النصف الأول من الشهر ، كأنها فى (مَدّ) من نور القمر ما دام هذا النورُ إلى زيادة ، ثم يراجعُها (الجَزْرُ) فى النصف الثانى حتى كأن للدم إضاءةً وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً فى الأمراض العصبية ، وفى مدّ الدم وجزرِه[١] ، فهذا من أعجب الحكمة فى أن يكونَ الصيامُ شهراً قمرياً دون غيره .

وفى ترائى الهلالِ ووجوبِ الصومِ لرؤيته معنى دقيقٌ آخر ، وهو — مع إثبات رؤية الهلالِ وإعلانِها — إثباتُ الإرادة وإعلانُها ، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوى فى التنبيه الإنسانى العامّ لفروض الرحمة والإنسانية والبرّ .

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم ، وهى عملُه فى تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العمليّ ، الذى يُدرّبُ الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذّةِ حيوانيته ، مُصراً على الامتناع ، مُتَهيِّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مُزاوِلاً فى كل ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيةٍ لاكتساب الفكرة الثابتةِ ترسَخُ لا تتغيّر ولا تتحوّل ، ولا تعدو عليها عوادى الغريزة .

وإدراكُ هذه القوة من الإرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سامية ، هى فى الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، ففى هذين تَعرض الفكرةُ مارّةً مُرورَها ، ولكنها فى الإرادة تعرِض لتستقرّ وتتحقّق . فانظر فى أى قانون من القوانين ، وفى أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولتِه فكرةً نفسيّةً واحدةً بخصائصها ومُلابساتها حتى تستقرّ وترسخ وتعودَ جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمرّ برأسه مرّاً .

أليست هذه هى إتاحةَ الفرصةِ العمليةِ التى جعلوها أساساً فى تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهواتِ المرء مُذْعنَةً لفكرهِ ، منقادةً للوازع النفسىّ فيه ، مُصرَّفَةً بالحسّ الدينىّ المسيطرِ على النفس ومشاعرِها .

---

(١) قال الجاحظ فى (الحيوان) : « ولزيادة القمر حتى يصير بدراً ، أثر بين فى زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات » .

أما واللهِ لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ الأرض جميعًا ، لآلَ معناه أن يكون إجماعا من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومَحْقِ الأَثَرة والبخلِ فيه ، وطَرْحِ المسألة النفسية ليتدارسَها أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مادةَ هذا الشهر بطوله ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ امرَة إلى أعماق نفسه ومَكامنِها ، ليختبرَ في مصنع فكرِه معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهمَ في طبيعة جسمه — لا في الكتب — معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادة ، وليبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانية والمواساة والإحسان ؛ فيُحقِّق بهذه وتلك معانيَ الإخاء والحرية والمساواة .

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزمن ؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قال الزمنُ لأهله : هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي ؛ فيُقْبِلُ العالَمُ كلُّه على حالةٍ نفسيةٍ بالغةِ السموِّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتها على معالى الأمور ومكارمِ الأخلاق ، ويفهم الحياةَ على وجه آخر غيرِ وجهِها الكالح ، ويراها كأنما أجيعَتْ من طعامها اليوميِّ كما جاع هو ، وكأنما أُفْرِغَتْ من خَسائسِها وشهواتها كما فَرَغَ هو ، وكأنما أُلْزِمَتْ معانيَ التقوى كما أُلْزِمَها هو . وما أجملَ وأبدع أن تَظهَر الحياةُ في العالمَ كله — ولو يومًا واحداً — حاملةً في يدها السُّبْحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقةٌ عملية لرسوخ فكرةِ الخير والحق في النفس ؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل الماديِّ ؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانيةِ المحكومةِ في ظاهرها بالقوانين، والمحرَّرةِ من القوانينِ في باطنها — إلى قانونٍ من باطنها نفسه يُطهِّرُ مَشاعرَها ، ويسمو بإحساسها ، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيتها ، ويُهذِّب من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فُضُولها ، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءة الطفولة ، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عملِ الفكرة الثابتةِ في النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ويتصلُ بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى . والنفسُ في هذا الشهر مُحْتَبَسَةٌ في فكرة الخير وحدها ، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نَفسانيٌّ كفصول

الطبيعة فى دَوَرَانها ؛ ولَهُوَ والله أشبهُ بفصلِ الشتاء فى حلوله على الدنيا بالجوّ الذى من طبيعته السحُبُ والغَيث ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يكسبَها الصلابةَ والانكماشَ والخفّة ، ومن غايته إعدادُ الطبيعةِ للتفتّح عن جمالِ باطنِها فى الربيع الذى يتلوه .

وعجيبٌ جدًّا أن هذا الشهرَ الذى يَدّخر فيه الجسمُ من قواه المعنوية فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيّته ، ليجدَ منها عند الشدائد مَدَدَ الصبر والثبات والعزم والجلَد والخشونة — عجيبٌ جدًّا أن هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنة كفائدة ٨ ١/٣ فى المائة . . . فكأنه يسجّلُ فى أعصاب المؤمن حسابَ قوّتِه وربحه فله فى كل سنة زيادة ٨ ١/٣ من قوّته المعنوية الرّوحانية .

وسحْرُ العظائم فى هذه الدنيا إنما يكون فى الأمة التى تعرف كيف تدّخر هذه القوّة وتوفّرها لتستمدّها عند الحاجة ، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر فى دمائهم وأعصابهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى اليوم فى مخازن العَتاد والأسلحةِ والذخيرة .

* * *

كلُّ ما ذكرتُه فى هذا المقال من فلسفة الصوم ؛ فإنما استخرجتُه من هذه الآية الكريمة : « كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين مِن قَبْلِكم ، لعلّكم تَتّقُون » . وقد فهمها العلماء جميعًا على أنها معنى « التقوى » ، أما أنا فأوّلْتُها من « الاتّقاء » ؛ فبالصوم يَتّقِى المرءُ على نفسِه أن يكونَ كالحيوان الذى شريعتُه مَعِدَتُه ، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ؛ ويتّقى المجتمعُ على إنسانيّته وطبيعته مثلَ ذلك ، فلا يكون إنسانٌ مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ : يبيعه القوّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف .

وبالصوم يَتّقِى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعه وأخلاقِه ، وما خَلْفَه هو الجيلُ الذى سيرِثُ من هذه الطبّاع والأخلاق ، فيعمل بنفسه فى الحاضر ، ويعمل بالحاضر فى الآتى [1].

---

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته فى هذا التأويل الذى استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة فى سورة (يس) : « وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون... »=

وكلُّ ماشرحناه فهو اتقاءُ ضررٍ لجلْبِ منفعة ، واتقاءُ رذيلةٍ لجلب فضيلة ؛ وبهذا التأويل تتوجَّه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لاَ يأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها ؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنه شريعة اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامة ؛ يتَّقى بها الاجتماعُ شرورَ نفسه ؛ولن يتهذّبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذةِ هذا القانونُ العام الذى اسمُه الصومُ ، ومعناه « قانونُ البطن » . . . .

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان ! لو عرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِك لسَمَّاكَ : « مدرسة الثلاثين يومًا » .

= ويشير إلى هذا التأويل قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إنى صائم ،وإنى صائم ».

الجنة الوقاية يتقى بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقى شر حيوانيته وحواسه ، فقوله : « إنى صائم ، إنى صائم » ؛ أى إننى غائب عن الفحش والجهل والشر ؛ إنى فى نفسى ولست فى حيوانيتى .

ثبات الأخلاق

لو أنني سُئلتُ أن أجمل فلسفةَ الدينِ الإسلاميّ كلَّها في لفظين ، لقلتُ : إنها ثباتُ الأخلاق « ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يُوجزَ علاجَ الإنسانية كلّه فى حرفين ، لما زاد على القول : إنه ثباتُ الأخلاق . ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربيةَ ويَحصُرُوا مايُعْوِزُها فى كلمتين لقالوا : ثباتُ الأخلاق :

فليس ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعا جديداً ؛ وإنما هو يترقَّب من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسير ، ويُثبتَ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هى وسائلُ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدَّلَ فى الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ ، إذا تبدلتْ أحوالُ الحياة فصعِدَت بإنسانها أو نزلت ؛ وأن الإسلام يأبَى على كل مسلم أن يكونَ إنسانَ حالته التى هو فيها من الثروة أو العلوم ، ومن الارتفاع أو الضَّعَة ، ومن خمولِ المنزلة أو نَباهتِها ؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التى انتهى إليها الكونُ فى سموِّه وكماله ، وفى تقلُّبِه على مَنازلِه بعد أن صُفِّىَ فى شريعةٍ بعد شريعة ، وتجربة بعد تجربة ، وعلم بعد علم .

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحْوال الحياة ، فمن كان تقيًّا على الفقر والأملاق وحَرَّمه الإعسارُ فُنونَ اللذة ، ثم أيسرَ من بعدُ ؛ جاز له أن يكونَ فاجراً على الغِنى وأن يتسمَّحَ لِفُجوره على مَدّ ما يتطوَّحُ به المال ، وإن أصبح فى كل دينار من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أوفسادُها .

ومن وُلد فى بطن كُوخ ، أو على ظَهرِ الطريق ، وجب أن يبقى أرضًا إنسانية ؛ كأن الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمه وأعصابهِ إلا خَرِبةً آدميةً من غير هندسةٍ ولا نظامٍ ولا فن . . . ثم يقابله مَن وُلِدَ فى القصر أو شِبه القصر فله حكم آخر ، كأن اللهَ (سبحانَه) قد ركّب من عظمه ودمه وتكوينهِ آيةً هندسية وأعجوبةَ فنٍّ ، وطُرْفَةً تدبير ، وشيئًا مع شىء ، وطبقةً على طبقة .

ولكن الإسلام يقرر ثَبَاتَ الخلُق ويُوجبه ويُنشِئُ النفسَ عليه ، ويجعله فى حياطة المجتمع وحراسته ، لأن هناك حدوداً فى الإنسانية تتميز بحدود فى الحياة ، ولا بد من الضبط فى هذه وهذه ، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراءه تقدير ، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة ؛ وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كِفَّتَيْ ميزان شُدَّتا فى عَلاَقَة تجمعهما وتحرِّكهما معًا ، فهى بذاتها هى التى تنزلُ بالمنازل لتَدُلَّ عليه ، وتَشِيلُ بالعالى لتبين عنه ؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنيةُ هذه المدنية .

* * *

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم فى الإنسان فهى ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه ، ولن تتبدلَ السُّنَنُ الإلهيةُ التى تُوجدها وتُفنيها فهى مُصرَّفة لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادة وعملِ قانونِها فيها تكونُ أسرارُ التكوين : وفى هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحًا فى الدم .

هى الغرائز تعمل فى الإنسانية عمَلَها الإلهى ، وهى محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكونُ من تَعاديها واختلافِ بينِها ، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها ؛ ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيحُ فى معناه قانونًا إلهيًّا على قوة كقوة الكون وضبط كضبطه .

وبهذه القوة وهذا الضبطِ يستطيع الخلُق أن يحوِّلَ المادة التى تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب ، ولكنه يتحولُ معها إذا هو لانَ أو ضعُف . فهو قَدَرٌ إلا أنه فى طاعتك ، إذ هو قوةُ الفَصْل بين إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوةُ المَزْج بينهما ، كما أنه قوةُ التعديل فيهما ، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعًا ، ولولا أنه بهذه المثابةِ لعاش الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ ، إذ لن يكونَ له حينئذ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُه أو رذائلُه بمدح أو دم .

فلا عِبرة بمظْهر الحياة فى الفرد ، إذ الفردُ مقيدٌ فى ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده : فإنك ترى الغرائزَ دائبةً فى إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها ، ودائبةً كذلك فى إهلاكه فى النوع نفسِه بسُنَن أخرى ؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضًا كما ترى ؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة ، ثم تبقى الأخلاقُ التى بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها .

فالأخلاقُ على أنها فى الأفراد ، هى فى حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفراده ؛ فقِوامها بالاعتبار الاجتماعىّ لا غير .

* * *

وحين يقع الفسادُ فى المُجْتَمَع عليه من آداب الناس ، ويلتوى ما كان مستقيمًا ، وتَشْتَبِهُ العاليةُ والسافِلة ، وتُطَّرَحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعى ، ويقومُ وزنُ الحكم فى اجتماعهم على القبيح والمنكَر ، وتجرى العِبْرةُ فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرَّمات ، ولا يُعجِبُ الناسَ إلا ما يفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويَحِلُّ فى محل العادة : فهنالك لامِساكَ للخُلُقِ السليمِ على فرد ، ولا بد من تحوُّل الفرد فى حقيقته؛ إذ كان لا يجىء أبداً إلا مُتَصَدِّعًا فى كل مظاهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلومًا ، وكأنه منتقِلٌ من عالَم إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواميسِ الأول .

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفرادٌ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل فى تاريخ الإنسانية : لا يُبعَثُ أحدُهم إلا ليهَيِّجَ به الهَيْجُ فى التاريخ ، ويتطرَّقَ به الناسُ إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ . لا شريعتُه ومبادئُه وآدابه ؛ وأما الحكماءُ الناضجون فهم دائمًا فى هذه الإنسانيةِ أمكنةٌ بشريةٌ مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازِها فى أنفسهم ، فلهم فى ذاتِ أنفسهم عصْمةٌ ومَنَعَة كالجبال فى ذات الأرض .

* * *

الأخلاقُ فى رأيى هى الطريقة لتنظيم الشخصية الفَردةِ على مقتضى الواجبات العامة ، فالإصلاحُ فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات ، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه . وعندى أن للشعب ظاهراً وباطنًا ؛ فباطنُه هو الدينُ الذى يحكم الفردَ ، وظاهرُه هو القانونُ الذى يحكم الجميع ، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينىُّ المتصِلُ بالغيب مثلَه ؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ الاحتلالِ فى المَدنية الأوربية الجديدة ؛ فهى فى ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسِدٌ بها فى ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين ، ولكنه مع ذلك يبدو صالحًا منتظمًا فى ظاهره الاجتماعىّ بالقوانين وبالآداب العامة التى

تفرضُها القوانين ، فلا يبرحُ هازئًا من الأخلاق ساخراً بها ؛ لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاقًا يعتَدُّ بها إلا إذا درّتْ بها منافعُه ، وإلا فهى ضارّةٌ إذا كانت منها مَضَرّة ، وهى مؤلمة إذا حالتْ دون اللذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مطلَقٌ فى باطنه غيرُ مقيّد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان فى لغة الأهواء والنزعات ؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ فى أوربا إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها أوكاثَرهم الملحدون ، وهم اليومَ يُبْصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى فى طوائفَ منهم قد خَرِبَتْ أنفسهُم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذى أومأنا إليه ، فإذا أعصابُهم بعدَ الحرب ما تزال محاربةً مقاتِلةً ترمى فى كل شىء برُوح الدم والأشلاء والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاقٍ .

وقديمًا حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوّخوا الأمم ؛ فأثبتوا فى كل أرضٍ هُدَىٰ دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسِهم فى الحرب ما هو من ورائها فى السِّلم ؛ وذلك بثباتِ باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفُّه الحياةُ بنزَقِها ، ولا تَتَسفّهُهُ المدنيّاتُ فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكل ما قَذَفَتْ به الدنيا ، لبقيتْ لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كلَّ مسلم فإنما هو وعقليتُه فى سلطانِ باطنه الثابتِ القارِّ على حدود بينة مُحصَّلة مقسومة ، تحوطُها وتُمسكها أعمالُ الإيمان التى أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفَرْضها على النفوس منوّعةً مكررةً : كالصلاة والصوم والزكاة ، ليمنعَ بها تغيراً ويُحدِثَ بها تغيراً آخر ، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة[1].

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فإذا جُنَّ الموجُ فلن يَضيرَه ما بقى الساحلُ ركينًا هادئًا مشدُوداً بأعْضَادِه فى طبقات الأرض . أما إذا ماجَ

---

(١) فصلنا هذا المعنى فى كثير من مقالاتنا : كمقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم) وغيرها .

الساحل . . . فذلك أسلوبٌ آخرُ غير أسلوبِ البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكونَ إلا خَسْفًا بالأرض والماء وما يتصلُ بهما .

* * *

فى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ فى الإنسان قانونٌ مثلُه لا بد منه لضبط معانى الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُّ فروض الدين الإسلامىّ وواجباته وآدابه ، إنْ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله ؛ فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخَلْق الحسِّ الأدبى ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله فى ناموس طبيعىٍّ بإجرائه فى الأنفُس مَجرى العادة ، وجعلهِ بكل ذلك قوةً فى باطنها ، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضًا دينيَّةً ؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكون أوامرَ وهى حقائق[1] .

ومن ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدينتَهم فيها — وهى بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصفَّاةَ التى يَنْشُدونها فى إنسانيتهم الراهنةِ ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشِئْ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا ، فليس حقًّا علينا أن نأخذَ سيئاتِها فى حسناتها ، وحماقَتها فى حكمتها ، وتزويرَها فى حقيقتها ؛ وأن نُسيغَ منها الحلوةَ والمرَّة ، والناضجة والفجَّة ؛ وإنما نحن نُحَصِّلها ونقتبسها ونَرتَجعُ منها الرَّجْعَةَ الحسنةَ ؛ فلا نأخذُ إلا الشىء الصالح مكانَ الشىء قد كان دونه عندنا ونَدَعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا نَدَعُ إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة فى أدياننا وآدابنا ؛ ولسنا مثلَهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم ، بَيْدَ أن العجبَ الذى ما يفرغُ عجبى منه ، أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلا

(١) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامى كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة . . . !

هدمَ تلك الضوابط التي هي كلُّ ما نمتازُ به ، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجَهلاً أولى وأحق .

أقول ولا أبالى : إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا ، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه : فَصَنَعتْهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليد مَحْضٍ ومُتابَعةٍ مُسْتعبَدَة ، وأصبح عقلُهم — بحكم العادة والطبيعة — إذا فكَّر انجذب إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليه ولا يتحولُ عنه . وإذا صح أن أعمالنا هى التى تَعملُنا — كما يقول بعضُ الحكماء — فهم بذلك خَطرٌ أيُّ خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، ويُوشكُ إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعُون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر . . .

* * *

إن أوربا ومدنيتَها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقق فينا من اتساع الذاتيةِ بعلومها وفنونها ، فإنما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوّتنا فى النزاع العالمىِّ بكل مظاهره أيّها كان ؛ ولها وحدَها ، وباعتبارٍ منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونُهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نتركَ التثبتَ فى هذا ولا أن نتسامَحَ فى دقةِ المحاسَبة عليه .

فالمحافظةُ على الضوابط الإنسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا ، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثةِ فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ، ثم تنسيقُ مظهرِ الأمة على مقتضى هذه الواجباتِ والضوابط ، ثم العملُ على اتحادِ المشاعر وتمازُجِها لتقويم هذا المظهر الشعبىّ فى جملته بتقويم أجزائه — هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق .

والإلحادُ والنزَعاتُ السافلة وتخانيثُ المدنية الأوربية التى لا عملَ لها إلاَ أن تُظْهِرَ الخَطرَ فى أجمل أشكاله . . . . ، ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى ، ثم التدليسُ على الأمة

بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمِرين لمحْقِ الأخلاقِ الشعبية القوية وما اتصل بذلك ، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلها — تلك هى المَعاوِلُ الأربعةُ التى لا يَتهدم غيرُها بناءَ الشرق .

فليكن دائمًا شعارُنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقُنا قبل مدنيتهم .

قلت لنفسى . . .
وقالت لى . . .[١]

قلتُ لنفسى : ويحكِ يا نفسُ ! مالى أتحامَلُ عليكِ ؛ فإذا وفَيْتِ بما فى وُسْعِكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلَّفتُكِ أن تَسْعِى ؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه ، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن ؛ وما أنفكُّ أجْهَدُكِ كلَّما راجعَكِ النشاط ، وأُضنيكِ كلما ثابَتَ القوّة ؛ فإن تكن لك همومٌ فأنا أكبَرُها ، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرها مما أجلِبُ عليك .

أنت يانفسُ سائرةٌ على النَّهْج ، وأنا أعتَسِفُ بكِ أُريد الطيرانَ لا السَّير ، وأبتغى عملَ الأعمار فى عُمْر ، وَأستَحِثُّكِ من كل هَجْعَةِ راحة بفجرِ تعبٍ جديد ، وكأنى لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُه بعضًا ، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليك من ظلام بنور ومن نورٍ بظلامٍ ؛ ليُهَيِّئَ لك القوّةَ التى تمتدُّ بك فى التاريخ من بَعدُ ، فتذهبين حين تذهبين ويعيشُ قلبُكِ فى العالَم ساريًا بكلماتِ أفراحِه وأحزانِه .

وقالتْ لى النفس : أمَّا أنا فإنى معكَ دأبًا كالحبيبة الوفيَّةِ لمن تُحبُّهُ : ترى خضوعَها أحيانًا هو أحسنَ المقاوَمة ؛ وأما أنتَ فإذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعب فكيف تُرينى أنك تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدَّم ؟

ليستْ دُنياكَ يا صاحبى ما تجدُه من غيرك ، بل ما تُوجِده بنفسك ؛ فإن لم تَزِدْ شيئًا على الدنيا كنتَ أنتَ زائدًا على الدنيا ؛ وإن لم تَدَعْها أحسنَ مما وجدْتَها فقد وجدْتَها وما وَجَدَتْكَ ؛ وفى نفسكَ أولُ حدود دُنياكَ وآخرُ حدودها . وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتًا صغيرًا ، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُلَمْلَمَةِ[٢] ، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارَّةٌ بأكملها ، وإذا المرءُ امتدَّ فى الدنيا فكان هو الدنيا .

---

(١) كتبت فى ساعة ضجر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه هو وجود العالم كله وحده : ذاك فى وجود نفسه خاصة ، والآخر فى وجود الطبيعة كلها .

(٢) أى الصغيرة تقوم بالدور القليلة المجتمعة .

والقوّةُ يا صاحبي تَغتذى بالتَعب والمُعَاناة ؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جسمك ، ألفَيْتَه غداً فى جسمك قوةً من قُوَى اللحم والدم . وساعةُ الراحة بعد أيام من التعب ، هى فى لذّتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبهَ الحيَّ فى هذه الدنيا ووَشْكِ انقطاعه منها ، بمَنْ خُلِق ليعيشَ ثلاثةَ أيامٍ معدودةً عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها ؛ أفتَراه يَغْفُل فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام ، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوبًا من لَهْوِهِ ولعبِهِ ومُجونِه ، إلا إذا كان أحمقَ أحمقَ إلى نهاية الحُمْق ؟

اتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي ، ففي الناسِ تَعَبٌ مخلوقٌ من عمله، فهو لَيِّنٌ هيِّنٌ مُسَوًّى تسويةً ؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبَّارٌ متمرد له القَهرُ والغَلَبة . وأنتَ إنما تكدُّ لتسموَ بروحِك إلى همومِ الحقيقة العالية ، وتسموَ بجسمك إلى مشقات الرُّوح العظيمة ؛ لذلك يا صاحبي ليس تعبًا فى حفْرِ الأرض ، ولكنه تعبٌ فى حَفر الكنز .

اتعبْ يا صاحبي تعبَكَ ؛ فإن عَناء الروح هو عُمْرُها ؛ فأعمالُك عُمْرُك الرُّوحانيُّ ، كعُمر الجسم للجسم ؛ وأحدُ هذين عُمْرُ ما يعيش ، والآخر عُمْرُ ما سيعيش .

* * *

قلتُ لنفسي : فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء . وإن عَمَلَ التغيير فى الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلما بُنيتْ، ثم بِناؤُها كلما هُدِمتْ ؛ فما من شيء إلا هو قائم فى الساعة الواحدةِ بصورتين معًا ؛ وكم من صديق خلطْتُه بالنفْس يذهبُ فيها ذَهابَ الماء فى الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ ، أو عَهْدٌ كاليوم ، رأيتُ فى مكانه إنسانًا خياليًّا كمسأَلة من مسائل النُّحاة فيها قَولان . . . ! فهو يَحتمل فى وقتٍ واحد تأويلَ ما أظنُّ به من خير ، وما أتوقَّع به من شرّ ! وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَس فى خاطرى قلتُ : آه ، هذا الذى كان . . . !

أمَا واللهِ إن ثيابَ الناس لَتجعلُهم أكثرَ تشابُهًا فى رأى النفس ، مما تجعلهم وجوهُهم التى لا تختلف فى رأى العين : وإنى لأرى العالَم أحيانًا كالقِطار السريع منطلِقًا برَكْبِه وليس فيه مَن يقوده، وأرى الغفلَة المُفْرِطةَ

قد بلغت من هذا الناس مبلغَ من يظن أنه حيٌّ فى الحياة كالموظَّف تحت التجربة، فإذا قضى المدةَ قيلَ له : ابدأ من الآن . كأنه إذا عاش يتعلَّم الخيرَ والشرَّ ، ويدركُ ما يَصْلُح وما لا يصلح ، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة — رَجَعَ من بعدها يعيش منتظمًا على استواء واستقامة ، وفى إدراكٍ وتمييز . مع أن الخرافةَ نفسَها لم تَقبل قطّ أن يُعَدَّ منها فى أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحانَ أجَلُه فأصبحوا لم يجدوه ميتًا فى فراشه ؛ بل وجدوه مولوداً فى فراشه ...!

وقالتْ لى النفسُ : وأنت ما شأنُكَ بالناس والعالَم ؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقولَ : « إن الطريقَ مظلم » . إنما قولُه إذا أراد كلامًا أن يقولُ : « هأنذا مُضىء » .

والحكيم لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَل ، كما أنه لا يَسْتَخِفُّ ولا يَطيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ فى كَذِب الوهم ؛ فإن هذا كلّه أثرُ الحياةِ البهيميَّة فى هذه البهيمة الإنسانية ، لا أثرُ الروح القويَّةِ فى إنسانها . والحيوانُ هو الذى يجوعُ ويشبع لا النفسُ . وبين كل شيئين مما يَعْتَوِرُ الحيوانيةَ — كالخلوِّ والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قُوَى الحيوان أشياءَها الكثيرة التى تتسلَّط بها على النفس ، لتَحُطَّها من مرتبة إلى أن تجعلَها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أولُ الحكمة ضَبطَ الأدوات الحيوانية فى الجسم ، كما توضَع اليدُ العاملةُ على مفاتيح القِطار المنطلِق يَتَسَعَّر مِرجلُه ويغلى .

اعملْ يا صاحِبى عملَكَ ؛ فإذا رأيت فى العاملين من يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه ، بل خذ اطمئنانَه إلى اطمئنانك ، ودَعه يخلو وتَضاعَفْ أنت .

إنه ليُوشِكُ أن يكونَ فى الناس ناسٌ (كالبُنوك) ؛ هذه مُسْتَوْدَعات للمال تحفظه وتُخرِج منه وتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ للفضائل تحفظها وتخرج منها وتَزيدها . وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال ، هو إطلاقُ النكبةِ مُسَدَّسَها على رجل تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبير على مدينةٍ تُدَمرها .

* * *

قلت لنفسى : فما أشدَّ الألَمَ فى تحويل هذا الجسد إلى شِبْهِ رُوحٍ مع

الروح ! تلك هى المعجزةُ التى لا توجَد فى غير الأنبياء ، ولكنَّ العملَ لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوسُ محبوسةٌ فيه قوّتُه وطباعُه ؛ فإن زال الوجودُ الحديدىُّ من حوله أو وَهَنَت ناحيةٌ منه ، انطلق الوحش . والرجل الفاضلُ فاضلٌ ما دام فى قفَصه الفكرىّ ، وهو ما دام فى هذا القفص فعليه أن يكونَ دائمًا نَموذَجًا معروضًا للتنقيح الممكن فى النفس الإنسانية : تُصيبُه السيئةُ من الناس لتختبرَ فيه الحسنة ، وتباوه الخيانةُ لتجدَ الوفاء ، ويَكرُثُه البُغضُ ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنةُ لتجدَ المغفِرة ؛ وله قلب لا يَتعبُ فيبلغُ منزلةً إلا ابتدأ التعبَ ليبلغ منزلةً أعلى منها ، وله فكر كلَّما جَهَد فأدركَ حقيقةً كانت الحقيقةُ أن يَجهد فيدركَ غيرها .

وقالت لى النفْس : إن مَن فاق الناسَ بنفسه الكبيرة كانت عظَمتُه فى أن يفوقَ نفسَه الكبيرة ؛ إن الشىء النهائىَّ لا يُوجَد إلا فى الصغائر والشرّ ، أما الخيرُ والكمالُ وعظائمُ النفس والجمالُ الأسْنَى ، فهذه حقائقُ أزليّة وُجدَتْ لنفسها : كالهواء يتنفّسه كُلُّ الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى ، ولا يُعْرَفُ أين ينتهى ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض ، يُشْبِه أن تكون تلك الصفاتُ منبعثةً إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبرُ الناس حظًّا منها هم الأنبياء المتّصلين بتلك الأنوار .

ومن رحمة الله أن جعل فى كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرةَ الخير والكمال وعظائم النفس والجمالِ الأسْنَى ، وقد تَعظمُ فيه هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها ، وقد تَصغرُ فيه بعضُها أو كلها : ألاَ وهو الحبّ .

لا بدَّ أن تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانية فى نوع من أنواع الحب ؛ من رقّة النفسِ ورحمتِها ، إلى هوى النفس وعشقِها .

وإذا بلغ الحبُّ أن يكون عشقًا ، وَضَع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتَح للعظائم والمعجزاتِ أبوابَها ؛ حتى إنه ليجعلُ الخرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة ، ويملأ الحياةَ بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سرُّ هذا الحبِّ لا ينتهى ؛ إذ هو سرٌّ لا يُدْرَك ولا يُعرف .

اجْهدْ جهدَكَ يا صاحبى ، فما هو قفَصُك الفكرىُّ ذلك الشعاعُ الذى

يحبسك ، ولكنه صَقْلُ النفسِ لتتلقى الأنوار ، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غير ظاهرِ الحجَر لتكونَ به مرآة .

* * *

قلتُ لنفسي : فما أشدّه مضَضًا أُعانيه ! إن أمرى ليذهب فُرُطًا[1]. أكلما ابتغيتُ من الحياة مرحًا أطربُ له وأهتزّ ، جاءتنى الحياةُ بفكرة أستكِدُّ فيها وأدأب ؟ أهذا السرورُ الذى لا يزال يقعُ بين الناس هو الذى لا يكاد يقع لى ؟ وهل أنا شجرةٌ فى مَغْرسها : تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها ، غير أنها لا تبرحُ مكانها ؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته : لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعَه معانى العظَمةِ التى نُصب لها ؟

قالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب فى كونكَ الصغيرِ ما ليس فيه ؛ إن الناسَ لو ارتفعوا إلى السماء وتقلّبوا فيها كما يَسيحُ أهلُ قارّةٍ من الأرض فى قارّةٍ غيرها ، وابتغَوْا أن يحملوا معهم مما هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها ؛ فأنت سائحٌ فى سماوات .

أنت كالنائم : له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئًا مما يرى إلا وَصْفَه ، وحكمتَه ، والسرورَ بما التذّ منه ، والألَمَ بما توجّع له .

لن تكونَ فى الأرض شجرةٌ بِرِجْلين تذهبُ هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارَها يتناقلُها الناس ، وهى تُبدِع الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقرىّ ما يؤلفه بأشدّ الكدّ وأعظمِ الجهْد ، مُطْلِقَةً ضميرَها فى الفكرة الصغيرة ، تَعقِدُها شيئًا شيئًا ، ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كلّ وقت تعود عليها حتى تستفرغَ أقصى القوة ؛ ثم يكونُ سرورها فى أن تَهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ .

إن فى الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ؛ فالحياةُ فيها على حقيقتها ، وأكثرُ ما تكون الحياةُ فى الإنسان على مَجازِها ؛ وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين ؛ ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقَرّ فيه سرًّا من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرةَ التى تَصنعُ ثمارَها — فقد غَرسه شجرةً فى مَنْبتها لا مفرّ ولا مَنْدوحه ، وقد يُخَيِّلُ له ضعفُ طبيعته البشرية أحيانًا أن نَضرةَ المجد التى تعلوه وتتألّقُ حوله كشعاع الكوكب ، هى تَعبُهُ وضجَره ، أو أثرُ

(١) أى مجاوزاً فيه عن الحد .

انخذالِه وألمِه ومسكَنته ؛ وهذا من شقاء العقل ؛ فإنه دائمًا يضيف شيئًا إلى شيء ، ويخْلِط معنًى بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ما هي ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ؛ والعقلُ لا يرى أمامه إلا الإلهية ، فهو يقلدها في مُداخَلَة الأشياء بعضِها في بعض ، لإيجاد الأسرار بعضِها من بعض .

ومن ثَمَّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعاةً للملَل العقليّ في الإنسان ، لا يكادُ يُقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئًا إلا ليطمعَ في غيره ، وما فاز بلذّة إلا ليزهَدَ فيها ، وأجَلُ ما أحبَّه الإنسان أن يناله ، فإذا ناله وقع فيه معنى موته ، وبَدَأ في النفس عُمراً آخرَ من حالة أخرى ، أو مات ولم يَبْدَأ ؛ فلا بدّ لهذا الإنسانِ مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ ، فإن هو لم يجد خطأ في شيء ائْتَفَكَ لنفسه (١) الخطأ المضحكَ في شِبه روايةٍ خيالية .

إنه لشِعر سخيف بالغُ السخافة أن يُتَخَيَّل الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سمكةٍ رآها . . . ولكنّ هذا من أبلغ البلاغةِ عند العقل الذي يبحث عن وهم يضيفُه إلى هذه الحقيقة ليضحكَ منها ، كما يبحث لنفسه أحيانًا في أجمل حقائقِ اللذة عن ألم يتألم به ليَعْبَس فيه !

* * *

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أُحرِقَ دمي لأني أفكِّر ، وهل أظلُّ دائمًا بهذا التفكير كالذي ينظر في وجهِ حسناءَ بمنظار مكبر : لا يريه ذلك الوجهَ المعشوقَ إلا ثُقوبًا وتخريمًا كأنه خشبةٌ نُزِعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلا ليفقدَ ذلك الجمال ؟ وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارْتَصَد له من عمل يحيا به ؛ فلا يكون الحوذيُّ حُوذيًّا إلا لشَبَهٍ بين نفسِه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لي النفس : إن فأسَ الحطَّاب لا تكونُ من أداة الطبيب ؛ فخذ لكل شيء أداتَه ، وكن جاهلاً أحيانًا ، ولكن مثلَ الجهل الذي يَصْنَع لوجهِ الطفل بشاشتَه الدائمة ؛ فهذا الجهلُ هو أكبر علمِ الشعور الدقيق المرهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمًّا وكمَداً ، ولكانوا في هذا الوجود ، على

(١) كذب واخترع ، ومنه حديث الإفك .

هذه الأرض ، بين هذه الحقائق – كالذى قُيِّد وحُبِس فى رهَجٍ تُثيره القدم والخُفُّ والحافر : لا يتنفَّس إلا الغبارَ يُثار من حوله إلى أن يُقْضَى عليه .

اجهلْ جهلَك يا صاحبى فى هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العالمُ الخبيثُ الذى يفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لروحك الطّفلةِ فى ملائكيّتها حين تُساورُك الشهوات : هذا ليس لى ؛ هذا لا ينبغى لى .

إن الروحَ الكبيرةَ هى فى حقيقتها الطفلُ الملائكىّ .

وعِلمُ خسائس الحياة يجعلُ للإنسان فى كل خسيسة نفساً تتعلقُ بها ، فيكونُ المسكينُ بين نفسين وثلاث وأربع ، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازَعْنَه ، فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويُصبحُ بعضُه بلاءً على بعض ، وتَشْغَلُه الفُضُول ، فيعودُ لها كالمزْبَلة لما أُلقِيَ فيها ، ويُمْحَقُ فى نفسه الطبيعيةِ حسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمْحَق فى المزبلة معنى النظافة ومعنى الحسِّ بها .

هذه الأنفسُ الخياليةُ فى هذا الإنسان المنكود ، هى الأرواحُ التى يَنْفُخُها فى مصائبه ، فتجعلُها مصائبَ حيّةً تعيشُ فى وجوده وتعملُ فيه أعمالَها ؛ ولولاها لماتت فى نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائبُ كثيرة .

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كله فى سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطرب ؛ وانظر بالعقل العالمِ ، فلن ترى فى الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء .

ومَدَى الروحِ جمال الكونِ كلّه ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر ، أو عظْمة من حيوان ، أو نَسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من معدن ، وما أشبهها .

اجْهلْ جهلك يا صاحبى ، فى كل حُسْنٍ غزَلٌ ؛ بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع ، وإلاّ أصبَتَ فى كل حسنٍ همّاً ومَشْغَلة . . . !

* * *

قلتُ لنفسى : إلى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذى كتمتهُ عنكِ .

وقالت لى النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذى كتمتَه عنى . . .

الانتحار *

١

حَدَّثَ المُسَيَّبُ بن رافع الكوفيُّ قال : بينا أنا يوما في مسجد الكوفة ، ومعي سعيدُ بنُ عثمان ، ومجاهد ، ودوادٌ الأزْدِيّ ، وجماعةٌ — أقبلَ فتًى فجلس قريبًا منا ، وكان تلقاءَ وجهي ؛ لا أمُدُّ نظري إلا انطلقَ في سَمْتِه ووقف عليه ، وكنا نتحدّثُ ، فرأيتهُ يتسمّعُ إلى حديثنا ؛ فلما تكلّم سعيدٌ — وكان خافتَ الصوت من علّة به ، وكنا نسميه النملة الصَّخّابة — رأيتُ الفتى يتزحّفُ قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقعُ في سَماعه حَسِيسُ نَمْلتنا .

وكان سعيد يقول : اجتَزْتُ أنا والشّعبيُّ [1] أمس بعمرانَ الخيّاط ، فمازَحه الشيخُ فقال له : عِندنا حبٌّ [2] مكسور ، تخيطُه ؟ قال : نعم ، إن كان عندك خيط من ريح ! فقلتُ أنا : فاذهبْ فجئنا بالمِغْزَل الذى يغزِلُ الهواء لنصنعَ لك الخيط .

قال مجاهد : هذا ليس بشيء في تَنادُرِ شيخِنا وما يتّفقُ له ؛ أخبرَني أن رجلاً جاءهُ في مسألة ، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته ؛ فقال الرجل : أيُّكما الشعبيّ ... ؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال : هذه ... !

قال المُسَيَّب : وضحكنا جميعًا ، وأخذ نظري الغلامَ فإذا هو ناكِس حزناً وهمًّا ، وكأنه لا يتسمّع إلينا ليسمع ، بل ليشغلَ نفسَه عن شيء فيها ، فتتوزّعَ خواطرُه ، فيتبدَّد اجتماعُها على همِّه بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا ، كما يفعل المحزونُ في مغالبة الحزن ومُدافَعته : يَشْغَلُ عنه بصرَه وقلبَه وسمعَه جميعًا ، فيكون الحزنُ فيه وكأنه بعيدٌ منه .

---

* انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست في « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » .

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها . عن بضع وثمانين سنة ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام : سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة : بنته الصغيرة) ؛ ومكحول في الشام ، والشعبي هذا في الكوفة . وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه .

(٢) الحب (بكسر الحاء) : هو الزير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقال لرشحه : قطر حب .

فقلت فى نفسى : أمرٌ أماتَ الضحكَ فى هذا الفتى وكَسرحِدّتَه وشبابَه. ثم تحوّلتُ إليه وقلت: رأيتُكَ يابنىّ مقبلاً علينا كالمنصرِف عنا؛ فما بالُكَ لم تضحك وقد ضحكنا جميعًا ؟

قال : إليكَ عنى يا هذا ؛ فأين منى الضَّحكُ وأنا على شَفير القبر ، ورُوح التّراب مالىءٌ عينىَّ فى كل ما أرى ، وكأنّ حُفرتى ابتلعت الدنيا التى أنا فيها لتأخذَنى فيها ، وأنا الساعةَ ميتٌ حىٌّ ؛ رِجْل فى الدنيا ورجل فى الآخرة !

قلت : فأعلمنى ما بك يا بنى ؛ فلقد احتسبْتُ ولداً لى كان فى مثل سِنِّك وشبابك ولم أُرزق غيرَه ، فقلْ بعده مريضٌ به ، يتوسمُهُ مُفَرّقًا فى لِداتِه ، مُتوهّماً أن وجوهَهم تجمعه بملامحه؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعًا وأطيل النظر إليهم والتأمُّل فى وجوههم ، ولستأرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبى حديث! فإن رأيتُه حزينًا مثلك تَقطَّعتُ له من إشفاقٍ ورحمة ، وطالعَنى فتاىَ فى مثلِ همِّه وحزنه وانكسارِه ؛ فيعود قلبى كالعين التى غشَّاها الدمع ، تحمل أثرّ الحزنِ ومعناه وسرَّه ؛ فبُثْنى ما تجدُ يا بنىَّ ، فلعل لى سببًا إلى كَشفِ ضُرك أو إسعافِك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريب المتناوَل هيِّنِ المحاوَلةَ ، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير ، ولكنْ أنك أنت صغير .

قال الفتى : مهلاً يا عمّ ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تَنْقاد فيه الوسائل ، ولا علاجَ منه إلا بالموت يأخذنا و يأخذه !

قلت : يا بنىّ ، هذه كلمة ما أحسبُ أحداً يقولها إلا من أُخِذَ للقتل بجنايته ولم يَعفُ أهلُ الدم ، فهل جنيتَ أوجنى أبوك على أحد ؟

قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإنى تركتُ أبى الساعةَ مُجْمِعًا على إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثَق من الباب !

قال المسيَّب : فكأنما لدغتنى حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه : فَتَناهَضْتُ ، ولكنّ الغلامَ أمسكَ بى وقال : إنه لا يزال حيًّا ، وسيقتل نفسَه متى أظلم الليلُ وَهَدَأَت الرِّجل .

قلت : الحمد لله ، إن فى النور عقلاً ، ولكن ما الذى صار به إلى ما قلت ، وكيف تركته لِقَدَرِه وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لى : يا ولدى ، ليس لك أبٌ بعدى ؛ فإن أردتَ اللحاقَ بى فارجع مع الليل لنُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع الصبح لتُسلِمَنى إلى غاسلى !

قلت : أفآمنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَيك تُمْسِكُ يدَه وتردُّه عما يَهُمُّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينُه أمسكه انتظارى ، وقد فرغَتِ الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يرِ الناسَ من نفسه ضَعةً ولا استكانة : وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الإمام (الشعبىّ) وجهًا من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذّر القُوت ، واشتدّ الضُّرّ ، وتَدَلَّت به المسكنةُ إلى حَضيضها ، وأُلجئ إلى أحوالٍ دقَّتْه دقَّ الرَّحَى لما تدور عليه ، ولم يَعُدْ له إلا رأىٌ واحد فى معنى الدنيا : هو أنه مكذوب مزَوَّر على الدنيا .

قلت : يا بنىّ ، فإنى أراك أديبًا ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِق محاقه ، وهو اليوم فى أحْلَك الليالى وأشدها انطماسا ؛ جَهَدَه الفقر ، وياليته كان الفقر وحدَه ، بل انتهكتْه العِلَل ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه فماتت همًّا به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ماكان يجعل كلاًّ منا لايفرَغُ إلا امتلأ ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ، وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياةُ فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدَةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة . . . !

قلت : يا بنىَّ ، فإنك والله مع أدبك لَحكيم ، وإنى لأنْفَسُ بك على الموت ، فكيف ردَّتك حياةُ أمك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حيًّا لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسبابِ القوّة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا

فكّر فى الموت : فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تِلْقاء عدوّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوّه فالرأىُ قتلُ نفسه ليستريحَ من تنكيل العدو به .

* * *

قال المسيّب بنُ رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ تَحِلَّةً يطمئنُّ إليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَه كالمضطرّ أو المُكْرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسِرَ نفسَه إذا أنا حدّثتُه أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريض يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبىُّ) حكيماً لَحِناً فَطِناً ، سَفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدَنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدِث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلمه وأرفِّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغْتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ فى عُرْعُرَة الجبَل ينظر من صَوْمعته إلى الدنيا ، ليس بأحكَمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يا بنىّ : إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والإحسانُ وغيرُها ، إذا كانت فيمن انقطع فى صحراء أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدَةِ الرذائل جميعاً ، لَهُوَ الخالى من الفضائل جميعاً !

يا بنىّ : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَمْح هذه الإنسانية : يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويُعجَنون ويُخبَزون ، ليكونوا غذاءَ الإنسانية فى بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين ، كأن فى أعراقكما دم نبىّ يُقْتَل أو يُصْلب !

قال المسيّب : وانتهينا إلى دار الشعبىّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ ففتح لنا . وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْت وكيت ، فترادَفَتْ عليه المصائبُ ، وتوالت النكباتُ ، وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصصْتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن مُوشِكٌ

أن يُزهِقَ نفسَه وسيَتبعه ابنُه هذا ؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يسألك : أيموت مسلماً من ألجئ وأكْرِه واضطُرَّ واستَضاق واختلَّ ، فتَحسَّى سُمًّا فهلكَ ، أو توجّأ بحديدة فقَضَى ، أو ذَبَح نفسَه بنَصْل فخَفَتَ ، أو حزَّ فى يده بسكين فما رقأ دمُه حتى مات ، أو اختنق فى حبلٍ ففاضت نفسُه ، أو تردَّى من شاهق فطاح . . . . !

وأدرك الشيخ معنى قولى : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرتُ من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه ؛ فعلم أنى لم أسأله الفُتْيا والنَّص ، ولكنى سألته الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجلٌ كريم ، أخذته الأنَفةُ وعزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعزَلٍ عن همِّه ، فنذهب نكلِّمه والله المستعان .

ومشينا ثلاثتنا ، فلما شارَفْنا الدارَ قال الفتى : إنه لا يفتح لى إذا رآكما ، وربما استَفَزَّ بنفسه فأزهقها ، وسأتسوَّر الحائطَ وأتدلىَّ ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده .

* * *

ودخلنا ، فإذا رجلٌ كالمريض من غير مرض ، خوَّارٌ مسلوبُ القوّة ، انزعج قلبه إلى الموت وما به جُرْأة ، وإلى الحياة وما به قوّة ؛ وصَغر إليه نفسَه أنها أصبحت فى معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد ، وثابر عليه داءُ الحزن فأضناه وتركه رُوحاً تتقعقعُ فى جلدها ، فهى تهم فى لحظة أن تَثبَ وتندلق.

وسلَّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين فى البأساء والضرَّاء وحينَ البأس ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هُم المتقون » .

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق : أيها الشيخ ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه ؛ وقد خلَونا من معانى الكلام كله ، فما نقدر عليها إلا لفظةً واحدةً نملك معناها ، هى أن ننتهى !

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كُوّةً مسدودةً فى الجدار ، فقال لى : افتحْ هذه ودَع الهواء يتكلم معنا كلامَه . فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها رَوْحُ

الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغ إلىّ ، فإذا أنا فرغتُ من الكلام فسأَلْكَ بنفسك :

أعلمتَ أن رجلاً من المسلمين قد مَرِض ، فأعضَلَ مرضُه فأثبتَه على سريره ثلاثين سنةً لا يتحرك ، وطَوَى فيه الرجُلَ الذى كان حيًّا ونشر منه الرجلَ الذى سيكون ميْتًا ، فبقى لا حيًّا ولا ميتًا ثلاثين سنة . . . ؟

قال الرجل : وفى الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صَحِّح الكلامَ واسألْ : أيَصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأىُّ شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضَع فى الكيس بل فى الجسم ؟

أفتدرى مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين فى عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها ؟ إنه إمامُنا (عمرانُ بنُ حُصَين الخُزاعىّ)[1] الذى أرسله عمرُ بن الخطاب يُفقِّه أهلَ البصرة ، وتولىّ قضاءها ، وكان الحسن البَصرىُّ يحلف بالله ما قدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حُصين . ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) ، فرأيناه مُثْبَتًا على سرير الجريد كأنما شدّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عَصَبِه وذَوَبانِ لحمه ووَهَنِ عظامِه ؛ فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لا تَبكِ ؛ فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إلىّ . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جعَل لكلِّ موضعٍ منها قوةَ الجميع . ولولا هذا لَدَكّ الجبلُ موضعَه وغارَ به ؛ وكذلك يحملُ المؤْمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدّم ؛ إذ كانت قوةُ روحه قوّةً فى كل موضع ، فالبلاءُ محمول على هِمّةِ الروح لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكلّ خير على كلّ حال ، إن رُوحَه لتُنزعُ من بين جنبيه وهو يَحمد اللهَ عزَّ وجل ! » .

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتَحِنّى ! » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أمَا تفرض عليك

---

(١) توفى سنة ٥٣ من الهجرة .

شجاعتُك أن تقول للقائد: « امتحِنّي وارْمِ بى حيث شئت ! » وإذا رَمَى بك فرجعْتَ مُثْخَنًا بالجراح ونالك البَتْرُ والتشويه ، أتَراها أوصافًا لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئنانًا فى النفس على زَلازِلها وكَوارِثها ، لم يكن إيمانًا ، بل هو دعوى بالفِكْر أو باللسان لا يعدُوهما ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فَجأه الرَّوْعُ أحدَثَ فى ثيابه من الخوف . . . ومِن ثم كان قتلُ المؤمن نفسَه لبلاء أو مرض أو غيرِهما كفراً بالله وتكذيباً لإيمانه ، وكان عملُه هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذى أحدث فى ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بَشَاشةُ الروح ، وإعطاءُ الله الرِّضى من القلب ، ثقة بوعده ورَجاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانيًا مع العقل ؛ فإذا ابتُلىَ المؤمنُ بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره فى مثل الجنون — برَزَ فى هذه الحالة عقلُه الرُّوحانىُّ وتولى سياسةَ جسمه حتى يُفيقَ العقلُ الأول . ويجىء الخوفُ من عذاب الله ونقمته فى الآخرة ، فيَغْمرُ به خوفَ النفس من الفقر أو المرض أوغيرهما فيقتلُ أقواهما الأضعف ، ويُخرِجِ الأعزُّ منهما الأذلَّ .

فالاطمئنان بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيوىّ بالتسليم والرضى ، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثوابًا وحسَنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانىٌّ له شأن عظيم فى تصريف الدنيا ، يترك النفسَ راضيةً مَرْضِيَّة ، تقول لمصائبها وهى مطمئنة : نعم . وتقول لشهواتها وهى مطمئنة : لا .

وما الإنسان فى هذا الكون ؟ وما خيره وشرُّه ؟ وما سخطُه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التّراب تتكبَّر وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسُها . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتلَى الشجرةُ الخضراءُ فى بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانيًّا مستقرًّا فى داخلها يمسك الحياةَ

عليها ويتربَّصُ حالاً غير الحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبلائه فالسعادةُ كلُّها في داخلها ، ولها دائمًا ربيعٌ على قدْرها حتى في قُرِّ الشتاء .

فالعقلُ الروحانيّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن ينشئ للنفس غريزةً متصرِّفةً في كل غرائزها ، تُكمِّل شيئًا وتنقص من شيء . وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبرَ من مصائبها وأكبرَ من لذّاتها جميعًا .

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضى بالقدَر خيرِه وشرِّه ، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضعُ في النكَبات معانيَ شريفةً تنزع منها شرَّها وأذاها للنفس ؛ وليست المصيبةُ شيئًا لولا تأذِّي النفسِ بها . وإذا وقع التأويلُ في معاني النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيرتْ طبيعتُها ، فيعود الفقر بابًا من الزهد ، والمرضُ نوعًا من الجهاد ، والخيبةُ طريقًا من الصبر ، والحزن وجهًا من الرجاء ، وهلمّ جرًّا .

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرها ، وما لذّاتُ الدنيا إلا وسائلَ لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فإن وُجِدا مع الفقر بطلتْ عِزَّةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ؛ والبلبلُ يتغرَّد بحنْجرته الصغيرة ما لا تُغْنِي فيه آلاتُ التَّطْريب كلُّها . وفي النفس حياةُ ما حوْلها ، فإذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلَّتها الدنيا !

* * *

قال المسيَّب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتنضّر وانقلب إلى روحه التي كان منصرفًا عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحًا لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كلّها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فينْكَبَ أولَ ما ينكبُ في صبره ويقينه .

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيتُ بعينيْ رأسي معجزةَ (العقل الروحانيّ) وكيف

يصنع : رأيت عروة بن الزبير[1] وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت فى رجْله الأُكْلة : فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه ، فدُعِيَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما . فقال عروة : لا أستعين بحرامِ الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أحِبّ أن أُسلَبَ عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبهُ !

ثم دخل رجالٌ أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيَكم ذلك من نفسى !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل . إنه انصرف بحسِّه إلى النفس فانبسطت روحُه عليه ، وأخذ يكبِّر ويهلِّل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهرِه إلى دنيا باطنِه ، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابُهُ بالنور الإلهى من معنى التكبير والتهليل ، فقطعَ القاطعُ كعبَه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظمَ وضعَ عليها المنشار ونشرها وعروةُ فى التكبير والتهليل ؛ ثم جيء بالزيت مغلياً فى مغارف الحديد فحُسِمَ به مكانُ القطع ، فغُشِىَ على عروةَ ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرَق عن وجهه ، ولم يُسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنة ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء مالا صَبرَ عليه ...!».

* * *

قال المسيَّب : وأرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقَوِى جأشُه ، وانبعثت فيه الروحُ إلى عُمر جديد ، ونشأ له اليقينُ من عقله الروحانىّ ، وعرف أن مالا يمكن أن يدركَ ، يمكن أن يتركَ .

وجاء هذا العقل الروحانى فرَّ بالمنشار على اليأس الذى كان فى نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما

(١) توفى سنة ٩٣ للهجرة .

ترى قبضةً من التراب تتكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها ! » .

* * *

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط فى مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرَّى الصواب ، ويجتهد فى الرجوع إليه ، ويصبر على ما يناله فى ذلك ؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ... ... ؟

الانتحار

٢

قال المسيَّب بنُ رافع : وقام الشعبيُّ إلى الرجل فاعْتَنَقَه فَرَحًا بما آلَ أمرُه إليه ، بعد إذ رأى النورَ يجرى على لونه ويترقرقُ فى ديباجته ؛ كأنما وَقَعَ الصلحُ بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نعَمْ أخو الإسلام أنت ، فاستَعِذْ بالله من خِذْلانه ، فإنه ما خذَلكَ إلا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ الله تعارِضُه أو تُجارِيه فى قدرته، فيَكِلُكَ إلى هذه النفس ، فتنتهى بك إلى العجز ، وينتهى العجزُ بك إلى السخط ؛ ومتى كنتَ عاجزاً ساخطًا ، محصوراً فى نفسك ؛ موكولاً إلى قدرتك ، كنتَ كالأسد الجائع فى القَفَص ، إذا ظن أن قوّتَه تتناول خَلْقَ الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبةَ ؛ وأمثالَها من هذه المُهلِكات تقْدَحُ فى قلبك الشكَّ فى الله ، وتُثبتُ فى رُوعِك شرَّ الحياة ، وتُهدى إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرِّر عندك عجزَ الإرادة ؛ فتنتهى من كل ذلك ميتًا قد أزهقَتْك نفسُك قبل أن تُزْهِقَها !

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حق الإيمان ، لسلّطك الله على نفسك ولم يسلطْها عليك ؛ فإذا رمتْك المطامعُ بالحاجة التى لا تقدر عليها ، رميتَها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهواتُ من ناحية الرغبة المقْبلة ، جئتَها من ناحية الزُّهد المنصرف ، وإذا ساوَرَتْك كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياء الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلامُ ضُروبا من فرَحِ الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونًا من الخِذْلان والهمّ ، وتعود موضعَ فخرٍ ومباهاة ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسار « وعزيمةُ الإيمان إذا هى قويتْ حصَرَت البلاءَ فى مقداره ، فإذا حصرتْه لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئًا شيئًا ، فإذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ غامراً مُتفَشِّيًا يُجاوِزُ مقدارَه بما يَصْحَبُه من الخوف والرَّوْع ، فلا تزال معانيه تَزيد شيئًا شيئًا بما فيه وبما ليس فيه .

وللإيمان ضوءٌ في النفس ينير ما حولها ، فتراه على حقيقته الفانية وشيكاً أن يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء ، فتتوهمها النفس أوهاماً متباينةً على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى الأعمى بوهمه : لا عينُه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشياؤه عند عينه تكونُ في حقيقتها .

* * *

قال المسيَّب : وكانت الشمسُ قد طفَّلَتْ للمغيب ؛ فقال الإمام للرجل : قم فتوضّأ وأسْبغ الوضوء ، وسأعلِّمك أمراً تنتفع به في دينك ودنياك : فإذا قمتَ إلى وُضوئك فأيقِنْ في نفسك واعزِمْ في خاطرك على أن في هذا الماء سراً روحانياً من أسرار الغَيب والحياة ، وأنه رمزٌ للسماء عندك ، وأنك إنما تتطهَّر به من ظلُمات نفسك التي امتدَّت على أطرافك ؛ ثم سَمِّ اللهَ (تعالى) مُفيضاً اسمَه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تَمثَّلْ أنك غسلتَ يديك مما فيهما ومما تَتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنك آخِذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّرْ عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مَسحةً سماويةً تُسبِغها على كل أطرافك ، ليشعرَ بها جسمُكَ وعقلك ؛ وأنك بهذه المسحةِ السماوية تستقبلُ اللهَ في صلاتك سماوياً لا أرضياً .

فإذا أنت استشعرتَ هذا وعملتَ عليه وصار عادةً لك ، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء ، كلما اغتممتَ أو تكرَّهتَ أو تَسخطت أو غَشيك حزنٌ أو عَرَض لك وَسْواس ؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلتَ الحياةَ وغسلتَ الساعةَ التي أنت فيها من الحياة [1]. وترى الماءَ تحسبه هدوءاً ليِّناً لينَ الرِّضى ، وإذا هو ينسابُ في شعورك وفي أحوالك جميعاً .

قال المسيَّب : وقمتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذه الصفة بتلك النية ؛ فإذا أنا عند نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجمية لها إشراقٌ وسناء ، وإذا الوضوءُ في أضعف معانيه هو ما علِمنا من أنه الطهارةُ والنظافة ، أما في أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغَسلُ الوقتِ الإنساني مما يخالطه كلما مرَّت ساعات ، وابتداؤُه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء.

---

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسراره عندنا .

ثم صلى بنا الشيخُ ، وأمرني بالمبيت مع الرجل ، كأنما خَشِي البَدَوَاتِ أن تَبدُو له فتَنقُضَ عَزْمَه ، أو هو زادني عليه لأُغيِّر شخصَه وأبدِّلَ وحدتَه التي كان فيها ؛ أو كأنَّ الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانُه الروحيُّ قد تنبَّه بأكمله فوضعني كالتنبيه له .

وجاءنا العشاءُ من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العَتَمة وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نبأه ، فقال : مهلاً . ثم نهض فتوضأ الثالثةَ وقال : تالله ما أعرِفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السماء والنفس ، وما أعرِف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

* * *

قال المسيَّب : وأصبحنا فغدونا على الإمام ؛ ثم لزمني الرجلُ في بعض أموري ، ثم وافينا المسجدَ صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناسُ كالحبِّ المتراصِفِ على العُنقود ، لا أدري من ساقَهم وجَمَعهم ؛ كأنما علمت الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ بالله كفْرَةً صَلْعاءَ ، وأنه سيحضُر درس الشيخ ، وسيحضر الشيخُ من أجله ، فهبَّتْ الرياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال :

رَوَينا أن رجلاً كانت به جِراحَةٌ ، فأتى قَرَنًا له فأخذَ مِشْقَصاً[1] فذَبحَ به نفسَه ؛ فلم يُصَلِّ عليه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، وترك جنازتَه مطرودةً تقتحم مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا !

روينا في الحديث عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « الذي يخنقُ نفسه يخنقُها في النار ، والذي يَطْعُنُ نفسَه يطعُنُ نفسَه في النار ، والذي يقتحم يقتحم في النار ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) : « من قَتلَ نفسَه بشيء عُذِّب به يومَ القيامة ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) قال : « كان رجلٌ به جِراحٌ فقتل نفسه ،

---

(١) القرن (بفتحتين) : جعبة النشاب . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

فقال الله : بَدَرَنى عبدى بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة ! » .

قال الشعبيّ : يقول الله : « بَدَرَنى عبدى بنفسه . . . » أىْ بدرنى وتألَّه فجَعلَ نفسَه إله نفسه ، فقبضَها وتَوفَّاها ، فكان ظالما .

بَدَرَنى وتَألَّه فى آخرِ أنفاسه لحظةَ ينقلبُ إلىّ ، فكان مع ظُلمه مغروراً أحمق !

بدرنى وتألَّه حين ضاق ، فهوَّرَ نفسَهُ فى الموت من عجزه أن يُمسِكَها فى الحياة ، فكان عاجزاً مع ظُلمه وغُروره وحُمْقه !

بدرنى وتألَّه على جهله بسرّ الحياة وحكمتها ، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوقُ الظالم المغرور فى حمقه وعجزه وجهله — لم يستح أن يجيئنى فى صورة إله !

بَدَرَنى وتألَّه ، فطبَعَ نفسَهُ طابَعَها الأبدىَّ من غىٍّ وتمرّد وسفاهة ، وأرسَلها إلىّ مقتولةً يرُدُّها علَىّ .

بدرنى وتألَّه كأنما يقول : إن له نصفَ الأمر ولى النصف : أنا أحييْتُ وهو أمات . . . !

بَدَرَنى عَبْدى بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة !

قال الشعبىّ : وإنما تحرم الجنةُ على من يقتل نفسَهُ ، إذ ينقلبُ إلى الله وعلى روحه جِنايةُ يده ما تُفارقُها إلى الأبد : فهو هناك جيفةٌ من الجيَف مسمومةٌ أبداً ، أو مخنوقةٌ أبداً ، أو مذبوحةٌ أبداً ، أو مهشَّمةٌ أبداً ، يقول الله له : أنت بَدَرْتَنى بنفسك ، وجريتَ معى فى القَدَر مجرًى واحداً ، فستخلد نفسُك فى الصورة التى هى من عملك ، وما قتلتَ إلا حسَنَاتك .

قال الشعبىّ : ولو عرف قاتلُ نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفةً أبديَّة ، فمن ذا الذى يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوّل حماراً وبقى حماراً ، فيرضَى أن يتحول ويُسرعَ ليتحوّل ؟

مِن ذلك نظر النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) إلى جنازة ذلك الرجل الذى قتل نفسه ، كما ينظر إلى ذبابة توجَّهت بالسبِّ إلى الشمس والكواكبِ والأفلاكِ كلها ، ثم جاءته تقول له : اشهدْ لى .

• • •

قال الشيخ : ومِمَّ يقتل الإنسانُ نفسه ؟ أمَا إن الموتَ آتٍ لا ريب فيه ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه ، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة ؛ فما ضررُ الخيبة الصغيرة فى أمرٍ من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاحٍ بل من خيبة ، فإن كانت الخيبةُ من مال فهى الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهى المرضُ أو الاختلال ، وإن كانت من عِزَّة فهى الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك — كالنساء وغيرهن — فهى العجز عن الشهوة أو التخيلُ الفاسد .

وليس يخيبُ الإنسانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادة ، وإلا فالفقرُ والحاجة ، والمرضُ والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفسادُ التخيل ، كل ذلك موجودٌ فى الناس ، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسىُّ لهذه الأرض على نفوس أهلها . وياعجباً ! إن العُميانَ هم بالطبيعة أكثرُ الناس ضحكًا وابتسامًا وعبثًا وسخريةً ، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصحَ من ذلك ؟

ليست الخيبةُ هى الشر ، بل الشرُّ كله فى العقل إذا تبلد فجمد على حالةٍ واحدة من الطمع الخائب ، أو فى الإرادة إذا وَهَنَت فبقيتْ متعلقةً بما لم يُوجَد . أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقلُ ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنًى ولا أثرٌ فى النفس ، ولا يخيب الإنسانُ حينئذ ، بل تخيب الخيبةُ نفسُها ؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهله التَّرَفَ العقلىَّ والتخيُّلَ الفاسد ، ويشتدُّ كلَّ الشدة فى أمر الإرادة ، فلا يترخص فى شىء يتعلق بها ، ولا يزال يُنميها بأعمالٍ يومية تشدُّ منها لتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً له ، فإن للعقل أمراضًا كثيرةً يقيس فيها درجاتٍ من الطيش حتى يبلغَ الجنونَ أحيانًا ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هى لِينُه إذا تصلَّب ، وهى حركتُه إذا تبلد ، وهى حِلْمُه إذا طاش ، وهى رضاه إذا سَخِط .

الإرادة شىء بين الروح والعقل ، فهى بين وجودَين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودَين أيضًا ، فيستطيع أن يعيشَ وهو فى الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون فى وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبرُ همِّه نجاحه فى هذا الوجود .

وهذا النجاح لا يأتي من المال، ولا تحققه العافية ، ولا تيسره الشهوات ، ولا يسنّيه التخيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عمره خمسون سنة أو مائة سنة ؛ بل يأتي مما عُمْرُه الخلود ومما هو باقٍ أبداً في معانيه من الخير والحق والصلاح ؛ فههنا يُعين المرضُ بالصبر عليه مما لا تعين الصحة ، ويُفيد الفقرُ بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الإنساني عاملاً أكثر مما هو متخيِّل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ وههنا لا موضعَ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حُبّ الذات ؛ وهذه الثلاثُ هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة ، وبدونها يكون الإنسانُ هانئاً حتى في أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنةِ القوية ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاءُ إلى خيال الإنسان وفسادِ الإنسان . . .

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائقِ الدنيا كان العقل سهلاً مَرِناً مِطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرةَ قتل النفس أو يُقرَّها ، فإن هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتطرِق إلى العقل إلا إذا تحجَّر وانحصر في غرض واحدٍ قد خاب وخابت فيه الإرادةُ ففرغَت الدنيا عنده .

ولو أن امرأً تم عزمُهُ على قتل نفسه ثم صابَر الدنيا أياماً ، لا نفَسح عزمُه أوْ ركَّ ؛ إذ يلين العقلُ في هذه المدة نوعاً ما ، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغير حالةُ النفس هَوْناً ما ؛ فالصبرُ كالترَوُّح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحد مُقْفَلٍ من جوانبه « ومَثَلُ العقل في هذه الحال مَثلُ القائم في إعصارٍ لفّه بالتراب لفّاً وسدّ عليه مَنافِذَ الهواء ، وحبسه في هذا التراب الملتفّ حَبْسَ الحشرةِ في جوف القصَبة ؛ فهو على اليقين أنها حالةُ ساعةٍ طارئة في الزمن لا حالةُ الزمن ؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهمّ هو الذي يذهب بهذا الهمّ .

وكما أن الأرض هي شيء غيرُ هذا الإعصار الثائر منها ، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائها .

* * *

قال الإمام : وفى كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتابُ الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثالُ الروحىّ للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحىّ للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرِ » .

وأما الثانية فهى قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والذين مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بيْنَهُمْ » .

ففى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسانُ فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومُها حولَه ولا تصدمه ، إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته فكأنْ لا سلطانَ لها عليه ؛ وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءت ، فلا يجىء الهمُّ قوةً تسحق ضعفًا ، بل قوة تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلِّده الناسُ وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدها هى علم الحياةُ .

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكينًا ، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقى على الناس دروسَ نفسه القوية .

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبرُ أسباب الشرِّ فى الناس ، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسخط ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما فى الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة . ومَن جَعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروقُ بين الناس عاليهم ونازلِهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنىِّ العالم ؛ جَمع بينهما الاتفاق العقلىُّ وسقط ما عداه .

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الإنسان عُمْرَه الطويل أو القصير كأنه فى يوم يُصبح منه غاديًا على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ مَعْنِىٍّ إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضُه وآلامُه ومصائبُه ليست مَكارِهَ من الدنيا ، بل هى تلك المكارِهُ التى حُفَّت الجنةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يغُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضًا .

وفى رجاء الله واليوم الآخر يَسُود الإنسان على نفسه ؛ ومن كان سيِّدَ نفسِه كان سيدَ ما حولها يُصَرِّفه بحكمه ، ومن كان عَبْدَ نفسِه صَرَّفَه بحكمه كلُّ ما حَوْله .

قال الشعبىّ : وأما المثالُ الروحىُّ للجماعة الكاملة ، فهو فى وصف المؤمنين بأنهم « رُحَمَاءُ بينهم » ؛ فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان .

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قِبَلِ من حوله ممَّن يُعايِشُهُم ويتصل بهم لا من قِبل نفسِه ، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رُحَمَاءُ بينهم) تَقرَّرت العظَمةُ النفسيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقره ، ولم يُعظموا الغنىَّ لغِناه ، وإنما يُحَقِّرُون ويعظِّمون لصفات سامية أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغنىِّ الشاكر ، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هوُ الذى يجعل فقرَه عند نفسه شيئاً ذا قيمة فى الإنسانية .

ومتى تَصححتْ آراءُ الجماعةِ فى هذه المعانى المؤلمةِ للناس بَطَلَ ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يَبلَى معنًى من معانى الحياةِ فى إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنًى جديداً فى مكانِه ، وتصبح الفضيلةُ وحدُها غايةَ النفس فى الجميع ؛ وبذلك يَصبر الفردُ على مصائبه ، لا بقُوّته وحده ، ولكن بجميع القوَى التى حوله . أفلا تَرَوْنَ أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يضع فى ألَم السلاحِ لذةً يحسُّها لحمُ الشجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافع : فقام رجلٌ من المجلس ، فقال . أيها الشيخ ، وإذا فَسد الناس وغَلُظَتْ قلوبُهم ، وتقطَّعتْ بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم) ، وشَمِتوا بالفقير ، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه فى ألسنتهم كما يَطرَح الشاعر فى لسانِه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه — فما عسى أن يصنعَ المسكينُ حينئذ وكلُّ شىء يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبىّ : ههنا الرجاءُ فى الله واليومِ الآخر ، وهو شعورٌ لا يُشترَى بمال ، ولا يُلتمسُ من أحد ، ولا يَعْسُرُ على من أراده ؛ والفقيرُ والمُبتلَى

وغيرُهما إنما يَصنع كلٌّ منهم مِثالَه السامى ؛ فالصبر على هذا العَنَت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يَحزُنُكَ فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلّما يخلو منها ، بل قلما يجىء إلا بها[١] .

قال المسيَّب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرُؤٌ آلتْ أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغ الهمُّ مبلَغه من قلبه فهمَّ أن يقتلَ نفسه ؟

قال الشعبىّ : فليجعل الخوفَ خَوْفَيْنِ : أحدهما خوفُه عذابَ اللهِ خالداً مخلَّداً فيه أبداً ، فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف . وإذا ابتُلى فليضمَّ إلى نفسه مَن هو أشدُّ بلاءً منه ؛ ليكون همُّهُ أحدَ همَّيْن ، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ .

إن الإنسانَ ونفسَه فى هذه الحياة كالذى أُعطىَ طفلاً نَزِقًا طيَّاشًا عارِمًا متمرِّداً ليؤدِّبَه ويُحكِمَ تربيتَه وتقويمَه فيثبت بذلك أنه أُستاذٌ ، فيعطَى أجرَ صبرِه وعمله ، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفل ساعة فيقتله . أكذلك التأديب والتربية ؟

(١) فى كتابنا (المساكين) كلام كثير فى هذه المعانى .

الانتحار

٣

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وكان الإمامُ قد شَغَل خاطرَه بهذه القصة فأخذت تَمُدُّ مدَّها فى نفسه ، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّن لها فى هَمِّه، وتفتَّق بها ذهنُه عن أساليبَ عجيبة يتهيأ بعضُها من بعض كما يلدُ المعنى المعنى. فلما قال الرجُلانَ مقالهما آنفًا وأجابهما بتلك الحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، انْقدَح له من كلامهما وكلامِه رأىٌ فقال :

يا أهلَ الكوفة ، أنشدكم اللهَ والإسلامَ أيُّما رجل منكم ضاق بروحه ، وممَّا فأراد إزهاقَها إلا كشف لأهل المجلس نفسَه وصَدَقَنا عن أمره ؛ ولا يَجِدَنَّ فى ذلك ثَلْبًا ولا عابًا ، فإنما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَر فى التعليم ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبة فى رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر فى بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقةِ عن نفسها وموضعها كما يتلألأ فى سيفٍ بَريقُه .

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم ، فلو قد أريدَ استخراجُ علمٍ يَعلمهُ الناسُ من اللذات والنِّعم، لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدوابِّ ما لا يكون مثلُه ولا قِرابُه فى العقلاء ، ولا تَبلغهُ القُوى الآدميةُ فى أهلها ؛ بَيدَ أنه لو أريد علمٌ من البؤس والألم والحاجةِ لما وُجد شرحُهُ إلا فى الناس ، ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا فى الخاصة منهم .

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمَروا المساكينَ فى تَطاوُلهم بأعناقهم إلا من أنهم يَعلُون أكتافَ الشياطين ؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنىِّ الذى يجهلُ الحقَّ عليه فى غناه ويحسبُ نفسه مُخَلَّى لشهواته ونعيمه ؛ كما هو دابةُ العالم الذى يجهل الحقَّ عليه فى علمه ، ويزعمُ نفسَه مخلَّى لعقله أو رأيه ، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ القصير ، وهل يصحُّ فى الرأى أن يقال هذا أطولُ من هذا لأن الأول فوق السُّلَّم والآخر فوق رجليه . . . ؟

* * *

قالى المسيَّب : فقام شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطَّى الرقابَ والناسُ يَنْفرجون له حتى وقف بإزاء الإمام ؛ وتَفرّستُه وجعلتْ عينى تَعْجمُهُ ، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَتُهُ وجهه شبابًا على وجهه ، أبلجُ الغُرّة مُتهلّل عليه بشاشةُ الإيمان وفى أساريره أثرٌ من تقطيبٍ قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجلَ فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباحَ الذى فى قلبه مرةً ثم أضاءه . وعجبتُ أن يكون مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يومًا ، وأنا أرى بعينىَّ نفسَه هذه مُنْبثِقةً فى الحياة انبثاقَ النَّخلة السَّحوقِ .

وتكلم هذا الرجل فقال :

أمَّا إذ ناشدتَنا اللهَ والإسلامَ وميثاقَ العلم ووحىَ الأقدار فى حكمتها ، فإنى محدِّثُك بخبرى على وصفه ورَصْفه : أملقْتُ منذ ثلاثين سنةً ووقف بى من الدهر ما كان يجرى ، وأصبحتُ فى مزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَر يريد أن يشربَ منه ، وعجزتْ يدى حتى لَظُفْرُ دَجاجة فى نبشها التّرابَ عن الحبَّة والحشرَة أقدرُ منى ؛ وطرقَتْنى النوائبُ كأنما هى تُساكِنُنى فى دارى ، وأكلنى الدهرُ لحمًا ورمانى عِظامًا ، فما كان يقفُ علىَّ إلا كلابُ الطريق ؛ ولى يومئذ امرأةٌ أعقبتُ منها طفلاً ويلزُمنى حقُّهما ولا أستطيعه ؛ وكان بيننا حُبٌّ فوق المعاشرة والألفة قد تركنى من امرأتى هذه كالشاعر الغَزِلِ من صاحبته ، غير أن الشعر فى دمى لا فى لسانى .

فلما نَهكَتْنى المصائبُ وتناولَتْنى من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وانكسر وجهُها وتَقبَّضَ من هُزاله : وايمُ الله يا فلانة لو جاز أن يُؤكلَ لحمُ الآدمىّ لذبحتُ نفسى لتأكلى وتَدِرّى على الصبىّ ؛ ولقد هممتُ أن أركبَ رأسى وأذهبَ على وجهى لتَفقدانى فتفقدا شُؤمى عليكما ؛ ولكن ردَّنى قلبى ، وهو حبَسَنى فى هذه الدنيا الصغيرة التى بينكما ، فليس لى من الأرض مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلا أنتِ وهذا الصبىّ . ولستُ أدرى والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضرَ فرَجعنا من حَطبها اليابس ؛ وعادت الشمسُ لا تَغْذوها بل تمتص منها ما بقى ، ولا تستضىء لها ، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها !

إن من فَقَدَ الخيرَ ووقع فى الشر ، حَرِىٌّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيما إذا قتل نفسَه فخلُص من الشر والخير جميعًا ، لا يُكْدِى ولا يَنْجَحُ ، ولا يألَمَ ولا يَلَذُّ ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرْها . أمَا إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرَّةٍ واحدةٍ وفى شىء واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعًا أنواعًا . قد ماتت أيامُنا ، وتركنا نعيش كالموْتى لا أيامَ لهم ، وزاد علينا الموتى فى النعمة والراحة أنهم لا يتطفَّلون على أيام غيرهم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك .

قال : فاستعبرَت المرأةُ باكيةً ، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تَفْجَعَنا فيك ؟ قلتُ : ما عَدَوْتِ ما فى نفسى ؛ ولكن هل بقى فىَّ من تُفْجَعين فيه ؟ أما ذهب منى ذاك الذى كان لك زوجا وكاسبًا ، وجاء الذى هو همُّك وهمٌّ هذا الصبىّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذُ ولا تُعطِى ؟

أمْ واللهِ لكأنى خُلقتُ إنسانًا خطَأً ، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريد إرجاعى إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك ، وبقيتُ بينهما ؛ يمرُّ الناس بى فيقولون إنسانٌ مِسكين : وأحسب لو نطقت الكلابُ لقالت عنى كلبٌ مِسكين . يا عجبا ! عجبًا لا ينتهى ! أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فى تحويلها يا قوتةً أو لؤلؤة . . . .

فقالت المرأة : والله لئن حَيِيتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُتَّ عليه إنه لأقبحُ وأشد .

فقلت لها : ويحكِ وماذا تَنظر العينُ المبصِرةُ فى الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟

قلت : فانظرى أنت وخبِّرينى ماذا ترَيْن . أترَيْن رغيفًا ؟ أترين إدامًا ؟ أترَيْنَ ديناراً ؟

قالت : والله إنى لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك . أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ المظلِمةَ إن لم يَطْلُع فكأنْ قَدْ .

قال : فغاظتنى المرأةُ ورأيتُها حينئذ أشدَّ علىَّ بِقلَّة ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدى ؛ ولولا حبى إياها ورحمتى لها لأوقعتُ بها . واستحكم فى ضميرى أن أُرْهِقَ نفسى وأدَعَها لما كُتِب لها .

وقلت : إنَّ جُبنَ المرأة هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلها ، وللقَدَر يدٌ ضعيفةٌ على النساء تَصْفَعُهنَّ وتمسحُ دموعَهن ، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلةٌ تصفع الرجلَ وتأخذ بحلقه فتعصِرُه .

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية فى هذه الخليقة ؛ أرحامٌ تَدْفَع ، وأرضٌ تَبْلَع . فحضَرنى هذا القولُ تلك الساعةَ وشُبِّه لى ، واعتقدتُ أن هذا الإنسانَ شىء حقيرٌ فى الغاية من الهوان والضَّعة : حملتْه أمه كُرْهًا ، وأثْقَلَتْ به كُرها ، ووضعته كُرهًا ؛ وهو من شُؤمِه عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ لم يخرج منها حتى يَضْرِبهَا المخاضُ فتتقلَّبُ وتصيح وتتمزّقُ وتَنْصَدع ؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه . وإذا هى ولدته على أىِّ حاليْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثل المطَارِق المحطِّمة ، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر — فإنما تلده فى مَشيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ من الأخلاط كأنما هو خارجٌ من جُرْح . ثم تتناولُه الدنيا فتضَعُه من معانيها فى أقبحَ وأقذرَ من ذلك كله . ثم يستوفى مُدَّتَه فيأخذُه القبرُ فيكون شرًّا عليه فى تمزيقه وتعفينه وإحالته .

قال : وحضَرنى مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهل الزِّنديق الذى يُعرفُ (بالبَقْلىّ) — إذ كان يزعم أن الإنسان كالبَقْلة ، فإذا مات لم يَرْجِع . وقلت لنفسي : إنما أنتِ بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ فى أرضٍ نَشَّاشةٍ (١) ، فقتلهَا مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها .

قال : وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوجَّأ بها ، فتُبادِرنى المرأةُ وتحولُ بينى وبينها ؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولى ،

---

(١) الأرض النشاشة : هى السبخة التى فيها الملح والماء .

لو سَمِعوا سمعوا لها شَهيقًا وهى تَفور ؛ فما أدرى أىُّ مَلَكٍ هبط بوحْى الجنة فى لسانى امرأتى .

قلت لها : إنها عزْمةٌ منى أن أقتلَ نفسى .

قالت : وما أريد أن أنقضَها ولستُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها .

قلت : فخلّى بين نفسى وبين المُدية .

قالت : كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبىّ فلْنَقْضِ معًا ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ولا ندعُ الصبىَّ يتيمًا يصفعُه من يُطْعِمه ، ويضربه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فى أولاد الناس أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا .

قلت : هذا هو الرأى .

قالت : فتعالَ اذبح الطفل . . . .

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وما بلغ الرجلُ فى قصته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة ؛ وتوهم كلُّ أب منهم أن طفلَه الصغيرَ مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشُقُّ حلْقهُ بالصُّراخ : يا أبى يا أبى ؛ أدركْنى يا أبى .

أما الإمامُ فدَمَعتْ عيناه وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول : إنَّا لله ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها ؟

وأنا فما قَطُّ نسيتُ هذه الكلمة ، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقًا فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئًا واحداً هو طريقةُ صَنعته حطبًا ... كأن الشيطانَ لعنه الله يقول لأتباعه ؛ جَفِّفوه ...

وكانت هُنَيْهاتٌ ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا ؟

* * *

قال الرجل : ففتحتُ عينى وقلبى معًا ورَمقْتُ الطفلَ المسكينَ الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرتُ إلى مَجْرَى السكينِ من حلقِه وإلى مَحَزِّها فى رقبته اللّينة ؛ ورأيتُه كأنما تَفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة ، ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتين ألاّ أذبَحه ، ورأيته يتوسلُ بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه

منى أمام قاتله ، ثم خُيِّل إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفض ويصرُخُ من ألم الذبح تحت يد أبيه ، تحت يد أبيه التَّعِس .

يا ويلتاه ! لقلما أخذنى ما كان يأخُذنى لو تهدَّمت السماءُ على الأرض ، وحسبتُ الكونَ كله قد انفجر صُراخًا من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلاَّ ربُّه أمام القاتل .

فَهرْوَلْتُ مسرعا وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَّ وأنا أقول يا أرحمَ الراحمين . يا من خلق الطفلَ عالَمُهُ أمُّه وأبوه وحدهما وباقى العالم هباءٌ عنده . يا من دبَّر الرضيعَ فوهبه مُلكًا ومملكةً وغنًى وسروراً وفرحا ، كلٌّ ذلك فى ثَدْى أمِّه وصدرِها لا غير . يا إلهى : أنْسنى مثلَ هذا النسيان ، وارزقْنى مثلَ هذا الرزق ، واكفُلْنى بمثل هذا التدبير فإنى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه .

* * *

قال الرجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسبُ أنها هى تفور حين فارت حشَراتُها . ولقد كنت أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقَه ، ولا يلتمسُها إلا فى أقذرِ القذر .

وما كدت أمضى كما تسوقُنى رِجلاى حتى سمعتُ صوتًا نَدِيًّا مطلولاً يُرَجِّع ترجيعَ الوَرْقاء فى تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية :

« واصْبِرْ نفسَك مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعَشِيِّ يُريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبع هواه وكان أمرُه فُرُطا » .

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات ، أحرقتْ كلَّ ما كان حولى ولمسَتْ مِصباحَ رُوحى المنطفئ فإذا هو يتوهَّجُ ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره ، وارتفعتْ نفسى عن الجَدْبِ الذى كنتُ فيه وكأنما لفَتْنى سحابةٌ من السُّحب ، ففى روحى نسيمُ الماء الباردِ ورائحةُ الماء العذْب .

لعن الله هذا الاضطرابَ الذى يُبتَلى الخائفُ به . إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفس وذَهابُ بعضِها فى بعض ، وتَضَرُّبُ الشرِّ فى الخير والخير فى الشرّ حتى لا يَتبينَ جنسٌ من جنس ، ولا يُعرفُ حدٌّ من حد ،

ولا تمتازَ حقيقة من حقيقة . وبهذا يكون الزمنُ على المبتَلى كالماء الذى جَمدَ لا يتحركُ ولا يتَسايَرُ . فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائمًا لا يزال فى أوله يُنذِرُ بالأهوال ، وقد يكون هَوْلهُ انتهى أو يُوشك .

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعترَى كلَّ شيء ، فامتدَّ إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سكَن ما بى إذا هو قد كان يأسَ يومٍ أو أيامٍ فى مكانٍ من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلْف هذا المكانَ ، فذلك حكمهُ حكمُ الشمسِ التى تطلُع وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكمُ الماءِ الذى تَهْمِى السماءُ به ليسقىَ الأرضَ وما عليها ، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماوية فى مَدَارها لا تُمسكها ولا تَزِنُها إلا قوةُ خالقها .

أين أثرُ الإنسانِ الدنىء الحقيرِ فى كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟

وما الذى فى يد الإنسان العاجزِ من هذا النظام كلِّه فيَسُوغَ له أن يقول فى حادثةٍ من حوادثه إن الخير لا يبتدئُ وإن الشر لا ينتهى ؟

تعترِى المصائبُ هذا الإنسانَ لتمحوَ من نفسه الخِسَّةَ والدناءة ، وتكسرَ الشرَّ والكبرياء ، وتَفثأ الحدَّةَ والطيش ؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيدَ بها طيشًا وحدَّة ، وكبرياء وشرًّا ، ودناءةً وخسة ، فهذه هى مصيبة الإنسان لا تلك.

المصيبةُ هى ما ينْشأ فى الإنسان من المصيبة .

* * *

قال : ورددَّت الآية الكريمةَ فى نفسى لا أشبعُ منها ، وجعلتُ أرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبه وأشجاه ؛ فكانت نفسى تهتزُّ وترتجُّ كأنما هى تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب .

صبرُ النفسِ مع الذين يمثِّلون روحانيتَها تمثيلاً دائمًا بالغَداة والعشِىّ ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وَجه الله الذى سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مال أو متاع . وتقييدُ العينين بهذا المثَل الأعلى كما يكون الأمرُ فى الجمال والحب ؛ والربطُ على الإرادة كيلا تتَفلَّتَ فتُسِفَّ إلى حقائر الدنيا المسماة هُزُءاً وتهكمًا زينةَ الدنيا ، تلك التى تشبه حقائقَ الذباب العالية . . . فتكونُ قَذرةً نجسةً ، لكنها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخَلْق الذُّبابى . . .

تلك والله هى أسبابُ السعادة والقوة . أما المصائبُ كلها ، فهى فى إغفالِ القلب الإنسانى عن ذكر الله .

* * *

قال : ولما صحَّت تَوبتى ، وقَوِىَ اليقينُ فى نفسى ، كَبُرَت روحى واتسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمالُ الإلهىُّ ساطعاً من كل شىء ، وكان الصبحُ يطلعُ علىَّ كأنه ولادةٌ جديدة ، فأنا دائما فى عُمر طفل ، وجاءنى الخير من حيث أحتَسبُ ولا أحتسب ، وكأنما نمتُ فانتبهتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحىُّ فى الزمن الحىّ .

ولقد أفدْتُ من الآية طبيعةً لم تكن فىَّ ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً ، فأصبح من خِصالى أن أرى الحاضرَ كلَّه متحركًا يمرُّ بما فيه من خيره وشره جميعًا ، وأستَشْعِرَ من حركته مثلما ترى عيناى من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحت رِحاله وهو يُغِذُّ السَّير .

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشى مطمئنًّا تائبًا متوكلاً حتى دعانى رجلٌ ذو نعمة ومُروءة وجاه ، وكأنما كلَّمه قلبُه أو كلمه وجهى فى قلبه فاستَنْبأنى ، وبثَثْتُهُ حالى واقْتَصَصْتُ قِصتى . فقال : سيُحييك الله بالطفل الذى كدتَ تقتله فارجع إلى دارك . ثم وجَّه إلىَّ دنانير وقال : اتَّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال يبلغَ أشُدَّه . وقد صدق إيمانُه وإيمانى ، فبارك لى الله ونما طفلُ المال وبلَغَ وجاوَزَ إلى شبابه .

* * *

قال المسيَّب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الإمام : ما أشبه النكبَةَ بالبَيضة تُحسَبُ سجنًا لما فيها ، وهى تحوطُه وتربِّيه وتُعينُه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبرُ إلى مدة ، والرضى إلى غاية ، ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرجُ خلقًا آخر .

وما المؤمنُ فى دنياه إلا كالفَرْخ فى بَيضته ، عملُه أن يتكوَّن فيها ، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل .

الانتحار

٤

قال المسيَّب بنُ رافعُ : ومدَّ الإمامُ عينَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جلّى بنظره كأنما يتطلّعُ إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَل . والصدق إذا كَذَب ؛ ثم ردَّ بصرَه علَيَّ كأنه يُعَجِّبُني من عجبِه ؛ ثم سَجا طرفُه كأنما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتمسُ رأيَ قلبه . وتبيَّنتُ في وجهه انقباضًا خَيَّل إليَّ أن الشيطانَ جاءه بهذا الرجل يُفْحِمُهُ به يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحين يتحمَّس في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لاغِنى عنه في إنشاء قصةِ كُفْر !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْرى*) يتَخَوَّضُ الناسَ ليجيءَ فيحدِّثَنا حديثَه في قتْلِ نفسه والاثْم بربّه ؛ فلو قيل لي : إن قَوْسَ السماء بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً ، لكان هذا كهذا في تعاظُمِه وإنكارِه والعجَب منه ؛ فأبو محمد من الرجالِ الحُمْسِ [1] الذين لو كَفَر أحدُهم ثم قيل « إنه كفر » ، لقَصَّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقَصِّر لفظُ الجنون عن وصف حكيمٍ تألّى أن يعملَ عملاً يَخرجُ به من الكون ، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماء ولا تناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئًا من نفاق العقل وتأدُّبِه في أداء المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبِهُهُ جنونٌ ولا كفر .

ونعوذُ بالله من خِذلانه ؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّده وإيغاله في الدين — كالذي يصنعُ حبلاً يَفتِلُه فَتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يُجاذبه الشيطانُ حَبْلَه ، فإذا هو كان في الوهَن مثلَ

---

* يعنى المؤلف بأن محمد البصرى هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات وقد سبقت إشادتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه — فانظر كل ذلك فى موضعه من كتابنا (حياة الرافعى) وأكثر ما يأتى فى هذا الفصل على لسان « أبي محمد البصرى » فهو من قوله بحروفه إلا قليلا من قليل .

(١) أى المتحمسين فى دينهم .

العنكبوت اتخذتْ بيتًا فى سَقْف حدّاد ؛ فرأته يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حَلْقةً فى حلْقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطًا فى خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربَّصُ به ، فلهذا ينبغى للمؤمن أن يكونَ فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محترِسٌ متهيئٌ متجددُ الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبل بها الدنيا جديدةً على نفسه بين الفترة والفترة : ومن هذا حِكمةُ أنِ يؤذنَ المؤذّن،وأن تُقام الصلاةُ مراراً فى اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إيمانى أطهرَ ما كان وأقوى .

* * *

وقال الإمام : هِيه يا أبا محمد ! فقال البَصْرى وقد رأى الكراهةَ فى وجه الإمام : لا يُفْزِعنّك أيها الشيخ ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجرىَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمى النازلةَ تنزل بنا خساراً وهى ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تَيسَّرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدَر فى شىء هى حقيقةُ هذا الشىء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيّن من حادثة لا تُصيب امرأً فى نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها . فتكونَ أعمالُ الطبيعة المعاديةِ أسبابًا فى أعمال العقل المنتصر .

وكثيرٌ من هذا البلاء الذى يُقْضَى على الإنسان ، لا يكون إلا وسائلَ من القدَر يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِه الخاصّ به ؛ فإن هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها ، ولكن دائرةَ الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحدَه . والسعيدُ من قرَّ فى عالَمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك فى مملكته ، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىُّ من لا يزال ضائعًا بين عوالم الناس ، ينظر إلى هذا الغنىِّ ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفَّق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىِّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذْ كلُّ شىء يصبح أجنبيًّا عن الإنسان ما دام هو أجنبيًّا عن نفسه .

لقد كنتُ ضالاً عن نفسى وعالَمِهَا ، فكنتُ فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ

اللِّص ، أشياؤُه هي أشياءُ الناس جميعًا ؛ واللصُّ ينظر إلى أموال الناس بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّب كَلِف ، وهي تنظر إليه بعينَيْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذِر .

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وَسِعْتُهم ؛ رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسَعَتِه ؛ هو على أيِّ حالَيه لا ينظر فى أعماق نفسه إلا شخصًا متواريا تحت الظلام يتسلَّلُ فى خَشْيَة وحذَرٍ !

وكنتُ نَزِقًا حديدَ الطبع سريعَ البادرة ؛ ومَن فَقَدَ عالم نفسه وكان فى مَثَلِ اللص الذى ذكرتُ ؛ فإن هذه الطباع تكون هى أسلحته يَدْفَع بها أو يعتدى . وما قطُّ تمكّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرُّفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شيء إذ يتصل من كل شيء بجهته السامية لا غيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحانًا لفضائله وإثباتًا لها . وقد يكون عدوُّك فى بعض الأمور عينًا لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسَّةِ ونِعمتُها .

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه — لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانى ؛ وهو أن يَقَرَّ الإنسانُ فى عالمَ نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شيءٍ إلهى ، ليس فيه إلا قانونُه الواحدُ المستمرُّ به إلى جهة الكمال ، المرتفعُ به من أجلِ كماله عن دوافع غيره ؛ فنَظَرُ الإنسان إلى نقص غيره هو أولُ نقْصه . والمؤمنُ كالغصن ؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَلَ لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ واستمرَّ يعمل بقانونه .

ولقد نشأتُ فى مَغْرِسٍ كريم ، على صورة من الحياة تُشبه صورَة الثمرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مَغرسها ومَرْتَبتها ما تتعيَّن به من حلاوة ونَكْهةٍ ومَذاق ؛ فلما عَقَلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ فجاريتُهم وخالطتهم ، رَأيْتُنى منهم كالتفَّاحة ملقاةً فى البصَل . . . وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً ، وكانت حديدةً فزادت حِدّة ، وظنَّت أن الحكمة قد مَسَخَتْ فى الدنيا وبدَّلتْ خَلقت البصلَة بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمَت الحرقاءُ أن الكمالَ فى هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدُهما الذى اسمُه القبح ؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركتْ ما يريد الناسُ من معناها ومعنى

التفاحة لسَمَّتْ نفسَها هى التفاحَة ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة !

ولما رأت تفاحتى أنها عاجزةٌ أن تجعلَ الشجرَ كله فى مثل مرتبتها ومغرسِها — قالت : إن الأمرَ أكبرُ من طبيعتى ، وما دام سرُّ الكون مُغْلَقًا فلا تعريفَ له إلا أنه سِرٌّ مغلَق ، ولْيَبْقَ كلٌّ شىء فى طبيعة نفسه ، فعلى هذا يَصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها .

* * *

قال أبو محمد : ولكن بقيتْ وَحْشةُ الدنيا وجَفوتُها ، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالَمى ، ولا تأكَّدَتْ عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى مُنْبجسًا فى رُوحى بِشرِّه ، وكانت الدنيا بهذا كالمتطابِقة فى رأيى على معنى واحد ، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَبًا متعفِّفًا ؛ وما أشبهَ فراغَ الرجولةِ من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هى الرجولةُ البليدة !

والمرأة تُضاعِفُ معنى الحياة فى النفس ، فلا جَرَمَ كان الخَلاءُ منها مضاعَفةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن عَلِم وجَهلَه مَن جَهِل ، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميّت ، وكنت أُحِسُّ فى كل ما حولى وحشةً عقليةً تُشعرُنى أن الدنيا غيرُ تامّة ؛ وكيف تتمُّ فى عينى دنيا أراها غيرَ الدنيا التى فى قلبى ؟

وعرفْتُ أن كلَّ يومٍ يمضى على الرجل العَزَب المتعفِّف لا يمضى حتى يهيئُ فيه مرَض يومٍ آخرَ . ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالِكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحىِّ الذى نَقَضَ آيتَها وافتَاتَ عليها ، وجَعلَ نفسَه كالإله لا زوجةَ له ولا صاحبة !

وايْمُ اللهِ إن الشيطانَ لا يفرح بالرجل الزانى وبالمرأة الزانية ما يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسلوبها ، أما فى هذين فالشيطانُ رذيلةٌ فى أسلوب فضيلة . . ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى ، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشتُ بقلب مُغلَقٍ وعقلٍ مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مُغلقًا عقلُهُ ، وكان قلبى مفتوحًا لأفراح هذا الكونِ العظيم !

ومضت أيامى يَضْربُ بعضُها فى بعض ، ويُمرِضُ بعضُها بعضًا حتى

انتهت مُنتهاها ، وجاء اليومُ المُدْنَفُ الهالكُ الذى سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسى : كم تعيشين ويحكِ فى أحكام جسدٍ مُختلّ لا تَصْدُقُ أحكامُه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معكِ فى طبيعته ؛ ففيم اجتماعُكما إلا على بلائى ونكَدى ؟

لم تصطلحا قطّ على واجبٍ ولا لذّة ، ولا حلالٍ ولا حرام ؛ فأنتما عدُوّان لا همّ لكليهما إلا إفسادُ المسرّةِ التى تَعْرِضُ للآخَر . وما أدرى بمن يسخَرُ الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنّى اقترافَها ، كالفاجر الذى يُواقِعُها ويقتحمُها !

ويحكِ يا نفس ! إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدّم لى إلا رغيفًا وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرَك . آه ، آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلات[1] ؛ إن هذا لا يُلْبثُنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همّى وكبيرُه ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهلَكة التى لا باقيةَ لها ، فإن وجهى المتكلّحَ المتقبّضَ يَدُلُّ منى على أعصاب مُحتضرَة نَهَكتْها أمراضُها ووساوسُها ، وإنما وجهُ الإنسان فى قُطوبه أو تَهلّله هو وجهُه ووجهُ دنياه تَعبسُ أو تبتسم .

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ؛ فإن حِبالةَ الصّيد — صَيدِ الوحش — لا تكون من خَيط الإبرة . . . ! وأرانى أصبحت كإنسانٍ حجَرىّ ليس فى طبيعته الالتواءُ إلى يمينِ الحياة ويسارِها ؛ ويُخَيّلُ إلىّ من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجَر ، لا تَفرِضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحوار كالميّتة ، لا تُجيب ولا تعترض ولا تُنكِر ، وكنتُ أظنّها تُراوِدُنى على الحياة أو تردُّنى عن غَوايتى ؛ فلأنى سكونُها جزَعا ، وأيقنتُ أن الشيطانَ بينى وبينها ، وأنه أخذ بمَنافذِها ، فأردتُ

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله فى الباقيات مستحيل .

الصلاةَ فَثَقُلْتُ عنها ورأيتُنى لا أصلُح لها ، بل خُيِّل إلىَّ أنى إذا قمتُ إلى الصلاة فإنما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى إليه ، ثم يأخذنى ويردُّنى ، حتى توَهمتُ أنى جُنِنْت ، وكأنما كان يريد اللعينُ بقيَّةَ إيمانى يجاذبُنى فيها وأُجاذبه ، فلم ألبثْ أن مسَّنى خبَالٌ وألقيتُ هذه البقيةَ فى يديه !

ثم أفَقتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحفَ) يَرقُبنى قريب ، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبى . بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خَصمى فى موقفى لا ظَهِيرى ؛ كأنى جعلتُه مصحفًا عند زِنديق ، فكان كلُّ إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفْتُ عن حَمل المصحف كما ثقلتُ عن الصلاة ، فبقى الطاهر طاهراً والنجس نَجِسًا .

ولم تكن نفسى فىَّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو ، غير أنه هو ما يمكنُ أن يكونَ معقولاً من تَخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تتَصَاغرُ فيهما الدنيا ، ويتَحاقَرُ بهما العقل .

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملت ، وكانت المُوسى قد أصابت من يدى عِرْقا ناشزاً مُنْتَبِراً ، ففار الدَّمُ وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِبَ عنه الصخرُ فانشقَّ فانبثق .

وتحقَّقْت حينئذ أنه الموتُ فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيَّبُ راوى القصة : وتجهَّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عند ما قال : « فنظرْتُ فرأيت » .

وارتجَّ المسجدُ بصَيحةٍ واحدة : فرأيتَ ماذا ؟ رأيتَ ماذا ؟

وبَعَثَت الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوه أشرفَتْ من المصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثَّلَتْ آياتُ الجنة كلها وجهًا لكانَتْه فى نَضرته وبشاشته . وغَمْغَمَت الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسمعْ

منها شيئًا ، ولكنّ نظرَها إلىّ كان يؤدّى لى معانيَها ، وكأنها تقول : « أكذلك المؤمن . . . ؟ » .

ثم غابت وتخلّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثّلت آياتُ الجحيم كلُّها وجهًا لكانته فى نُكْرِه وهَوْله ، وخُيِّل إلىّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكّرتُ ، فوَقَعَ لى مما قام فى نفسى من اللّعنة أنها : « تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتَبَّ . . . » .

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتَغيَّمتِ الدنيا ، فأيقَنْتُ أن آثامى قد أقبلتْ علىّ ظُلمةً بعد ظُلمَة ، والتمعَ شىءٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدّمُ يتخايَلُ فى عينىّ كأنه شُعَلٌ تتلَوّى ، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتُها **طرائقَ ممتدّةً** لرُوحى تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدة **بقيتْ حيّةً تأكلُ فى قلبى** أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ **بينى وبين الله حُمقى ؟** » .

* * *

ويقولون : إن أختى قد رأتنى أتَشَحَّطُ فى دمى فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأىٍ ما استطاع حبْسَ الدم ، واحتال حيلتَه حتى أسَفَّ الجُرحَ دواءً وضَمَدَه ؛ فجعلتُ أثوبُ نَفَسًا بعد نَفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينىّ ففتحتهما ، فإذا الأشياءُ تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ ، كأنها تَتَخلّقُ جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلْتُ شيئًا بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتْ إلىّ ساخرةً منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدّد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجدّد إيمانى بالله . ولم أكد أفعل حتى أحسستُ أن قوّةَ الوجودِ كلّها مستقرّةٌ فى روحى ، وخُيِّل إلىّ أنى

أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قُوَّةَ جبالِها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدَّداً كالميّت لا يتماسَكُ من الضعف !

فأيقنتُ حينئذ ما أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فِكر : أيقنت أنها مُعجزةُ الإيمان الجديد الغضِّ ، المتّصِل بالله لتوّه كإيمان الأنبياء دونٍ أن تلمَسه شهوة ، أو تعترضَه خاطرة ، أو تكدّرَه ذرَّةٌ واحدة من فكرٍ أرضىٍّ دَنِسَ .

* * *

قال المسيّب : ثم جلس المتحدّث ، وكان الناسُ فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ، ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه ؛ فسكت الإمام ولم يتكلم ، ليدعَ كلَّ نفسٍ تكلمُ صاحبها .

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وأطرقَ الناسُ قليلاً بعد خبَرِ (أبي محمد البَصْري) ؛ إذ كان كلٌّ منهم قد جَمَعَ بالَه لِما سمع ، وأخذ يَحْدِسُ ، في نفسه ويراجعُها الرأيَ ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذ العصر وما يكاد النهارُ يُشْعِرُنا بإدباره ، حتى اعترَضَتْ في شمسه الغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنتْ أن تَغرُب. وكان إلى يساري فتًى ريَّانُ الشباب ، حسَنُ الصورة ، وَضيءٌ مُشرِقٌ ، له هيئةٌ وسَمْت ، أقبلَ على الأيام ، وأقبلت الأيامُ عليه .

فسمعني أطِنُّ على أُذن (مجاهد الأزْديّ) ؛ وكنت أعرفُه شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنه لم يبقَ من النهار يا مجاهد إلا مثلُ صبرِ المحبِّ دَنا له المَوْعِد ؛ ولم يبقَ من الشمس إلا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه ، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها ، ولكن بعد أن تُسقطها من هنا ومن هنا ، لترى جمالَ جسمها هنا وهنا !

فاهتزّ الفتى لهذه الكلمات ، وسالت الرقّةُ في أعطافه ، وقال : يا عمّ ، أما ترى ما بقي من النهار كأنه وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَه وليس حوله إلا كآبةُ الزمن . . . ؟

قلت : كأن لك خبراً يا فتى ، فإن كان شأنُك مما نحن فيه فَقُصَّه علينا وعَلِّلْنا به سائرَ الوقت إلى أن تجِبَ الشمس، ولعلك طائرٌ بنا طَيرةً فوق الدنيا .

قال : فَمَهْ ؟

قلت : تقومُ فتتكلم ، فإني أرى لك لساناً وبياناً .

قال : أو يَحْسُنُ أن أتكلم في المسجد عن صَرْعةِ الحب وصريعِه ، وعاشقةٍ وعاشق ؟

فبادر مجاهدٌ فقال : ويحك يا فتى ! لقد تَحجَّرْتَ واسعاً ؛ إن المؤمن

ليصلِّى بين يدى الله وكتابُ سيئاته فى عنقه منشورٌ مقروء . وهل أوقاتُ الصلاة إلا ساعاتٌ قلبيَّة لكلِّ يومٍ من الزمن ، تأتى الساعةُ مما قبلها كما تأتى توبة القلب مما عملَ الجسم ؟ إنما يتلقَّى المسجدُ من يدخلُه لساعتِه التى يدخله فيها ، ولو أنه حاسبَه عن أمسِ وأوَّلَ منه وما خلاَ من قبل ، لطردَه من العتَبة ! إن المسجد يا بنىّ إنما يقول لداخله : ادخلْ فى زمنى ودَعْ زمنَك ، وتعالَ إلىَّ أيها الإنسانُ الأرضىّ ، لتتحقَّقَ أن فيك حاسَّةً من السماء ، وجِئْنى بقلبك وفكرك ، ليَشْعُرا ساعةً أنهما فىَّ لا فيك(١) . ولسنا الآن يا بنىّ فى مُتَحدَّثِ كنَدِىِّ القوم يتطارحون فيه أخبارَهم ، بل نحن فى مجلسِ عالمٍ تكلمتْ فيه رَقَبةُ هذا ورقبةُ هذا بما سمعتَ ؛ فقُم أنتَ فاذكرْ عِلمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيش الحبّ والشباب الذى يُشبه الكلامُ فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والتقبضِ من هناك على البرْق !

* * *

قال المسيَّب : فانتهضَ الفتى ، ورأيت مجاهداً يتنهَّد كأنما انصدعتْ كبِدُه : فقلت : ما بالُك ؟ قال : إن شبابى قد مرّ علىَّ الساعةَ فتَسمّتُ منه فى بُرْدَةِ هذا الفتى ، ثم فقدْتُه فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً ، وجاءنى الحزنُ من إحساسى بأنى شيخٌ ، حُزْنَ مَن هَمّ أن يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدّ . . . !

وتحدّث الفتى ، فإذا هو يدُيرُ بين فكَّيه لسانَ شاعرٍ عظيم ، يتكلم كلامَه بنفسَين : إحداهما بَشَريةٌ تصنع المعنى واللفظ ، والأخرى عُلْويةٌ تُلقِى فيها النارَ والنور .

قال : إن لى قصةً أيها الشيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذى دُفنتْ فيه معانيها ؛ وقد تأتى القصةُ من أخبار القلب مُفْعَمَةً بالآلام والأحزان ، لا يُراد بآلامها وأحزانها إلا إيجادُ أخلاق للقلب يعيشُ بها ويتبدّل . والذى قُدّر عليه الحبُّ لا يكون قد أحبّ غيرَه أكثرَ مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسَه فى غيره ، وهذه كما هى أعلى درجاتِ الحبّ ؛ فهى أعلى مَراتب الإحسان .

(١) ستأتى فلسفة المسجد فى مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب ، وانظر مقالة (الله أكبر).

ومتى صَدق المرءُ فى حبّه كانت فكرتُه فكرتَين : إحداهما فكرةٌ ، والأخرى عقيدة تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر ؛ وهذه كما هى طبيعةُ الحب فهى طبيعةَ الدّين .

ولا شيءَ فى الدنيا غيرُ الحب يستطيع أن يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرة وجَنّةً صغيرةً ، بقدْر ما يكفى عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها ! وهذه حالة فوق البَشرية .

والفضائلُ عامّتُها تعمل فى نقل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تَنقل إلا أقلَّه ويبقَى فى الحيوانيَّة أكثرُه : ولكنَّ الحبّ الصادقَ يقتلع الإنسانَ من حيوانيته بمرَّة واحدة ، بَيْدَ أنه لا يكون كذلك إلا إذا قَتَله بآلامه ؛ فهو كأعلى النسْك والعبادة .

كان من خَبَرى أنى دُعيتُ يومًا إلى ما يُدْعى لمثله الشبابَ فى مجلس غناءٍ وشراب . يالَهُ من مجلس ! وقد قال تعالى : « إنّ اللهَ لا يَسْتَحْيِ أن يَضرِبَ مَثلاً ما بَعُوضةً فما فوْقَها » ، والبعوضةُ فى قصتى أنا كانت امرأة نَصرانيَّة . . . قَيْنَة فلان المغنّية الحاذقة المحْسنة المتأدّبة ، تحفَظ الخبرَ وتروى الشعر ، وتتكلم بألفاظ فيها حَلاوةُ وجهها ، وتخلُقُ النّكتة إذا شاءت خَلْقَ الزهرة المتفتّحة عليها سَقِيطُ الندَى ؛ وتجِدُّ بالحديث ما شاءت وتَهزْل ، فتجعل للكلام عقلاً وشهوةً تُضاعفُ بهما مَن تحدّثه فى شهواته وعقله !

وستجرى فى قصتها ألفاظُ القصة نفسها ، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم ؛ فقد ذكر اللهُ الخمرَ بلفظ الخمر ولم يَقُل : « الماء الذى فيه السُّكْر » ، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل : « الملَك الذى عمِل عملَ المرأةِ الحسناء فى تكبُّرها » ، وذكر الأصنامَ بأنها الأصنام ، ولم يُسمِّها : « حاملة السماء التى يصنعها الإنسان بيديه » وحكايةُ ما بين الرجل والمرأة هى كلامٌ يقبِّل بعضُه بعضًا ويلتزِمُ ويتعانَق !

قال المسيب : فتبسم إمامُنا ونظرتْ عيناه تسألان سؤالا . أما مجاهدٌ الأزدىّ فكان من هِزّة الطَّرَب كأنه على قَتَب بَعير ، وقال : لله دَرُّه فتًى ، إن هذا لبيانٌ كحيلُ العَين . . .

ثم قال الفتى : وذهبتُ إلى المجلس وقد جعلتْه هذه المغنّيةَ من حواشيه وأطرافه

كأنه تفسيرٌ لها هي . أما هي فجعلت نفسَها تفسيراً لكلمةٍ واحدة هي : « اللذّة . . . »

قال المسيَّب : وطرِب مجاهدٌ طرباً شديداً ، وسمعتُه يُخافت بصوته يقول : « لله درُّها امرأة ؛ هذه ، هذه عَدُوّةُ الحُورِ العِين ! » .

ثم قال الفتى : وتطرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلس إلى الشرب ، وما ذقتُ خمراً قطّ ، ولن أتذوقَها ولو شربها الناسُ جميعاً ، ولن أذوقَها ولو انقطع الغيثُ ولم تَمْطُر السماءُ إلا خمراً ؛ فإني مذ كنت يافعاً رأيتُ أبي يشربُها ، وكانت أمي تلومه فيها وتشتدُّ في تعنيفه وتحتَدِم ، وكانا يتشاحنان فينالُها بالأذى ويَنْدَرِئُ عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول . وسكِر مرة وغلبه السكرُ حتى ثارت أحشاؤه ، فَذَرَعَه القَيْءُ فتوهَّمني وِعاءً ، وجاء إليّ وأنا جالسٌ فأمسك بي وِقاءً في حِجْري ، حتى أفرغ جوفَه ؛ وثارت أميّ لتنتزعَه وأنشأتْ تُعالجه عني فتَصارَعَ جنونُه وعقلُها حتى كفأَته على وجهه كالإناء ؛ فالتوى كالحيَّة بطناً لظهرٍ ، واستجْمع كالقُنفذ في شَوكه ، ثم لكزَها برجله أسفلَ بطنِها فانقلبت ، وأصاب رأسُها إجَّانةَ[1] العجين فتثلَّم تثليمَ الإناء كأنما شُدِخَ ضرباً بحجَر ، وانتثَر دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ ، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء ، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها ، تتوهم أنها تحميني وتدفعُه عني ؛ ثم سكَنتْ ، ولو لم تمت من الشَّجَّةِ في رأسِها لماتتْ من الضربة في بطنها !

* * *

قال المسيَّب : وأطرق الفتى هُنَيهةً وأطرق الناسُ معه ؛ فرفع مجاهد صوتَه وقال : رحمها الله ! فقال الناسُ جميعاً : رحمها الله

ثم قال الفتى : وكان عامَّةُ مَن في المجلس يعرفون ذلك مني ، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسانٍ أن يشربَ دمَ أمِّه ما شربتُ أنا الخمر . فقالوا للمغنِّية : إن هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[2] . فنظرَتْ إليّ ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة ؛ ثم

---

(١) هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوضء منه ، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما .

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك .

قالت : تَشربُ على وجهي ؟ فقلتُ لها : إن وجهَكِ يقول لي : لا تشربْ . . .
فتضاحكَتْ وقالت : أهو يقول لك غيرَ ما يقول لهؤلاء ؟ فهربتُ من كلامها بإطراقة أخرى ، ووَصلَت الإطراقتان ما بيني وبين قلبها ؛ وتنبَّه فيها مثلُ حُنوّ الأمّ على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتًا يشكوها إلى قلبها !

والتفتت لمن حضر وقالت لهم : لست أطيبُ لكم ولا تنتفعون بي إلا أن تشربوا لي ولهُ ولأنفسكم ، وانحطّ عليهم الساقي ، فشربوا أرطالاً وأرطالاً ، وهي بين ذلك تغنّيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهُها لهم من دُوني وإنما تُخالِسُني النظرةَ بعد النظرة .

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثل عَزْمتِكَ مع الخمر فإنما هما شيء واحد . ولكني كنتُ أُحِدُّ النظرَ إليها ، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المحبِّ للحبيب ، ومرةً أغْضِي عنها بنظرةِ لا تنظرُ ؛ وكأني بذلك كنت آخذها وأدَعُها ، وأصِلُها وأهجرُها . فقالت لي كالمُنكِرَة عليّ : ما بالُكَ تنظر إليّ هكذا ؟ ولكن هيئةَ وجهها جعلتْ المعنى : لا تنظرْ إليّ إلا هكذا . . . !

وأسرع الشرابُ في القوم وأفرطَ عليهم السُّكْر، فبقيتْ لي وحدي وبقيتُ لها وحدها ؛ ثم تناولتْ عودَها وضمَّتْه إليها ضمًّا شديداً أكثرَ من الضمّ ... وألمستْه صدرَها ونَهديها ، ثم رنتْ إليّ بمعنًى ، فما شككْتُ أنها ضمَّةٌ لي أنا والعود ؛ ثم غنَّتْ هذا الصوت :

ألا قاتَلَ اللهُ الحمامةَ غُدْوةً
على الغصنِ ، ماذا هيَّجتْ حين غنَّتِ ؟
فما سكتتْ حتى أوَيْتُ لصوتِها ،
وقلتُ : تُرى هذي الحمامةُ جُنَّتِ ؟

* * *

وما وَجْدُ أعرابيةٍ قَذفتْ بها
صُروفُ النوى من حيث لم تَكُ ظنَّتِ ...
إذا ذكَرتْ ماءَ العِضاهِ وطيبَه ،
وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خَبْتٍ ، أرنَّتِ ...

بأكثر مني لَـوعةً ، غيرَ أنني
أُجمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ !

وغَنَّته غِناءً من قلب يئنُّ ، وصدرٍ يتنهد ،وأحشاء لا تُخفي ما أجنَّتْ ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمي الدمعُ على صوتها ، فيرتعش ويتنزل قليلاً قليلاً حتى يئن أنينَ الباكية ، ثم يعتلجُ في صدرها مع الحب ، فيتردد عاليًّا ونازلاً ، ثم يرفضُ الكلامُ في آخره دموعًا تجري .

* * *

قال المسيَّب : فنظر إليَّ مجاهد وقال : عدُوّةُ الجنةِ واللهِ هذه يا أبا محمد ، لا تقبلُ الجنةُ من يكون معها . تقول له : كنتَ مع عدُوّتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتَشَوْا ، فاعتراهم نصفُ النوم وبقي نصفُ اليقَظةِ في حواسِّهم ، فكل ما رأوْه منا رأوه كأحلام لا وجود لها إلا خلف أجفانهم المُثْقَلَة سكراً ونُعاساً . ووثبت المغنيةُ فجاءت إلى جانبي والتصقتْ بي ، وأسرع الشيطانُ فوسوسَ لي : أنِ احذرْ فإنك رجلُ صدْق ، وإذا صدقتَ في الخمر فلا تكذبنَّ في هذه ، ولئن مَسستَها إنها لضَياعُكَ آخرَ الدهر !

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطاني أسلم وأُعِنْتُ عليه كما أعين الأنبياء على شياطينهم . ولكن اللعينَ مضى يصُدُّني عن المرأةِ دون معانيها ، وكان مني كالذي يُدني الماءَ من عَينَيْ القتيل المتلهِّبِ جَوفُه ثم يجعله دائمًا فَوْتَ فمه ، ولقد كنتُ من الفُحولةِ بحيث يبدو لي من شدةِ الفَورةِ في دمي وشبابي أني أجمع في جسمي رجالاً عِدَّة ، ولكن ضَرَبني الشيطانُ بالخجل فلم أستطع أن أكونَ رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبتْ هي لذلك وما أسرعَ ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة . . . ! فقالت أحببتُك ما لم أحبَّ أحداً ، وأحببتُ خجَلكَ أكثرَ منك ، فما يسرُّني أن تأثم فيَّ فتدخلَ النارَ بحبي ، ولو أنك ابتعتَني من مولاي ؟ فقلت : بكم اشتراكِ ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هي مني وأنا لو بعتُ نفسي ما حصلَتْ لي ؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظتَه ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبي هذا قبَلك

غنيًّا كنتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراء أوّلَ ما تحبّ، وأنا — كما ترانى — أعيش فى السيئات كالمُكْرَهة عليها، فسأعمل على أن تكون أنت حسنَتى عند الله، أذهبُ إليه حاملةً فى قلبى حُبى إياك وعفتى عنك، ولئن كانت عفةُ من لا يشتهى ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملة، إن عفةَ من يجدُ ويشتهى لتُعدُّ دينًا بحاله. ولا يزالُ حبى بكراً، ولا أزال فى ذلك عذراءَ القلب، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنى من أجْل أنفسهم، فألْبِسْنيه أنتَ من أجلك خاصة؛ وإن قوة حبى كالذى سيتألم بك ويتعذّب منك لِطُول ما يصبرُ عنك، ستكون هى بعينها قوةً لفضيلتى وطهارتى.

ثم تناولتْ عودَها وسوّته وغنتْ:

فلو أنّا على حَجرٍ ذُبِحْنا   جَرى الدّمَيان بالخبر اليقينِ[1]

وجعلتْ تتأوّه فى غنائها كأنها تُذَبح ذبحًا، ثم وضعت العودَ جانبًا وقالت: ما أشقانى! إذا اتفقت لى ساعةُ زواجى فى غير وقتها فجاءت كالحلم يأتى بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء.

ثم سألتنى: ما بالكَ لم تشرب الخمر ولم تدخل فى الديوان؟ فبدرَ شيطانى المؤمن... وساق فى لسانى خبرَ أمى وأبى، فانتَضَحَت عيناها باكيةً وتمَّ لها رأىٌ فىّ كرأيى أنا فى المسكر؛ وكان شيطانُها بعد ذلك شيطانًا خبيثًا مع أصحابها، وبِطْريقًا زاهداً معى أنا وحدى!

ورأيتها لا تجالسنى إلا مُتَزايِلةً كالعذراء الخفرة إذا انقبضتْ وغطت وجهَها، وصارت تخافنى لأنها تُحبنى، وهَيَّبَنى الشيطانُ إليها فعادت لا ترى فىّ الرجلَ الذى هو تحت عينيها الثّيِّبتين... ولكن القِدّيسَ الذى تحت قلبِها البِكر.

ولم يَعُدْ جمالى هو الذى يُعجبها ويُصْبِيها، بل كان يعجبها منى أنى صنعة فضيلتها التى لم تَصنع شيئًا غيرى...

---

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دمياهما على طريق واحد ثم التقيا، حكم عليهما أنهما كانا متحابين، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشانئين. وما أجملها خرافة وأشعرها.

وانطلق الشيطانُ بعد ذلك فيَّ وفيها بدهائه وحُنْكَتِه وبكلِّ ما جَرَّب في النساء والرجال من لَدُن آدمَ وحوّاءَ إلى يومي ويومها ! . . . فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عنيّ أقوى الدفع ، ثم يُغريني بكل رذائلها ولا يغريها هي إلا بفضائلي . وألقى منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة ، وألقى مني في دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقرّة . وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع غناءها ؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فيَّ ، حتى لو التصقَ جسمُها بجسمي وسارَ البَدَنُ البدنَ ، وهَمَسَ الدمُ للدم ، لكان هو هذا الغناء الذي تغنّيه .

وأصبحت كلما استقمت لحبها تَلَوَّتْ علَيَّ ؛ إذ لست عندها إلا الأملَ في المغفرة والثواب ، وكأنما مُسِخْتُ حَبْلاً طولُه من هنا إلى الجنة لتتعلَّق به . وعاد امتناعُها مني جنونًا دينيًّا ما يفارقُها ، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبها من كلَفٍ وشغَف .

وانحصرتْ نفسي فيها ، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مَدِّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهايةَ العالَم ، وما ههنا إلا آخرُ بصرِه وأوّلُ جهلِه . وانفلتَ مني زِمامُ روحي ، وانكسر ميزانُ إرادتي ، واختلَّ استواءُ فكري ، فأصبحتُ إنسانًا من النقائض المتعادية أجمعُ اليقين والشكَّ فيه ، والحبَّ والبغضَ له ، والأملَ والخيبةَ منه ، والرغبةَ والعزُوفَ عنها ، وفي أقلِّ من هذا يَتَخَطَّفُ العقل ، ويتَدَلَّه من يتدلَّه .

ثم ابتُليتُ مع هذا اللَّمَم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي ، فكنتُ أتطاير قِطعًا بين السماء والأرض ، وأجِدُ عليها وأتنكّرُ لها ، وهي في كل ذلك لا تزيدني على حالة واحدة من الرَّهبانية ؛ فكان يَطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة ، ثم إذا أنا رُمتُه استحال ثلجًا ، وقَرَّحَت الغَيرة قلبي وفتَّتَت كَبدي من عابدةِ الشيطان مع الجميع ، الراهبةِ مع رجلٍ واحدٍ فقط ! . . .

ورجعت خواطري فيها مما يُعقَلُ وما لا يُعقل ؛ فكنت أرى بعضَها كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيبٍ في آخر الدنيا ، وبعضَها كأنه خارجٌ من دار حبيبٍ في جِواري ، وبعضَها كأنه ذاهبٌ بي إلى المارستان . . . !

ورأيتُنا كأننا فى عالَمين لا صلةَ بينهما ، ونحن معاً قلباً إلى قلب ، فذهبَ هذا بالبقية التى بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لى مَنْجاةً إلا فى قتلِ نفسى لأ زهقَ هذا الوحش الذى فيها .

وذهبتُ فابتعتُ شُعَيرات من السمِّ الوَحِيِّ الذى يُعْجِلُ بالقتل ، وأخذتُها فى كفى وهممتُ أن أقْمَحَها وأبتلعها ، فذكرتُ أمى ، فَظَهَرَت لخيالى مشدوخةَ الرأسِ فى هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأةُ فى هيئة جمالها ، وثَبَتَتْ على عينى هذه الرؤيا ، وأدْمَنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل ، وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطَغَتْ عِبرة الموت على شهوةِ الحياة فمحتْها ، وصَحّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقرَن فى النفس صورةٍ امرأة ميتة إلى صورة المرأةِ الحيَّة ، وكلما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك ، فإذاً استمر ذلك فإن الميتَة تُميتها فى النفس وتُميت الشهوةَ إليها ، ما من ذلك بُدٌّ ، فليجرِّبه من شك فيه .

وانفتح لى رأىٌ عجيب ، فجعلتُ أتأمل كيف آمن شيطانى ثم كَفَر بَعْدُ ، على أن شيطانها هى كَفَر فى الأول ثم آمن فى الآخر ؟ فوالله ما كنتُ إلا غبياً خامدَ الفطنة ، إذ لم يَسْنَح لى الصوابُ حتى كدت أزهق نفسى وأخسر الدنيا والآخرة ؛ فإن الشيطان — لعنه الله — إنما ردّنى عن الفاحشة وهى ذنب واحد ، ليرمينى بعدها فى الذنوب كلها بالموت على الكفر !

وردَّ إلىّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلى . ومَن ابْتُلِىَ ببلاء شديد يزلزل يقينَه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأنما خُلِقَ لساعته ؛ فلعنْتُ شيطانى واستعذْتُ بالله من مكرِه ، وألقيت السمَّ فى التراب وغيَّبتُه فيه ، وقلتُ لنفسى : ويحكِ يا نفس ! إن الحياة تعمل عملاً بالحى ، أفترضَين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفتِ وما علمتِ ، ثم يكون عملُها بك أنت القعودَ ناحيةً والبكاءَ على امرأة ؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصَّاب ، وبين سرقة لحم امرأةٍ من دار أبيها ، أو زوجِها ، أو مولاها . . . ؟

أيتها النفس ، إن إيمانَ أسلافِنا معنا ؛ إن الإسلامَ فى المسلم .

* * *

قال المسيَّب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح صيحةَ النصر : الله أكبر ! وجاوبه أهلُ المسجد فى صيحةٍ واحدة : الله أكبر ! ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذّن لصلاةِ المغرب . الله أكبر . . .

الانتحار

٦

تتمة

قال المسيَّب بنُ رافع : وانفضَّ مجلسُ الشيخ ، ودَرَجَتْ بعده أعوامٌ فى عدَّة الشهور من حَمْل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلَغها من خير الدنيا وشرّها ، مما أعرفُ وما لا أعرف ؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزدىّ ، نسمع الحَسَنَ[1] ونأخذ عنه ؛ فإنّا لسائران يومًا فى سِكّة بنى سَمُرَة ، إذ وافقْنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرعَ إليه مجاهد فالتزمَه وقال : مرحبًا مرحبًا بذى نَسَب إلى القلب . وسلَّمتُ بعده وعانقته ، ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخِرُ أوّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هى ؟

فضحك الرجل وقال : ألنَّصرانيةَ تعنى ؟ قال : آخرُها من أولها كهذا منى ؛ وأومأ إلى ظله فى الأرض ممدوداً مشبوحًا مختلطًا غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لابسُه ، وكنا فى الساعة التى يصير فيها ظلُّ كلِّ شىءٍ مِثليْهِ فهو مَزْجُ المَسْخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يا رجل ! كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثْمانها ؛ فنظرُه إلى فَراهةِ الدابة من الدّوابّ وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء .

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعةَ على طريق الإيوان[2] الذى يلتقى فيه تجارُ العراقِ والشام وخُراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحَسُنتْ بها حالى وتَأثَّلتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يَقبِض ، ولا يبيع ولا يشترى . أما « تلك » فأصبحتْ نسيانًا ذهب لسبيله فى الزمن !

---

(١) الحسن البصرى : الإمام العظيم .

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها .

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها وكيف عدْتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعينيّ وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألوانًا ألوانًا ما تنقضى ، فلما دخل بينى وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا عن قلبى وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ إليها بعينيَّ وحدهما ، فرَجعتْ امرأة ككل امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه المنزلةَ ، رجعتْ أقلَّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبِّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبر !

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التى كانت فيها . . . وأخطرْتَ فى ذهنك نيـةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ إلا النَّفْرةَ والمعْصية ؟ إن هذا الذى كان الحبَّ والهوى والعشقَ ، هو بعينه الذى صار الإثم والذنبَ والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هى فى نفسك ؟

قال : يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسى يومئذ ! أمَا والله إن الذى يقتل نفسَه من حب امرأةٍ لَغبيّ . وَيحهُ ! فليتخلَّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرَفين : أحدُهما فى اللذّة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ ما منهما بدّ . فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغَشّى بها على بصره ، ثم إنْ هو اتجه بطرَفه السعيد إلى حظّه المقبِل واتفقت اللذّةُ للمحب ، أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقىّ إلى حظّه المُدْبر ، وقعت الحماقاتُ فنونًا شتَّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخراً فِعلَ اللذة ، فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضًا . وهذا تدبيرٌ من الرحمة فى تلك القوّة المدمِّرةِ المسماةِ الحبّ . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام ما دام تحقُّقُها هو فناءَها ؟

خذْ عنى يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شىءٌ يُدْرَك ، ولكنّ من عظمَةِ الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكُه » .

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علمًا ، فمن أين لك هذا وعمن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحى ؟

قال الرجل : لا ، ولكن تعاليا معى إلى الدار فأحدّثكما .

* * *

قال المسيّب : وذهبنا معه ؛ فأُتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتْنا الدارُ أن ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلتْ عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيديَنا قال مجاهد : هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَن ؟ قال : أبو عُبَيد . قال : هيهِ يا أبا عبيد . . .

فأفكرَ الرجلُ ساعةً ثم قال : عهدُكما بى منذ تِسْعٍ فى مجلس الإمام الشعبىِّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ فى بقيةٍ من النعمة أتجمَّلُ بها ، وكانت تُمسكُنى على موضعى فى أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِد عيشى ووقعْتُ فى الأيام المقعَدَةِ التى لا تمشى بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاء ليصْطَلِمَ ويُخرِبَ ويُفسِد ، فأثَّر فىّ أقبحَ آثاره ، فبعتُ ما بقى لى وتحملتُ عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيّر حالى تغيَّرت نفسى ، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدعُ الماضىَ فى مكانه وأمضى إلى ما يستقبلُنى .

فالتمستُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلما كنا فى الطريق ، سلبَنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تَحويه ، ونجوتُ أنا راكبًا فرسى وعُمْرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هى الأداةُ الإلهيَّة ، والباقى كلهُ هو من أنفسنا لأنفسنا والأمرُ فيه هيِّنٌ والخَطْبُ يسير .

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناس لما نكَبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُروضَ اللصِّ للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيدىَ الناهبة ؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشرُّ إلا حالةً يتلبَّس بها من يستطيع أن يتخلصَ منها . فإذا كان ذلك فأصلُ السعادة فى الإنسان ألا يعبأَ بهذه الحالات متى عَرَضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشرَّ كما يراه واقعًا فى غيره ؛ فالمرأة العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالة من الفُجور ، ونظرتْ إلى نفسها وحظِّ

نفسها ، فقد تعمَى وتَزِلّ ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفسًا أخرى تُريها الأشياء مجردةً كما هى فى حقائقها

قال : ومضيت على وجهى تتقاذفنى البِقاعُ والأمكنةُ ، وأنا أعانى الأرضَ والسماء ، وأخشى الليلَ والنهار ، وأكابدُ الألمَ والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح ، قَطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحَسَره الكَلالُ ونَحتَه الثِّقل الذى يحمله ، فجاء ببِنْيةٍ غيرِ التى كان قد خرج بها . وكانت أيامى هذه عمراً كاملاً من الشقاء ، جعلتنى أوقن أن هؤلاء الناسَ فى الحياة إنْ هم إلا كالدّواب تحت أحمالها : لا تختار الدابةُ ما تحملُ ولا من تحمل ، ولا يُترَكُ لها مع هذا أن تختارَ الطريق ولا مدةَ السير ؛ وليس للدابة إلا شيئان : صبرُها وقُوتُها ؛ إن فقدتهما هلكتْ ، وإن وَهَنَا فيها كان ضعفُها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتًا من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانيةِ البشر جميعًا ، لا تبالى كيف وقع وفى أىّ وادٍ هلَك ، فلا ينفع الإنسانَ حينئذ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال ، وصبرِه الذى هو أقوى القوّة ، وقناعتِه التى هى أغنى الغنى ، وجهلِه الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكّلِه الذى هو إيمانُ فطْرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعيمًا ، ولا متاعًا ولا منزلةً ، ولا حظًّا ولا جاهًا ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقّاءِ من السقّاء ؛ ولعلك لو سألتَهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل : إن الذى فوق ظهرى ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمْح !

ولكنّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطَوِّحُه البؤسُ والشقاءُ وراء الإنسانية ، لا ينظر لغير الناس ، فيزيده ذلك بؤسًا وحسرة ، ويَمحقُ فى نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظًا ، وقناعتَه سخطًا ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلِكة أعجزها أن تُهلك أحداً فلا تجد من تُدمِّره غيرَ صاحبها ؛ فإذا هى

وجدتْ مَسَاغًا إلى الناس فأهلكتْ وعاثَتْ وأفسدتْ ، جعلتْ صاحبَها إما لصًّا أو قاتلاً أو مجرمًا ، أيّ ذلك تيسر !

* * *

قال : وكنتُ أعرف فى البصرة فلانًا التاجر من سَراتِها ووجوهِ أهلها ، فاستطرقْتُه ؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خُراسان ، وليس يعرفنى أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحداً غيرَه ؛ فكأنما نُكِبتُ مرةً ثانية بغارةِ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعت علىّ فى هذه المرة طريقَ أيامى ، وسلبتْنى آخرَ ما بقِى لنفسى ، وهو الأمل !

ورأيتُ أنه ما من نزولى إلى الأرض بُدّ ، فأكونَ فيها إنسانًا كالدابة أو الحشَرَة : حياتُها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأْى إلا أن أسخَرَ من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوىُّ الكريم ، قبل أن تسخرَ هى منى إذا جئتها وأنا الطامعُ العاجز !

وفى الأرضِ كفاية كلِّ ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هى لا بطريقةِ الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغيير والتبديل وتحوُّلِ شىءٍ إلى شىء ، فهذا الظّبيُ الذى يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أُكِلَ ولا أنه افتُرِسَ ومُزّق ، بل هو عندها قد تحول قوةً فى شىءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خَطْبٌ طويل فى حكاية أوهامٍ من الخوف والوجَل ؛ كما لو اخترعتَ قصةً خرافية تحكيها عن أسد قد زَرَعَ لحمًا . . . فتعهَّده فأنبتَه فحصَده فأكلَه ، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكِلِه ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعْتَنى أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىّ وعليك !

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعًا فى الإنسانية عامتِها وفى الأشياء جميعِها ؛ فإذا وقع فيه هو ضجَّ وسَخِط ، كأن له حقًّا ليس لأحدٍ غيره ، وهذا هو العجيبُ فى قصة بنى آدم ، فلا يزالُ فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تُفهَم هنا ؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللذةِ فى الأرض هو دائمًا باعثَ الحماقةِ الإنسانية .

قال أبو عُبيد : وذهبتُ أعتَمِلُ بيديّ وجسمى على آلام من الفاقة والضُّرّ ، ومن الخيبة والإخفاق ، ومن إلحاء المسكَنة ، وإحواج الخَصَاصة ؛ فلقد رأيتُنى وإنّ يدى كيدِ العبد ، وظهرى كظهر الدّابة ، ورجلى كرجل الأسير ، وعنقى كعنق المغلول ، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلا بقُرص من الخبز ، ولقد رأيتنى أبذُلُ فى صيانة كلّ قطرةٍ من ماء وجهى سحابةً من العرَق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤسًا لى إن سألتُ وإنْ لم أسأل !

وما كان يُمسكنى على هذه الحياة المُرَمَّقَةِ ، تأتى رَمقًا بعد رَمَق فى يومٍ يوم — إلا كلامُ الشعبىّ الذى سمعتُه فى مسجد الكوفة ، وقولُه فيمن قتل نفسَه ؛ فكان كلامهُ نوراً فى صدرى يُشرق منه كلّ يوم مع الصبح صبحٌ لإيمانى . ولكن بقيتْ أيامُ نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضَرَبانٌ من الوجَع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضَرَبَ عليه ، فكان الشيطانُ لا يجد منفذاً إذاً إلا منها . وفقدت الصديقَ وَعونَه ، فما كان يُقبِل علىّ صديقٌ إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسَّم الرجل وقال : إذا فرغَت الحياةُ من الذى هو أقلُّ من الممكن ، فكيف يكون فيها الذى هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحدٍ يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شعرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعَطَّرة ... والبؤسُ يقَظةٌ مؤلمة فى القلب الإنسانىّ تُحرَم عليه الأحلام ؛ وما الحبُّ من أوّلهِ إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض !

* * *

قال أبو عُبَيد : وتَضَعضَعْتُ لهذه الحياة المخزيةِ وأبرَمتْنى أيامُها ، وحملتُ فىَّ الميّتَ والحىّ ، ورأيتُ الشيطانَ — لعنه الله — كأنما اتخذنى وعاءً مُطَّرَحًا على طريقه يُلقِى فيه القُمامة ... ، وظهر لى قلبى فى وساوسه كالمدينة الخَرِبةِ ضَرَبَها الوباء ، فأعمرُ ما فيها مَقْبرتُها ؛ وعاد البؤسُ وَقاحَ الوجهِ لا يستحى ، فلا أراه إلا فى أرذلِ أشكاله وأبردِها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شىء من الحياء فيأتى فى أسلوبِ معتذرٍ كالمرأة الدميمةِ فى نقابها .

وقلت لنفسي : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عُمرٌ أراه كالأسيرِ أُقيم على النِّطع وسُلَّ عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقِمُ بأفظعَ من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسنَ من تعجيلها !

وبتُّ أؤامرُ هذه النفسَ في قتلها وأحدِّثها حديثَ الموت ، فسدَّدتْ رأيي فيه وقالت : ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّن أصبح كالمقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته ؟ بَيْدَ أني ذكرتُ كلام (الشعبيّ) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كلَّه ، فجعلتُ أهُذُّه[1] ما أترك منه حرْفًا ، واتخذته متكلمًا مع نفسي لا كلامًا ، كنتُ كلَّما غلبني الضعفُ رفعتُ به صوتي وأُصغيتُ كما أصغي إلى إنسان يُكلِّمني فرأيتُ الشيطانَ بعد ذلك كاللصِّ إذا طمع في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانيًا قويًّا فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدتُ له السكينةَ في قلبي فنمت ، فإذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به ، فكيف الذي رآه بعينيه ؟

رأيتُني ميّتًا في يد غاسله يُقلِّبه ويغسله كأنه خِرْقة ؛ ثم حُملتُ على النعش كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى عليّ الإمامُ الشعبيّ في مسجد الكوفة ، ثم دُلِّيتُ في قَعْرٍ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ عليّ ، وتركت وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخَ في الصُّور وبُعْثرت الأمواتُ جميعًا ، فطرنا في الفضاء ، وكانت النجومُ غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصَات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجَّهتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحدِ في الساعة بعد الساعة ندَروا وتَبَعثَروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العُمر المؤلم ؛ فنظرتُ ،

---

(١) الهذ : الإسراع في القراءة .

فإذا الزمنُ قد ظهر فى أبديَّتِهِ ، ورجع الماضى حاضراً بكل ما حَوَى كأنه لم يمض ، وإذا عمرى كلّه لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أنى لم أفتدِ ألمَ اللحظة القصيرةِ القصيرة ، بعذاب الأبدِ الخالدِ الخالد .

وجِيءَ على أعين الخلْقِ بأنعمِ أهل الدنيا وأكثرِهم لذّاتٍ فى تاريخ الدنيا كلّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مَن كانَ على الأرض منذ خلَقها الله إلى أن طواها . ثم غُمِسَ هذا المنعَّمُ فى النار غَمْسَةً خفيفةً كنَبضَةِ البرْق ، وأخرْجَ إلى المحشَر ، وقيل له والناسُ جميعًا يسمعون : هل ذُقتَ نعيمًا قطّ ؟ قال : لا واللهِ .

ثم جِيءَ بأتعسِ أهل الأرض وأشدّهم بؤسًا منذُ خُلقت الأرض ، فغُمسَ فى الجنة غَمْسَةً أسرعَ من النسيم تحرّكَ ومر ، ثم أُخرِجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذُقت بؤسًا قطّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهى تفور تكاد تَميّزُ من الغيظ ؛ فأيقنت أن لها نفْسًا خُلقت من غضَبِ الله . وخرج منها عنُقٌ عظيم هائل ، لو تضرّمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفًا صِنفًا من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرّةً واحدة كالمغناطيس لتُرابِ الحديد ؛ وقَذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسِدين فأطارَهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قومًا قومًا ، وقد أُلجمَنى العرَقُ من الفزَع ؛ ثم طِرتُ أنا فيه ، ونظرتُ ، فإذا أنا مُحتبسٌ فى مُظلمة نارية كالهاوية ، ليس حولى فيها إلا قاتلو أنفسهم . ولو أن بِحار الأرض جُعلَ فيها البحرُ فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبعْدِ ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسْجَرُ ناراً تَلَظَّى ، لكانت هى الهاويةَ التى نحن فى أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبي : أن عُصاةَ المؤمنين الموحِّدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا فى النار أحياءً وجوارحُهم موْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبَّحته فكرُمَت بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذَّبون عذابًا فيه الرحمة ، ثم يُخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبى رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمِن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذى إلى جانبى : وأنا ، أفلا ينتظرنى إيمانى ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرجُ الصوتُ من حلقه ، إذ كان قد فرّاه وبقى مَفْرِيًّا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن فى قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيةٌ صالحة ، فلا تزال تسلُخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تَحسّى من السم فمات ظمآنَ يتلظّى جوفُه ، فلا تزال تَنْشأ له فى النار سحابةٌ رَوِيةٌ تَبْرُقُ بالماء ، فإذا دنتْ منه ورَجاها ، انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تَنشأ وتنفجر !

وقال رجل : إنما كنت مجنونًا ضعيفًا عاجزاً فأزهقتُ نفسى . فنودِىَ : أو ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقوىٌّ لا ضعيف ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنتَ تعقل بالأقلّ أنك ستموت ، وكنت تَقوَى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشرّ .

وقال رجل عالم قد حزّ فى يده بسكين فمات : « لم يكن الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شىء يدرك » . فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكنّ من عَظَمةِ الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكه ! » .

* * *

قال أبو عُبيد : ثم انتصب بإزائى شيطانٌ ماردٌ أحمر ، يلتمعُ التماعَ الزجاج فيه الخمر ، فقام فى وجهى وقال : بماذا جئت إلى هنا يا عدوّ الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفَعَتْ فيك الخمرُ التى لم تشربها ، اخرج ، إن إيمانك ينتظرك

فصحت : الحمد لله ! وتحرك بها لسانى ، فانتبهت .

لقد علمت أن الصبرَ على المصائب نعمة كبرى لا يُنعِم الله بها إلا فى المصائب .

وحى القبور *

ذهبتُ فى صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسى بنفسى إلى المَقْبَرَة ، وقد مات لى من الخواطرِ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنت أمشى وفىَّ جِنَازَةٌ بمُشَيَعِّيها ؛ من فكرٍ يَحملُ فكراً ، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطراً ، ومعنًى يَبكى ، ومعنًى يُبكَى عليه .

وكذلك دأبى كلما انحدرتُ فى هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتيه العيونُ بدموعها ، وتمشى إليه النفوسُ بأحزانِها ، وتجىء فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التى لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب ، ولكن بهذا النداء : يا أحبابَنَا ، يا أحزانَنَا !

ذهبتُ أزورُ أمواتى الأعزاءَ وأتصلُ منهم بأطراف نفسى ، لأحيا معهم فى الموت ساعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا علِى أمر الآخرة ، فأنسى وأذكر ، ثم أنظرُ وأعتبرُ ، ثم أتعرَّف وأتَوسَّم ، ثم أسْتبْطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستَظْهِرُ مما على ظهرها .

وجلستُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر ، ومن دنيا على دنيا ، وأخرَجت الذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لتجعلَها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لى الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس ، وكأن دهراً كاملاً خُلق بحوادثه وأيامِه ، ورُفع لعينىَّ كما تُرفَع الصورةُ المعلقةُ فى إطارها .

أعرف أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام ؛ وهذه هى بقيةُ الروح إذا امتزجت بالحب فى روحٍ أخرى: تترك فيها مالا يُمحَى لأنها هى خالدة لا تُمحَى .

ذهب الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يقيموا فى الدنيا ؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا

---

* أنشأها فى صبيحة يوم العيد وانظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى

ليس غير ، فهذه هي الحياة حين تعبّر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها .

الحياةُ مدةُ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات ، إن هي إلا مَصْنعٌ يُسوّغُ كلٌّ إنسان جانباً منه ، ثم يقال له : هذه الأداةُ فاصنع ما شئتَ ، فضيلتَك أو رذيلتَك .

* * *

جلستُ في المقبرة ، وأطرقتُ أفكر في هذا الموت . يا عجباً للناس ! كيف لا يستشعرونه وهو يتهدمُ من كل حيّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمَه هو بجملته ؛ وما زال كلُّ بُنْيان من الناس به كالحائط المُسلَّطِ عليه خرابُه ، يتأكّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك ! ؟

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي ! كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهي مدةُ عمل ، وكيف لا تبرحُ تنْزُو النَّوازِي بهم في الخلاف والباطل ، وهم كلما تدافعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خصْماً بخصم وردّوا كيْداً بكيد ، جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء : هذا لي ؟

أمَا واللهِ إنه ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً ، ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحماً وعظماً ، وبينهما سفاهةُ العظمِ واللحمِ حتى على السكّين القاطعة . . .

تأتي الأيامُ وهي في الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فإنما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغي أن تُصَحِّحَ أعمالُ الحياة في الناس على هذه الأصل البيّنِ ، لولا الطباعُ المدخولةُ ، والنفوسُ الغافلةُ ، والعقولُ الضعيفةُ ، والشهواتُ العارمة ؛ فإنه ما دام العمرُ مُقْبِلاً مُدْبِراً في اعتبار واحد ، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقت معاً ؛ وتكونُ الحياةُ في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيّ .

* * *

وما هى هذه القبور ؟ لقد رجعتْ عند أكثر الناس مع المـوْتَى أبنية ميتة ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوْا أنها موجودة ؛ ولولا ذلك من أمرِهم لكان للقبر معناه الحيُّ المُتَغَلْغلُ فى الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو فى الطَّرَف الآخر رَدٌّ على البيت الذى هو بناءٌ قائم لفكرة البَدْء والاستمرار ؛ وبين الطَّرفين المَعْبَدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذى يحيا فى البيت وفى القبر ، فهو على الحياة والموتِ كالقاضى بين خَصمين يُصْلح بينهما صُلحًا أو يَقضى .

القبرُ كلمةُ الصدق مبنيةً متجسِّمةً ، فكل ما حولها يتَكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هى إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت فى الأحياء كلمةُ الموت من غرور أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة ، بقى القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحًا لها بأظهرِ معانيها ، داعيًا إلى الاعتبار بمدلولها ، مبيِّنًا بما ينطوى عليه أن الأمرَ كله للنهاية .

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمرَ الماضىَ كأنه غيرُ ماض ، فيعملُ فى إفراغ حياته من الحياة[1] بما يملؤها من رذائله وخسائسه ؛ فلا يزال دائبًا فى معانى الأرض واستجماعِها والاستمتاع بها ، يتلو فى ذلك تِلْوَ الحيوانِ ويقتَاسُ به ، فشريعتُه جَوْفه وأعضاؤه ؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُه مع نفسه الروحانية ، كالحمار مع الذى يملكُه ويعلفُه ، ولو سُئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حِمارى . . . .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ فى الأرض إلى آخرِ الدنيا ، معناها أن الإنسانَ حىٌّ فى قانون نهايته ، فلينظرْ كيف ينتهى .

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها ، فالحياةُ هى الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرِها ؛ طريقةِ إكراه الحيوان الإنسانىّ على ممارسة الأخلاقيةِ الاجتماعية ، وجعلِها أصلاً فى طباعه ، ووزن أعمالهِ بنتائجها التى تنتهى بها ، إذ كانت روحانيتُه فى النهايات لا فى بداياتها .

---

(١) أى من إنسانية الحياة .

فى الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتًا تعملُ أعمالَها ؛ فإذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتًا يخلَدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ فى الخير ، ومن الشر هو خالدٌ فى الشر ؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد مرتين : آتيةً وراجعة .

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تَبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة ، فلا يترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحسَم فى بدئه ويُقتل فى أول أنفاسه ، وكذلك الشأنُ فى كل ما لا يَحسنُ أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتدّ : كالعداوة والبغضاءِ ، والبخل والأثرة ، والكبرياءِ والغرور ، والخداع والكذب؛ وما شابكَ هذه أو شابَهَها، فإنها كلَّها انبعاثٌ من الوجود الحيوانىّ وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكل منها فى الإرادة قبرٌ كى تَسلَم للنفس الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية .

* * *

يا من لهم فى القبور أموات !

إن رؤيةَ القبر زيادةٌ فى الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معانى السلام العقلىّ فى هذه الدنيا .

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا ، فهى مدة لو صُرِفت كلها فى الخير ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منها ضَياعٌ فى الشر أو الإثم ؟ لو وُلد الإنسان ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكتَهلَ وهَرِمَ فى يوم واحد ، فما عساه كان يُضيع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه فى ساعة موته إلا أقصرَ من يوم .

ينادى القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هى ، بقيت كما هى إلى الأبد ، وتركَتها الوقتُ وهرب .

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهنالك القبرُ أيضًا ؛ فليس ينظر فى هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمُ محكمة على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون .

فى القبر معنى إلغاءِ الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيامه ، أن يُسقطَ منها أوقاتَ الشر والإثم ، وأن يُميتَ فى نفسه خواطرَ السوء ؛ فمن

معانى القبر ينشأ للإرادة عقلُها القوىُّ الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً فى زمن هذا العقل ، كما لا يجد الليلُ محلاً فى ساعات الشمس .

ثلاثةُ أرواح لا تَصلُح روحُ الإنسان فى الأرض إلا بها :

روحُ الطبيعة فى جمالها ، وروحُ المعبد فى طهارته ، وروحُ القبر فى موعظته .

عروسٌ تزَف إلى قبرها *

١

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تُسمى أياماً .

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعد اليومِ كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها .

أيامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورة ؛ فإن كانت مُفرِحَةً جاءت حاملةً فرَحَيْن ، وإن كانت مُحْزِنَةً جاءت بنصف الحزن .

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بِقُوًى مختلفة : منها الشمسُ والهواءُ والحركة ، ومنها الفرَحُ والنسيانُ والأحلام !

* * *

وشبَّتْ العذراءُ وأُفرِغَتْ فى قالَب الأنوثةِ الشمسىِّ القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهَر الغَضّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمال لأنها فنُّ حياة ، وجعلتْها تِمثالاً للظَّرف : وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحَنَانَ وجمال النفس ؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عند ما تَمْهَرُ العذراءَ من هذه الصفات مَهرَها الإنسانى !

وخطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وماتت عذراءَ بعد ثلاثِ سنين ، وأُنزِلَتْ إلى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

---

* هى زوج ولده سامى . وانظر خبره وخبرها فى « عود على بدء » من كتاب (حياة الرافعى) .

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطِّعُهُ المرض ، يتنظّرون به العُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمْس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينِ استمرَّ ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزونًا بأوّله فى ضبطٍ ودقّة ؟

أكانت تلك العذراء تحملُ سرًّا عظيمًا سيُغيِّر الدنيا ، فردت الدنيا عليها يومَ التهنئةِ والابتسامِ والزينة ، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ والدموع والكفن ؟

٢

واهًا لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدّةُ أقدار ؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهلِ الدنيا جميعًا ، وبهذا يعود لكل مخلوق سِرٌّ يومِه ، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحِه ، وليس إليه لا هذا ولا هذا .

وفى اليوم الزمنىِّ الواحدِ أربُعمائةِ مليون يوم إنسانىّ على الأرض ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعًا وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . !

وكلُّ إنسان لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضىء المكانَ المظلمَ فى قلبه ، والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تُنير القلبَ الذى لا يضيئُه إلا وجهٌ محبوب .

وفى الحياة أشياء مكذوبةٌ تكبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تَعْظُم بالنفس وتَصغُر بالدنيا ؛ وذَهَبُ الأرض كلّه فقرٌ مُدْقعٌ حين تكون المعاملةُ مع القلب .

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرُك الإلهىُّ إذا أكبرك الإنسان !

* * *

ويا عَجبا لأهل السوء المغتَرِّين بحياة لا بدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة ؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الإنسان إلى آخرها هو أوّلَ فكرهِ فى حقيقتها ؟

فعند ما تحينُ الدقائقُ المعدودةُ التى لا ترقمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المحتضَر . . . عند ما يكون ملْكُ الملوكِ جميعًا كالتراب لا يشترى شيئًا ألبتةَ . . .

. . . ماذا يكون أيها المجرمُ بعدما تقترفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجندَ والقضاة ، وتقفُ أمامك الشريعةُ والعدل ؟

* * *

أعمالُنا فى الحياة هى وحدَها الحياة ، لا أعمارُنا ، ولا حظوظُنا . ولا قيمةَ للمال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هى معًا — إذا سُلِبَ صاحبُها الأمنَ والقرار ! والآمِنُ فى الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيد فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السماوات .

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبَها وفيها (العدّادُ) : ما تتحرّكُ من حركة إلا أشعرَتْه فعَدَّها ؟ وكيف يمكن أن يكذِبَ الإنسانُ ربَّه وفيه قلبُ : ما يعملُ من عمل إلا أشعره فعدَّه ؟

٣

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام .

أفرأيتَ أنتَ الغنَى عند ما يُدْبِرُ عن إنسان ليتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ؟ أرأيتَ الحقائقَ الجميلةَ تذهبُ عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الإنسانَ حين تتحوّل الحياةُ عن جسمه إلى الإقامة فى فكره !

وما هى الهمومُ والأمراض ؟ هى القبرُ يستبطىء صاحبَه أحيانًا فينفضُ فى بعض أيامه شيئًا من ترابه . . . !

رأيتُ العَروسَ قبل موتها بأيام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسمُ عن مكانه للرُّوح تظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَداع !

وتحوّل الزمنُ إلى فكرِ المريضة ؛ فلم تعُدْ تعيشُ فى نهار وليل ، بل فى فكر مُضِيء أو فكر مظلم !

يا إلهي ! ما هذا الجسمُ المتهدِّمُ المقبِلُ على الآخرة ؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثِقَتْ أنه الموت ، فكان فكرُها الإلهيُّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد : عليه طَيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الإنسانية متى عبَّرت لا تعبر إلا بالوجه .

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هى ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشِكةٌ أن تنتهى ! ابتسامةُ روح لها مثلُ فَرَحِ السجين قد رأى سجّانَه واقفًا فى يده الساعة يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : انطلِقْ !

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأننى آتٍ من الدنيا . . . ! وتَنسَّمتْ منى هواءَ الحياة ، كأننى حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض الْمُدْنَف ، يعرفُ أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنًى أبداً إلا العافية ؟ مَن غيرُ المريضِ الْمُشْفِى على الموت ، يعيشُ بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواء ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعِها للمريض أهلُه وأحبّاؤُه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسرى حَرْبٍ أُجلِسوا تحت جِدارٍ يريد أن ينقضّ ! وكانت قلوبهُم من فزعها تَنبِضُ نبضًا مثلَ ضَرَبات المَعَاول .

وباقتراب الحبيبِ المحتَضَر من المجهول ، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر ، فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود فى مثل حَيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرّكَ ليمنعَه أن يذهب ! وتَعْروه فى ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيِّئ له جلالَ الحسّ الذى يشهد به جلالَ الموت !

* * *

وحانت ساعةُ ما لا يُفْهم ، ساعةُ كلّ شيءٍ ، وهى ساعةُ اللاشيءِ فى

العقلِ الإنساني ! فالتفتت العروسُ لأبيها تقول : « لا تحزَنْ يا أبى . . . » ولأمها تقول : « لا تحزنى يا أمى . . . ! »

وتبسمت للدموع كأنما تحاولُ أن تكلمَها هى أيضًا ؛ تقول لها : « لا تبكى . . . ! » وأشفقت على أحيائها وهى تموت ، فاستجمعت روحَها ليبقَى وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكارى بينكم تذكارَ عروس ! . . . »

ثم ذكَرتِ الله وذكَّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » . وكررتْها عشراً ! وتملأتْ روحُها بالكلمة التى فيها نورُ السماوات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسمِ الأعظمِ الذى يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأ حتى وهىَ فى أحزانها .

ثم استقبلت خالقَ الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارةِ وَداعٍ من مسافرٍ انبعث به القِطار ، ألقت إليهم تحيةً من ابتسامتها وأسلمت الروح !

٤

يا لَعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يباركْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائط فى الطريق إعلانًا قديمًا بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلانًا قديمًا عن (رواية) هذا هو اسمُها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصَّى ، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى ! واخترقنا المدينةَ كلَّها ، فلما انقطع العُمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان : « مبروك . . . ! »

موت أم *

رجعتُ من الجنازة بعد أن غبَّرْتُ قدمىَّ ساعةً فى الطريق التى ترابُها ترابٌ وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ ، هى زوجةُ صديق طَحْطَحَتْها الأمراضُ ففرّقتها بين علل الموت ، وكان قلبُها يُحييها فأخذ يُهلكُها ، حتى إذا دنا أن يَقْضِيَ عليها رحمها الله فقضى فيها قضاءَه . ومن ذا الذى مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه فى علَّته كالعصفورة التى تَهْتَلِكُ تحت عينى ثعبانٍ سلط عليها سُموم عينيه ! .

كانت المسكينةُ فى الخامسة والعشرين من سنّها ، أما قلبُها ففى الثمانين أو فوق ذلك ؛ هى فى سن الشباب وهو متهدّمٌ فى سن الموت .

وكانت فاضلةً تقيةً صالحة ، لم تتعلم ولكنَّ علمَها التقوى والفضيلة . وأكملُ النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب فهى تنظر إلى الحياة نظرات تَحِلُّ مشاكلَ وتخلق مشاكل ؛ ولكنها تلك التى تنظر إلى الدنيا بعينٍ متلألئة بنور الإيمان تُقِرُّ فى كل شىء معناه السماوى ، فتؤمنُ بأحزانها وأفراحها معًا ، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها رحمةً معروفة أو رحمةً مجهولة . هذه عندى تسمى امرأة ، ومعناها المعبدُ القُدسى ؛ وتكون الزوجةَ ، ومعناها القوةُ المُسْعِدة ؛ وتَصيرُ الأمَّ ، ومعناها التكملةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجِها ونفسِها .

ومهما تبلغ المرأةُ من العلم فالرجلُ أعظم منها بأنه رجل ، ولكنَّ المرأةَ حقَّ المرأةِ هى تلك التى خُلقت لتكونَ للرجل مادةَ الفضيلة والصبرِ والإيمان ، فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوة ، أى زيادةً فى سروره ونقصًا من آلامه :

ولن تكونَ المرأةُ فى الحياة أعظمَ من الرجل إلا بشىء واحد ، هو صفاتُها التى تجعل رجلَها أعظمَ منها .

* * *

---

* هى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف . وانظر « عمله فى الرسالة » من كتاب « حياة الرافعى » .

ومشيتُ من البيت الذى ألبسته الميتةُ معنى القبر ، إلى القبر الذى ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنامنذ مشيتُ فى جنازة أمى (رحمها الله) لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأتبعُ من الميتِ صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة ، لأنه من غير هذه الدنيا ؛ وأمشى فى ساعةٍ ليست ستين دقيقةً ، لأنها خرجت من الزمن ؛ ولا أرى الطريقَ من طرق الحياةِ ، لأننى فى صحبة ميت ؛ وتُصبح للأرضِ فى رأيى جغرافيةٌ أخرى عَمِىَ الناسُ عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيتْ من شدة ما ظهرتْ .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرضِ يَغمرها البحر . أما أنا فأرى فى تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذى وصفوا ، ولكن خِضَمٌ آخرُ زخَّار مُتَضَرِّب ، هو ذلك البحرُ الترابىُّ العظيمُ المسمى « المقبرة » .

يقولون : إن الحياةَ هى . . . هى ماذا — ويْحكم — أيها المغرورون ؛ أفلا تَرَون هذه الصلةَ الدائمةَ بين بطنِ الأم وبطن الأرض ؟

* * *

لعمرى كيف تجعلُ هذه الحياةُ للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحسُّ المرء بقلب ، ويعملُ بقلب آخر : يعتقد ضررَ الكذب ويكذب ، ويعرف مَعَرَّة الإثم ويأثم ، ويُوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضى فى العمر منتهياً إلى ربه ، ما فى ذلك شك ، ولكنه فى الطريق لا يعمل إلا عملَ مَن قد فَرَّ من ربه . . ؟

هبَّت الريحُ فى السَّحَرِ على روضةٍ غناءَ فطابت لها ، فعقدتْ عُقدتَها أن تتخذَ لها بيتاً فى ذلك المكان الطيب لتقيم فيه . . . يا لها حكمةً من التدبير ! تزعم الريحُ الإقامةَ على حين كلٌّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها ، وتحلُم بالقَرار فى البيت وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يا لها حكمةً سامية ، لا يسكنُها من المعنى إلا أسخفُ ما فى الحُمق ! .

* * *

هَمَدَ الحىُّ وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك فى تاريخه مما ضيَّقَ على نفسه أو وَسَّع ، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرةٍ أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصف الحياةَ الدنيا لقال : إن هذه النجومَ على الأرض مصابيحُ مأتمٍ أقيم بليل .

وما أعجبَ أن يجلس أهلُ المأتم فى المأتم ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، إن هذا الحاضرَ الذى يمر فيكونُ ماضيَكم فى الدنيا ، هو بعينه الذى يكون مستقبلَكم فى الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى : من العظماء إلى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب فى الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء ؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة ؛ إن التامَّ على الأرض مَن تمَّ بمتاعها ولذاتها ، ولكن التامَّ فى السماءَ من تمَّ بنفسه وحدها .

* * *

يا أسفا ! لن يقولَ الميتُ للحى شيئًا ، ومن يدرى ؟ لعلنا ونحن نُلْحِدُ للموتى ونُنزِلهم فى قبورهم ، يَرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ، وأننا مدفونون فى القبر الذى يسمونه «الكرة الأرضية» ! وهل الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجلِ نملة لتُدْفَن فيها نملة . . .

الحياة . . . أتريد أن تعرفَها على حقيقتها ؟ هى المُبْهَماتُ الكثيرةُ التى ليس لها فى الآخِر إلا تفسيرٌ واحد : حلالٌ أو حرام .

* * *

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسةُ أطفالٍ صغارٍ لو أنهم هم الذين انتُزِعوا من أمهم لترك كلٌّ واحد على قلبها مثل المِكْوَاةِ المحميِّ عليها فى النار إلى أن تحمَرَّ ؛ ولكنَّ أمهم هى التى نُزِعت منهم ، فكان بقاؤهم فى الحياة تخفيفًا لسَكْرةِ الموت عليها . وغَشِيتْها الغَشيةُ فماتت وهى تضحك ، إذ تراهم نائمين تحت جَناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامَهم . وكانوا همْ عقلَها فى ساعة الموت !

تبارك الذى جعلَ فى قلب الأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو ، ودنيا من خَلْقِ أولادها !

تبارك الذى أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعانى ، فجعل فرحَها صورةً كبيرة من فرح صغارِها !

* * *

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسة ، وكأنه ثمانيةُ أرطالٍ من الحياة لا ثمانيةُ أعوامٍ من العمر ؛ جاء إلينا كما يجيء الفزَعُ لقلوبٍ مطمئنة ، إذ كان فى عينيه الباكيتين معنى فقد الأم !

وطغَتْ عليه الدموعُ فتناول منديلَه ومسحَها بيده الصغيرة ، ولكنّ روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها !

وظهرَ الانكسارُ فى وجهه يعبِّرُ ببلاغةٍ أنه قد أحسّ حقيقةَ ضعفِه وطفولتهِ بإزاء المصيبة التى نزلتْ به ، وجلس مستسلِماً تترجم هيئتُه معانىَ هذه الكلمة : « رفقاً بى! » .

ثم تطير من عينيه نظراتٌ فى الهواء ، كأنما يحسّ أن أمّه حوله فى الجو ولكنه لا يراها !

ثم يُرخِى عينيه فى إغماضةٍ خفيفةٍ ، كأنما يرجو أن يرى أمّه فى طَوِيتّهِ !

ولا يُصَدِّق أنها ماتت ، فإن صوتَها حى فى أذنيه لا يزال يسمعه من أمس !

ثم يعود إلى وجهه الانكسارُ والاستسلام ، ويتململ فى مجلسه ، فينطقُ جسمُه كله بهذه الكلمة : « يا أمى ! » .

* * *

أحسّ — ولا ريب — أنه قد ضاع فى الوجود ، لأن الوجودَ كان أمّه .

ولمس خشونةَ الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقدَ الصدرَ الذى فيه وحده لينُ الحياة لأن فيه قلبَ أمه وروحَها .

وشعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير ، لأن تلكَ التى كان يملك فيها حقّ الرحمة قد أُخِذَتْ منه وتركَتْه بلا حقّ فى أحد ؛ وليس لأحدٍ أُمّان !

ولبسته المَسكَنَةُ ، لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمانِ فلن يصلَ إليه !

ولبسته المسكنةُ ، لأنه صار وحدَه فى المكان كما هو وحدَه فى الزمان !

وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسألُ نفسَه : « إذا لم تكن أمى هنا ، فلماذا أنا هنا ؟ ! » .

ثم تَغَرْغَرَتْ عيناه فيُخرِجُ منديلَه ويمسح دمعَه بيده الصغيرة ، ولكن

روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها !

* * *

ونهض الصغيرُ ولم ينطق بذاتِ شَفَة ؛ نهض يحمل رجولتَه التى بدأت منذ الساعة !

انتهت – أيها الطفلُ المسكينُ – أيامُك من الأمّ ؛ هذه الأيام السعيدةُ التى كنتَ تعرف الغَدَ فيها قبل أن يأتىَ معرفتَك أمسِ الذى مضى ؛ إذ يأتى الغدُ ومعك أمُّك !

وبدأتْ – أيها الطفلُ المسكين – أيامُك من الزمن ، وسيأتى كلُّ غدٍ محجَّبًا مرهوبًا ؛ إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !

الأمّ . . . ؟ يا إلهى ، أىُّ صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايتَه من الروح إلا فى الأمّ ؟!

قصة أب *

حدثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسَأَ بالولَدِ في آثارهم ، ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحًا ، وضمَّ به إلى قلوبهم قلوبًا ، وملأ أعينَهم من ذلك بما تَقَرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانت لم تجد ثم وَجَدَت ؛ فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوّةَ التي تُرجِعُهم أطفالاً مثلَهم في كل ما يسرُّهم ، فيكبَر الفرَحُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظُم الأملُ في أشيائهم وإن كان هو عن شيء حقيرٍ لا يُؤْبَه له .

وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلا الحقيقةُ الأخرى : وهي القوةُ التي يتحولُ بها الكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من الحب والرحمة وجمالِ العاطفةِ ، بسحْرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلة ، أو بكلمةٍ منهما أو حركة ، على حينٍ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريبًا منه بمال الدنيا ، ولا بِمُلكِ الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنه ابتلاني بأن أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجلٍ ملك داراً يستمتعُ بها ، فتمنى أن يُشْرِعَ[1] في جانب منها غرفة يزَخرِفها ، فلما تم له ذلك وبلغ المقْتَرَحَ ، انهدمت الدارُ وبقيت الغرفة قائمة !

عَمْرَكَ اللهَ ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد أو نَقَص ؟ وياليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت ؛ فإن الحجارةَ تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن مَن ذا يُحيي الزوجةَ ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأولَ والآخِر !

إنها طفلة وُلِدَتْ وكأنما أُخرِجتْ من تحت الرَّدم ، إذ وُلدت تحت ماض من الحياة منهدِم ، وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكونَ أمُّها قد ولدتها في الصحراء

* هو الصديق الأديب عبد الله عمار . وانظر « عمله في الرسالة » من كتاب « حياة الرافعي » .

(١) أي يفتح غرفة إلى الشارع .

ثم أكرهتْ أن تدعَها وحدها فى ذلك القفرِ تصرخُ وتبكى ! فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أولَ ما انقطعتْ من حنانِ الأم ورحمتها .

طفلةٌ وُلدت صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النوْح والندْب على أمها .

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعونى مع أمى ولو فى القبر !

صرخةٌ ترتعدُ ، كأن المسكينةَ شعرتْ أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذى يُدفئها !

صرخةٌ تتردد فى ضَرَاعةٍ ، كأنها جملةٌ مركّبةٌ من هذه الكلمات : « يا ربِّ ارحمنى من حياةٍ بلا أم ! » .

* * *

قال المسكين وهو يبكى امرأتَه :

ولما ضَرَبها المخاضُ ، ضاعفتْ قوّتَها من شعورها أنها ستكون بعد قليلٍ مضاعَفَةً بمولودها ، وستكون روحين لا روحًا واحدة ، وتلد لى الحياةَ والحبَّ الإلهىّ معًا ، وتأتى لقلبى بمثل طفولته الأولى التى يستحيلُ أن تأتى الرجلَ إلا من زوجه .

كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدَّ منها ؛ ولكن ما أسرعَ ما تبيّنَت أنه الموتُ ، إذ عَضَّلتْ وعَسُرَ خروج مولودِها .

وجاءها الجراحىُّ بِمبْضَعه ، وكأنها رأته ذابحًا لا طبيبًا ، فجعلت تعبِّر بعينيها ، إذ لم تملك فى آلامها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتين العينين .

كانت بنظرةٍ تبكى علَىّ وعلى بؤسى ، وبأخرى تبكى على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرةٍ تودّعنى ، وبأخرى تدعو الله لى جزاءَ ما أحسنتُ إليها ؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكادُ أُجَنّ :

نظرات نظرات . . .

يا إلهى! لقد خُيِّل إلىّ أن ملَكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرآةً تُحيط به ، فأنا أراه موتًا متعدداً لا موتًا واحداً ، وكلُّ نظرةٍ من عينىْ زوجتى إلىّ كانت منها هى نظرةً ، وكانت عندى أنا مرآةَ الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضْع مولودها ، وأن هذه الآلامَ الدموية الذابحة هى الوسيلةُ لأن تتركَ لى بقيةً حيةً منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لى وهى تموت ؛ وهى تلد ؛ وهى تُذبَح !

* * *

ليست رحمةُ المرأةِ المحبةِ خيالاً إلا إذا كانت حرارةُ الشمسِ التي تُحيي الدنيا خيالاً أيضًا ؛ إن هذا القلبَ النسويَّ المستقرَّ فوق أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرحةً بآلامها ، وتغذوه وتُقاسمه حياةَ نفسها – هذا القلب يحملُ الحبَّ أيضًا صابراً راضياً فرحًا بآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياةَ نفسه .

وللرحمة الإلهيَّةِ أدلة كثيرةٌ تدل الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة ؛ فالشمسُ تدل عليها بالضوء الذى تَطْعَمُهُ الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفَّسه الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تَشربه الحياة ، وهكذا إلى أن يأتيَ فى الآخر قلبُ المرأة فيدلّ على رحمة الله بالحب الذى تقومُ به الحياة .

ابتسامةُ الحب غالبت زفراتِ الموت التى تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها ، وأعادت الحياةَ لحظةً إلى وجه زوجتى لأراها آخرَ ما أراها فى صورة المُحِبة لى ، فكان كلٌّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحُها وعواطفُها تودّعني وَداعًا حزينًا متبسمًا يتكلم ؛ يتكلمُ بعجزه عن الكلام .

ابتسامةٌ لا ريب أن فيها أشياءَ ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقِها ؛ فكأنما التمعتْ بأشعةٍ من الخُلد تَرِفُّ رفيفَها على وجه الحبيب ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ أن حبَّه أقوى من الموت .

* * *

قال المسكين : وبَشَّرَ الطبيبُ ذا بطْنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتى تقترح أن يكونَ الجنينُ غيرَها ، بل كانت مستيقنةً أنها تضعها أنثى ، وصنعتْ لها ثيابَها ، ووشَّتْها بزينة الأنوثة ، وعرضتْ أسماءَ البناتِ فاختارت اسمَها أيضًا ، وكنت أكره ذلك منها وأريدُ ولداً لا بنتًا ، فكانت تُغايظني بعملها وإصرارِها غيظ دُعابةٍ لا غيظَ جفَاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدةَ الحمْل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ؛ فلما قضى الله فيها قضاءَه ، علمت أن ذلك أمرٌ من أمر الروح ، فكان الإلهامُ فيها أنها على بابِ قبرها ، وأنها لن ترى طفلتَها ، ولن تعيشَ لها ، فعاشت أيامَ الحمْلِ مع ذكراها : تضمُّ ثيابَها إلى صدرها ،

وتحملُها على يدها ، وتُناغيها وتقبّلها ، وتأخذها من الوهْم وتردّها إليه ؛ وكذلك نَعِمَتْ المسكينةُ بالمسكينة !

لكِ الله يا معجزةَ الرحمة ، يا نفسَ الأم !

* * *

ولما قيل : ماتت . جعل يكلمنى المتكلمُ ولا أعقِل ؛ فإن الكلمةَ التى تأتى بالمصيبة المتوقَّعَة طال ارتقابُها ، لا تأتى بمعان لغوية- كغيرها من الكلام ، بل بأسلحة تَضربُ فى النفس وفى العقل ، وتُثْخِنُهما جِراحا وفتْكا .

وجعلنى موتُها كأنى ميتٌ يحمل نفسَه ، ما حولَه إلا المشيّعون ؛ وأحسست كأن قوةً أخذتْ بإحدى رجلىَّ فوضعتها فى الآخرة وتركت الثانيةَ فى الدنيا ، ولَحِقَنى من الجزع ما اللهُ عالمٌ به ، ووَجِدْتُ أحْرَقَ الوجْد ، وبكيتُ أحرَّ البكاء ، وجعلتْ أفكارى تنحدِرُ من رأسى إلى حلقى فأختنقُ بها ثم لا يُنفّسُ عنى إلا الدمع ، كأن أعضائى اختلّتْ مما ضغَطَنى من الحزن ، فأنا أتنفسُ برِئتىَّ وعينىَّ .

بموتها شعرتُ بها ؛ ولعلّه من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذة الحب كاملةً إلا فى آلام الحب وحدها ، وكانت فى حياتها تضع من روحها فى سرورى ، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة : يجد مُحبُّها فى كل سرور لمحات روحانية ؛ وكذلك فعلتْ بعد موتها ، فجعلتْ روحَها فى أحزانى ؛ ولولا أن روحَها فى أحزانى لقتلتْنى المصيبة .

وكنت أدْلِفُ وراء النعشِ وقد بَطَل فى نفسى الشعورُ بالدنيا ، وكان الناسُ يمشُون حولى بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان ؛ أما أنا فكنتُ أمشى بما فىَّ من الحب منكسِراً منْخذِلا متَضَعْضِعًا ، لأنى وحدى سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق .

وثَقُلَ الناسُ على قلبى ، ورجع كلٌّ أمرِهم عندى إلى العَيب والنقيصة ، إذ كان لى عقلٌ طارئٌ من الحالة التى أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم ، وكنت وحدى المصابَ بينهم ، فكنتُ وحدى بينهم العاقل .

أنا أمشي لأنتهيَ إلى آخرِ مصيبتي ، وهم يمشون لينتهوا إلى آخرِ الطريق ؛ وشتّانَ ما نحن وشتّان !

ولما رأيتُ قبرَها ابتدرتْ عيناى تنظران بالدموع لا بالنظر ، ورأيتُ الترابَ كأنه غيومٌ ملوّنةٌ بألوانِ السحُبِ الداكنة تتهيأ فى سمائها تحت الظلام لتُخفيَ كوكبًا من الكواكب ؛ وظهر لى القبرُ كأنه فمُ الأرضِ يخاطبُ الإنسانَ بحزم صارمٍ ، يخاطبُ الفقيرَ والغنيَّ ، والضعيفَ والقويَّ ، والملوكَ والصعاليك : « أن كلَّ قوةٍ تُنزَع هنا » .

* * *

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ فى أيام المطر رائحةَ النسيم المبتلِّ بالماء ، كنتُ أستَرْوِحُ فى رَجْعَتى إلى الدار رائحةَ نسيم مبتلٍّ بالدموع ؛ وحضَرْتُ المأتمَ وعزّانى الناسُ ، فكنت فيهم كالمأسور بينهم : لا أتمنى إلا أن يدَعونى فأنجوَ على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرِّعوننى الوجودَ غُصَصًا كما تجرعتُ الفقدَ غُصةً غُصة ؛ إلى أن تفرقوا مع سواد الليل فانكفأتُ إلى الدار ، فإذا كلُّ شيء قد تغيَّر ولمسه الموتُ لَمْسَة ، وإذا الدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء : ما ثَمَّ شيءٌ إلا ليطالعَنى بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبحُ لعينيَّ الساهرتين صبحًا فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل ، كأنه يقول : « لم أطلُعْ لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبتُ أمشى فى دنيا هى الكآبةُ المضيئةُ سخرت الأقدارُ منها بإظهارها فى هذا الضوء مَظهرَ وجهِ العجوزِ المتصابيةِ فى زينة لا تزيدها إلا قبحًا !

ومضيتُ على وجهى لا غايةَ لى ، أضربُ فى كل جهة كأنما أريد أن أهربَ من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يوم جديد ، بل كنتُ عند نفسى لا أزالُ أمس ، وتغيَّر عندى الزمانُ والمكان : فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تترك ما فيها ، والآخرُ قبرُ ميتةٍ لا يردُّ ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الموجودُ ليعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنه كان موجوداً !

* * *

قال المسكين ثم أعادتنى قدماىَ إلى البيت لأرى طفلتى — وما كنت رأيتها —

ولقد كانت ولادتُها أولَ ا[illegible]باةِ لها ، وأولَ الحياة لى أيضًا ؛ إذ لولاها لانتحرتُ غيرَ شكّ .

يا ويلتَا ! لم تلتقِ عينى بعينِ الطفلة حتى انفجرتْ تبكى . أتبكين لى يا ابنتى أم علىّ ؟

أهذا بكاؤكِ أيتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبك اليتيم ؟

أصوتكِ أنتِ ، أم هو روحُ أمكِ تصرخُ ترثِى لى ، وتتوجعُ لفرْطِ ما قاسيت

يا ابنتى ، إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة ، خيالاتِ الأيام السعيدة التى مرّت !

رحمتا للوالدين من اللحم والدم ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة ، خُلقتِ من اللحم والدم والدموع !

بقيةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟

مسكينة ، مسكينة ! لو أن نواميسَ العالم متغيرةٌ لشىء لتغيرتْ من أجل بؤسكِ فردّت لكِ الأم ؛ ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ الحياة فى أجسامنا الأرضية ، كلُّ ذلك طبيعةٌ ، ولكنّ بقعةً أنظفُ من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيتِ الذى هُدِمَ أوّلَ ما بُنِى يملؤه ترابُه !

لن تتغيرَ النواميس ، فلن تَجدى عطفَ الأم ، ولكن لن يتغيرَ قلبى أيضًا ، فلن تُحرمى عطفَ الأب .

وإذا صبر الناسُ على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفكِ وانقطاعكِ سأعانى الصبرَ لكِ ، وأعانى الصبرَ لى ، وأعانى الصبرَ عن أمكِ ، سأصبرُ على الصبر نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتْكِ الأقدارُ من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمكِ ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامه ؟

* * *

قال المسكين : وهكذا كُتِبْتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنعَ لى حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركتْ لى حبيبةً أخرى ستظل زمنًا طويلا تصنَع لى دموعى !

السَّمكة

حدَّث أحمدُ بنُ مِسكينٍ الفقيهُ البَغدادى قال : حصَلْتَ فى مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين ، وعالِمُها يومئذ شيخُ خُراسان أبو عبد الرحمن[1] الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم ؛ وهو رجل قلبُه من وراء لسانِه ، ونفسُه من وراء قلبِه ، والفلكُ الأعلى من وراء نفسِه ، كأنه يُلَقَّى عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : (لُقمانُ هذه الأمَّة) ؛ لِمَا يُعجبهم من حِكَمِه فى الزهد والموعظة ، وقد حضرتُ مجالسَه وحفظتُ من كلامه شيئًا كثيراً ، كقوله : مَن دخل فى مذهبنا هذا (يعنى الطريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصالٍ من الموت : موتٌ أبيض ، وموتٌ أسود ، وموتٌ أحمر ، وموتٌ أخضر ؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع ، والموتُ الأسودُ احتمال الأذى ، والموتُ الأحمر مخالفةُ النفس ، الموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقاع بعضِها على بعض (يعنى لبس المرقعة والخَلَقِ من الثياب) .

وقلت يومًا لصاحبه وتلميذه (أبى تراب) وجارَيْتُه فى تأويل هذا الكلام : قد فهمنا وجهَ التسمية فى الموت الأخضرِ ما دامت المرقعةُ خضراء ؛ فما الوجهُ فى الأبيض والأسود والأحمر ؟ فجاء بقولٍ لم أرضَه ، وليس معه دليل ، ثم قال : فما عندك أنت ؟ قلت : أما الجوعُ فيُميتُ النفسَ عن شهواتها ويتركُها بيضاءَ نقية ، فذلك الموت الأبيض ؛ وأما احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سواد الوجه عند الناس ، فهو الموتُ الأسود ؛ وأما مخالفةُ النفس فهى كإضرام النار فيها ، فذاك الموتُ الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ ذاتَ نهارٍ فى مسجد (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعوه ، وشغَلَه بعضُ الأمر فراثَ عليهم ، فقالوا : مَن يَعِظنا إلى أن يجىءَ الشيخ ؟ فالتفت إلىَّ أبو تراب وقال : أنت رأيتَ الإمام أحمدَ بنَ حَنْبل ، ورأيتَ بِشْراً الحافى وفلانًا وفلانًا ، فقم

---

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها ، توفى سنة ٢٣٧ للهجرة .

فحدِّث الناسَ عنهم ، فإنما هؤلاء وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة . ثم أخذ بيدى إلى الأسطوانة التى يجلسُ إليها إمامُ خراسان فأجلسنى ثَمَّة وقعد بين يدىّ .

وتطاولَت الأعناق ، ورمانى الناسُ بأبصارهم ، وقالوا : البَغْدادى! البغدادى! وكأنما ضُوعِفْتُ عندهم بمجلسى مرةً وبنِسْبتى مرةً أخرى ، فقلت فى نفسى : والله ما فى الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة ، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسد شعرُ هذه الألوانِ معناه ، وإنما يجبُ أن يكونَ كما يجب أن يكون؛ ولا موعظةَ فى كلامٍ لم يمتلىء من نفسِ قائله ، ليكونَ عملاً فيتحوَّلَ فى النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلامًا؛ وإنه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسامع يَسمعُه ، لكنه تأليفُ النفس لنفسٍ أخرى تراها فى كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قَرابةٌ بين النفسين ، حتى لكأن الدمَ المتجاذِبَ يجرى فيه ويدورُ فى ألفاظه .

* * *

وكنتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة فى بغداد ، فقصصتها عليهم ، عليهم ، فكانت القصةُ كما حكيتُها : أنى امتُحِنْتُ بالفقر فى سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛ وانحَسَمَتْ مادتى وقَحِطَ منزلى قَحطًا شديداً جمع علىَّ الحاجة والضُّرّ والمسكَنة ؛ فلو انكمشتِ الصحراءُ المجدبةُ فصَغُرتْ ثم صغُرت حتى ترجعَ أذرُعًا فى أذرع ، لكانت هى دارى يومئذ فى محلَّة باب البَصرة من بغداد .

وجاء يومٌ صَحْراوِىٌّ كأنما طلعت شمسُه من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُب ، ومرَّت الشمسُ على دارى فى بغداد مرورَها على الورقة الجافة المعلَّقة فى الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شىء يُسيغُه حَلْقُ آدمىٍّ ، إذ لم يكن فى الدار إلا ترابُها وحجارتُها وأجذاعُها ؛ ولى امرأة ولى منها طفلٌ صغير ، وقد طَوَينا على جوع يَخْسِفُ بالجوف خَسفًا كما تَهْبِطُ الأرض ؛ فلَتمَنَّيْتُ حينئذ لو كنا جُرْذانًا فنَقْرِضَ الخشب ! وكان جوعُ الصبىّ يزيدُ المرأةَ ألما إلى جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاوية .

فقلت فى نفسى : إذا لم نأكل الخشبَ والحجارة فلنأكلْ بثمنها . وجمعتُ نيتى على بيع الدار والتحوُّلِ عنها ، وإن كان خروجى منها كالخروج

من جِلدى : لا يسمىَّ إلا سلخًا وموتًا ؛ وبت ليلتى وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ : فما يتقلَّب إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنَّةِ التى عملتْ فيها .

ثم خرجتُ بغلَسٍ لصلاة الصبح ؛ والمسجدُ يكون فى الأرض ولكنَّ السماءَ تكون فيه ، فرأيتُنى عند نفسى كأنى خرجتُ من الأرض ساعة . ولما قُضِيَت الصلاةُ رفع الناسُ أكفَّهم يدعون الله (تعالى) ، وجرى لسانى بهذا الدعاء : « اللهمَّ بك أعوذ أن يكون فقرى فى دِينى ، أسألك النفعَ الذى يُصلِحُنى بطاعتك ، وأسألك بركةَ الرضى بقضائك ، وأسألك القوّةَ على الطاعة والرضا يا أرحمَ الراحمين » .

ثم جلستُ أتأملُ شأنى ، وأطلتُ الجلوسَ فى المسجد كأنى لم أعُدْ من أهل الزمن فلا تجرى علىَّ أحكامه ، حتى إذا ارتفعَ الضُّحَى وابيضَّت الشمسُ جاءت حقيقةُ الحياة ، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيع الدار ، وانبعثْتُ وما أدرى أين أذهب ، فما سرتُ غيرَ بعيد حتى لقينى (أبو نصر الصياد) وكنتُ أعرفه قديمًا ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدار ؛ فقد ساءت الحالُ وأحوَجَت الخَصاصة ، فأقرِضنى شيئًا يُمسِكُنى على يومى هذا بالقِوام من العيش حتى أبيعَ الدار وأوَفِّيك .

فقال : يا سيدى ! خذ هذا المِنديلَ إلى عيالك ، وأنا على أثَرِك لاحِقٌ بك إلى المنزل . ثم ناولَنى منديلا فيه رُقاقتان بينهما حلوى ، وقال : إنهما والله بركةُ الشيخ .

قلت : من الشيخُ وما القصة ؟

قال : وقفتُ أمسِ على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة ، فمرَّ بى أبو نصر بِشْرٌ الحافى[1] فقال : مالى أراك فى هذا الوقت ؟ قلت : ما فى البيت دقيقٌ ولا خبز ولا درهم ولا شىء يباع . فقال : اللهُ المستعان ؛ احمل شبكتَك وتعالَ إلى الخَندق ؛ فحملتُها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، توفى سنة ٣٢٧ للهجرة وكان واحد الدنيا فى ورعه وتقواه ؛ وقيل له : (الحافى) لأنه كان فى حداثته يمشى إلى طلب العلم حافياً ، إجلالا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم .

الخندق قال لى : توضَّأ وصلِّ ركعتين . ففعلت ، فقال : سَمِّ اللهَ تعالى وألقِ الشبكة . فسمَّيت وألقيتها ، فوقع فيها شيء ثقيل ، فجعلتُ أجره فشَقَّ عَلَىَّ ؛ فقلت له : ساعدنى فإنى أخاف أن تنقطعَ الشبكة ، فجاء وجرَّها معى ، فخرجت سمكةٌ عظيمة لم أر مثلَها سِمَنًا وعِظَمًا وفَرَاهة . فقال : خذها وبعها واشتر بثمنها ما يُصلح عيالَك . فحملتها فاستقبلنى رجل اشتراها ، فابتعتُ لأهلى ما يحتاجون إليه ، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشيخ فقلت أهدى له شيئًا ، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلتُ بينهما هذه الحلوى ، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخلْ . فدخلتُ وحدثتُه بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنى هيأتُ للبيت شيئًا وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهبْ كُلْه أنت وعيالُك .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفًا لحسبتُه مائدة أنزلت من السماء ، ولكنَّ كلمةَ الشيخ عن السمكة أشبعتنى بمعانيها شبَعًا ليس من هذه الدنيا ، كأنما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمار الجنة ؛ وطَفِقْتُ أردِّدها لنفسى وأتأملُ ما تَفْتُقُ الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاءَ إنما يصيبنا من أننا نفسرُ الدنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودة ، فإذا استقرَّ فى أنفسنا لفظٌ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به فى النفس كلُّ معانيه من المعاصى والذنوب ، وأخذتْ شياطينُ هذه المعانى تَحومُ على قلوبنا ، فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشياطين ، عاملينَ لها ، ثم عاملين معها ، فتُدْخِلُنا مَدَاخِلَ السُّوء فى هذه الحياة ، وتُقْحِمُنا فى الوَرْطَةِ بعد الورطة ، وفى الهلَكة بعد الهلكة .

وما هذه الشياطينُ إلا كالذباب والبعوضِ والهوَامّ ، لا تحومُ إلا على رائحةٍ تجذبها ، فإن لم تجد فى النفس ما تجتمعُ عليه ، تفرقتْ ولم تجتمع ، وإذا ألمَّتِ الواحدةُ منها بعد الواحدة لم تثبتْ . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلماتِ التى أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ ، لكان للدنيا فى أنفسنا شكلٌ

آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلها ، ولكانت لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالنا .

فالشيخ لم يكن فى نفسه معنًى لكلمة (التلذُّذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ الواحد ، طَرَدَ معانىَ الشرِّ كلها ، وصَلحَ له دينُه ، وخَلَصَتْ نفسُه للخير ومعانى الخير . ولو أن رجلاً وضع فى نفسه امرأةً يعشقُها ، لصارت الدنيا كلُّها فى نفسه كالمخْدَع : ما فيه إلا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليه وأسبابِه إليها . . .

وقد كنتُ سمعتُ فى درس شيخنا أحمدَ بنِ حنبل هذا الحديث : « لولا أن الشياطينَ يَحومون على قلوب بنى آدمَ لنظَروا إلى مَلكُوت السموات » . فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشيخ فى السمكة ، وقد علَّمنيها هذا الصيَّاد العامى ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعانى ، والمعانى يُوجِدُها اللفظُ المستقرُّ فى القلب استقرارَ غرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعانى ، فقد أمِنَ مُنَازَعَتَها له وَشَغْلَها إياه ، فيصبحُ فوقها لا بينَها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعْمِيه ويعترِضُ نظرَه إلى الحقائق ، انكشفتْ له هذه الحقائقُ فانكشف له المَلَكُوت ؛ فإذا وقع بعدُ فى واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحلوى) ، استعْلَتْ الأشياءُ عليه فحجبَتْه ، وعاد بينَها أو تحتَها ، وعَمِيَ عَمَى اللذة ؛ والحِجابُ على البصر كأنه تعليقُ العَمَى على البصر .

وكنتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخِنا أحمد بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدى المعتصِم بالسِّياط حتى غُشِيَ عليه(١) فلم يتحوّلْ عن رأيه ؛ فعلمتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعلْ فى نفسه للضرب معنَى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمىّ ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان لَجزِعَ وتحوّل ، ولو ضُرِبَ ضربَ الإنسان لتألَّمَ وتغير ؛ ولكنه وضَع فى نفسه معنَى ثباتِ السنَّة وبقاءِ الدين ، وأنه هو الأمةُ كلُّها لا أحمدُ بن حنبل ، فلو تحوَّل لتحوّل الناسُ ، ولو ابتَدَعَ لا بتدَعُوا ؛ فكان صبرُه صبرَ أُمةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فردٍ ،

(١) كان هذا فى سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به ، فأفتى القاضى ابن أبى دؤاد بقتله وشغب عليه . ثم ضرب بين يدى المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه .

وكان يُضرَب بالسياط ونفسُه فوق معنى الضرب ، فلو قرَضُوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئًا ؛ إذ لم يكن جسمُه إلا ثوبًا عليه ، وكان الرجلُ هو الفكرَ ليس غيْر .

هؤلاء قومٌ لا يرَوْن فضائلَهم فضائلَ ، ولكنهم يرَوْنها أماناتٍ قد ائتُمنُوا عليها من الله لتبقَى بهم معانيها فى هذه الدنيا ؛ فهم يُزْرَعون فى الأمم زَرعًا بيدِ الله ، ولا يملكُ الزرعُ غيرَ طبيعته ، وما كان المعتصمُ وهو يريد شيخَنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : أثْمِرى غيرَ التفاح .

* * *

قال أحمدُ بن مِسكين : وأخذتُ الرقاقتين وأنا أقولُ فى نفسى : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هَوانِها على الله أن الإنسانَ فيها يلْبَسُ وجهَه كما يلبَسُ نعلَه . فلو أنّ إنسانًا كانت له نظرةٌ ملائكيةٌ ثم اعترضَ الخلقَ ينظُر فى وجوههم ، لرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتى فى نعالِهم أو أقذرَ أو أقبح ، ولعله كان لا يرَى أجملَ الوجوه التى تَستَهيمُ الناسَ وتتَصبَّاها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولكنى أحسستُ أن فى هاتين الرقاقتين سرَّ الشيخ ، ورأيتُهما فى يدى كالوثيقتين بخير كثير ؛ فقلت : على برَكة الله . ومضيتُ إلى دارى ؛ فلما كنتُ فى الطريق لقيتْنى امرأة معها صبىٌّ ، فنظرتْ إلى المنديل وقالت : يا سيدى ، هذا طفلٌ يتيم جائع ولا صبرَ له على الجوع ، فأطعِمْه شيئًا يرحمك الله . ونظر إلىَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها ؛ حسبتُ فيها خُشوعَ ألف عابد يعبدون اللهَ (تعالى) مُنْقطِعين عن الدنيا ؛ بل ما أظن ألفَ عابد يستطيعون أن يُرُوا الناسَ نظرةً واحدةً كالتى تكون فى عينِ صبىّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرحمة . إن شدةَ الهمّ لتجعلُ وجوهَ الأطفال كوجوهِ القدّيسين ، فى عينِ من يراها من الآباء والأمهات ، لِعَجْز هؤلاء الصغارِ عن الشرّ الآدمىّ وانقطاعِهم إلا من الله والقلبِ الإنسانىّ ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنه يَصْرُخُ بمعانيه يقول : يا ربّاه يا رباه !

قال أحمدُ بن مِسكين : وخيِّل إلىَّ حينئذ أن الجنةَ نزلتْ إلى الأرض تَعْرِضُ نفسَها على من يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأمَّه ، والناسُ عَمْىٌ لا يُبصرونها ،

وكأنهم يمرون بها فى هذا الموطِن مرورَ الحميرِ بقصرِ مَلِك : لو سُئِلتْ فَضَّلتْ عليه الإصْطَبلَ الذى هى فيه . . .

وذكرتُ امرأتى وابنَها وهما جائعان مُذْ أمس ، بيد أنى لم أجدْ لهما فى قلبى معنى الزوجة والولد : بل معنى هذه المرأة المحتاجة وولدها ، فأسقطتُهما عن قلبى ودفعتُ ما فى يدى للمرأة وقلت لها : خذى وأطعمى ابنَك ، ووالله ما أملك بيضاء ولاصفراء ، وإنَّ فى دارى لَمن هو أحوجُ إلى هذا الطعام ؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بى لتقدمتُ فيما يُصْلِحُك . فَدَمَعتْ عيناها وأشرق وجهُ الصبىّ ، ولكنْ طَمَّ على قلبى ما أنا فيه فلم أجد للدَّمعة معنى الدمعة ولاللبَسْمة معنى البسمة .

وقلت فى نفسى : أما أنا فأطوِى إن لم أصِبْ طعامًا ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوِى ستة أيام ، وكان ابنُ عُمر يطوى ، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم ورويناا أخبارهم ؛ ولكن مَن للمرأة وابنها بمثل صبرى ونيَّتى ؟ وكيف لى بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنْكَسِرٌ منْقبِض ، وكأنى كنتُ نسيتُ كلمةَ الشيخ : «لو أطعمنا أنفسَنا هذا ماخرجت السمكة » . فذكرتُها وصرفتُ خاطرى إليها وشغَلتُ نفسى بتدبُّرها وقلتُ : لوأنى أشبعتُ ثلاثةً بجوع اثنين لحُرِمتُ خمسَ فضائل[1] وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنَعت .

وكانت الشمسُ قد انبسطَتْ فى السماء وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى ، فملتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر فى بيع الدار ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأنه مُسْتَطَارٌ فَرحا ، فقال : يا أبا محمد ، ما يُجلِسُكَ ههنا وفى دارك الخيرُ والغنى ؟ قلت : سبحانَ الله ! من أين خرجت السمكةُ يا أبا نصر ؟

قال : إنى لَفى الطريق إلى منزلك ، ومعى ضَرُورةٌ من القُوتِ أخذتُها لعيالك ، ودَراهمُ استَدَنتُها لك ، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله ،

---

(١) يريد : جوعه ، وجوع امرأته ، وجوع ابنه ؛ ثم شبع هذه المرأة ، وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل .

ومعه أثقالٌ وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيتُ معه أسأله عن خبرَه وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البَصْرة ، وقد كان أبوك أوْدعه مالاً من ثلاثين سنةً ، فأفلس وانكسرَ المال ثم ترك البصرةَ إلى خُراسانَ ، فصلح أمرُه على التجارة هناك ، وأيْسرَ بعد المِحْنَة ، واستَظْهَرَ بعدَ الخِذْلان ، وأقبلَ جَدُّه بالثَّرَاء والغِنيَ ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلَّلَ ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحُه في هذه الثلاثين سنةً ، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا .

* * *

قال أحمدُ بن مسكين : وأنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة . » ! فلو أن هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعةِ ، لما اهتدى إليَّ ؛ فقد كان أبي مغموراً لايعرفُه أحدٌ وهو حي ؛ فكيف به ميتًا من وراء عشرين سنة ؟

وآليْتُ ليَعلمَنَّ اللهُ شكرى هذه النعمة ؛ فلم تكن لى همةٌ إلا البحثَ عن المرأة المحتاجة وابنهِا ، فكفيتهما وأجريتُ عليهما رزقًا ، ثم اتَّجَرْتُ في المال ، وجعلتُ أرُبُّه بالمعروف والصَّنيعةِ والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزداد ولاينقُص ، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْت .

وَكأنى قد أعجبتنى نفسى ، وسرَّنى أنى قد ملأتُ سِجِلاتِ الملائكة بحَسناتى ، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبتُ عند الله فى الصالحين ، فنمتُ ليلةً فرأيتُنى فى يوم القيامة والخَلْقُ يموجُ بعضُهم فى بعض ، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الإنسان الضعيف ، يُسْأَلُ عن كل ما مسه من هذا الكون . وسمعتُ الصائحَ يقول : يا معشرَ بنى آدم ! سَجَدَت البهائمُ شكراً لله أنه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورهم مخلوقة مجسَّمة ، حتى لكأن الفاسقَ على ظهره مدينةٌ كلّها مُخْزيات !

وقيل : وُضِعَت الموازينُ . وجِىءَ بى لوزن أعمالى ، فجُعِلتْ سيئاتى فى كِفة وألقيتْ سجلاتُ حسناتى فى الأخرى ، فطاشَت السجلات ورجَحَت السيئات ، كأنما وزنوا الجبلَ الصخرىّ العظيم الضخمَ بلُفافةٍ من القطن . . .

ثم جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعد الحسنةِ مما كنت أصنعهُ ، فإذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس : كالرّياء والغُرور وحبّ المَحْمَدَة عند الناس وغيرها ، فلم يَسْلمْ لى شىء ، وهلكتْ عنى حُجّتى ، إذ الحجةُ ما يُبَيِّنُه الميزان والميزانُ لم يدلّ إلا على أنى فارغ .

وسمعتُ الصوتَ : ألم يبق له شىء ؟ فقيل : بَقِىَ هذا .

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقى ، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ بهما على المرأة وابنِها ! فأيقنتُ أنى هالك ؛ فلقد كنت أُحْسِنُ بمائة دينار ضَرْبَةً واحدةً فما أغنت عنى ، ورأيتُها فى الميزان مع غيرها شيئًا معلَّقًا ، كالغَمام حين يكون ساقطًا بين السماء والأرض : لا هُو فى هذه ولا هو فى تلك .

ووُضعَت الرقاقتان ، وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أبى نصر الصياد . فانخذَلْتُ انخذالاً شديداً ، حتى لو كُسِرْتُ نصفين لكان أخفَّ علىّ وأهون . بَيْدَ أنى نظرتُ فرأيت كِفة الحسناتِ قد نزلتْ منزِلةً ورَجَحَت بعضَ الرُّجحان .

وسمعتُ الصوت : ألم يبقَ له شىء ؟ فقيل بَقِىَ هذا .

وأنظر ما هذا الذى بقى ، فإذا جوعُ امرأتى وولَدى فى ذلك اليوم ! وإذا هو شىء يُوضَع فى الميزان ، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلَتَا بالسَّوِيَّة . وثَبَتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك والنَّجاة .

وأسمعُ الصوت : ألم يبق له شىء ؟ فقيل بقى هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكتْ من أثَرِ المعروفِ فى نفسها ، ومن إيثارى إياها وابنَها على أهلى . ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها فى الميزان فَفَارَتْ ، فطمَّتْ كأنها لُجَّةٌ ، مِن تحتِ اللجة بحر ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتْ من اللجَّة وقَع فى نفسى أنها رُوح تلك الدموع ، فجعلتْ تعظُم ولاتزال تعظم ، والكفةُ ترجَحُ ولاتزال ترجح ، حتى سمعتُ الصوت يقول : قد نجا !

وصحتُ صيحةً انتبهتُ لها ، فإذا أنا أقول : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ماخرجت السمكة ! » .

الزاهدان *

٢

قال أحمدُ بن مِسكين : انتشر حديثُ السمكةِ فى أهلِ (بلْخ). . واستفاضَ بينهم ، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم السبت ، فلما دار السبتُ من أسبوعِه لقيَنى شيخُهم حاتمُ بن يوسف (لقمانُ الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب ، فقال : يا أحمد ! لكأنك فى هذه المدينة قمرٌ طلَع بليْل فلا يَعظ الناسَ فى يوم السبت غيرُك ؛ ومن سمع فكأنه عايَن ، وليس على ألسنةِ أهلِ بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل ، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلا موعظتُك وحديثُك .

والكلامُ عن الصالحين فى مثلِ ما وصفتَ وحكيتَ قُرْبٌ من حقائقِهم ، وسُموٌّ إلى معانيهم ؛ وليس فى القول بابٌ له موقعٌ كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلُقهم الله فى البشرية خلقَ النور : يُضىء ماحوله من حيثُ يُرى ، ويعملُ فيما حوله من حيث لايُرى ، وفى ظاهرِه الجمالُ والمنفعة ، وفى باطنِه القوةُ والحياة . ولستُ أقول لك اذهبْ فحدِّث الناس ، ولكنى أقول اذهب فأعْطِ الناسَ عقلاً من الحديث .

قال ابنُ مِسكين : فلما صلينا العصرَ ، قدَّمنى أبو تراب فجلستُ فى مجلسى ذاك ، وهتَف بى الناسُ يريدون الحديث عن بِشر الحافى وما سَقَطَ لى من أخباره ، على الطريقة التى حدثتُهم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكر موته (رحمه الله) وأن يومَه كأنما اجتمع له أهلُ خمسٍ وسبعين سنة[1] ، إذ خرجتْ جنازتُه بعد صلاة الصبح ، فلم يحصُلْ فى قبره إلا فى الليل مما احتَشَد فى طريقه من الخلق ، حتى لكأن فى نعشه سرًّا من أسرار الجنة يطالعُهم به الموتُ فخرجوا ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون فى جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبلَ شرفِ الآخرة .

---

* هذا هو الفصل الثانى من قصة السمكة .

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة .

ثم قلت : حدَّثنى حسينٌ المَغَازلى(١) : أن بِشراً (رحمه الله) كان لا يأكلُ إلا الخبزَ تورُّعا عن الشبهات واكتفاءً لضرورة الحياة بالأقلِّ الأيسر ، وكان يقول فى ذلك : يَدٌ أقصرُ من يد ، ولقمةٌ أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأىِّ شىء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ فأجعلُها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً فى نفسه حتى فضَّل الإمامَ أحمد بن حنبل بأشياء: منها أن له أهلا ؛ غيرَ أنه قيل له ذاتَ يوم: لو تزوجتَ تم نُسْكُك . فقال : أخافُ أن تقومَ الزوجةُ بحقى ولا أقوم بحقها . فكانت هذه النية فى نفسه أفضلَ من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكِل أحداً ، ولا يسعَى إلى لقاء أحد ، حتى إنه لما رغب فى مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفٍ الكَرْخى) ، أرسل إليه (الأسودَ بنَ سالم)وكان صديقاً لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتَك وهو يستحيِى أن يُشافِهَك بذلك ، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقدَ له فيما بينه وبينك أخُوَّة يحتَسِبُها ويعتدُّ بها ؛ إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولُها أنه لا يحب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مُزَاوَرَة ولا مُلاقاة . فقال معروف : أما أنا فإذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهاراً ، وأزوره فى كل وقت ، وأوثِرُهُ على نفسى فى كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بينى وبينه ، ولكنى أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى .

قال حسين المغازلى : وكان هذا كلُّه من أمر بِشْر معروفا فى بغداد، لا يجهله أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيرَه وغيرَ ابن حنبل ؛ فما كان أكثرَ عجَبى حين كنتُ عنده يوماً وقد زاره (فَتْح الموْصِلى) ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلىَّ وقال : اشترلنا أطيبَ ما تجد من الطعام ، وأطيبَ ما تجد من الحلوى ، وأطيبَ ما تجد من الطِّيب . وما قال لى مثلَ ذلك قط ، وهو الذى رأى الفاكهة يوماً فقال : ترْكُ هذه عبادة ! وهو القائل لأبى نصر الصياد : لو أطعمنا

---

(١) نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بنى ، اعمل بيدك ؛ فإن أثره فى الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا رحمهم الله .

أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة(١) .

فذهبتُ فاشتريتُ وانتقيتُ وتَخيَّرت ، ثم وضعتُ الطعامَ بين أيديهما ، فرأيته يأكلُ معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطًا إليه وما لى عهدٌ كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنتُ أخبرتُه فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل ، علمتُه من أدريس الحداد : فإنه لما زالت المحنةُ بعد أن ضرب بين يدى المعتصم وصُرِفَ إلى بيته ، حُمل إليه مالٌ كثير من سَرَوات بغداد وأهل الخير فيها ، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيراً ، وهو محتاجٌ إلى أيسره ، وإلى الأقلّ من أيسره ، وإلى الشيء من أقلّه ، فجعل عمُّه اسحق يَحْسُبُ ما ورد ذلك اليوم ، فكان خمسين ألفَ دينار ، فقال له الإمام : يا عم ، أراك مشغولا بحساب ما لايفيدك . قال : قد رددتَ اليوم كذا وكذا ألفًا وأنت محتاج إلى حبة من دانق . فقال الإمام: يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لمَّا تركناه .

* * *

قال المغَازلى : فنمتُ تلك الليلةَ وأنا أفكر فى صنيع الشيخ ، وقد تعلّق خاطرى به : كيف انقلبت الحالُ معه ، وأىّ شيء هذه الحال ؟ وجعلتُ أكدُّ ذهنى لأعرفَ الحقيقةَ العقلية التى سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّط النعيمُ على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوما روحانيةً ليست فى الكتب ، فمنها ما لايتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فى جميعها طائلٌ ولا بها معرفة ، حتى غلبتنى عيناى ، وأنا من وَهَج الفكر نائمٌ كالمريض ، وقد ثَقُل رأسى واختلط فيه ما يعقَل بما لايُعقَل .

فرأيتُ أولَ ما رأيت مَلِكا جباراً يحكم مدينةً عظيمة ، وقد أطلق المنادىَ فى جمعِ كلّ أطفالِ مدينته ، فجىء بهم من كل دار ، ثم رأيته قد جلس على سريره وفى يده مِقراضٌ عظيم ، قد اتخذه على هيئة نَصلين عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لفَصَلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابعَ إحدى قدميه فى شِقّى المقراض فيقرضُها ، فإذا هى تتناثر أسرعَ مما

---

(١) مر هذا فى مقال (السمكة) .

يقرِضُ المِقَصُّ الخيط ، ثم يَرمى بالطفل مغشيًّا عليه ، ويتناول غيرَه فيبتُر أصابعَه . والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لاأستطيع أن أمْضِيَ فيه هذا الغَيظ فأقرِضَ عنقَه بمقراضه .

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيراً ، فلما جاءت قدمُ الطفل بين شِقَّى المقراض صاح : ياربِّ ، ياربِّ . فإذا المقراضُ يلتوِى فلا يصنع شيئًا ، وكأن فيه حجراً صَلْداً لاقَدمًا رَخْصَة . فتميَّز الجبارُ من الغيظ وقال : مَن هذا الطفل ؟ فسمعتُ هاتفًا يهتف : هذا بشر الحافى ! لايبلغ تاجُ مَلِكٍ فى الأرض أن يكونَ لقدمه الحافيةِ نعلاً عند الله !

وكان إلى يمينى رجل يتَوَضَّأ وجهُه صلاحا وتقوى ، فقلت له : مَن هذا الطاغية ؟ ولِم اتخَذَ المقراضَ لأقدام الأطفال خاصة ؟

فقال : يا حسين ! إن هذا الجبار هو ذُلُّ العيش ، وهذا وَسْمُه لأهلِ الحياة على الأرض ، يحقِّق به فى الإنسان معنى البهيمة أولَ ما يَدِبُّ على الأرض ، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدَم .

قلت : فما بالُ هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عباداً استخصَّهم لنفسه ، أولُ علامته فيهم أن الذلَّ تحت أقدامهم ، وهم يجيئون فى هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التى هى نفسُها طبيعةُ الذل ؛ فإذا اطَّرح أحدُهم للشهواتِ وزهد فيها ، واستقام على ذلك فى عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفُهُ الناس ، ولكنه رجل قوىّ اختارته القدرةُ ليحمل أسلحةَ النفس فى مَعاركها الطاحنة ، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم فى معاركه الدامية : هذا يتَعلَّم منه فنٌّ ، وذاك يتَعلَّم منه فنٌّ آخر ، وكلاهما يُرمَى به على الموت لإيجاد النوع المستعزِّ من الحياة ، فأولُ فضائله الشعورُ بالقوة ، وآخر فضائله إيجادُ القوة .

* * *

قال المغازلى : وضرَب النومُ على رأسى ضربةً أخرى ، فإذا أنا فى أرضٍ خبيثة داخِنَةٍ ، قد ارتفع لها دُخان كَثيفٌ أسود يتضرَّبُ بعضُه فى بعض ،

وجعلتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيء كأنها أجسامٌ حية ، فوقع فى وهمى أن هؤلاء هم الشياطينُ : إبليس وجنودُه ، وسمعتُ صارخا يقول : يا بُشرَى ! فلتبك السماءُ على الأرض ، لقد أكلَ بِشْرٌ الحافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حَجَرُها ومَدَرُها ، وذهبُها وفضتُها ! فعارضه صائحٌ أسمع صوتَه ولا أرى شخصَه : ويلك يا زَلَنْبور[1] ! إن هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكه وعبادته ؛ فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطيقه بِشر ؛ إنه إعناتٌ سلَّطه على نفسه ، فإنى دفعتُ هذا (المغازلىَّ) الأعمى القلبِ ليزيِّنَ له ما فعل أحمدُ بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعًا ، وقوةَ عزم ، ونفاذَ إرادة ؛ وقلتُ : عسى أن تتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فيَتَحسَّدَ أو يَغَار ، أو تُعْجِبه نفسه فيكونُ لى من ذلك لَمَّةٌ بقلبه فأوسوسُ له ؛ فإنَّا نأتى هؤلاء من أبوابِ الثواب كما نأتى غيرَهم من أبواب المعاصى ، ونتورعُ مع أهل الورَع كما نَتَسخَّفُ مع أهل السُّخف ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوةَ على جعل شهوات نفسِه أشخاصًا حيةً يعاديها ويقاتلُها ، فإذا أنا جعلتُ شهوتَه فى اللذة قتلَ اللذة ، وإذا جعلتها فى الكآبة قتل الكآبة ، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذى يتقشَّف ويتعفَّف ، ويتخفَّف ويتلفَّف ، فإن كثيراً ما تكونُ هذه هى أوصافَ الذُّل والحمق ، ويكونُ لها عملُ العبادة وفيها إثمُ المعصية . ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهد من أدار فى هذه الأشياء عينًا قد تعلمت النظرَ بحقه والإغضاء بحقه ؛ فهذا لا يخطئُ معنى الشر إن لَبَّسناه عليه فى صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوَّرناه فى صورة الشر ، وبذلك يضع نفسَه فى حيث شاء من المنزلة ، لا فى حيث شاءت الدنيا أن تضعَه من منازلها الدنيئة .

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّبات إلا ليُبادِرَ بها وسوستى ويردَّنى عن نفسه وعن اللَّمَّة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهدُ ابنِ حنبل ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسه لَحَبِطَ أجرُه ؛ فبهذه الطيبات عالجَ نفسَه علاجَ مريض ، وقد غيَّر على جوفه طعاماً بطعام ، كما يبدِّل على جلده ثوبًا بثوب ؛ ولا شهوةَ للجلد فى أحدهما .

* * *

قال المغازلى : وثقُلَ النوم علىَّ ثَقلةً أخرى ، فرأيتُنى فى وادٍ عظيم ، وفى

---

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى ، وفى بعض النسخ التى بأيدينا أنه خنزب لا زلنبور .....

وسطه مثلُ الطَّوْد من الحجارة قد رُكِمَ بعضُها على بعض ؛ ورأيتُنى مع بشر أقص عليه خبرَ أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر ويحك ؛ إن الناسَ يسمونها خمسين ألف دينار ، وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألفَ حجرٍ لو أصابتْ أحمد لقتلتْه ولكانت قبرَه آخرَ الدهر .

إن المالَ يا بنى هو ما يعملُه المال لاجوهرُه من الذهب والفضة ، فإذا كنتَ بِمَفَازةٍ ليس فيها من يبيعك شيئًا بذهبك ، فالترابُ والذهبُ هناك سواء ؛ والفضائلُ هى ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجدَّد بالمال دنياك التى لاتبقى أكثرَ من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسَك التى تخلدُ بخلودها .

ومعنى الغنى معنىً مُلْتبِسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهواتِ فيه ، فحين يردّ أحمدُ بنُ حنبل خمسين ألفًا ، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسَه فى هذا العملِ وَجْهًا من التصحيح .

* * *

قال حسين المغازلى : وغطَّنى النوم فى أعماقه غطّةً أخرى ؛ فإذا أنا فى المسجد فى درس الإمام أحمد وهو يحدث بحديث النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إذا عظَّمتْ أمتى الدينارَ والدرهم ، نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ، حُرِموا بركة الوحى » وهمّ أن يتكلم فى تفسيره[1] ولكنه رآنى فأمسكَ عنه وأقبل علىّ فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخُك بالرغيف فهذا عنده هو قدْرُ الضرورة ؛ فإن أكلَ الطيباتِ فقد عرضتْ حالٌ جعلت هذه الطيباتِ عنده هى قدرَ الضرورة ؛ وفى هذه النفوس السماوية لايكون الجزءُ الأرضىُّ إلا محدوداً ، فلا يكون محصولُه إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغُرَ الجزء الأرضىُّ فى نفوس المسلمين الأولين ملَكوا الأرض كلَّها بقوة الجزء السماوىِّ فيها ، إذ كانت إرادتُهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لاتذلُّ ولاتضعف ولاتنكسر ؛ فالآدميةُ كلُّها تنتهى إلى بعضِ صُوَرٍ ، وهؤلاء هم الذين محلُّهم فى أعلاها .

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين .

يا حسين ! ألا وإن ردَّ خمسين ألفَ دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .

قال حسين : وذهبتُ أعترض على الإمام بما كان فى نفسى من أن هذا المالَ وإن لم يكن من كسْبه ، فقد كان يتحول فى يده عملاً من أعمال الخير ؛ وأُنْسِيتُ أن هذه الصَّدَقاتِ هى أوساخُ الناس وأقذارُ نفوسهم ؛ فلم أكد أفتح فمى حتى رأيتُ الكلام يتحولُ طيناً فى فمى ليذكرنى بهذا المعنى ؛ وكدتُ أختنق فانتفضتُ أتنفَّس ، فطار النومُ والحلمُ .

إبليس يعلّم . . . * (١)

٣

قال أحمد بن مِسكين : ودار السبتُ الثالثُ ، وجلستُ مجلسى للناس وقد انتظمتْ حَلْقتَهُم ؛ فقام رجلٌ من عُرْض المجلس فقال : إن الحسَنَ بن شُجاع البلخى تلميذَ الإمام أحمد بن حنبل (٢) ، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديثَ عن الشيطان ، حفظنا منها قوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِى شيطانَه كما يُنضى أحدُكم بعيرَه فى سفره . » وكان الحسن يقول فى تأويله : إن شيطانَ الكافر دَهِينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مَهزولٌ أشعثُ أغْبرُ عارٍ . فهل يأكلُ الشيطان ويدَّهِن ويلبسَ ليكون له أن يجوعَ مع المؤمن ويَعْرَى ويتشعَّث ويَغْبَرَّ ؟

قال ابن مسكين: فقلت فى نفسى : لاحول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فإن إبليسَ إذا أراد أن يَسْخرَ من العالم ويُسمِعَه طَنْزَه وتهكمه (٣) ،حرَّك من يسأله عنه ماهو وكيف هو ؛ كأنما يقول له : تَنبَّه ويحك على معنايَ ، فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورةٌ من الردّ علَىَّ ، ولكنى حقيقةٌ من الرَد عليك ، وما أنت فى محاربتك لى بالوعظ إلا كالذى يريد أن يضربَ عُنُقَ عدوه بمائة اسمٍ وُضِعَتْ للسيف . . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبى عامر قَبيصةَ بن عُقْبة الكوفى المحدِّث الحافظ الثقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل (٤) ؛ وهو الرجلُ الصالح العابد الذى كان يقال له : (راهبُ الكوفة) ؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسه فى

---

* انظر الفصلين السابقين .

(١) داعبنا إبليس (لعنه الله) مداعبة ثقيلة فى كتابة هذا المقال ، وسنقتص للقراء حكايته فى مقالة : (دعابة إبليس) .

(٢) توفى ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ هـ ، وكان من حفاظ (بلخ) .

(٣) الطنز : التهزؤ والتهكم ، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة .

(٤) توفى سنة ٢١٥ هـ .

داخله كأنما جَسَدُه جِدارٌ بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظنّ الشيطانَ بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهّاد والعبّاد والصالحين هى فى تاريخ الشياطينِ كأسماءِ المواقع التى تنهزمُ فيها الجيوش ، وما الرجلُ العابد إلا صاحبُ الغَمَرات مع الشيطان ، وكأنه يحتملُ المكارهَ عن أمة كاملة بل عن البشرية كلِّها حيث كانت من الأرض ، فالناسُ يحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون التركَ أيسرَ شيء ، وما علموا أن الزهد لايستقيم للزاهد حتى يجعلَ جسمَه كأنه نظامٍ آخرَ غيرِ نظام أعضائه ؛ ولا أشقّ من ذلك على النفس . ومعجزةُ الزاهد أنه مكلفٌ أن يُخرج للناس أقوى القوة من المعانى التى هى عند الناس أضعفُ الضعف ؛ ولو أن ملِكًا عظيما تعب فى جمع الدنيا وفتْحِ الممالك حتى حِيزَتْ له جوانبُ الأرض ، لكان عملُه هذا هو الوجهَ الآخرَ لتعبِ الزاهد فى مُجاهَدَةِ هذه الدنيا وتركِها .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قَبيصةُ بن عُقبة كثيرَ الفكر فى الشيطان ، يودّ لو رآه وناقَلَهُ الكلامَ ؛ وكان يتدبّر الأحاديثَ التى صحّ ورودُها فيه ، ويفسّرمعنى الشيطان بأنه الروحُ الحىُّ للخَطأ على الأرض ؛ والخطأ يكونُ صوابًا محوّلاً عن طريقته وجِهَتِه ، ولهذا كان إبليسُ فى الأصل مَلَكا من الملائكة وتحوّل عن طبيعته حين خُلق آدمُ (عليه السلام) ، أى وُجِدَ فى الكون روحُ الخطأ حين وُجِد فيه الروحُ الذى سيُخطئ .

فلما هبط آدمُ من الجنة وحُرِمَها هو وزوجُه وذرّيتُه ، كان إبليسُ (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمرارِه على الدهر ، فكأن هذه الآدميةَ أُخرجت من الجنة ، وأُخرجت معها قوةٌ لاتزال تَصُدُّها عنها ، ليضطربَا فى الكِفاح مَلِيًّا من زمنٍ هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدلُ الإلهى : لم يَعرف آدمُ حقّ الجنة ، فعُوقب ألاّ يأخذَها إلا بحقها ، وأن يقاتل فى سبيل الخير قوةَ الشر .

وبات أبو عامر ذاتَ ليلة يفكر فى هذا ونحوِه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هَوّمَ فكان بين اليقَظة والنوم ، وذلك حين تكونُ العينُ نائمةً

والعقلُ لايزال منتبهًا ، فكأن العينَ متراجعةٌ تبصر من تحتِ أجفانها بصراً يُشارِكها فيه العقل .

فرأى شيخُنا أبو عامر صورةَ إبليسَ جاءه فى زىّ رجل زاهد ، حَسَنِ السَّمْتِ ، طيِّبِ الريح ، نظيفِ الهيئة ، وكاد يُشَبَّهُ عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه ، فإن عينى الكاذب تَصْدُقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذبَ آدمىّ قَفْرٌ كالمتَاهةِ من الأرض ، فجعل عينيه كالعلاماتِ لمن خاض الفلاة .

وظهر الشيطانُ زاهداً عابداً تقيا نقيا كأنه دِين صحيحٌ خُلِقَ بَشراً ، فَصرَخ فيه أبو عامر : عليكَ لعنة الله ! أمعصيةٌ فى ثوب الطاعة ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصيةُ إنها طاعة لم يُقَارِفْها أحد . وهل خُلقت الشهواتُ فى نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لشىء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعةٌ لا بأنها معصية ؟ أو لاترى يا أبا عامر أن الحيلةَ مُحكمةٌ فى الداخل من الجسم أكثرَ مما هى محكمة فى الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لما كان لظاهر الوجود كلِّه فى الإنسان معنىً ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموتَ قد خلق إلا رداًّ عليك أنت ، ليتبيَّنَ الناسُ أنك الممتلئُ الممتلئُ ، ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية منك وردّ عليك ، فلا طعْم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضى ؛ ومتى قالت اللذةُ : قد انتهيت . فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تَلدَ ما يُبقيها حية ، فهى تلد الحنينَ إليها ، وهو لايسكن حتى يعودَ لذة تنقضى وتلد .

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كلِ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها ، ولكن (عليك لعنة الله) لماذا جئتنى فى هذه الصورة ؟

قال إبليس : لأنى لا ألبسُ إلا محبةَ القلبِ الآدمى ، ولو لا ذلك لطردتْنى القلوبُ كلّها وبطَلَ عملى فيها ، وهل عملى إلا التلبيسُ والتزوير ؟ أفتدرى يا أبا عامر أنى لا أعترِى الحيوانَ قط

قال الشيخ : لأن الحيوان لاينظر إلى الشيء إلا نظرةً واحدةً ، هي نظرُه وفهمُه معًا ، فلا محلَّ للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أُنبِّئكم على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ؟ تَنَزَّلُ على كلِّ أفّاكٍ أثيم » . فأنت أيها الشيطانُ التزوير ، والتزويرُ موضعُه الكذب ؛ فمن لم يكذِّبْ فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى (رحمك الله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاءِ الزهّادِ العبّادِ ، هو فى جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلا نظرةٌ واحدة فى كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك . . . ؛ إن الحيوانَ شيء واحدٌ ، فهو طبيعةٌ مسخَّرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياءَ متناقِضَةٌ بطبيعتها ، فألوهيتُه أن يُقِرَّ النظامَ بين هذه المتناقِضَاتِ ، كأنما امتُحِنَ فأعطيَ من جسمه كونًا فيه عناصرُ الاضطرابِ ، وحوله عناصرُ الاضطراب ، ثم قيل له دَبِّره .

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكْتَ لعنك الله ؟

قال : ضحكتُ من أنك أعلمتَنى حقيقةَ الإبليسية ، فالزهّادُ هم الصالحون لأن يكونوا أعظمَ الأبالسة . . .

قال الشيخ : عليك لعنة الله ، فما هى تلك الحقيقة التى زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما غلا إنسانٌ فى زَعْم التقوى والفضيلةِ إلا كانت هذه هى الإبليسية ، وسأعلمك يا أبا عامر حقيقةَ الزهد والعبادة . فلا تقلْ إنها ألوهيةٌ تُقِرُّ النظامَ بين متناقِضاتِ الإنسان ومتناقضاتِ الطبيعة »

قال الشيخ : وتسخَر منى لعنك الله ؟ فمتى كنتَ تعلَم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أو لم أكنْ شيخَ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكونَ عالِمَها ومعلِّمَها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هى التى أعجزتنى فى نبيكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ؛ فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظامُ النفس ، ونظامُ العالم ، ونظامُ اللذات

والشهوات : أن تكونَ لك تقوى ، ثم يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى ، ثم يكونَ لكَ نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعتْ هذه الثلاثُ فى إنسان إلا قَهَرَ الدنيا وقَهر إبليس .

فإن كانت التقوى وحدَها — كتقوى أكثرِ الزهَّاد والرهبان — فما أيسرَ أن أجعلَ النظرَ منها نظرَ الغفلة والجبن والبلادة والفضائلِ الكاذبة ، وإن كان الفكرُ وحدَه — كفكر العلماء والشعراء — فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظرَ الزّيغ والإلحادِ والبهمية والرذائلِ الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتَّقَوْا ربَّهُم إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مُبْصِرون » .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرنى والله أن أفسِّرَ لك ، فإن قارورةً من الصِّبْغ لا تَصْبغُ البحر ، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماء المصلحين فأضعُ فى الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أنك صبَغْتَ البحرَ بملء قارورةٍ حمراء لما صبغتَ البحرَ الإنسانىَّ بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلحُ شيئًا غيرَ السيف ، وما دام الزاهد شيئًا غيرَ الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارِم ، فإذا وضعتَ المصلحَ بين مائة ألف فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتَّانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسبُ جسمَها . . .

فصرخ الشيخ : اغرُبْ عنى عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عمر . لقد لقيتُ المسيحَ وجرَّبتُه وهو كان تفسيرَها .

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعًا فى الصحراء لايجدُ ما يَطْعَمُهُ ، ولايظن أنه يجد ، ولايرجو أن يظن ؛ ثم قلتُ له : إن كنتَ رُوحَ الله وكلمتَه كما تزعمُ ،

فُمرْ هذا الحجرَ ينقلب خبزاً . فكان تقيًّا ، فتذكّر فإذا هو مُبْصِر ، فقال : ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان ، فمثلُ هذا لومات جوعًا لم يتحوَّل ، لأن الموتَ إتمامُ حقيقته السامية فوقَ هذه الدنيا ، ولو مُلِئتْ له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحوّل ، لأن له بَصَراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان أخرى هى إشباعُ حقيقته السماوية التى لاشهوةَ لها .

ثم ارتقيتُ به إلى ذِرْوة جبلٍ وأريتُه ممالكَ الخافقَين ، كشفتُها كلَّها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنتَ سجدتَ لى . فكان متقيًا ، فتذكّر فإذا هو مُبصِر : أبصر حقيقةَ الخيال الذى جَسَّمتُه له ، وعلم أن الشيطان يُعطى مثلَ معانى هذه الممالكِ فى جَرعة خمر ، كما يُعطيها فى ساعة لذة ، كما يُعطيها فى شفاء غيظ بالقتلِ والأذى ؛ ثم لايبقَى من كل ذلك باقٍ غيرُ الإثم ، ولا يصحُّ منه صحيح إلا الحرام . ومَن ملَكَ الدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيتْ فهى خَيال فى جَرعة الحياة ، كما هى خيالٌ فى جرعة الخمر .

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر ، الذى وراءه التذكُّر ، الذى وراءه التقوى ، التى وراءها الله — هذا وحدَه هو القوةُ التى تتناول شهواتِ الدنيا فتُصفّيها أربعَ مرات حتى تعودَ بها إلى حقائقها الترابيةِ الصغيرةِ التى آخرُها القبر ، وآخر وجودِها التلاشِي .

فالبصرُ الكاشفُ الذى يُجرِّد الأشياء من سِحرها الوهمِى ، هذا هو كلُّ السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطانى . . . تريد — ويحكَ — أن تحتالَ على الشيطان ؟ ولكن ما يضرنى أن أفسرَها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقادَ ولا العملَ ، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحد ولصلُحت الدنيا وأهلُها ؛ إنما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفىٍّ يكونُ مع الغريزة

فى مَقَرّها ، ويصلُح أن يكونَ فى مقرّها لتَصْدُرَ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لايصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجع إليه الإنسانُ فيتذكر فيُبْصِر . هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان .

والعملُ الشيطانىُّ لايكونُ إلا فى إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيالِ العظيم الذى فيه بالحقائق الصغيرة التى تظهرُ للمغفل عظيمة ، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرص الشمس ثم يقال للأبله : انظرْ بعينيك ، فيصدّق أنها أكبرُ من الشمس .

ومتى صغُر هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه فى النفس ، فأيسرُ أسبابِ الحياة حينئذ يُفسد المعتقَدَ ويُسقِطُ الفضيلة ؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذ .

أما إذا ثبت اليقين فالشيطانُ مع الإنسانُ يصغرُ ثم يصغُر ، ويَعجز ثم يعجز. حتى ليرجعُ مثلَ الدرهم إذا طمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنىَّ الكثيرَ المال لِصًّا من اللصوص بهذا الدرهم .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع فى فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفسادَ اليقين زدتُه يقيناً فيفسد ، واستحسانُ الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أولَ أعماله السافلة ؛ وبأى عجيب يكون الشيطانُ شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ ، فمدَّ يدَه فأخذ فيها عُنُقَ إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عَصَره عَصْراً شديداً يريد خنْقَه ؛ فقهقه الشيطانُ ساخراً منه . ويتنبه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى . . .

الدنيا والدرهم
٤

قال أحمدُ بن مِسكين : وأزِفَ تَرحُّلى عن (بلخ) ، وتهيأتُ للخروج ، ولم يبق من مدة مَقيلى بها إلا أيامٌ يجىء فيها السبتُ الرابع ، وكان قد وقعت مُمَارَاةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) أبى إسحق إبراهيم بن يوسف الباهلى[1] تلميذ أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال ، وأنه يتَغَلَّلُه من مُستَغَلاَّت كثيرة[2] ، فكأنما غَشِيَتْه غَمامتى ، فهو لايرى أن أتكلمَ فى الزهد ، ويحسبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العبَّاد ، ونَفْضَ الأيدى من الدنيا ، وسُوءَ المصاحبة لما يُنعِم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة فى البدن ، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التى زَعَم أنها أباطيلُ الطاعات وما أقربَها من أباطيل المعصية . ولم يكن هذا المفتى قد سمعنى ولاحضَر مجلسى ، ولولا الذى لم يعرفْه من ذلك لقد كان عرف .

وجادلتُه فرأيتُه واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظرَ صاحب النص إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا أُلقيتْ على الناس مضتْ نافذةً كفتوى المفتى . . . ويزعم أن الوعظَ وعظ الفقهاء ، يقولون : هذا حرام . فيكون حرامًا لايُقارفُه أحد ، وهذا حلالٌ . فيكون حلالاً لايتركه أحد ، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومَداخله إلى النفس وسياستِه فيها ، ولايعرف أن الحقيقة كالأنثى : إن لم تَزَيَّنْ بزينتها لم تَستَهْوِ أحداً ؛ وأن الموعظةَ إن لم تَتَأَدَّ فى أسلوبها الحىِّ كانت بالباطل أشبه ، وأنه لايغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ومن كان فى طريقة رُوحهم ، وأن هذه الصناعَة إنما هى وضعُ نور البصيرة فى الكلام ، لا وضعُ القياسِ والحجة ، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد ، إنما

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٣٣٩ هـ .
(٢) المستغلات : أصول الأموال ، وتغلّل واستغل بمعنى .

هو حياةٌ تلبسُها الحقيقة لتكونَ به شيئًا فى الحياة والعمل . لاشيئًا في القول والتوهُّم ، فيكون إلهامُها فيه كحرارة النار فى النار : من وَاتَاها أحسَّها .

ولَعمرى ، كم من فقيهٍ يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرامَ إلا ظهوراً وانكشافًا ما دام لاينطقُ إلا نطقَ الكتب ، ولايحسن أن يصلَ بين النفس والشَّرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحًا تتعلق الأرواحُ بها وتضعه بين الناس فى موضعٍ يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذُ قريب ، راجعٌ إليها بعدَ قريب .

والفقيهُ الذى يتعلق بالمال وشهواتِ النفس ، ولايجعل هَمَّه إلا زيادة الرزق وحظَّ الدنيا — هو الفقيهُ الفاسدُ الصورةِ فى خيال الناس ، يُفْهِمُهم أولَ شىء ألاَّ يَفْهموا عنه ؛ إذ حِرْصُه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحةُ الخبز ، وله معنى خمسٌ وخمسٌ عشرة[1] . . . وكأن دنياه وَضَعت فيه شيئًا فاسدًا غريبًا يُفسِدُ الحقيقةَ التى يتكلم بها ؛ ولست أدرى ما هو هذا الشىء ، ولكنى رأيتُ فقهاءَ يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نَصٍّ كتاب الله وسنَّة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم لم أجد لكلامهم نفعًا ولاردًّا ، إذ يُلْهِمون الناسَ بأرواحهم غيرَ المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتَسْخَرُ الحقيقةُ منهم — على خَطَرِهم وجلال شأنِهم — بذاتِ الأسلوبِ الذى تسخَرُ به من لصٍّ يعظ لصا آخر فيقول له : لاتَسرِق . . .

* * *

قال ابنُ مسكين : فلما دار يومُ السبت أقبل الناسُ على المسجد أفواجًا ، وكانوا قد تَعَالَموا إزْمَاعى الرحيلَ عن بلدهم — وجاء (لقمانُ الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو إسحق المفتى فى جماعته ؛ واستقر بى المجلس فنفَذَتُ الناسَ بنظَرى ، فكأنهم من كثرتهم نَبَاتٌ غطَّى الأرض ، فأذكرنى هذا شيخَنا السرىَّ بنَ مُغلِّس السقَطى[2] ، وكان قد لزم دارَه فى بغداد لايخرج منها

---

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية . . .) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراجَ الدراهم من النصوص . . .

(٢) السقط : ردىء المتاع (روبابيكيا) ، وبائعه : السقطى . وهذا الإمام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع ، وله كلام إلهى مشرق ، وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ هـ .

ولا يراه إلا من قصد إليه ، وهممتُ أن أجعلَ الموعظةَ فى شرح كلمته المشهورة : « لا تصحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدُهما للآخر : يا أنا » . وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنةً وأنا فى الاستغفار من قولى : (الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريقٌ ، فاستقبلنى رجلٌ فقال : نجا حانوتُك . فقلتُ : الحمد لله . فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردتُ لنفسى خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكنى أحببتُ أن أكلم المفتى ومالَ المفتى ؛ فحدثتهم حديث معرفتى بالسَّرىّ : أنى سمعتُ يوماً (غيْلان الخياط) يقول : إن السرى كان اشترى كُرَّ لوز[1] بستين ديناراً ، وأثبته فى رزنامجه[2] وكتب أمامه : ربحُه ثلاثة دنانير[3] ؛ فلم يلبث أن غلا السعرُ فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلاّل الذى كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين . قال السرىّ : ولكنى عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلاّل : وأنا قد عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحله ، ألاّ أغشّ مسلماً ، فلست أشترى منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلاّل اشترى منه ، ولا السرىُّ باعه . . !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لى همةٌ إلا أن ألقى الشيخَ وأصحبَه وآخذَ عنه ، فلم أعرِّجْ على شىء حتى كنت فى المسجد الذى يصلى فيه ، فأجده فى حلْقته وعنده ممن كنتُ أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريسُ الحداد ، وعلى بن سعيد الرازى ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضْرةُ روحه ، وكأنما يُمدُّه بالنور عِرقٌ من السماء ، فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يُحِسَّ فى ذاتِ نفسه أنه الأدنى ، من رؤيته فى ذاتِ نفسِه أن هذا هو الإنسانُ الأعلى .

---

(١) الكر (بضم الكاف) : مكيال عظيم يقدرون به فى الحساب ، وهو أربعون إردباً مصرياً .

(٢) أى دفتر حسابه . (٣) خمسة فى المائة .

ورأيتُ على وجهه آلاماً تمسَحُه مِسْحةَ الأشواق لامِسْحَةَ الآلام ، آثارُ ما يجدُه فى روحه القوية ، لاكآلام الناسِ التى هى آثار الحرمان فى أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوهَهم إلا مِسحَةَ الغم والكآبة .

وما يخطئُ النظر فى تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض فى الوجوه الأخرى ، فإن الأولى تتندّى على رُوح الناظر بمثل الطَّلِّ إذا قطَّره الفجر ، والأخرى تتثوَّرُ فى روحه كما تهيجُ الغبَرَةُ إذا ضربت الريحُ الأرض .

كان الشيخُ فى وجودٍ فوق وجودنا ؛ فلا تتلوّن له الأشياء ولاتعدو عنده ما هى فى نفسها ، ولا يحملُ الشيء له إلا معناه من حيث يَصلُح أولا يصلُح ، ومن حيث ينبغى أو لاينبغى . فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطانُ عينَه فى عين الناظر إليها ؛ وإنما تزيد وتنقُص فى القلب عند ما يكونُ روحُ الشيطان فى القلب ؛ وإنما يَشتبِه ما ينبغى وما لا ينبغى عند ما يأتى الشيءُ من جهتين : جهتِه من طبيعته هو ، وجهتِه من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الإنسانُ المالَ ثم لايجد فى المال معنى الغنى ، وقد تتفقُ أسباب النعيم ولايكون منها إلا الذل . وكم من إنسانٍ يجدُ وكأنه لم يجدْ إلا عكسَ ما كان يبغِى ، وآخرَ لم يجدْ شيئًا ووجد بذلك راحتَه .

* * *

قال ابنُ مسكين : وما كان أشدَّ عجبى حين تكلم الشيخ ، فقد أخذ يُجيب عمَّا فى نفسى ولم أسأله ، كأن الذى فى فكرى قد انتقل إليه ؛ فروَى الحديث : « إذا عظَّمَتْ أمتى الدينارَ والدرهم ، نُزِعَ منها هيبةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهىَ عن المنكر ، حُرِموا بَرَكةَ الوحى » . ثم قال فى تأويلهِ :

إن مَلَكَ الوحى ينزل بالأمر والنهى ليُخضعَ صَوْلةَ الأرض بصَولة السماء ، فإذا بقى الأمرُ بالمعروف والنهىُ عن المنكر ، بقى عملُ الوحى إلا أنه فى صورة العقل ، وبقيت روحانيةُ الدنيا إلا أنها فى صورة النظام ، وكان مع كل خطأٍ تصحيحُه ؛ فيصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمرٍ مُطاع ومأمورٍ مطيع ، فيتعامل الناس على حالةٍ تجعل بعضَهم أستاذاً لبعض ، وشيئًا منهم تعديلاً لشيء ،

وقوةٌ سنداً لقوة ؛ فيقومُ العزمُ فى وجه التهاون ، والشدة فى وجه التراخى ، والقدرةُ فى وجه العجز ؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعودُ صفاتُهم الإنسانيةُ وكأنها جيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضهُ بعضًا ، فتكونُ الحياة مفسَّرةً ما دامت معانيها الساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها ، وما دامت ممثَّلةً فى الواجب النافذِ على الكل .

والناس أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعانى ، فليست حقيقةُ الحرية الإنسانية إلا الخضوعَ للواجب الذى يحكم ، وبذلك لابغيره يتصلُ ما بين الملكِ والسُّوقةِ ، وما بين الأغنياء والفقراء ، اتصالَ الرحمة فى كل شىء ، واتصالَ القسوةِ فى التأديب وحده . فبركةُ الوحى إنما هى جعلُ القوة الإنسانيةِ عملاً شرعيًّا لا غير .

أما تعظيمُ الأمة للدنيا والدرهم ، فهو استعبادُ المعانى الحيوانيةِ فى الناس بعضِها لبعض ، وتقطُّعُ ما بينَهم من التشابُكِ فى لُحْمةِ الإنسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيراً وإن صَغُرَتْ معانيه ، والصغيرِ فيهم صغيراً وإن كَبر فى المعانى ؛ وبهذا تموجُ الحياة بعضُها فى بعض ، ولا يستقيم الناسُ على رأىٍ صحيح ؛ إذ يكونُ الصحيحُ والفاسدُ فى مِلْكِ الإنسان لافى عملِ الإنسان ، فيكنز الغنىُّ مالاً ويكنز الفقيرُ عداوةً ، كأن هذا قتَل مالَ هذا ، وكأن أعمالاً قتلت أعمالاً ، وترجعُ الصفاتُ الإنسانيةُ متعاديةً ، وتُباع الفضائلُ وتشترى ، ويزيد من يزيدُ ولكن فى القسوة ، وينقُصُ من ينقص ولكن فى الحرية ، وتكون المنفعةُ الذاتيةُ هى التى تأمرُ فى الجميع وتنهَى ، ويدخُل الكذبُ فى كل شىءٍ حتى فى النظرِ إلى المال ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنما درْهمهُ وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخر ودرهمِه ، فإذا أعطى نقَص فغَشَّ ، وإذا أخذ زاد فسرَق ؛ وتُصبح النفوسُ نفوسًا تجاريَّةً تُساوِمُ قبلَ أن تنبعثَ لفضيلة ، وتُماكِس إذا دُعِيتْ لأداء حق ، ويتعامل الناسُ فى الشرف على أصولٍ من المَعِدة لا من الروح ، فلا يقالُ حينئذ : إن رغيفين أكثرُ من رغيف واحدٍ . كما هى طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغيفين أشرفُ من رغيفٍ . كما هى طبيعة النفاق .

أما التجارةُ — وهى التفسيرُ الظاهرُ لمعانى النفوس — فتُصبح بين الغِش والضررِ والمماكَسَة ، وتكونُ يقَظَةُ التاجر من غفلة الشارى ، وتَفسُدُ الإرادةُ

فلا تُحدِثُ إلا آثارَها الزائغة . وما التاجرُ فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخُلق فى الموضع المتقلِّب ، فكلمتُه كالرقْم من العدد لايحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مما فيه ، ويُمتَحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابدُ بصلاته وصيامه . وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب فى قضية ، فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك . فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنتَ جارُه الأدنى الذى يعرفُ مَدْخَلَه ومخرجَه ؟ قال: لا . قال : فكنتَ رفيقَه فى السفر الذى يُستَدَل به على مكارم الأخلاق؟ قال : لا. قال : فعاملتَه بالدينار والدرهم الذى يَستبِينُ به ورَعُ الرجل ؟ قال : لا .

قال عمر : أظنك رأيتَه قائمًا فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن ، يَخفِضُ رأسَه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .

قال : فاذهب فلستَ تعرفه !

وإنما التاجرُ صورةٌ من ثقة الناس بعضِهم ببعض ، وإرادةِ الخير واعتقادِ الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهرٌ توضَعُ اليدُ عليه كما تَجسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحتَه .

فإذا عظَّمت الأمة الدينارَ والدرهم ، فإنما عظَّمت النفاقَ والطمعَ والكذب والعداوةَ والقسوةَ والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حُدوداً فاصلة بين أهلِها ، حتى لتكون المسافةُ بين غنى وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعَدَ ما بينهما . وإنما هيبةُ الإسلام فى العزة بالنفس لا بالمال ، وفى بذلِ الحياة لافى الحِرْص عليها ، وفى أخلاقِ الروح لا فى أخلاق اليد ، وفى وضع حُدود الفضائل بين الناسِ لا فى وضع حُدود الدراهم ، وفى إزالةِ النقائص من الطباع لافى إقامتها ، وفى تَعَاوُن صفاتِ المؤمنين لافى تَعادِيها ، وفى اعتبار الغنى ما يُعْمَلُ بالمال لا ما يُجمَعُ من المال ، وفى جعلِ أول الثروة العقلُ والإرادةُ ، لاالذهبُ والفضة ..

هذا هو الإسلامُ الذى غلَبَ الأمم ، لأنه قبلَ ذلك غلَبَ النفسَ والطبيعة .

دُعابةُ إبليس *(١)

أمَا إنى سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقَتْ ، لا أُزيِّنها بخيال ، ولا أتزَيَّدُ فيها بخبر ، ولا أولِّد لها معنى ؛ فإنما هى حكايةُ خُبْثِ الخبيثِ : فنُّها حِذْقُه ودَهاؤه ، ورقَّتُها غِلْظتُه وشرُّه ، ومعانيها بلاؤُه ومِحْنتُه ؛ وأعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم ، واللهُ المستعان .

لما فكرتُ فى وضع مقالة(إبليس) من أحاديث (ابن مسكين) ، وأدرتُ رأيى فى نهجها وحدودِها ومعانيها ، جعل فكرى يتقطَّع فى ذلك ، يذهبُ ويجىء كأن بينى وبينه منازَعة ، أو كأن فى نفسى شيئًا يَثْنينى ويقطَعنى عن العَزم ؛ وخُيِّل إلىَّ حينئذ أن (إبليسَ) هذا منفَعةٌ من المنافع . . . وأنه هو قانونُ الطبيعةِ الذى نَصٌّ مادته الأولى : ما أعجبَكَ فهو لك . ونَصٌّ مادته الأخيرة : ما احتجتَ إليه فثمنُه أن تقدرَ على أخْذِه . . .

وهَجَسَ فى نفسى هاجسٌ : أن (إبليسَ) قائم فى لفظ الحرية كما هو قائم فى لفظ الإثم، وأنه إن يكنْ فى قلوب الفُسَّاقِ فهو أيضًا فى أدمغة الفلاسفة وإن كان فى سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة ، فهو كذلك فى سموِّ أهلِ الفن إلى الفن . . . قال الهاجس : وإن (إبليسَ) أيضًا هو صاحبُ الفضيلةِ العملية فى هذا العصرِ المادى ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أن يلقِّبوه « صاحبَ الفضيلة . . . »

ولكنى لم أحفِلْ بهذه الوساوس ولم أعُجْ على شىء منها ، واستعنتُ اللهَ وأمضيْتُ نيَّتى على الكتابة ، وأخذتُ أقلِّبُ الموضوع ، وأنبِّه فكرى له ، وأستَشْرِفُ لما يؤدِّى إليه النظر ، وأتطلَّع لما يجىء به الخاطر ، وألتمسُ ما أبنى عليه الكلامَ كما هى عادتى ؛ فلم يقع لى شىءٌ ألبتة ، كأنما ذهَبَ أولُ ابتداءِ الموضوع فلا أولَ له ولا سبيلَ إلى اقتحامه ، وكأنه من وراءِ العلم فلا يُبلَغ إليه ، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقةِ الحياة كلِّها فى كلمة . وإبليس كلمة فيها حماقةُ الحياة كلها .

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) الدعابة : المزاح واللعب ، وكل ما سيرد فى هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً .

* * *

ومن عادتى فى كتابة هذه الفصول التى تنشرها (الرسالة)[1]، أن أدعَ الفصلَ منها تقلّبه الخواطرُ فى ذهنى أيامَ الثلاثاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للقوة التى فى نفسى، فتتولّد المعانى من كل ما أرى وما أقرأ، وتَنْثال من ههنا وههنا، ويكون الكلام كأنه شىء حىٌّ أريدَ له الوجودُ فوُجِد.

ثم أكتب نهار الجمعة، ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتْنى فترةٌ أو كنتُ على سفَر أو قطعَنى عن الكتابة شىءٌ مما يَعْرِض.

وفى أسبوع إبليس (لعنه الله)، مرت الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لانشاطَ معه، واضطرابٌ لامساكَ له. وأطلتُ التفكيرَ يوم الخميس، فكانت تعترينى خواطرُ مضحِكة: فيعرضُ لى مرة أن أصوِّر إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسَ الجميل... وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكونَ شيخاً كبعض رجال الدين الذين لاتزالُ تطّلعُ على خائنة منهم، ليقالَ إبليسُ التقىُّ المصلّى... وحيناً أظن أنه يريد أن يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إبليسُ المفكِّر المصْلِح... وخطر لى أخيراً أنه يريد أن يكون حاكماً ملحِداً فاجراً، ليكون إبليسَ التام لا إبليس الناقص...

* * *

ولما ذهبت الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، خُيِّلَ إلىَّ أن إبليسَ (أخزاه الله) يسألنى عن المقالة: إلى أى شىء انقلبتْ...؟ فشقَّ ذلك علَىَّ واغتمَمْتُ به، غيرَ أنى اطمأننْتُ إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين. وكانت قد غربت شمسُ الخميس، فقلتُ: فلأ خرجْ لأتفرَّجَ مما بى، وعسى أن أجمعَ نفسى للتفكير إذا جلستُ فى الندىّ، ولعله يقع ما أستَوْحيه أو ينفتحُ لى بابٌ فى القراءة.

وخرجتُ، فلم أجاوِز الدارَ حتى ابتدرنى من هبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفى أخوه اليوم. فقلت: لاحول ولا قوة إلا بالله؛ ضاع يومُ الجمعة. إذ لابد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم، ثم قلت: لعل

(١) مجلة الرسالة، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها، إلا فصولا قليلة.

فى هذا السفر استجماماً ونشاطاً فأستدركَ الأسبوع كلّه فى يومين ، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ، ولابدَ لإبليس فى الموت والحياة ، فليس إلا اطّراحُه وقلةُ المبالاة به ، وإنما هى خَطَرات من وساوسه .

وأصبحتُ فى القاهرة ، ومشيتُ فى الجنازة قبل الظهر مَسيرةَ ساعة كاملة ؛ وكانت الشمسُ ساطعةً تتلألأ ، وأنا مُثْقَلٌ بثياب الشتاء وكنت أتوقع أن يكونَ اليومُ من أيام الريح المجنونة ؛ فلما انتهينا إلى الصحراء، هبّت الريح هبوباً ليناً ، ثم زَفَتْ فكانت إلى الشدّة ما هى ؛ ولكنها ماضية تَسْفِى الرملَ فى الأعين فيأخذُ فى أجفانى أُكالٌ وتَهْييج ،وليس معى شىء أتّقيها به؛ غيرَ أنى شغلتُ ، فكرى برؤية المقابر ، وجعلتها فى نفسى كالمقالة المكتوبة سطراً وراءَ سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقةُ فى أول تفسيرها ، وغيرُ المفهوم فى الحياة يُفْهَم هنا .

ثم رجعتُ مُنَدَّى الجسم بالعرق وعلَىَّ نَضْحٌ منه ، وكان القميصُ من الصوف ، وبصدرى أثرٌ من النزلةِ الشُّعبية ؛ وإذا تَنَدَّى الصوفُ وجب نزعُه وإلا فهى العلةُ ما منها بد .

ثم لم تكن إلا ساعةٌ حتى انخرقت الريحُ وجعلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ الجوُّ ، فأيقنتُ أنه الزكام ، وقلتُ فى نفسى : هذا بابٌ على حِدَة ، والمقالة ذاهبةٌ لا محالة ، فسيتخلّفُ الذهن ويتبلّد ؛ والشيطانُ كريم فى الشرّ يُعطى من غير أن يُسأل . . .

وثَقُل ذلك علَىَّ فكان الغمُّ به علةً جديدة ، بيدَ أنى لم أزل أرجو الفرصة فى أحد اليومين : السبت والأحد . وقلت : إن من البلاءِ الفكرَ فى البلاء ، ولعل من السلامة الثقةَ بالسلامة ؛ فإذا نبّهتُ العزيمةَ رجوتُ أن يتغلغل أثرها فى البدن كلّه فيكون علاجاً فى الدم يَحْدُثُ به النشاط ويُرهَفُ منه الطبع وتجمُّ عليه النفس . وفى قوة العصَب كهربائيةٌ لها عملُها فى الجسم إذا أحسن المرء بعثَها فى نفسه وأحكم إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضية ؛ ولَهِىَ الدواء حين يَعجز الدواء ، وهى القوةُ حين تُخذَلُ القوة .

فاعتزمتُ وصمّمتُ ، واحتَلتُ على الإرادة ، وتكثّرتُ من أسباب الثقة وترصّدتُ لها السوانحَ العقليةَ التى تَسْنَحُ فى النفس ، وقلتُ لإبليس : اجهَدْ

جُهْدَك ، فما تذهبُ مذهبًا إلا كان لى مذهب . ولكنّ اللعينَ أخطر فى ذهنى قول القائل يسخَر فيه من ذلك الكاتب البغدادى [١] .

لو قيلَ : كم خمسٌ وخمسٌ ؟ لاغتَدى يومًا وليلتَه يَعُدُّ ويَحْسُبُ ،
ويقول : مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ولئن فهمتُ لها ، لأمْرِىَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ ، أو سبعةٌ ، قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ . . . .

* * *

ثم أجمعت الرجوعَ من يومى إلى (طنطا) ، لأتقى البردَ بعلاجه إن نالنى أثره ، وكان علَىَّ وقت إلى أن يقومَ القطار . فذهبت فقضيت واجبًا من زيارة بعض الأقارب فى ضاحية (الجيزة) ، ثم ركبت الترام الذى أعلم أنه ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد .

وجلست أفكر فى إبليسَ ومقالته ، والترام ينبعثُ فى طريقه نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذى ينعرجُ منه إلى المحطة ، وهو بحيالِ (جمعية الإسعاف) ، حيثُ تنشعبُ طرق أخرى ؛ وكنت منصرفًا إلى التفكير مستغرقًا فيه ، طائفَ النظَرات على الجوّ ، فما راعنى إلا اختلافُ منظرِ الطريق ؛ وأنتبهُ ، فإذا الترام يَمْرُقُ مروقَ السهم فى تلك السبيلِ الصاعدةِ إلى (الجيزة) . . . من حيث جئت .

فلعنت الشيطانَ وتلبثت حتى وقف هذا الترام ، فغادرتُه ورجعت مُهَرْوِلاً إلى ذلك المنشَعَب ، فصادفت ترامًا آخر ، فوثبتُ إليه كأنى أُحَمَّل إليه حملاً ، ودفعتُ الأجرة ، وانطلق ، فإذا هو مُنْصَبٌّ فى تلك الطريقِ عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيثُ جئت . . . ولا أستطيع الانحدارَ منه وهو منطلق ، فتَسخّطتُ ولعنتُ الشيطان مرة أخرى ، ورأيت أن عَبثَه قد تَرادَفَ ؛ فلما سكَن الترام رجعتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَب ولم يبقِ من الوقت غيرُ قليل .

وأنظرُ ثَمَّ ، فإذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعتْ حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق . . . فجعلتُ أغلى من الغيظ ، ولجنتُ هذا

---

(١) قيل هذا الشعر فى وصف مروان الكاتب ، وهو رجل من بغداد ، وكان كاتباً على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع .

الدَّعّابَةَ الخبيث . وأذكرنى اللعينُ نادرةَ الأعرابى الذى عضه ثعلب ، فأتى راقيًا ، فقال له الراقى : ما عضَّك ؟ فاستحى أن يقول ثعلب ، وقال : كلب . فلما ابتدأ الرجلُ برُقْيَة الكلب ، قال له الأعرابى : واخلِطْ بها شيئًا من رُقْية الثعالب . . . .

* * *

ثم إنى لم أر بدًّا من بلوغ المحطة على قدمىَّ لأتِمَّ على عزيمتى فى مراغمةِ اللعين ، فأسرعتُ أطوى الأرض وكأنما أخوضُ فى أحشائه ، وكان بصدرى التهابٌ فهاجَ بى ، غير أنى تجلَّدت واتسعْتُ لاحتماله وبلغتُ حيث أردت . ثم ذهبتُ ألتمس فى القطار عربةً خاصة أعرفُها ، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفِّهون بها بعضَ الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبتُ فيها مكانًا خاليًا كأنما كان مهيأً لى بخاصة . . . فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبُه ألمانيا لتفاوُتِ خلْقِه وعُنْجُهِيَّتِه ؛ وجلستُ أنفِّس عن صدرى ، ثم أقبلتُ أسخَر من إبليسَ ونِكايتِه ، وجعلتُ أتعجَّب مما اتفق من هذا التدبير .

وتحرك القطار وانبعثَ ، وكان الأوربى إلى جانبى مما يَلِى النافذةَ وقد تركها مفتوحةً ، فأحسستُ الهواء ينصبُّ منها كالماء البارد وأنا مُتَنَدٍّ بالعرق ؛ وترقبتُ أن يُغلقها الرجلُ فلم يفعل ، فصابرتُه قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئن يتَروَّحُ بالهواء وكأنما يَشرَبُه ، وتأملتُه فإذا شيخ فى حدود الستين أو فوقها ، غيرَ أنه على بقيةٍ من قوة مصارع فى اكتنازِ عَضَله واجتماع قوتهِ ووَثاقة تركيبه ، فأيقنتُ أن الهواءَ من حاجته ، وهمتُ أن أنبهَه أو أقومَ أنا فأغلقَ النافذة ، ولو شئتُ أن أفعل ذلك فعلت ، غيرَ أن الشيطان (أخزاه الله) وَسْوَسَ لى : أن هذا رجل أجنبى غَربى ، وأنت مصرىّ شرقى ، فلا يَحسن بك أن تُعلمَه وتُعلِمُ الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعفُ على حينِ أنه هو الأسَنّ ، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنتَ تُباكرُ الماء الباردَ فى صميم الشتاء ، وكنتَ لا تلبس فى أشد أيام البرد غيرَ ثياب الصيف ، وكنت تحمل كذا وكذا ثِقْلاً للرياضة ، وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنتَ تلوى بيديك عودَ الحديد ، وكنت وكنت . . . .

فتذمّمتُ والله مما خطَر لى ؛ وأنِفتُ أن أنبهَ الرجل ، ورأيتُ عملى هذا ضعفًا وفُسولة .، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرَق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام ، وتركتُ الأوربى وشأنَه ، وأقبلتُ على كتاب كان فى يدى ، وتناسيتُ أن هذه النافذةَ جهةٌ من تدبير إبليس ؛ وكان القطارُ مزدحمًا بالراجعين من المعرض الزراعى الصناعى ، وبعضُ الناس وقوفٌ فلا مطمعَ فى مكان آخر . . .

ولبثتُ ساعةً ونصفَ ساعة فى تيَّار من هواء (فبراير) ينصبُّ انصبابًا ، ويَعْصِفُ عَصْفًا ، وكأنى أسبحُ منه فى نهرٍ تحت ظلمةِ الليل الماطر ، والناس معجَبُون بى وبالأوربى ، وهذا الأوربى معجَبٌ بى أكثرَ منهم ، وقد رأى مكانى وعرف موضعى ؛ وكان إلى يمينى مجلسٌ بقى خاليًا ولم يُقْدِم أحدٌ على أن يجلسَ فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربى . . .

ثم تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا) ، ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين ؛ فوالله الذى لا يُحلَفُ بغير اسمه عز وجلَّ، لقد كان إبليسُ رقيعاً جِلْفاً بارداً ثقيلَ المزاح ؛ إذ لم أكَدْ أتهيأُ للقيام ، حتى رأيتُ الرجل الأوربى قد مدَّ يدَه فأغلق النافذة . . . .

* * *

ورجعتُ إلى دارى وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؛ ثم ماذا أيها الدُّعْبُب[1] وحاولتُ بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركْ لشىء من ذلك ، وكانت الساعة العاشرة ليلاً ، فصليتُ وأويتُ إلى مضجعى .

ثم أصبحتُ يوم السبت ، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة) : أنه سيطبع عددين معًا فيريدُ لهما مقالتين ، إذ تُغلقَ المطبعة فى أيام عيد الأضحى . وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولاً مما قاسيت ، فكيف لى باثنتين ؟

واختلَطَ فى نفسى همٌّ . بهمّ ، وما يُفْسِدُ علىَّ أمرى شىء مثلُ الضيق ، فإذا تضايقتُ كنتُ غيرَ من كنت ؛ ولكنى تيقظتُ وتنبهتُ وأمّلتُ العافية مما أجدُه من ثِقَلة البرد وضَعْفَته ، وأحدثتُ طمعًا فى النشاط إذا جلستُ للكتابة فى الليل ، فإنى بالنهار أعمل للحكومة .

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب ، وجلستُ متفتّرًا مُعْتَلاً ، وثقُلَ

---

(١) الدعبب والمداعب والدعابة (بتشديد العين) : كلها بمعنى .

رأسي من ضَرْبة النافذة ، وتسلط على ظَنٌّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقَضَ الأمرُ كله فرأيتُني أشقُّ على نفسي بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندي أن أستجِمَّ بالنوم ثم أنهضَ في السَّحَر للكتابة ؛ فأوصيتُ من يوقظني ، وحرَّرنا الساعةَ المنبِّهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل .

وأحسستُ أني جائع ، وأن معدتي مشحوذةٌ ، ونسيتُ كلَّ ما أعرف من الطب ؛ وجاءوني بشِواء وحَلْوى وما بينهما ، فحططتُ فيه ولَففْتُ الآخرَ بالأول ، ثم قمتُ أريد النوم ، فإذا الطعامُ كان أشدَّ عليَّ من نافذة القطار ، وكان الذي في الفكر من المقالة أثقلَ من الذي في المعدة من الطعام ، وساء الهضمُ في الدماغ والبطنِ جميعاً !

وجعلتُ أتناوم وأُرخِي أعضائي وأتوهَّم الكرى وأَستَدْنيه بكل ما أعرف من وسيلة ، ثم لاأزداد على ذلك إلا أرَقاً ، وتمرَّد الفكر ، وأحسستُ رأسي يكاد ينفجر ، وصرتُ أتَمَلْمَلُ ولا أتَقارُّ ، وتوهَّمتُ أن لو كان لي عقلان ما استطعتُ كتابةَ المقالة عن إبليس لعنه الله ؛ وأذكرني الخبيثُ نادرةً مضحكةَ : أن رجلا كان يركب حماراً ضعيفاً ، وكان يبعثُه فلا ينبعث ، فجعل يضربه ، فقيل له : ارفُقْ به . فقال إذا لم يقدرْ يمشي فَلِمَ صار حماراً . . . . ؟

* * *

وقذفتُ بنفسي من الفراش ونظرتُ في الساعة ، فإذا هي موشِكَةٌ أن تبلغ الثانية ولم أحِسَّ الرقادَ بعد ، فأسرعت إلى المنبِّهة وحرّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحا ، وأيقنتُ أن الشيطانَ يُرهِقُني طُغياناً وكَيداً ، فطَفِقْتُ ألعنه ، وما أحسبُه إلا قد رأى اللعن مَدْحاً فهو يستزيدني . . .

ثم رجعتُ أحاول النومَ ، فما كان هذا الليلُ إلا شيئاً واحداً أولُه آخرُه إلى أن طلع الفجر .

وجاء يوم الأحد وهو يومُ عُطْلة الأوربيين ، فما أشدَّ عجبي إذ تركني فيه إبليس كأنهم لايَدَّعُون له وقتاً في هذا اليوم . . .

والآن يزيِّن لي الخبيث أن أختم هذه المقالة بـ . . . .

ولكن لا . لا.

الشيطان* . . .

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدَّقَّاق : كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرىُّ العجمىُّ (رضى الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارقَ مما فوقَ العقل . كأنما هو سِرٌّ من الأسرار الجارية في هذا الكونِ ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النَّجم فى أفُقه البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهواتُه وطباعُه ، إلا أنها كنُور النجم فى تألُّقه ولألائه من إشراق روحه وصفائها ؛ وقد ارتفع بآدميته فوقَ نفسها ؛ فأصبح فى الناس ومعه سماؤه ، يجعلُها بين قلبه و بين الدنيا .

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حياًّ كالميت ساعةَ احتضاره : ينظرُ إلى كل ما فى الحياة نظرةَ من يترُكُ لامن يأخذ ، ومَن يعتبرُ لامن يَغْتَرُّ ، ومن يَلْفِظُ لامن يتذوّق ، ومن يُدرك السرّ لامن يتعلّق بالظاهر ؛ ويرى الشهوات كأنها من لغة لايعرفها ، فهى ألفاظ فيها معانى أهلِها لامعانيه ، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيَها من أنفسنا . وفى النفوس مثلُ الهشيم : إذا وقعتْ فيه المعانى المشتعلة استطارَ حَريقاً وتَضَرَّمَ ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ الماء ؛ فإذا خالطَتْهُ تلك المعانى انطفأتْ به وخمدتْ .

وقد سألتُ الشيخَ مرة : كيف تَحدثُ الكراماتُ والخوارقُ للإنسان ؟ فقال : يا ولدى إن الإنسانَ من الناس المحجوبين يتصرَّفُ فى جسمه ولايكاد يملكُ لروحانيته شيئاً ، فإذا أبلىَ فى المجاهدة ووقَع فى قلبه النور ، تصرَّف فى روحانيته ولايكاد يملكُ لجسمه شيئاً ، فمن أطاق أن يَنسلخَ من بشريته ، واتسعتْ ذاتُه فى معانى السماء بمقدارِ ما ضاقت من معانى الأرض ، وكان مُعَدًّا لأن يتحققَ فى روحانيته ، مُعاناً على ذلك بطبيعة فوق الاعتدال — فقد شاع فى الكون ، وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوةِ التى تَهدِمُ فى العالم وتبنى ، وتُفرِّق وتَجمع ، وتنقلُ الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض ؛ فإن الكونَ كلَّه جوهرٌ واحدٌ

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

هو النور ، حتى الجبلُ هو نورٌ صَخْرِىّ ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائىّ ، وحتى الحديدُ والذهب والتراب ، كلٌ ذلك نور[1] صرّفته القدرةُ الإلهية تصريفَها المعجز ، فكان على ما نرى : ظاهرٌ مخيَّلٌ يلائم نقصاوعجزنا ، وحقيقةٌ قارّةٌ على غير ما نرى . ومن ذا يعقل أن الصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ له إلا عقلُ عينه وحواسِّه ؟ ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى : « وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السحابِ ، صُنْعَ اللهِ الذى أتـْقنَ كلَّ شىء . » ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة ، غيرَ أنها تمرٌّ بأرضها وتموجُ فى نفسها ؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشفَ نورُ كلامِه للعقل الإنسانىّ ، فستكون هذه الآية عِلْماً جديداً فى الأرض ، يُثبت أن السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد .

ويالها سُخرِيةً بالإنسان وجهله ! فإنه إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى ، فكل شىء فى الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنسانىّ ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان : « كذَبْتَ ! »

فالشأنُ فى الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسَلِّطَ الإنسانُ الروحانىٌّ ما فيه من سرّ النور على ما فى بعض الأشياء من هذا السر ، وتلك هى طاعةُ بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادة ويتصلُ بخالقها .

فإذا بقى فى الرجل الروحانى شىءٌ من أمر جسمِه يقول : « أنا . . . » لم يكن فى الرجل من تلك القدرة ذَرة ؛ فإن هو حاول أن يَخْرِقَ العادَة ، أبى الكونُ أن يعرفَه إلا كما يعرفُ حجراً مُلقى يحاول أن يتصرّفَ بالجبل الذى هو منه فينقلَه أو يزحزحَه أو يزلزلَه .

ولا خير على الأرض مطلقًا إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ « أنا . . . » فى إنسانها ، ولا شرّ على الأرض مطلقًا إلا وهو إضافةُ حقوق إليها : فحين لا يبقى لها حقٌّ فى شىء عند نفسها ، يجبُ لها الحق عندئذ على كل شىء . وهذه هى الكرامة ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق .

فمن أراد أن تتصلَ نفسُه بالله ، فلا يكنْ فى نفسه شىء من حظ نفسه ،

---

(١) كلمة (النور) هذه هى التى يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون .

ولايؤمنْ إيمانَ هؤلاء العامة : يكون إيمانُهم بالله فكرةً تُذكَر وتُنْسَى ، أما عملُهم فهو إيمانُهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى .

وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرَّةٌ من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كل أرواحهم فى مَطاعِمهم ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لا يَجرى الشيطانُ من الأوّلين إلا فى مَجار ضيقة أشدَّ الضيق لايكادُ ينفذُ منها إلى فكر أو شهوة أو حُلُم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيَّارُ الدم ، يَعُبُّ عُبابُه فى الأسفل والأعلى .

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذ فى دمشق ، فنبهنى كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوَروه أو صارَعُوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حقك علىّ أن أسألكَ حقِّى عليك ، وما فى نفسى أحبُّ إلى ولا أعجبُ من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعَه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلَنى إليه كما نقلتنى إلى ما دخلتَ بى عليه من عوالم الغيب .

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن ترى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت سبحانَ الله ! لا يُجدى علىّ شيئًا إلا أن أسخَرَ منه .

قال الشيخ : فإنى أخشى ياولدى ، أن يكونَ الشيطانُ هو الذى يريد أن تراه وتسمعَه . . . !

قلت : فإنى أريد أن أسألَه عن سره ، فيكون علمًا لاسخرية .

قال : لو كَشَفَ لك عن سره لما كان شيطانًا ، فإنما هو شيطانٌ بسرِّه لا بغيره .

قلت : فأريد أن أرى الشيطان لأكونَ قد رأيت الشيطان !

قال الشيخ : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ! لو كنتَ يا أبا الحسن بأربع أرجُلٍ لهربتَ من الشيطان بثلاث منها وتركته يجرك من واحدة !

قلت : يا سيدى ، فلو كنتُ حماراً لبطل عملُ الشيطان فى أرجلى الأربع كلها ، إذ لا حاجةَ به إلى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولا بد أن تَرى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت : لابدّ .

قال : إنه هو يقولها ، فقُم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمر خارق بقيتُ معه غائبًا عن الحس ، كأنه يُبْطِلُ منيّ ما أنا به أنا ، فأصبحُ ظِلاً آدميًا معلقًا به . ولاتقع الخوارقُ إلا لمن وجد القوةَ المُكمِّلةَ لروحه ، وهذه القوة تُستَمدُّ من الشيخ الواصل ، فلابد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميِّزةٌ فى الأرض ، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة ، إذ تقع فى جوِّها فتُورِقُ وتُثمر ؛ كالشجرة : جَوٌّ يكسوها ، وجَوٌّ يُذْبِلُها ، وجوٌّ يسلُبها سلبًا ؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جَوّ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتلقَّوْنَ الشيخَ ويسلمون عليه ويتبرّكون بمقدَمه ؟ فأنكرتُهم نفسي ووجدتُ منهم وَحْشةً ، فالتفتَ إليّ الشيخ وقال : هؤلاء من الجنّ ، وما إليهم قَصَدنا ، فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى .

ثم ننتهى إلى البناء العظيم ، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى ، ويُدْخِلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تُعجِزُ الوصفَ ، مما لاعينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائرُه ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثَمّ نعيما ومُلكًا كبيراً ، ثم انتهينا آخراً إلى مغارة خسيفة كأنها عِرقٌ من عُروق جسم الأرض ، يتفجَّرُ منها دوىٌّ كالرعدِ القاصفِ ، إلا أنه فى السمع كخُوار الثور ، إلا أنه ثورٌ خُيِّلَ إلى أن رأسه فى قَدر جَبَل عظيم ، يتعلق به غَبْغَبٌ[1] فى قَدْر جبلٍ آخر ، على جسم يَسُدُّ الخافقين ، فخُوارُه كأنه صُراخُ الأرض ، وإذا أنا بأقبحِ مكان منظراً ، وأنتنِه ريحًا ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيَف .

---

(١) غبغب الثور وغببه : ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل .

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا سجنُ إبليس ، وهو هنا فى هذه المغارة منذُ زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أفَمَسْجونٌ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبال حديداً يَرْبِضُ به فى مَحْبسِه ، فلا ينزحزحُ ولا يتَحَلْحَل .

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاسْتَحْوَذَ على الناس كافّةً ؛ فيجتمعُ أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدة لاشيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبيرٍ بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ، ولا يكونُ بينهم وازع ؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاجَ بها ، فأنيابها فى لحمها ، لايزال يَعَضُّ بعضُها بعضًا ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحد يُسلِمُها إلى الهلاك، ويُصبح ظهرُ الأرض أعْرَى من سَراةِ أديم .

وإنما يَصلُحُ الناسُ باختلاف شهواتهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها : فبعضها يحكم بعضًا ، وشىء منها يَزَعُ شيئًا ، ومن تخلّص من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى ؛ كالمتزوّج المحْصَنِ : يحكُم بالجلد والرجْم على من ليستً له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنِىّ الواجد : يحكم على اللصّ الذى لم يجدْ فسرق ، وهلمَّ جرا .

وما ينَشأ الناس فى ثلاثة أعمار ، فَيَشِبُّون ويكتهِلون ويهرَمُون ، إلا لتختلفَ شهَواتُهم وتختلفَ مقاديرُ الرغبةِ فيها ، فتتحقّقُ من ثَمّ تلك الحكمةُ الإلهية فى التدبير ويجدُ الشرعُ محلَّه بينهم ، كما يجدُ العِصيانُ بينهم محله .

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كُهول أو شيوخ ، لبادتْ فى جيل واحد؛ وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدَها فى الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدَها ، فلابدّ من شىء يَظهرُ به شىء غيرُه كالضّد والضد ؛ والمعركةُ إذا انتصر كلُّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئًا غيرَ المعركة .

قال أبو الحسن : وقلتُ لهم : فإذا كان الشيطانُ سجينًا قد ربَضَتْ به أثقالُه ، حتى لَهُو فى سجنٍ من سجنٍ مبالغةً فى كفّه والتضييق عليه — فكيفَ يَفتِنُ الناسَ فى أرجاء الأرض ويُوسْوِسُ فى قلوبهم، حتى لَهو يَدٌ بينَ كلّ

يدَين ، وحتى لَهو العينُ الثالثةُ لعينيَ كلٍّ إنسان ؟

قالوا : إن فى روحه النارية قوةً تَفْصل منها وتنتشر فى الأرض ، كشُعاع الشمس من الشمس : هذه كُرَةٌ نارية ميِّتة معلَّقة على الأجسام مُرْصَدَةٌ لها ، وتلك كرةٌ نارية حيَّة معلقة على النفوس مُرصَدَة لها ، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهل الدنيا .

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : خراب الدنيا وأهلِ الدنيا . فغَلِطتم ، فكان ينبغى أن يجىء بَدَلُ الغلط . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خَرَق الثوبُ المسمارَ . جاز هنا لأمن اللَّبْسِ أن يكونَ المفعولُ به — وهو الثوبُ — مرفوعًا وفاعلُه — وهو المسمار — منصوبًا ، هل جئتَ — ويحك — تطلبُ النحوَ أو تطلب الشيطان . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطَعنى الجِنىّ — واللهِ — وأخجلنى ، ونظرتُ خلسةً إلى الشيخ أراه كيف يسخَر منى ، فإذا الشيخ قد امَّلس فلا أراه ، وإذا أنا وحدى بين الجنّ وبإزاء هذا الساحر وُضِعَت عينُه فى جبهته وشُقَّ فمُه فى قَفاه . . !

فَسُرِّىَ عنى وزال ما أجدُه ، وقلت فى نفسى : الآن أبلغ أرَبى من الشيطان ويكونُ الأمرُ على ما أريد ، فلا أجدُ من أحتَشِم ولاتَقْطَعُنى هيبةُ الشيخ . . !

ووقع هذا الخاطرُ فى نفسى ، فاستعذتُ بالله ولعنتُ الشيطان وقلت : هذا أولُ عَبَثِه بى وجعلُه إيایَ من أهلِ الرياء ، كأن لى شأنًا فى حضور الشيخ وشأنًا فى غيابه ، وكأنى مُنافق أُعْلِنُ غيرَ ما أسِرّ ، وقلت : إنا لله ! كِدتَ يا أبا الحسن تَتَشَيطن !

ثم هممتُ أن أنكصَ على عقبىَّ ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلَّى عنى لأكونَ هنا بنفسى لابه ، وما أنا هنا إلا به لابنفسى ، فيُوشِك إذا بقيتُ فى موضعى أن أهلِك ! بَيْد أن المغارة انكشفت لى فجأة فما ملكتُ أن أنظر ، ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفع يثُور ثورَانَه حتى تملأ المكانُ به ، ثم رقَّ ولطفَ .

واسْتَضْرَمَتْ منه نارٌ عظيمة لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضطرم بعضُها فى بعض ،

ويُسمَع من صوتها مَعمَعَة قوية ، ثم خَمدَت .

وانفجرَ فى موضعها كالسَّدّ المنْبثقِ من ماء كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ ، كأنه صَديدٌ يتَقَيَّحُ فى دم ، ثم غاض .

وتَنبَّعَتْ فى مكانه حَمْأةٌ منتِنةٌ جعلت تَربُو وتَعظمُ حتى خِفتُ أن تَبتلعَنى وأذهبَ فيها ، فسميتُ الله تعالى فغارت فى الأرض .

ثم نظرتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحمَرُّ الحَمَاليق ، هائلُ الحلقة مستأسِد ، قد وقفَ على جيفة قَذِرةٍ غاب فيها خَطْمُه يَعُبُّ مما تَسيل به .

فقلت : أيها الكلبُ ، أأنت الشيطان ؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنه إنسانُ فى بهيمة قد امتزَجا وطغىَ منهما شىء على شىء، أما وجهُه فأقبحُ شىء منظراً، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله . .

ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنياكم فى شهواتها ، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ الفاسق أو الآثمِ منكم، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنتَ دخانًا ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثم رجعت قَيحًا ، ثم صرتَ حمأة ، ثم كنت كلبًا على جيفة ؟

قال : لاتلعن الفاسقين والآثمين ؛ فإنهم العبَّاد الصالحون بأحد المعنيين ، وأنت وأمثالُك عُبَّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس فى الدنيا حياءٌ ووقاحة ؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتى أنا على الله ! أنا منكم فى زهدكم حِرمانُ الحرْمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتمونى بؤُسًا ؛ غير أنى معهم لذّةُ اللذة ، وشهوةُ الشهوة ، وغِنىَ الغنىَ ، لاتتمُّ لذةٌ فى الأرض ، ولاتحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانىّ أو وقاحةً من وقاحتى! حتى لأجعلُ الزوجةَ لزوجها مثلَ الشعر البليغ إذا استعار لها معنى منى ، وكلُّ ما فسدت به المرأة فهو مَجازى واستعارتى لها أجعلُها به بليغة . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلَّها تجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدة من حيـاة عبَّادى ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعةٌ منَ حياتهم هى

جهنّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنمُ هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتَني دخانًا لأني كذلك أنبعثُ في القلب الإنساني ، فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لإضرام النار بالنفْخ عليها ؛ فمن ثَمّ أكونُ دخانًا ، فإذا غَفَل عن صاحبُ القلب تضرَّمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يُطفئها ؛ ثم يُواقِع الإثمَ والمعصية ويقضِي نَهْمَتَه فأبْرَدُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذى بَردَ فتأكّلَ موضعُه فتقيَّح ، ثم يختلط قيحُ أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لاتزال تربو وتنتفخ كما رأيت .

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرفُ شيئًا يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْد ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطانَ أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئًا يَخترع التوبة فى الأرض لاخترعها القبرُ الذى يَدْفِنُ فيه بعضُكم بعضًا كلَّ طرفة عين من الزمن ، فتُنزِلون فيه الميتَ المسكينَ قد انقطع من كل شيء وتتركونه لآثامه ، وحسابِ آثامه ، والهلاكِ الأبديّ فى آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربَتْه الريح أو انطفأ ما تحته !

قال : أوّه ! لقد أوجعْتَني كأنما ضربتَني بجبل من نار ، إن نبيّكم عَرفها ولكنكم أغبياء ؛ تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لاعَمل ، وكأنه كلامُ إنسان فى وقته لاكلامُ النبوّة للدهر كلِّه وللحياة كلِّها ؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فإنى أضعُ المعانىَ التى تعمل ، لاالحكمةَ المتروكةَ لمن يعملُ بها ومن لايعمل .

أتدرى يا أبا الحسن ، لماذا أعجزنى أسلافكم الأوّلون مثل : عُمر وأبى بكر ؟ حتى كان إسلامُهم من أكبر مصائبى ، فتركونى زمنًا — وأنا الشيطانُ — أرتابُ فى أنى أنا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تَلْعَنْ ، فلستُ قائلها إلا إذا ترَحمْتَ علىّ .

قلت : عليك وعليك من لَعَنَات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائِلٌ ويأمر ؟ وطُفَيْلىٌّ ويَقْتَرِح ؟ لابد أن تترحَّم !

قلت : يرحُمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ فى لفظةِ رحمة ؛ لا . إلاّ أن تترحَّم علىَّ أنا إبليس الرجيم !

قلت : فيُغنِى اللهُ عن علمك ؛ لقد ألهَمْتنيها روحُ النبىّ (صلى الله عليه وسلم) : إن النبوّة كانت هى بأعمالها وصفاتِها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه وأكملِها ، فكان روحُ النبى (صلى الله عليه وسلم) لتلك الأرواح كالأم لأبنائها ؛ وقد رأوه لايغضُب لنفسه ولاالحظّ نفسِه . وذلك لايستقيم إلا بالقَصْد فى أمر النفس ، وجعلِ ناحيةِ الإسراف فيها إسرافا فى العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدَّ الإنسانُ لنفسه وحظوظِها ارتدّ إليك — أيها اللعين — وأقبلَ على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وترْكُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصّديقين ليس صبراً على شىء بعينه فى الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه ، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلّها . وإلا كان فساداً فى القوة ووقعَ به الخذِلان .

فهذا الصبرُ المُعْتزِمُ المصمِّم ، الذى يُوَطِّنُ به الرجلُ نفسَه أن يكونَ رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنسان فى الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجلٌ مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكَة التى لايَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا ؛ ولذلك قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِى شيطانَه كما يُنْضِى أحدُكم بعيرَه فى سفره » . كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائبـًا معتزما مدةَ سفرِه كلَّها لما أنْضَى بعيرَه . ولو لم يصبر المؤمنُ دائبـًا معتزمـًا مدة حياتهِ كلّها لما أنضى شيطانَه .

فصاح الشيطان : أوَّه ، أوَّه ! ولكن قل لى يا أبا الحسن : ما صَبْرُ رجل مؤمن قوىِّ الإيمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفيقَ من سُكْر الغِنى ، فتخلّص من نزوَات الشاطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسمّونها الدنانير ؛ وقد أردتـُه

على أن يكذبَ ، فرأى الإيمانَ أن يَصْدُق ؛ وجَهَدتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمةَ أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمعَ، فرأى الراحةَ أن يرضَى ؛ وسَوَّلتُ له أن يَحْسُدَ ، فرأى الفضيلهَ ألاّ يُبالى؛ وأخذ لنفسه من كل شىء فى الحياة بما يثقُ أنه الإيمانُ والصبرُ والهدوء والرضا والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجتزأ بها ؛ وقَصَر نظرَه على الحقيقة ؛ ووجد الجمالَ فى نفسه الطيِّبة الصافية ؛ وأجرى ما يؤلمه وما يَسُرُّه مَجرًى واحداً ؛ ونظر إلى العمرِ كله كأنه يومٌ واحد يَرْقُب مغرِب شمسه؛ وأخذ من إرادته قوةً أنستَه ما لم تُعطِه الدنيا ، فلم يَحْفِلْ بما أعطت الدنيا وما مَنَعتْ ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن فى الجنة : هذا فى قصرٍ من لؤلؤة أو يا قوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ ، وذاك فى قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل .

قال الشيطان : فلما أعجزَنى صلاحا ورضى وصبراً وقناعةً وإيمانًا واحتسابًا ، وكان رجلا عالما فقيها — سوَّلتُ له أن يخرجَ إلى المسجد ليعِظَ الناسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلمَ فى نصّ كلام الله ؛ فعَقَد المجلس ووَعَظ ، وانصرفوا وبقى وحده .

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأة جزْلةً غَضَّةً رابيةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها ، وتمشى قصيرةَ الخَطْو مُثَّاقِلَةً كالمتضايِقة من حَمْلِ أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ؛ فبَعْض مِشيتها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقَظة ؛ ولايراها الرجلُ الفَحْلُ التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواء نفسَه قد أصبح من حولها أنثى ، مما تَعْصِفُ به ريحُها العَطِرة عِطرَ زينتها وجسمِها .

وكان الواعظ قد ترمَّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيَّمَتْ من سنَوات ؛ فلما رآها غَضَّ طرْفَه عنها ؛ ولكنها سألته بألفاظها العذْبة عن أمورٍ هى من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتِها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلَّور ، يتكسَّر بعضُه على بعض .

وتحدَّثتْ له وكأنها تتحدَّثُ فيه : فسمِعَ بأذنهِ ودمِه ، ثم كان غَضٌّ

عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره .

ورأى صوتها يشتهى ؛ وعانقته رائحتها العطرية النفاذة ؛ وأحاطته بجو كجو الفراش ؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قبل ؛ وصارت زفراتها كالقدر إذا استجمعت غليانا ؛ وطلعت فى خياله عريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر حورية عريانة ، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأنه من زبد البحر ؟

. . . .

قال أبو الحسن : وكنت كالنائم ، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر ، لا كتكسر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شيخى يقول : أفسقت . . . ؟

تاريخٌ يتكلَّم . . .*

أيعرفُ القراء أن فى الأحلام أحلامًا هى قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكَمةُ الوضع مُتَّسقَةُ التركيب بديعةُ التأليف ، تجعلُ المرء حين ينام كأنه أسلم نفسَه إلى (شركة من الملائكة) ، تَسيحُ به فى عالَمٍ عجيب كأنما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة ؟

إن يكنْ فى القراء من لايعلمُ هذا فلْيعلَمْه منى ؛ فإنى كثيراً ما أكتبُ وأقرأ فى النوم ، وكثيراً ما يُلْقِى علَىَّ من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُه لَعُدَّ من الخوارق والمعجزات .

وهذه القصةُ التى أرويها اليومَ ، كانت المعجزةُ فيها أنِّى مشيتُ فى التاريخ كما أمشى فى طريقٍ ممتدَّة ؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها ، فعشتُ معهم وتَخَبَّرتُ من أخبارهم ، ثم رجعتُ إلى زمنى لأقصَّ ما رأيتُه على أهل سنة ١٣٥٣ . . . **

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم فى أحوالٍ ثقيلةٍ على النفس ما تَنطلقُ النفسُ لها ، أوّلُها سوءُ الهضم ؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ فى النفس إلا دائرةً : تَذهب ما تذهبُ ثم لاتنتهى إلا فى سوء الهضم عينهِ . فجلستُ فى النَّدِىّ الذى أسْمُرُ فيه أحيانًا ، فكان لجوِّه وزنٌ أحسستُه كما يُحسّ الغائصُ فى الماء ثِقَلَ الماء عليه ؛ ودخَنَتُ الكَرْكَرَة[1] فلم تكن هواءً ودُخانًا يتروَّحُ ، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخلُ على الطعام ؛ ونظرتُ ناحيةً فأخذتْ عينى رجُلاً فِيلِىَّ الخِلْقة ، مُنْطادَ البطن كأنما نُفِخَ بطنُه بالآلات ، يَحملُ منه مقدار أربعةٍ من بطون البَدِينات الحواملِ كلٌّ منهنَّ فى الشهر التاسع من

* يعنى بهذه المقالة والتى بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المغفور له — وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى» .

** تاريخ إنشائه هذه المقالة .

(١) الكركرة : اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة ، أخذاً من صوتها ، كما صنع العرب فى تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير ، وكما هى طريقتهم ؛ وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء للخفة .

حمْلها . . . وكان معى إلى كل هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يوميَّة أريدُ قراءتَها . . . !

ثم جئتُ إلى الدار والمعركةُ حامية" فى أعصابى ؛ وما كان سوء الهضمِ منَوِّمَة" فيدعوَ إلى النوم ، ، فدخلتُ بيتَ كُتُبى وأردتُ كتابًا أىَّ كتاب تنالُه يدى ، فخرج لى كتاب" فى خُرافات الأوّلين وأساطيرِهم وهَذَيانهم وسوء هضمهم العقلىّ . . . كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديُونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأترغتيس . . . . فاستعذتُ بالله وقلت : حتى الكتُبُ لها فى هذه الليلة أعصاب" قد نالتْها الثِّقْلةُ والألم ؟

وبات الليلُ يقظان معى ، وبقيتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبَ حتى أخذ الصداعُ فى رأسى ، فانقلب التعبُ نومًا ، وجاء من النوم تعب" آخر ، وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام فى قُنبلةٍ تستقرُّ بى حيث تريد لاحيث أريد :

* * *

ورأيتُنى فى قوم لا أعرفُ منهم أحداً قد اجتمعوا جَماهير ، وسمعتُ قائلاً منهم يقول : « الساعةَ يمرُّ مولانا العالى » . فقلت لمن يلينى : « مَن يكونُ مولانا العالى ؟ » قال : « أوَ أنتَ منهم ؟ » قلت : « ممن ؟ » فألهاه عن جوابى تَشَوُّفُ الناس وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكبًا حماراً أشهب ؟ فصاحوا : « القمر القمر [1]» ورَفَع الرجلُ الذى يَنا كِبُنى صوتَه يقول : « البركاتُ والعَظَماتُ لك يامولانا العالى ! » .

قلت : إنا لله ! لقد وقعتُ فى قومٍ من الزنادقة ، يُعارِضون « التحياتُ والصَّلَواتُ والطَّيباتُ لله » ؛ ثم مرّ صاحبُ الحمار بحذائى ، وغمزه الرجلُ عَلَىَّ ، فقال : ما بالكُ لاتقول مثلَه ؟ قلت : أعوذُ باللهِ من كُفرٍ بعد إيمان . فكأنما أراد أن يَلْطِمَنى فرفع يده ، فصحْتُ فيه : كما أنتَ — ويلكَ — وإلا قبضتُ عليك ، وأسلمتك للبوليس ، وشكوْتُك إلى النيابة ، ورفعتُك إلى محكمة الجُنَح!

قال : ماذا أسمع ؟ الرجل مجنون" فخذوه ! وأحاط بى جماعة" منهم ، ولكنه تَرَجَّل عن حماره وأخذ بيدى ومشينا ، فقلت : من أنت يا هذا ؟

---

(١) القمر : اسم ذلك الحمار ، وسيمر ذكره فى القصة .

قال : أراكَ من غير هذا البلد ؛ أمَا تَعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو .
قلت : انظُرْ — ويحكَ — ما تقول . فما أظنُّكَ إلا مَمْرُوراً ؛ لقد كتبتُ أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّخْته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة « الحروفين »[١] . . .

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن فى سنة ٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أوْ لا فأنت أيها الرجلُ من معجزاتى . لقد جئتُ بك من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم تعودُ إلى التاريخ فتكونُ من معجزاتى ، وتقصُّ عنى وتشهدُ لى . . . !

قلت : فإنى أعرف أعمالكَ إلى أن قُتِلْتَ فى سنة ٤١١ . . . !

قال : أوَ إله أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادثها ؟ لقد كدتَ من أفنَنِكَ وغبَاوتك تُفسِد علىَّ دعوى المعجزة !

وهاج الصداعُ فى رأسى ، وبلغ سوء الهضم حدَّه ، واشتبكتْ سِينَاتُ إيسيس وأتوبيس إلخ بسين إبليس ، ومرتْ بين كلٍّ هذا حوادثُ الطاغية المعتوه المتجبرّ ، فرأيته يبتدع فى كل وقت بِدَعا ، ويخترع أحكاما يُكْرِهُ الناسَ على أن يعملوا بها ، ويعاقبُهم على الخروج منها ، ثم يعودُ فينقضُ أمرَه ، ويعاقِبُ على الأخذ به ، كأن الذى نَقَضَ غيرُ الذى أبْرَم ، وكأنه حين يتبلد فيُعجزُه أن يخترعَ جديداً — يَجعَلُ اختراعَه إبطالَ اختراعِه .

ورأيته كأنما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمة ، فلا بدّ أن يكونَ عقلاً لعقولها ، ثم لابدّ أن يَسْتَعْلِيَ الناسَ ويستبدّ بهم استبدادَ الشريعةِ فى أمرها ونَهْيها ، فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمالِ الشريعة الإسلامية ، وظنَّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصرِ من أذهان الناس وقَتْلَ التاريخ الإسلامىّ بتاريخٍ قاتلٍ سفَّاك .

وسَوَّل له جنونُه أنه خلَقَ تكذيبًا للنبوة ؛ ثم أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل فى نفسه أنه خلق تكذيبًا للألوهية ؛ وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحملُ الأمةَ بالقهر والغلَبَة على ألاتصدّقَ إلا به هو ؛ وفى سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صَنع ،

---

(١) مرت هذه المقالة فى الجزء الأول .

فجاء تاريخه لاينفي ألوهيةً ولا نبوَّةً ، بل ينفي العقلَ عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخُ فى الإسلام ليتكلم يوماً فى تاريخ الإسلام . . .

* * *

رأيتُنى أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعمالَه وأُدوِّن تاريخَه ، وأقبلتُ على ما أفْرَدَنِى به وقلتُ فى نفسى : لقد وضعتنى الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتَّابها وأدبائها ، فسأكتبُ عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً فى العلم .

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّدات ضخمة انتبهتُ وأنا أحفظها كلَّها ، فإذا هى جُمَلٌ صغيرة ، جَعَلَ الحُلم كلَّ نبذةٍ منها سِفراً ضخماً كما يُخيَّل للنائم أنه عاش عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّةً ، على حين لاتكون الرؤيا إلا لحظة .

وهذه هى المجلَّداتُ التى قلتُ : إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتُلِىَ هذا الطاغية بنقيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛ فأما التى من نفسه فإنى أراه قد خُلِقَ وفى مُخِّه لُفافةٌ عَصَبِية من يَهودية جَدّه رأسِ هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدى عُبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابنَ امرأة يهودية من حدَّاد يهودى ، فاتفق أن جرى ذكرُ النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدَّاح ، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آيةٌ فى الحسُن ؛ وكان لها من الحداد ولد ، فتزوَّجها الرجلُ وأدَّب ابنها وعلَّمه ، ثم عرَّفه أسرارَ الدعوة العلَوية وعَهِدَ إليه بها .

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدرُ بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شرّه ، لايدَ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه ، فيكونُ قَدَراً يَتسَلْسل فى الخلْق ليحدِثَ غاياته المقدورة ، فتى فى وقع فى مخ إنسان فالدنيا به كالحُبْلَى ولابد أن تتمخَّض عنه .

هذه اللِّفافةُ اليهودية فى مخِّ هذا الطاغية ستُحَقِّقُ به قولَ الله تعالى :

« لتَجدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للَّذين آمَنُوا اليهود . . . » فهو لن يكونَ العدوَّ للإسلام دون أن يكون الأشدَّ فى هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدَّ حتّى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكَرَة . وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ فى الجوّ إلا تخرقُ بمنظرها عينيه من بُغضه للإسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه ! .

وأما النقيصةُ الثانيةُ فقد ابْتُلِىَ بقومٍ فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزةُ بن على ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . وقد لفّقوا للدنيا مذهبًا هو صورة عقولهم الطائشة ، لايجىء إلا للهدم ، ثم لايضعُ أولَ مَعاوِله إلا فى قُبة السماء ليهدمها . . . ! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ فى كلمة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تُريد إخراجَ الله من الوجود لإدخال اللهِ فى بعض الطُّغاة !

ويتلقبون فى مذهبهم بهذه الألقاب : العقل ، الإرادة ، الإمام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . !

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيّدُ به الإسلام، ليتألّفَ الجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه ، وكان فى ذلك لئيمَ الكَيْد ، دنىء الحيلة ، يهودىَّ المكْر ؛ فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا ، وبَذَلَ فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء (والمشايخ) ، وبالغَ فى إكرامهم ، والتَّوْسعَةَ عليهم ، والتَّخَضُّعِ لهم ، ودَخَلَ فى ظلال العمائم . . . وأحضَرَ لنفسه فقيهَيْن مالكيَّين (اثنين لا واحد) يعلّمانه ويُفقّهانه ، وكان أشبهَ بمُريدٍ مع شيخِ الطريقة يتَسعّدُ به ويتَيمّن ؛ أشرفُ ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتُك فى الرؤيا ورأيتُ لك . . . !

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية ، هى بعينها رِبا اللُّفَافةِ اليهودية فى مُخّه ؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مائة ، وفيها نيةُ الخراب بالستين فى المائة . . . ! فإنه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرفُ إقبالَهم عليه وثِقتَهم به ، حتّى طَلبتِ اللفافةُ اليهوديةُ رأسَ المال والرّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدَين وصلاةَ الجمعة ، وقَتَلَ الفقهاء وقَتَلَ معهم فقيهيه

وأستاذَيه ، وعادَ كالمـُريدِ المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً فى الصَّيد : الفخّ ، والعمامة ، واللّحية . . . !

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئًا واقعًا ، فيقتلَ علماءَ الدين بإهلاكهم ، ويقتلَ مدارسَ الدين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنُقَ من المسلمين كلَّ ذى عمامةٍ فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً ، ولا يعلمَ أنه لهوانِه على اللهِ قد جعلَه اللهُ كالذبابة التى تُصيبُ الناسَ بالمرض ، والبعوضةِ التى تقتل بالحمَّى ، والقملةِ التى تَضْربُ بالطاعون ، فلو فَخرَتْ ذبابةٌ ، أو تَبجَّحَتْ قملةٌ ، أو استطالتْ بَعوضةٌ ، لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه فى العالم . وهل فعلَ أكثرَ مما تفعل ؟

لقد أوْدَى بأُناسٍ يقوم إيمانُهم على أن الموتَ فى سبيل الحق هو الذى يُخلّدُهم فى الحق ، وأن انتزاعَهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعُهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروحَ الإسلامية لا يَطْمِسُها الطغيانُ إلا ليجلوَها .

إنه والله ما قَتلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب ، ولكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزَه ذلك النوعُ السامى من الموت الأولِ الذى كان حياةَ الفكرِ ومادةَ التاريخ ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها . . !

لقد أحياهم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمةِ من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنةِ من المسلمين جميعًا !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أن الدينَ الإسلامىَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عن النفس ، وأن محوَ الأخلاقِ الإسلامية العظيمةِ هو نفسُه إيجادُ أخلاق ، وأن الإسلامَ كان جريئًا حين جاء فاحتلَّ هذه الدنيا ؛ فلا يطردُه من الدنيا إلا جَراءةُ شيطانٍ كالذى توَقَّحَ على الله حين قال : فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين » . ولهذا أمر الناسَ بسبِّ الصَّحابة ، وأن يُكْتَب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهى روايةٌ تمثيلية يُلْصِق الإعلانَ عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول : أخزاه الله . . . . !

هذا الفاسقُ لايركبُ إلا حماراً أشهبَ يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسَه مُحْتَسِبًا لغايةٍ خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمن وجده قد غشّ ؛ أمرَ الأسودَ فـ . . . ! ووقف هو ينظر ويقول للناس : انظروا . . . !

ومن غَلَبةِ الفُسوق على نفسه وعلى شيعته ِ أنّ داعيتَه (حمزة بن على) نَوّه بالحمار فى كتابه وأومأ إليه بالثناء ، لخصال : منها أن . . .! وكتبَ حمزةُ هذا فى بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهلُ الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكَر والفحشاء — إنما يُرتكَب فى طاعته . . . !

هذه طبيعة كلّ حاكمٍ فاسق مُلحد ، يرى فى نفسه رذائلَه عُريانةً ، فلا يكونُ كلامُه وعملُه وفكرُه إلا فُحشًا يتعرّى ؛ وإن فى هذا الرجل غريزة فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْر الحيوان الإنسانىّ الأول ؛ فما من رَيْب أن فى جسمه خليةً عصبيّةً مُهْتاجَةً ، ما زالت تَسْبَحُ بالوراثة فى دماءِ الأحياء ، متلفّفةً على خصائصها ، حتى استقرّتْ فى أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرتْ بكل تلك الخصائص .

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ فى مَرَدّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدمَ الإسلام ، لأنه دينُ العفة ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمُها حجابَ عِفّتها وإبائها ، ويمنعُها الابتذالَ والخلاعة ، ويُعينها أن تتخلّص ممن يشتهيها ، ولو كان الحاكم . . . إنه يمقتُ هذا الدينَ القوىّ ، كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة ، ولكلّ غريزة فى الإنسان شعورٌ لامَهْنأَلها إلا أن يكونَ حرًّا حتى فى التوهُّم ؛ وهل يُعجِبُ السكّيرَ شىءٌ أو يُرضيه أو يَلَذه ، كما يُعجبه أن يرى الناسَ كلّهم سُكارى ؛ فيَنْتشِي هو بالخمر ، وتسكَر غريزته برؤية السكْر ؟

وما زال رأىُ الفُسّاق فى كل زمن أن الحريةَ هى حريةُ الاستمتاع ، وأن تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلَّذّة .

المجلد الخامس

يزعم الطاغيةُ أنه يُعِزُّ قومَه ، وما أراه يُعزهم ، لكنه يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على الأمم ؛ يتجرَّأُ شيئًا فشيئًا ، مُتَنَظِّراً ما يتَسَهَّل ، مترقبًا ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقَنا الإسلاميةَ هي أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا ؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنّ عند نفسه أنه يهدمُ قبوراً لا أخلاقًا .

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنكتةٍ من ظَرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا امرأةً من الورق الذى يُشْبِه الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لايشكّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قِصَّة وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذَ من يدها القصةَ وقرأها ، فإذا فيها سَبٌّ له ولآبائه ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعونته المضحِكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقَّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد ؛ فاستَشاطَ وأمر عبيدَه من السودان بتحريق الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ النساء والفُجورِ بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتِهم من العبيد ، بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض .

اندلعتْ ثورةُ الفجور فى المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيقِ المستَقِر فى هذا الطاغية .

المجلد السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبح رُعوناته ، كأن هذا الحيوانَ لايحسبُ نساء الأمة كلَّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأتهِ ، وكأن النساء فى رأيه إن هُنّ إلا استجاباتٌ عصبيَّةٌ تَطْلُق وتَرُدّ .

إن لموجةِ الفسق فى الغريزة الطاغيةِ جَزْراً ومدّا يقعان فى تاريخ الفُسَّاق ؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنَع النساءُ من الخروج ليلا ونهاراً ، لاتطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة ، وأمرَ الخفَّافين ألا يصنعوا لهنّ

الأخفافَ والأحذيَةَ ؛ ولما علم أن بعضَ النساء خرجْن إلى الحمامات هَدَم الحمامات عليهن !

ولو مدَّت الموجةُ فى تفسق الفاسق لَفَرَضَ على النساء الخروجَ والاتصال بالرجال والتعرضَ للإباحة .

إن الصلاحَ والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاحُ نظافةً فى الروح وسموًّا فى القلب .

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيَهدم كلَّ قديم ؛ وإنى لأخشى والله أن يأمرَ الناسَ فى بعض سَطَوَاتِ جنونه : أن كلَّ من كان له أبٌ أو أمٌ بلغ الستين فليقتلْه ، لتخلُصَ الأمةُ من قديمها الإنسانى . . . !

كأنه لايعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ ، ويحكمُ على طاعةقومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثِهم من الأسلاف؛ فما هو إلا أن يهلكَ حتى ينبعثَ فى الدنيا شيئان : نَتْنُ رِمَّتِه فى بطن الأرض ، ونتْنُ أعماله على ظهر الأرض . إن هذا الرجلَ المسلَّطَ ، كالغبارِ المُسْتَطَار لايُكْنَس إلا بعد أن يقَع . . .

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناس الملوخيَّا الخضراء والفُقَّاع ، والتُّرمُس والجرْجيرَ ، والزبيبَ والعنب — هوًى قديمٌ فى طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لايُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعةً باعوا أشياء منها فضَربهم بالسِّياط ، وأمر فَطِيف بهم فى الأسواق ، ثم ضَرب أعناقَهم ؛ كأن الذى يحملُ الملوخيَّا الخضراء على رأسه ليبيعَها يلبس عمامة خضراء . . .

أهذا — وَيْحَه — تجديدٌ فى الأمة ، أم تجديدٌ فى المعِدة . . . ؟

المجلد الثامن

لايرضَى الطاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيةَ الأمة كلّها ، فلا يترك شيئًا رُوحانيًّا له فى أعصاب الناس أثرٌ من الوقار ، وبمن يَسْتظهرُ — ويْلَه — إذا مُحِقتْ روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتُها الدينيةُ على الانحلال ؟ كأنه لايعلم أنّ حقيقةَ الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُسْتَمدُّ من إيمانها بالمثَل الأعلى الذى يدفعُها فى سِلْمها إلى الحياة بقوّة ، كما يدفعها فى حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لايعلم أن التاريخَ كله تُقرِّره فى الأرض بضعةُ مبادئَ دينية .

هذا الحاكم الأخرقُ هو عندى كالذى يقول لنفسه : لم أستطعْ أن أفتح دولة ، فلأفتحْ دولةً فى مملكتى . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبِيَع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفًا ونيِّفًا .

أىّ مجنونٍ أسخف جنونًا من هذا الذى يحسب النفوسَ الإنسانية كالأخشاب ؛ تَقْبَل كلُّها بغير استثناء أن تُدقّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشِبتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاء حين كسرَ الدين !

المجلد التاسع

هذه هى الطامّةُ الكُبرى ؛ فلا أدرى كيف أكتُبُ عنها : لقد تطاوَل المجنونُ إلى الألوهية فادّعاها ، وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن !

لو كان أغبى الأغبياء فى موضعه لاتّقى شيئًا ، لا أقولُ تقوى الدينِ والضمير ، ولكن تقوى النِّفاقِ السياسىّ ؛ فكان يحملُ الناسَ على أن يقولوا عنه : « أبانا الذى فى الأرَضين . . . ! »

وإلا فأىُّ جهلٍ وخَبْطٍ ، وأىّ حُمق وتَهوُّر ، أن يكونَ إلٰهٌ على حمار ، وإن كان اسمُ حماره القمر !

المجلد العاشر

سيأخذُه الله بامرأة ؛ ولكل شيء آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وَقاحة غريزته أن انْتَهَكَ أخته الأميرة (ستَّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة ، وهى من أزكى النساء وأفضلِهن ، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علمتُ أنها تُدبِّر قتلَه ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأُمسِكُ عن الكتابة فى هذا المجلد ، وأدع سائرَه بياضًا حتى أذهبَ إليهما فأعينَهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين ما يقع من بَعد . . .

* * *

ورأيتُ أنى اجتمعتُ بهما واطمأنّا إلىّ ، فأخذنا نُديرُ الرأى :

قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُتْبِعَه غلمانًا يقتلونه إذا خرج فى غد إلى جبل المقطم ، فإنه ينفرد بنفسه هناك ! » .

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير » .

قالت : « فما الرأىُ والتدبيرُ عندك ؟ » .

قلت : « إن لنا علمًا يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحّ عندى من هذا العلم أن الرجلَ طائشُ الغريزةِ مجنونُها ، وأن الأشعةَ اللطيفةَ الساحرةَ التى تنبعثُ من جسم المرأة هى التى تنفجرُ فى مخه مرةً بعد مرة ؛ فإذا خبَتْ هذه الأشعة ، وبطلَت الغريزة ، بطلَتْ دواعى أعماله الخبيثة كلها ، وكفَّ عن محاولته أن يجعلَ الأمةَ مملوءةً من غرائز جسمه وشهواته ، لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأيى وأمضيتُموه فإنه سيُنكرُ أعمالَه إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياتُه قد نطقتْ بكلمتها الصحيحة كما نطقتْ بكلمتها الفاسدة ؛ فإذا . . . » .

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ » .

قلت : فإذا خُصِى . . . » .

فضحكتْ ستُّ الملك ضحكةً رنَّتْ رنيناً .

قلت : « نعم إذا خُصِي هذا الحاكم . . . » .

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول ، ورمتنى بمنديلٍ لطيف كان فى يدها أصَاب وجهى ، فانتبهتُ وأنا أقول :

« نعم إذا خُصِي هذا الحاكم . . . . . . » .

كُفْرُ الذُّبابة * ...

قال كَلِيلة[1] وهو يَعِظ دمْنةَ ويُحذِّرُه ويَقضى حقَّ الله فيه؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزَهاه النَّصر ، وظهر منه الجفاء والغِلْظة ، ولقى الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنَتاً شديداً :

. . . واعلم يا دمنةُ أن ما زعمتَه من رأيك تامًّا لايعتَريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذى لم يتمّ ؛ والغرورُ الذى تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذى يُثبت أن غيرَ رأيك فى الآراء هو الصحيح .

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذى خيال ، اصدقَ كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان فيما يزعمُ ، لكذَب كل إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ، ليجىء حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنْتقَص ، ويصحَّ الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد ما دامت الشهادةُ عليه ، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء .

قال دِمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنبًا سمعت العلماء يتكلَّمون فى مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكونُ القارعة ؛ فقالوا : إن فى النجوم نجومًا مُذَنبةً ، لو التف ذنَبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هَـَواءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعف منها كأنها زَفرةُ صدرٍ مريض ، بل أوهى كأنها نَفْثَةٌ من شفتين . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيها العلماء ! قد والله خَرِفتُم وتكَذَّبتم واستَحْمَقْتُم ؛ ولاتزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب ؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا — قالوا : وأرتهم ذَنَبَها . . . !

قال كليلة : وكم من مغرورٍ يُنْزِل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعى ، يعمد إليه حين يريد تقرير المعانى بالتمثيل والمحاورة . (الرسالة)

وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) فى الجزء الأول .

من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذَبوا وصدَقْتُ أنا ، وأخطئُوا جميعًا وأصبتُ ، والْتَبَس عليهم وانكشَف لى ، وهم زعموا وأنا المستيْقِن . ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هنَةٍ تتحرّك فى ذنبها .

وكان يُقال : إنه لايُجاهِرُ بالكفر فى قومٍ إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبئوا به ، فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية ؛ ذاك لايخشَونه فيَدْعُونه لنفسة وعليه شهادةُ حُمقِه ، وهذا يخشونه فيتركون معارَضتَه وعليه شهادةُ ظُلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنتَ حاكمًا تَشْنُقُ من يخالفُك فى الرأى ، فليس فى رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تَقتل مَن يُنكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبسُ من يعارضُك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجِدار ؛ أما إن كنتَ تُناظِرُ وتجادل ، وتقنِعُ وتقتنع ، وتدعو الناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى — ففيك العقلُ الذى اسمه العقل .

* * *

قال كليلة : وأنا يا دمنة ، فلوكنتُ قائداً مُطاعًا ، وأميراً مُتَّبَعًا ، لايُعصَى لى أمر ، ولا يُرد علَىَّ رأى ، ولا ينكَر منى ما يُنكَر من المخلوق إذا أخطأ ، ولايقال لى دائمًا إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ ، ثم هى دائمًا أصبت ؛ ولا يَلْقانى أحدٌ من قومى بالكلمة الأخرى ، رَهْبةً من سَخَطى رَهْبَةَ الجُبناء ، أورغبةً فى رضاىَ رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّتْ نياتُهم وخلَص لى باطنُهم جميعًا — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالنى نقصُهم إلى نقصِ العقلِ بعد كماله ، وردَّتنى فُسولتُهم إلى فُسولة الرأى بعد جَوْدته ، فأخلِقْ بى أن أعتبرَ وضْعَهم إياىَ فى موضع الآلهة ، هو إنزالَهم إياى فى منزلة الشياطين ؛ وإلا كنتُ حقيقًا أن يُصيبنى ما أصاب العَنْزَ التى زعموا لها أنها أنثى الفيل . . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير (١) ، فملَّكَتْهُ الجماعةُ وذهبتْ تأتَمِرُ على أمْره وتنتَهى .

---

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط : ضرب من العظاء يكون أكبر منها .

فمرّ بهذه الحربة فيلٌ جسيمٌ من الفيلة الهندية العظيمة ، لم يُحسّ بالعظاء ، ولم يميّز فرقًا بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثوراً يلتمع فى الأرض هنا وهنا ، قالوا فغضب العضرفوط ، وكان قائداً عظيمًا ، ثم تدبّر أمرَ الفيل ينظر كيف يصنعُ فى مدافعته ، وكيف يحتال فى هلاكه ؛ فرآه لايتحرك إلا بأقدامه ينقلُها واحدةً واحدة ؛ فقدّر عند نفسه أنه لو أزال قدمَ الفيل عن الأرض زال الفيلُ نفسُه ؛ فجاء فاعترضَ الطريقَ ، ودبَّ دبيبه ؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهتَبلَ هذه الغفلةَ منه . . وانْدسَّ تحتها ، فاندسَّ مقبوراً فى التراب !

ثم إن العظاء افتقدَتْ أميرها . فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأتْ ما نزل بها ، نفرَتْ إلى أجحارها ، واستكنَّتْ فيها ترتقبُ وتتربَّص ، فدخلتْ إلى الحربة عنزٌ جعلت تتقمم منها وترْتعُ فيها ، ورأتها العظاء فاجتمعنَ يأتمرْن...

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عظايةٌ منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الإناثَ دون الذُّكورة فى خلْقها ، والأنثى هى الذكرُ مقلوبًا أو مختصراً أو مشوَّهًا ، ولذلك هنَّ يقلبْنَ الحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها ، أفلا ترَين النابين العظيمين البارزين فى ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتَا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولُك فى الرأى فأين الخرْطُوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزّنمةُ المتدلِّيةُ من حلْقها ، وذلك خرطومٌ على قدْرِ أنوثة الأنثى . . . !

قالوا : ثم اجتمع رأيُهن على أن يُملِّكْن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهبْنَ لها الحربة وأمتَها . وسمعت الماعزَةُ كلامهن فقالت فى نفسها : لاجرَمَ أن تكونَ العنزُ فيلةً فى أمةٍ من العظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لاكبيرَ إلا بصغير ، ولاقوىَّ إلا بضعيف ، ولاطاغيةَ إلا بذليل ؛ وإن العظمةَ إن هى إلا شهادةُ الحقارةِ على نفسها ، وإنه رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبِّرٍ ما قام فى الناس إلا كما تقومُ الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيشُ الكذِب ، ولا حكَم إلا كما يحكم

الخِداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحدَه ، فمتى جاءت إليه فقد جاءت ، ولو أنها أدبرتْ عنه من ناحيةٍ لرجعت من ناحية أخرى ، ليثبتَ الحظُّ أنه الحظ .

وتقدَّم العَظَاء إلى العنْز ، فقُلْن لها : أيتُها الفيلةُ العظيمة ، إن قرينَك العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمه فغيَّبه تحت سبْعِ أرَضِين ، وأنت أنثاه وسيدتُه ، فقد اخترناكِ مَلِكةً علينا ، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها .

قالت العنْز : فإني أتَهيبُ منكن هذه الهيبَة ، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَّ ؛ غيرَ أن بينكنَّ وبيني ما بين العَظَايَة والفيل . وما بين الحصاةِ والجبل ، فإذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمَرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرُها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغَ فيلة ، وفي هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفي الخربَة كلِّها فيلةٌ واحدة ؛ فلا أعْرِفَنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير . ألا وإن أوّلَ الحقائق أنني فيلةٌ وأنكنَّ عَظَاء ؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا سقَطَ الخلافُ من بيننا وبَطَلَ الاعتراضُ منكن ، وقوّتي حقٌّ لأنها قوّة ، وباطلي كذلك حقٌّ لأنه من قوّتي ؛ وقد قال أسلافُنا حكماء الفيلَة : إن القويّ بين الضعفاء مَشيئةٌ مُطْلَقة ، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد ، حكيمٌ حتى بالحماقة ، إمامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهَالة ، نبيٌّ حتى بالشَعوذَة . . . !

قالوا : وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ في قومها ، وكنَّ يُسمِّينَها : (العمامَة) ، لبياضِها وصلاحِها وطهارتِها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتُها الفيلة ؛ لقد تَخرَّصْتِ غيرَ الحق ؛ فإنك تحكميننا من أجلِنا لا من أجلكِ ، وما قولُكِ إلا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن ؛ فلَكِ الطاعةُ فيما يُصْلِحنا ، وما كان من غيره فهو رَدٌّ عليك ، ورأيُكِ شيء ينبغي أن تكونَ معه آراؤنا ، لتَتَبيَّنَ الأسبابُ أسبابُ الموافقة والمخالفة ، فنأخذَ عن بيِّنَة ونترُكَ عن بيِّنة ؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة : إنه يجب على مَن يقدِّم رأياً للأمَّة الحازمةِ كي تأخذَ به ، أو يضَعُ لها شرعاً ليحمِلَها عليه ، أو يَسُنُّ لها سنَّةً لتتَّبعَها — إنه يجب على هذا المتقدِّمِ لتحويلِ الأمَّة أو تحريرها أن

يتقدَّم لأهل الشُّورَى وفى رأسه الرأىُ ، وفى عنقه حَبْل ؛ ثم يتكلَّم برأيه ويَبْسُطُه ويدْفعُ عنه ، ويجادلُهم ويجادلونه ؛ فإن كان الرأىُ حقًّا أخذوا الرأى ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوِّر .

وفى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَضْر فُوطٌ بحَّاثَةٌ فى الأديان دَرَّاسَةٌ لكتُبها عَلاَّمَةٌ نقَّابٌ ؛ فكان مما علَّمنا : أن المخلوقَ مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألاَّ يتمَّ منه شيءٌ إلا بمقدار ، وألاتكونَ القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ فى الأرض هو مجموعِ العقولِ العظيمة كلِّها ، وكان أتم الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنه أصحُّها وأتمها . فلا الدينَ اتَّبعْت أنتها الفيلةُ ، ولا اتبعت فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب .

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفَّشَتْ وغضبتْ ، وقالت : إياكم وهذه التُّرَّهـاتِ من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أسْمَعَنَّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العضَافيط . . . فذلك وحيٌ غيرُ وَحيِ أنا ؛ وإذا كان غيرَ وحْيِ أنا فأنا لستُ فيه ، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لايَصْلُح للحكم الذى شَرْطُه أن الدولةَ ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غُرَبَاءَ عنى جعلنى غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين ، فهو أوَّلُ القَطيعة ، والقطيعةُ أوَّلُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غيرُ أمرى ، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيِي ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتى — فأنا مجنونةٌ إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضَحِكَت (العمامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونةٌ بـ(أنا) ؛ أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلْق أنْ يَعْتَرِىَ عقلَكِ شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنكِ قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حَسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوِزةُ المقدار فى ناحية الحزْم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقلِ الحكماء : إن الزيادةَ المسْرفةَ فى جهة من العقل ، تأتى من النقصِ المتحيِّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عَبْقَرِيًّا فى أمورٍ ، لأنه ضعيفٌ أبلهُ فىَّ غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك مالا يُحسِنُه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ، ثم يَغلَطُ فى الأخرى ما لا يغلَط أحدٌ فيه ؟

قالوا : فجاشَتْ العنزُ وفارَتْ من الغضب فَوْرةَ الجبّار ، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمتَيها امتدَّ منها خُرطومٌ طويل ، وأن قرْنيها انبَعَج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويْحَكم ! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها ؛ فإنها كما قالت ، تقدَّمتْ إلينا بالرأى والحبل . . . !

وكان فى العَظَاء ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ ، ومأكولون لكلّ آكل ؛ فتَشَبَّحَ[1] لهم أن أنثى الفيل هذه . . . ستَخلُقُهُم فِيَلَةً إن هم أطاعوها ؛ فإذا مَرَدُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كلَّ ظِلفٍ من أظلافها جبلاً فوقَهم كأنه ظُلَّةٌ فتَسُوخُ بهم الأرض . ثم إنهم انخَزَلوا وتراجَعوا ، وأُخِذَتِ (العمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ ، وحَمِدَ الرأىُ من بعدِها ، وانقطع الخلاف والدّينُ والعقلُ الحرّ . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تُجرّرُ أذيالها .

قالوا : واغترَّت الماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها وهى ما عزةٌ نَبَاهَةَ شأنِ الفيل القوىّ ، فَلَجَّتْ فى عَمَايتها وكفَرتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فِيلةً وخلقتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتْها كلُّ عنزٍ فى الدنيا ؛ وذهبتْ تقلّد وتعيشُ على مذاهب الفِيَلة بين العَظَاء ؛ فإذا مشت ارتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنها بِناء يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أنذرت الأرضَ أن تَتمسَّك لاتَدُكَّها بجنبها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى ، فلاذَتْ العَظَاءُ كلُّهنّ بالفِيلة . . . وتأهَّبتْ هذه للقتال ، وتحصَّفَتْ فى المبارَزة والمناجَزة . . . (والمعانَزَة) فنَصبَتْ قرنيها ، وحرّكتْ زنَمتَيها ، وطأطأتْ ، وشدَّتْ أظلافَها فى الأرض ، وثبَّتتْ قوائمَها ، وصلَّبَتْ عظامهَا ، ونفشتْ شعرَها ، وتَشَوّكَتْ كالقُنفذ ، وأصرَّت بكل ذلك إصرارها ، وكانت عنزاً نَطيحةً منذ كانت تَتْبَعُ أمَّها وتتلوها ، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ . . . ؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هذا الهولَ الهائل . . فأقبَلَ ،

---

(١) أى خيل إليهم وتمثل .

فمدَّ خرطومَه ، فنالَها به ، فلفَّها فيه ، فقبَضَه ، فرفَعه ، فطوَّحها ، فكأنما ذهبت فى السماء . . !

وتهارَبت العَظَاء ولُذْنَ بأجْحارهن ، ثم غَدَوْنَ على رزقهن ؛ فإذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فدَبَبْنَ عليها وارتَعَيْنَ فيها ، وعَلمن أنها كانت ماعِزَةً فيَّلَها جنونُها ، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتلُه ، وأن من غَلَبَ أمةَ العَظَاء على أمرها فليست الأيامُ والليالى عَظاء فيغلبَها ؛ وأن تغييرَ المخلوقات ، إنما يكونُ بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الإناءَ الأحمر يُريك الماءَ محمراً والماءُ فى نفسه لاحُمرةَ فيه ، حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلٌّ ما يُخفى الحقَّ هو كهذا الإناء : لون على الحقّ لا فيه ؛ ثم أيقنَّ أن محاولةَ إخراج أمةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزَ الحمقاء قد كفرَتْ كُفْرَ الذبابة ، لما أخذَها اللهُ أخْذَ الذبابة .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حَمْقى الذِّبَّان ، قُدرَتِ الحماقةُ عليها أبديَّة ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبرٍ فى دَواة لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف .

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيَّةٍ ضخْمة ، فجعلتْ تقابلُ بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلِّ الدليل على أن العالم فوضى لانظام فيه ، وأنه مُرسَلٌ كيف يتفق على ما يتَّفق ، عَبَثًا فى عبث ، ولاريبَ أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ، إذ كيف يستوى فى الحكمة خلْقى (أنا) وخلْقُ هذه الذبابة الضخمةِ التى أنا فوقَها . . . ؟

ثم نظرت ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومَها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فَوضى العالم ، وكذِب الأديان ، وعَبَثِ المصادَفات ؛ فما الإيمانُ بعيْنه إلا الإلحادُ بعينه ، ووَضْع العقلِ فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) فى الأرض

ورفعُ هذا الذّبانِ الأبيض ويَعْسُوبِه الكبير (١) إلى السماء . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلت تمورُ فيها ذهاباً وجيئةً ، حتى رجعت بقرةُ الفلاّح من مَرعاها ، فبُهِتت الذبابةُ وجمدَت على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمْست قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد ثَقَبتا ثُقْبين فى وجه هذه البقر .. واكْتنّتا فيهما تأكلان من شَحمِها فتعظُمان سِمَنا ؛ والناسُ من جهلهم بالعلم الذُّبابىّ يسمونهما عينين . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَع لأثقُبَ لى ثقباً مثلَهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنْفُساء تَدِب دبيبَها فى الأرواث والأقذار ؛ فنظرت إليها وقالت : هذه لاتَصْلُح دليلاً على الكفر ؛ فإنى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفةٌ وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى ، ذلك الذى كان بليداً لايتحرّكُ فلم تجعل له الحركةُ جَناحاً (٢) . ثم إنها أصْغَتْ فسمعتْ الخنفساء تقولُ لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهى فليكْفُرْ كما يشتهى ؛ ياوَيْحنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفُخُه ولم نجد . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليلُ العقلِ فى هذه العاقلة ، ولَعمرى إنها لاتمشى متَاقلةً من أنها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجزها ، ولكن من أنها وَقُورٌ مثقَلَةٌ بأفكارها ، وهى الدليلُ على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجَعلت الذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتها إلا ، أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . من كُفْرٍ إلى كفرِ غيرِه ، إلى كفرِ غيرِهما ؛ حتى كأن السماواتِ كلَّها أصبحتْ فى معركة مع ذبابة . . . . . .

---

(١) اليعسوب : أمير النحل والذبان ونحوهما ، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض . . . . . .

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا .

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سَعْيَهَا ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتْها نفسُها ، فوقفت تحكُّ ذراعَها بذراعها — دَنتْ بَطةٌ صغيرة قد انفلقتْ عنها البَيضةُ أمس ، فمدَّتْ مِنقارها ، فالتقطتها .

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إله إلا الذى خلَقَ البطة . . . !

ياشباب العرب !*

يقولون : إن فى شباب العرب شيخوخةَ الهِمَمِ والعزائم ؛ فالشبانُ يمتدّون فى حياة الأمم وهم ينكمشون .

وإن اللهوَ قد خفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِد. فأهملوا الممكناتِ فرجعتْ لهم كالمستحيلات .

وإن الهزلَ قد هوَّن عليهم كلَّ صَعْبةٍ فاختصروها ؛ فإذا هزءُوا بالعدوّ فى كلمة فكأنما هزَمُوه فى معركة . . .

وإن الشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا ، ورجولةُ جسمهِ تحتجُّ على طفولةِ أعماله .

ويقولون : إن الأمرَ العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تَبِعةَ أمرٍ عظيم .

* * *

ويزعمون أن هذا الشبابَ قد تمَّت الأُلفةُ بينه وبين أغلاطِه ، فحياتُه حياةُ هذه الأغلاطِ فيه .

وأنه أبرعُ مقلّدٍ للغرب فى الرذائل خاصة ؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصوراً فى طعامه وشرابه ولذّاته .

ويزعمون أن الزجاجةَ من الخمر تعملُ فى هذا الشرق المسكينِ عملَ جندىٍّ أجنبي فاتح . . .

ويتواصَوْن بأن أولَ السياسةِ فى استعباد أممِ الشرق ، أن يُتْرَكَ لهم الاستقلالُ التامُّ فى حرية الرذيلة . . .

ويقولون : إنه لابد فى الشرق من آلتين للتخريب : قوةِ أوربا ، ورذائلِ أوربا .

* * *

---

* أنشأها فى إبان ثورة فلسطين خقها سنة ١٩٣٦ .

يا شبابَ العرب ! مَن غيرُكم يكذِّبُ ما يقولون ويزعمون على هذا الشرقِ المسكين ؟

مَن غيرُ الشباب يضع القوةَ بإزاء هذا الضعفِ الذى وصفوه لتكونَ جوابًا عليه ؟

من غيركم يجعل النفوسَ قوانينَ صارمة ، تكون المادةُ الأولى فيها : قَدَرْنا لأننا أردنا ؟

ألا إن المعركةَ بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسية ، إن لم يُقْتَلْ فيها الهزلُ قُتل فيها الواجب !

والحقائقُ التى بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحثُها التحليلى ، تكْذِبُ أو تَصْدُق .

* * *

الشبابُ هو القوة ؛ فالشمس لاتملأُ النهارَ فى آخره كما تملؤه فى أوله .

وفى الشباب نوعٌ من الحياة تَظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم .

وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثقةُ بالبقاء ، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفى الشباب تَصْنَعُ كلُّ شجرة من أشجار الحياة أثمارَها ؛ وبعد ذلك لاتصنع الأشجارُ كلُّها إلا خَشَبا . . .

يا شبابَ العرب ! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

* * *

أنقِذوا فضائلَنا من رذائلِ هذه المدنية الأوربية ، تُنقِذوا استقلالَنا بعد ذلك ، وتنقذوه بذلك .

إن هذا الشرقَ حين يدعو إليه الغرب ، « يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه ؛ لَبِئْسَ المولَى ولبئس العَشير » .

لَبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينه ، ولبس العشيرُ إذا جاء برذائله وأطماعه .

أيها الشرق ! إن الدينارَ الأجنبيّ فيه رصاصةٌ مخبوءة ، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير .

أيها الشرق ! لايقولُ لك الأجنبيُّ إلا ما قال الشيطان : « وما كان لى عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتمُ لى » .

* * *

يا شبابَ العرب ! لم يكن العسيرُ يَعْسُرُ على أسلافكم الأولين ، كأن فى يدهم مفاتيحَ من العناصر يفتحون بها .

أتريدون معرفةَ السر ؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعفِ المخلوق ، فصاروا عملاً من أعمال الخالق .

غلَبوا على الدنيا لما غلَبوا فى أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخوف ، والمعنى الأرضى .

وعلَّمهم الدينُ كيف يعيشون باللذات السماوية التى وَضعتْ فى كل قلبٍ عظمتَه وكبرياءَه .

واخترعهم الإيمانُ اختراعا نفسيًّا ، علامتُه المسجلةُ على كل منهم هذه الكلمة : لايَذِلّ .

* * *

حين يكونُ الفقرُ قلةَ المال ، يفتقر أكثرُ الناس ، وتنخذلُ القوةُ الإنسانية ، وتَهلِكُ المواهب .

ولكن حين يكونُ فقرَ العمل الطيب ، يستطيع كل إنسان أن يغتنى ، وتنبعثُ القوةُ وتعملُ كل موهبة .

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ وآلامها ، تفسِّرُ كلمةَ الخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ الخوف .

ولكنّ حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تُصبح الكلمةُ قانونَ الفضائل أجمع .

هكذا اخترعَ الدين إنسانَه الكبيرَ النفسِ الذى لايقال فيه : انهزمتْ نفسُه .

* * *

يا شبابَ العرب ! كانت حكمةُ العربِ التى يعملون عليها : اطلُبِ الموتَ تُوهَبْ لك الحياة .

والنفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانت غريزةُ الكفاحِ أولَ غرائزها تَعْمل .

وللكفاح غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً ، إذ لاتكونُ الفكرةُ معها إلا فكرةً مُقاتِلة .

غريزة الكفاح يا شباب ، هى التى جعلت الأسدَ لايُسَمَّنُ كما تسمَّن الشاةُ للذبح .

وإذا انكسرتْ يومًا ، فالحجَرُ الصَّلْدُ إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعة كانت دليلاً يكشِفُ للعين أن جميعه حجرٌ صَلْد .

* * *

يا شبابَ العرب ! إن كلمةَ (حقّ) لاتحيا فى السياسة إلا إذا وضع قائلُها حياتَه فيها .

فالقوةَ القوةَ يا شباب ! القوةُ التى **تقتلُ** أولَ ما تقتل فكرةَ الترَفِ والتخنُّث .

القوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التى تضع للأنصار فى كلمة(نعم) معنى نعم .

القوةُ الصارمةُ النفَّاذةُ التى تضع للأعداء فى **كلمة**(لا) معنى لا .

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

لَوْ . . . . !

رأيتُنى جالساً فى مسرحٍ هزلىّ بمدينة اسكندرية ، كما يجلسُ القاضى فى جريمةٍ يحملُ أهلُها بين يديه آثامهم وأعمالَهم ، ويحملُ هو عقلَه وحُكمَه .

وقد ذهبتُ لأرى كيف يتَساخَفُ أهلُ هذه الصناعة ؛ فكان حكْمى أن السخافةَ عندنا سخيفةٌ جداً . . .

رأيتهم هناك ينقُدون العيوبَ بما يُنشئ عيوباً جديدة ، ويَسْبَحون بأيديهم سباحةً ماهرةً ؛ ولكن على الأرض لا فى البحر ، وتكاد نظرتُهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمىً ظاهراً عما هى به حقيقةٌ هزلية ؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيل إلا الرَّقاعةُ والإسفافُ والخلطُ والهذَيان ، إذ كان هذا هو الأشبَه بجمهورهم الذى يَحضُرهم ، وكان هو الأقربَ إلى تلك الطباع العامية البليدةِ التى اعتادت من تكلُّف الهزل ما جعلها هى فى ذات نفسها هزلاً يُسْخَر منه .

ولا أسخفَ من تكلف النكتة الباردةِ قد خلَتْ من المعنى ، إلا تكلُّفُ الضحكِ المصنوع يأتى فى عَقِبها كالبرهانِ على أن فى هذه النكتة معنى .

فالفنُّ المضحكُ عند هؤلاء ، إنما هو السخفُ الذى يوافقون به الروحَ العاميةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها ، التى يبلغ من بلاهتها أحياناً أن تضحكَ للنكتة قبل إلقائها ، لفَرْطِ خفتها ورُعونتها ، وطولِ ما تكلفتْ واعتادت . فما ذلك الفنُّ إلا ما ترى من التخليط فى الألفاظ ، والتضريب بين المعانى ، وإيقاعِ الغلَطِ فى المعقولات ؛ ثُم لاثُم بعد هذا . فلا دقةَ فى التأليف ، ولاعمقَ فى الفكرة ، ولاسياسةَ فى جمع النقائض ، ولانَفاذَ فى أسرار النفس ، ولاجِدَّ يؤخذ من هزلية الحياة ، ولا عظَمةَ تُستخرجُ من صغائرها ، ولافلسفةَ تُعرف من حماقاتها .

والفرق بعيدٌ بين ضحكٍ هو صناعةُ ذهنٍ لتحريك النفس ، وشَحْذِ الطبع ، وتصوير الحقيقة صورةً أخرى ، وبين ضحكٍ هو صناعة البلاهة للهو والعبث ، والمَجانةِ لاغير .

* * *

وكان معى قريب من أذكياء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية ، فلم نلبثْ إلا يسيراً حتى جاء ثلاثةٌ من ضباط الأسطول الإنجليزى ، فجلسوا بحذائنا صفّاً تلوحُ عليهم مَخايِلُ الظَفَر ، ولهم وَقارُ البُطولة ، وفيهم أرواحُ الحرب ؛ وهم يبدون فى ثيابهم البيض المطرّاة[1] كأنهم ثلاثةُ نُسور هبطتْ من الغمام إلى الأرض ، فلأعينها نظراتٌ تدور هنا وهناك تُنكِرُ وتَعرف .

وأعجبنى أن أراهم فى هذا المكان الهزلىّ الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاثُ حقائقَ بين الأغلاط ، أو ثلاثُ أغلاط كبيرة . . . وكان أبدعَ ما أراه على هيئة وجوههم وأسرّ له ، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربىّ وتحوُّلُه إلى استعدادٍ للسخرية . . . .

ثم تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ ، وسَكينةٌ ووَداعة ، وحُسْنُ سَمْت وحلاوةُ هيئة فى جِلْسة رزينة متوقّرة ، لايُشبهها فى حسٍّ النفس التى تَعرف معانىَ القوة إلا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة .

وجعلتُ أقلّب عينىَّ فى الناس الموجودين ومَلامحهم وهيئاتهم ، ثم أرجعُ البصرَ إلى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصرىَّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لايعرفُ لنفسه مكانًا فى غيرهما ، فهو من ثَم لايَرحل ولايُغامرُ ، ولاتتقاذَفُه الدنيا ؛ وأرى الإنجليزىَّ كالمقتنع بأن كلَّ مكانٍ فى العالم ينتظر الإنجليز . . .

وخيّلَ إلىَّ والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدّين بأنفسهم لايُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسُهُ واستقلالُه ، وتاريخهُ وروحُ دولته ، وطبيعةُ أرضه ؛ فهو مستيقِنٌ أن الله لايرزقه رزقًا أىَّ الرزقِ كان على ما يتفق ، بل رزقًا إنجليزيًّا : أى فيه كفايتُه .

ورأيت شيئًا عجيبًا من الفرق بين طابعَ السِّلم على وجوه ، وبين طابعَ الحرب على وجوهٍ أخرى ؛ ففى تلك معانى السهولة والملايَنة والحرصِ على مادة الحياة ، وفى هذه معانى العزم والمقاومةِ والحرصِ على مجد الحياة لا على مادتها .

---

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التى استعملت قديماً فى معنى (المكوجى) هى : المطرى (بتشديد الراء) .

وتبيَّنت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما فى فرد قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أن أُمَّةً تحملُه ، فهو يعيش بأضعف ما فيه : والآخر فى فرد قد وضَعَ الأمرَ عَلَى أنه هو يحمل أمةً فلا يدعُ فى نفسه قوةً إلا ضاعَفَها .

وعرفتُ وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتهويل ، والصُّراخ ، واستعارةِ ألفاظِ غيرِ الواقع للواقع ، وتحميلِ الألفاظِ غيرَ ما تحمل ؛ والآخر بالهدوء الذى يَقْهَرُ الحوادث ، والصبرِ الذى يغلب الزمن ، والعقيدة التى تفرض أعمالَها العظيمةَ على صاحبها وتجعلُ أعظمَ أجرِه عليها أن يقومَ بها .

وميَّزتُ بين أثرَين من آثار الأرض فى أهلها : أحدهما فى المصرى السَّمْحِ الوداعِ الألوفِ الحيِىّ الذى هو كَرَمُ الطبيعة ، والآخر فى الإنجليزىّ العَسِرِ المغامرِ النَّفورِ الملحّ على الدنيا كأنه تطفّلُ الطبيعة . . .

* * *

وألقى ابنُ العم الذى كان معى سمعَه إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلىَّ عنهم ، فقال كبيرُهم : لقد فرغتُ من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خُمول الشرقيين ، وأفضيتُ منه إلى حقائقَ عجيبة ، أظهرُها وأخفاها معًا أن أمةً من هذه الأمم لايُمَكِّنُ للأجنبى فيها ، ولا تثقُلُ وَطْأتُه عليهم ، ولايَطول ثَواؤُه فى أرضهم ، ولايحتلّها من يطمع فيها ، ما لم يكن سادتُها وأمراؤُها وكبراؤها كأنهم فيها دولةٌ محتلة .

وهؤلاء الكبراءُ هم آفةُ الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيدَ فى تعظيمهم ، وأن نَمدَّلهم فى المال والجاه ، ونَبْسُطَ لهم اليمينَ والشمال ، ونُوهِمَهم أن عظَمتَهم هكذا وُلِدتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم . . . وخاصةً عظماءَ رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فإننا نصنعُ بغُرور الجميع وسخافاتهم وحرصِهم وطمعِهم أشياءَ اجتماعيةً ذاتَ خطَرٍ لايصنع لنا مثلَها إلا الشياطين ، ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندى) ذلك المهزولُ الهندى الذى تُقوِّم دنياه بأربعة شلنات ، ولا يزنُ أكثرَ من بضعة أرطال من الجلد والعظم ، ولابطشَ عنده ولا قوةَ فيه ، وهو مع ذلك جبّارٌ سماوى فى يده البرقُ والرعدُ يُرى ويُسمَع فى أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعةِ الكبرياء هذه الصناعةَ يكونُ رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليد بالطبيعة ، ورجلَ ذل بالحالة ، ورجلَ خضوع بالجملة ؛ فليس فى نفسه أنه سيدٌ نفسه ولا سيدُ غيره ، بل أكبرُ معانيه أن غيرَه سيّدٌ عليه فيكون معه دائمًا خيالُ استعبادِه .

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرةَ امرأة كنّ يصرخْنَ فى الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن فى أوله : « عاوزين رِجّالة تدَلّعْنا . . . » وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتُولوِل كأنها هى أيضًا امرأة محرومة . . .

* * *

ثم أرهفَ المترجم أذنَه فقال كبيرهم : إن لهؤلاء الشرقيين ستّ حواس : الخمسُ المعروفةُ ، وحاسةُ الخمول الذى خدعتهم عنه الطبيعةُ البليدةُ فسمّوه الترفَ والهزلَ واللهو ؛ والأمةُ الأوربية التى تحتلّ بلاداً شرقية تجدُ فيها لصغائر الحياة جيشًا أقوى من جيشها ؛ فعشرة آلاف جندى بعتادهم وآلاتهم ، لايصنعون شيئًا إلا الاستفزازَ والتحدّى وإثباتَ أنهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ فى عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواي(اته ، وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرُّقعاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فنّ الاحتلال فنٌّ عسكرىّ فى الأول . ولكنه فنٌّ أخلاقى فى الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئةً لامعةً جذابةً مغريةً ، ولكنها فى ذات الوقت مُحرِقة أيضاً ، وهذه هى صناعةُ إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسى الحاذق فى الشرق إلا أن يحمى الرذيلة ، فإن الرذيلةَ ستعرفُ له صنيعَه وتَحميه . . .

فتكلم ضابطُ اليسار ، ولكن صوته ذهب فى عشرين صوتًا من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعًا : « يا حِلوة يا خفّافى ، يا مجنّنه الشبان . . . »

* * *

ولما ألممتُ بحوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبي : استأذِنْ لى عليهم أكلمهم .

ففعل وعرَّفني إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الإنجليزى لو دخلَ جهنمَ لدخلها إنجليزيا . . . ولا أَجحد أن له فى الحياة مثلَ هداية الحيوان ، لأنه رجلٌ عمليٌّ : دليلُ منفعته أنها منفعتُه وحَسْبُ ، ثم لادليلَ غيرُهذا ولا يقبل إلا هذا . فإذا قال الشرقى : حقى ، وقال الإنجليزى : منفعتى ، بطَلَت الأدلةُ كلُّها ، ورأى الشرقى أنه مع الإنجليزى كالذى يحاول أن يُقنع الذئبَ بقانون الفضيلة والرحمة .

وقد عرفنا أن فى السياسة عجائب ، منها ما يُشْبِه أن يَلقَى إنسانٌ إنسانًا فيقولَ له : يا سيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفعة . . .

وفى السياسة مواعيدُ عجيبة ، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين ، والتوكيدَ لهم بالأيمان أنها ستُثمر رُغْفانًا مخبوزة . . . ثم بعدَ ذلك تُطْعَم فتثمرُ الرغفانَ المخبوزةَ حَشْوُها اللحمُ والإدام .

وفى السياسة محاربةُ المساجد بالمراقص ، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات ، ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربةُ فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشبابُ أن أماكنَ اللهو فى كل معانيها ليست إلا غَدراً بالوطن فى كل معانيه !

ولو عرف الشبابُ أن محاربةَ اللهو هى أولُ المعركة السياسية الفاصلة !

ولو أدرك الشباب أن أولَ حق الوطن عليه أن يحمل فى نفسه معنى الشعب لامعنى نفسه !

ولو رجع الدينُ الإسلامى كما هو فى طبيعته آلةً حربية تصنع من الشباب رجال القوة !

ولو علم الشبابُ أن روحَ هذا الدين ليست : اعتَقِدْ ولا تعتقدْ . ولكن افعلْ ولاتفعل !

ولو أيقن الشبابُ أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائلَ عمليةً لامتلاء النفس بمعانى التقديس !

ولو فهم الشبابُ أنْ ليس فى الكون إلا هذه المعانى تجعلُ النفسَ فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه !

ولو بحث الشبابُ النفسَ الإنجليزيةَ القويةَ ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ مسلمةٍ فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . .

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامى ، فما بلغتْ إلى حيث بلغتُ ، حتى شدّ الضابط على يدى وهزّها ؛ فنظرت ، فإذا أنا قد كنتُ نائمًا بعد سهرة طويلة فى ذلك المسرح ، وإذا يدُ المترجم نفسِه هى التى تهزنى لأنتبه . . .

أَيها المسلمون !

نهضتْ فِلَسْطِين تَحِلُّ العقدةَ التى عُقِدَتْ لها بين السيفِ ، والمكرِ ، والذهب .

عقدةٌ سياسية خبيثة ، فيها لذلك الشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ ، وفقر .

عقدةُ الحكم الذى يحكم بثلاثة أساليب : الوعدِ الكذب ، والفَناء البطىء ، ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون ! ليست هذه محنةَ فلسطين ، ولكنها محنةُ الإسلام ؛ يريدون ألاّ يُثبتَ شخصيتَه العزيزةَ الحرة .

كلُّ قرش يُدفع الآن لفلسطين ، يذهبُ إلى هناك ليجاهدَ هو أيضًا .

* * *

أولئك إخوانُنا المجاهدون ؛ ومعنى ذلك أن أخلاقَنا هى حُلَفاؤهم فى هذا الجهاد .

أولئك إخوانُنا المنكوبون ؛ ومعنى ذلك أنهم فى نكبتهم امتحانٌ لضمائرنا نحن المسلمين جميعًا .

أولئك إخوانُنا المضطَهَدون ؛ ومعنى ذلك أن السياسةَ التى أذلَّتهم تسألنا نحن : هل عندنا إقرارٌ للذل ؟

ماذا تكون نكبةُ الأخِ إلا أن تكونَ اسمًا آخرَ لمروءة سائر إخوته أو مَذَلَّتهِم ؟

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليفرضَ على السياسة احترامَ الشعور الإسلامى .

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهود يحملون فى دمائهم حقيقتين ثابتتين : من ذلِّ الماضى وتشريد الحاضر .

ويحملون فى قلوبهم نِقْمتين طاغيتين : إحداهما من ذهَبهِم ، والأخرى من رذائلهم .

ويَخبئون فى أدمغتهم فكرتين خبيثتين : أن يكونَ العربُ أقليّة ، ثم أن يكونوا بعد ذلك خَدَمَ اليهود .

فى أنفسهم الحِقْد ، وفى خيالهم الجنون ، وفى عقولهم المكر ، وفى أيديهم الذهبُ الذى أصبح لئيماً لأنه فى أيديهم .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليتكلمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاء العقل .

* * *

ابتَلَوْهُم باليهود يَمرُّون مرورَ الدنانير بالربا الفاحِشِ فى أيدى الفقراء .

كل مائة يهودى على مذهب القوم يجب أن تكون فى سنة واحدةٍ مائةً وسبعين . . .

حسابٌ خبيث يبدأ بشيء من العقل ، ولاينتهى أبداً وفيه شيءٌ من العقل .

والسياسةُ وراء اليهود ، واليهودُ وراء خَيالهم الدينى ، وخيالُهم الدينىُّ هو طردُ الحقيقة المسلمة .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليثبِّتَ الحقيقةَ التى يريدون طردَها .

* * *

يقول اليهود : إنهم شعبٌ مضطهَد فى جميع بلاد العالم .

ويزعمون : أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً فى فلسطين ، كأنَّها ليست من جميع بلاد العالم . . .

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لايسبح فى البحار ، ولكن فى الخزائن . . .

وأراد الإنجليز أن يَطمئنُّوا فى فلسطين إلى شعبٍ لم يتعودْ قط أن يقول : أنا .

ولكن لماذا كَنَسَتكم كلُّ أمةٍ من أرضها بمكنَسةٍ أيها اليهود ؟

* * *

أجَهِلتم الإسلام ؟ الإسلامُ قوة كتلك التى تُوجِدُ الأنيابَ والمخالبَ فى كل أسد .

قوةٌ تُخرج سلاحها بنفسها ، لأن مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجد لِيُؤكلَ ، ولم يُخلق ليَذِلّ .

قوةٌ تجعل الصوتَ نفسَه حين يُزَمْجِر ، كأنه يُعلن الأسديةَ العزيزةَ إلى الجهات الأربع .

قوةٌ وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان ، تتحولُ فيه كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم .

ولئن كانت الحوافرُ تهيّئ مخلوقاتها ليركبَها الراكب ، إن المخالبَ والأنيابَ تهيّئ مخلوقاتِها لمعنى آخر .

* * *

لو سُئلتُ ما الإسلامُ فى معناه الاجتماعى ؟ لسَألتُ : كم عددُ المسلمين ؟

فإن قيل : ثلثمائة مليون . قلتُ : فالإسلامُ هو الفكرة التى يجب أن يكونَ لها ثلثمائة مليون قوة .

أيجوعُ إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون ؟ إن هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يعاقِبُ الله عليه .

والغِنَى اليومَ فى الأغنياء المُمْسِكين عن إخوانهم ، هو وصفُ الأغنياء باللؤم لا بالغنى .

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين ، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة ، أقلّها سياسةُ المقاومة .

* * *

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك ، فافتحوا أنتم أيديكم . . .

كانوا يرمون بأنفسهم فى سبيل الله غيرَ مكتَرِثين ، فارمُوا أنتم فى سبيل الحق بالدنانير والدراهم .

لماذا كانت القِبْلةُ فى الإسلام إلا لتعتادَ الوجوه كلُّها أن تتحولَ إلى الجهةِ الواحدة ؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إلا ليعتادَ المسلمون رفعَ الصوتِ فى الحق ؟

أيها المسلمون ! كونوا هناك . كونوا هناك مع إخوانكم بمعنىً من المعانى .

* * *

لو صام العالم الإسلامىُّ كلّه يومًا واحداً وبَذَلَ نفقاتِ هذا اليوم الواحد لفلسطين ، لأغناها .

لو صام المسلمون كلّهم يومًا واحداً لإعانة فلسطين ، لقال النبىُّ مفاخراً الأنبياء : هذه أمتى !

لو صام المسلمون جميعًا يومًا واحداً لفلسطين ، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله آباؤهم من قبل : إن فيها قومًا جبّارين . . .

أيها المسلمون ! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المالِ المبذولِ فيكون شيئًا سماويًّا .

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين ، يتكلم يومَ الحساب يقول : ياربِّ ، أنا إيمانُ فلان !

قصة الأيدى المتوضئة . . .

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم ليُخرِجَ كلَّ إنسان من دنيا ذاته، فلا يفكّر أحدٌ أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهل، وأنت الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنىُّ أو العالم، فتنظرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأن خواطرَك متوضّئةٌ متطهّرة، وترى كلمة الكبرياءِ قد فقدت روحَها، وكلمةَ التواضع قد وجدت روحَها؛ وتشعرُ بالنفس المجتمِعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة؛ ولو خطر لك شىء بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخًا لك، ونظرتَ إليه ساكتًا وهو يتكلم فى قلبك، وشعرتَ بالله من فوقِكما، واستعلنَتْ لك روحُ المسجدِ كأنها تَهمُّ بطردك منه، وخُيِّل إليك أن الأرضَ ستاطم وجهك إذا سجدتَ عليها، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك فى دنياك وليس صاحبُك فى دنياه، وإنما أنتما هناك فى إنسانية ميزانُها بيد الله وحده؛ فلا تدرى أيكما الذى يَخِفُّ وأيكما الذى يثقُل[1].

قال : والعجيبُ أن هذا الذى لايجهلُه أحدٌ من أهل الدين، يعرفُه بعضُ علماءِ الدين على وجهٍ آخر، فتراه فى المسجد يمشى مختالاً، قد تحلَّى بحليته، وتكلّف لزَهْوِه، فلبس الجبةَ تَسَعُ اثنين، وتَطاوَلَ كأنه المئذَنة، وتَصدَّرَ كأنه القِبْلة، وانتفخ كأنه ممتلىء بالفُروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشفَ الله تمويهَه لانكشف عن تاجرِ علمٍ بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكلَ بها، فلا يجدُ دنيا ذاته إلا فى المسجد، فهو نوعٌ من كَذِبِ العالم الدينىِّ على دينه.

* * *

قال الراوى : وصَعِد الخطيبُ المنبرَ وفى يده سيفُه الخشبىُّ يتوكأ عليه؛ فما استقر فى الذِّروة حتى خُيل إلىَّ أن الرجلَ قد دخل فى سر هذه الخشبة؛

---

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة .

فهو يبدو كالمريض تُقيمه عصاه، وكالهَرِم يُمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرتُ فإذا هو كذبٌ صريح على الإسلام والمسلمين ، كهيئةِ سيفِه الخشبيّ فى كذبِها على السيوف ومعدنِها وأعمالِها .

وتالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الإسلامىّ فى هذا العصر ، أن يخطبَ المسلمين خُطبةَ جُمعتِهم وفى يده هذا السيفُ علامة الذل والضَّعة والتراجُع والانقلاب والإدبارِ والهزل والسخريةِ والفضيحةِ والإضحاك ؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ السيوف من الخشب ونَحْتِها وتسويتِها وإرهافِ حدها الذى لا يقطع شيئًا ، ثم وضْعِها فى أيدى العلماء يَعْتَمِدُون بها ذُؤابةَ كل منبر ، لتتعلقَ بها العيونُ ، وتشهدَ فيها الرمزَ والعلامة ، وتستوحِيَ منها المعنويةَ الدينيةَ التى يجب أن تتجسَّم لِتُرى ؟

أفى سيفٍ من الخشب معنويةٌ غيرُ معنى الهزلِ والسخافةِ ، وبلاهةِ العقل وذلة الحياه ، ومسْخِ التاريخِ الفاتح المنتصر ، والرمزِ لخضوع الكلمة وصبيانيةِ الإرادة ؟

قال : وكان تمام الهزءِ بهذا السيف الخشبىّ الذى صنعته وزارةُ أوقاف المسلمين ، أنه فى طول صَمْصَامةِ عمرو بن مَعْديكرب الزُّبيدى فارس الجاهلية والإسلام[1] ، فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مَقْبِضُه فى صدر الرجل كأنه وِسامٌ من الخشب . . .

قال : وكان الخطيب إذا تكلفَ وتصنَّع وظهر منه أنه قد حَمِيَ وثار ثائرُه ، ارتجَّ وغَفَلَ عن يده ، فتضطربُ فيها قبضةُ السيف فَتَلكزُه فى صدره كأنما تذكِّره أن فى يده خشبةً لا تَصلُح لهذه الحماسة . . . ![2]

* * *

قال : وخطب العالمُ على الناس ، وكان سيفُه الخشبىّ يخطبُ خطبةً أخرى : فأما الأولى فهى محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهى حتى ينتهىَ أثرُها ، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة ؛ وكانت فى عهدها الأول كالدرسِ لإقامة شأنٍ من

---

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر .

(٢) القاعدة الشرعية : أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف . ولما ضعف المسلمون السيف منهم وأطاعهم الخشب . . . !

شئون الاجتماع والسياسة ، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثلُ ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلْتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هى عبارتها :

ويْحكم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقيةً من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنسَ البشرىَّ ، لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، تكاد شرارةٌ تذهب بى وبكم معًا ، لأن فىَّ وفيكم المادةَ الخشبيةَ والمادة المتخشّبة .

ويْحكم ! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىِّ المضطرم ، لما بقيت الخشبةُ فى يده خشبة . وكيف يمتلىء الرجلُ إيمانًا بإيمانه ، وكيف يصعدُ المنبرَ ليقولَ كلمةَ الدين من الحق الغالب ، وكلمةَ الحياة من الحق الواجب — وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيفُ روحَه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تُفلحوا وهذا خطيبكم المتكلمُ فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافعُ عنكم . أيها المسلمون ، غَيِّروه وغيّرونى .

* * *

قال راوى الخبر : ولما قُضِيَتْ الصلاةُ ماج الناسُ إذا انبعث فيهم جماعةٌ من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم ؛ ثم قام أحدُهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيُّرَ أحوال أهلها ، ونكبتَهم وجهادَهم واختلالَ أمرِهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا المُوسِرَ والمُخِفَّ إلى البذلِ والتبرع وإقراضِ الله تعالى ؛ وتقدم أصحابهُ بصناديقَ مختومة ، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليلَ والأقلَّ من دراهمَ هى فى هذه الحال دراهمُ أصحابها وضمائرُهم .

قال : وكان إلى جانبى رجلٌ قَرَوِىٌّ من هؤلاء الفلاحين الذين تَعرفُ الخيرَ فى وجوههم ، والصبرَ فى أجسامهم ، والقناعةَ فى نفوسهم ، والفضلَ فى سجاياهم ؛ إذا امتزجتْ بهم روحُ الطبيعة الخِصبة فتُخرجُ من أرضهم زُروعًا ومن أنفسهم زروعا أخرى — فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيبَ خطيبَ المسجد قد غشّنا وهؤلاء الشبانُ قد فضحوه ؛ فما ينبغى أن تكونَ خطبةُ المسلمين إلا فى أخصِّ أحوال المسلمين .

قال : ونبّهني هذا الرجلُ الساذَجُ إلى معنى دقيقٍ في حكمة هذه المنابر الإسلامية ؛ فما يريد الإسلام إلا أن تكونَ كمحطات الإذاعة ، يلتقط كلُّ منبرٍ أخبارَ الجهات الأخرى ويُذيعُها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبةُ الجمعة هي الكلمةَ الأسبوعيةَ في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ؛ وبهذا لايجيء الكلامُ على المنابر إلا حيًّا بحياة الوقت ، فيصبحُ الخطيبُ ينتظره الناسُ في كل جمعة انتظارَ الشيء الجديد ؛ ومن ثَمّ يستطيع المنبرُ أن يكونَ بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخُيِّل إليّ بعد هذا المعنى أن كلّ خطيب في هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف ، لأن السياسةَ تُكرهه أن يخلعَ إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر ، وألا يصعدَ إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ هو مع ذلك نصفُ وعظ . . . فالخطبةُ في الحقيقة نصفُ خطبة ، أوكأنها أثرُ خطبةٍ معها أثرُ سيف . . .

قال : وأخرجَ القرويُّ كيسهَ فعزَلَ منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلّغُ به ولأوبتي إلى البلد ، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ؛ واقتديتُ أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعتُ في صناديقهم كلّ ما معي ؛ ولقد حسبتُ أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يَسبُّني ما دام معي إلى أن يخرجَ عني .

* * *

قال الراوي : ثم دخلتُ إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ، فإذا هناك رجالٌ من علماء المسلمين ، اثنان أو ثلاثة (الشكُّ في ثالثهم لأنه حليقُ اللحية) . ثم تَوافَى إليهم آخرون فتمّوا سبعة ؛ ورأيتُهم قد خلطوا بأنفسهم صاحبَ (اللالحية) ، فعلمتُ أنه منهم على المذهبِ الشائع في بعض العصريين من العلماء والقضاةِ الشرعيين ، أحسبُهم يحتجّون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم » ؛ وكلُّ امرئ فإنما تُبَصِّره مرآتُه كيف يظهر في أحسن تقويم ، أبلحيةٍ أم بلالحية . . . ؟

وأدرتُ عيني في وجوههم ، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أر منها شيئًا في وجه صاحب (اللالحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ

أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشعرىّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار ، من أن لله (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون : والذى زيّن بنى آدم باللِّحى .

وكان من السبعة رجلٌ ترك لحيته عافيةً على طبيعتها ؛ فامتدّتْ وعظُمتْ حتى نَشَرَتْ حولها جوًّا روحانيًّا من الهيبة تَشعرُ النفسُ الرقيقةُ بتيّاره على بُعد، فكان هذا أبلغَ رد على ذاك .

* * *

قال : وأنصتَ الشيوخُ جميعًا إلى خطب الشبان ، وكانت أصواتُ هؤلاء جافيةً صُلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركةٍ لا فنُّ خَطابه ، وعلى قدر ضعفِ المعنى فى كلامهم قَوِىَ الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخُ المستغيثُ فى صيحاتٍ هاربةٍ بين السماء والأرض .

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخَبَرَ : « تَعِسَ عبدُ الدينار ، تَعِسَ عبدُ الدرهم.» ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبّدوا لهذين حرصًا وشُحًّا ؛ « ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون» ، ولو تعارفتْ أموالُ المسلمين فى الحوادث لما أنكرتْهم الحوادث .

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثةَ اللَّهْفان » ، ولكن ما بالُ هؤلاء الشبان لايُوردون فى خطبهم أحاديثَ مع أنها هى كلماتُ القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللهفان » لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : « إنها فى أول الزمان يتعلم صغارُها من كبارها ، فإذا كان آخرُ الزمان تعلّم كبارُهم من صغارهم» . فنحن فى آخر الزمان ، وقد سُلِّط الصغارُ على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم إلى صبيانيةٍ جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديق معى : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر مافهمت ، بل تأويلُه أن آخرَ الزمان سيكون لهذه الأمة زمنَ جهاد واقتحام ، وعزيمةٍ ومغالبةٍ على استقلال الحياة؛ فلايصلحُ لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القوىّ

الجرىء ، كما نرى فى أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلةَ ؛ إذ تكون الحماسةُ متممةً لقوة العلم . وفى الحديث : « أمتى كالمطر : لايـُدرَى أولـُه خيرٌ أم آخرُه » .

* * *

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويَـهُـمُّ بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ؛ فجاء أحدُ الخطباء ووقف يفعلُ ما يفعله الرعد : لايكرر إلا زمجرةً واحدة ؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كلَّ ما قيل ، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعة أو خامسة ؛ وفرغ الشباب من هـَديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدبـًا متخشـّعـًا ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : لم يـَخفَ علينا مكانـُك ، وقد بذلتم ما استطعتم ؛ فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضًا . . .

ثم تحركت النفسُ بوحْى الحالة ؛ فمدَّ أولهم يدَه إلى جيبه ، ثم دسها فيه ، ثم عـَيـَّثَ فيه قليلاً[1] ؛ ثم . . . ثم أخرج الساعةَ ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدُهم منديله يتمخـَّط فيه ، وظهرت فى يد الثالث سُبحةٌ طويلة ، وأخرج الرابعُ سِواكـًا فمرَّ به على أسنانه ، وجرَّ الخامسُ كـُراسةً كانت فى قَبائه ، ومدَّ صاحبُ اللحية العريضة أصابعـَه إلى لحيته يـُخـَلـِّلـُها ؛ أما السابعُ صاحبُ (اللالحية) ، فثبتتْ يدُه فى جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئـًا يستحى إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضًا . . .

قال الراوى : ونظرتُ فإذا وجوهـُهم قد لبستْ للشاب هيئةَ المدرِّس الذى يقرر لتلميذه قاعدةً قررها من قبلُ ألفَ مرة لألف تلميذ ؛ فخجل الشاب وحملَ صندوقه ومضى . . .

* * *

---

(١) أى بحث بأصابعه .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة) ، قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظتَ من الحلُم قبل أن يملأَ الشيوخُ الأجلاء هذا الصندوق ، وما ختم عقلُك هذه الروايةَ بهذا الفصل إلا بما كَدَّدْتَ فيه ذهنك من فلسفة تحوُّل السيفِ إلى خشبة ؛ ولو قد امتد بك النومُ لسمعتَ أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهضُ إخوانُنا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « جاهلٌ سخِىٌّ أحبُّ إلى الله من عالمٍ بخيل » . ثم يملئون الصندوق . . . .

نجوى التمثال[1]

أيها المفترشُ الصخرةَ يشُدُّ ذراعيه أقوى الشدّ كأنما يريد أن يقتلع الصخرةَ فيهما ،

مُتَنَاهِضًا بصدره ليَدلّ على أنه وإن رَبضَ فإن الوثبةَ فى يديه ،

مُتَمَطِّيًا بصُلْبِه ليُشيرَ من جسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة ،

مُقْعيًا على ذَنَبه ومتحفِّزاً بسائره كأنه قوةُ اندفاعٍ تَهُمُّ أن تَنفلِتَ من جاذبيةِ الأرض .

وأنتِ أيتها الهيفاءُ تمثِّلُ الإنسانيةَ المتمدنة فى نَحافتها وهى كهذه الإنسانية ضاربةٌ بذراعَىْ أسد فى غلَظ مدْفعين . . . .

حكيمةٌ فى النظر كأنما تَمدُّ فى سرائر الأمم نظرةَ المتأمل ، ولكنَّ يدها كيدِ الحكمةِ السياسية على تركيبٍ عقلىّ تحته المخالب . . .

ساكنةٌ كأنها تمثالُ السلامِ على أنها فى جِوار الأسدِ كالسلام بين الشعوب : تَلْمَح فيه إنسانَ العالم ووحش العالم . . .

يا أبا الهول .

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللغز القديم الذى هو كلامٌ لايتكلم وسكوتٌ لايسكت ،

والذى أشار برأسِ الإنسان على جسمِ اللَّيث أنه قوةٌ عمياء كالضرورة ولكنها مُبْصِرَة كالاختيار ،

والذى أخرج من فَنَّىِ الغريزة والعقلِ فنًّا ثالثًا لايزال فى الأرض ينتظرُ المرأةَ التى تلد إنسانًا عِظامهُ من الحجَر ؟

وأنتِ يا مصر :

أواقفةٌ ثَمَّةَ للشرح والتفسير ، تقولين للمصرىّ : إن أجدادَك يسألونك من آلاف السنين بهذا الرمز : ألاَ معجزةٌ من القوة تمطّ عَضَلاتِ الحجَر ؟

---

(١) تمثال نهضة مصر الذى صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة ، وهو أبو الهول متحفزاً تقف إلى جانبه امرأة .

ألا بَسْطَةٌ من العلم تجعلُك أيها المصريُّ وكأنك رأسٌ لجسم الطبيعة ؟

ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ به أبا الهولِ فى الجوّ فتزيده على قوة الوحشِ وذكاء الإنسان خِفّةَ الطير ؟

أم تقولين للمصريّ : إن أجدادَك يُوصونكَ بهذا الرمز أن تكونَ كالظّهرِ الأسديّ لايُركَب مطاه ، وكالرأسِ الإنسانيّ لاتُقيَّد حريتُه ، وكالرّبْضَة الجبليةِ لاتَسْهُلُ إزاحتُها ، وكالإبهام المركّب من غامضَين لايتيسر به عَبَثُ العابث ، وكالصراحةِ المجتمعةِ من عنصرٍ واحد لايغلطُ فى حقيقتها أحد ؟

أم تقولين يا مصر : إن تفسيرَ أبى الهول الأولِ أن النهضةَ المصريةَ إنما تكون يوم تُخرِجُ البلاد من يصنع أبا الهول الثانى ؟

* * *

تمثالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجر قد صوّر الشعبُ فكرَه عليها ، ودوّن فيها إحساسَه بتاريخه ، ووصفَ بها إدراكَه حياةَ المعانى السامية ؟

أم هو كتابةُ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتها ، خشيتْ عليه الفناءَ فدوّنته فى أسلوبٍ من أساليب البقاء الحجرىّ الصَّلْد ؟

أم ذاك يومٌ من أيام الأمة أحالَه الفن من زمنٍ إلى مادة ؛ ومن معنًى إلى حسٍّ ، ومن خبر إلى مَنْظَر ، وكانوا يتكلّمون عنه فجعله الفنُّ يتكلم عن نفسه ؟

أم هو تعبيرٌ عن تلك المعانى التى خلقتْها نفوسُ هذا الجيلِ تخاطبُ به النفوسَ الآتيةَ لتتممَّ عليها ، وتضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضعَ الكلمةَ الإنسانيةَ على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجبل ؟

أم تركيبٌ سياسىٌّ إذا فسّرتْه اللغةُ كان معناه أن الثابتَ إذا احتاج إلى من يثبته . . . فلن يمحوَهُ من ينكرُه ، وأن الظاهرَ إن احتاج إلى من يدلُّ عليه . . . فلن يُخفيَه من لايراه ؟

* * *

بل أراكَ لاهولَ فيك يا أبا الهول الجديد .

أفذاكَ من رقّةٍ داخلتْكَ ورحمةٍ جاءتك من مَسّ يدِ المرأة . . . ؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبح فى العقل والعاطفة ومدّ العينِ النسائية إلى بعيد... ؟

أم لا يتم فى هذه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبُعٍ إلا . . . إلا بأنامل امرأة ؟

ألا من يُعْلِمنى أهذه المرأةُ منكَ هى تهذيبٌ للإنسان والوحشِ أم تكملةٌ عليهما ؟

ألا من يأتينى بالحكمةِ فيك من وضْع الرجلِ القوىّ رأسًا ولا جسم ، والأسدِ المفترسِ جسما ولا رأس ، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأةُ وحدها .

إنما كنتَ يا أبا الهول لغزَ الصمت ، فلما أُضيفت المرأةُ إليك أصبحتَ لغزَ النطق . . . فيا للْهول !

فاتح الجو المصرى[1]

ياطيرَ المثَلِ الأعلى !

لقد انفلَتَّ من رذيلة الخوفِ وتركتَها فى التراب مَوْطِئ القدَم ، وقلتَ لها : ويحك ، لقد آن للشبابِ المصريّ ؛ فهو مُغامِسٌ فى ماءِ الصواعق[2] ، مُتَطَوِّحٌ فى اللُّجّة الأزليةِ التى تغوصُ فيها الكواكب[3] ، يطيرُ برُوح الشَّرارة ، ويَهْبِطُ برُوح الغَيث ، ويُلْجِمُ الجوَّ ويُسْرِجُه ، ويتعلم كيف يَشْوِى عدوَّه فى عَيْنِ الشمس .

وكنتَ بطلاً مُغامراً فخطوتَ فى طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملتَ الجو ؛ ولو أنك خِفْتَ وكنت على جَنَاحَىْ جبريل لا على طيارة ، لخافَ جبريلُ على جناحَيه من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابىِّ الطاغيةِ الذى يَتحكّم على الأحياء بالموتِ بلا موت ، لأنه الذلُّ والخضوعُ والرذيلة .

وحملك الجوُّ إلى قبة السماء ، وهنالك نَظَرَ العالَمُ فرأى لمصر الناهضةِ عَلَمَها الإنسانىَّ يتنفَّسُ تحت الكواكب .

وحملك الجو إلينا ، فلما رفعنا رءوسَنَا لنراك ، رفعناها فى الوقت بين شعوبِ الأرض .

* * *

وضربتَ ياجَنَاحَ مصرَ فى الهواء ، وأعْنَانُ السماءِ[4] مملوءةٌ بالزَّعْزَعِ والهَوجاء والعاصف ، والسماءُ فى فصلها المكْفَهِرّ الذى تخلعُ فيهِ كلَّ ساعة وتلبسُ وتمزّق[5] وتَطْوِى ، فزدتَ بجُرْأتك فى براهينِ القضية المصرية برهانَ قوةِ المخاطَرة ، وأضفتَ إلى منطقها وضعًا جديداً مُفْحِمًا من روح التضحية .

---

(١) كتبت فى أول طيار مصرى قدم إلى مصر من وربا على طيارته ، فى شهر فبراير سنة ١٩٣٠ ، وهو الطيار صدق وطيارته فائزة ، وكان مقدمه يوماً مشهوداً .

(٢) كناية عن السحاب .

(٣) كناية عن أجواز الفضاء .

(٤) نواحيها ، جمع عنان (بالفتح) .

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء ، من الغيم والصحو وما بينهما .

وطرتَ بين حياةٍ وموتٍ فجعلتَهما يستويان فى اعتقادك ؛ إذ وصلتَ فكرةَ الموت بسرّ الإيمان ، والحياةَ بسرّ العزيمة .

وكنتَ رَجُلَ أُمَّتِك بإنكارِ ذاتِ نفسك من أجلها .

واتسَعْتَ للتاريخ بوضعِك عُمرَكَ المحدودَ على الطيارة ، وقذفِكَ بها وبه فى مَسْبَح الأجل .

وتجردتَ للأبدية لتُعطِىَ بلادَك : إما شهيدَ مجدٍ فى الآخرة ، وإما شهادةَ فخرٍ فى الدنيا .

وكنتَ على طيارتك الصغيرة المُتَطارِدَة تحتَ الريح ، وحولكَ رُوحُ الهَرَمِ الأكبرِ القائمِ بإرادة مصرَ وكأنه مِسْمارٌ مدقوقٌ فى كُرَةِ الأرض بين القُطبِ والقطب .

* * *

وأنتِ يا « فائزة » ، يا هذه الصغيرةُ الخارجةُ من مالِ صاحبها وجُهدِه وعزيمته كما تخرجُ القوة من ضَعف ، أعلمتِ إذ أنتِ ترتفعين وتهبطين بين السحُب كما تتواثبُ الفَراشةُ على النوّار فى رَوضة مُزهِرة ،

وإذا أنتِ تَفتُقين وتحُوكين فى مُلاءةِ السحاب كأنك بمُحَرِّكِك الدوّارِ تَنسِجين فى السماء بمِغْزَل ،

وإذ أنتِ بين صَفْقِ الرياح الهُوجِ[1] ، تحت السماء المُدَجَّجَةِ[2] ، فى كبَّةِ الشتاء[3] ، كأنَّكِ مناظَرةٌ تجرى بين العزيمةِ فى الإنسان والعزيمةِ فى الطبيعة ،

وإذ أنتِ بين ذئابِ الأعاصيرِ ، ونُمورِ السحاب[4] ، وسباعِ الغيم ذواتِ اللِّبْدة الكثيفة المُتَشَعِّثَةِ ، كأنك بصوتكِ وأزيزِكِ تُطلقين على وحوش الجو مِدفعًا رشاشًا يتركها صَرْعَى ،

---

(١) اضطراب الرياح المتقلبة .

(٢) المتغيمة .

(٣) كبة الشتاء : شدته ودفعته .

(٤) يقال : ريح متذئبة ؛ إذا كانت تجىء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب ، فوضعنا من هنا كلمة ذئاب الرياح ، . والنمر من السحاب : قطع صغار متدان بعضها من بعض ، تشبيهاً بجلد النمر ، فوضعنا منها نمور السحاب .

وإذ تراكِ الريحُ فتقول عنكِ : ريحٌ صنعها الإنسان. ويراك النجم فيقول : نجمٌ أفلتَ من النظام الأرضى . وتراكِ الملائكة فتقول : ويحكِ يا ابنَ آدمَ ، كأنك بما خلَقَهُ العقلُ تطمعُ منا فى سَجْدَةٍ أخرى كالتى سجدناها لآدمَ يومَ خلقهُ الله .

. . . أعلمتِ إذ أنتِ كذلك يا « فائزة » ، أن التاريخَ المصرىَّ سيحوّلكِ من طيارة إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ الخَلْق ، لأن فيكِ بَدْءَ الطيَران فى مصر ؟

* * *

سلامًا يافاتحَ الجو المصرى . لقد أجالت الأيامُ قِداحَها فخرجتْ القُرعةُ عليك ، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ : بسم الله مَصْعَدُها ومَجراها .

وطرتَ فإذا أنت بها عابرٌ فوق الحاضر لتجيئَنا من جانب المستقبل .

وهبطتَ علينا كأنك فى بَريد السماء كتابُ مَجْدٍ حَىٌّ للوطنية الظافرة .

بل كتابُ قصة رائعة ألّفتْها العواصف من فنَّين : ثورةِ الجو وثورةِ نفسك المصرية . وحكَتْها فى صوتين : زَفيفِ الطيارة وصَرْخةِ ضميرك الوطنى . وجعلتْها فصلين : أنت والمجهول . ألاَ حسبُك مجداً أن يحيا الشعبُ كلُّه بضعةَ أيام فى قصتك !

* * *

فعلى مَهْدِ الجو ، وفى حَرير الشعاع ، وتحت كِلَّةِ السحاب — وُلِدَ لمصر يومٌ تاريخى .

وخرجت التهانئُ التى طال احتباسُها فى القلوب المصرية لايُفْرَجُ عنها لأن سجّانَها ظُلْمُ السياسة .

واتجهتْ أفراحُ شعبٍ كامل إلى الفتى الجرىء الذى رَمَتْ به همتُه فوق هاويةِ الموتِ فتخطاها .

وتلقى شعورُ الأمة رسولَهُ المِقدامَ الذى لم يكن له ملجأ فى خِطَارِه إلاّ شعورَه بهذه الأمة .

وارتجَّ الوادى كلُّه كأنه غِمدٌ يتقلقلُ حين يُسَلُّ منه السيف .

ثم أُهْدِيتْ كلمةُ مصرَ لابنها الذى كَتَبَ فى جوها الكلمةَ السماويةَ الأولى ،
وكانت ساعةٌ تلاشَى عندها الزمنُ فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتَف معنا
الفراعنة : بوركتَ يا « صدقى » !

* * *

لله درُّك أيُّها ابنِ عزيمة ! كأنما كَشفتَ أهاويلَ الوحْى وهبطتَ فى
سحابة مُجَلْجِلَة إن لم تحملْ كتابًا مُنْزَلا فكأنما حملتْ شخصًا منزلاً .

ولعلك رسولُ الغَيم العابسِ لهذا الجوّ المصرىّ الذى يضحكُ دائمًا ضحكةَ
الفيلسوف الساخر فى حين أصبحت الحياةُ قوةً لا فلسفة . . .

ولعلك مبعوثُ البرقِ والرعدِ لهذا السكونِ النائم الذى يطوى كلَّ يوم فى
طىّ النسيان ما حَدَثَ فى اليوم الذى قبله . . .

ولعلك نبىُّ الجدّية والمرارة لهذه الحلاوة النيليةِ المُفْرِطة التى كاد منها
الشعبُ أن يكون سُكَّرَ أخلاق يُذابُ ويُشْرب . . .

ولعلك تفسيرٌ مصحِّحٌ لعقيدتنا المغلوطة فى القضاء والقدر ، أنَّ القضاء أنْ
تُقْدِمَ بلا خوف ، وأن القدر أن تَشُقَ بلا مبالاة .

أما واللهِ لقد غَمرتَ الشعب بموجة هواءٍ جديدة جئت بها فى جناحَيك ،
ونفختَ روحَ طيارتك المجيدةِ فى القلوب فجعلتها كلَّها ترفرفُ كأن لك فى
ضلوع كلِّ مصرىٍّ طيارة .

أجنحة المدافع المصرية[1]

اسْتَجْنِحى[2] يامَدافعَ مصرَ وطيرى . إن المجدَ يطالبُ منا إنسانَهُ البرْقىّ .

لقد مَدَّتْ لغةُ القوة فى هذا العصر مَدَّها حتى أصبح الطَّيَرَانُ بعض معانى المشْى ، ولم يَعد العالَمُ يدرى كيف تكون الصورةُ الأخيرةُ التى يستقرُّ فيها معنى إنسانه .

فلْتَتَمَجَّدْ مصرُ بإنسانِها البَرقىِّ الذى تَخرجُ النارُ بيده من أعْراضِ السحاب ، وتُفَرْقِعُ فى أصابِعهِ هَزّاتُ الرَّعد ، ويجعلُ فى قُبَّة السماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلَةً ، ويحمل الاسمَ المصرىَّ إلى مُعَلَّقِ النجم ، فيضعُ له هناك التعريف النارىَّ الذى وضعتُه الدول العظمى لأسمائها .

ولتتمجدْ مصرُ بإنسانها البرقىّ الذى يُشْعِرها حقيقةَ العلوِّ العالى ، والعُمقِ العميق ، والسَّعَةِ التى لا تُحدُّ ؛ ويزيدُ فى معانى أحيائنا معنًى جديداً لأحياءِ السُّحُب ، وفى معانى أمواتنا معنًى جديداً لموتَى الكواكب .

إنسانٌ برقىٌّ يتممُ بشجاعته فى السماء بُطولةَ فلاَّحِنا الإنسانِ الشمسىِّ فى الأرض ، ويعلو بكبرياءِ مصرَ فى ذِرْوة العالَمَ ، فتظهر طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً فى الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً فى الثَّرى .

إنها مصر ، مصرُ القادرةُ التى سَحرَت القِدَم بقوتها وفنِّها ، فبَقِىَ فيها على حاله وجلالته ، وانهزم الدهرُ عنه كأنه قوةٌ على قوة الزمن نفسِها .

فاستَجْنِحى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانَه البرقى .

* * *

ولما فُتح السِّجِلُ ذاتَ صباحٍ لتكتبَ مصرُ أسماء الفَوْج الأول من نُسُورها الحربيين ، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ :

---

(١) كتبت فى احتراق أول طيارة حربية مصرية فى قدومها إلى مصر من أوربا ، وقد احترق فيها الشهيدان : (حجاج ودوس) ، وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) أى اتخذى الأجنحة ، ولم تأت الكلمة فى اللغة بهذا المعنى ، ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم .

« أضْرِمى الشّعلةَ الآدميةَ الأولى يا مصر ، وافتحى القبرَ الجوىَّ الأول ، وألحِدى فيه من عنصرَيك المسلمين والأقباط ، وضَعى الحياةَ فى أساسِ الحياة ، واستقبلى عصرَكِ الجديدَ بأذانِ المسجد ودقِّ الناقوس ليباركهُ الله ، ولْيتاقَ الشعبُ أولَ طيّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركةِ ، وأكبادٍ عرفت مَسَّ النار ؛ ولا ينظرَنَّ إلى طياراته الأُوَل إلا بعد أن ينظر النعشين فيرى مجدَ الموت فى سبيل الوطن ، ، فتسطعَ نظراتهُ ببريق الكبرياء ، ولَمعةِ العزيمة ، وشُعاعِ الإيمان ؛ ويأتلِقَ فيها النورُ السماوىُّ الذى يجعلُ الناسَ فى بعض ساعاتهم كواكب ، نورُ صلاةِ الشعب على موتاه الشهداء » .

واستجاب القَدَرُ لصوت المجد ، فالْتجَّ الظلامُ فى وَضَح الصبح ، وانطفأ سِراجُ النهار فى قبة الفلك ، وأطْبقَتْ نواحى الجوِّ إطباقَ ليلة تَساقَطَتْ أركانُها وأقبل الضبابُ يعترِضُ اعتراضَ جبَل عائم يتَذَبْذَبُ فى بحر ، واستأرَضَ السحابُ فتَخلّى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتذامرَتْ العناصرُ على القتال يحُضُّ بعضها بعضًا ، وتغشَّت السماءُ بوجه الموتِ : كلَّحَ فارْبَدَّ وانتفَخَ ، وتكسَّرَتْ فيه الغُضونُ كل غَضَنٍ كِسْفَةُ ظلام ، وعاد أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء ، فكان الفضاء كصدر المحتضَرِ : ليس معه إلاّ عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها .

وابْتدَرَتْ إلى مجد الموت الطيارةُ المصريةُ الأولى ، وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباها الموتُ ، فذهبتْ فانتحرتْ أسفًا وتردتْ متحطمة ، وانسلَّ الرجلان من مخالب الردى ، وكانا فى الطيارة كورقتين من النَّبْت فى فَم جَرادةٍ همَّتْ تَقْضِمُهما . . .

وتَسْتَبقُ الثانية فإذا فيها وَديعة الكرم من عُنْصُرَى مصرَ : « حجّاج ودوس »[1] وكان سرًّا من أسرار مصر اجتماعُهما فى مَداحِضِ الغَمام ومزالقِه ، ليكونا هديةَ مصرَ الأولى إلى مجدها الحربى ، ثم ليكونا هديةَ المجدِ إلى إحساس هذا الشعب يُحِسُّ منهما العالمَ المنطوِىَ له فى مستقبل النصر .

---

(١) هما فؤاد حجاج ، وشهدى دوس ؛ وكان فى الطيارة الأخرى التى تحطمت المستر بليت ، والمستر سميث .

واعتسفَتْ طيارةِ الشهيدين طريقَ الفَناء ومتاهةَ الحياة ، فذهبتْ عنها مَعارِفُ الأرض ، وعُمِّيَتْ عليها معالِمُ السماء ، وخرجتْ من تصريف أيدى البطَلين إلى تصريفِ أجَلهما ، وأصبحت كأنها تطير فى الأنفاس الباقية لهما ؛ فما تتقدمُ ولا تتأخر ؛ ولم تكن طيارةً تحملُهما ، بل جَناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله .

ثم اجترَّها الموتُ إلى غَوْرٍ ، فانحطَّتْ من الهواء جانحةً كالطائر يطلبُ ملجأً فى العاصفة ، ثم انتهضتْ واثبةً ، وتمطَّرتْ منقلِبةً ، فاشتعلَتْ فاستَعَرَت فأنضجتْ راكبَيْها ، رحمهما الله !

وكثيراً ما يكونُ منظرُ الحزن فى الحياة هو انهماكَ الحياة فى عمل جديد تُبدعُ منه السرورَ والقوة . احترق البَطَلان لتتسلَّمَ مصرُ فى نعشيهما رَماداً لن يُبْنَى تاريخُ العزّةِ الوطنية إلاّ بهِ .

فاستجْنِحى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقى .

* * *

صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، ووضعت لنا الاسمَ البديعَ الذى نُطلقُه على طيَّارينا الأبطال ، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ الجو ، ولكن سمُّوهم « جَمَراتِ الجوّ»

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحتْ إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالةٍ ، وأن نُفاجئَ شعورَنا الحالم فنصدمَه بآلام اليقَظة المرّة ، وأن نغيِّر قاعدةَ الحياةِ فى التربية المصرية فلا تكون : العيشَ العيشَ ، ولكن القوةَ القوة .

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا أن الحياة إن هى إلا أداةٌ للحى ، وليس الحىُّ أداةً للحياة ، فليتصرَّفْ بها على قوانين الروح وآمالها فيسمُوَ وتسمو ، ولايَدَعْها تتصرفُ على مذاهب أقدارِ المادة وتصاريفِها فيُذِلّها وتُذِله . وفى قانون الروح : لاقيمةَ لعالَم الأشياء إلاَّ كما تَصْلُحُ لنا ؛ وفى قانون المادة وضَغْطَةِ الحياة : كما تَصْلُحُ لنا وكما نصلُحُ لها . . .

بلَى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقةَ ، وأعطتنا قصةَ الحرية كاملةً فى معنىً واحد : وهو أن هذه الحريةَ لعاشقيها كأجملِ الجميلاتِ للمتنافسينَ عليها : جمالُها متوحش ، وخلاَ عنُها مُفْتَرِسة ، وظَرْفُها سَفَّاكٌ للدم .

فاستجْنحِي يا مدافعَ مصرَ وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرق .

* * *

وإلى السماء يا « جمَرات ِ الجو » ، فإذا استويتم على السحاب ، فليست الطيارةُ ثَـمَّ طيارةً ، بل حقيقةٌ حيةٌ عاملةٌ للمجد ، فلتحملْ معناها المصرىَّ من بطَـلها المصرى .

وإذا سبحتم فى مَـهْبِـط القدَر ، فليس الطيَّارُ ثَـمَّ طياراً ، بل حياةٌ عبقريةٌ أرسلتها مصرُ تستنزلُ للحياة أقداراً سعيدة .

وإذا خـُضتم فى المعْرَكِ الضَّنْكِ تتبعثَـرُ فيه الآجالُ على الرياح ، فليس الجسمُ المصرىُّ هناك من لحم ودم ، بل ناموسًا طبيعيا ماضيًا إلى غاية .

وإذا تَـقاذَفتم فى بحر الشمس ، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيدِ أيام مضيئة تلتمعُ فى تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السماوات ، فانظروها بأعينكم معالىَ مصر ، وافهموها بقلوبكم ذاتيةَ الوطن المصرىّ تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو .

إنما الطيارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ من الإنسانيةِ والعناصرِ ، معناه فى العزيمة « لابدَّ » . ومتى هَـدَرَت الطيارةُ هَـديرَها فإنما تقول للبطل منكم : هَـلُمَّ من عالٍ إلى أعلى ، إلى أكثرَ علوًّا ، إلى أقصى حدودِ الواجب على النفس حين يأخذ الواجبُ الكلَّ وحين تعطى النفسُ الكل .

فاستجْنحى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرق .

الطماطم السياسى . . .

كان (م) باشا * رحمه الله داهيةً من دهاةِ السياسة المصرية ، يلتوى مرةً فى يدها التواء الحبل ، ويستوى فى يدها مرةً استواء السيف ، ولا يُرى أبداً إلا منكمِشاً متُحَرّزاً كأن له عدوًّا لايدرى أين هو ولامتى يقتحِمُ عليه ، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذِب بين طالبِ الحق وغاصبِ الحق – يعرف أن عدوَّه كامنٌ فى أعماله .

وكان ذكيًّا أريبًا ، غيرَ أن مُلابَستَه للسياسةِ الدائرةِ على محْورها ، جعلت نصفَ ذكائه من الذكاء ونصفَه من المكر ؛ فكان فى مُراوغته كأن له ثلاثةَ عقول : أحدُها مصرىّ ، والآخرُ إنجليزى ، والثالثُ خارجٌ من الحالين .

وبهذا تقدَّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز ، واستمرت مجاريه مُطَّردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حَسَنَ الفهم عنهم ، سريعَ الاستجابة إليهم ؛ يفهمُ معنى ألفاظهم ، ومعنى النيَّةِ التى تكون وراء ألفاظهم ، ومعنىً آخرَ يتبرعُ هو به لألفاظهم . . . فكان هو وأمثالُه فى رأى تلك السياسة القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدُهم فى مكانه من الحكم كما توضعُ صيغةُ الشكّ لإفساد اليقين ، أو صيغةُ الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغةُ الهوى لإيجاد الفِتنة .

* * *

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحبَ سرّه (السكرتير)، وقد وثقَ به الباشا حتى إنه كان يُعَالِنُه بما فى نفسه ، ويبثُّه همومَه وأحزانَه ، ويرى فيه دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعيرُ منه اليقينَ أحياناً بأنه لا يزال مصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُه فى الكرسى . .

فحدثنى الصديقُ بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يومًا ليُفَاتِحَه الرأىَ

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

فى أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الإنجليزى غيرُ مطمئن إليك لأن حقيقةً من الحقائق الصريحةِ ظاهرةٌ على وجهك ، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصرىٌّ مستقل .

قال صاحب السر : لئن كان ذلك ما يغضبه إن الخطْبَ لهيِّن . فلستُ أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء . . .

فضحك الباشا وقال : يا بنىَّ ، هذا الإنجليزىُّ عندنا كالشيطان : « إنه يراكم هو وقَبيلُه من حيث لاتَرَونهم » ، ووالله يا بنىَّ إنى لأشدُّ أنفَةً منك ، وإن صدرى لشَجِىٌّ مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكننا نحن الشرقيين قد ضِعنا منذ فقدنا الشخصيةَ الاجتماعية .

أتراك تفهم شيئًا لو قلتُ لك : رجلٌ ، أسد ، جبلٌ ، مدينةٌ ، أسطول ؟ إن تركيبنا الاجتماعىَّ شىء كهذا الكلام : فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلالِ المعنى واضمحلاله . ولكل كلمة إذا أفردتْ معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به ، غيرَ أنه يتحول فى الجملة إلى معنىً كَلاَ معنى .

أصبح الشرقىُّ يعيشُ فى أمته على قاعدةِ أنه منفردٌ لاصلة بينه وبين الأطرافِ لا فى الزمان ولا فى المكان ، ونسىَ معنى الحديث الشريف : « اعملْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً » . فماذا كان يريد أعظمُ المصلحين الاجتماعيين من قوله : « كأنك تعيش أبداً » ؟ إلا أن يقررَ لأمته أن الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المقبِلة كلِّها ، فليعملْ لها ولنفسه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنه مستمرٌّ فيها .

هذه حكمةٌ إسلامية دقيقةٌ ، عندنا نحن لفظُها ولسنا نعرف معناها ، وعند الإنجليز معناها ولايعرفون لفظها . أهُم المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفردَ كلُّ شىء ؛ فآثر الشرقىُّ حياتَه على وطنه ، وقدَّم لذتَه على واجبه ، وتعامَلَ بالمال فى مواضع المعاملةِ بالأخلاق ؛ وكان طبيعيًّا مع هذا أن يَختصر الدينَ اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين ، وبذلك يناسبُ فرديتَه ويقعدُ تحت حُكمِه وهو خارجٌ عليه ؛ فترى الرجلَ من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يَحلِفُ به كذِبًا على درهم ، ويصلى ويَفْجُر فى يوم واحد ، ويتعبَّد فى نفسه ويخونُ سواه فى وقتٍ معًا .

ومتى كانت الحالةُ النفسيةُ للأمة هى هذه الفرديةَ ومصالحَها ودواعيَها ، كان الكذبُ أظهرَ خلالِ هذه الأمة ، إذ هو انفرادُ الكاذب بحظه ومصلحته وداعيته ؛ ولايكذبُ عليك إلا من يرجو أن تكونَ مغفلاً ، أو من قدَّر فى نفسه أن المعاملةَ العامةَ فى الأمة هى على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون فى هذا أيضًا فيسمونه حِذاقًا وبراعة (وشطارة) .

وإذا عمَّ الكذبُ فشا منه الهزل ؛ فكلُّ كاذبٍ هازل ، وهل يَجِدُّ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنونًا ؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباسطة بالكذب ، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ، ومنه من كذب الخيال ، وكيفما دارتْ الحالُ لاتجده إلا كذبًا .

ومتى صار الكذبُ أصلاً يعمَلُ عليه ، تقرَّر عند الناس أن الكلامَ إنما يقالُ ليقالَ فقط . أفلستَ ترى الرجُلين إذا أخبر أحدُهما صاحبَه بالخبر فيه شىءٌ من الغرابة أو البعد ، لايكلمه الآخَرُ أولَ ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أضرَّ على الأمة من هذه العقيدة — عقيدةِ أن الكلامَ يقالُ ليقالَ فقط — فإنها هى طابَعُ الهزل على أخلاقِ الأمة ، وعلى كل أحوالها ، وعلى حكومتها أيضًا .

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين فى كل شىء ، حتى ليكونُ لنا الواحد كالآحادِ فى غيرنا فنجعلُه مائةً بصِفْرين ، نجىء بأحدهما من اعتيادِنا الكذبَ على الحقيقة ، ونجىء بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسنا .

هذه مبالغةٌ خطرة ، وأخطرُ ما فيها أننا بها نريدُ المبالغةَ فى الدَّلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةً فى الدلالة علينا نحن ، وعلى كَذِبِ طباعنا ، وعلى فَوضى العقل فينا . نعم وحتى تُثبتُ أننا لاعزمَ لنا ، من كونها مبالغةً لا تدقيقَ فى معناها ؛ وأن لاصبرَ لنا ، من أنها لاثباتَ لحقيقتها المهزومة ؛ وأن لاشدَّةَ لنا فى طلب الحق ، لأننا بها من أهل الغَفلةِ فى وصف الحق ؛ وأننا لانتمثلُ العواقبَ إذ نُرسل الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته .

وأيسرُ ما يُفهم من هذه المبالغات التى أصبحت طريقةً من طرق الشعبِ فى التعبير ، أن هذا الشعبَ لايصلح فى شىء إلا بالحكومة ، فهو نفسُه

كالمبالغة ، والحكومةُ له كالتصحيح ؛ وهذه هى العلةُ فى أن الشعبَ الكذوبَ يلجأ إلى حكومته فى كل كبيرة وصغيرةٍ فى العمل ، كما أنها هى العلةُ فى أن حكومتَه تكذبُ عليه بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ فى السياسة .

ومن أثر الكذبِ الشعبيّ والمبالغةِ الشعبية ، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناسُ عن أعماله ، فيديرُها على ذلك وإن قلَّت منفعتُها ، وإن فسدت حقيقتُها ، وإن جلبتْ عليه من الضرر فى ماله ونفسه ما هى جالبة ؛ فقاعدتُهم هى هذه : ليس الشأن فى الحياة للعمل فى نفسه ، ولكن فيما يقالُ عنه ؛ فإن لم يُقَل شىء فلا تعملْ شيئًا . . . .

هذه يا بنى أمةٌ لايكون حكّامُها إلا مبالغاتٍ أيضًا . . .

* * *

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوتُ بائعٍ ينادى على سلعته : أحسن من التفّاح ياطماطم . . .

فضحكَ الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسى العفِن : إنه ليس تفاحًا وحسْبُ ، بل هو أحسنُ من التفاح . . .

إن الأمةَ لن تكونَ فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها ، وإن أولَ ما يدلُّ على صحة الأخلاق فى أمة كلمةُ الصدقِ فيها ، والأمةُ التى لايحكمها الصدقُ لاتكونُ معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كذبًا وهزلاً ومبالغة .

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرّ (م) باشا قال : جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل عليّ متهللاً مُشْرِقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة . . . ويترنّح عِطْفاه كأنما تهزّه أسرارُ عظَمته ؛ ويمشي متخلّعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها وأثقلتها المعاني الكثيرةُ من أعين الناظرينَ إليها ، وعلى شفتيه خَيالٌ من فكرةِ هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلا ليُعْلِمَهُ أنه هو كبير ، فيكونُ في الأمر شيئان : الأمرُ واللؤم ؛ وأقبل عليّ في هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقت لقالت : سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى . سبِّح اللهَ الذي خلق في الأسَدِ شعرةً جبَّارة خرج منها الأسَدُ كلُّه . . .

سُبحانَ اللهِ ولا إله إلا الله . هذا (فلان باشا) الذي قرأتُ في الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية ؛ خلقه الله من تراب وحوَّلت الرتبةُ هذا الترابَ الذي فيه إلى ذهبٍ خالص . . . ينظرُ إليّ وبرغْمه أن تَقَعَ عيناه عليّ وعلى الحائط ؛ ولاتجدُ نفسُه المزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراءَ المنبعِث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه . ما بين أمسِ واليومِ زاد هذه الزيادةَ الآدمية ، أوكأنما كانت صورتُه خطوطاً فقط فوُضِعَتْ فيها الألوان . . .

(باشا) ! هذه الباء وهذه الألفُ وهذه الشينُ الممدودةُ ليست حروفا خارجةً من الأبجدية العامة ؛ فإن الأبجدية قد تجعلُ الباء في بليد مثلاً ، والألفَ في أبله ، والشينَ الممدودةَ في شاهد زُور مثلاً مثلاً . . . بل تلك حروفٌ من حروفِ الدولة ، منتزعةٌ من قوةٍ قادرةٍ على أن تجعلَ لحياة صاحبها من الشكل ما يُسْبِغه الفنُّ على الحجَر من شكل تِمثالٍ يُنْصَبُ للتعظيم .

قال : وكنت أعرفُ هذا الرجلَ ، وهو رجلٌ أميٌّ لايُحسن إلا كتابَة اسمهِ كما تكتبُ الدّجاجةُ في الأرض . . . فكانت الرتبةُ عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرةٍ من الصخور الصَّلْدة ؛ وهذا مما يحتملُه المجاز بعَلاقة ما ؛ ولكنّ الذي لايَسُوغُ في المجاز ، ولا في مبالغات الاستعارة ، ولا في خُرافات المستحيل ،

أن تزعمَ الصخرةُ للناس أن لفظَ الحديقة الذى أطلق عليها قد أنبتَ فيها أشجارَ الحديقة . . . .

* * *

قال صاحبُ السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهّل له الإذنَ وقال : هذا رجل أصبح كالورقة المبصومة بخاتم الدولة ، فلتكنْ ما هى كائنةٌ فإن لها اعتبارَها . ثم تلقّاه تلقّيَ الهازل المتهكّم وقال له: أهنئك بالنّحْوى ... مُبارَكون يا باشا . . . وأقبل عليه وبَسَطَ له وجهَه .

وكان فى الباشا دُعابَةٌ ظريفةٌ يُعرف بها ، وهو كثيرُ النوادر والمُلَح ، وله خَصيصةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بين يديه كُدْسٌ من الأوراق التى تُعرض عليه ينظرُ فيها ويقرؤها ويتدبَّرها ، وهو فى ذلك يستمعُ إلى محدثه ويُراجعه ويردُّ عليه ، فيُصرّفُ الناسَ والأوراقَ فى وقت واحد ، ويستعملُ ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابة فى شىء من هذه ولا من تلك .

ثم قال للباشا الحديث وعينُه إلى ما بين يديه : هذه أوراقُ سرقة ثورٍ عظيم ، فكم يساوى الثورُ العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكىُّ الفَطِن : إذا كان من الثيران التى تُعرضُ فى المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يَبْعُدُ سعرُه ويُغَالَى به .

قال الباشا : نعم نعم ، إن من الثيران ثيرانًا يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثور الذى سألتك عنه يا باشا هو ثورُ محراث لاثَورُ معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثورَ محراث فمثلُه كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيما كما قلتَ وليست له إلا قيمةُ مثله .

قال الباشا : أرانى أخطأت ، ولعن الله العَجَلة ، فهذه أوراق سرقة حمار!

* * *

قال صاحبُ السر : وانصرفتُ عنهما بأوراقى ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيّات كلُّها صفَعَات ؛ فلم يكن إلا يسيرٌ حتى خرج مبتهجًا يَميدُ السرورُ بعِطْفيه . ثم دعانى الباشا ودفع إلىَّ بِطاقةً بالحاجة التى جاء فيها الرجل ، ثم قال :

يا ليت لنا فى ألقاب الدولة لقبَ (رحمه الله). . . يُنْعَم به على مثل هذا .

أتدرى يا بنىّ أن هذه الرتبَ وهذه الألقابَ لم تكن فى القديم إلا كوضع علامةِ الشرّ على أهل الشر ليهابَهُمُ الناسُ ، حتى كأنما يُكْتَبُ على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلْحَقٌ بالدولة . . .

وكان الشعبُ أميًّا جاهلا لا يستطيع الإدراكَ ولا يُحسن التمييز ، فكانت الألقابُ كالقوانين الشخصية الموضوعةِ فى صيغةٍ موجَزة مفهومة متعيِّنة الدّلالة ، وكان كلُّ من يحملُ لقبًا من الحكومة يستطيعُ أن يقولَ للناس : لقد وضعَت الحكومةُ كلمةَ الأمر فى شفتىّ . . .

وكأن اللقبَ إعلانٌ من الحكومة المستبِدّة لشَعبها الجاهل : إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يُحترم .

من الهزل أن يُشترى اسمُ النصر الحربىّ أو يُوهَبَ أو يُعار ؛ وأقبحُ منه فى باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأمىّ بلقب باشا . وأنا أعرف أنه قد بذل فى سبيله ما بذل ، وأضاع ما أضاع ، فكأن الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئًا إلا وضعَ توقيعهم على أخْذِ الثمن . . .

ولقد أصبح الرجلُ تحت تأثير الكلمةِ العظيمةِ مخبولاً بسحْرها الوهمىّ ، فحسِبَ ذلك إدخالاً له فى وظيفةِ كل حاكم ، وإشراكاً له فى الحكم متى اقتضتْه مجارى أمورِه وأحوالِه ، أو حاجاتُ أسبابِه وأتباعِه ؛ وها هو ذا قد جاء يطلبُ حقَّه ، ، فإن مثلَه لايفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَه الظهورَ والعملَ ، فمدّتْ باعَه وقوّتْ أمرَه ونوّهتْ باسمه لمصالحها وعمَّالها ؛ فهو عند نفسه قد الْتَحَمَ منذ اليوم بالنسب الحكومى ، وفى كلمة واحدة ، هو قد وُلِدَ من بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعبَ لو استردّ سلطتَه الكاملةَ ، وأن الناسَ لو أيقنوا أن الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ والنهى والوسيلةِ والشفاعةِ ، لما بقى من يَعبأ بها ، ولكان حاملُها هو أولَ من يسخر منها ؟

فهى إذن شَعْبَذَة[1] من الحكومة وتضليلٌ فى مثل هذا الرجل الأمىّ ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواه من الكبراء والعظماء ، كأن الوزيرَ

---

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد .

الذى يلقَّب بالباشا ، يجعلُ فيه لقبُه وزيرين ، وكأن مثلَ هذا الأمىّ المغفَّل ، يجعلُ فيه لقبُه شخصًا آخر غيرَ الأمىّ المغفّل . . . .

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقابٍ يتعظَّم بها إلا وهو لايستحقها ؛ وقلما رأيتُ رجلاً يستحقها إلا وهو لايحتاجُ إليها ؛ فأين يكونُ موضعُ هذه الرتبِ والألقاب ؟

ساكنو الثياب . . .

قال صاحبُ سرّ(م) باشا : وجاءنى يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذوى هيئاتِهم وأصحابِ المنزلةِ فيهم ، كلاهما هامةٌ وقامةٌ، وجُبَّةٌ وعمامة، ودَرجةٌ من الإمامة ؛ ولهما نسيمٌ ينفحُ عطراً حسبتُه من تَرويح أجنحة الملائكة ؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرةِ الخضراء فى لَهَبِ الشمس تفىء به يَمْنةً ويَسْرةً . فتوجّهتُ إليهما بنظرى، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعتُ حواسّى كلَّها فى خدمتهما ، وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذى مادتُه الأولى القلب .

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقَدْرِها ببعض الأحياء الذين نراهم فى عالم الترابِ كأن مادتَهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظلُّ والماء والنسيم ، وفيها لأنفسهم الطهارةُ والعلوُّ والجمال ؛ يُثبتون للضعفاء أن غيرَ الممكن ممكنٌ بالفعل ، إذ لا يرى الناسُ فى تركيب طباعهم إلا الإخلاصَ وإن كان حرماناً ، وإلا المروءةَ وإن كانت مشقة ، وإلا محبةَ الإنسانية وإن كانت ألماً ، وإلا الجدَّ وإن كان عناء ، وإلا القناعةَ وإن كانت فقراً .

هؤلاء قومٌ يؤلَّفون بيدِ القدرة ، فهم كالكتب قد انطوتْ على حقائقها وختِمتْ كما وُضِعتْ ، لا تستطيع أن تُخرِجَ للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبهَ حقيقة ولا تزويراً على حقيقة .

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميس الاقتصادية ! فالسماء نفسُها تحتاج فيها إلى سماسرةٍ لعرض الجنَّةِ على الناس بالثمن الذى يملكه كلٌّ إنسان وهو العملُ الطيب .

قال : ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشريعةُ التى لا تتغير ولا تتبدلُ كيلا يتغيرَ الناسُ ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما ، فإذا أحدُهما قد عملَ أبياتاً من الشعر جاء

يمدح بها الباشا ليزدلفَ إليه ؛ فقلت فى نفسى : « ما أشبهَ حَجَلَ الجبان[1] بألوانِ صخرها ! » هذا عالِمُ دنيا يحدُّها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان . . . .

ثم نَشَرَ ورقةً فى يده وأخذ يَسْرُدُ علَىَّ القصيدة ، وهى على رَوِىِّ الهاء ، تنتهى أبياتها : ها . ها .ها . فكان يقرؤها شعراً — أو كما يسميه هو شعراً — وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذى رَكبَ أكتافَ هذا العالم الدينى : ها . ها . ها . . . . .

* * *

قال صاحبُ السر : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدّاح يمدحُ بقصيدته ، وأخذتْ لحيتُه الوافرةُ تهتزّ فى إنشاده كأنها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها المَلَلَ عن عواطف الباشا . . . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسه كصمت الطبيعة حين تَنْفَطِرُ البذرةُ فى داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنما جاء بصاحبه رافِداً وظَهيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغَيثَ ، لتتقلَّبَ الأشياء حول الممدوحِ فيأخذَه السحْر ، فيكونَ جوابُ الشمس على هذه اللغة أن تضىء يومَ الشيخ ، وجوابُ القمر أن يملأ ظلامَه ، وجوابُ الليث أن يفترسَ عدوَّه ، وجوابُ الغيث أن يَهْطِلَ على أرضه .

والباشا لايدعُ ظَرفَه ودُعابتَه ، وكان قد لمح فى أشداقِ العالم المتشاعر أسنانًا صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ ، أحسبُنى لا أكونُ إلا كاذبًا إذا قلت لك : لافُضَّ فوك . . . .

ثم ذكر الآخرُ حاجتَه : وهى رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القرية من ذوى قرابتهِ لا من ذوى عدواتهِ . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جَهْل . . . ؟

* * *

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زيًّا خاصًّا يتميزون به فى الناس ، كأن الدينَ بابٌ من التحرُّفِ والتصرُّف ،

---

[1] هذا مثل عربى ، والحجل : الطائر المعروف ، يكون فى الجبل من لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى .

بعضُ آلتـهِ فى ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم . . . .

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحًا إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً فى واجباتِ عمله كالجندىّ فى معانى سلاحه ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العالم الدينىّ كأداء التحية للثوب العسكرى : معناه أن فى هذا الثوب عملاً ساميًا أولـه بيعُ الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا فى سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموت يَفْرِضُ على الحياة أن تعظِّمه وتجلَّه ، وثوبُ الدفاع تجب له الطاعةُ والانقياد، وثوبُ القوة ليس له إلا المهابةُ والإعزاز فى الوطن .

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم ؟ إنها تُطْعِم صاحبها . . .

أثرُ الجيشِ معروفٌ فى دفاع الأمم العدوةِ عن البلاد ، فأين أثرُ جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوّةِ عن أهل البلاد ، وقد احتلت هذه المعانى وضربتْ وتملكتْ وتركتْ هذا العالم الدينىَّ فى ثوبه كالجندىِّ المنهزم : يحملُ من هزيمته فضيحةً ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنىَّ قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفتَه ؛ فرحم الله هذا الرجل ، ما كان أعجبَ شأنَه ! لكأنه والله سحابةٌ مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسِه طريقٌ لبعض الملائكة . لأشْبَهَ أن يكونَ هذا قولاً .

كان يزورنى أحيانًا فأرانى مُرغمًا على أن أقدِّمَ له مجلسين أحدُهما قلبى. وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً ، إذ لا تراه إلا شعرتَ به يرفعك إلى حقيقة سامية[1] .

رجلٌ نبَتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسالته ، فعواطفُه كالعِطْر فى شجرة العِطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السماء فى زُرقة السماء الصافية ، ، وعظَمَتُه كرَوْعةِ البحر فى منظر البحر الصاخب . وكثيراً ما كان يتعجبُ من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغانى) فيسأله مندهشًا : بالله قل لى : ابنُ أىِّ ملكٍ أنت ؟

---

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلا طويلا تجده هناك .

لم يكن ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أمير ، ولكنه ابنُ القوّاتِ الروحيةِ العاملةِ فى هذا الكون ؛ فهى أعدّته ، وهى ألهمتْه ، وهى أنطقته ، وهى أخرجته فى قومه إعلانًا غيرَ كِتمان ، ومُصارحةً غيرَ مخادعة ، وهى جعلت فيه أسديةَ الأسد ، وهى ألقت فى كلامه تلك الشهوةَ الروحيةَ التى تذاق وتُحَبُّ ، كالحلاوةِ فى الحَلْوى .

هذا هو العالم الدينى ؛ لابد أن يكونَ ابنَ القوّاتِ الروحية ، لا ابنَ الكتُبِ وحدها ، ولا بد أن يَخرجَ بعمله إلى الدنيا ، لا أنْ يُدخِلَ الدنيا تحت سقفِ الجامع . . .

وأنا مما ينقضى عجبى من هؤلاء العلماء الذين هم بقَايا تتضَاءلُ بجانب الأصل ؛ يبحثون فى سُنَن النبى (صلى الله عليه وسلم) : كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبس ويمشى ويتحدّث ؛ كأنهم من الدنيا فى قانونِ المائدة ، وآدابِ الولائم ، ورُسومِ المجتمعات ؛ أما تلك الحقيقةُ الكبرى ، وهى كيف كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ويحارب لهداية الخلْق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتِها ؟ وكيف كان بطباعه القويةِ الصريحة تعديلاً فعّالاً فى هذه الإنسانية للنواميس الجائرة ؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ليكْسِرَ به شِرّةَ النواميس الاقتصادية التى تقضِى بجعل الأخلاق أثرًا من آثار السَّعَةِ والضيق ، فتُخرجُ من الغنىّ متعفّفًا ومن الفقير لصًّا ؟ وكيف استطاع (صلى الله عليه وسلم) بفقره السامى أن يُحوّلَ معنى الغنى فى نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدنيا وترَك ، لا مانال منها وجَمَع ؟ أما هذا ونحوُه من حقائق النبوة العاملةِ فى تنظيم الحياة ، فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد فى الكُتب وشروحِها وحواشيها ، ولكن فى الحياة وأثقالِها وأكدارِها ؛ وبذلك أصبح شيوخُنا من الأمة فى مواضعَ لم يضعهم فيها الدينُ ولكن وضعتهم فيها الوظيفة . . .

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سُئل بعضُ العرب : بِمَ ساد فلانٌ فيكم ؟ قالوا : احتجْنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا . . .

الأخلاقُ المحارِبة

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كنا فى ثورة سنة ١٩١٩ سنةِ الهزَاهِزِ والفتَن، وقد تفاقمت الثورةُ، وأخذ الشبابُ يعملُ ويفكر فيما يستطيع أن يعملَ، وما يجب أن يعمل؛ وكان السَّخْطُ العامُّ هو ميراثَ الوقت، فكانت قلوبُ الشعب تُلهَمُ واجباتِها إلهامًا، إذ لم يكن فى هذه القلوبِ كلِّها إلا لَذْعةُ الدم تعيِّن اتجاهَ أعمالها وتحدِّده.

كانت الثورة زلزلةً وقعت فى التاريخ، فجاءت تحت زمن راكد لا يتغير إلا بأن يُنْسَف، ولا ينسفُه إلا مادةٌ إلهيةٌ كالحركة الكونية التى تخْرِجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم؛ فكان القَدَرُ يعمل بأيدى الإنجليز عملاً مصريا، ويعملُ بأيدى المصريين عملاً آخر.

وتعلم الشعبُ من دفْن شهدائه كيف يَستَنْبِتُ الدمَ فيُنْبِتُ به الحرية، وكيف يزرع الدمعَ فيُخرِج منه العزم، وكيف يستثْمِرُ الحزنَ فيثمر له المجد.

وكان رصاصُ الإنجليز يصيب هدَفين معًا: فيصرعُ شهداءنا، ويقتلُ الموت السياسىَّ الذى احتلَّ معهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعب بالصدمةِ الأولى، فنَشِبَت المعركة التى تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر؛ وشعرت مصرُ فى جهادِها بأنها مصرُ، فالتمس رُوحُها التاريخىُّ رمزَه العظيمَ فى الأمة ليظهرَ فيه عاتيًا جبَّاراً؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيم هو سعد زغلول.

* * *

قال صاحب السر: وكان الطلبةُ قد غدَوا من أول النهار يتظاهَرون، وقد جعلتهم الثورةُ كالأرواح تخلَّصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تباليه، واستقلَّت عن العقل بتحولها إلى شعورٍ محْض، وخرجتْ عن القوانين كلِّها إلا القانونَ الخفىَّ الذى لا يُعلَم ما هو.

كانوا فى معانى قلوبهم لا فى غيرها، فلستَ تراهم إلا عظماءَ فى عظمة المبدإ الذى ينتصرون له، أقوياءَ فى قوة الإيمان الذى يعملون به، أجلاءَ فى

جلال الوطن الذى يحيَوْن ويموتون فى سبيله .

وكانوا فى الشعب هم خيالَ الأمةِ العاملَ المدرك ، وشعورَها الحىَّ المتوثب ، وقُواها البارزةَ من أعماقها ، وأملَها الزاحفَ ليقهرَ الصُّعوبة .

يُفَادُون بأنفسهم الغالية ويُؤْثِرون عليها ، وليس فى أحد منهم ذاتُه ولا أغراضُ شخصِه . فما أجلَّ وما أعظم ! وما أروعَ وما أسمى ! أيتها الحياة ! هل فيكِ أشرفُ من هذه الحقيقةِ إلا حقيقةَ النبوَّة ؟

* * *

قال : وكان أخى هو زعيمَ هؤلاء الطلبة فى مدينتنا ؛ قوىٌّ على الزَّعامة وفىٌّ بها ؛ يحمل قلبًا كالجمرة الملتهبة ، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقَعْقِع به . إذا مشى فى جهاده كان كلُّ ما على الأرض ترابًا تحت قدميه ، فلا يمشى إلا محتقِراً هذه الدنيا وما فيها ، غيرَ مقدِّسٍ منها إلا دينَه ووطنَه ؛ وسلاحُه أن كلَّ شىء فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدَّ الظلم .

وكان فى ذلك اليوم يقود « المظاهرة » ، وحوله جماعةٌ من خالِصته وصَفْوةِ إخوانه ، يمشون فى الطليعة تحت جوّ متَّقدٍ كأن فيه غضبَ الشباب ، عنيف كأنما امتزج به السخطُ الذى يفورون به ، رهيب كأنه مُتهيِّئ لينفجر ؛ فلما بلغوا موضعًا من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرشاش . . .

قال : فإنى لجالسٌ بعد ذلك فى الديوان إذ دخل علَىَّ أخى هذا ينتفضُ غضبًا كأن المعانى تنبعثُ من جسده لتقاتل ، ورأيتُ له عينين ينظر الناظرُ فيهما إلى النار التى فى قلبه ؛ فخشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنون والرصاصَ معًا .

واستنبْأتُه خبرَ أصحابه فقال : إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشحَّطون فى دمائهم ، فوقفَ هو شاخصًا إليهم كأنه ميتٌ معهم ، وقد أحسَّ كأنما خلَع عن جسمه نواميسَ الطبيعة ، فلا يعرف ما هى الحياةُ ولا ما هو الموت ؛ وكان الرصاصُ يتطاير من حوله كأن أرواحَ الشهداء تتلقاه وتُبعثره لا يناله بسوء . قال : وما أنْسَ لا أنسَ ما رأيتُه فى تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد رأيتُ بعينى رأسى الدمَ المصرىَّ يسلِّم على الدمِ المصرىِّ ، ويسعى إليه فيعانقهُ عناق الأحباب .

ثم قال : أين هذا الباشا ؟ وما باله لم يصنع شيئًا فى الاحتياط لهذه الفَوْرة ؟ يكاد الخِزىُ والله ِ يكونُ فى هذه الوظائف على مقدار المرتب . . .

* * *

قال صاحب السرّ : ولم يُتِمّ كلمته حتى خرج علينا الباشا متكَسِّرَ الوجهِ من الحزن قد تغرغرتْ عيناه ، فأخذ بيد أخى إلى غرفته وتبعتُهما ، ثم قال : هَوْنًا ما يا بنىَّ ، إن العلةَ فيكم أنتم ياشبابَ الأمة ، فكلٌّ ما ابتلينا أو نُبتلىَ به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقُكم المتخاذِلة ؛ إننا من غيركم كالمدافعِ الفارغةِ من ذَخيرتها : لاتَصلُح إلا شكلاً ، وبهذه العلةِ كان عندنا شكلُ الحكومة لا الحكومة .

أتدرى يا فتى ما هى الحكومةُ الصحيحةُ فى مثل حالتنا ؟ هى أن تحكموا أنتم فى الشعب حكومةً أخلاقيةً نافذةَ القانون ، فتضْبِطوا أخلاقَ النساءِ والرجال ، وتردُّوها كلها أخلاقًا محارِبةً لاتعرفُ إلا الجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ الحق ؛ وإلا فكما تكونون يُوَلى عليكم . . .

هذا وحده هو الذى يُعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة ، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثيابٌ معلَّقة ليس فيها لابِسوها . . .

كيف يتَصَعْلَكُ المصرىُّ للأجنبى لو أن فى المصرىّ حقيقةَ القوة النفسية ؟ أترى بارجةً حربية تتصعلك لزورق صيدٍ جاء يرتزق ؟

إن فى بلادنا المسكينةِ الأجانب ، وأموالَ الأجانب ، وغطرسةَ الأجانب ؛ لا لأن فيها الاحتلال ، كلا ، بل لأن فيها ضعفَ أهلها ، وغفلةَ أهلها ، وكرمَ أهلها . . . بعضُ هذا يا بنىَّ شبيهٌ ببعض ، وإلا فما هو كَرَمُ الشاةِ الضعيفةِ إلا لذةُ لحمها . . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعةً جديةً صارمةً ، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعرُ ذاتَه التاريخيةَ المجيدةَ فيعملُ فى الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعورٌ لاتحدِثه إلا طبيعةُ الأخلاقِ الاجتماعية القوية التى لاتتساهل من ضعف ، ولاتتسمَّح من كذِب ، ولاتترخَّصُ من غفلة . والحقيقةُ فى الحياة كالحقيقة فى المنطق : إذا لم يَصْدُق البرهانُ على كل حالاتها ، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتها ؛ فإذا كنا ضعفاء

كرُماء ، أعزّاء ، سادةً على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاءُ فقط . . .

إن الكبراءَ فى الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا ، فهم قد تلقّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تُفلحَ حكومةٌ سياسيةٌ فى الشرق الناهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيةً يُمِدُّها من نفسه ومن الشعبِ فى كل حادثة بالأخلاقِ المحاربة .

يا بنىّ ، إن القوىَّ لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير ، لكان معناها للأقوى أكثرَ مما هو للأضعف ؛ فإن هذا القوىَّ الذى يعملُ مع الضعيف يكون فيه دائما شخصٌ آخرُ مختف ، هو القوىُّ الذى يعملُ مع نفسه .

هكذا هى السياسة ؛ أما فى الإنسانية فلا ، إذ يكونُ الحقُّ دائما بين الاثنين أقوى من الاثنين .

خضع يخضع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به : جاء ذاتَ يوم قنصلُ (الدولة الفلانية) من هذه الدولِ الصغيرةِ ؛ التي لو علم الذبابُ في بلادها أن في مصرَ امتيازاتٍ أجنبيةً ، لطمِعَتْ كلُّ ذبابة أن يكونَ لها في بلادنا اسمُ الطيارة الحربية . . . .

ورأيتُه قد دخل عليَّ شامخًا باذخًا متجبِّراً ، كأنه قبل أن يجيءَ إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري — قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيلَ يأمره أن يكونَ مستعدًّا للنَّفْخ في الصُّور . . . .

جَنَى صُعلوكٌ من رعايا دولته على مصريّ ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه ، وقضَى ساعةً أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلةَ الهيِّنَةَ اللينة التي تُحيط بتعريفه من ظاهرِه ، ولا يُشْبِهُهَا في سَخافةِ المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أيِّ مصنع هي في أوربا . . . . فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكونَ حاضراً يشهدُ التحقيقَ ، لأن جنايةَ أجنبيّ على مصريٍّ تقع أجنبية . . . فلها شأنٌ ورعايةٌ وامتياز ، وادعى أن المحققين ضايقوا المجرِمَ وعاسروه وتجهَّموه بالكلام ، ولهذا جاء يحتجّ .

ورأيته جلس متوقِّراً كأنما يشعرُ في نفسه أنه أثْقلُ من مِدفعٍ ضخمْ ، لأن في نفسه وَهْمَ القوة ؛ وخيِّل إليَّ أنه يرى موضعَه بين السقفِ والأرض ؛ إذ يحملُ في رأسه فكرةَ أنه الأعلى ، وكانت له هيئةٌ صريحة في أن الأجنبيَّ المقيمَ هنا ليس هو كلَّ الأجنبي ، بل لا تزالُ منه بقيةٌ تتمِّمُها دولتُه ، وفي الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطق بأن للقانون المصريِّ قانونًا يحكمه في بلاده !

وأنا قد درستُ القانون الدولي ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلُها ، وهي لا تعدو كرَم الأرنبِ التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركَبُه وترتَفِقُ به ، فسألتها أرنبٌ أخرى أن تُرْدِفَها خلفها ، فلما اندفع بهما الحمار استبطأَتْه ،

فقالت لصاحبته : يا أختى ، ما أفْرَهَ حمارَك ! ثم سكتت مدة وأعجبها الحمار فقالت : يا أختى ، ما أفرَه حمارَنا . . .

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلةِ ؛ بحيث لم نبلغ مبلغَ الأرنب فى حكمتها وتدبيرِها وحذرِها ، فإنها أسرعتْ ودفعتْ صاحبتَها وقالت لها : انزلى — ويلكِ — قبل أن تقولى : ما أفرهَ حمارى .

قال : غير أنى فى تلك الساعة نسيتُ القانونَ الدولى وكنتُ فى إلهام مصريتى وحدها ، فظهر لى ظهوراً بيِّناً أن لاشىء اسمُه القانونُ الحقُّ فى هذه الدنيا ؛ ولكنَّ هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكلِّ تسلط ، هو قانونُ هاتين الحالتين بخصوصهما .

وأسرعتُ إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغيَّر وجهَه ، وتبسَّط ، وتهلل ، وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز ، كأنه أخصُّ محبيه يتطلَّع إلى مؤانَستِه ، وقد جاء يزورُه فى داره . ثم دخل القنصل ، ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمةَ الأولى ، وهى قول الباشا : لنبدأ يا سيدى من الآخِر . . .

* * *

وكانت فى الباشا موهبةٌ عجيبة فى اختلاب الأجانب خاصة ، يُديرهم بلَبَاقة كالخاتَم فى إصبعه ؛ حتى قال لى أحدهم : إن لهذا الباشا حاسَّةً زائدةً ، لو سُمِّيت حاسةَ الإرضاء لكان هذا اسمَها الطبيعى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكِّر بتفكيره ؛ فهو يبتكر الأساليبَ الغريبة التى يصعَدُ ويَهبط بها ميزانُ الحرارة النفسية ، وإن جليسَه يكاد يشعر من مَهارته فى التمثيل أن فى جوِّ المكان سِتاراً يُرفع وستاراً يُسْدَل بين الفصول .

فما لبِثَ القنصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عَبَس فى وجهى أنا وتَكَرَّه لى كأنه أصْغَرَ شأنى ، فازدرتْنى عينُه ، فوثبتْ إلى رأسه فكرةُ الامتيازات .

وهذه القوةُ الظالمة (الامتيازات) ؛ لو أنها كانت قوّةً قاهرةً نافذة ، وأُعِينَ بها طُفيْلىٌّ ليقتحمَ دُورَ الناسِ آمناً مطمئناً — لاستحى هذا الطفيلىُّ أن يأكلَ بها ؛ إذ تجمع عليه التطفلَ والمَقْتَ معاً . ولو قيل لحُسامٍ بتَّار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألاَّ تقارِعَك ، وإنك محمىٌّ أن تنالكَ سَطْوَتُها

إذا قارعتَها — لأنِفَ أن يسمّى سيفًا بهذا أو بمثلِ هذا ، فإن القوةَ الظالمةَ التى يُعيرُونه إياها ، ليست إلا مَهانةً لشرفِ القوةِ العادلةِ التى هى فيه .

* * *

قال صاحب السر : ووصفتُ للباشا هيئةَ القنصل التى انصرف بها ، وتقطيبَه فى وجهى ، وقلت له : إن الذبابةَ وقعت فى صَحْفَتى أنا من هذه الوليمة . . . فضحك بملء فيه ، ثم قال :

ستبطل هذه الامتيازات . وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهىَ الشعب إلى حقيقته القومية ، فما تركها فى مكانتها إلا نزولُ الشعبِ عن مكانته ، وتالله لكأن هؤلاء الأجانبَ يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانُكم فى بلادكم . . . ؟

أتدرى ما قاله هذا القنصل حين تَجاذَبْنا الحديثَ فيها، بعد أن وضعتُ نفسى منه فى موضع المحامى الذى يخذلُه الدليلُ ، فيحاولُ أن يستنزِلَ كرمَ القضاة بعَرْضِ بؤس المتَّهم على شفقتهم ، ليستعطِفَ القانونَ الذى فى أيديهم بالقانونِ الذى فى أنفسهم ؟

إنه قال : لا يلومَنَّ الشرقيون إلا أنفسَهم ، فهم علَّموا الأجانبَ أن نتفَ ريشِ الطيرِ أولُ أكلِه . . . وهذه الامتيازاتُ إنْ هى إلا معاملةٌ بيننا وبين طبيعةِ الخضوع فى الشعب . نعم إنها مَضَرَّةٌ ومَعَرَّةٌ ، وظلمٌ وقسوة ؛ ولكنها على ذلك طبيعيَّةٌ فى الطبيعة ؛ فما دام هذا الشعبُ ليِّنَ المأخذِ ، فإن هذا يُوجدُ له من يأخذه ؛ وما دامت الكلمةُ الأولى فى مُعْجَمِ لغته السياسية هى مادة (خَضَعَ يَخْضَع) ، فهذه الكلمةُ تحمل فى معناها الواحدِ ألفَ معنى ، منها : ظلَمَ يظلِم ،وركِب يركَب ، وملَكَ يملِك ، واستبدَّ يستبِدُّ ، ودجَّل يُدجِّل ، وخدَع يخدَع ؛ فهل يكثُر أن يكونَ منها للأجانب امتاز يمتاز ؟

* * *

قال صاحب السر : ثم زمَّ الباشا فمَه وسكت : ففهمتُ الكلمات التى انطبق فمُه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلبَه الضحك فقال : والله يا بنىَّ لو أن بُرغوثًا طَمَرَ من ثوب صُعلوكٍ أجنبيٍّ ، فوقع فى ثوب صعلوك وطنىّ ، فتقاتَلا ،

فقُبض عليهما ، فأخذا – لما رضيَ برغوثُ الأجنبيّ أن يحاكم إلا فى المحاكم المختلطة . . .

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاما آخرَ لايجوز نشرُه ، ثم قال : يا بنيّ ، إن الأجانبَ لايضعون الحمل إلا على من يحمل ؛ فإذا نحن توخّينا مرادَهم أرادوا لأنفسهم لا لنا ؛ وإذا وافقْنا لهم غرضًا جعلوه كالدينار فيه مائةُ قرش ، وأبَوا إلا أن نُصَارِفَهم عليه بمائة . هم – ويحكَ – يمتازون فى معاملتنا لا فى سطورِ القوانين والمعاهدات ، فلنُبْطل هذه المعاملةَ يَبْطُلْ هذا الامتياز .

إن الحقّ يابنى استحقاقٌ لادَعوى ؛ وهذا التنازعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبيعيةَ الانتزاعَ والمطالبةَ والتجردَ له والدأبَ فيه والإصرارَ عليه . وكل الأقوياء يعلمون أن موضعَ الاعتدالِ بين غَصْب الحق وبين استردادِه موضعٌ لامكانَ له فى الطبيعة : والأجنبيُّ يعتمد علينا نحن فى جعله أكبرَ منا وأوفرَ حُرمة ؛ فإذا أسقط الشعبُ هذه الامتيازات من فكره وروحه وأعصابه ، وثارتْ فيه كبرياءُ الوطنية فاستنكَفَ من الاستخذاء ، ونفر من الاختضاع ، وأبى إلا أن يُعلن كرامتَه ، وصرفَ اهتمامَه إلى حقوق هذه الكرامة ، وأصرَّ ألا يعاملَ أجنبيًّا يرى لنفسه امتيازاً على وطنيّ ، وقرر ذلك فى نفسه ، ومكّنه فى رُوعه ، وأجمع عليه إجماعَه على الدين – إذا جاءت (إذا) هذه بشَرْطِها من الشعب ، جاء جوابُ الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة . إننا يا بنيّ لانملك ضغطَ السياسة ، ولكنا نملك ما هو أقوى ؛ نملك ضغطَ الحياة .

لهم الامتيازُ بأنهم أجانبُ عنا ، فليكن لنا الامتيازُ الآخرَ بأننا أجانبُ عنهم فى المعاملة ، مِثْلاً بمِثْل ، وما يفُلّ الحديدَ إلا الحديد .

يقولون : النظام الاقتصادى والمال الأجنبى . ولكن أرأيتَ المالَ فى يد الأجنبى إلا مالاً وتدبيراً وسلطة وسيادة ، من أنه فى يد الوطنى ددَينٌ وإسراف ورِقٌ وذل ؟

لم يظهر لى إلا الساعةَ أن من حكمةِ تحريم الربا فى شريعتنا الإسلامية ، وِقايةَ الأمة كلِّها فى ثروتها وضياعِها ومُستغَلاّتها ، وحمايةَ الشعبِ وملوكهِ من

الإسرافِ والتخرُّقِ والكرمِ الكاذبِ ، وردّ الاستعمار الاقتصادى ، وشلّ النفوذِ الأجنبي .

أمَا لو أننا كتبنا من الأول على أبواب « البنك العقارى» وأبواب ذرّيته : « يَمْحَقُ الله الرِّبا . » فهلْ كانت تُقرأ هذه الكلماتُ الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا : « محالّ خالية للإيجار » . . . . ؟

فلنتعصب . . . !

وقال صاحب سر (م) باشا : جاءنى يوماً صَحَفِىٌّ إنجليزى من هؤلاء الكتاب المتعصّبين الذين تُطلقهم إنجلترا كما تُطلق مدافعَها ؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل ، وأولئك للكَذِب والتُّهم والمغالَطات .

وهو أذُنٌ وعينٌ ولسانٌ وقَلمٌ لجريدة إنجليزية كبيرة ، معروفةٍ بِثِقَلِ وطأتِها على الشرق والإسلام ؛ تُصْلح بإفساد ، وتُداوِى الحمَّى بالطاعون ، وتعمل فى نهضة الشرقيين واستقلالهِم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ الأمّ وهو فى شفتَىْ رضيعِها المسكين .

ودخل علىَّ هذا الكاتبُ فى الساعة التى خرج فيها من غرفتى صاحبُ جريدة أسبوعية فى مدينتنا ؛ كان قد نفخ الضِّفْدَع ليجعلَها ثوراً ، فحوَّلَ صحيفتَه إلى جريدة يومية ، وهو لايجدُ مادتها ولايستطيع أسبابَها ، إلا أنه كدأبِ الناس عندنا كان يحسبُ الكذِبَ فى العمل سَهْلاً مَهْلاً[1] كالكذبِ فى القول ، فلم يتَعاظمْه الأمرُ العظيم ، واقترض لعمله كلَّ ألفاظِ النجاح من اللغة . . .

وظنَّ عند نفسِه أنه سيُخَوِّفُ بجريدته الكبراءَ والأعيانَ والسَّياسيرَ حتى يَغْلبَ على جميعِهم ، ويُشْرِكَ أصابعَه مع أصابعهم فى استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم ؛ فلم تعشْ جريدتُه إلا أياما وأتلف ما جمع ، ورهَن فيها دارَه التى لايملك غيرَها ؛ وعلم آخراً أن الذى يكذبُ فيسمِّى الحروفَ جملاً ، لايقبَل منه أن يكذبَ على الكذب نفسِه ، فيزعمَ أن الناقةَ هى التى نتَجَتْ هذا الحروف . . . .

ولما انقلبت هذه الجريدةُ يومية كان الباشا هو ملجأً الرجل وَوَزَره ، وكان لكل يوم فى الجريدة أخبارٌ عن الباشا لاتقعُ فى الدنيا ولاتُجمع من الحوادث ، ولكن تقع فى ذهن الكاتب ، وتُجمع من صناديق الحروف ؛ حتى قال لى

[1] هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس فى اللغة ، وهو من باب الإتباع كقولهم : حسن بسن ، وشيطان ليطان الخ .

الباشا مرة : إن اسمى قد أصبح موظفاً فى هذه الجريدة لجمع الاشتراك . . . .

وتحرَّى هذا الصحفى أن يستأذنَ يوماً على الباشا وفى مجلسه حَشْدٌ عظيم من السَّراة والأعيان والعُمَد ، وكان جَمَعهم لأمر ، فما هو إلا أن دخل الصَحفى حتى ابتدره الباشا بهذا السؤال : يا أستاذ ، ما هى تلغرافات أوربا عن الحوادث التى ستقع غداً . . . . ؟

فضجَّ المجلس بالضحك ، وفقدَ المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها ، وأعلن الباشا فى أظرف إعلان وأبلغه كذبَ الرجل ونِفاقَه وإسفافَه ، وأنه من رجال الصحافة المدوَّرَةِ تدويرَ الرغيف . . . .

* * *

قال : ونظرتُ إلى الصحفى الإنجليزى نظرةً أكشِفهُ بها ، فإذا أولُ الفرقِ بينه وبين أمثالِه عندنا — شعورُه أن بلادَه قد ربَّتْه (للخارج) ، فهو عند نفسه كأنه إنجليزىٌّ مرتين ؛ ويأتى من ذلك إحساسُه بعزة المالكِ وقوةِ المستعمِر ، فلا يكونُ حيث يكونُ إلا فى صراحةِ الأمرِ النافذِ ، أو غموضِ الحيلة المبهَمة ؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعُه العمليُّ ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقاتِلةِ الفكر ، يلتمسُ مَيدانه بين القُوَى المتضاربة لايبالى أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العمل؛ وبهذا كلِّه تراه نافذَ البصيرةِ قائماً على سَواء الطريق، لأن الإنجليزيَّ الباطنَ فيه يُوجِّه الإنجليزيَّ الظاهرَ منه ويُسَانِدُه ؛ وفى أعماقِ الاثنين تجد إنجلترا ، وليس غيرَ إنجلترا .

ثم تفرَّستُ فى الرجل أريد كُنْهَه وحقيقتَه ، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقفَلة معاً ، كغُرَفِ الدار : الواحدةِ يُفتح بعضُها لما فيه كما يُرى ، ويُقفَلُ بعضُها على ما فيه كيلا يُرى .

وله وجهٌ عمليّ يكاد يحاسِبُك على نظراتك إليه ؛ تدورُ فى هذا الوجه عينانِ قد اعتادتا وزْنَ الأشياء والمعانى ؛ يتلألأ فى هاتين العينين شعاعُ النفسِ القوية المَرِنَةِ ، قد نَفَتِ الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها ، تُمِدُّ هذه النفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأن أكبرَ سرورها فى أعمالها ، فواجبُها فى الحياة أن تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكل ما يحسُنُ منها .

لقد خُيِّل إلىَّ ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزى أن كلمةَ الخيْبَةَ عند هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين ، فإن خيبةَ النفس لا تتم معانيها أبداً فى النفس العاملةِ الدائبةِ ، التى يُشعرها الواجبُ أنه شىء إلهى لا يَخيب ، وأن ما يُرْفضُ على هذه الأرض من العمل الطَّيب لا يُرفض فى السماء .

وكأن الرجلَ قد أدرك غرضى بملَكَته الصحافية الدقيقة ، فأجابنى عن السؤال الذى لم أسأله ، وقال لى مبتدئًا : إن أساسنا الشخصيةُ وحاسةُ الواجب ؛ وإن فيكم أنتم كلَّ شىء إلا هذين ؛ فأخلاقُنا تَظهر دائما فى العمل ، وأخلاقكم تَظهر دائما فى الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة ، وأنتم تطلبون الألفاظ ، حتى إنه لو خَسِر المصرى ألفَ دينار ، ثم أعلن أنها مائةٌ فقط ، وصدَّق الناسُ أنها مائة ؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعَمائة . . .

* * *

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهَّل ورحَّب ؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما ، ولكن الإنجليزىَّ قال : يا باشا ! إنه قد تمكن فى رُوعى أن صاحبَ سرك هذا متعصبٌ دينى ، وقد علمت أنه ابن فلان القاضى الشرعى ، فطر بوشُه ابنُ العمامة ؛ ولقد كان ينظر إلىَّ ، وكأنه يتأملُ من أين يذبحُنى . .

فضحك الباشا وقال لى : يا فلان إن هذا الكاتبَ من تلاميذ برناردشو ، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذَنبًا كذيلِ الهرّ، ثم يمسكُها منه فإذا هى تَعَضُّ وتتلوَّى . . .

والتفتَ بعد ذلك إلى الإنجليزى ثم قال له : جاءنى كتابك فإذا كنت تريد رأيى فيما تسميه التعصب الدينى عند المسلمين ، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطةَ ثم تسألونا نحن فيها ! إنك لتعلم أن هذا التعصبَ الكذبَ الذى أكثرتم الكلامَ فيه ، إنما هو لفظٌ من ألفاظ السياسة الأوربية، أرسلتموه إلينا ليقاتِلَ لفظَ التعصب الحقيقى ؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأَقليات) ، وأجريتموها فى لغتكم السياسية ، لتجعلوا بها لتعصبنا الوطنىِّ شكلا آخر غيرَ شكلِه فتفسدوه

علينا بهذه المادة المفسدة ؛ وبذلك تضربون اليدَ اليمنى من غير أن تلمسوها ، إذ تضربونها بشلّ اليد اليسرى .

إن الإسلام فى نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصب الذى تفهمونه ، فهو يقول لأهله فى كتابه العزيز : « كونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ لله ولو على أنفسِكم أو الوالدَيْن والأقرَبِين » .

فإذا كان العدلُ فى هذا الدين عدلاً صارمًا ، وحقًّا محضًا لا يميِّز بشىء ألبتة ، لا ذات النفس التى فيها اشتهاءُ الدم ، ولا أصلَيها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثةُ الدم ، ولا أطرافَها من الأقربين الذين يلتفُّون حول نَسَب الدم — إذا كان هذا ، فأين فى هذا العدلِ محلُّ الظلم ؟

لعلك تشير إلى هذه الرُّعونة التى تعرفها فى الأغمار والأغفالِ من العامة ، فهذه ليست من أثرِ الدين ، بل هى أثرُ الجهلِ بالدين ؛ إن هذا ليس تعصباً ، بل هو معنى من معانى الحَمِيَّة النفسية الخَرقاء لم تجدوا أنتم له لفظا ، وكان أقربَ الألفاظ إليه عندكم هو التعصبُ ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذى فى نفسه والمعنى الذى فى أنفسكم . ألا فاعلم أن إسلامَ العامة اليومَ هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك .

قال الإنجليزى : ولكنّ لهؤلاء العامة علماءَ دينيين يُدبّرونهم من ورائهم . وهم عندكم ورثَةُ النبى صلى الله عليه وسلم أى منبعُ الفكرة وقوتُها .

قال الباشا : غيرَ أن هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ فيهم عِرقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذى بلغ بنا ما ترى ؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطَّلة : لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أنّ هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباءُ النبوة ، لكَهرَبوا الأمم الإسلاميةَ فى أقطارها المختلفة . إذن لقام فى وجه الاستعمار الأوربى أربعمائة مليون مسلمٍ جَلْدٍ صارمٍ شديدٍ ؛ متظاهرين متعاونين ، قد أعدُّوا كل ما استطاعوا من قوة العلم ، وقوة النفس ، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرين لردموا البحر . . . .

أتريد معنى التعصب فى الإسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول ؛ فهو تَشَابُكُ المسلمين فى أرجاء الأرض قاطبةً ، وأخذُهم بأسباب

القوة إلى آخر الاستطاعة ، لدفع ظلمِ القوة بآخر ما فى الاستطاعة .

وهو بذلك يعملُ عملين : استكمالُ الوجودِ الإسلامىِّ ، والدفاعُ عن كماله .

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسى ، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين على نوعِ الحياة وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ووجودِها فقط . وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز : لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحريةِ ، فأنتم مسلمون فى هذا المبدأ لو عَدَلتم .

أليس من البلاء أن المسلمين اليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعض إلا على الخريطة . . . مع أن الحجَّ لم يُشرَعْ فى دينهم إلا لتعويدهم دراسةَ الأرضِ فى الأرض نفسها لا فى الورق ، ثم ليكونَ من مبادئهم العمليةِ أن العالمَ مفتوحٌ لا مقفل ؟

إن التعصبَ فى حقيقته هو إعلانُ الأمةِ أنها فى طاعة الشريعة الكاملة ، وأن لها الروحَ الحادَّة لا البليدة ، وأن أساسها فى السياسة الاحترام الذاتىُّ لا تقبل غيرَه ، وأن أفكارَها الاجتماعيةَ حقائقُ ثابتة لا أشكالٌ نظرية ، وأن مبدأها هو الحقُّ ولا شيءَ غير الحق ، وأن قاعدتَها « لا يَضُرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتُم » . فالهدايةُ أولاً والهداية آخراً : الهداية فى القوة ، والهدايةُ فى السياسة ، والهدايةُ فى الاجتماع . فقل لى بحياتك وحياة إنجلترا : أيعابُ ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التى يَعيب اللصُّ بها أهلَ الدار لأنهم يُحْكمونَ فى وجهه إقفالَ الباب . . . . ؟

قال : فَوجَمَ الإنجليزىُّ حتى ذُهل عن نفسه وصاح :

إذا كان هذا فلنتعصَّبْ ، فلنتعصَّبْ .

وزْن الماضى

وقال صاحب سر (م) باشا : : إنى لجالسٌ ذات يومٍ وفى يدى كتابٌ لبعض المتفلسفة من ملاحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يُفهم ؛ وكان الباشا قد رآنى مرّة أنظرُ فيه وأتدبّرُ مسائله الغامضة ، فقال لى : يا بنىّ ، إن أحدَ الكلاب كان شاعراً فيلسوفًا ، فنظر ليلةً فى النجوم فراعته وحيّرته ؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرّغ لدرسها مدةً طويلة ، ثم وضع فيها كتابًا نفيسًا ضخْمًا ، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدّها غموضًا عند الكلاب ، وكان اسمُه : العظام المبعثَرةُ فوقنا . . . (١)

قال : فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذى لاصحيحَ فيه إلا أنه غيرُ صحيح . . إذ دخل علىّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاء المدخُولين فى عقولهم، المفتونين بأوربا ومذاهبها وعُلْويّاتها وسُفْلياتها . . . وهو يكتبُ فى الصحُف، ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يَسْتَصْرِخُ الباشا على فلاّحٍ شاركه فى زراعة أرضه ، فزرعَه الفلاحُ فيها وحصَده، ودَهاه بكَيده، وابتلاه بغلْظَته ، وتهدّده بالنقمة .

وكان هذا الفلاحُ الساذَجُ الغريرُ قد سبقَه إلىّ وعرّفه لى تعريفًا قاموسيًّا محيطًا من مادة كَفَر يكْفُر ... ثم قال بعد ذلك : إنه (بيّاع كلام) يَصْدُق ويكْذِبُ حسب الطلب . . . والذمةُ نفسُها ليست عنده إلا (عملية حسابية) ؛ وهو فى أقوى جهاته لاينفع الدنيا بما تنفعُها به البهيمة من أضعفِ جهاتها .

أما الكاتبُ فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدرى أهو يُتمّ بهائمَه أم بهائمُه هى التى تُتمُّه ، وإن الذى يرفعُ القضيةَ على مثلِ هذا المخلوق إلى المحكمة لايكون إلا كالذى يُقَعْقِعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيّةُ السامّة .

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدى ، فتهلّل واستبشر وقال لى : هذا نَسَب بيننا . . فأدركتُ من كلمته هذه جملتَه وتفصيلَه ، وخيِّل إلىّ أنى أرى فيه نفسَه الشرقيةَ كالمرأة المطلقة . . فقلت له : أنا اشتريتُ هذا الكتاب من

---

(١) لا ريب أن المؤلف . . . قد بحث فى كتاب (الوسائل العملية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة . . .

أوربا ، ولكنى لم أشترِ منها دماغى . . .

وكلَّمتُه أستخرجُ ما عنده ؛ فإذا هو فى قومه وتاريخِ قومه كالسائح فى بلادٍ أجنبية : يفتحُ لها عينَه ولا يفتح لها قلبَه .

* * *

وكان جريئًا فى كلامه مع الباشا : يَطَّرِدُ القولَ حيث شاء حقًّا وباطلاً ، ثم لاسنادَ لرأيه ولا تثبيتَ لحجته إلا قولُ فلان ورأىُ فلان ، كأن فى رأسه عقلاً شحّاذاً . . . ثم ذكر آخرَ الأمر ما جاء له ، فخجَّله الباشا وقال : هذه مسألة ككل مسائلك : تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى . . . وأعرض عنه ولم يدخُلْ فى شىء من أمره .

ولما انصرف قال الباشا : يحسبُ هذا نفسَه عالمًا ، وهو صُعلوكٌ علمىّ .. وإنما يكون دماغُه وأدمغةُ أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلَّة المهمَلاتِ عند الصحافيين .

إن هذا الرجل يُتمِّم ضعفَ عقله فى الرأى بقوة عنادِه فيه ، ليجعلَ له ثباتَ الحقيقة فيُظَنّ حقيقة ، كأن خَضْخَضَةَ الماء باليد فى وعاء صغير ينقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعة الموْج ؛ وعند أمثالِ هذا المفتون من الصعاليك العلميّين ، أنك إذا تناولتَ مسألة فأخطأتَ فيها خطأ جريئًا ، فقد جعلتَها بخطئك الجرىء مسألةً من العلم . . . وأنك إذا عاندتَ فثبَّتَ الخطأ فى وجه الناقدين سنة ، كان حقيقة مدةَ سنة . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فِتنتهم أنهم يرَون البعدَ بينهم وبين أهلِ الفضائل الشرقية ، كالبعد بين العالِمِ والجاهلِ ؛ ولو حقَّقوا لرأوه بُعْداً فى الغرائز لا فى العقل ، أى كالبعد بين الفُجور وما أشبهَ الفُجورَ ، وبين التقوى وما أشبه التقوى .

زعم الأحمقُ أن خصمَه الفلاحَ رجلٌ راسخٌ فى الماضى ، كأنه باقٍ فى أمسِ لم ينتقل منه ؛ مع أن أمسِ قد انقطع من الزمن ، ثم خرج من ذلك إلى أن الأمةَ يجب أن تنبذَ ماضيَها ، ثم ادعى أن الإسلامَ يتعصَّب للماضى . هذه

ثلاثُ كلمات تخرجُ منها الرابعةُ التى سكتَ عنها . . .(١)

وأنا لو شئتُ أن أسخرَ من مثل هذا الصُّعلوكِ العلميّ ، لما وجدتُ فى أساليب السخرية أبلغَ من أن أبعثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ وأقول له : املأها لى من آراء الفلاسفة . . .

يغفُلُ هذا وأمثالُه عن أن الدينَ الإسلاميَّ لايعرف الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلم ، وألا يناقضَ الهداية ؛ « قالوا : بل نَتَّبِعُ ما ألفينا عليه آباءَنا . أوَلو كان آباؤُهم لايعقلون شيئًا ولايهتدون ؟ » وفى الآية الأخرى : « قالوا : حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءَنا . أوَلو كان آباؤهم لايعلمون شيئًا ولايهتدون ؟ » وفى الثالثة : « قالوا : بل نتَّبِعُ ما وجدنا عليه آباءنا . أوَلوكان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السَّعير ؟ » وفى الرابعة : « إنا وجدنا آباءَنا على أمَّةٍ وإنا على آثارهم مُقْتَدون . قال : أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم ؟ » .

فانظر كيف صوَّر ما نسميه اليوم بالجمود فى قوله : (حسبُنا) ، وكيف صور ما نسميه بالرجعية فى قوله : (نتَّبع) ، وتأمل كيف رفض الجمودَ والرجعيةَ معًا فى العلم والعقل والهداية ، أى فى آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية ، وكيف أبطل فى تلك الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضى بهذا الأسلوب الدقيقِ العالى ، وهو قولُه فى كل آية أوَلوْ ، أوَلوْ . لم نغيِّرها ؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مرات .

فالمعجزُ هنا مجيءُ الآيات بهذه الصوزة المنطقية لإسقاط حجتهم ، ونفى معنى التقديس عن الماضى فيهنَّ ؛ إذْ كان العلمُ دائمَ التغيُّر ، وكان العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداع ، وكانت الهدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس ؛ فكأنها جديدةٌ على النفسِ عند كل شهوة .

إن الإنسانَ بماضيه وحاضرِه كأنه مقسومٌ قسمين ، يقولُ أحدُهما : أريد أن أكون . ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالإسلامُ بهذه الآيات قد أوجبَ

---

(١) الرابعة التى يستلزمها هذا السياق المنطقى : هى تجرد الأمة من الدين ، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين .

وزنَ الكلمتين فى كل زمن بما هو الأصحُّ ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشتراطه الهدايةَ فى جميعها أشار إلى أن الكمالَ النفسيَّ للفرد يجب أن يكونَ مرتبطًا بالكمال الإنسانيِّ للجنس .

وهذا معنىً عجيب ، وأعجبُ منه ما ترى من أن الإسلامَ قد أصلح فكرةَ الماضى ؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس ، إلى المعانى التى هى كالآباء والأجدادِ لإنسانيةِ الناس . والأخذُ (بالأهدى) فى اجتماعِ أُمةٍ من الأمم ، إنما هو بعينه ناموسُ الترقى والتطوُّر .

ومن أدقِّ الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أُمَّة » فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها ، ولم تفسِّرها إلا علومُ هذا الزمن ، فهى المشاعرُ النفسية التى يتكوّن منها مزاجُ الشعب ، وفيها يستقرُّ الماضى ؛ كأن الآيةَ قد عبَّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس : من أن الإنسانَ ابنُ أبويه وابنُ شعبِه أيضًا .

فالتعصبُ فى الإسلام هو للعلم النافع ، وللمجد الصحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصبُ الجيلِ لمثلِ هذا فى ماضيه ، هو فى اسمِه تعصب ، غيرَ أنه فى معناه إنما هو العملُ لتسليم مجدِ الأمة إلى الجيلِ التالى .

المعجم السياسى

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال : كنا فى سنة ١٩٢٠ ، وهى بنت سنة ١٩١٩[1] ؛ وقد اجتمعت الأمةُ على مقاطعة لجنة (ملنر) لاتكلِّمُها ، فجعلت السكوتَ ثورة ، وأعلن الشعبُ أن كلمتَه فى لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النبى بما يُوحَى إليه ، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولها ، ولا أن يقولَ أُوحى إلىّ . وأبى اللورد ملنر أن يصدّقَ أن للمصريين إجماعا يُعْتَدُّ به ، وأنهم دخلوا فى السياسة دخولاً ثابتًا فرَسَخُوا فيها ، وأنهم أصبحوا مع الإنجليزِ كالإنجليزِ الذين يقولون عن أنفسهم فى مثَلهِم السائر : ينبغى أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه ، أن هذه الأحزابَ المصريةَ لايتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه ، وهو الطمعُ فى مناصب الحكم ؛ واستخرج من ذلك أن المصرىَّ والمصرىَّ كشِقى المِقراض : لايتحركان فى عملٍ إلا على تمزيق شىء بينهما ؛ فإن لم يكن بينهما (الشىء) لم يكن منهما شىء .

وذهب الرجلُ يتَظَنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ له الظن، وقد حسب أن إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ فى المصريين ما يقولُ الله فى خلْقه كما ورد فى الأثرَ : « إنما يتقلَّبون فى قبضتى .» وكما تقول اليومَ لأهل فلسطين من العرب : « إن يشأ يُذْهِبْكم ويأتِ بخلْقٍ جديد » . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارسًا لمشاكل السياسة ، دخّالاً فيها ، داهيةً من دُهاة القوم ، له فى قلبه عينان وأذنان غيرَ ما فى وجهه كحذّاقِ السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسةَ قومه لاتدخلُ فى شىء إلا دخولَ الإبرة بخيطها فى الثوب ، إن خرجت هى تركت الخيطَ وقد جمَعَ وشدّ ... فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين فى إجماعهم على الاستقلال ، وقدّر أنه واجدٌ من الفلاحين عونًا له ومادةً لمكرِه السياسى ، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلةَ اليد

---

(١) سنة الثورة المصرية ، وقد مر وصفها فى مقالة (الأخلاق المحاربة) .

التى تُمْسِكُ القيدَ ، من الرِّجْلِ التى فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة فى كلمة السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشعبَ كالسُّلَّم ينتصبُ قائما بأيديهم ليحملَ أرجلَهم الصاعدةَ عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمةَ كلها قد حَذِرَت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدى باشا بأنه لن يجدَ فى مصر هِرَّةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقنًا أن أذُنَ السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين : صوتِ الدنانير وصوتِ الجماهير ، فمرَّ فى البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانْصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه ، وكان يسير فى دائرة الصمت التى مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأُ حتى انتهى وما زال يبدأ . . . وساح فى البلاد سياحةً طويلة ، وكأنه لم يسافر إلا من شَفَتَة أبى الهول السُّفلى إلى شفته العُليا .

* * *

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ علىَّ مرورَ كتابٍ مقفَلٍ : لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غيرَ أنه رجلٌ بمقدارِ الرجلِ الذى يخالفُ أمةً كاملة تكاد تحسبُه مطوِيًّا على زوبعة ، وترى له قوتين تُحِسُّ من أثرهما الرهبةَ والإعجاب ، وإذا تأملتَه قلتَ إن اللطفَ والظَّرْفَ أضعفُ شمائله ، وإن الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألنى : كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة : ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجىء . .

فضحك الباشا وقال : ياليت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا فى ذات أنفسنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائق السياسية : وهى أن الشعبَ الذى يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ يجعلُ الإغراءَ لا يُغرِى والخوفَ لا يخيف .

وياليتَ الأممَ الشرقيةَ تتعلم هذا الصمتَ السياسىَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحيانًا ؛ فإن صمْتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) ، كان معناه أن قدرةَ الأمة هى المتكلمةُ كلامَها بذا الصمت ، تعلن للعالم أن الواجبَ الشعبىَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم .

وقد فسر اللورد هذا السكوتَ بتفسيره السياسى ، فأدرك منه أن فى الشعب أنَفَةً وحميّةً وقوة ، وأن حسابَ الضميرِ الوطنىّ أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهىّ للنفوس المؤمنة : كلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ وَيُتّقى ، وكلاهما كلمةٌ محرّمة .

أية معجزة هذه التى جعلت كلمةَ الأجنبى تتخذُ فى أذهان أمة كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فرد يعرف محلّه من الكل ، وخضعت الطبائعُ بجملتها لقانون العزة القومية ، الذى يُلزِمها ألا تخضعَ للأجنبى ؟

إن الأممَ بعضُ مسائلُ نفسيةٍ كهذه المسألة ؛ فلو أن لنا خمسةَ دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر) ، لكانت لنا فى الإيمان الوطنى كالصلواتِ الخمس .

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعب العزيزَ هو الذى ينظر فى فَضٍّ مشاكله إلى الحلّ وإلى طريقة الحل أيضًا ، وقد كان (ملنر)هو أول أساتذتِنا فى تعليمنا الطريقة .

وهذا الدرسُ يجب أن يكون درسًا للشرق كله ، فإن السياسة الاستعماريةَ قائمةٌ فيه على خداع الطريقة فى حل مشاكله ، فيحلونها ويعقّدونها فى نصٍّ واحد ؛ ويُثبت الكلامُ الذى يتفقون عليه أن المرادَ منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاوَمة .

وفى السياسة الأوربية موافقاتٌ دميمةٌ كالنساء المشوّهات ، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوّجوه . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الإبصار ، أعفَوه منها وقالوا له : سنأتيك بالجميلة ، ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوى ، فيصقلونها ويصبغونها ، ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضَها ، ثم يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميمةُ غيرَ دميمة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى .

ولهم عقول عجيبة فى اختراع الألفاظ ، حتى لتكونُ شدةُ الوضوح فى عبارة ، هى بعينها الطريقةَ لإِخفاء الغموض فى عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ

منتفخة تُحسَبُ جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها ، وهى فى السياسة ألفاظٌ حُبَالى ، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثم تلد . . .

ولهم من بعض الكلمات السياسية ، كما لهم من بعض الرجال السياسيين ؛ فيكون الرجلُ من دُهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مِسْمَارٌ دَقُّوه فى أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظُ لفظًا كاللغة ، وهو مسمارٌ دقّوه فى وثيقة أو معاهدة .

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضَنا تُخرج القطن ، وسياستَنا تخرج ألفاظًا كالقطن : لاتوضع فى المِغزَل إلا مَدَّت وتحولت . وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير ، لم نجد عندنا المعجمَ السياسى الذى يُملِى النص . أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى ؟

أَمَا إنه لو كان كتابًا يتألفُ من مليون كلمة ، لذهبت كلها عبثًا وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجمُ الحىّ ، ذلك المعجمُ الذى يتألف من مليون جندى . . . .

اللسانُ المُرَقَّع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة» فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصريٌّ وُلد فى بعض القُرى، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزه بجوهر غير الجوهر ، ولاطبْع غير الطبع ، ولاتركيبٍ غير التركيب ، ولازاد فى دمه نقطة زهوٍ ، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بإنجلترا ، وساح فى إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوَّن نفسه ألوانًا ، فهو مصريٌّ ملوَّن . ومن ثم كان لايرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغامر فيها ، ولا لغةُ قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه . . . كالميت بين تواريخ الأمم .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين : مصريٌّ المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستَغَلاَّتهم فى مصر ؛ عربيٌّ الاسم لاغير ، إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة ؛ مُسلمُ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذكان لا حيلة فى أنسابهم التى انحدروا منها .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين المفتونين بالمدنية : الكل منهم جنسه المصرىّ ولفكره جنس آخر .

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التى تلعنها العربية ، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًّا . . . نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عاليًا . . . فكان يرتضخ لكنة أعجميةً ، بينا هى فى بعض الألفاظ جرسٌ عال يطن ، إذا هى فى لفظ آخر صوت مريض يئنّ ، إذا هى فى كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن. ورأيتُه يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لاتظرُّفًا ولاتملحًا ولا إظهاراً لقدرة أوعلم، ولكن استجابة للشعور الأجنبى الخفى المتمكن فى نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنية لسانه ، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه .

* * *

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍّ لهذا وأمثال هذا ! أفٍّ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قروىّ ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » . . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهلُ وطنية .

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقّع)هذا ؟ إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهِينة ، وأنه متُجرد من الروح السياسى للغة قومه ؛ إذ لا يظهر الروح السياسى للغةٍ ما ، إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها .

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم فى بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها ، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » ، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة .

أتدرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ فى طباعهم ، مما تركه الظلم والاستبداد والحمق فى زمن الحكم التركى ؛ فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق فى الدم . . . وهم بها يتنبّلون .

وأما طبقة ، فإنهم يتكلفون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسى فى عهد الاحتلال الإنجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة ، وهم بها يتمجدون .

وأما جماعة، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها ، إذِ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم

العالم بعلوم أوربا ، والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى ، إذ جعل هذه اللغة حكومةً باقية فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، إذ يغلون فى مصريتهم غلوًّا قبيحًا ينتهى بهم إلى سفه الآراء ، وخفة الأحلام ، وطيش النزعات ، فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُه من حيث هو رقيعٌ ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقتٌ « كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا » .

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة ، تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس ؛ فهم يُقحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ، ويحسبون عملهم هذا تظرفًا ومعابثةً ومجونًا ، على أنه هو الذى يظهرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم ، وأماكن الفساد القومى فى طبيعتهم ، وجهاتِ التحلل الدينى فى اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم : (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة ، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا ؛ ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافةَ بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم .

وما برح التقليدُ السخيف لايعرف له بابًا يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدِّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين ، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم ، إذ كانت هى الأسهلَ علينا ، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون .

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية — على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا

أصعبَ وأشدّ ، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شيء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا .

* * *

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غيرِ عاملة . .

سرُّ القُبَّعَة

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال نَجَمَتْ في مصر حركةٌ بعقب أيام البدعة التركية ، حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدةَ الواحدةَ التي تقررها المشانق . . . فمن أبى أن يخلع العمامةَ عن رأسه خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقةً فعلِّق فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القبَّعة في تركيا غطاءً للرأس ، قد جاءت بعد نَزَعات من مثلها كما يجيء الحذاءُ في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشكَّ أحدٌ أنها ليست قبَّعةً على الرأس أكثرَ مما هي طريقةٌ لتربية الرأسِ المسلم تربيةً جديدةً ، ليس فيها رَكعةٌ ولاسَجْدة ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعةَ على رأس الزنجيِّ والهمَجيِّ ، وعلى رأس الأبله والمجنون . فما رأيناها جعلت الأسودَ أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولازعم أحدٌ أنها أكملت العقلَ الناقص أو ردَّت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلةً لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غَصَبَت الطبيعةَ شيئًا وقالت : هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة .

وقد احتجُّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لايرى الوجهَ إلا المدنية ، ولا يعرف المدنيةَ إلا مدنيةَ أوربا ، فهو يمتَثِلُها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يَحلُّ وما يَحرُم ، وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنيً عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُوراً بالطبيعة ، لجعل هو قومَه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين . . . نعم إنها حجةٌ تامة لولا نقصٌ قليل في البرهان ، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية ، يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبَّعاتٍ ، ليشبهوا الأوربيين . . .

* * *

قال صاحب السر : وتهوَّر في هذه الضلالة رَهْطٌ من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه ، فكان رأيُه (لا ، بمدِّ الألِف . . . وعهد إليَّ بعضهم أن أسأل الباشا ، فقال :

ويْحهم ! ألاَ يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلِّدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل ، فكأنها بدعتان[1]. ثم ضحك الباشا وقال : كان فى القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافعٌ للصفراء ، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله : ازرع لى بصلاً بخلّ . . . هكذا يريدون من القبعات : أن تُخرِج لهم تركيا بأوربيين .

ليست هذه القبعة فى تركيا هى القبعة ، بل هى كلمةُ سبٍّ للعرب وردٌّ على الإسلام . ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيِّنةً ، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحْده . وهى إعلانٌ سياسى بالمناوأة والمخالفةِ والانحراف عنا واطِّراحِنا . فإن الذى يخرج من أُمَّته لا يخرج منها وهو فى ثيابها وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج فى القبعة دون غيرها مما يجرى فيه التقليدُ أو يُبدِعُه الابتكار ؛ وإلا فأى سرٍّ فى هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين . . . . ؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصًّا فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتّار ، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه ؛ ثم صنع ما يصنع المِقَصُّ ، فماذا عساه يأتى به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعًا ؟

أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث فى التقليد الأعمى ، وألاّ يحيا الشرقىّ إلا مستعبَداً ينتظر فى كل أموره مَن يقول له : اشْرَعْ لى . . . ؟ إنْ بحثْنا فلْنبحثْ فى زِىٍّ جديد نتميَّز به ، فتكون القُوَى الكامنة فينا وفى طبيعة أرضنا وجوِّنا هى التى اخترعتْ ظاهرِها ما يجعله ظاهرَها ، كما يُخرج زَوْرُ الأسدِ لِبْدَةَ الأسد ، غايةً فى المنفعةِ والجمالِ والملاءمة .

أنا ألبس ما شئت ، ولكنى عند القبّعة أجدُ حدًّا تقفُ إليه ذاتيّتى الفرديةُ ، فلا أرى ثَمّةَ موضعَ انفراد ولكن موضع مشاكلة ، ولا أعرف صفةَ منفعةٍ لى بل صفةَ حقيقةٍ منى ، ويعترضنى من هناك المعنى الذى يصيرُ به النوعُ إلى الجنس ، والواحدُ إلى الجماعة . وما دمتُ مسلمًا أصلِّى وأركع وأسجد ، فالقبعةُ نفسُها تقول لى : دعنى فلستُ لك .

---

(١) الأصل تقليد تركيا لأوربا ، وهذه بدعة ؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأولى .

وهؤلاء الرجالُ الذين لبسوها فى مصر ، إنما اشتقُّوها من المصدر نفسِ المصدر الذى يَخرج منه التهتكُ فى النساء ، وكلاهما مَنزَعٌ من المخالفة ، وكلاهما ضدٌّ من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عامة . وليس يَعدم قائلٌ وجهاً من القول فى تزيين القبعة ، ولا مذهباً من الرأى فى الاحتجاج لها ، غير أن المذاهب الفلسفية لايُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أن حياء المرأة وعفتَها إنْ هما إلا رذيلتان فى الفن . . . وإن هما إلا مرضٌ وضعف ، وإن هما إلا كيت وكيت ، ثم تنتهى الفلسفة إلى عدّهما من البلاهة والغفلة ، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدنيا أن تُقحِمَ فى كتاب الصلاة مثلاً فصلاً فى . . . فى . . . فى الدّعارة .

لايهولنَّك ما أقرر لك : من أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصرى ، تهتُّكٌ أخلاقىّ أو سياسىّ أو دينىّ أو من هذه كلها معاً ، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب ، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عُقَدِها ، وبعد أن قاربت الحريةُ العصريةُ بين النقائض حتى كادت تختلط الحدودُ اللغوية ؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادقَ والكاذبَ بمعنى واحد ، فلا يقال : إلا أنه وجد منفعتَه فصدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء ، وفضيلةُ القدماء ، ودينُ القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين ، هى أيضاً فى المعجم اللغوى الفلسفى الجديد مترادِفاتٌ لمعنى واحد ، هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة .

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعانى ، كان طبيعياً أن يلتبسَ شىءٌ بشىء وأن يَحلّ معنى فى موضع معنىً غيره ، وأصبح الباطلُ باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر ، فلا يحكم الناسَ إلا مجموعةٌ من الأخلاق المتنافرة ، تجعل كلَّ حقيقة فى الأرض شبهةً مزوَّرةً عند من لاتكون من أهوائه ونزَعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً ، فيكسِبون القانونَ بمدنيتهم قوةً همجية تضطره أن يُعِدّ للوحشية الإنسانية ، وتدفعُ هذه الوحشية أن تُعِدّ له .

ومن اختلاط الحدود تجىء القبعةُ على رأس المسلم، وماهى إلا حدّ يطمِسُ

حداً ، وفكرةٌ تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة : هأنذى قد جئتُ فاذهبي .

ما هو الأكبر من شيئين لاحدّ بينهما لتعيين الصِّغر ؟ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدّ بينهما لتعيين الكبر ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له فى التمييز ولا مقرّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوام أكبرَ كلمات الإنسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغَها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماعَ الإنسانى وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لايسعه فلا حدّ له ، وكأنه معنى مُتوهَّم لاوجود له إلا فى أحرف كلمته .

فجماعة القبعة لايرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أودينننا أو شرقيتنا ؛ وقد مرَقُوا من كل ذلك وأصبحوا لايرون فى زِينا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى الذى يلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعانى أسلافنا .

وأنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانونٌ من قوانين التطور ؛ فهو فيما يلابِسُه لاينظر إلى أنه واحد من الناس ، بل واحدٌ من النواميس . . .

ومن هنا التثقّل والدعوى الفارغةُ ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى . وإنه لحقٌّ أن يكونَ بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبحَ ما فى الباطل أن يظن كلُّ إنسان نفسَه نبياً .

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوربية ، إن هو إلا منطقُ شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلم عن الطعام ، فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها . . .

سعد زغلول

وقال صاحب سرّ (م) باشا : ألقى إلىّ الباشا ذاتَ يوم أن (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً[١] ، وكانت بين الرجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطيدة . وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشُّعلةَ فى بركانها ؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التى جعلته رجلاً فى إحدى يديه السِّحرُ وفى الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغةِ من كلماتِ اللغةِ : يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه فى تعريفه ، ولاتصح الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها .

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً ، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لاتشبهها القُبلات ، إذ مُثِّلَتْ لى من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعتْ على تلك اليد .

إن الرجل العظيم إذا كان بارًّا بأبيه عارفاً قدرَه مُدرِكاً عظمتَه ، يشعر حين يقبِّل يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التى يقبلها ، ويجد فى نفسه اتصالاً كهربائيًّا بين قلبه وبين سرّ وجوده ، ويَخُصُّه العالَمُ بلمسةٍ كأن قُبلتَه نبضتْ فى الكون : وكل هذا قد أحسسته أنا فى تقبيلى يدَ سعد ، وزدتُ عليه شعورى بمثل المعنى الذى يكون فى نفس البطل حين يقبّل سيفَه المنتصر .

وضحك لى سعد باشا ضحكتَه المعروفة ، التى يبدأها فمُه ، وتتممها عيناه ، ويشرحها وجهُه كلُّه ، فتجد جوابَها فى روحك كأنه فى روحك ألقاها .

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له ابتسامةً كأنها كمالٌ يتواضع ، فيُحس كأن شيئًا غيرَ طبيعى يتصل منه بشىء طبيعى ، فينتعشُ ويثبُ فى وجوده الروحىّ وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طربًا أو إعجابًا أو خشوعا أو كلها معًا . غير أن الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعد وهو يضحك ضحكتَه المطمئنةَ المتمكنةَ من معناها المقِرِّ أو المنكرِ أو الساخرِ أو أىِّ المعانى — حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامةُ الفلسفية

---

(١) يقال : صبحه (بتشديد الباء) ، أى جاءه صبحاً .

متكلمةً ، كأنها مرةً تقول : هذا حقيقى . ومرة تقول : هذا غير حقيقى .

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنىٌّ إلا بعين فيها دلائلُ أحلامها ، كأنما هو شخصُ فكرة لاشخصُ إنسان ؛ فإذا أنت رأيتَه كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك ؛ فأنت تَشهدُه بنظرين : أحدُهما الذى تُبصِرُ به ، والآخر ذاك الذى تؤمنُ به .

عبقرىٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق ؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريحٌ كصراحة الرسُل ، تلك التى معناها أن الأخلاق تقول كلمتَها .

رجلُ الشعب الذى يُحِسُّ كلُّ مصرى أنه يملك فيه مِلكًا من المجد . وقد بلغ فى بعض مواقفه مبلغَ الشريعة ، فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى فى الحياة ، وانزِعوا هذا المعنى من الحياة .

* * *

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لى : والله يا بنىَّ لكأنما زاد هذا الرجلُ فى ألقاب الدولة لقبًا جديداً ، ثم ضحك وقال : أتدرى ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟

قال : والله يا بنى ما من (باشا) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد ، إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) . . .

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغًا تَصَاغر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ، وتقاصَر الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقوامًا من خصومه العظماء ، كفلان وفلان ، وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفِه وتَطَرُّحِه ، كأنه ظلُّ رجلٍ لا رجل .

وقد أصبح قوةً عاملةً لابد من فعلها فى كل حىٍّ تحت هذا الأُفق ، حتى كأن معانىَ نفسِه الكبيرة تنتشر فى الهواء على الناس ، فهو قوة مرسَلة لاتُمسَك ، ماضيةٌ لاتُردّ ، مقدورةٌ لايُحتال لها بحيلة .

هذا وضْعٌ إلهى خاصٌ لا يشبهه أحدٌ فى هذه الأمة ، كميدان الحرب

لاتشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامَر سعدٌ فى الثورة العرابية وخرج منها ، ولكنها هى لم تخرج منه ؛ بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ ، وتُصلح أغلاطَها ، ثم ظهرت منه فى شكلها القانونى الدقيق . وبهذا تراه يَغْمُر الرجال مهما كانوا أذكياء ؛ لأن فيه ماليس فيهم ، وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتةً فى معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية .

وتلك الثورة هى التى تتكلم فى فمه أحيانًا فتجعل لبعض كلماته قوةً كقوة النصر ، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أبًا للثورة — حرمته القدرةُ الإلهية النسلَ ، وصرفت نزعةَ الأبوّة فيه إلى أعماله التاريخية ، ففيها عنايتُه وقلبُه وهمومُه ، وهى نسلٌ حىٌّ من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حولَ أشباله .

ولن يُذكَر السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسيًّا ، فإن المكانَ الحالىَ فى الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لارجلِ السياسة ، وهذا هو السبب فى أن سعداً يُشْعِر الأمةَ بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار ، وإن لم يفز بشىء ولم ينتصر على شىء ؛ فاطمئنانُ الشعب إلى زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .

وسعد وحده هو الذى أفلح فى أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة ؛ فنسخ قوانينَ ، وأوجد قوانين ، وحمل الشعبَ على الإعجاب بأعماله العظيمة ، فنبّه فيه قوةَ الإحساس بالعظمة فجعله عظيما ، وصرفه بالمعانى الكبيرة عن الصغائر ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعَه فيه .

إن هذا الشرقَ لايحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغربُ بإزائه ؛ والفريسةُ لا تتخلص من الحلْقِ الوحشىّ إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية فى هذا الحلق .

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيراً ، فتكون الوظيفة هى الوزيرَ

لانفسُ الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابَه على خشبة ونصَّبوها فى كرسيه ، لكانت أكثرَ نفعًا منه للأمة ، بأنها أقلُّ شرًّا منه . . .

يا بنىّ ، كل الناس يرضَون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هى مسألةَ الشرق ، ولكن المسألة : مَن هو النبى السياسىُّ الذى يرض أن يُصْلَب . . . ؟

حماسة الشعب

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوربا فى سنة ١٩٢١ ، كانت الأمةُ فى استقباله كأنها طائر مدّ جناحيه ، لاخلافَ لشىء منه على شىء منه ، بل كلّه هو كلّه ؛ وكانت المعارضة فى الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رُقعةٍ فى ريش الطائر .

على أن ثوبَ السياسة المصرية كثيرُ الرُّقع دائماً بالجديد والخَلَق ، فرقعةٌ من المعارضين ، وأخرى من المتعنّتين ، وثالثةٌ من المتخاذلين ، ورابعة من المعادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلم ومالا نعلم ، فإن من العجيب أن هذا الجو الذى لايتقلب إلا بطيئًا ، يتقلب أهلُه بسرعة ؛ وهذه الطبيعة التى لاتكاد تختلف ، لايكاد أهلها يتفقون .

ولكن سعداً (رحمه الله) رجع من أوربا رجعةَ الكرامة لأمة كاملة ، ففاز بأنه لم يخسر شيئًا من الحق ، وانتصر بأنه لم يُهزم ،ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع ، وذهب صَولةً ورجع صَولةً وعزيمة ؛ فكان إيمانُ الشعب هو الذى يتلقاه ، وكانت الثورةُ هى التى تحتفل به ، وبطلت العللُ كلّها فلم يجد الاعتراضُ شيئًا يعترض عليه ، واتفقت الأسبابُ فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثّلاً فى قدرة ، حاكماً بقوة ، متسلطًا بيقين .

نعم لم ينتصر البطلُ ، ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار ؛ فكانت حماسة الشعب فى ذلك اليوم حماسةَ المبدإ المتمكن : يُظهر شجاعةَ الحياة ، وفَوْرةَ العزائم ، وفضيلةَ الإخلاص ، وشدةَ الصولة ، وعنادَ التصميم ؛ ويثبت بقوة ظاهره قوةَ باطنه ، وكان فرحُ الأمة عناداً سياسيًّا يفرح بأنه لايزال قويًّا لم يَضعف ، وكان ابتهاجُها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم يُنْتَقَص ، وكان الإجماعُ ردًّا على اليأس ، وكانت الحماسةُ ردًّا على الضعف .

انبعثت صولةُ الحياة فى الشعب كلّه ، وابتدأ المستقبلُ من يومئذ ، فلونزلت

الملائكةُ من السماء فى سحابة مُجَلْجِلة يسمَعُ تسبيحُهم ليؤيدوا سعداً — لما زادوه شيئًا ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديقُ مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعة موقوفةً عليه كأنه الباعثُ الطبيعى ، وكان البطلُ فى كل ذلك يشبه نبيًّا من قِبَل أن كلاً منهما صورةٌ كاملة للسموّ فى أفكار أمة .

* * *

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس ، وصحةِ العهد ، واجتماعِ الكلمة ، وإعدادِ الشعب للمِراس والمعاناة ، فقال :

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصرَ الجبارة متى شاءت بنت الرجالَ على طريقة الهرم الأكبر فى العظمة والشهرة والمنزلة والقوة . ولقد صنع هذا الرجلُ العظيم ما تَصنع حربٌ كبيرة ، فجمع الأمةَ كلها على معنى واحد لايتناقض ، ودفعها بروح قومية واحدةٍ لا تختلف ، وجعل عِرقَ السياسة يفور كما يفور العرقُ المجروحُ بالدم .

إن هذه الأمةَ بين شيئين لاثالثَ بينهما : إما الحزمُ إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعبُ كما ظهر اليوم : طوفانًا حيًّا ، مُسْتَوِىَ الطبيعة ، مندفع الحركة ، غامِراً كلَّ ما يعترضه ، إلى أن يُقضَى الأمر ويقول أعداؤنا : يا سماء أقلعِى .

هكذا يعمل الوطنُ مع أهله كأنه شخصٌ حىٌّ بينهم ، حين يستوى الجميع فى الثقة ، ويتآزر الجميعُ فى الأمل ، ويشترك الجميعُ فى العطف الروحى ، ولايبقى لجماعة منهم حظٌّ فى رغبة غيرِ الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبوننا ذبابًا سياسيًّا لاشأنَ له إلا بفَضَلات السياسة ، ولا عملَ له فى أزهارها وأثمارها وعِطْرها وحَلواها ؛ فأسمعهم الشعبُ اليوم طنينَ النحل ، وأراهم إِبَرَ النحل ، ليعلموا أن الأزهارَ والأثمارَ والعطرَ والحلوى هى له بالطبيعة .

وكانوا يتخرّصون أن مذهبنا فى الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأن المصرىّ حاكماً أو محكوماً لا يمتدُّ آماله الوطنيةَ إلى أبعدَ من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيديَنا فى حاضر الأمة أطلقنا أيديَهم فى مستقبلها . ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ فى نفسه حقًّا تامًّا فى أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسىّ المصرى لايتجرأ أن يقول ما يقوله السياسىُّ الأوربى : من أنه لايخشى الموتَ ولكنه يخشى العار . فإنه إذا مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته ، بَيْدَ أن سعداً قالها ؛ وفى مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة .

وها هى ذى معركةُ اليومِ التاريخية ، فإن الذرّاتِ الحيةَ التى تُخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت فى هذه الدماء، فى هذا النهار ، تعلن أنها لاترضى أن تولَد مقيَّدة بقيود .

أتدرى ماذا عرضوا على سعد ؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه فى السخرية طاحونةً تامةَ الأدوات والآلاتِ من آخر طراز ، ثم لاتُقدَّم لها إلا حبةُ قمح واحدة لتطحنَها . . . . نتيجةٌ تسخر من أسبابها ، وأسبابٌ تهزأ بالنتيجة .

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أرى للسياسيين فى هذا الشرق عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بالفائدة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرقى ، ثم حياطتِها وحسنِ توجيهها ؛ فهذه الحماسةُ الشعبيةُ الدائمةُ القويةُ البصيرةُ ، هى قوةُ الرفض لما يجب أن يُرفَض ، وقوةُ التأييد لما يجب أن يُقبَل ، وهى بعد ذلك وسيلةُ جمع الأمرِ ، وإحكامِ الشأن ، وإقرارِ العزيمة فى الأخلاق ، وتربيةِ الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاءُ الحسِّ وتعويدُه إدراكَ الأعمال العظيمة ، والتحمسَ لها ، والبذلَ فيها .

وما علةُ العللِ فينا إلا ضعفُ الحماسة الشعبية فى الشرق، وسوءُ تدبيرها ، وقبحُ سياستها ؛ وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم ؛ فنأخذ كلَّ ذلك بروحنا الفاترة فى خمول وإهمال وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بالمصلحة واستبدادٍ بالرأى ، فإذا دينارُهم فى أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم فى الشىء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة . . .

ليست لنا حماسةُ الحياة ، وبهذا تختلف أعمالُنا وأعمالُهم ، وذلك هو السرُّ أيضاً فى أن أكثر حماستنا كلاميةٌ محْضةٌ ؛ إذ يكون الصراخُ والصياحُ والتشدُّقُ ونحوُها من هذه المظاهر الفارغة — تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا ، وتنويعاً منها بغير أن نجهدَ فى التنقيح والتنويع . ومن هذا كانت لنا أنواعٌ من الكلام ينطلق اللسانُ فيها للخروج من الصمت لاغير . . . ومنه كثير من هذا الهُراءِ السياسىِّ الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف .

إن حماسة الشعب لاتكون على أعدائه فقط ؛ بل على معايبه أيضاً ، وعلى ضَعفه بخاصَّة ، والشعبُ الفاترُ فى حماسته لونال حقين مغصوبين لعاد فخَسِر أحدَهما أو كليهما ، أما الشعب المتحمس القوى فى حماسته ، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدَهما لعاد فابتزَّ الآخر .

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض عملى فى الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقبَ الحركاتِ والسكَنات ، وأبثَّ العيونَ والأرصادَ ، وأعرفَ المضطَرِب والمنقلَبَ فى أيام الفِتَن ونوازلِ المحنةِ ، محافظةً على الأمن، ومبادَرةً لما يُتوقع ؛ فكنت كالمرصدِ المهيَّإ بآلاته لتدوين حركاتِ الزلازل .

وانتهى إلينا يومًا أن راجفةً من هذه الزلازل سترجُف بفلان من أهل الرأى الحر ؛ الذى يَستقِلُّ ولا يُتابِعُ ، وينتقد ولا يُحابى ، ويُصرِّح ولا يُجَمْجِمُ ، وأن قومًا ثوَّروا عليه الغُبارَ الآدمىَّ من العامة وأشباهِ العامة ، وأنهم يتحيَّنون الوقتَ لتوجيه المكيدةِ له فى شكلها المفترِسِ من هذا الجمهور الناقم .

أما فلان هذا فرجلٌ سياسىٌّ عنيد أضاع الحقَّ كلَّه لأنه لايرضى بنصف الحق . . . وكلمتُه فى السياسة كأنما تُلقَى على لسانه من الغيب ؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم ؛ وقد ذهب بصوته أنه فى قوم لايسمعون إلا ما أردوا ، فهو بينهم كالحق المغلوبِ : لايموت لأنه غيرُ باطل ، ثم لايحيا لأنه لاينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج فألقَوا عليه الغِطاء، فإذا هو فى طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحرُّ الصريحُ كالنبىِّ المكذَّب يَردُّ صِدقُه ؛ لا لأنه غيرُ صدْق ، ولكن لأنه غيرُ مستطاعٍ ، أو غيرُ ملائم .

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرئ العداوةَ ، وننقادُ لأسبابها ، ونتطاوَعُ لها تطاوُعَ الصغار بأنفسهم لما فى أنفسهم ؛ كأن المستبدين الذين كانوا فى تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا ؛ فرَدُّ الفكرِ على الفكر فى مناقشةٍ تَجرى بيننا — لايكون من دَفْع الحقيقة للحقيقة ، ولكن من رد الاستبدادِ على الاستبداد ، ومن توثُّب الطغيان على الطغيان ؛ فهو الثَّلْبُ ؛ والطعنُ والتجريح ، وهو الجَفْوةُ والخصومةُ والَّلدَد ، وهو المنازَعةُ والعنفُ والتحامل ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط . والجدالُ بين العقلاء يبعثُ الفكرَ فينتهى إلى الحق ، ولكنه فينا نحن يَهيجُ الخُلُق فينتهى إلى الشر ، والردُّ على عظيم منا كأنه

يردٌ على منزلته فى الناس لا على منزلته فى الرأى ، وكشفُ الخطأ عندنا تعييرٌ بالخطأ لاتبصيرٌ بالصواب ، واستِلابُ الحجَّةِ من صاحبها وإفسادُها عليه كاستلاب الملك من مالكه وطرده منه . . .

ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة العاجزة ، وكان الإعناتُ دليلاً للدليل الذى لاينهضُ بنفسه ، ومتى اعتبر كلُّ إنسان نفسَه إمبراطوراً على الحق ... فلا جَرَمَ لا تَرِدُ كلمةٌ على كلمةٍ إلا بحرب .

* * *

قال صاحبُ السر : وكَبُرَ الأمرُ على الباشا ، فجمع رءوسَ المؤتمِرين بذلك الرجل الحر ، وأخذ يقلِّبهم تقليبَه بين التودُّد والملاطفة ، وقال لهم فيما قال : إن فضيلة الجمهور هى التى تضمن تربيةَ الفضيلة وحفظَها وغلَبتَها على الرذائل ، وإن كلَّ صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحًا ، وإن غيرَ العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقةَ فى يوم ثم يرفضونها هى ذاتَها فى يوم آخر ، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها — قالوا : هذا كان أمس . . . فكأنماالفاصلُ بين زمنين يجعل الشىء الواحدَ ضِدَّين .

ثم سألهم : ما هو ذنبُ الرجل ؟ فقال منهم قائل : إنه خارجٌ علينا فىالرأى . فقال الباشا : إن المعنى فى أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ؛ فقد تكافأت الناحيتان ، وخلافٌ بخلاف ؛ فما الذى جعل لكم حقَّ رده عن الرأى دون أن يكون له مثلُ هذا الحق فى ردكم أنتم ؟

قالوا : إننا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائى ، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأ المعنيَين فى تفسير رأيها هى ؛ وعشرةُ جنيهات لاتعبأ بالجنيه الواحد ، فإنها تستغرِقهُ ؛ بَيْدَ أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائى . . . .

نعم إن قطْعَ الخلاف ضرورةٌ من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر فى ظاهره وباطنه كالخلاف فى أيِّهما أطولُ : العَصا أو المِئذنة . . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال .

إن أساسَ انخذالنا نحن الشرقيين فى قلوبنا ، إذ لا نعتبر المعانىَ العامةَ إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجالَ إلا من ناحية ما فى أنفسنا منهم ، ثم لانعتبر أنفسَنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يغضبنا ، وقد لايغضبنا إلا الحقُّ والجِدُّ ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ والتهاون ، ولكنا لانبالى إلا ما نرضى وما نغضَب .

لستم أحراراً فى أن تجعلوا غيركم غيرَ حر ، فإن يكن الرأىُ الذى يعارضكم رأيًا حقًّا وتركتم مُنَابذَتَه فقد نصرتم الحق ؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحق الذى أنتم عليه ؛ ولن تجرّدوا أحداً من اختيار الرأى إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدَّعى أنها الحق ، ثم تدَّعى لنفسها حكمه ، فقد كذَبتْ مرتين .

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة فى صحيفة من الصحف ، وتسَاجَلا فى مقالاتٍ عِدّة ، فلما عجز أضعفُهما حجةً وكَعَمه الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه فبيَّتَها ونام عنها على أن يرسلها من الغَداة بعد أن يُردد نظره فيها ويصححَ آراءه بالحجج التى يُفتح بها عليه . قالوا : فلما نام تمثَّلت له المقالة فى أحلامه جسما حيًّا موهونًا مترضضًا ، مخلوعًا من هنا مكسوراً من هناك ، مجروحًا مما بينهما ؛ ثم كلمتْه فقالت له : ويحك أيها الأبله ! إن أردتَ أن تغلب صاحبك وتُسكِتَه عنك ، فاحملْ مقالتك إلى رأسه فى العصا لا فى الجريدة . . .

* * *

قال صاحب السر : وضحك القومُ جميعًا ، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين ، قد خلَصَتْ دِخْلتُهم لذلك الرجل الحر وتنصَّلوا من جريمة كانت فى أيديهم ، وما جاء الباشا بمُعْجِزٍ من القول ، ولكنَّ تصويرَه للمسألة كان حلاً لها فى نفوسِهِم . فلما أدبروا تنفّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريق ويعانى فيه حتى نجا ؛ ثم قال لى : إن هذا كان جواباً عن شىء فى أنفسهم ، ولكنه هو سؤال عن شىء فى أنفسنا : ما الذى يجعل الناسَ عندنا يخشَون

المعارضة فى الرأى الوطنى حتى إنهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ؟ وما بالهُم لايعطون الرأى حكمتَه وحقيقتَه ، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة ، حتى لترجعُ الفروقُ الضعيفةُ المتجانسةُ فى أبناء الوطن الواحد وكأنها من الخلافِ والمبايَنَة فروقٌ جنسيةٌ كالتى تكون بين إنسانٍ من أمة ، وإنسانٍ من أمة أخرى تعاديها.

قلت : إن رأى الكثرة قانون يا باشا .

قال : هذا صحيح ، ولكن بشرطين لابشرط واحد : الأولُ ألاّ يخرجَ الرأىُ على القانون ، والثانى ألاّ تكونَ الحقيقةُ فى الرأى الذى يناقِضه ؛ ومحاولة إكراهِ المعارضة نقضٌ للشرطين معًا ؛ ثم إن أساس الوطنية سلامةُ القلوب وصفاءُ النيات ، واستواء الموافق والمخالف فى هذا الحكم ، ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقةً مُخْلِصَة ، لم يكن اختلافُهما إلا من تنوع الرأى ، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ، ما من ذلك بد .

الحقيقة يا بنى أن الجماهيرَ الشرقيةَ ليست فى تربيتها من الجماهير السياسية التى يُعتدُّ بها ، إذ لاتزال فى أول عمرها السياسى ، وبهذا السبب وحده كان اختلافُ الكبراء فى السياسة لايشبهه إلا نزاعُ الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذِ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها ، لا نزاعُ حق يَسْتعْلى بأدلته.

وهذه المجالسُ النيابية الشرقية كلها صُورٌ ممثَّلة جافَّة ، منقطعةُ النماء من أسبابها ، كالفرع المقطوع من الشجرة ، وإنما يتنضَّرُ الفرعُ ويُثمِر أثمارَه إذا قام بشجرته لابنفسه ، وما شجرةُ الفرع السياسىّ إلا الجمهورُ السياسى .

فسبيلُ الإصلاح فى كل مملكة شرقية أن ينهض أهلُ الرأى من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسَرِىّ ، ومن كان بسبيل من هؤلاء ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندْوة للاجتماع والبحث والمشُورة ، وقول (نعم) بالحجة وقول(لا) بالحجة . ثم يعلنون ذلك فى جمهورهم وينزلون منه منزلةَ الأستاذ والأب والصديق فى تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتتصل هذه الدورُ فى كل مملكة بعضُها ببعض ، وتنتهى بالمجالس النيابية . وبغير ذلك لايُملأُ الفراغُ الذى نراه خاويًا بين الشعب

والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ، وإنما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛ فهو الذى يَضيع فيه ما يضِيع فيه ، ويختفى ما يختفى .

منا قومٌ موظفون فى الحكومة ؛ لكن أين القومُ الذين تكون الحكومة نفسُها موظفةً عندهم ؟

* * *

(اعتذار) : بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا ؛ فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتم السر . . . .

المجنون*

جاء يمشى هادئًا يتخيلُ فى مِشْيته ، يَرْجُفُ بين الخَطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعِرك أن الأرضَ مُدرِكة أنه يمشى فوقها . . . ولا ينقلُ قدمَه إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسه يُحرِّكه إلى أعلى ، فما تدرى أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه . . . أم يُخَيَّل إليه أن هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه فى موضع راية الدولة ، فهو يَهزُّه هزَّ الراية . . .

وأخذتْه عينى وليس بينى وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضُها — فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع فى صحراءَ يقلِّب عينَه فى جهاتها متحيراً متردِّداً ، ثم كأنما رُفِع له فى أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحَّبتُ به ، وأجلستهُ إلى جانبى ، فأخذ يَستَعْرِفُ إلىَّ بذكر اسمه وجماعتِه وبلده ، لايزيد على ذلك شيئًا ، كأنه عنترةُ بنى عَبْس : لأرضه من طبيعتها جغرافيا ، ومن اسمه جغرافيا على حِدَة . . . فلما رآنى لا أُثْبِتُه مَعْرِفةً قال : إن بلك نسيانًا .

قلت : وكثيراً ما أنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التى تذكَّر بتاريخ .

قال : هذه غلطةُ الجرائد . . ومهما تنسَ من شىء فلا تنسَ أنك أستاذُ « نابغة القرن العشرين [1] » . . .

فسرَّحتُ فيه نظرى ، فإذا أنا بمجنون ظريفٍ أمردَ أهيفَ ، يكاد برخاوته وتفكّكه لايكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفتورهما .

وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعانى ، يُنْبئ بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسِه . . .

---

* انظر حديث هذا المجنون وخبره فى « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ، ثم خولط فى عقله فتركها ؛ وكل ما يمر فى هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه .

وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلِّدة قد ثبتتْ فى هذا الوجه لتُخرِجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنونًا لا هو طفلٌ ولا رجل .

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ فى هذه الصَّفحة ، قَتْلاها أفكارُ المسكين وعواطفهُ .

وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ ، مُتَفتِّرُ البدن ، خائرُ النفس ، كأنه قائم لِتَوِّه من النوم فلا تزال فى عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .

وخُيِّل إلىَّ من هذا الخُمولِ فى هذا الشاب ، أن عليه جوًّا من تثاؤبه ، وأن المكانَ كلَّه يتثاءبُ ، فتثاءبت . . . .

* * *

فلما رأى ذلك منى ضحك وقال : إن « نابغة القرن العشرين » رجل مغناطيسىٌّ عظيم ؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبُكَ فخراً أن تكونَ أستاذَه وأخاه وثِقتَه ، « فليس على ظهرِها اليوم أديبٌ غيرى وغيرَك . . . »

قلتُ فى نفسى : إنّا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنونًا غيره وغيرى ، وكأنما ألمَّ بذلك فقال : لستُ مجنونًا ؛ ولكنى كنت فى البيمارستان . . .

قلت : أهو البيمارستان الذى يسمَّى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا ؛ إن هذا الذى تسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أما الذى سميتُه أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قومًا ظُرفاء يَدْخُلُهم الفسادُ فى عقولهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ ، فلا يكون جنونُهم جنونًا إلا من هذا الوجه ، وسائرُ أحوالهمَ كأحوالِ العقلاء ، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلِّبون ، إذا ازْدُهِيَ لم يُطِقْهُ الناسُ من زَهْوه وكبريائه وتنطّعه ، كأنه واحدُ الدنيا فى هذه الفكرة ، وكأن بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس فى أرقى طبقاتِ عقله ، وما جنونُه إلا فى هذه الطبقة وحدها .

ومثلُ هذا لا بدَّ له ممن يستجيبُ لهذَيانه كما يحركَ فيه خفتَه وطيشَه وزهوَه ، وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخيالىِّ المُبدَع الذى لا يوجد

إلا فى عقله المختل . فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنُه ، أو يصانِعُه ، أو يجاريه ، تسببه مُذْعِنًا مؤمنًا مصدِّقًا ، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به أشدَّ التعلق ، ويراه كأنه فى ملكه . . فيتخذُه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق ، وقد يزعُمُه أستاذَه ليفهمَه من ذلك بحساب عقلِه . . . أنه تلميذُه .

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمِّنى أستاذَه إلا بحساب من هذا الحساب ، فهو سيُعطى الأستاذيةَ حقَّها ، ولكن كما هو حقُّها فى لغة جنونه . . . فأُصبِحُ فى رأيه تلميذَه وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانه ، وثقتَه وملجأه ، والمحامىَ من ورائه .

قلت فى نفسى : إذا أنا تركتُه جالسًا كان هذا المجلسُ مثابتَه من بعدُ ، فلا يعرفُ له محلا غيره ، ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « محله المختار » ، فيتطرَّأ إلىَّ لسبب ولغير سبب ، ويقعُ فى أوقاتى وقوعَ السهوِ لا حسابَ عليه ، ويَضيعُ فيه ما يضيع . فأجمعتُ أن أصرِفَه راضيًا باليأس ؛ وقد انتهت نفسُه من معرفتى ، وانتهى عقلُه إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذًا ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس .

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذُ نفسك ، ولا يَحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكونَ له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تفى به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و . . .

فقطع علىَّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليلُ أنى أعطِّلها فيتعطلُ الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطلتَها لم تتعطل الشمسُ التى تعيِّنُ منازِلَ النهار ، فسيَمُرُّ الظهرُ ويَحينُ العصرو . . .

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأىٌ إلا رأيتُه لك . . . ولا صحَّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتَها ، وأنا لا أعتقد أدبًا فى مصر إلا ما توافَيْنا عليه معًا « ولا أسلِّم جدلًا ، ولا جدَلًا

أسلّم أن فى مصرَ أدباء ينالون منى شيئًا ، فهو أنا وأنا هو »[١] ، ولئن لم يذعِنوا (لنابغة القرن العشرين)فليعلـمُنّ أنهم « وقعوا منى موقعَ نملةٍ على صخرة . . . هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنُها » . . .

فتهللْتُ واستبشرتُ ، وقلتُ له : هذا قرش فهلمّ فاشتر به دخائنك ، وفى رعاية الله . ثم استويتُ للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكّن فى مجلسه . . .

* * *

وكرهتُ أن أتغَيّر له وما أشكّ أنه فى هذا صحيحُ التمييز ؛ فما أسرعَ ما قال : إن « نابغة القرن العشرين» فتى قوىُّ الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور . . . . وإذا لم يُثْبتْ لك هذا الأمر عن مُعَاينَة . . . فما أعطيتَه حقّه .

فقلت فى نفسى : لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه ، وأيقنتُ أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفةُ أحيانًا فتلهمهم آياتٍ من الذكاء لايتفق مثلُها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن إبراهيم الشيبانى مرّ به وهو يأكل خَبِيصًا [٢] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكةَ بنتِ الخليفة بعثتْه إلى لآكله لها . . .

وقالوا : إنه مر بسوق البزّازين فرأى قومًا مجتمعين على باب وكان قد نقِب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم .

فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَونه ، فألْطِفُوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبِرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سَنِىٍّ وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقْب وقال : هذا عملُ اللصوص . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلامَ بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى ،وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قلت : فما استحسنتَ منها ؟ قال : (مقالة السما) . . .

فقلت : متى كان آخرُ عهدِك برؤية السما ؟ قال : أمس .

---

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا إلى ذلك ، والباقى ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله .

(٢) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن .

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيتَ أمسِ فتحوَّل ما رأيتَه حلمًا فى مقالة .

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأُ مقالتَك فى الغيب من قبل أن تكتبَها . . . .

قلت : إنك تكثر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا يَحصرُ نبوغَك فى قرن بعينه ؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت : (نابغة القرن) ، لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما .

فرأيتُ به شَدْهَةً كأنه يفكر فى جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا؛ وإن هاهنا موضعَ نظر ، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول : إنى نابغة قرن خروف . . .

* * *

فقلت فى نفسى :حَمأةٌ مُدَّت بماء[1] ، وإن هذه الوساوسَ لاتنفكُّ تعرو هذا المسكينَ ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لانظامَ لها ، فلأسكتْ عنه ولأتشاغلْ بما بين يدىَّ .

وسكتُّ وأعرضتُ عنه ؛ فجعل طائفُه يعتريه ، وكأن السكوتَ قد سلَّط أفكارَه عليه ، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون، لايزالون به حتى يُحْرِدُوه ويُفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معًا . فغضبَ (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه[2] ، وكلَحَ وجهُه حتى خفتُ أن يثورَ به الجنون ، فأقبلتُ عليه وتعلَّلتُ بسؤاله : ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال: إن له أخًا يعذبه ، ويُوقِـع به ضربًا ، ويغلِّله بالسلاسل ، ويشدُّه « بأمراسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جنْدل » ، وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم .

---

(١) هذا مثل فى معنى زاد الطين بلة ، والحمأة إذا مدها الماء زادت واتسعت .
(٢) أى لمعت غضباً .

قلت : فأنت فى حاجة إلى راحةٍ ، ويحسن بك أن تأوِىَ إلى مكان تتمدّد فيه .

قال : إنى منصرفٌ وسأجلس فى نَـدِىّ كذا[1] « هذا من جهة . ومن جهة ليس معى ثمن القهوة » .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها ، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك الندىِّ ، فالمكانُ ها هنا كثير الضجيج والحركة . واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يتَحَلْحَلْ من مجلسه .

* * *

ثم قال : أراك الآن مُسْتَبْصِراً أنى (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معًا . . .

قال : لا . لا ؛ إنك نسيتَ أن العربَ تقول فى التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أى أنا نابغة القرن العشرين بعينِه ونفسِه وذاتِه ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين » .

وكادت نفسى تخرج غيظًا ، ولكنى رأيتُ الحِلم على مثل هذا يجرى مجرى الصَّدَقة ؛ وقلت : إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداعُ الطريفُ إذا علّلوا شيئًا ، كذلك القاصّ الذى كان يقصّ على العامة سِيرةَ يوسفَ عليه السلام ؛ فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف .

فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينُه وأذنه وأنفُه وفمه ويدُه ورجله ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيَخلِطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ . « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة إلى بلدى وهى قرشان » .

---

(١) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة .

قلت : هذه هي أجرة السيارة وصَحِبتْكَ السلامة ، ونهضتُ واقفًا ؛ ولكنه لم يتحرك .

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعِدة أو أكثم بن صَيْفى ، وأنى صخر لاينفجر . . . يابس لاينعصر ، لست كالحجَّاج بل كعمر » .

قلت : هذا شىء يطول بيننا ولاحاجةَ لك بهذه البراهين كلِّها ، فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخَطابة والترسُّل .

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكلِّ معقول ومنقول ؛ وقد انتهينا على ذلك .

قال : ولكنك تحسبنى مجنونًا أو ممروراً « كما حسبتنى الجرائد التى زعمت أن اختفائى فى البيمارستان كان لجنونى الفكرىّ أو لذكائى الطبيعى وهو الأصح . . . فبيِّن لهذه الجرائد أنى خرجت ، وأنى سأطبع الأدبَ بطابع جديد » .

قلت : ولكنى لستُ مراسل جرائد . قال : « فاجعلنى رسالةً وراسِلْها عنى أو أكتبُ لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقنى بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفنى كلها ، وقد تناولتنى من جميع النواحى الأدبية ؛ فضلاً عن أنى كاتب فَذ ، وخطيب فَذ ، وشاعر فَذ ، وهذا قليل من كثير ، فهل أعوِّل عليك فى صلتى بالجرائد أولا ؟» .

قلت : إنك تعرفهم و يعرفونك ، وقد بلَوْتَهم وبَلَوْا منك ؛ فلستَ فى حاجة إلىّ عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسى ، وقد حسبونى مجنونًا استهوته الشياطين ؛ وما علموا أن شيطانَ الشعر هو الذى استهوانى ، كما أن شيطان الحب هو الذى استهواك . . . هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن الغداء ، ولا أكلفك شيئًا . . . » .

قلت : فهذا قرش للغداء فى مطعم الشعب . وهم الآن يتغدَّون و يُوشِكُ إذا

أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لاتجهل أن القرش فى مطعم الشعب هو قرشان فى القيمة .

قال : صدقت ؛ يُوشِك أن أوافقَهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية . فلأبْقِ هذا للعَشاء وسأطوى إلى الليل . . .

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بالدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)[1] يغنى بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمنًا لسكوتك وانصرِف .

* * *

فشقَّ ذلك عليه وقام مُغْضَبًا وتنفستُ بعده الصُّعَداء الطويلة . . . وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقىَّ وأخذتُ فى رياضة التنفس العميق ، ثم زاغتْ عينى إلى الباب ؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر . . . . . .

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة فى القرن الثالث .

المجنون

٢

« رأيتُ المجنونين يدخلان معًا ، فكأنما سدَّا الباب وسوَّياه بالبناء وتركا الغرفة حائطًا مُصْمتًا لا بابَ فيه ، مما اعتراني من الضيق والحرج ؛ وقلت في نفسي : إنه لامذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدعهما وأكونَ أنا أُصرِّفُهما ؛ ويا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين مالا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أني خشيتُ أن أكونَ أنا المجنونَ بينهما ، ثم لا آمن أن يثبَ أحدُهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرَةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقّ به العَوْنُ فلا أقلَّ من أن يطولَ به الصبر . . . وكان إلى قريبٍ مني الصديقُ (ا . ش) * فأرسلتُ في طلبه .

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلِّطت صُحُفُه بعضُها في بعض فتداخلَتْ وفسد ترتيبُها ، وانقلب بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطًا ، يثِبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لاصلةَ لها بما قبلها ولا ما بعدها .

وهو طالبٌ أزهريّ كان أكبر همّه أن يصير حافظًا كالحفّاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهِرُ كتابا بعد كتاب ومتْنًا بعد متن ؛ وكانت له أذُنٌ واعيةٌ ، فكل ما أُفرِغ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خبر ، نزلَ منها كالنقْر على آلةٍ كاتبة ، فينطبعُ في ذهنه انطباعَ الكتابة : لا تُمحى ولا تُنسى .

ثم التاثَ هذه اللَّوثةَ وهو يحفظ متنًا في فقه الشافعي (رضى الله عنه) ، فغبرَ سنين يتحفَّظُه ، كلما انتهى إلى آخره نسيَه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخرَ لم يجد معه الأول ؛ فلا يزالُ هذا دأبَه لايملُّ ولايجد لهذا العَناءِ معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتابِ يَجمعه ، ثم لايزال الكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرته .

---

* هو الصديق أمين حافظ شرف .

وترك المعهد الذى هو فيه وتخلى فى داره للحفظ ، وأجمع ألاَّ يدعَ هذا المتنَ أو يحفظَه . كأن فيه الموضعَ الذى فارقه عقلُه عنده ، وبذلك رجع المسكينُ آلةَ حفظٍ ليس لها مِسَاك ؛ وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه فى البحر ، لينْزِحَ البحر . . .

* * *

وجاء (ا . ش) فقلت له ، وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين .

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيُعرف مَن نابغتُه ؟

فقلت للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون ؟

قال : : لا .

قال : فإن هذا الذى إلى جانبى نابغة القرن الواحد والعشرين . . . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته .

قلتُ : ولكنك زدتَ المشكلة تعقيداً من حيث توهَّمْتَ حلَّها ، فكيف يكون معك فى آنٍ وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء . وهو كلما أراد شيئًا عسيراً نظر إلى اللاشىء . .

ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل . . . وكيف لايكون بينى وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدَّمه ؟ النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمسٍ وستين سنة . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسَن : أدركنا قومًا لو رأيتموهم لقلتم : مجانين . ولو أدركوكم لقالوا : شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذى .

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ، ولكنه حين ينسى لا يذكِّره غيرى . . .

قلت : لاغَرْوَ « فمما حفظناه » عن الزُّهْرى : إذا أنكرتَ عقلَكَ فاقدَحْه بعاقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للنضل ، مع جنونه وخبَلِه . أيذكّرنى وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متناً واحداً لا يُمسكه عقلُه إلا كما يُمسك الماءَ الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛ خير ؛ خير . فقال الثانى : خيرٌ من صديق جاهل ، هأنذا قد ذكّرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أُرِد أن أقولَ هذا ، بل أريد أن أؤلفَ كلاماً آخر . . . . عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ : خير من مجنون جاهل . . . .

* * *

ورأيتُ أن فى التقاءِ مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصحّ عندى أن المجنونَ الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورِهما فنٌ ظريفٌ من التمثيل ، إذا وجدا من يُصرّفهما فى الحديث ، ويستخرجُ ماعندهما ، ويستكشفُ منهما قصتَهما العقلية . . . .

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أذُنٌ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنف بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذات نفسِها لا من الوجود ، وتدركُها بالتوهم لابالحاسة ، فتتخلّقُ هواجسُهم خلْقاً بعد خلق ، وتخطر الكلمةُ من الكلام فى ذهن أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى .

وبينا أنا أديرُ الرأىَ فى إخراج فصل تمثيلىّ من الحوار بين هذين المجنونين[1] ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صَهْ ، إن جرس « التلفون » يدقّ .

قال (ا . ش) : لا أسمع صوتاً ، وليس ههنا « تلفون » .

فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تتقحّمُ على النوابغ ولستَ من قدرهم ، وما عملُك إلا أن تنكر ؛ والإنكارُ ، ويلك ، أيسرُ شىء على المجانين وأشباهِ

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر .

المجانين ، والعامةِ وأشباهِ العامة ؛ وقد أنكرتَ نبوغَـه آنفـًا ، وأراك الآن تنكر « تلفونه » . . .

قال (ا.ش) : وأين « التلفون» وهذه هى الغرفة بأعيننا ؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صَهْ ويْحاك لقد خلَّطتَ علَىَّ ؛ إن الجرسَ يدقُّ مرة أخرى ، وأنا لاأريد أن أكلمها حتى يطولَ انتظارُها ، وحتى تدقَّ ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينُها فى صوتك ولَغَطِكَ . . .

قال المجنون الآخر : هى صاحبتُه التى يهواها وتهواه ؛ وقد استهامها وتيَّمها وحيَّرها وخبَّلها ، حتى لاصبرَ لها عنه ، فوضعتْ له تلفونـًا فى رأسه . . . .

قال « النابغة » : وهذا التلفون لايُسمعنى صوتَها فقط ، بل هو يُنْشِقُنى عطرَها أيضًا . وقد تكلمنى فيه الملائكة أحيانـًا ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غيورٌ تـُخْشَى سَطَواتُها على اللائى تَغار منهن ، ولولا ذلك لكلمتنى فى هذا التلفون إحدى الحُورِ العِين . . . .

قلنا : أوَتَغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمرُ فوق ذلك ، فإن الحور العين يشتُمنها ويلعنَّها ؛ « فما حفظناه » هذا الحديث : لاتؤذى امرأةٌ زوجَها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العِين : لاتؤذيه قاتلكِ الله ؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِك أن يفارقَك إلينا .

قال (نابغة القرن العشرين) : ويْلِى على المجنون إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وَشيكـًا من هذه الدنيا . وهو يقولُ بغير علم لأنه أحمقُ ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذينى ، ولو هى آذتنى لغضبتْ قبل ذلك ، ولو غضبتْ لرفعت التلفون . صَهْ إن الجرس يدق .

* * *

قال ا.ش : إن للنوابغ لشأنـًا عجبـًا ، ففى مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلامـًا ، فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيدُ الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ

القرآن ، فذكر قصةَ إبراهيم (عليه السلام) ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، فخُيِّل إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة ، وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلامَ فى صبيحة العيد وهمَّ بذبحه ، ولولا أن صرخ الغلامُ فأدركه الناسُ فاستنقذوه . . . .

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حِدَته . وقد رأيته فى البيمارستان فى حين كنت أنا فى المستشفى . . . فكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بإرادة الله . ولو كانت إرادةَ اللهَ لنفذتْ بالذبح ، ولو كان الأمر وحيًا لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه . . . وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين) .

ثم إنه أشار إلى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عُدْتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدالى أنه يتمنى هلاكى ليكونَ هو نابغةَ القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمساً وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنونًا موتًا حقيقيًّا ، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوى .

قال ا . ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العامِىِّ لإمامِه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك .

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لايعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر . . . ولما رأيته ناسيًا فذكرته ونبهتُه أن الصلاة لاتجوز بالشعر ، التفت إلىَّ وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال : ما شأنك بى ؟ هل أنا أصلى لك أنت . . . ؟

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونًا فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه . ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليدَ نابغة القرن العشرين .

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك ؟

قال ا . ش : هذا لم يُعرَفْ مثلُه فكيف نعرفه ؟ ولم يتوهمه أحد ، فكيف نتوهمه ؟

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصفُ صواب ؛ ومادمت أستاذي . فلو أننا اختلفنا في رأى لكان خلافُك لى صواباً لأنه منك . وكان خلافى لك صواباً لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطئ) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا . ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شيء حتى فى الإشارةِ والقَوْمة والقَعْدة ولكنى صرختُ فيه وسبَبتُهُ ففتح فمه ، ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة .

قال ا . ش : لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد . فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ لذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثوابٌ له . . . ولو كان نابغةً لعلم أنْ الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأُولى النُّهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لاتجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا .

قال : لم أُصلِّ به ، ولكن خطر لى وأنا أصلىّ أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقّق أنى لم أنسها . . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ ، وهى ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ، ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا . ش : فأمْلِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه[1] .

---

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه .

يا حليف السُّهْد قل لى   أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالا   أكحلَ العينين مالْ
أنا أهواها ولكن   لاسبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلا   منذ غابت فى خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى   ليلَ يا ليلى! تعالْ

قلنا : ولكن ليس هذا مدحًا ، فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغَزَل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمانى   وشغفتَ يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياةَ تفاخراً وتنعما   وحسبتَها لله والأوطان

ثم أُرْتجَ عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولستُ أريد أن أذكّرك :

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى . . . ونظر إلى اللاشىء فى الفضاء ، ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغى فى المدح غيرَ أولى النُّهى   أو صادقٍ [1] أو شوقى أو مطران

ثم أمرا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، انظر إلى فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

قال ا . ش : وبعدُ ؟ قال : وبعدُ فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال منى ، فرجوت ا . ش . أن يلبثَ معهما وأذنتُ لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندّى وانصرفت . .

قال ا . ش وهو يُنبِّئنى : فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بى الظلم ، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم ، لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة) . . . وأجمع نفسى لها ، وأجهدُ فى بيانها ،

---

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين .

وأُذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحِلها ويضعَ توقيعَه عليها ، ويبعثَ بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين [1] . . .

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب؟ قال : إن هنالك أسراراً أنا مُحْصِنُها وكاتمُها ، ولا ينبغى أن يعلَمها أحد فإنها أسرار . . . قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات ، وأنا أعطيك فى كل مقالة ذَهبَين لا قرشين .

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتبَ إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لايجوز أن يدعى كلامَه إلا أستاذُ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطًّا من قدر نابغة القرن العشرين ، وهذا بعضُ الأسرار لا كل الأسرار . . .

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيَّة إلى الندىّ .

---

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيراً ؛ فجعلها عشرين قرشاً ... ...

المجنون

٣

وكنا فى النَّدىّ ثلاثةً : أنا ، وا . ش ، وس* . ع ؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين ، وتدوينِ ما يجيء منهما . فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألْطَفْناهما ، وقمنا ثلاثتُنا ببَسْطهِما وإكرامهِما ، حتى حسبا أن فى كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . ورأيتُ فى عينىْ « نابغة القرن العشرين » — وهو أعيَنُ أنجَلُ(١) — ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أُنثى أعشقُها أنا . . . فكان مُسَدَّداً فَكِهَ اللسانِ ، تُسْتَمْلَحُ له النادرةُ ، وتُستطْرَفُ منه الحركة .

ولما تمكّن منه الغرورُ ، واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطتْه الأعيُن — أدار بَصَرَه فى المكان ، ثم قال : أُفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىّ فى ضَوْضائه ورعاعِه وغَوغائِه . إنْ هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقفُ هنالك . هذا المسْتَوفِز . هذان المتقابِلان . هؤلاء المتجمِّعون . هذا كله خيالُ حقيقةٍ فى رأسى . ما هى ؟ ما هى ؟

هذا التصايُحُ المنكَر . هذا الضربُ بحجارة النَّرد . هذه الزَّحمةُ التى انغمسنا فيها . هذا المكانُ الهائجُ من حولِنا . هذا كلُّه خيالُ حقيقةٍ فى رأسى . هى ، هى ، هى .

فانزعج المجنونُ الآخر ، ووَقع فى تَهاويلِ خياله ، ونظر إلينا تدورُ عيناه ، وتوَجَّسَ شرًّا ، ثم زاغ بصرُه إلى الباب ، واسْتَوْفَزَ وجمع نفسَه للقيام ؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به ، قَهقَهَ وأمْعَنَ فى الضحك وقال : إنما خوَّفتُه الصبيان والضربَ ليثبتَ لكم أنه مجنون . . .

---

* س ع هو الصديق سعيد العريان .

(١) أى واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه فى المقالة الأولى .

فحَرِدَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » : ما كلامٌ تَطِنُّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » : أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطِق تَجلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضَحِك نَهقَ ... كما فعلتَ أنت الساعةَ ، تقول : هاءْ ، هُوءْ ، هِيءْ ...

فتغيَّر وجهُ «النابغة » ، ونظر إليه نظرةً منكرة ، وهمَّ أن يقتحِمَ عليه . وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطرنى إلى أن أُجيبَك جوابَ مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ منى !

فأسرع ا . ش ، وأمسك به ؛ واعترضَ مِنْ دونه س . ع ، وقال له : أنت بدأتَه والبادئُ أظلم .

قال : ولكن — ويحه — كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقولهُ ؟ أنابغةُ القرن العشرين أحمق ، وقد أوْحدَهُ الله فى القرن العشرين ؟ لَهَمَمْتُ والله أن أكسِرَ الذى فيه عيناه ؛ فما يقولُ إلا أنى أحمقُ القرن العشرين . . .

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ؛ ففى الحديث الشريف : « ليس من أحد إلا وفيه حَمْقَةٌ ، فَبها يعيش » . والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمة تنظيماً عاقلا ؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شىء من لذاتها إلا هو مقبلٌ على شىء من حماقاته . وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحمقُ فى طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة ؛ أليس يُخيَّلُ إليك أن أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلَّك حاضرٌ فيها ، وأن يَقَظتك الحقيقيةَ إنما هى فى الحلُمِ وما يُشبه الحلُم ، كأنك خُلِقتَ فى كوكب وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يلتئمُ بعضه ببعضه ، وأكثرُكما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع ؟

قال : بلَى .

قلتُ : فهذا القليلُ هو الحمقَةُ التى بها تعيش ، وهو أرضيَّةُ الأرضِ فيك ؛ أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ الأرض ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين فى رأى المغرورين الذين غرَّتهم الحياةُ الفانية ، أو المخدوعين الذين

خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوْا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحَمْقَى معكوسًا أو مُحوَّلاً أو معدولاً به ؛ ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف : « أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه » .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : أكثرُ أهل الجنة البُله .

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلمْ أنك من بُلَهاء البيمارستان لا من بُلْهِ الجنة . . .

قلتُ : ثم إن الموتَ لابد آت على الناس جميعًا ، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوه من الدنيا ، ويُلْحِقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذى يُسَرُّ بأن ينال مالا يبقى له ، إلا أن يكونَ سرورُه من حماقته ؟ ومن ذا الذى يَحزَنُ على أن يفوتَه مالايبقى له ، إلا أن يكونَ حزنُه حماقةً أخرى؟ وأى شىء فى الحب بعد أن ينقضىَ الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضرَبَتْ فى الحواسِّ كلِّها ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفسَ حتى فاضت على الزمن ؛ ثم فاضتْ على الزمن حتى خبَّلت العاشقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُر فيه الأشياء وتكبر ، ويجعلُ الواقعَ فى النفس غيرَ الواقع فى دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبتَه بالقمر : فهَبِ القمرَ سمع هذا وفهمه وعَنَاه أن يُجيبَ عنه . فماذا عساه يقول إلا أن يُعْجَبَ من هذا الحمق فى هذا التشبيه ؟

* * *

فهدأ (النابغة) وسكن غضبُه وقال : صدقت ، ولهذا أنا لا أشبِّه حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبِّهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبِّه أنت حبيبتَك . قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر .

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلمَ بماذا تشبِّه أنت . . .

قال : هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، ولك حبائبُ كثيراتٌ عددَ كتبك ، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد) ، وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة . . . من سنة . . .

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتُك .

قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرتْ من بضع سنين ، إنما أنت من

بـُلهاء البيمارستان لامن بـُلـْه أوراق الورد . . . ماذا كنتُ أقولُ ؟

قال ا . ش : كنتَ تقول : هذا لايـُرضَى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم ، لأنك إذا شبهت واحدةً منهن بالقمر ، انتهى القمرُ وفرغ التشبيه فيظلُّ الأخـْريات بلا قمر . . . ثم إن كلمةَ القمر لاتعجبنى ، فلونها أدكنُ مـُغـْبـَرٌّ(١) يـَضْرِب أحيانـًا إلى السواد . . . فإذا عشقتُ زَنجيةً فهـَهنا محلٌّ التشبيه بالقمر . . . أما البيضُ الرَّعابيبُ فتشبيههـُنَّ بالقمر من فساد الذوق .

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنتَ نابغةً لأبصرتَ فى داخلك أخيـِلةً من الجنة ؛ ألم يقل أستاذنا آنفـًا عن (نابغة القرن العشرين) : إنه هبط من كوكب إلى كوكب ؟ ففى كوكبنا الأول يكون لنا سمْعٌ ملوَّن ، وحِسٌّ ملوَّن نسمع قرعَ الطبل أزرق ، ونفْخَ البوقِ أحمر ، ورنينَ النغَم الحـُلوِ أخضر(٢) ، والوجودُ كله صُوَرٌ ملونةٌ ، سواء منه ما يـُرَى وما يـُحَس ، وما هو مـُسْتـَخـْف وما هو ظاهر .

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحِبر : لا أسمعـُهُ إلا أسود . . .

* * *

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع . مالك لاتتكلم ؟ قال : لأنى أريد السكوت . قال : فلما ذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لا أريد أن أتكلم . . .

وتحرك فى نفسه الغيظُ من المجنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشىء وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتِ لِحىً أصبح هذا عاقلاً . . . فدقّ الآخر برجله دقات معدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : مـَن هذا يشتـُمـُنى ؟

قال س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خـَفـْقُ رجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمنى هذا الخبيثُ ، وسَمْعى لايـَكـْذِبـُنى أبداً ، وأنا رجلٌ ظـَنـُونٌ ، أسىء الظنَّ بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم « العاقلِ » سوءُ ظنه بالناس .

---

(١) الدكنة : لون بين الحمرة والسواد .

(٢) هذا واقع وليس من الخيال ؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها

فهبْه كما قلتَ قد خفَقَ بنعله، أو خبَط برجله ؛ فهو ما يعني من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طفحَ الشعرُ على قلبي فلابد لي من هجائه ، ولابد لي أن أذبحه ولو بالكلام، فإني إذا هجرته رأيتُ دمه في كلماتي ، وأريد أن أجعله كالعنْزِ التي كانت عندنا وذبحناها .

ثم انتزع قلم س . ع ، وقال : هذه هي السكّين . ولكن أسألكُ يا أستاذي أن تذبحه أنت بكلمتين وتصفَ له جنونه، فقد عزَبَ عني الشعر . إن خفْقَةَ رَجِلٍ على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فزعًا؛ فينْفِرْن إلى أجْحارِهنّ ويتهاربْن، وما كانت أبياتُ الشعر في ذهني إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفًا ثبيتاً مثلي، كان دقيقَ الحسّ؛ ومن كان فَدْمًا غبيًّا مثلَ هذا ، كان بليدَ الحسّ غليظًا كثيفًا ؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ رأيتني قد سافرتُ إلى القطبِ الشمالي ؛ أما هذا المجنونُ فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه . . . إذ هو لايعرف جغرافيا، ولايدري ماطحاها .

قلت : هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرةُ أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدّى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتِيَ بخِوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلهما ، والرشيدُ ملكٌ عظيمٌ : لايأكلُ أكلَ الجائع ، وإنما هو التّشعيثُ من هنا وهناك ؛ فكان رغيفُه لايزال باقيًا ؛ فصاح أبو الحارث فجأةً : ياغلام ، فرَسِي . ففزع الرشيد وقال : ويلك ما لكَ ؟ قال : أُريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذي بين يديك . . .

قال (النابغة) : ولكنّ فرقًا بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فإن من العجائب أني ربما نظرتُ إلى الرجل وهو يأكلُ فأجدُ الشِّبَعَ ، حتى كأنه يأكل ببطني لاببطنه ، ولكن من العجائب أن هذا لايتفق لي أبداً حين أكون جائعًا . . .

أما هذا المجنونُ الذي أمامنا ، فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ ، فيشعُرُ كأن الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار . . .

قال الآخر : « مما حفظناه » : أنه سُرِق لأعرابي حمار ، فقيل له أَسُرِق

حمارُك ؟ قال : نعم وأحمد الله . فقيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أنى لم أكن عليه حين سُرق . . . . فأنا إذا رأيتُ حماراً مثقلَ الظهرِ ، حمدتُ الله على أن الحملَ لم يكن عليّ ، لا كما يقول هذا . ثم دقّ برجله دقات ...

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغى أن تتكافآ ، وهذا لا يَعيبك منه ولا يعيبُه منك ، فإن من تواضُعِ « النوابغ » أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فإذا شعروا ببؤسه دخلتْهم الرقةُ له . فإذا دخلتهم الرقةُ صار خَيال الحملِ حِمْلاً على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك : حكى الجاحظ عن ثُمامة قال : كان (نابغةٌ) يأتى ساقيةً لنا سَحَراً ؛ فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيامَ الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فإذا أمسى توضأ وقال : اللهمّ اجعل لنا من هذا الهمّ فَرَجاً ومَخرجاً . فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ثمرةُ الدنيا السرورُ ، ولا سرورَ للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء لما مُحِقَ سرورُه فى الدنيا هذا المحْقَ إلى أن مات غماً ، رحمه الله !

* * *

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحبك ولا تذبحْه بالهجاء .

قال : لقد ذكَّرْتَنى من نسيان . وهذا المجنونُ يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجهُ — لو تَهَدَّى إلى الحقيقة — أن يراه شذوذاً فى العقل ، أى نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يتَثَبَّتَ فى كم من الزمن تُسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعةَ وبيده الأخرى بيضة ، ثم نسِىَ نسيانَ النبوغ ، فألقى الساعةَ فى الماء على النار ، وثَبَّتَتْ عينُه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعُمنى ، فإن المجانينَ يرون العقلاء مرضَى بمواهبهم وأعمالِهم التى يعملونها .

وأنا فليس يَهيجُنى شىءٌ ما تَهيجنى كلماتٌ ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغِبَ فى صحبتى فليتجنبْ هذه الثلاثَ كما يتجنب الكفرَ والكفرَ والكفر . . .

قال ا . ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أي على التمثيل : مغفَّل . . .
فحلكّ رأسَه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قَدَري[1] . . .

قلت : فبعضُ الكلمات إذا قُطعتْ عندك غيَّرت الحقائق ، كذلك القرن الذي قُطع فَرَدّ البقرةَ فرسًا ؟

قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابيًّا خرج إخوتُه يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجلٍ يقوده ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : فرس اشتريته . قالوا : يا مائق هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ، ثم قادها إليهم وقال لهم : قد أعدْتُها فرسًا كما تريدون . . .

قال (النابغة) : هذا غيرُ بعيد ، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العَنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبةً سوداء ، فتقذَّرتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعم منها .

ثم أومأ إلى الآخر وقال : هذا لايدرى ما طَحاها ، وهو مثل العَنز : تحسبُ قرنيها للقتال والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ للذبح ؛ فقل في هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين) .

قلت للآخَر : أيرضيك أن أقولَ في المعنى لا فيك أنت ... ؟ قال : نعم .
فكتبتُ هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعَنزٍ نَاطِحَاهَا ... لقتال سَلَّحَاها
ما لها قد طَرَحَاهَا ... في يَدَينِ ذَبَحَاهَا ؟

* * *

شيمةٌ مني نحَاهَا ... عقلُ غِرٍّ فَلَحَاهَا
ليس يدري ما طَحَاهَا ... بل يَرى شمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثلَ رَحَاهَا ... ويَرى الليلَ مَحَاهَا
ظُلَمًا طالتْ لِحَاها . . .

* * *

---

(١) نص عبارته : « دى مش أدّى » ...

وسُرّ (النابغة) وازدهى ، وجعل يقول : طالتْ لِحَاها ، طالت لحاها .
وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجىء ساعى (البريد المستعجل) إلى الندىّ ، وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ، بندىٍّ كذا .

وجعل الرجلُ يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولتْ أعناقُ الناس ، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يدَه يتناول الرسالة وكأنه ملِكٌ من القدماء أُسْقِطَ له كتابٌ بالفَتح العظيم وبضم دولةٍ إلى دولته .

ثم ترك الرسالةَ بين أصابعه يقلبها ولا يفُضُّها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون وقال له : هذا عجيبٌ يا أخى ، كيف هذا ؟ إن هذا لا يُصدَّق ؛ إنك لم تُلقِها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة . . . .

المجنون

٤

وضاق « نابغةُ القرن العشرين » بحُمق المجنون الآخر ؛ ورآه داهيةَ دَوَاه ، كلما تَعاقَلَ أو تَحاذَقَ لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو : فلا يبرَحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة ، ولا يزال كأنه يَسُبُّه فى عقله ؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس ، فدفع إليه الرسالةَ التى جاء بها (البريد المستعجل) وقال له : خذ هذه فاذهبْ فألقِها فى دار البريد ، فسيجىء بها الساعى مرة أخرى ، ثم تذهبُ الثانيةَ فتلقيها ، ويعود فيجىء بها ، وتكونُ أنت تذهب ويكونُ هو يجىء ، فنضحكُ منه ويضحكون . . . .

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكم يجىء ذاك ؟

فغمزه (النابغة) بعينِه أن اسكتْ ؛ فتَغافَلَ س . ع ، وقال : كم تريد أن يجىءَ الساعى ليهتفَ بنابغة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأى ، فلستُ قائمًا حتى أعرفَ كم مرةً أذهب ؛ فإن الساعى لايجىء إلا راكبًا ، وأنا لاأذهبُ إلا راجلاً ، وإن لى رجلَىْ إنسان لارجلَىْ دابة . . .

قال (النابغة) : سبحان الله ؟ بقليلٍ من الجنون يَخرُجُ من الإنسان مجنونٌ كامل مُسْتَلَبُ العقل . بَيْدَ أنه لايأتى النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير ، ومن النبوغ كلِّه بجميع وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرّقِها وصعوبةِ اجتماعها لإنسانٍ واحد (كنابغة القرن العشرين) ، فهو الذى توافَتْ إليه كلُّ هذه الأسباب ، وتوازَنَتْ فيه كلُّ تلك الخلال . إنه ليس الشأنُ فى العلم ولا فى التعليم ؛ ولكنما الشأنُ فى الموهبة التى تُبدعُ الابتكارَ ، كموهبة (نابغة القرن العشرين) ؛ فبها تجىء أعماله منسجِمَةً دالَّةً بنفسها على نفسها ؛ ومتميزةً مع كونها منسجمةً دالةً بنفسها على نفسها ؛ ومتلائمةً مع كونها متميزةً دالةً بنفسها على نفسها . . .

هذا س . ع . كان الأولَ بين خرِّيجى مدرسة دار العلوم ، مدرسةِ الأدب والعربية ، والمنطق والتحذلُق ، وبلاغةِ اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتابَ يـُلقى فى البريد وعليه طابَعٌ واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يـَرى بعينَىْ رأسه أربعةَ طوابعَ على هذه الرسالة المـُعَـنْـوَنَـةِ باسم (نابغة القرن العشرين) ، فلا يـُدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصلَ إلىَّ أنا أربعَ مرات . . . .

فطرب المجنونُ الآخرُ ، واهتزَّ فى مجلسه ، وصفَّق بيديه ، وقال : « مما حفظناه» هذا الحديث : « يـُحاسِبُ الله الناسَ على قدر عقولهم » . فلا تؤاخذْ س. ع . فإن مدرسة دار العلوم تعلـّمهم : « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعةُ أوجه ، ولكنها لاتعلمهم فيها أربعة طوابع . . . .

ثم التفتَ إلى س . ع . وقال له : لاعليك، فأنا صاحبـُه وخـَلـيطـُه ، وحامِلُ عِلمه وراوِيةُ أدبه ، وأكبرُ دُعاتِه وثِقـَاتِه ، وما علمتُ هذه الحكمةَ منه إلا فى هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائلٍ أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوابع ، فيجىء به الساعى عشر مرات .

قال (النابغة) : وهذا أيضًا . . . ؟

« وما شرُّ الثلاثة أُمَّ عمرو * بصاحِبِك الذى لاتصحبينَ » ؛ إن الشمعةَ فى يد العاقل تكونُ للضوء فقط ، ولكنها فى يد المجنون للضوءِ ولإحراقِ أصابعه . . . كم الساعةُ الآن ؟

قلنا : هى التاسعة .

قال : ومتى ينصرفُ أهلُ هذا الندىّ ؟

قلنا : لتَمامِ الثانيةَ عشرة .

قال : فإذا كان الساعى يتردد فى كل ساعةٍ مرة ، فهى أربعُ مرات إلى أن ينفضّ المجتمعون هنا. وبين ذلك ما يكونُ قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين) ، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعدَ ذلك فلا يجد الساعى هنا أحداً ، فلا تكون فائدةٌ من مجيئه . . .

فصفـّق المجنونُ الآخر وقال : هذا وأبيك هو التّهدِّى إلى وجهِ الرأى وسَدادِه ، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذى يقوم على أُصولِ الحساب والجغرافيا . . .
« ومما حفظناه » هذا الحديث : « لا مالَ أعْوَدُ من العقل » . فأربعةُ طوابع ، لأربعِ مرات ، فى أربعِ ساعات ؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير ؛ ولا مالَ أعودُ من العقل . . .

* * *

ورضِيِ (النابغةُ) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضَعْفةٌ إن فيك لَبقيةً تعقِلُ بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسَّها فى ثوبه . قلنا : ولكن ألا تَفُضُّها لنعرفَ ما فيها ؟

فضحك وقال : أئِنْ جارَيتُكم فى باب المُطايبةِ والنادرة ، وجاريتُ هذا الأبلهَ فى باب جُنونِه وحُمقِه — تحسبون أن الأمرَ على ذلك ، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين ، كما قال سعد باشا : (چورج الخامس يفاوضُ چورج الخامس) . . .؟ لَحَقٌ واللهِ أن العقلَ الكبيرَ الذى يأبى الصغائرَ ، هو الذى تأتى منه الصغائرُ أحيانًا لتُثبِتَ أنه عقل كبير ، وهكذا تَسخَرُ الحقيقةُ من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين) . . .

فغضب المجنونُ الآخر وهمَّ أن يتكلم : فقال له (النابغة) : أنت كاذِبٌ فيما ستقوله . . .
قلنا : ولكنه لم يقل شيئًا بعدُ ، فكما يجوز أن يكونَ كاذبًا يجوز أن يكونَ صادقًا .

قال : وسيُخطئُ فى رأيه الذى يُبديه . .

قلنا : ولم يُبدِ شيئًا من رأيه .

قال : ولا يعرف الحقيقةَ التى سيتكلم عنها .

قلنا : ويحك ، أدخلتَ فى عقلِ الرجل أم تَعلَمُ الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنه قياسٌ منطقىٌ يُتَوَهَّمُ اطرادُه . إنه سيقول : إنى مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه . . . قال (النابغة) : تبًّالك ، لقد رأيتُ الكلمةَ فى لسانك كأنها مكتوبةٌ بحروف المطبعة . ويحكَ يا مَرْقَعان(١) ، ألا تعرفُ أنَّ لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارُك قبل أن تتكلمَ بها ، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن ! إن كل تخطئةٍ لى منك هى اعترافٌ لى منك بصواب .

فنظر الآخرُ إليه نظرةً كان تفسيرُها فى حواجبه ، إذ مَطّ حواجبَه(٢) ورقّصها . فقال (النابغة) : ونظراته خبيثةٌ مِلْحَةُ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كماءِ البحر المرّ أُخِذَ من البحر وأُضيف إلى مِلْحه الطبيعيّ مِلح ، أكاد أتهوَّعُ من هذه النظرة فأقىء .

الآن فهمتُ معنى قولهم : « ملحةٌ فى عين الحسود » . فإن الملحَ لايغلبه إلا الملح ، كالحديدِ بالحديد يُفْلَحْ . هاتوا كأسًا من مُعتّقةِ الخمر ، ثم لينظرْ فيها الخبيثُ هذه النظرةَ ، فإن الخمر لابد مستحيلةٌ « شربة ملح إنجليزى » . . . هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمَه مأخوذ من مستنقَع . . . أهذا الذى لايستطيع أن يقول لشىء فى الدنيا : هولى، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة — يكذّب ما فى الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ، ولا يُصدّق أنها مرسَلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهبُ العقلِ هو كالجبانِ المنقطِع فى وَحْشةِ القَفْر ، فى ظلام الليل : إذا توَجّسَ حركةً ضعيفةً انقلبتْ فى وهمه قصةَ جريمةٍ ملؤها الرعبُ وفيها القتلُ والذبح ؛ ولهذا يخشى ما فى الرسالة التى جاءت من صديقى صاحب السمو . هاؤمُ اقرءوا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداهما صكٌ بألف جنيه تُدفَع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر . . . . وإرساله إلى المارستان . . .

* * *

وذهبتُ أصْلِحُ بينهما صلحًا فقلت : إن فى الحديث الشريف : « بينما

---

(١) المرقعان والمرقع : الأحمق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان . ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا ، وهو كثير فى العربية .

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ ، فقال بعضُ القوم : هذا مجنون . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذا مُصاب ؛ إنما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله » .

فقال صاحبُ المتن : « مما حفظناه » إنما المجنونُ المقيم على معصية الله .

قلت : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . .

قال المجنون : « مما حفظناه » : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . .

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامى .

قال (النابغة) : أنبأتكم أن هذا الأبلهَ يَضِلُّ فى داره كما يضلُّ الأعرابىُّ فى الصحراء ؛ وأن الأسطولَ الإنجليزى لو استقرَّ فى ساقيةٍ يدورُ فيها ثَور ، لكان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرار العقلِ فى رأس هذا الأبله ؟ . . .

فاحْتَدَمَ الآخر وهمّ أن يقول : « مما حفظناه » ، ولكنى أسكتُّه وقلت (للنابغة) : إنك دائماً فى ذِروة العالمَ ، فلا غروَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية . « والنوابغ » هم فى أنفسِهم نوابغ ، ولكنهم فى رأى الناس مَرْضَى بمرضِ الصعودِ الخيالىّ إلى ذِروةِ العالم . ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المرضى بمرض النزولِ الحقيقىّ إلى حَضيضِ الآدمية ؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالهم ، ثم تكون عقولُهم من أفكارهم ، فيكونُ هذا هو الجنونَ فى عقولهم ؛ وذلك معنى الحديث : « إنما المجنونُ المقيم على معصية الله » .

قال (النابغة) : لَعَمْرى إن هذا هو الحق ؛ فنبوغُ العقل مرَضٌ من أمراضِ السموّ فيه ؛ فالشاعرُ العظيم مجنونٌ بالكون الذى يتخيَّله فى فكره ، والعاشقُ مجنون بكونٍ آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنون بالكون الذى يَدأبُ فى معرفته ؛ ونابغةُ القرن العشرين مجنون . . . لا . لا . قد نسينا ا . ش ، فهو مجنون ، و س . ع فهو مجنون .

وكلُّ الناس مجْنونٌ بليلَى ... وليـلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقّ ليلى ألاّ تقرّ لهم ، إذ هى لا تقر إلا لنابغةِ القرن العشرين وحده ؛ وما أعجبَ سِحرَ المرأة فى الكون النفسانىّ للرجال ؛ أما فى الكون الحقيقى فهى

أنثى كإناثِ البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجالِ من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارةَ إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ، ولا يكتبون « أوراق الورد » . . . وإناثُ البهائم أُمَّاتٌ[1] لا غير . ولكنَّ العجيبَ أن ذكورتَها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورةُ طُفَيلية في الدنيا ، والطفيليُّ لا يأكلُ إلا بحيلة يحتالُ بها ؛ فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحيكَ وأكاذيب . ولهذا كان عشقُ الرجالِ للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيكِ والحِيَلِ والغفلةِ والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخرُه فهو آخرُ الحيلة والأُكذوبة ، وهو قولُ الطفَيليّ : قد شبِعتُ وقد رَوِيت . . . ويحكم ، أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجبَ سِحرَ المرأة في الكون النفسانيّ للرجال .

قال : نعم هذا هو . إنه سحرٌ لا أعجبَ منه في هذا الكونِ النفساني إلا سحرُ الذهب ؛ فلو مُسِخَت المرأةُ الجميلةُ شيئًا من الأشياء لكانت سَبيكةً ذهبيةً تلمع ؛ ولهذا يُوجدُ الذهبُ اللصوصَ في الدنيا ، وتُوجِد المرأةُ الجميلةُ لصوصًا آخرين ، فيجب أن يُصان الذهبُ وأن تُصانَ المرأة .

قلت : ولكن أليس من المالِ فضةٌ ، وهي تُوجِدُ اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفي النساء كذلك فضةٌ ، وفيهن النّحاس ؛ ولو أنتَ ألقيتَ ريالاً في الطريق لأحدثتَ معركة يختصمُ فيها رجلان ، ثم لا يذهبُ بالريال إلا الأقوى ، ولو تركتَ قرشًا لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عَضَّ الآخر . . .

ولكن (فُورد) الغنيَّ الأمريكي العظيمَ الذي يجمع يدَه على أربعمائة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلَى) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء . . .

قلت : فإني أحسبك أعلمتَني أن اسمَها فاطمة لا ليلى .

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكلُّ الناس مجنونٌ بفاطمة ، وفاطمُ لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

---

(١) يقال في غير العاقل : أمات ، وفي العاقل : أمهات .

قال : إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر . . . أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل ، فهى فاطمة ليصحّ الوزن . . .

قلت : يُشْبِه والله ألا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حَسَبَ الوزن والبحر ، فاسمها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتُنْ ...

* * *

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فإنه لَيقال : إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس ؟ .

قال : إن ذلك لَيقال (وهو الأصح) ، ثم أطرق يفكر . وبدا عليه أنه مَدهوش ذاهبُ العقل ، كأنه من قلبه على مسافة أبعدَ من المسافة التى بينه وبين عقلهِ . وخُيل إلىَّ أن النساءَ قد حُشِرْن جميعًا فى رأسه ، ومرت كلٌّ واحدة تَعرض مفاتِنَها وغزَلَها ، وتلاثم هَذَيانَه بهذيانٍ من جمالها ، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرِض ويَتخيَّرْ . ثم اضطرب كالذى يحاولُ أنْ يُمسك بشىء أفاتَ منه ؛ فلم ينبّهه إلاّ قولُ المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت إنه داءٌ وجنون . . .

قال : اسكتْ يا ويلك لقد أطفأتَ الأنوارَ بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرقصٌ عظيم تَسطع الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض ؛ وترقُصُ فيه الجميلات من الطويلة والقصيرةِ والممشوقةِ والبادنة ، فجئتَ بالداءِ والجنونِ فَبحَانَ الله فأخرجتَنى عنهن إليك . أحسبُ أنك لو انتحرتَ لصَلُحَ العالَم أو صلُحتُ أنا على الأقل ... فإذا أردتَ أن تشنُقَ نفسَك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيَّداً فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار . . . على أن رأسك الفارغَ مشنوق فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليومِ إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنقِ عقلى (على الأصح) . « ومما حفظناه » قولُ الأحنف بن قَيس : إنى لأُجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتَبيَّنُ ذلك فى « عقلى » . . .

فلم يَرُعْنا إلا قيامُ المجنونِ مسلَّحًا بحذائه فى يده . . . وهو حِذاء عتيقٌ غليظ يقتلُ بضربةٍ واحدة ؛ فحُلنا بينهما وأثبتْناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجلٌ

قد غُلِبَ على عقله فلا يدرى ما يقول ؛ فإذا هو دلّ على أنه مجنون ، أفلا تَدُلُّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيَكَ فى الحب ؛ وما نشُكُّ أنك قد أطلتَ التفكيرَ ليكونَ الجوابُ دقيقًا ، فإنك (نابغة القرن العشرين) ، فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك .

قال : نعم إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطال الفكرَ فى الجواب . فاكتب يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغةُ القرن العشرين مجلسَ الإملاءِ مُرتجِلاً فقال[1] : قصةُ الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأةَ من ضلعه . فأولُ علاماتِ الحب أن يشعرَ الرجل بالألم كأن المرأةَ التى أحبها كسَرَتْ له ضلعًا . . . وكل قديم فى الحب هو قديمٌ بمعنًى غيرِ معقول ، وكلُّ جديد فيه هو جديدٌ بمعنًى غيرِ مفهوم ؛ فغيرُ المعقولِ وغير المفهوم هو الحب .

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأتْ وبقيتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى الصدق من بقاءِ الحب حيًّا بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ .

والعاشقُ مجنون . وجنونهُ مجنونٌ أيضًا ، فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً ، ويرى مع ذلك أنها لا تزالُ حمراء ، ثم يُمْعِنُ فى خياله فيراها وردة من الورد . . .

وإذا سألتَه أن يصفَ الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضًا مجنونَ الجنونِ ، كالذى يرى قمرَ السماء أنه قد تَفَتَّتَ وتَناثَر ووقَع فى الروضةِ ، فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيضَ الجميلَ الذكى . . .

والمجنونُ يرى الدنيا بجنونه والعاقلُ يراها بعقله ؛ ولكنّ العاشقَ المخبولَ لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقية من ذلك ، فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

(والمجهولُ) إذا أراد أن يَظهرَ فى دماغ بشَرىٍّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق . . .

ولا صعوبةَ فى الحكم على شىء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخيرُ والشر امرأةً معشوقة . أما أوصافُ الشعراء والكتَّابِ للجمال والحب فهى كلّها تقليدٌ قد

---

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط .

توسَّعوا فيه ؛ والأصلُ أن ثوراً أحب بقرةً فكان يقول لها : يا نجمةَ القطب التى نزلتْ من السماء لتدورَ فى الساقية كما دارت فى الفَلَك . . .

قال (النابغة) : هذا رأيى فى حب العاشقين ؛ أما حبى أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك : فلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب مَتْنٌ كقولهم : حروفُ القلقلة يجمعها قولك (قطْبُ جَد) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها) ؟

فتضاحكَ (النابغة) ، وقال : تكاثرت الظباءُ على خراش ، فلكيلا ننسى . . . إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلى ، والواو وردة ، والراء رَباب ، والدال دَلال ، والزاى زكية ، والهاء هند ، والراء رَباب . . .

قلنا : رباب قد مضت فى (ورد) .

قال : كنا تهاجرْنا مدةً ثم اصطلحْنا بعد هند . . .

* * *

قلت : هكذا « النوابغ » فإن رجلاً أديبًا كانت كنيته (أبا العباس) فلما « نبغ » صيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفتقَ له نبوغه أن يجعلها تاريخًا يَعرف منها عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفًا حتى مات وهى هكذا :

أبو العَير طَرَدْ طيل طَليرى بَك بَك بَك . . . . . .

* * *

(١) العير : الحمار وتكنى بعض الحمقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير) .

المجنون

٥

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفَّه الطربُ لذكر صواحبه وجميلاته من فاطمة إلى رَباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صَدَّق نفسَه، فإن قوةَ الضبطِ في عقله إما معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجه تَخَيَّل منه خيَالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده، إذ كان عالَمُه أكثرُه في داخله لا في العالَم، فإذا توهَّم أو أحسَّ أو شعَرَ، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء؛ فليس يَحتملُ عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضي منفردةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالبٌ على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأنَ لها بالواقع، ولا شأنَ للواقع بها، وإنما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ له، لا كما تتمثَّلُ فيما حوله.

فبين كل مجنونٍ وبين ما حولَه دماغُه المُتَدَجِّي بالغُيوم العقلية، لا تزال تَعْرِضُ له الغَيمةُ بعد الغيمة من اختلالِ بعض المراكز العصبية فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا الاختلال، وقيامِ الطبيعة فيها على هذا الفساد.

ومن ذلك تنقلبُ الكلمةُ من الكلام، وإنها لحادثةٌ تامةٌ في عقل المجنون كالقصةِ الواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونهاية، لا يُخامِرُه فيها الشك، ولا يَعْتَرِيها التكذيب؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذهنه من وراءِ سمعِه وبصرِه قيامَ الحقيقة في الأبصار والأسماع؟

ولحواسِّ المجنون جِهَتان في العمل، لأنها بين كَوْنَين؛ أحدُهما الكونُ الخَرِبُ الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين): إن في داخلِ عينيه مِنظاراً يرى به الأشياءَ في غيرِ حقائقِها، أي في حقائقها . . . .

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال: إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كنابغة القرن العشرين، ذُكِرَتْ أمامه قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلها، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال يا وَيْحهم! كَذَبوا عليها وعليَّ . . . فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال : كان من خبر القيصرة أنها رأته فأحبتني ، وعلمتْ من كل وجه يمكن أن يعلمَ منه قلبُها أني أنا رجلُها لا القيصر ؛ فما زالتْ بعدها تُناكدُ القيصرَ وتَلْتَوِى عليه ولا تصلُح له فى شيء حتى يَئِس منها فطلّقها ، فحملتْ كنوزَها وحِلاها ولجأتْ إلى حبيبها ، ثم تَبِعتْها نفسُ القيصر ولم يُطِق العيشَ بعدَها فانتحر . . . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوزٍ ، فأخفاها هو فى مكان حريزٍ لا يعلمه إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذى أحرزَها فيه إلا إذا نام . . . . كيلا يراه أحدٌ من الشيوعيين فيتعقّبَه فيعلمَ مقرَّها ؛ ولهذا كان من الحكمة أن يَنسى المكانَ إذا استيقظ . . . فقد يَنزِلُ مرةً فيُخبِرُ به أو يغلبه الشوق مرة على « عقله » . . . فيذهبُ إليه ؛ فعسى أن يراه من يَنِمُّ بذلك ، فتفتضِحُ الحبيبة وتؤخَذُ منه .

قال : وإن القيصرةَ هى تحتاط أيضًا مثلَ ذلك فتراسلُه كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده ، وإن أخوفَ ما يخافه أن يغلبَها جنونُ الحب يومًا فتطيشَ طيشَ المرأة ، فتزورَه فى هذا المارستان . . . . . . فقد تُقتَلُ إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهناك (نابغة) آخر ثبتَ فى ذهنه أن امرأةً من أجمل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغَيْرة ، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتَقتل نفسَها إذا علمتْ أن لصاحبها هوًى فى امرأةٍ أخرى . وخبَّلتْه هذه الفكرةُ ، فاعتقد أن حبيبتَه من جنون غَيرتها واقعةٌ بين السلامة والتلَف ؛ ثم توهمَ ذاتَ يوم أن واشيًا قد أعلمها أن النساءَ افتتَنَّ به بأقطار صوابِها ، فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفِىَ غيظَها منه ، ثم تنتحرَ أمام عينيه . . . وأدار (النابغة) الفكرَ فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخُنْها بالغَيب . . . فلم يهتدِ إلى مَقْنَعٍ تَستَيقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ . . . ففعل وجَبَّ خِصيتيه بيده ليقدّمَهما بُرهانًا أنه لها وحدها . . .

* * *

قلنا : وطَرِب (نابغةُ القرن العشرين) لذكر صواحِبه وجميلاتهِ ، فجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم   ما لذةُ العيشِ إلا للمجانينِ

فقال المجنون الآخر «مما حفظناه» : ما لذة «الخبز» إلا للمجانينِ . . .

فضحك (النابغة) : وقال : ما أسخفَكَ مِنْ أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تَهَجَّأَ كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف . و . ل . . .

إنه طفلٌ عمرهُ ثلاثون سنة وفيه دائمًا غضبُ الطفل ونَزَقُه وحماقتُه ، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشُه وأحلامُه ؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل . . . وهو من الضعف ، وشدةِ الحاجة إلى العناية فى حياطتِه وسياسته والبِرِّ به كطفل صغير — بحيث يُخيَّل إلىَّ أحيانًا أنى أُمه . . . . . .

قلنا : وتَنسى فى هذه الحالة أنك رجل ؟ .

قال : وأنتم كذلك تتهموننى بالنسيان ، وهو شرعا جِهةٌ مُلزِمَةٌ للحكم بالجنون فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل ؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخر لمعنى جنونى ؛ وقد أعلمتُكم ما أكره من الكلام .

قلتُ : لا ، النسيانَ لا يكون منك نسيانًا بمعناه فى المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تَواثُبِ الأفكارِ النابغة وتزاحُمِها فى تَوارُدِها على العقل . فإذا تواثبتْ وتزاحمتْ كان أمرُها إلى أن يُنسِيَ بعضُها بعضًا ، فلا ينطلقُ منها إلا القوىُّ النابغُ حقَّ نبوغِه ، فيجىءُ كالمنقطِع مما قبله ؛فيُحْسَبُ ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلحُ الأفكارُ فى هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرباً . . . . . . فيكون أمرُها إلى أن تجىءَ كلُّها معًا على اختلافِ معانيها وتناقضِها ؛ فيُحْسَب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهلُ العلةَ «النبوغية» ؛ وعذرُه جهلُ هذه العلة ، وهى فى دلالة العقل ليست نسيانًا ولا ذهولاً .

قال : فأعْلِمْنى كيف نسيانُ المجانين ، فقد خَفِىَ علىَّ أن أدركَ هذا الأمر العجيبَ فيهم ، ولست أدرى كيف يفوتُهم ما استدلى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقرَّ وحَصَل فى عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيانُ تُهمةً بالجنون إلا فى أحوالٍ ثلاثٍ ، جاءت بكلّها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظة :

فأما الأولى : فما يُروَى عن رجل كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّر حتى أدركه الخرَف ؛ فجاءه كاتبه يومًا يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت ، فدفع إلى غلامٍ له دنانيرَ يشترى بها كفنًا ، ودنانيرَ أخرى ويتصدق بها على القبر ، ثم قال لغلام آخر ؛ امض إلى صاحبنا وغاسِل موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت : يا سيدى ابعثْ خلف فلانة وهى جارَةٌ لنا تغسلها . قال يا فلان : ما تدعُ عقلَك فى حزنٍ ولا فرح . كيف نُدخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال : لا والله ما يغسلها إلا فلان :

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : يا سيدى كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة ؟ . . . والله لقد أُنسيت . . .

وأما الحالةُ الثانية : فما يُروى عن رجل كان نائمًا فى ليلةٍ باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردتْ ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ بردَّها فأيقظتْه ، فانتبه فَزِعًا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه ، أدركونى لئلا تكونَ فى يده حديدةٌ يضربنى بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضًا بيده على يده وقد نسى أنها يدُه . . .

وأما الثالثةُ : فهى روايةٌ عن رجل قد وَرِثَ نصفَ دار ، ففكر طويلاً كيف تخلُصُ الدارُ كلُّها له ثم اهتدى إلى الوسيلة؛ فذهب إلى رجل وقال له : أريد أن أبيعَك حصتى من الدار وأشترى بثمنها النصفَ الباقى لتصير الدارُ كلّها لى . . .

* * *

قال (النابغة) : لَعمرى إن هذا لهو الجنون ، وما يُذْكَر مع هؤلاء مجنون المتن ولا « غيرُه » . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يرفع نفسَه عن الجنون لجاء فى الجنون بما يُذهِلُ « العقول » . . .

ثم نظر فإذا النابغة يتحفّز له ... ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ

حذِراً كأنك غِرٌ ، وكن ذاكِراً كأنك ناسٍ . فهذا هو نسيانُ نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين .

قال (النابغة) : ولكن قد فسد قولُ الشاعر : ما لذةُ العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيتْ مع الجنون لذه .

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض ، وإنما يريد العشاقَ المجانينَ بالجمال ؛ وجنونُ العاشق فى هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسَنَات العظَمة ، فليست كغيرها من العيوب .

قال : فيجب أن أصنعَ بيتًا آخرَ يفسِّر ذلك الشعرَ ليستقيمَ لى التمثل به ، ثم فكَّر وهَمْهمَ ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأئتمنُ س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة :

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكونَ الشعر هكذا :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... ما لذةُ العيشِ إلا للمجانينِ
العقلُ إن حكم العُشَّاقَ أثقلُ من ... فقرٍ تحكَّمَ فى رزْقِ المساكينِ

ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلت لهم ... ما لذة العيش إلا للمجانينِ
إن العيوبَ عن المجنون دافعةٌ ... بأنه « نابغٌ فى القرن عشرينِ » ...

وضحكنا جميعًا ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من ائتمن المجنون على سرٍّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره . . .

* * *

ثم قال : وَدِدْتُ والله أن يكونَ س . ع . هذا « نابغة » ، ولكنى سأجعله نابغة ، فقد صار له علىَّ حقُّ الصديق وهو حقٌّ لا أضيِّعه ولا أُخِلُّ به . فإذا احتجتَ يا س . ع . إلى خطابٍ رنان تلقيه فى حفْلٍ عظيم ، أو قصيدةٍ تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىَّ فإنى ملجأ لك . ومتى انتحلتَ شعرى كنتَ عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابنَ الرومى ، فإن هؤلاء القُدامى لم ينفعهم إلا أنى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناسَ إذ أنى لم أكن فيهم . . .

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلتُ نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنًى هذا أحسنُ ، فإنه هو فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهدُ العظيمُ الذى لا يقول فى حُسنٍ هذا أحسنٌ لأنه فوقَ الشهوة ، ولا فى نعيمٍ هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مالٍ هذا أكثر لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنتَ تَرعى غنمًا لكنتَ الحقيقَ فىَّ عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلَح بين الذئب والغنم .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذاتَ ليلة فقال فى نفسه : يا رب . مَن زوجتى فى الجنة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاثَ ليال أنها جاريةٌ سوداءُ فى أرض كذا . فجاء تلك الأرضَ فسأل عن الجارية ، فقال له رجلٌ ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداءَ مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهارَ فإذا أعطيناها فَطُورها تصدقتْ به ، وكانت لا تهدأ الليلَ ولا تنام فضجرنا منها .

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنمًا للقوم فى الصحراء :

فذهب إلى الصحراء فإذا هى قائمة فى صلاتها . ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلَّم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشِّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئابُ مع الأغنامِ ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم .

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأى عجيب فى هذا ؟ إن الذئبَ والشاةَ ، والأسدَ والغزالَ ، والثعبانَ والعصفور ، وكلٌّ آكل ومأكول من الأحياء ، لو هى دخلتْ فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمتْ كلها صَفًّا واحداً يركَع ويسجد . فهذه الجاريةُ نشرتَ رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئنّ بالإيمان

فوقع الذئبُ منها فى دائرةٍ مغناطيسية ، فسُلبَ وحشيتَه ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانَسَتْ فيه الحياةُ بما حولَها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرجُلِ المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادةٍ واحدة وفكرةٍ واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئبُ مسجداً يَرْتجُّ بالمصلّين ، أتُراه يَصُفُّ أرْبعتَهُ ويقفُ بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاتَه الذئبيةَ فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسبابِ إلى مُسَبّبِها ، ومما فى القلب إلى ما فوقَ القلب ؟ إن هؤلاء جميعًا يصلّون بجوارحهم وبينَهم وبين أرواحِهم طولُ الدنيا وعَرضُها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُه بما يَغلب عليه ، كما يتصل فكرُ اللص بيده ، وفكرُ العاشِق بعينه ، وفكرُ الطفَيلى بمَعدتهِ . . . فاسمُها عندهم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال (النابغة) : ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشاةَ لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئًا .

وقال الآخر : « مما حفظناه » رتَعَ الذئبُ فى الغنم ، ولم يقولوا صلَّى الذئب فى الغنم ، فلا أفهم شيئًا .

قلت : سأزيدكما عَدَمَ فهم . . . إن قلب تلك المرأةِ العظيمةِ الطاهرةِ متصلٌ بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذى لا يَطعم ولا يَشرب ولا يَلبس ولا يَشتهِى ولا يَطمع فى شيء ولا يُحرز شيئًا ، وإنما طبيعتُه أشواقُه الكونيةُ ، واتصالهُ بنَفَحَات القوة الأزلية المسخِّرةِ للوجود كلِّه . فانتشرتْ هذه الموجةُ الكهربائيةُ الأثيريةُ حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتَجَّ فيها وغمرتْه الروحانيةُ الغالبةُ ، فإذا هو يفتح عينَه على كونٍ غريب قد تجلَّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بائتلاف كلِّ شيء مع كل شى ، واجتماعِ المتنافِرَيْن فى حالة معروفةٍ لا فى حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظًا ، ولكنه فى رُوح النوم ، وشُلَّتْ فيه الذئبيةُ الطبيعيةُ ، فإذا هو يحملُ الأنيابَ والأظافرُ

وقد أنسِيَ استعمالَها ؛ وبقيتْ حركتُه الحيوانيةُ ، ولكن تعطلت بواعثُها فبَطَل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئبُ الذى هو فى الذئب ، وبقى الحيوانُ حيًّا ككل الأحياء ، فناسب الشاةَ وفزع إليها إذ لم تكن العلاقةُ بينهما علاقةَ جسم الآكلِ بجسمِ الأكيلة ، بل علاقة الروح الحيِّ بروح حيٍّ مثلِه[1] .

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمتُ ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم . أكتبْ يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسَه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن ، وبدون كتُب ألبتة . . . وكان هذا أجمعَ لرأيه وأذهَنَ له وأدعى لأنّ يتوفّرَ على الإملاء بكل « مواهبه العقلية » ؛ ولما أن فكر النابغةُ وأعطى النظرَ حقَّه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوةِ التفنّن والابتكار ، قال مرتجِلا : إن فلسفةَ الذئب والشاة حين لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه ، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين . . . . . .

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعضَ الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يَقدحُ طولَ الليلِ فكرتَه   وفسَّرَ الماءَ بعد الجهدِ بالماءِ

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم إنجليزى كان قد اقتنص ذئباً هنغارياً وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأياً ؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استثقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك ؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى ؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائماً ورأسه على الذئب ، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس .

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنتَ نَفَطَوَيْه أو سيبوَيْه لما كنت عندى إلا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه . . .

لقد كنتُ أرى الكلامَ فى تلك الفلسفةِ طريقًا نَزِهًا جميلا حفَّته الأشجارُ والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتْ فى سَوَائه ((تُمبيلاتُ)) الأفكار خاطفةً كالبرق . فلما تكلمتَ أنت انتهينا من سخافتك إلى طريقٍ حجرىّ تُقَعْقِعُ فيه عرباتُ النقل تجرها البغالُ البطيئة .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردتُ والله مَسَاءَتَكَ ولو أردتُها لقلت وفسر الماءَ بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسيرُ الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح .

قال (النابغة) : ولكنه تفسير مُفْرِطُ السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إنى مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذى حكاه الجاحظ قال : سمعتُ رجلا يقول لآخر : ضربنا الساعةَ زِنديقًا . قال الآخر : وأىُّ شىء الزنديقا ؟ قال الذى يُقَطِّع المزّيقًا . قال : وكيف علمتَ أنه يقطِّع المزّيقًا ؟

قال : رأيته يأكل التين بالخل . . . .

* * *

المجنون

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أنحائه ينصدعُ من وجه إلى وجه ، ويمرُّ في معنًى إلى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعد ما انطلقا في القول وانفتح القُفلُ الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مرّ في الندىّ بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزْبَلَة أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضَها في نفوسِ الأحداث من فتْياننا وفتَياتنا ، فقلت (لنابغة القرن العشرين) : أتقرأُ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرةً واحدة ثم لم أُعاوِدْ ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها .

قلنا : هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ ، إذ ليس لكم حِسُّهم المرهَفُ ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرُهم المتعلقةُ بما فوق الطبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغة) إلا وهو بين عالَمين على طرَف مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خرّاجٌ ولاّجٌ بين العالَمين ؛ وله نفسٌ مركّبةٌ تركيبَها على نواميسَ معروفة وأخرى مجهولة ؛ فهي تأخذ من الظاهر والباطن معًا ، ويحصرها المكانُ مرةٍ ويُفْلِتُها مرة ، وتكون أحيانًا في زمانِ الأرض ، وأحيانًا في زمن الكواكب من القمر فصاعداً . . . . . ولكن . . . .

فقطع عليّ وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقولَ التي تَحصرُ من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان ، لا تُوجِدُ أهلَها إلا الهمومَ والأحزانَ ، والمطامع السافلةَ ، والأفعالَ الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوقَ التراب .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكونَ معانى التراب فوقهم

وتحتَهم ومِنْ حولِهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترابيًّا فى كل معانيه ولكن . . .

قال : وزد على ذلك أنهم مقيَّدون تقييدَ المجانين ، غير أن حِبالَهم وسلاسلَهم عقليةٌ غيرُ منظورة ؛ وبتَغْليلِهم تغليلَ المجانين يسمُّون أنفسَهم عقلاء ، وأعقلُهم أثقلُهم قيوداً ، وهذا من الغرابة كما ترى .

قلت : نعم ، أما العقلاءُ بحقيقة العقل ، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخَرون منهم ، إذ كانوا فى حالٍ كحالِ المنطلِق من المقيَّد ، وفى موضعٍ كموضع المعافَى من المبتلَى . ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادةَ ، إذ ليس لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى خُصَّ به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه (نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادةَ لم يشعروا بها ؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ، ولكن لا يفوتُهم الشعورُ بها أبداً فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى دأبُه أبداً أن يَنسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبِه . ولكن . . . .

قال : والذى هو أهمُّ من كل ما سبق ؛ أن أعظمَ خصائص هذا العقل الضاحك الساخرِ العابثِ أن يطردَ عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنِّبَه أن يخسرَ شيئاً من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابَه مع الأشياء حساباً يهوديًّا لا بد فيه من ربح خمسين فى المائة . . . . . .

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها عليه ، إذ يضع بلاهتَه دائماً فى أرواح الأشياء وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه ، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمٌّ تُضاحكُ ابنَها وتُلاعبه . ولكن . . .

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيةُ إلا شذوذاً فى أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) روايةً حين قرأ الرواية ! .

قال : هذه نكتةُ النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلَنا يتلقَّى فى نفسه وحىَ الأثير وإشاراتِ الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن (نابغة القرن العشرين) سيقرأ روايته ، فكان يتحرَّى معانىَ غيرَ معانيه ويتوخَّى بهذه القصة وضعًا آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنة ، ولا لصٌّ عارم ، ولا قاتلٌ سفَّاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمةٌ تقول حيث وحيث . . . .

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة فى الورق ، ولصٍّ بين الحروف المطبعية ، وقاتل لا يقتل إلا كلامًا ، وسجن ومحكَّمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ، فما استوعَبْتُ القصةَ حتى عمَرتْنى أشخاصُها ، وأقْحِمْتُ منها على هَوْلٍ هائل ، فخانتنى الخائنة لعنها الله . . . ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتُها أشنعَ قِتْلة ، ومثَّلتُ بها أقبح تمثيل . ويْحَ الخائنةِ كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العِملاقُ المشبوحُ العظام المفتولُ العضَل ؟ ولكنى لستُ عملاقًا ولا مَبْنيًّا بناءَ الحائط ، ثم كان مجنونًا بشهواته جنونَ الفيل الهائج ، وكنتُ فى شهواتى عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثم كان غنيًّا غِنَى الجهَّال ، وكنت فقيراً فقرَ العلماء . والنساءُ ؛ قبح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها . وإن المرأةَ لتَمنحُ وجهَها للقرد يقبِّله إذا كان الذهبُ يتساقط من قُبُلاته . أما من كان مثلى ، أموالُه الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ ، فهو مُفلس عندهن إفلاسَ القرد فى الغابة ، فهو عندهن قُرْدٌ لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيبًا فإن اللغويين يُجرون على الشيء اسمَ ما يقاربه فى المعنى .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشيء اسم ما يقاربه فى المعنى . . . .

فتربَّدَ وجهُ (النابغة) غضبًا وقال : أبِى يلعبُ هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسموننى قِرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) . . . سَوْأَةً عليك أيها الصبيُّ المعمَّر . . . ألا فدعونى أؤدبه أدبَ

الصبيان فإن اللطمةَ القوية على وجه الطفل المكابرِ فى حقيقة تُلمِسُه الحقيقةَ التى يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقربِ طريق . . .

قال ا . ش: أنت قلت ، لا هو . على أنك لستَ قِرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيِّلة متماجِنة ، قد تضع البرذَعةَ على ظهر الأمير وتجعله حمارَها ، فيُعْجبُ الأميرُ أنَّ يكون حمارَها . ولست قرداً مع قَرَّادٍ إلى جانب عنز وكلب . . .

قال : الآن علمت السبب، فإن الخائنة كانت متخيِّلةً مؤلفةَ كتُب وروايات ، والمرأة التى تؤلف الكتب ، غيرُ بعيدٍ أن تؤلفَ الرجُلَ أيضًا ، وتجعله قصةً هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية . أما إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعةً من السنين ؛ فهذه وهذه كلٌّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى . . . يومٌ للعُطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجلَ كالماء فى سبيل التجمد . . . لا يشتعل ، فضلا عن أن يَسْتَعِر ، فضلا عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهُها إلا إحدى وثيقتين : فإما جميلةٌ ، فوجهها وثيقة بأن لها ديونًا على الرجال ؛ وإما غيرُ جميلة ، فوجهُها (مخالَصة) من كل الديون . . . . . .

قلنا : هذا فى الخائنة . فكيف سرقك اللص ولست غنيًّا ؟

قال : هذه هى نكتة النبوغ ؛ وفى النبوغ أشياء لاينكشف تفسيرُها، وليس فى جهلها مضرَّةٌ على أحد ، وجهلٌ لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحثُ فى بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعملُ أعمالَه تلك بسرّ الحياة لا بسر العقل ، أى بالعقل النابغ الخاصِّ به وحده لا بالعقل الطبيعى المشترك بين الناس .

* * *

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها . . .

قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أؤلِّفها أنا تألفتْ هى لى . فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعًا انتبهتُ أنا وحدى لرواية العالم فأرى ما شئتُ أن أرى . وفى ضوء

النهار أجدُ الناسَ عقلاء ولكنى فى ظلمة الليل أُبصرهم مجانين . فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنونِ الناس وضعفِ عقولهم إذ هو يثبتُ حاجةَ هذه العقول إلى ضَرْبٍ من النسيان الأبلهِ التامّ لولاه ما عقلتْ فى نهارها ولا استقام لها أمر .

يُصْرَعُ الناسُ فى الليل صرعةَ المجانين فيُغمِضون أعينَهم ولا يرَون شيئًا . أما أنا فأرى العالَم فى الليل مسرحًا هزليًّا يضجُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذى يقطع سَرَاةَ نهارِه ، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف . . . أئِنْ رأيتَ الأسدَ بعينك أيها الأحمق وسمعتَ فى أذنيك زئيرَه ، ادّعيتَ الدعوى العريضةَ ، وزعمتَ أنك ملكتَه وقبضتَ عليه ، ولا تدرى فى هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده ، وصاح هاتوا الحبل لأقيِّدَه لا يُفْلِت ؟ . . .

قلت : فإذا كان العالم كله روايتَك فأخرج لنا فصلا من الرواية .

قال : أيُّما أحبُّ إليكم ، أن أكتبَ أو أمثِّل ؟

قلنا : بل التمثيلُ أحبُّ إلينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال : إن المجنونَ فى طبيعته ينبوعٌ من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال ، كينبوع الماء يَسُحُّ الدفعةَ بعد الدفعة ، فهنا المسرحُ ، والروايةُ الآن روايةُ الطبيب والمجنون . . .

* * *

أنت يا س . ع . عمٌّ هذا المجنون . فإذا قال لك يا عم . قل له : أنا لستُ ولكنى أخو أبيك . . . لننظر أيتنبَّهُ على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فإنه فَرْقٌ عقلىٌّ دقيق تُمتحَنُ به العقول . . .

تعالَ أيها المريض فإنى أرجو أن يكونَ شفاؤك على يدى ، وفى يدى هذه لمسةٌ من لَمَسَات المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيبُ القرن العشرين . . . .

اتّقوا أن تُغضبوه أو تخيفوه ، وأقبموا له كلّ ما يحتاج إليه ، وتحرّوا مسرتَه دائمًا ، فإن إدخالَ بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخالُ بعض العقلِ إلى رأسه .

متى أنكرتَ يا س . ع عقلَ ابنِ أخيك وما كان السببُ ؟ وكيف غَلَبَ

على عقله ؟ وهل ا . ش . هو خالُه أو أخو أمه ؟ . . .

لَطَفَ الله لك أيها المسكين . قل لى : أتتذكر أمس ؟ أتتذكر غداً ؟ . . . إن الأمس والغدَ ساقطان جميعًا من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تَبدأ لهم كلَّ يوم فقد استراحوا من ثلثى هموم الزمن فى العقلاء . وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثرَ من العقلاء للانتفاع بأنفسهم فى الضحك والمرح والطرب ، وهذا حَسْبُهم من النعمة عليهم .

قل لى أيها المَجنون : أتُحِس أن الدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أم نفسُك هى تصنعُ لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلّها كلُّ مجنون على طريقته الخاصة به ، فما هى طريقتك فى حلها ؟ .

مالَكَ لا تُجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشًا لينطلِقَ لسانهُ ، وآتُوا الطبيبَ أجرَه وافيًا وهو لا يقلُّ عن قرشين . . .

ثم مال (النابغة) على مجنون المتن وسارَّه بشىء . فقلنا ما أمرُ المال بسِرّ ؛ هذا قرشٌ للمريض وهذان قرشان للطبيب .

فقال المجنون : « مما حفظناه » كفى بالسلامة داءً .

قال « الطبيب » : هذا مريضٌ بنوع من الجنون اسمُه « مما حفظناه » وهو جنونُ النسيان الذى يضع فى مكانِ العقل كلمةً ثابتةً لا يتذكرِ المجنونُ إلا بها ؛ ومن أعراضه جنونُ الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامَى إلى جنون اللَّمس ، فلو لمستَه بإصبعك توهَّمها عقربًا فخاف من الإصبع تلمسُه خوفَه من العقرب تَلدغُه ، ولكن بقيتْ أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ، فليس هذا من مجانينِ العبقرية التى انحرفتْ عن طريقها أو شذّت فى قوّتها ؛ ولا هو ممن يَتَجَانُّ ويَتحَامقُ التماسًا للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقةٌ تَعولُنى خيرٌ من عقلٍ أعولُه .

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقة تَعولنى . . .

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونُه ، وعلاجُه البَسْطُ والسرورُ والقرش ؛ والضربُ أحيانًا . . . فإذا ثابرَ عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنون (مما ضَربناه) . . . فيعتدى المصابُ على

كل من يراه أو يُوقِعُ به ضَرِبًا ، وعلاجُه حينئذ القميصُ المرقوم[١] ؛ فإذا فَدَحتْ العلة انقلب المرضُ إلى جنون (مما قتلناه) . وعلاجُه يومئذ السلاسل والأغلال .

والحق أقول لكم إن آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطب فى القرن العشرين أن الناسَ جميعًا مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قسطًا من بعض . كأن سلْبَ العقلِ هو أيضًا حظوظٌ كحظوظ موهبةِ العقل . وأهلُ المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بمارستان الفَلَك . . .

ولكن بقيتْ أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ؛ وعندى فى الدارِ عَاطُوس إذا أشممتُه هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قوية فخرج جنونُه من أنفه . . . قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا سرتَ وحدك فى مَيدانٍ واسع كأن الميدانَ سيلتفُّ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ فى مَضيقٍ كأن المكانَ سينطبقُ عليك ؟ وإذا كنتَ فى عربة القِطار فهل يخيَّل إليك أن البيمارستان قد جره القِطار وانطلق به هاربًا ؟ وهل شعرتَ مرة أنه أوحيَ إليك أن تَنتحِر ؟

أرِنى هذا القوشَ الذى فى يدك . فمد إليه المجنون يَده بالقرش .

قال (النابغة) : انظر الآن هل تُحدثك نفسُك أن تَغْصِبَنى هذا القرشَ أو تسرِقَه منى ؟ قال : نعم .

قال (النابغة) ؛ إذن يجب أن أحرِزَه فى جيبى . . . وأسرع فأخفاه فى جيبه .

* * *

فصاح الآخر وشَغَب ، وقال سلَبَنى ونَهَبَنى . قلنا لا ينبغى أن يتصلَ بينكما شرٌّ فى تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفى الفاسفة عند (النابغة) إباحةُ السرقة والغصْب ؟

قال : فالرواية الآن هى رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو .

قل لى ويحك يا أرسطو . أعلمتَ أن فى المجانين أغنياءَ يسرقون الشيء القليلَ

---

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الإسلامى .

لا قيمةَ له وهم أغنياء وليست بهم حاجةٌ إليه . فما علةُ ذلك عندك وما وجهُه في مَقُولَة الجنون ؟

أعجزتَ عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصابَ بهذا الضَّرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيءَ بدرهم كانت قيمتُه من الدرهم وحده ، وهو غنيٌّ لا قيمةَ للدرهم في ماله فلا يَحفلُ بالشراء بَيْدَ أنه إذا سرقه كانت قيمتُه عنده من عقلِه وحيلتِه فيجيئُه بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أمواله ولا كلُّ أموال الدنيا . فهذا جنونٌ باللّذة لا بالسرقة ، وهو بذلك ضَربٌ من العشق يجعلُ الشيءَ إذا لم يُسرق كأنه المرأةُ المعشوقةُ الممتَنِعةُ على عاشقها .

والجِياعُ إذا سرقوا ليأكلوا ويُمسِكوا الرمَق على أنفسهم ، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطرارٍ جاعوا وباضطرارٍ مثلِه أكلوا ، والسارقُ هنا هو الغنيُّ الذى منعهم الإحسانَ والمعونة . . .

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاعُ لوُجدت السعادةُ في الأرض لأهل الأرض جميعًا . وكيف لك بالسعادة والناسُ مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامّةَ الكبرى أن عيوبَهم تعملُ دائمًا على أن ترى في الآخرين عيوبًا مثلَها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفَه تبنًا وفولا وشعيراً ، غيرَ أني لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وُجِدَ حمارٌ هذه همتُه وهذا عملُه فاسمه إنسانٌ لا حمار . . .

يا أرسطو إن معضلةَ المعضلاتِ أن يحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلة داخلية محْضة قائمة في نفس حمار أو ثابتةٍ في ذهنه الحمَارى . . . ومثلُ هذا أن يحاولَ حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيةٍ في ذهنِ إنسانٍ أو في قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالَم أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمارٍ مع إنسان . . . .

والمعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين ، فكان ينبغي أن تجيءَ الملائكةُ لتحاربَ الشياطينَ بالبرق والرعدِ دفاعًا عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها ، وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى إن شاء هذا الإنسانُ عملتْ ، وإن شاء عجزتْ ؛ وهي فضائلُ الأديان المنَزلةِ . فإذا منحها الإنسانُ إرادتَه وقوتَه ، فعملتْ عملَها

كان الإنسانُ هو المَلَك بل فوق المَلَك ، وإذا أضعفها ومَحَقَها كان الإنسانُ هو الشيطان وأسفلَ من الشيطان .

يا أرسطو[١] « هذا العالَم عندى كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفى . والعالَم عندى ضعفٌ ركِّب وقوةٌ ركبت . والعالم عندى لا شىء . والعالم بَيْن بَيْن . والعالم قسمان : منهم الفلاح الزراعى وذلك أفضل فلسفة طبيعية . . . والعالم فى حاجة إلى الموت والموتُ فى حاجة إليه . والأدبُ هو الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدبُ ضربان : أدبٌ نفسانى وأدبٌ مكتسَب ، وقد يكون طبيعيًّا كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخصٌ مات بلا موت ، ويحيا بلا حياة » .

أتريد يا أرسطو أن تعرفَ سرَّ تركيب العالَم ؟ الأمر يسيرٌ غيرُ عسير ، فإن سر تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك ، فدعنى أظهِرُك على هذه الحقيقة ومُدَّ يدَك بالقرش لأبينَ لك سرّ التركيب فيه . . . .

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيَّب القرش فى جيبه . فقال (النابغة) : هذا سياسىٌّ داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسىّ القرن العشرين .

ليس فى حقيقة السياسة إلا الرَّذْلُ من أفعال السياسيين . والألفاظُ السياسية التى تحملُ أكثرَ من معنى هى التى لا تحملُ معنى . فليحذر الشرقُ من كل لفظ سياسىّ يحتمل معنيين ، أو معنى ونصفَ معنى ، أو معنى وشِبْهَ معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم : ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهدَ الطبيعةُ نفسُها على أن معناه أحمر لا غير . . . وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكتَب المعاهداتُ السياسية بين أوربا والشرق .

إنهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم . . . .

---

(١) هذه الأسطر التى وضعناها بين القوسين هى من كلام المجنون بالنص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه فى العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط ، وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجىء به مذاهب الفلسفة .

ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التى أتمناها ؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين فى مظاهرة . . . . . .

وهذا الأبله الذى أمامنا ليس وطنياً ولا فيه ذرةٌ من الوطنية ؛ فإن كان وطنياً أو زعم أنه وطنى ، فليخرج القرشَ الذى فى جيبه . . . . ليكونَ فألاً حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر . . . .

* * *

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيشَ الاحتلال فى مكانه .

فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشّرطى واللص . وبحقٍّ من القانون يكون للشرطىِّ أن يفتشَ هذا اللصَّ ليخرج القرشَ من جيبه . . . .

* * *

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدى مع هذا الخبيث ؛ فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن يَنكُبَ الرشيدُ هؤلاء البرامكة ليَستَصْفىَ القرش . . .

* * *

بيد أننا منعناه أن ينكُبَ « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً فى المجنون وصعَّد فيه عينَه وصوَّب فلم ير إلا ما يذكّر بأنه رجل ، فتَهدّى إلى رأىٍ عجيب . فوقع على قدميه وتوهَّمه امرأة فى حِذائها . . . وجعل يناجِى الحذاءَ بهذه المناجاة :

إن سخافاتِ الحب هى أقوى الدليل عند أهله على أن الحبَّ غيرُ سخيف ؛ فكل فكرةٍ فى الحب مهما كانت سخيفةً ، عليها جَلالُ الحب ؛ وللحذاء فى قدميكِ يا حبيبتى جمالُ الصندوق المملوءِ ذهباً فى نظرِ البخيل ، وكل شىء منكِ أنتِ فيه سرُّ جمالِكِ أنتِ . والحذاءُ فى قدميكِ ليس حذاءً ، ولكنه بعضُ حُدودِ جسمِكِ الجميلِ ، فلا أكون كلَّ العاشقِ حتى أحيطَ بكل حُدودِكِ إلى الحِذاء .

إن جسمَكِ يا حبيبتى كالماء الجارى العذْب ؛ فى كل موضعٍ منه روحُ الماءِ كلِّه ؛ وحيثما وَقَعت القُبلة من جسمِكِ كان فيها روحُ شفتيكِ الورديتين .

هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتى ؛ وهذه قبلة على ساقِكِ ؛ وهذه قبلة على ثوبِكِ وهذه قبلة على جَيْبِكِ . . . .

وكادت يدُ (النابغة) تَخرجُ بالقرش ؛ فعضَّه المجنونُ فى كتفه عضةً وحشيةً ، فجأه الخوفُ منها فطار صوابُه ؛ فصرخ صرخةً عظيمةً دوَّى لها المكان وترددتْ كصَرْصَرَةِ البازىِّ فى الجو ، ثم اعتراه الطَّيف ، وأطبقَ عليه الجنون فاختلط وتخبَّطَ . . . . . .

(والروايةُ الآن) ؟ . . . . رواية عربة الإسعاف . . . . .

فهرست

الجزء الثانى من وحى القلم



« بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل ،
أو قَبسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم »
سعد زغلول

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثالث

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

ضبطه وصححه وعلى حواشيه
محمد سعيد العريان


وحي القلم

السمو الروحى الأعظم
والجمال الفنى فى البلاغة النبوية[1] *

لما أردت أن أكتب هذا الفصل وهممت به ، عرضت لى مسألة نظرت فيها أطلب جوابها ، ثم قدّرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان فى أوربا لعهدنا هذا رجلا يحسن العربية المبينة ، وقد بلغ فيها مبلغ أئمتها علمًا وذوقًا ، ودرس تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم درس الروح لأعمال الروح ، وتفقه فى شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة ، واستوعب أحاديثه واعتبَرها بفن النقد البيانى الذى يبحث فى خصائص الكلام عن خصائص النفس ؛ وتمثلت أنى لقيت هذا الرجل فسألته : ما هو الجمال الفنى عندك فى بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه ؟ وما سره الذى يجتمع فيه ؟

ولم يكد يخطر لى ذلك حتى انكشف الخاطر عن وجه آخر ، وذلك أن يكون معنى هذا السؤال بعينه قد وقع فى شىء من حديث النفس لأبلغ أولئك العرب الذين رأوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، واتبعوا النور الذى أُنزل معه ، وقد صحبه فطالت صحبته ، لا يفوته من كلامه فى الملأ شىء ، وخالطه حتى كان له فى الإحاطة بأحوال نفسه كبعض التاريخ ، فتدبر ما عسى أن يكون سر الجمال فى بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وما مرجعه الذى يرد إليه ؟

لو دار السؤال دورتيه فى هذه السليقة العربية المحكمة التى رجعت أن تكون فلسفة تشعر وتحس ، وفى تلك الفلسفة البيانية الملهمة التى بلغت أن تكون سليقة تدرس وتفكر — لما خلص من كلتيهما إلا برأى واحد تلتقى عليه حقيقة البيان من

---

(١) أنشأ المؤلف رحمه الله هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الإسلامية فى بغداد سنة ١٣٥٢ هـ ؛ وانظر كتابنا « حياة الرافعى » ص ١٧٥ — ١٧٦ و ١٧٨ .

* بسطنا الكلام فى كتابنا « إعجاز القرآن » عن بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ، وبقى هذا المعنى الذى تراه ، فهذه المقالة كالتكملة على ما هناك .

طرفيها : وهو أن ذلك الجمال الفني فى بلاغته صلى الله عليه وسلم إنما هو أثرٌ على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها .

وبعد فأنا فى هذه الصفحات لاأصنع شيئاً غير تفصيل هذا الجواب وشرحه ، باستخراج معانيه ، واستنباط أدلته ، والكشف عن أسراره وحقائقه ؛ ولقد درست كلامه صلى الله عليه وسلم ، وقضيت فى ذلك أياماً أتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القفر المجدب فأخصب به وأنبت للدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساً إن عِبتَهم بشىء لم تعِبْهم إلا أنهم دون الملائكة ؛ وكانوا ناساً ، دارت الكرة الأرضية فى عدهم ثلاث دورات : واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم تركت الكلام النبوى يتكلم فى نفسى ويلهمنى ما أفصح به عنه ، فلكأنى به يقول فى صفة نفسه : إنى أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد، فأنا أُقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا ، مع القلوب والأنفس والحقائق ، لا مع الكلام والناس والوقت .

إن ههنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التى من ذريتها أوربا وأمريكا ؛ فالقرآن والحديث يعملان فى حياة أهل الأرض بنور متمم لما يعمله نور الشمس والقمر .

وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة هى فى ظاهرها أسلحة المقاتلين ، ولكنها فى معانيها أسلحه الأطباء ؛ وكانوا يحملون الكتاب والسنة ، ثم مضوا إلى سبيلهم وبقى الكلام من بعدهم غازياً محارباً فى العالم كله حربَ تغيير وتحويل إلى أن يدخل الإسلام على ما دخل عليه الليل * .

هذا منطق الحديث فى نفسى ، وقد كنت أقرؤه وأنا أتمثله مرسلا بتلك الفصاحة العالية من فم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يمر إعجاز الوحى أول ما يخرج به

* فى الحديث الشريف : ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل . وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعرى . . . إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجيء الإسلام فى قوة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النور الإنسانى بعثاً جديداً ؛ وهذا هو رأينا فى مستقبل الإسلام : لابد من انحلال أوربا وأمريكا ، كما يصفر النهار ثم يختلط ، ثم يظلم ثم تطلب الطبيعة نورها الحى من بعد .

الصوتُ البشرى إلى العالم ، فلا أرى ثَمَّ إلا أن شيئًا إلهيًّا عظيمًا متصلا بروح الكون كله اتصال بعض السر ببعض السر ، يتكلم بكلام إنسانى هو هذا الحديث الذى يجىء فى كلمات قوية رائعة ، فنها فى بلاغتها كالشباب الدائم .

كنت أتأمله قطعًا من البيان فأراه ينقلنى إلى مثل الحالة التى أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب ، أو منظراً يهز جمالُه النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة فى الدم ، على هدوء ورَوح وإحساس ولذة ؛ ثم يزيد على ذلك أنه يُصلح من الجهات الإنسانية فى نفسى ، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا فى ذوق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه .

وأعجب من ذلك أنى كثيراً ما أقف عند الحديث الدقيق أتعرف أسراره ، فإذا هو يشرح لى ويهدينى بهديه ؛ ثم أحسه كأنما يقول لى ما يقول المعلم لتلميذه : أفهمت ؟

وقفت عند قوله صلى الله عليه وسلم : إن قومًا ركبوا فى سفينة ، فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما شئت ! فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا * .

فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمُّون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف : كحرية الفكر ، والغيرة ، والإصلاح ؛ ولايزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه ، أى بقلمه ... زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ، ويتولاه

---

* روى البخارى هذا الحديث على وجه آخر ، وفيه زيادة من الجمال الفنى ؛ قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ؛ فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

. فهذا تمثيل لحالة طائفة فى (الأسفل) تعمل لرحمة من هم فى (الأعلى) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتهبة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل فى تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول لهؤلاء من ألف وثلثمائة سنة : أنتم المصلحون إصلاحاً مخروقاً . . . !

كيف أراد ، موجهاً لحماقته وجوها من المعاذير والحجج ، من المدنية والفلسفة ، جاهلا أن القانون فى السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يُحكم على الأعمال الأخرى ؛ بل قبل وقوعه ؛ والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجُّه النية إليه؛ فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد ما دامت ملجَّجة فى بحرها، سائرة إلى غايتها ؛ إذ كلمة (الخرق) لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر) . . .

ففكِّر فى أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه، فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها فى لغة البحر حدود الحياة والمصلحة وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها فى البحر القبر والغرق والهلاك ، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها فى الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة ، وكلمة الحرية يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد* وعلى هذا القياس اللغوى فالقلم فى

* الزائغون فى التاريخ الإسلامى كله صنفان ليس لهما ثالث ، وقد وصفهما الحديث الذى رواه البخارى بسنده إلى حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت : يارسول الله ، إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : « قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، « دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ، صفهم لى . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها « ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » انتهى الحديث .

فتأمل قوله « يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر » ؛ فهؤلاء هم الذين يريدون الإصلاح للمسلمين لا من طريق الإسلام بل من طرق أخرى فيها معروفها ومنكرها ، وفيها علمها وجهلها ، وفيها عقلها وحماقتها . ولعل من هذا قولهم : المدنية الأوربية بحسناتها وسيئاتها . . . وتأمل قوله « إلى أبواب جهنم » فليست الدعوة إلى باب واحد بل إلى أبواب مختلفة لعل آخر مافتحوا منها باب الأدب المكشوف . . .

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « ولو أن تعض بأصل شجرة » فإن معناه استمساك بما بقى على الطبيعة السليمة مما لا يستطيع أولئك أن يغيروه ولا أن يجددوه ، أى بالاستمساك ولو بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان ، وعبارة العض بأصل شجرة تمثل أبدع وأبلغ وصف لمن يلزم أصول الفضائل فى هذا الزمن ، ومبلغ ما يعانيه فى التمسك بفضيلته ، وهى وحدها فن كأجمل ما يبدعه مصور عبقرى .

أيدى بعض الكتاب من معانيه الفأس ، والكاتب من معانيه المخرِّب ، والكتابة من معانيها الخيانة ؛ قال لى الحديث : أفهمت ؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب ، قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حد وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدَّى ، وليس فيه ، شىء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول ، وطريقة تأليف الكلام ، واستخراج وضع من وضع ، والقيام على الكلمة حتى تبيض كلمةً أخرى . . . والرغبة فى تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان يطيش طيشه اللغوى يتعلق بكل ما عرض له ، ويحذو الكلام على معانى ألفاظه ، ويجتلب له منها ويستكرهها على أغراضه ، ويطلب لصناعته من حيث أدرك وعجز ، ومن حيث كان ولم يكن ؛ إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها ، فهو من لسان وراءه قلب ، ووراءه نور ، ووراءه الله جل جلاله ؛ وهو كلام فى مجموعه كأنه دنيا أصدرها صلى الله عليه وسلم عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية فى طريقها السوى على دين الفطرة ؛ فلا تتسع لخلاف ، ولا يقع بها التنافر ؛ والخلاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها ، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم وتأثم ، فهى نازلة إلى الشر ، والشر بعضه أسفل من بعض ؛ أما روحانية الفطرة فمتسقة بطبيعتها ، لا تقبل فى ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً ؛ إذ كان أولها العلوَّ فوق الذاتية ، وقانونها التعاون على البر والتقوى ؛ فهى صاعدة إلى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض .

فكلامه صلى الله عليه وسلم يجرى مجرى عمله : كله دين وتقوى وتعليم ، وكله روحانية وقوة وحياة ؛ وإنه يخيَّل إلىَّ وقد أُخذت بطهره وجماله — أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً فى الألفاظ .

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له فى نفسى روح الشريعة ونظامها وعزيمتها ، فليس له إلا قوة قوةَ أمر نافذ لا يتخلف ، وإن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين ، مبيناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السر ، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها ؛ وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة

بكلمات ربها ووحيه ، ليتوجَّه بها العالم كأنه منه مكان المحور : دورته بنفسه هى دورته بنفسه وبما حوله ، روح نبي مصلح رحيم ، هو بإصلاحه ورحمته فى الإنسانية ، وهو بالنبوة فوقها ، وهو بهذه وتلك فى شمائله وطباعه مجموع إنسانى عظيم لو شبِّه بشيء لقيل فيه : إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا .

ومن درس تاريخه صلى الله عليه وسلم وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق ، رأى نسقًا من التاريخ العجيب كنظام فَلَك من الأفلاك موجَّه بالنور فى النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهى ، فليس يمترى عاقل مميز أن هذه الحياة الشريفة ، بذلك النظام الدقيق ، فى ذلك التوجُّه المحكم — لا يطيقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان فى لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة .

ولم يكن مثله صلى الله عليه وسلم فى الصبر والثبات واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا فى الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضى ؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة ؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس : تدفنهم معانى التراب وهم أحياء فوق التراب ، أو يحدّهم الجسم الإنسانى من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته ؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ فى الإنسانية كلها دائمًا ، ولرأس الدنيا نظامُ أفكاره الصحيحة .

* * *

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيتَ إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا* مالا فنأى بى فى طلب شيء يومًا فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدىّ أنتظر

* أى لا يسقى الغبوق أحداً من أهله أو جماعته قبلهما .

استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر : اللهم كانت لى بنت عم كانت أحبَّ الناس إلىّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمتْ بها سنةٌ* من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ! ففعلتْ ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أُحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ! فتحرَّجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أُجَراءَ فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله ، أدِّ إلىّ أجرى . فقلت له : كلُّ ما ترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى ! فقلت : إنى لا أستهزئ بك ! فأخذه كله فاستاقه فلم يترك شيئاً . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . انتهى الحديث .

وأنا فلست أدرى ، أهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الإنسانية وحقرقها بكلام بين صريح لا فلسفة فيه ، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من النية هو ما بين الإنسان وربه من الدين ؛ أم هى الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالى ، فى شعر من شعرها ضاربة فيه الأمثال ، مشيرة فيه إلى الرموز ، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله ، محكِمة عناصرَ روايتها الشعرية ، محقِّقة فى بيانها المكشوف أغمضَ معانيها فى فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشيائها فتظهر الضرورة البشرية وتختفى الحكمة ، وفلسفةِ الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفى الضرورة — مبيِّنة أثر هذه وتلك فى طبيعة الكون ،

* سنة : جدب وفقر .

مقرِّرة أن الحقيقة الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته ، ولا فيما ينجح من أغراضه ، ولا فيما يقنعه من منطقه ، ولا فيما يلوح من خياله ، ولا فيما ينتظم من قوانينه ؛ بل هى السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها ، وهى الرحمة التى تغلب على الأثرة فيسميها الناس بِرًّا ، والرحمة التى تغلب على الشهوة فيسميها الناس عِفَّة ، والرحمة التى تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة ؛ وهى فى ضبط الروح لثلاث من الحواس : حاسة الدعة التى يقوم بها حظ الخمول ، وحاسة اللذة التى يقوم بها حظ الهوى ، وحاسة التملك التى يقوم بها حظ القوة .

وتزيد الإنسانية على ذلك فى نسق شِعرها أنها تثبت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما ؛ فمن نشأ على بر أبويه كان خليقًا أن يتحقق بالعفة والأمانة ، وأن العفة من الأمانة والبر هى مساكهما وجامعتهما فى النفس ، وأن الأمانة من البر والعفة هى كمال هذه الفضائل ، وكلهن درجات لحقيقة واحدة ، غير أن بعضها أسمى من بعض فى الشأن والمنزلة ، وبعضها طريق لبعض يجر سبب منها سببًا منها ، وأن الرحمة الإنسانية التى هى وحدها الحقيقة الكبرى إنما هى هذا الحب ، بادئًا من الولد لأبويه ، وهو الحب الخاص ؛ ثم من المحب لحبيبته ، وهو الحب الأخص ، ثم من الإنسان للإنسانية ، وهو الحب مطلقًا بعمومه وبغير أسبابه الملجئة من الحاجة والغريزة ؛ وهى درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل .

ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة ، فما قبلها أنواع منها ؛ فبِرُّ الولد أمانةُ الطبع المتأدب ، وعفة المحب أمانة القلب الكريم ، والثالثة أمانة الخلق العالى ، وهى أسماهن ، لأنها لن تكون خلقًا ثابتًا إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ، ودخل فى أسبابها الأدب والكرم ؛ فالأمانة الكاملة فى هذه الفلسفة هى الأمانة للإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب ، أو أم ، أو قريب ؛ ودون التى هى أخص وهى إنسانية الحب .

ونرى فى لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة

فى فصولها الثلاثة ، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله) ، وقد تطابقوا جميعًا على هذه الكلمة ، وهى من أدق ما فى فلسفة الإنسانية فى شعرها ذلك ، فإن معناها أن الرجل فى صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسَه ، يمنعها ما تحرص عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها ، أى منخلعًا من طبيعته الأرضية المنازعة لسواها ، المنفردة بذاتها ، متحققًا بالطبيعة السماوية التى لا يرحم الله عبداً إلا بها ، وهى رحمة الإنسان غيره ، أى اندماجه باستطاعته وقوته ، وإعطاؤه من ذات نفسه ، ومعاونتُه كفٌّ أذاه .

والحديث كالنص على أن هذه الرحمة فى النفس هى الدين عند الله ، لا يصلح دينٌ بغيرها ، ولا يقبل الله صرفًا ولا عدلا من نفس تخلو منها ؛ وإذا كانت بهذه المنزلة ، وكانت أساسَ ما يُفرض على الإنسان من الخير والحق ، فهى من ذلك فى معنى الحديث أساس ما يُصلح هذه الإنسانيةَ من الشر والباطل ؛ وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التى ينتهى إليها كلامه صلى الله عليه وسلم ، أن تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة للإنسانية هى وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة فى الاجتماع البشرى . وانظر كيف جعل نهاية السمو فى رحمة المال الذى يصفونه بأنه شقيق الروح ، فكأن الإنسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعض روحه ؛ وهذا يقرر لك فلسفة أخرى : أن السعادة الإنسانية الصحيحة فى العطاء دون الأخذ ، وأن الزائفة هى فى الأخذ دون العطاء؛ وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق ؛ فما المرء إلا ثمرة تنضج بموادها ، حتى إذا نضجت واحلَوْلَتْ كان مظهر كمالها ومنفعتها فى الوجود أن تهب حلاوتها فإذا هى أمسكت الحلاوة على نفسها لم يكن إلا هذه الحلاوةَ بعينها سببٌ فى عفنها وفسادها من بعد . أفهمت ؟ . . .

وما دمنا قد وصفنا رحمة المال ، فإنا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب فى فن تمثيله وبلاغة فنه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ؛ فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وَفَرَتْ على جلده حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها ،

فهو يوسعها فلا تتسع . انتهى .

فأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكن فنه العجيب فى هذا الحديد الذى يراد به طبيعة الخير والرحمة فى الإنسان ، فهى من أشد الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظُ النفس الحريصة وأهواؤها ، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهى فى الطبع إلى أن يجعلها لينة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير فى النفس الكريمة ، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة فى الصراع ونحوه ؛ أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر .

وقد جعل الجبة من الثدى إلى التراقى ، وهذا من أبدع ما فى الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، يستوى فى ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سواء من هذه الناحية ؛ وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنسانى ، أما البخيل فهو « يريد » لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلى لا أكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كلُّ حلقة من حلقاتها فى مكانها ، فهى مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع .

ألا ترى كيف تتوجه الحجة ، وكيف تدق الفلسفة وهى فى أظهر البيان وأوضحه ؟ وهل تحسب طبيعة البخيل فى دقائقها النفسية لو هى نطقت — بالغةً من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعد وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعًا ، ولكان فى جميعها كالإنسان نفسه : لا يختلف تركيبه ، فلن يكون بثلاثة أعين ، لا فى بلاد شكسبير ولا فى بلاد الزنوج .

إن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حينئذ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه فى شرحه الفلسفى كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها فى النور ؛ وتعرفه إنسانية قائمة تصحِّح بها أغلاطُ الزمن فى أهله ، وأغلاط الناس فى زمنهم ؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة

بحنان كحنان الأمّ على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم ، فهم في تنافر صبياني . . . وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ؛ وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة .

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكوني ، وغيره هو الإنسان فقط ، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار — وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيحَ الفكرة الإنسانية في الوجود ، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائمًا إلى فوق * .

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله عليه وسلم على ما بيّنا وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه ، ونظرت إلى ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبّهناك إليه من التأويل الذي مر بك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها في خاصتها — إذا جمعت ذلك لم تر مذهبًا عن الإقرار بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ، فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبي أعظم فن يحقق للإنسانية حياةَ أخلاقها ، وهو بكل ذلك أعظم إنسان . صلى الله عليه وسلم .

* * *

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له ،

---

* نشر هذا المقال في مقطتف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متمماً لفلسفة هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا في كتاب يصدر إن شاء الله في آخر صيف هذا العام ؟

قلت : وأحسبه كان يعني كتابه « قول معروف » وقد استغنى عنه بهذا الكتاب « وحي القلم » وقد نشرنا هذه المقالة في هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعي » .

وهو بذلك نبوّة لا تنقضى ، وهو حى بالحياة ذاتها ، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشرى . . .

فإذا نظرت فى هذا الفن فانظره فى حديثه ، وفى عمله ، وفى الدنيا التى ألّفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام، وردّ كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلتعلمن حينئذ أن كل بليغ هو شمعة مضيئة صُنعت لها مادة النور نوراً وجمالا ، بجانب هذه الشمس التى خُلقت فيها مادة النور نوراً وجمالا وحياة وقوة ؛ هناك نور لذى عينين ، وهنا النور لكل ذى عينين ؛ وذاك يتخايل كالحلم ، وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح ، والثانى هو روح النور .

تلك فى رأينا هى الطريقة التى كان يفهمه بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نورَ القمر فى ليلة صيف بمعان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ، أى الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجاباً وحباً وانقياداً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرَّفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتقى فيها بتأثير السماء فيُغسل فى سحب عالية فلا يكون فيها كما يريده الناس ، بل كما يريد الله ؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأياً ولا هوى ، وكأنما وضع لها هذا الدين حرساً على كل سمع وعلى كل بصر ؛ وبالجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبى صلى الله عليه وسلم فأفرغهم ثم ملأهم، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية فى التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة.

وناهيك من رجال يمثّل لهم بهذا المثل الذى يضربه لهم فى الإيمان ليبلغوه

أو يقاربوه ؛ فعن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، قلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له فى الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه !

فانظر يا هذا، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً فنزلت فى عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها لما وُضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار فى عظم الإنسان الحى ولحمه . وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب ، ولكن له باطناً أعجبَ من ظاهره ، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان، فإنما يريد صلى الله عليه وسلم أن الحديد لا يأكل ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظماً ولحماً وعصباً ، بل هو حديد يأكل حديداً مثله أو أشدَّ منه ، فإن للروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوةً تصنع هذه المعجزة ، فيمر الحديد فى العظم واللحم والعصب يسلبها الحياة ، ولكنها تسلبه شدته وجَلده وصبره !

* * *

وكل ما جاء من التمثيل فى كلامه صلى الله عليه وسلم ينطوى فيه من إبداع الفن البيانى وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء ، حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم أن بلاغته إنما هى شىء كبلاغة الحياة فى الحى : هى البلاغة ولكنها أبدع مما هى ، لأنها الحياة أيضاً.

وأنت خبير أن هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم كانت تأخذه عند نزول الوحى عليه أحوالٌ وُصفت فى كتب الحديث : قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً . وفى حديث آخر عنها قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدر

عنه مثل الجمان من العرق فى يوم شاتٍ . وفى حديث زيد بن ثابت : فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلّم ، وفخذه على فخذى ، فثقلتْ علىّ حتى خفت أن تَرُض فخذى . وفى حديث يعلى بن أمية حين قال لعمر : أرنى النبي صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه — : فأشار عمر إلى ، فجئت وعلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أُظل به فأدخلت رأسى ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمر الوجه وهو يغط ، أى يردد نَفَسه من شدة ثقل الوحى . فهذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية ؛ ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعى الروح وحدها ، لا يشاركها فى هذا الوعى فكر ولا هاجس ، ولا يتصل به شىء من حياة الحى ، فيتحقق للنبي صلى الله عليه وسلم وجودٌ آخر غير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب ؛ وبذلك يتلقى عن روح الكون ، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أوحى إليه . وما وصفه زيد بن ثابت من أن فخذه كادت ترض — برهان قاطع على أن روحه صلى الله عليه وسلم تنسرح من جسمه ساعة الوحى فيثقل الجسم ، لأنه إنما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة أعمالها بعسر وبطء ، لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح بجملتها ؛ ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحى ، فله موضع إن شاء الله فى كتابنا (أسرار الإعجاز) * وإنما نريد أن ندل على أن هذه التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبى لها أثرها العظيم فى فن بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا ؛ فإن الملهم من أفذاذ العبقريين على هذه الأرض إنما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذى رأيت ، وفى بعض هذا أبدع ما ورثت الدنيا من فنون البيان ، وكأن فى الدماغ مادة فى موضع منه يميز بها من تختارهم السماء لحكمتها وإلهامها ، وإذا كان فن العبقريين هو أسمى الكلام الإنسانى ، لما خُصُّوا به من هذه التهيئة ، فإن فنه صلى الله عليه وسلم يكون ولا جرم من باب الأكبر مما هو أكبر فى إلهام الإنسانية كلها .

ولهذه القوة النادرة كان بيانه قوياً على مزج معانيه بالنفس بما فيه من صنعة الحياة ، وإنما فلسفة البيان الفنى أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ ، فتصنع فيه صنعتها ،

* انظر ص ٢٨٩ « حياة الرافعى » .

فتفصل العبارة الفنية عن كاتبها أو قائلها وهى قطعة من كلامه ، لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة فى صورة من صور الإدراك ؛ فالبيان الفنى هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته فى مواضع غير مواضعه ، وخلْقه خلقاً آخر فى النفس الإنسانية ؛ وبذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً . جعل نوعاً من البيان هو السحر ، لا البيان كله ، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفنى) ، كأنه قال : إن من البيان فنّاً هو سحر من عمل النفس فى اللغة تغيِّر به الأشياء ، وله عجب السحر وتأثيره وتصرُّفه ؛ وهذا معنى لم يتنبه إليه أحد ، ولا يُذكر معه كل ما قالوه فى تفسير الحديث ، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقة فلسفية للفن .

ومن أثر تلك القوة أيضاً ما تراه من شدة الوضوح فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هى تختار ألفاظها اللغوية على منازلها ؛ وبذلك يأتى الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبَّر عنها ، والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة ؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضىء كأنما ألقى فيها النور .

وهو معلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف ولا يتعمَّل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد فى بلاغته موضعاً يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان ، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة ، ففنها الجميل هو التركيب الذى تجىء فيه كما ترى الشجر مثلا كاسيا من ورقه وزهره ؛ فأنت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت فى ذاتها ، ومعنى انفرادها فى ذاتها أنها كذلك هى ، فليس فيها موضع لشىء غير ما هو فيها ؛ ثم لا تنسَ أن النبوَّة أكبرُ السببِ فى ذلك الوضوحِ البيانىِّ العجيب ؛ فإن الحياة لا تستغلق فى البلاغة بإنسان إلا وهى غنية عنه ؛ ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون فى الطبيعة . . . ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقض

معناها * إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشقّقون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ ، فههنا البديع اللفظى ؛ وهناك « البديع الفكرى » ، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة .

ومتى كان النبى قسمًا من الحياة ، بل مادة لمعانيها الجديدة، فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالا ، ووضوحًا ومنفعة ودقة وسموًّا بقدر ذلك كله .

* * *

وهنا معنى نريد أن ننبه إليه ونتكلم فى سره وحقيقته ، فإنك تقرأ ما جُمع من الكلام النبوى فلا تصيب فيه ما تصيبه فى بلاغة أدباء العالم مما فنُّه الكلام فى المرأة، والحب ، وجمال الطبيعة ، وهو فى بلاغة الناس كالقلب فى الجسم : لا تخلو منه ولا تقوم إلا به ، حتى تجد الكلام فى المرأة وحدها شطر الأدب الإنسانى ، كما أن المرأة هى شطر الإنسانية ، ولا يُعرف له صلى الله عليه وسلم فى هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة ، متناهية فى الحسن ، طاهرة فى الدلالة ، يظهر فى وجه بلاغتها ما يظهر فى وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر : كقوله فى النساء : « رفقا بالقوارير » ، وقوله لأسامة بن زيد ، وقد كساه قُبطية ** فكساها امرأته « أخاف أن تصف حجم عظامها » . قال الشريف الرضى فى شرح هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد أن القُبطية برقتها تلصق بالجسم ، فتبين حجم الثديين ، والرادفتين ، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظه ، والممكنة للمسه ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحالِ كالواصفة لما خلفها ، والمخبرة عما استتر بها ؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب فى قوله : « إياكم ولبس القُباطىّ ، فإنها إلا تشفّ تصف » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عذرةِ هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك فجه .

---

* من ذلك قول جيته شاعر الألمان : إن الكل باطل ، معناه أن الكل ليس بباطل . ولعل هذا فى « البديع الفكرى » من باب أكل النفى للإثبات . . .

** بضم الكاف ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضموا قافه فرقا بينه وبين ما ينسب إلى القبط من غير الثياب .

قلنا : وهذا كلام حسن ، ولكنّ فى عبارة الحديث سرّا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف ، على أنه هو حقيقة الفن فى هذه الكلمة بخاصتها ، ولا نظن أن بليغًا من بلغاء العالم يتأتى لمثله ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل : أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال : حجم عظامها ، مع أن المراد لحم الأعضاء فى حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر « أعضاء » المرأة فى هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو فى الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظة « الأعضاء » تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هى التى عدها الرضى فى شرحه ، وهى تومئ إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزّه النبى صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوى على هذه المعانى السافرة . . . وجاء بكلمة « العظام » ، لأنها اللفظة الطبيعَية المبرّأة من كل نزغة ، لا تقبل أن تلتوى ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضًا ؛ إذ تكون فى الحى والميت ، بل هى بهذا أخص ؛ وفى الجميل والقبيح ، بل هى هنا أليق ؛ وفى الشباب والهرم ، بل هى فى هذا أوضح . والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى ، والحقيقة هى ما علمت .

ومن كلماته فى الوصف الطبيعى قوله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر أوقات الصلاة : « العصر إذا كان ظل كل شىء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضى كواهل الليل » وكواهل الليل : أوائله وفروعه المتقدمة منه ، كالذى يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الامتداد ؛ وقوله وقد سأله رجل متى يصلى العشاء الآخرة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا ملأ الليل بطن كل واد » ؛ وقوله : « إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع » ؛ وقوله : « إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع ، فقال له : ألستَ فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكنى أحب أن أزرع . قال : فبَذَرَ فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال » . وقوله : « بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً ، فشرب منها ثم خرج ، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ! فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رَقِىَ فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له . قالوا يا رسول الله ،

وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : « فى كل كبد رطبة أجر » .

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر ، وهو مع ذلك لا يأتى فى كلامه صلى الله عليه وسلم إلا فى مثل ما رأيت ، فلا يراد منه استجلاب العبارة ، ولا صناعة الخيال ، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب ، دليل على ما ينكره أو يستجفيه ، ويقول : بداوة وسذاجة ونحو ذلك مما تشبّهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن فى حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا ؛ وإنما انتفى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لانتفاء الشعر عنه وكونه لا ينبغى له كما بسطناه فى موضعه* ؛ فعمله أن يهدى الإنسانية لا أن يزين لها ، وأن يدلها على ما يجب فى العمل ، لا ما يحسن فى صناعة الكلام ، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به ، لا إلى ما تتخيله لتلهو به . والخيال هو الشيء الحقيقى عند النفس فى ساعة الانفعال والتأثر به فقط ، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة ، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاءِ الناس : يتصل بالطبيعة ليستملى منها ؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلى ليملى فيها ، وقد كانت آخر ابتسامة له فى الدنيا ابتسامته للصلاة** يتهلل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدى خالقها ، منسكبًا فى طهارتها روحُ النور ، وكل إنسان إنما يبدو الكون فى عينه على ما يرى مما يشبه ما فى نفسه ، فكل ما رآه المصلى الخاشع فى صلاته*** يبدو له كأنه يصلى فى ضرب من العبادة على نحو من الدين ، وكل ما رآه السكران فى سكره يكاد يراه متخبطًا يعربد ما يماسك !

---

* كتابنا إعجاز القرآن .

** عن أنس أن أبا بكر كان يصلى بهم فى وجع النبى صلى الله عليه وسلم الذى توفى فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف فى الصلاة ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي صلى الله عليه وسلم ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبى صلى الله عيه وسلم خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبى صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، فتوفى من يومه .

*** من الكلمات الجميلة الدقيقة فى نحو هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : لا تزالون فى صلاة ما انتظرتم الصلاة !

ثم إن الكلام فى وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية ، إنما هو باب من الأحلام ؛ إذ لا بد فيه من عيني شاعر ، أو نظرة عاشق ؛ وهنا نبي يوحَى إليه ، فلا موضع للخيال فى أمره ، إلا ما كان تمثيلا يراد به تقوية الشعور الإنسانى بحقيقة ما فى بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة ، كما مر بك من أمثلته ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ! » وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق ، كأنه حاسة من النور كُبِّتَتْ فى شعورها ، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ ، كأنه حاسة من التراب . . .

ويكاد المؤمن الذى يسمع هذا الوصف يذكِّره ذنوبَه — أن يحس بحركة جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه ، أما الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هى فى خياله نقط سود تمر مرور الذباب ، ليس منه إلا الحس به ، كما يحس من يُضرب على أنفه برجل ذبابة . . . وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال فى التصوير ، لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح ، فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومر مرورَه .

الكون فى نظر النبي صلى الله عليه وسلم آية الحكمة لا آية الفن ، ومنظر المسْتَيْقِن لا منظر المتخيِّل ، ومادة العبودية لله لا مادة التألُّه للإنسان ، وبذلك حرَّم الإسلام أشياء وكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فنًّا ، فى ضروب من الشعر والتصوير والموسيقا والحب ، لأنه إنما ينظر للإنسان واحداً وجمعًا ، وحاضراً وآتيًا ؛ وواجبًا ومنفعة ، ولذة وألما ؛ وهذه كلها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد ، على حين أن الفن لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق ، وأساس الدين حظ الجماعة وقيودها ، وأساس الفن الفرد وحريته ؛ وهذه الحياة لا تبدو فى حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت للكل ، فإذا كانت لفرد ظهرت فى هيئة انحلال وانتقاض ، وأصبحت فى الكون كله كأنها عمر إنسان واحد .

ثم إن للفن ألوانًا لا بد منها لتصويره الجميل الذى تعجب به النفس ، والشيطان هو اللون الأحمر فيها . . . أى هو أشدها زهواً وإشراقًا وجمالا فى

التصوير الفنى لكل ما فى المرأة والحب والجمال وشهوات النفس ، ولسنا ننكر أن الحياة القوية حين تمازجها هذه الفنون تكسب مرحًا ونشاطًا ويكون لها رونق ، وفيها متاع ؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تحتسى خمرّها . . . فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيه بما يكون للجسم القوى من عاقبة الخمر إذا تغلغلت الخمر فى شعاب كبده وأحاطت رطبتها يابسة ، كما وقع فى أطوار كثيرة من تاريخ الأمم ؛ فليس الاعتبار فى هذا التشبيه بما يعرض من تأثير الساعة الزائلة بأفراحها وفن حياتها ، بل الشأن للعاقبة المحتومة متى جاءت ساعتها الباقية بأحزانها وفن هلاكها ، فالإسلام فيما حرَّم وكره من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا ، لأنه لا يقر صورة من صور انتحارها .

ومَن كان أكبر عمله إنشاء الحقائق الإنسانية وتقريرُها شريعة وعاطفة وأعمالا ، فلا جرم كان فنه غير الذى أكبر عمله تمويهُ تلك الحقائق وزخرفتها ليقع الإحساس بها على غير وجهها ، فتخف بالواقع منها على النفس خفة الكذب فى ساعة تصديقه وهذا هو أكبر عمل الشعر .

وههنا سر دقيق لا يتم كلامنا إلا بشرحه ، لنقطع القول فى هذا المعنى ، فيظهر حقه من باطله : قلنا آنفاً إن النبى صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة يستملى منها ، بل هو نبى مرسل متصل بمصدرها الأزلى ليملى فيها . ومعنى هذا أنه لا يعرض له من زيغ النفس ما يعرض لغيره من الناس ، فأحكم حكماء الدنيا لا يستطيع أن يتبين جزءاً صغيراً من الكون على حقيقته ؛ إذ كانت حواس الجسم غير مهيأة لذلك ، ففهمْ جزء من الكون فهمًا صادقًا جزمًا لا يتم إلا بفهم الكون بأجمعه ، فهو كله ذرة مكبرة إلى مالا ينتهى ولا يحد ، وليست النبوة شيئًا غير الاتصال بالسر .

والحاضر الذى يكون فى إنسان من الناس ، هو حاضر ليس غير ، لأنه يتحول ويفنى ، فهو من الزيغ الذى يعترى النفس ، ومنه كل أغراض الحياة البشرية الفانية ، ولهذا كان طابع الله على نبينا صلى الله عليه وسلم هو تجريده من زيغ الهوى وسرف الطبيعة ، فهو من الناس ولكنه متخلق بأخلاق الله سبحانه ، وله فى هذا الباب ما ليس لأحد ولا يطيقه أحد ، ويجب على من يقرأ سيرته وشمائله

وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله فى كل شىء منها ، فإنه سيرى حينئذ كأنه يدرسها مع الملائكة لا مع الناس ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع تحقيق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان إنساناً ، وكان أيضاً حركة فى تقدم الإنسانية ؛ وأن من معجزاته أنه أطاق فى تاريخه ما عجزت عنه البشرية فى تاريخها . وأن كل أموره صلى الله عليه وسلم موضوعة وضعاً إلهياً كأنها صفات كوّنها الله وعلقها فى التاريخ لمعانى الحياة ، تعليقَ الشمس فى السماء لمواد الحياة .

إن الشهوات والمصالح إنما هى حصر النفس فى جانب من الشعور محدود بلذات وهموم وأحاسيس تجعل غرض الإنسان فى الإنسان نفسه ، فهو كما يملأ معدته ويتأنق فى الاختيار لها ، يريد من كل ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطريقة بعينها ، طريقةِ إشباع معدته . . . وبهذا تسخر منه حقائق الكون ، لأنها لا تحد بشخص ، ولا تنحصر فى أحد ، وكل من كانت حدوده الإنسانية جسمَه ولذات جسمه ، فهو فى مقدار هذا الكون كالميت المحدود من الأرض كلها بقبره وتراب قبره ؛ وإنه ليجد جسمه وأكاذيب الطبيعة عليه ، ولكنه لن يجد الروح وحقائقها ؛ وإذا لم يجد هذه فلن يعرف الكون وأسراره ؛ وإذا فقد هذا فهو الحاضر الضيق المشوه المكذوب ، ومن ثم ففنه شهوة إحساسه وإن كان مخدوعاً ، وشهوة نظرِه وإن كان ملبَّساً عليه ، وشهوة خياله ، وإن كان التمويه والزور والحاضر الضيق المشوه المكذوب الخادع هو المسمى فى لغة القرآن والحديث « بالدنيا » ؛ فإذا اتسع الإنسان لروحه وأدرك حقيقتها ، ووعى ما بينها وبين الكون ؛ وأخذ يحقق هذه الروح السماوية فى أعماله ، وتخطى حدود جسمه إلى فكرة الخلود ؛ فهذا كله هو المسمى فى لغة القرآن والحديث « بالآخرة » ؛ فهما كلمتان فى منتهى الإبداع من الفن والفلسفة ؛ وعلى ذلك يؤوَّل قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته : من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ؛ ومن كان همه الدنيا فرق الله أمْرَه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له .

وأنت إذا فسرت هذه الكلمات بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويل ،

رأيت عجائب معانيها لا تنقضى ، وأدركت سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنى على علم من الله علّمَنيه » فاتساع الذات الإنسانية وممادّتها لحقائق الكون ، يجعل الإنسان كالكون نفسه ، مجتمعًا غير مفرق على هموم الحياة ؛ ويجعل الغنى معنى لا مادة ؛ ولو امتلك إنسان من الناس كل ما طلعت عليه الشمس ، وكان له كنز فى المشرق وكنز فى المغرب ، لما بلغ شيئًا قليلاً من لذة هذا المعنى فى قلبه ؛ وفى هذه الحالة تصبح الدنيا العريضة التى يهلك الناس فى تحصيلها وليست إلا ضرورة صغيرة ، قد تكون فى ثوب ولقيمات ونحوها مما لا خطر له ، وهذا هو إرغامها وهى مالكة الملوك ، فإذا ضاق الإنسان عن روحه أصبحت النفس كالمنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسكه كاه ولا يمسك منه شيئًا ، ووُضع بين عينيها معنى الفقر ، فهى تعمل أبداً لتمتلئ ، ولا تمتلئ أبداً ؛ وإذا كان المنخل متخذاً على الطريقة التى صنع بها ، ففقره ولا جرم معاق عليه من ذات تركيبه . « أفهمت » ؟

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم متساوقًا مع الحقيقة ، متصلاً بها ، محدوداً بربه لا بنفسه ، كان لذلك خارجًا من حاضر ما نحن فيه ، ممتدًّا بمعناه الإنسانى الكامل إلى المستقبل الذى وراء الحياة ، فما نحصره نحن بطبيعتنا فى بعض الأسماء لا يلتفت هو إليه بطبيعته ؛ ومن ذلك أوصاف الغنى والحليةَ والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرب ، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطمع فيه ؛ إذ كان ضعف إدراكهم وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال ، فتجيء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه ؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النظرَين وأطهرهما ، فآخر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أولُ إدراكه هو الطبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه الإنسانية تبدأ منه النبوة .

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله صلى الله عليه وسلم ونبوته واتساع روحه ونفاذ إدراكه لحقائق الكون — أنه لم يتبسط فى تلك الفنون كما يصنع البلغاء ، ولم يأخذ مأخذهم فيها ؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .

وفى قانون الحقيقة أن الآشياء سى كل الأشياء وهى كما هى ، أما فى قانون الكذب فالأشياء كلها هى ما تختاره أنت منها ، وكما تختاره .

بحسْب الدنيا من جمال فنه صلى الله عليه وسلم ما يضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الإنسانية فى طريقها الواحد الذى هو بين الأب والأم ، طريق الأخ إلى أخيه ، يكون فى الدنيا بين الرجلين كما هو فى الدّم بين القلبين رحمة ومودة ؛ وبِحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدى الإنسان إلى حقيقة نفسه ؛ فيقره فى الحقيقى من وجوده الإنسانى ؛ ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب ؛ يكبر بها ، ثم يكبر ، ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله أكبر .

قرآن الفجر[١]

كنتُ فى العاشرة من سنّى وقد جمعتُ القرآنَ كلّه حفظًا وجوّدتُه بأحكام القراءة ؛ ونحن يومئذ فى مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم ، ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة فى أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يَبرحُه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، و ينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة فى عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشى عليه ، وترابَ المعانى الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل فى الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطّبَ الروح بالوضوء ، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية ، المنحنِيَ فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة ، الساجدَ بين يدى ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم .

وما هى حكمة هذه الأمكنة التى تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة فى الحياة ، تُشعر القلب البشرىّ فى نزاع الدنيا أنه فى إنسان لا فى بهيمة . . .

* * *

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبى فى المسجد ؛ فلما كنا فى جوف الليل الأخير أيقظنى للسَّحور ، ثم أمرنى فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته ؛ فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ؛ أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت بهاءُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت زينُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ؛ أنت الحق ومنك الحق . . . إلى آخر الدعاء .

(١) أنشأها قبل موته بثلاثة أشهر ، فاعجب له يذكر أوليته وهو على أبواب آخرته . . . !

وأقبل الناس ينتابون المسجد ، فانحدرنا من تلك العِلْيَّة التى يسمونها الدّكة) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ فى ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت ، فى كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتًا ضئيلاً يبص بصيصًا كأنه بعضُ معانى الضوء لا الضوءُ نفسهُ ؛ فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتج حولها ، تلوح كأنها شُقوق مضيئة فى الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسراره الجميلة ، وتبدو فى الظلمة كأنها تفسيرٌ ضعيف لمعنى غامض يُومئُ إليه ولا يُبَيِّنُه ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد فى ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سر .

وكان لها منظر كمنظر النجوم يُتم جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَلَ فى أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ فى المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس فى المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذى سيخرج منه الغد ؛ وفى هذا الظلام النورانى تنكشف له أعماقه منسكبًا فيها روحُ المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقَدَر هادئًا وادعًا راجعًا إلى نفسه ، مجتمعًا فى حواسه ، منفرداً بصفاته ، منعكسًا عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضىء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض .

ثم يشعر بالفجر فى ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء ، شعوراً نديًّا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضَّرَ من يُبْس ، ويرقّ من غلظة . وكأنما جاءُوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتَحًا بالجمال ؛ فإذا كان شاعرَ النفس التى فيه النورُ السماوىّ بالنور الإنسانى فإذا هو يتلألأ فى روحه تحت الفجر .

* * *

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن فى جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم فى مناطها من الفلك ، وتلك السُّرُج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوءُ قلبه وقد استبهمت

الأشياء فى نظر العين ليلبسها الإحساس الروحانى فى النفس ، فيكون لكل شىء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه ، فيُخلق فيه الجمالُ الشعرى كما يخلق للنظر المتخيَّل .

لا أنسى أبداً تلك الساعة. وقد انبعث فى جو المسجد صوت غرِد رخيم ، يشقُّ سُدْفةَ الليل فى مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

«ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلْهم بالتى هى أحسنُ إن ربك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين . واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله ، ولا تحزَنْ عليهم ، ولا تكُ فى ضَيْقٍ مما يَمْكُرون . إنَّ الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم مُحسنون » .

* * *

وكان هذا القارئ يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب ؛ فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمرى وهو ينوح فى أنغامه ، وبلغ فى التطريب كلَّ مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسَّر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزَّته الطبيعة بأسلوبها فى جمال القمر ، فاهتزَّ يجاوبها بأسلوبه فى جمال التغريد .

كان صوته على ترتيب عجيب فى نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطرابًا روحانيًّا كالحزن اعتراه الفرح على فجأة ؛ يصيح الصيحة تترجح فى الجو وفى النفس ، وتتردد فى المكان وفى القلب ، ويتحول بها الكلام الإلهى إلى شىء حقيقى ، يلمس الروح فيَرْفضُّ عليها بمثل الندى ، فإذا هى ترفُّ رفيفًا ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل .

وسمعنا القرآن غَضًّا طريًّا كأولِ ما نزل به الوحى ، فكان هذا الصوتُ الجميلُ يدور فى النفس كأنه بعضُ السر الذى يدور فى نظام العالم ، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه .

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضىء من هذا النور !

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلُها ، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هى معجزة الروح متى كان الإنسان فى لذة روحه مرتفعًا على طبيعته الأرضية .

أما الطفل الذى كان فىَّ يومئذ فكأنما دُعِيَ بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجىء فيه من بعد ؛ فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله !

اللغة والدين والعادات[١]

باعتبارها من مقوّمات الاستقلال

ليست حقيقةُ الأمة فى هذا الظاهرِ الذى يبدو من شعبٍ مجتمعٍ محكومٍ بقوانينه وأوضاعه ؛ ولكن تلك الحقيقة هى الكائنُ الروحى المكْتَنُّ فى الشعب ، الخالصُ له من طبيعته ، المقصورُ عليه فى تركيبه كعصيرِ الشجرة : لا يُرى عمله والشجرةُ كلّها هى عمله .

وهذا الكائنُ الروحىُّ هو الصورةُ الكبرى للنَّسب فى ذوى الوشيجةِ من الأفراد ، بَيْدَ أنه يحقّق فى الشعب قرابة الصفاتِ بعضِها من بعض ؛ فيجعلُ للأمة شأنَ الأسرةِ ، ويخلقُ فى الوطنِ معنى الدار ، ويُوجِد فى الاختلاف نزعةَ التشابهُ ، ويَردُّ المتعدّدَ إلى طبيعة الوحدة ، ويُبدعُ للأمة شخصيتَها المتميزة ، ويوجبُ لهذه الشخصيةِ بإزاءِ غيرِها قانونَ التناصر والحميّة ؛ إذ يجعلُ الخواطرَ مشتركة ، والدواعى مستوية ، والنوازعَ متآزرة ؛ فتجتمعُ الأمة كلها على الرأى : تتسانَد له بقواها ويشدُّ بعضُها بعضًا فيه ؛ وبهذا كله يكون رُوح الأمة قد وضَع فى كلمة الأمة معناها .

والخُلُق القوىُّ الذى يُنشئه للأمة كائنُها الروحىُّ ، هو المبادئ المنتزعةُ من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ يستمدُّ قوتَه من نفسه ، إذ يعملُ فى الحيّز الباطنِ من وراء الشعور ، متسلّطًا على الفكر ، مُصرّفًا لبواعث النفس ؛ فهو وحده الذى يملأ الحىَّ بنوع حياته ، وهو طابَعُ الزمنِ على الأمم ، وكأنه على التحقيق وَضْعُ الأجدادِ علامتَهم الخاصةَ على ذرّيتهم .

* * *

أما اللغةُ فهى صورةُ وجودِ الأمة بأفكارِها ومعانيها وحقائقِ نفوسها ،

---

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة فى عهد على ماهر (باشا) سنة ١٩٣٦ ، وانظر ص ١٣١ « حياة الرافعى » .

وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه ؛ فهى قوميةُ الفكر ، تتحدُ بها الأمةُ فى صُوَرِ التفكير وأساليبِ أخذِ المعنى من المادة ؛ والدقةُ فى تركيب اللغة دليل على دقةِ الملكات فى أهلها ، وعمقُها هو عُمقُ الروح ودليلُ الحِسّ على ميل الأمة إلى التفكير والبحثِ فى الأسباب والعِلَل ، وكثرةُ مشتقّاتِها برهانٌ على نَزْعةِ الحرية وطماحِها ، فإن رُوح الاستعبادِ ضيِّق لا يتسع ، ودأبه لزومُ الكلمةِ والكلماتِ القليلة .

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها ، ناهضةً بها ، متسعةً فيها ، مكبِرةً شأنها ، فما يأتى ذلك إلا من رُوح التسلُّط فى شعبها والمطابقةِ بين طبيعتِه وعمل طبيعتِه ، وكونِه سيدَ أمره ، ومحققَ وجودِه ، ومستعمِلَ قوته ، والآخِذَ بحقه ؛ فأما إذا كان منه التراخى والإهمالُ وتركُ اللغة للطبيعة السوقية ، وإصغارُ أمرِها ، وتهوينُ خطَرِها ، وإيثارُ غيرِها بالحب والإكبار ؛ فهذا شعبٌ خادم لا مخدوم ، تابعٌ لا متبوع ، ضعيفٌ عن تكاليفِ السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظَمة ميراثِه ، مُجتزِئ ببعض حقه ، مكتَفٍ بضرورات العيش ، يوضَع لحكمه القانونُ الذى أكثرُه للحِرمان وأقلُّه للفائدة التى هى كالحرمان .

لا جَرَمَ كانت لغةُ الأمة هى الهدَفَ الأول للمستعمِرين ؛ فلن يتحوّلَ الشعبُ أوّلَ ما يتحوّلُ إلا من لغته ؛ إذ يكونَ منشأَ التحوُّلِ من أفكاره وعواطِفه وآمالِه ، وهو إذا انقطع من نَسَبِ لغته انقطع من نَسَبِ ماضيه ، ورجعت قوميتُه صورةً محفوظةً فى التاريخ ، لا صورةً محققَةً فى وجوده ؛ فليس كاللغة نَسَبٌ للعاطفة والفكر ؛ حتى إن أبناءَ الأبِ الواحدِ لو اختلفت ألسنتُهم فنشأ منهم ناشئٌ على لغة ، ونشأ الثانى على أخرى ، والثالثُ على لغةٍ ثالثة ، لكانوا فى العاطفة كأبناء ثلاثةِ آباء .

وما ذلّتْ لغةُ شعب إلا ذَلَّ ، ولا انحطتْ إلا كان أمرُه فى ذهابٍ وإدبار ؛ ومن هذا يفرِضُ الأجنبيُّ المستعمرُ لغتَه فرضًا على الأمة المستعمَرة ، ويركبهُم بها ، ويُشعرُهم عظَمَته فيها ، ويَستلحِقُهُم من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً فى عملٍ واحد : أما الأولُ فحبْسُ لغتهم فى لغته سِجنًا مؤبّداً ؛

وأما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً ؛ وأما الثالثُ فتقييدُ مستقبلهم فى الأغلال التى يصنعُها ؛ فأمرُهم من بعدِها لأمره تبَع .

والذين يتعلّقون اللغاتِ الأجنبية ينزِعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق ، إن لم تكنْ عصبيتُهم للغتهم قويةً مُستحكمةً من قِبَل الدين أو القومية ؛ فتراهم إذا وهَنَتْ فيهم هذه العصبيةُ يخجلون من قوميتهم ، ويتبرءون من سلَفهم وينسلخون من تاريخهم ، وتقومُ بأنفسهم الكراهةُ للغتهم وآدابِ لغتهم ولقومهم وأشياءِ قومهم ؛ فلا يستطيعُ وطنُهم أن يوحىَ إليهم أسرارَ روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحبّ لغيره ، فيتجاوَزونه وهم فيه ، ويرِثونَ دماءَهم من أهلهم ، ثم تكونُ العواطفُ فى هذه الدماءِ للأجنبى ؛ ومن ثَمّ تُصْبح عندهم قيمةُ الأشياءِ بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيالِ المتوَهم فيها لا بالحقيقةِ التى تحملها ؛ فيكونُ شىء الأجنبى فى مذهبهم أجملَ وأثمنَ ، لأن إليه الميلَ وفيه الإكبارُ والإعظام ؛ وقد يكون الوطنى مثله أو أجمل منه ، بيْدَ أنه فقَد الميل ، فضعفتِ صِلتُه بالنفس ، فعادت كلُّ مميِّزاته فضعفَت لا تميزُه .

وأعجبُ من هذا فى أمرهم ، أن أشياءَ الأجنبى لا تحمِلُ معانيَها الساحرةَ فى نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءَها الأجنبية ، فإن سُمّىَ الأجنبىُّ بلغتهم القوميّةِ نقَصَ معناه عندهم وتصاغَرَ وظهرت فيه ذِلة . . . وما ذاك إلا صِغَرُ نفوسهم وذِلتُها ، إذ لا ينتَخُون لقوميتهم فلا يُلهِمُهم الحرفُ من لغتهم ما يُلهِمُهم الحرفُ الأجنبىّ .

والشرق مبتلى بهذه العلة ، ومنها جاءت مَشاكله أو أكثرها ؛ وليس فى العالم أمةٌ عزيزةُ الجانب تقدّم لغةَ غيرها على لغة نفسها ، وبهذا لا يعرفون للأشياءِ الأجنبيةِ موضِعاً إلا من وراءِ حُدود الأشياءِ الوطنية ؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا ، لَكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثرِ مشاكلنا .

فاللغات تتنازَعُ القوميةَ ، ولَهِيَ واللهِ احتلالٌ عقلىٌّ فى الشعوب التى ضعفت عصبيتُها ؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها ، أثرت اللغةُ الأجنبية فى الخلقِ القومى ما يؤثِّر الجوُّ الأجنبىُّ فى الجسم الذى انتقل إليه وأقام فيه .

أما إذا قويت العصبية ، وعزّت اللغة ، وثارت لها الحميّة ؛ فلن تكونَ اللغاتُ الأجنبيةُ إلا خادمةً يـُرتَفَقُ بها ، ويرجع شِبْرُ الأجنبى شبراً لا متراً ... وتكون تلك العصبيةُ للغة القومية مادةً وعَونًا لكل ما هو قومى ؛ فيُصبح كلُّ شىء أجنبى قد خضع لقوة قاهرة غالبة ، هى قوة الإيمان بالمجد الوطنى واستقلالِ الوطن ؛ ومتى تعيّنَ الأولُ أنه الأولُ ، فكل قوى الوجود لا تجعلُ الذى بعده شيئًا إلا أنه الثانى .

* * *

والدينُ هو حقيقةُ الخلقِ الاجتماعى فى الأمة ، وهو الذى يجعلُ القلوبَ كلَّها طبقةً واحدةً على اختلافِ المظاهر الاجتماعية عاليةً ونازلةً وما بينهما ؛ فهو بذلك الضميرُ القانونى للشعب ، وبه لا بغيره ثَبَاتُ الأمة على فضائلِها النفسية ، وفيه لا فى سواه معنى إنسانيةِ القلب .

ولهذا كان الدينُ من أقوى الوسائل التى يُعوَّل عليها فى إيقاظ ضميرِ الأمة ، وتنبيه رُوحها ، واهتياجِ خيالها ؛ إذ فيه أعظمُ السلطة التى لها وحدها قوةُ الغلبة على الماديات ؛ فسلطانُ الدين هو سلطانُ كل فرد على ذاته وطبيعته ؛ ومتى قوى هذا السلطانُ فى شعب ، كان حَميًّا أبيًّا ، لا تُرغمه قوة ، ولا يعنُو للقَهْر .

ولولا التدين بالشريعة ؛ لما استقامت الطاعة للقانون فى النفس ؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين ؛ لما انتظمت أمة ؛ فليس عملُ الدين إلا تحديدَ مكانِ الحى فى فضائلِ الحياة ؛ وتعيينَ تَبِعَتِه فى حقوقها وواجباتها ، وجعْلَ ذلك كله نظامًا مستقرًّا فيه لا يتغير ، ودَفْعَ الإنسانِ بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائمًا نحو الأكمل .

وكل أمة ضعف الدين فيها اختلَّت هندستُها الاجتماعية وماجَ بعضُها فى بعض ؛ فإنَّ من دقيق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرةَ من الحياة غاية فى هذه الأرض ، وذلك لتنتظمَ الغايات الأرضية فى الناس؛ فلا يأكلُ بعضُهم بعضًا ؛ فيغتنى الغنىُّ وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثوابُ الأعلى فى أن يعودَ على الأسفل بالمبرَّة ، وثوابُ الأسفل فى أن يصبرَ على ترك الأعلى فى

منزلته ؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التى لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغُر عنها الصغير ؛ وهى الحق، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى .

وما دام عملُ الدين هو تكوينَ الخلُق الثابتِ الدائبِ فى عمله ، المعتز بقوته ، المطمئنّ إلى صبره ، النافرِ من الضعف ، الأبىّ على الذل ، الكافرِ بالاستعباد ، المؤمنِ بالموتِ فى المدافعةِ عن حوْزته ، المجْزىّ بتساميه وبذْله وعطفه وإيثاره ومُفاداته ، العاملِ فى مصلحة الجماعة ، المقيّدِ فى منافعه بواجباته نحو الناس — ما دام عملُ الدينِ هو تكوينَ هذا الخلُق — فيكون الدينُ فى حقيقته هو جعْلَ الحسّ بالشريعة أقوى من الحس بالمادة ؛ ولعمرى ما يجدُ الاستقلالُ قوةً هى أقوى له وأردّ عليه من هذا المعنى إذا تقرّر فى نفوس الأمة وانطبعت عليه .

وهذه الأمة الدينيةُ التى يكونُ واجبُها أن تَشرُف وتسودَ وتَعتَزّ ، يكونُ واجبُ هذا الواجب فيها ألاّ تسقط ولا تخضَع ولا تذلّ .

وبتلك الأصولِ العظيمةِ التى يُنشئها الدينُ الصحيحُ القوىُّ فى النفس ، يتهيأ النجاحُ السياسىُّ للشعب المحافِظ عليه المنتصرِ له ؛ إذ يكون من الخِلال الطبيعيةِ فى زُعمائه ورِجاله الثباتُ على النزعة السياسية ، والصلابة فى الحق ، والإيمانَ بمجد العمل ، وتغليبُ ذلك على الأحوال المادية التى تعترض ذا الرأىِ لتفتِنَه عن رأيهِ ومذهبِه : من مال ، أوجاه ، أومنصب ، أوموافَقة الهوى ، أوخشيةِ النقمة ، أوخوفِ الوعيد، إلى غيرها من كل ما يستميلُ الباطلُ أو يُرْهِبُ به الظلم .

ولا يذهبنّ عنك أن الرجلَ المؤمنَ القوىَّ الإيمان الممتلئ ثقةً ويقينًا ووفاءً وصدقًا وعزمًا وإصراراً على فضيلته وثَباتًا على ما يلقَى فى سبيلها — لا يكونُ رجلا كالناس ، بل هو رجلُ الاستقلالِ الذى واجبُه جزءٌ من طبيعته وغايتُه الساميةُ لا تنفصلُ عنه ؛ هو رجلُ صِدْقِ المبدإ ، وصدقِ الكلمة ، وصدقِ الأمل ، وصدقِ النَّزعة ؛ وهو الرجلُ الذى ينفجرُ فى التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنيةُ إلى إطلاق قنابلها للنصر .

* * *

والعاداتُ هي الماضي الذي يعيشُ في الحاضر ، وهي وحْدةٌ تاريخيةٌ في الشعب ، تجمعُه كما يجمعُه الأصلُ الواحد ؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساسٍ أدبي في النفس ، وفي اشتمالها على التحريم والتحليل ؛ وتكاد عاداتُ الشعب تكونُ دينًا ضيقًا خاصًّا به ، يَحصُرُه في قَبيلِه ووطنه ، ويحقق في أفراده الألفة والتَّشابُك ، ويأخذُهم جميعًا بمذهبٍ واحد ؛ هو إجلالُ الماضي :

وإجلالُ الماضي في كل شعب تاريخي هو الوسيلةُ الروحيةُ التي يَستوحي بها الشعبُ أبطالَه ، وفلاسفتَه ، وعلماءَه ، وأدباءَه ، وأهلَ الفنّ منه ؛ فيُوحون إليه وَحْيَ عظائمهم التي لم يغلبها الموت ؛ وبهذا تكونُ صُوَرُهم العظيمةُ حيّةً في تاريخه ، وحيّةً في آماله وأعصابه .

والعاداتُ هي وحدها التي تجعلُ الوطنَ شيئًا نفسيًّا حقيقيًّا ؛ حتى ليشعرُ الإنسان أنّ لأرضهِ أمُومةَ الأمّ التي وَلَدَتْه ، ولقومِه أبوةَ الأبِ الذي جاء به إلى الحياة : وليس يَعرف هذا إلا من اغتربَ عن وطنه ، وخالَطَ غيرَ قومه ، واستَوْحَشَ من غير عاداته ؛ فهناك يُثبتُ الوطنُ نفسَه بعظَمةٍ وجَبَروتٍ كأنه وحدَه هو الدنيا .

وهذه الطبيعةُ الناشئةُ في النفس من أثر العادات هي التي تُنَبّهُ في الوطني رُوحَ التميزُ عن الأجنبي ، وتُوحشُ نفسَه منه كأنها حاسّةُ الأرض تنبّه أهلَها وتُنذِرُهم الخطَر .

ومتى صدقت الوطنيةُ في النفس أقرّت كلّ شيء أجنبيّ في حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أولَ مظاهرِ الاستقلال ، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطني .

* * *

وباللغة والدين والعادات ، ينحصرُ الشعبُ في ذاته السامية بخصائصها ومقوّماتِها ، فلا يَسْهُل انتزاعُه منها ولا انتساقُه من تاريخه ؛ وإذا ألجِئَ إلى حال من القهر لم يَنْخَذِلْ ولم يتَضَعْضَع ، واستمر يعمل ما تعمله الشّوكةُ الحادّةُ : إن لم تُتْرَكْ لنفسها ، لم تُعطِ من نفسِها إلا الوَخْزَ . . . .

تجديد الإسلام[1]

رسالة الأزهر فى القرن العشرين *

(الأزهر) ، هذه هى الكلمةُ التى لا يقابلُها فى خيال الأمة المصرية إلا كلمةُ (الهَرَم) ؛ وفى كلتا اللفظتين يكمُنُ سر خفىٌّ من أسرار التاريخ التى تجعلُ بعضَ الكلمات ميراثًا عقليًّا للأمة ، يُنْسِى مادةَ اللغة فيها ولا يُبْقِى منها إلا مادةَ النفس ؛ إذ تكونُ هذه الكلماتُ تعبيراً عن شىء ثابت ثباتَ الفكرة التى لا تتغير ، مستقِرٍّ فى الروح القومية استقرارَه فى الزمن ، متجسِّم من معناه كأن الطبيعةَ قد أفردتْه بمادته دونَ ما يشاركه فى هذه المادة ؛ فالحجرُ فى الهَرَم الأكبر يكاد يكونُ فى العقل زمانًا لا حجَراً وفنًّا لا جسْمًا ؛ والمكان فى الأزهر يَغيبُ فيه معنى المكان وينقلبُ إلى قوةٍ عقلية ساحرة تُوجِدُ فى المنظور غيرَ المنظور .

وعندى أن الأزهر فى زماننا هذا يكادُ يكونُ تفسيراً جديداً للحديث : « مِصْرُ كِنانةُ اللهِ فى أرضه » ، فعلماؤه اليومَ أسهمٌ نافذةٌ من أسهُمِ الله يَرمى بها من أراد دينَه بالسوء ، فيُمْسِكها للهَيْبة ويَرمى بها للنصر ؛ ويجبُ أن يكونَ هذا المعنى أولَ معانيهم فى هذا القرن العشرين الذى ابتُلى بمِلْءِ عشرين قرنًا من الجُرْأة على الأديان وإهمالِها والإلحادِ فيها .

أولُ شىء فى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، أن يكونَ أهلُه قوةً إلهيَّةً مُعَدَّةً للنصر ، مهيَّأةً للنِّضال ، مسدَّدةً للإصابة ، مقدَّرةً فى طبيعتها أحسنَ تقدير ، تُشْعِر الناسَ بالاطمئنان إلى عملها ، وتُوحى إلى كل من يراها الإيمانَ الثابت بمعناها ؛ ولن يأتىَ لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا

---

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة .

* لم نتكلم فى هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر ؛ لأن هذه هى مادة الأزهر لا رسالته الجديدة فى رأينا .

يكونُ العلمُ تحرُّفًا ولا مِهْنةً ولا مَكْسبة * ، ولا يكون فى أوراق الكتُب خيالُ (أوراق البناك) . . . بل تظهرُ فيهم العظَمة الروحانيةُ آمرةً ناهيةً فى المادة ، لا مأمورةً منهيةً بها ؛ ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مُقَرَّرَ خُلُق فى الحياة قبل أن يكونَ معلِّم علم فى الحياة ، لينبثَّ منهم مغناطيسُ النبوَّة يجذبُ النفوسُ بهم أقوى مما تجذبُها ضَلالات العصر ؛ فما يحتاج الناسُ فى هذا الزمن إلى العالِم — وإن الكُتُبَ والعلومَ لتملأ الدنيا — وإنما يحتاجون إلى ضميرِ العالِم .

وقد عجزت المدنية أن تُوجِدَ هذا الضمير ، مع أن الإسلامَ فى حقيقته ليس شيئًا إلا قانونَ هذا الضمير ، إذ هو دينٌ قائم على أن الله لا ينظرُ من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأولُ ما ينبغى أن يحمله الأزهرُ من رسالته ، ضمائرُ أهلِه .

والناسُ خاضعون للمادة بقانونِ حياتهم ، وبقانونٍ آخرَ هو قانونُ القرن العشرين ... فهم من ثَمَّ فى أشدِّ الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلِّطَ على المادة بقانونِ حياته ؛ ليرَوْا بأعينهم القُوَى الدنيئةَ مغلوبة ، ثم ليجدوا فى هذا الإنسانِ أساسَ القدوةِ والاحتذاءِ ، فيتَّصلوا منه بقوتين : قوةِ التعليم ، وقوةِ التحويل .

وهذا هو سرُّ الإسلام الأول الذى نَفَذَ به من أمةٍ إلى أمةٍ ولم يقم له شىء يَصدُّه ، إذ كان ينفُذُ فى الطبيعةِ الإنسانية نفسِها .

* * *

ومن أخصِّ واجباتِ الأزهر فى هذا القرن العشرين ، أن يعملَ أولَ شىء لإقرار معنى الإسلام الصحيح فى المسلمين أنفسِهم ، فإن أكثرهم اليومَ قد أصبحوا مسلمين بالنَّسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو فى حاجة إلى تجديد إسلامِه .

والحكوماتُ الإسلاميةُ عاجزة فى هذا ، بل هى من أسباب هذا الشر ؛ لأن لها وجوداً سياسيًّا ووجوداً مدنيًّا ؛ أما الأزهر فهو وحدَه الذى يصلح

* أى احتراف العلم للتكسب به كما نراه اليوم .

لإتمام نقصِ الحكومة فى هذا الباب ، وهو وحده الذى يَسَعُه ما تَعجز عنه ؛ وأسبابُ نجاحه مُهيَّأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكمُ الزَّعامةِ الإسلامية ، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحى على الأرض ، ثم كان هو صورةَ المزاج النفسىِّ الإسلامىِّ المحض ؛ بَيْدَ أنه فرَّط فى واجب هذه الزعامة ، وفقد القوةَ التى كان يحكم بها ، وهى قوةُ المثَل الأعلى التى كانت تجعلُ الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة : إنسانًا تتخيَّره المعانى السياسية تَظهرُ فيه بأسلوب عملىّ ، فيكونُ فى قومه ضَربًا من التربية والتعليم بقاعدةٍ مُنتزَعة من مثالها ، مشروحةٍ بهذا المثال نفسِه .

والعقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثَلِ الأعلى هى أولُ مغلوبٍ فى صراع قُوى الحياة .

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارَهم إلى علماء الأزهر ، فهم يتَّبعونهم ، ويتأسَّونَ بهم ، ويمنحونهم الطاعةَ ، وينزلون على حكمهم ، ويلتمسون فى سيرتهم التفسيرَ لمشكِلات النفس ، ويعرفون بهم معنى صِغَر الدنيا ومعنى كِبَر الأعمالِ العظيمة ؛ وكان غنى العالِم الدينىّ شيئًا غير المال ، بل شيئاً أعظمَ من المال ؛ إذ كان يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناسِ لفقره كأنه مُلْكٌ لا فقر ؛ وكان زُهدُه قوةً حاكمةً فيها الصلابةُ والشدةُ والهيبة والسموُّ ، وفيها كلُّ سلطانِ الخيرِ والشر ، لأن فيها كلَّ النزَعات الاستقلالية ؛ ويكادُ الزهدُ الصحيحُ يكونُ هو وحده القوةَ التى تجعل علماءَ الدينِ حقائقَ مؤثِّرةً عاملةً فى حياة الناس أغنيائِهم وفقرائِهم ، لا حقائقَ متروكةً لنفسها يُوحِشُ الناسَ منها أنها متروكةٌ لنفسها .

* * *

وعلماءُ الأزهر فى الحقيقة هم قوانينُ نفسيَّةٌ نافذةٌ على الشَّعب ، وعملُهم أرَدُّ على الناس من قوانينِ الحكومةِ ، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرَت الأمورُ على عِلَلِها وأسبابها ؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودَهم ، وأن يتناولوا الأمةَ من ناحيةِ قلوبها وأرواحِها ، وأن يُعِدُّوا تلاميذَهم فى الأزهر كما يُعِدُّون القوانينَ الدقيقةَ ، لا طلاَّبًا يرتزقون بالعلم .

أين صوتُ الأزهرِ وعملُه فى هذه الحياة المائجة بما فى السَّطْح وما فى القاع . . . وأين وحْىُ هذه القوةِ التى ميثاقُها أن تجعلَ النبوَّةَ كأنها شىء واقعٌ فى الحياة العصرية لا خَبَرٌ تاريخىٌّ فيها ؟

لقد أصبح إيمانُ المسلمين كأنه عادةُ الإيمانِ لا الإيمانُ نفسُه ؛ ورجع الإسلامُ فى كتبه الفقهية وكأنه أديانٌ مختلفة متناقضة لا دينٌ واحد . فرسالةُ الأزهر أن يجددَ عملَ النبوة فى الشعب ، وأن ينفىَ عملَ التاريخ فى الكتُب ، وأن يُبطِلَ عملَ الوثنية فى العادات ، وأن يُعطى الأمةَ دينَها الواضحَ السمْحَ الميسَّرَ ، وقانونَها العملى الذى فيه سعادتُها وقُوَّتُها .

ولا وسيلةَ إلى ذلك إلا أن يكون الأزهرُ جريئًا فى قيادة الحركةِ الروحية الإسلامية ، جريئاً فى عمله لهذه القيادة ، آخذاً بأسباب هذا العمل ، مُلِحًّا فى طلبِ هذه الأسباب ، مُصِرًّا على هذا الطلب ؛ وكلٌّ هذا يكونُ عبثًا إن لم يكن رجالُ الأزهر وطلبته أمثلةً من الأمثلة القوية فى الدين والخلُقِ والصلابة ، لتبدأ الحالةُ النفسيةُ فيهم ، فإنها إن بدأت لا تقف ؛ والمثَل الأعلى حاكمٌ بطبيعته على الإنسانية ، مُطاعٌ بحكمه فيها ، محبوبٌ بطاعتها له .

والمادةُ المطهِّرةُ للدين والأخلاق لا تجدُها الأمة إلا فى الأزهر ، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهارِ عملِها لا بإلصاقِ الورقة المكتوب فيها الاسمُ على الزجاجة . . .

ومن ثَم يكونُ واجبُ الأزهر أن يطلبَ الإشرافَ على التعليم الإسلامى فى المدارس ، وأن يدفعَ الحركةَ الدينية دفعًا بوسائلَ مختلفة ، أولُها أن يحملَ وزارة المعارف[1] على إقامة فرض الصلاة فى جميع مدارسها ، من مدرسة حرية الفكر . . فنازلاً : والأمة الإسلامية كلها تَشُدُّ رأى الأزهر فى هذا .

وإذا نحن استخرجنا التفسيرَ العمليَّ لهذه الآية الكريمة : (ادْعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة) ، دلَّتنا الآيةُ بنفسها على كل تلك الوسائل ، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية فى العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية فى الدعوة .

---

(١) وزارة التربية والتعليم الآن . الناشر .

العلماءُ ورثةُ الأنبياء ؛ وليس النبيُّ من الأنبياء إلا تاريخَ شدائدَ ومِحَن ، ومجاهَدة في هداية الناس ، ومُراغَمَة للوجود الفاسد ، ومكابَدة التصحيحِ للحالة النفسية للأمة ؛ فهذا كلُّه هو الذى يُورَثُ عن الأنبياء لا العلمُ وتعليمُه فقط .

* * *

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق ، وأصبح وجودُه هو المعنى المتمِّمَ للحكومة ، المعاونِ لها فى ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتِها وأمنِها ورَفاهتها واستقرارِها — اتجهت طبيعتُه إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين ، بعد أن يكونَ قد حقق الذرائعَ إلى هذه الرسالة ، من فتح باب الاجتهاد ، وتنقية التاريخ الفقْهى ، وتهذيب الروح الإسلامى والسموّ به عن المعانى الكلامية الجدَلية السخيفة ؛ ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكننة فيه ، لهذه العصور العلمية الأخيرة ؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوةُ التى تُمسِك الإسلامَ على سنَّته بين القديم والجديد ، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك ، وبعد أن يكونَ الأزهر قد استفاض على العالَم العربى بكتُبه ودُعاته ومبعوثيه من حاملى علمه ورُسُلِ إلهامه .

أما تلك الرسالةُ الكبرى فهى بثُّ الدعوة الإسلامية فى أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين ، فى ألسنة أزهرية مُرْهَفة مصقولة ، لها بيانُ الأدب ، ودقةُ العلم ، وإحاطةُ الفلسفة ، وإلهامُ الشعر ، وبصيرةُ الحكمة ، وقدرة السياسة ؛ ألسنة أزهرية لا يُوجَد الآن منها لسانٌ واحدٌ فى الأزهر ، ولكنها لن توجدَ إلا فى الأزهر ؛ ولا قيمةَ لرسالته فى القرن العشرين إذا هو لم يُوجدها فتكونَ المتكلمة عنه ، والحاملةُ لرسالته ، وما هذه البعثات التى قرر الأزهر ابتعاثَها إلى أوربا إلا أولُ تاريخ تلك الألسنة .

إن الوسيلةَ التى نَشَرت الإسلامَ من قبلُ لم تكن أجنحة الملائكة ، ولا كانت قوةٌ من جهنم ؛ ولا تزال هى التى تنشره ؛ فليس مستحيلاً ولا متعذراً أن يغزوَ هذا الدينُ أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالَم القديم ، ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لإيجاد إسلام فى الأمة الغريبة عنه ، حتى إذا وُجد تولى هو

الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعى القائم على أن الأصلح هو الأبقى ، وانحازت إليه الإنسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة ، ودين فطرتها القوية ؛ وقد ظل الإسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر ، كما كان ينتشر وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح فى هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته ؛ فهذا الدين كما قلنا فى بعض كلامنا[1] : أعمال مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يعطى الحياة فى كل عصر عقلها العملى الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس على مميزة و بصيرة ، ويدع للحياة عقلها العلمى المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى ؛ وهذه هى حقيقة الإسلام فى أخص معانيه : لا يغنى عنه فى ذلك دين آخر ، ولا يؤدى تأديته فى هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبع فى الأرض لمعانى النور ، بإزاء الشمس نبع النور فى السماء .

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الإسلام فى تلك الأمم ما يستمر ، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت ،والثبات يوجد ما يدوم ؛ وكأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا فى قوله : نضّر الله امرأ سمع منى شيئاً فبلغه كما سمعه، فربّ مبلَّغ أوعى له من سامع .

أما والله إن هذا المبلَّغ الذى هو أوعى له من السامع لن يكون فى التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا فى هذا الزمن العلمى إذا نحن عرفنا كيف نبلّغ .

أنا مستيقن أن فيلسوف الإسلام الذى سينتشر الدين على يده فى أوربا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهى إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الإسلام وأعماله ؛ ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها ، والإفضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعى فإن أول الدين هناك أسلوبه الذى يظهر به .

* * *

هذه هى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، ويجب أن يتحقق بوسائلها من

---

(١) انظر مقالة « الإشراق الإلهى » ص ٤ ج ٢ « وحى القلم » .

الآن ؛ ومن وسائلها أن يُعالِنَ بها لتكونَ مـوثقًا عليه . ويحسنُ بالأزهر فى سبيل ذلك أن يضم إليه كلَّ مفكر إسلامى ذى إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة ؛ فتكون له ألقابٌ علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ، ثم يستعينُ بعلمهم وإلهامِهم وآرائهم .

وبهذه الألقاب يمتدّ الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ، ويصبح أوسعَ فى أثره على الحياة الإسلامية ، ويحقق لنفسه المعنى الجامعى .

وفى تلك السبيلِ يجبُ على الأزهر أن يختارَ أيامًا فى كل سنة يجمعُ فيها من المسلمين (قرش الإسلام) ؛ ليَجِـدَ مادةَ النفقة الواسعة فى نشر دين الله ، وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسُطُ يده ، فما يحتاجُ هذا التدبيرُ لأكثر من إقراره وتنظيمِه وإعلانِه فى الأمم الإسلامية ومواسِمها الكبرى ، وخاصة موسم الحج .

وهذا العمل هو نفسُه وسيلةٌ من أقوى الوسائل فى تنبيه الشعور الإسلامى ، وتحقيقِ المعاونة فى نشر الدين وحياطته ؛ وعسى أن تكونَ له نتائج اجتماعية لا موضعَ لتفصيلها هنا ، وعسى أن يكون (قرش الإسلام) مادةً لأعمال إسلامية ذاتِ بال ، وهو على أى الأحوال صلةٌ روحيةٌ تجعلُ الأزهرَ كأنه مُعْطِيه لكلِّ مسلمٍ لا آخِذه .

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، اهتداءُ الأزهر إلى حقيقة موضعِه فى القرن العشرين : « وجاءكَ فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » .

الأسد

جلس أبو على أحمد بن محمد الرُّوذَبَادى البغدادى* فى مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبى الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطى شيخ الديار المصرية** وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده ، وقد خرج أكثر أهل مصر فى جنازته ، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا ؛ مابقى أحد إلا اقتنع أنه فى شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى فى سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق ؛ إذ ينظر كل امرئ فى مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة ، باللمس لا بالبصر ، وبالتوهم لا بالتحقيق ، وعلى دليل نفسه فى الشىء لا على دليل الشىء فى نفسه ، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة ؛ ثم يأتى الموتُ فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعًا ، فلا يرتاب مبصر ولا أعمى ، ويبطل ما هو باطل ويحق الذى هو حق .

وتكلم أبو على فقال : كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد*** فى بغداد ، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الرىّ والجبال فى وقته**** يقول فيه : لا أذاقك الله طعمَ نفسك ، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً ! قال : فجعلت أفكر فى طعم النفس ما هو ، وجاءنى ما لم أرْضَه من الرأى ، حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذى كان سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ وأصحبه وأنتفع به .

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية ، هو فى الجهل كالبلد الذى ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة وإن كان كل أهله علماء ، وإن كان فى كل محلة منه مدرسة ، وفى كل دار من دوره خزانة كتب ؛

---

* توفى سنة ٣٢٢ .

** توفى سنة ٣١٦ .

*** توفى سنة ٢٩٨ .

**** كانت وفاته ٣٠٤ .

فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال ؛ فإنما هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل ، ولكن الرجل الكامل صوابٌ ينتهى إلى الروح ، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم ، إذ هو تفسير الحقائق فى العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها ؛ ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ، ووضعوا فى ذلك مائة كتاب ، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معانى الفضيلة ، وخالطوه وصحبوه — لكان الرجل وحده أكبر فائدةً من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب ؛ ولهذا يرسل الله النبيّ مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودِها ، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول ، وينشئ الفضائل الإنسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتعلم المرءُ منه حقائقَ الأخلاق العالية ، إلا كوضع الإنسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ؛ فقد أنشأ يعمل ، ولكنه لن يرتفع ؛ ومن ذلك كان شر الناس هم العلماءَ والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروسًا أخرى تعمل عملا آخر غير الكلام ؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ، ثم تكون حوله رذائله تعلّم تعليمًا آخر من حيث يدرى ولا يدرى ، ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه ، وكتابُ الشيطان مع الإنسان الخفيّ فيه .

* * *

قال أبو على : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ عنه وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون ؛ فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد ، يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سرُّه ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء وإن صغرت واحدة وكبرتْ واحدة ؛ وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجودُه فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسبًا شابكًا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه : لا يراه من يراه منهم إلا أحسّ أنه شخصه الأكبر ؛ فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الإنسانية للناس ، وكأنه مخلوق خاصة لإثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها

أو لامسها ، وأن القُوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحَبها ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كإصابة المرض : تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتُفقد الشيء ما هو به شيء ، فتتحول قيمتُه ، فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عدِم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلّما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد وكبار الشجعان وكبار العلماء وأمثالهم — كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى .

* * *

قال أبو على : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، فقطعتْنى هيبتُه ، فقلت : أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الري : « لا أذاقك الله طعم نفسك » ؛ وبينما أهيئ فى نفسى كلاماً أُجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار ، وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين ، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يُظفرنى بدينى وأن يثبته على الحق . فقال الشيخ : إنى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى ، فاذهب فاشتر رطلا منها وائتنى به حتى أدعو لك !

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة ، وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعِمها صبيانَك لا أذاقنا الله طعمَ أنفسنا فيما نشتهى ! ثم إنه التفت إلىّ وقال : لو أن شجرة اشتهت غير ما به صحةُ وجودها وكمالُ منفعتها فأذيقت طعم نفسها لأكلت نفسها وذوَتْ .

* * *

قال أبو على : والمعجزات التى تحدث للأنبياء ، والكرامات التى تكون للأتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق — كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ما سمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى

لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينورى* ذاك الذى يحدِّث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفًا فيها الكبير والصغير ؛ فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بُنان مع ابن طولون ، فمن أجله زعمتَ جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضَع فلم يخبرنى وهِبْتُهُ فلم أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون** من جارية تركية ، وكان طولون أبوه مملوكًا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفًا عليه من المال والرقيق والبراذين وغيرِ ذلك ؛ فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهبًا بعيداً ، ونشأ من أول أمره على أن يُتم هذا النقص ويكون أكبرَ من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرمى بنفسه ، وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر ، كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على ما يعلم الله .

قال : وكان عقله من أثر طبيعتيه كالمعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء ، وشرط إذ جىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثيابًا ويفرش له ويُغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، ولم يكن هذا قبل إمارته ؛ وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر ؛ وهو صاحب يوم الصدقة : يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس ، ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون فى اثنين منها فالوذج*** وفى الآخرين من القدور ، وينادى :

* توفى سنة ٣٢٢ .

** كانت إمارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة ، وتوفى سنة ٢٧٠ .

*** نوع من الحلوى ، وهو ما يسميه العامة (البالوظة) .

من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ! وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو فى المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ؛ وكان راتب مطبخه فى كل يوم ألف دينار ؛ واقتدى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة* ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار كل شهر .

وقد بلغ ما أرسله ابنُ طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها فى مدة ولايته ألفى ألف ومائتى ألف دينار** وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ حجرة بقربه فى القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبِّرين ، يتعاقبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ويهللون ، ويقرءُون القرآن تطريباً ، وينشدون قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الأذان ؛ وهو الذى فتح أنطاكية فى سنة خمس وستين ومائتين ، ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه أهلها وقاتلهم أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ، ليبلغ ذلك طاغيةَ الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس ، فيكون بهذا كأنه قاتله وصدَّه عن بلد من بلاد الإسلام ، ويجعل هذا الخبر كالجيش فى تلك الناحية !

ومع كل ذلك فإنه كان رجلا طائش السيف ، يجور ويعسف ، وقد أُحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا فى سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة فى حادثة معروفة . وقال له : غرَّك قول الناس ما فى الدنيا مثل بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت ! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء ، فكانت عشرة آلاف دينار ، قيل إنها وجدت فى بيت بكار بختمها لم يمسها زهداً وتورُّعاً .

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، طاش عقله فأمر بإلقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذى طار فى الدنيا حتى بلغك فى بغداد . . .

* * *

* هذا هو الأصل فى مطعم الشعب .

** الدينار نصف جنيه مصرى فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها رحمه الله .

قال : وكنت حاضر أمرِهم ذلك اليوم ، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه وكان خمارويه هذا مشغوفًا بالصيد ، لا يكاد يسمع بسبع فى غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عَنْوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم .

وكان الأسد الذى اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيمًا ، ضاريًا ، عارم الوحشية ، متزيِّل العضل، شديد عصب الخلق ، هراسًا ، فراسًا ، أهرت الشدق يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبئ أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجًا من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله !

وأجلسوا الشيخ فى قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة !

ثم اجتمع الوحش فى نفسه واقشعرّ ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجَلِ الشيخ إلا طرفة عين ؛ ورأيناه على ذلك ساكنًا مطرِقًا لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل .

ولم يَرُعْنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته ، فأقعى على ذنبه ، ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترفِّقًا ثقيل الخطو تُسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاوَلة بين الرجل التقى والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله ! .

وضربتْه روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بإزاء لحم ودم ، فلو أكل الضوءَ والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يَرَى فيه إلا حياةً خاضعة مسخرة للقوة العظمى

التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها ، كحياة الدودة والنملة وما دونها من الهوام والذر !

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجًا فى يقين هذه الآية : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعْيُننا) !

ورأى الأسد رجلا هو خوفَ الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة ، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ؛ فليس فى الرجل خوف ولاهم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رآه الأسد ميتًا ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجةٌ من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه .

* * *

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجه الشيخ ، فإذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنًّا فى تفكيره ، فمن قائل إنه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ؛ وأكثَرْنا فى ذلك وتجارينا فيه ، حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن علىّ بأس ، وإنما كنت أفكر فى لعاب الأسد ، أهو طاهر أم نجس . . .

أمراء للبيع . . .

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقّب طُوير الليل ، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة * :

كان شيخنا الإمامُ العظيم شيخُ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد ** لا يخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ! فما يخشاه ولا يتعبّد له ولا يَنْتحِلُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يزُينه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء ؛ وكان هذا عجيباً ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينِه (يا إنسان) ؛ فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقةَ الإنسانية !

ثم كان لا يعظّم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحداً قال له : (يا فقيه) ؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين ابن الرفعة *** ، ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله : (يا إمام) ؛ إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة ، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان . إجلاله إجلالُ الحق ، لأن فيه المعنى وتثبيتَ المعنى .

وقلت له يوماً : يا سيدى ، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ؛ فإن علوت قلت : (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هى ظلٌ الكلمات التى يوصف اللهُ بها ، ثم جعله المُلك إنساناً بذاته فى وجود ذاته ، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة : يستويان فى العنصر ويتباينان فى القدر ، وأقله مهما

* توفى سنة ٧١٧ هـ .

** كانت وفاته سنة ٧٠٢ .

*** توفى سنة ٧١٠ .

قلّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيءٌ ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى ، إيش هذا ؟ إننا نفوس ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً ، ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود ، والمنافق رجل مغطى في حياته ، ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة ؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل ، فإذا نافق فقد كذب؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين ، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة في الناس دهراً بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ، ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور : تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نورٍ واحد لا يختلف ؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور : يُظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير !

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها ؛ فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي ؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة ، فهو معه في كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كلّ يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها ، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقتْ أفعاله لقالت لله بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر ، أو في

بعضه دون بعضه ، فهو زائف كله ؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فينزلون بذلك منزلة البهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها : والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو مُحَاسنة فقل إنها النفاق ، أو سكوتًا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها !

* * *

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام* فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئًا تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أو عاش ، إذ هو فى الدم كالقلب : لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ؛ ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة لا تَغلب ؛ وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف ؛ وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك فى . فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علىَّ لانتزع منى المملكة !

وكان سلطانه فى دمشق الصالح إسماعيل ، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتْبعه الصالحُ بعضَ خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثرَ مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يا مسكين ! أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى ! أنتم فى واد وأنا واد !

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩ ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتَحَفَّى به وولاه خطابة مصر وقضاءها ، وكان أيوب ملكًا شديد البأس ، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيبًا ، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك

* هو الإمام العظيم شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا فى عصره ، توفى سنة ٦٦٠ .

ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر ؛ فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويُظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : يا أيوب ! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر ؛ فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه .

فحدثنى الباجى قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر ، فقلت : يا سيدى ، كيف كانت الحال ؟

قال : يا بنى ، رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به .

قلت : أما خِفته ؟

قال : يا بنى ، استحضرتُ هيبةَ الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط * . ولو أن حاجة من الدنيا كانت فى نفسى لرأيته الدنيا كلَّها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شىء فى صورة شىء .

نحن يا ولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فإذا أمرناهم ، فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان : وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها ؛ فما بد أن يقابَلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها ؛ فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى ؛ فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت .

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها ، فيكون باطلا مزوَّراً فى صورة الحق ؛ وههنا تكون الذات مع الذات ، فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدى الغِنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على

* هذه كلمات الشيخ بحروفها .

نفسها ؛ فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولتْ أن تقارع السيف !

كلا يا ولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها ، فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دُقت فيها المسامير ؛ وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزْه ؟

إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرتْ به كلُّ خشبة . . .

* * *

قال الإمام تقى الدين : وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وُجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانَها واستبدادها أدبًا وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها ؛ ففكر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال : إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حَسَن منها هو الحسَن ، وإن كان قبيحًا فى ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح ، وإن كان حَسنًا ولا أحسنَ منه .

وقال : ما معنى الإمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وله ؛ وكان ينبغى أن تكون هذه الإمارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس .

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، فحُكم الرق مُسْتصْحَبٌ عليهم لبيت مال المسلمين ، ويجب شرعًا بيعهم كما يباع الرقيق !

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمراء وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام .

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصحح لهم شيئًا من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى !

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه ، ويتحملون عليه بالشفاعات ، وهو مصرٌّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم ، ولا يخشى اتسامه بعداوتهم . فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فأرسل

إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه .

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه ، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه ، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى .

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر ، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام ؛ فلم يبعد إلا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى ، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به ؛ واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير ، فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب مُلكك !

فارتاع السلطان، فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضّاه ويستدفع به غضب الأمة ، وأطلق له أن يأمر بما شاء ، وقد أيقن أنه ليس رجلَ الدينار والدرهم والعيش والجاه ولُبْسِ طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر .

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة فى بيعهم ، وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كلُّ القاهرة ، ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسَّوم فى هذا الرقيق الغالى !

* * *

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة ، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه ، فلم يعبأ الشيخ به ؛ فهاج هائجه وقال : كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذى يَفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد ما لا يملك ، ويفقد غير الموجود ، فلا جَرَمَ لا يبالى ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأى لا يمر فى منافعه ، ولا فى شهواته ولا فى أطماعه ، كالذين نراهم من علماء الدنيا ؛ أما والله لأضربنَّه بسيفى هذا ، فما يموت رأيه وهو حى .

ثم ركب النائب فى عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب ، فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى ، فانقلب إلى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه . . .

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير ، بل قال له : يا ولدى ! أبوك أقلُّ من أن يقتل فى سبيل الله !

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت ؛ فليس فيه الإنسانى بل الإلهى ؛ ونظر إلى نائب السلطنة وفى يده السيف ، فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها .

وتناوله بروحه القوية ، فاضطرب الرجلُ وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ .

وأخذ النائب يبكى ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : يا سيدى ، ما تصنع بنا ؟

قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم !

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا .

وكان الشرع هو الذى يقول (أنا) ، فتم للشيخ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، واشتط فى ثمنهم ، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ ؛ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه . . .

ودُمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! . أمراء للبيع . . .

العجوزان

١

قال محدّثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مَثابتهما * ذلك المكانَ القائم على شاطئ البحر فى إسكندرية فى جهة كذا ؛ وهما صديقان كانا فى صدر أيامهما — حين كانت لهما أيام . . . — رَجُلَى حكومة يعملان فى ديوان واحد ، وكانا فى عيشهما أخَوَىْ جد وهزل ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائمًا اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلةُ أحدهما من الآخر ؛ وكأن بينهما فى الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة والدمعة من الدمعة .

ولبثا كذلك ما شاء الله ، ثم تبددا وأخذتهما الآفاق كدأب « الموظفين » : ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن « الموظف » من تفسير قوله تعالى : (وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت) !

وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض « موظفيها » هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفى طريق لا يلتقيان . وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذى مضى : يُحفظ ولا يُرى .

* * *

قال المحدّث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل فى السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شابّ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة . . . ويزعم أن فى جسمه الناموسَ الأخضر الذى يحيى الشجرة حياةً واحدةً إلى الآخِر .

رجل فارهٌ ، متأنق ، فاخر البزة ، جميلُ السَّمْت ، فارعُ الشّطاط ** كالمصبوب فى قالب لا عوج فيه ولا انحناء ، مجتمع كله لم يذهب منه شىء ،

* أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق .

** ممتد الطول .

قد حفظته أساليبُ القوة التى يعانيها فى رياضته اليومية؛ وهو منذ كان فى آنفته وشبابه لا يمشى إلا مستأخِر الصدر * ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسنداً قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا ** .

وهو دائمًا عَطِرٌ عبق ، ثم لا يمسُّ إلا عِطراً واحداً لا يغيِّره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبى ، وأنه يُبقى للأيام رائحتها .

وله فلسفة من حسّه لا من عقله ، ولفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ، ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقا ، ومن بعضها الصلاة أيضًا ؛ وكل تلك هى عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هى لم تتغير اتصل الشبابُ فيها واطّرد فى الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى .

وهو يزيد فى حكمة الصلاة فكرةً رياضية عملية لم ينتبه إليها أحد ، هى رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكْنَزُ فى صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت ؛ ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ فى الروح كل يوم .

* * *

قال المحدّث : وبينما نحن جالسان مرّ بنا شيخٌ أعجفُ مهزولٌ موهونٌ فى جسمه ، يَدْلُفُ متقاصِرَ الخطْو كأن حِمل السنين على ظهره ، مُرْعشٌ من الكبرَ ، مستقدِمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصًا ، ويدل انحناؤه على أن عمره قد اعوجَّ أيضًا ، وهو يبدو فى ضُعفه وهُزاله كأن ثيابه ملئت عظامًا لا إنسانًا ، وكأنها ما خِيطت إلا لتمسك عظمًا على عظم . . .

---

* يقال مستقدم الصدر ، للهرم المحنى الظهر ؛ فأخذنا منها مستأخر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدوداً ، فيكون أعلاه إلى الوراء .

** هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر فى شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الإنسان . . . والمراد بالطوق : البنيقة (الياقة) .

قال : فحملق إليه (م) ثم صاح : رِينا ! رِينا . فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل إلينا وأقبل ضاحكاً يقول : أوّه ! . رِيت ، رِيت !

ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا ، وجعل رأساهما يدوران ويتطوّحان ، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامئة لاعهد لى بمثلها فى صديقين ، حتى لخيل إلىّ أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ، ولكن بينهما فكرة يعتنقانها ويقبلانها معاً ...

وقلت : ما هذا أيها العجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هذا صديقى القديم (ن) ، تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمُه . . .

ثم التفت إليه وقال : كيف أنت يا رِينا ؟

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى : زاد العمر فى رجلىَّ رجلاً من هذه العصا . ورجع مصدرُ الحياة فىَّ مصدراً للآلام والأوجاع ودخلت فى طبيعتى عادةٌ رابعة من تعاطى الدواء .

فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هى العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هى الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت يا رِيت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرؤها كما يقرؤها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوماً غير ما تقرأ فى يوم ؟

قال : آه ! إن أول شىء أقرأ فى الصحف أخبارُ الوَفَيات ، لأرى بقايا الدنيا ، ثم (إعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إنى لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً فى ذلك العيش الرَّخِىّ ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يتخرَّمْك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لا بمساميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم .

قال : ناشدتك الله ، أفى معجزات العلم الحديث معجزةٌ لِعظمى ؟

قال (م) : ويحك يا رينا ! إنك على العهد لم تبرح كما كنتَ مزبلة أفكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب . . . ؟

* * *

قال المحدّث : وضحكنا جميعًا ، ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) ؟ . وما هذه اللغة ؟ . وفى أى معجم تفسيرُها ؟

قال : فتغامزَ الشيخان ، ثم قال (م) : يا بنى ، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها ، فهى كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى .

قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب فى هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) فى لغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) فى اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بنى : إن رجلَ سنة ١٩٣٥* متى سأل فتًى رجلَ سنةِ ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كاترينا) ؛ وكان (ن) بها صبًّا مغرمًا ، وكان مُقْتَتَلاً قتله حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها .

فامتعض العجوز (ن) ، وقال : سبحان الله ! اسمع يا بنى : إن رجل سنة ١٨٩٥ فتًى يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) ، وكانت الجوى الباطنَ وكانت اللوعةَ والحريق الذى لا ينطفئ فى قلب الأستاذ (م) .

قلت ؛ فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ ، فكيف تريان الحب الآن ؟

قال العجوز (ن) : يا بنى ، إن أواخر العمر كالمنفَى . . . ونحن نتكلم بالألفاظ التى تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم . . . غير أن المعانى تختلف اختلافًا بعيداً .

قلت : واضْرِبْ لهم مثلاً .

* كانت هذه القصة فى صيف سنة ١٩٣٥ فى اسكندرية .

قال : واضرب لهم مثلا كلمة (الأكل) ، فلها عندنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوء الهضم ، ووجع المعدة ؛ وكلمة (المشى) فلها أيضًا ثلاثة معان : المشىُ ، والتعب ، وغمزاتُ العظم . . . وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بنى : زِيد لنا فى معناها : تحرُّك (الروماتزم) . . .

فضحك (م) وقال : يا « شيخ » . . .

قال العجوز : وتلك الزيادة يا بنى لا تجيء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يدَين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقيةٌ من إنسان .

قال الأستاذ (م) : والبقية فى حياتك . . .

قال (ن) : وبالجملة يا بنى فإن حركة الحياة فى الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتَى الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب فى مغامرته : ليمض الزمن ولتتصرَّم الأيام ! فإن الأيام هى التى تتصرم والزمن هو الذى يمر ؛ أما الشيوخ فلن يتمنَّوه أبداً ؛ فمن قال منهم : ليمض الزمن ، فكأنما قال : فلأمض أنا . . .

فصاح (م) : يا شيخ يا شيخ . . .

ثم قال العجوز : واعلم يا بنى أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفًا لا غَنَاء عنده ولا حيلة له ؛ وكل مصانع لنكشير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين ، وما بقى من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها ؛ فهى عاجزة أن تكسوَ عظامى . . .

* * *

قال المحدث : فقهقه الأستاذ (م) ، وقال : كدتُ والله أتخشَّب من هذا الكلام ، وكادت معانى العظم تخرج من عظامى ؛ لقد كان المتوحشون حكماء فى أمر شيوخهم ، فإذا علَت السنُّ بجماعة منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهَزَّة ، فيُكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلَّوا منها وقد علِقَت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجُّونها وينفضونها ساعة

من نهار ؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو كلّت حوامل ذراعيه فأفلت الغصنَ الذى يتعلق به فوقع ، أخذوه فأكلوه ؛ ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه إلى حين !

فاقشعر العجوز (ن) ، وقال : أعوذ بالله ! هذه شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ولعنها الله من حكمة ، فإنما يطبخونهم فى الشجرة قبل الأكل ، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيوراً فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائمَ وعصافير .

قال (م) : إن كان فى الوحشية منطق فليس فى هذا المنطق « بابُ لِمَ » ، ولا « باب كيف » ، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فإن رؤية الرجل هذه الشجرةَ وهزَّها وعاقبتَها يُبعد عنه الضعف والتخلخل ، ويدفعه إلى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطمعاً فيها وتنشّطا لأسبابها ، فيكون ساعِدُه آخرَ شىء يهرم ، ولا يزال فى الحِدّة والنشاط والوثَبان ؛ فلا يعجز قبل يومه الطبيعى ، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها إلى مجهودها ، وأكرهوها على أن تبذل من القوة آخرَ ما يسع الجسم .

قال (ن) : فنَعم إذَنْ ، ولعن الله معانى الضعف ؛ كدت والله أظن أنى لم أكن يوماً شاباً ، وما أراك إلا متوحشاً تخاف أن تؤكل ، فتظل شيخاً رجلاً لا شيخاً طفلا ، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبَه : مهما يبلغ فكثرتُه غير كثيرة .

* * *

قال المحدث : وأضجرنى حوارهما ، إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد ، ولن يكون الشيخ معك فى حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة ؛ فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

العجوزان*

٢

قال محدِّثى : ولما قلت لهما : أيها العجوزان، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ نظر إلىَّ العجوز الظريف (ن) ، وقال : يا بنىَّ ، أحسبُ رؤيتك إياى قد دَنَتْ بك من الآخرة . . . فتريد أن نلوذَ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا وفينا روحُ الدنيا .

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تريه الآخرة وأكثرك الآن فى « المجهول » ؟.

قال : ويحك يا (م) ! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا؛ كأن الشيطان هو الذى يُصلح فى داخلك ما اختلَّ من قوانين الطبيعة ، فلا تَستَبينُ فيك السنُّ وقد نيَّفتَ على السبعين ، وما أحسب الشيطان فى تنظيفك إلا كالذى يكنس بيته . . .

قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشيطان وعلَّق عليه كلمة (للإيجار) . . .

فضحك (ن) ، وقال : تالله إن الهرم لهو إعادة درس الدنيا ، وفهمُها

---

* الجمهور من أهل اللغة على أن (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت وهرمت ، ولكن جاء فى اللسان : « ويقال للرجل عجوز » ونقله صاحب التاج عن الصاغانى ، ونحن على هذا الرأى ، ولو لم يأت فيه نص عن العرب لابتدعناه وزدناه فى اللغة ؛ ووجهه عندنا أن الرجل والمرأة إذا بلغا الهرم فقدا خصائص الذكورة والأنوثة ، فلم يعودا رجلا وامرأة ، فاستويا فى العجز ، فكان الرجل قميناً أن يشارك المرأة فى وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً !

وإنما امتنع العرب أن يقولوا للرجل (عجوز) وخصوا ذلك بالمرأة ، تعسفاً وظلماً وطغياناً ، كدأبهم مع النساء ، فإذا شاخت المرأة فقد بطلت أنوثتها عندهم وعجزت عن حاجة الرجل وعجزت فى كثير ، ونفتها الطبيعة وبرأت منها ؛ أما الرجل فبالخلاف ، لأنه رجل ؛ وإذا شاخ وبطل وعجز ولم يستطع أن يكابر فى المعنى – كابر فى اللفظ . . وأبى أن يقال إنه (عجوز) ، وزعم أن ذلك خاص بالمرأة . . .

ألا إن هذا تزوير فى اللغة ، وإن كان للرجال عليهن درجة فذلك فى أوصاف القدرة لا فى أوصاف العجز !

مرة أخرى فهمًا لا خطأ فيه ؛ إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة ، ويسمع بالأذن الطاهرة ، ويلمس باليد الطاهرة . . . وتالله إن الشيطان لا معنى له إلا أنه وقاحةُ الأعصاب .

قام (م) : فأنت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلاشيطانٍ لأن الهرم قد أدَّب أعصابك . . .

قال العجوز الظريف : وعند مَن غيرِنا نحن الشيوخَ تطاع الأوامرُ والنواهي الأدبية حقَّ طاعتها ؟ عند من غير الشيوخ تقدَّس مثلُ هذه الحكم العالية : لا تعتدِ على أحد . . . لا تُفسد امرأةً على زوجها . . .

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعًا ، وكان العجوز (ن) من الآيات فى الظرف والنكتة ، فقال : تظنني يا بنى فى السبعين ؟ فوالله ما أنا بجملتي فى السبعين ، والله والله .

قال (م) : لقد أُهتر الشيخ * يا بنى ، فإن هذا من خَرَفه فلا تصدقه .

قال (ن) : والله ما خَرِفت وما قلت إلا حقًّا ، فههنا ما عمره خمسُ سنوات فقط ، وهو أسنانى . . .

قلت : « ورينا وريت » وسنة ١٨٩٥ ؟

قال الأستاذ (م) : أنت يا بنى من المجددين ، فما هواك فى القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طَرَفَ بعينيه ** وحدَّد بصره إلىَّ وقال : أئنَّك لأنت هو ؟ لعمرى إن فى عينيك لضحيجًا وكذبًا وجدالا واحتيالاً وزعمًا ودعوى وكفراً وإلحاداً ؛ ولعمرى . . .

فقطعت عليه وقلت : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، لقد وقع التجديد فى كل شيء إلا فى الشيوخ أجسامًا والشيوخ عقولاً ؛ فهؤلاء وهؤلاء عند

* أى أخطأ فى الرأى من تأثير الكبر .

** أى حرك أجفانهما .

النهاية ، وغير مستنكَـر من ضعفهم أن يدينوا بالماضى ، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضَعف !

قال العجوز : رحم الله الشيخ (ع) ؛ كان هذا يا بنى رجلا ينسخ للعلماء فى زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو ردىء الخط ، فإذا ورّق لأديب ، ولم يعجبه خطه فكلّمه فى ذلك تعلّق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشًا عن الكراسة ؛ منها عشرة للكتابة ، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة . . .

نعم يا بنى ، إن للماضى فى قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ، ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) ، لا تُعد فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا فى رأى المغفل.

قال الأستاذ (م) : وكيف ذلك ؟

قال العجوز : زعموا أن مغفلا كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يومًا فى بعض شأنه إلى نار ، ولم تكن امرأته فى دارها فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطبًا فدخّن ولم يشتعل ، ففكر المغفل قليلا ثم ذهب فلَبِس ثوبَ امرأته وعاد إلى النار ، وكان الحطب قد جف فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرّم ؛ فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته ... وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها !

* * *

قال الأستاذ (م) : إن الكلام فى القديم والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير فى ذات نفسه ، وعلى ما بلغتْ وسائلُ الموت فى القديم والجديد فإنها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين .

لقد قرأت يا بنى كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عند نا شيئًا ذا قيمة ؛ ما كان من هُراء وتقليد زائف فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس فى ملك اللص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها . . . فالآخر عند القاضى * .

* فى كتابنا (تحت راية القرآن) كلام كثير عن التجديد والمجددين ، وما نراه من ذلك حقاً وما نراه باطلا .

كلا أيها اللص ، لن تسمّى مالكًا بهذا الأسلوب ؛ إنما هى كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك .

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأى ونبذ التقاليد وكسر القيود ، إلى آخره وإلى آخرها . . . فهذا كله حسن متقبول سائغ فى الورق إن كان فى مقالة أو قصة ، وهو سائغ كذلك حين ينحصر فى حدوده التى تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض النفوس التى يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة ، تردّه الحياة عليهم بالقوة السالبة ، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان فى الإنسانية هذا القانون الذى يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه — يهدم فى الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضًا القانون الآخر الذى يجعل الفكر الصحيح السامى حين يبنى من أهله — يبنى فى الكون بأهله .

* * *

قال العجوز (ن) : زعموا أن أحد سلكى الكهرباء كان فيلسوفًا مجدّداً ، فقال للآخر : ما أراك إلا رجعيًّا . إذ كنت لا تتبعنى أبداً ولا تتصل بى ولا تجرى فى طريقى ؛ ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذى وتترك مذهبك إلى مذهبى . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أنى اتبعتك لبطلنا معًا فما أذهب فيك ولا تذهب فىّ ؛ وما عَلمتُك تشتمنى فى رأيك إلا بما تمدحنى به فى رأيى .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياة أو العفة إلى آخرها وإلى آخره ؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتها تلبّست بعضَ العقول كما يتلبس أمثالُها بعضَ الطباع فتزيغ بها ؛ وللحياة فى لغتها العملية مترادفاتٌ كالمترادفات اللفظية : تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد ، فالمخرِّب والمخرِّف والمجدِّد بمعنى !

كل مجدد يريد أن يضع فى كل شىء قاعدةَ نفسه هو ، فلو أطعناهم لم تبق لشىء قاعدة .

قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سنَّتها وما تصلح به من الضبط والإحكام ، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدَّرة ، والسهلة فى عملها الصعبة فى تدبيرها ؛ فعلى نحو مما كانت الحياة فى بطن الأم يجب أن نعيش فى بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهيأة وحيِّز معروف ؛ وإلا بقيت حركاتُ هذا الإنسان فى معناها كحركات الجنين ؛ يَرْتكضُ ليخرج عن قانونه ، فإن استمر عمله ألقى به مَسْخًا مشوَّهًا من جسد كان يعمل فى تنظيمه ، أو قذَفَ به ميتًا من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانته .

هذا الجسم كله يَشرع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمرٌ من أمرٍ إذا كان الجنينُ مجدِّداً لا يعجبه مثلا وضعُ القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أنْ يكون مقيداً لأنه حرّ .

انظر إلى هذا الشرطى فى هذا الشارع يضرب مُقبلا ليُدبر ، ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثيابًا يتميز بها ، وهى تتكلم لغة غير لغة الثياب ، وكأنها تقول : أيها الناس ، إن ههنا الإنسان الذى هو قانون دائمًا ، والذى هو قوة أبداً ، والذى هو سجنٌ حينًا ، والذى هو الموت إذا اقتضى الحال .

أتحسب يا بنى هذا الشرطى قائمًا فى هذا الشارع كجدران هذه المنازل ؟ كلا يا بنى ؛ إنه واقفٌ أيضًا فى الإرادة الإنسانية وفى الحسِّ البشرى وفى العاطفة الحية ؛ فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه فى ذاته إرغامٌ بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد فى حالة ، وبلاءٌ فى حالة أخرى ؟

لكنه إرغامٌ ليقع به التيسير ، وإكراه لتتطلَّقَ به الرغبة ، وقيدٌ لتتمجد به الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسُه عِصمةً من الناحية التى تقابلها .

يا بنى ، كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلق طيب — كل شىء من ذلك إنما هو على طريق المصالح الإنسانية كهذا الشرطى بعينه : فإما تخريبُ

العالم أيها المجددون ، وإما تخريب مذهبكم . . .

* * *

قال العجوز (ن) : أنبحث عما نتسلَّط به أم نبحث عما يتسلط علينا ؟ وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟ هذه هى المسألة لا مسألة الجديد والقديم .

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فسَدَ الحسُّ وفسدت الحياة ؛ وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هى إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها فى وقائعها ومعانيها .

* * *

قال المحدِّث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابَين ؛ ولم أكن مجدداً على مذهب إبليس الذى ردَّ على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغيِّر ما لا يتغير ؛ فسكتُّ ، حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

العجوزان

٣

قال المحدّث : وتبين فى العجوز (ن) أثرُ التعب ، فتوجع وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته . . . أو وقع فيه اختلالٌ جديد ، أو نالته ضربةٌ اليوم ؛ والشيخ متى دخل فى الهرم دخل فى المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه .

ثم تأفف وتململ وقال : إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذى كانت تحكمه به .

قال الأستاذ (م) : إن صاحبنا كان قاضيًا يحكم فى المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطبِّقةً فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث .

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و « الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » . . .

قال (ن) : صدقتَ لعمرى ، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا : وكأن كرسى الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسىٌّ الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين . . . أتدرى معنى قوله تعالى : (ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر) ولِمَ سماه الأرذل ؟

قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خَلْطُ الإنسان بعضه ببعض ، ومسخُه من أوله إلى آخره ، فلاهو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أردأ وأرذل ما فى البضاعة . . .

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخًا حين كنت فى الثلاثين من عمرى ، وهذا هو الذى جعلنى فتًى حين بلغت السبعين .

قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك .

قال : بل أنا كرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَعَةَ الإنفاق فى الشباب هى ضائقة الإفلاس فى الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدّاداً) لا يخطئُ الحساب ، فإذا أنا اقتصدت عدّت لى ، وإذا أسرفتُ عدّت علىَّ ؛ ولن تعطينى الدنيا بعد الشباب إلا مما فى جسمى ، إذ لا يعطى الكونُ حيًّا أراد أن ينتهى منه ، فكنت أجعل نفسى كالشيخ الذى تقول له الملذات الكثيرة : لستُ لك ؛ ومن ثَم كانت لذاتى كلها فى قيود الشريعتين : شريعة الدين شريعة الحياة .

قال : وعرفت أن ما يسميه الناس وَهَنَ الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الإنسان فى تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور والحزن واللذة والألم . فكنت مع الجسم فى شبابه ليكون معى بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهده كما يتعاهد الرجلُ داره : يزيد محاسنها وينفى عيوبها ، ويحفظ قوّتها ويتّقى ضعفها ؛ ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر فى يومها القريب لغدها البعيد ، فلا ينقطع حسابُ آخرِها وإن بَعُد هذا الآخر ، ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع .

قال العجوز (ن) : صدقت والله ؛ فما أفلح إلا من اغتنم الإمكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوغ الشباب ؛ وهذا الجسم الإنسانى كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلدىُّ) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ؛ ورئيسُ هذا المجلس الإرادة ، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين : إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن فى الآخر .

قال الأستاذ (م) : وكل جهاز فى الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدى) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلى والجهاز العصبى والدورة الدموية . هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنّتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة ، أو مفسدة من زينة ، أو مطمعة فى رفاهية ، أو دعوة إلى مدنية ، أو شىء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها و يضعف طبيعتها .

والقاعدة فى العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية فى براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هى الشباب الثانى فى قوتها ونشاطها ؛ وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائقها إلى آخر العمر فى هذا الإنسان ؛ فسرّ الطفولة إنما هو فى قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغيها الغنى ، ولا يكسرها الفقر ، ولا تذلها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا يهولها الإخفاق ، ولا يتعاظمها الضر ، ولا يخيفها الموت ؛ ثم لا تملّ وهى الصابرة ، ولا تبالغ وهى الراضية ، ولا تشك وهى الموقنة . ولا تسرف وهى القانعة ، ولا تتبلد وهى العاملة ، ولا تجمد وهى المتجولة ؛ ثم هى لا تكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التى يملكها كل قلب ؛ ولا توجب شريعتها فى المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تمرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر ؛ ثم تتهكم بالدنيا أكثر مما تهتمّ لها ، وتستغنى فيها أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائمًا مما أمكن ، قلّ أو كثر .

وبكل هذا تعمل الطفولة فى حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها ، ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبّ غلام ولا رأت العيون بين هموم الدنيا ذلك الرّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان أن البراءة فى النفس أقوى من الطبيعة .

وكل ذلك هو أيضًا من خصائص الدين وبه يعمل الدينُ فى تهذيب الحياة واطرادها على أصولها القوية السليمة ، ومتى قوى هذا الدين فى إنسان لم تكن مفاسد الدنيا إلا من وراء حدوده ، حتى كأنه فى أرض وهى فى أرض خرى ، وأصبحت البراءة فى نفسه أقوى من الطبيعة .

ثم قال : والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها إلا فى قلبين : قلب الطفل لأنه طفل ، وقلب المؤمن لأنه مؤمن .

فقال العجوز (ن) : إنه لكما قلت ، ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة ، فإن الشهوة الواحدة فى ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة ؛ والطامعان فى امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هى الشهوة وهى القتل ؛ ولعنة الله على الملحدين وإلحادهم ، يُزْرُون على الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة ، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية

التى تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة ، فما ابتُليت الإنسانية بشىء كما ابتليت بهذا الخلاف الذى يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجنى ، ويجعل النَّفرةَ وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة .

لقد جاء العلم بالمعجزات ، ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة ، وبين الإنسان ومنافعه ، وبين الإنسان وشهواته ؛ فهل غيرِ الدين يجىء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس وهمومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب ؟

* * *

قال المحدّث : ثم نظر إلىّ العجوز (ن) وقال : صِلْ عمك يا بنى بالحديث الذى مضى ، فأين بلغنا آنفًا من أمر التجديد والمجددين ؟ وماذا قلنا وماذا قلت ؟ أما إن الحماقة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم فى الدنيا ؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا إطلاق الحرية فى استعمال كل أديب حقّه فى الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة .

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذى هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور فى ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقته لا البناء ، وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم ، وهو فى الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات ؛ وعلى هذا ما الذى يمنع الفجور المتوقح أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة ... وأن (لا أدبيةَ) رجلِ الفن هى (اللا أخلاقية العالية) ...

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت إلى مذهبها ، كانت تجديداً ما فى ذلك ريب ؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما فى الأرض ، إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلَق الله البهائم . . .

قال (ن) : وقل مثل ذلك فى متسخّط على الله وعلى الناس يُخرج من كفره بين أهل الأديان أدبًا جديداً ، وفى مغرور يتغفل الناس ، وفى لص

آراء ، وفى مقلد تقليداً أعوَر — كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلى بعلة ، فمذهبه رسالة علته ؛ وأكثرهم لايكون ثباته على الرأى الفاسد إلا من ثبات العلة فيه .

* * *

قال المحدّث : وكنتُ من المجددين ، فأرمضنى ذلك وقلت للعجوزين : إن هذا نصف الصحيح ، أما النصف الآخر فهو فى كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة ؛ نعم إنهم لا يستعملون حمقهم فى الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حمقها . . .

فضحك العجوز (ن) ، وقال : يا بنى ، إن الجديد فى كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى . . . فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هى الجديدة ؛ ولو كان البرهان فى حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا فى آذان الموسيقيين لا فى حلق حمارنا المحترم . . .

قال (م) وزعموا أن رجلا نصب فخًّا لصيد العصافير ، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شىء جديد ، فقال : يا هذا ، مالك مطموراً فى التراب ؟ قال الفخ : ذلك من التواضع لخلق الله ! قال : فمّم كان انحناؤك ؟ قال الفخّ : ذلك من طول عبادتى لله ! قال : فما هذه الحبة عندك ؟ قال الفخ : أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها ! قال العصفور : فتُبيحها لى ؟ قال : نعم .

فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ فى عنقه ، فقال وهو يختنق : إن كان العُبَّاد يَختنقون مثل هذا الخنق فقد خُلق إبليس جديد . . .

قال (ن) : فالحقيقة أن إبليس هو الذى تجدد ليَصْلح لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول ؛ وما دام الرقى مطرداً وهذا العقل الإنسانى لا يقف عند غاية فى تسخير الطبيعة ، فسينتهى الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة . . . لاستخراج كل ما فيه من الشر .

قال (م) : ولكن العجب من إبليس هذا ؛ أتراه انقلب أوربيًّا للأوربيين ؟ وإلا فما بالُه يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة ؟

قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا ليقرأه المجددون .

قال الأستاذ (م) : وانشر يا بنى أن الربيع صاحب الإمام الشافعى ، مرّ يومًا فى أزقة مصر فنُثرت على رأسه إجانة * مملوءة رماداً ، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحقّ النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب ! . . .

* * *

ثم قال محدثنا : واستولى علىّ العجوزان ، ورأيت قولهما يعلو قولى ، وكنت فى السابعة والعشرين ، وهى سن الحِدَّة العقلية ، فما حسبتُنى معهما إلا ثُلث عجوز . . . مما أثّرا على ، وانقلبت لا أرى فى المجددين إلا كل سقيم فاسد ، واعتبرتُ كل واحد منهم بعلته ، فإذا القول ما قال الشيخان ، وإذا تحت كل رأىٍ مريض مرضٌ ، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان . . .

وفرغنا من هذا ، فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان ، أما كنتما فى سنة ١٨٩٥ من الجنس البشرى . . . ؟

---

* قصعة .

العجوزان

٤

تتمة

قال محدِّثنا : وكنتُ قد ضِقْتُ بهذه اللجاجة الفلسفية ، ورأيتُنى مُضْطَغِناً على الشيخين معاً ؛ فقلت للعجوز (ن) : حدِّثنى (رحماك الله) بشىء من قديمكما ، فأنتما اختصارٌ لكل ما مرَّ من الحياة يُسْتَدَلُّ به على أصله المطوَّل إلا فى الحب . . . وما زلتما فى جِدِّ الحديث تعبثان بى منذُ اليوم ، فقد عَدَلْتما بى إلى شأنكما ورأيكما فى القديم والجديد ، وبقى أن أميلَ بكما مَيْلة إلى سنة ١٨٩٥ ، وقد والله كاد ينتحر قلبى يأساً من خبر (كاترينا ومرغريت) ؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتنى خبرَ صاحبتك هذه وهى من وراء أربعين سنة — ما تخافه من رجل سَيَفْجَؤُك معها فى الخلوة على حالٍ من الريبة فيأخذك « متلبِّساً بالجريمة » كما تقولون فى لغة المحاكم . . .

قال فضحك العجوزان وقال (ن) : لا والله يا بنى ، ولكنى أقول ما قال ذلك الحكيم العربى لقومه وقد بلغ مائتى سنة : « قلبى مُضْغَةٌ من جسدى ، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدى » * واعلم يا بنى أنه إذا ذهب الحبُّ عن الشيخ بقى منه الحنان يعمل مثل عمله ؛ فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أىَّ ذلك كان ، ليُعيده ذلك إلى الدنيا أو يُبقيه فيها (بقدر الإمكان) . . .

فضحك الأستاذ (م) وقال : ولعل ثرثرة العجوز (ن) هى الآن معشوقة العجوز (ن) .

ثم قال : وكل شىء يرقُّ فى قلب الرجل الهرم ويحوِّل وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معانى الدنيا قبل أن يخرج

---

* هو أكثم بن صيفى حكيم العرب ، قالها لقومه فى سفرهم إلى النعمان بن المنذر كيلا يتكلوا عليه فى حيلة ولا منطق ؛ ويقال إنه عاش ثلثمائة وثلاثين سنة ، وفى معنى السنة عن العرب كلام ليس هذا موضعه .

من الدنيا ؛ ولهذا لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر ، وقدّر الأمور على ما هو فيه لا على ما كان فيه ؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه ، فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها ، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أما الحاضر ، أما الجسم الهرم ، فهو يشعر أنه يحمل أعضاءه كلها وكأنها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر . . . وكأن بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول : تفارقني وأفارقك * .

فتململ الأستاذ (م) وقال : أُفٍّ لك ولما تقول ! لا جرَم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها ، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية ؛ أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعُمْشُوش العنقود ** بعد ذهاب الحب منه ، يقول : كان هنا وكان هنا ؟

ألا فاعلم يا (ن) أن هذه الشيخوخة إنما هي غلبةُ روحانية الجسم على بشريته ، فهذا طورٌ من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها ؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال ، ومسراته بين العقل والطبيعة ، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشدتها ونورها ؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان في مرض موته : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عني كيف تجدني ؟

وإنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هي انتكستْ فيه وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة ، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه ويتصنع له ويتكلف أسبابه ، وقد نسي أن الحياة ردّته طفلاً كالطفل ، أكبر سعادته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة ، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذي في خياله والجمال الذي في الكون ، وإنه لكما قلت أنت : لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر .

---

* في الحديث الشريف : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : عليك السلام ، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة .

** هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحب .

وما أصدقَ وأحكم هذا الحديثَ الشريف : « إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرَّوْحَ والفرحَ فى الرضى واليقين ، وجعل الهمَّ والحزنَ فى الشك والسخط » . فهذه هى قاعدة الحياة : لا تعاملك الحياة بما تملك من الدنيا ، ولكن بما تملك من نفسك ، وبذلك تكون السعادة فى أشياء حقيقة ممكنة موجودة ، بل تكون فى كل ما أمكن وكل ما وجد ؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها ، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها ، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها ، ومن الأسرار التى فيها ، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المتقلبة عليها .

* * *

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال : (ربِّ إنى وَهَنَ العظمُ منى) ، ألا ما أحكم هذه الآية ! فوالله إن قرأت ولا قرأ الناسُ فى تصوير الهرَم الفانى أبدعَ منها ولا أدق ولا أوفى ؛ ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عجَف وهُزال وإعياء ، وأنه ليس قائماً فى الحياة قيامَه فيها من قبل ، وأن تناقُض هذه الحياة قد وقع فى جسمه فأخلَّ به ، وأن معانى التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيه عملها ، فأخذ يتفتَّت كأنما لمس القبر عظامَه وهو حى ، وأنه بهذا كله أو شك أن ينكسر انكسار العظم بلغ المبرد فيه آخرُ طبقاته ؟

قال محدثنا : فقلت له : ترُى لو أن نابغةً من نوابغ التصوير فى زمننا هذا تناول بفنِّه ذلك المعنى العجيبَ فكتبه صورةً وألواناً ، لا أحرفاً وكلمات ، فكيف تراه كان يصنع ؟

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشتاء فى سماءٍ تَعلق سحابُها كثيفاً متراكباً بعضُه على بعض يخيِّل أن السماء تدنو من الأرض ، وقد سدت السحُب الآفاقَ وأظلم بها الجو ظلامه تحت النهار المغطَّى ، واستطارت بينها وشائعُ من البرق ، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لُمعةً كضوء الشمعة فى فتْق من فتُوق السحاب ، ثم يرسل فى الصورة ريحاً باردةً هوجَاء يدل عليها انحناءُ الشجر وتقلب النبات ، ثم يرسم رجالاً ونساءً يغلى الشباب فيهم غليانَه من قوة وعافية ، وحب وصبابة ، وتغلى فيهم أفكار أخرى . . . وهم جميعاً فى هيئة المسرعين إلى

مرقص ؛ وهم جميعًا من المجددين . . .

ثم يرسم يا بنى فى آخرهم (على بُعد منهم) عمَّك العجوز (ن) ، يرسمه كما تراه ، منحلَّ القوة ، منحنى الصُّلب ، مُرْعَشًا مُتزلزلاً متضعضعًا ؛ قد زعزعته الريح ، وضربه البرد ، وخنقته السحب ؛ وله وجه عليه ذبولُ الدنيا ، يُنبئ أن دمه قد وُضع من جسمه فى برَّادة ، والكونُ كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم . . .

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهمًا كئيبًا ، رافعًا رأسه ينظر إلى السماء .

* * *

قال المحدِّث : وضحكنا جميعاً، ثم قال الأستاذ (م): لعمرى إن هذه الحياة الآدمية كالآلة صاحبُها مهندسها ؛ فإن صلحت واستقامت فمن علمه بها وحياطته لها ، وإن فسدت واختلت فمن عبثه فيها وإهماله إياها ، وليس على الطبيعة فى ذلك سبيلُ لائمة ؛ والشيخ الضعيف ليس فى هذه الدنيا إلا الصورة الهزلية لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودَعته ، تظهرها الدنيا ليسخر من يسخر ويتعظ من من يتعظ .

قال (ن) : أكذلك هو يا أستاذ ؟

قال الأستاذ : بل هى الصورة الجدية من هذه الباطلة التى دأبُها ألا تصرح عن حقيقتها إلا فى الآخر ، فتظهرها الدنيا ليُجلَّ الحقيقة من يجُلها ؛ وليس إلا بهذه الطريقة يُعرف من خراب الصورة خرابُ المعنى .

قال العجوز (ن) : آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها ! إنهم يرونه احترامًا للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية . وما الأشياخُ الهَرْمَى إلا جنازات قبل وقتها ، لا توحى إلى الناس شيئًا غير وحى الجنازة من مهابة وخشوع .

قال الأستاذ : إنما أنت دائمًا فى حديث نفسك مع نفسك ، ولو كنت نهراً يا مُستنقع لما كان فى لغتك هذه الأحرف من البعوض .

قال العجوز الظريف : إن هذا ليس من كلام الفلسفة التى نتنازعها بيننا ، تردُّ علىَّ وأرد عليك ، ولكنه كلام القانون الذى لك وحدك أن تتكلم به أيها القاضى .

قال (م) : صرّح وبيّن فما فهمنا شيئًا .

قال العجوز : هذا كلام قلته قديمًا فى حادثة عجيبة ؛ فقد رُفعت إلىّ ذات يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دجاجة ؛ وتوسمتُه فإذا هو من أذكى الناس ، وإذا هو يجل عن موضعه من التهمة ، ولكن صح عندى أنه قد سرق ،وقامت البينة عليه ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيها الشيخ ، ما تستحى وأنت شائب أن تكون لصًّا ؟

قال : يا سيدى القاضى ، كأنك تقول لى : ما تستحى أن تجوع ؟

فورَدَ علىّ من جوابه ما حيّرنى ، فقلت له : وإذا جعت أما تستحى أن تسرق ؟ قال : يا سيدى القاضى ، كأنك تقول لى : وإذا جعت أما تستحى أن تأكل ؟

فكانت هذه أشدّ علىّ ، فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا حرامًا ؟

فقال : يا سيدى القاضى ، إنك إذا نظرت إلىّ محتاجًا لا أجد شيئًا ، لم ترنى سارقًا حين وجدت شيئاً .

فأفحمنى الرجل على جهله وسذاجته ، وقلت فى نفسى : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا ؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذى لا يملك الرجل معه قولا يراجعنى به ، فقلت : ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين .

* * *

قال محدثنا : وأرمضنى هذا العجوز الثرثار وملأ صدرى ، إذ ما برح يديرنى وأديره عن (كاترينا ومرغريت) ، ورأيت كل شىء قد هرم فيه إلا لسانه ، فحملنى الضجر والطيش على أن قلت له : وهب القضية كانت هى قضية (كاترينا) وقد رفعت إليك متهمة ، أفكنت قائلا لها : جئتِ إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين ؟

وجرت الكلمةُ على لسانى وما ألقيت لها بالاً ولا عرفت لها خطراً ؛ فاكفهرّ القاضى العجوز وتربّد وجهه غضبًا ، وقال : يا بغيض ! أحسبتنى كنت قائلا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضى . . . ؟

وغضب الأستاذ (م) ، وقال : ويحك ! أهذا من أدبكم الجديد الذى تأدبتم به على أساتذة منهم الفَجرة الذين يكذّبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوّغونكم مذاهبَ الحمير والبغال فى حرية الدم . . . ؟ أما إنى لأعلم أنكم نشأتم على حرية الرأى ، ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرةً كلّ الحرية إلا وهى أحيانـًا سفيهة كل السفاهة ، كهذه القولة التى نطقتَ بها .

لقد كان الناس فى زمننا الماضى أناسًا على حدة ، وكانت الآدابُ حالاتٍ عقليةً ثابتةً لا تتغير ولا يجوز أن تتغير ، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالمومس: تجهد أن تربى بنتها على غير طريقتها !

قال الحدث : فلجلَجت وذهبتُ أعتذر ، ولكن العجوز (ن) قطع علىّ وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمت فى هؤلاء صنعةُ حرية الفكر ، كما تمت من قبل فى ذلك الواعظ المعلم القديم الذى حدثوا عنه أنه كان يقصّ على الناس فى المسجد كل أربعاء* فيعلمهم أمورَ دينهم ويعظهم ويحذّرهم ويذكرهم اللهَ وجنته ونارَه ؛ قالوا : فاحتبس عليهم فى بعض الأيام وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنى قد أصبحت مخموراً . . . . . .

هذا القاصّ المخمور هو عند هؤلاء السخفاء إمام فى مذهب حرية الفكر ، وفضليته عندهم أنه صريح غير منافق . . . وكان يكون هذا قولاً فى إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد ؛ غير أن حرية الفكر تبنى دائمًا فى كل ما تبنى على غير الأصل ، وعندها أن المنطق الذى موضوعه ما يجب ، ليس بالمنطق الصحيح ؛ إذ لا يجب شىء ما دام مذهبها الإطلاق والحرية .

كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لا بد أن يمر من تفكيره كما مرّ من إرادة الخالق ، وأنه لا بد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم ، ولا بد أن يقول (كن) وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقى : اطلب أنت القوة للمجموع ، أما أنا فألتمس لنفسى المنفعة واللذة ! ويحسبون أنهم يحملون

---

* هو أبو كعب القاص ، ذكره الجاحظ فى الحيوان وقال إنه كان يقص كل أربعاء فى مسجد عتاب بالبصرة .

المجتمع ؛ فإنهم ليحملونه ، ولكن على طريقة البراغيث فى جناح النسر .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمرأته ورَتَعَتْ فيه ، فصابرها النسر زمنًا ، ثم تأذى بها وأراد أن يرميها عنه ، فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له البراغيث : أيها النسر الأحمق ! أما تعلم أننا فى جناحيك لنحملك فى الجو ؟ . . .

أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية ، فقد قال الحكماء : إن بَعْرةً من البَعْر كانت معلّمة فى مدرسة .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن بعرة كبش كانت معلمة فى مدرسة الحصى ، فألّفت لتلاميذها كتابًا أحكمته وأطالت له الفكرة ، وبلغت فيه جهدَ ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة ؛ فكان الباب الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات ، لا يسوغ فى العقل الحر إلا هذا ، ولا يصح غير هذا فى المنطق ؛ قالت : والبرهانُ على ذلك أنهم يزعمون أن الجبل شىء عظيم ، يكون فى قدر الكبش الكبير ألفَ ألفِ مرة ؛ فإذا كان الجبل فى قدر الكبش ألف ألف مرة فكيف يمكن أن يَبْعرَه الكبش ؟ . . .

قال الأستاذ (م) : هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق بعرة !

قال (ن) : وكل قديم له عندهم جديد ، فكلمة (رجل) قد تخنثت ، وكلمة (شاب) قد تأنثت ، وكلمة (عفيفة) قد تدنست ، وكلمة (حيَاء) قد تنجّست ؛ والزمن الجديد ألا يعرف الطالب فى هذا العام ماذا تكون أخلاقه فى العام القادم . . . والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل . . . والذمة الجديدة أنَّ مال غيرك لا يسمى مالا إلا حين يصير فى يدك . . . والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة ، فعسى أن يصدّق الناس منها مرة . . . ثم الإنسان الجديد ، والحب الجديد ، والمرأة الجديدة ، والأدب الجديد ، والدين الجديد ، والأب الجديد ، والابن الجديد ؛ وما أدرى وما لا أدرى .

قالوا : (السوبرمان) ، وتنطّعوا فى إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه ، فسخرت منهم الطبيعة فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص ، وتركتهم يعملون فى النظرية وعملت هى الحقيقة .

* * *

قال محدثنا : ونهض العجوز (ن) ، وهو يقول : تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق ! لو فهموا عنك لفهموا الحكمة فى أنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة . . .

قال : ولما انصرف العجوز ، قلت للأستاذ (م) : ولكن ما خبر (كاترينا) و (مرغريت) وسنة ١٨٩٥ ؟

فقال : أيها الأبله ، أما أدركت بَعدُ أن العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديد . . . .

السطر الأخير من القصة[1]

رجعتُ إلى أوراق لى قديمة يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو لِداتها ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، وجعلتُ أفلى هذه الأوراقَ واحدةً واحدة ، فإذا أنا على أطلال الأيام فى مدينة قائمة من تاريخى القديم ، نائمة تحت ظلماتها التى كانت أنوارَ عهد مَضَى ؛ وإذا أنا منها كالذى اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ثم آب إليه ؛ فما يرَى من شىء كان له به عهدٌ فى أيام حداثته ونشاطه إلا اتّصلَ بينهما سِرّ ؛ ومن طبيعة القلب العاشق فى حنينه أن يجعَلَ كلَّ شىء يتّصل به كأنه ذو قلب مثلِه له حنينٌ ونجوى !

وذلك التّلاشِي المحفوظُ فى هذه الأوراق ، يحفظ لى فيها وفيما تحتويه نفساً وطبيعةً كانت نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روْضة ، فى عهد من الصِّبى كنتُ فيه أتقدّم فى الشباب وفى الكونِ معاً كأنّ الأشياء تُخلَق فىّ خَلقاً آخر ؛ فإذا قرضتُ شعراً واستوى لى على ما أحب ، أحسستُ إحساسَ الملك الذى يضُمّ إلى مملكته مدينةً جديدة ؛ وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأمّلتُها على ما أحب ، شعرْتُ بها كأجمل غانية من النساء توحِى إلىّ وحىَ الجمال كله ؛ وإذا وقفتُ على شاطئ البحر ، ترجرج البحرُ بأمواجه فى نفسى ، فكنتُ معه أكبرَ من الأرض وأوسعَ من السماء . أما الحب . . . أما الحب فكانت له معانيه الصغيرةُ التى هى كضرورات الطفل للطفل : ليس فيها كبيرُ شىء ، ولكنّ فيها أكبرَ السعادة ، وفيها نضْرَةُ القلب .

عهدٌ من الصِّبى كانت فيه طريقةُ العقل من طريقة الحلم ؛ وكانت العاطفةُ هى عاطفةً فى النفس ، وهى فى وقت معاً خُدْعةٌ من الطبيعة ؛ وكان ما يأتى يُنْسِى دائماً ما مضى ولا يُذكّرُ به ؛ وكانت الأيامُ كالأطفال السعداء : لا ينام أحدهم إلا على فكرة لعب ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرة لهْو ولعب : وكانت اللغةُ نفسُها كأنّ فيها ألفاظاً من الحلْوى ؛ وكانت الآلامُ – على قلتها –

---

(١) انظر ص ٢١٩ – ٢٢٠ « حياة الرافعى » .

كالمريض الذى معه دواؤهُ المجرَّب ، وكانت فلسفةُ الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضحِ كلَّ الوضوح ، المقتصر بكل لفظ على ما يعرف من معناه ، المتفلسفِ فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفاسف فى تخيُّل الفِكْرة !

هو العهدُ الذى من أخصّ خصائصه أن تعملَ ، فيكونَ العملُ فى نفسه عملاً ويكونَ فى نفسك لذة .

* * *

فى أوراقى تلك بحثتُ عن قصّة عنوانها « الدّرس الأوّل فى علْبة كبريت » كتبتها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدرى يومئذ أنها قصّةٌ يَسْبَح فى جوّها قَدَرٌ روائىٌّ عجيب ، سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تم به فلسفة معناها .

وهأنذا أنشرها كما كتبتُها ؛ وكان هذا القلمُ إذ ذاك غضًّا لم يَصْلُبْ ، وكان كالغصن تميل به النَّسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغةَ فرحه أو بلاغةَ حزنه ؛ وهذه هى القصة :

« عبد الرحمن عبد الرحيم » غلامٌ فلاّح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعةَ أعوام ، مرّت به كما يمرّ الزمنُ على ميت : لا تزيده حياةُ الأحياء إلا إهمالا . فنشأ مَنْشَأ أمثاله ممن فقدوا الوالدين وانتُزِعوا من شَمْلِهم فترُكوا للطبيعة تَفْصِلُهم وتَصلهم بالحياة ، وتضيّق لهم فيها وتوسّع .

وهيَّأت الطبيعةُ منه إنسانًا حيوانيًّا ، لا يبلغ أشُدَّه حتى يغالبَ على الرزق بالحيلة أو الجريمة ، ويستخلصَ قُوتَه كما يرتزق الوحْش بالمِخْلَب والنَّاب ؛ ولن يكون بعدُ إلا مجموعةً من الأخلاق الحيوانيّة الفاتكةِ الجريئة ، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها فى تحويل الإنسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالَمِ الحيوانىّ ، ووصلَتْه بما فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملها حتى يتحوّل هو إليها .

وألِفَ « عبد الرحمن » فى بلده حانوتَ رجلٍ فقير ، يستغنى بالبيع عن التكفف وعن المسألة ؛ فكان الغلامُ يُكْثِر الوقوفَ عنده ، وكان يَطعم من صاحبه أحيانًا كرزق الطير ، فُتَاتًا وبقايا ؛ إذ كان الغلام شحَّاذاً ، وكان

صاحبُ الحانوت لا يرتفع عن الشّحاذة إلا بمنزلةٍ تجعل الناس يتصدّقون عليه بالشراء من هَنَاتِه التى يسميها بضاعة : كالخيط ، والإبرة ، والكبريت والملْح ، وغزال للولد ، وكحْل للصبَايا ، ونشوق للعجائز ، ونُسْخَةِ الشيخ الشّعرانى ، ومالفٍّ لفّها مما يصعد ثمنُه من كسور المليم ، إلى المايم وكسوره !

وتَغَفَّله الغلامُ مرّة وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت . فالتقطتْ « علبة كبريت » كان الفَرْق كلُّ الفرق بين أن يسرقَها وأن يشتريها — نصفَ مليم ؛ ولكن مَنْ له « بالعشرين الخُرْدة » وهى عند مثله دينار من الذهب يرنّ رنينًا ويرقص على الظُّفر رقْصةً إنجليزية ؟

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همّت نفسُه أن تجادله ولما تَسكُنْ رَعْشَةُ يده من هَوْل الإثم ، ولكن الغلام كان طبيعيًّا ولم يكن فيلسوفًا ، ولذلك رأى أن يُحْرِز الحقيقة بعد أن وقعتْ يدهُ عليها . وقد اصطلح الناس على أن مادّة السرقة هى « مدُّ اليد » أخطأتْ أم أصابتْ ، وجاءت بالغالى أو جاءت بالرخيص ؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها ، وترك فى مكانها فضيلةَ الأمانة التى لم يعرف له الناس قيمتها فهانت كذلك على نفسه وانطلق وهى تناديه :

أيها الغلام ، أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتَين من عمرك ؟ وهلا خلا الناس ممن يعرفون لعُمرك قيمة ؟

وارتدّ رجْعُ الصوت الخفىّ إلى قلبه من حيث لا يشعر ، فَضَرب قلبُه ضَرباتٍ من الخوف ، ونزا نزْوةً مضطربة ؛ فالتفتَ الغلامُ مرة أخرى ، ثم أمْعنَ فى الفِرار وترك الأمانة تناديه :

أيها الغلام ، إن لك فى الآخرة ناراً لا تُوقد بهذا الكبريت ، ولك فى الدنيا سجنٌ كهذه العلبة ، فالْعب العَبْ ما دام الناس قد أهملوك ! العب بالثّقاب الذى فى يدك فسيمتدّ فيك معنى اللّهب حتى يجعل حياتك فى أعمار الناس دُخانًا وناراً ؛ وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت : تشتعل فى الدنيا وتُحرق .

وكأن أذنابَ السياط كانت تُلهِب ظهرَ الغلام المسكين ، ولكنه ما كاد يلتفت هذه المرة حتى كان فى قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمةٍ من لغةِ كَفِّه الغليظة ، خيَّلتْ له فى شِعرها أن جداراً انقضّ عليه ، وتلتْها جملةٌ

من قوافي الصَّفْع جَلْجَلَتْ في أذنيه كالرعد ، وأعقب ذلك مثلُ الموج من جماعات الأطفال أحاط به فترك هذا الزَّورقَ الإنسانيَّ الصغير يتكفأ على صَدَمات الأيدي ، فما أحسَّ الغلامُ التَّعِسُ إلا أن الكبريت الذي في يده قد انقدح في رأسه ، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده في جلد وجهه الخَشِن !

* * *

وذهبوا به إلى (دَوَّار) العمدة يقضي فيه الليل ثم يُصبح على رحْلةٍ إلى المركز والنيابة ؛ وانطرح المسكينُ منتظراً حكم الصباح ، مؤملاً في عقله الصغير ألا يُفْصِح النهارُ حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة وشهودَها ، ثم أغفى مطمئناً إلى ملك الموت وأنه قد أخذ في عمله بجدّ ، وأيقن عند نفسه أنْ سيشحذُ في الخميس مما يُوزع في المقبرة صدقةً على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذي عهدوا إليه جَرَّه إلى المركز ! . . . وكيف يشك في أن هذا واقعٌ بهم وهو قد توسل بالوليِّ فلان ونذَر له شمعةً يسرقها من حانوت آخر . . . !

هكذا عرف الشرَّ قلبُ هذا الصبي ، وانتهى به عدلُ الناس إلى أفظعَ من ظُلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذي يُصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سُبحةً ليظهر بها مظهرَ الصالحين ؛ ولم يُفهموه شيئاً ففهم أنهم يقولون له : هذه الجريمةُ واحدة ، فعُدَّ جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ !

كانت في الحقيقة لعبة لا سَرِقة . وكانت يدُ الغلام فيما فعلتْ مُستجيبةً لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يدُ اللص ؛ وكان أشبهَ بالرضيع يمدُّ يدَه لكلّ ما يراه ، لا يميز ضارّةً ولا نافعةً ، وإنما يريد أن يشعر ويحققَ طبيعته ؛ وكان كل ما في الأمر وقُصارَى ما بَلَغ — أن خيال هذا الغلام ألَّف قصةً من قصص اللّهو ، وأن الكبارَ أخطئوا في فهمها وتوجيهها . . . ! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حقٌّ من حقوق ذكائه يريد أن يظهر .

* * *

وانتهى « عبد الرحمن » إلى المحكمة ، فقضت بسجنه فى (إصلاحية الأحداث) مدة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير فى بلدَة ؛ صدقةً واحتسابًا . . . إذ لم يكلِّفْ الاستئناف إلا كتابة ورقة ؛ فلما مَثَلَ الصغيرُ أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه ، ولكن انطلق من داخله مُحامٍ شيطانىٌّ يتكلم بكلام عجيب ، هو سخريةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريةُ عملِ الشيطان من عَمَلِ القاضى . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ » .

— : « اسمى عبده ، ولكن العمدة يسمينى : يابن الكلب ! »

— : « ما سنك ؟ » .

— : « أبُويا هُوَ اللى كان سَنَّان» * .

— : « عُمْرك إيه ؟ »

— : « عُمْرى ؟ عُمْرى ما عَمَلت شَقَاوة ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة ! عُمره تِسْع سنوات ! »

الرئيس : « صَنعتك إيْه ؟ »

— : « صَنعتى ألْعَب مع محمود ومريم ، وأضْرَب اللى يِضْرَبْنى ! » .

— : « تعيش فِينْ ؟ »

— : « فى البلد ! »

— : « تاكل منين ؟ »

— : « آكل من الأكل ! »

النيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ، مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليُحرق بها البلد . . . ! »

الرئيس : « ألَكَ أمٌّ ؟ »

— : « أمى غِضبتْ على أبويا ، وراحت قعدت فى التُّرْبة ؛ مارِضْيِتْش تِرْجَع ! »

— : « وأبوك ؟ »

* كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية فى القصة هو ملح القصة .

— : « أبـُو يا لاخـَرْ غِـضِبْ وراحْ لها » .

الرئيس ضاحكـًا : « وأنتَ ؟ »

— : « والله يا افندى عاوِزاغـَضب ، مُش عارِف أغضب ازّاى ! » .

— : « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ »

— : « دِى هىَّ طارت من الدكان ، حسبتها عصفورة ومْسِكْتها . . . »

النيابة : « وِليه ما طارتْش ِ العلب اللى مَعاها فى الدكان ؟ »

— : « أنا عارف ؟ يمكْـِن خافت منى ! »

النيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه ! »

فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء . . . « والله يا افندى إنتَ راجِل طيب ! أديكْ عِرِفْتنى ، ربنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »

* * *

وأمضى الحـُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند ، ثم احتـَبـَسوا الجميعَ فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، ليستوفى أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ إلى السجن .

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة من المجرمين يتحادثون ويتغامزون ، وكلُّهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم ؛ فاطمأنَّ شيئًا قليلا ، إذ قدَّر فى نفسه أنه لوكان هؤلاء قد أُرِيدَ بهم شرٌّ لما سكنوا هذا السكون ، وأن الذى يرادُ بهِم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفْعة أو صفعتين مثلاً . . . وهو يسمع أن الرجال يـَقتلون ويُحـَرّقون ويَسمُّون ويعتدُون وينهبون ؛ وما تكون (علبة الكبريت) فى جنب ذلك ؟ وخاصةً بعد أن استردَّها صاحبـُها ، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم !

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنانُ فى عينيه دموعًا كاد يُسريقها الجـَزع ، غير أن القلق اعتادهُ ، فالتفتَ إلى كتّاب المحكمة مرّة وإلى الجند مرّة ، ثم لوى وجهه ولم يَستبحْ لنفسه أن يتجرّأ على الفكر فيهم ، لأنه قابـَلَ مهابتهم بآهةِ بلده : العمدة والمشايخ والخفراء ؛ فأدرك أن الجنود هم الحكومة

القادرة ، واستدلّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة : وتمشّت فى قلبه رهبةُ هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةَ أن يكونوا قد أسلموه إلى مَن يذبحه ، فنظر إلى الذى يليه من المجرمين وسأله : « راحْ ياخدْونى فينْ ؟ » ، فأجابته لكمةٌ خفيّة انطلق لها دمعُه ، حتى أسكَتَهُ الذى يليه من الجانب الآخر ، وكان فى رأيه من الصالحين ؟

ثم اتصل الجزعُ بين قلبه وعينيه ؛ فهما تضطربان إلى الجهات الأربع ، وكأنما يُحاول أن يستشفّ من أيّها سيأتيه الموتُ ذَبحًا ؛ ولم يكن فَهِمَ معنى (الإصلاحية) ، وحَكَمَ القضاةُ عليه كأنه رجل يفهم كلّ شىء ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مُفسرة . وعَدْلُ التربية غيرُ عدل القانون ، فكان الواجب على القاضى الذى يحكم على الطفل ، أن يجعلَ حكْمهُ أشْبَهَ بصيغةِ القصة منه بصبغةِ الحكْم ، وأن يَدَعَ الجريمة تنطلقُ وتذهب فلا يقول لها امكُثى . . .

وبقى للخناجر رهبتها فى نفس هذا المسكين ، فلو أنهم قادوه إلى حبل الشنّاقة لأفهمه (الحَبْلُ) معنى العقوبة ، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة — وفى الخناجر معنى الذبح — فإنما هو الذبح لا غيرُه .

وطرقتْ أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذتْه من هذا الخاطر ، فثبّتَ عينَه فى الرجل ، فإذا هو يرى وجهًا متلألئًا ، وجسمًا رابطَ الجأش ، وهزُؤًا وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم .

واستراح الغلام إلى صاحبه هذا ، وألحّ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلم فى وجهه الفلسفة ؛ وليست الفلسفةُ مقصورةً على الكتب ، بل إن لكل إنسان حالةً تشغله ، فتَنَظَرُهُ فى اعتبار دقائقها وكشفِ مستورها هو الفلسفةُ بعينها .

وقال الغلام لنفسه : « هذا الرجل أقوى من كل قوة ؛ فهو محكوم عليه ولا يبالى ، بل يقهقهه ضحكًا ؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف ؛ لا ، بل هو تعوّدَ الأحكام ؛ إذن فمن تعود الأحكام لم يَخَفِ الأحكام ؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود ، فإن الخوف هذه المرة قد غطاك من (علبة الكبريت) فى حريق متسعّر ، وما قَدْرُ (علبة الكبريت) ؟ فلو كانت السرقة جاموسة ما لَقيتُ أكثرُ من

ذلك ؛ يا ليتني إذن . . . ولكني لا أزال صغيراً ، فمتى كبرْت . . . آه متى كبرْت . . . »

وبدأ القانونُ عمله في الغلام ؛ فطرد منه الطفلَ وأقرّ فيه المجرم .

* * *

وأطرقَ « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً ، وقامت في نفسه محكمة من الأبالسة بقضاتها ونيابتها ؛ يجادل بعضهم بعضاً ، ويداولون بينهم أمرَ هذا الغلام على وجهٍ آخر .

وقال شيطان منهم : « ولكنا نخشى أمرين : أحدهما أن (الإصلاحية) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثاني أن الناس ربما تولَّوه بالتربية والتعليم في المدارس رحمة وشفقة ؛ فيخرج شريفاً يحترف » .

وما أسرع ما نفى الخوفَ عنهم قولُ الغلام نفسه بلهجة فيها الحقد والغيظ وقد صفَعَه الجندي الذي يقوده إلى السجن — : « ودِاكله على شَانْ علبة كبريت ؟ . . . »

... ...

... ...

في سنة ١٩٣٤ قضتْ محكمة الجنايات بالموت شنقاً على قاتلٍ مجرمٍ خبيث عيَّارٍ مُتَشطر ؛ اسمهُ « عبد الرحمن عبد الرحيم » .

عاصفة القدر[١]

على شاطئ النيل فى إقليم (الغربية) من هذا البرّ ، قرية ليس فيها من جبل ، ولكن روح الجبل فى رجل من أهلها ، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوةً وضعفاً رأيته ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله ؛ وهو بطل القرية ولواء كلِّ معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القرى المتناثرة حولها ؛ ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفاتح المتوارَث فيهم من أجيال بعيدة ، ينحدر من جيل إلى جيل وفيه تلك القطرات الثائرة التى كانت تغلى وتفور ، وهى كعهدها لا تزال تفور وتغلى ؛ ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل) ، لما يعرفونه من جسامة خلقه وصبره على الشدائد ، واحتماله فيها ، وكونه مع ذلك سلِس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع ؛ على أنه أبطش ذى يدين إن ثار ثائرُه ، وله إيمان قوى يستمسك به كما يتماسك الجبل بعنصره الصخرى ، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات ؛ إذ لا بد له من بعض الجرائم الشريفة التى يحمل عليها فرطُ القوة والمروءَة فى مثله مع مثله .

وليس فى تلك القرية من بحر ، غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتوا من الموجة على بحرها فى يوم ريح عاتية ، حلو المنظر لكنه مر الطعم ، صافى الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدهاء والخبث ، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة ، يبسط يديه على خمسمائة فدان ، وقد أفسدته النعمة وأهانته عزته على أهله ؛ ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب ، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين . تعلّم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى العلم ، فجعلت تلفظهُ المدارس واحدةً بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية فإذا قيل له فى ذلك قال : إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة . . . وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذى استعصى عليه فى مصر ، فأرهف ذلك العلم . . .

---

(١) أنشأها للمقتطف سنة ١٩٢٥ .

خيالَه وصقل حسهُ ، ورجع من باريس رقيق الحاشية خنثًا متظرفًا لا يصلح شرقيًّا ولا غربيًّا !

وليس فى تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتفُّ من جسمها فى رداء الجمال الطبيعى الرائع ، ولها نفسٌ أشدُّ وعورةً مما تنطوى الغابة عليهِ ؛ ففى ظاهرها الرونقُ الذى يفتن فيجذُب إليها ، وفى باطنها القوة التى تلتوى فتدفع عنها ؛ وهى ابنة عم (الجمل) واسمها (خضراء) ، وكأن فيها زهوَ خضرة الربيع ، ولم تكن تعشق إلاَّ القوة ، فما يزيِّن لها من الرجال إلا ابن عمها ، وهى شديدة الإعجاب به ؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها .

وكانت (خضراء) جاهلة كنساءِ القرى ، بَيْدَ أنها تلميذة بارعة للطبيعة التى نشأت فيها وزاولت أعمالها ؛ فهى بذلك أقوى نفسًا وأشدُّ مراسًا من الفتيات المتعلمات؛ إذ اتخذت شكلا ثابتًا من أشكال الحياة ، والحياة هى صَنَعتْها هذه الصنعة أو قامتها على هذه الهيئة ، على حين أن المتعلمات يُمضين أيام النشأة وسنَّ الغريزة فى التلقى عن الألفاظ والكتب، وفى توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها وفى توقِّى أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها ؛ فيئول ذلك منهن إلى قوة فى التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤْلمة حين تصادمها يومًا ما ؛ وتتم الواحدة منهن ، ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب .

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار : تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم ، ولا تزال نهارها فى دأب وعمل ، فنفى ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العبث والدُّعابة ، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل فى النظام الإنسانى ؛ عليه أن يصبر على الكدِّ والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعتهِ الحقيقية لا بطبيعته المزوَّرة المصنوعة ؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلاَّ كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثوانى فى الرقعة التى تجمعها ؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب فى « دائرتِه الضيقة » يهتز من جزء إلى جزء ، حتى إذا أتم الدقيقة فى ستينَ هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطا بها خطوة واحدة : ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل

عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلهما قيمةً وظهوراً ؛ ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذى بُنِى فى هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة ، ليكون أساساً للآخر ؛ فعرفت (خضراءُ) كيف تقيد طبيعتها من تلقاء نفسها ، وتُقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعى والاغتباط به ؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس فى كونه أكثر منها فضلاً أو أسبابَ فضل ، بل فى كونها هى أكثر منه حباً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً ؛ ففضائلها الحقيقية هى التى جعلته الأفضل ، كما تجوع الأم لتطعم ابنها ! .

* * *

ورآها (ابن العمدة) ولما تمض أيام على رجوعه من أوربا ، وقد لبث هناك بضع سنين ، وكان عهدُه بالفتاة صغيرة ، فوثبت إلى نفسه فى وثبة واحدة ، ورأى شباباً وجمالاً وروعة زينتها فى قلبه وسوّلت له مطمعاً من المطامع ، وجعلته يرى ما يرى بمعنًى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره .

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن ويتضاحكن ، كأن لخصب الأرض فى أرواحهن أثراً بادياً ، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شئونهن تندّت روح الماء على ذلك الأثر فاهتزّ واهتزت المرأة به ؛ فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى ، وذهبت تتموج فى جسمها ، وقد حسرت عن ذراعيها ، ولمس الماء دمها الجذاب فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس ؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة ، فما أحسبُه إلا يشرب منها بعينيه شرباً يجد له فى قلبه نشوة كنشوة الخمر ؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزينها له الخبث الذى فيه أضعاف ما زينها له الجمالُ الذى فيها ، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة ؛ فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة ؛ وسلّط عليها فكرهُ وذوقَه ، وأيقظ لها فى نفسه المعانى الراقدة ، فنصبت فى

قلبه عدة من تماثيل الجمال تجسَّدت فى كل واحد منها على شكل كأنما أُفرغت فيه إفراغًا .

* * *

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة ؛ إذ قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب ، وتأمر فتطاع ، وتشتهى فتجد ؛ وكأنه ما خُلق إلا ليستعبد قلبى والديه ، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية ، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة فى هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى المال ، ومنقطعين من النسل إلا منه ، فكأنه لم يولد لهما ، بل قد وُلدا له ... فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه ؛ وبذلك أسرف له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها ، وهى فى نفسها فضائل ، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُنشىء فى أولادهم إلا ما يكون من أضدادها ، كالشجر تفرط عليه الريّ فلا يحدث فيه إلا اليبس والذّوى ، وإنما أنت تسقيه الموت ما دمت ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته .

ونشأ الفتى فى أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخصّ طباعه تمويه نفسه على الناس ، والتباهى بالغنى ، والتنبُّل بالأصدقاء والحاشية من وزرائه وعماله ، والتهيؤ بالثياب والأزياء ؛ فانصرف باطنهُ إلى تجميل ظاهره ، وردّ ظاهرُه على باطنه بالشهوات والدنايا ، وأعانهُ على ذلك أنه جميل فاتن كأنما خلقت صورتهُ « للصفحة الحساسة » من قلوب النساء ؛ وذلك ملكٌ عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منهُ إلا كما يكون وزير مالية الدولة . . . . . . ولما أُرسل إلى باريس وقع منها فى بلد عجيب كأنه خيال متخيل لا يؤُمُّه رجل فى الدنيا من كامل أو ناقص وعالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى فيه ما يملأ كل مداخل نفسه ومخارجها ، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية فى خيرها وشرها وطُهرها وفجورها واختلالها ونظامها لكانت هى باريس ؛ وانقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء ، فلا أهل فيلزمونه الفضيلة ، ولا إخوان فيردّوه إلى الرأى ، ولا خُلُق متين فيعتصم به ، ولا نفس مرّة فيفىءَ إليها ، ولا فقر . . . فيحدّ له حدوداً فى الشهوات يقف عندها ؛ وما هو إلا خيال متوقد ومزاجٌ مشبوب

وتربية مدلَّله وطبع جرىء ومال* يمرٌّ فى إنفاقه ، ومن ورائه أب غنى مخدوع كأنه فى يد ابنه كرة الخيط : كلما جذب منها مدت له مدًّا ، ثم ما هنالك من فنون الجمال ومُتَع اللذات وأسباب اللهو ، مما يتناهى إليه فساد الفاسد . وما هو فى ذاته كأنه عقوبة مستأصلة* للأخلاق الطيبة ؛ فكان الشيطان الباريسى* من هذا المسكين فى سمعه وبصره ورجله ويده ، يوجِّهه حيث شاء ؛ وبالجملة فقد ذهب ليدرس فدرس ما شاء ورجع أستاذاً فى كل علوم النفس المختلة الطائشة وفنونها ، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوى بها لسانه من علوم وأقاويل ليس فيها إلا ما ما يدل الحاذق على أن هذا الشاب لم يفلح قط فى مدرسة .

فلما وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها فى نفسه ، اعتدها نزوة من نزواته ؛ فما بمثله أن يحب مثلها ، ولا هى كفايته فى شىء إلا أن تكون لهو ساعة من ساعاته ، أو حادثة تجرى فيها حال من أحواله الغرامية ؛ وحسبها امرأة ليس لقلبها أبواب تمتنع على مثله ، فقدّر أن غناه وفقرها يقتلعان باباً ، وعلمه وجهلها يحطمان باباً آخر ، وجماله وحده يَضَعُ ما بقى من الأقفال عما بقى من الأبواب ! وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها ؛ فكل من ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثمن ؛ ولكن الأيام جعلت تأتى وتمر وهو لا يزيد على أن يعرض لها وهى ترميه من صدودها كل يوم بداعية من دواعى الهوى ؛ وكان لا يجد بنفسه قوة أن يزيدها على النظر شيئاً ، وترك لوجهه وثيابه ونظراته وغناه أن تصل بين قلبه وقلبها بسبب ، فلم ينل طائلا ؛ وتمادى فى حبه ، واستولت عليه فكرة غمرته بهذه المرأة ؛ أما هى فأشعرتها غريزتها بما فى قلبه منها ، وكانت مسمَّاة لابن عمها* فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذراً شديداً ، وتتوهم أن الناس يحصون عليها النظرة والالتفاتة ويحصون عليه من مثلهما ، ووقع فى نفسها أن لهذا الرجل شأناً غير شأن الرجال الآخرين ، فهم لا يستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناه ومنزلته .

وكان للرجل خادم داهية قد تخرَّج فى مجالس القضاء . . . من كثرة ما حُكم عليه فى تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها ، وقد استخلصه لنفسه

* معدة لخطبته ، أو كما يقولون : قرئت مع أهلها الفاتحة .

واتخذه موآنساً ورفيقاً ؛ وجعله دسيساً * إلى شهواته السافلة وكان يسميه فيما بينهما (إبليس) ؛ فلما أراد أن يرميها به قال : يا سيدى ، هذه قضية احتيال عليها ، فإذا دخل ابن عمها خصماً فى الدعوى كانت قضية احتيال على عمرى أنا ! قال : ويحك أيها الأبله ! فأين دهاؤك ومكرك ؟ وإنما أرسلك إلى امرأة فقيرة عيشها كفافها ، وأنت تعدها وتمنّيها وتبذل عنى ما شئت ، ومتى أطمعتها فى المال فإن هذا المال سيوجد ما يوجدُه فى كل مكان، فيشرى ما لا يُشرى ، ويبيع ما لا يباع ! قال (إبليس) : نعم يا سيدى ، وكذلك هو ولكن خوف العار يطرد حب المال ! قال : فأنت إذن لا تقبل ؟ قال : ولا أرفض ... قال الشاب : قاتلك الله ! لقد فهمت ! سأشتريها منك بثمنين : أحدهما لك والآخر لها ؛ ولكن أخبرنى كيف تصنع معها ومن أين تبلغ إليها ؟ قال (إبليس) لما كنت فى السجن عرفت لصًّا فاتكا أعيا قومَه خبثاً وشرًّا ؛ وهذا السجن يحسبُه عقاباً وردعاً ومنهاة عن الإثم ، على أنه المدرسة التى تنشئها الحكومة بنفسها لتلقى علوم الجريمة عن كبار أساتذتها ؛ إذ لا يمكن أن يجتمع كبارهم فى مكان من الأرض إلا فيه ؛ فالسجن طريقة من طرق حلّ المشكلة الإنسانية ، ولكنه هو نفسُه يحدث للإنسانية مشكلةً لا تحلّ ! قال الفتى : ويحك ! أين يُذْهَب بك ؟ إنما أرسلك إلى المرأة لا إلى السجن ! قال : ترسلنى أنت إليها ولكن لا يعلم إلا الله أين يرسلنى ابن عمها : إلى السجن أم إلى المستشفى ....! فاسمع يا سيدى : كان من نصائح أستاذى فى ذلك السجن : أن الحيلة على رجل ينبغى لإحكامها أن يكون فى بعض أسبابها امرأة ، والكيد لامرأة يجب أن يكون فى بعض وسائله رجل ... صَهْ ! انظر انظر ! فالتفت الشاب ، فإذا (الجمل) مقبل يتكفأُ فى مشيته ، وكان غليظاً ، فإذا خطا شدّ على الأرض بقدميه وتكدّس بعضُه فى بعض ؛ وكان منطلقاً وقتئذ إلى بعض مذاهبه ، فلما حاذاهما قال السلام عليكم ! فردًّا جميعاً ، ورمى ابن العمدة بنظرة ، ثم مضى لوجهه فلم يجاوز غير بعيد حتى بلغهُ صوت الشاب يناديه : يا فلان ! فانكفأ إليه ، فقال له الشاب : لقد بعُد عهدك بالقوة على ما أرى . قال : فما ذاك ؟ قال

* جاسوساً وصاحب سر .

أما بلغك أن فلاناً فى هذه القرية التى تجاورنا سيقترن بزوجته بعد أيام ، وأنت تعرف الموقعة التى كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرس فلان فى السنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن الناس وسقتهم أمامك سوق النعاج ، لكانت بلدنا اليوم أذل البلاد . ولاستطالوا علينا بأنهم غلبونا ؛ ولقد حدثنى صاحبى هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذ خمساً وعشرين هراوة ، فأطرتها كلها فى جولتك ، وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكلبوا عليك ؛ فأنت فخر بلدنا وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة وتسرع الوثبة إليهم برجالك ، فتجزيهم فى أرضهم صنيعاً بصنيع مثله !

فهز الجمل كتفيه العريضتين وقال : بل سأنتظرهم فى يوم عرسى بابنة عمى . . . ! قال الشاب : أبلغت ما أرى ؟ فإنك لتخافهم ! قال : لا أخافهم ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر يوم زواجى . . . سنة أو سنتين ! قال الفتى : فإن عملك هذا لا يشد من نفوس رجالنا ، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويعدون لكم ، فإذا لم تناجزوهم فى بلدهم عدوها عليكم هزيمة من الهزائم ، وكأنهم ضربوكم بلا ضرب !

قال الجمل : هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب ؛ لأنهم رجال ؛ والذى يُضرب بلا ضرب لا يكون رجلا . . . والسلام عليكم ! ثم انطلق ، فلما أبعد قال الشاب : لقد بدأت الحرب ولا بد لى أن أحطم هذا الفلاح اللعين ! ولقد عرفت الآن من وجهه أن عينه علىَّ ، ولست أشك فى أن بنت عمه لا تمتنع بقوتها بل بقوته ، ولولا معرفتى أنه من انحطاط الغريزة كالوحش فى الدفاع عن أنثاه لـ . . . . . .

قال (إبليس) : لقد تأملت القصة فرأيت أنه لا سبيل لك إلى الفتاة وهى بعدُ فتاة ، فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها . . . وستبلو هى من غلظته وخشونة طبعه ما يسهل لك أن تُعلمها قيمة ظرفك ورقتك ، وستجد من سوء معاملته وقبح تسلطه ما يفتح قلبها لمن يأتيها قبل الرفق واللين ، وستصيب عنده من ضيق المعيشة وقلتها ويبسها ما يُفهمها

معنى ذلك العيش الحلو الخضِر الذى تعرضهُ عليها ؛ ثم إنه لا بد مبتليها بغيرتـه العمياء بعد ما عرف من حبك إياها ، والغيرة منك هى توجدك بينهما دائمـًا وتنبـهُ المرأة إليك كلما كرهتْ من رجلها شيئـًا لا ترضاهُ .

ولم تكن إلا مدة يسيرة حتى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنما تعجل الزفاف ليأتى له أن ينصب يدهُ القوية حجابـًا بينها وبين هذا المفتون ، وليكتسب من القانون حقـًا لم يكن له من قبل إذا هو مدَّ هذه اليد وعصر فى قبضتها تلك الرقبة التى تتطلع إلى امرأتـه ؛ ورأى الشاب أن هذه الحال لا تعتدل به وبخصمـه معا ، وكانت الغيرة تأكل من قلبـه أكلاً ، وكان يعرض للمرأة كلما خرجت بمكتلها * إلى السوق أو بجرتها إلى الماء لأنه حينئذ يكون فى الطريق الذى لا يملكهُ أحد . . . فكانت إذا رأتهُ لم تزد على ما يكون منها إذا هى أبصرت حماراً يمد عينـُه إليها ! . فعمد إلى امرأة مقيـِّنة تزفّ العرائس ، وهى التى زفت (خضراءَ) فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفهُ ببعض ما تحتال به ، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمـَّل عليها (بإبليسـه) حتى استوثق منها ، فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء) ؛ تستجرُّ بذلك أن تلفتها إلى نعمتـه وجمالـه ، ولكن المرأة أغلظت لها وسبـَّتها وحذ َّرتها أن تعود إلى مثل كلامها ، وقالت لها آخر ما قالت : واعلمى أننى لو دُفعت إلى طريقين وكان لا بد من أحدهما ، ثم كان أحدهما حصباهُ الدنانير وهو طريق العار ، والآخر حصباؤه الجمر ويفضى إلى الشرف ، إذن لتنزَّهتُ أن أدنـِّس نعلى بالذهب ولنثرت لحم قدمىَّ على الجمر نثراً .

والحب لا يبقى حبـًا أبداً ، فإما فاز فبرد ورجع سلواً ، وإما خاب فاضطرم وتحوَّل إلى حقد ونقمة ؛ وكذلك انفجر الشاب غيظـًا ، ووجد على الخيبة موجدة شديدة ، وأخذ يدير رأيهُ ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل الشهم بشهامته ، والمرأة العفيفة بعفتها ؛ فواطأ إبليسهُ على أن يدفع إلى تلك المقيـِّنة منديلا من الحرير عقد طرفه على دينار من الذهب ، تـُلقيه فى صندوق (خضراء) وتدسهُ فى طى من أطواء ثيابها ؛ فذهبت المرأة ، وما زالت بخضراء تستصلحها وتعتذر إليها حتى استلـَّتْ ضغينة قلبها ، ثم سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيب كلتاهما

* هو ما يسمى الغلق .

منه وتتحرم بحرمته ؛ فلما نهضت تأتيها أسرعت الخبيثة إلى الصندوق فدست المنديل فى أبعد مواضعه وأخفاها ؛ وكان مندّى بالعطر لينمّ على نفسه إذا لم ينمّ أحدٌ عليه ، ثم رجعت بما فعلت إلى الشاب ، فأطلق خادمَه يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم فى يد (خضراء) ديناراً ذهبا على ندرة الذهب وعزته ؛ فجعل هذا الدينار يطير من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذى فيه ، والحبّ الذى أعطاهُ ، والجمال الذى أخذهُ ؛ ثم انتهى إلى الجمل ، فكأنما حملهُ وطار به إلى داره كالمجنون وقد حمى دمُه الحرُّ ، وجاش جأشهُ العنيف ولم تكن امرأتهُ فى الدار ، فنثر ما فى الصندوق ، وما كادت تَفغَمه رائحة العطر حتى نفخ الشيطان بها نفخة الغضب الكافر ، ثم عثر على المنديل ، ورأى بصيص الدينار ، فدارت به الأرض ، وأيقن أن العار قد طرق بابهُ ، وأن الباب قد فُتح له ؛ ثم ردّ نفسهُ على مكروهها وردّ معها كل شىء إلى موضعه ، وتلفف رأيه على جريمتين ، وخرج وروحهُ تصرخ من ضربة بمنديل، وهو الذى كانت تتهاوى عليه الضرباتُ القاتلة تهشم منه ولا يتأوه !

وذكر أن (حماته) أثنت من عهد قريب على ابن العمدة ووصفته بالرقة والغنى ، فوجّه إليها أن تأتى فتبيت عند امرأته لأنه على سفر ، وكان كالأعمى فى ضلالته : لا يرى الأشياء إلا كما يتخيلها فى نفسه دون ما هى فى نفسها ، فسألته زوجته : أين أزمعتَ وما تبغى من سفرك وكم تلبث عنا ؟ فكأنه سمعها تقول: ارحل إلى مكان بعيد وغب عنا زمنًا طويلا ، فبنا إلى غيابك حاجة شديدة ! وكاد يبطش بها ، ولكنهُ كاتَمَ صدرهُ اللوعةَ اسم جهة بعيدة ومضى والانكسار يُعرف فيه !

* * *

فزع الناس بعد أيام فى جوف الليل ، فإذا بيتُ الجمل يحترق من أرضه وسمائه ، واقتحموهُ فإذا المرأة وأمها فحمتان : وانطلقت أسرار الألسنة ، وقبض على الرجل فى بلد آخر ، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه ، وشهد الشهود على الدينار ، وشهد الدينار على النار ، وأنكر «الجمل» ولم يقصر فى إقامة الحجة ودافع عن امرأته وبالغ فى أمانتها وعفتها وشهد أنه لا يعلم عليها من سوء ،

وأنها أطهر النساء وأبرهن ، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شنقًا !

* * *

فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل : هل من شيء تريده ؟ فطلب دخينة* فقدمها له قيّم السجن ، فأشعلها ونفخ من دخانها نفخة . ثم أخذ يتكلم وعمرهُ يفنى مع الدخينة نفسًا فى نفس ، وعاد هذا الدخان المتطاير كأنه سحاب يسبح فيه الوحى بين حدود الدنيا وحدود الآخرة ؛ قال المسكين : لم أتعلم ، ولو تعلمت ما وقفت هنا ؛ ولكن ربما كنت خرجت نذلا كبعض المتعلمين الذين يعيشون أشرافًا وفيهم أرواح القتلة واللصوص !

لم أُقرَّ لأحد بجريتى خشية أن تُذكر كلمةُ العار مع اسمى ، وآثرتُ أن أموت بالشنق على أن أحيا ويموت اسمى بالعار !

ولكنى سأعترف الآن أمامكم وأنتم الساعة على قبرى ، فكونوا كالملائكة لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحده .

أعترف أنى قتلت زوجتى وأمها ؛ وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلا عن اثنتين ؛ إننى رجل سأُشنق ، أما النساءُ فلا يشنقن وإنما يرسِلْن الرجال إلى المشنقة . . . لم أر أبى ؛ إذ تركنى طفلا ، ولكن يقال إنه كان رجلا ، فأنا رجل وابن رجل ، ولم يذلنى رجل قط ، ولكن لو خلق الله قوة مائة جبّار فى جسم رجل واحد لأذلتهُ امرأة !

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء ، ولكن المرأة تذل الرجل ذلاً يهوّن عليه قتل نفسه ، فكيف لا يهوّن عليه قتلها ؟

علّموا المتعلمين ليصيروا فى الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلى : لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار ، ويقدم عنقهُ للمشنقة حتى لا ينكّس رأسهُ للذل !

أصلحوا القانون الذى يحكم بالموت شنقًا ويزهق الأرواح الكبيرة ، فى حين تغلبهُ الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة !

ومع ذلك سألقى الله وهو يعلم سريرتى إن كنت بريئاً أو مجرمًا !

---

* وضعناها للسيجارة ، وهى أليق الألفاظ بها .

قيِّمٌ السجن : ستلقاه ُ طاهراً .

السجين : أرأيتم منى خـُلـُق سوء ؟ أتعتقد عليَّ ذنبـًا مدة سجنى ؟

القيم : كلنا راضون عنك .

السجين : هذا مثل من أخلاق ، والحمد لله على أن آخر كلمة أسمعها من إنسان على الأرض — كلمة الرضا .

. . . .

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله !

* * *

نظرتْ ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشا متناثراً ، فامتطت العاصفةَ وقالت : إلى السماء ! ودارت بها العاصفةُ ما شاءَ الله أن تدور ، ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال فى موضع نفع أم ضُرّ ؛ فأقبلت الريشة تتسخَّط وتزعم أنها فوضى ثائرةٌ لا حكمة فى خلقها ، وأن الرياح بعثرةٌ فى نظام العالم . . . وكان إلى جانبها شجرة تهتزّ ولا تطير . . . فلما وعت مقالتَها أقبلت عليها فقالت : أيتها الريشة ! إن الرياح لا تكون بعثرةً فى نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشاً كلُّهُ ! .

القلب المسكين[١]

١

أقبل عليَّ صاحبي الأديب وقال : انُظر . هذه هى ، وقد حلت بهذا البلد ومالى عهدٌ بها منذ سنة . ومد إلىَّ يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهًا وجسمًا ، تتأوَّد فى غلالة من اللاَّذ* .

وكأن شعاعَ الضُّحى فى وجهها . وكأنها القمرُ طالعًا من غيمة . ويكاد صدرها يتنهد وهى صورة . وتبدو هيئةُ فمها كأنها وعدٌ بقبلة . وفى عينيها نظرةٌ كالسكوت بعد الكلمة التى قيلت همسًا بينها وبين محبها . . .

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصوِّر وإبليس ؛ فمن هى ؟

قال : سَلْها ، أما تراها تكاد تثِبُ من الورقة ؟ إنها إلاَّ تخبرْك بشىء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسنُ من شاهدتَ وجهًا وأعينًا ، وثغراً وجيدا والذى بعد ذلك . . .

قلت : ويحك ، لقد شعرتَ بعدى . إن هذا شعر موزون :

وأحسنُ من شاهدتَ وجهًا وأعينًا وثغرا وجيدا والذى بعد ذلكا . . .

قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ؛ ألستَ تراه ناظمًا من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كلَّ شاعر ؟

قلت : وهذا أيضًا شعر موزون :

ألستَ تراه ناظمًا من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر

قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها ، يريك لهذا الجسم روحًا رشيقة ، تلين كلين الجسم ، بل هى أرشق .

قلت : وهذا أيضًا ، والقافيةُ التى بعد هذا البيت : وبها شَقُوا . . .

---

(١) انظر قصة صاحبة هذا القلب المسكين ص ٢٣٩ « حياة الرافعى » وهى هى صاحبة « الجمال البائس » .

* اللاذ : الحرير الصينى الرقيق ، والغلالة : مثل القميص الذى تحت الثياب .

فضحك صاحبنا وقال : حرِّك الصورة فى يدك ، فإنك ستراها وما تشك أنها ترقص .

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعراً ولا يجىء منه وزن .

وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل فى الرسم كأنه يضحك .

* * *

قال صاحبُ القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنهما من العيون التى تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه ، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه ؛ إن فى شعاعهما قُدرةً على وضع النور فى القلب السعيد ، كما أن فى سوادهما القدرة على وضع الظلمة فى القلب المهجور .

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذى تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تُخرج وردةً حمراء تشبهه .

وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصدر العارى ، فوقه ذلك الوجهُ المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روحُ الشمس ، وأما الجيد ففيه روحُ النجم ، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحى .

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها ، تلك مِنطقةُ القبلات فى جغرافيا هذا الجمال . . .

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهدين ؛ إنه المعرضُ الذى اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان . . .

انظر إلى النهدين لِمَ بَرَزَا فى صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدّيان الصدرَ الآخر . . . ؟ !

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبِّرتين . . . ؟

انظر إليها كلها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الإغراء ؛ ألا ترى الكنزَ الذى يحوِّل القلب إلى لص . . . ؟

هذه مخلوقة مرتين : إحداهما من الله فى العالم ، والأخرى من حبى أنا فى نفسى أنا : فكلمة « جميلة » التى تصف المرأة التامة ، لا تصفها هى بعض

الوصف ؛ ورسمها هذا الذى تراه إنما هو حدود لتلك الروح التى فيها قوة التسلط ، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا ما يظهر من الجمرة المشتعلة رسمُ هذه الجمرة فى ورقة .

أشهد ما نظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا وجدت الفرق بينها فى نفسها وبينها فى الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة .

* * *

قلت : اللهمّ غفرا ؛ ثم ماذا يا صديقى المجنون ؟

فأطرق الأديب مهموما ، وكانت أفكاره تنفجر فى دماغه انفجاراً هنا وانفجاراً هناك ؛ ثم رفع إلىّ رأسه ، وقال :

هذه الغانيةُ قد حبست أفكارى كلها فى فكرة واحدة منها هى ؛ وأغلقت أبواب نفسى ومنافذها إلى الدنيا ، وألهبت فى دمى جمرة من جهنم فيها عذاب الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه كيلا ينتهى منها العذاب !

وبيننا حبٌّ بغير طريقة الحب ، فإن طبيعتى الروحانية الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أُمازجها بروحى فأتألم لها ، وأتجنبها بجسمى فأتألم بها .

حب عقيم مهما يكن من شىء فيه لا يكن فيه شىء من الواقع . . .

حب عجيب لا تنتفى منه آلامه ولا تكون فيه لذاته . . .

حب معقد لايزال يلقى المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذى لا تحل المسألة إلا به . . .

حب أحمق يعشق المرأة المبذولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة لا مطمع فيها . . .

حب أبله لا يزال فى حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلةٌ من الفم الذى فى الصورة . . .

حب مجنون كالذى يرى الحسناءَ أمام مرآتها فيقول لها اذهبى أنت وستبقى فى هذه التى فى المرآة . . .

* * *

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبى المسكين ؟

قال : ثم هذه التى أحبها هى التى لا أريد الاستمتاع بها ولا أُطيقه ولا أجد فى طبيعتى جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأننى الفقير الذى لا يريد أن يكون لصًّا ؛ يقول له شيطانُ المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !

إن عذاب هذا بشيطانين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته فى انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد .

* * *

قلت : اللهم عفواً ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟

فأطرق مليًّا كالذى ينظر فى أمر قد حيَّره لا يتوجه له فى أمره وجه ، ثم تنهد وقال : يا طول علة قلبى ! من أين أجىء لأحلامى بغير ما تجىء الأحلامُ به ، وإنما هى تحت النوم ووراء العقل وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بى هواها أن كل كلمة من كلام الحب فى كتاب أو رواية أو شعر أو حديث — أراها موجَّهة إلىَّ أنا . . .

ثم قال : انطلقْ بنا فتراها حتى تعلم منها علما ، فهى فى ذلك المسرح ، هى فى ذلك الشر ، هى فى تلك الظلمات ، هى كاللؤلؤة لا تتربى لؤلؤة إلا فى أعماق بحر .

* * *

وذهبنا إلى مسرح يقوم فى حديقة غنَّاءَ مترامية الجهات بعيدة الأطراف ، تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مُشْقَلَةٌ بمعانى الهجر والعشق .

وتقدَّمنا نسير فى الغَبَش ، فقال صاحبنا المحب : إنى لأشعر أن الظلام هنا حتى كأن فيه غوامض قلب كبير ، فما أرى فرقًا بين أن أجلس فيه وبين الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهمومٍ بهمِّ اللانهاية ، فتعال نبرز إلى ذلك النور حول المسرح

لتراها وهي مقبلة ، فإن رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصة ، ولهذه جمالٌ فن ولتلك فنٌّ جمال .

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافتْ ، ورأيتها تمشي مشيةَ الخفرات كأنما تحترم أفكارُ الناس ، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها ؛ وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا في طريقها ، وكأن لذة قربها منه هي الممكن الذى لا يمكن غيره . . .

وكان عجبًا من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها ، فقال : أنت ترى ؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة ! قلت : آه يا صديقي ! إن المرأة لا تكون امرأةً بمعانيها إلا إذا وُجدت في جو قلب يعشقها .

ونفذنا إلى المسرح . وتحرّى صاحبُنا موضعًا يكون فيه منظرَ العين من صاحبته ويكون مستخفيًا منها ، ثم رُفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، وقد لبسن ثلاثتهن أثواب الريفيات ، وظهرن كهيئتهن حين يجنين القطن .

وبرزت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود ، وهي بيضاء بياضَ القمرحين يتمّ وقد شدّت وسطها بمشدَة من الحرير الأحمر ، فتحبّكتْ بها وظهرت شيئين : أعلى وأسفل ؛ ثم ألقت على شعرها الذهبي قَلَنْسوةً حمراء من ذلك الحرير أمالتْها جانبًا فحبستْ شيئًا منه وأظهرتْ سائره . وأخذت بيديها صفّاقتين * وأقبل الثلاث يرقصن ويغنّين نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها . فقد كانت صاحبتاها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل ، وما أحسب الحرير الأحمرَ ، كان معها َأحمرولا الأسودَ كان عليها أسود ، ولا لونَ الذهب في معْصمها كان لونَ الذهب ؛ كلاَّ كلاَّ ، هذه ألوان فوق الطبيعة ، لأن ذلك الوجهَ يُشرق عليها بالجمال والحياة ، وذلك الجسمَ يَفيضُ لها بالخفة والطرب وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ فذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها .

---

* الصفاقات : هي التى يقال لها الساجات ، تكون فى أصابع الراقصة ، والكلمة واردة فى كتاب الأغانى .

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال فى المرأة الفاتنة هو ذاك الذى يجعل لكل إنسان نوعَ شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصفُ قلب فقط ، وأن نصفه الآخر فى هذه وحدها ؛ فما شعورك أنت ؟

قلت ، يا صديقى . إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلبَ وأخفى بواعثه ليظلّ كلُّ إنسان مخبوءاً عن كل إنسان ؛ فدعنى مخبوءاً عنك !

قال : لا بد !

قلت : إن المصباح فى الموضع النجس لا يبعث النور نجساً ، وما أشعر إلا أن النور الذى فى قلبي قد امتزج بالنور الذى فى عينيها .

ثم كأنها أحسّت بأن إنساناً قد امتلأ بها ، فأدارت وجهها وهى ترقص ، فتلمّحت صاحبنا ، وجعلتْ تُقطع الطّرف بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم تبيّنت إلحاح نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله ! .

أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ! . . .

* * *

القلب المسكين
٢

. . . أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التى ألقت بها صاحبته وهى ترقص حين عرفته — غيرَ ما رأيتها أنا وغيرَ ما رأى الناس : كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميل يتمّ جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغةً من هذا الفم الجميل يُتم بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعترانا منها الطربُ واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومرت علينا شعاعاً فى الضوء ووقعت فى يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسمٌ مكتوب . . .

وقوى إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلّ على نفسه ضروباً من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة

بفنون الرمز والإيماء ، وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ؛ وللمرأة لحظاتٌ تكونُ فيها بفكرين حينما يكون أحدُ الفكرين ماثلاً أمامها فى رجل تهواه ؛ فنى هذه الساعة تتحدثُ المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسِّر . وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميل ويعتنق . وتنظر بألحاظ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسل ؛ وكانت هى فى هذه الساعة . . . فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسف وحسرة ؛ ثم كانت له كالزهرة العبقةِ : بينه وبينها جمالها وعطرها وهواؤها والحاسةُ التى فيه .

وجعل يستشِفُّها من خلال أعضائها ، ثم قال لى : انظر ويحك ! لكأن ثيابها تضمُّها وتلتصق بها ضمَّ ذى الهوى لمن يهوى .

قلت : ما هى إلا كهاتين اللتين ترقصان معها : امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث .

قال : كلا ، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر ، تتحرك بدلا من أن تُقرأ وترى بدلاً من أن تُسمع ؛ قصيدة بلا ألفاظ ، ولكنَّ من شاء وضع لها ألفاظا من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره .

قلت : والأُخْرَيَان ؟

قال : كلا كلا ، هذا فن آخر ، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمعِدتِها . . . ترقص للخبز لا غير ؛ أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعًا على جسمها ومصنوعًا من جسمها ؛ إنها كالطاوس يتبختر فى أصباغه . فى ريشه ، فى خُيلائه ، بخترةً يضاعفها الحسنُ ثلاثَ مرات ؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرِها وأخضرِها وأصفرِها وأزرقها ، والآخر من الأزهار فى ألوانها ووشْيها ، ثم اختال الطاوس بينهما ناشراً ذيله فى كبرياء روحه الملوَّنة — لظهر فيه وحده اللونُ الملِكُ بين ألوانٍ هى رعيتُه الخاضعة .

* * *

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قُبلةً فى الهواء . . . فقال صاحبنا : آه ! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسةُ يدها درهمًا وقُبلة . . .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! هذه قبلة مُحرّرة مسددة وقد رأيتُها وقعتْ هنا . . . ولكنك دائماً فى خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة ؛ تعشق القبلة وتخاصم الفم الذى يلقيها ، وتبنى العُشّ وتتركه فارغاً من طيره ؛ إن امرأة تحبك لا بد منتهية إلى الجنون ما دامت معك فى غيرِ المفهوم وغير المعقول وغير الممكن .

ثم بدأ فصل آخر على المسرح ، وظهر رجال ونساء وقصة ؛ وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهاً ، وآخر يمثل شُرطياً ؛ فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثيابُ فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء فى هذه الحياة صحةُ الظاهر فقط ، ما دام الظاهر يُخلع ويُلبس بهذه السهولة ؛ فكم فى هذه الدنيا من شرفاء لو حققتَ أمرهم وبلوت الباطنَ منهم — إنما يشرِّفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر . . . وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون . . . وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفَجَرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة . . . ليست الإنسانية بهذه السهولة التى يظنها من يظن ، وإلا ففيم كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟

العقدة السماوية فى هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا حيواناً مُلَطَّفاً تلطيفاً إنسانياً ، ثم أراه الخيرَ والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك إنساناً وجِئنى .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! فما تقول فى حبك هذه الراقصةَ وأنت حيوان ملطف تلطيفاً إنسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنة ، ثم هى لى كالضرورة القاهرة . فلا يكون حبها إلا إغراءً بنَيلها ، ولا تكون سهولةُ نيلها إلا إغراءً لذلك الإغراء ؛ فأنا منها لستُ فى امرأة وحب ، ولكنى فى امتحان شديد عَسِر ؛ أغالب ناموساً من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة وأظهر قوتى على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهى أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً وقهراً للنفس ، من قِبَل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهيَّأة سهلة ؛ فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممنَّعة بعيدة المنال ، لما كانت لى فضيلة فى هذا الحب العنيف ،

ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلةَ نفسى !

* * *

ومن الفصل الذى مثّلوه وما نشعر منه بتمثيل ، فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر فى غيرها . وكانت (الحقيقة) فى شىء آخر غير هذا ؛ ومتى لم يتعلق الشعورُ بالفن لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهى وحدها التى تثير شعورَ المحب فى نفسه فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد فى معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده . وتجعل له فى الزمان زمنًا قلبيًّا يحصر وجودَه فى وجودها .

وليس فن الحب شيئًا إلا استطاعةَ الحبيب أن يجعل شهواتِ المحب شاعرة به ممتلئةً منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهورَ جسَدِيَّةِ هذا الجسد وروحانيةِ هذا الروح ؛ وكل ما يتزين به المحبوب للمحب ، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعانى التى فيه ، كيما تكبر فيدركها المحب بدقة ، وتثور فيحسّها العاشق بعنف وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة .

والشهوات كالطبيعة الواحدة فى أعصاب الإنسان ، وهى تتبع فكره وخياله ؛ ولا تَفاوُتَ بينهما إلا بالقوة والضعف ، أو التنبه والخمود ، أو الحدة والسكون ؛ غير أنها فى الحب تجد لها فكراً وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسرٍ مجهول من أسرار الألوهية؛ ومن هنا يتألّه الحبيب وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه فى وهم محبه يفرض فروضًا ويشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا فى الشهوة المؤمنة به وحدها .

ومن ثم لا عصمة على المحب إلا إذا وُجد بين إيمانين . أقواهما الإيمانُ بالحلال والحرام ؛ وبين خوفين ، أشدهما الخوف من الله؛ وبين رغبتين ، أعظمهما الرغبةُ فى السموّ .

فإن لم يكن العاشق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الإيمانين الحرصَ على مكانة المحبوب فى الناس ، وأشد الخوفين الخوفَ من القانون .. وأعظم الرغبتين الرغبةَ فى نتيجة مشروعة كالزواج .

فإن لم يكن شيء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو فى جراءة كفرين، وحماقة جنونين، وانحطاط سفالتين؛ وبهذا لا يكون فى الإنسانين إلا دون ما هو فى بهيمتين!

* * *

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هى على المسرح، ظهرت هذه المرة فى ثوب مركيزة أوربية تخاصر عشيقًا لها، فيرقصان فى أدب أوربى متمدن . . . متمدن بنصف وقاحة؛ متأدب . . . متأدب بنصف تسفّل؛ مشروع . . . مشروع بنصف كفر؛ هو على النصف فى كل شيء، حتى ليجعل العذراء نصف عذراء، والزوجة نصف زوجة . . . !

وكان الذى يمثل دور العشيق فتاةً أخرى غلامية مَجمَّمَةَ الشعر* ممسوخة بين المرأة والرجل؛ فلما رآها صاحبنا قال: هذا أفضل . . .

وهشَّت الحسناءُ وتبسَّمت وأخذت فى رقصها البديع، فانفصل عن الصديق وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تُقدمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة؛ وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى: إن الدنيا الآن امرأة! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم، ونقل صاحبته إلى رتبة حواء، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة!

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف فى الحديقة، فكأنه فعل هذا ليُتم الحسنَ والحب؛ وأخذ شعاع القمر السماوىّ يرقص حول هذا القمر الأرضى، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض والسماء والقَمرين.

ما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً بقسماته وملامحه الفتانة؛ كلُّ البياض الخاطف فى نجوم السماء يجول فى أديمه المشرق، وكل السواد الذى فى عيون المهَا يجتمع فى عينيه، وكل الحمرة التى فى

* المجممات: هن اللواتى يتخذن شعورهن جمة (بضم الجيم) أى يقصصنها، كما يفعل نساء هذه الأيام، تشبهاً بالرجال؛ وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الإسلام عنه كراهة لهذا الشبه؛ فقص الشعر (على المودة) هو التجميم.

الورد هى فى حمرة هاتين الشفتين .

ما هذا الجسم المتزن المتموجُ المفرّغ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسمٌ كامل الأنوثة ، إنه صارخ صارخ ، إنه عالَمُ جمالٍ كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه « جهةُ فوق » و « جهة تحت » ؛ لو امتدت له يد عاشقه لجعل فى خمسِ أصابعها خمسَ حواس . . .

ما هذا ؟ لقد خُتم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفتى الخليلة ، وكانت تركت خصرها فى يديه وانفلتتْ تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف ، نازلةً به رُوَيداً رويدا إلى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المطِل عليها وكان هذا الفم ينزل رُويداً رويدا ليدرك الهارب . . .

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتةً إلى . . . ثم تلقّت القبلة . أما هو . أما مجنوننا ، أما صاحب القلب المسكين ؟ . . .

القلب المسكين

٣

أما صاحب القلب المسكين فرَمَقها وهى تلتفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها : يجعل سوادُهما الجميلَ فى النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ، ثم رآها وقد كسرت أجفانها وتفترتْ فى يدى الممثل العشيق وأفصحَ منظرها ببلاغة . . . ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعىْ من تحبه ؛ ثم اختلجت وصوّبتْ وجهها ، وأهدفت شفتيها . وتلقّت القبلة .

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ مُعْوِلةٌ تئن أنيناً ، غير أنها كلّمته بعينيها أنها تقبِّله هو ؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمستْ به النفسُ النفس ، والقبلةُ هى هى ولكن وقع خطأ فى طريقة إرسالها . . .

وليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكنّ الخيال المتسرّح بين الحبيبين

تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر ، ومسرح شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوبة المعانى ؛ وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابّين روحٌ طبيعى كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السرَّ بالسر ، ويزيد فى الأشياء وينقص منها ، ويَدخل فى غير الحقيقى فيجعله أكثر من الحقيقى ؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعَف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين ؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى ، يعرفون أن العاشق يقبِّل بلذة أربع شفاه .

* * *

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين : إن روحيكما متزوجتان . . . قال : آه ! ومدَّها من قلبه كأنه دَنِفٌ سقيم .

قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنه الحب : فيه مثل ما فى (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته ، غير أنها مفرّقة على الأوقات والأسباب ، مبعثرة غير مجموعة ! « آه » : هذه هى الكلمة التى لا تفرغ منها القلوب الإنسانية ، وهى تقال بلهفة واحدة فى المصيبة الداهمة ، والألم البالغ ، والمرض المدنف والحب الشديد ؛ الشديد ؛ فحينما توشك النفس أن تختنق تتنفس « بآه » ! .

قلت : أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسُها أن تختنق . . . ؟

قال : لقد هِجْت لى داءً قديمًا ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة فى زمنى غرس الشجر ، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرَّها وحلوها فى نفسى كما يثمر الشجر المختلف ؛ ولقد رأيتها ذات مرة فى ساعة همها ! ثم ضحك وسكت .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! ماذا رأيت منها ؟ وكيف أراك الوجدُ ما رأيتَ منها ؟

قال : أتصدّقنى ؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهمّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤنث يعشقه همٌّ مذكر : فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية ، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين : أحدهما بمعنى الهم لقلبها ، والآخر بمعنى الثورة لقلبي !

قلت : يا عدو نفسه ! هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمةٌ بضّةٌ مطويٌّ بعضُها على بعضها ، لفّاء من جهة هيفاء من جهة ، ثقيلةٌ شيء وخفيفة شيء ، جمعت الحسنَ والجسم وفنًّا بارعًا في هذا وفنًّا مُفْرداً في ذاك ؛ وهي جميلةُ كلِّ ما تتأمل منها ، ساحرةُ كلِّ ما تتخيل فيها ، وهي مزّاحة دَحْداحة* وهي تطالعك وتُطعِمُك؛ وأنت امرُؤٌ عاشق ورجل قويٌّ الرجولة ؛ فالجميلة والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبتَ تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك ؛ ولو أمسكتْ آلةُ التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب الأحمر مما في نفسك منها ؛ ولعَمري لو مرت عربة تَدَرْجُ في الطريق ونظرتَ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتَبَسَة المكفوفة** لظننْتُك سترى العجلة الخلفيّة عاشقًا مهتاجًا يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء !

* * *

فضحك وقال : لا ، لا ؛ إن نوع التصوير لإنسان هو نوع المعرفة لهذا الإنسان ، ومن كل حبيب وحبيبه تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى ، والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجةُ وضْعَه في إبليسيته ؛ وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفنّ الذي أسبغه الجمال عليها ، فهي معرفتي وخيالي كالتمثال المبدَع إبداعهُ : لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

وليست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت[1] ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعاني النسوية الجميلة

---

(١) انظر فصل « الرافعي العاشق » ص ٧٣ — ١١٩ « حياة الرافعي » .

* هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريفة (المدردحة) ، وليس كذلك معناها في اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لا تأباه .

** يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) ، وهو تعبير ضعيف ، والأفصح ما ذكرنا هنا .

التى يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق ؛ إن بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد !

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدميمة ؟

قال : لا ، هذا وجهٌ عاقر . . .

* * *

قلت : ولكن الخطأ فى فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ، ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتى فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المعدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذى يُخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرتَ من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها فى شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول .

أتعلم كيف كانت نظرتى إلى نور القمر على هذه وإلى حسن هذه على القمر ؟ إن القمر كان يُنسيى بشريتَّـها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه فى مرآة ، فهى خيال وجهه ؛ وكانت هى تُنسيى مادِّية القمر فأراه متممـًا لها كأنه خيال وجهها .

أتدرى ما نظرةُ الحب ؟ إن فى هذا القلب الإنسانى شرارةً كهربائية متى انقدحتْ زادت فى العين ألحاظـًا كشَّافة ، وزادت فى الحواس أضواءً مُدرِكة ؛ فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعـًا فى حقائق الأشياء ، فتكون له على الناس زيادةٌ فى الرؤية وزيادة فى الإدراك يعمل بها عملا فيما يراه وما يدركه ؛ وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للدنيا حالةٌ جديدة فى هذه النفس ؛ ويأتى السرور جديداً ويأتى الحزن جديداً أيضًا ؛ فألفُ قبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ، هى ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها فى صورة واحدة ؛ ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان فى كل دمع نوعٌ من الحزن ليس فى الآخر !

* * *

قلت : فنوعُ تصوُّرك لهذه الراقصة التي تحبها ، أن إبليس هنا فى غير إبليسيته !

قال : هكذا هى عندى ، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبليسية .

قلت : أو تسخر الحقيقة الإبليسية منك ، وهو الأصح وعليه الفتوى . . . ؟

فضحك طويلا ، وقال : سأحدثك بغريبة : أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا فى الحرير الأسود ؛ وهى رقيقة البشرة ناصعة اللون ، فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال ؛ فلقد كنت أمس بعد العشاء فى طريقى إلى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجَّى ، وقد لبس وتلبَّس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلِّب عينى فى النور والغَسَق وأنا فى مثل الحالة التى تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً — إذ رفع لى من بعيد شبحٌ أسود يمشى مِشْيته متفتِّراً قصير الخَطْو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته فى هيئته فما شككت أنها هى ، وفُتحت الجنة التى فى خيالى وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ؛ وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تُمكن ؛ فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح إذا هو . . . إذا هو قسِّيس . . . . . .

* * *

فقلت : يا عجباً ! . ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة ! وكأنه يقول لك : إيه يا صاحب الفضيلة . . .

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل ؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة « تعالَىْ » أو تفضَّلى ؟

قال : كلا . يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لألمسها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق

فيها عِلم قلبي ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدَع جسمى وهناك نلتقى رجلا وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطبيعة أنا أحب !

ما هو الجزء الذي يفتنني منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسِّر نفسَه فى قلبي بهذا الحب .

وما هو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائس ، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى فى الفن : لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم ، والحبيب الذى لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبئُ منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفِر جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى ؛ أنا أُنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ، على نار مشبوبة فى قلبي !

قلت : يا صديقى المسكين ! هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستَحلها المصادفة أيضًا . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين . . . ؟

القلب المسكين

٤

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقبْلة تتيممنا حتى بغتَته ذلك ، فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى المحبَّ المهجور إذا فاجأه فى الطريق هاجرُه ؛ أرأيت مرة عاشقًا جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه ، وصارمه مدةً لا يكلمه ، فنزع نومتَه من ليله ، وراحته من نهاره . ودنياه من يده ،

وبلغ به ما بلغ من السقم والضنى ، ثم بينا هو يمشى إذ باغتَهُ ذلك الحبيب منحدراً فى الطريق ؟

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيته على زلزلة من شدة الخفقان . وكأنه فى ضرباته متلعثم يكرر كلمة واحدة : هى هى هى . . .

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثل شعور المحتَضَر أن هذه الدنيا قد نفتْه منها !

ولو اطلعت على دمه فى عروقه لأبصرته مخذولا يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده .

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته فى خيبة ، فيردُّ عليه الحبُّ مع كل شهوة نوعـًا من الذل ، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذى هزمه مائة مرة .

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه !

* * *

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ؛ ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحيانـًا عملا واحداً بالعاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائمـًا على حدود الإسراف ما دام حبـًّا ، فكل شيء فيه قريبٌ من ضده ، والصدق فيه من ناحية مهيـَّأ دائمـًا لأن يقابـَل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى ، واليقين مُعَدٌّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسُه قضاء على العدل ، فإنه لا يخضع لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب !

وقد يصفرُّ العاشق لمباغتة اللقاء كما يصفر لمباغتة الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامتها به ، توَقـِّيـًا على نفسه من ظنون الناس ؛ وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ، ومَقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها ، وكأنها هى

ألمّت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقّر المترمّت ؛ فعدلت عن طريقها إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى ، وما بيننا وبينها إلا خطوات ؛ ورأيتها قد هيأت فى عينيها نظرة غاضبتْنا بها ، ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى !

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدورها ، ثم همّت أن ترجع ، ثم عادت إليه فجعلت تكلمه وعيناها إلينا ؛ فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى فى سقوطها !

ولا أدرى ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى ، ولكن هذا الرجل لم يَظهر لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معلّق !

* * *

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره ، ولا تُسارقه النظر بل تغلبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل إلى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تُطارحه ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النظرات ، وقد نسيا ما حولهما ، وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا فى بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط : هو وهى . .

وكان فمها الجميل لايزال يُساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرُد له حكاية مروية ، أو تعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهى تتحدث وعيناها مفكرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت فى البدء أن تجعل قوة نظراتها كلاماً . حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنتَ يا أنتَ !

ثم بدا فى عينيها فتور الظمأ . ظمأ الحب المتكبر المتمرد ، لأنه حب المرأة المعشوقة ، ولأن له لذتين ، إحداهما فى أن يبقى ظمأ إلى حين . . .

ثم أرسلت الألحاظ التى تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة فى بعض حالاتها النفسية ، فتَضرم فى كلامها شرارةً من الروح تُظهر الكلام كأنه يُحرق ويحترق . . .

ثم توجعت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لايشبه الرجالَ ، فلا يستوهب خضوعها ولايشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لايشبه الباقين ممن تعرفهم ، فإذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خَفِرةً لم تُمس، وكأنه من ذلك يصِلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لايمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه .

ثم ذبلتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكرة ؛ أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحياناً ، وأحيانـًا هو انتهاء مقاومة .

* * *

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون . . . فكرّت راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتـُها مرة أخرى كما بدأت : أنت ياأنت . . . فقلت لصاحبنا : ويحك ياعدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ، لما اختار إلا عينيها ، فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها؛ وأراك مع هذا كمنتظر مالا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل .

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة .

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان .

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتى ، بل يقول : هذه زوجتى . . .

قال : ویْ منك ! ویْ منك ! * لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يالفظَ الحلوى ! يالفظ الحلوى! لو كررتك بلسانى ألف مرة فهل تضع فى لسانى طعمها . . . ؟

---

* أى عجب ، يتعجب من فطنته .

قلت : خفِّض عليك ياصاحب القلب المسكين ، فلست أكثر من عاشق .

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ؛ لأن فى العاشق راغبا وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىَّ المنكمش ، ويغترف الغرفة من الشلاَّل المتحدِّر فيحسوها فيرتوى وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهدِرَ فى يدى كالشلال أنا أكثر من عاشق ؛ فإنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم !

هذه هذه ؛ العجيب ياصديقى أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب ، هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الإبليسية ولم تفهم عنى * ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لانرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدِّل الزمن والنفس ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها . .

هذه هذه ؛ لا أطلب فى غيرها امرأة أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضا ؛ إنها أجمل جسم ، ولكن واأسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها !

* * *

وسكت صاحبنا ، إذ رفعتْ ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى ، ظهرت فى زينة لاغاية بعدها ، تمثل العروسَ ليلة جَلوتها ؛ ألا ما أمرَّها سخرية منكِ أيتها المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر .

وأقبلت تمايل بجسم رخصٍ لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله .

وأظهر وجهُها حسناً وأبدى جسمها حسنًا آخر ، فتم الحسن بالحسن .

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرور يحلم !

---

* مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة .

مهتزة كالموج في الموج . هل خُلقت روح البحر في جسمها المترجرج فشيء يعلو وشيء يهبط وشيء يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة ، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر إليها وتتعجب . تتعجب من قوامها للغصن الحي ، ومن بدنها للزهر الحي ، ومن عطرها للنسيم الحي .

أما صاحب القلب المسكين . . .

القلب المسكين *

٥

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر إلى هذه الفتّانة تُمثِّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعت ولمعتْ ، فبدتْ له مُفسرةً في هذه الغلائل غلائل العرْس ؛ وما غلائل العرس ؟

إنها تلك الثيابُ التي تكسو لابستَها إلى ساعة فقط . . . ثيابٌ أجملُ مافيها أنها تقدم الجمال إلى الحب ، فأزهى ألوانها اللونُ المشرقُ من روح لابستها ، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين .

تلك الثيابُ التي تكون سكبًا من خالص الحرير ورفيع الخزّ ، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها .

ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال . هذا هو انتقامُها .

قلت : ياعجبًا ! أتريدها في ثيابِ راهبة مُكبكبَة فيها كما أُلقيت البضاعة

* نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض في كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذي وصفته لنا إحدى الأديبات بأن « فيه أشياء مادية » ؛ فنحن نرمي إلى تصوير الغريزة ثائرة مهتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ، ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل . . .

فى غرارة ، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة ، وبياضٍ هو شعار الكفن لهذه الأنوثة ؟

قال : أنت لاتعرفها ؛ إن الرواية التى تُمَثَّل فيها بين الروح والجسم ، هى التى احتاجت إلى هذا الفصل يقوَى به المعنى ؛ وكل عاشقة فعشقُها هو الرواية التى تمثِّل فيها ، يؤلفها هذا المؤلفُ الذى اسمه الحب . ولا تدرى هى ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لايفتأ يؤلف ويصنع وينقِّح كما تتنزل به الحالُ بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة ؛ وعليها هى أن تمثل . .

قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقامـًا ؟

قال : إن الأفكار أشياء حقيقية . ولو كشف لك الجوُّ هذه الساعة لرأيته مسطوراً عبارات عبارات كأنه مقالة جريدة .

هذه الفصلُ حوارٌ طويل فى الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصَّبوة ، لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقاتلين يأخذ ويعطى . . .

قلت : ياعدو نفسه ! ما أعجَب ما تُدقِّق ! لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلَّح بما شاءت ، لامن أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتها فى سلاح من تحبه . فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها . . .

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظـًا تحدِّثها فهى تظهر كيفما اتفق ، مرسَلةً إرسالاً فى اللَّفْتَة والحركة والهيئة والقَوْمة والقَعْدة : وهى من علمتَ : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، ككل ذى صنعة فى صنعته فكانت فى تماديها خطراً أىَّ خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثل شيئـًا لا أدرى أهو ظاهر بخفائه أم هو خاف بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل فى حسابه . فكانت الخبيثة الماجنة كأنها تُسكره بمسكر حقيقى ، غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر .

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسحابة الممتلئة بالبرق ؛ تومِض كُلَّ لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة .

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيميَّةُ بعينها محاولةً أن تكون شيئًا له وجود فنى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان فى واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألذَّ ، والألم أشدَّ ، والقلةَ كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية . . .

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فإنها تقتحم الحدودَ وتغزو غزوَها وتمتلك . . .

يا لَسحر الحب من سِحر ! كل ما فى الطبيعة من جمال تظهره الطبيعةُ لعاشقها فى إحدى صور الفهم ، أما الحبيب الجميل فهو وحده الذى يَظهر لعاشقه فى كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتًا مختلفة متناقضة ، ففى ساعة يكون العقل وفى ساعة يكون الجنون .

يا لسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحتْ له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى . . . وتركت شعوره جائعًا إلى محاسنها بمثل جوع المعدة . . . وبرزتْ له صريحةً كما هى ، ولِمَا هى ؛ ومن حيث إنها هى هى ؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة .

آه مِن (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن فى كل امرأة . . . امرأةً يقال لها (هى)[1] باعتبار الضمير للتأنيث فقط ، كما يعتبر فى الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هى) المفردة فى الكون كله لا توجد فى النساء إلا حين يوجد لها (هو) . . . . . .

* * *

---

(١) قلت : هنا رسالة إلى « فلانة » من تلك الرسائل التى كانت بينهما بعد القطيعة . . . ، وانظر ص ٨٣ « حياة الرافعى » .

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة . قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يُفْعِم قلبين مسكينين لا قلبًا واحداً ؛ وكانت لى (هى) من النْهيَات عانيت فيها الحبَّ والألم دهراً طويلا ؛ وقد ذهبتْ بى فى هواها كل مذهب إلا مذهبًا يُحلُّ حرامًا ، أو مذهبًا يُخلُّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشىء السامى فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم .

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال الأنثى يَظهر عليها ، وبين الحب من أجْل الأنثى تظهر فى جمالها ؛ فهو فى الأولى يشهد الإلاهيةَ فى إبداعها السامى الجميل ، وفى الأخرى لا يرى غير البشرية حيوانيتها المتجمِّلة . . .

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلى الذى يملأ العالم — قد جعلت حنين العشق فى قلب الإنسان هو أول أمثلتها العملية فى تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم ، فكما يحب إنسان بروح الشهوة يحب إنسانٌ آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة : (تلطيف السرّ) ، أى جعله مستعدًّا للتوجه إلى النور والحق والخير . وقد عدُّوا فيما يعين عليه ، الفكرَ الدقيق والعشق العنيف .

وكذلك تبينتُ مما علمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرْضَها لكل آدمٍ وحواء يمثلان الرواية . . . فإذا « قطفا الثمرة » طُردا من معانى الجنة * ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق الأرض .

نعم هو الحب شىء واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل ؛ وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانيًّا يُراكِم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانيًّا يكشف الظلام عن الحياة .

والمعجزة فى هذا الإنسان الضعيف أنه له مع طبيعة كل شىء طبيعةَ الإحساس

* أى طردا كالطرد من الجنة .

به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان ؛ وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس ، حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعهْ فى نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع ، والحكمة الناضجة ؛ فإن لم يستطع فلا أقل من شيئين : الحلال ، والحرام *

* * *

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبته فى فصل العروس هو انتقامها ، حاصرَتْ عيناها عينه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة فى معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب . . .

وأردت أن أعيبها بما صنعتْ نفسُها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت فى غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ، ويا أحمر الخدين !

وقد أمسك عن جوابى ، وكانت محاسنها تجعل كلماتى شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معانىَّ غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالى مرة ، وكانت ثياب العروس وهى تزف تريه ألفاظى فى ثياب العجوز المطلَّقة ؛ وكلما غاضبتُه مع نفسه أوقعتْ هى الصلح بينه وبين نفسه .

والعجيبُ العجيبُ فى هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام؛ ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً إلا هذا ؛ فهما أُعطيتَ من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستَثْقَل ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو فى دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا ردًّا إلا ما تعطى وما تمنع .

* * *

---

* بسطنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر .

ثم . . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت .

ضحكت بحزنٍ حُزنَ الذى يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها ؛ وكان منظرها الجميلُ المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذى اعتدى عليه الشر فأحاله ، والإرادةِ التى أكرهها القدر فأخضعها ، والعفةِ المسكينة التى أذلتها ضرورة الحياة ، والفضيلة المغلوبة التى حيل بينها و بين أن تكون فضيلة !

ويا ما كان أجملها ناظرة بمعانى البكاء ضاحكة بغير معانى الضحك ؛ تتنهد ملامح وجهها وفمـُها يبتسم !

كان منظرها ناطقـًا بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاأبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنسانـًا : ألا تحل هذه العقدة ؟ . . .

وانقضى التمثيل وتناهض الناس .

أما صاحب القلب المسكين ؟ . . .

* * *

القلب المسكين

٦

أما صاحبُ القلب المسكين فقام ليخرج وقد تفارَطتْه الهمومُ وتسابقت إليه فانكسر وتفتَّر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبته باكيـًا وباكيةً من حيث لا يـَرى بكاءَه غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه !

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تـَغـَشـَّى الدنيا لون نفسه الحزينة ؛ إذ كانت نفسـُه ألقت ظِـلـَّها على كل شىء يراه ؛ وجعل يدلف ولا يمشى كأنه مثقلٌ بحمل يحمله على قلبه .

إنه ليس أخفّ وزنـًا من الدمع ، ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل منه ، حتى لينتثرُ على النفس أحيانـًا وكأنه وكأنها بناءٌ قائم يتهدَّم على جسم ؛ وبعضُ التنهدات على رقتها وخفتها ، قد تشعر بها النفس فى بعض همها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرَّجفةُ فمادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلـَّق ويتهاوَى عليها .

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء فى رَأى العين ! لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور فى الدنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له « أنا لك » إلا الهمُّ ؛ والتى هو والظلام والعالم الصامت !

جعل يدلف ولا يمشى كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه ؛ ومتى وقع الطائر من الجو مكسورَ الجناح ، انقلبت النواميس كلُّها معطلة فيه ، وظهر الجو نفسُه مكسوراً فى عين الطائر المسكين ؛ وتنفصل روحُه عن السماء وأنوارها ، حتى لو غمره النورُ وهو ملقًى فى التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه . . .

ثم خرجنا ، فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر ، فتعذَّب به عذابين : أما واحد فلأنه كان ولم يَدُمْ وأما الآخر فلأنه زال ولم يعدْ ؛ والسرورُ فى الحب شيء غير السرور الذى يعرفه الناس ؛ إذ هو فى الأول روحٌ تتضاعف به الروح : فكل ما سرك وانتهى شعرتَ أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهى من سرور العاشق المستهام يُشعره أنه مات ، فله فى نفسه حزن الموت وهمُّ الثكل ، وله فى نفسه همُّ الثكل وحزن الموت !

* * *

وينظر صاحبُ القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت فى الحديقة ، وإذا القمر أيضًا كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره .

كان وجهُ القمر فى مثل حزن وجهِ العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا ، فكان أبيضَ أصفرَ مُكمداً ، تتخايلُ فيه معانى الدموع التى يُمسكها التجلدُ أن تتساقط .

كان فى وجه القمر وفى وجه صاحبنا معًا مظهرُ تأثير القدَر المفاجئ بالنكبة .

وبدت لنا الحياةُ تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها ، فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مُشرقًا فى نصف النهار ؛ يا لك من ساحر أيها الحبُّ ؛ إذ تجعل فى ليل العاشق ونهاره ظلامًا وضوءاً ليسا فى الأيام والليالى !

أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراق ، وما أسرعَ ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوّها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهى ساكنة ، وتحوّلت روحها خشبيّة

جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها فى الظلام قائمة فى سوادها كالنائحات يلطمن ويُولولن ، وتنكّر فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع دائمًا حين تنبتُّ الصلة بين المكان ونفس الكائن .

ماذا حدث ؟

لا شىء إلا ما حدث فى النفس ، فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنى من نفسه فسُلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض ؛ وبهذا وهذا بدت فى السلب والعدم والتنكر ، فلم يبق إبداعٌ فى شىء مُبدَع ، ولا جمال فى منظر جميل .

أكذا يفعل الحب حين يضع فى النفس العاشقة معنى ضئيلا من معانى الفناء كهذا الفراق ؟

أكذا يترك الروحَ إذا فقدت شيئًا محبوبًا ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشىء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ! مسكين أنت !

* * *

ومضينا فملنا إلى ندىً نجلس فيه ، وأردتُ معابثة صاحبنا المتألم بالحب والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتْها نفسُك !

قال : آه ! مَنْ أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نسَّق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها ؟ أتدرى أن العالم كان فىَّ ثم أُخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء .

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه .

قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظِر ، وكأنه فى أيام خلت ، وتراه كأنما يجىء إلى الدنيا كل يوم ويرجع .

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف ، كالملك يستبدّ ليتحقق من نفاذ أمره ، وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحيانًا غير جميل فى المعاملة !

قال . ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهى تطلبنى وأتنكبها ، وهى مقبلة لكنها مقبلة على امتناعى ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك .

قلت : فإن هذه هى المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها .

قال : كذلك هو ، فهل تعرف فى البؤس والهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبتَه ، ولكن كيف يتركها ؟ ما هى المسافة بينى وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها ، إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية ؛ وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلاشرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ! ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشريعة وكرامة الإنسانية فى المرأة والرجل .

وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ هو سرُّ قوته وعنصر دوامه .

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة . . . إنه بهذا يودُّ ألا يكون بينهما العقلُ والقانونُ وهذا الحرمانُ الذى يسمى الشرف ، وألا يكون بينهما إلا قيدُ غريزتها الذى ينحلّ من تلقاء نفسه فى لحظة ما ، وأن يُترك لقوته وتترك هى لضعفها ؛ والقوة والضعف فى قانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصابٌ وتسليم .

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ؛ فإن بينهما قوةً وضعفًا من نوع آخر ، فمعه الثمن وبها الحاجة ، وهما فى قانون الضرورة ملك وتمليك .

قال : وهذا مما يقطّع فى قلبى ؛ فلو أن للأمة دينًا وشرفًا لما بقى موضع الزوجة فارغًا من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن فى تلك المواضع الخالية أولَ ما ينزلن ، فكل بغى هى فى المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذل فى الأمة .

* * *

قلت : فحدثنى عنك ما هذا الوجد بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالياً محضاً كأنما جمعتها فى حواسك فأخذتها وتركتها فى وقت معا ، وحواسك هذه لا تزال كما هى ، بل هى قد زادت حِدة ، فكما صنعتْ لك من قرب تصنع لك من بُعد ؟

قال : أنا فى محضرها أحبها كما رأيتَ بالقدر الذى تقول هى فيه إنك لا تحبنى ، إذ كان بيننا آخَر اسمه الخُلُق ؛ ولكنى فى غيابها أفقد هذا الميزان الذى يزن المقدار ويحدده ، وإذا كنتَ لم تعلم كيف يصنع العاشق فى غيبة المعشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بإزائها ما تقاومه ، فتتخلى عنه وتخذله ؛ وفضيلته لا تجد ما تستَعْلِنُ فيه ، فتتوارى وتدعه ؛ وشخصيته لا تجد ما تبرز له ، فتختفى وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهَن والنقص وحدَّة الشوق ؛ وهنا ينتقم الحب مما زوَّرتْ عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية ، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التى كتمت عنه ؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدُّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القَدَم وعلى هذه القدم !

لا إنه لا بد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائماً ثياب استعارة ما دام لابسها فى دوره من القصة .

* * *

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه ! إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان .

مَن مِن الناس لا يعرف أحزانه ؟ ولكن من منهم الذى يعرف أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملا فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرقّ ، ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكأنها فى الرجل والمرأة تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر .

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصْهَرُ المعدن الإنسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصفى ويصنع ، ماذا يكون للإنسان فى كل شىء من حبيبه ؟

يكون له فى كل شىء روحه النارى .

* * *

قلت : بَخٍ بَخٍ * ! هكذا فليكن الحب؛ إنها حين تهيج فى نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدّ اللوعة ! يا عجبا ! كأن الحياة لا تقدم فى عشق المحبوب إلا عشقها هى ؛ فإذا وقعت الجفوة ، أو حُمّ البيْنُ ، أو اعترى اليأس — قدّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت .

إن الحزن الذى يجىء من قِبل العدو يجىء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه ؛ ولكن أين ذلك فى حزن مبعثُه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

* * *

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً ؛ فإذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل جئنا إليها فرأيناها فى المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر ، قال : أرجو . . .

ولم يكد ينطق بهذه الرجيّة حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلتْ ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . . من قوله : أرجو . . .

ولماذا رحلت ؟ لماذا ؟ .

وأما هو . . . ؟

---

* كلمة الإعجاب تقال عند الرضى والمدح ، ومثلها (زه) وهذه فارسية .

القلب المسكين

٧

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه ، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى ، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البالَ يتنازعُهُ فى نفسه ما لا أدرى ، كأن غيابها وقع فى نفسه إنذارَ حرب .

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتاعُون بها ويرتمضون منها وهى أحجارٌ وآثار وبقايا ؟ وما الذى يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة ؟ يتلقاهم بالفراغ القلبىّ الذى لا يملؤه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد ؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا مليًّا كأنها انتهت إلى نهاية فى النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معانى الحياة وبين شعور الحى ؛ ويكون العاشق موجوداً فى موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق تُلمّ بالفراغ العقلى من وعى سكران .

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة ؟ أهو فصلك بين زمن وزمن ، أم جمعك الماضىَ فى لحظة ؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة ، أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ، أم تصويرك روحية الدنيا فى المثال الذى تحسُّه الروح ، أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب ، أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن ، أم رجوعك باللذة تُرى ولا تمكن ، أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلىء بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوى بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ لينفرَ لك ، وتهتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ، أم لأن القلب يفرغ ساعة

من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟

* * *

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛ وتلك هي طبيعة الألم الذى يفاجئ الإنسان من مكمن لذته وموضع سروره ، فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه فى قبر الماضى ، يكون ألما لأن فيه المضض ، وكآبةً لأن فيه الخيبة ، وذهولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتم هذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد فى النفس ، لاجتماع ثلاثتها على النفس ؛ فإذا المسكين مبغوت كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع ، فقلبُه منها صُدُوع صُدوع . . .

وجعلتُ أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل ، وكلما حاولت أن أُثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود ؛ ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً وقال : لماذا رحلتْ ؟ لماذا ؟

قلت : أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذى ترى أنك تُعِزُّ جمالها به ، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك ، وتعنَّتَّ على قلبك وقلبها ؛ كانت ظريفة المذهب فى عشقها وكنت خشناً فى حبك ، وسوَّغتك حقَّاً فرددته عليها ، وتهالكتْ وانقبضتَ أنت ، ورفعتْ قدرك عن نفسها تحببا وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء ، واستفزعتْ وسعها فى رضاك فتغاضبت ، ونَضتْ عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شىء سؤالا فلم تكن أنت من جوابها فى شىء . . .

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة ، فالتوتْ على صاحبها وهى عاشقة ، وجاحَدت وهى مُقرَّة ؛ إذ تريد فى الأوَّلة أن تتحقق أنها محبوبة ، وفى الثانية أن يُقدِّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة ، وفى الثالثة هى تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة ، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا الإمتاع شأن وقيمة ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا .

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها ، ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب ، فإن الابتداء

حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب ؛ وأنا أعرف امرأة وضعتْها كبرياؤها فى مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأتألم ولكن لن أُغلب ، فكان الذى وقع وأسفاه — أنها تألمت حتى جُنَّت ، ولكن لم تُغلب[1] . . .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئُ كل يوم رجلا ؟

قلت : إنها تبتدئُ متكسبةً لا عاشقة ، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادتْ قيمتَها فيما هو قيمتها ؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنفَ وهذه القسوةَ وهذه الروحية الجبارة ؛ فإنها لذّات جديدة للمرأة التى لا تجد من يُخضِعها ؛ وفى طبيعة كل امرأة شىء لا يجد تمامَه إلا فى عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة وآخره رقة ؟

* * *

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشىء الغريب يسمى غريبًا فيكفى ذلك بيانًا فى تعريفه ، غير أنه إذا وقع فى الحب سُمِّى غريبًا فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شىء غريب ، ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق فى التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون .

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ؛ وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فإحداهما بالنفس العظيمة فى الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق فى العشاق ؛ وفى هذه من هذه شَبَهٌ ، لوجود العظمة الروحية فى كلتيهما غالبةً على المادة ، مجرّدة من إنسان الطين إنسانًا من النور ، محركةً هذه الطبيعة الآدميةَ حركةً جديدة فى السموّ ، ذاهبةً بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعةً مبدأ التجديد فى كل شىء يمر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوى السماوى .

بيدَ أن فى العشق أنبياءَ كذبة ؛ فإذا تسفَّل الحب فى جلال ، واستعلنت البهيميةُ فى عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسانُ الحجر ، وتحركت الطبيعة

---

(١) انظر قصة هذه الحبيبة التى تألمت حتى جنت ص ٧٣ — ١٠١ « حياة الرافعى » .

الآدمية حركة جديدة فى السقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شىء فى النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة فى بعض العشاق ، كما يقلد النبوة الكبيرة فى بعض الدجّالين .

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان فى الحديقة ، وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا فى وصف تلك العبهرَة* الفتانة التى أحلَّته هذا المحل وبلغت به ما بلغت وكان فى رقة لا رقة بعدها ، وفى حب لا نهاية وراءه لمحب ؛ وخيل إلىّ أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما !

وأنفع ما فى حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالألفاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ؛ فتسلبه ألفاظُه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لا فى النفس ؛ وفى كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ؛ وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر .

وكان من أعجب ما عجبتُ له أن صديقًا مرَّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئ إلىّ : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم : لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة ، وأحسب أن عندك رأيًا فاقض بيننا . . .

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلىّ :

إن هذا قد تخرَّق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجىء لقلبه برقعة . . . وإنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هذا المسرح ، ويزعم لى . . . أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى فى كل ما يضىء القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبدا أبدا . . .

* هى التى جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية ، كهذه التى نحن فى وصفها منذ شهرين . . .

لأن ألحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه ، وأن الشيطان لو أراد مناجزةَ العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيَله وأساليبه وقدَّم جسمَها وفنها . . .

فيقول له المسئول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحيًا لقد صحا : إن المشكلة فى الحب أن كل عاشق له قلبُه الذى هو قلبُه ، وحسْبها أن مثل هذا هو يصفُها ؛ وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها مما لها ، فلعلها الجمالُ حُكم عليه أن يُعذَّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن فى أحزان !

* * *

وقلت له : يا صديقى المسكين ! أوَ كلُّ هذا لها فى قلبك ؟ فما هذا القلب الذى تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثانى من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم ؛ وكل كلامى فى الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره .

آه يا صديقى ! إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلا بعد زمن الطفولة إلا فى اثنين : من كان فيلسوفًا عظيمًا ، ومن كان مغفلا عظيمًا !

* * *

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرَّف خبره فلقيته من الغد ، وكان لى فى أحلامى تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب ؛ أما أنا فلا يعنى القراء شأنى وقصتى .

وأما هو ؟ . . .

القلب المسكين

٨

وأما هو فحدَّثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه ، قال : انصرفت إلى داري وقد عزَّ عليَّ أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني ، وهي إن غابت أو حضرت فإنها لي كالشمس للدنيا : لا تظلم الدنيا في ناحية إلا من أنها تضيء في ناحية ؛ فظُلمتها من عمل نورها ؛ وكانت ليلتي فارغةً من النوم فبتُّ أتململُ ، وجعل القلب يدقُّ في جنبيَّ كأنه آلة في ساعة لا قلب إنسان ؛ وكان في الدنيا من حوْلي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة ، وفيَّ أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربْد ؛ والوجودُ كله يبدو كالمختنق ، لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري ؛ ونظرتُ نظرةً في النجوم فإذا هي تتغوَّرُ نجماً بعد نجم ، كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ؛ وكأن كل وجه مضيء يقول لي كلمة : لا تنتظر !

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشُّفوف التي ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجبَ كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشفُّ عنها كالضوء ، ثم تُدِلُّ بنفسها أن ترفَع هذا الستر ، فإن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي ؛ وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصوَّرة في الحلم تصويراً آخر ، فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله ، ولكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لي كاللون على الوردة الزاهية : تظهر فتنةً وتُتم فتنة .

أيتها الأحلام ، ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الإنساني ، ماذا تبدعين ؟

قلت : يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قصِّ ما رأيت ، ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائمًا ، إنه القلب المسكين ؛ لقد ضحكتْ لى وقالت : هأنذى قد جئت ! وأقبلتْ تراثيني بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصدرها ، وألقت يدها فى يدى ، فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خيِّل إلينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا !

أما صافحتْك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت فى يدك ولحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيها فإذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حُلمٌ قصير ؟

قلت : يا صديقى دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط .

قلت : حسبى لكأنك شرحت لى ما بقى . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضًا ، وكأنى به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره . . . أفتدرى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعًا بامتحان قوّتى فى الضغط بيدى على أعواد منصوبةٍ من الحديد ، أو على أيدى الأقوياء إذا سلمتُ عليهم[1] ؛ فلما صافحتْنى لبثت مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فىَّ هذه العادة ، فمسخت الحلمَ وانصرف وهمى إلى أقبح صورةٍ وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛ فإذا بإزائى وجه ، وجهُ من ؟ وجه مصارع ألمانى كنتُ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتّك تنبهتْ فى تلك الشّدة من يدك ، ولا يزال أمرك عجيبًا ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذى هو أعجب أنى رأيت فى أضغاث أحلامى كأن قلبى المسكين يخاصمنى وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبّنى وسببتُه ، وقلتُ له وقال لى ، وتغالظْنا كأننا عدوّان ؛

(١) انظر ص ٢٧٤ – ٢٧٥ « حياة الرافعى » .

فهو يرى أنى أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمنعنى ، وأنه أشقى بى على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك ، فاذهبْ عنى ولا تتسمَّ باسمى فإنه لا فلانَ لك * بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمتَ أن لمسةَ يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فإذا هى تركتْه يرتفع فى الدم انتهى يومًا إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فإذا هى تركته يشتد فى الدم انتهى يومًا إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول فى الحب ، ولكنك مخذول !

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخْصةَ هى أناملها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشَّدة التى أخرجَتْ لك وجهَ المصارع ؟ ولكنك خائب فى الحب ، ولكنك خائب !

قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلبُ العدوّ ؛ لقد تركتنى من الهموم كالشجرة المُتَخَرْبَة قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب ؛ فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت ، وكم علَّقتَنى بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدئ ؛ ما أنت فىَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطعْمُ الدم !

* * *

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتُنى فى محكمة الجنايات ، وكأنى شكوت قلبى إليها فهو جالس فى القفص الحديدىّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم ، وجلس النائب العامُّ فى مجلسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافًا كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محامٍ ، فابغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَ هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأومأ إلى السماء — ولا فوق هذه — وأومأ إلى الأرض — إلا . . .

فبَدَرَ النائب العام وقال : إلا الحبيبة ؟ أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون !

---

* ذكر اسمه ، كما تقول مثلا : لا محمد لك .

— القلب : ولكننى لا أختار غيرها محكومًا لى أو محكومًا علىّ ؛ أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم فى القضية . . .

— الرئيس : فليكن ، فهذه جريمة عواطف إيذَنْ لها أيها الآذن .

فنادى المحْضِر * : الأستاذة ! الأستاذة !

وجاءتْ مبادرة ، ودخلت تمشى مشيتَها وقد افترّ ثغرها عن النور الذى يسطع فى النفس ، وأومَضَتْ بوجهها يمينًا وشمالاً ، فصرفَ الناسُ جميعًا أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردّدت بين جدران المكان صَدًى فى صدًى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين .

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ! تبارك الله ! آه آه ! آه آه ! وسمع صوت يقول : اتَّهِمُونى أنا أيضًا . . . فتَنَفَّرت الكلمات : وأنا ، وأنا ، وأنا ! واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط : لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع !

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله . . . المحكمة المحكمة !

— النائب العام : هذا بَدْءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه ، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهِى . . . عن المتَّهم ، هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب ، وكأنكم يا حضرات المستشارين . . .

فبَدَرت المحامية تقول فى نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضًا . . .

واشتدّ ذلك على النائب ، وتبين الغضب فى وجهه ؛ فقال : يا حضرة الرئيس . . .

---

* هو الموظف الذى يكون فى الجلسة للنداء على الخصوم .

— الرئيس مبتسمًا : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة . . . (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنتُ بلا قلب . . . فلم ألتفت للجمال ، بل راعني ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة فى أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع فى لسانها ، لا كما يقع مثله فى لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ فى لسان زوجة معشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضُها الكلام . . . وقلت فى نفسى : يا رحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات فى هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لِحىً مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة ، نداءً قانونيًّا للقبلات . . .

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبى المسكين . . . أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتقتصر على صاحبها ؛ أو خاصة ، فتضر غير جانبها ؛ أو عامة ، فيتناولها العمومُ المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أو هى أعم ، فيتناولها العمومُ المطلَق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هى جريمة قلبى ؟ . . .

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكًا : (غزالتها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام . . . (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر : كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام ، وهو يفْرَق منها ولا يخالفها ؛ فرآها يومًا وقد طابت نفسها ، فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يا فلانة قد والله أحرق قلبى . . . ولم تدعه يُتم الكلمة ، فحددت نظرها إليه وقطبت وجهها وقالت : أحرق قلبَك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال ؛ حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه ..

(ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت فى كل دم ، وفى دم النائب أيضًا ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُّ من كل قلبى . . .

الرئيس : لندخل فى الموضوع ولتكن المرافعة مطلقة ؛ فإن الحدود فى جرائم القلب تُسْدل وتُرفع كهذه الستائر فى مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة .

* * *

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى ؛ فإن هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة .

المحامية : ولكنه قلب .

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرّف الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتضرج وجه المحامية وخجلت * .

— الرئيس : الموضوع الموضوع .

النائب : يا حضرات المستشارين ، إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون فى شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجًا مثلا ، أو صيته الأدبى ؛ فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم . . . (ضحك)

ـ المحامية : أستميح النائب عذراً إذا أنا . . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » . . . (ضحك) وتفرج وجهُ النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقىّ ألا يكون للثالثة رابعة ؟ . . .

---

* إذا كان كلبا فهو يتبع كلبة . . . وهذه هى غمزة النائب للمحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة فى الرؤيا ؛ وفى الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر فى هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات . . . وفى الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ، ويقال ممثلة — بينها وبين صاحب القلب المسكين منافسة . . .

ــ النائب : يا حضرات المستشارين ، وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلبُ رجل متزوج ؛ ولا تغرنّكم صوفيتُهُ هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألّهه وزعمه السموّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء فى ضمنه اعتداء ، على الزواج وعلى الشرف ؛ وهبُوه متصوفًا متألهًا ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة ؛ آه ! إن هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصًا فى الحكم أيضًا ، فأتِمّوه أنتم . يا حضرات المستشارين ، إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهى لا يظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون .

ــ المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور ! يا حضرة النائب ، من الذى لا يحمل شهوداً فى لسانه ويديه ورجليه ، بل ألفَ شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهومًا بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء فى لفظة (نائب) غير النون والباء فى لفظة (نبى) .

ــ النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُحرجنى فى الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيّرنى فى هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة ، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

ــ المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقه فى هذه القضية ؛ فلعل المحكمة تأمر لى بكأس . . . (ضحك)

ــ النائب : يا حضرات المستشارين ، يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثيابًا ، بل عُريًا فى شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ، كذبُها هو صدق من شفتيها ، لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

ــ النائب بعد أن تتعتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة فى العمل ، ورجلا فى الكسب . . .

— المحامية : ولكنك لا تدرى تحت أى حِمل سقطت * المسكينة ، وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب : ذاتُ عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أى يضعها فى عقله الباطن ويشتهيها ؛ نعم يشتهيها ، فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل ، فكرة الجريمة .

والصيت الأدبى يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لِمَنْ يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعليها !

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسمِ العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للإنسان هو الذى يهيئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين فى جسمه ؛ وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيمِ ما انتهك من أخلاقه السامية ؟ هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أو رَضِيَ بقدر ما ؛ فعلى كليهما يقوم فى نفسه مانع ؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة .

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما فى القانون الإنجليزى ، وقد قرر الشرَّاح أنه ما دام الرضى غير مستلب بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها .

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة « حَسنات الأبرار سيئات المقرَّبين » ؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية ، وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة .

— المحامية : قد نسيتَ أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء .

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال : وهذا أشق عليه من العقاب باثنتى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين .

---

* هذه الكلمة لفيكتور هيجو .

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسينما فتبطل إلا مالا جمال فيه منها ولا غزَل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف والكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب الإنسانى !

* * *

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟ . . .

القلب المسكين

تتمة

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحاميةُ وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب ، ونقلتهم فى الزمن إلى مثل الساعة المصوَّرة التى ينتظر فيها الأطفالُ سماع القصة العجيبة ؛ ساعة فيها كلُّ صور اللذة للقلب .

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيًّا أو رشداً فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابين منظور بالأعين .

كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسْمَعُ ويُفهم : أما صوت المحامية الجميلة فكان يُسمع ويُفهم ويُحس ويُذاق ، تُلقيه هى من ناحية ما يُدْرَك ، وتتلقاه النفس من ناحية ما يُعشَق ؛ فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها ، وهو كله حلاوة لأنه من فمها الحلو .

* * *

وبدأت فتناولت من أشيائها مرآة صغيرة فنظرت فيها .

— النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

ــ المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عينىّ ، فأنا أسأل عينىّ قبل أن أتكلم !

ــ النائب : نعم يا سيدتى ؛ ولكنى أرجو ألا تُدخلى القضية فى سر المرآة وأخواتها . . . إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحّلت لغةُ الدفاع !

فضحكت المحامية ضحكة كانت أولَ البلاغة المؤثرة . . .

ــ النائب : من الوقار القانونى أن تكون المحامية الفتانة غيرَ فتانة ولا جذّابة أمام المحكمة .

ــ المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة . . . ؟ (ضحك)

ــ النائب : جمال حسناء ، فى ظرف غانية ، فى شمائل راقصة ، فى حماسة عاشقة ، فى ذكاء محامية ، فى قدرة حب ــ هذا كثير !

ــ المحامية : يا حضرات المستشارين ، لم تكن المرآة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى فى الدفاع ، كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشى على اتهامه إذا تكحلت له لغتى .

ــ القضاة يتبسمون .

ــ النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانونى ، الوقار ، نعم الوقار ؛ فإن المحامية أمام المحكمة ، هى متكلم لا متكلمة .

ــ المحامية : متكلم بلحية مقدّرة منع من ظهورها التعذُّر (ضحك) . . .

كلا يا حضرة النائب ؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تُنْتزعُ منه شواهد وأدلة ؛ قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضانى أن أرقص لرقصت ، أو أغنى لغنّيت ، أو سحر الجمال لأثبتُّه أول شىء فى النائب . . .

ــ الرئيس : يا أستاذة !

ــ المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب فى جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية .

ــ النائب : لو حدث من هذا شىء لكان إيحاءً لعواطف المحكمة . . . فأنا أحتج !

ــ المحامية : احتج ما شئت ، ففى قضايا الحب يكون العدلُ عدلين ؛ إذ كان

الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك .

— النائب : هذه العقدة ليست عقدة فى منديل يا سيدتى ، بل هى عقدة فى القانون .

— المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار يا سيدى ، بل هى قضية إخلاء قلب !

— الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

— المحامية : يا حضرات المستشارين ، إذا انتفى القصد الجنائى وجبت البراءة . هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبى المسكين ؟

— النائب : أوله حب راقصة .

— المحامية : آه ! دائمًا هذا الوصف ؟ هبوها فى معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجلٌ تقىّ ، أفليست فى حسنها جديرة بأن يحبها لأنه رجلٌ شاعر ؟ احكموا يا حضرات القضاة ؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رَهْنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التى تَدفع . . . فلماذا لم ينلها وهى متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفى آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقًا بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوةَ فكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها ؟ . .

— القضاة يتبسَّمون .

— النائب : نسيَت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهاية وفى آخر أوصاف الشوق . . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة .

— المحامية : آه ! دائمًا الراقصة ، مَن هى هذه المسكينة الأسيرة فى أيدى الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هى الجائعة التى لا تجد من الفاجرين إلا لحمَ الميتة ؟ نعم إنها زلَّت ، إنها سقطت ، ولكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة فى رجل فاسد خدعها وتركها ، وفقرِ العدل والرحمة فى اجتماع فاسد خذلها وأهملها ! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ،

وأهلُها موجودون ! والمنقطعة من الناس ، والناسُ حولها !

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تَدَّعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي ، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب ، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط ، قلتم له : شأنك بنفسك ، ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاهَ الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد ، تُخرجْ لكم مسببَّات أخرى غير فاسدة .

تأتي المرأةُ من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها ، فهي تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظلمًا آخر فيأخذها وحدها بالجريمة ، ويقال سافلة ، وساقطة ؛ وما جاءت إلا من سافل وساقط !

لماذا أوجبت الشريعة الرجمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهي تريد القتلَ والتعذيب والمُثلة ؟ كلا ؛ فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا ، ولكنها الحكمة السامية العجيبة : إن هذا الفاسق هَدَمَ بيتًا فهو يُرجم بحجارته !

ما أجلَّك وأسماك يا شريعة الطبيعة ! كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم .

تستسقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلمات الذم والعار ؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هذا إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوّتها ؟ نعم إن ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

— الرئيس وهو يمسح عينيه : الموضوع الموضوع !

— المحامية : ما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمة يَضرب صاحبُها المثلَ بنفسه للشباب في تسامي غريزته عن معناها إلى أطهر وأجمل من معناها ؟ لبئس القانونُ إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل دينيٍّ من أعمال الفضيلة !

— النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة ؟

— المحامية : ومم يخجل ؟ أمن جمال شعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمة في سموّ في كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهي نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبته وأن أُظهر شيئًا من سر فنها الذي هو سرُّ البيان في فنه ؟

— النائب : إنها تمَاجن علينا يا حضرات المستشارين ، فالذي يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة . . . .

— الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة .

— المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيَّات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فكلمة الحب مثلا قد تنتهي إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور ، وهي بعينها تبلغ إلى فكرٍ آخر حاملة إلى سَمُوه من سموها ؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل في مدنية هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة . . . وإكرام المرأة إكرام مغازلة . . . يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة ، فيضعونه في حياة المرأة ، فما أسرع ما يجيء « الصِّفر » فإذا هو العشرة بعينها !

أما الشرقيون فالأصل في مدنيتهم التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها ، لا جَرَم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرحمة ، و . . .

— النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع . . .

— المحامية : وبصر القانون وعمى القانون . . .

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب . . . . . . الموضوع الموضوع .

— المحامية : لا والذي شرّفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين ؛ ما يرى القلب المسكين في حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن ، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها ، أئن أحس الشاعر سرًّا من أسرار الطبيعة في منظر من مناظرها ، قلتم أجرم وأثِم ؟ . . .

هذا قلبٌ ذو أفكار ، وسبيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن ، قد تقولون : إن فى الطبيعة جمالا غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها ؛ ولكن ما الذى يحيى الطبيعة إلا أخذَها من القلب ؟ وما هى طريقة أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ؛ ولكن سلوه : أهو يتألم بإدراكه الألم فى الحب ، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد فى الخير والشر . . . ؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائمًا إلا فى أحد الطرفين : هم أكبر من الهم ، فرح أكثر من الفرح ؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذى لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة .

هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه ، فالتى يحبها لا تكون إلا مختارة من هذة القدره اختيار ملك الوحى ، وهما بهذا فوتان فى يد الجمال لايداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتا هى عظيمة . . .

فإن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة .

إن خمسين وخمسين تأتى منهما مائة ، فهذا بديهى ، ولكن ليس أبيَن ولا أظهر ولا أوضح من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقه يأتى منهما فن .

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ليتداولوا الرأى فيما يحكمون به ، وأومأتْ لى المحاميةُ الجميلة تدعونى إليها ، فنهضتُ أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم .

جائزة[١] : لمن يحسن كتابة الحكم فى هذه القضية خمس نسخ من كتاب (وحى القلم) ، وترسل المقالات (باسمنا إلى طنطا) ، والموعد (إلى آخر شهر يناير هذا) والشرط رضى المحكمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته . . .

---

(١) قلت : وردت إلى المؤلف مئات الرسائل بحكم أصحابها فى قضية (القلب المسكين) ، ولكن مسابقة الحكم فى هذه القضية لم يفصل فيها ، لأن قاضيها الأول ومتهمها الأول قد غاله الموت قبل أن يرى رأيه ويحكم حكمه !

انتصار الحب*

كل ما يُكتب عن حبيبين لا يُفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما ينظر إلى وجه الآخر .

[وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ ، ولكن بأسرار . . .]

والغليلُ المتسعِّرُ فى دم العاشق كجنون المجنون : يختصُّ برأسه وحده .

[وضمّةُ المحب لحبيبه إحساسٌ لا يُستعار من صدرٍ آخر]، كما لا يستعار المولودُ لبطنٍ لم يحمله .

وكلمةُ القبلة التى معناها وضعُ الفم ، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان !

* * *

ويومُ الحب يومٌ ممدود ، لا ينتهى فى الزمن إلا إذا بدأ يومُ السلو فى الزمن . . .

فهل يستطيع الخلقُ أن يصنعوا حدًّا يفصل بين وقتين لينتهىَ أحدُهما . . . ؟

وهبْهم صنعوا السُّلوانَ من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف برهان وبرهان ، فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان فى القلب العاشق ؟

وإذا سالتِ النفسُ من رقة الحب ، فبأى مادة تُصنع فيها صلابةُ الحجر . . . ؟

* * *

[وما هو الحب إلا إظهارُ الجسم الجميل حاملا للجسم الآخر كلَّ أسراره ، يفهمها وحده فيه وحده ؟]

[وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التى لا يملؤها غيرها بالإحساس ؟]

---

* شغلتنا مقالات (القلب المسكين) عن الكتابة فى حادثة (القلب المسكين الأعظم) ، قلب الملك إدوارد عندما وقعت الحادثة .

قلت : وحادثة تخلى الملك إدوارد عن عرش الإمبراطورية البريطانية فى سنة ١٩٣٦ من أجل امرأة — ذائعة مشهورة .

[وما هو الحب إلا إشراق النور الذى فيه قوة الحياة] كنور الشمس من الشمس وحدها ؟

وهل فى ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشترى الأسرار ، والإحساس ، وذلك النور الحى ؟ . . .

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

* * *

ما هو هذا السرُّ فى الجمال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقلٌ للعقل ؟

وما هو هذا الإدراكُ إلا انحصار الشعور فى جمال متسلطٍ كأنه قلبٌ للقلب ؟

وما هو الجمالُ المتسلطُ بإنسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه روحٌ للروح ؟

ولكن ما هو السر فى حب المحبوب دون سواه ؟ . . . هنا تقف المسألة وينقطع الجواب .

هنا سرٌّ خفى كسر الوحدانية ، لأنها وحدانية (أنا وأنت) .

* * *

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة ، والروحانية اليوم كالعظام الهرِمَة لا تكتسى اللحمَ العاشق . . .

وقال الحب : لا بل المادة لا قيمة لها فى الروح ؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رجْل . . .

ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحى لا وجود له فى الآلة ولا مع الآلة . . .

قال الحب : لا ، يصنع الإنسان ما شاء ، ويبقى القلب دائمًا كما صنعه الخالق . . .

وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المال والجاه ؛ فبماذا رد الحب . . . ؟

* * *

جاء بلؤلؤة روحانية فى (مسز سمبسون) ؛ ووضع إليها فى ميزان المال والجاه أعظم تاج فى العالم إدوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك — إمبراطور الهند » .

وتنافست الروحانية والمادية ، فرجع التاج وما فيه إلا أضعف المعنيين من القلب .

وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الإعلان ، فهز العالم كله هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب . . . .

* * *

(مسز سمبسون) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلَّقة مرتين . هذا هو اختيار الحب !

ولكنها المعشوقة ؛ وكل معشوقة هى عذراءُ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛ هذا هو سحر الحب !

ولكنها الفاتنة كلَّ الفتنة ، والظريفة كلَّ الظرف ، والمرأة كل المرآة ، هذا هو فعل الحب !

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والأنس للقلب المستوحش ، والنور فى ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب !

ومن أجلها يقول ملك إنجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأه التى أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب . . .

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنًى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل .

وهل فى غيرها هى روحُ اللهفة التى فى قلبه ، فيكون المذهب إلى غيرها ؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتًا فيه حياة .
وكأنهم يريدون منه أن يُجن جنونًا بعقل . . . هذا هو جبروت الحب !

* * *

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى . . .
التاج ، الملكية ، امرأة مطلّقة ، امرأة من الشعب ؛ فهذا ما تقوله السياسة .
ولكنها امرأةُ قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاعُ ثلاث زوجات ؛ وهذا ما يقوله الحب !
[واللحظة الناعسة ، والابتسامة النائمة ، والإشارة الحالمة] وكلمة (سيدى)* ؛ هذا ما يقوله الجمال .
وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة فى مِلك أولادها الكبار . . .

* * *

العرش يقبل رجل خلفًا من رجل ، فيكون الثانى كالأول .
والحب لا يقبل امرأة خلفًا من امرأة ، فلن تكون الثانية كالأولى .
وطارت فى العالم هذه الرسالة : « أنا إدوارد الثامن . . . أتخلى عن العرش وذريتى من بعدى » !
« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الإعلان ؛ فهز العالم كله هزةً صحافية » .
الحب . الحب . الحب . . .

---

* لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا قالت (سيدى) . ولن يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة فى صوت قلبها وغريزتها ؛ وقد كان هذا أدب نساء الشرق مع أزواجهن ، أما اليوم . . .

قنبلة بالبارود
لا بالماء المقطر ..*

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ؛ لقد كتبتم الكلمات التى تصرخ منها الشياطين . . .

كلمات لو انتسبن لانتسبت كلٌّ واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحى فى كتاب الله .

فطلبُ تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمى إلى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس » .

وطلبُ الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

وطلب إيجاد المثل الأخلاقى لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة » .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ، إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

* * *

حياكم الله يا شباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التى يصفق لها العالم الإسلامىُّ كله .

كلمات ليس فيها شىء جديد على الإسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجَد إلا فيها .

---

* رفع طلبة الكليات فى الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدائها وأساتذتها – طلبا يلتمسون فيه إدخال التعليم الدينى فى الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات ، إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض ، حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الأمة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية فى المجتمع المصرى ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا » .

قلت : وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٣٧ .

كلمات القوة الروحية التى تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة .

كلمات الشباب الطاهر الذى هو حركة الرقى فى الأمة كلها ، فسيكون منها المحرك للأمة كلها .

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هى السبب فى إصلاح القوانين . . .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق : إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

* * *

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لا يعلّم الصبر ولا الصدق ولا الذمة .

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فإن القانون الأدبى فى الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده .

يريدون قوة العقيدة ، حتى إذا لم ينفعهم فى بعض شدائد الحياة ما تعلموه نفعهم ما اعتقدوه .

يريدون السمو الدينى ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هى فكرة إدراك الواجبات بغير معناها .

يريدون الشباب السامى الطاهر من الجنسين ، كى تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

* * *

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين .

وما هى الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة .

والشبابُ المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها ؛ وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعى ، ينفق دائماً ولا يكسب أبداً !

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعوّدتم لا ماذا تعلمتم !

قوة الأخلاق يا شبابُ ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

* * *

وأحسّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات فى الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التى خلقتها الحكمة الخالقة .

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالإرادة ، لأن رؤيتها أول عملها .

نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب ، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب !

ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنس الآخر ، فهمه بإدراكين لا بإدراك واحد !

وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمالُ الرجل إذا استقر فى قلب المرأة . . .

. . . هما حينئذ معنيان . ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان . . .

* * *

لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن كان هناك شىء اسمه حرية الفكر فليس هناك شىء اسمه حرية الأخلاق .

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا ! ! ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا .

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين ، ومن الذى يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق .

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفى من الدين فى المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه فى الجامعة ..

أفَتَرون الإسلام دروسًا ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تُغرس هناك لتُقلع عندكم . . .

لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن قنبلة الشباب المجاهد تُملأ بالبارود لا بالماء المقطَّر . . .

* * *

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التى يحسُّون بها زمنهم .

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال ؛ إنهم تلاميذكم ، ولكنهم أيضًا أساتذة الأمة .

لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذى يسمى الجامعة ، وتكلم بألسنتهم هذا البناء الكبير الذى يسمى الوطن .

أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ، وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق .

لا ، لا ؛ إن المسلمين الذين هَدَوا العالم ، قد هَدَوه بالروح الدينية التى كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة .

لا ، لا : إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاق الدين لا آراء الكتب . . .

* * *

مَن هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد فى شئونهم مهما يكن أمره » ؟

أهذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة تِرِن تِرِن . . . فيجتمعون وينصاعون ؟

كلا يا رجل ! ليس فى الجامعة قالب يُصب فيه المسلمون على قياسك الذى تريد .

إن التعليم فى الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليمها العالى . . .

« ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين » .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق . . . ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

شيطان وشيطانة . . .[١]

شَغَلَنى ما شَغَلَ الناسَ من حديث الجامعة المصرية وما أراده طلبتُها من وَرَعٍ يَحجزهم عن محارم الله ، ودِينٍ يخلُص به الإيمانُ إلى قلوبهم ، فلا يكون لفظ المسلم على المسلم كأنه مكتوبٌ على ورقة ؛ ثم ابتغَوْه من الفصل بين الشبان والفتيات ، تطهيراً للطباع ونوازع النفس ، واتقاءً لسوء المخالطة ، وبُعداً عن مَطِيَّة الإثم ، وتوفيراً لأسباب الرجولة على الرجل ولصفات الأنوثة على الأنثى .

وقرأت كل ما نشرته الصحف ، واستقصيتُ وبالغت ، ونظرتُ فى الألفاظ ومعانيها ومعانى معانيها ؛ وكنت قبل ذلك أتتبَّع باب « فلان وفلانة » فى المجلات الأسبوعية التى تكتب عن حوادث الاختلاط فى الجامعة وتسمِّى الأسماء وتصف الأوصاف وتذكر النوادر ؛ فملأ كلُّ ذلك صدرى واجتمع الكلامُ يترجم نفسَه إلىَّ فى رؤيا رأيتها وهأنذا أقصُّها :

رأيتنى عند باب الجامعة وكأنى ذاهب لأقطع باليقين على الظن ، وقد علمتُ أن الظِنَّة تقوم فى حكمة التشريع مقام الحقيقة ، لخفائها وكثرة وجودها ؛ فإن كان فى اختلاط الجنسين ما يُخْشَى أن يقع فهو كالواقع . . .

. . . ثم رأيت شيطانة قد خرجت من الجامعة ومضت تتَتبع أنفَها تتَشَمَّم الهواءَ وتستَرْوِحُه كأن فيه شيئًا ، حتى مالت إلى خَمَرٍ هناك* من ذلك الشجر الملتفِّ عن يمين الطريق ، فوقفتْ عنده تتنفَّس وتتنهَّد ؛ ثم تَبَصَّرَتْ فإذا شيطانٌ مقبل إلى الجامعة إقبالَ المغير فى غارته ، فأومأتْ له ، فعدل إليها

---

(١) لما كتب المؤلف (رحمه الله) مقاله السابق فى تحية شباب الجامعة ، راح يتتبع ما تنشر الصحف من حديث (فلان وفلانة) فى مناهضة دعوة الطلاب ؛ فوقع له من حديثهما ما أوحى إليه موضوع هذا فكتبه يعرِّض بفلان وفلانة ويروى من خبرهما ويرد رده عليهما ، وبعث به إلى الرسالة ، ولكن صاحب الرسالة أبى عليه نشره ، حفاظا على ما بينه وبين فلان من صلات الود ، وبقى المقال فى مكتب المؤلف حتى غالته منيته !

وانظر ص ١٣١ « حياة الرافعى » .

* الخمر (بفتح الميم) : ما واراك من شجر وغيره .

وحيّاها بتحية الشياطين ، ثم قال لها : ما وقوفُك هنا أيتها الخبيثة ؟ وكيف تركتِ صاحبتَك التى أنتِ موكَّلةٌ بها ؟ وما عسى أن يعمل الشيطان بين الجنسين إذا لم تؤازره الشيطانة ؟

قالت : إنما اجتذبتْنى إلى هنا رائحةُ عاشقَين كانا فى هذا الظلِّ يواريهما عن الأعين ، وما أراك إلا مزكوماً ، أفكنتَ فى الأزهر . . . ؟

فجعل الشيطان يتضاحك وقال : أنا مرسَلٌ من مستشفى المجانين مدداً لشياطين الجامعة ؛ فقد احتاجوا إلى النجدة . . . ولكنْ أنتِ كيف تركتِ صاحبتَك من أجل رائحة قُبلة على خمسمائة متر ؟ ما أحسبها الآن إلا جالسةً تكتب فى منع اختلاط الجنسين ووجوبِ إدخال التعليم الدينىِّ فى الجامعة !

قالت الشيطانة : إن صاحبتى لأبرع منى فى البراعة ، وأدقُّ فى الحيلة . وأهدَى للمعاذير ، وأنفَذُ إلى الغرض ، ومثلُها قليلٌ هنا ، ولكن قليل الشر ليس قليلا ، فإنه وُصْلَةٌ وطريق كما تعلم ؛ وما تجد الفتاةُ خيراً من هذا المكان ينفى عنها الريبة، وهو يُدنيها منها بهذا الاختلاط مع الفتيان ، ويهيئ لعقلها أسباباً تكون فيها أسبابُ قلبِها ؛ وقد كنتَ أنتَ فى أوربا ، أفما رأيتَ هناك شاباً وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟

إن هذا العلم شىء ومخالطةُ الشبان شىء آخر ؛ فذلك يطلق فكرَها يتجاوز الحدود ، والاختلاط يجعل فكرها يحصرها فى حدود إحساسها ؛ وأحدهما يرهف ذهنَها لإدراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفَها لإدراك الرجل ؛ وقد فرغ الله من خلقة الأنثى فما تُخْلَق هنا مرة أخرى على غير الطبيعة المفطورة على الحب فى صورة من صوره الممكنة ، والصورة هى الشابُّ هنا ما دام الشاب هنا ؛ وأنا الشيطانة قد تعلمتُ فى الجامعة أن قاعدة : « لا حياءَ فى العلم » ، هى التى تقرر فى بعض الأحيان قاعدة : « لا حياءَ فى الحب ! »

قال الشيطان : أنت أدرَى بسلطان الطبيعة فى المرأة ، ولكن الذى أعرفه أنا أن مفاسد أوربا تدخل إلى الشرق فى أشياء كثيرة ، منها الخمر والنساء والعادات والقوانين والكتب ونظام المدارس !

قالت الشيطانة : وإن سلطان الطبيعة فى المرأة يبحث دائماً عن رعيته ما لم

يُكَبْكَح ويُرِدّ عن البحث ؛ إذ هو لا يتحقق أنه سلطان إلا بنفاذ حكمه وجواز أمره ؛ ومن رعيته نظراتُ الإعجاب ، وكلمات الثناء ، وعبارات الإغراء ، وعواطف الميل ، ومعانى الخضوع ؛ ورُبَّ كلمةٍ من الرجل للمرأة لا يكون فيها شىء ويكون الرجلُ كله فيها ذاهبًا إلى قلبها متدسِّسًا إلى خيالها ؛ وكم من أمٍّ ترى ابنتها راجعةً إلى الدار وتحسُّ بالغريزة النسوية أن مع ابنتها خيالا من الجنس الآخر ! .

ومِمَّ ينبعث الحبُّ إلا من الألفة والمخالطة والمجاذبة والمنازعة التى يسمونها هنا منافسةً بين الجنسين ويعدُّونها حسنةً من حسنات الاختلاط ؟ نعم إنها مَشْحَذَةَ للأذهان وداعيةٌ إلى بلوغ الغاية من الاجتهاد ، وبها يرقُّ اللسان وتنحل عقدته ، ويصبح الشاب كما يقولون : « ابن نكتة ويفهم الطايره . . . » وتعود الفتاة وهى تجتهد أن تكون حلاوةً تَذُوقها الروح ؛ ولكن الأعمال بالنيات والأمور بخواتيمها : والطبيعة نفسها توازن العقل العلمىَّ بالجهل الخلقى ، ولعل أكثر الناس فنونًا فى فسقه وفجوره لا يكون إلا عالمًا من أهل الفن أو زنديقًا من أهل العلم ، ولا يصحِّح هذه الموازنةَ إلا الدين ، فهو الذى يقرر القواعدَ الثابتةَ فى كلتا الناحيتين ، وهذا ما يطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به ، لولا أن هذه الأمة مبتلاة فى كل حادثة من دينها بإجالة الرأى حتى يضيع الرأى .

اسمع ويحك هذا الفتى الذى يقرأ . . . فألقَى الشيطانُ سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلامًا فى صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيه : « ولهذا أصرِّح أن تجربة اشتراك الجنسين فى الجامعة نجحتْ إلى أبعد غاية : ولم يحدث خلالها قط ما يدعو إلى قلق القلِقين والمناداة بالفصل ؛ بل بالعكس حدث ما يدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر مما هى عليه اليوم » .

فقهقه الشيطان وقال : « قلَق القلِقين » ... ما رأيتُ كلامًا أغلظَ ولا أجفَى من هذا ؛ إنها لو دافعتْ عن الشيطان بهذه القافات لخسر القضية . . .

ثم إنه لَهَزَ الشيطانة لهزةً وقال لها : كذبتِ علىَّ أيتها الخبيثة ، فمالك عمل فى الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة

متر ؛ إن هذه القافات لَهِيَ الدليلُ أقوى الدليلِ على أن الفتاة هنا تُنظَر فتاةً حين تُرَى ، ولكنها تُسمِعَ رجلاً حين تتكلم !

قالت الشيطانة : ولكن ألم تسمع قولها : « تشجيع التجربة أكثر مما هى عليه اليوم » . . . ؟ ألا يرضيك هذا الذى لا بد أن يدعو « إلى قلق القلقين ؟ » ثم إنى أنا فلانة الشيطانة قد كنت السبب فى حادثة وقعت وطرد فيها طالب من الجامعة ، أفلا يرضيك الإغراء والكذب فى بضع كلمات ؟

قال الشيطان : كلَّ الرضى ، فهذا فن آخر ؛ والعلم الذى ينكر حادثة وقعت من تلميذة ولا يقر بأنها وقعت ، لا يكون إنكاره إلا إجازة لوقوع مثلها !

قالت الشيطانة : وَهَبِ الحادثة لم تقع ، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث فى القلوب ؟ ومَن هذا الذى يستطيع أن يقرأ قصة تؤلفها أربع أعين فى وجهين ؟ وكيف تُكشف الحقيقةُ التى أولُ وجودها كتمانُ الكلام عنها ، وأولُ الكلام عنها الهمسُ بين اثنين دون غيرهما ؟ ومن ذا الذى فى طاقته أن يمدَّ يده إلى قلبين أصبحا فى تلقِّى الرسائل كصندوقَى البريد . . . ؟

اسمع اسمع هذا الآخر . . . فاسترقَ الشيطانُ السمعَ فإذا طالبٌ يقرأ فى صحيفة أخرى على جماعته :

« والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر ، إنما يسيئون إلى أخلاقكم . . . والحق أيها الأصدقاء أن الذى حملنى على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية » .

قال الشيطان : كلَّ الرضا كل الرضا . . . هذا كلام داهية أريب ، فلقد أحسن قاتلهُ الله ! إنها عبارات جامعية محكمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطابية ؛ وكل من أظَنُّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُمَخْرِقَ على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا .

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوى الذى يشعر بالنقص فلا همَّ له إلا إثبات ذاته فى كل ما يجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعًا فى هذا الجانب وكان هو وحده فى جانب الخطأ .

ولكن أفٍّ ! ماذا صنع هذا القائل ؟ وأين التهمة التى لا تبدِّل اسمها فى اللغة ؟ وأين الذنب الذى يَرْضى أن توضع اليدُ عليه ؟ وهل إنكار المذنبِ إلا احتجاج من كرامته الزائفة وإظهار الغضب فى بعض ألفاظ ؟ . . .

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يُماروْن ؛ ألا ما أكذب الكذب هنا ! فإن الفساد ليقع من اختلاط الجنسين فى الجامعات الأوربية ثم لا يعد ذلك عندهم إساءة إلى الأخلاق ، ولا غضا من الكرامة الجامعيَّة ؛ وفى فرنسا يجتمع الشبان والفتيان من طلبة الجامعة ويحتسون الخمر ويتراقصون ويتواعدون ثم لا تقول لهم الأخلاق : أين أنتم ؟ . . . وهناك فى الأندية الخاصة بالطلبة ينتخبون ملكة الجمال من بين الطالبات كل سنة ، ثم ينزعون بأيديهم ثيابها التى تسمى ثيابًا ، ويطوفون بها غرف النادى كعروس واحدة مجلوَّة على مائة زوج فى المعنى ، « وبُلنْسُوار » أيتها الكرامة الجامعية . . .

والاختلاط هناك يقرب أن يكون ضربًا من المذاهب الاشتراكية ، وكل ما بقى عندهم من لغة الحياء هو أن يتلطفوا فيقولوا : إن هذه الطالبة صديقة فلان الطالب ؛ يعبرون بلفظ الصداقة عن أول المعنى ويَدَعون سائر أحواله ؛ إذ لا يبالى أمرَهما أحدٌ لا من الطلبة ولا من الأستاذين . . . وهناك يُعْتَذَر للشاب فى مثل هذا بأنه شاب ، فتقوم كلمة الشباب فى العرف بمعنى كلمة الضرورة فى الشرع !

وهم قد عرفوا أن الجامعة لحرية الفكر ، ومن حرية الفكر حرية النزعة ، ومن هذه حرية الميل الشخصى ، ومن حرية الميل حرية الحب ؛ وهل يعرف الحبُّ فى الجامعة أنه فى الجامعة فيستحى ويكون شيئًا آخر غير ما هو فى كل مكان ؟ أو ليس فى لغة الزواج عندهم عبارة « نسيان ماضى الفتاة » . . .

ولكن اسمعى اسمعى . . .

فأصاخت الشيطانة ؛ فإذا طالب من الأزهر يقرأ لطالب من كلية الحقوق فى صحيفة من دفاع أحد خريجى الجامعة !

« وما بال إخواننا الأزهريين يسخطون على الجامعة واختلاط الجنسين فيها ، وفى مصر نواح أخرى هى أحق بحربهم وأولى باهتمامهم ؟ لعلهم قد نسوا حالنا فى الصيف على شواطئ البحر ، والناس يمكثون هناك شهوراً عرايا أو كالعرايا » .

فقالت الشيطانة : ماله ولهذا ؟ لقد أخزَى نفسه وأخزَى الجامعة ، وهل صنع شيئًا إلا أنه يقول للأزهريّين : إن أهون الفساد من هذا الاختلاط فى الجامعة ، وأكثرُه فى شواطئ البحر ؛ فما بالكم تدَعون أشدَّه وتأخذون على أهونه ؟

قال الشيطان : ويحه ! وهل يأخذون على أهونه فى الجامعة إلا لأنه فى الجامعة لا فى مكان آخر ؟ ولكن اسمعى ، ما هذا . . . ؟

فأرْعَيَا الصوتَ سمعهما ، فإذا طالب يقرأ فى مجلة : « ظهرت الآنسة فلانة وهى تلبس فستانًا أحمر شفتشى بمى كريبى مشجَّر ببنّى وفيونكة أحمر على أبيض » . . .

قالت الشيطانة : هذا هذا ، فهل هى إلا ألوان أفكار تحت ألوان ثياب ؟ وهل يظهر سلطان الطبيعة فى المرأة باحثًا عن رعيته إلا فى ألوان جميلة هى أسئلة للعيون ؟ لقد مثّل سربٌ من الطالبات فى هذه الجامعة فصلا فى بعض الحفلات سموه « عرض الأزياء » والفتاة تعرض الثوب ، والثوب يعرض الجسم ، والجسم والثوب معًا يعرضان الفتاة ! وعرْض الأزياء فى الجامعة هو أمر من الجامعة بإهمال هذه الآية : « ولا يُبدين زينتهن » !

قال الشيطان : خبّرينى عن صاحبتك التى أنت موكلة بها ، أترينها كانت تأتى إلى هذه الجامعة لو ألبسوهن مثل ثوب الراهبة وخمّروهن بالخمار وأضاعوا مساحة الجسم فى مساحة الثوب وأجلسوهن فى آخر الصفوف كأنهن فى المسجد ؟ لقد فعلوا مثل هذا فى بعض جامعات أوربا ، فحرّموا صَبْغَ الشفاه على الفتيات ، ومنعوهن إبداء الزينة ؛ فامتنعت الزينة والمتزيّنة معًا ، وهجرن الجامعة ، وقلن فيما قلن : إن المرآة والأحمر والأبيض ونحوها هى الحقائق فى علم المرأة ، وهى من أساليب بحث كل فتاة عن رجُلها المخبوء بين الرجال فى الجامعة أو غير الجامعة ، والعلم وسيلة عيش ، والرجل وسيلة مثلها ، غير أنه هو أجْدَى الوسيلتين على المرأة وأحقهما بالعناية ، إذ هى لا تتزوج الكيمياء ولا الطبيعة ولا القانون ، ومعنى هذا بغير اللغة التى هنا فى الجامعة المصرية أن وجود الفتاة مع الشبان للتعليم ، هو كذلك وجودها بينهم للاستمالة والمكر النسوى الجذاب .

اسمعي اسمعي ؛ ما هذا الصوت المنكر الجافى الخشن ؟

فتسمَّعت ، فإذا الطالب الأزهرى يقول لصاحبه وهو يحاوره : قالوا : ويحرم على المرأة أن ترى شيئًا من الرجل ولو بلا مَيْل ولا خوفِ الفتنة ، وإذا هي اضطرت إلى مداواة أو أداء شهادة أو تعليم أو بيع أو نحو ذلك — جاز نظرها بقدر الضرورة.

فقالت الشيطانة : هذا كلامٌ رَحِمه الله . . . لقد كان ذلك سائغًا لو أن الشبان يتعلمون فى الجامعة ليحملوا معهم الحق كما يحملون معهم العلم ؛ وكيف لهم بهذا ومعانى الدين قد أصبحت منهم كأسماء البلاد البعيدة فى كتب الجغرافيا : لا هم رأوْها ولا هم حققوها ؟ إنهم يريدون تعليم الدين هنا . فيقول لهم رؤساؤهم : ألم تعرفوا الصلاة وأنها الصلاة ، والصيام وأنه الصيام ، والزكاة وأنها الزكاة ، والحج وأنه الحج ؟ وهذا كلام يشبه درس مواقع البلاد على الخريطة ، فباريس كلمة ، ولندن كلمة ، لا غير ؛ أما الحقيقة العظيمة الهائلة فشىء غير هذا الكلام الجغرافى التعليمى ؛ إذ ما هى كل فروض الدين إلا أعمال دقيقة ثابتة يجب فرضها على الجميع لتحقيق النفسية الواحدة فى الجميع ، وهى سر القوة والعظمة والنجاح ؛ فتعليم الدين فى الجامعة هو إقناع النفس بجعل فروضه من قوانينها الثابتة ، لا بأداء هذه الفروض فقط ؛ وذلك لا يستقيم إلا بدرْسه كما تُدرس فلسفة القوانين والاقتصاد والتربية ، أى باعتباره علمَ فلسفة الروح العملية للأمة ، ثم بجعل المدرسين أولَ العاملين به ، ليتحقق معنى الإقناع ، فلا ينقلب الدرس هزءاً وسخرية ؛ وبذلك يخرج الشاب من الجامعة وفى روحه قوة ثابتة تعمل به العمل الصالح ، وتوجهه إلى الخير ، وتحفظه بين أهواء الحياة وشدائدها ، وتجعله دائمًا يشعر أنه فى موضعه السامى من الإنسانية وإن كان فى أقل مراتب المال والجاه ، ومِن ثَمَّ يرجع الشبان فى الأمة آلاتِ قوةٍ منظمة عاملة ، وأيسر ما تعمله هذه الآلات ، إزالةُ المنكرات ، وصنع الشعبِ صنعة جديدة للسلم والحرب ، و ، و ، و ، و . . .

قال الشيطان : وماذا أيتها الخبيثة ؟ لقد هوَّلت علىَّ !

قالت : وطَرْدُنا نحن الشياطينَ من الجامعة !

قال : اسكتى ويحك ! فما أُرسلتُ من مستشفى المجانين إلا لهذا ؛ فلن يقع الفصل بين الجنسين ، ولن يدخل التعليم الدينى فى الجامعة ، وسيدافعون بأن هذا كله ضرب من الجنون . . . .

نهضة الأقطار العربية[1]

لا ريب فى أن النهضة واقعة فى الأقطار العربية ، مستطيرة فى أرجائها استطارة الشرر يضرم فى كل جهة ناراً حامية ، ويستمد من كل ما يتصل به لعنصره الملتهب ولا ريب فى أن الشرق قد تفلّت من أوهام السياسة وخرافاتها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمنًا ، وتابعه مدة ، وعرفه بمقدار ما بلاه ، وكذبه ما صدقه ، ونفر منه بقدر ما اطمأن إليه ؛ ولا ريب فى أن العقل الشرقى قد تطور وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط فى السياسة الغربية ، وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط فى هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة . . . ولا ريب أن الشرق يجاذب الآن مقاليده التى ألقاها ، ويضرب على سلاسله التى تقيد بها ، ويكابد الصعود والهبوط فى نهضته هذه ؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الذل وقراره على الضيم ، وجهله وتجاهله — أن أوربا ربطت أقطاره كلها فى بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض .

غير أنى مع هذا كله لا أسمى هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسع فى العبارة ، والدلالة بما كان على ما يكون ؛ فإن أسباب النهضة الصحيحة التى تطّرد اطراد الزمن ، وتنمو نمو الشباب ، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه — لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذى يفصل بيننا وبين سلفنا وأوليتنا ؛ وإلا

---

(١) كتب هذا المقال جواباً للاستفتاء الآتى الذى وجهته إليه إحدى المجلات العربية :

ا — هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء ، أم هى فوران وقتى لا يلبث أن يخمد ؟

ب — هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأى العوامل ؟ وما شأن اللغة فى ذلك ؟

جـ — هل ينبغى لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ وبأى قدر ؟ وعند أى حد يجب أن يقف هذا الاقتباس ، فى النظامات السياسية الحديثة ، وفى الأدب والشعر ، وفى العادات الاجتماعية ، وفى التربية والتعليم ؟

فأين الأخلاق الشرقية ، وأين المزاج العقلى الصحيح لأمم الشرق ، وما هذا الذى نحن فيه من روح لا شرقية ولا غربية ثم أين المصلحون الذين لا يساومون بملك ولا إمارة ، ولا يطلبون بالإصلاح غرضًا من أغراض الدنيا أو باطلا من زخرفها ؟ ثم أين أولئك الذين تجعلهم مبادئهم العالية القوية أول ضحاياها ، وتروى منهم عرق الثرى الذى يغتذى من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد ؟

إن الجواب على نهضة أمة نهضة ثابتة لا يكون من الكلام وفنونه ، بل من مبدإ ثابت مستمر يعمل عمله فى نفوس أهلها ؛ ولن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائمًا على أربعة أركان : إرادة قوية ، وخلق عزيز ، واستهانة بالحياة ، وصبغة خاصة بالأمة .

فأما الإرادة القوية فلا تنقص الشرقيين ، وإنما الفضل فيها لساسة الغرب الذين بصَّرونا بأنفسنا إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآة واحدة وجعلوا يقولون مع ذلك إننا غير هؤلاء ، وإن هذا الإنسان الذى فى المرآة غير هذا القرد الذى فيها ... ولكن أين الخلق وأين العزة القومية وأين العصبية الشرقية ؛ وهذه مفاسد أوربا كلها تنصبُّ فى أخلاق الشرقيين كما تنصب أقذار مدينة كبيرة فى نهر صغير عذب ؛ فلا الدين بقى فينا أخلاقًا ، ولا الأخلاق بقيت فينا دينًا ، وأصبحت الميزة الشرقية فاسدة من كل وجوهها فى الروح والذوق ، ولم يعد لنا شىء يمكن أن يسمى المدنية الشرقية ، وأخذ الحمق والضعفاء منا يحاولون فى إصلاحهم أن يؤلفوا الأمة على خلق جديد ينتزعونه من المدنية الغربية ، ولا يعلمون أن الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الراسخة ، وهم يغتبطون إذا قيل لهم مثلا : إن مصر قطعة من أوربا ؛ ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تعطيل المدنية الشرقية ، والذهاب بها ، وإفسادها ، وتعريضها للذم ، وتسليط البلاء عليها ، مما لا حاجة بنا إلى التبسط فى شرحه .

لست أقول إن نهضة الشرق العربى لا أساس لها ؛ فإن لها أساسًا من حمية الشباب ، وعلم المتعلمين ؛ ومن جهل أوربا الذى كشفته الحرب ؛ ولكن هذا كله على قوته وكفايته فى بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواصف السياسية — لا يحمل ثقل الزمن الممتد ، ولا يكفى لأن يكون أساسًا وطيدًا يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية ، بل ما أسرعه

إلى الهدم والنقض، لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوربى على اختلافها . . .
إذا قُدر لأوربا أن تفوز بأسلوبها الجديد ، أسلوب استعباد الشرق بالصداقة . . .
على طريقة ادعاء الثعلب للدجاج أنه قد حج وتاب وجاء ليصلى بها . . .

والذى أراه أن نهضة هذا الشرق العربى لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامى ، واللغة العربية ؛ وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمة فى حكم الزمن الذى لا يقطع بحكمه على شىء إلا بشاهدين من المبدإ والنهاية .

وظاهر أن أغلبية الشرق العربى ومادته العظمى هى التى تدين بالإسلام ، وما الإسلام فى حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمى إلى شد المجموع من كل جهة ، ولعمرى إنى لأحسب عظماء أمريكا كأنهم مسلمو التاريخ الحديث فى معظم أخلاقهم ، لولا شىء من الفرق هو الذى لا يمنعهم أن ينحطوا إذا هم بلغوا القمة ؛ فإن من عجائب الدنيا أن قمة الحضارة الرفيعة هى بعينها مبدأ سقوط الأمم ، وهذا عندنا هو السر فى أن الدين الإسلامى يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء ، ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفى الشعر إلا من المكروهات ، بل قد يكون فيها ما يحرم إن وجد سبب لتحريمه ، إذ كانت هذه الفنون فى الغالب وفى الطبيعة الإنسانية هى التى تؤدى فى نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمة ؛ بما تستتبعه من أساليب الرفاهية والضعف المتفنن ، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات والإغراق فيها والاستهتار بها ؛ وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا بكأس وامرأة ووتر ، وخيال شعرى يفتنُّ فى هذه الثلاثة ويزينها .

وإذا كان لا بد للأمة فى نهضتها من أن تتغير ، فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم ما يَصلح لنا من التغير وما نصلح به منه ، فلقد بعد ما بيننا وبين بعضها ، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر ؛ وإذا نحن نبذنا الخمر ، والفجور ، والقمار ، والكذب ، والرياء ؛ وإذا أنفنا من التخنث ، والتبرج ، والاستهتار بالمنكرات ، والمبالغة فى المجون ، والسخف ، والرقاعة ؛ وإذا أخذنا فى أسباب القوة ، واصطنعنا الأخلاق المتينة : من الإرادة ، والإقدام ، والحميَّة ؛ وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة تميزنا من سوانا ، وتدل على أننا أهل روح

وخلق – إذا كان ذلك كله فلعمرى أى ضير فى ذلك كله ، وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة ، وهل فى الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها ؟

إن من خصائص هذا الدين الأخلاقى أنه صلب فيما لا بد للنفس الإنسانية منه إذا أرادت الكمال الإنسانى ، ولكنه مرنٌ فيما لا بد منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتى على أصول الأخلاق الكونية . وليس يخفى أنه لا يغنى غَناءَ الدين شىء فى نهضة الأمم الشرقية خاصة ، فهو وحده الأصل الراسخ فى الدماء والأعصاب . ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق ، نهض إخوانهم فى الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى ، واضطروا أن يجانسوهم فى أغلب أخلاقهم الاجتماعية ، ولا حجر على حريتهم فى ذلك إلا كبعض الحجر على حرية المريض إذا أوجرْته الدواءَ المر .

ولما كان المسلمون إخوة بنص دينهم ، وكانت مبادئهم واحدة ، ومنافعهم واحدة ، وكتابهم واحداً ؛ فلا جرم كان من السهل – لو رجعوا إلى أخلاق دينهم وانتبذوا ما يصدهم عنها – أن يؤلفوا من الشرق كله دولا متحدة يحسب لها الغرب حسابًا ذا أرقام لا تنتهى . . .

إن هذا الشرق فى حاجة إلى المبادئ والأخلاق ، وهى مع ذلك كامنة فيه ، ومستقبله كامن فيها ؛ غير أنها لا تصلح فى الكتب ولا فى الفنون ، بل فى الرجال القائمين عليها . فالقلوب والأدمغة هى أساس النهضة الصحيحة الثابتة ، وإذا نحن تأملنا هذه النهضة الراهنة وجدنا أساسها خربًا من جهات كثيرة ، ووجدنا المكان الذى لا يملؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتب من الكتاب والموضع الذى لا يسده إلا الرأس العظيم قد سدَّته قطعة من صحيفة . . .

ولقد تنبأ نبيٌّ هذا الدين صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق العربى بإزاء الغرب ، فقال لأصحابه يومًا : كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر * اجتماعَ الأكلة على القصاع ؟ فقال عمر رضى الله عنه ؛ أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة ؟ قال : بل من كثرة ، ولكنكم غثاءٌ

* بنو الأصفر : هم الروم ومن إليهم من الأوربيين .

كغثاء السيل * ؛ قد أوهن قلوبكم حب الدنيا .

ؤوهن القلوب بحب الدنيا — على ما ينطوى فى هذه العبارة من المعانى المختلفة — هو علة الشرق ، ولا دواء لهذه العلة غير الأخلاق ، ولا أخلاق بغير الدين الذى هو عمادها . ألا وإن أساس النهضة قد وُضع ، ولكن بقيت الصخرة الكبرى وستوضع يومًا ، وهذا ما أعتقده ؛ لأن الغرب يدفع معنا هذه الصخرة ليقرها فى موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها . . . وهذا عمًى فى السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله لأمرٍ قدره وقضاه .

* * *

وإنى أرى أنه لا ينبغى لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد ، بل اقتباس التحقيق ، بعد أن يعطوا كل شىء حقه من التمحيص ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية ؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا فى الطبقات المنحطة ، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد ، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شىء فى نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية ؛ على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئًا ؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ فى المخترعات والعلوم ، وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال ورونق الخبيث والطيب ؛ إذ الفكر الإنسانى إنما ينتج الإنسانية كلها ، فليس هو ملكًا لأمة دون أخرى ؛ وما العقل القوى إلا جزء من قوة الطبيعة .

فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها .

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر وروائع الخيال وصميم الحكمة ، ولنتتبع طريقتهم فى الاستقصاء والتحقيق ، وأسلوبهم فى النقد والجدل ، وتأتّيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التى هى الحكمة بعينها .

* الغثاء : ما يحمله السيل من الهشيم ونحوه مما تحطم وتعفن ولا قيمة له ولا قوة فيه .

وأما فى العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب — وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا فى هذا المعنى وحده — والقوم فى نصف الأرض ونحن فى نصفها الآخر ، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف ؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نتسلخ من عادات القوم ؛ فإن هذا يؤدى بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا ، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أذواقنا الخاصة بنا ، ويطلق لنا الحرية فى الاستقلال الشخصى ؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التى رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نسائنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها فى طبقات الأمة إلا كالذى يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه . . . ؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوربيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية ؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم ، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما فى أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما ، ثم هو من أين اعتبرته وجدته فى فائدته للأوربيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة ؛ وهل نسى الشرقيون أن لا حجة للغرب فى استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟

وحيثما قلنا « الدين الإسلامى » فإنما نريد الأخلاق التى قام بها ، والقانون الذى يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا فى رأينا هو كل شىء لأنه الأول والآخر[1] .

* * *

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه فى الأصل الذى تحت أيدينا .

لا تجنى الصحافة على الأدب[1]
ولكن على فنيته

قالوا إن الأصمعى كان ينكر أن يقال فى لغة العرب (مالح)، ويقول إنما هو مِلح، وإن (مالح) هذه عامية؛ فلما أنشدوه فى ذلك شعراً لذى الرمَّة يحتجون به عليه قال: إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين بالبصرة زمانا . . .

يريد شيخنا هذا: أن (المالح) فى الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون، ولغتهم عامية مُزالة عن سَنَنها الفصيح، مصروفة إلى وجهها التجارى؛ ولكن كيف بات ذو الرمة فى حوانيت البقالين زمانًا حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه إليها الطبع العامى، ولم يخالط عربيته غيرُ هذه الكلمة وحدها؟ لم يقل الأصمعى شيئًا، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء، فلما كان بها استضاق فلم يُصب لجوفه غير الخبز، ولم يجد للخبز غير (المالح) يُسيغه به ليجد المسلك فى حلْقه، قالوا: فيأتى البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة)، ويعرفونه مُضيقًا إلى فرج، فيُنسئون له فى الثمن إلى أجل حتى يمتدح وينال الجائزة؛ قالوا: ثم يمطره الممدوح ويلوى به ولا يرى فى تلفيق العيش رُخْصًا إلا فى (المالح)، فيتتابع فى الشراء ويمضون فى إسلافه إبقاءً عليه وحسنَ نظر منهم لمنزلته وشعره، ويرى هو أن لا ضمان للوفاء بما عليه إلا نفسه، فما بُدٌّ أن يتراءى لهم بين الساعة والساعة، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم، وهم على طبعهم وهو على سجيته؛ ثم لا يقتضونه ثمنًا، ولا يزالون يمدون له، فلا يزال (المالح) أيسر منالاً عليه، كما هو إلى نفسه أشهى، وفى جوفه أمرأ، لمكان أعرابيته وخشونة عيشه، فيصيب عندهم مرتعة من هذا (المالح). قالوا: ثم يرى البقالون أن لا ضمان

---

(١) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله فى الرسالة؛ وانظر ص ١٩١ «حياة الرافعى».

لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم ، فيُلزمونه الحوانيت بياض يومه ، ويغلقونها عليه سواد ليلته ، فهم يمسكونه بالنهار وتمسكه الحيطان والأبواب بالليل !

فلما عظم الدَّين وبلغ الجملةَ التي فاتت حساب الأيام إلى حساب الأهلَّة أحضر الشاعرُ كربَه وهمَّه ، ولم يعد (المالح) ينجع فيه ، ولا يجد به غذاء ، بل حريقًا في الدم ، ورأى أنه قد امتحن بهذا (المالح) الخبيث وأشرط نفسه فيه وارتهنها به ؛ فلا يزال من (المالح) همٌّ في نفسه ، ومغص في جوفه ، ولفظ على لسانه ، ودين على ذمته ؛ ولا يزال مهمومًا به ؛ إذ كان على طريق من طريقين : إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس ، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر ؛ وحَبْس ذي الرمة في ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة ، ولكنه قتلٌ أو شر من القتل عند صاحبته (ميّة) إذا ترامى إليها الخبر ؛ والأعرابي الجلف الذي يُحبس في ثمن (المالح) عند الوالي بعد أن بات زمانًا رهنًا به في حوانيت البقالين لا يصلح عاشقًا لميّ وهي مَن هي : « لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي . . . » فلا (المالح) من غذائها ، ولا لفظ (المالح) من الكلام الذي يكون في فمها العذب ، وأبعَد الله جاريتَها الزنجية إن لم تأنف لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الخشن الذي ألحقه (المالح) باللصوص والغارمين ، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على سوادها في الناس ، فكيف بميّ وهي أصفى من المرآة النقية ، وأبيض من الزهرة البيضاء ؟

قالوا : ويصنع الله لغَيلان المسكين ، فيمدح وينافق ويحتال ، ويعده الممدوح بالجائزة إذا غدا عليه ، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها ، فينكفئ الشاعر إلى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيها أخرى لياليه ، ويغلقون عليه وقد سئموه آكلاً وماطلاً ، وهان عليهم فلا يعتدُّونه إلا فأراً من فئران حوانيتهم غير أنه يأكل فيستوفي ، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة ، بل ذا الغُسْمة . . . فلم يعطوه لعشائه هذه المرة إلا ما فسد وخبث من عتيق (المالح) ، فهو نتن يسمَّى طعامًا ، وداء يباع بثمن ، وهلاك يحمل عليه الاضطرار كما يحمل على

أكل الجيفة ؛ وكانوا قد وضعوه فى آنية قذرة مُستلجّنة طال عهدها بالغسل والنظافة وفيها بقية من عفن قديم ، فلصق بها مالصق وتراكب عليها ما تراكب ، ووقع فيها ما وقع .

ثم يتهيأ الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بركتها ، فيستجيب الله له ويفرّج عنه ، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه ، ولكن (المالح) الذى تغدى به كان قد أحرق جوفه وأضرم على أحشائه وهو فى صيف قائظ ، فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة ، والمصة بعد المصة ، حتى اشتفّ القدح وأتى عليه ، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جرّ عليه ! ثم يعضه الجوع فيكسر خبزته ويسمّى ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكرة ، فينظر فى الآنية وقد نفذ إليه الضوء من قنديل الحارس ، فإذا فى (المالح) خنفساء قد انفجرت شبعاً ، ويدقق النظرة فإذا دويبّة أخرى قد تفسخت وهرأها (المالح) وفَعل بها وفَعَل ! قالوا : وتثب نفسه إلى حلقه ، ولا يرى الطاعون والبلاء الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) ، فيتحول إلى كوة الحانوت يتنسم الهواء منها ويتطعّم الروح وهى مضبّبة بالحديد ، ولا يزال يراعى منها الليل ويقدره منزلة منزلة بحساب البادية ، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبّح العابد القائم فى جوف الليل ، ويطول ذلك عليه ، حتى إذا كان ينشق لمع الفجر لعينه ، فلا يراه الشاع إلا كالغدير يتفجر بالماء الصافى ويود لو انصب هذا الضوء فى جوفه ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح) ؛ ثم يأتى الله بالفرج وبصاحب الحانوت فيفتح له ، ويغدو ذو الرمة على الممدوح فيقبض الجائزة ، وينقلب إلى حوانيت البقالين فيوفى أصحابها ما عليه ؛ ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة ، فيخرج من البصرة على حمار اكتراه وقد فُتحت له آفاق الدنيا ، وكأنما فرّ من موتٍ غير الموت ، ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل ، ولكن اسمه (المالح) ! .

قالوا : ويحرّكه الحمار للشعر كما كانت تحركه الناقة ، فيقول : أخزاك الله من حمار بصرى ، إنْ أنت فى المراكب إلا (كالمالح) فى الأطعمة ! . ثم يغلبه الطبع وينزو به الطرب وتهزه الحياة ، فيهتاج للشعر ويذكر شوقه وحبه ودار ميّ ، وفى (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح) ، فيأتى هذا (المالح) فى

شعره ويدخل فى لغته ، فيقول الشعرَ الذى أهمل الأصمعىُّ روايتَه لأن فيه (المالح) وما أدرى أنا ما هو ، ولكن لعله مثل قول الآخر :

ولو تفلتْ فى البحر والبحر (مالح)   لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

أو مثل قول القائل :

بصرية تزوَّجتْ بصريا   يطعمها (المالح) والطريا

* * *

هذه هى الرواية التمثيلية التى تفسر كلام الأصمعى ، ولا مذهب عنها فى التعليل ؛ إذ صار (المالح) كلمة نفسية فى لغة ذى الرمة ، على رغم أنف الأحمر والأسود والأصمعى وأبى عبيدة ؛ فالرجل من الحجج فى العربية إلا فى كلمة (المالح) ، فإنه هنا عامى بقال حوانيتى نزل بطبعه على حكم العيش ، وغلبه ما لا بد أن يغلب من تسلُّط (واعيته الباطنة) * .

والحكمة التى تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة ، ولا بد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله ، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر ؛ وإذا كان فى النفس موضع من مواضعها أفسده العمل — ظهر فساده فى الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى ؛ فلا تنتظر من صحافى قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام ألا يكون له فى الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذى الرمة ، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وحدهم .

و (المالح) الذى رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا[1] أنه كتب فى إحدى الصحف عن ديوانٍ هو فى شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوقى وحافظ رحمهما الله ، فيأتى بالمجاز بعد الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر ، ثم يقول : هذا عجيب تصورُّه . لا أعرف ماذا يريد . البِلى للشعاع غير مقبول ؛ ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله : « والأصل فى

* وضعنا هذه الكلمة لما يسمى (العقل الباطن) ، وهى أدق فى التعبير تستوفى كل معانى الكلمة ، ولا معنى لأن يكون هناك عقل ، ثم يكون باطناً غافلا ؛ فإن هذا لا يسوغه الاشتقاق .

(١) يعنى المازنى ، وكان له نقد لديوان « الملاح التائه » .

الكتابة أنها للإفهام ، أى نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس ؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والإبهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء ؛ وإذا كنت تستعمل اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد به فكيف تتوقع منى أن أفهم منك ؟

لا ، لا ، هذا (مالح) من مالح الأدب ، فإذا كان الضعف والإبهام والركاكة وسوء الإفهام وضعف الأداء — آتية فى رأى الكاتب من استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريدَ له — فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها مأتًى كذلك إلا استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له .

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع فى قوله تعالى : « وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا » ؟

أتراه يقول : كيف قدِم الله ، وهل كان غائبًا أو مسافراً ، وكيف قدم إلى عمل ، وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع فى هذه الآية : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، أيسأل : وهل للأرض حلق تحرِّكه عضلاته للبلع ، وإذا كان لها حلق أفلا يجوز أن تَرْمَى فيه فتحتاج إلى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول فى حديث البخارى : « إنى لأسمع صوتًا كأنه صوت الدم ، أو صوتًا يقطر منه الدم — كما فى الأغانى — » أيوجِّه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ، ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجرى الدم فيها ؟

إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هى البلاغة وإن كانت منها ، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات فى الأدب ، إذ هى من هذه الناحية لا يُقدح فيها ولا يُغض منها ، وما قصرت قط فى نقل خاطر ولا استغلقت دون إفهام .

ههنا خوانٌ فى مطعم كمطعم (الحاتى) مثلا عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافًا مصنَّفة ، وآخر فى وليمة عرس فى قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن

فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل، أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا في الثاني ؟ ولكن أي تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فني ليس إلا ، به ينضاف الجمال إلى المنفعة ، فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزيّن المائدة والنفس معاً ؛ وهو كذلك تعقيد فني لاءم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر ، وجاء بروح الموسيقى التي يقوم عليها الكون الجميل فبثها في هذه الأشياء التي تقوم بها المائدة الجميلة ، واستنزل سرّ الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً متصلا بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلا بالمائدة .

وهذا التعقيد الذي صور في الجماد دقة فن العاطفة ، هو بعينه فنّية السهولة وروحيّتها ؛ وتلك السذاجة التي في المائدة الأخرى هي السهولة المادية بغير فن ولا روح ، وفرقُ بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به ، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف !

والوجه في الشوهاء وفي الجميلة واحد : لا يختلف بأعضائه و لا منافعه ، ولا في تأديته معاني الحياة على أتمها وأكملها ؛ بيْد أن انسجام الجميل يأتي من إعجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه ، وجعْله بكل ذلك يُظهر فنّه النفسي بسهولة منسجمة هي فنيّته وروحيته ؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يُظهر منه شيئاً ؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسي الذي هو تعقيد فن التناسب ، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير ، إلى ما يستدير وما يعرُض ، إلى ما ينتأ من هنا وينخسف من هناك ، كالوجنة البارزة ، والشدق الغائر ؛ فهذه السهولة المطلقة في الوضع كما يتفق ، هي بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذي لا محل فيه للفظة (كما يتفق) .

والطريقة التي يكون بها الجمال جميلا هي بعينها الطريقة التي يكون بها البيان بليغاً ، فالمرجع في اثنيهما إلى تأثيرهما في النفس، وأنت فقل : إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم ، وذاك سهل والآخر معقد ، وواضح ومغلق ، ومستقيم على طريقته ومحوَّل عن طريقته ؛ إنك في ذلك لا تدل على شيء تعيبه أو تمدحه في الجمال أو البلاغة أكثر مما تدل على ما يُمدح أو يُعاب في نفسك وذوقها وإدراكها .

ومعانى الاختلاف لا تكون فى الشىء المختلَف فيه ، بل فى الأنفس المختلفة عليه ؛ فإن محالا أن تكون الجميلة ممدوحةً مذمومةً لجمالها فى وقت معًا ، وإلا كانت قبيحة بما هى به حسناء ، وهذا أشد بعداً فى الاستحالة ، وحكمك على شيء هو عقلك أنت فى هذا الشىء .

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدتَ دواعى الاستحسان فى أنفسهم مختلفة ، وكذلك هم فى دواعى الذم إذا عابوا ؛ ولكن متى تعينت الوجوه التى بها يكون الحكم ، ورجع إليها المختلفون ، والتزموا الأصول التى رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم فى الذوق والفهم ، فذلك ينفى أسباب الاختلاف لما يكون من معانى التكافؤ وخاصة المناسبة ، ولهذا كان الشرط فى نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع فى بيانه لم تفسده نزعة أخرى ، وفى نقد الشعر أن يكون من شاعر علت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعة أخرى تفسده .

وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوهامن أساليب البلاغة إلاأسلوب طبيعى لا مذهب عنه للنفس الفنية ؛ إذ هى بطبيعتها تريد دائمًا ما هو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو أدق؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلّفًا وتعسفًا ووضعًا للأشياء فى غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة فى التأدية وتمحل لا عبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ؛ فمن ثم لا تكون الزيادة فى صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة فى شعور النفس ؛ ومن ذلك يأتى الشعر دائمًا زائداً بالصناعة البيانية ، لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعيًا فى الطبيعة إلى أن يكون روحانيًا فى الإنسانية ، والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد ، والبيان فى صناعة اللغة يقابل هذا النحو ، فتجد من التعبير ما هو حى متحرك ، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت ؛ وبهذا لا تكون حقيقة المحسّنات البيانية شيئًا أكثر من أنها صناعة فنية لا بد منها لإحداث الاهتياج فى ألفاظ اللغة الحساسة كى تعطى الكلماتُ ما ليس فى طاقة الكلمات أن تعطيه .

لقد تكلموا أخيراً فى جناية الصحافة على الأدب ، والصحافة عندى لا تجنى

على الأدب ، ولكن على فنيته ؛ فلها من الأثر على سليقة البليغ وطبعه قريب مما كان لحوانيت البقالين فى البصرة على طبع ذى الرمة وسليقته ، وكلما قرب الصحافى من الصنعة وحقها على الجمهور ، بعد عن الفن وجماله وحقه على النفس ، وهذا واضح بلا كبير تأمل ، بل هو واضح بغير تأمل . . .

صعاليك الصحافة . . .

١

لما ظهر كتابي (وحى القلم)[1] حملت منه إلى فضلاء كتابنا فى دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرءُوه ويكتبوا عنه ، وأنا رجل ليس فىَّ أكثر مما فىَّ ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع ؛ فما أعلم فى طبيعتى موضعًا للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة ، ولا مكانًا من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة ، ولست أهدى من كتبي إلا إحدى هديتين: فإما التحيةُ لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم ، وإما إنذار حرب لغير هؤلاء !

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ، ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجةٌ إلى من ينكرها ويردها ، كحاجتها إلى من يقرّبُها ويقبلها ، فهي بأحدهما تثبت وجودها ، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار .

والشعور بالحق لا يخرس أبداً ؛ فإذا كانت النفس قوية صريحة مرَّ من باطنها إلى ظاهرها فى الكلمة الخالصة ، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما ؛ وإذا كانت النفس ملتويةً اعترضته الأغراض والدخائل ، فمرَّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر فى الكلمة المقلوبة ؛ إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحسد ونحوه ، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعًا .

* * *

وكنت فى طوافى على دور الصحف والمجلات أحس فى كل منها سؤالا يسألنى به المكان : لماذا لم تجئْ ؟ فإنى فى ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل فى الصحافة ، وأنا يومئذ متعلم ريِّض ومتأدب ناشئٌ ، ولكن أبى رحمه الله ردّنى عن ذلك ووجّهنى فى سبيلى هذه والحمد لله ، فلو أننى نشأت صحافيًا لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة فى الطبع . . .

---

(١) يعنى الجزأين الأول والثانى فى طبعتهما الأولى .

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهى كلما تمّت نقصت ، وكلما نقصت تمت ؛ إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرءُونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين ؛ وهى بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ؛ فتمامُها بمراعاة قواعد النقص فى القارئ . . . وما بدٌّ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة نفسها ، فهى معه كالزوجة التى لم تلد بعدُ ، لها من رجُلها من يأمرها ويجعلها فى حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم فى طاعتها ورأيها وأدبها ؛ ثم هى عمل الساعة واليوم ، فما أبعدها من حقيقة الأدب الصحيح ، إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان .

ولا يقتل النبوغَ شىء كالعمل فى هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ (ما يجب كما يجب) ؛ ودأبه العمق والتغلغل فى أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أما هى فأساسها (ما يمكن كما يمكن) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير .

فليس يحسن بالأديب أن يعمل فى هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على « الخريطة » ، لا كالمدينة فى الدولة فى الخريطة ؛ فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله . . . ثم هو يمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجاً من تيجانها لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تـُلقى أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛ إذ كان الرجل السياسى هو صوت الحوادث سائلا ومجيباً ، ثم يليه الرجل شبه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلى . . . والأديبُ العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنه عندنا فى الصحافة وراء هؤلاء جميعاً ! .

* * *

ولما فرغت من طوافى على دور الصحف جاءت هى تطوف بى فى نومى فرأيتنى ذات ليلة أدخل إحداها لأهدى (وحى القلم) إلى الأديب المتخصص فيها

للكتابة الأدبية ؛ ودلونى عليه فإذا رجل مربوع مشوَّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين ، تدوران فى محجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة مذ كان جنيناً فى بطن أمه ، لأنه خلق للإحساس والوصف ، أوكأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ فى فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل فذ أُرسل لتدقيق النظر .

وقال الذى عرَّفنى به : حضْرتُه عمرو افندى الجاحظ . . . وهو أديب الجريدة .

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟

فضحك الجاحظ وقال : وأديب الجريدة ، أى شحاذ الجريدة ، يكتب لها كما يقرأ القارئ على ضريح : بالرغيف والجبن والبيض والقرش . . .

قلت : إنا لله ! فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا ؟ وكيف خبِسْتَ فى الصحافة وكنت رأساً فى الكلام ؟

قال : نجحتْ أخلاقى فخابت آمالى ، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس ؛ والمصيبة فى هذه الصحف أن رجلا واحداً هو قانون كل رجل هنا .

قلت : وذاك الرجل الواحد ما قانونه ؟

قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ، والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين وهو . . .

قلت : وهو ماذا ؟

فحملق فىَّ وقال : ما هذه البلادة ؟ . وهو الذى « هو » ... أما ترى الصحيفة ككل شىء يباع ؟ وأنت فخبِّرنى — ولك الدولة والصولة عند القراء — ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش ، لكنت فى نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدى ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان ، فماذا تكتب هنا ؟

قال : إن الكتابة فى هذه الصحافة صورة من الرؤية ، فماذا ترى أنت فى . . .

وفى . . . وفى ؟ . . . لقد كنا نروى فى الحديث : « يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها » ؛ فلعلّ من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة . . .

قلت : ولكناك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة .

قال : القراء ما القراء ، وما أدراك ما القراء ! وهل أساس أكثرهم إلا بلادة المدارس، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السياسة ؟ إن الإبداع كل الإبداع فى أكثر ما تكتب هذه الصحف ، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة ... وما دام المبدأ هو الكذب، فالمظهر هو الهزل؛ والناس فى حياة قد ماتت فيها المعانى الشديدة القوية السامية، فهم يريدون الصحافة الرخيصة، واللغة الرخيصة، والقراءة الرخيصة ؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة) .

* * *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ، فنهض إليه ، ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان ، بل خارجتان . . . وقال : أفّ ! « وحَبِط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون » .

« كلاّ والذى حرّم التزيُّدَ على العلماء ، وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبَهْرَجَ الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضل سعيُه » *

قلت : ماذا دهاك يا أبا عثمان ؟

قال : ويحها صحافة ! قل فى عمك ما قال المثل : جَحَظ إليه عمله ** .

قلت : ولكن ما القصة ؟

قال : ويحها صحافة ! وقال الأحنف : أربعٌ من كنّ فيه كان كاملا ، ومن تعلّق بخَصلة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، أو عقل يسدّده ، أو حسَبٌ يصونه ، أو حياء يقناه » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يجاهده ، وشيطان يفتنه . وأربع ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ فى الله » . وقال الحسن بن على *** . . .

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

** يريدون أنه إذا نظر فى عمله رأى سوء ما صنع .

*** هذه طريقة الجاحظ ، يخلط الكلام دائما بالنقل .

قلت : يا شيخنا ، دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف ؛ فماذا دهاك عند رئيس التحرير ؟

قال : لم أحسن المهاترة فى المقال الذى كتبته اليوم . . . ويقول رئيس التحرير : إن نصف التمويه رذيلة ؟ فإن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه . ويقول : إن سموّ الكتابة انحطاط فصيح ، لأن القراء فى هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء ، بل من الروايات والمجلات الهزلية . وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع فى النفس قانون النفس ، ويجعل معانيها مهيَّأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعانى الكبيرة فى الدين والفضيلة والجِد والقوة ؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات المغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهى ؟

ويقول رئيس التحرير : إن الكاتب الذى لا يسأل نفسه ما يقال عنى فى التاريخ ، هو كاتب الصحافة الحقيقى ، لأن القروش هى القروش والتاريخ هو التاريخ ؛ ومطبعة الصحيفة الناجحة هى بنت خالة مطبعة البنك الأهلى ؛ ولا يتحقق نسَبٌ ما بينهما إلا فى إخراج الورق الذى يُصْرَف كله ولا يُرد منه شىء !

إنهم يريدون إظهار المخازى مكتوبة ، كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها ؛ يزعمون أنها أخبار تُروى وتقَص للحكاية أو العبرة ، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء . . .

* * *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

صعاليك الصحافة . . .

٢

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعةٍ ، ثم رجع تدور عيناه فى جحاظَيْهما وقد اكفهَرَّ وجهُه وعبَس كأنما يجرى فيه الدمُ الأسود لا الأحمر ، وهو يكاد ينشقُّ من الغيظ ، وبعضُه يَغلى فى بعضه كالماء على النار ؛ فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَيْ أنفه تَتَمشَّان كآبة وجهه المشوَّه ، فكان منظرهما من عينيه السَّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما ؛ فقلت له : يا أبا عثمان ، هاتان ذبابتان ، ويقال إن الذباب يحمل العدوَى .

فضحك ضحكة المَغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول فى هذه الجرائد حشَرات من الألفاظ : منها ما يُستقذَر وما تنقلب له النفس ، وما فيه العدوَى ، وما فيه الضرر ؛ وما بدٌّ أن يعتاد الكاتب الصحافى من الصبر على بعض القول مثلَ ما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات فى ثيابه ؛ وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلامًا لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخفَّ عليه وأهون ، وكان ذلك أصرَح فى معنى الطلب والتكليف * .

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لو مسخه الله شيئًا غير الحروف المطبعية ، لطار كله ذبابا على وجوه القراء ! .

قلت : ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطَلِّقًا إلى رئيس التحرير ورجعت متعقداً فما الذى أنكرت منه ؟

---

* هذه طريقة الجاحظ فى الإغراق حين يتهكم .

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغريرُ والجاهلُ بعواقب الأمور ، لبطل النظرُ وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها »* ، هناك رجل من هؤلاء المتعنيين بالسياسة فى هذا البلد . . . يريد أن يخلق فى الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفق لها من المنطق رُقَعًا كهذه الرقع فى الثوب المفتوق ؛ ثم لا يرضى إلا أن تكون بذلك ردًّا على جماعة خصومه وهى رد عليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر فى المستنقع الراكد .

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عملك أبى عثمان فى لطافة حسّه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ، ولا من المميِّزين فى الرأى ، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة ؛ وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفى . . . كحروف المطبعة : ترفع من طبقة وتوضع فى طبقة وتكون على ماشئت ، وأدنى حالاتها أن تمد إليها اليد فإذا هى فى يدك .

وأنا امرؤٌ سيدٌ فى نفسى ، وأنا رجلُ صدق ، ولست كهؤلاء الذين لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ فى مثل هذا انتقض طبعى وضعفت استطاعتى وتبيّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ فى الجهتين ؛ فلا يطّرد لى القول على ما يرجو ، ولا يستوى على ما أحب ؛ فذهبت أناقضُه وأردّ عليه ؛ فبُهِتَ ينظر إلىّ ويقلب عينيه فى وجهى ، كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادمِ مطبخه وطعامه ، هذا من هذا ! .

ثم قال لى : يا أبا عثمان ، إنى لأستحى أن أعنفك ؛ وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب . . . مالك كلّ يوم ظالما والظلمُ أنكَدُ وجهُه ملعون . . .

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

وما بين من لم يُعطِ سمعًا وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حزّ الغلاصمِ

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

وحزّ الغلاصم « وقطعُ الدراهم» من قافية واحدة . . . وقال سعيد بن أبي عُروبة « لأن يكونَ لي نصفُ وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر — أحبُّ إليّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختياني . . .

وهمّ شيخنا أن يمرّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير . . . ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، وهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ فكما انقلبت العصا حيّةً تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ؛ فتكون للتهويل ، وهي في ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة : ولو نَفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس ؛ فإن العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه ، ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذِقْهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقًا وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحقّقوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودقّقوا . . .

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للإعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع . . .

* * *

قلت : يا شيخنا ، فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب : تُقرأ فيها معانٍ لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلبُ ما يُستَحى منه . . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات ،

فالأبيض أسود فى الليل ، والأسود أبيض فى النهار ؛ ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعانى ؟

قال : بلى ، نِعم الشاهد هو وأمثاله ! . إنهم مصدّقون حتى فى تاريخ حفر زمزم .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرّح شهادته ، فقال للقاضى : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم ؛ فاسأله أيها القاضى عن زمزم كيف هى ؟ قال الشاهد : لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .

قال أبو عثمان : فهذه هى طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه : ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا فى الصحف لنفى المنفى وإثبات المثبّت ، لا عملا يعملونه بالنفى والإثبات ؛ ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق ، فلايكون الشأن حينئذ فى إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يُترخّص فيها ما دام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، وما دامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة ؛ وقد كان العمل السياسى إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا فى الحياة مغلوطة ؛ ومن ثم كان الخلق القوى الصحيح هو الشاذ النادر يظهر فى الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ، وذلك هو السبب فى أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن الممارى أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها ، وصاوت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافيًّا . . .

يا لَعبادِ الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعًا فى « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرف

« المحليّات » إلا به ؟ وهذا طبيعى ، ولكن فى طبيعة النفاق ؛ وهذا واجب ، ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب ؛ ولو أن للأديب وزنًا فى ميزان الأمة لكان له مثل ذلك فى ميزان الصحافة ؛ فأنت ترى أن الصحافة هنا هى صورة من عامية الشعب ليس غير . . . ومن ذا الذى يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها وأكثر الألقاب عندنا هى أغلاط فى معنى الشرف . . . ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت فى بارجة (أميرال) إنجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درْجا من الورق وهو يخطط فيه رسماً من رسوم الحرب ؛ ونظرتْ فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! . ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وَنِيمَها* هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن . . .

* * *

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئًا قال :

لو أننى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطئ فلن أخطئ فى وضع النفاق تحت عنوانه .

قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ما هى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل .

ما هى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر .

ما هى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب .

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى إلا « صعاليك الصحافة » من أمثال الجاحظ ؛ ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين ، و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

* ونيم الذباب : هو . . . أى هذه النقط السود التى يحدثها .

صعاليك الصحافة

٣

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان فى هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير فى عملٍ وأدائه ، بل كان عند رئيس الشُّرطة فى جنايةٍ وعقابها ؛ فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً شوَّه تشويهه وزاد فيه زياداتٍ . . . ورأيته ممطوط الوجه مطّاً شنيعاً بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستترتين فى وجهه ، بل معلقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هذا باب على حِدَةٍ فى الامتحان والبلوى ، وما فيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعملُ فى هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير ! « وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذى لا يتجزأ على بنُ أبى طالب عليه السلام ! فقال له أبو العيناء محمد : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ! قال : بلى ، حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ .

« فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأئمة أجزاءً لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ » * .

قلت : ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير . . .

---

* هذه الجملة من كلام الجاحظ

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان ؛ وأن فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوَّر فى صيغة تلائم جوعَ الشعب فتجعله كالخبز الذى يَطعمه كل الناس ، وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل وطبيعةً كطبيعة الهضم . . . وقد رمى إلىَّ رئيس التحرير بجملة الخبر ، وعلىَّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل الترابَ دقيقًا أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويَسوغ فى الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى فى العروق .

وإذا أنا كتبت فى هذا احتجتُ من الترقيع والتمويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الخِبِّ والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعطِّل فى إقامة البرهانات على صحة مذهبٍ عَرف الناس جميعًا أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلومًا من الدين بالضرورة ، أنه فاسد ؛ وأين ترى إلا فى تلك النِّحَل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكِر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكَّدة ؛ يأخذونها إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم : يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئًا ، ويُلقَى إليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يَرُد على من أعطاه .

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقًا أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبتُ فيه لهذه الصحيفة نفسها أنقضه وأسفّهه وأرد عليه ، وكان يومئذ جزءاً يتجزأ . . . فإن صنعتُ اليوم بلاغتى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى ، ولا حائلا بينى وبين ذات نفسى — فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيبًا للجاحظ ، آه لو وُضع الرديو فى فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان ، هذا كقولك : لو وضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات .

قال : ليس هذا من هذا ، فإن للجيش معنى غير الحذق فى تدبير المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفى أسراره أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلاناً ارتفع وأن فلاناً انخفض ، ولا تصرّفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفى أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظام وجودها .

قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هى لا تريد أن تذهب أموالها فى إيجاده وتنشئته ؛ وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن فى تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة . . . ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعى الذى وضعت له ، فإن الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهى من ثم لسان الشعب ؛ وإنما يقرؤها القارئ ليرى كلمته مكتوبة ؛ وشعور الفرد أن له حقاً فى رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع ، هو الذى يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم .

قال أبو عثمان : فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها ؛ فهو مشارك فى الرأى لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأى ، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هى من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر ، فيُلزمها الصدق ويطالب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتى إليه فى مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين فى داره .

وفى قلة القراء عندنا آفتان : أما واحدة فهى القلة التى لا تغنى شيئاً ؛ وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، وزراية أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب ؛ وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين : وهى أن أكثرهم لا يكونون فى قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلهّون به ، أو كالفُراغ يلتمسون ما يقطعون به

الوقت ؛ فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها ، ويتعاطون الجد تعاطى من يلهو به . ويتلمون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير ؛ وهم كالمصلين فى المسجد ؛ فمثل لنفسك نوعاً من المصلين إذا اصطفوا وراء الإمام تركوه يصلى عن نفسه وعنهم وانصرفوا . . .

قال أبو عثمان : بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له إلا فى الموضع الذى تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشوات وبيكوات . . . وكان من الطبيعى أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا فى موضع قلب الحى من الحى .

ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها . فإذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال) .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاد متهللا ضاحكاً وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلىّ وهو يقول :

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال : كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد ، فإذا نحن زهدنا فى الألقاب وأصغرْنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنسانى وتركت من لم ينلها من ذوى الجاه والغنى يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة . . . وقلنا إنها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر ، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها فى عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كالرقعة من جلد الدولة يُرقع بها الصدر الذى شقوه وانتزعوا ضميره —

إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب الذى يحكم لنا ، ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذين يحكمون علينا ؛ فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محامٍ إلى قاضٍ ضعيف .

يا أبا عثمان ، إنما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة ... فالفكرة الأولى للصحيفة ، والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضًا ؛ ومتى جاء الشعب الذى يقول : لا ، بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة – فيومئذ لا يقال فى الصحافة ما قيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . . .

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئًا من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق عليك ألا تثلُبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة .

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو ، وفى مثل هذا لا يكون عملك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) ؛ إن الرجل اشتبه فى كلمة : ما وجهها : أمرفوعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ما هى : أعربية أم مولدة ؟ وفى تعبير أعجمى : ما الذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقها أفصَح أم يُبدلها ؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئًا إلا إذا نطق . . .

ولقد ابتُليتْ هذه الأمة فى عهدها الأخير بحب السهولة مما أثَّر فيها الاحتلال وسياسته وتحمُّله الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر ، فشبه العامية فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شىء يتحول بما تُحدث له طبيعته عاليًا أو نازلا ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية فى كتابة أكثر المجلات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفد أراد أن يحمل مأكلة صغاره ، فقرض عنقوداً من العنب ، فألقاه فى الأرض وأترب به وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة فى عشرين إبرة من شوكة .

* * *

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً ثم دفعها إلى وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة . فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فتاة عذراء » ، « مودة الراقصات الصينيات » ، « تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها » ، « هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب ، وإذا كانت ملابس داخلية . . . فهل تعتبر وعداً بالزواج ؟ » ، « هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته . . . بتعويض إذا كانت ابنته غير شرعية » ، « بين خطيبتين لشاب واحد » ، « بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة . . . لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » ، « عروس تأخذ (شبكة) من شابين ثم تطردهما » ، « زوجة الموظف أين ذهبت » ، « لماذا خُطفت العروس فى اليوم المحدد للزفاف ؟ » « فى الطريق : حب بالإكراه » ، « فلانون وفلانات ، زواج وطلاق ، وأخبار المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة » إلخ إلخ .

فقال أبو عثمان : هذه هى حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعياً فى قانون الصحافة إنه لإثم كبير فى قانون التربية ؛ فإن الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . « وباب آخر من هذا الشكل فبكُم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا ، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلبَ كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى إزالته .

ومتى ألقى إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات فى وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . . » *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

صعاليك الصحافة**

تتمة

وجاء أبو عثمان وفى بُروز عينيه ما يجعلهما فى وجهه شيئاً كعلامتى تعجُّب ألقتهما الطبيعة فى هذا الوجه ، وقد كانوا يلقبونه (الحَدَقى) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحداً لا يبيّن عن قبح هذا النتوء فى عينيه إلا بمرادف ومساعد من اللغة . . . وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

وانحطَّ فى مجلسه كأن بعضه يرمى بعضه من سخطٍ وغيظ ، أو كأن من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه فى خروجهما كأنما تهمَّان بالفرار من هذا الوجه الذى تحيا الكآبة فيه كما يحيا الهمّ فى القلب ؛ ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعتُ عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان ، رجعتَ من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً ؛ فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أنى ناقص ، وههنا شىء لا أقوله ، ولو أن فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لوقفوا على عملك وأمثال عملك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء ! .

وقال ابن يحيى النديم : دعانى المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدنى قول عمارة فى أهل بغداد . فأنشدته :

** كتب الدكتور زكى مبارك مقالا فى جريدة المصرى الغراء زعم فيه أننا قلنا « إن الصحافة لا تنجح إلا فى أيدى الصعاليك » ولا ندرى كيف أحس هذا المعنى ، ثم تهددنا ! ! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولعله يعنى نفسه) فى معركة فاصلة ! ! ورماك بحب التكلف والافتعال فى عالم الإنشاء والتأليف » ؟ « ما رأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعنى نفسه) على عاتقه وألقى بك فى هاوية التاريخ لتعيش مع صعصعة بن صوحان » ؟ — أبلغ خطباء العرب وأنطقهم .

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التى تبيع لعب الأطفال ، ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ولا « هاوية تاريخ » . . .

ومن يشترى منى ملوك مخرّم ... أبعْ حسنًا وابنىْ هشامٍ بدرهم
وأعطى «رجاءً» بعد ذاك زيادة ... وأمنحُ «ديناراً» بغير تندُّم

قال أبو عثمان :

فإن طلبوا منى الزيادة زدتُهم ... أبا دُلف والمستطيلَ بن أكثم

ويلى على هذا الشاعر! اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما لعظم الدرهم ، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم : كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتّابا ، ولكن ههنا شيئًا لا أقوله .

وزعموا أن كسرى أبرويز كان فى منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة ، فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم ، فإن أمرت بها لرجل من الوجوه قال : إنما أمر لى بمثل ما أمر للصياد ! فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟ فإن قال أنثى ، فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بقرينها ، وإن قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى؟ قال : بل أنثى ، قال الملك : فأتنى بقرينها . فقال الصياد : عمر الله الملك ، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان ، فهل وقعت فى مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عملك أن سمكته كانت بكراً ، فإنما يريدون إخراجه من الجريدة ؛ وما بلاغة أبى عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن ههنا شيئًا لا أريد أن أقوله .

وسمكتى هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان ، وجعلتها فى البلاغة طبقة وحدها ، وقبل أن يقول الأوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : « الكتّاب ملوك

على الناس » ، فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكًا بتلك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس فى زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هى إلا الشمس الضاحية ، وما هى إلا أشواق ولذات . وما هى إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هى إلا هى ؛ فإذا العروس عند رئيس التحرير هى المطلقة ، وإذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظريًّا فنعم ، وأما عمليًّا فلا ؛ وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامى يريد العامى ، وجمهور سهل يريد السهل ؛ والفصاحة هى إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهى اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت فى علم النحو .

وحسبُك من الفرق بينك وبين القارئ العامى : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن .

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر العامى فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافى كله سوقيًّا بلديًّا (حنشصيًّا) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن فى الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ؛ والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ، ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة .

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هى إلا طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها ، ولو كان فى قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً ؛ والمصيبة فى هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم ، ونحن إنما نعمل فى هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجودنا السياسى عدما ؛ ثم لملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة ؛ وهذا أيضًا مما جعل عمك أبا عثمان فى هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) ، وتركه فى المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه فى أمس وكأنهم فى غد .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

فما شككت أنهم سيطردونه ، فإن الله لم يرزقه لسانًا مطبعيًّا ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلوّن ، ولا كهؤلاء الأدباء الذين يتم بهم التضليل ويتشكل .

ورجع شيخنا كالمخنوق أُرخى عنه وهو يقول : ويلى على الرجل ! ويلى من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليَدفع فى القفا . . . كان ينبغى ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة ؛ فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتاب جميعًا ؛ أما فى هذه الصحف ، فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ؛ ولو أن عملك فى خفض ورفاهية وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتُهم إليه ؛ ولكن السيف الذى لا يجد عملا للبطل ، تَفضُله الإبرة التى تعمل للخياط ، وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك ما لا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ؛ إذ يملك عقله وبيانه ، على أنه مستأجَر هنا بعقله وبيانه ، يعقل ما شاءوا ويكتب ما شاءوا .

لك الله أن أصدقك القولَ فى هذه الحرفة اليومية : إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثلَ البارود فى دماغه ثم أشعله ، فأردت أن أمازحه وأسرّى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان ، جاءتنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب فى عرض دعواه أن جار بيته غَصَبَه قطعة من أرض فِنائه الذى تركه حول البيت ، وبنى فى هذه الرقعة داراً ، وفتح لهذه الدار نافذات ، فهو يريد من القاضى أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . . و . . . وسد نافذاتها المفتوحة ! . . .

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب فى الصحافة ؛ كثرت ألفاظه ونقص عقله ، « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شرًّا من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ،

كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض» *
والأدب وحده هو المتروك فى هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه؛ إذ كان أرخص ما فيها، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ، وصفحة الأدب وحدها هى التى تظهر فى الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد: تأكل منه ولا تعطيه شيئًا.

ثم يأبَى من تُترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتًا من نعوت العبقرية إلا نَحَلَه نفسه ووضعه تحت ثيابه؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشى الأخبار.

وقد يكون الرجل فى كتابته كالعامة، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب، قال: هذا ما يلائم القراء، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدّعى لنفسه وما يهوّل به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فإذا كذّبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمنى، وهو واثق أنه فى نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة، فإذا هم جميعًا يقولون: تك تك ... تك ... تك ....

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب، كلّه سواء وكله بيانًا ** وكان المكى طيبَ الحجج، ظريفَ الحيل، عجيب العلل، وكان يدّعى كل شىء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئًا قط من الجليل ولا من الدقيق؛ وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه، قلت له مرة: أعلمت أن الشارى حدثنى أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب؟

قال: فإن هذا الحديث أنا ولدته، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق ... ***

---

* هذه الجملة من كلام الجاحظ.

** و *** هذا من كلام الجاحظ.

ثم قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف فى تاريخ الأدب اكتشافـًا أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون ، فنظر عمك فى هذا الذى ادعاه ، فإذا الرجل على التحقيق كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا فى كتاب من كتب الجغرافيا[1] . . .

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور فى الصحف ، لا بأنه صدق ، ولكن بأنه « مكتوب فى الجريدة » . . . فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب — متى كان مغروراً — أنه إذا تهدد إنسانـًا فما هدده بصفحته ، بل بحكومته . . .

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة ؛ ولكن ويحك : إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا ! . . . . . .

* * *

وضحك أبو عثمان وضحكت ! فاستيقظت .

---

(١) يعنى زكى مبارك فى دعوى معرفته أول من اخترع فن المقامات .

أبو حنيفة ولكن بغير فقه ![1]

قد انتهينا فى الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبًا ، وكل من عد نفسه أديبًا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول فى مذهبه ويرد على مذهب غيره .

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور فى الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد ، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعى ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث ؛ أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدبًا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرّفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ؛ إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غيرَ تقليد ، وتقليدٍ غيرَ اتباع ، واتباع غيرَ تسليم ؛ فلا بد من الرأى ونبوغ الرأى واستقلال الرأىِّ حتى يكون فى الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحىَّ الجالس فى كل حى هو مجموعه العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الإنسانى يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى مثل ما أبدعت ذراتُ الخليقة فى تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلِّد الإلهى * .

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل

---

(١) وهذا فصل من المعركة الأخيرة بينه وبين زكى مبارك .

* استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الأدب والأديب » .

تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو فى مكان بينهما ؟

هذه معان لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخًا طويلاأمرٌ فيه بعظام مبعثرة فى ثيابها لا فى قبورها . . . ولكنى موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمتنازع الرأى والخلط والاضطراب فى كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل فى الأسلوب أسلوبٌ تلغرافى ، وفى الفصاحة فصاحة عامية ، وفى اللغة لغة الجرائد ، وفى الشعر شعر المقالة ؛ ونجمت الناجمة من كل علة ويُزيَّن لهم أنها القوة قد استحصمت واشتدت ، ونازع الأدب العربى إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقًا دَعِيًّا فى آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوءُ النظر له على حين يؤتَّى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسنِ الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه .

أين تصيب العلَة إذا التمستها ؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم فى القائمين عليه فى مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تُقل إنها فى اللغة والأساليب والمعانى والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليَّةَ من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبتْ واتسعت ومادَّت العصورَ الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤتَ من ضيق ولا جمود ولا ضعف ثم هى مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضعَ يدَه منها حيث يملأ كفَّه أو حيث تقع يدُه على حاجته .

وإن قلتَ إن العلة فى الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألناك : ولمَ قصَّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح فى كتبه مقامَ أمة من أهله أعرابًا وفصحاء وكتَّابًا وشعراء ، ومع انفساح الأفق العقلى فى هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ، حتى لتجد عقول نوابغ القارَّات الخمس

تُحتقَب فى حقيبة من الكتب ، أو تُصَندَقُ* فى صندوق من الأسفار .

كيف ذهب الأدباء فى هذه العربية نشراً متبدّدين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلٌّ أعلى وكل أسفل ؟ هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيِّه وغربيِّه وهو ينظمه ويفتنُّ فى أغراضه ويولِّد ويسرق وينسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذى فقدته كل أمة من تاريخها ووقع فى تاريخ العربية وحدها ابتلاءً ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا فى لغات غير العربية لظهروا نجومًا ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى ، وتقرأ شعره فإذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً .

وهذا فلان الكاتب الذى والذى . . . والذى يرتفع إلى أقصى السموات على جناحَى ذبابة .

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى ! وهذا فلان وهذا فلان . . .

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفًا أو ألفين ، ومتى قال الناس : غلطوا ، فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء فهم سخفاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها ، نافرة لا مساغ إليها ، متهمة لا ثقة بها ؛ طبيعة يتحول كل شىء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماءُ الشجر فى العود الرطب المشتعل إلى دخان أسود ! ..

* * *

يرجع هذا الخلط فى رأيى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقى يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ؛ فإن مثل هذا الإمام يُخَصّصُ دائمًا بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلَبة والتى تعطى القوةَ على قتل الصغائر والسفاسف ؛ وهو إذا أُلقِى فى الميزان عند

---

* كلمة وضعناها على قياس تحتقب .

اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليّات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمّ تتهيأ قوة الترجيح ويتعيّن اليقين والشك ؛ والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجّح ولا يعيّن .

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنسانى فى أكثر الخلاف الإنسانى : تقوم به الحجة ، فتلزم وإن أنكرها المنكِر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرّ المصِرُّ على غيرها ، لأن بالإجماع على القياس يبين التطرفُ فى الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَبَ ضرب المعصيةَ بالطاعة ، والزيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسْمُه ، ويزيغ مَنْ يزيغ وفيه صفتُه ، ويصِرُّ المكابر واسمُه المكابر ليس غير ، وإن هو تكذّب وتأوّل ، وإن زعم ما هو زاعم .

ولكل القواعد شواذّ ولكن القاعدة هى إمام بابها ؛ فما من شاذّ يحسب نفسَه منطلقًا مخلًّى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذّ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ، فيكون شأنه فى نفسه بما تعيِّن هى له على مَكْرَهته ومحبته .

والإمام ينبث فى آداب عصره فكراً ورأيًا ، ويزيد فيها قوة وإبداعًا ، ويزين ماضيها بأنه فى نهايته ، ومستقبلها بأنه فى بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الإمام إنما يُختار لإظهار قوة الوجود الإنسانى من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنَسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ؛ ويجد فيه قومه كما يجدون فى الحقيقة التى لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفى القوة التى لا يخالف عندها مبْطل بعناد ، وفى الشريعة التى لا يروغ منها متعسف بحيلة ؛ ولن يضل الناس فى حق عرفوا حده ، فإن ما وراء الحد هو التعدى ؛ ولن يخطئوا فى حكم أصابوا وجهه فإن ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس فى باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال

كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السمْت ؛ ولا بد لهم ممن يتماسون به و يتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم ، فالإمام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتسلط فى الحكم على الناقص والوافى من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه ، إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلةً بعد منزلة .

هو إنسانٌ تتخير بعض المعانى السامية لتظهر فيه بأسلوب عملى ، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها ، مشروحة بهذا المثال نفسه . فإليه يُرَدُّ الأمرُ فى ذلك وبِتَلُوه يُتْلى وعلى سبيله يُنهج ، فما من شىء يتصل بالفن الذى هو إمام فيه ، إلا كان فيه شىء منه ، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها ، لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتنبيهاً ، وتسهيلا وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ؛ ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة ، ويكون فى نفسه وإنه لفى الأنفس كلها ، ويعطَى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه خَلْق من الحب طريقُه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة فى الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين ؛ فلا بد على هذه الأرض من ضوء فى لحم ودم ، وبعض معانى الخليفة فى تنصيبه كبعض معانى « الشهيد المجهول » فى الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة ، وصمت يتكلم ، ومكان يوحِى ، وقوة تُستمد ، وانفراد بجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة فى شرف الحياة والموت ؛ بل الحرب مخبوءة فى حفرة ، والنصر مغطى بقبر ؛ بل المجهول الذى فيه كل ما ينبغى أن يُعلم .

* * *

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه ! .

ولعمرى ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعاً خالياً يُظهر خلاؤه مكانَ الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تماز من جهة ، فمنذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، ونتأت رءوس ، وزاغت طبائع وكأنه لم يمت رجل ، بل رُفع قرآن .

الأدب والأديب(١)

إذا اعتبرتَ الخيالَ فى الذكاء الإنسانى وأوليتَه دقّةَ النظر وحُسْنَ التمييز ، لم تجده فى الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهيّة بوسائلَ عاجزةٍ منقطعة ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق .

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول فى أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والمسدَّدَة فى طريقه مدةَ حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ فى خيالها أن الشىء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهى ؛ فهى لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرُغ منه فما يُبْدَأ ، وتمّ فما يُزاد ، وخلَدَ فلا يتحوّل ؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتُصرِّف وهمها فى كل ما تراه أو يتلجلج فى خاطرها ، فلاتبرح تتلمّحُ فى كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد فى غموضه . وتجرى دَأبًا على مجاريها الخيالية التى توُثق صلتها بالمجهول ؛ فمن ثم لا بدّ فى أمرها مع الموجود مما لا وجود له ، تتعلّق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد فى كل شىء — مع المعانى التى له فى الحق — من المعانى التى له فى الخيال ؛ وها هنا موضعُ الأدب والبيان فى طبيعة النفس الإنسانية ، فكلاهما طبيعىٌّ فيها كما ترى .

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس تخْلُق فتُصوّر فتُحسِن الصورة ؛ وإنما يكون تمام التركيب فى معْرِضه وجمال صورته ودقّةِ لمحاته ؛ بل ينزلُ البيانُ من المعنى الذى يلْبسه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئًا مُسمى أو متميزاً بنفسه ، فلن تكونَ بغير النضج شيئاً تامًّا ولا صحيحاً ، وما بُدٌّ من أن تستوفى كمالَ عمرها الأخضر الذى هو بيانها وبلاغتها .

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهى هى حتى تمضيها على هذا الوجه الذى رأيتَ

---

(١) انظر ص ٢٣٤ « حياة الرافعى » .

فى الثمرة ونضجها ؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال فى شىء جمالُه هو من فائدته ، وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره ، وعاد بابًا من الاستعمال بعد أن كان بابًا من التأثير ؛ وصار الفرقُ بينَ حاليْه كالفرق بين الفاكهة إذْ هى بابٌ من النبات ، وبين الفاكهة إذْ هى بابٌ من الحلو ؛ ولهذا كان الأصلُ فى الأدب البيانَ والأسلوبَ فى جميع لغات الفكر الإنسانى ، لأنه كذلك فى طبيعة النفس الإنسانية .

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يَخلق للنفس دنيا المعانى الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة ، وأن يُلْقِىَ الأسرارَ فى الأمور المكشوفة بما يتخيَّل فيها ، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافيًا بما يضاعِفُ من معانيه ، ويتركَ الماضى منها ثابتًا قارًّا بما يخلِّد من وصفه ، ويجعلَ المؤلم منها لذا خفيفًا بما يَبُثُّ فيه من العاطفة ، والمملولَ ممتعًا حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة ؛ ومَدارُ ذلك كلِّه على إيتاء النفس لذةَ المجهول التى هى فى نفسها لذَّةٌ مجهولة أيضًا ؛ فإن هذه النفس طُلَعةٌ متقلبة ، لا تبتغى مجهولاً صِرْفًا ولا معلومًا صرفًا ، كأنها مُدْرِكة بفطرتها أنْ ليس فى الكون صريحٌ مُطْلَقٌ ولا خفى مطلق ؛ وإنما تبتغى حالةً ملائمة بين هذين ، يثور فيها قلَقٌ أو يسكن منها قلق .

وأشواقُ النفس هى مادَّة الأدب ؛ فليس يكون أدبًا إلا إذا وَضَعَ المعنى فى الحياة التى ليس لها معنى ، أو كان متَّصلاً بسرٍّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب ، أو غيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجىء طباقًا لغرضها وأشواقها ؛ فإنه كما يترحَّل الإنسانُ من جوٍّ إلى جوٍّ غيره ، ينقله الأدبُ من حياته التى لا تختلفُ إلى حياة أخرى ، فيها شعورُها ولذَّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان ؛ حياة كمَلَتْ فيها أشواقُ النفس ، لأن فيها اللذاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف ؛ ولعمرى ما جاءت الجنةُ والنارُ فى الأديان عَبَثًا ؛ فإن خالق النفس بما ركَّبه فيها من العجائب ، لا يحكم العقلُ أنه قد أتمَّ خلقها إلا بخلق الجنة والنار معها ؛ إذ هما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هى استقامت مُسدَّدة أو انعكست حائلة .

وقد صحّ عندى أن النفس لا تتحقّق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحسُّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى — إلا فى ساعات وفترات تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان ؛ فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واسترْوَحت الخلد ؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا فى أربعة : حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطِىَ قوةَ سِحْر النفس ، فهى تَنسى به ؛ وصديقٍ محبوبٍ وفىٍّ أوتىَ قوةَ جَذْب النفس ، فهى تنسى عنده ؛ وقطعةٍ أدبية آخذةٍ ، فهى ساحرةٌ كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق ؛ ومنظرٍ فنىٍّ رائع ، ففيه من كل شىء شىء .

وهذه كلها تُنسِى المرء زمنَه مدةً تطول وتقصر ؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الإنسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزلىّ فى لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية ؛ ومن ثم نستطيع أن نقرّر أن أساسَ الفنّ على الإطلاق هو ثورةُ الخالدِ فى الإنسان على الفانى فيه ؛ وأن تصوير هذه الثورة فى أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها فى الشعور والتأثير — هو معنى الأدب وأسلوبه .

ثم إن الاتساق والخيرَ والحقّ والجمال — وهى التى تجعل للحياة الإنسانية أسرارَها — أمورٌ غير طبيعية فى عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات ؛ فمن ذلك يأتى الشاعرُ والأديبُ وذو الفن علاجًا من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلةِ عالمَها الذى تكون طبيعيةً فيه ، وهو عالَمٌ أركانه الاتساقُ فى المعانى التى يجرى فيها ، والجمالُ فى التعبير الذى يتأدّى به ، والحق فى الفكر الذى يقوم عليه ، والخيرُ فى الغرَض الذى يُساق له ، ويكون فى الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ، ولا معيارَ أدقُّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأى ؛ فى عمل الأديب تخرجُ الحقيقة مضافًا إليها الفن ، ويجىء التعبيرُ مزيداً فيه الجمال ، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيّة ، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةِ القلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودقّتها الموسيقىّ ؛ وتلبسُ الشهواتُ الإنسانيةُ شكلها المهذّب لتكون بسببٍ من تقرير المثَل الأعلى ، الذى هو السرُّ فى ثورة الخالدِ من الإنسان

على الفانى ، والذى هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفنّ معًا ؛ وبهذا يهَبُ لك الأدب تلك القوةَ الغامضة التى تتسع بك حتى تشعرَ بالدنيا وأحداثها مارّةً من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها ؛ وذلك سر الأديب العبقرىّ ؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب * والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحسُّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلهَمه إلهامًا ؛ وليس يُؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمرُّ فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر ، فيحس أثرها فيه فيُلهَم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذةُ من خلاله .

ولو أردتَ أن تعرِّف الأديبَ من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدقّ فى معناه من أن تسميه الإنسان الكونى ، وغيره هو الإنسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثُّره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصيةُ الكون الشامل ، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل السماء بما فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحياةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضًا منها ؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لا حدّ له ، والاتساع الذى كلٌّ آخر فيه لشىء ، أولٌ فيه لشىء .

وهو إنسان يُدلّه الجمالُ على نفسه ليدلّ غيرَه عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأُضيفَ إليه فى إحساسه قوّةُ إنشاء الإحساسِ فى غيره ؛ فأساس عمله دائمًا أن يزيد على كل فكرةٍ صورةً لها ، ويزيد على كل صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدعُ المعانىَ للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعانى المجردةِ فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خُلِقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى ؛ وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة ، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقلَ بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقِّق نفسَه .

---

* الاعتقاب : إطالة النظر وكد الفكر .

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنى ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذى جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوب هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان .

وفصْلُ ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، ولكن الأديب فكرةٌ وأُسلوبها ؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متصلة متشابهةٌ يشارُ إليهم جملة واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقرى : هذا هو ، هذا وحده ؛ وعلمُ الأديب هو النفسُ الإنسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودُها من كل نواحيها الأسرار .

وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيباً تامًّا قائمًا بحقائقه وأوصافه ، فالأديب العبقرىُّ لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها . وكأنما أمرَّها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه . . . وبذلك يجىء النابغُ من أدب العباقرة وبعضُه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الإنسانية ، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة ؛ وأساسُه على كل هذه الأحوال النقدُ ، ثم النقد ، ولا شىء غير النقد ؛ كأن القوة الأزليةَ تقول لهذا الملهَم : أنت كلمتى فقُل كلمتَك . . .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبتَه شيئًا واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن الحس به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وها هنا يتألَّه الأدب ؛ فهو خالقُ الجمال فى الذهن ، والممكِّنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصُّور الفكرية الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفِطرة وصَوْلةِ الغريزة وغرارةِ الطبع الحيوانى .

وإذا كان الأمر فى الأدب على ذلك ، فباضطرار أن تتهذّب فيه الحياةُ وتتأدب ، وأن يكون تسلّطه على بواعث النفس دُربةً لإصلاحها وإقامتها ، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرارٍ أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الإنسانية ، ونَفْىَ التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق ! .

وإنما يكلَّف الأديبُ ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييزُ وتقدمَ النظر وتسقُّط الإلهام ، ولأن الأصل فى عمله الفنى ألا يبحث فى الشىء نفسِه ، ولكن فى البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سره ؛ ولا يُعنى بتركيبه ، بل بالجمال فى تركيبه ؛ ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم فى معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومراشدهم ؛ يُسدّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخلطه فى نفسه ، ويُنْفِذُه من حواسه، كأنما له فى السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه ولى الحكم على الجزء الحىّ فى الإنسان يقوم على سياسته وتدبيره ، ويَهديه إلى المثل الأعلى ، وهل يُخلق العبقرىُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذى هو أكملُ والذى هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الإنسانى ولا ينخذل ، فيستمرَّ دائباً فى طلب الكمال والإبداع اللذين لا نهاية لهما ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائعُ الحياة فى حذوٍ واحد من النزاع والتناقض ، وإذا هى دائبةٌ فى مَحْق الشخصيةِ الإنسانية ، تاركةٌ كلَّ حىٍّ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فإذا تلجلج ذلك فى نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العالية إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيع الناس ، وسخِّرتْ فى ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبىَ منه ، ولا يستوى لها أن تغمض فيه ؛ ونُقلت الإنسانيةُ كلها ووضُعت على مجاز طريقها أين توجهتْ ، فتأكد الأمر فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هى تقريرُ

الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ، وأن تجمعَ الكل على الجمال وهو لا يختلف فى لذته ، وتصلَ بينهم بالحقيقة وهى لا تتفرق فى موعظتها ، وتُشعرهم الحكمة وهى لا تتنازعُ فى مناحيها : فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين : كلاهما يُعينُ الإنسانيةَ على الاستمرار فى عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ؛ والدين يوجه الإنسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ؛ وذلك وحيُ الله إلى الملَك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحى الله إلى البصيرة إلى إنسانٍ مختار .

فإن لم يكن للأديب مَثلٌ أعلى يجهد فى تحقيقه ويعمل فى سبيله ، فهو أديبُ حالة من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى فى كل عصرٍ هم الأرقام الإنسانية التى يُلقيها العصر فى آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته . . .

ولا يخدعنك عن هذا أن ترى بعض العبقريين لا يؤتَّى فى أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغل فيها ، ويتملَّأ بها ، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السِّفلة والحشوة من طغام الناس ورعاعهم ؛ فإن هذا وأضرابه مسخَّرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهى ، ليكونوا مثلاً وسلفًا وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدّ تأثيراً مما هى فى الفضائل ؛ بل هم عندى كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التى يأمر فيها النهيُ أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التى تأمرك أن تكون عفيفًا طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلَى المشوَّه المتحطِّم الذى ينهاك بصورته أن تكون مثله ؛ ولهذه الحقيقة القوية فى أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهى — يعمد النوابغ فى بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذى يصورونه ، أو الإحالة فى الحادثة التى يصفونها ؛ فينتهى الراهب التقىُّ فى القصة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة البغىُّ قِديّسة ، ويرجع الابن البر قاتلا مجنونًا جنون الدم ؛ إلى كثير مما يجرى فى هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ، ولكنه أسلوب من الفن ، يقابله أسلوب من الخلق ، ليبدع أسلوبًا من التأثير ؛ وكل ذلك شاذ

معدود ينبغى أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقة طارئةٍ على النفس، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرةٍ فيها .

والشرط فى العبقرى الذى تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلو بالرذيلة . . . فى أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهيـًا فى حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرذائلَ هى اختارت منه مفسِّرها العبقرىَّ الشاذَّ الذى يكون فى سمو فنه البيانى هو وحده الطرفَ المقابلَ لسموِّ العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الإلهامُ فى هذا وفى هذا صنعه الفنىَّ بطريقةٍ بديعة التأثير ، أصلها فى أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفى أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه ، كأن منهما إنسانـًا صار ملكـًا يكتب ، وإنسانـًا عاد حيوانـًا يكتب . . .

وإذا أنت ميـَّلت بين رذيلة الأديب العبقُرى فى فنه ، ورذيلة الأديب الفسْل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعةِ والمذهب — رأيت الواحدةَ من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه ألمه ، وذاك دموعه ألمه وشعره ؛ وفى كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصةً يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى ، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيه ؛ إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست فى الحقيقة إلا نكتةً نفسية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هى أيضًا مسألةٌ من مسائل الإنسانية مطروحةٌ للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل .

* * *

واللذةُ بالأدب غير التلهِّى به واتخاذه للعبَث والبطَالة فيجىء موضوعـًا على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفـًا ومَضْيَعة ؛ فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغةِ معانيه وتناوُله الكَون والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس ، وهى الأَصل فى جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعةٌ كلـُّه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى ، إذ يحس الذوقُ لـَذَّة الطعامِ مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعىّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوةِ وزيادتـِها ؛ أما التلهى فيجىء من سخف الأدب ؛ وفراغ معانيه ، ومؤاتاته الشهواتِ الحسيسةَ ،

والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الإنسانية بل أدبَ فئة بعينها وأحوالها ؛ فإن أديب صناعتِه أو أديبَ جماعته ، غيرُ أديب قومِه وأديبِ عصره ، أحدهما إلى حدٍّ محدود من الحياة ، والآخر عملٌ جامع مستمرٌّ متفنِّن ؛ لأن عمله الأدبى هو وجوده ، وكل شيء فى قومه لا يبرحُ يقول له : اكتبْ . . . .

ومن الأصول الاجتماعيةِ التى لا تتخلَّف ، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب ، كان الأدبُ أدبَ الشعب فى حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشِه ، وزَخَر الأدب بذلك وتنوَّع وافتنَّ وبُنى على الحياة الاجتماعية ؛ فإن كانت الدولةُ لغير الشعب ، كان الأدب أدب الحاكمين وبُنِى على النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعيةِ والكَذِب والتدليس ، ونَضِبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرَّر من صورةٍ واحدة ؛ وفى الأولى يتسع الأديب من الإحساس بالحياة وفنونها وأسرارِها فى كلٍّ من حوْله ، إلى الإحساس بالكون ومَجاليه وأسراره فى كل ما حوْله ؛ أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخَليطِه ، فيصبح أدبه أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيءُ حتى يملَّ ذهابَه ومجيئَه .

والعَجَب الذى لم يتنبَّه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربى قديمًا وحديثًا ، أنك لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفى الاجتماعىِّ للأدب فى أسمى معانيه إلا فى اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم ! .

فإذا أردتَ الأدب الذى يقرِّر الأسلوبَ شرطًا فيه ، ويأتى بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع ، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقّةِ البيان صورة لرقة النفس ، وبدقّته المتناهية فى العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة ؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ فى حياة أمة من الناس ، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية ، مُحْكَمة لها الأوضاع الإنسانية ، مشترِطةٌ فيها المثلَ الأعلى ، حاملةٌ لها النور الإلهىَّ على الأرض . . .

... وإذا أردتَ الأدب الذى يُنشئ الأمة إنشاءً ساميًا ، ويدفعها إلى المعالى

دفعًا ، ويردُّها عن سفاسِف الحياة ، ويوجِّهها بدقَّة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ، ويسدِّدها فى أغراضها التاريخية العاليةِ تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرَّر المحكم ، ويملأ سرائرها يقينًا ونفوسَها حزمًا وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة ، ويَنْفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية . . .

. . . إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحىَّ فى ذلك كله ، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدَّسًا ، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة ، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يَحْذُوا بالأدب حَذْوه ، وحسِبوه دينا فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخٍ محتَضرٍ بالعلل القاتلة ، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم ! .

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضِه لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة .

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو مَن كان لأمته وللغتها فى مواهبِ قلمهِ لقبٌ من ألقاب التاريخ .

* * *

سر النبوغ فى الأدب[١]

لو ترجمنا الخاطرة التى تمرّ فى ذهن الحيوان الذكى حين ينقاد فى يد رجل ضعيف أبله يُصرّفه ويُديرُهُ على أغراضه ، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا ، وأديناها بمعنًى مما بين الإنسان والحيوان — لكانت فى العبارة هكذا : ما أنت أيها الأبله فيما بينى وبين الحقيقة المدبِّرة للكون إلا نَبىٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم . . . ذلك أن التركيب الذى يَتبينُ به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتمًا من الله دمغ به على خصائصه فأفرغه الله فى جلده ، ووضع فى رأسه ذلك القفل الإلهى الذى حبسهُ فى باب الاضطرار من غرائزه البهيمية ، وأقفل به على الدنيا العقلية المتَّسعة بينه وبين الإنسان ؛ فالكون عنده لغوٌ كله ليس فيه إلا حقائق يسيرة ، ثم لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو ، فجلده أدق تفسير فلكى . . . للشمس والنور والهواء وما يجىءُ منها ، وجوفهُ أصح تعبير جغرافى . . . للكرة الأرضية وما تحمل ، وجوعُه وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير فى العالم ! .

فأساس الذكاء عاليًا ونازلا هو التركيب الطبيعى لا غيره : لو زادت فى الدماغ ذرة أو نقصت لزادت للدنيا صورة أو نقصت ؛ فبالضرورة تكون هذه هى القاعدة فيما نرى من تباين حدة الذكاء فى أفراد كل نوع من الحيوان ، وما نشهد من ذلك فى أحوال الناس ، من الفطنة إلى الذكاء* إلى الألمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ إلى العبقرية ؛ وهى طبقات من ألفاظ اللغة لأحوال قائمة من هذه المعانى ترجع إلى درجات ثابتة فى تركيب الدماغ .

ومما يسجد له العقل الإنسانى سجدة طويلة إذا هو تأمل فى حكمة الله ومرّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — أن هذا الوجود الذى

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٣

* عندنا أن الفطنة فى اللغة ، دون الذكاء ؛ تقابل ما عند الحيوان من التنبه ؛ والذكاء : والتوقد واللهيان .

يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذفة فى الفضاء الأبدى ، وأن الأرض التى تحمل أسرار الإنسانية ، هى كرة طائرة فيما مُدّ لها من الوجود ، وأن كل حى فيها يحمل أسرار حياته فى كرة خاصة به هى رأسه . وأن الوجود من كل حى هو بعد ذلك ليس شيئاً فى النظر ولا فى الحس ولا فى الفهم إلا كما يُرى ويُحس ويفهم فى هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدريج إلى الكبير إلى الأكبر ، وينزل إلى الصغير إلى الأصغر ؛ ثم لا معنى لما صعد إلا مما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء إلى السر الحقيقى ، أن العقل الإنسانى فهم كل شىء ولم يفهم شيئاً . . .

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج ؛ فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس فى الذكاء والعقل كالوجود المحيط ، وأما آخر فكالشمس ، ثم غيرهما كالأرض ، ثم الرابع كالإنسان . ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ؛ ولا علة لكل هذا إلا ما هيّأت الأقدار « بأسبابها الكثيرة » ، لكل إنسان فى تركيب دماغه فى نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوالِ التركيب فى الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشُعبها : ثم ما يكون من قِبل العلاقات بين هذه الفروع التى هى لكل رأس كرمْل الكرة الأرضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التى تتخلّق فى غدد الجسم وتنفثها الغدد فى الدم .

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة فى هذه الغدد ، كما ينبعث العملاق المارد بعظامِه الممتدة وألواحِه المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها .

فالذكى مِن ذكىٍّ مثلِه إنما هو كالجيش من جيش بإزائه : يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند، وصفاتهم من القوة والضعف ، وأحوالهم من النظام والاختلال ، وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ، ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم، وما اكتنفهم من صعب أو سهل ، وما تظاهر عليهم من الحوادث والأقدار ، ثم التوفيق الذى لا حيلة فيه إن وقع فى حصة أحدهما واستقر ، أو وقع هَوناً وطار للآخر ؛ وبنحوٍ من هذا كله تكون المفاضلة إذا وازنتَ

بين اثنين من النوابغ فى حقيقة نبوغهما .

فالنابغة خَلْقٌ من خالقِه ، يُصنع كما ترى بأقدار الله ؛ إذ هو قَدَرٌ على قومِه وعلى عصرِها ، وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) : سلّةٌ يد جعلتْها مالاً وتركت الباقيات ورقًا وأحدثتْ بينهما الفرقَ الذهبى ؛ وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغةً إلا إذا استطاع أن يزيد فى الكواكب نجمًا فيصنعُه ؛ وهبْهُ صنعهُ من الكهرباء ، فيبقى أن يحمله ، وإذا حملهُ بقى أن يرفعهُ إلى السموات ؛ وهبهُ قد رفعهُ فيبقى كل شىء . . . يبقى عليه أن يُقحمَه فى النجوم ويرسله فيها يدور وينفَلك .

وكما يُخلق النابغة بتركيبه ، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله الذى خص به فى أسرار التقدير عاملا نافعًا ، وإن كانت لا تلائمه هو منتفعًا ؛ فإنه هو غير مقصود إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تكابِد ما تحتمل فى أعمالها ، ويؤتى لها لتأخذ على طريقة وتعطى على طريقة ؛ وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل النابغة دليلا للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذى هو وحده أمرُه الأمر .

وإذا كان الجمال يستعلن فى كلام هؤلاء النوابغ ، والخيال يظهر فى تعبيرهم ، والحكمة تهبط إلى الدنيا فى تفكيرهم ، والمثل الأعلى هم الداعون إليه ، والأشواق النفسية هم موقظوها ، والعواطف هم المصورون لها ، وسرور الحياة هم الذين حوّلوه إلى الفن — إذا كان هذا كله فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبّرة ، وأنهم أدواتها فى هذه المعانى ؛ فما هى أعمالهم أكثر مما هى أعمالها ؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلتمس القُوى المحيطة به ليبدع منها ، والحقيقة أنها هى تلتمسه لتُبدع به .

وبعدُ ، فالنابغة كأنه إنسان من الفلك ، فهو يخزن الأشعة العقلية ويُريقها ، وفى يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معانى الحياة ؛ ولا تزال الحكمة تلقى إليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها ، وتوحى إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق ؛ والطبيعة خلقها الله وحده ، ولكنها ليست معقولةً إلا بالعلم ، وليست جميلة إلا بالشعر ، وليست محبوبةً إلا بالفن ؛ فالنوابغ فى هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر

بالوجود فناً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لأشياء من هذا الفن ، ويرى معانى الطبيعة كأنما تأتيه تلتمس فى كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع مما هى فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الإنسانية تسأله أن يصحح الرأى فيها باستخراج معناها الخيالى الجميل ، فإنها وإن كانت آلاماً وأحزاناً إلا أن معناها الخيالى هو سرور تحمله للناس ؛ إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الإلهى ، كأن المؤلم ليس هو الألم ، وإنما هو جهل سره .

وبالجملة فالكون يختار فى كل شىء مفسِّره العبقرى ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً . . . ثم ليؤتى الناسُ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر ؛ ولهذا تصيب الكلام الذى يكتبه النابغة الملهَم فى أوقات التجلى عليه كأنه كلام صوَّر نفسَه وصاغها ، أو كأنه قطعة من الحس قد جَمَدَتْ فى أسطر ؛ ولا بد أن تُشعرك الجملة أنها قُذفت وحيا ، إذ لا تجدها إلا وكأن فى كلماتها روحاً يرتعش ؛ ولقد يخطر لى وأنا أقرأ بعض المعانى الجميلة لذهنٍ من الأذهان الملهَمة كشكسبير والمتنبى وغيرهما — حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضُحى البيان عليه وإشراقَه فيه وما أُتيح له من جلال ظاهر فى شكل حى يلمح بسره فى النفس — يخيل إلىّ من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن إنسانى ليخلق تعبيراً عن جلالـِه فى مثل جلاله .

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعانى الآتية من الإلهام وأجريتَه فى كتابة كاتب أو شعر شاعرٍ من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدُّونها ، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . لرأيت الفرق بين شىء وشىء فى أحسن ما أنت واجدُه لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الإنسان بالإبرة والخيط ، وزهرةٍ أخرى قد انبثقت عطِرة ناضرة فى غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسماء والأرض .

والعبقرى هو أبداً وراء ما لا ينتهى من جمالٍ أوَّلهُ فى نفسه وآخرُه فى الجمال الأقدس الذى مَسح على هذه النفس الجميلة السامية ؛ فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل ممزِّقاً حياته فى سبحات النور تمزيقاً يجتمع منهُ أدبهُ ،

وما أدَبه إلاّ صورة حياته ؛ وهو كلما أبدع شيئًا طلب الذى هو أبدَع منه ، فلا يزال متألمًا إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ، ومتألمًا إن لم يعمل لأن تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا فى عمل ، وهى طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرُّدَ العشق فى حامله ؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه ؛ فكلُّ ما تجده فى نفس العاشق المتدلِّه مما يترامى به إلى جنونه وهلاكه ، تجد شبهًا منه فى نفس العبقرى ؛ فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها ؛ إذ قد اتخذت حياته شكلها الفنى من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقةَ أحد ، بل هو طريقة نفسه* ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمدُّ منهُ ، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل فى الطبيعة معنًى ، بل رسولا من الجمال أُرسل إليه وحده ، ولا يزال يشعر فى كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلا هو بعدُ فى انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشىء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه إلى الظن أنهُ ربح من الكون ربحًا لم يكن له من قبل ، وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التى فى الحياة والواقع ، وبين حريتها التى فى خياله وأمله ، كأن عليه فى سبيل هذه الحرية أن يقطّعَ الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع أو العيش ؛ وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يحسُّ تجعل نظرته فى الأشياء خاضعةً لقانون النظرة العاشقة فى العينين

---

* لاوجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب فى الأدب من قولهم مدرسة امرئ القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ، ترجمة حرفية لقول الأوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان ؛ فإن الأدب إن كان تقليداً فهو أدب منحط لايجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها ، وإن كان إبداعا فليس الإبداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والألف على طراز لايختلف ؛ إنما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة فى الفنون التعليمية ، وفى هذا لاتطلق فى الأدب العربى إلا على فئتين فقط ، هما البصريون والكوفيون ، على أن كلمة مذهب هى المستعملة فى هذا ، وهى أسد منها ؛ إذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأى وذهب إليه ، فكأنه عن تحقيق فى صاحبه وتابعيه ؛ أما تسمية مجموعة الإلهامات التى مرت فى ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة ، فتسمية مضحكة باردة ؛ إذ الإلهام بصيرة محضة ، وما هو مما يقلد ، وقلما تشابه ذهنان على الأرض فى عناصر التكوين التى يأتى منها النبوغ ؛ وقد قال علماؤنا : طريقة فلان وطريقة فلان ؛ فالطريقة هى الكلمة الصحيحة لأن عليها ظاهر العمل وأسلوبه يتوجه بها من يتوجه ، ويقلد فيها من يقلد ، أما سر العمل فهو سر العامل أيضاً ، وهو شىء فى الروح والبصيرة ، وهو فى العبقرى أمر لايستطيعه إنسان وشذ فى إنسان بخصوصه .

الساحرتين المعشوقتين ، فإذا مدّ عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابُه ، ووحيٌ وترجمتُه ، ومرور من يقظة إلى حُلم ، وانتقال من حقيقة إلى خيال ! .

غير أن طبيعة العبقرى تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستمرُّ معه على رضا ، ولا يَبْرَحُ يُسلِّط الإعناتَ عليها ويستغرقها بالهموم السامية ؛ وذلك ألم الكمال الفنى الذى لا يدرك العبقرى غايته عند نفسه ، وإن كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات ؛ فطبيعة كل عبقرى تجهد جهدها فى العمل لتُخرج به مما يستطيعهُ الناس ، فإذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منهُ وبلغ وأعجز ، اندفعت طبيعته إلى الخروج مما يستطيع هو . . . كأنه خارجٌ عن الطبيعة وداخل فى الطبيعة فى وقت معًا ، وكأنه نفسُه وفوق نفسه فى حال . وهذا سرُّ حريته وسموه ، كما أنه سرُّ ألمه وحيْرته .

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت إذا قرأت للأديب البليغ التامّ صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهَم ؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدّد فيها ويهتزُّ بها طربًا وإعجابًا ، فتقول : لا أحسنَ من هذا ! ثم تؤمل مع ذلك أن تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . كأنهُ وإن تناهى إلى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية ؛ وهذا غريبٌ ، ولكن لا دليل على العبقرية إلا الغرابة دائمًا ؛ فهى نظامٌ لا نظامَ فيه ؛ لأنها طريقةٌ لا طريقة لها ؛ وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلة وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هدايةَ فيها إلاّ من الروح ؛ وإذا كان الفنُّ قدرةً متصرفةً فى الجمال ، فالعبقرية قدرة متصرفةٌ فى الفن . والنابغة كالمتكيِّس * الذى معه قُوَى العقل ويريد أن يزداد على قدره منها . ولكن العبقريّ كالإلهى الذى معه قوى الروح ويريد أن يزيد الناس على قدرهم بها ؛ وذاك مرجعه الفكر الدقيق الباحث ، وهذا مناطه البصيرة الشفّافة النافذة ، وهى أغرب الغرائب فى الإنسان ؛ إذ هى الجهةُ المطلقة فى هذا المخلوق المقيَّد ، وبها تتسع النفس لإدراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات ، وفيها تتحول الأشياء من نظام الحاسّة إلى نظام الروح ، فيُسمعُ المرئيُّ ويُبْصر المسموعُ ، وتخلع الأجسام أنغامًا ، وتلبس الأصواتُ أشكالاً ، ويبدو عندها

---

* من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد أن يزداد على مقداره .

كل مخلوق وكأن فيه بقية زائدة على خَلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب أو الشاعر المحدَّث* عمل فنه الزائدة على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه ، وهى التى نسميها الإلهام .

وهذه الحاسة هى كذلك من بعض الغرابة ، تكون فى صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه فى الطيور التى تقطعُ فى جو السماء إلى غاياتها البعيدة من قطب الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ، ولا رسم تنظر فيه ، ولا علم ترجع إليه ؛ وكما تكون حاسة التمييز فى النحل الذى يبنى عَسَلَتَهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير فى النمل الذى يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها ؛ وكثيراً ما يجىء الأديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع وأوصافها بما يغطى على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقرى هو عندى فوق العلم ، لا أقول بدرجة ، ولكن بحاسة .

وبالإلهام يكون لكل عبقرى ذهنهُ الذى معهُ وذهنهُ الذى ليس معهُ ؛ إذ كانت له من وراء خياله قوةٌ غير منظورة ليست فيه ، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاءُ فى جسمه ، هيّنةً منقادةً كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلى عليه .

وليست تتصل هذه القوة إلاّ بتركيب عصبى تكون فيه الخصائص التى تصلح أن تتلقى عنها ، وهى فى العبقريين خصائص مَرَضية فى الأعم الأغلب ، بل لعلها كذلك دائماً ، ليتسرَّ بها العبقريُّ لحالة خفيفة من الموت . . . يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانيه من مضض الفكر وثقلته ؛ ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منهُ ؛ فالتركيب العصبى فى دماغ العبقرى إنسانٌ على حياله مع إنسان آخر ، أحدهما لما فى الطبيعة والثانى

---

* هذه هى الكلمة القديمة التى تقابل ما نسميه العبقرى بلغة عصرنا ، كأن الأشياء تحدثه بأسرارها ، أو تحدثه بها قوة أعلى من القوى الإنسانية ؛ وإذا كان محدثاً فمعنى ذلك أنه ينطق عن سمع من الغيب ؛ ومن ذلك ما زعم العرب من أن لكل شاعر شيطانا ينفث على لسانه ، وهو وصف دقيق للعبقرية إلا أنه باللغة الجاهلية ، وقد صححه النبى صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفى كلمة « روح القدس » تنطوى فلسفة العبقرية كلها .

لما وراء الطبيعة ؛ ومن ثمَّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح : يتقد وينطفىء لأنهُ آلة نور تَعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليهِ ، وتنضب مادة النور منها ، فكذلك لا تقدر عليهِ ، وتكون مضيئة فتنطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها ، وهي على كل هذه الأحوال لا تملك منها حالة ؛ فبينما العبقرى الذى يملأ الدنيا من آثاره النابغة ، تراه فى حالة من أحواله يدأب لا يأتلى فيجدّ فى العمل ويبذل الوسع فيهِ ويصبر على مطاولة التعب فى إحكامه ويفيض بهِ فيضًا وكأن فى طبيعتـه الربيع المتفتح طول أيامه بالجمال — إذا هو فى حالة أخرى يتلكأ ويتربص لا يعمل شيئًا كأنما دخل فى قريحته الشتاء ، وفى ثالثة يتباطأ ويتلبَّث فلا يعنُّ له جديد كأنما حُبس عنهُ فكره أو نبا طبعهُ أو هو فى قيظ طبيعتهِ وخمولها وضجرها ؛ ثم لا تمضى على ذلك إلاَّ توَّةٌ وساعة فإذا على صيفهِ هواءُ نوفبر وديسمبر . . . وإذا هو منبعثٌ ملءَ القوة والنشاط ؛ وربما يأخذ فى غرض من الكتابة قد رَسم له المعنى وهيأ له المادة ، فلا يكاد يمضى لنحوِ منهُ حتى تتناسخ فى ذهنه المعانى فإذا هويكتب مالا يشبه ما كان ابتدأ بهِ ، ويأتيه غيرُ ما كان قد أراده ، كأنما يُلقَى عليهِ فهو يستملى ؛ وقد يبتدئ معنى ثم يُقطَع عنهُ بطارئٍ من عمل أو حديث ، ثم يُعاودهُ فإذا معنى آخر وإذا جهةٌ من الفكر هى جهة الإبداع والاختراع فى موضوعهِ ، وإذا هو إنما كان يُجرُّ بذلك الصارف عن معناهُ الأول جرًّا ليدعهُ إلى الأكمل والأصح ، وأيقن أنه لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ وضعف وجاءَ بما غيرُه أقدرُ عليه ؛ كأن هذه القوة الخفية التى تلهمه تنقَّح لهُ أيضًا بأساليبها الغريبة ؛ وقد يكون آخذاً فى عمله ماضيًا على طبعه مسترسلا إلى ما ينكشف له من أسرار المعانى ثَقِفًا مِن هنا لَقِفًا من هناك * ، ثم ينظر فإذا هو قد مُسح لوح خياله ، ويطلب المعنى فلا يتاح له ، ويتمادى فلا يزيد إلا كدًّا وعسراً كأنما ذهب إلهامه فى غَمضٍ من غُموض الأبدية ** ؛ وكل من ارتاض بصناعة

* يقال : هوثقف لقف : أى سريع الفهم لما يلقى إليه ، ولكنا استعملناه كما ترى فجاء أشد تمكناً من أصله .

** قالوا : كان الفرزدق وهو فحل مضر فى زمانه يقول : تمر على الساعة وقلع ضرس من أضراسى أهون على من عمل بيت من الشعر ! وذكروا أنه كان من عمله إذا استصعب الشعر عليه أن يركب=

الفكر واستحكمت له عادتها ومرّ فى درجاتها حتى بلغ المكانة التى يستشرف منها للإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لنَبَضات الوحى وانكشافات الغيب ، يعلم أن كل معنى بديع يأتى به فى صناعته إنما يقع له إلهامًا من ذلك المعنى الحى المتمدد فى الكائنات كلها ، ظاهراً فى شىء منها بالضوء ، وفى أشياء بالألوان ، وفى بعضها بالحركة ، وفى بعضها بالانسجام ، وفى بعضها بالروعة والفخامة ، وفى غيرها بمنصبّة الهيئة ؛ وظاهراً فى حالات كثيرة بأنه غير ظاهر ؛ ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذى لا يُحد هو الذى ينقل الوجودَ كله إلى نفوس النوابغ * متى نبض فى هذه النفوس الرقيقة وأشعرَها سرّه ، وإذا همّ النابغة أن يتوضّحه لا يرى شيئًا ، وإذا أراد حجة عليه لم يستطع الجلاءَ عن بيانه بكلمة . وإذا التمس التعريف به لم يجد إلا ما يشهد له إحساسه وقلبه ، وهذا الذى ينقدح فى أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيضُ لكل منهم بسبب من قراءة أو مشاهدة أو حالة أو مِراس ، هو هو بعينه الذى ينقدح عشقًا فى قلوب المحبين حين يتراءَى لكل منهم فى معنى على وجه جميل ؛ ومن ثم كان النابغة فى الأدب لا يتم تمامُه إلا إذا أحب وعشق ، وكان الأدب نفسه فى تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئًا سوى صناعة جمال الفكر . . .

وهذا العمل فى ذلك الجهاز العصبى الخاص به فى بعض الأدمغة هو الذى كان يسميه علماء الأدب العربى بالتوليد ، وقد عرفوا أثره ، ولكنهم لم يتنبهوا إلى حقيقته ولا أدركوا من سره شيئًا ؛ وأحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق فى كتاب العمدة : « إنما سمى الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف

= ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً فى شعاب الجبال وبطون الأودية فينقاد له الكلام ؛ وأخبارهم كثيرة فى الطرق التى يستعان بها على الشعر ويجتلب بها نافره ، والحقيقة أنها علل من النفس تعارض حالة الإلهام إلى أن تزول وتصفو النفس منها ، أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً إلى أن تتغير بأسباب ملهمة .

* هنالك فرق علمى بين ما يسمى نبوغا وما يسمى عبقرية ، ولكننا فى هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدنا فى مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقرى فى جماع أمره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذى طريقه مادة السلك وبين الآخر الذى طريقه روح الجو ؛ فكلاهما هو الآخر ولكن أحدهما لابد له من طريق سلوك والآخر طريقه كل الطرق ، أى فوق أن يقيد بطريقة .

لفظ وابتداعه ، أوْ زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر — كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن » . هذا كلام ابن رشيق ، وليس لهم أحسن منه ، وهو مع ذلك تخليط لا قيمة لهُ وليس فيه من موضوعنا إلا لفظ التوليد .

ومما لا نقضى منه عجباً فى تتبُّع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة ، أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لا ينقصها شىء من دقائق المعنى فى أصل وضعها ، على حين لا يفهم علماؤها من هذه الألفاظ إلا بعض ما تدل عليه ، كأنها منزّلةٌ تنزيلا ممن يعلم السر ؛ وقد نبهنا إلى هذا فى كتابنا (تاريخ آداب العرب) وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التى تفوت العقل ، حتى إن أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفُضّ العلومُ والفلسفة خواتمها فى عصور آتية لا ريب فيها* ؛ وكلمة التوليد التى لم يفهم منها العلماء إلا أخْذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الأخذ التى أشاروا إليها فى كتب الأدب — هى الكلمة التى لا يخرج عنها شىء من أسرار النبوغ ولا تجد ما يسدُّ فى ذلك مسدّها أو يحيط إحاطتها ، ولا نظن فى لغة من اللغات ما يشبهها فى هذه الدلالة واستيعابها كلّ أسرار المعنى ؛ إذ هى بلفظها نصٌّ على حياة الكون فى الذهن الإنسانى ، وأنه يتخذه وسيلة لإبداع معانيه ، كما يتخذ سرُّ الحياة بطنَ الأم وسيلة لإبداع موجوداته ؛ وأن المعانى تتلاقح فيلِدُ بعضها بعضاً فى أسلوب من الحياة ، وأن هذه هى وحدها الطريقة لتطور الفكر وإخراج سُلالاتٍ من المعانى بعضُها أجمل من بعض ، كما يكون مثل ذلك فى النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وأن النبوغ ليس شيئاً إلا التركيب العصبى الخاص فى الذهن ، ثم نمو هذا التركيب مع الحياة فى طريقةٍ سواء هى وطريقة الولادة الـمُسَحِيية التى مرجعها كذلك إلى تركيب خاص فى أحشاء الأنثى ؛ ينمو ، ثم يدرك ثم يعمل عمَله المعجز ؛ وإذا كان من كل شىء فى الطبيعة

* على هذا المعنى وكشف أسراره فى آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد « أسرار الإعجاز » قلت وانظر ص ٢٨٩ « حياة الرافعى » .

زوجان ، فالكلمةُ نصٌّ على أن أذهان النوابغ أذهان مؤنثة فى طباعها التى بنيت عليها ؛ وهذا صحيح ، إذ هى أقوى الأذهان على الأرض فى الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعانى الدموع والابتسام أسرع إليها من غيرها ، بل هى طبيعة فيها ؛ وهى وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق ، وعملها فى ذلك هو قانون وجودها ؛ ثم هى قائمة على الاحتمال والإعطاء والرضا بالحرمان فى سبيل ذلك وإدمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ؛ وكل ذلك من طباع الأنثى وهى النابغة فيه ، بل هى النابغة به .

فسر النبوغ فى الأدب وفى غيره هو التوليد ، وسر التوليد فى نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية ، المتجه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكى إلى السماء وأجرامها ؛ وبذلك العنصر الذهنى يزيد النابغة على غيره ، كما يزيد الماس على الزجاج ، والجوهر على الحجر ، والفولاذ على الحديد ، والذهب على النحاس ؛ فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد فى سر تركيبها ؛ ويتفاوت النوابغ أنفسهم فى قوة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعض ، وتمدُّ لهم فى الخلاف أحوالُ أزمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ؛ وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة ؛ وبذلك تتنوع الأساليب ، ويعاد الكلام غير ما كان فى نفسه ، وتتجدد الدنيا بمعانيها فى ذهن كل أديب يفهم الدنيا وتتخذ الأشياء الجارية فى العادة غرابة ليست فى العادة ويرجع الحقيقيُّ أكثر من حقيقته .

وقد سئلُ مصوِّر مبدع بماذا يمزج ألوانَه فتأتى ولها إشراقها وجمالها ونبوغ مبانيها وزهو الحياة بها فى الصورة ، فقال : إنما أمزجها بمخى . وهذا هذا ، فإن الألوان عند الناس جميعـًا ، ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسر الصناعة فى توليد هذا الدماغ فكأن ألوانه فى صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناوله العبقرى فإنك لتجد الشعر فى وزن خاصٍ به يدل عليه ويتمم الغرض منه ويضيف إلى معانيه أنقا من الجمال وحسنه وإلى صوته نغمـًا من الموسيقى وطربها . فما أشبه الجهاز العصبى فى دماغ كل نابغة أن يكون وزناً شعريـًّا لهذا النابغة بخاصته . ألا ترى أنك لا تقرأ الأديب الحق إلا وجدتَ كل

ما يكتبُه يجيء فى وزن خاص به حتى لا يخرج عنه مرة ، أو تزيد أنت فيه وتنقص إلا ظهر لك أنه مكسور . . . ؟

والذهن العبقريُّ لا يتخذ المعانى موضوع بحث ونظر وتعقُّب يستخرج منها أو يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكى وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم و يعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها إلا أشياؤه هو وأمثاله . أما الذهن العبقرى فليس له من المعانى إلا مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوّع وتتساقط له أشكالاً وصوراً فى مثل خطرات البرق ، وربما غمر بالمعنى الواحد فى جماله وسموه وقوة تأثيره مقالات عدة لأولئك الأذكياء فنسخها نسخًا وجعلها منه كالشموع الموقدة بإزاء الشمس . فإذا ذهبتَ توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات فى الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع إلا أن تقول لها : يا حصاة الميزان فى إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل فى الكفة الأخرى . . . ؟

وقد عرف الأدباء جميعًا أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة ، ثم ينقحها ، ثم يهذبها ، ثم يعيدها ، ثم يرجع فيها ، وهكذا خمس مرات إلى ثمان ويقدّم ويؤخر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكا وتهذيبًا ، وما هو منها فى شيء ولا أحسب الأوربيين أنفسهم تنبهوا إلى سر هذه الطريقة ، وإنما سرها من جهاز التوليد فى رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابة حوّلها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل فى ذلك أو يتكلّف له إلا ما يتكلف من يهز إليه بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجةً حلواً جنيًّا . فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى فى النهاية وإنه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدى إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولا عن وجهه مرات لا مرة واحدة .

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم فى إنسان أصبح له بمقام ملك الوحى من النبى وهو عندنا دليل من أقوى الأدلة على صحة النبوة وحدوث الوحى وإمكانه إذ لا تتصرف به إلا قوة غيبية لا عمل للإنسان فيها ، بل هى تبدع إبداعها وتلقى عليه إلقاءً . وليس كل من تعرض لها أدرك منها ، ولا كل من أدرك

منها بلغ بها ، بل لا بدّ لها من الجهاز العصبى المحكم كجهاز اللاسلكى الدقيق المصنوع لتلقى أبعد الأمواج الكهربائية وأقواها . وهذه القوة إن أرادت معانى الجمال أخرجت الشاعر وإن أرادت كشف السر عن الأشياء أخرجت الأديب وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم . فإن كان الآمر أكبر من هذا كله وكان أمر تغيير الحياة وصبّ أزمان جديدة للإنسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة أو درجات فى الرقى – فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة ، فليس لها من قوة الغيب إلا الوحى ، ويكون الغرض أكبر من الشاعر والأديب والحكيم ، فلا يختار إلا النبى ، ثم لا يوحى إليه إلا وهو فى حسٍّ لساعة الوحى وحدها ، وهى ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقّى عن روح الخلد ؛ وقريبٌ من ذلك خلوة النابغة بنفسه فى ساعة التوليد ؛ فسر النبوغ من سرّ الوحى ، لا ريب فى ذلك ، وما أسهل سرّ الوحى وأيسر أمرَهُ ، ولكنْ فى الأنبياء وحدهم ، وهنا كل الصعوبة . . . « أن نكون أو لا نكون ؛ هذه هى المسألة » . .

* * *



نقد الشعر وفلسفته(١)

الشاعرُ في رأينا هو ذاك الذي يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشقٌ خاص وفيهما غَزَلٌ على حِدَةٍ ، وقد خُلِقَتا مُهيَّأتين بمجموعة لنفس العصبية لرؤية السِّحر الذي لا يُرَى إلا بهما ، بل الذى لا وجود له فى الطبيعة الحية لولا عينا الشاعر ، كما لا وجود له فى الجمال الحى لولا عينا العاشق .

فإذا كان الشاعر العظيم أعمى كهوميروس وملتون وبشار والمعرّى وأضرابهم ، انبعثَ البصرُ الشعريُّ من وراء كل حاسة فيه ، وأبصر من خواطره المنبثة فى كل معنى ، فأدَّى بالنفس فى الوجود المظلم أكثر ما كان يؤدِّيه بهذه النفس فى الوجود المضىء ، وقصَّر عن المبصرين فى معانٍ وأربى عليهم فى معانٍ أخرى ، فيجتمع للشعر من هؤلاء وأولئك مَدٌّ النفس المُلْهَمَة مما بين أطرافِ النور إلى أغوار الظُّلمة .

والشعر فى أسرار الأشياء لا فى الأشياء ذاتها ، ولهذا تمتاز قريحةُ الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التى تصبغُ كلَّ شىء وتلوِّنه لإظهار حقائقه ودقائقه حتى يجرىَ مجراه فى النفس ويجوزَ مَجَازَهُ فيها ؛ فكلُّ شىء تَعَاوَرَهُ الناسُ من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يُعطيهم مادته فى هيئته الصامتة ، حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة فى صورتها المتكلمة ، فأبانت عن نفسها فى شعره الجميل بخصائص ودقائق لم يكن يراها الناسُ كأنها ليست فيها .

فبالشعر تتكلم الطبيعة فى النفس وتتكلم النفس للحقيقة وتأتى الحقيقةُ فى أظرف أشكالها وأجمل مَعَارِضها ، أى فى البيان الذى تصنعه هذه النفس الملهمةُ حين تتلقَّى النور من كل ما حولها وتعكسُه فى صناعةٍ نورانية متموِّجةٍ بالألوان فى المعانى والكلمات والأنغام .

والإنسانُ من الناس يعيش فى عمر واحد ، ولكن الشاعر يبدو كأنه فى

(١) مجلة أبولو : مايو سنة ١٩٣٢ .

أعمار كثيرة من عواطفه ، وكأنما ينطوى على نفوس مختلفة تجمع الإنسانية من أطرافها ، وبذلك خُلق ليُفيضَ من هذه الحياة على الدنيا ، كأنما هو نبعٌ إنسانيٌّ للإحساس يغترفُ الناسُ منه ليزيد كلٌّ إنسان معانىَ وجوده المحدود ما دام هذا الوجودُ لا يزيد فى مدته ، ثم ليرهِفَ الإنسانُ بذلك أعصابه فتدركَ شيئًا مما فوق المحسوس ، وتكتنه طرفاً من أطراف الحقيقة الخالدة التى تتسع بالنفس وتخرُجها من حدود الضرورات الضيقة التى تعيشُ فيها لتصلها بلذات المعانى الحرة الجميلة الكاملة ؛ وكأن الشعر لم يجئْ فى أوزان إلا ليحمل فيها نفس قارئه إلى تلك اللذات على اهتزازات النغم ؛ وما يُطرب الشعرُ إلا إذا أحسسته كأنما أخذ النفس لحظة وردَّها .

والشاعرُ الحقيقُ بهذا الاسم – أى الذى يَغلبُ على الشعر ويفتتح معانيه ويهتدى إلى أسراره ويأخذ بغاية الصنعة فيه – تراه يضع نفسه فى مكان ما يعانيه من الأشياء وما يتعاطى وصفَه منها ، ثم يفكر بعقله على أنه عقلُ هذا الشىء مضافًا إليه الإنسانيةُ العالية ، وبهذا تنطوى نفسه على الوجود فتخرج الأشياءُ فى خلقة جميلة من معانيها وتصبح هذه النفس ُخليقةً أخرى لكل معنى داخَلها أو اتصل بها ؛ ومن ثم فلا ريب أن نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون .

ولو سُئلتْ أزمانُ الدنيا كيف فهم أهلُها معانى الحياة السامية وكيف رأوها فى آثار الألوهية عليها ، لقَدَّمَ كل جيل فى الجواب على ذلك معانى الدين ومعانى الشعر .

وليست الفكرةُ شعراً إذا جاءت كما هى فى العلم والمعرفة ، فهى فى ذلك علم وفلسفة ، وإنما الشعر فى تصوير خصائص الجمال الكامنة فى هذه الفكرة على دقة ولطافة كما تتحول فى ذهن الشاعر الذى يلوّنها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية أسرارها .

فالأفكار مما تُعانيه الأذهانُ كلها ويتواطأ فيه قلبُ كل إنسان ولسانه ، بَيْدَ أن فنَّ الشاعر هو فنُّ خصائصها الجميلة المؤثرة ، وكأن الخيال الشعرىَّ نحلة من النحل تُلمُّ بالأشياء لتُبدعَ فيها المادة الحلوة للذوق والشعور . والأشياءُ

باقيةٌ بعد كما هى لم يغيرها الخيال ، وجاء منها بما لا تحسبهُ منها ؛ وهذه القوة وحدها هى الشاعرية .

فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم فى نفس قارئها حَسْبُ ، وإنما هو يصنعها ويَحْذُو الكلام فيها بعضَه على بعض ، ويتصرفُ بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معًا ؛ وعبقريةُ الأدب لا تكون فى تقرير الأفكار تقريراً علمياً بَحتًا ، ولكن فى إرسالها على وجه من التسديد لا يكون بينه و بين أن يُقرّها فى مكانها من النفس الإنسانية حائلٌ . وكثيراً ما تكون الأفكار الأدبية العالية التى يُلْهَمُهَا أفذاذ الشعراء والكتاب هى أفكارَ عقل التاريخ الإنسانى ، فلا تَنفْصِل عنهم الفكرةُ فى أسلوبها البيانى الجميل حتى تتخذ وضْعَها التاريخىّ فى الدنيا ، وتقوم على أساسها فى أعمال الناس ، فتتحقق فى الوجود ويُعمل بها ؛ وهذا طَرَفٌ مما بين الأدب العالى و بين الأديان من المشابهة .

ومتى نُزِّلَتْ الحقائقُ فى الشعر وجب أن تكون موزونة فى شكلها كوزنه ، فلا تأتى على سَرْدها ولا تؤخذ هَوْنًا كالكلام بلا عمل ولا صناعة ، فإنها إن لم يجعل لها الشاعرُ جمالاً ونسقًا من البيان يكون لها شبيهًا بالوزن ، ويضع فيها روحًا موسيقية بحيث يجىء الشعر بها وله وزنان فى شكله وروحه — فتلك حقائق مكسورةٌ تلوح فى الذوق كالنظم الذى دخلته العلل فجاء مختلاً قد زاغ أو فسد .

والخيال هو الوزن الشعرى للحقيقة المرسلة ، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور فى طبيعة المعنى ليشِفَّ به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ، ويرفع الإنسانية درجة سماوية ؛ وكل بدائع العلماء والمخترعين هى منه بهذا المعنى ، فهو فى أصله ذكاءُ العلم ، ثم يسمو فيكون هو بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد سموّه فيكون روح الشعر ؛ وإذا قلبتَ هذا النسق فانحدرت به نازلاً كما صعدتَ به ، حصل معاك أن الخيال روحُ الشعر ، ثم ينحط شيئًا فيكون بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد انحطاطًا فيكون ذكاءَ العلم ؛ فالشاعر كما ترى هو الأول إن ارتقت الدنيا ، وهو الأول إن انحطت الدنيا ؛ وكأنما إنسانية الإنسانُ تبدأ منه .

* * *

إذا قرنا للشعر هذا المعنى وعرفنا أنه فنُّ النفس الكبيرة الحسَّاسة الملهمة حين تتناولُ الوجودَ من فوق وجوده فى لطف روحانىّ ظاهرٍ فى المعنى واللغة والأداء — وجب أن نعتبر نقد الشعر باعتبارٍ مما قرناه ، وأن نقيمه على هذه الأصول ؛ فإن النقد الأدبى فى أيامنا هذه — وخاصةً نقد الشعر — أصبح أكثره ، مما لا قيمة له ، وساء التصرف به ، ووقع الخلطُ فيه ، وتناوله أكثرُ أهله بعلم ناقص ، وطبع ضعيف ، وذوق فاسد ، وطمع فيه من لا يحصِّلُ مذهبًا صحيحًا ، ولا يتَّجهُ لرأى جيد ، حتى جاء كلامهم وإنَّ فى اللغو والتخليط ما هو خير منه وأخفّ محملاً ، فإنك من هذين فى حقيقة مكشوفة تعرفها تخليطًا ولغواً ، ولكنك من نقد أولئك فى أدب مُزَوَّر ودعوى فارغة وزوائدَ من الفضول والتعسف يتزيَّدون بها للنفخ والصَّوْلة وإيهام الناس أن الكاتب لا يرى أحداً إلا هو تحت قدرته . . . على أن جهد عمله إذا فتشته واعتبرت عليه ما يخلط فيه ، أنه يكتب حيث يريد النقد أن يحقق ، ويملأ فراغًا من الورق حيث يقتضيه البحث أن يملأ فراغًا من المعرفة .

وقد قلنا فى كتابنا (تحت راية القرآن) : إن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصى موادها — ذوقًا فنيًا مهذَّبًا مصقولا ، وليس يمكن أن يأتى له هذا الذوق إلا من إبداع فى صناعتى الشعر والنثر ، ثم يجمع إلى هذين (أى الإحاطة والذوق) تلك الموهبة الغريبة التى تلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤرخ الفيلسوفِ الشاعر العالمِ شخصًا من هؤلاء جميعًا هو الذى نسميه الناقد الأدبى .

هذه هى صفات الناقد فى رأينا ؛ فانظر أين تجده بين هؤلاء الأساتذة المختَصرين . . . فى أدبهم ، المطوَّلين . . . فى ألقابهم ، وإنهم ليتعاطَوْن النقد وليس لهم وسائله إلا ما كان ضعفةً وقلةً وإدباراً ، وقد فاتهم ما لا تحمله أقدارهم ولا تبلغه قواهم ، وجهلوا أن الناقد الأدبى إنما يلقى درسًا عاليًا لا يُدَلُّ فيه على العيوب الفنية إلا بإظهار المحاسن التى تقابلها فى أسمى ما انتهى إليه الفن من آثار تاريخه ، فيكون النقد تهذيبًا وتخليصًا لفنون الأدب كلها ؛ وهو بهذه الطريقة يجلوها على الناس ويُبدع فيها ويزيد فى مادتها ويسهلها على القراء

ويحصلها لهم تحصيلا لا يبلغونه بأنفسهم ، ويعطيهم من كل ضعيف ما هو قوى ، ومن كل قوى ما هو أقوى .

ورأيناهم فى نقد الشعر لا يزيدون على أن يعلقوا على كلام الشاعر ، فيجىء عملهم فى الجملة كأنه تصنيفٌ من هذا الشعر وشرحٌ له وتَصفُّحٌ على بعض معانيه ، وبهذا يرجع الشاعر وإنه هو المتصرف فى ناقده يُدِيره كيف شاء ، ويجىء هذا الناقد زائداً متطفلا ، فتأتى كتابته وإنها لَضَرْبٌ من سخرية المنقود بناقده ، ويصبح وضعُ الكلام على العكس ، فالشاعر المنقود لم يتكلم ولكنه أبان قصورَ الناقد وجهله ، فهو الناقد وإن سكت ، وذاك هو المنقود وإن تكلم !

وهذا المتعلِّق على أخبار الشاعر وشعره كتعلُّق التلخيص على أصله المطوَّل والشرح على متنه الموجَز ، إنما هو كاتب يجد من ذلك مادة إنشائية فيتصرف بها ليكتب ؛ ولا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء ، بل مادة حساب مقدَّر بحقائق معينة لا بد منها ؛ فنقد الشعر هو فى الحقيقة علم حساب الشعر ، وقواعده الأربع التى تقابل الجمع والطرح والضرب والقسمة : هى الاطلاع والذوق والخيال والقريحة الملهَمة .

وثمَّ ضَرْبٌ آخر من تعلُّق الضعفاء ، يتناولُ الشاعرَ باعتباره رجلاً له موضعه من الناس ومنزله من الحياة ، ثم لا يعدو ذلك * وهو تزوير للمؤرخ بجَعْلِه ناقداً ، وتزوير للناقد بِردِّه مؤرخاً ؛ على أن هذا لا بد منه فى النقد الصحيح ، ولكنه لا يقوم بنفسه ولا تنفُذُ به بصيرةُ النقد ، إذ الشاعر لم يكن شاعراً بأنه رجلٌ من الناس وحى فى الأحياء وعمرٌ من الحوادث المؤرخة ، ولكن بموضوعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة فى كائناتها عامةً ، وفى إنسانها خاصة ، ثم بقدرةٍ مثل هذه فى النفاذ إلى أسرار اللغة الشعرية التى هى الوجود المعنوى لكل ذلك ، والتصرف بها على طبقات معانيه حتى لا تقصر عن الغاية ولا تقع دون القصد ، فإن الشعر إن هو

* لم نذكر فى هذه المقالة أمثلة ولم نعين أسماء حتى لا يمتد الكلام فتخرج المقالة إلى أن تكون كتابا ، ولكنك إذا قرأت الشعر وما يكتب فى نقده ، والمحاضرات التى تلقى عن الشعراء فقد وجدت الأمثلة والأسماء . . .

هو إلا ظهورُ عَظمة النفس الشاعرة بمظهرها اللغوى ، ولئن كان فى نقد الشعر تاريخ لا يتم النقد إلا به ، فهو تاريخ الشعر فى نفس قائله، ثم تاريخ هذه النفس فى معانى الشعر من عصرها ، ثم أدب هذا الشاعر من الوجود الأدبى للغة التى نظم بها ؛ وذلك لا بد أن يقع فيه تاريخ الشاعر نفسه محصَّلا من نواحيه فى جهات الحياة . مُتَعمَّقًا فيه بالاستقصاء ، مُتغلغلاً إليه بالنقد . . .

* * *

وإن لنا رأيًا بسطناه مراراً ، وهو أنه لا ينبغى أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر كبيرٌ يكون ذا طبيعة فى النقد ، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة فى الشعر ؛ أى لا بدمن الأدب والشعر معًا لنقد الشعر وحده فيأتى الكلامُ فيه من العلم والذوق والإحساس والإلهام جميعًا ، فيتبين الناقدُ وجوهَ النقص الفنِّى ، ويعرف بمَ نقصتْ وما ذا كان ينبغى لها وما وجه تمامها ، ثم يعرف من الكمال الفنى مثل ذلك ، ويُحِس على الحالتين بالمعانى التى أحسَّها الشاعرُ حين انتزع شعرهُ منها ، وما كان يَتَخالجهُ وقتئذ من الفكر ويتمثلُ له من الصور المعنوية التى ألهمته إلهامَها ؛ فإن المعانى المكتوبة هى شعر الشاعر ، ولكن تلك المعانى المحسوسة هى شعر الشعر ، وإنما يوقَفُ عليها بالتوهم والاسترسال إلى ما وراء الشعر من بواعثه ، وما تموّجتْ به روحُ الشاعر عند عمله ، وما عرَضتْ لها به طبائعُ المعانى ؛ وهذا كله لا يحسه الناقدُ إن لم يكن شاعراً فى قوة من ينقدُه أو أقوى منه طبيعةَ شعرٍ .

والنقد إنما هو إعطاءُ الكلام لسانًا يتكلم به عن نفسه كلامَ متهم فى محكمة ليقيمَ أو يُزيحَ شبهة أو يقر حقيقةً أو يبسط معنىً أو يُوجِّهَ علةً أو يكشف خافياً أو يثبتَ نقيصةً أو يظهر إحسانًا ؛ وبالجملة فهو نَفْض السيئة والحسنة ، ووقوع أدلة العلم والفن والذوق مواقعها . وتكلُّمُ الكلام بذات نفسه ما تنكرُ منه وما تستجيد ؛ والشاعر والناقد يلتقيان جميعًا فى القارئ فوجب من ثمَّ أن يكون الناقدُ قوة تكشف قوة مثلها أو دونها ليُصحِّحَ فنٌّ فنًّا مثله أو يقرَّه أو يزيدَ عليه فضلَ بيان ومزيَّةَ فكرٍ ؛ وبهذا يصبح القارئُ كالسائح الذى معه الدليلُ وأمامه المنظر ، أى معه التاريخُ الناطقُ وبإزائه التاريخ الصامت . وإذا كان الشاعر وشعره إنما

هما النفسُ الممتازة وحوادثها وإلهامُها ومعانى الحياة فيها ، فليس يتَّجهُ أن يكون الناقدُ تامًّا إلا بنفس من نوعها فى دقة الحس ولطف النظر والاستشفاف وقوة التأثر بمعانى الحياة وسموِّ الإلهام والعبقرية : وبذلك يجىء النقد الصحيح بيانًا خالصًا منخولاً كأنه شرحُ نفس لنفس مثلها .

وليس الأنفُ هو الذى ينقد الوردة العطرة الفيَّاحةَ ، وإنما تنقدها الحاسةُ التى فى الأنف ، وناقد الشعر إن لم يكن شاعراً فهو أنفٌ صحيح التركيب ، ولكن بالجلد والعظم دون تلك الحاسة التى هى روح العَصب المنبث فى هذا التركيب والمتصل بما وراءه من أعصاب الدماغ ، فهذا الأنف . . . يستطيع أن يتناول الوردة ، ولكن بحسٍّ غليظ مَحَقَتْه الآفة كما يتناول حجراً أو حديداً أو خشبًا أيَّها كان ، فالوردة عنده شىء من الأشياء يمتاز باللين ويختصُّ بالنعومة ويسطعُ بالرونق ويزهو باللون ، ويذهب يتكلم فى هذا كله ، وهذا كله فى الوردة ، ولكنه ليس الوردة .

ومتى كان البحثُ هو البحثَ فى السماء وأفلاكها وأجرامها فلا يستقلُّ به إلا الناظر المركَّب أى الذى معه عينُه وتلسكوبهُ وعلمهُ جميعًا ، إن نقص من ذلك فبقدر نقصانه يكون ضعفه ، وإن تمَّ فبقدر تمامه يكون وفاؤه ؛ ولو أمكن أن ينفصل الشاعر من شعره فيقطعَ ما بينه وبين المعانى من نسب نفسه ، ويبتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته — لكان هو الناقد ؛ فناقد الشعر هو الشاعر نفسُه ، ولكن فى وضع أتم وأوفى ، وحالة أبْين وأبصر ، أى كأنه الشاعر نفسه منقحًا تامًّا بغير ضعف ولا نقص .

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكَم إذا قرأتَه ما يُخيِّل إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضًا ويُحصِّل لك أمره ويبين حالته فى ذهن شاعره . وكيف توافَى وائتلف ، وكيف انتزعه الشاعر من الحياة ، وما وقع فيه من قدر الإلهام ، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء وبالجملة يُورد النقدُ عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر .

* * *

ألا وإن شعرنا العربيّ الجميل قد أصبح اليوم فى أشد الحاجة إلى من يعلّم القارئ كيف يذوقه ويتبيّنه ويخلص إلى سر التأثير فيه ، ويخرجه مخرجاً سرّياً فى أنغامه وألحانه ويأتى به من نفس شاعره ومن نفسه جميعاً ؛ فقوة التمييز فى هذا كله على تسديد وصواب هى التى يعطيها الناقد لقرائه ؛ والشعر فكر وقراءته فكر آخر ، فإن قصّر هذا عن أن يبلغ ذاك ليتصل به ويتغلغل فيه فلا بد للفكرين من صلة فكرية هى كتابة الناقد الذى هو من ناحية كمال للطبيعة الناقصة ، ومن ناحية أخرى شرح للطبيعة الكاملة ، ومن ناحية ثالثة هو بذوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذى يبين به ما استقام فى الكلام وما اعوجّ .

وطريقتنا نحن فى نقد الشعر تقوم على ركنين : البحث فى موهبة الشاعر ، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه ؛ والبحث فى فنه البيانى ، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته ، وسنقول فيهما معاً :

فأما الكلام فى فن الشعر ، فالمراد بالشعر — أى نظم الكلام — هو فى رأينا التأثير فى النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتيال على رجّة النفس له واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً فى نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال ، ولا يُحمَل عليه تعسف ولا استكراه ؛ فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحىّ ونسقه الطبيعى كأنما يُقْرَع به على القلب الإنسانى ليفتح لمعانيه إلى الروح ؛ والشعر العربى إذا تمت له فى صناعته وسائل التأثير وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر إنسانى فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائغة وكأنه لا يحمل فيها معانى ، بل يحمل حركات عصبية ليس بينها وبين أن تنساب فى الدم حائل ، فما يكون إلا أن يغمرك بالطرب ويهزك من أعماق النفس ويورد عليك من نفحة الروح ما إن تدبرته فى نفسك وأفصحت عنه شعورك رأيته فى حقيقته وجهاً من نسيان الحياة الأرضية والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والألم والشجو يحياها الدم الثائر وحده غير مشارَك فيها إلا من القلب .

والذين يجهلون ذلك من أمر الشعر العربى فى مزاجه الخاص — فلا يعتبرونه حيّاً ذا طباع وخصائص لا بدّ من مراعاتها والنزول على حكمها وتلقّيها بما يوافقها كما لا بدّ من

أشباه ذلك لامرأة جميلة — تراهم يُخِلّون بقوانين صناعته البيانية وينزلون ألفاظه دون منازلها ويرسلون معانيه على غير طريقتها الشعرية ويبتلونه بفضول كثيرة هى كالآفات والأمراض ، فيأتون بنظم تقرؤه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرعُ على قلبك بقبضة يد أو يدقّ عليه بحجر . . . وقد فشا هذا النوع من الشعر فى هذه الأيام وأصبح مظهراً لما فسد من ذوق الأدب وما التاث من أمر اللغة وما اعوجّ من طرق الفلسفة وما عمَّت به البلوى من التقليد الأوربى ، وكثيراً ما رأيت القصيدة من هذا الشعر كامرأة سُلخ وجهها ووضعت لها جلدةُ وجه ميت . . . والناظم من هؤلاء لا يُصَرِّف الشعر على حدوده النفسية ولا يحكمه فيها ، بل تصرِّفه الألفاظ كيف اتفقت له على وجوهها الملتوية ، وتسوسه المعانى سياسة عمياء فقدت باصرتيها معًا ، ويحسبون كلامهم من النور العقلى ، ولكنه النور فى قطعه ثمانين ألف ميل فى الثانية ، فلا يكاد يقال فى هذا العالم ، حتى يخرج منه وينسى ويلحق باللانهاية . . .

وهذا الضرب من الصناعة الفاسدة هو بعينه ذلك النوعُ الصناعى الذى أفسد الشعر منذ القرن الخامس ، غير أن القديم كان فساداً فى الألفاظ يجعلها كلها أو أكثرها مُحالاً من الصنعة ، والحديث جاء فساداً فى المعانى يجعلها كلها أو أكثرها مُحالا من البيان .

ويزعم أصحابُ هذا الشعر أنهم فلاسفة ، ولكنهم كذلك فى سرقة الفلاسفة لا غير . . . ولو علموا لعلموا أن ألفاظ الشعر هى ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلامَ والموسيقى معًا ، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرقى منها تؤدى المعنى بالدلالة والنغم والذوق ، فكل كلمة فى الشعر تَجتَلِبُ لمعناها من تركيبه ، ثم لموضعها من نسقه ، ثم لَجَرْسها فى ألحانه ؛ وذلك كله هو الذى يجعل للكلمة لونها المعنوى فى جملة التصوير بالشعر ؛ وما يمرّ الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهى كأنها تكلمه تقول: دعنى أو خذنى .

وكما أنه لا بد للأزهار من جو الأشعة ، كذلك لا بد للمعانى الشعرية من جو اللغة البيانية ، فالبيان إنما هو أشعة معانى القصيدة ؛ وقد يحسبون أن الصناعة

البيانية صناعة متكلفة لا شأن لها فى جمال الشعر ودقة التعبير . وما ننكر أن من البيان الجميل أشياء متكلفة ، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كمنزلة الظرف والدَّل والخلاعة فى الحبيبة الجديلة .

إن هذه الفنون ليست من جمال الخلقة والتركيب فى المرأة ، ولكنها متى ظهرت فى الجمال الفاتن أصبح بدونها — وهو جميل دائمًا — كأنه غير جميل أحيانًا .

هنا صناعة هى روح الحسن فى الحياة ، وصناعة مثلها هى روح الحسن أحيانًا فى البلاغة * ، وما التراكيب البيانية فى مواضعها من الشعر الحى إلا كالملامح والتقاسيم فى مواضعها من الجمال الحى ؛ وكثيراً ما يخيَّل إلىَّ حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل فى شعر محكم السبك ، أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنِّق يتقرب من حب امرأة جميلة ، وعطف أمومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس ؛ فإذا قرأتُ فى شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطى أخذ بتلابيب لفظ كالمجرم . . . إلى كلمتين هما معًا كالضارب والمضروب . . . إلى همج ورعاعٍ وهرج ومرج وهيج وفتنة ؛ أما القافية فكثيراً ما تكون فى شعرهم لفظًا ملاكمًا . . . ليس أمامه إلا رأس القارئ .

وكما يهملون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون فى اختيار الوزن الملائم لموسيقية الموضوع فإن من الأوزان ما يستمِرُّ فى غرض من المعانى ولا يستمرّ فى غيره ؛ كما أن من القوافى ما يطرد فى موضوع ولا يطرد فى سواه ، وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر . فالذين يهملون كل ذلك لا يدركون شيئًا من فلسفة الشعر ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبيعتين فى صناعته ؛ إذ المعنى قد يأتى نثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى ، بل ربما زاده النثر إحكامًا وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه

* لنا كلام طويل فى فلسفة الأسلوب البيانى سنذكره إن شاء الله فى كتابنا الجديد (أسرار الإعجاز) .

[قلت : واقرأ حديثنا عن (أسرار الإعجاز) فى كتاب (حياة الرافعى) ص ٢٨٩]

فيه من البسط والشرح والتسلسل ، ولكنه فى الشعر يأبى غناء ، وهذا ما لا يستطيعه النثر بحال من الأحوال .

فإذا لم يستطع الشاعر أن يأتى فى نظمه بالروىّ المونَق والنَّسج المتلائم والحبك المستوى والمعانى الجيدة التى تخلص إلى النفس خلوص طبيعة إلى طبيعة تمازجها ، ورأيته يأتى بالشعر الجافى الغليظ والألفاظ المستوخمة الرديئة والقافية القلقة النافرة والمجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة الممسوخة — فاعلم أنه رجل قد باعده الله من الشعر وابتلاه مع ذلك بزيغ الطبيعة وسرف التقليد ، فما يجىء الشعر على لسانه فى بيت إلا بعد أن يجىء اللغو على لسانه فى مائة بيت أو أكثر أو أقل .

ذلك قولنا فى فن الشاعر ، أما الكلامُ فى موهبته التى بها صار شاعراً وعلى مقدارها يكون مقدارُه واتصالُ أسبابه أو انقطاعُها من الشعر ، فذلك بابٌ لا يمكن بسط المعنى فيه ولا تحصيلُ دقائقه إلا إذا صُوِّرت روح الشاعر فى تركيبها الدقيق المعجز ووُزنت فى ميزانها الإلهى وعُرف نقصُها إن نقصتْ وتمامُها إن تمت ، وأمكن تتبُّعُ مواقعها من أسرار الأشياء ومساقطها من منازل الإلهام ، وهذا ما لا سبيلَ إليه إلا بالتوهم النفسىّ ، فإن الأرواح القوية يلمح بعضها بعضًا ، وقد تكون لمحةُ الروح الشاعرة لروح مثلها هى تَدَبُّرَهَا ووزنها وإدراك ما تنطوى عليه كما ترى من وضع النور بإزاء النور ، فإن هذا الوضع هو نفسُه وزنٌ لكليهما فى ميزان البصر دون أن يكون ثمةَ موازنة إلا فى التألق والشعاع ؛ فهما فى هذه الحالة نوران يضيئان ، ولكنهما أيضًا كلمتان يبينان عما فيهما من الأكثر والأقل .

لهذا قلنا إن الشاعر لا يتسع لنقده ولا يحيط به إلا من كانت له روحٌ شعرية تكافئهُ فى وزنها أو تربى على مقداره ؛ فإن هناك قُوى روحيةً لإدراك الجمال وخلقه فى الأشياء خلقًا هو روحُ الشعر وروحُ فنه ، وقوًى أخرى لصلة العواطف بالفكر صلة هى سرُّ الشعر وسرُّ فَنه ، وقوًى غير هذه وتلك لتحويل ما يخالجُ النفسَ الشاعرةَ تحويلَ المبالغة التى هى قوة الشعر وقوة فنه ؛ وبمجموع هذه القُوى كلِّها تمتاز روحُ الشاعر من غير الشاعر : أما ما تمتاز به

هذه الروحُ من روح شاعرة مثلها فهو ما يكون من تَفاوت المقادير التى يهبها الله وحده ، فيخص شاعراً بالزيادة وآخر بالنقص ، ويهبُ أسبابها التى تكون عنها فيوسع لواحد ويضيق على الآخر ؛ وإذا تمت تلك القوى واستحكمت تهيأ منها للشاعر جهاز عصبى خالص هو جهاز التوليد لا يمرُّ به معنى إلا تجسَّدَ فيه بصورة غير صورته .

وقد استوفينا الكلام على ذلك فى مقالنا « سر النبوغ فى الأدب » . وهو لا غيره سر العبقرية .

فأمثلُ الطرق فى نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها ، واكتناه مقادير الإلهام فيها ، وتأمل آثارها فى الجمال ، وتدبُّر طبيعتها الموسيقية فى الحس والفهم والتعبير ، وتبيُّن قدرتها على الفرح والحزن بأشجى وأرق ما تهتاج فى النفس الحساسة ، ومعرفة قوة التحويل فى عواطفها للمعانى الإنسانية والطبيعية تحويلا يجعل القوة أقوى مما تبلغ ، والحقيقة أكبر مما تظهر ، وتأتى بكل شىء ومعه شىء ؛ وليس ينتهى الناقد إلى ذلك إلا بالبحث فى الأغراض أى « المواضيع » التى نظم فيها الشاعر وما يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه وكيف تناولها من ناحيته ومن ناحيتها وماذا أبدع ، ثم فى أى المنازل يقع شعره من شعر غيره فى تاريخ لغته وآدابها ، ثم نظرته الفلسفية إلى الحياة ومسائلها واتساعه لأفراحها وآلامها وقوة أمواجه الروحية فى هذا البحر الإنسانى الرجَّاف المتضرِّب الذى يبلغ فى نفوس بعض الشعراء أن يكون كالأقيانوس وفى بعضها أن يكون كالمستنقع . . . ثم دقة فهمه عن وحى الطبيعة والإشراف على جلية معناها بالهمسة واللمسة ، وتسقُّط إلهام الغيب منها بالإيماءة واللحظة ؛ وهذا كله لا يستوسق للناقد العظيم إلا إذا كان مع روحه الشعرية التى اختص بها محيطًا بآثار الشعراء فى لغته ، بصيراً بمآخذها ، مُحْكِما لأسباب الموازنة بينها ، متصرفًا مع ذلك بأداة قوية من صناعة اللغة والبيان وفنون الأدب .

وإذا كان من نقد الشعر علمٌ فهو علم تشريح الأفكار ، وإذا كان منه فنٌّ فهو فنٌّ درس العاطفة ، وإذا كان منه صناعة فهى صناعة إظهار الجمال البيانى فى اللغة . . .

فيلسوف وفلاسفة . . .[1]

أتأمَّل الآن هذا القلم فى يدى — وأنا أفكر فيما سأكتبه للزهراء — فأرى نِصاب القلم أضلاعًا حُمْرًا فى لون المرجان ، تنسرحُ قليلا ، ثم تستديرُ ، ثم تستدقُّ ، ثم تخرج منها قادمةٌ سوداء كأنها قصبةُ ريشة من جناح ، وقد خُيِّل إلىَّ أن هذا اللون الأحمر المزْهُوَّ يقول للأسود : إنما أنت غلطةُ الذى صنعنى ، فكيف أُلهِمَ فىَّ هذا الإلهام فوسَمَنى بهذا الميسم من حُسْن ولون وتركيب ، ثم اعترضتْه الغفلة فيك فأخطأ ، وأدركه العجز فلم يميِّز ، ودخل على رأيه الوَهَن فإذا هو يصلك بى كالسيئة بعد الحسنة ، وينزلك منى منزلة القبح من الجمال ! فأين كانت صحةُ رأيه التى بلغ بها فى أحسن ما وفق إليه حين بلغ فيك أسوأ ما يمكن أن يصنع ؟ فيقول الأسود : إنما فيك أنت غلطة الصانع وبك أخطأ جهة الفن ، فلم يزنْ منك ما كان وزَن منى ، ولا قدَّر لك مثل ما قدَّر لى ، وجئت غليظًا غير مقدود ، وكنت إلى العرض ولم تكن إلى الطول ، وكنت أحمر ولم تكن أسود ؛ وما أراك إلا فاسد الحس ، متغير الذوق ، وما أراك صنعك هذا الرجل إلا فى ساعة همٍّ قاربتْ بين نفسه ورأيه ، فما زجتْ بين رأيه وعمله ، فجمعتْ بين عمله وغلطه .

ذلك منطق اللونين فيما أدركتُ منهما ، وكلاهما مخطىء فى جهة ما هو مستدل به أو متنظَّر فيه ؛ والحقيقة من ورائهما ، إذ الحكمة ليست فى أحدهما لحمرة أو سواد ، بل هى فى اثنيهما جميعًا لائتلافهما جميعًا ، فلا تنقسم عليهما قسمة ما ؛ لأنها آتية بالمقابلة بين اثنيهما ، وما لا يخرج أبداً إلا من اثنين فهو أبداً واحد لا نصف له ؛ كالطفل من أبويه : لن تعرف شطره من أمه لأنك لن تعرف شطره من أبيه .

أفى الأرض كلها من يستطيع أن يقسم طفلا واحداً فيجعله طفلين تعتدلُ بهما الحياة وتمدُّهما بروحين من روح واحدة ؟ إنك لن تجد هذا الخالق الأرضى

---

(١) مجلة الزهراء سنة ١٩٢٥ .

. . . إلا فى طائفتين : الأولى قوم من ذاهبى العقول يخلقون كل شىء لأنهم لا يخلقون شيئاً ؛ والثانية قوم من جبابرة العقول . . . عندنا تعرف لهم من الخلط وسخف الرأى ما يريدون أن يعلوا به على الناس ، إذ كان الناس لا يجاوزون الحقائق ، فظن هؤلاء أنهم إن جاوزوها وعَدَوْا عليها خرجوا إلى طبقة فوق العقل الإنسانى . وللجنون طرفان : أحدهما ألا يعقل المجنون عن الناس ، والآخر ألا يعقل الناس عن العاقل : فذلك ذلك وهذا هذا ؛ وكأن فى رأس كل منهما مُضْمَرَةً من قوة الخلق تنطوى على محجوبة إلهية ، فكل منهما يزيد فى الخلق ما يشاء ، وكل منهما فوق الطبيعة لأنه من ذوى الأسرار المجهولة التى لا تستبين عندنا من خفائها ، ثم لا تخفى عندهم من استبانتها .

يضحكنى من جبابرة العقول هؤلاء أنهم يرون الدين مرة عادة ، وتارة اختراعاً ، وحيناً خرافة ، وطوراً استبعاداً ؛ وكل ذلك لهم رأى ، وكل ذلك كانوا يعتمدونه بالحجة ويشدُّونه بالدليل ؛ فلما جاء طاغور الشاعر الهندى المتصوف إلى مصر ، وجلسوا إليه وسمعوه ، خرجوا يتكلمون كأنما كانوا فى معبد ، وكأنما تنزلت عليهم حقيقته الإلهية ، وكأنما اتضعت هذه الدنيا عن المكان الذى جلس فيه الرجل ، فلا يعرفونه من الأرض ، ولا من هذا العالم ؛ بل كانوا فى غشية قد فروا لها وسكنوا إليها . وما أراهم صُرفوا عن عقولهم ولا صُرفت عقولهم عنهم ؛ ولكن طاغور شاعر فيلسوف . وهم يعرفون أنفسهم من لصوص كتُبه وآرائه ، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ، وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسها نسور المزابل ، ولكنها لا تكابر فى أن من الهزؤ بها قياسها بنسور الجوّ .

لقد ضربهم طاغور ، لا بأنه لمسهم ، بل بأنهم لمسوه . . . وفضحهم فضيحة اللؤلؤة للزجاج المدَّعى أنه لؤلؤ ، وأظهر لنا تجمُّلهم العقلى كهذه الأصباغ فى وجه الشوهاء : تذهب تتصنع ولا تدرى أنه إن كان فى أدْهانها وأصباغها روحُ النقاش ففى وجهها هى معنى الحائط !

لقد قرأتُ كلَّ ما كتبوا عن طاغور ألتمس فيه هذه الحقيقة لأرى كيف يكون جبابرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير وتنزاح العلل وتنهتك الأستار ،

فإذا هم فى كل ما كتبوه لا يحسون إلا هذه الحقيقة ، ولا يصفون إلا هذا الحس ، فلم يُخزهم عندنا إلا هذا الوصف ؛ لا جرم فكل ما أثنوا به على الشاعر الفيلسوف قرأناه ذمًّا لهم ، وعرفناه قدْحاً فيهم ، وأخذناه تهمة عليهم ، وكل ما أعظموه من أمره صغَّر من أمرهم ، ولقد جعلوه إنساناً كأنما تنتهى قمة هذه الدنيا عند قدمه ، وتبدأ قدمه من قمة الدنيا ، فما عرفنا من ذلك قياساً لسموّ طاغور وارتفاع نفسه ، بل قياساً لانحطاط أنفسهم وهوَان أمرهم وقلة خطرهم ؛ فإن الرجل المقلد المخدوع لا يزال يطول فى تقليده ، ولا يزال يتوعَّر فى الرأى الذى يراه ويعتسف طرق العلم اعتسافاً ؛ حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التى يقلدها ؛ فإذا هو مُفْحَم يتقاصر من طول ، ويتسهَّل من وعر ، ويهتدى من تعسف ، وينحط إلى الوهدة بعد أن كان على الجبل ، ويسلِّم فى نفسه ، ويُذعن برأيه ، وينقاد من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى ، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبهَ بالظل مما يرميه ويفىء به ؛ فهو مسخ فى تمثيله الصورة ، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر ، وهو على كل أحواله إبهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيِّرة .

وأنت أفلا ترى هذا من جبابرة العقول كتلك الشيمة فى أخلاق العامة ، إذ لا يصلحون أبداً إلا أن يكونوا تبعاً ، ولا علم لهم إلا ما يربط فى صد ورهم من فلان وفلان ، ثم يعملون بلا تحقيق ، ويحملون بلا تمييز ، ثم لا تكون نَهْمَة أنفسهم مع الرجل العالم — إذا اجتمعوا به — إلا فى التسليم له ، واتقاء حقائقه ، والنزول عن آرائهم إلى رأيه ، والخروج من أنفسهم إلى نفسه !

لقد قلنا من قبل إن جبابرة العقول هؤلاء الذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرِّفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا فى مَساخط الله ويهجموا بنا على مَحارمه ويركبونا معاصيه — إنْ هم فى أنفسهم إلا عامة وجهلة وحمقى إذا وُزنوا بعلماء الأمم وقيسوا إلى حكماء الدنيا ، وما يكتبون للأمة فى نصيحتها وتعليمها إلا ما يتحوّل من كلمات وجمل فى الصحف والكتب إلى أن يصيروا فى الواقع فساقاً وفجرة وملحدين وساخرين ومفسدين ؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص فى وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد ، وهاتان معاً فى وزن المصيبة الكبرى التى يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون ، وتجديدها فيما يزعمون . . .

لم أنخدع قط فى هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة ، ولست أضع أمرهم إلا على حقه ، فإنى لأعرف أن الهر من قبيلة الأسد ، ولكن أسديّته على الفأرية وحدها . . . ولعلما عاقبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحماقاتهم فإنهم قوم مقلدون ، ولهم طباع معتلّة زائغة ، وعقول لا مِساك لها من دين أو ضمير ؛ فما يجنحون إلا إلى بدعة سيئة ، أو آفة محذورة ، أو فكرة متّهمة ؛ ولا يعملون إلا ما يشبه الظن بهم ، والرأى فيهم ؛ من تمدين الأخلاق السافلة وإلحاقها بالعلم أو الفلسفة ، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيّب ؛ وليس من سبيل إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق ، فإن هى استمسكتْ ولم تتحول فها هنا موضع النزاع ومحل الخلاف ، ولا بد من حرب منا كحرب الاستقلال ، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار . . .

فالذى بيننا وبينهم ليس القديم والجديد ، ولا التأخر والتقدم ، ولا الجمود والتحوّل ؛ ولكن أخلاقنا وتجرّدهم منها ، وديننا وإلحادهم فيه ، وكمالنا ونقصهم ، وتوثقنا وانحلالهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخى الحبل لا يجد ما يشدُّه .

والآن أنظُر إلى قلمى فأرى شطره الأسود ما جُعل كذلك إلا ليزيد فى جمال حُمْرته وبريقها ، ويكسبها لمعة لا تأتيها إلا من السواد خاصة ؛ والشرُّ خير إلا إذا بقى محصوراً فى موضعه ولم يتجاوزه ؛ فإذا تنبهت الأمة لجبابرة العقول هؤلاء ، قلنا لا بأس بالسواد المظلم إذا كانت حكمته حمراء . . . . . .

* * *

شيطانى وشيطان طاغور.. .[1]

طاغور هذا شاعر الهند ، مر بعصر مرور شمس الشتاء باليوم المطير : لا يقع نورها إلا فى القلوب مما تستخف وتستهوى ، ومما تمتنع وتتأبى ، ومما ترق وتلطف ؛ وتنقدح بين السحب الهامية فإذا لها من الجمال والسحر والعجب ما يكون لجمرة تخرجها السماء معجزة للناس فيرونها ترسل الشعاع مرة وتمطر الماء مرة .

لم ألق طاغور ولكنى أنفذت إليه شيطانى وقلت أوصيه قبل أن يخرج لوجهه : قد علمتَ أن هذا الرجل هندى ، ولكنه إنسان ، فما أرض أولى به من أرض ؛ وأنه شاعر ، ولكنه مخلوق ، فما طبيعة أغلب عليه من طبيعة ؛ وأنه حكيم ، ولكنه تركيب ما جبلت له طينة غير الطينة ؛ وأنه سماوى ، غير أنه سماوى كعلماء الفلك : سماؤه فى منظار وكتاب وقلم وحبر . . . فاذهب إليه فداخلْ شيطانه ، فإنك واجد له من ذلك ما لكل الشعراء، وربما عرفت شيطانه من ذوى قرابتك أو خالصة أهلك ، ثم ائتنى بكلامه على جهة ما هو مفكر فيه ، لا على جهة ما هو متكلم به ؛ وخذ ما يهجس على قلبه ، ودع ما يجرى فى لسانه ؛ فإن هذا سيأتى به إخوانك من « مندوبى الصحف » . . . واعلم أن كل حكيم مهيِّئٌ لمسائل من حوله كلاماً ، غير أن معانى من حوله مهيِّئة له مسائل أخرى يفكر فى كل جواب عليها ولا ينطق بجواب عليها .

* * *

فحدَّثنى شيطانى بعد رجوعه قال : حدثنى شيطان طاغور قال : لما هبط طاغور هذا الوادى نظر نظرة فى الشمس ، ثم قال : أنتِ هنا وأنت هناك ، تقربين بأثر وتبعدين بأثر ، وتطلعين بجو وتغربين بجو ، فلا تختلفين وتختلف بك الأقاليم ، ثم تتغير بالأقاليم الأمم ، ثم تتغير بالأمم الأفكار والمنازع ، ثم تتغير بالأفكار

---

[1] (١) البلاغ الأسبوعى سنة ١٩٢٦ .

والمنازع أغراضها ومصالحها ، ثم تتغير بمصالحها وأغراضها الحقائق الإنسانية ؛ وإنما الباطل والحق فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر ، وقد غلبت السياسة على كل شيء حتى أصبحت هذه الحقائق الإنسانية جغرافية ،لها شعوب ولها مستعمرات ؛ فالإخاء فى الغرب سيادة فى الشرق ، والمساواة هناك امتياز هنا ، والحرية فى مملكة استعباد لمملكة ، والتحية فى موضع صفعة فى موضع ، والضيافة فى مكان استئكال فى مكان ؛ « ولا يزالون مختلفين إلا مَن رَحِمَ ربُّك ولذلك خلقهم » ، فلن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من الجهة الواحدة التى لم تتغير ولن تتغير فيهم ، جهةِ الدموع التى لا تختلف فى أسود ولا أحمر ، والتى لا تنبعث إلا من الرقة والوجد والأحزان والآلام ، وهى بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب ، فلو غمر العالم كلَّه بلاءٌ واحد لا تحرز منه أرضٌ أهلها ولا تتحاجز الأمم فيه ، لاستلب مطامع الناس بعضهم فى بعض ، وأرجع الإنسانية الزائغة إلى مستقرها ، فتجردوا من الدنيا وهم فى الدنيا ، فاتصلوا باللانهاية وهم فى النهاية ؛ فإن لم يكن بلاء عام ففكر عام فى بلاء يميت الشهوات المتطلعة ويكون كالداء تلبَّس بالجنس الإنسانى كالذى تصفه الأديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والجزاء على الشر بها ، حتى لا تبقى نفس إلا وهى فى وثاق من حلالها وحرامها ، ولا يبقى شر يتخيل أو يشتهى إلا وهو كالمتاع النفيس بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد فى كل اللصوص لصًّا ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول ، ولا تكون الممالك إلا بيوتًا إنسانية بين الواحدة والكل من الشابكة واللحمة ما بين الكل والواحدة ، وحتى تقول مصر لإنجلترا يا بنت عمى . . .فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر ، وعلى أن يكون الشعر محدوداً بالطبيعة والطبيعة محدودة بالله ، فينتزع النوم من الأرض لتتصل اليقظة بالحلم . . . من طريق غير النوم .

قال شيطان طاغور : ثم ابتأس طاغور وقال : كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل ولكنه فى الأمل ممكن أو كالممكن ؛ وللفظ معنيان : أحدهما ما يكون ، والثانى ما يحسن أن يكون ؛ ذلك لا بد له منا لأنه جانب النظام الإلهى ، وهذا لا بد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنسانى ؛ ذلك من الطبيعة التى تعمل ولا تتكلم ، وهذا

من الشعر الذى يتكلم ولا يعمل . آه آه ! إنما السلام العام أن يكون الوجود شركة إلهية إنسانية برضا واتفاق بين الطرفين . . . ولعمرى إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل . ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها ما يجعلها بيت شعر فى كتاب الطبيعة له وزن ونغم ، ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تنبتها ناضرة عطرة جميلة تتميز من غيرها برائحة ولون وشكل .

قال شيطانه : ولما انتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدّمت له سيدة هندية عقود الزهر ، وبينا هى تقلده إياها قال فى نفسه : إن هذه الأزهار من معانى الماء العذب ؛ فإذا انطلقنا فى أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلمن تكون معانى الماء الملح ، وهو ثلاثة أرباع الأرض ، ومن أزهاره الأسطول الإنجليزى . . .

* * *

حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : ولما استقر طاغور فى قصر شوقى بك ورآه فى مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسته ، قال : لا جرم هذه أمة أغنت شاعرها ، فما أخطئُ التقدير ، وإن أخطأته فلا أبعد عن المقارنة إذا حسبت أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة ، وليتنى أعرف العربية لأعرف كيف يبدع هذا الشعب فلسفته فى أغانيه المتصلة بغيوم السماء المتكلم بأحسن وأطهر ما يمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التى يتوارثها شعب خالد .

الشعر فكرة الوجود فى الإنسان ، وفكرة الإنسان فى الوجود ، ولا يكفى أن يخلق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم ، بل لا بد أن يخلق مرة أخرى من معان وألفاظ ، وإلا خرج حيوانا أعجم ؛ فالشاعر يبدع أمة كاملة ، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياستها الموفقة وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغانى والأناشيد ، فتأتى من إنجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتمثيل جنود أخرى ؛ لقد كنت ملهمًا حين قلت مرة : « إن الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى » * .

نعم عن طريق الموسيقى ، فكل شىء هو موسيقى فى نفسه حتى حين يتطاحن

* هذه العبارة من كلام طاغور فى محاضرته مما ترجمته جريدة السياسة .

الناس ويذبح بعضهم بعضًا ، فإن صلصلة الأسلحة ودوى القنابل وأزيز الرصاص وتصايح الجند – كل ذلك لحن أعده الله جلت قدرته « وموسيقاه » . . . لجنازات الأمم .

* * *

حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية – وهى التى دعته إلى إلقاء محاضرته – قال : نعم وحبًّا وكرامة ، إنه لا يستقيم فى العقل أن تدعو هذه الجامعة شاعراً روحانيًّا مثلى إلا وهى فلك نيرٍّ يعده الله من نجومه ، وما أحسب أستاذ آدابها العربية إلا تلك الذَّرة اللؤلؤية التى كانت تجاورنى فى طينة الخلق الأزلية ، فلو أن الذرات الثمان التى كانت حولنا خلقت فى عصرنا هذا وتوزعت على الأمم الفلسفية لكنا وإياها كوصايا الله العشر فى هذا العصر المادى . . . ولملأنا طياتها إيمانًا بالله ، ولصار لله تعالى فى أرضه عشر آلات سماوية لاسلكية بينه وبين الخلق ، تباهى الجامعة المصرية بأن فيها إحداها . . . لقد نغص علىّ هذه الشيخوخةَ أنى لم أتعلم العربية ، وكيف لى بأن أرتل أناشيد أستاذ الآداب فى الجامعة المصرية وأستمتع بألحانه السماوية فى شعره وأغانيه ، وأسمع الملائكة من هذه المئذنة الإنسانية فى الجامعة تهتف بكلمة الإسلام الرهيبة صارخة بحقيقة الوجود فى الوجود : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله . . .

قال شيطانى : وكان شيطان الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا ، فلما ألم بما فى نفس طاغور قال لى : حقًّا إن من الخير أن لا يعرف هذا الهندى اللغة العربية ، لأنه لو عرف اللغة العربية لما أرضته اللغة العربية ولا آداب اللغة العربية ولا أستاذ آداب اللغة العربية ! فقلت : اسكت ويحك ودع الرجل فى أحلامه ، ولا تكن غيمة سمائه المشرقة ؛ أما تراه يحلم ، أما سمعته يقول : « والحقيقة من حيث هى جمال ليس يعدله جمال ؛ ألست ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ، إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالها ، ولكن المرأة العجوز التى فيها ليست على شىء من الجمال ؛ لكنما

جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة العجوز على حقيقتها * » فهذه كلمات فى سبحات النور ، وهى من لغة السماء ذات الكواكب لا من لغة النفس ذات العواطف ؛ وإلا فهل يصح فى العقل أن تصوير العجوز التى اضطرب ميزان الخلق فيها حتى لا يزن منها إلا بقايا الخلقة وأنقاض العمر وخرائب المرأة . . . يكون بما يظهر من شوهتها وتهدمها وتشنن جلدها وموت ظاهرها — جمالا فى الصورة لأنه قبيح فى الأصل ؟ أفليس لو كان ذلك صحيحاً لملئت المتاحف والقصور بألواح العجائز ، ولما بقيت على الأرض عجوز إلا ذهبت لأحد المصور تقول له اخلقنى ! . . .

* * *

حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : وكان طاغور رطب اللسان فى محاضرته كأن غابة من غابات الهند أمدته بكل ما اعتصرته الشمس فيها ماءً وحياة ونضرة ، فهو فى كلامه ومعانيه ورق وزهر ونسيم وظل وحفيف وتغريد ، يسحر الناظر إليه إذ لا يرى الناظر شكله الإنسانى فيه ، بل يراه شيئاً من خياله كأنما انفصل منه فتمثل بشراً سوياً ، ولو أنك اطلعت يوماً فى المرآة فإذا خيالك فيها يكلمك ويستأنسك ويلطف لك ، لما أدهشك من ذلك ولا أطربك ولا استخرج من عجبك وذهولك إلا كالذى يعترى نفسك حين يكلمك طاغور ؛ وتراه يستخلص آراءه المتصرفة بكلامه من روح النواميس الإلهية المدبرة للكون ، فتحسه يضيف إليك زيادة ليست فيك ؛ فمما كبرت به تصغر نفسك عندك بين يديه ؛ ثم هو يتصل بروحك مرة فى جلال حب الأب لطفله ، ومرة فى رقة فرح الطفل بأبيه ؛ فإذا أنت منه بموقف عجيب من معجزة إنسانية تروعك بطفل شيخ قد اجتمع فيه طرفا العمر وجاء كأنه مظهر روحه التى لا عمر لها .

إنسان كهربائى يحاول أن يزيد فى تركيب الناس عظْمة من حديد أو عصباً من سلك ، لتصل بهم جميعاً تلك الشعلة الطائفة ؛ فإذا هم خلق آخر كأهل

* هذه العبارة مما ترجمته السياسة من محاضرة طاغور ، وإذا قيل إن الصناعة فى نقل الصورة محكمة فليس معنى ذلك أن الصورة جميلة ، والمعنى الذى يرمى إليه الشاعر معروف وقد كتبناه فى (السحاب الأحمر) ولكنه أخطأ فى العبارة عنه أو أخطأت الترجمة .

الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ؛ ولكنه بصر وهو خارج من المسرح بإعلان السيما التى تجاوره وما عليه من التصاوير والتهاويل ، فقال فى نفسه : بعد قليل تجىء إلى هنا لندن وباريس ونيويورك وغيرها من أرض الله بناسها وحيوانها ونباتها ، يراها الجالسون رأى العين ويتصلون بها اتصالا بعيداً لا يجعلهم فيها ولكنه لا يخليهم منها ؛ ويجب لعمران هذه الأرض أن يبقى أهل مصر فى مصر فلا يدعوها جميعاً ليتصلوا جميعاً بما تشتاقه أنفسهم من باريس أو غير باريس من حقائق العالم الكبرى ، ولا يحسن هذا الاتصال إلا إذا خص ولم يعم ، فيقوم به الواحد والاثنان والجماعة وتبقى الأمة بما هى وكما هى لأنها بذلك وحده أمة ، كما أن الناس بطبائعهم ناس ، والكون باختلافه كون ، فهيهات هيهات الحب العام والسلام العام والاتصال العام بالحقيقة الروحية العليا . ثم تبسم وقال : ما أشبهنى بهذه السيما ، غير أن شريطى لا يرى فيه الناس رواية من لندن وباريس ، بل رواية وقعت حوادثها فى جنة الخلد . . .

فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها . . ؟ *

لم أكتب فى القصة إلا قليلا ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنى مع ذلك لا أرانى وضعت كل كتبى ومقالاتى إلا فى قصة بعينها ، هى قصة هذا العقل الذى فى رأسى ، وهذا القلب الذى بين جنبى . . . . . .

أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التى اتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكّن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلىّ دائماً أنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبداً فى موقف الجيش (تحت السلاح) : له ما يعانيه وما يكلَّفه وما يحاوله ويفى به ، وما يتحاماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضت الجيش رأيته فنّ نفسه ، لا فنك أنت ولا فن سواك ؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ .

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا ، ثم تقرأ فتبقى قصصًا ؟ وإن هى صنعت شيئًا فى قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات ؛ تكون مسكنات عصبية إلى حين ، ثم تنقلب هى بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية ؟

وأنا لا أنكر أن فى القصة أدبًا عاليا ، ولكن هذا الأدب العالى فى رأيى لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها فى الرواية كما يربّى الأطفال على أسلوب سواءٍ فى العلم والفضيلة ؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون ، وطريقة

* وجه إلينا سؤال : لماذا لا تكتب فى القصة ؟ وكان هذا قبل أن نكتب مقالاتنا فى مجلة الرسالة ، فرددنا بهذا الرد .

[قلت : وانظر ص ١٨٩ من « حياة الرافعى »]

ممحصة ، وغاية معينة ؛ولا ينبغى أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة فى المشكلة التى تثير الحياة أو تثيرها الحياة ؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة ، وما بين الحياة وموادها النفسية فى هؤلاء وهؤلاء ، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها ، وتشرع فتضع أصح قوانينها .

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص ، فهم فى الأدب رعاع وهمج ، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز ، هذه الفوضى الممقوتة التى لو حققتها فى النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة فى طرق رذائلها .

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست فى نفسك بأشياء بدأت تسفل ، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو ؛ تنتهى الأولى فيك بأثرها السيىء ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب ؛ وهذا عندى هو فرق ما بين فن القصة ، وفن التلفيق القصصى ! ! .

شعر صبري *

فى الحادى والعشرين من شهر مارس من سنتنا[1] هذه نزع الشعر العربى عن رأسه عمامة المشيخة ونشرها للموت ، فكانت الكفن الذى طُوِى فيه بقيةُ شيوخ الأدب : المرحوم إسماعيل باشا صبرى .

كان رحمه الله من الرجال الذين نشئوا فى تاريخ لا يُنشئ رجلا ، وجاءوا فى غير زمنهم ليجىء بهم زمنُهم بعد ؛ وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوة أكبر من القوة ، فهم أقدار وأحداث تولد وتنشأ وتنمو فى أسلوب إنسانى ليتم بها شىء كان نقصًا ، ويحسن شيئًا كان هجنةً ، ويوجد أمراً كان عدمًا ؛ ثم ليكون للزمن منها حدود يبدأ عند الواحد منها فيتغير فيه ويتحول به ويخرج معه فى بعض معانيه زمنًا جديداً فى رجل جديد .

كذلك كان صبرى فى مَنْحًى من مناحى الشعر ، وكان البارودى — رحمهما الله — فى منحى آخر ؛ فهما طرفا المحور الذى استدار عليه هذا الفلك ليبدأ بعد تاريخه الميت تاريخًا حيًّا ، وليخرج من الجوّ القاتم فى أعراض الأرض إلى الفضاء المشرق بمعانى السماء ، ثم لينفض عنه فى مهب الرياح العاوية ما لصق به من طباع أهله وأخلاقهم ، ويُغلق بها ما فتح الزمن عليهم من أبواب هذه الحرفة ، فكان الشعر فى حاجة إلى رجل كالملك ، فأصاب رجلين ؛ وعلم الله ما رأيت فى كل من رأيتهم من الشعراء نفسًا تعدُّ معهما ، ولا خُلُقًا يجرى فى أخلاقهما ، ولا ظرفا ولا رقة ولا أدبا ولا شيئًا يصلح أن يكون شرحًا منهما أو توكيداً لشىء فيهما أو تقوية لمعنى من معانيهما ، كأنما وجدا ليكون أحدهما مبدأ والآخر نهاية ، ولينفردا انفراد الطرفين من المسافة بالغةً ما بلغت .

كان الشعر لعهدهما بقية رثّة فى معرض خَلَق مما كان يسميه أدباءُ الأندلس بالأغراض المشرقية وطريقة المشارقة ، وهم يعنون بذلك الصناعة والتكلف للبديع

---

* هو إسماعيل باشا صبرى ، توفى رحمه الله فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ م

(١) المقتطف : مايو سنة ١٩٢٣ .

والانصراف إلى اللفظ واستكراهه على الوجه الذى أرادوا ، إلى ما يتشعب من ذلك ويخرج أو يدخل فى بابه ؛ وقد كان هذا ومثله مما يُساغ ويحتمل فى القرن الثامن وأكثر التاسع للهجرة ، ثم فى أيام بعد ذلك ؛ غير أنه بلى وتهتك فى مصر خاصة ولم يبق منه إلى منتصف القرن الثالث عشر إلا رقع وخيوط فى قصائد ومقاطيع .

ثم كان أكثر الشعراء يومئذ إنما يحترفون فن الأدب صناعة كسائر المهن والصناعات التى بها قوام العيش لهؤلاء المستأكلين والمتكسبين من السوقة والمرتزقة .

* * *

ظهر البارودى ونبغ فى شعرهِ قبل أن يقول صبرى الشعر بسنوات ، ولكن الأدب الفارسى والجزالة العربية هما اللذان تحولا فيه ؛ ثم نبغ صبرى بعد ذلك بزمن ، فتحول فيه الأدب الأفرنجى والرقة العربية ؛ وهذا موضع التفاوت فى شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعرى من طرفى الأرض ، وكلاهما يذهب مذهباً ويرجع إلى طبع ويروض شعرهُ على وجه ؛ فالبارودى يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة ، ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس فى ممر الوحى ؛ وصبرى يسترقُ ويضيف إلى صفاء لفظهِ جمال التخير وحلاوة الرقة ، ويعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب ؛ والبارودى لا يرى إلا ميزان اللسان يقيم عليه حروفه وكلماته ، وصبرى لا يرى إلا ميزان الذوق الذى هو من وراء اللسان ؛ وقد يسرت لكليهما أسباب ناحيته فى أحسن ما يتصرف فيه ؛ فجاء البارودى حافظا كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبرى مفكراً كأنه مجموعة أذواق وأفكار ؛ وهما يشتركان معـًا فى التلوُّم على صنعة الشعر والتأنى فى عمله وتقليبه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظـًا لفظـًا وجملة جملة ، ثم مطاولة معانيه ومصابرتها كأنما ينتزعان محاسنها من أيدى الملائكة ؛ وأنا أعرف ذلك فيهما ؛ وقال لى صبرى باشا مرة وقد جاريته فى بعض هذا المعنى : أنه يعلم هذا من البارودى ومن نفسهِ . قلت : أفيبلغ به ذلك أن يمحو بياض اليوم فى سواد بيت واحد ؟ قال : وفى سواد شطرة أحيانـًا ! . وليس ينقصهما هذا الأمر شيئـًا ، فإن خبر زهير فى حولياته معروف ، وقد عمل سبع قصائد فى سبع سنين :

يحوك القصيدة منها فى سنة .

ونقلوا عن مروان بن أبى حفصة أنه قال : كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشهر ، وأحككها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر ، ثم أخرج بها إلى الناس ؛ فقيل هذا هو الحولى المنقّح .

كان مرجع البارودى إلى الحفظ ، فنبغ فى وثبات قليلة ؛ أما صبرى فاحتاج إلى زمن حتى استحكمت ناحيته وآتته أسبابه على الإجادة ، لأن مرجعهُ إلى الذوق ، وهذا يكتسب بالمران وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتى بالماء والرونق حتى تأتى له أسباب كثيرة ؛ وأنت تعرف ذلك فى الرجلين من أوائل شعرهما ، فقد رثى البارودى أباه فى سن العشرين بأبياته الدالية الشهيرة التى مطلعها :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى   طاح الردى بشهاب الحى والنادى

وهى ثمانية عشر بيتًا ، وجيدها جيد ، وكأنها خرجت من لسان أعرابى ؛ وإنما جاءته من صنعة الحفظ ، كالذى اتفق للشريف الرضى فى أبياته الخائية التى كتب بها إلى أبيه وعمرهُ أربع عشرة سنة ، وكان أبوهُ معتقلا بقلعة شيراز ومطلعها .

أبلغا عنى الحسين ألوكًا   إن ذا الطود بعد بعدك ساخا
والشهاب الذى اصطليت لظاهُ   عكست ضوءَهُ الخطوبُ فباخا

هذا على أن البداية كما يقال مزلّة ؛ وقد وفقنا إلى الوقوف على أول ما نشر من شعر صبرى باشا ، وذلك قصيدتان نشرتا فى مجلة روضة المدارس فى مدح إسماعيل باشا ، فنشرت الأولى فى العدد الصادر فى غاية شوال سنة ١٢٨٧ للهجرة — ١٨٧٠ للميلاد ؛ ونشرت الثانية فى عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م ؛ وبينهما خمسة أشهر ، كانت وثبتهُ فيها ضعيفة متقاصرة ، مما يدل على بطء نضجه بطبيعة الأسباب التى تسبب بها إلى الشعر ؛ وكانت الروضة يومئذ تنشر لطائفة من فحول دهرهم : كالسيد صالح مجدى ، ورفاعة بك رافع ، ومحمد أفندى قدرى « ونابغة الزمان محمد أفندى رضوان » ، وغيرهم . وكانت تستقبل قصائدهم بسجعات داوية مفرقعة ، هى لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التحية للملوك والأمراء ؛ فلما نشرت لصبرى قالت فى القصيدة الأولى « تهنئة بالعيد

الأكبر للخديو الأعظم بقلم إسماعيل صبرى أفندى » . وقالت فى الثانية « قصيدة رائية فى مدح الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب إسماعيل صبرى أفندى من تلامذة مدرسة الإدارة » . ومطلع القصيدة الأولى :

سفرتْ فلاح لنا هلالُ سعودِ ونما الغـرام بقلبى المعمـود

ولا شيء فيها أكثر من حروف المطبعة . . . ومطلع الثانية :

أغرُتكَ الغراء أم طلعة البـدر وقامتك الهيفاء أم عادل السُّمر

وفى هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبرى باشا فى صبرى أفندى كأنهُ خيالٌ مولود يَسْتَهل ، وذلك قوله :

فطوّلْ من الهجران علّ وقوفنـا يطول معـًا – يا قاتلى – ساعةَ الحشر

ويكاد هذا البيت يكون أول انقلاب للفكرة فيه : وهو غريب ، والتأمل فيه أغرب ، ولكنه يدل على خيال سيثب يومـًا على أقطار السموات .

وفى ذلك الزمن عينه كان البارودى شهابـًا يتلهب ، وكان قد بلغ مبلغه واستجمع أسباب نهايته ، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفـان وهفا السُّرى بأعنَّـة الفرسان

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبرى ، ولم يكن ليغضى عن احتذاء هذه الصنعة البارعة ويأخذ فى غيرها لولا أن فيه طبعـًا مستقلا يذهب إلى كماله فى أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة فى غصنها ؛ وأخص أحوال صبرى أنه لم يرد أن يكون شاعراً فجاء أكبر من شاعر ، وكان السبب الذى صرفه من ناحية هو نفسه الذى جاء به من ناحية أخرى .

* * *

ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها : طريقة الدرس التى عالج بها الشعر ، وكتب هذه الطريقة ، والرجال الذين هم أمثلتها فى نفسه . ثم . . . ويا لله من ثم هذه ، فهى اللمحة السماوية التى تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل ، والثلاث الأولى تنشئ نبوغـًا معروفـًا فى نوعه ومقداره ، ولكن الأخيرة هى طريق القدر التى لا يعرف آخرها ؛ وإذا تجددت فى حياة الشاعر أو اتصلت تجدد بها نبوغهُ أو اتصل ، فعلى قدر ما يحب تحبوهُ السماءُ من أسرار الجمال ،

وهى نفسها أجمل أسباب الشعر وأجمل معانيه وأجمل غاياته ، فهى هى المادة التى تؤلف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعرى فى هذا الكون كله ؛ وإذا أنت نزعت النظرة والابتسامة — وهما عنصرا تلك المادة — من حياة الشاعر ، نزعت الحياة نفسها من شعره فما يبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ والمعانى ، وتسمع شعرهُ فلا تجزيه بهِ أحسن من قولك : يرحمك الله . . . وصبرى لم يدرس الشعر فى الكتب أكثر مما درسهُ فى الوجوه والعيون ، وقد عالج هذا الشعر فى بدايته ليتأتى إليه من طرقهِ البعيدة ؛ أما الرجال الذين كانوا أمثلتهُ فكانوا رجال الظرف والرقة والنكتة المصرية الشهيرة التى انفرد بها الطبع المصرى ونص عليها علماء البلاغة، كالسكاكى وغيره ؛ بل كان عصرهُ كله عصر هذه النكتة ، فتحولت فى طبعه الرقيق المبتكر تحولًا رقيقًا مبتكراً أرجعها إلى الظرف المحض الذى اجتمعت فيه كل طباعه كما يجتمع السحاب من الماء .

ولقد كان فى شعرهِ أحق الناس بقول ابن سعيد المغربى :

أسكان مصر جاور النيل أرْضكم فأكسبكم تلك الحلاوة فى الشِّعْر
وكان بتلك الأرض سحرٌ فما بقى سوى أثر يبدو على النظم والنثر

وإنى أعلم أنه كان دائم الحب : يمزج ذكرى ماضيهِ بحاضرهِ فيخرج منهما حبًّا جديداً ؛ وكان الرجل كأنه مجروح القلب ، فلا يزال يئن حتى فى بعض أنفاسهِ، إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة وأخرى كأنه يريد أن يطمئن أن نفسه فيه ، أو أن شيئًا باقيًا فى نفسه؛ وتلك همهمة لا تكون فى شاعر من الشعراء بغير معنى .

كانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعترضُه حيث أراد أن يراها ، فيجد فى كل شىء روحًا من الشعر، ويقرأ لمحاتها متى التمعت ، وكان يعيش فى ذات نفسه كأنه معنى فى قصيدة هو أمير أبياتها .

فشاعرنا هذا أخرجهُ اثنان : الظرف والجمال؛ وهذا سر إبائه أن يُعدّ من الشعراء لأنه أرفع من أن يدخل بينهم فى هذه المحنة والبلوى التى ابتلوا بها . . .

ولقد همّ صبرى فى أواخر عمرهِ بمحو شعرهِ لو أنه كان فى منال يده ، على أنه محا منه بإهمالـه أكثر مما أثبت ؛ وعلمت منه أنه لم يدوّن شيئًا ، وأنه ينسى

ما يقولـه، فكأنه يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين ؛ وقديماً كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التحقيق رأوا عمرهم كله بداية ورأوا ما فعلوا باطلا فغسلوا كتبهم أو أحرقوها ، ولكنا لم نعرف هذه الطبيعة فى شاعر بعد عصر الكتابة والتدوين . وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يدَه على شعرهِ ، كالشريف الرضى الذى يقول :

مالك ترضى أن تعد شاعراً بُعداً لها من عدد الفضائل

ويقول فى مدح أبيه :

إنى لأرضَى أنْ أراك ممدَّحا وعلاكَ لا ترضى بأنى شاعرُ

ومثلهُ أبو طالب المأمونى وآخرون يدَّعون ذلك دعوى وفى ألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

ولإفراط صبرى فى الظرف والجمال وقيام شعرِه على هذين الركنين ، جاء مقلاًّ من أصحاب القصار ، وزاد إقلاله فى قيمة شعرِه ، فخرجت مقاطيعهُ مخرج الشيء الطريف الذى يتعجب منه فى وجودِه أكثر مما يتعجب منه لقلة وجودِه ؛ وبذلك ربح تعب المكثرين والمطيلين ، إذ كان لا يقول إلا فيما تؤاتيهِ السجية وينزع له الطبع ، فيدنو مأخذهُ ويكثر بقليلهِ ويرمى منه بمثل الحجة والبرهان ، فيطمس بهما على كلام طويل وجدل عريض .

ولا يعيب المقلّ أنه مقل إذا كثرت حسناتـُه ، بل ذلك أعون له على القلوب والنفوس إذا أصابت فى شعرِه ما يغريها بطلب المزيد منه ؛ وقد عدّوا بين المقلين فى الجاهلية : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعديّاً ابن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصينا بن الحمام ، والمتلمس ، والحارث بن حلزة ، وابن كلثوم ، وغيرهم أتينا على أسمائهم فى الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ؛ ومن أوائك من يعرف بالقصيدة الواحدة : كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد : كعلقمة ، أو بأربع : كعدى بن زيد ؛ ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ، ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ؛ وقد يعرفون الشاعر بالبيت الفرد ، لأن العرب إنما يعتبرون الشعر بمقدار ما يحرك من ميزانه الطبيعى الذى هو القلب ، لا بالطول

ولا بالقصر ، وقد قالوا فى بيت النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخا لا تلمُّــه   على شعث ، أى الرجال المهذّب ؟

إنه لا نظير له فى كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الذى أشرنا إليه . وكانوا يسمون البيت الواحد : يتيما ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهى نتفة ، وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً .

وكان من الشعراء من يعتمد أن لا يجىء فى شعره الجيد بغير البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، كشاعرنا صبرى باشا ؛ ومنهم عقيل بن عُلّفة : كان يقصر هجاءَهُ ويقول : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومنهم أبو المهوّس ، وكان يحتج لذلك بأنه لم يجد المثل النادر إلا بيتًا واحداً ، ولم يجد الشعر السائر إلا بيتًا واحداً ؛ ومنهم الجماز : قال له بعضهم وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مُذارعة ؟؟؟ وابن لنكك المصرى ، وابن فارس ، ومنصور الفقيه الذى كان يقال فيه : إذا رمح بزوجيهِ قتل . ولا نستقصى فى هذا فلندعه فإن له موضعاً .

غير أن صبرى كان له مع جودة المقاطيع جودة القصيد إذا قصّد ، كقوم عرفوا بذلك فى التاريخ ، منهم العباس بن الأحنف وسواهُ ؛ وكان من أسباب إقلالهِ ما أعلمنى به من أن طريقته فى أكثر ما ينظم معارضة معنى يقف عليه ، أو تضمين حكمة ، أو ضرب مثل على طريقة النظر والملاحظة ، أو تدوين خطرة عرضت له ، أو لمحة أوحيت إليه ؛ وهو ينزل فى ذلك على النصفة والمعدلة فلا ينتحل شيئًا ليس له ، بل يدلّك بنفسهِ على الأصل الذى منه أخذ أو المثال الذى عليه احتذى .

قال لى مرة إن البستانى عقد حكمة فارسية فى قوله :

قضيتَ إلهى بالعذاب فيا ترُى   بأى مكان بالعذاب تدينُ

وليس عذابٌ حيثما أنت كائن   وأىُّ مكان لست فيه تكون ؟

ثم قال : فأخذت من هذا المعنى وقلت :

يا ربّ أينَ ترُى تقام جهنم   للظالمينَ غـداً وللأشـرار

لم يبُق عفوُك فى السموات العلى   والأرض شبراً خاليًا للنار

يا ربِّ أهِّلْنِى لفضلك واكفِنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومُرِ الوجود يشفّ عنك لكى أرى غضبَ اللطيف ورحمة الجبّار
يا عالِم الأسرار حسبىَ محنةً علمى بأنك عالم الأسـرار

والفرق بين الشعرين أن البستانى جاءَ بكلامه على طريقة المتصوفة التى يسمونها طريقة أهل التحقيق ، كابن العربى والششترى ؛ وأما صبرى فانظر كيف استوفى وكيف لاءم وكيف امتلأت أعطاف شعره .

وقد يأخذ المأخذ الدقيق الذى لا ينتبه له إلا المطلع الحاذق بصناعة الكلام ، كقولهِ :

إذا ما صديقٌ عقّنى بعداوة وفوّقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيفُ الودِّ بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرمِ

فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وعلة :

قومى همُ قتلوا أُميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

ولكنه ليس بذاك ؛ فإن أساس المعنى قوله : « تعرض طيف الود بينى وبينه » وهو من قول العباس بن الأحنف :

وإذا ما مَدَدْت طَرفى إلى غيـ ـرك مُثِّلتَ دونهُ فأراكا

فتأمل كيف أبدع فى انتزاع المعنى وكيف جعل له معرضًا جديداً وكيف أداهُ أحسن تأدية فى ألطف وجه كأنه شيء مخترع .

ومن شعرهِ السائر قوله فى العناق وتلازم الحبيبين :

ولما التقَيْنا قرّب الشوق جهدَهُ شجيّين فاضا لوعةً وعتـابا
كأنّ صديقًا فى خلال صديقهِ تسرّب أثناء العناق وغابا

وهذا المعنى على إبداعه فيه متداول ، وأصله لبشار — أظن — فى قولهِ[1] :

---

(١) البيت لعلى بن الجهم ، وقبله :

ألا رُبَّ ليل ضمنا بعد هجعةٍ وأدنى فؤادا من فؤاد معذَّبِ

أخذه من قول بشار :

ومُرتجةِ الأعطافِ مهضومةِ الحشَا تمُورُ بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صبابة وكادت قلوب العاشقين تطير
خلَوْتُ بها لا يخلُصُ الماء بيننا إلى الصبح دونى حاجبُ وستُورُ

وبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة   من الخمر فيما بيننا لم تَسرَّبِ

فأبدع صبرى فى أخذ ه وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة تتألق ؛ على أنى لا أستحسن قوله : «كأن صديقاً . . .» فما هذا بعناق الأصدقاء ، ولو كان الصديق راجعاً من سفر الآخرة ؛ وإذا غاب واحد فى الآخر ، فالآخر حامل به . . . وقد أخذت أنا هذا المعنى منه ، ولولاه ما اهتديت إليه ، فقلت فى ذلك :

ولمَّا التقَينا ضمَّنا الحب ضمةً   بها كل ما فى مهجتَينا من الحب

وشدَّ الهوى صدراً لصدْرٍ كأنما   يريدُ الهوى إنفاذ قلب إلى قلبِ

* * *

وأحسن ما تجد شعر صبرى فى الغزل والنسيب والوصف والحكمة ، فهى عناصر قلبهِ وذوقهِ ، ولا يَتصرف معه أقوى ما يتصرَّف إلا فى هذه الأغراض ، ولعله إن جاوزها قصر معه شيئاً ما وضعفت أداتُه ضعفاً ما ، لأنه يكون شاعر الصنعة وهو يأباها ويكره أن يكون شاعراً من أجلها ؛ وقلما يجاريه أحد فى تلك الأغراض ، وهو الذى فتح أبوابها ؛ وحسبك أنه المثال الذى احتذى عليه شوقى بك ؛ وقد ينقسم المعنى الواحد فى رجلين حين يقدر ، فإذا لم يوجد أحدهما لم يوجد الآخر ، وأنا أرى وأعلم أنه لولا صبرى لما نبغ شوقى ، وكان هذا يختلف إليه يعرض عليه شعره ويرجع بآثار ذوقهِ فيه ، وكذلك كان يفعل خليفة البارودى حافظ بك إبراهيم : واسترفد شوقى من صبرى باشا هذا البيت السائر :

صونى جمالك عنـا إننا بشرٌ   من التراب وهذا الحسن روحانى

فهو لصبرى باشا ، والمرافدة سنَّة معروفة من قديم ، وهى غير الانتحال وغير السرقة وما يسمى إغارةً وغصباً ؛ وقد استرفد النابغة زهيراً فأمر ابنَه كعباً فرفدهُ ، والحكاية فى ذلك مشهورة عنه وعن سواه .

ولم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان وتمييز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده، رحمهم الله جميعاً ؛ والبارودى يذوق بالسليقة ، وصبرى بالعاطفة ، والمويلحى بالظرف ،

والشيخ بالبصيرة النفاذة ؛ وذلك شيء ركّبه الله فى طبيعة صبرى لم يحصّله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره ، وهو بلا نزاع بحترى مصر ، كما لقبوا ابن زيدون بحترىّ المغرب ؛ وإنك لتجد بعض الألفاظ فى شعر الرجل كأنها شعر مع الشعر ، فتقف على العبارة منها وقلبك يتنفس عليها كأنها إنما وُضعت لقلبك خاصة ، فهى تغمز عليه غمزاً وكأنها نفثة ملاك من الملائكة جاءتك فى نفَس من أنفاس الجنة .

ويمتاز نسيبه بأنه يكاد يكون فى طهارتِه وعفتِه ضوءاً من جمال الشمس والقمر ، وهو عندى أنسب من العباس بن الأحنف الذى صرف كل شعره إلى هذا المعنى ؛ ولو أن عصره كان عصر أدب صحيح لأخمل كلّ شعراء هذا الباب ، من ابن أبى ربيعة إلى طبقة عشاق العرب إلى أئمة الطريقة الغرامية لآخر القرن السابع .

ومن غزلِه البديع قوله :

يا مَن أقامَ فؤادى إذ تملّكهُ ... ما بين نارين من شوق ومن شجن
تَفديك أعيُنُ قومٍ حولَك ازدحمت ... عطشى إلى نهلةٍ من وجهك الحسن
جرّدت كل مليحٍ من ملاحتِه ... لم تتّقِ الله فى ظبيٍ ولا غُصن

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى ردّ ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطَرتَهُ زمنًا ... خفق الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ويا رحمة الله للقلب الذى يفهم هذا البيت ، فإنه ليجن به من يكون فيه استعداد لهذا النوع من الجنون .

ومن قلائدِه الغرامية قوله :

يا آسِيَ الحيّ هل فتَّشتَ فى كبدى ... وهل تبيَّنت داءً فى زَواياها
أوّاهُ من حرق أودت بمعظمها ... ولم تزل تتمشّى فى بقاياها
يا شوق رفقًا بأضلاعٍ عصَفتَ بها ... فالقلب يخفق ذعراً فى حناياها

وله قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتنقل إلى الفرنسوية ، ومن عيونها قوله :

وابسمى ، مَن كان هذا ثغرُه يملأُ الدنيا ابتسامًا وازدهاءْ
لا تخافى شططًا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا وارتضى آدابنا حسن الولاء
فلو امتدّت أمانينا إلى ملك ما كدرت ذاك الصفاء

والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون فى معنى قولـه « لا تخافى شططًا » الأبيات ، وما منهم من وفق إلى مثل هذا البيت الأخير ، وإن كان بعضهم بلغ الغاية ، كابن نباتة السعدى والسرى الرفاء وغيرهما .

ومن أبدع ما اتفق له فى الوصف أبيات فى الدواة تخلص فى آخرها إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو تخلص ليس فى الشعر العربى كله مثله فى الإبداع وحسن الاختراع ، يقول فيها :

أكرمى العلم وامنحى خادميه ماءَكِ الغالى النفيس الثمينا
وابذلى الصافى المطهّرَ منه لهداة السرائرِ المُرشدينا
وإذا الظلم والظلامُ استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدّا من الشرورِ مداداً فاجعليه من قسمة الظالمينا
واقذِفى النقطة التى باتَ فيها غضبُ القاهر المذلّ كمينا
ليراع امرئٍ إذا خطّ سطرا نبذَ الحق وارتَضى الْمَيْن دينا
وإذا كان فيك نقطة سوء كوّنتْ من خبائة تكوينا
فاجعَليها قسطَ الذين استباحوا فى السياسات حُرمة الأضعفينا
وإذا خفت أن يكون من الصخـ ـرِ جلاميد ترجم السامعينا
فابخلى بالمدادِ بخلا وإن أعطيـ ـتِ فيهِ المثين ثم المثينا
فإذا أعوز المداد طبيبًا يصف الداء دائبـاً مستعينا
فامنحيهِ المراد منّا وعُرفًا واستطيبى معونة المحسنينا
وإذا مهجة الحمائم أسدت نقطة سرّها الزكىّ المصونا
فاجعليها علىَ المودّات وقفًا وهبيها رسائل الشيّقينا
فإذا لم يكن بقلبك إلا ما أعدّ الإخلاص للمخلصينا
فاجعليهِ حظى لأكتب منه شرح حالى لسيد المرسلينا

هذا والله هو الشعر ، وما وفق إلى مثلـه أحد كائنـًا من كان فى هذا العصر .

* * *

ولا نطيل بالنقل من شعره وتتبع أغراضه ، فهو كالألماس فى الشمس : يشع من كل جهة ، ولا يختلف ضوءُه إلا فى بعض اللون مما يكون الأجمل فيما كله جمال ، ويمجُّ من الشعاع ما لا تجد حسنَه فى الشعاع نفسه ، وأحيانـًا يرق كبعض البلور فيمتص حرارة الشمس ويستوقد بها فى ذاته ليضرم ما وراء قلبه . وما وراءهُ إلا قلوبنا الحزينة عليه رحمه الله !

* * *

حافظ إبراهيم (١)

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعرَه ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ فى صفحة مما بين يدىَّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول فى بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هُنا !

ولغةُ هذا الشعر المتدفّعة بالحياة كأن كلماتها القويةَ عروقٌ فى جسم حىّ متوثب — لم تخرج عن أن تكون هى العربية المبينة فى جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البيانى ، ومع ذلك فليس فى هذا العصر كله من يكابر أو يمارى فى أنها هى لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به فى أجمل آثاره .

وأنا أعرف فى شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير إلى بعضها ، ولكنى على ما أعرفه أجد هذا الشعر كالتيّار يعُبُّ عُبابه لا يبالى ما تناثر منه وما ركد وما وقع فى غير موقعه ، إذ كانت عظمته فى اجتماع مادته لا فى أجزاء منها ، وفى السر الذى يدفعها فى كل موضع لا فى المظهر الذى تكون به فى موضع دون موضع ؛ فهو أبداً يقول لمن يتصفَّح عليه أو ينتقده : انظر لما بقى .

* * *

ترجع صداقتى لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدى بالأدب وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الأدبى عاليًا فعاليًا إلى الذروة التى انتهى إليها ، وأخلص لى ثقته وأصفانى مودته ، وكان هَمَّك من أخ كريم ، وله فى نفسى مكان لم ينكره مذ عرفته ، ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدنا الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة : لا يتهيأ فى الطبيعة أن يختلفا والصورة بعدُ قائمة ، ولا أن يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير .

ولكن هذا لا يمنعنى أن أقرر أنه كان عندى أكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خلطوه بأنفسهم — فإنه يتعاظمك بنفسه القوية وبالمعنى الذى تحسُّهُ فى العبقرى ولا تدرى ما هو ؛ وذلك من سحر العبقريين وأثرهم فى نفس

---

(١) المقتطف : أكتوبر ١٩٣٢ .

من يتصل بهم . فيتسق لهم أمران من أمر واحد ، وحظّان بحظ ، ونصيبان بنصيب ؛ لأن مع الإعجاب بآثارهم إعجابًا آخر بالقوة التي أبدعت هذه الآثار ؛ ففي ذواتهم المحبوبة يستمر الإعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه ، وفي آثارهم يكون الإعجاب في موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حد إن بَعُد وإن قرب .

لا جرم كان شاعرنا عبقريًا عجيب الصنعة قوي الإلهام بليغ الأثر في عصره ، يشبه تحولًا وقع في صورة من صور التاريخ ، ولكنه كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها ، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر ما يكون به الشاعرُ التام أو الأديب الكامل الأداة ؛ وكم من مرة كلمتُه في ذلك ونبهتُه إلى أنه كالنمط الواحد ، وأنه يجب أن يترسَّل شعرُه بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فإذ كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة ، ولا ينبغي أن يكون شعره كله كشمس الصيف ، فإن للربيع شمسًا أجمل منها وأحبَّ كأنها مجتمعة من أزهاره وعطره ونسيمه .

ولقد كان يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعي) ، وهذا لقب ميزه به صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيام كان في مصر قديمًا ، فتعلق به حافظ ورآه تعبيراً صحيحًا لما في نفسه وللملكة التي اختصَّ بها ، قال لي يومًا في سنة ١٩٠٣ : أنا لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت له ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد . . .

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل ، فإنه كان يخيَّل إليَّ دائمًا أن شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخًا حيَّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر ما نظمه وأساسه التاريخ والسياسة ، وصحَّ له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست كلَّ حقائق الحياة ، وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها ؛ على أن الحقائق ليست هي الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في شكل حيّ تلبسهُ الحقيقة من النفس ،

فالشاعر الاجتماعى شاعر فى حيز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فنًّا ، إذ كان الفن إنسانيًّا وكان شاملا عامًّا ؛ والمقاييس التى يطَّرد عليها الفن الأدبى لا تكون فى الزمن ولا فى الموضع ، بل فى النفس الإنسانية التى لا تخص بوقت ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانيًّا عامًّا يولد كل جيل من الناس فيجده كأنما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر (كالأخبار المحلية) ، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفًا من نظم مقالات الجرائد .

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التى نحن منها فى الإنسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التى يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . فإذا مات اليوم ماتت الجريدة ، ثم تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبى سرَّ الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الإنسانى إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحى من العربية ما بقيت . وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص ، وعلى أن المتنبى كان ضعيفاً فى ناحية الجمال والحب ضعفًا ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ فى هذا المعنى ، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل فى كمالها الفنى مقام تماثيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمرًّا باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق .

إن هذا الكون مبنى فى نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده ، ولكنه مبنى فى أنفسنا من عمل الحواس ، ثم من التعليل والتفسير ؛ أما الحواس ففى كل حىّ ، لا تُخلق بصناعة ولا عمل ؛ وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب ، فكلاهما يُخلق لإتمام الخلق فى الحقيقة . وهى منزلة لا أدرى كيف يمكن أن تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعى أو السياسى ، فترجع به نمطًا واحداً ، مع أن الآثار الأدبية وفى جملتها الشعر — إن هى إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلةً كلها فى بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة ؛ وهذه القوى كثيرة التحول ، فيجب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع ، وتنوعُ الصور الفكرية فى آثار الشاعر أو الأديب ومجيئها متوافرةً متتابعة

هو معيار أدبه وقياس نبوغه عاليًا أو نازلا ، ومتَّبعًا أو مبتكراً ، وفيما يضيء من نواحيه وما ينطفئ .

على أن شاعرنا الاجتماعى (كما كان يجب أن يوصف رحمه الله) وإن كان قد نفخ فى روح الشعب أنفاسًا إلهية ، وأحسن فى وصف حوادثه وآلامه وعيوبه ، وأبلغ البيان فى كل ذلك – فإنه نزل فى هذه المرتبة عن وضعه الصحيح ، فكان فى منزلته بمكان الشرطى فى الطريق : يقف للجرائم والحوادث ، على حين أن مقامه الاجتماعى من الشعب مقام المعلم فى مدرسته : يجلس للطباع والأخلاق . ليس الشأن أن تجد فى شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها أو أقلها ، فإن فوق هذه منزلة أعلى منها ، وهى أن توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر ، وأن يكون فى شعره العنصر النارىّ من اللغة الشعبية .

على أن (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا فى آخر عهده ، فكان يريد أن يميت ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيه ألف بيت ويسقط ما عداها وإن ... وإن كان فيه شعر اجتماعى .... ومع هذا النقص الذى بعثتْ عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً ، فإن تمام حافظ فى مذهبه الاجتماعى الذى نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة ، لا يجاريه فيه شاعر آخر ، بحيث دلّ على أن النابغة قدَرٌ إلهى لا ينقص من عظمته أن يكون حادثة واحدة تدوى دويها فى الدنيا ؛ فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأته لما خُلق له من ذلك ، فأحكمته المدرسة الحربية ، ثم قيَّده الجيش ، ثم تقاذفه السودان ، ثم قذف به الظلم ، ثم تولاه إمام عصره الشيخ محمد عبده ، وهو كذلك فى غاياته الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للإصلاح – مدرسة حربية وجيش وفلاة ، فلم يكن حافظ إلا الصوت الإنسانى الذى أُعِدَّ بخصائصه للتعبير عن حوادث أمته وخصائصها ، وكأنه فى نقلته من السودان إلى مصر قد انتقل من جيش يحارب الأقوام الأعداء لأمته ، إلى جيش آخر يحارب المعانى الأعداء لأمته .

* * *

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١ ، وكان الكتاب الأول الذى هداه إلى سر الأدب العربى وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته ، هو كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ

حسين المرصفى ، المطبوع فى مصر لخمس وخمسين سنة ؛ فى هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربى فى عصوره المختلفة ودرس ذوق البلاغة فى أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تركيبها ، وعرف منه الطريقة التى نبغ بها البارودى ، وهى قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومَن بعدهم ، وحِفظه الكثير منها ؛ فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ ، ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره ؛ إذ كانت قريحته كآلة التصوير : لا تُنْتَبَّه لشىء إلا علقتهُ وهذا سبب من أسباب ضعف خياله ، ولكنه ردَّ عليه من القوة فى اللغة ما تناهى فيه إلى الغاية .

واتفق لذلك العهد أن طبعت لزوميات المعرى فى مصر ، فتناولها حافظ واستظهر أكثرها ، فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعى ؛ والفرق بين حافظ وبين المعرى فى الموهبة الفلسفية هو الذى نفذ بالمعرى إلى أسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله ، يطير هناك ويقع .

وقد كان صاحبنا ضعيفًا من هذه الناحية ، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر فى الحياة ، والجمال والحسن فى الخليقة ، والجلال والإبداع فى الكون ، والإقرار والشك فى كل ذلك ؛ وقد بلغ المعرى من هذا مبلغًا لا بأس به ، إلا أنه لم يُصفَّ كما تصفَّى الأشياء فى عين مبصرة ؛ فخبط وخلط ؛ ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعًا . وتابعهُ حافظ فى طريقة أخرى سنشير إليها بعد .

وفتن شاعرنا بما قرأ فى « الوسيلة » من شعر البارودى ، فأصبح من يومئذ تلميذه ، وسار على نهجه فى قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف ، ولكنه لم يدرك شأو البارودى فى ذلك ؛ لأن هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما لم يتفق لغيره فى عصره ، وأدخل فى شعره أحسن ما صنعت الدنيا فى ألف سنة من تاريخ البلاغة العربية ؛ ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد فى التصنيع ولزمها إلى آخر مدته .

وابتدأ يعالج الشعر فى السودان وينظم فى جنس ما هو بسبيله من وصف

الهم المستولى عليه من جميع جهاته ؛ إذ كان يتيمًا فقيراً مشرّداً ، ويرى نفسه شاعراً تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر ، كالذى غُصب ميراثه من عرش ومُلك ، ونُفى إلى غير أرضه ، ووضعت روحه بإزاء روح الفقر وقيل لها : عدوٌّ ما من صداقته بُدٌّ .

ثم جاء إلى مصر واتصل بالإمام الشيخ محمد عبده ، واستقال من الجيش وفرغ للأدب ؛ فبدأ من ثم تكوينه الأدبى المندمج المحكم ، أما قبل ذلك إلى سنة ١٩٠١ التى طبع فيها الجزء الأول من ديوانه ، فكان شعره قليلا ظاهر التكلف ، وأكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم ، وفكر لم ينضج ، وموهبة فى التوليد الشعرى بينها وبين الاستقلال أمد قريب .

ودرس فى مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥ ، وهذا الإمام رحمه الله كان من كل نواحيه رجلا فذًّا ، وكأنه نبى تأخر عن زمنه ؛ فأعطى الشريعة ، ولكن فى عزيمته ، ووُهب الوحى ولكن فى عقله ، واتصل بالسر القدسى ولكن من قلبه ؛ ولولا هو ولولا أنه بهذه الخصائص ، لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية ، فإنه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التى جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه ، وكان له من أثرها هذا الشعر المتين فى وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره .

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحى نفسيتهم التاريخية الكبرى ، ولا تولاهُ ملك أو أمير يرغب فى أدبه رغبة أديب ملك ، أو أديب أمير ، ليظهر منه عبقرية جديدة فى التاريخ ؛ ولا عرف الحب الذى يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معًا ويزيد عليهما ؛ وهذه الثلاثة التى لم تتفق لحافظ ، هى التى لا ينبغ الشاعر نبوغًا يفرده ويميزه إلا بواحد منها أو باثنين أو بها كلها ؛ غير أن (حافظ) وجد فى الإمام ما هو أسمى من كل هؤلاء فى النفس والجاذبية ، وعرف فيه من ذوق الأدب والبلاغة ما لم يعرف شاعر فى ملك ولا أمير ؛ وقد حضر دروسه فى المنطق وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وخرج منها بذوقه الدقيق وأسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية وأغراضه الوثابة ، وحضر نظرات

عينيه وخرج منها بروحانية قوية هى التى تنضرم فى شعره إلى الأبد ؛ فحافظ إحدى حسنات الشيخ على العالم العربى ، وهو خطة من خططه فى عمله للإصلاح الشرقى الإسلامى والنهضة المصرية الوطنية وإحياء العربية وآدابها ؛ وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عُدَّت للتاريخ ، وجب أن يقال : أصلح وفعل وفعل وفسَّر القرآن وأنشأ حافظ إبراهيم . . .

ومضى شاعرنا موجَّهًا بفكرة الإمام وروحه ، واستمرَّ فى ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر إذا احتفر مجراه : لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجرى إلى مَقَارِّه .

* * *

وكان حافظ فى بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا ، وهو مثله إبطاءً فى عمل الشعر ، وتلَوُّمًا على حَوْكِه ، وانفرادًا بكل لفظة منه ، وتقليبًا للنظر فيما بين الكلمة والكلمة ، واعتبارَ كل بيت كالعروس : لها معْرض وحلية وزينة ؛ فإذا عمل شعرًا انبثت خواطره فى كل وجه ، وذهب وراء الألفاظ والمعانى ، وترك هاجسه (العقل الباطن)[1] يعمل عمله فيما التوى عليه أو استصعب ، وهو واثق أنه سينقاد ويتسهَّل بقوة إن لم تكن فيه الآن فستكون فيه ؛ ثم ينظم ما يتسمَّح إن جاء فى موضعه من القصيدة أو فى غير موضعه ، فلا يتبع فيها نسَقًا بعينه ، وإنما القصيدة عنده كلٌّ سيجتمع من بعد ، تتهيأ أجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجىء بها الإلهام وأسباب الاتفاق ؛ فالقصيدة أولاً فى أبياتها ، ثم تكون أبياتُها فيها ، أى ثم ترتب الأبيات وتنزَّل فى منازلها ، ولا ينظم إلا متغنيًا ، يَرُوض الشعر بذلك ، لأن النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد ، وهو يتبع فى ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموى فى كتابه خزانة الأدب ، وهى من وصية أبى تمام البحترى ، وكان المتنبى يعمل عليها ؛ وبالجملة فإن (حافظ) يرتهن فكره بالقصيدة التى ينظمها ويتوفر عليها وعلى أسبابها ، لا كما يفرغ الشاعر للشعر ، ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه ؛ وهو كذلك يبطئ فى نثره أكثر مما يبطئ فى الشعر ، دلَّنى بنفسِه رحمه الله على صفحة فى الجزء الثانى من ترجمة البؤساء ،

---

(١) كذا سماه المؤلف هنا ، وقد سماه فى غير هذا الموضع « الواعية الباطنة » .

وقال إنه ترجمها خمسة عشر يوماً * .

وحضرته مرة يترجم أسطراً من الجزء الأول (فى قهوة الشيشة) يخطها فى دفتر صغير دون حجم الكف ، فاجتمعت له ثلاثة أسطر فى ثلاث ساعات ، وهذا لا يعيبه ما دام يريد قسط الفن ، وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها إلى عالمه هو المتموّجِ من الألفاظ والعبارات بمثل الكواكب فى الاستواء والجاذبية والشعاع والرونقِ والجمال .

ويرى مع الصناعة أن يكون سبك شعره سبك البدوى المطبوع : جزلاً سهلا مشرقًا ممتلئًا متعادل الأجزاء والتقاسيم ، يرنّ رنينًا كأنما قذفت به سليقة أعرابى فصيح ، تحت ضوء كواكب البادية ، على بَرد الرمل ، فى نسمات الليل ، حين تمتلىء تلك النفس البدوية بحنين الحب ، أو شوق الجمال ، أو عظمة القوة ؛ وهذا هو الأصل الذى اتبعهُ ، وقفى عليه هو بنفسه فى سنة ١٩٠٢ ، وقرظنى به فى الجزء الأول من ديوانى فقال :

أنت والله كاتبٌ حضرىٌّ إن عددناك شاعراً بدويّا

ولو أنك أجريت شعر حافظ فى أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الأول ، لالتأم به وزاد عليه فى الصناعة وبعض المعنى ؛ وقلّ أن تجد فى شعره كلمة ينبو بها مكانُها ، إلاّ ألفاظًا قليلة كان يستكرهها ، يحسب أنه يستطرف منها ويرى فى غرابتها شيئًا جديداً ؛ وهذا من خطأ رأيه فى الأسلوب لأنه مع بلاغته كان ينقصه أن يكون فيلسوفًا فى البلاغة ؛ وأنا أرى أنه لو تمت له الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر ، ولكن الكمال عزيز فى البشرية ؛ وقد عرفتُ رأيه فى الأسلوب فى سنة ١٩٠٦ ، إذ نشرت له مجلة الأقلام التى كان يصدرها صاحبنا الأديب جورج طنوس كلماتٍ كان يريد أن يضمّنها كتابه (ليالى سطيح) ، أظهر فيها رأيه فى الشعراء ، فقال فى إسماعيل صبرى : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفى شوقى : أرق الشعراء ، طبعًا وأسماهم خيالا . وفى مطران : أسرعهم بديهةً وأقدرهم ابتكاراً . وقال فىّ — ولم يكن مضى علىّ إلا ستّ سنين فى طلب الأدب —

---

* لما أهدى إلى هذا الجزء كنا قبل الظهر ، فلم يدعنى حتى قرأته كله معه إلى العصر وكتبت عنه فى المقطم بعد ذلك .

مكثار راقى الخيال بعيد الشوط فى ميادين الأدب ، غير ناضج الأسلوب . فلما اجتمعت به فاتحتهُ فى ذلك وسألته رأيه فى الأسلوب الناضج ، فلم أرَ عنده طائلا ، وكل ما قاله فى ذلك : أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى قرر أن البلاغة ليست فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها فى الأسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ولا قاله غيره ، فإن الأسلوب عنده « طريقة مخصوصة فى نسق الألفاظ بعضها على بعض لترتيب المعانى فى النفس وتنزيلها » ، « وأن المنزلة من حيّز المعانى دون الألفاظ ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك » .

وقد قررت له أن للألفاظ ما يشبه الألوان ، فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء ، وربَّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة فى موضع فيكون ضعفها فى موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها ، كفترة السكوت بين أنغام الموسيقى : هى فى نفسها صمت لا قيمة له : ولكنها فى موضعها بين الأنغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه ؛ وهذا من روح الفن فى الأسلوب .

وأدرك شاعرنا من يومئذ ما سميته « قوة الضعف » ، ولعلَّ هذا هو السبب فى أن طبعه رجع يعدل به إلى التسهيل ، حتى إنه لتقع فى شعره أبيات متهافتة فيأتى بها ولا ينكرها ؛ ولقينى مرة فأنشدنى قول الشاعر :

أنا لم أُرزَق محبتَها ... إنما للعبـــد ما رُزِقا

وجعل يُعَجِّبنى من بلاغة قوله (لم أرزق) وأنها مع ذلك ضعيفة مُبتَذلة تجرى فى منطق كل عامى ، قلت : ولكن (محبتها) جعلتها كمحبتها . . . . . .

* * *

وضعف الموهبة الفلسفية فى حافظ عوَّضه ناحيةً أخرى من أقوى القوة فى الشعر ، وهى اهتداؤه إلى حقيقة الغرض الذى ينظم فيه ، وتركْه الحواشى والزيادات ، وانصرافُ قواه إلى دقة الوصف حين يصف ، وتعويله على إحساسِه أكثر من تعويله على فكره ؛ فزاد ذلك فى رونق شعره ومائه ، ونحا به منحى المطبوعين ، فخرج يتدفَّق سلاسةً وحلاوةً ، ممتلئًا من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير ؛ وبهذا نبغ فى الرثاء ووصف الفجائع نبوغًا انفرد به ، حتى

لأحسب أن هناك رُوحاً يمدُه فى هذه المواقف، وأن الحقيقة تتبرَّج لهُ فى هذه العظائم خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره ؛ وهو يتحد بالعظيم الذى يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منقطعة النظير ، تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة ؛ وأحسبه يسأل روح العظيم الذى يصفهُ أو يرثيه : أين المعنى الذى فيه حقيقتك ؟ وأين الحقيقة التى فيها معناك ؟

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل فى الشاعر الملهَم ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذب معاً ، المستقر والمتحول جميعاً ، الباطن والظاهر فى وقت ؛ فيكتنه الشاعر ما لا يدركه غيره، فيقف على الجمال والحسن والرقة، ويلهم الحكمة والبصيرة، ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ، ويؤتَى التعبيرَ عن كل ذلك فى طريقة خاصة به هى أسلوبه ، وهذا لم يتفق على أتمهِّ وأحسنه فى حافظ ، فقصَّر به فى فى توليد المعانى المبتكرة ، ونزل به فى الغزل ووصف الجمال ؛ بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه فى (الجانب المتألم من شعره) ، أى الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة ؛ ولو ذهبت تستعرض المراثى فى الشعر العربى ، ومثَّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم ، كالأستاذ الإمام ، والبارودى ، ومصطفى كامل ، وثروت ، لراعك أنك واجدٌ للشعراء ما هو أسمى من معانيهِ وأقوى من خياله ، ولكنك لا تجد ألبتة ما هو أفخر وأدق مما جاءَ به فى هذا الباب ، كأنه منفرد فى العربية بهذه الخاصة .

وهذا المعرى يقول :

ولولا قولُك الخلاَّق ربِّى لكان لنــا بطلعتك افتتــان

ويقول فى شعر آخر :

أسهب فى وصفه علاك لنـــا حتّى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ فى رثاء الشيخ محمد عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثــال (عبده) وإن كان ذكرى حكمة وثباتِ
فإنى لأخشَى أن يضلُّوا فيُومئــوا إلى نور هــذا الوجه بالسَّجدَاتِ

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما ، ولكن انظر كيف جاء به ؟ ويقول المعرى فى رثاءِ أبيهِ :

ولو حفَروا فى درَّة ما رضيتُها لجِسمك إبقاءً عليك من الدفنِ

ويقول فى رثاء غيره :

واخبؤاه الأكفان من ورق المصـ حف كبراً عن أنفس الأبرار

وهذان أيضًا كالصعاليك عند قول حافظ فى البارودى :

لو أنصفوا أودَعوه جوف لؤلؤة من كنز حكمتِه لا جوفَ أُخدودِ

وكفَّنوه بدَرْج من صحيفتـــه أو واضح من قميص الصبح مقدودِ

مع أن (حافظ) ألمَّ بقول المعرى . ومن بديع ما اتفق له فى قصيدة (الأمتَّان تتصافحان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهلَ فى الدنيا ولو وجَدوا إلى المجرَّة ركبًا صاعداً ركبوا

أو قيل فى الشمس للراجين منْتجَعٌ مَدُّوا لها سببًا فى الجوّ وانتدَبوا

فاقرأ هذين واقرأ بعدهما قول المتنبى فى سيف الدولة :

وصول إلى المُسْتَصْعَبَات بخيلهِ فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

فإنك تجد بيت المتنبى صعلوكًا على بيتى حافظ ، مع أنه المبتدع السابق .

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا فى مقطوعة يخاطب بها الأمريكان ، نشرها فى المقطم من ثلاث سنوات أو نحوها ، قال :

وتخذْتُمْ موجَ الأثير بريـــدا حين خِلتم أن البروق كُسالى

واتفق يومئذ أن كنت جالسًا فى زيارة الصديق الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف ، فجاءَ حافظ ، فلم يكد يصافحنى حتى قال : كيف ترى هذا البيت : وتخذتم موج الأثير بريداً ... إلخ ؟ فأثنيت عليه الذى يهوى ، وهنأته بهذا المعنى ، وأظهرت له ما شاء من الإعجاب ، ولكنى أضمرت عجبى من حسن ما اتفق له فإن الجمال الشعرى فى البيت إنما هو فى استعارة الكسل للبروق ، وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدى فى سيف الدولة :

وما تمهَّل يومًا فى ندًى وردًى إلا قضيتُ لِلَمْح البرق بالكسل

غير أن (حافظ) نقل المعنى إلى حقهِ ، ومكَّن له أحسن تمكين فى صدر كلامه ، وأتمَّ جماله فى قوله (حين خلتم) ، فاقتطع المعنى وانفرد به ، وعاد معنى السعدى

كالصعلوك على باب بيتـه ؛ وكانت هذه المقابلة فى المقتطف آخر عهدى بحافظ ، فلم أرهُ من بعدها ؛ رحمه الله !

وما مرّ بك إنما كان من صناعة الشاعر فى غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن استفحلَ وتخرّج فى مدرسة الإمام ، أما فى الجزء الأول فله هو صعاليك . . . كقوله فى الخمر :

خمرة قيل إنهـم عصـروها ... من خدود الملاح فى يوم عُرسٍ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَعَةٌ من كف ظبيٍ كأنما ... تناولها من خده فأدارهـا

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلامُ مَن لم ينضج فى البيان ولا الذوق ، لا يكادُ يتوّهم معه إلا أن فى خدود الملاح (خراجات) عُصِرت . . . وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده) ، فهى كلمة أكثر نعومة من ذلك الخد وأجمل نضرة :

وقول حافظ فى مدح الخديو :

يا من تنافسَ فى أوصافه كلمى ... تنافُسَ العرب الأمجاد فى النسب

فهو صعلوك على بيت أبى تمام :

تغايرَ الشعر فيه إذ سهرتُ لـه ... حتى ظننتُ قوافيـه ستقتتلُ

ولا نطيل الاستقصاء ، فإنما نريد التمثيل حسْبُ .

وكان الشاعر أول نشأته يأخذ فى طريقة المعرى الذى عمى عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسب أنه بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الأخيلة الكبيرة ، وما يدرى أنه بهذا الغلوّ لا يجىء إلا بالأباطيل الكبيرة . . . ولكن حافظ فى مزاجـه وتركيبه ونشأتـه كان رجلا مبنياً على الوضوح والقصد . فلم يفلح فى طريقة المعرى ؛ ووضوحه كذلك باعَدهُ من الفلسفة وإبهامها ، ومن الطبيعة وألغازها ، ومن الغزل ووساوسه ؛ وهو الذى أداه إلى الشغف بالحقيقة واستخلاصها فى كل أغراضه التى أجاد فيها ؛ ومن ثم خلا شعره أو كأنه خلا ...... من أوصاف الطبيعة فى جمالها بلغة الفكر المتأمل ، ومن أوصاف الجمال فى سحره بلغة القلب العاشق .

* * *

وأنت فلا تحسبنَّ الشاعر يجيد فى الغزل والنسيب من أنه شاعر يحسن الصنعة ويجيد الأسلوب ، فيكون غرض من الشعر سبيلا إلى غرض ، وفن عونًا على فنّ ، وتكون رقة الألفاظ وهَلْهَلَةُ النسج ، وقلبى ، وكبدى ، ويا ليلةً ويا قمراً ، ويا غزالا . . . . وأشباه ذلك — غزلا ونسيبًا ؛ كلاَّ ثم كلاَّ ، والثالثة كلاَّ أيضًا . . . .

إن الغزل وأوصاف الجمال موهبة فى الشاعر أو الكاتب تُسْخَر لها قوًى هى أشبه فى معجزاتها بما سخّر لسليمان من قوى الجن والريح ، غير أنها قوى آلام ولذات ووساوس ؛ تلك عظمة فى بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والأبطال ، غير أنها لا تكمل إلا خائبة أو مغلوبة ، فإذا انتصرت سقطت فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبى يُهيِّأ لها بروحانية شديدة الحسّ شديدة الفَوْرة ثائرة أبداً لا تهدأ إلا على توليد معنى بديع فى جمال من تحبُّه أو كجماله ؛ ثم إذا هدأتْ بذلك أثارها أنها هدأت ، فتعود إلى التوليد ، فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب ؛ هناك قوتان : إحداهما تؤتى الحب كما يصلح غرامًا وعشقًا ، والأخرى فوق هذه تؤتى الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً ؛ والأولى تجعل صاحبها عاشقًا يحب ويدرك ليس غير ، والثانية تجعله محبًّا عمله أن ينقل من لغة ما فى نفسه إلى ما حوله ، ومن لغة ما حوله إلى ما فى نفسه ؛ فهو مترجم النفس إلى الطبيعة، ومترجم الطبيعة إلى النفس ؛ والذى أعرفُه أن (حافظ) لم يرزق لا هذه ولا تلك ، فلا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال ؛ ثم إن التاريخ حصره فى (الشاعر الاجتماعى) الذى اختار أن يمتاز به ، فهو فى أكثر شعره كان ليس فيه شخص ، بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ؛ إذ يعيش فى معاناة الحرية لا فى التأمل الجميل ، وفى أسباب القوة لا فى أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل ليوجِد حقيقته قبل أن يعمل ليُبدع خيالَه .

ومع ذلك فقد جاء فى ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً فى فن يحسن التقليد إلا فيه خاصة ؛ عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديو مطلعها :

كم تحتَ أذيال الظلام مُتيمُ … دامى الفؤاد وليله لا يعلمُ . . .

وقلد ابن أبى ربيعة فى حكاية حب لفّقها تلفيقا ظاهراً ، ثم زعم أن الحبيبة قالت له فى آخرها :

فاذهَب بسِحرِك قد عرفتُك واقتصد … . . . فيما تزيّن للحسان وتُوهمُ

وكلمة صاحبة ابن أبى ربيعة :

أهــذا سحــرك النســوا … ن قــد عــرّفتنى الخبرا

أهذا سحرك النسوان ؟ . . . هذه كلمة لا تخرج إلا من فم حبيبته آية فى الظرف ، وفيها تجاهلها وعرفانها وابتسامها وإشراق وجنتيها ، وأكاد والله أرى فيها تلك الجميلة وهى تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة ليتنهد فيه الكلام والمتكلم معًا ، أما قول حبيبة حافظ الخشبية ، أو الحجرية . . . اذهب . . . قد عرفتك واقتصد . . . فهذا خليق أن يكون من فم قاض وهو ينصح المتهم بعد الأمر بالإفراج عنه . . . أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة !

أكبر ظنى أن روح حافظ نفسه هى التى أوحت إلىّ الآن هذه (النكتة) ، فإنه رحمه الله كان آية فى هذا الباب ، وله من النوادر محفوظة ومخترعة ما لا يلحق فيه ؛ ولو كان كاتبـًا على قدر ما كان شاعراً ، وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة فى التندر والتهكم ، مع ما أوتى من القوة فى اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربى ، ولقلنا فى شعره وكتابته وأدبه ما قال هو فى الأستاذ الإمام : فأطلعتَ نوراً من ثلاث جهات .

وما دمنا قد ذكرنا النقد فمن الوفاء للتاريخ الأدبى أن نذكر مذهب شاعرنا فيه : فلم يكن عنده منه إلا ذوق الكلام وإدراك النَّفْرة والنَّبْوة فى الحرف ، والغلَظ والجسْأة فى اللفظ ، والضعف والتهافت فى التركيب ، ثم ما يجيش فى الخاطر أو يتلجلج فى الفكر من ذوق المعنى وإدراك كنهه والنفاذ إلى آثار النفس الحية فيه ؛ فكأن النقد هو الحس بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما ؛ ووصف لى مرة إسماعيل صبرى باشا وأراد أن يبالغ فى دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وإدراكه دقائق المعانى ، فقال : «ذوّاق يا مصطفى» ولم يزد .

ومذهب الحسّ بالكلام هذا وإن صلح أن يكون من بعض معانى النقد ،

فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفى أو الأدبى ، وهو فى جملة أمره كقولك حسن حسن ؛ وردىء ردىء ، أما كيف كان حسناً أو رديئاً ، وبماذا ولماذا ، فذلك ما لا سبيل إليه من مذهب (ذوّاق) . . . ولا وسيلة له إلا العلم المستفيض ، والاطلاع الواسع ، والحسُّ المرهف ، والقدرة المتمكنة ، مضافة كلها إلى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة ؛ ولا نعرف لحافظ كتابة فى النقد ألبتة ، وقد كان حاول شيئاً من هذا فى مقدمة كتابه (ليالى سطيح) ، فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو أن يمحوها بعد أن طبعت الكراسة الأولى ، فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية ، وكانت عندى النسخة التى محاها ، وهذا ما لا أظنّ أحداً يعرفهُ الآن ؛ رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام ، وكان شعره كأنه البرق والرعد . . .

* * *

كلمات* عن حافظ (١)

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنةَ الأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي ؛ أيها القلبُ المِسكينُ ، أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إلىّ أنه هو راض مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَه ولم يبق فى نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لى ! . وكنت أعجبُ لهذا الخُلق فيه ولا أدرى ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعًا بطابَع اليُتم فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابنُ القَدَر : تأتيه الأفراح والأحزانُ من يد واحدة مقبَّلة كما تنالُ الصبىّ ألطافُ أبيه ولَطَماتُ أبيه . . . . . .

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ! فضحك وقال : أو كأنى أحلم بغير نوم . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِق بربه فى سنة ١٩٣٢ ، فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم : محكومًا بروح القبر ، وفى القبر أولهُ ؛ ولما أزْمعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانيًّا . . . . فقال : أو ترانى لم أمتْ بعد فى مصر ؟ . . . إن الذى بقى هيِّن !

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوىَّ الملَكة فى فن الضحك ، كأن القَدَر عوَّضه به ليُوجِدَهُ فى الناس عطف الآباء ومحبةَ الإخوة . ولم يَخْلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم **سعد باشا** زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ فى زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ

(١) كتبها فى الذكرى الثالثة لوفاته

* لما توفى حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف ، فلم نعرض فى كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل و إنما هى ذكرى و بقايا من الأيام .

فى نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكفئة : تميلُ بها موجةٌ وتعتدلُ لها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمرُّ وتسير .

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القدَر نظامًا فى زمن حافظ ، كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحًا فى عيشهم وكانوا إصلاحًا فى عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشبِّه بالمدارس المختلفة ، لقلنا إن (حافظ) تخرّج منها فى مدرسة التجارة العليا . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة .

* * *

وهذه النوادر كأنها هى أيضًا صنعت (حافظ) فى شكل نادرة ؛ فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده متَمَمّم ، هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيما ، ولكنه دائمًا متودّد ؛ وكان حزينًا ، ولكنه أنيسُ الطّلْعة ؛ وكان بائسًا ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان فى ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلُق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طوالَ عمره مُتَبسِّطًا مهتزا كأن له زمنًا وحدَه غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهومُسْتَنيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلَة الشِّبَع ويَسْتَرسلُ إلى البَطالة وكأنه مُشَمِّرٌ للجِد ، ويستمكنُ الحزنُ منه فىساعة فيتَهدَّد حزنه بالساعة التالية . . .

رأيته فى أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشُه ، وكان يَعُدُّ قروشًا فى يده ، فقلت : ما هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشًا ولم يبق لى غير هذه القروش الملعونة ، فهلمّ نتعشّ . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية ، فزعمت له أنى تعشَّيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش ؛ وكنت أطالعُ فى وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعانى (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة ، وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثانى من (البؤساء) ورآنى فى القاهرة فأمسك بى حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا فى الأصيل عربة وخرجنا نتنزَّه ، أى خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغير فى بؤس ولا نعيم ، كبياض الأبيض وسواد الأسود ؛ وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فنًّا من الفَوْضَى الإنسانية ، حتى لكأنه حُلمٌ شعرىٌّ بَدَأ من أبويه ثم انقطع وتُرِكَ لتُتمِّمَه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلا جمالَ الأشياء الطبيعية لا جمالَ الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والبرق والرعد وأشباهها ؛ وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُنطهِّمًا ، وأرى فى شكله هندسةً كهندسة الكون ؛ تتمم محاسنَها بمقابِحها وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القَفر . . . .

أما هو فكان يرى نفسه دَميمًا شنيعَ المرْآةِ متفَاوتَ الخلق كأنه إنسان مغلوطٌ فى تركيبه . . .

وقد سألته مرة : هل أحبَب ؟

فقال : النساءُ اثنتان : فإما جميلةٌ تنفر من قبحى ، وإما دميمةٌ أنفر من قبحها ! ولهذا لم يُفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يُحسن من هذا الباب شيئًا يسمى شيئًا ؛ وبقى شاعراً غير تام ، فإن المرأة للشاعر كحواء لآدم : هى وحدها التى تعطيه بحبها عالما جديداً لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلا . . .

* * *

وتهدّم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك ، فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتُمْ مَوْجَ الأثير بَرِيداً   حين خِلتُم أن البرُوق كُسالى *

فنظرتُ إلى وجهه المعروق المتغضّن وقلت له : لو كان فيك موضعُ

---

* هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين ، وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق .

قُبلة لقبّلتك لهذا البيت ! . فضحك وأدار لى خدَّه ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

* * *

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ومحفوظاته من هذا الفن أمر مُجمع عليه ؛ وكان يتقصّص النوادرَ والفكاهات ومُطارحاتِ السَّمَر من مظانّها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبَه هو ، وجعل يقلّبها ويتصرف فيها ويُبينُ عنها أحسن الإبانة بمنطقه ووجهه ونبراتٍ فى لسانه ونبراتٍ فى يده .

وهو أصمعىٌّ هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فإذا استهلَّ سحَّ بالنوادر سحًّا كأنها قوافى قصيدة تدعو الواحدةُ منها أختها التى بعدها .

وقد أذكرتنى (القوافى) مجلساً حضرتُه قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ ، وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) : هلم نتساجلْ فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدُنا ؛ وكانت القافية من وزن : قدَّرَها ، أحمرها ، أخضرها . . . إلخ ، وجعلتُ أنا أُحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلا ثم ينطق باللفظ ، ولا يكاد يفعل حتى يرميَه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسرُدُ له من حفظه الغريب .

أما فى النوادر فالعجيبةُ التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » ، وكان داهية ذكيًّا وظريفاً لبقاً ، وكنتُ أخالطُه وأتصلُ به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ؛ فلما مُدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وما هو ؟ قال : كل لقمة بنادرة !

فتهلل حافظ وقال : نعم ، لك علىّ ذلك ، ثم أخذ يقصّ ويأكل ، والعشاءُ حافلٌ ، وحافظ كان نهما ، فما انقطع ولا أخلَّ حتى وفّى بالشرط ؛ وهذا لا يمنع

أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك ، فيسرع حافظ ويغالط بفمـه . . . . . .

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به ؛ فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائمًا — دعوه لإلقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلمًا وكان صاحب السرّ فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى ؛ فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظمًا عن شكسبير ، ومثّله تمثيلا أفرغ فيه جهده ، فأطرب وأعجب : ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقى عليهم من نوادره ، وبدأ كلامه بهذه النادرة : عُرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكرٌ أم ثيِّب ؟ فقالت : كثرت الفتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها . . . وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تُفلح !

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبُّه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم بها من بعد ؛ ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدرى أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا ؛ فقد عُرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين . . .

* * *

وفن (الشعر الاجتماعى) الذى عُرف به حافظ ، لم يكن فنَّه من قبل ، ولا كان هو قد تنبَّه له أو تحراه فى طريقته ؛ فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة (أوچينى) نظم قصيدته النونية التى يقول فيها :

فاعذُرينا على القصور ، كلانا غيـَّرته طوارئُ الحدثان

ولقيتـُه بعدها فسألنى رأيى فى هذه القصيدة ، وكان بها مُدلا مُعجبًا ، شأنه فى كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء فى ألفاظها ومعانيها ، وأشرت إلى الطريقة التى

كان يحسن أن تخاطب بها الإمبراطورة ؛ فكأنى أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين — أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لى : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعى » ، ثم كأنه تنبَّه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها ، إن كل قصائد شوقى الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر .

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقينى بعدها مرة أخرى فقال لى : إن الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هى الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد ؟ . . .

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصل هذا المذهب الذى ذهب إليه حافظ ، وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التى تعرض فى مجلس الشيخ محمد عبده ، من حديثه أو حديث غيره ، فيبنى عليها أو يُدخلها فى شعره ، وهو أحياناً ردىء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً ؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطَّلة ، وإنما هى فى الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها . . .

* * *

وكنت أولَ عهدى بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الإمام وأنفذتها إليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى إنه هو تلاها على الإمام ، وإنه استحسنها ؛ قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبير معنى ! . قال : ويحك ! . إن هذا مَبْلغ الاستحسان عنده .

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلا . . . فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ .

وأنا أرى أن « حافظ إبراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » : لولا

أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك .

ومن أثر الشيخ فى حافظ أنه كان دائمًا فى حاجة إلى مَن يَسمعه ، فكان إذا عمل أبياتًا ركب إلى إسماعيل باشا صبرى فى القصر العينى ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة . . . إذ كانت أذُن الإمام هى التى ربَّت الملكةَ فيه ؛ وقد بيَّنا هذا فى مقالنا فى (المقتطف) .

وكان تمام الشعر الحافظىّ أن يُنشده حافظ نفسه ؛ وما سمعت فى الإنشاد أعربَ عربيةً من البارودى ، ولا أعذب عذوبةً من الكاظمى ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعًا .

وكان أديبنا يُجل البارودى إجلالا عظيمًا ، ولما قال فى مدحه :

فمُرْ كلَّ معنى فارسىٍّ بطاعتى وكلَّ نَفور منه أن يتوددَّا

قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسىٍّ وما هو بفارسى ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها ؛ قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعِرنى المجموعة التى عندك . . .

أما الكاظمى فكان حافظُ يُجافيه ويُباعدُه ، حتى قال لى مرة وقد ذكَّرته به : « عَقَقْناه يا مصطفى ! » .

وما أنس لا أنس فرَحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده ، وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى ، ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ، فنال حافظ المدالية الذهبية ، ونال مثلها السيد توفيق البكرى .

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئًا فى الشعر ولا أزال فى الغَرْزَمَة* قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان فقال : « لِيهْ تِخَلِّى هِمِّتَكْ ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجبًا

* الغرزمة : أول قول الشعر ، حين يكثر الردىء فيه . يقال : فلان يغرزم .

بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ ، فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة .

* * *

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى ، ففى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) ، فظهر فى أحد أعدادها[1] مقال عن الشعراء بهذا التوقيع * ، وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الغارة عليهم كزَفيف الجيش وقَعْقَعَةِ السلاح ، وتناولتْه الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ؛ وتكلم عنه الأستاذ الإمام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين ، كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ إبراهيم اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سوريًّا — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيسًا بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال .

وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه ؛ فغضب حافظ لذلك غضبًا شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال ، وذِمة الإسلام أنت صاحبُه !

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » ، فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعرٍ من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين ! . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرَّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى . . .

وغضب السيد توفيق البكرى غضبًا من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . . . وشمَّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحًا يَرِنُّ رنينا .

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم ، وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعًا ، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر . . . فكان هذا ردًّ نفسه على نفسه * .

---

(١) عدد ينايرسنة ١٩٠٥ ، وانظر ص ٣٨ — ٤٣ « حياة الرافعى »

* نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعد أن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى ، لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لا يسمى بكاؤها بكاء ... ...

وتعلَّق مقالُ المنفلوطى على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلىّ كتابًا يذكر فيه تعسف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول : قد وكَّلْتُ إليك أمرَ تأديبه[1] .

فكتبت مقالا فى جريدة (المنبر) ، وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمَّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها . . . وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِه ، فأكبّ على قدم الملك حتى شفَّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ! . فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذنيه فى رِجليه . . .

* * *

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين حين ظهر مقال (الثريا) . ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيه ؛ فمررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما اطمأن بى المجلس قال حافظ : ما رأيك فى شعر اليازجى ؟ فأجبتُه ، قال : فالبستانى ؟ فنجيب الحداد ؟ ففلان ؟ ففلان ؟ فداود عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلا لا يَسُوغ معه الحكم على شعره . قال : فماذا قرأتَ له ؟ قلت : رَدَّه على قصيدتك إليه :

* شَجَتْنَا مطالعُ أقمارِها *

قال : فما رأيك فى قصيدته هذه ؟ قلت : هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل .

فما راعنى إلا رجل فى المجلس يقول : أنصفتَ والله ! . فقال حافظ : أقدّم لك داود بك عمون ! . . .

رحم الله تلك الأيام ! .

---

(١) انظر ص ١٢١ « حياة الرافعى »

شوقى (١)

هذا هو الرجلُ الذى يُخيَّلُ إلىَّ أن مصر اختارته دون أهلها جميعًا لتضعَ فيه رُوحها المتكلم ، فأوجبتْ له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أُمَّة تريد أن تكون شاعرةً ، لا على قدر رجل فى نفسه ؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعرى وأدبى !

شوقى : هذا هو الاسم الذى كان فى الأدب كالشمس من المشرق : متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع ، ومتى ذُكر فى بلد من بلاد العالم العربى اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة ؛ مترادفات لا فى وضع اللغة ولكن فى جلال اللغة .

رجل عاش حتى تمَّ ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ، ودليلُ العبقرية على أن فيه السرَّ المتحرك الذى لا يقف ولا يكلّ ولا يقطع نظامَ عمله ، كأن فيه حاسَّةَ نحلة فى حديقة ، ويكبر شعره كلما كبر الزمن ، فلم يتخلَّف عن دهره ، ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنه مع الدهر على سياقٍ واحد ، وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطورُ أطواره فى النموّ فلم يجمدْ ولم يرتكسْ ، وبقى خيالُ صاحبه إلى آخر عمره فى تدبير السماء كعرَّاضِ الغمامة ، سحابُه كثير البرق ، ممتلئٌ ممطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمتلىء من ناحية .

والناسُ يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم ، ولكن الأديب الحقَّ يُكتب عليه شبابٌ وكهولةٌ وشباب ؛ إذ كانت فى قلبه الغاياتُ الحية الشاعرة ، ما تنفكُّ يلدُ بعضُها بعضًا إلى ما لا انقطاع له ، فإنها ليست من حياة الشاعر التى خلقت فى قلبه ، ولكنها من حياة المعانى فى هذا القلب .

* * *

أقرر هذا فى شوقى رحمه الله ، وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة

---

(١) المقتطف : نوفبر سنة ١٩٣٢ ، وانظر ص ١٥٦ — ١٥٧ « حياة الرافعى »

فى أدبه وشعره ؛ ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتساير فى الجو ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر ، وهى لم تذكر قديمًا فى الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ، ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى ، وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم ، حتى إن أبا محمد الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الإنشاء فى مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفى سنة ٣٤١ هـ) ، وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار فى السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سلم لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها ، فيستشيرهم فى تخليد هذا الأدب المصرى بدار العلم إن استجادوه وارتضوه ، كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها فى مكتبة بغداد قديمًا يشبه فى حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها فى عصبة الأمم ...

وهذا أحمد بن على الأسوانى إمام من أئمة الأدب فى مصر (توفى سنة ٥٦٢) ، وكان كاتبًا شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدون شعر المصريين ، فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) أربع مجلدات ، كأن الشعر المصرى وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة ، فى العهد الذى لم يكن ضاع فيه شىء من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات . . على اختلافهم فى مقدار المجلدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ؛ والأسوانى نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة .

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسوانى المتوفى سنة ٥٦١) قال العماد الكاتب إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه ، وسارت له فى الناس قصيدة سموها النواحة ، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه ؛ فالرجل أشعر أهل مصر فى زمنه ، وحادثة النواحة تجعله فى هذا المعنى أشعر من نفسه ، على أنه مع هذا لم يقل إلا من هذا :

يا ربعُ أين ترى الأحبة يمّموا ... هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا
رحلوا وفى القلب المعنَّى بعدهم ... وجدٌ على مرِّ الزمان مخيِّمُ
وتعوّضتْ بالأنس نفسى وحشةً ... لا أوحش الله المنازلَ منهمُ . . .

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الإسكندرى وأمثالهم ، وكلهم أصحاب دواوين صغيرة ، وليس فى شعرهم إلا طابع النيل ، أى الرقة والحلاوة — لولا هؤلاء فى المتقدمين لأجدب تاريخ الشعر فى مصر ؛ ولولا البارودى وصبرى وحافظ فى المتأخرين ؛ وكلهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة ، لما ذُكرت مصر بشعرها فى العالم العربى ؛ على أن كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ، ووضعه شوقى وحده !

والعجب أن دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون إلا صغيرة ، كأن طبيعة النيل تأخذ فى المعانى كأخذها فى المادة ، فلا فيض ولا خصب إلا فى وقت بعد أوقات ، وفى ثلاثة أشهر من كل اثنى عشر شهراً ؛ ومن جمال الفراشة أن تكون صغيرة ، وحسبها عند نفسها أن أجنحتها منقّطة بالذهب ، وأنها هى نكتة من بديع الطبيعة !

على أنك واجد فى تاريخ الأدب المصرى عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الإلياذة ولا الإنيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ، ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء إن كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل ؛ وهى قصيدة نظمها أبو رجاء الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، وكان شاعراً فقيها أديبًا عالما كما قالوا ، وزعموا أنه اقتصّ فى نظمه أخبار العالم وقصص الأنبياء واحداً بعد واحد ، قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك ؟ فقال : ثلاثين ومائة ألف بيت . . . وما أشك أن هذا الرجل وقع له تاريخ الطبرى وكتب السير وقصص الإسرائيليات فنظمها متونًا متونًا . . . وأفنى عمره فى ١٣٠ ألف بيت حوّلها التاريخ إلى خبر مهمل فى ثلاثة أسطر ![1] .

* * *

كل شاعر مصرى هو عندى جزء من جزء ، ولكن شوقى جزء من كل ؛ والفرق بين الجزءين أن الأخير فى قوتِه وعظمته وتمكنه واتساع شِعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل ؛ ولم يترك شاعر فى مصر قديمًا وحديثًا ما ترك شوقى ، وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه ؛ وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده ،

---

(١) انظر خبر (مصر الشاعرة) ص ١٤٦ – ١٤٧ « حياة الرافعى »

فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمور كثيرة هى رزق تاريخه من القوة المدبرة التى لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطى ، أو يزيد ما تنقص ، أو ينقص ما تزيد ؛ وقد حاولوا إسقاط شوقى مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً ، ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه . . . ويرى بهما أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر ، وما هو بمنزلة شاعر وشعره .

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ فى نعمة الخديو إسماعيل باشا ، ونثر له الخديو الذهب وهو رضيع فى قصة ذكرها شوقى فى مقدمة ديوانه القديم ، ثم كفله الخديو توفيق باشا وعلمه وأنفق عليه من سعة ، وأنزل نفسه منه منزلة أب غنى كما يقول شوقى فى مقدمته ، ثم تولاه الخديو عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول :

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

وإذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه فى ذلك العهد ، خرج لك من التفسير : شاعر مُرْهَفٌ مُعانٌ بأسباب كثيرة ، ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى ، تعمل لإحياء التاريخ فى النفس المصرية ، وتبصيرها بعظمتها ، وإقحامها فى معارك زمنها ، وتهيئتها للمدافعة ، وتَصلُ الشعر بالسياسة الدينية التى توجهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة أوربا فى تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الإسلامية ؛ ولا يخرج لك شوقى من هذا التفسير على أنه رجل فى قدر نفسه ، بل فى قدر أميره ذلك ؛ وكان ممتلئاً شباباً يغلى غلياناً ، ومُعداً يومئذ لمطامحَ بعيدة ملففة حشوُها الديناميت السياسى . . .

كنت ذات مرة أكلم صديقى الكاتب العميق فرح أنطون صاحب (الجامعة) وكان معجباً بشوقى إعجاباً شديداً ، فقال لى : إن شوقى الآن فى أفق الملوك لا فى أفق الشعراء ! قلت : كأنك نفيته من الملوك والشعراء معاً ؛ إذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً ، ولو نفذ إلى أولئك لم يعدُّ شيئاً ، إنما الرجل فى السياسة الملتوية التى تصله بالأمير ، هو مرة كوزير الحربية ، ومرة كوزير المعارف .

وهذه السياسة التى ارتاض بها شوقى ولابسها من أول عهده ، واتجه شعره فى مذاهبها ، من الوطنية المصرية ، إلى النزعة الفرعونية ، إلى الجامعة الإسلامية ،

فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعرى — هى بعينها مادة نقائصه ؛ فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها ، وتسخير الناس فى ذلك بما وسعته قوته ، إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعرُ كلُّ شعرة منها إذا جاءها الحسن بثانية ، وهى غيرة وإن كانت مذمومة فى صلتـه بالأدباء الذين لذّعوه بالجمر . . . ونحن منهم ، غير أنها ممدوحة فى موضعها من طبيعتـه هو ؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظـله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضًا ليجعل شوقى أشعر من شوقى ؛ وعندى أن كل ما فى هذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التى رُدّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة ، فجعلت تضطرب فى وجوه من الحيل والأسباب مدبرةً مقبلةً ، مُتَهَدِّيةً فى كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها فى الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائمًا إلى رائحة الدجاج . . . .

ومؤرخ الأدب الذى يريد أن يكتب عن شوقى لا يصنع شيئًا إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لمصر ، كالدلتا بين فرعى النيل ؛ وما أصابه المتنبى من سيف الدولة مما ابتعث قريحتَه وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزَى بها على الغايات البعيدة فى تاريخ الأدب — أصاب — شوقى من سمو الخديو عباس أكثر منه ، فكان حقيقًا أن يساوى المتنبى أو يتقدمه ، ولكنه لم يبلغ منزلته ، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة فى معرفتـه بالأدب العربى ورغبته فيه ؛ وسر المتنبى كان فى ثلاثة أشياء : فى جهازه العصبى العجيب الذى لا يقل فى رأيى عما فى دماغ شكسبير ، وفى ممدوحـه الأديب الملك الذى ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائى من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم فى أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التى لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو فى قدرها ، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المتنبى تتفجّر على الدنيا بمعجزاتها النورانية .

ولقد والله كان هذا المتنبى كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء ؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابى شيخ الكتاب فى عصره يراسله أن يمدحه

بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولكنى إن مدحتك تنكَّر لك الوزير (يعنى المهلَّبى) لأنى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالاً ولا من شعرى عوضًا ! فأين فى دهرنا من تُشعره عزَّة الأدب مثل هذا الشعور ليأتى بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا فى انتظار كلمتها ؟

على أن شوقى لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعرى) ، وكل بلاءِ الشعر العربى أنه لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف إلى معانٍ فردية من ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم . . . حتى الطبيعة تظهر فى الشعر العربى كأنها قطع مبتورة من الكون داخلةٌ فى الحدود لابسة الثياب ؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملءَ حاجاته لا ملءَ الطبيعة ؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ، ويسقط بشِعره على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا تجد فى طبعه قوة الإحاطة والتبسُّط والشمول والتدقيق ، ولا تؤاتيه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها ، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عَفوِه ولا يحسن أن يوغِل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثُه ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمرُّ على الكون مرًّا سريعًا ، وإذا شعره مقطع قطعًا ، وإذا آلامُه وأفراحه أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظلٌّ طامس ملقى على الأرض إذا قابلتَه بتفاصيل الجسم الحى السائر على الأرض .

واجتمع لشوقى فى ميراث دمه ومجارى أعراقِه عنصر عربى ، وآخر تركى ، وثالث يونانى ، ورابع شركسى ؛ وهذه كثْرة إنسانية لا يأتى منها شاعر إلا كان خليقًا أن يكون دولةً من دول الشعر ، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبى فى عينيه ، كأن هذا دليل طبيعى على أن وراءهما عينين للمعانى تزاحمان عينى البصر ؛ وما لم يكن التركيب العصبى فى الشاعر مهيَّأً للنبوغ ، فاعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا فى غير الشعر ، وليس فى الطبيعة ولا فى الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل فى غير البلبل ؛ ومع كل ما تقدم فقد أُعين شوقى على الشعر بفراغه

له أربعاً وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا متقسم الخاطر ، على سعة فى الرزق وبسطة فى الجاه وعلو فى المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربى والأوربى والتركى والفارسى ؛ وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة ، وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه ، فسافر ورحل وتقلب فى الأرض ، وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة ينخللها ببصره ما بين الأندلس والأستانة ، وظهيره على ذلك ماله وفراغه ؛ وإنما قوة الشعر فى مساقط الجو ، ففى كل جو جديد روح للشاعر جديدة ؛ والطبيعة كالناس : هى فى مكان بيضاء وفى مكان سوداء ، وهى فى موضع نائمة تحلم وفى موضع قائمة تعمل ، وفى بلد هى كالأنثى الجميلة ، وفى بلد هى كالرجل المصارع ؛ ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبى على أقواه وأشده إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ، ألوانَ الهواء اللذيذ المفيد .

وعندى أنه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم فى طبقة الفحول من شعراء العالم ، إلا إذا أعيد تاريخ شوقى مهذباً منقحاً فى رجل وهبه الله مواهبه ، ثم تهبه الحكومة المصرية مواهبها .

* * *

والكتاب الأول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينه الذى كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه فى مقالنا عنه ، أى كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفى ؛ وليس السر فى هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان فى مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقى ، ولكن السر ما فى الكتاب من شعر البارودى لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ، وعلى خطإ إن كان الخطأ ؛ وقد تصرّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبى وغيره ، ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يُخلِّدُ الجيلُ منهم إلا لما رأى فى عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذى فُتح له ، إلى أن كان البارودى ، وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة ، لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذى حوّل الشعر من بعد ؛ فيالها عجيبةً من الحكمة ! وهى دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعاً

لقوانين نافذة على الناس . وأكبّ البارودى على ما أطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ؛ إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثم المعاناة والمزاولة ؛ وكانت فيه سليقة ، فخرجت مخرج مثلها فى شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفى بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقى وغيرهما ، فكل ما فى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ ، فتبعثه هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما فى قوة نفسه ما دام فيه ذكاء وطبع ؛ وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معاً غير طريقة البارودى .

تحول شوقى بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودى ، فإنه لا يطيقها ولا تتهيأ فى أسبابه ، وخاصة فى أول عهده ، وكأن لغة البارودى فيها من لقبه ، أى فيها البارود . . . ولكنّ تحوّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال الليثى وأبى النصر وغيرهما ، فترك الأحياء وانطلق وراء الموتى فى دواوينهم التى كان من سعادته أن طبع الكثير منها فى ذلك العهد : كالمتنبى وأبى تمام والبحترى والمعرى : ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية : كابن الأحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفرى والحاجرى ، ثم مشاهير المتأخرين : كابن النحاس والأمير منجك والشرقاوى . وقد حاول شوقى فى أول أمره أن يجمع بين هذا كله ، فظهر فى شعره تقليده وعمله فى محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد ، مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح .

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون أكبر همى إلا البحث فى طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألمّ وكيف لَحَظ ، وكيف كان المعنى مُنْبِّهَةً له ، وهل أبدع أم قلّد ، وهل هو شَعَر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها ، أم نقله نقلاً فجاء من الكتب ؛ وهل يتسع فى الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة فى أسرار الأشياء ، ويحسن أن يَسْتَشِفَّ هذه الغيوم التى يسبح فيها المجهول الشعرى ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ؛ أم فكره استرسالٌ

وترجيمٌ فى الخيال وأخذٌ للموجود كما هو موجود فى الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمرُّ فيها مخلوقاتُ معانيه لتُخلق فتكون لها مع الحياة فى نفسها حياةٌ من نفسه ، أم هو تبَعيةٌ كالسمسار بين طرفين : يكون بينهما ، وليس منهما ولا من أحدهما ؟ فى هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ، ولا يؤديك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقتَه ، أما تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله ؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره، وليس فى تأريخ ما كان إلا نقله كما كان .

وإذا عرضنا شوقى بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ، ففيه تلك الموهبة التى أسميها حاسة الجو ؛ إذ يتلمح بها النوابغ معانى ما وراء المنظور ، ويستنزلون بها من كل معنًى معنًى غيره .

انظر أبياته التى نظمها فى أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما أظن ، وهى من شعره السائر :

خدَعوها بقولهم حسناءُ والغوانى يغرُّهنّ الثناءُ
ما تراها تناست اسمىَ لمّا كثُرتْ فى غرامها الأسماءُ
إن رأتنى تميلُ عنى كأن لم تكُ بينى وبينها أشياءُ
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ .

دع غلطته فى قوله (تميل عنى)[1]، فإن صوابها : تَمِلْ ؛ إذ هى جواب إن الشرطية ؛ ولكن تأمل كيف استخرج معانيه ؛ وأنا كنت دائمًا وما أزال معجبًا بالبيتين الثانى والرابع ، لا إكباراً لمعناهما ، فهما لا شىء عندى ، ولكن إعجابًا بموهبة شوقى فى التوليد ، فإنه أخذ البيت الثانى من قول أبى تمام :

أتيتُ فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام

فمرَّ المعنى فى ذهن شوقى كما يمرّ الهواء فى روضه ، وجاءَ نسيمًا يترقرق بعدما كان كالريح السافية بترابها ؛لأن الزحام فى بيت أبى تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء ، لا بقلب امرأة يحبها ، بل هو يجعل قلب المرأة شيئًا غريبًا كأنه ليس

(١) انظر المساجلات بين الرافعى والعقاد فى هذه القولة بالمقتطف

عضواً فى جسمها ، بل غرفة فى بيتها . . . وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل فى إبداعه وذوقه ورقته .

والبيت الرابع من قول الشاعر الظريف :

قِفْ واستمع سيرةَ الصبِّ الذى قتلوا　　فمات فى حبهم لم يبلغ الغرضَا
رأى فحبَّ فسامَ الوصلَ فامتنعوا　　فرامَ صبرا فأعيـا نيله فقضى

وهذه « فاءَات » تجرّ إلى القبر ونعوذ بالله منها . . . ومما كنت أعيبه على شوقى ضعفُه فى فنون الأدب ، فإن المويلحى الكاتب الشهير انتقد فى جريدته مصباح الشرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشوقيات فى سنة ١٨٩٩ ، فارتاع شوقى وتحمَّل عليه ليمسك عن النقد ، مع أن كلام المويلحى لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر . . . ومن مصيبة الأدب عندنا ، بل من أكبر أسرار ضعفه ، أن شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد ، وأنهم يفرون منه فراراً ويعملون على تفاديه وأنهم لا يحسنون غير الشعر ؛ فلا البارودى ولا صبرى ولا حافظ ولا شوقى كان يُحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب فصلا فى النقد الأدبى ، أو يحقق مسئلة فى تاريخ الأدب .

ومن معانى شوقى السائرة :

لكَ نصحى وما عليك جدالى　　آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره فى قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا　　وأذى النصح أن يكون جهاراً

والبيتان من شعر صباه أيضًا ، ، وهما من قول ابن الرومى :

وفى النصح خيرٌ من نصيح مُوادعٍ　　ولا خير فيه من نصيح مواثب

فصحح شوقى المعنى وأبدل المواثبة بالجدال ، وذلك هو الذى عجز عنه ابن الرومى ؛ ومن إبداعه فى قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان :

يكادون من ذُعرٍ تفرُّ ديـارُهم　　وتنجو الرواسى لو حواهن مَشْعَبُ
يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى　　ويقضم بعضُ الأرض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع فى الغاية ، جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك ، بل من هول القيامة ؛ وهو مع ذلك مولَّد من قول أبى تمام فى وصف كرم ممدوحه أبى دلف :

تكاد مَغانيه تهشُّ عِراصُها فتركبُ من شوقٍ إلى كل راكب

فقاس شاعرنا على ذلك ؛ وإذا كادت الدار تركب إلى الراكب إليها من فرحها ، فهى تكاد تفرُّ مع المنهزم من ذعرها ؛ ولكن شوقى بنى فأحكم وسما على أبى تمام بالزيادة التى جاء بها فى البيت الثانى :

ومن أحسن شعره فى الغزل :

حوَت الجمال فلو ذهبتَ تزيدها فى الوهم حسنًا ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسـ ـن إليها لما أصابت مزيدا

غير أن شوقى قال : لو ذهبت تزيدها فى الوهم . . . والشاعر قال : لو استزادت هى ؛ فلو خلا بيت شوقى من كلمة (فى الوهم) لما كان شيئًا ، ولكن هذه الكلمة حققت فيه المعنى الذى تقوم عليه كل فلسفة الجمال ؛ فإن جمال الحبيب ليس شيئًا إلا المعانى التى هى فى وهم محبه؛ فالزيادة تكون من الوهم، وهو بطبيعتـِه لا ينتهى ؛ فإذا لم تبق فيه زيادة فى الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى فى صور كثيرة فى كتبنا : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ فانظره فيها .

ومما يتمم ذلك البيتَ قولُ شوقى فى قصيدة النفس :

يا دمْيةً لا يستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسى موقعًا وله من إعجابى محل ؛ فهذه الزيادة التى فيه كزيادة العمر لو أمكنتْ ، وهى فى موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل ، وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل ؛ وقد علمت مأخذ الشطر الأول ، أما الثانى فهو من قول ابن الرومى :

يا حَسَنَ الوجـه لقد شِنتَهُ فاضمم إلى حسنك إحسانا

وفى القصيدة التى رثى بها ثروت باشا وهى من أحسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر :

وقد يموت كثير لا تحسهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

وشوقى يعارض بهذه القصيدة أبا خالد ابن محمد المهلبى فى داليّته التى رثى بها المتوكل، وكان المهلبى حاضراً قتله هو والبحترى، فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا إنها من أجود ما قيل فى معناها ؛ وبيت شوقى مأخوذ من قول المهلبى :

إنّا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا

أى لم يحسّ موتهم أحد ؛ ولكن البيت غير مستقيم ، لأن الذى يموت فلا يفقد هو الخالد الذى كأنه لم يمُتْ ؛ فاستخرج شوقى المعنى الصحيح وجعل العدم الذى هو آخر الوجود فى الناس ، أولَ الوجود ووسطه وآخره فى هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوُجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وُجدوا . .

* * *

وإلى ما علمتَ من قوة هذه الشاعرية ، ودقتها فيما تتأتى له ، ومجيئها بالمعانى النادرة مستخرجةً استخراج الذهب ، مصقولة صقل الجوهر ، معدّلة بالفكر ، موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء ، وغرّةً كغرة الأحداث ؛ حتى لتحسب أن طفولة شوقى كثيراً ما تنبعث فى شعره لاعبةً هازلة ، أو كأن الرجل شخصيتين كما يقول الأطباء ، فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصًا ، وعلواً ونزولاً ، أو قل هى العربية واليونانية فى ناحية من نفسه ، والتركية والشركسية فى ناحية أخرى : لتلك الابتكارُ والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويلُ والمبالغة والخلط ؛ وشوقى هو بهما جميعًا ؛ تفتنُه القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة ، وتخدعه الضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقة ؛ كما أعجب ببيته الذى قالهُ فى الحنين إلى الوطن من قصيدته الأندلسية الشهيرة :

وطنى لو شُغلت بالخُلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ، ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه ؛ فإن الخُلد لا يكون خُلداً إلا بعد فناء الفانى من الإنسان وطبائعه الأرضية ، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية ؛

فكأن شوقي يقول : لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين إلى شيء من ذلك — فإنى على ذلك أحنّ إلى الوطن الذى لا وجود له فى نفسى ولا فى نفسه . . . وهذا كله لغوٌ . . . والمعنى بعْدُ من قول ابن الرومى :

وحبّب أوطانَ الرجال إليهمو مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذَكروا أوطانهم ذكّرتْهمو عهودَ الصّبى فيها فحنّوا لذالكا

ومنازعة النفس هى الحنين ، ومعنى ابن الرومى وإن كان صحيحاً غير أنه لا يصلح لفلسفة الوطنية فى زمننا .

وإن فى شوقى عيبين يذهبان بكثير من حسناته : أحدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه إليه تركيتُه ولا مبالغة فى الدنيا تقاربها ، كقول بعض شعرائهم إن النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة . . . وهو إغراق سخيف لا يأتى بخيال عجيب كما يتوهّمون ، بل يأتى بهذيان عجيب ؛ وإذا كان الصدق يأنف من الكذب ، فإن الكذب نفسه يأنف من هذا الإغراق ؛ ومن هذه التركية فى شوقى إضافات وهمية ، هى من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار : قطعة فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها فى ذوق البلاغة العربية ، كقوله :

(عيسى الشعورِ) إذا مشى ردّ الشعوبَ إلى الحيـاة

وقوله فى سعد باشا فى حادثة الاعتداء عليه :

ولو زُلْتَ غُيِّب (عمرُو الأمورِ) وأخلى المنابرَ سَحبانُها

ويدخل فى جنايات هذه التركية على شعره تكرارُه الأسماء المقدّسة والأعلام التاريخية : كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع فى نظمه ولا تجده أكثر ما تجده إلا ثقيلا مملولاً ؛ ولهذه الألفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن ، فهى أحياناً تكون السحر كله والبلاغةَ كلها ، على شرط أن يكون القلب هو الذى وضعها فى موضعها ، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية ، فيكون كأنه وضع نفسه فى الشعر ليخفق خفقانه الحىّ فى بضعة ألفاظ ، وهذا ما لم يحسنه شوقى — والعيب الثانى أن ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النقد ؛ لضعفه فى الصناعة البيانية ، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل

شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغة والشعر ؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير :

قالوا الحمايةُ زالت قلتُ لا عجبٌ قد كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانةُ الله حزماً يقطع الذنبا

قلنا : فإذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيةٌ ما ذنب أو يد أو رِجل ؛ فإن هذه البقية فى لغة السياسة التى تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها . . . لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رِجلا ، بل هى (رأس الحماية) بعينه . . . على أن شوقى إنما عكس قول الشاعر :

لا تقطعنْ ذنب الأفعَى وتُرسلها إن كنت شهماً فأتبعْ رأسَها الذنبا

وهذا كلام على سياقه من العقل ، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقى رأسها ، وإنما الأفعى كلها هى هذا الرأس .

ولقد ظهر لى من درس شوقى فى ديوانه أمر عجبت له ؛ فإنى رأيتُه يأخذ من أبى تمام والبحترى والمعرى وابن الرومى وغيرهم ؛ فربما ساواهم وربما زاد عليهم ، حتى إذا جاء إلى المتنبى وقع فى البحر وأدركه الغرق ؛ لأنه نشأ على رهبةٍ منه كما تشير إليه عبارته فى مقدمة ديوانهِ الأول ؛ وقد وصف خيل الترك فى قصيدة أنقرة بقوله :

والصبر فيها وفى فرسانها خُلُقٌ توارثوهُ أباً فى الروع بعد أب
كما وُلدتم على أعرافها وُلدت فى ساحة الحرب لا فى باحة الرحَبِ

وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبى :

أقبلتَها غُررَ الجياد كأنما أيدى بنى عمرانَ فى جبهاتها
الثابتين فروسةً كجلودها فى ظهرها ، والطعنُ فى لبَّاتها
فكأنها نُتجتْ قياماً تحتهم وكأنهم وُلدوا على صَهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر ؟ وقال فى (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائفُ تخشى مهجةُ الشمس كلما علَتْ مصعِدات أنها لا تصوَّبُ
إذا هبَّ حاميها على السفُن انثنتْ وغانمُها الناجى فكيف المخيَّبُ

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك ؛ لأنه إذا كان الناجى غانمـًا ، فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة ؛ والكلمة الشعرية فى هذا كله هى قوله (وغانمها الناجى) ، وهى كالهاربة تتوارى خوفـًا من بيت أبى الطيب :

أغرُّ أعداؤه إذا سـلموا   بالهرب استكبروا الذى فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك ؛ على أنى أشهد أن فى قصيدة (صدى الحرب) أبياتـًا هى من أسمى الشعر ، وكأن شوقى رحمهُ الله كان ينظم هذه القصيدة من إيمانه ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته ، يبتغى بها الشهرة الخالدة فى الناس ، والمنزلة السامية عند الخديو ، ونباهة الشأن عند الخليفة ، والثواب عند الله تعالى ؛ ولو هو فى أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة فى الشعر العربى ، غير أن الحرص كان يغترُّه ، وكان طول عمره مفتونـًا بشعره ؛ فجاء فى هذا الشعر بالطمّ والرّم كما يقولون ؛ وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ؛ ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البيانىّ ، لما رضى أن يكون ذلك فى شعره ؛ وليت شعرى كيف غاب عن مثله أن التهويل والإغراق والإحالة مما يهجن الشعر ويذهب بأثره فى النفس ويحيله إلى صناعة هى شرٌّ من الصناعة البديعية ؛ لأن هذه تكون فى الألفاظ ؛ والألفاظ تحتمل العبث البديعى ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضربـًا من الرياضة كمعاناة بعض المسائل فى الجبر والهندسة تركيبـًا وحلا ؛ ولكن المعانى لا تحتمل ذلك ؛ إذ هى تفكير لا يلتوى إلا فسد ، والمعانى التى يأتى بها الشاعر يجب أن تكون فيها مزية بخاصّتها من الجمال والبيان ، وأن تكون أخيلتها هى الحقائق التى أول مواضعها فوق حقائق البشر .

وهناك ضربٌ آخر من المبالغة يجىء من سقوط الخيال ؛ لأن فى الأسفل مبالغة كما فى الأعلى ، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة فى السخرية منه والهزء به ؛ وهذه المبالغة تأتى من جمع أشتات مختلفة وإدماجها كلها فى معنى واحد ، كهذا الذى حاول أن يدمج الطبيعة كلها فى حبيبته فزعم أن فيها من كل شىء ، ونسى أن كل قبيح وكل بغيض هو من كل شىء[1] . . .

---

(١) يعنى قول العقاد فى وحى الأربعين :

فبك منى ومن النـاس   ومن كل موجود وموعود توأم

إن الخيال الشعرى يزيغ بالحقيقة فى منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجىء بها ممسوخة مشوهة ، ولكن ليعتدل بها فى أفهام الناس ويجعلها تامةً فى تأثيرها ؛ وتلك من معجزاته ؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملُها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى .

ولعلماء الأدب العربى كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها ؛ قالوا : أعذب الشعر أكذبُه ! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال : ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك ، وما وراءه إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها ؛ وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الإنسانية ، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هى عمل شعرىٌّ فى الحقيقة ؛ إذ تنقل الشىء على غير ما هو فى نفسه ليكون شيئاً فى نفوسنا ، فيؤثر فيها أثره جمالا وقبحاً وما بينهما ؛ وما هى خمرة الشعر مثلا ؟ هى رضاب الحبيبة ؛ ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى . . . لرأى مستنقعاً صغيراً . . . ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يعجُّ عجيجاً بالهوام والحشرات التى لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلهى بأن جعل رتبتها فى الوجود وراء النظر الإنسانى ، رحمةً من الله بالناس ؛ فأعذب الشعر ما عمل فى تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسرِّ الحياة ؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ فى كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع .

ومن سخيف الإغراق فى شعر شوقى قوله فى رثاء مصطفى باشا كامل ، وهى أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب :

فلو انَّ أوطانا تُصوَّر هيكلا ... دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل فى الجوارح ميت ... حملوك فى الأسماع والأجفان
أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ ... لم تأت بعدُ — رُثيتَ فى القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات . . . وتصور أنت ميتا يحمل فى الجوارح فيترم فيها ويبلى . . . وما زال الشاعر فى أبياته يخرج من طامَّة إلى طامة ، حتى قال : رثيت فى القرآن ، ولو سئلتُ أنا إعراب (لو) فى هذه

الأبيات لقلت إنها حرف نقص وتلفيق وعجز . . . وكيف يسوغ فى الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل ، والله تعالى يقول فيه : « اليوم أكملت لكم دينكم » ؛ والأمر أمر دينٍ قد تمّ ، وكتاب مقدّس ختم ، ونبوّة انقضت ؛ والشاعر ماض فى غفلته لم يتنبه لشىء ولم يدر أنه يفرض فرضًا يهدم الإسلام كله ، بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية ؛ وشوقى فى الحقيقة كامل كناقص ، وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصًا هذا النقص كله ويكمل .

وفى الشوقيات صفحات تكاد تغرّد تغريداً ، وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع ؛ وفى هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقتصها ؛ فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه إذا ذهبنا نأتى بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها ، ولكن من عيوبه فى التكرار أن له بيتًا يدور فى قصائده دوران الحمار فى الساقية ، وهو هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمو ذهبَت أخلاقُهم ذهبوا

بل هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولّت مضوا على آثارها قُدُما

بل هو هذا :

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تصَب

وقد تكرر (فيما قرأتُه من ديوانه) ثلاث عشرة مرة ، فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذى جعل الشاعرُ يرقّعُه ثم يرقعه حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرُّقع . . . والبيت الأول من العَيْن النادر ، ولكن أفسده فى الباقى سوء ملكة الحرص فى شوقى ، أو ضعف الحس البيانى ، أو ابتذاله الشعرَ فى غير موضعه ، أو وهن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة ؛ وهذه الأربعة هى الأبواب التى يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا ، ولو هو كان قد حصّنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم ، ولكان عسى أن ينقل الشعر إلى طور

جديد فى التاريخ ؛ ولكن الفوضى وقعت فى شوقى من أول أمره ؛ فأرسل إلى أوربا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة ، وغامر فى سياسة الأرض، وكان الحق أن يشتغل بسياسة السماء، وتهالك فى مادة الدنيا، وكان الصواب أن يتهالك فى معانيها .

إن الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها فى الأدب والشعر ، فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه أن يمثلها وحده ، فهو يخرج على النظارة فى ثياب الملك فيلقى كلاماً ملكياً ، ثم ينفتل فيجىء فى ثوب القائد فيلقى كلاماً حربياً ، ثم ينقلب فيعود فى هيئة التاجر فيلقى كلاماً سوقياً ، ثم يروغ فيرجع فى مباذل الخادم ، ثم . . . ثم . . . ثم يتوارى فيظهر فى جلدة بربرى . . . وهذه الفوضى التى أهملتها الحكومة وأهملها الأمراء والكبراء هى حقيقة مؤلمة ، ولكن هى الحقيقة !

* * *

وشوقى على كل هذا هو شوقى : أول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء ، وأول من توسع فى نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات ، وهو صاحب الآيات البديعة فى الوصف ، وهذه الناحية هى أقوى نواحيه ، ولقد ألهمتنى قراءة البارع من شعره فى أغراضه وفنونه المختلفة أن الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين فى جمال أرواحهم وقوتها ، تجد الآدابُ لذّتها فيهم وسموّها بهم ، كأن الأمر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعانى ، فيكون فى المعانى ما يعشقُ بعض الناس ، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغَ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدعَ ما يُرى ، كأن المعنى الأدبىَّ يتجمل ويتحبّب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكمَ الحب .

فيا مصر ، لقد مات شاعرُكِ الذى كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر إلى الزمن الذى لم يأت بعد ، فإذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية ، وذكرتِ مجدَ شِعرِكِ الماضى ، فليقُل أساتذتك يومئذ : كان هذا الماضى شاعراً اسمُه شوقى ! .

بعد شوقى *

كان يتوجَّه الظن على شوقى رحمه الله ، فيزعمُ الزاعمُ أن شوقى هو يُحيي شعرَه ، وهو يرفع منه ، وهو يُشيعُ حوله قوةَ الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة ، وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعًا لأنه أفضلهم ، بل لأنه أغناهم ؛ ولا من أنه أقواهم قوةً ، بل لأنه أقواهم حيلة ؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحرُ والساحر ، فترجع العصا وهى عصًا بعد أن انقلبت حية ، ويئول هذا الشعرُ إلى حقيقته ، وتتسم الحقيقة بسمتها ؛ كأن شوقى كان يعملُ لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس .

فقد ذهب الرجلُ إلى ربه ، وخلا مكانه ، وبطلت كلُّ وسائله ، ونام عن شعره نومةَ الأبدية ، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل ، وأصبح الشاعرُ هو وماله وجاهُه وشعرُه فى حكم الكلمة التى يقولها الزمن ، ولم تعد هذه الكلمةُ فى حكمه ؛ فهل أثبتَه الزمن أو نفاه ، وهل سلَّم له أو كابره ، وهل ردَّه فى أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته ؟

* * *

أول ما ظهر لى أن الزمن بعد شوقى أصبح أقوى فى الدلالة عليه وأصدقَ فى الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحًا طويلا لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها الكواكبُ وتوقَّد منها شىء وتلألأ شىء ؛ فقد دلَّ الزمنُ على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعرٍ كالشعراء يقال فى وصفه إنه مفتنٌّ مجيدٌ مبدع ؛ ولكنه للذى يقال فيه إنه صوتُ بلاده وصيحةُ قومه .

كانت تحدُثُ الحادثةُ ، أو يتخالجُ الناسَ معنًى من الهمّ الذى يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرحٌ من أفراح الوطن ، أو يزولُ عظيمٌ من العظماء فيزيد صفحةً

---

* لما توفى شوقى كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلا طويلا عنه وعن شعره ومنزلة شعره ؛ فلم نعرض لشىء من ذلك هنا .

[قلت : وقد نشرناه قبل هذا الفصل]

فى التاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغير من أكوان الحضارة فى الشرق كبنك مصر ، أو ترتجّ زلزلة فى الحياة العربية أينما ارتجّت ، فإذا كلُّ ذلك قد وقع فى الدنيا بهيئتين إحداهما فى ذهن شوقى ، فيرسلُ قصيدتَه الشرودَ السائرةَ داويةً مجلجلة ، فلا تكاد تظهر فى مصر حتى تلتقى حولها الأفكارُ فى العالم العربى كله ، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنِه ، ثم تجاوزُه فإذا هى صلةٌ من أقوى الصّلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فإذا هى عاطفةٌ تجمع القلوبَ على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هى من هذا كله زعامةُ مصر على الشعر العربى .

واليوم يقع مثلُ ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثمّ ملونة منتفخةً ماضية على قانون الفقاقيع فى الطبيعة : من أن لحظةَ وجودها هى لحظةُ فنائها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع .

ولست أُمارى فى أن بيننا شعراءَ قليلين يجيدون الشعر ، ولهم فكرٌ وبيان ومذهبٌ وطريقة : ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقى ، وأنه فى الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يُعهد إليه ، وأن يخرج له التقليد ؛ فهو ينتظر وسينتظر .

وهذا عجيبٌ حتى كأنه سِحرٌ من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقريّ الفذّ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفيةٍ من الصّرْفة والعوائِق ، لا هى كلُّها من قوة العبقريّ ، ولا هى كلها من عجز الآخرين .

وأعجبُ من ذا أن (شوقى) كان فى العالم العربى كأنه عملٌ تاريخيٌّ متميزٌ من أعمال مصر ، غير أنه مسمًّى باسم رجل ؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئًا من هذه الروح التاريخية المتغلّبة التى تَخلُدُ بأسماء الآثار الفنية وتكْسِبُها العَظمةَ فى الوجودَين : من محلها ومن نفس الإنسان .

وأعجبُ من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربيًّا يحسُنُ فى وصف الآثار المصرية ما يَحْسُن فى وصفها شعرُ شوقى ، حتى لأسأل نفسى : هل تختار بعضُ الأشياء العظيمة وصفَها ومفسّر عظمتها ، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُسْتَجلى حسنها ؟

* * *

وما بانَ شوقى على غيره إلا بأنه رجل أُفرغَ فى رأسه الذهنُ الشعرىُّ الكبير ، فكان فى رأسه مَصْنعٌ عمَّاله الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسُه الإلهام ؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه ؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعر عظيم أن تَضَعَ دنياه على اسمه شهادتها له ؛ ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كأن اسمه فى وزن اسمِ مملكة ، فإذا قلتَ شكسبير وإنجلترا ، فهما فى العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبي والعالم العربى ، وكذلك شوقى ومصر .

قالوا : كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يَخْشُب (أى يُرسل شعره كما يجىء فلا يتنوَّقُ فيه ولا ينقحه) ؛ وكان خَشْبُ جرير خيراً من تنقيح الفرزدق ولم يتنبه أحد إلى السر فى ذلك ؛ وما هو إلا السر الذى كان فى شوقى بعينه ، سرُّ الامتلاء الروحىّ قد أُمدَّ بالطبع ، وأُعين بالذوق ، وأوتى القوةَ أن يتحول بآثاره فى الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه : يجىء دائمًا قريبًا بعضُه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعو ر إلا اتحد به .

وقد كان عمرُو بن ذَرّ الواعظُ البليغ * إذا تكلم فى مجلسه نشر حوله جوًّا من روحه ، فيجعل كلَّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقومُ به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلطةَ على ردّها وصوابها ، فقال بعض من جالسه وجالسهم : ما سمعتُ عمرو بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخَ فى الصُّور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين . . .

فالفرق روحانى طبيعى كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه ، وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسَلان على جهتين فى البحر ؛ فى ناحية يلتجُّ الماء ويثب ويتضرَّب ويقصف قصف الرعد ، وفى الأخرى يترجرج ويترحف ويقشعرُّ ويهمس كوسواس الحلى .

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية فى النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهى التى تعيّن لهذه النفس عملها على وجهٍ ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها

* هو عمر بن ذرّ الهمذانى الكوفى المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين .

على دأبها إلى زمن ما ، وتخصّها بخصائصها لغرضٍ ما ؛ وإذا أنت حققتَ لم تجد الفروقَ بين النوابغ بعضهم من بعض إلا فروقاً فى هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار ؛ ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشعراء ؛ فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ فى العلم ، ثم يكون العلمُ كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه ؛ ولئن عجز النقدُ العاميُّ أن ينال من الشاعر العبقريّ ، لقديماً عجز فى كل أمة .

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقى مَن هو أوسع منه اطلاعاً على آداب الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً شانئاً قد ثقّبَ فى قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو فى اتساع الكلام وطُغيان العبارة أخو المحب العاشق ؛ فكلاهما يدور الدمُ فى كبده معانىَ ووساوس ، وكلاهما يجرى كلامه على أصلٍ مما فى سريرته ، فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً بمن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلا نازلا بمن يبغض ؛ وكان هذا الناقد شاعراً ، فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخى الزمن ؛ وهذه كلها مفرقعات نفسية . . . بعضها أشدُّ من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ؛ ولكن شوقى كان فى مرتقىً لم يبلغه الناقد ، فانقلب جهدُ هذا عجزاً ، وأصبح البارود والتراب فى يده بمعنى واحد[١] . . .

* * *

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أنى رأيته يقرر للناس صوابَ الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرر غلطَه وجهله وتعسفه ؛ وهو فى كل ما يكتب عن شوقى يكون كالذى يرى الماءَ العذبَ وعملَه فى إنبات الروض وتَوْشِيَتِه وتلوينه ، فيذهب يَعيبُه للناس بأنه ليس هو البنزين . . . الذى يحرك السيارات والطيارات !

تناول شوقى بعد موته فجرده من الشخصية ، أى من حاسة الشعر ، ومن إدراك السر الذى لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ؛

(١) أحسبه يعنى العقاد .

وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقى لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومى فى قوله :

تجدُ الوحوشُ به كفايتَها والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعْمِ
فظباؤُه تُضحى بمُنْتَطَح وحمامه يضحى بمختَصَمِ

وزعم أن ابن الرومى قد وُلد بحاسة لم يولد بها شوقى ، ولهذه الحاسة اندمج فى الطبيعة فأدرك سر الربيع ، وأنه غلَيانُ الحياة فى الأحياء ، فالظباءُ تنتطح من الأشَر إلخ إلخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب . . . . . . لا ناطحة ظباء * .

أما شوقى الشاعر الضعيف العاجز الذى لم يولد بمثل تلك الحاسة ، فلو أنه شهد ألفَ ربيع لما أحسَّ هذا الإحساس ، ولا استطاع أن يجيء هذا القول المعجز ؛ وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ فى جهل فى جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومى فى هذا المعنى لصٌ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحسَّ شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع .

قال الجاحظ : يقال فى الخصب (أى الربيع) : نفَشَتْ العنز لأختها ؛ وخلَّفتُ أرضًا تَظَالَمُ معـْزاها (أى تتظالم) ؛ قال : لأنها تنفش شعرها وتَنْصِبُ رُوقَيْها فى أحد شِقَّيها فتنطح أختها ، وإنما ذاك من الأشر ، (أى حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسُها) .

فأنت ترى أن ابن الرومى لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التى قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى . . . فاستكرَه الحمام على أن يختصم فى زمن بعينه وهو يختصم فى كل يوم ؛ وإنما شرط الزيادة فى السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترَع .

ولعمرى لو كان للطبيعة مائة صورة فى الخيال الشعرى ، ثم قدَّم شوقى للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا ، إلا الصورة التى لم يقدِّمها . . .

* * *

---

* لا يحضرنى كلام الكاتب بنصه ،ولكن هذا بعض معناه ، وكله تهويل .

وكان شعر شوقى فى جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء يردُّهم بها عن السفْسفة والتخليط والاضطراب فى اللفظ والتركيب ؛ فكثُر الاختلالُ فى الناشئين من بعده ، وجاءوا بالكلام المخلَّط الذى تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفـًا سهلا ولكن سهولته أقبحُ فى الذوق من جَفْوة الإعراب على كلامهم الوحشىّ المتروك .

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبَهم فرضًا على الشعر العربى ، كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن ! وليس فى أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربى ، فكل منهم عابد الحياة ، مندمج فى وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ويجارى اللانهاية ، ويَفْنَى فى اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنِّى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار : فكل منهم مجنون لُغَوى . . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجيَف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدُّ كذلك فى الوجود الأعظم ، بل هى فيه عمل تحليلى علمىّ دقيق ؛ لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هى فسادٌ ونتن وقَذَر فى اعتبار وجودنا الشخصى ، وجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

وكان حاسدو شوقى يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمُهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم . . . . . . وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله !

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةَ ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب فى خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك . . . . . . وهيهات !

الشعر العربى
فى خمسين سنة[1]

إذا اعتبرتَ الشعر العربى قبل خمسين سنة خلَتْ (أى قبل إنشاء المقتطف) وتأملتَ حليته ومعرضه ، ونظرت فى منهاجه وطريقته ، وتصفحتَ معانيه وأغراضه — لم تر منه إلا شبيهًا بما تراه من بقايا الورق الأخضر فى شجرة ثقل عليها الظل فهو جامد مُسْتَوْخَم ، وحُم فى ظلها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد ، فالحياة فيها ضعيفة متهالكة ، لا هى تموت كالموت ولا هى تحيا كالحياة ، وما ثَمَّ إلاَّ ماءٌ ناشف ورونق عليل ومنظر من الشجرة الواهنة كأنه جسم الربيع المعتل بدت عروقه وعظامه .

كان ذلك الشعر فاسد السبك ، متخلف المنزلة ، قليل الطلاوة ، بين مديح قد أعيد كل معنى من معانيه فى تاريخ هذه اللغة بما لا يحصيه إلا الملائكة الموكلون بإحصاء الكذب ، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التى تشتعل بها نار الله يوم تطّلع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق من القلوب التى كانت تحب وتعشق ، وبين وصف لا عيب لموصوفه سواهُ ، وشكوى من الدهر يشكو الدهرُ منها ، وتحزُّن ويأس وندب تجعل ديوان الشاعر كما سمَّى أحد ظرفاءِ القرن الثانى عشر للهجرة ديوان أحد أصحابه « بالملْطمة . . . » ، ورثاء كقراءة القراء فى جنازات الموتى ، لا فيها عظة السكوت ولا فائدة النطق ، وتغمر كلَّ ذلك أنواع من الصناعة بيِّنة التعسف ، ضعيفة التقليد ، لا ترى المتأخرَ فيها مع المتقدم إلا قريبًا مما يكون عملُ اللص فى أخذ المال ، من عمل صاحب المال فى جمعهِ ؛ والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة إلى القرن الثالث عشر (السادس عشر للميلاد إلى التاسع عشر) رأيته نازلا من عصر إلى عصر بتدريج من الضعيف إلى الأضعف ، حتى كأنما ينحط بقوة طبيعية كقوة الجذب ، كلما

---

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٢٦

هبطت شيئاً أسرعت شيئاً إلى أن تلصق بالأرض ، وبعضهم يسمى هذه العصور بالعصور المظلمة ، ولم يتنبه أحد إلى أن فى الأدب ناموساً كناموس رد الفعل ، يُخرج أضعف الضعف من أقوى القوة ، وأن انحطاط الشعر فى تلك العصور — على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية — إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التى كانت للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر ، بعد أن نشأ القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩ م) ؛ وكان رجلا من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمنة وتنتهى عندها أزمنة ؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته ، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النكتة البديعية ؛ وظهرت من بعده عصابته التى يسمونها العصابة الفاضلية ، وما منهم إلا إمام فى الأدب وعلومه ، فكان فى مصر القاضى ابن سناء الملك ، وسراج الدين الوراق ، وأبو الحسين الجزار ، وأضرابهم ؛ وكان فى الشام عبد العزيز الأنصارى ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف ابن لؤلؤ الذهبى ، وأمثالهم ؛ فهذه العصابة هى التى تقابل فى تاريخ الأدب العربى عصابة البديع الأولى : كمسلم ، وأبى تمام ، وابن المعتز ، وغيرهم ؛ وكلتا للفئتين استبدت بالشعر وصرّفته زمناً ، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخياً متميزاً ؛ بيد أن العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لا مطمع فى مثله لأحد من بعدها ، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة فى اللغة يجرى فيها نوع من أنواع البديع إلا جاءوا بها وصنعوا فيها صنعة ؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه ، إلى آخر المائة الثامنة ، فلم يتركوا باباً لمن يأتى بعدهم إلا باب السرقة بأساليبها المعروفة عند علماء الأدب .

ولهذا لا تكاد تجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلا أول النهضة الحديثة ، إلا رأيته صوراً ممسوخة مما قبله ؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا ممن وراءهم إلا كالظل من الإنسان : لا وجود له من نفسه ، وهو ممسوخ أبداً إلا فى الندرة حين يسطع فى مرآة صافية ؛ ومتى كان الشعراء لا ينشئون إلا على فنون البلاغة وصناعاتها ، وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون ؛ فما ثمّ جديد فى الأدب والفن إلا ولادة الشعراءِ وموتهم ، وإلا تغير تواريخ السنين . . . وهذا إذا لم نعدّ من الأدب تلك الصناعات المستحدثة التى ابتدعها المتأخرون مما سنشير إلى بعضه : كالتاريخ الشعرى وغيره .

* * *

إن الفكر الإنسانى لا يسيِّر التاريخ ، ولا يقدِّر قَدَراً فيه ، ولا ينقله من رسم إلى رسم ؛ لأنه هو نفسه كما خلق مصلحاً خُلق مفسداً وكما يستطيع أن يوجد يستطيع أن يفنى ، وكما تطّرد به سبيل تلتوى به سبيل أخرى ؛ وما أشبه هذا الفكر فى روعته بقطار الحديد : يطير كالعاصفة ويحمل كالجبل ويُدهش كالمعجزة ، وهو مع كل ذلك لا شىء لولا القضيبان الممتدان فى سبيله ، يحرفانه كيف انحرفا ، ويسيران به أين ارتميا ، ويقفان به حيث انتهيا ؛ ثم هو بجملته ينقلب لأوهى اختلال يقع فيهما .

لا جرم كانت العصور مرسومة معينة النمط ذاهبة إلى الكمال أو منحدرة إلى النقص ، حسب الغايات المحتومة التى يسير بها الفكر فى طريق القدر الذى يقوده .

فهذه علوم البلاغة التى أحدثت فنًّا طريفاً فى الأدب العربى ، وأنشأت الذوق الأدبى نشأته الرابعة فى تاريخ هذه اللغة ، بعد الذوق الجاهلى ، والمحدث ، والمولَّد — هى بعينها التى أضعفت الأدب وأفسدت الذوق وأصارتْهُ إلى رأينا فى شعر المتأخرين ، كأنما انقلبت عليهم علوماً من الجهل ، حتى صار النمط العالى من الشعر كأنه لا قيمة له ؛ إذ لا رغبة فيه ، ولا حَفْل به ؛ لمباينتِه لما ألفوا وخلوِّه من النكتة والصناعة ؛ وحتى كان فى أهل الأدب ومدرِّسيه من لا يعرف ديوان المتنبى !

ولا يصف لك معنى الشعر فى رأى أدباء ذلك العهد كقول الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٨٧١ :

مللتُ من القريض وقلت يكفى ... لأمرٍ شابَ قوّتُه بضعفِ
أحاول نكتة فى كل بيت ... وذلك قد تقصَّر عنه كفى
أجلُّ الشعر ما فى البيت منه ... غرابةُ نكتة أو نوع لطف

يريد النكتة البلاغية وأنواعَ البديع ، وذلك ما قصَّرت عنه كفُّه وكف غيرِه ؛ لأنه شىءٌ مفروغ منه ، حتى لا يأتى المتأخر بمثال فيه إلا وجَدتَهُ بعينهِ لمن تقدَّموه على صور مختلفة ينظر بعضها إلى بعض وما يأتى اختلافها إلا من ناحية

الحذق فى إخفاء السرقة بالزيادة والنقص، والإلمام والملاحظة والتعريض والتصريح وغيرها مما يعرفه أئمة الصناعة، ولا يتسبب إليه بأقوى أسبابه إلا من رُزق القوة على التوليد والاختراع .

إذا عرفت ذلك السر فى سقوط الشعر واضطرابه وسفسفته، لم تر غريباً ما هو غريب فى نفسه، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلمَ الذى يصحح الرأى، ولا الاطلاع الذى يؤتى الفكر، ولا الحضارة التى تهذب الشعور، ولا نظام الحكم الذى يحدث الأخلاق؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حدًّا منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا؛ وكان كالساحل لذلك الموج المتدفّع الذى يتضرّب على مدى ثمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة؛ ولله أسرار عجيبة فى تقليب الأمور وخلق الأحداث ودفع الحياة الفكرية من نمط إلى نمط. وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة. وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنسانى فى عصر واحد أو عصور متعاقبة. وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ؛ فكان الذى أحدث الانقلاب الرابع فى تاريخ الشعر العربى، وأنشأ الذوق نشأتَه الخامسة، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودى، الذى لم يكن يعرف شيئاً ألبتة من علوم العربية أو فنون البلاغة؛ وإنما سمت به الهمة لأنه حادثة مرسلة للقلب والتغيير. فأبعده الله من تلك العلوم، وأخرجه لنا من دواوين العرب، كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الأعراب، ويسّر له من أسباب ذلك ما لم يتفق لأحد غيره مما لا محل لبسطه هنا. ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يُذكر فى شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام ثم لا تنحط مرتبتُه — غير كلام البارودى هذا؛ وهو وحده الذى يقابل القاضى الفاضل فى أدوار التاريخ الأدبى، على بعد ما بينهما؛ لأن شعرُه هو الذى نسخ آية الصناعة، ودار فى ألسنة الرواة، وكان المثل المحتذى فى القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد؛ لأن النهضة الاجتماعية فى هذا الشرق العربى كانت فى علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها. ولولا ذلك لسبقهُ شاعر القرن الحادى عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودى، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى،

وكان يقلد أبا فِراس الحمداني ويحتذى على مثالِه ؛ ولكن عصرُه كان في العصور الهالكة ، فخرج الشاعر ضعيفًا كما يخرج كل شيء في غير وقتِه ولغير تمامِه وبغير وسائله الطبيعية .

ونشأت العصابة البارودية وفيها إسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وغيرهم ، وأدركوا ما لم يدركهُ البارودى وجاءوا بما لم يجئ به ، واتصل الشعر بعضُه ببعض ، وسارت به الصحف ، وتناقلتهُ الأفواه ، وأُنسى ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة ؛ لأنها صادفت أوائل الانقلاب ليس غير ؛ وبذلك بطل في مصر عصر أبي النصر والليثى والساعاتى والنديم وطبقتهم ، وفي الشام عصر اليازجى والكستى والأنسى والأحدب وأضرابهم ، وفي العراق عهد الفاروقى والموصلى والبزّاز والتميمى وسواهم ؛ واستقلّ الشعر عربيًّا عصريًّا وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضيًا في سبيل غير محدودة .

* * *

لا ريب في أن الطرق التي تتبع في تربية الأمة وتكوين روحها العالمية لا بد أن يكون لها أثر بيّن في شعر شعرائها ؛ فإنما الشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج ، وما أرى الشاعر الحق من أمتِه إلا كالزهرة الصغيرة من شجرتها : إن لم تكن خلاصة ما فيها من القوة ، فهي خلاصة ما في الشجر من معنى الجمال ولونِه وملمسِه ، ولا تعدم مع هذه الصفة أن تكون وحدها الكوكب الساطع في هذا الأفق الأخضر كلِه . ولقد اطّردت النهضة منذ خمسين سنة أو حولها ، في الأدب والعلم ؛ وفي الفكر والفن والصناعة ؛ واستوى لنا من ذلك ما لم يتفق لهذه الأمة في عصر من عصورها ، حتى بلغنا من ذلك أن صرنا كأنما فتحنا أرضًا من أوربا وتغلبنا عليها ، أو أنشأنا أوربا عربية وما نزال نعمرها وننقل إليها العلوم والفنون والآداب ، ونستخرج لها الأمثلة والأساليب ؛ غير أن الشعر العربى مع هذا كله لم يوفَّ قسطَه ولم يبلغ مبلغَه في مجاراة هذه النهضة قوةَ ابتكار وسلامةَ اختراع وحسن تنوع ، لسببين : الأول أنه لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية : شعرَ فئة لا شعر أمة ، فهو يوضع للخاصة لا للشعب ،

ويدور مع الأغراض والحاجات لا مع الطبائع والأذواق ؛ وذلك لو تأملتَ هو من بعض الأسرار فى سمو هذا الشعر وقوة إحكامه وإبداع تنسيقه وجمال توشيحه منذ الدولة العباسية إلى القرن الخامس؛ ثم انحطاطه بعد ذلك وتدلّيه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل فى العصور المتأخرة ؛ إذ كانت الفئة التى يوضع لها ويصف أهواءَها وأغراضها وتتقبلُه وتثيب عليه وتحسن وزنَه ونقدهُ ، هى فى الناحيتين كما ترى من طرفى المِنظار الذى يقرّب البعيد ، فهى بالنظر فى أوله واضحة جلية مترامية إلى الجهات ، وبالنظر فى آخره ضئيلة ممسوخة لا تكادُ تُعرف .
وما أقضى العجب من غفلة بعض الكتاب فى هذا الزمن إذ يناهضون العربية .ويزْرون على الفصاحة ويعملون على انكماش سوادها وتقليل أهلها . وما يدرون أنهم بذلك يسقطون الشعر قبل الكتابة على خطأ أو عمد وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة الشعر ، فإن أصبت له شعراً وجدته لا غناء فيه أو فى أكثره ، وأين وضعت يدك منه لم تخطئ أن تقع على مَثل مما يمثّل به لعيب من عيوب البلاغة .

وهذه النهضة التى نحن فى صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من تلك التى كانت فى الدولة العباسية، بما دخلها من أدب كل أمة ، وما اتصل بها من أساليب الفكر : ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها . المتعصبون لها العاملون على بثها فى الألسنة ، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة . بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين ، حتى أغنت كلُّ مطبعة أدبية عن راوية من أئمة الرواة .

والسبب الثانى الذى من أجله لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة له — سقوط فن النقد الأدبى فى هذه النهضة ؛ فإن من أقوى الأسباب التى سمت بالشعر فيما بعد القرن الثانى وجعلت أهله يبالغون فى تجويده وتهذيبه ، كثرةَ النقاد والحفاظ . وتتبُّعهم على الشعراء ، واعتبار أقوالهم ، وتدوين الكتب فى نقدهم ، كالذى كان فى دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب ، وكالذى صنفه مهلهل بن يموت فى نقد أبى نواس وأحمد بن طاهر ، وابن عمار فى أبى تمام ، وبشر بن تميم فى البحترى ، والآمدى فى الموازنة ، والحاتمى فى رسالته ،

والجرجانى فى الوساطة ، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل ، وأنت من النقد فى هذه النهضة بين اثنين : صديق هو الصديق أو عدو هو العدو . . . فإن ابتغيتَ لهما ثالثًا فكاتبٌ لا تتعادل وسائل النقد فيه فلا خير فى كلامه ؛ أما الناقد الذى استعرض علم العربية وآدابها ، وكان شاعراً كاتبًا قوى العارضة دقيق الحسّ ثاقب الذهن مستوى الرأى بصيراً بمذاهب الأدب متمكنًا من فلسفة النقد مبرّزاً فى ذلك كلّه — فهذا الخيال يذكرنى كلمةً قلتها يومًا للبارودى إذا قلت له : إن الشاعر لا يكون لسان زمنه حتى يوجَد معه الناقد الذى هو عقل زمنه ؛ فقال : ومَن ناقد الشعر فى رأيك ؟ قلت : الكاتب وهو شاعر ، والأديب وهو فيلسوف ، والمصلح وهو موفّق ؛ فكأنما هوّلت عليه حتى قال رحمه الله : « فين دا كلّه ؟ » قلت : فلعله لا ينشئ لنا هذا العقلَ الملتهب إلا العصر الذى يوجِد لنا أسطولاً كأسطول إنجلترا .

* * *

وعلى ما نزل بالشعر العصرى من هذين السببين فقد استقلت طريقتُه وظهر فيه أثر التحول العلمى والانقلاب الفكرى ، وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان فى أكثره صوراً من اللغة ، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية ، ونوعوا منه أنواعًا بعد أن كان كالشىء الواحد ، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعانى المترجمة من لغات مختلفة ، وهو من هذه الناحية أوسع من شعر كل عصر فى تاريخ هذه اللغة : إذ كان الأولون إنما يأخذون من اليونانية والفارسية ، ثم أخذ المتأخرون قليلا من التركية ؛ أما فى العهد الأخير فيكاد العقل الإنسانى كله يكون مادة الشاعر العربى ، لولا ضعف أكثر المُحدَثين من النشء الجديد فى البيان وأساليبه وبُعدهم من ذوق اللغة واعتياص مرامها عليهم ، حتى حسبوا أن الشعر معنى وفكر ، وأن كل كلام أدّى المعنى فهو كلام ، ولا عليهم من اللغة وصناعتها ، والبيان وحقيقته ؛ وحتى صرنا والله من بعض الغثاثة والركاكة والاختلال فى شرّ من توعّر نظم الجاهلية وجفاء ألفاظه وكزازة معانيه ؛ وهل ثمَّ فرق بين أن تنفر النفس من الشعر لأنه وعر الألفاظ عسِر الاستخراج شديد التعسف ، وبين أن تمجه لأنه ساقط اللفظ متسوّل المعنى مضطرب السياق ؟ ثم تراهم يُجرون الشعر كله على اختلاف أغراضه

نمطاً واحداً من تسهيل اللفظ ونزوله ، حتى كأن هذه اللغة لا تنوّع فى ألفاظها وأجراس ألفاظها ، مع أن هذا التنوع من أحسن محاسنها وأخص خصائصها دون غيرها من اللغات ، كما أن كل تنوع هو من أبدع أسباب الجمال والقوة فى كل فن ؛ ولا يدرى أصحابنا أن كل ذلك من عملهم عبث فى عبث إذا هم لم يعطوا الشعر حقّه من صناعة اللغة ؛ وهذا شاعر الفرس الشهير مصلح الدين السعدى الشيرازى إمام من أئمة البلاغة فى قومه لا يدفع مكانه وشعره مثَل من أسمى الأمثلة فى جمال المنطق الروحى ، وليس فى الناس إلا من يسلم له هذا المحل من النبوغ ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر ، وذهب فى التعسف كل مذهب ، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن ، كقوله فى وصف نكبة بغداد وتخريبها :

فقد ثكلت أم القُرى ولكعبة ... مدامعُ فى الميزاب تسكب فى الحجر
على جُدُر المستنصرية ندبة ... على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نوائب دهر ليتنى مت قبلها ... ولم أر عدوان السفيه على الحبر
محابر تبكى بعدهم بسوادها ... وبعض قلوب الناس تألف بالغدر
لحى الله من تُسدى إليه بنعمة ... وعندهجوم اليأس أحلْك من حبر

فانظر أى شعر هذا فى الركاكة والهذيان والسخف ، وفى خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الرونق ، وتأمل كيف هوى به السعدى من مكانته التى بوّأه إياها أدبه العالى ، وكيف سقط إلى حيث ترى ، مع أنه فى محراب الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة .

ومن ههنا نشأ فى أيامنا ما يسمونه « الشعر المنثور » ، وهى تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه ؛ فليس يضيق النثر بالمعانى الشعرية ، ولا هو قد خلا منها فى تاريخ الأدب ؛ ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربى صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ولأيسر سبب ، ولا يوفق إلى سبك المعانى فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان ؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة أو ضعف التأليف ، ولا تستوى فيه أسمى المعانى مع شىء من هذه العلل وأشباهها ، وتراه يلقِى بمثل

(السعدى) من الفلك الأعلى إلى الحضيض ، لا يقيم له وزنـًا ولا يرعى له محلا ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة ؛ غير أن النثر يحتمل كل أسلوب ، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهى إلى العامى الساقط والسوقى البارد ؛ ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه ، وما يتفق فيه من الحسن الشعرى فإنما هو كالذى يتفق فى صوت المطرب حين يتكلم لا حين يغنى : فمن قال : « الشعر المنثور » فاعلم أن معناه عجزُ الكاتب عن الشعر من ناحية وادّعاؤُه من ناحية أخرى .

* * *

والذى أراه جديداً فى الشعر العربى مما أبدعتـْه هذه النهضة أشياء :

أولا : هذا النوع القصصى الذى توضع فيه القصائد الطوال ، فإن الآداب العربية خالية منه ؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة ألمـّوا بها اقتضابـًا وجاءوا بها فى جملة السياق على أنها مثل مضروب أو حكمة مرسلة أو برهان قائم أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المجرى مما لا تـَرِد فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها ، وهو كثير فى شعر الجاهليين والإسلاميين ، والجيِّد منه قليل حتى فى شعر الفحول ؛ فإن طبيعة الشعر العربى تأباه ؛ والذين جاءوا به من العصريين لا يجدون منه إلا قطعـًا تعرض فى القصيدة وأبياتـًا تتفق فى بعض معانيها وأغراضها مما يجرى على أصله فى سائر الشعر طال أو قصر ؛ والسبب فى ذلك أن القصة إنما يتم تمامها بالتبسط فى سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به ، وإنما بـُنى الشعر العربى فى أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد ، وعلى الشعور لا على الحكاية ؛ ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس ؛ فهو فى الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعانى التى هى بسبب من أسباب الانفعال والنزعة ؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق ، وضبط المقادير لا الإسراف ؛ إذ كان من شأن هذه الأمور فى طبيعة النفس أن ما زاد منها عن مقداره تحوّل وانقلب فى تأثيره ، وذلك هو السبب أيضـًا فى أن هذا الشعر ما لم

يكن قائمًا على اختيار اللفظ وصنعة العبارة وتصفيتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها — سقط وركّ بمقدار ما ينقصه من ذلك ؛ وليس الشأن فى إطالة القصيد ؛ فمن الشعراء من نظم رويًّا واحداً فى أربعة آلاف بيت ، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله ؛ ولكن عيب مثل هذا الشعر فى العربية أنه شعر . . . وما أخمل ابنَ الرومى على جلالة محله إلا طولُ قصائده وسياقه الكلام فيها مع ذلك على ما يشبه أسلوب الحكاية وخروجها مخرج المقالة يتحدث بها ، فلم تحىَ له إلا مقطعات وأبيات ومات سائر شعره وهو حى وميت على السواء ، حتى قال فيه صاحب الوساطة : « ونحن نستقرئ القصيدة من شعره وهى تناهز المائة أو تربى أو تضعف ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها جارية تحت رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى . . . » .

والعجيب أن بعض الكتاب فى عصرنا ممن لا تحقيق لهم فى مثل هذه المسائل، يعدّون أحسن محاسن ابن الرومى ما هو أقبح عيوبه ، وقاتل الله صناعة الكتابة ، فكما أنها لملء الفراغ هى كذلك لإفراغ الملآن[1] . . .

ثانيًا : صياغة بعض الشعر على أصل التفكير فى الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من لغات الأمم ، فيخرج الشعر عربيًّا وأسلوبه فى تأدية المعنى أجنبى ؛ وأكثر ما يأتى هذا النوع من أمريكا . وأنا أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن .

وما زالت أجناس الأمم يضيق بعضها بأشياء ويتسع بعضها بأشياء فلسنا مقيدين بالفكر العربى ولا بطريقته ، وعلينا أن نضيف إلى محاسن لغتنا محاسن اللغات الأخرى ؛ ولكن من غير أن نفسدها أو نحيف عليها أو نبيعها بيع الوَكْس ؛ ومتى كان هذا النوع من الشعر رصينًا محكمًا جيد السبك رشيق المعرض ، كان فى النهاية من الرقة والإبداع ؛ ولم يأت التجديد فى هذه اللغة إلا من هذه الناحية ، كالذى تراه فيما أخذ عبد الحميد وابن المقفع من نمط الأداء فى اللغة الفارسية .

ثالثًا : الانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والرثاء ، وذلك بتأثير

---

(١) انظر دراسة العقاد لابن الرومى .

الحرية الشخصية فى هذا العصر ؛ والمدح إذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ؛ وتراه مدحاً حين يتلى على سامعه ، ولكنه ذم حين يُعْزَى إلى قائله ! . وما ابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليتْ هذه العربية ؛ ولذلك أسباب لا محل لتفصيلها .

رابعاً : الإكثار من الوصف والإبداع فى بعض مناحيه والتفنن فى بعض أغراضه الحديثة : وذلك من أسمى ضروب الشعر ، لا تتفق الإجادة فيه والإكثار منه إلا إذا كان الشعر حيًّا ، وكانت نزعة العصر إليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً ؛ ولما وصف الشيخ أحمد الكردى (من شعراء القرن الثانى عشر) السفينة واستهل بهذا الوصف مدح الوزير راغب باشا ، عدُّوا ذلك حادثة من حوادث الأدب فى عصره ، فتأمل !

خامساً : إهمال الصناعات البديعية التى كان يُبنى عليها الشعر ، فيُنظم البيت ليكون جناساً أو طباقاً أو استخداماً أو تورية إلخ ، أو ضرباً آخر من صناعة العدد والحساب ، كالتاريخ الشعرى بأنواعه ؛ أو صناعة الحرف ، كالمقلوب والمهمل وغيرهما : أو صناعة الفكر ، كاللغز والمعمَّى ؛ أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز ، إلى ما يلتحق بهذا الباب الذى ذهب أهله فلا يتيسر لأحد من بعدهم أن يجاريهم فيه ، وكانت لهم فى كل ذلك عجائب استقصيناها بالتدوين فى موضعها من (تاريخ آداب العرب)[1] ؛ بيد أن إهمال صناعة البديع شيء وإهمال فن البديع نفسه شيء آخر ؛ ومن هنا جاء ما نراه فى بعض الشعر الحديث « والشعر المنثور » من الإغراق السخيف الذى لا يقوم على أصل ، من التعدى فى ضروب الاستعارة ، والبعد فى المجاز ، والإحالة فى الوضع ، ونحوها مما يرجع إلى الجهل بطبيعة البلاغة ، ومما لا نعدّه إلا ضرباً من الفساد يلتحق بما كان فى العصور الماضية وإن كان على الضد منه .

سادساً : النظم فى الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية ، مما يجعل الشعر محيطاً بروح العصر وفكره وخياله ، وهو باب لا ينهض به إلا أفراد قلائل ،

---

(١) انظر الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) للرافعى .

ولا يزال ضعيفًا لم يستحكم ؛ وقد قالوا إن للقاضى الفاضل اثنى عشر ألف بيت فى مدح الوطن والحنين إليه . ولكن لا أحسب أن فيها مائة من نحوما يُنظم فى هذا العصر مما أدى بالشعر إلى أن يدخل فى باب السياسة ويعدّ من وسائلها ، وفى طرق التربية ويعد من أسبابها .

سابعًا : استخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية ، وهو قليل ، جاء به شوقى فى قصيدتين ولم يتابعه أحد ، لإفراط ذلك الوزن فى الخفة حتى رجع إلى الثقل ؛ . . ثم نظم بعض الشعر من أوزان مختلفة قريبة التناسق على قاعدة الموشح ، ولكنه شعر لا توشيح ، كما ينظم بعض شعراء أمريكا وسوريا ؛ ولم يحدث مثل ذلك فى العربية ، فإن القصيدة كانت تنظم من بحر واحد ، وقد يخرج منه وزن آخر ؛ ولا نعرف فى تاريخ الأدب قصيدة تتألف من وزنين إلا الذى ، قالوا إن حسين بن عبد الصمد المتوفى سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قد اخترعه ونظم فيه أبياته التى مطلعها :

فاح عرف الصبا وصاح الديكْ وانثنى البان يشتكى التحريكْ
قم بنا نجتلى مشعشعة تاه من وصفه بها النِّسِّيكْ

وعارضها ولده الإمام الشهير بهاء الدين العاملى صاحب الكشكول بأبيات قالوا إنها سارت فى عصره مسير المثل . ونسج عليها شعراء ذلك العصر ، كالنابلسى وغيره . ومطلعها :

يا نديمى بمهجتى أفديكْ قم وهات الكئوس من هاتيكْ
خمرة إن ضللت ساحتها فسنا نور كأسها يهديكْ

على أن هذا الوزن بشطريه مستخرج من الخفيف ، فليس باختراع كما زعموا ، وإنما هو ابتداع فى التأليف الشعرى ؛ وقد اجتزأنا بما مرت الإشارة إليه ، فإنه كلُّ ما تغير به الرسم فى هذه الصناعة ؛ وتركنا الأمثلة تفاديا من الإطالة .

* * *

وبعد فلا ريب أن النفس البشرية فى حاجة أبداً مع دينها الروحى إلى دين

إنسانى يقوم فيها على الشعور والرغبة والتأثير ، فيفسر لها حقائق الحياة ، ويكون وسيلة من وسائل تغييرها ؛ ليعجلها ألطف مما هى فى اللطف ، وأرق مما تكون فى الرقة ، وأبدع مما تتفق فى الإبداع ؛ ذلك الذى يصل بظهوره وإبهامه بين الواضح والغامض ، والخالد والفانى ؛ ذلك الذى لا يجمُل الجمال إلا به ، ولا تسكن النفس إلا إليه ؛ ذلك هو الشعر !

صروف اللغوى *

كان شيخنا هذا رجلا حصيفًا جيد المنزعة حسن الرأى ، ممكّنًا له فيما كان يعترضهُ من مسائل اللغة ، قويًّا على الأحوال التى تجرى له من أوضاعها فيما يُعانيهِ من النقل ويزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها ، وعلى أنها لا تزال كل يوم تنبعث من علم وتحتفل من رأيٍ وتمدُّ مدَّ السيل كأنها دنيا عقلية لا يبرح عقلُ الإنسان دائبًا يحلّق فيها ويبنيها من معانى الكون وأسرارِه ؛ فلا الكون ينفد لتتم ، ولا هى تتم قبل أن ينفد الكون .

وثبت شيخنا على ذلك عمرَ دولة من الدول فى خمسين سنة ونيف ، يضرب قلمُه فى السهل والصعب ، وفى الممكن والممتنع ؛ وإنه ليمرُّ فى كل ذلك مرًّا لا ينثنى ، ويحذو حذواً لا يختلف ، كأن الصعب عنده نسقُ السهل ، والممتنع صَوْغُ الممكن ؛ فلو قلتُ إنه بُنِى فى أصل خلقِه وتركيبهِ على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدتُ ، ولو زعمتُ أن ذلك القلم الحى لم يكن إلا عِرقاً فى جسم الإنسانية لكان عسى ...

وانتهى شيخنا فى العهد الأخير إلى أن صار يُعدّ وحدهُ حجة اللغة العربية فى دهر من دهورها العاتية ، لا فى الأصول والأقيسة والشواذّ وما يكون من جهة الحِفظ والضبط والإتقان ، بل فيما هو أبعد من ذلك وأردُّ بالمنفعة على اللغة وتاريخها وقومها ، بل فيما لا تنتهى إليه مَطمعة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها ؛ إذ وقع الإجماع على أنه انفرد فى إقامة الدليل العملى على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها ، وأنها تؤاتى كل ذى فن على فنّه ، وتمادُّ كلَّ عصر بمادتهِ ؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعتِه مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهدِه وعملِه منزلة الجماعات الكثيرة فى اللغات الأخرى ، كأنها آخر ما انتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة .

---

* هو العلامة الدكتور يعقوب صروف صاحب « المقتطف » ، وقد نشر هذا المقال فى مقتطف شهر يناير سنة ١٩٢٨

ولا يذهبنّ عنك الفرق بين رجل حافظ والكتابُ أحفظ منه ، وهو من الكتاب خرج وإلى الكتاب يرجع ؛ وبين رجل يكون ترجمانًا من تراجمة العقل الإنسانى المعنّى بتأويل الكون وتفسيره ، والطائرِ بالألفاظ الإنسانية على أجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعانى ؛ فإن ذاك ينقل عن الواقع ثم لا يتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز مُتُونَ الألفاظ ، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الألفاظ ومعانيها يجاذبها ويدافعها ، ثم لا يزال يضع يده فى النسيج اللغوى يسدّى ويلحم ، فهو مدفوع إلى المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه ، وأساليب الأخذ والانتزاع ؛ وهو مقيّد أبداً بخاصّ المعنى وخاص اللفظ على التعيين والتحديد ، لا يجد فسحة من ضيقين ؛ فإن لم يكن مثل هذا فى منزلة الواضع فهو فى المنزلة بعده ولا ريب .

إنما اللغوى الأكبر عندى هو هذا الكون ، وما العالم باللغة وفنونها إلا وسيلة لتهذيب الطريقة تهذيبًا عقليًا ، فيجب من ثمّ أن يكون للغوى رأى وعلم وذكاء وبصر ، ويجب أن يطابق النواميس ، فلا يتعادى ما بينه وبينها ، لأنه وسيلة إنطاقها ليس غير ؛ ومن ذلك أرى الدكتور صرّوف فى الغاية ، فقد كان ينزع فى مذهبه اللغوى منازع علمية دقيقة تُوزَن وتقاس وتختبر ، فى حين لا تزيغ ولا تهنُ ولا تختلّ ، وتراها تنطلق وهى مقيدة ، وتتقيد وهى مطلقة ؛ إذ كان لا يعتدّ اللغة عربيةً للعرب ، بل عربية للحياة ؛ وما تهدمُه وتبنيه وما تُحدثه وتنسخهُ فهى على أصولها فيمن قبلنا ، ولكن فروعها فينا نحن وفيمن يلينا وفيمن بعد هؤلاء ، فلنا أن نتولاها على تلك الأصول وعلى ما يشبهها فى الطريقة حين تنتقل الحال ويتغير الرسم ، ولعلةٍ إن وجبتْ ، ولقياس إن جاز . والدكتور بهذا الاعتبار يشتد فى التمسك بالقواعد والضوابط ولا يترخص فى شىء منها غير أنه لا يكون كأقوامٍ يرون الفروع من الجذوع قد خرجت ، فيحسبون الثمرات سبيلُها من الجذوع أيضًا . . . وإن لم تجئ منها فستجىء منها .

عرض لى يومًا أحد هؤلاء اللغويين فانتقد فى المقطم قصيدة من القصائد التى رفعتها إلى الملك فؤاد ، وتمحّل فى نقده ودلّل ببعض ما نقلهُ من كتب اللغة ، فكان فيما تكلم فيه لفظا (الأزاهر والورود) ، فقال إنهما ليسا من اللغة ولم يجريا

فى كتبها ؛ وكان من ردّى عليه أن قلت له إن العرب جمعوا الجمل ستة جموع ، وجمعوا الناقة سبعة لأنها أكرم عليهم منه ، وإن لكل حياة صورَها الدائرة فى ألفاظها ، فالزهر والورد عند المولدين والمحدثين أكرم من الجمل والناقة عند العرب ، أو هذان كهذين ؛ ثم هما من خاص الألفاظ المولدة ، فلنا أن نجمعهما على كل صور الجمع التى يسوّغها القياس ، لأن ههنا العلة الموجبة التى لم تكن مع العرب فيهما ؛ فمن الصحيح أن تقول : زهور ، وأزهار ، وأزاهر ، وأزاهير إلخ ؛ فلما لقيت الدكتور بعد نشر هذا الرد هنأنى به . ثم قال فيما قال : يحسبون أن العرب هم الجمل والناقة وليس غير ما استجمل وما استنوق ... أما هذا الدهر الطويل العريض فليس عندهم شيئًا ، وهم يستطيعون أن ينكروا على المولَّدين ألف كلمة ، ولكن هل فى استطاعتهم أن ينكروا على التاريخ ألف سنة ؟ فذكرت له الأصل الذى قرره أبو على الفارسى فى العربى الصحيح نفسه : من أنه ليس كل ما يجوز فى القياس يجب أن يخرج به سماع ، فإذا أخذ إنسان على طريقة العرب وأمّ مذهبهم فلا يُسأل ما دليله وما سماعه وما روايته ، ولا يجب عليه من ذلك شىء ، حتى قال أبو على : لو شاء شاعر أو متّسع أن يبنى بإلحاق اللام * اسمًا وفعلا وصفة لجاز له ، ولكان ذلك من كلام العرب ؛ وذلك نحو قولك : خَرْجَجٌ أكثرُ من دخْلَلٍ ، وضَرْبَبَ زيد عمراً ، ومررْت برجل ضرْببٍ وكرْمم ، ونحو ذلك . قال تلميذه ابن جنى : فقلت له : أترتجل اللغة ارتجالاً ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيسٌ على كلامهم فهو إذاً من كلامهم .

وسألنى مرة عن وجه الخلاف بين ما يسمونهُ القديم والجديد ، فقلت له : إن الخلاف ليس على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فإن قومًا يكتبون وينظمون ولكن لم تُقسَم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطيقونه من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم فى اللغة والأدب ، وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصَروا ، وينالوه من حيث عجزوا ؛ فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشى على الأرض ويعرف أنها تدور ، فيؤوّل ذلك بأنه هو يدير الأرض على محورها بحركة قدميه ... نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون :

---

* زيادة حرف من جنس لام الكلمة وإلحاقه بها .

لا بل جديد ، ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية ، ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب وهلمّ جرا أو سحْبًا ... ثم قلت له : أفتجد أنت الركاكة واللحن والخطأ والغثاثة وإنّ وأخواتها بابًا جديداً أو أمراً مبتدَعًا أو شيئًا يحتاج إلى اسم جديد غير اسمه العربى ؟ قال : لا ، وأنا معك فى هذا ، وطريقتى فى المقتطف أن اللغة فى قواعدها عربية ، ولكن من قواعدها أن لكل مقام مقالا ، فنحن نكتب كتابة صحيحة ونريد بها أن ترفع العامة ولا تنزل بالخاصة ، فنخدم العربية من الجهتين .

ثم نشر بعد ذلك فى عدد شهر مايو سنة ١٩٢٧ مقالا جعل عنوانه (أسلوبنا فى الترجمة والتعريب) وابتدأه بهذه العبارة : « اللغة جسم حى نام ، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكى لا تنمو وتبلغ حدها الطبيعى ، ولكن إذا كان النمو مشوّهًا فلا بد من تقييده وتهذيبه » ؛ وكل ما نقولهُ نحن هو التقييد والتهذيب واتقاء الشّوهة أن تُلم باللغة وأساليبها فتترادف على محاسنها بمعايبها ، وتطمّس مفاتنها بمقابحها ؛ فإن هذه المعايب والمقابح إذا هى استجمعت وانساغت فى لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنكرّ منها حتى لاتبقى لها وصفًا يعرف ، والحسن وحدهُ هو الذى يُحدّد بالأوصاف والتعاريف ، وهو الذى يدقّق فيه ويبالغ فى قياسه وتقديره ، فإن وقع فيه الفضول واختلطت الحدود وضعفت الملاءمةُ وجرى الوصف ناقصًا وزائداً فقد خرج إلى القبح ، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدُّون له حدًّا أو يعبأون له بقاعدة ، ووجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكَّرة ، لأنه هو جمال مقلوب ؛ (فتقييد التشويه وتهذيبهُ) كلمتان فيهما الكلام كله ، أو هما المصراعان لهذا الباب ؛ ومن أجل ذلك كنا نعد الدكتور من حجتنا على أصحاب الجديد ، لأنه أوسعهم إحاطة وأكثرهم علمًا وأمدّهم عملا ، ثم لن يدانيَهُ أحد منهم إلا إذا جمع لنفسه عمرين ، وهل فى الجديد رجل ذو عمرين ؟ . . .

قلنا إن الشيخ كان فى المنزلة التى تلى منزلة الواضع ، وقد دفعتهُ العلوم إلى ذلك دفعًا ، لأنه مقيد بخاصّ المعنى فى كل ما يترجم أو يعرّب ، ثم بالخصائص العلمية الدقيقة التى لا تحتمل فى أدائها ما تحتمل المعانى الأدبية ؛ وقد تصدّر

للكتابة والترجمة منذ شباب هذا العصر ، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة فى الشرق ؛ فلا جرم لم يكن لغويًّا كأبى عمرو وأبى زيد والخليل والأصمعى وأبى حاتم وأبى عبيدة وأضرابهم ممن يحملون عن العرب ويؤدون ما حملوه ، ولا كان لغويًّا فى طريقة سيبويه والكسائى والزّجاج والأخفش واليزيدى وأشباههم ممن ينظرون فى اللغة وعللها وأقيستها وشواذها ؛ ولكنه لغوى فيما يعمر بين الشرق والغرب ، يحمل بلسان ويؤدى بلسانٍ غيرهِ ويوافق بين المعانى الجديدة والألفاظ القديمة ، ويشابك بين خيوط التاريخ فى هذه وهذه ، ويأخذ اللغة للاستعمال لا للحفظ وللتعليم لا للتدوين وللمنفعة لا للمباهاة وللفائدة لا للتنبُّل ؛ ويترجم وإن فى خيالِه العالَمَ الواسع الذى ينقل عنه بعلمائه وأدبائه وكتبه ومجلاته ومصطلحاته ، ويكتب وإن له تلك الملكة الدقيقة التى كونتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها ؛ فلم يكن بدٌّ من أن يبتدع ، وأن تكون له طريقة يوافق فيها ويخالف ، وقد بسط هو القواعد التى أخذ بها وجرى عليها ، فكتب فيها مقالاً فى مقتطف شهر يوليو لسنة ١٩٠٦ ، وأعاد نشرهُ فى عدد شهر مايو لسنة ١٩٢٧ ، وهو يوافق فيه أكثر العلماء ، وخاصةً الإمام الجاحظ ؛ مع أن قاعدة الجاحظ لم تكن يومئذٍ معروفة ، ولكن كلا الشيخين حصيف الرأى تامُّ الإدارة فى عملهِ ، قوى الحسبة والتدبير فيما يأخذ وما يدع ؛ وخلاصة رأى الدكتور أنه ينظر فى الكلمة الأعجمية ، فإن أصاب لها مرادفًا فى العربية يحدّدها ويفى بها فذاك ، وإلا أمرّها فى كتابته وهو مقيد بقاعدة القارئ وما هو أخف على قارئه فى المئونة وأبْين له فى الدلالة ، فإن كانت اللفظة الأعجمية أوفى وأشبع فى الاستعمال عدل إليها ، قال : وغنىٌّ عن البيان أننا التزمنا أن نجارى العلماء فى المصطلحات العلمية التى تفقد دلالتها بتعريبها : كالحامض الكبريتوس والكبريتيك إلخ ، فإن لكل من هذه الملحقات والزوائد التى فيها ، معنًى خاصًّا يدل على تركيب الحامض المراد كما يعلم دارسو الكيمياء ؛ قال : فمن يسمى الحامض الكبريتيك بالحامض الكبريتى كمن يسمى الفرس حماراً لأن لكل منهما رأسًا وذنبًا . . .

والجاحظ يقول فى مثل ذلك : إن رأيى فى هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون ما دمت فى المعانى التى هى عبارتها والمادة فيها على أن ألفظ بالشىء العتيد

الموجود (يعنى اللفظ العلمى الاصطلاحى) وادع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة . . . ولكل صناعة ألفاظٌ قد جُعلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت بينها وبين معانى تلك الصناعة مشاكلات .

فأنت ترى الجاحظ لا يمتنع من الألفاظ الأعجمية والعامية كما هى ما دامت المعانى قائمة ، وقاعدته هى الأخف والأدل والأفهم والأشيع ، وهذا بعينه يقول الدكتور فيه : « يشترط فى حسن التعبير أن يؤدى المعنى المراد إلى ذهن السامع بأقل ما يكون من الوقت والكلفة والإسراف فى القوة العصبية » .

وقد كلمنى بعضهم فى خطأ الدكتور من ناحية الألفاظ الأعجمية وإقحامها فى كتابته ، وأنه يجنح إلى ذلك بأوهى سبب ؛ ولا أراه خطأً ، بل أنا أرد ذلك إلى ما بينته آنفاً من أمر الناقل والواضع ولا يعجزنا أن نجد لصنيع الدكتور نصًّا يقوم به وينهض بحجته ؛ فقد قال أبو على الفارسى : إن العرب إذا اشتقت من الأعجمى خلطت فيه ، فإذا كان هذا فى الاشتقاق وهو لا يكون إلا من أصل ، فكيف بالتعريب ؟ على أنه لا خلط ولا اضطراب ، إنما هو سبيل الوضع وحكمة الدلالة وأن اللغة هكذا تجىء ، ثم يأتى بعد ذلك النحوىُّ يقول لماذا ولأن . . .

وقد أعجبنى حسن تقسيم الدكتور لقواعده التى بسطها فى مقاله المستفيض ، حتى إنى لأراه باباً جديداً فى التقسيم المعروف عند علماء البلاغة واللغة لابتذال الألفاظ وغرابتها ، إذ لم يبق عندنا غريب ومبتذل ولا بيننا عرب ومحدثون .

بيد أن من تلك القواعد أن الأستاذ يترخص فى الألفاظ العامية وهو يجد فصيحها ، ويقول فى ذلك : « إذا أسمعت الفلاح المصرى كلمة بذار مرة فى الأسبوع أو فى الشهر ، سمع كلمة (تقاوى) مائة مرة وألف مرة ، فرأينا أن محاولة تغيير لغة العامة فى هذه الكلمات وأمثالها ضرب من العبث وإضاعة للوقت وتضييع للفائدة ، فجاريناهم فيما نكتبه لهم » . وهذا ما كنت أجادله فيه ولا أسلم له بشىء منه ، لأنه أغفل أصلا اجتماعيًّا عظيماً ، فإن عامتنا غير منقطعة

من العربية الفصحى ، ولا يزال فيهم ميراثها من القرآن والحديث وكلام العلماء فى أمور دينهم ، وهذه هى وسائل مزجهم بالفصيح وردّهم إليه ، ولا تزال هذه الوسائل تفعل ما تفعله النواميس المحتومة ولولاها لما بقى للفصحى بقية بعد .

وقد كان جاء إلى مصر من بضع سنين رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذ الدكتور القدماء ، فنزح إلى ذلك البر فاتجر فأثرى وفشت له نعمة عظيمة ؛ ولما لقيته لقيت فى يده صحيفة وضع فيها مسائل فى اللغة والنحو ، وكان أعدها ليسأل عنها ؛ وفى أولها هذا السؤال : لماذا يقال فَصُح الرجل فصاحة فهو فصيح ، ثم يقول : شعَر شعراً فهو شاعر ؟ ألم يكن القياس أن يقال شعُر شَعارةً فهو شعيرٌ ، والفصاحة والشعر من باب واحد ؟

وهذا السؤال وإن كان فى ظاهر الرأى لغواً وعبثاً ولكنه دقيق فى تاريخ اللغة وأقْيستها ، ولا محل لبسط الكلام عليه فى هذا الموضع ، غير أنى أنهيت الخبر للدكتور صرّوف وقلت له : إن صاحبك هذا يضع قواعد اللغة فى الميزان الذى فى حانوته . . . وأنت كذلك تعالج بعض الألفاظ أحياناً ببعض الغازات والحوامض .

قلت هذا لأنى لم أسلِّم لهُ قط فيما كان يراه فى مثل البذار والتقاوى ، على أنه قيَّد الكلام بقوله (فيما نكتبه لهم) ، وهذا احتراس يدافع عنه بقوَّة كما ترى .

ولا يمترى أحد فى أن هذه النهضة اللغوية التى أدركناها وعملْنا فيها لم تكن سوى نموٍّ طبيعى لعمل رجال أفذاذ نظن الدكتور صروف فى طليعتهم ، لأنه كان أطولهم جهاداً وأكثرهم عملا وأظهرهم أثراً ؛ وكان المقتطف يجيء لها كل شهر كأنه قطعة زمنية مسلَّطة بناموس كناموس النشوء ، حتى لألَّم هذا المقتطف أن يكون عصراً من العصور قد خرج فى شكل الكتابة ؛ ولقد كاشفنى الدكتور فى آخر أيامه أنه كان يود أو ختَم عمله بوضع معجم فى اللغة يصلح أن يقال فيه إنه معجم الشعب ، وفصَّل لى طريقته ، إذ كنت أكلمه فى كتاب لغوى افتتحت العمل فيه من زمن ولا يعرف أحد من أمره خبراً[1] فقال لى : خذ بين طريقتى وطريقتك ،

---

(١) أحسبه يعنى المعجم الذى كان يعاون فيه صديقه المرحوم أحمد زكى باشا ، وانظر ص ٢٦٢ « حياة الرافعى ».

وامضِ أنت فى هذا العمل ؛ فإنى لو وجدت فراغـًا لما عدلت بهذا الأثر شيئـًا ، وما كل سهل هو سهل . .

على أن شيخنا هذا لو قد كان تفرغ للغة وتوفر عليها واجتمع لها بذلك العمر وتلك العلوم والأدوات ، لكان فيها بأُمة من الأشياخ الماضين من لدُنْ أبى عمرو بن العلاء إلى الدكتور يعقوب صروف ، ولكن لعلّ الدهر أضيق من أن يتسع أو هو أوسع من أن يضيق . . . لإمام آخر كأبى على الفارسى ، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والاشتقاق والعلل الصرفية ويجعله همه وسدَمه على ما قال تلميذه ابن جنى : « لا يعتاقه عنه ولد ، ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسوم به مطلبـًا ، ولا يخدم به رئيسـًا ؛ فكأنه إنما كان مخلوقـًا له » .

وكانت للدكتور طريقة جريئة فى رد الألفاظ العربية إلى أصولها والرجوع بها إلى أسباب أخذها واشتقاقها وتصاريفها من لغة إلى لغة ، وأعانه على ذلك ثقوب فكره وسعة علمه ودقة تمييزه وميله الغالب عليه فى تحقيق ناموس النشوء وتبيُّين آثاره فى هذه المخلوقات المعنوية المسماة بالألفاظ ؛ وكان معجبـًا بكل ما جاءهُ من هذا الباب ولو كان من خطإٍ ؛ لأنه إلى الرأى يقصد وللطريقة يمكّن ومع الخاطر يجرى .

وهذا باب يحتاج إلى التسمُّح والتساهل ؛ إذ لا يمكن تحقيقه ، ولا تتفق الحيطة فيه ، وليس إلا أن يتلوَّحَ شىء منه ويسنح شىء وتتلامح علةٌ ويعرض سبب ؛ ثم هو فى الدكتور من بعض الدلالة على استحكام ملكة الوضع فيه ، ونزوعه إلى أن يقتاس بقياسه ويستخرج من علله ؛ وقد تراه يبعد فى ذلك فينصب لك الدليل من وراء بضعة آلاف سنة ، وأنا الساعة أُعانٌ ذاكرتى وأديرها من ههنا وههنا لأجد كلمة قال لى مرة فى تاريخها إن العرب أخذوها عن اليونان حين كانت مكة نفسها جارية فى حكمهم ، ولكن أُنسيت هذه الكلمة ، إذ لم أرتبطها ، وإذ كنت لا أرى هذا المذهب ولا أحسن أن أقول فيه قولا ، وأعدُّ كل ما يقال فيه من باب تلفيق الأدلة ، كأنه ذئبُ ذلك الأعرابى الذى يريد أن يجعل فى الناس منه مثل غرائز الغنم . . . فيقول : « إلاّ ترَهْ تظنّـهْ » .

والدكتور صروف رجل مالىّ فى المال وفى اللغة جميعاً ، فمذهبه القصد فى الدلالة والقصد فى الوقت والقصد فى القوة . وقد صرفته ثلاثتها عن الشعر وعما كان فى حكمه من تحبير النثر وتوشيته ، على أنه يحسنهما لو أراد ولو سخت نفسه بالوقت ينفقه ولا يتعرّف قدر ما مضى منه فى هذه الساعات ، بل فى ساعة الكون الكبرى التى يتعاقب فيها عقربا النهار والليل ، كما كان ينفق البارودى يوماً فى بيت أو بيتين .

وكان شيخنا فى آخر مجالسى معه قبل وفاته بشهر أو نحوه ، أطلعنى على كل ما نشره فى مجلدات المقتطف من شعره ، فأعجبت بأشياء منه ، وأشرت على صديقنا الأستاذ فؤاد صروف أن يعيد نشر قصيدة الرفّاش التى ترجمها الدكتور عن الإنجليزية فى نسق سلس موشح القوافى ، والتى يقول فيها صاحبها يصف مخازى المدنية :

مخازٍ توالت فصالت وصارت على اللحم دوداً وفى العظم سوساً

وسألنى الدكتور بعد أن فرغت من شعره : فى أى طبقة تعدّنى من شعرائهم ؟ ففكرت قليلا ثم قلت له : فى طبقة الدكتور صروف ! . فضحك لها كثيراً .

وكانت له آراء فى الشعر العربى غيّر بعضها فى آخر عهده ، ومما قاله لى مرة : إن الذى يريد أن يخلد ذكره فى هذا الشرق فلا يُنسى ، لا ينبغى له أن يطمع فى هذا إلا إذا بنى هرماً كهرم الجيزة ! . وهى كلمة فلسفية كبيرة تنطوى على شرح طويل يعرفه من يعرفه .

وقد كادت قاعدة القصد التى أومأت إليها تنتهى به فى آخر مدته إلى القول بإسقاط الإعراب بتةً ، وأظن ذلك خاطراً سنح له فأخذ بأوله وترك أن ينظر فى أعقابه ، فزرته مرة فى شهر يناير لسنة ١٩٢٧ ، وكان يصحح تسويدة جواب كتبه عن سؤال ورد عليه فى هل يمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى فى القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك ؟ فلما أمرَّ الجوابَ على نظره دفعه إلىّ فقرأته ، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء يتهوّر فيها وقتٌ ما ؛ قال : فإذا قضينا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاماً معرباً

نكون قد أضعنا عليهم ثلث الوقت الذى يقضونه فى التكلم من غير فائدة تجنَى.

ولقد جادلته فى ذلك ولجحت فى الخلاف معه ، وقلت له إن هذه قاعدة مالية ، ثم إنك أغفلت أمر العادة وما تيسِّره ، وفى الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بدٌّ ، وفى اللهجات العامية من الحشو ومطّ الصوت وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت ؛ فأحسبه اقتنع وإن كنت رأيته لم يقتنع .

وإنه ليحضرنى بعد هذا كلام كثير فى فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه فى الأخلاق الطيبة الكريمة ، ولو ذهبت أُفصِّل لخرجت إلى الإفاضة فى فنون مختلفة ، ولكنى أجترئ من كل ذلك بأنه كان يَظهر لى دائمًا كأنه فى ظل من محبة الله .

* * *

الشيخ الخضرى[1]

تحوّل الكاتب إلى كتاب ، ورجَع المفكر إلى فكرة ، وأصبح من كان يُدارسُ الناس فإذا هو درسٌ يُذكر أو يُنسى ، وتناول التاريخ عالمـًا من علمائه فجعله نبأ من أنبائه ، وكان يبنيه فوضعه فى بنائه ، وقيل مات الشيخ الخضرى !

آهِ لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التى أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية ، وآخرها حيث تجد كلمة : « الآخرة » بلا معنى لا محدود ولا مظنون ! وآه لو استطعنا أن نتكلم عن الميت كأنه حيّ بيننا ، ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحيّ كأنه مات من زمن ! إنى لأكتب هذه الكلمات وكأنى أنظر إلى وجه أبى رحمهُ الله ، وأشهد ذلك السمتَ العجيب ، وذلك الوقار الذى يغمر النفس هيبةً وجلالا ، وأستروِح ذلك الحب الذى هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء ، ومن المخلوق إلى الخالق ، والمبتدئة من السماء إلى الأرض ، ومن الخالق إلى المخلوق : طريق الأمّ ، وطريق الأب ، وطريق الإنسانية ؛ أكتب وكأن يداً من وراء المادة تمسح على قلبى فأجد ثـَقلةً وفترةً ، وأستشعر حنينـًا وشوقـًا ، وأحسُّ هذا القلب ينازعنى إلى قومٍ ذهبوا بلا رجعة ، وفارقوا بلا وداع ، وغابوا عنا بلا خبر ؛ دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم ، وخرجوا منها ولا تخلوا منهم ؛ فما دخلوا ولا خرجوا ، وهذه هى الحيرة التى يتركها الميت العزيز للحى المتفجع كيما يعرف بأمواته ما هو الموت !

* * *

كنا منذ بضع وثلاثين سنة فى مدينة المنصورة ، وكان أبى يومئذ كبير قضاة الشرع فى ذلك الإقليم ، فإنى لألعب ذات يوم فى بهو دارنا إذ طرق الباب ، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنَّ العمامة * ولم أميِّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم ، فكان حدثـًا لكنه يتّسم بسمة الجد ؛ ورأيتهُ

(١) المقتطف : مايوسنة ١٩٢٧

* كناية عن الحداثة وأنه شيخ بالمنظر لا بالسن .

لا تموج به الجبّة كالعلماءِ ، غير أنها لا تمجهُ كالطلبة ؛ وكان فى يده مجلد ضخم لو نطق لقال له : دعنى لمن هو أسنُّ منك ! فما قدَّرته يزنُ عشرين مجلداً من مثلـه ، ونظر إلىّ نظرة كأنى لا أزال أزاها فى عينـه إلى الساعة ، فسلمت عليه فقال : أين الشيخ ؟ يعنى الوالد ـ قلت : خرج آنفـًا ؛ قال : فادفع إليه هذا الكتاب ، وقل له جاءَ به الخضرى .

ثم أغلقت الباب وانتحيت جانبـًا وفتحت المجلد ، فإذا هو جزءٌ من التفسير الكبير للفخر الرازى ، كان قد استعارهُ من مكتبتنا ؛ وعرفت الشيخ من يومئذ ، وكان أستاذاً للعربية فى مدرسة الصنائع ، يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمنشار والقَدوم ، فيذهب شىء فى شىء ،وكأنه لا يعلّم شيئـًا ؛ وقلما كنا نذكرهُ فى مدرستنا ، إذ كان لنا شيخ فحل ثقة من رجال الأزهر ، غير أن الخضرى كان له موضع فى كل مجلس ، وكان يداخل قومـًا من الخاصة يعنون بالمسائل الإسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء ، وبإشارة من بعض هؤلاء وضع أول كتبـه : « نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين » ، ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الأستاذ فى أول عهدهِ ، وأنه لا يزال وراء السجعة الآتية من القرون الأخيرة لم يمضِ على وجه ولم يـُعرف بمذهب .

* * *

إن الذى يريد أن يقول قولاً صحيحـًا فى هذا الفقيه العالـِم المؤرخ الأديب المربى ، يجب أن يرجع بتيارهِ إلى منبعـِه ليعرف مبلغ انبعاثـه وقوة جَرْيتـه ومدَّ عبابهَ ؛ فما كان الخضرى شيئـًا قبل أن يتعلق بمدار ذلك النجم الإنسانى العظيم الذى أهدتهُ السماء إلى الأرض وسُمى فى أسمائها « محمد عبده » ، لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين ، ولكن دار علومـه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام وشمائلهُ وآراءَهُ وبلاغتهُ وهمة نفسـه . ألا إنه لا بد من رجل واحد يكون هو الواحدَ الذى يبدأ منه العدد فى كل عصر ، وأنت فكيف تأملت الخضرى فاعلم أنك بإزاء معنى من معانى الشيخ محمد عبده ، على فرق ما بين النفسين ، بل أنت من الخضرى كأنك لترى الشيخ ساريـًا فى مظهر من مظاهر الزمن .

كان يحضر دروس الشيخ ، ويختلف إلى ناديه ، ويناقله بعض الرأى ، ويعارض معه بعض الكتب التى كان يرجع إلى الشيخ فى تصحيحها أو الإشراف على طبعها ؛ فنفذ الشيخ إلى نفسه ووجد السبيل إلى الاستقرار فيها . فهو من بعدُ حريص على وقته ، مجد فى عمله ، دائب على طريقه ، آخذ بالأخلاق الفاضلة ، مصلح مُربٍّ غيور ؛ وكل ذلك فى سمت وهيبة ، وجزالة رأى ، وشرف همّة ، وإخلاص حقّ الإخلاص ؛ وما أرى فوضى عصرنا هذا وانحطاطه وإسفافه وسخافة قولهم جديد وقديم ، وجرىء ورجعى ، وحر وجامد — إلا من خلاء العصر وفراغه من النفس الكبيرة ، وحاجته إلى إمام عظيم ؛ ومتى أصبحنا نضرب فى دائرة لا مركز لها ، فهى المربع وهى المستطيل وهى كل شكل إلا أن تكون الدائرة ؛ والذين رأوا طاغور الشاعر الهندى المتصوف حين نزل بمصر ، ورأوا سحره وتحويله كل جديد مدةَ أيام إلى قديم ، وإخراسه هذه الألسنة عن نقده ومعارضته ، وعن معاندة الحق طيشاً ونزقاً وضلالا وتجديداً . . . يستطيعون أن يدركوا ما أومأنا إليه ، ويتبينوا السر فيما نحن فيه ، ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده فى عصره ، بل فى خلق عصره .

* * *

وانتهى الخضرى إلى مدرسة القضاء الشرعى ، فألف كتابه فى الأصول ، اختصر فيه وهذّب وقارب ، فهو كتاب فى هذا العلم لا كتاب هذا العلم ، وأساتذة الأصول قوم آخرون لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعى الكبير ، لرأيت البحر الذى يذهب فى ساحله نصف طول الأرض ، وقد بعث الخضرى على ذلك أن جماعة يومئذ كان منها صديقنا المرحوم حفنى ناصف ، والشيخ المهدى ، وغيرهما ، اجتمعوا على إبداع نهضة فى التأليف ، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب ، وفرغ الخضرى للأصول ؛ أخبرنى بذلك حفنى بك رحمه الله ؛ ثم لما اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلامة المؤرّخ جورجى زيدان لدرس التاريخ الإسلامى فيها ، طار الخبر فى الأمة بأنهم اختاروا القنبلة . . . وشعر الناس بمعنى الهدم قبل أن يتهدم شىء ، فاضطرت الجامعة إلى أن تنحّيه ، وعهدت فى الدرس إلى الأستاذ الخضرى ، فألقى دروسه التى جمعها فى كتابه (تاريخ الأمم الإسلامية) ، وقال فى مقدمة هذا

الكتاب : « أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى . وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبه » ؛ نقول : وعلى أن الشيخ أحسن فى كتابه ، وجاء بمادة غزيرة من فكره ورأيه ، وبسط واختصر ، وباعد وقرّب ، فإن كلمته هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ أو أكبر من كتابه .

وردّ فى السنة الماضية على كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، وكان ردُّه خطابًا أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة ، لأنه أستاذ أستاذهم ؛ فكأنه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذاً معهم ، وأبت عليه الجامعة ما أراد ، ولعلها فطنت إلى هذا الغرض ؛ ولما علم أنى شرعت فى طبع ردّى على الدكتور طه [1] ، كلمنى فى استلحاق مقاله وجعله ذيلا فى الكتاب ، وقدّرناه يومئذ فى نحو خمسين صفحة أو دونها ، وقد سألتُه أن ينفى منه ما كان فى مقادير الرصاص ويقتصر على ما هو فى وزن القنابل ، فقال : « كله قنابل » ! . ثم اتسع كتابى وجاوز مقدارُه إلى الضعف ، فوسّع هو ردّه وزاد فيه وطبعه فى قريب من ضعفه على حدة .

دع كتابهُ المشهور (مهذب الأغانى) ، فهذا لا يقال إن الشيخ ألفهُ ، بل ألفتْه خمس عشرة سنة ؛ وأظن كل ذلك لا يُذكر فى جنب الكتاب الذى كان يعمل فيه أخيراً ، وهو كتاب « الأدب المصرى » ، أخبرنى أنه فى جزءين ودعانى إلى داره لأرى (المكتبة الخضرية) ؛ ولأطلع على هذا الكتاب ، فوعدتهُ ولم يُقدر لى ؛ وقد حدثنى أنه معنى أشد العناية باستجماع الفروق التى يمتاز بها الأدب المصرى عن الأدب الحجازى والشامى والعراقى والأندلسى ، وأنه أصاب من ذلك أشياء متميزة منذ الدولة الطولونية ، يحق لمصر أن تقول فيها هذا أدبى ؛ وكان يكتم خبر هذا الكتاب ، حتى إن صديقنا الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، اقترح عليه أن يكتب فصلا فى الشعراء المصريين وأدبهم يعقدُه لكتاب حفلة تكريم شوقى بك ؛ ثم لقيهُ بعد ذلك فقال له الشيخ : إن البحث سائر على أحسن وجوهه !

* * *

---

(١) المعركة تحت راية القرآن .

كان الخضرى يفرح للقائى ويهش لى . وكنت أتبين فى وجهه أشعة روحه الصافية ، ولعله كان يرى بى فى نفسه ذلك الشيخ الذى أعطانى المجلد ، كما كنت أرى به فى نفسى ذلك التلميذ الذى أخذ المجلد منه ! على أن مرجع ذلك فى الحق إلى سعة صدره ، وفسحة رأيه ، وبسطة ذرعه ، وسمو أدبه وإنصافه ؛ فلا يحقد ولا يحسد ، ولا يتجاوز قدره ، ولا ينزل بأحد عن قدره ، ولا يدعى مالا يحسن ؛ وقد عرف قراء المقتطف مثلا من أخلاقه هذه أو أكثرها حتى انتقده صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود . وتناول الجزء الأول من كتابه (مهذب الأغانى) وراح يتقلقل له كجلمود صخر . . . فوسعه الشيخ وعنى به ورد عليه فى المقتطف ، ونعته بالأستاذ الجهبذ وانتصف منه ، وأنصفه معًا . ولقد اقترحت عليه مرة أن يضع كتابًا فى حكمة التشريع الإسلامى وفلسفته ، فقال لى : « مُش قَدّه » يعنى أن العمل أكبر منه . ولكن هذا نبهه إلى وضع كتابه فى تاريخ التشريع الإسلامى .

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) فى سنة ١٩١١ ، لم أهده إلى الشيخ ، فاشتراه وقرأه ، ثم لقيته وسألته رأيه فيه ، فقال : (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقريظًا ، و (كويس) تقريظًا آخر ؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غمًا بهذا الكتاب وما كتب عنه ، وعلى حين كلمنى بعضهم مرتين فى ترك هذا العمل ونفض يدى منه ، لأنه — زعم — عمل شاق بلا فائدة . . .

وقد زرت الأستاذ الخضرى فى وزارة المعارف فى السنة الماضية . فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتنى بقوة فى الكرسى . كأنه لم يطمئن بعد إلى أنى جلست ، ثم فاض بكلام كثير . فكان فيما قاله : « أنا الآن أعيش فى غير زمنى ! » . وكأنما كان ينعى إلىّ نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدرى ولا أدرى ؛ وقال لى إنه يجلس إلى مكتبه فى كل يوم ست ساعات ، يقرأ أو يؤلف أو ينسخ ؛ لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها ، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم . قال : ولا يعتريه البرد ولا مرض من

أمراضه ، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة ، وقال : إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن .

* * *

ولنمسك عند هذا الحد ؛ فإن للذكرى غمزاً على القلب ؛ وبالجملة فقد كان رحمه الله عالمًا كالكتَّاب ، وكاتبًا كالعلماء ؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين ، وهو وحده منزلة بين المنزلتين ؛ وبذلك تميَّز وظهر ، فإنه فى إحدى الجهتين عقل جرىء تمدُّهُ رواية واسعة فى علوم مختلفة ، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضى حتى كأنه لم يمض ، وهو فى الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة أو الكتاب ، بل لا يزال يلتمس له عقلا يخرجه ويتصرّف به ، حتى يكبر عن أن يكون قديمًا بحتًا فينتظم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقًا واحداً . لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم ، ولا قديمًا إلا بالجديد ؛ فإننا لا نعرف قديمًا محضًا ولا جديداً صِرْفًا ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنَّة الحياة ؛ وأنت لن تجد حيًّا منقطعًا مما وراءهُ ، بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حىّ جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحدٍ هما أبواهُ فمنهما يأتى ومنهما يستمد وهما أبداً فيه وإن كان على حدة ؛ وبعد فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت إن المذهب القديم . . . قد انهدّ ركن من أركانه ، ونقص قنطار كتب من ميزانه ؛ ولكن هذه السخافة فى رأيى كما ترى من جماعة ائتَلَوْا أن يطفئوا نجمًا فى السماء لأنه قديم ؛ فاتفقوا على ذلك وأجمعوه بينهم وفرغوا من أمره ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يهيئون العربات والمضخات التى تحمل إلى السماء بضعة أبحر ليصبُّوها على النجم . . .

رأى جديد [١]
فى كتب الأدب القديمة

أدبُ الكاتب لابن قُتيبة من الدواوين الأربعة التى قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدّ علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصولَ هذا الفن وأركانَه أربعةُ دواوين : وهى أدبُ الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ؛ وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروع عنها » .

وقد يظن أدباءُ عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه ، وأنها تتوجّه على طريقة من قبلهم فى طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسة التى يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمعى أو أبى عُبيدة أو أبى عمرو بن العلاءِ وغيرهم من شيوخ الرواية ونَقَلَة اللغة ، ولكنها لا تستقيم فى آدابنا ولا تُعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا ؛ بل يكاد يذهب من يَتغرَّرُ منهم بالآراءِ الأوربية التى يسميها عِلمَه . . . ومن يَستَرسِلُ إلى التقليد الذى يسميه مذهبَهُ . . . إلى أن تلك الكتب وما جرى فى طريقتها هى أمواتٌ من الكتب ، وهى قبورٌ من الأوراق ، وأنه يجب أن يكونَ بيننا وبينها من الإهمال أكثرُ مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعث الكتاب منها وإحياءَه يُوشِك أن يكون كبعثِ الموتى : علامةً على خراب الدنيا . . .

فأما أن يكونَ ذلك علامة على خراب الدنيا ، فهو صحيح إذا كانت الدنيا هى محرر جريدة . . . من أمثال أصحابنا هؤلاء ، وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضَع إلا لزمَنِنا هذا ولأدبائه وكتّابه خاصةً ، وكأن القَدَرَ هو أثبتَ ذلك القولَ فى مقدمة ابن خلدون لينتهى بنَصّه إلينا فنَستَخرِج منه ما يُقيمنا على الطريقة فى هذا العصر الذى وقَع أدباؤه فى متَّسَعٍ طويلٍ من فنونِ الأدب ومُضْطَرَب عريضٍ من مذاهب الكتابة وأفُقٍ لا تَستقرُّ حدوده من العلوم

---

(١) كتبت مقدمة لشرح الجواليقى على أدب الكاتب لابن قتيبة .

والفَلسفة . . . فإن هذه المادَة الحافلَةَ من المعانى تحيي آدابَ الأمم فى أوربا وأمريكا ، ولكنها تكاد تَطمسُ آدابنا وتَمحقنا محقًا تذهبُ فيه خصائصُنا ومقوّماتنا ، وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية ، وتفسد عقولَنا ونزعاتِنا ، وترمى بنا مرامِيَها بين كل أمة وأمة ، حتى كأنْ ليست منّا أمة فى حيّزها الإنسانى المحدود من ناحية بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالآداب ؛ ومن ذلك ابتُلِيَ أكثر كُتابنا بالانحراف عن الأدب العربى أو العصبية عليه أو الزّراية له ، ومنهم من تحسبه قد رُمِيَ فى عقله لَهَوَسِه وحماقته ، ومنهم مَن كأنه فى حِقْدِه سُلِخ قلبُه ، ومنهم المُقَلِّد لا يدْرى أعلى قَصْد هو أم جَوْر ، ومنهم الحائر يذهب فى مذهب ويجيء من مذهب ولا يتجه لقصدٍ ، ومنهم من هو منهم وكفى . . .

وقلّما تَنَبّه أحدٌ إلى السبب فى هذا ؛ والسببُ فى حقارته وضعفه « كالمكروب » : بذرةٌ طامسة لا شأن لها ، ولكن متى تنبت تُنبتْ أوجاعًا وآلامًا وموتًا وأحزانًا ومصائبَ شتّى .

السببُ أن أولئك الأدباءُ كلّهم ثم مَن يتَشَيّع لهم أو يأخُذ برأيهم ، ليس منهم واحد تَرَبّى فى أساسه الأدبى تلك الأصول العربيةُ المحضَة القائمة على دراسة اللغة وجمعِها وتصنيفها وبيان عِلَلها وتصاريفِها ومَطارح اللسان فيها ، والمتأديةُ بذلك إلى تمكين الأديب الناشئ من أسرارِ هذه اللغة وتَطويعها له ، فيكون قَيمًا بها وتكون هىَ مُسْتجيبة لقلمه جارية فى طبيعته مسَدَدَة فى تَصرفه ، حتى إذا نشأ بها واستحكم فيها أحسَنَ العملَ لها وزاد فى مادّتها وأخذَ لها من غيرها وكان خليقًا أن يَمدّ فيها ويحسِن الملاءَمة بينها وبين الآداب الأخرى ويجعل ذلك نَسْجًا واحداً وبيانًا بعْضه من بعضه ، فيَنْمو الأدب العربى فى صَنيعه كما تنمو الشجرةُ الحية : تأخذ من كل ما حولها لعُنْصرِها وطبيعتَها وليس إلا عنصرُها وطبيعتُها حَسْب .

إن أدب الكاتب وشرحه هذا للإمام الجواليقى* وما صُنِّفَ من بابهما على

* الجواليق : جمع شاذ لجوالق ، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق وبيعها ؛ وهذا الجمع ليس بينه وبين واحده إلا الحركة ، فالمفرد جوالق (بضم الجيم) والجمع بالفتح ؛ ومثله ألفاظ أحصوها : كحلاحل ، وعدامل ، وخثارم ، وغيرها .

طريقة الجمع من اللغة والخبر وشعر الشواهد والاستقصاء في ذلك والتبسط في الوجوه والعلل النحوية والصرفية والإمعان في التحقيق ، كل ذلك عمل ينبغي أن يعرف على حقه في زمننا هذا ؛ فهو ليس أدبًا كما يفهم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، بل هو أبعد الأشياء عن هذا المعنى ؛ فإنك لا تجد في كتاب من هذه الكتب إلا التأليف الذي بين يديك ، أما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها إلا كالكلمة المحبوسة في قاعدة . . . وكأنه لم يكن فيه روح إنسان بل روح مادة مُصْمَتة ، وكأنه لم ينشأ ليعملَ في عصره بل ليعملَ عصرُه فيه ، وكأنْ ليس في الكتاب جهة إنسانية متعيِّنة ، فثمَّ تأليف ولكن أين المؤلف ؟ وهذا كتابُ ابن قتيبة ، ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟

وما أخطأ المتقدمون في تسميتهم هذه الكتب أدبًا ؛ فذلك هو رسم الأدب في عصرهم ، غير أن هذا الرسم قد انتقل في عصرنا نحن ، فإنا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية ، كما لو ذهبنا نسمي الجمل في البادية الاكسبريس ، والهَوْدَج عربة بولمان .

ومن هذا الخطأ في التسمية ظهر الأدب العربي لقصار النظر كأنه تكرار عصر واحد على امتداد الزمن ، فإن زاد المتأخر لم يأخذ إلا من المتقدم ؛ وصارت هذه الكتب كأنها في جملتها قانون من قوانين الجنسية نافذٌ على الدهر ، لا ينبغي لعصر يأتي إلا أن يكون من جنس القرن الأول .

هذه الكتب من هذه الناحية كالخلّ : يسمى لك عسلا ثم تذوقه فلا يجني عليه عندك إلا الاسم الذي زوِّر له ؛ أما هو فكما هو في نفسه وفي فائدته وفي طبيعته وفي الحاجة إليه ، لا ينقص من ذلك ولا يتغير .

الحقيقة التي يعيِّنها الوضع الصحيح أن تلك المؤلفات إنما وُضعت لتكون أدبًا ، لا من معنى أدب الفكر وفنه وجماله وفلسفته ، بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها ، فهي كتب تربية لغوية قائمةٌ على أصول محكمة في هذا الباب ، حتى ما يقرؤها أعجمي إلا خرج منها عربيًّا أو في هوى العربية والميل إليها ؛ ومن أجل ذلك بُنيت على أوضاع تجعل القارئ المتبصر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيًّا فصيحًا يسأله ، فيجيبه ويستهديه فيرشده ؛ ويخرِّجه

الكتاب تصفحـًا وقراءة كما تخرّجه البادية سماعـًا وتلقينًا ؛ والقارئُ فى كل ذلك مُسْتَدْرَجٌ إلى التعريب فى مَدْرجة مدرجة من هوى النفس ومحبتها ، فتصنع به تلك الفصول فيما دُبرِّت له مثلما تصنع كتبُ التربية فى تكوين الخلُق بالأساليب التى أُديرت عليها والشواهدِ التى وضعت لها والمعالم النفسية التى فصِّلَتْ فيها .

ومن ثَم جاءت هذهِ الكتب العربية كلها على نَسَق واحد لا يختلف فى الجملة ، فهى أخبار وأشعار ولغةٌ وعربية وجمع وتحقيق وتمحيص ، وإنما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والتبسُّط والتخفيف والتثقيل ونحو ذلك مما هو فى الموضوع لا فى الوضع ، حتى ليخيل إليك أنّ هذه كتب جغرافية للغة وألفاظها وأخبارها ؛ إذ كانت مثل كتب الجغرافية : متطابقة كلها على وصف طبيعةٍ ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرَها إلا الخالقُ سبحانه وتعالى .

وإذا تدبرتَ هذا الذى بيَّناه لم تعجب كما يعجب المتطفلون على الأدب العربى والمتخبطون فيه من أن يروا إيمان المؤلفين متصلا بكتبهم ظاهر الأثر فيها ، وأنهم جميعـًا يقررون أنما يريدون بها المنزلة عند الله فى العمل لحياطة هذا اللسان الذى نزل به القرآن الكريم وتأديته فى هذه الكتب إلى قومهم كما تُؤَدَّى الأمانة إلى أهلها ، حتى لولا القرآن لما وُضع من ذلك شىء ألبتة .

وأنا أتَلمَّح دائمًا العاملَ الإلهى فى كل أطوار هذه اللغة ، وأراه يُديرها على حفظ القرآن الذى هو معجزتها الكبرى ، وأرى من أثره مجىء تلك الكتب على ذلك الوضع ، وتسخير تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء والحفاظ جيلا بعد جيل فى الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا فلسفة ولا زيْغ عن تلك الحدود المرسومة التى أومأنا إلى حكمتها ؛ فلو أنه كان فيهم مجددون من طراز أصحابنا من أهل التخليط ، ثم تُرِك لهم هذا الشأن يتولونه كما نرى بالنظر القصير والرأى المعاند والهوى المنحرف والكبرياء المصممة والقول على الهاجس والعلم على التوهم ومجادلة الأستاذ حيص للأستاذ بيص . . . إذَن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدابرة ، ومُسِخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشأن كله ، فلم يتسق منه شىء .

ومما تَردُّه على قارئها تلك الكتب فى تَربيته للعربية ، أنها تُمَكِّن فيه

للصبر والمعاناة والتحقيق والتورُّك فى البحث والتدقيق فى التصفُّح، وهى الصفات التى فقدها أُدَباءِ هذا الزمن ، فأصبحوا لا يتثبَّتون ولا يُحققون ، وطال عليهم أن ينظروا فى العربية ، وثَقل عليهم أن يستبطنوا كتبها ؛ ولو قد تربَّوا فى تلك الأسفار ، وبذلك الأسلوب العربى لتمَّت الملاءمة بين اللغة فى قوتها وجزالتها وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم فى ضعفه وعاميته وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر فى أن من لا يقرءون تلك الكتب أول نشأتهم ، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط ، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غَثّ ، ولا يرون فى الأدب العربى إلا آراء مُلْتَوِيَة ؛ ثم هم لا يستطيعون أن يُقيموا على درس كتاب عربى . فيُساهِلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به فى حالتهم تلك ، ويتورَّطون فى أقوال مضحكة ، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشىء من ناحية الشعور ما دام الشعور يختلف فى الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها ؛ وهم أبداً فى إحدى الناحيتين أو فى كلتيهما .

* * *

وهذا شرح الجواليقى من أمتع الكتب التى أشرنا إليها ، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقى المولود فى سنة ٤٦٥ للهجرة ، والمتوفى سنة ٥٤٠ ، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبى زكريا الخطيب التبريزى ؛ أول من درس الأدب فى المدرسة النظامية ببغداد * وقرأ الجواليقى على شيخه هذا سبع عشرة سنة ، استوفى فيها علومَ الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب فى النظامية بعد على بن أبى زيد المعروف بالفصيحى ** .

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه فى تلك المدرسة ، فأنت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسى التدريس فى ذلك العهد ، تسمع من رجل انتهت إليه إمامةُ اللغة فى عصره ، فهو مدقق محيط مبالغ فى الاستقصاء ، لا يَندُّ عنه شىء مما هو بسبيله من الشرح ، معنىٌّ بالتصريف ووجوهه مما انتهى إليه من أثر الإمام ابن جنى فيلسوف هذا العلم فى تاريخ الأدب العربى ، فإن بين الجواليقى وبينه شيخين

---

* أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

** لقب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح فى اللغة .

كما تعرف من إسناده فى هذا الشرح .

وقد قالوا إن أبا منصور فى اللغة أمثلُ منه فى النحو ، على إمامتـه فيهما معًا ؛ إذ كان يذهب فى بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها ، وقد ساق منها عبد الرحمن الأنبارى مثلين فى كتابه نزهة الألبـّاء ، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون فى الطبقة العليا من أئمة العربية * وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب فى التحرى والتدقيق ؛ حتى كان من أثر ذلك فى طباعه أن اعتاد التفكير وطولَ الصمت فلا يقول قولا إلا بعد تدُّبر وفكر طويل . فإن لم يهتد إلى شىء قال لا أدرى ، وكثيرًا ما كان يُسأل فى المسألة فلا يجيب إلا بعد أيام .

وكان ورِعًا قوىّ الإيمان ، انتهى به إيمانه وعلمه وتقواه إلى أن صار أستاذ الخليفة المقتفى لأمر الله ، فاختص بإمامته فى الصلوات ، وقرأ عليه المقتفى شيئًا من الكتب ، وانتفع بذلك وبان أثره فى توقيعاته كما قالوا .

والذى يتأمل هذا الشرح فضلَ تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجلَ إحصاء فى اللغة ، لا يفوته شىء مما عرف إلى زمنه ، وهو ولا ريب يجرى فى الطريقة الفكرية التى نهجها ابن جنى وشيخه أبو على الفارسى ؛ ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجّر ولا يمنع القياس فى اللغة ، ويُلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ، ويروى ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته ؛ ومن أمتع ما جاء من ذلك فى شرحه قوله فى صفحة ٢٣٥ ، وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده إلا فى كتابه ، وهذه عبارته :

قولهم : يدى من ذلك فَعِلة : المسموع منهم فى ذلك ألفاظ قليلة ، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا : يدى من الإهالة سَنِخَة ، ومن البيض زهِمَة ، ومن التراب تَرِبَة ، ومن التين والعنب والفواكه كَتِنة وكمدة ولَزِجَة ،

---

* قال ياقوت فى ترجمة أبى على الفارسى من معجم الأدباء : قرأت بخط الشيخ أبى محمد الخشاب : كان شيخنا (يعنى الجواليقى) قلما يتنبل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها باعه ، مالم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من ضروبها ، ولا سيما رواية الأشعار العربية وما يتعلق بمعرفتها من لغة وقصة ؛ ولهذا كان مقدما لأبى سعيد السيرافى على أبى على الفارسى رحمهما الله ، ويقول : أبو سعيد أروى من أبى على ، وأكثر تحققا منه بالرواية وأثرى منه فيها .

ومن العشْب كَتِنة أيضًا ، ومن الجبن نَسِمَة ، ومن الجص شَهِرة ، ومن الحديد والشَبه والصُّفْر والرصاص سَهِكة وصدِئة أيضًا ، ومن الحمأة رَدِغة ورَزِغة ، ومن الخضاب رَدِعة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِغة ، ومن الخل والنبيذ خَمِطَة ، ومن الدبس والعسل دَبِقة ولَزِقة أيضًا ، ومن الدم شَحِطَة وشَرِقة ومن الدهن زَنِخة ، ومن الرياحين ذَكِية ، ومن الزهر زهِرة ، ومن الزيت قَنِمة ، ومن السمك سَهِكة وصَمِرة ، ومن السمن دَسِمة ونَسِمة ونَمِسة ، ومن الشهد والطين لثِقة ، ومن العطْر عَطِرة ، ومن الغالية عَبِقة ، ومن الغسلة غوالقِدر وحِرَة ، ومن الفرصاد قَنِئة ، ومن اللبن وَضِرة ، ومن اللحم والمرق تَمِرة ، ومن الماء بَلِلة وسَبِرة ، ومن المسك ذَفِرة وعبقة ، ومن النَّتن قَنِمة ، ومن النفط جَعِدة . انتهى .

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعًا فيما نرى ، والباقى كله أجراه علماءُ اللغةِ وأهل الأدب على القياس ، فأبدع القياس منها أربعًا وثلاثين كلمة : ولو تدبرت كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التى أخذت منها لأيقنت أن هذه العربية هى أوسع اللغات كافة ، وأنها من أهلها كالنبوة الخالدة فى دينها القوى : تَنتظر كلَّ جيل يأتى كما ودَّعَتْ كل جيلٍ غَبَر لأنها الإنسانية ، لهؤلاءِ وهؤلاءِ .

إن ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أنِ اقرءوا وادرسوا وخصوا لغتكم بشطر من عنايتكم ، وتربَّوا لها بتربيتها فى مدارسكم ومعاهدكم ، واصبروا على معاناتها صبر المحب على حبيبته ، فإن ضعفتم فَصبرَ البارِّ على من يلزمه حقُّه ؛ فإن ضعفتم عن هذا فَصبر المتكلفِ المتَجمِّلِ على الأقل ! .

* * *

أمير الشعر فى العصر القديم [1]

الوجه فى إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف، أن تصنعَ كأنك تُعيده إلى الدنيا فى كتاب وكان إنساناً، وتُرجعُه درساً وكان عمراً، وتردُّهُ حكاية وكان عملا، وتنقلهُ بزمنه إلى زمنك، وتعرضه بقومه على قومك، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خِلقة إيجادٍ يخلقه العقل خلقة تفكير.

من أجل ذلك لا بد أن يتقصَّى المؤلف فى الجمع من آثار المترجم وأخباره، وأن يحمل فى ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يجرى وراء مَلَكَيْ من يترجمه لقراءة كتاب أعماله كتاب فى يديهما . . . ولا بدَّ أن يبالغ فى التمحيص والمقابلة، ويدقق فى الاستنباط والاستخراج، ويضيف إلى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفكر، ويعمل على أن ينقح ما انتهى إليه الماضى فى أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر فى فنِّه وفلسفته؛ وذلك من عمل العقل المتجدد أبداً والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة، يشبه عمل الدهر المتجدد أبداً والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض، كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية.

والتجديد فى الأدب إنما يكون من طريقتين: فأما واحدة فإبداع الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان، وأما الأخرى فإبداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة وفى الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد، وفى الثانى إتمام ما لم يتم؛ فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها، ولا تجديد إلا من ثَمة، فلا جديد إلا مع القديم.

وإذا تبينت هذا وحققته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا وأكثرهم

(١) [المقتطف]: وضع الأديب محمد صالح سمك رسالة قيمة فى امرئ القيس «أمير الشعر فى العصر القديم» تقع فى نحو مائتين وخمسين صفحة، سلك فيها مسلكا طريفاً، وحلاها بمقدمة بليغة للأستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعى، فخص المؤلف المقتطف بنشر المقدمة وبعض أبحاث الرسالة فيها طبقاً لرغبتنا.

يدّعيه سفاهًا ويتقلده زوراً ، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذّرور الأبيض (البودرة) على وجهه ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيضَ من أمه لا من العلبة . . . . فإن منهم من يصنع رسالة فى شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده فى طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها ، ومنهم من يجدد فى تاريخ الأدب ، ولكن بالتكذّب عليه والتقحّم فيه والذهاب فى مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل حتى يجىء مدبراً ، ووجه المدبر حتى يعود مقبلاً ، فإذا لكلٍّ طريق جديد ، وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق .

ألا إنّ كل من شاءَ استطاع أن يطبّ لكل مريض ، لا يكلفهُ ذلك إلا قولاً يقوله وتلفيقًا يدبرُه ، ولكن أكذلك كل من وصف دواءً استطاع أن يشفى به ؟

وبعد ؛ فقد قرأت رسالة امرئ القيس التى وضعها الأديب السيد محمد صالح سمك ، فرأيت كاتبها — مع أنه ناشئٌ بعد — قد أدرك حقيقة الفن فى هذا الوضع من تجديد الأدب ، فاستقام على طريقة غير ملتوية ، ومضى فى المنهج السديد ولم يدع التثبت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأى ، ولا قصّر فى التحصيل والاطلاع والاستقصاء ، ولا أراهُ قد فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيرَه مما ذهب فى إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجمًا بالغيب وحكمًا بالظن .

فإن امرأ القيس فى رأيى إنما هو عقلٌ بيانى كبير من العقول المفردة التى خلقت خلقَها فى هذه اللغة ، فوضع فى بيانها أوضاعًا كان هو مبتدعَها والسابق إليها ، ونهجَ لمن بعده طريقتها فى الاحتذاء عليها والزيادة فيها والتوليد منها ؛ وتلك هى منقبته التى انفرد بها والتى هى سر خلودِه فى كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة ؛ فهو أصل من الأصول ، فى أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، حتى لكأنهُ مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها ؛ وكما يقال فى مدننا فى أمم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات ، يمكن أن يقال مثل ذلك فى بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرئ القيس ، وتشبيه امرئ القيس .

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص .

ولقد نبهنا فى (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء فى القرآن الكريم كان جديداً فى اللغة ، لم يوضع من قبلِه ذلك الوضع ولم يجر فى استعمال العرب كما أجراهُ ، فهو يصب اللغة صبًّا فى أوضاعه لأهلها لا فى أوضاع أهلها ؛ وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة ما لا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه فى هذا العصر ؛ إذْ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة فى ذات أنفسها ليس فى تركيبها إلا القوة التى بنيت عليها ، فإذا تناولها الصَّنِعُ الحاذق الملهم أضاف إليها من تعبيره ما يُشعرك أنه خلق فيها الجمال العقلى ، فكأنها كانت فى الخلقة ناقصة حتى أتمها .

وهذا المعنى الذى بيَّنَّاه هو الذى كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديمًا ، يُحِسُّونه ولا يجدون بيانه وتأويله ، فترى الأصمعى مثلا يقول فى شعر لبيد ؛ إنه طيلسان طَبَرى . أى محكم متين ، ولكن لا رونق له ؛ أى فيه القوة وليس فيه الجمال ؛ أى فيه التركيب وليس فيه الفن .

والعقل البيانى كما قلنا فى غير هذه الكلمة ، هو ثروة اللغة ، وبه وبأمثاله تعامل التاريخ ، وهو الذى يحقق فيها فنَّ ألفاظها وصورها ؛ فهو بذلك امتدادها الزمنى وانتقالها التاريخى وتخلُّقها مع أهلها إنسانيةً بعد إنسانية فى زمن بعد زمن ، ولا تجديد ولا تطور إلاَّ فى هذا التخلق متى جاء من أهله والجديرين به ؛ وهو العقل الخارق للتفسير والتوليد وتلقى الوحى وأدائه واعتصار المعنى من كل مادة وإدارة الأسلوب على كل ما يتصل به من المعانى والآراء ، فينقلها من خلقتها وصيغها العالمية إلى خَلق إنسان بعينه ، هو هذا العبقرىّ الذى رُزق البيان .

وللسبب الذى أومأنا إليه بقى امرؤ القيس كالميزان المنصوب فى الشعر العربى يبين به الناقص والوافى ؛ قال الباقلانى فى كتابه (الإعجاز) : وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشِعره (يريد امرأ القيس) فلانًا وفلانًا ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره فى

أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه أو سوّوا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم . اهـ .

ومعنى كلامه أن امرأ القيس أصل فى البلاغة ، قد مات ولا يزال يخلق ، وتطوّرت الدنيا ولا يزال يجىء معها ، وبلغ الشعر العربى غايته ولا تزال عربية عند الغاية .

وعرض الباقلانى فى كتابه طويلة امرئ القيس* فانتقد منها أبياتًا كثيرة ، ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه فى الصناعة والبيان ، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها ؛ فركب فى ذلك رأسه ورجليه معًا . . . فأصاب وأخطأ ، وتعسّف وتهدّى ، وأنصف وتحامل ؛ وكل ذلك لمكانة امرئ القيس فى ابتكاره البيانى الذى لا يمكن أن يدفع عنه ؛ ولما انتقد قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهوٍ بها غيرَ معجَل

قال : « فقد قالوا عَنَى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يَسبق إليها بل هى دائرة فى أفواه العرب » . ألا ليت شعرى هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر) ؟

على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتَى العقلُ الشعرى ، ولو قالها اليوم شاعر فى لندن أو باريس بالمعنى الذى أراده امرؤ القيس — لا بما فسرها به الباقلانى — لا ستُبدعت من قائلها ولأصبحت مع القُبْلة على كل فم جميل ؛ بل هم يمرون فى بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة ، فيكنون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعُشّ) ، وما يُتخذ العش إلا للبيضة . إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم فى مسّها وحرارة الشباب فيها ، ثم فى رقتها وصفاء لونها وبَريقها ، ثم فى قيام

---

* أى معلقته ، وهذه القصائد التى تسمى المعلقات لم تكتب ولم تعلق كما سنبينه فى تاريخ آداب العرب .

(قلت : انظر الجزء الثالث)

أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم فى حذرهم وسهرهم ، ثم فى انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها — هى فى كل ذلك منهم ، ومن نفسها كبيضة الجارح فى عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك قال بعد هذا البيت :

تجاوزت أحراسًا إليها ومعشراً   علىّ حراصًا لو يسرُّون مقتلى

فتلك بعض معانى الكلمة وهى كما ترى ، وكذلك ينبغى أن يفسر البيان . . . .

البؤساء (١)

ترجم حافظ هذا الجزء الثانى من البؤساء فطوى به الأول ، وكانوا يحسبون الأول قد عقمت بمثله البلاغة فلا ثانى له . وبين الجزءين زمن لو اتسع به أديب فى قراءة كتب الأدب لاستوعبها كلها ، فكأن ارتفاع السن بحافظ فى هذه المدة جعل منه فى قوة الأدب حافظين يترجمان معاً .

وما البؤساء فى ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق فى قلم شاعر فانعطفت عليه حواشى البيان من كل نواحيه ، وجاء ما تدرى أشعراً من النثر أم نثراً من الشعر ، وخرجت به الكتابة فى لون من الصفاء والإشراق كأنما تنحل عليه أشعة الضحى :

ترجم حافظ فوضع اللغة بين فكره ولسانه ، ووقف تحت سحابة من السحب التى خفق عليها جناح جبريل ، فما تخلو كتابته من ظل يتنفس عليك برائحة الإعجاز ؛ وتراه يتحدر مع الكلام ويتناول منه ويدع ، فما نزع به الكلام منزعاً إلا وجده متمكناً منه وأصابه حيث أصابه كالتيار جملة واحدة تلف أول النهر وآخره على مدّ ما يجرى ؛ فهو حيث كان فى السهل وفى الصعب ، غير أنه يستتسر فى موضع ويستعلن فى موضع ، ويجيش ويهدر ويترامى فى العمق فيدوى دوياً .

ومن هنا يحسبهُ بعضهم يجنح إلى ما يستجفى من الكلام ، وإلى استكراه بعض الألفاظ والتكلف لبعضها ؛ وإنما ذاك وضع من أوضاع اللغة ومذهب من مذاهب البلاغة ، ولا بد أن يشتد القول ويلين ، وأن يكون فى أجراس الحروف ما فى نغم الإيقاع ؛ وما أشبه هندسة البيان بهندسة الطبيعة التى تغمز النهر وترمى بالبحر وتقذف بالجبل الأشم ؛ وما الجبل لو حققت فى وجوه التناسب الطبيعى إلا بحر قد تحجر فانتثرت أمواجه من صخوره ،وكلا اثنيهما على ما بين الصلابة واللين تعبير فى أساليب القوة عن القوة ، وتوضيح لأقوى ما لا يمكن أن يظهر ، بأقوى ما لا يمكن أن يخفى .

---

(١) كتبها عن الجزء الثانى من البؤساء ؛ وانظر مقالى المؤلف عن حافظ فى هذا الجزء .

يخطئ الضعاف من الكتاب وبخاصة فى أيامنا هذه . . . إذا حسبوا الفصاحة العربية قبيلا واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس ؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه ليرى فى الكلام الجزل المتفصح ما يرى فى جمجمة الأعاجم إذا نطقوا فلم يبينوا ؛ وإنما هى العربية ، وإنما فصاحتها فى مجموع ما يطرد به القول ؛ والفصاحة فى جملتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعانى ، والغرض الذى يتجه إليه كلاهما ؛ فمتى فصل الكلام على هذا الوجه وأحكم على هذه الطريقة ، رأيت جماله واضحاً بيناً فى كل لفظ تقوم به العبارة ، من النسج المهلهل الرقيق ، إلى الحبك المحكم الدقيق ، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذى يسرد فى قوة الحديد ؛ إذ يكون كل حرف لموضعه ، ويكون كل موضع لحرفه ، ويكون كل ذلك بمقدار لا يسرف ، وقياس لا يخطئ ، ووزن لا يختلف ؛ وهذه هى طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات ، وبها أمكن الإعجاز فى هذه اللغة ولم يمكن فى سواها .

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها ، ففى كل موضع من كتابته موضع روعة ، حتى ما تدرى أيكتب أم يصوغ أم يصور ، وكأنه لا ينقل من لسان إلى لسان ، بل من فكر إلى فكر ، فترى أكثر جملة كأنها تضىء فيها المصابيح .

ومن الخواص التى انفرد بها حافظ أنه ظاهر فى صنعة ألفاظه ظهور هيجو فى صنعة معانيه ؛ إذ لاتجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو يطيقه ؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت إلا بموت الحى ؛ وهم فى أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصححوا العامية أو يفصحوا بها قليلا ، فيستوى فى صنعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذلك ، لأنهم سواسية . ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما يؤتيك الاسم المعلق على مسماه .

غير أنك فى البؤساء ترى مع الترجمة صنعة غير الترجمة ، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألّفه حافظ مرتين ، إذ ينقل عن الفرنسية ؛ ثم يفتنّ فى التعبير عما ينقل ، ثم يُحكم الصنعة فيما يفتنّ ، ثم يبالغ فيما يُحكم ؛ فأنت من كتابه فى لغة الترجمة ، ثم فى بيان اللغة ، ثم فى قوة البيان ؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه

لأحق به فى العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه .

وتلك طريقة فى الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب الغزير ، والذوق الناضج ، والبيان المطبوع ؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكد فى تخير اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة ؛ فلقد ينفق الكاتب وقتاً فى عمر الليل ليخرج من آخره سطراً فى نور الفجر ، وبهذا الصنيع جاءت صفحات البؤساء على قلتها كشباب الهوى ؛ لكل يوم منه فجره وشمسه ، ولكل ليلة قمرها ونجومها .

* * *

والذى نغتمزه فى هذه الترجمة أن الضجر يستبد أحياناً بصاحبنا فيستكرهه على غير طبعه ، ويرده إلى غير مألوفه ؛ ومن ثم يضطرب ذوقه وسليقته أو يذهب به عنهما ، فيعدل بالمعنى عن لفظه المعروف الذى استعمله الأدباء فيه ، كاستعماله قارن بين كذا وكذا ، وإنما يستعملون مثّل بينهما ، أو يخل بوزن الكلمة فى ميزان الذوق ، فترى العبارة اليابسة فى الجملة الخضراء التى ترف ؛ وذلك ما لا مطمع لأحد أن يسلم منه ؛ لأنه أثر الضعف الإنسانى فيمن ارتهنوا أنفسهم بملابسة القوة العليا فى هذه الإنسانية .

ولم يتنزه عنه كتاب إلا ذلك الكتاب العزيز الذى اهتزت له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ .

* * *

الملاح التائه (١)

إذا أردت أن أكتب عن شعر فقرأته ، كان من دأبى أن أقرأه متثبتًا أتصفح عليه فى الحرف والكلمة ، إلى البيت والقصيدة ، إلى الطريقة والنهج ، إلى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها ، وعن أى أحوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر ، وبأيها يتسبب إلى الإلهام ، وفى أيها يتصل الإلهام به ، وكيف يتصرف بمعانيه ، وكيف يسترسل إلى طبعه ، ومن أين المأتى فى رديئه وسقطه، وبماذا يسلك إلى تجويده وإبداعه .

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البيانية فيه ، وهل هى جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة فى اللفظ إلى حدود الإلهام فى المعنى ، ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهى جميعًا ، أو هى ضعيفة رخوة ليس معها إلا الاختلال والاضطراب ، وليس لها إلاّ ما يحمل الضعيف على طبعه المكدود كلما عنف به سقط به ؟

أتبين كل هذا فيما أقرأ من الشعر ، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه أنا لو أنى عالجت هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى ، ثم أضيف إلى ذلك كله ما أُثبته من أنواع الاهتزاز التى يحدثها الشعر فى نفسى ؛ فإنى لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعًا من الطرب لا نوعًا واحداً ، وهى تشبه فى التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية فى ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة فى جوهر الماسة وموجة النور المتألهة فى كوكب الزهرة .

وأكثر الشعر الذى يُنظم فى أيامنا هذه لا يتصل بنفسى ولا يخف على طبعى ، ولا أراه يقع من الشعر الصحيح إلاّ من بعد ، وهو منى أنا كالرجل يمر بى فى الطريق لا أعرفه : فلا ينظر إلى ولا أنظر إليه ، فما أبصر منه رجلاً وإنسانية وحياة أكثر مما أراه ثوبًا وحذاء وطربوشاً ! والعجيب أنه كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوِى على مقدار ذلك فى الاحتجاج لضعفه ، وألهم من الشواهد والحجج ما لو ألهم

(١) ديوان الشاعر المهندس على محمود طه . وانظر « حياة الرافعى » ص ١٧٦ — ١٧٨ .

بعدده من المعانى والخواطر لكان عسى . . .

فإذا نافرت المعانى ألفاظها واختلفت الألفاظ على معانيها قال : إن هذا فى الفن . . . هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك ؛ وإذا عوض وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتحذلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره قال: إنهُ أعلى من إدراك معاصريه، وإن عجرفة معانيه هذه آتية من أن شعره من وراء اللغة ، من وراء الحالة النفسية ، من وراء العصر ، من وراء الغيب : كأن الموجود فى الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه ، والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يُبين إبانة الشخص. وإذا أهلك الشاعر الاستعارة وأمرض التشبيه وخنق المجاز بحبل — قال لك : إنهُ على الطريقة العصرية وإنما سدد وقارب وأصاب وأحكم . وإذا سمى المقالة قصيدة . . . . وخلط فيها خلطه وجاء فى أسوإ معرض وأقبحه وخرج إلى ما لا يطاق من الركاكة والغثاثة — قال لك : هذه هى وحدة القصيدة ، فهى كلٌّ واحد أفرغ إفراغ الجسم الحى : رأسه لا يكون إلاّ فى موضع رأسه ورجلاه لا تكون إلاّ فى موضع رجليه . . .

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجج من أصحابها على أنها طبقات من القوة . غير أن مصداق الشهادة للأقوياء عظامهم المشبوحة ، وعضلاتهم المفتولة ، وقلوبهم الجريئة ، أما الألسنة فهى شهود الزور فى هذه القضية خاصة .

* * *

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر : فالأول تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنهُ ما نظم إلاّ ليثبت أنهُ قد وضع شعراً ، والثانى تأخذ من شعره وطريقته أنهُ إنما نظم ليثبت أنه قرأ شعراً . . . وهذا الثانى يشعرك بضعفه وتلفيقه أنه يخدم الشعر ليكون شاعراً ، ولكن الأول يريك بقوته وعبقريته إلى الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعرَه .

أما فريق المتشاعرين فليمثل له القارئ بمن شاء وهو فى سعة . . . وأما فريق الشعراء ففى أوائل أمثلته عندى الشاعر المهندس على محمود طه . أشهد : أنى أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذى كتبت به فى المقتطف عن

أصدقائى القدماء : محمود باشا البارودى ، وإسماعيل باشا صبرى ، وحافظ ، وشوقى ، رحمهم الله وأطال بقاء صاحبنا ؛ فهذا الشاب المهندس أوتى من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ، ووهب ملكة الفصل بين الحسن والقبح فى الأشكال مما علِمته من العلم وما علَّته من الذوق وهذا إلى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الأشياء فيها ؛ وبهذا كله استعان فى شعره وقد خلق مهندساً شاعراً ، ومعنى هذا أنه خلق شاعراً مهندساً ؛ وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الكريم تعلم الهندسة ومزاولتها والمهارة فيها إلاّ لما سبق فى علمه أنه سينبغ نبوغه للعربية فى زمن الفوضى وعهد التقلل، وحين فساد الطريقة وتخلُّف الأذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط فى هذا المنطق لانعكاس القضية ، فيكون البرهانُ على أن هذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقرى — هو عينه البرهانَ على أن لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية ؛ وهذه فوضى تحتاج فى تنظيمها إلى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة وأصولها والأشكال والرسوم وفنونها ، فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا ؛ فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية ، أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر للمعنى ، وإبداع الشكل فيما ينشئ من اللفظ ، وألاّ يترك البناء الشعرى قائماً ليقع إذ يكون واهناً فى أساسه من الصناعة ، بل ليَثبت إذ يكون أساسه من الصناعة فى رسوخ وعلى قدر .

وديوان « الملاح التائه » الذى أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذى أومأنا إليه ؛ فما هو إلاّ أن تقرأه وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنه وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقيم ما تداعى ، ويرمم ما تخرَّب ، ويهدم ويبنى .

* * *

ديوان الشاعر الحق هو إثبات شخصيته ببراهين من روحه ، وههنا فى « الملاح التائه » روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذى تقرؤه بالقلب والعقل والذوق ، وتراه كفاء أغراضه التى ينظم فيها ؛ فهو مكثر حين

يكون الإكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الإقلال ؛ ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الإحاطة ، تراه كالدائرة : يصعد بك محيطها ويهبط لا من أنه نازل أو عال ، ولكن من أنه ملتف مندمج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك .

وهو شعر تعرف فيه فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً فنيًّا شعريًّا ؛ فترى الشيء فى الطبيعة كأنه موجود بظاهره فقط ، وتراه فى الشعر بظاهره وباطنه معًا ؛ وليس بشعر ما إذا قرأته ، واسترسلت إليه لم يكن عندك وجهًا من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة فى نفسٍ ممتازة مدركة مصورة .

ولهذا فليس من الشرط عندى أن يكون عصر الشاعر وبيئته فى شعره ، وإنما الشرط أن تكون هناك نفسه الشاعرة على طريقتها فى الفهم والتصوير ، وأنت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة أن لها أن تقول كلمتها الجديد ة ، وأنها مخولة له الحق فى أن تقولها ، إذ هى للعقول والأرواح أخت الكلمة القديمة : كلمة الشريعة التى جاءت بها النبوة من قبل .

وليس فى شعر على طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب أنه لا ينظم فى هذا القليل إلاّ حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كرثاء شوقى ، وحافظ ، وعدلى باشا ، وفوزى المعلوف ، والطيارين دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل ؛ فإن يكن هذا التدبير عن قصد وإرادة فهو عجيب ، وإن كان اتفاقًا ومصادفة فهو أعجب ؛ على أنه فى كل ذلك إنما يرمى إلى تمجيد الفن والبطولة فى مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة .

أما سائر أغراضه فإنسانية عامة ، تتغنى النفس فى بعضها ، وتمرح فى بعضها ، وتصلى فى بعضها ؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلاّ . . . ظلالاً من الحيرة أو الشك ، كتلك التى فى قصيدة « الله والشاعر » ، وأظنه يتابع فيها المعرى ؛ ولست أدرى كم ينخدع الناس بالمعرى هذا ، وهو فى رأيى شاعر عظيم ، غير أن له بضاعة من التلفيق تعدل ما تخرجه « لا نكشير » من بضائعها إلى أسواق الدنيا .

ومما يعجبنى فى شعر على طه أنه فى مناحى فلسفته وجهات تفكيره يوافق رأيى الذى أراه دائماً ، وهو أن ثورة الروح الإنسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا فى ظاهر الثورة ولا فى العراك مع الله كما صنع المعرى وأضرابه فى طيشهم وحماقتهم ، ولكنهما فى الهدوء الشعرى للروح المتأملة ، ذلك الهدوء الذى يجعل الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بأزهارها ونجومها ، ويجعل الشاعر أداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ؛ فإن العجيب الذى ليس أعجب منه فى التدبير الإلهى للنفوس الحساسة — أن زخرفة الشعر وما يجرى مجراه فى الفن إنما هى ضرب من زخرف الطبيعة حين تبتدع الشكل الجميل لتتمم أغراضها من ورائه ؛ ولو ثارت الأزهار — مثلاً — على الوجود وخالقه ثورة أولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير إفساد حكمتها هى وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تنتصر إلا ببقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلمها معا .

* * *

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو إلى الجزالة ، تبدو اللغة فيه وعليها لون خاص من ألوان النفس الجميلة يزهو زهوه فيكثّر منه فى النفس تأثيرها وجمالها ، وهذه هى لغة الشعر بخاصته ؛ ولا بد أن ننبه هنا إلى معنى غريب ، وذلك أنك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الأدب ، فإذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الألفاظ فى أوانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها ، كأن موضعها فى هذا النظم غير موضعها فى اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا تغير ، ولكن موضعه ثمّ هو الذى أعلن إفلاسه ، إذ أقامه مقام الذى يريد أن يعطى ثم هو إذا وقف لا يصنع شيئاً إلا أن يعتذر بأنه لم يجد ما يعطيه . . . فهذا كان رجلا من الناس ، وكان فى ستر وعافية ، فلما وقف موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدّعياً فاختلفت به الحال وهو هو لم يتغير .

وما الأسلوب البيانى إلاّ وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ، فإن لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية أخرى لمضاعفة الخيبة ؛ وهذا ما تحسه فى كثير من شعر النظامين أو البديعيين فى العصور الميتة ، وتحسه فى الشعر الميت الذى لا يزال ينشر بيننا .

وعلى طه إذا حرص على أسلوبه وبالغ فى إتقانه واستمرَّ بجريه على طريقته الجيدة متقدماً فيها ، متعمقاً فى أسرار الألفاظ وما وراء الألفاظ ، وهى تلك الروعة البيانية التى تكون وراء التعبير وليس لها اسم فى التعبير ، معتبراً اللغة الشعرية — كما هى فى الحقيقة — تأليفاً موسيقياً لا تأليفاً لغوياً . . . فإنه ولا ريب سيجد من إسعاف طبعه القوى ، وعون فكره المشبوب ، وإلهام قريحته المولدة — ما يجمع له النبوغ من أطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار مصوريه ، وتتخذه الحياة من بلغاء المعبرين عنها فى العربية ؛ ومن ثم تنظمه العربية فى سمط جواهرها التاريخية الثمينة ، ويصله السلك بشوقى وحافظ والبارودى وصبرى ، إلى المتنبى والبحترى وابن الرومى وأبى تمام ، إلى ما وراء ذلك ، إلى الجوهرة الكبرى المسماة جبل النور البيانى ، إلى امرئ القيس .

وليس هذا ببعيد على من يقول فى صفة القلب :

يا قلب عندك أى أسرار — ما زلن فى نشر وفى طى
يا ثورة مشبوبة النـــار — أقلقت جسم الكائن الحى
حملته العبء الذى فرقت — منه الجبال وأشفقت رهبا
وأثرت منه الروح فانطلقت — تحسو الحميم وتأكل اللهبـــا
وعجبت منك ومن إبائك فى — أسر الجمال وربقة الحب
وتلفُّت المتـــكبر الصلف — عن ذلة المقهور فى الحرب
ووهمت ناراً ذات إيمـــاض — فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لمحة الماضى — فوثبت تمسك بارقاً لمعـــا
والأرض ضاق فضاؤها الرحب — وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهـــوى وتفرق الصحب — وبقيت وحدك أنت والزمن

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لاخترنا أكثره ، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب ، ولكنْ تعاقب الشمس على أيامها : تظهر جديدة الجمال فى كل صباح ، لأن وراء الصباح مادة الفجر ، وكذلك تأتى القصائد من نفس شاعرها .

* * *

المقتطف والمتنبي[1]

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلهن أولادُه وأحفاده ؛ وهو كالجدّ الأكبر : زمنٌ يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفرادٌ لا يُلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه فى الذات التى تفرض إجلالها فرضًا وتجب لها الحرمة وجوبًا ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق .

وهل الجد إلا أبوَّة فيها أبوةٌ أخرى . وهل هو إلا عرش حىّ درجاته الجيل تحت الجيل ، وهل هو إلا امتدادٌ مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضيةً بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريته : واجبه الأول أن يكون دائمًا الأول ؛ فلقد أنشئ هذا المقتطف وما فى المجلات العربية ما يغنى عنه ، ثم طوى فى الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلا على أن ليس ما يغنى عنه ؛ ثم أسفّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات . . . وبقى هو على وفائه لمبدئه العلمى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أخذ عليه فى العلم والأدب ميثاقٌ كميثاق النبيين فى الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجبُ لا الغرض ، وهمُّه الإبداعُ بقوى العقل لا الاحتيال بها ، وبدَيه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف ، من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر ، فهو ماض على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل فى منزلة منزلةٍ من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه .

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبي[2] . ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف .

ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ،

---

(١) كتاب « المتنبى » للصديق محمود محمد شاكر .
(٢) يناير سنة ١٩٣٦ .

فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة ، تدلُّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ، وتنبهه فى شعوره ، وتبصِّره أشياء كانت خافية ، وكان الصدق فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفة ، وكان فيها الكذب ؛ ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التى جاءت من نفوس أعدائها وحسادها .

ولقد كان أول ما خطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كَتَب تاريخ المتنبى ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أُمعن فى القراءة حتى خيل إلىّ أنه قد وضع لشعر المتنبى بعد تفسير الشرّاح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبى نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة فى تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التى نشرها المقتطف اليوم .

إن هذا المتنبى لا يفرغ ولا ينتهى ؛ فإن الإعجاب بشعره لا ينتهى ولا يفرغ وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد فى الزمن .

وكان الرجل مطويًّا على سر أُلقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبى كالملك المغصوب الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفف والغموض ، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل .

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدَّر فى نسق عجيب ، متسلسلا بالتاريخ كأنه ولادة ونموّ وشباب ؛ وعرض بين ذلك شعر أبى الطيب عرضاً خيّل إلىّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ؛ وبذلك انكشف السر الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر الفخم ، إذ كانت فى واعية الرجل دولة أضخمُ دولة ، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الإمكان اللغوى .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبى سرُّ حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب فى ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم تُرضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل فى خمسين وجهاً من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحد فى الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه ، والأدلة التى جاء بها المؤلف تقف الباحثَ المدقق بين الإثبات والنفى ؛ ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً فى خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يُذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدّ .

ولعمرى لو كنت أنا فى مكان المتنبى من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق . . . فهناك موضع لا بد أن يبحث فى القلب الشاعر الذى وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيَه ؛ وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها . . .

* * *

محمد *

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم فى تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شىء بعمل « كريستوف كولمب » فى الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا : لم يخلق وجودها ، ولكنه أوجدها فى التاريخ البشرى ، وذهب إليها فقيل جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التى فى عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمعاناةَ والحذق والعلم حتّى انتهى إليها حقيقة ماثلة .

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدّث ، وخيال غير خيال القاصّ ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأى ، وقصد غير قصد الجدَل ؛ فخلص له الفن الجميل الذى فيها ، إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرّها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هى فى طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الإلهى محققةً عجائبها الروحانية المعجزة .

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت فى يده كما يلين الذهب فى يد صائغه ؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك فى تصنيفه حافلة بأبدع الخيال ، وأسمى الرأى ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها فى الحياة ، وجمع حوادثها المدوّنة فصوّرها فى هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسَلَة فأدارها حواراً كما جاءت فى ألسنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حيًّا يتكلم وفيه الفكرة وملائكتُها وشياطينُها ، وكشف ذلك الجمالَ الروحانى فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هى الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هى البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة فى الصدفة ، فاستخرجها فجعلها اللؤلؤة وحدها .

---

* كتاب توفيق الحكيم .

* * *

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده ؛ إذ هو الضروريّ من السيرة فى زمننا هذا ، ولا يُغْتَمَزُ فيه أنه تخريف وتزوير وتلفيق ؛ إذ ليس فيه حرف من ذلك ، ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئ منها ويصيب المصيب ؛ إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ، ولا يُرمى بالغثاثة والركاكة وضعف النسق ؛ إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم ، وكان فى عمله مخلصاً أتم الإخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كل الدقة ، حَذِراً بغاية الحذر .

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى فى شكل من أحسن أشكالها يرغم هذا الزمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة فى التاريخ الإنسانى ؛ كما أنها قرَّبت وسهلت فجعلت السيرة ،فى نصها العربى كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مربياً للروح ، مرهفاً للذوق ، مصححاً للملكة البيانية .

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم فى تاريخ الأدب العربى : إن ابن هشام كان أول من هذَّب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنياً على نسق الفن .

* * *

ديوان الأعشاب *

أبو الوفا شاعر ملء نفسه ، ما فى ذلك شك ، مذهبه الجمال فى المعنى يبدعه كأنما يزهر به ، والجمال فى الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها ، وله طبع وفيه رقة ، وهو يجرى من البيان على عرق ، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقته ، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربى بهم ، وهم قليل فى زمننا ، فإن الشعر منحدر فى هذا العصر إلى العامية فى نسقه ومعانيه ، كما انحدر التمثيل ، وكما انحدرت أساليب الكتابة فى بعض الصحف والمجلات .

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة ، ومرجعها إلى روح الإباحة الذى فشا بيننا ونشأ عليه النشء فى هذه المدنية التى تعمل فى الشرق غير عملها فى الغرب ؛ فهى هنـــاك رخص وعزائم ، وهى هنا تسمُّح وترخُّص ، فى ظل ضعيف من العزيمة ؛ وإهمالُ البلاغة العربية الجميلة كما هى فى قوانينها ليس إلا مظهراً لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى ، من إهمال الخلق ، وسقوط الفضيلة ، وتخنث الرجولة ، وزيغ الأنوثة ، وفساد العقيدة ، واضطراب السياسة ، إلى ما يجرى هذا المجرى مما هو فى بلاغة الحياة المبينة كالمرذول والمطرح والسفساف فى بلاغة الكلام الفصيح ؛ كل ذلك فى مواضعه تحلُّل من القيود وإباحة وتسمح وترخص ، وكل ذلك عامية بعضها من بعض ، وكل ذلك لحن فى البلاغة والخلق والفضيلة والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة .

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) فى الجرائد ، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر ؛ وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف ، وأخضعت أذواق كتابها لقوانين التجارة ، فإنهم لينشرون بعض القصائد كما تنشر (الإعلانات) : لا يكون الحكم فى هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة ، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن !

---

* للشاعر المجيد محمود أبو الوفا ، وهذا المقال كان حديثاً مع بعض الأصدقاء عن الديوان ونشر فى الرسالة الغراء (قلت : وانظر « حياة الرافعى » ص ١٨٩ — ١٩١) .

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه ، أننا نرى فى صدر بعض الجرائد أحيانًا شعراً لا يكون فى صناعة الشعر ولا فى طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه، ولا أدل على فساد الذوق الشعرى ، ولكنه على ذلك الأصلِ الذى أومأنا إليه يعد كلامًا صالحًا للنشر ، وإن لم يكن صالحًا للشعر .

وهكذا أصبحت العامية فى تمكنها تجعل من الغفلة حذقاً تجاريًّا ، ومن السقوط علوًّا فلسفيًّا ، ومن الركاكة بلاغة صحفية ، ومتى تغير معنى الحذق ، وداخلته الإباحة ، ووقع فيه التأويل ، وأحيط بالتمويه والشبه — فالريبة حينئذ أخت الثقة ، والعجز باب من الاستطاعة ، والضعف معنى من التمكين ، وكل ما لا يقوم فيه عذر صحيح كان هو بطبيعة التلفيق عذرَ نفسه .

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو فى رأيى صناعة احتطاب من الكلام . . وقد بطل التعب إلا تعب التقشش والحمل ، فلم تعد هناك صناعة نفسية فى وشى الكلام ، ولا طبع موسيقى فى نظم اللغة ، ولا طريقة فكرية فى سبك المعانى ، وبهذه العامية الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه ، ويضل عن سبيله ، ووقع فيه التوعر السهل . . . والاستكراه المحبوب . . . وصرنا إلى ضرب حديث من الوحشية ، هو الطرف المقابل للشعر الوحشى فى أيام الجاهلية ؛ فما دام الكلام غريبًا ، والنظم قلقًا ، والمأتى بعيداً ، والمعنى مستهلكًا ، والنسج لا يستوى ، والطريقة لا تتشابه — فذلك كله مسخ وتشويه فى الجملة وإن اختلفت الأسباب فى التفصيل ، وإذا كان المسخ جاهليًّا بالغريب من الألفاظ ، والنافر من اللغات ، والوحشى من المعانى ؛ وكان عصريًّا بالركيك من الألفاظ ، والنازل من التعبير ، والهجين من الأساليب ، والسخيف من المعانى ؛ ثم بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد — فهل بعض ذلك إلا من بعضه ؟ وهل هو فى الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذى مسخه الله فسلخه من معان كان بها إنسانًا ، ليضعه فى معان يصير بها قرداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه ، وليس معه إلا بقية الأصل ؟

فالقردية الشعرية ، والخنزيرية الشعرية ، متحققان فى كثير من الشعر الذى ينشر بيننا ؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونهما إلا كمالاً فى تطور الفن والعلم والفلسفة ؛ وأنت متى ذهبت تحتج لزيغ الشعر من قبل الفلسفة ، وتدفع

عن ضعفه بحجة العلم ، وتعتل لتصحيح فساده بالفن — فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر قردى خنزيرى ، لم يستو فى تركيبه ، ولم يأت على طبعه ، ولم يخرج فى صورته ؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه ، ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به .

* * *

والشاعر أبو الوفا جيد الطريقة ، حسن السباك ، يعول على فكر وقريحة ، ويرجع إلى طبع وسليقة ، ولكن نفسه قلقة فى موضعه الشعرى من الحياة ؛ وفى رأيى أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعرى الذى تضعه الحياة فيه ؛ والكلام يطول فى صفة هذا الموضع ، ولكنه فى الجملة كمنبت الزهرة : لا تزكو زكاءها ولا تبلغ مبلغها إلا فى المكان الذى يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة ، فلا يقطعها عن شيء ولا يرد شيئاً عنها ؛ إذ هى بما فى تركيبها وتهيئتها إنما تتم بموضعها ذاك لتهيئته وتركيبه ، فإن كانت الزهرة على ما وصفنا ، وإلا فما بد من مرض اللون ، وهرم العطر ، وهزال النضرة ، وسقم الجمال .

ولولا أن الحكمة وفت الأستاذ أبا الوفا قسطه من الألم . ووهبته نفساً متألمة حصرتْها فى أسباب ألمها حصراً لا مفرّ منه — لفقدتْ زهرتُه عنصرَ تلوينها ، ولخرج شعره نظماً حائلا مضطرباً منقطع الأسباب من الوحى ؛ غير أن جهة الألم فيه هى جهة السماء إليه ؛ ولو هو تكافأت جهاته المعنوية الأخرى ، وأعطيت كل جهة حقها ، وتخلصت مما يلابسها — لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض المبهم ، ولكان عقلا من العقول الكبيرة المولدة التى يحيا فيها كل شيء حياة شعرية ذات حس .

ولكن ما دامت الحياة قد وزنت له بمقدار ، وطففت مع ذلك وبخست ، فقد كان يحسن به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدمعة واللهفة ، لا يعدوها ، ولا يزاول من المعانى الأخرى ما ضعفت أداته معه أن تتصرف ، أو انقطعت وسيلته إليه أن تبلغ ؛ ويظهر لى أن أبا الوفا يحذو على حذو إسماعيل باشا صبرى ، وهو شبيه به فى أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة واحدة ؛ غير أن صبرى أقبل على

نافذته ونظر ما وسعه النظر ، أما أبو الوفا فيحاول أن ينقب فى الحائط ليجعلهما نافذتين . . .

أما أنه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين والعقل ، أو المشهود والمحجب ، أو الواقع والسبب ، أو الرسم والمعنى — فتنقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعانى بسمتها المادية الترابية ، وتقع فى الشعر فتقحم بين شعر القلب العاشق ، وشعر الفكر المتأمل — شعرَ المعدة الجائعة ، وتضع بين أشواق الكون شوقها هى إلى الطعام والثياب والمال . . .

على أنه كان الأمثل فى التدبير ، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادى الذى يتلذع به ، فيحوله فيجعله باباً من حكمة السحر الشعرى بالدنيا وأهلها وحوادثها ، كما صرفه ابن الرومى من قبل فأخطأ فى تحويله ، فجعله مرة باباً من المدح والنفاق ، ومرة باباً من الهجاء والإقذاع .

ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده فى ذلك ، واتهم الدنيا ثم حاكمها ، ونص لها القانون ، وأجلس القاضى ، وافتتح المجلس ، ورفعها قضية قضية ، ثم أخذها حكماً حكماً ، تارة فى نادرة بعد نادرة ، ومرة فى حكمة إلى حكمة ، وآونة فى سخرية مع سخرية — إذن لا هتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب الآخر من سر الموهبة التى فى نفسه ، فأخرج مكنون هذه الناحية القوية منها ، فكان ولا ريب شاعرَ وقته فى هذا الباب ، وإمام عصره فى هذه الطريقة .

على أن فى صفحات ديوانه أشياء قليلة تومئُ إلى هذه الملكة ، ولكنها مبثوثة فى تضاعيف شعره ، والوجه أن يكون وجهه فى تضاعيفها ؛ وإنه ليأتى بأسمى الكلام وأبدعه ، حين يعمد إلى ذلك الأصل الذى نبهنا إليه ، فيصرف لهفة نفسه إلى بعض وجوهها الشعرية ، كقوله فى « حلم العذارى » ، وهى من بدائعه ومحاسن شعره :

ها هما عيناك تغري	ى على شتّى الظنون
فيهما بحر ومـوج	وسـهول وحـزون
ووضـوح وغموض	واضطـراب وسكون
ومعـان بينـات	ومعـان لا تبين

وتهـــاويل فنـــون من رشاد وجنـــون
وأشـــعات حيـــارى من منى أو من حنين
ليت شعرى أى سر خلف هاتيك الجفون
آه إن السر أنبـــا عنـــه ذان الطائران
حينما ما لا على غصـ نيهمـــا يعتنقان . . .

فهذه أبيات فى شعر الجمال كالمحراب ملؤه عابده . . .

النجاح وكتاب سر النجاح [١]

ما خلق الله ذا عقل من بنى آدم إلا أودع فى تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية ، ليحيا من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، ففى تركيب الإنسان قوة الرغبة فى النجاح وأن يتأتى إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه ، وفى هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويفضى منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه ، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار ، ولكنه قدر ذو رائحة قوية خاصة به يستروحها مَن تحت السماء وهو لا يزال فى السماء وبينهُ وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة ؛ ولولا أن هذه الخاصية فيه وفى الإنسان منه لما توفرت رغبة فى عمل ولا صح نشاط فى الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم .

غير أن فى الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلا ، فإذا هى تضل ولا تهدى وكانت تهدى ولا تضل ، وإذا هى زائغة عن الحق ملتوية عن القصد وكانت هى السبيل إلى الحق وهى الدليل على القصد ؛ وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث : العجز ، وضعف الهمة ، واضطراب الرأى .

فأما العجز فمنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعوده ولكنه غائر فيها بأصول حياته ، وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذى لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود ، إذ هو يولد ويكدح ويكد ليكون لحماً وعظماً وصوفاً ووبراً وشعراً أثاثاً ومتاعاً ، وكأنه ضرب آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة .

وأما اضطراب الرأى فمنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كلتيهما موقعها ، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأى فى لغة العقل معان ثلاثة لكلمة واحدة هى الخيبة ، وما أسرار النجاح إلا الثلاثة التى تقابلها وهى القوة والعزيمة والثبات .

---

(١) المقطم : مايو سنة ١٩٢٣ .

ولكنّ في هذا الإنسان طفولةً وشباباً ، وهما حالتان لا بد منهما ، وهما من لضعف والنزق بطبيعتهما ، وفيهما يتثاقل الإنسان إلى أغراضه ، ويرتد عن صعابها ، وينخذل دون غاياتها ؛ وليس يأتى للطفل أن يدرك الرجلَ فى معانيه ، ولا للشاب أن يبلغ الحكيم فى كماله ؛ فكأن هذين ليس لهما أمل فى أسباب النجاح ، وكأن كليهما لا يحسن أن يطوى فؤاده على شيء ولا أن يجمع رأيه على أمر ، غير أن من حكمة الله ورحمته أنه أرصد من نواميسه القوية لضعف الطفولة ونزق الشباب ما هو سناد يمنع ، وموئل يعصم ، وقوة تصلح ؛ وهو ناموس القدوة الذى يتمثل فى الأب والأم والصاحب والعشير والمعلم والكتاب ؛ لأن الله جلّت قدرته يَبُثُّ فى الخلق ما يوجههم دائماً إلى الاعتقاد ويحملهم عليه ويبصّرهم به ، حتى كأن الحياة كلها إنما هى ممارسة لفضيلة الإيمان به من حيث يدرى الإنسان أو لا يدرى .

وكتاب سر النجاح الذى ترجمه أستاذنا العلامة الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٨٨٠ ، وظهرت طبعته الرابعة فى هذه الأيام ، هو والله فى باب القدوة ناموس على حدة ، وما رأيت كتاباً تلاءم نسجه واستوت أجزاؤه ووضع آخره على أوله وانصبّ كله إلى الغرض الذى كتب فيه وجاء مقطعاً واحداً فى معناه وفائدته — كهذا الكتاب الذى يعلم الضعيف كيف يقوى ، والعاجز كيف يعتمد ، والمضطرب كيف يثبت ، والمحزون كيف يأمل ، واليائس كيف يثق ، والمنهزم فى الحياة كيف يقبل ، والساقط كيف ينتهض ؛ ويعلمك مع ذلك كيف تريح الكد بالكد ، وكيف تسقط التعب بالتعب ، وكيف تمضى عزيمتك وتعتقدها وتضرب كرة الأرض بقدميك وإن لم تكن ملكاً ولا قائداً ولا فاتحاً ، وإن كنت من صميم السوقة ، وإن كنت من فقرك وراء عتبة واحدة ؛ لا أقول إن هذا الكتاب علم ، فإن هذا القول يستغط به دون منزلته ولا يعدو فى وصفه أن يجعله مجموعاً من الورق الصقيل على طبع جيد ، مع أنه مجموع من الأرواح والعزائم وأعصاب القلوب ؛ ولكنى أقول فى وصفه العلمى إن المدارس تخرج من الكتب تلاميذ . . . وهذا الكتاب يخرج من التلاميذ رجالا أقوياء أشداء معصوبين عصيب جذوع الشجر العاتى ، من قوة النفس وصلابتها وصحة العزيمة ومضائها ، وتصميم الرأى

ونفاذه ؛ ومما يعطى من قوة الصبر والثبات ومطاولة التعب إلى أبعد حدود الطاقة الإنسانية .

وما تقرؤه حتى قراءته وتستوفيه على وجهه من التدبير والإمعان إلا خرجت منه وقد وضع فى نفسك شيئاً أعظم من نفسك كائناً من كنت وكيف كنت . فإن تكن طفلا خرجت رجلا ، وإن كنت رجلا خرجت حكيماً ، وإن كنت حكيماً استحدث فى نفسك ما يجعلك بالحكمة فوق الدنيا وكنت بها فى الدنيا .

قال الأستاذ المترجم فى مقدمته : « أشهد لأبناء وطنى أننى لم أنتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب » . وهذه هى الكلمة التى لا يقول غيرها من يقرأ « سر النجاح » ، ولا يمكن أن يقول غيرها ؛ إذ هو مبنى فى وضع من فائدة النفس وما يرهف حدها ويبتعث ملكاتها ويستنهض قواها ويستنفد وسائلها على ما يشبه القواعد التى لا تؤدى إلا إلى نتيجة واحدة من أين اعتبرتها ، كاثنان واثنان أربعة . وثلاثة وواحد أربعة ، وأربعة وحدات أربعة ، وهلمّ جرًّا . . .

تلك شهادة المترجم ، أما أنا فأشهد لقد عرفت منذ زمن طالباً فى الأزهر ، فلما تعرّف إلىّ جعل يشكو ويتبرم وينفض لى نفسه ويقول : الأزهر وعلومه وفنونه ومسائله ومشاكله ، والمتون وما فيها ، والشروح وما إليها ، والحواشى وما يرد ويعترض ويجاب به ويقال فيه ، وكل كلمة بساعة من العمر . وكل سطر بيوم ، وكل جزء بسنة ، وتركت ورائى كذا وكذا فداناً وأقبلت على كذا وكذا علماً ، فلا حصدت من هــذه ولا من تلك ! قلت : وما يمسكك والباب مفتوح ولا يسألك الأزهر إلى أين ولا تسألك الدنيا إذا خرجت إليها من أين ؟ قال : والله ما ربطنى إلى هذه الأعمدة خمس عشرة سنة كاملة على يأس ومضض إلا كتاب سر النجاح ، وما أمضيت نيتى مرة على وجه من وجوه العيش إلا رأيت هذا الكتاب قد ضرب وجه هذه النية فردها إلى هذا المكان وألقاها فى هذا المستقر . وما هممت بترك الأزهر إلا انتصب فى وجهى كل الأبطال الذين قرأت أخبارهم فيه وأمسكونى ، لا من يدى ولا من رجلى ، ولكن من اعتقادى وإيمانى وأملى !

قلت : فوالله لا يدعك حتى تنجح ، وما ربط الله على قلبك بهذا الكتاب وثبت فؤادك باليقين الذى فيه إلا وقد كتب لك الخير كله .

أبو تمام الشاعر

تحقيق مدّة إقامته بمصر [١]

لم يبق بُدٌّ من أن نبالغ بالكلام فى هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه ، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته ، وننتهى من خاصته إلى برهانه ؛ فإن علماء الأدب قديمًا وحديثًا ألقوا خبر أبى تمام كلامًا مرسلا يجرى فى الرواية على طرقها المختلفة ، لا على التاريخ فى وجهه المتعين ، ويؤخذ على أنه خبر كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على ما يجىء ، إذ لم يكن يعنيهم من الشاعر إلا شعره ، يحملونه عنه أو يأخذونه من رواته أو يجدونه فى ديوانه ؛ أما أخبار الشاعر فهى لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة ، فتجتمع لهم كما تجتمع ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزيد والتلفيق ، وما يكون فيها مما يظاهر بعضه بعضًا أو ينقضّ بعضه على بعض ؛ والمحقق منهم من يروى الصدق والكذب معًا ليخرج من التبعة ، فلا بد من تبعة فى أحد النقيضين ؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما كما صنع ابن خلكان فى سياقه خبر أبى تمام وهذا نص عبارته :

كانت ولادة أبى تمام . . . بجاسم وهى قرية بين دمشق وطبرية ، ونشأ بمصر ، قيل إنه كان يسقى الماء بالجرة فى جامع مصر ، وقيل كان يخدم حائكًا يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها .

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتفى من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما ؛ فإن الراوية متى افتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دل على أن هذا الخبر غير مقطوع به ؛ إذ تسمى هذه الصيغة عندهم صيغة التمريض ، فهى لا تفيد الصحة ولا الجزم بها ؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر وبدمشق فى وقت معًا .

---

(١) لما أنشأ المؤلف مقاله عن شوقى (رحمه الله) غضب من غضب من أدباء مصر ، وزعموا أنه يقصد الغض من مكانة (مصر الشاعرة) ، ورماه من رماه فى وطنيته ، وحاول بعضهم أن يرد عليه رأيه فى الشعر المصرى بتعداد شعراء مصر العربية ، واستتبع شىء شيئا فجاء ذكر أبى تمام وما قالوا عن إقامته فى مصر ؛ فأنشأ المؤلف هذا المقال ، وانظر ص ١٤٦ — ١٤٧ « حياة الرافعى » .

وابن خلكان قد وقف على الكتاب الذى عمله الصولى فى أخبار أبى تمام ونقل عنه ، وهو المرجع فى هذا الباب ؛ فلا بد أن يكون هذا الكتاب قد خلا من تحقيق هذه الرواية ، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بتة، فلم يذكر أن نشأة أبى تمام كانت بمصر ؛ لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يشر إليها بحرف ، مع أنه ينقل عن الصولى نفسه ويقول فى كتابه (أخبرنى الصولى) ، وكذلك أهملها صاحب مروج الذهب ، وهو ينقل أيضًا عن الصولى ؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفًا يومئذ ، وإلا فما هو التاريخ عند أبى الفرج والمسعودى إن لم يكن هو هذا ؟

ولكنْ ذُكرت الرواية فى كتاب الأنبارى (طبقات الأدباء) ، واقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمصر ، وأنه كان يسقى الماء بها ، ولم يذكر رواية عمله بدمشق ؛ والأنبارى متأخر توفى سنة ٥٧٧ ، فهو بعد موت أبى تمام بثلاثة قرون ونصف ، فلا قيمة لروايته ، وشأنه شأن غيره من الناقلين ؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد صنعت فى مصر نفسها للغض من أبى تمام والزراية عليه ، وبقيت مروية فيها ثم حملت كما تحمل كل رواية لذاتها لا لتحقيقها ، سواء أكانت موجهة على الحق أم معدولا بها عنه ؛ ولا أوضعَ فى المهنة من سقاية الماء فى الجامع بالجرة ، ولعمرى ما ذكرت (الجرة) هنا عبثاً؛ والغلو فى التحقير هو بعينه الدليل على الكذب ، فهذه الكلمة كأثر المجرم فى جريمته . . .

وبعد فإنا نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمصر ، وأنه ولد وتأدب فى الشام ثم قدم إلى مصر شاعراً ناشئًا يتكسب بأدبه كما قدم عليها غيره من الأندلس والمغرب والشام والعراق ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا فى ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر القائد العظيمْ ، وقد جُعلت له ولاية مصر والشام والجزيرة فى سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين ، وكانت سن أبى تمام يومئذ بين ٢١ و ٢٣ سنة ؛ وقد كان ابن طاهر مغناطيسًا للشعراء فى كل مكان ينزله ، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مصر :

يقول رجال إن مصر بعيدة … وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال نراهم … بحضرتنا معروفهم غير ظاهر
عن الخير موقى ما تبالى أزُرتَهم … على طمع أم زرت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مصر ، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان فى سنة ٢٢٠ ، وهى السنة التى وضع فيها أبو تمام أو فى التى تليها كتاب الحماسة كما حققناه ولا محل لذكره هنا .

ونحن نسوق أدلتنا على صحة ما ذهبنا إليه فى نفى أن يكون أبو تمام قد نشأ بمصر أو جاءها طفلا . أو تكون منها طبيعته فى الشعر ، أو يكون لها أثر فى عبقريته :

١ – المجمع عليه بلا خلاف أن الشاعر ولد فى الشام ، وما دام كذا لقد قالت الطبيعة كلمتها فى أصل نبوغه وعبقريته ، فإن الأديب يولد ولا يُصنع كما يقول الإنجليز ؛ وكل العلماء يعرفونه بالطائى ! ولا يطعن فى نسبه إلا من لا يحقق ، وهو نفسه يباهى بطائيته ، وذلك كالشرح على كلمة الطبيعة فى أسباب نبوغه الوراثية ؛ وقد تنقل الرجل بين مصر والشام والعراق وخراسان وأرمينيا وغيرها ، فما بلد أولى من بلد بأن يكون مثار عبقريته .

٢ – إن الشاعر إنما يتكسب من شعره يمدح من يهتز له أو يعطى عليه ، ولم يمدح أبو تمام أحداً من أهل مصر ؛ فإن كان مدح فيها عبد الله بن طاهر فإنما إليه قصد وله جاء ؛ وابن طاهر ليس مصرياً ، وقد جاء إلى مصر ورجع منها قبل أن يحول عليه الحول ، فلو أن نشأة هذا الشاعر كانت بمصر وتأدبه كان فيها لأصبنا له مدحاً كثيراً فى أعيانها وعلمائها ؛ إذ هو متى قال الشعر لا يتكسب إلا منه ؛ وفى ديوان الشاعر هجاء لابن الجلودى نظمه فى مصر ، ولكن ابن الجلودى ليس مصرياً ، بل هو قائد من قواد المأمون ، ولاه محاربة الزط سنة ٢٠٥ ، ثم أقدم بعد ذلك مصر ، ثم ولى عليها فى سنة ٢١٤ ؛ فكل المصرية فى شعر أبى تمام هى فى هجائه للشاعر المصرى يوسف السراج ، ولعلها فى بعض مقاطيع أخرى من الغزل أو الوصف .

٣ – ولد أبو تمام فى سنة ١٨٨ أو ١٩٠ ، ومن الثابت أنه كان بمصر فى سنة ٢١٤ ، حين نظم قصيدته الدالية والنونية فى رثاء عمير بن الوليد – وعمير هذا ليس مصرياً ، بل هو من خراسان ، وكان بمصر عاملا لأبى إسحق المعتصم ابن الرشيد – فلو كان أبو تمام قد جاء إلى مصر طفلا كما يقال لكانت مدة

قوله الشعر فيها لا تقل عن عشر سنوات ، مع أن كل ما نظمه وهو فيها لا يبلغ عشر قصائد ؛ وهذا ديوانه بين أيدينا وإليه وحده المرجع فى الدلالة على صاحبه .

٤ ـ روى المرزبانى فى الموشح عن العباس بن خالد البرمكى قال : أول ما نبغ (أى قال الشعر) أبو تمام الطائى أتانى بدمشق يمدح محمد بن الجهم فكلمته فيه فأذن له ؛ فدخل عليه وأنشده ، ثم خرج فأمر له بدراهم يسيرة ، ثم قال : إن عاش هذا ليخرجن شاعراً .

فهذا نصٌّ على أن الشاعر لم يكن يومئذ إلا فى ابتداء الشعر ، ولم يكن قد خرج شاعراً بعد وكان شعره من الطبقة التى يثاب عليها (بدراهم يسيرة) . وأبو تمام بعد ذلك هو نفسه الذى نثر عليه عبد الله بن طاهر ألف دينار فترفع أن يمسها وترك الخدم ينتهبونها ، وكان ذلك سبباً فى تغير ابن طاهر عليه .

٥ ـ نقل ابن خلكان فى ترجمة ديك الجن الشاعر الحمصى المشهور ، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدى قال : كنت جالساً عند ديك الجن ، « يعنى بحمص » ، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاّه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره ، فسلمه إليه وقال : يا فتى تكسَّب بهذا واستعن به على قولك . فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من أهل جاسم ، يذكر أنه من طيئ ، يكنى أبا تمام ، واسمه حبيب بن أوس ، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع . فهذا نص آخر على أن أبا تمام كان يومئذ حدثا ـ أى غلاماً ـ وكان لا يزال يطلب الأدب ، وقد أعانه أستاذه بنسخ من قصائده يتخرج بها ويحذو عليها ؛ فهو قد نشأ فى الشام وتأدب فيها .

٦ ـ نظم أبو تمام قصيدته اللامية « أصب بحميا كأسها مقتل العذل » يصف تقتير الرزق عليه بمصر وخيبة أمله الذى أمله من المال ، وفى هذه القصيدة يحن إلى الشام ويستسنى لها ويذكر أرض البقاعين وقرى الجولان التى نشأ فيها ؛ ولا يحن الشاعر لأرض إلا إذا كان فيها حبه أو شبابه وأدبه ، أما الطفولة فمنسية بآثارها ، إذ لا آثار لها فى النفس متى شب المرء إلا بعيداً بعيداً ، وإنما الحنين لما تتعلق به الغريزة المميزة .

٧ — فى هذه القصيدة يقول أبو تمام يخاطب أحبابه :

عدتنىَ عنكم مُكرهًا غُربة النوى لها وطر فى أن تمرّ ولا تُحلى

والنوى فى لغة الشاعر هى رحيله للتكسب بشعره ؛ ولما رجع عوف بن محلم الشيبانى إلى وطنه بعد وفادته على عبد الله بن طاهر فى خراسان ؛ سئل عن حاله فقال : رجعت من عند عبد الله بالغنى (والراحة من النوى) ؛ ويؤيده قول أبى تمام فى قصيدته تلك :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فأمتع ، إذ فجعت بالمال والأهل

يعنى أنه اغترب مكرهًا يطلب الكسب لا غير ، ولا كسب للشاعر إلا من شعره ، فهو بنص كلامه عن نفسه قدم إلى مصر شاعراً يتكسب ويتعرض للغنى كما يصنع غيره .

٨ — فى هذه القصيدة اللامية يقدم لنا أبو تمام رحمه الله دليلا يأكل الأدلة ، كأنما أُلهم من وحى الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يومًا لندفع به عنه ؛ فهو يحن إلى حبيب له فى الشام ، ويقول إن غربة النوى التى وصفها :

أتت بعد هجر من حبيب فحركت صبابة ما أبقى الصدود من الوصل
أخمسة أحوال مضت لمغيبـه ؟ وشهران بل يومان ثكل من الثكل !

يعنى أنه قال هذا الشعر وقد مضى على إقامته فى مصر خمس سنوات ، وكان قد جاء من الشام عاشقًا ذلك العشق الذى فيه (الصدود والوصل) ؛ والطفل لا يحب مثل هذا الحب ولا يحن ذلك الحنين ؛ فإذا كان الشاعر قدم إلى مصر فى سنة ٢١٠ ، كما رجحناه ، وسنُّه بين ٢١ و ٢٣ سنة ، فيكون قد نظم هذه القصيدة فى سنة ٢١٥ ، وعمره يومئذ بين ٢٦ و ٢٨ سنة ؛ فلو أن أبا تمام جاء من الشام طفلا صغيراً فكيف للطفل أن يقول مثل هذا الشعر بعد خمس سنوات ؟ وما هجر الحبيب « وصبابة ما أبقى الصدود من الوصل » ؟

٩ — مدح شاعرنا محمد بن حسان الضبى بقصيدة نونية يذكر فيها تنقله فى البلاد فقال منها :

بالشام أهلى ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقمتين ، وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بى أقصى خراسان !

فأنت ترى أنه جعل أهله بالشام ، وجعل أصدقاءه بمصر ؛ فلو أنه كان قد نشأ بها لجعل بها أهله ؛ إذ لا ينشأ إلا مع أبيه وأمه ؛ والبيت الثانى دليل منه هو على أنه لم ينزل بمصر مقيماً ولا متوطناً ، بل متنقلا كما نزل بغيرها .

١٠ — تقول كتب الأدب فى مدارس الحكومة : إن أبا تمام نقل إلى مصر صغيراً فنشأ بها (وقد بيّنا فساد ذلك) ، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتصم؛ وهذا غير صحيح؛ فإن أبا تمام خرج من مصر قبل أن يدخلها المأمون فى سنة ٢١٦ ، حين جاءها وقتل بها عبدوس الفهرى ؛ فلو كان الشاعر يومئذ لمدح المأمون وذكر هذه الواقعة ؛ والمعتصم ولى الخلافة سنة ٢١٨ ، وديوان أبى تمام يثبت أنه فى سنة ٢١٧ ، كان بالعراق ، وقد مدح المأمون بقصيدته الميمية ، وذكر فى مدحه وقعة الروم ، وهذه كانت فى تلك السنة .

يخلص من كل ما تقدم أن أبا تمام ولد فى الشام وتأدب فيها ، وقدم إلى مصر كبيراً يتكسب بالشعر ، فأقام بها بين خمس سنين وست ، ولم يجد له عيشاً بها بعد **قتل عمير بن الوليد** الذى قتل فى سنة ٢١٤ ؛ فإنه كان يعيش فى كنفه ، **وقد صرح فى قصيدته النونية التى رثاه** بها أنه يأمل من بعده فى ابنه محمد .

فقدوم الشاعر إلى مصر كان فى سنة ٢١٠ أو حواليها ، وخروجه منها كان فى سنة ٢١٥ أو حواليها ، والله أعلم .

القديم والجديد [١]

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين « فى رفق ولين » وفى عجلة أيضاً : إنى فى هذه الأيام ضنين بما أملك من وقتى أشد الضن ، أحسب السماء تتفجر من يومى فى ساعة كالفجر ، فلا يصرفنى عن تلك الساعة شىء ولا يصرفها عنى شىء ؛ إذ بين يدى كتاب فى الرسائل أعمل فيه واستعين الله على الفراغ منه فى وقت معين ، وقد أظلّ أو كاد ؛ فلا يرين الأستاذ أنى أستطير هذه المرة كالطيرة الأولى ، فإن جناحى فى فضاء آخر ، وإن هذا الكتاب الذى أعالجه لا يجشمنى عرقاً من القربة كما قالوا قديماً ، بل لعله فى ألمه أشبه « بعملية » تشريح فى القلب ، وستذهب الدقائق التى أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفاً عليها ، لأنها ذاهبة بصفحتين من كتابى .

وأما بعد فلا أرى من الإنصاف أن يعمد الدكتور إلى جمل يقتضبهن من مقالى فى مجلة الهلال ثم يهدفها للرد ، وكان عسى أن يدفع عنها شىء مما قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتى بها فى سياق يبين عن معناها .

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامى هذه الجملة « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . . » ، ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة ، بل جعلها من قبيل « قصة وقضية » . . . فتراه يقول : ذوق هو الفهم ، وفهم هو الذوق ، وفهم ليس بالذوق ، وذوق ليس بالفهم ، وهلم صاعداً ونازلا ؛ وضرب لنا مثلا بالموسيقى فقال : « ما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً » . وأنا أفسر كلامى بهذا المثل نفسه ، أقتصر عليه ولا أعدوه .

---

(١) نشرها حين المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين حول كتابيه : « رسائل الأحزان » ، و « السحاب الأحمر » ؛ وللدكتور طه فيهما وفى أسلوبهما رأى .

وانظر كتابى : « المعركة تحت راية القرآن » ، و « حياة الرافعى »

نأتى الآن بأستاذ قد برع فى الموسيقى وخالطت أعصابه ولحمه ودمه ، وندفع إليه قطعة ملحنة ونقول له : اسمع وافهم واحكم وانتقد ؛ يسمعها مرة بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صوابًا وما يكون خطأ ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجادة والإتقان ، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط ؛ فهذا هو الفهم .

ويسمعها مرة ثانية بحسه أو لحسه ، فيرى أثر ما فهم ، ويديرها فى ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذى وضعت له ، فإنها لم توضع لتكون أصواتًا ، بل لتخلق من الأصوات شيئًا ؛ فهذا هو الذوق ، وهو كما تراه بعد الفهم وناشئ عنه . ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول : إن الذوق فى شىء إنما هو فهمه ، أو إنما هو عن فهمه ، أو إنما ينشأ عن فهمه ، فالعبارة فى باب المجاز واحدة لا تختلف .

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين ، أو مرة كمرتين إن بلغ أن يكون له فى كل أذن واحدة أذنان ، يستفتى ذوقه الفنى ويحكم للقطعة أم عليها ؛ فهذا هو أثر الذوق .

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وجزم برأيه ، فندب له فلان يقول : أخطأت وأسأت وجهلت وغفلت ، أو تعصبت وحططت فى هوى صاحب اللحن ؛ فمن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول ؟ بل كيف ساغ للثانى أن يجهّل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه ، إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فأنشأ له الفهم ذوقًا وأحدث له الذوق حكمًا وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التى نسميها النقد ، وما هى فى الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعًا . فالذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقر فى نفوسهم من أساليب التطريب وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة ؛ أو لا تراهم يقولون فى أمثال هؤلاء إن لهم آذانًا موسيقية ؟ فهذه الأذن هى الفهم بعينه ، لأنها حاسة اجتمعت من مران طويل ، وقد تقوم فى بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام علم برأسه .

ويقول الأستاذ طه إنه قد يقرأ كلامى ويفهمه ولا يذوقه ، ولكن عدم الذوق هنا هو الذوق ؛ وليت شعرى ما معنى قول المتنبى : « ومن يك ذا فم مر . . . . . . » .

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم فى هذا القياس المتر والكيلومتر ، لوجب ألا أجد من يذوق كلامى ويعجب به ويغالى فيه ويكون ذنبًا من ذنوبى عند الله بإسرافه فى المغالاة ، وأنا واجد بكل واحد مثل الأستاذ طه عشرة ومائة من غيره ، ولو خرج هو إلى العالم لرأى وسمع ، وفيهم من هم أعلى منه كعبًا وأمدّ عنقًا وأضخم هامة وأبدع بديعًا وأبلغ وأزكى وأعلم إلى عدد من هذه الواوات .

وعجبت للدكتور يريد أن لا يفهم من عبارتى كما يقول إلا أن « الذوق هو نفس الفهم ، فاللفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن وإذن وإذن . . . »

فهل يرى إذا قلت له : رأيت القمر وفلانة ليلة كذا فكانت إنما هى القمر — أنى أقصد بهما معنى واحداً فيقول لها : « وإذن » فليسا شيئين مختلفين وإنما هو شىء واحد ، وإذن فكيف صار لها وجه فى السماء ووجه فى الأرض وبقيت مع ذلك امرأة من الإنس ؛ وإذن فهذا كلام لا يفهم . . .

قال بعضهم إن « لو » تفتح عمل الشيطان ، يريد أنها أداة التمنى ، والمذهب الجديد سيضم « إذن » إلى « لو » ، ثم ما هى الكلمة الثالثة يا ترى ؟

أنا مع إعجابى بالدكتور الفاضل أرى أنه مستهتر بأشياء ، وأن من خلقه أن ما لا يرضى عنه وما لا يفهمه « ليسا شيئين مختلفين » . فإذا لم يكن من الفهم بد قال إنه لا يقتنع ، فإذا ضايقته وضيقت عليه لم يبق إلا ما يقول النحاة فى « أىّ » التى حيرهم إعرابها وبناؤها : أى كذا خـُلقت . . .

وأنا وأمثالى إنما نحرص أشد الحرص على هذه اللغة لأنها أساس الأمة الإسلامية فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتًا متينًا لا يزعزعه شىء ولا يثلمه شىء ولا يضعفه شىء ؛ والدكتور وأمثاله لا يبالون أن تكون هذه الأمة كبيوت أمريكا المتحركة . . .

لست أنكر التجديد ، بل لعل الدكتور يذكر مناقشتى إياه فى (الجريدة) وإصراره يومئذ أن ليس لأحد أن يُدخل فى اللغة كلمة ، وأن قول الناس تنزه ومتنزه ونزهة إلخ كلها من الكلام العامى ، وتعلـُّقه بنص ابن سيده فى ذلك ، واستخراجى له نص ابن قتيبة وكلامًا كثيراً من استعمال العلماء ، ثم قولـَه

أحسنت ، ولكن لو جئتنى باللفظة فى كلام المبرد والجاحظ وفلان وفلان ما اقتنعت .

إنما أنكر شيئاً واحداً ، وهو أن يقال مذهب قديم ومذهب جديد ؛ فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، ولكن أصحابنا يريدون ألا نكتب إلا نمطاً بعينه ، ولا نذهب إلا مذهباً بعينه ؛ لأن كل ذلك هو الجديد ؛ فأيهما خير لنا ولهم وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتد اللغة والأدب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونُحكم هذه اللغة ونحفظها وندفع عنها ونجعل تجديدها كتجدد الحسناء فى أثوابها وفى ألوانها دون تشويه ولا مسخ ولا مس الجسم الجميل ، أم نقول : هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتلىء الخدل وهذا الموضع الهضيم الناحل وتعال يا دكتور هات المبضع والمشرط والمقص والمنشار والإبرة والخيط وإذن . . . . . . ؟

لقد أذكر أنى رأيت فى بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو فى بعض ما يقرظ به الكتب أنه قال إن القديم قد أثبت دائماً أنه أقوى وأمتن وأصح ؛ فهل رجل عن هذا الرأى أم ظهر له فى الجديد ما هو أقوى وأمتن وأصح ؟ ثم يا أيها الملأ أفتونى ما هو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون ، أم تلك الشهوات المتوثّبة المتلهفة ، أم ذلك الأسلوب الفج المستوخم ، أم العامية السقيمة الملحونة ؛ أم هو فى الحقيقة بين رغبة فى النبوغ قبل أن تتم الأداة وتستحكم الطريقة ، كما هو شأن فريق من الكتاب ، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هى المذهب الجديد — وبين رغبة فى التعصب للآداب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر — وبين رغبة فى الحط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به ، كل ذلك فى تعبير علمى يصح أن يكون نظرية علمية . . . وقبلهم قالها العرب فى القرآن الكريم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ! فقد شاءوا فلم يقولوا ؛ ولو أن المذهب الجديد فسر القرآن يوماً . . . لقال فى معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا بها المذهب القديم . . .

ويقول الدكتور طه إن هناك قوماً ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ؛ ثم

طلب رأيى فى هؤلاء وما أصل مذهبهم الجديد ؛ فأقول : إنى أعرف بعضهم ، وأعرف أن أدمغتهم لا يشبهها شيء إلا جلود بعض الكتب التى ليس فيها إلا متن وشرح وحاشية : جلد ملفوف على ورق ، وورق ينطوى على قواعد محفوظة ، وهم أفقر الناس إلى الرأى ؛ وهذه علة حبهم للأساليب الجديدة القائمة على الترجمة ونقل الآراء من الغرب إلى الشرق ، وبالمعنى الصريح المكشوف : من الأدمغة المملوءة إلى الأدمغة الفارغة ، وفيهم بعض أذكياء ، ولكن ذكاءهم فى حواسهم ، فإن لم يكن هذا فليقولوا هم لماذا ؟

ولو أنك سألت العنكبوت : ما هى الظبية الحوراء العيناء التى تطمعين فيها وتنصبين لها كل هذه الأشراك والحبائل ؟ لقالت لك : مهلا حتى تقع فتراها ! فإذا وقعت رأيتها ثـمـّةَ ورأيتها ذبابة . . .

ولكن ماذا يقول الدكتور فى الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده ؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد فى اللغة والأدب ويفتتن بالروايات الغرامية وبأسلوب « إميل زولا » فى روايته المعروفة وبمثل رواية (ألاجـرسـُون) .

إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعنيهم .

وأختم هذه الكلمة بالشكر للأستاذ طه حسين والثناء عليه ، ثم إنى مسترسل فى عملى ، وهذا عذرى إليه .

* * *

المرأة والميراث

قرأت فى المقطم كلمة الكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت بها رأيه فى الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل فى الميراث، وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نص محاضرته فى السياسة الأسبوعية .

وقد رجعت إلى نص المحاضرة فإذا الكاتب هو هو فى ضعف تفكيره وسوء تقليده ، يكاد لا يميز بين الرأى الصحيح الثابت فى نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه ، وبين الرأى المتغير فى كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض فى النفس .

ترى الكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوربا ، وتكاد عباراته فى ذلك لا تحصى ويقول إن « المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوربا لا غش فى تقليده » ، فليس إلا أوربا وتقليدها وإذا لم يكن فى أوربا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شىء . . .

« مقلد أوربا لا غش فى تقليده » ، وما هو الغش فى التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة فى الحالين ، وأن تأبى أن تحمل على طبيعتك الشرقية ما لا تصلح عليه ولا تقوم به ؛ وإذا انقلبت أوربا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش فى التقليد . . . وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر فى بعض جهات أوربا وتطلع فى مصر كل يوم وجب أن يكون المصرى أعمى ستة أشهر . . .

والظاهر أن الكاتب يقول بالتقليد لأنه طبيعى فيه . . . ورأيه فى الميراث إنما هو ترجمة . . . لعمل مصطفى كمال ؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك فى سنوات كما يقولون ؛ فبرهان التاريخ لا يخضع للمشنقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتى إلا فى وقته الذى سيأتى فيه ، وسيرى الناس يومئذ ما يكون وهماً مما يكون حقيقة .

ويرد الكاتب على رأى الأستاذ الأخلاقى رئيس تحرير المقطم فى خشيته أن يقتصر الإصلاح على القشور دون اللباب ، فيقول إنه « معتقد أن الأمة التى تشرع فى اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور . . . لأنها أسهل عليها من اللباب

بل هى لا تستطيع غير ذلك » . أكذلك بدأت اليابان ؟ . وهل كل الطباع كطبيعة بعض الناس ، تستطيع أن تعتلف قشور المدنية . . . وتنصرف إلى مداقها وسفاسفها ؟

ولا ريب أن حضرته لا يفهم الدين الإسلامى لأنه ليس من أهله ، فهو يقرّنا على ذلك ، وهو بذلك يقرنا على أنه متطفل فى اقتراحه ؛ وإن الذى يقرأ فى محاضرته قوله : « إن الطبقة الغنية فى الأمة هى التى تقرر ديانة الأمة . . . » يستيقن أنه لا يفهم دينـًا من الأديان ، وأنه قصير النظر فى أمور الاجتماع وأبواب السياسة ؛ وأن يمينه وشماله وأمامه ووراءه إن هى إلا جهات الزمام الذى ينقاد فيه ؛ فلا شخصية له ، وإنما يتابع وينقاد للآراء التى يترجم منها بلا نقد ولا تمييز .

إن ميراث البنت فى الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العملين معـًا ، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها ؛ وهذا الدين يقوم فى أساسه على تربية أخلاقية عالية ينشئ بها طباعـًا ويعدل بها طباعـًا أخرى ، كما بيناه فى مقالنا المنشور فى مقتطف هذا الشهر[1] ـ فهو يربأ بالرجل أن يطمع فى مال المرأة أو يكون عالة عليها ؛ فمن ثم أوجب عليه أن يمهرها وأن ينفق عليها وعلى أولادها ، وأن يدع لها رأيها وعملها فى أموالها ، لا تتحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه ؛ وكل ذلك لا يقصد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملا كاسبـًا معتمداً على نفسه مشاركـًا فى محيطه الذى يعيش فيه ، قويـًّا فى أمانته ، منزهـًا فى مطامعه ، متهيئـًا لمعالى الأمور ، فإن الأخلاق، كما هو مقرر يدعو بعضها إلى بعض ، ويعين شىء منها على شىء يماثله ، ويدفع قويها ضعيفها ، ويأنف عاليها من سافلها ؛ وقد قلنا مراراً إنه لا يجوز لمتكلم أن يتكلم فى حكمة الدين الإسلامى إلا إذا كان قوى الخلق ، فإن من لا يكون الشىء فى طبعه لا يفهمه إلا فهم جدل لا فهم اقتناع .

للمرأة حق واجب فى مال زوجها ، وليس للرجل مثل هذا الحق فى مال زوجه ؛ والإسلام يحث على الزواج ، بل يفرضه ؛ فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلا ويعطيها

---

(١) . . . ؟

به حقاً جديداً ، فإن هى ساوت أخاها فى الميراث مع هذه الميزة التى انفردت بها انعدمت المساواة فى الحقيقة ، فتزيد وينقص ؛ إذ لها حق الميراث وحق النفقة وليس له إلا مثل حقها فى الميراث إذا تساويا .

فإن قلت كما يقول سلامة موسى إن فى الحق أن تنفق المرأة على الرجل وأن تدفع له المهر ثم تساويه فى الميراث ، قلنا : إذا تقرر هذا وأصبح أصلا يعمل عليه بطل زواج كل الفقيرات وهن سواد النسوة ، إذ لا يملكن مايمهرن به ولا ما ينفقن منه ؛ وهذا ما يتحاماه الإسلام لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً ؛ وهو مفض بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليوم وللوقت المحدود . . . ولإيجاد لقطاء الشوارع ، بدلا من أن يكون الزواج للعمر وللواجب ولتربية الرجل على احتمال المسئولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعى فى مصالحها .

من هنا وجب أن ينعكس القياس إذا أريد أن تستقيم النتيجة الاجتماعية التى هى فى الغاية لا من حق الرجل ولا من حق المرأة بل من حق الأمة ؛ وما نساء الشوارع ونساء المعامل فى أوربا إلا من نتائج ذلك النظام الذى جاء مقلوباً ، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسئولية المتهدمة ، وهن الواجبات التى ألقاها الرجال عن أنفسهم فوقعت حيث وقعت !

وإذا انزاحت مسئولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسئولية النسل ، فأصبح لنفسه لا لأمته ؛ ولو عم هذا المسخ الاجتماع وأسرع فيه الهرم وأتى عليه الضعف ، وأصبحت الحكومات هى التى تستولد الناس على الطريقة التى تستنتج بها البهائم ، وقد بدأ بعض كتاب أوربا يدعون حكوماتهم إلى هذا الذى ابتلوا به ولا يدرون سببه وما سببه إلا ما بينّا آنفاً .

ثم إن هناك حكمة سامية ، وهى أن المرأة لا تدع نصف حقها فى الميراث لأخيها يفضلها به — بعد الأصل الذى نبهنا إليه — إلا لتعين بهذا العمل فى البناء الاجتماعى ؛ إذ تترك ما تتركه على أنه لامرأة أخرى ، هى زوج أخيها ؛ فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة ، وأسدت للأمة عملا آخر أسمى منه بتيسير زواج امرأة من النساء .

فأنت ترى أن مسألة الميراث هذه متغلغلة فى مسائل كثيرة لا منفردة بنفسها ، وأنها أحكم الحكمة إذا أريدَ بالرجل رجلَ أمته وبالمرأة امرأة أمتها ، فأما إذا أريد رجلُ نفسه وامرأة نفسها ، وتقرر أن الاجتماع فى نفسه حماقة ، وأن الحكومة خرافة ، وأن الأمة ضلالة ، فحينئذ لا تنقلب آية الميراث وحدها بل تنقلب الحقيقة .

ومما نعجب له أن سلامة موسى يتكلم فى محاضرته كأن كل الوالدين ذوو مال وعقار ، فنصف الأمة على هذا محروم نصفَ حقه وكأنه لا يعرف أن السواد الأعظم من الناس لا يترك ما يورث ، لا على الربع ولا على النصف ؛ وأن كثيراً ممن يموتون عن ميراث لا يحيا ميراثهم إلا أياماً من بعدهم ، ثم يذهب فى الديون ، إذ لا تركة مع دين ، وكثيرون لا يسمن ميراثهم ولا يغنى ، فلم تبق إلا فئات معينة من كل أمة لا يجوز أن تنقلب من أجلها تلك الحكمة الاجتماعية التى هى من حظ الأمة كلها لقيام بعض الأخلاق عليها كما بسطناه .

ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم فى محاضرته : فلو كانت الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور ، لكان (فى ثروتهن) إغراء للشبان على الزواج . . .

إن الدين الإسلامى لا يعرف مثل هذا الإسفاف فى الخلق ولا يقره ، بل هو يهدمه هدماً ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسئولية ما دام مطيقاً إن كره أو رضى ، ولعمرى إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهى أدل من اسم المحل على بضاعة المحل . . .

* * *

كلمة مؤمنة
فى ردّ كلمةٍ كافرة(1)

تلقيت كتابـًا هذه نسخته :

أكتب إليك متعجلا بعد أن قرأت « كلمة كافرة » فى كوكب الشرق الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر ؛ كتبها متصدر من نوع قولهم : حبذا الإمارة ولو على الحجارة . . . وسمى نفسه « السيد » ، فإن صدق فيما كتب صدق فى هذه التسمية .

طعن القرآن وكفر بفصاحته ، وفضل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب ، فعقد فصله بعنوان « العثْرات » على ذلك التفضيل ، كأن الآية عثْرة من عثْرات الكتاب يصححها ويقول فيها قوله فى غلط الجرائد والناشئين فى الكتابة ؛ وبرقع وجهه وجبن أن يستعلن ، فأعلن بزندقته أنه حديث فى الضلالة .

غلى الدم فى رأسى حين رأيت الكاتب يلج فى تفضيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « ولكم فى القصاص حياة » ، فذكرتُ هذه الآية القائلة : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وهذه الآية : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض » ؛ ثم هممت بالكتابة فاعترضنى ذكرك ، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك .

فى عنقك أمانة المسلمين جميعـًا لتكتبن فى الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز فى الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها ؛ فإن هذه زندقة إن تـُركت تأخذ مأخذها فى الناس ؛ جعلت البر فاجراً ، وزادت الفاجر فجوراً : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

واعلم أنه لا عذر لك . أقولها مخلصـًا ، يمليها علىّ الحق الذى أعلم إيمانك به ، وتفانيك فى إقراره والمدافعة عنه والذود عن آياته ؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به

(1) البلاغ ٠ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ، وانظر ص ١٧٢ — ١٧٤ « حياة الرافعى ».

المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التى جعلت همها أن تلغ ولوغها فى البيان القرآنى .

ولست أزيدك ، فإن موقفى هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين وأذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سُئل علماً علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ! » أو كما قال . . .

والسلام عليكم ورحمة الله . م . م . ش

* * *

قرأت هذا الكتاب فاقشعر جسمى لوعيد النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعلت أردد الحديث الشريف أستكثر منه وأملأ نفسى بمعانيه، وإنه ليكثر فى كل مرة ؛ فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين ، والجهلاء المتعالمين ؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أن العالم الذى يكتم علمه النافع عن الناس يجىء يوم القيامة ملجماً ، ويؤخذ من باطنه أن الجاهل الذى يبث جهله الضار فى الناس يجىء يوم القيامة ملجماً مبرذَعاً . . . أى : فهذا وهذا كلاهما من حمير جهنم !

والتمست عدد الكوكب الذى فيه المقال وقرأته ، ولم أكن أصدق أن فى العالم أديباً مميزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله وأساء الأدب فى وضع آية منه بين عثرات الكتاب ، فضلا عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية ، فضلا عن أن يلج فى هذا التفضيل ، فضلا عن أن يتهوس فى هذه اللجاجة ؛ ولكن هذا قد كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولعمرى وعمر أبيك أيها القارئ ، لو أن كاتباً ذهب فأكل فخلط فتضلع فنام فاستثقل فحلم . . . أنه يتكلم فى تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعى فلم يأل تخريفاً واستطالة ، وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها فى طريق النسيان أو فى طريق الشيطان — لما جاء فى شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة « السيد » فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم ، أم وقع من جهة الخلط والخبط كما فعل كاتب الكوكب — فهذا من هذا ، طباق سخافة بسخافة . . .

نعم إن مقالة الكوكب أفضل من مقالة الكاتب الحالم . . . ولكن قليل الزيت

فى الزجاجة التى أهديت لجحا لا يعد زيتًا ما دام هذا القليل يطفو على ملء الزجاجة من . . . من البول !

ولقد تنبأ القاضى الباقلانى قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذه فأسفلها الرد بقوله :

« فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله » ما علينا . . .

يقول كاتب الكوكب بالنص :

قالت العرب قديمًا فى معنى القصاص : (القتل أنفى للقتل) ، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) ، فقال : « ولكم فى القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، وقد مضت سنةُ العلماء من أساطين البيان أن يعقدوا الموازنةَ بين مقالة العرب هذه وبين الآية الحكيمة أيتُهما أشبهُ بالفصاحة (هكذا) ، ثم يخلصون منها إلى تقديم الآية والبيان القرآنى . . . ثم قال : من رأى كاتب هذه الكلمة تقديمُ الكلمة العربية على الآية الغراء ، (اللهم غفراً) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النيابة ... وإلا فماذا بقى من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زِهْ زِهْ يا رجل . . .) .

ثم قال : إن فيما تَقَدَّم به الكلمةُ العربيةُ على الآية الحكيمة (اللهم غفراً) مزايا ثلاثًا : أولى هذه المزايا الثلاث ، هذا الإيجاز الساحر فيها ؛ ذلك أن : « القتل أنفى للقتل » ثلاثُ كلمات لا أكثر ، أما الآية فإنها سبعُ كلمات (كذا) وعلى تلك فهى أقدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل (تأمل) حاشا كلام الله القديم ، والإيجازُ ميزةٌ أية ميزة ؛ الميزة الثانية للكلمة الاستقلالُ الكتابى وفقد التعاقد بينها وبين شىء آخر سابق عليها ، حتى إن المتمثل بها المستشهد يبتدئ بها حديثًا مستتمًا ويختتمه فى غير مزيد ولا فضل ، فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها ، أما الآية فإنها منسوقة مع ما قبلها بالواو ، فهى متعاقدة مترابطة معه ، لا يتمثل بها المتمثل حتى يستعين بشىء سواها ، وليس الذى يعتمد على غيره فلا يستقل كالذى يعتمد على نفسه فيستقل ؛ الميزة الثالثة أن الكلمة ليست متصلة فى آخرتها بفضل

من القول تغني عنه ، على حين تتصل الآية بما تغني عنه من القول . ويعتد كالفصل وهو كلمتا « يا أولى الألباب » و « لعلكم تتقون » ، وإن كان لا زيادة فى القرآن ولا فضول .

ثم قال : إن مدرسًا جاءه بالفصل الذى عقده الإمام السيوطى فى كتابه الإتقان لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة ؛ قال إنها انحطت بعد أن رماها بنظره العالى إلى أربع : « أما الباقيات فمن نسج الانتحال والتزيد » ، قال : وأولاها أن الآية أوجز لفظًا ، والكاتب يرى الآية : « سبع كلمات فى تحديد ودقة » ، قال : إذاً لقد بطلت حجة الإيجاز فى الآية » (اللهم غفراً) ، قال : والثانية : « أن فى الكلمة العربية تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه » ، ورد الكاتب أن هذا التكرار : « يتحلل طلاوة ويقطر رقة ، (قال) : وهذا فمى فيه طعم العسل » ، (قلنا : وعليه الذباب يا سيدنا . . .) ، والثالثة أن فى الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده ، وليس كل قتل قصاصًا ؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفى صاحبه ، فذاك هو القصاص ؛ قال : « إذن فالكلمة والآية فى قصد القصاص يلتقيان فرسى رهان » ؛ والرابعة أن القصاص فى الآية أعم يشمل القتل وغيره ، وأقر الكاتب أن للآية فضلا على الكلمة من هذه الناحية ، ولكن الكلمة حكمة لا شريعة ، وهى من قضاء الجاهلية ، فليس عليها أن تبيّن ما لم يعرفه العرب ولم يخلق بعد ، قال : « إذن فليست الكلمة مقصرة عن بيان ، متبلدة عن إحسان » .

* * *

هذا كل مقاله بحروفه بعد تخليصه من الركاكة والحشو وما لا طائل تحته ، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا ، ولكنا نقدم بين يدى ذلك مسألة ، فمن أين للكاتب أن كلمة : « القتل أنفى للقتل » مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يثبت إسنادَها إليهم وأن يُوَثِّقَ هذا الإسناد حتى يستقيم قوله : إن القرآن أقبل على آثار العرب ؟ . . .

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من

الآية ، والتوليد بيِّن فيها ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية ؛ ولقد جاء أبو تمام بأبدع وأبلغ من هذه الكلمة فى قوله :

وأخافَكُم كى تُغمدوا أسيافكم إن الدمَ المغْبرَّ يحرسُهُ الدَّمُ

(الدم يحرسه الدم) ، هذه هى الصناعة وهذه هى البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولَّدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ؛ وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، وأنا مستيقنٌ أن الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ * .

ولو أن متمثلا أراد أن يتمثل بقول أبى تمام فانتزع منه هذا المثل « الدم يحرسه الدم » ، أيكون حتمًا من الحتم أن يقال له : كلا يا هذا فإن البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ولا بد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب فى الآية الكريمة ليزعم أنها لا تقابل الكلمة العربية فى الإيجاز ؟

إن الذى فى معانى الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم القتل أنفى للقتل كلمتان ليس غير ، وهما « القصاص ، حياة » ؛ والمقابلة فى المعانى المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التى تؤدى هذه المعانى دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا فى صناعة تركيبهما ، ويخيل إلىَّ أن الكاتب يريد أن يقول إن باقى الآية الكريمة لغوٌ وحشو ، فهو حميلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ، ولكنه غص بها ، وإلا فلماذا يلج فى أنه لا بد فى التمثل ، أى لا بد فى المقابلة ، من رد الآية بألفاظها جميعًا ؟

فإذا قيل إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب فى الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعًا منها على التلاوة ، قلنا : فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا . « فى القصاص حياة » ، وجملتها اثنا عشر حرفًا ، مع أن الكلمة العربية أربعة عشر ؛ فالإيجاز عند المقابلة هو فى الآية دون الكلمة .

---

* سنثبت هذا بعد فى تعليق على هذه المقالة .

وأما قوله تعالى : « يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، فلو كان الكاتب من أولى الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وأن إعجاز الآية لا يتم إلا بها ، إذ أريد أن تكون معجزة زمنية كما سنشير إليه ، ولكن أنَّى له وهو من الفن البيانى على هذا البعد السحيق ، لا يعلم أن آيات القرآن الكريم كالزمن فى نسقها : ما فيه من شىء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه .

ثم إن الإيجاز فى الكلمة العربية ليس من « الإيجاز الساحر » كما يصفه الكاتب ، بل هو عندنا من الإيجاز الساقط ؛ وليس من قبيل إيجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلا عن أن يشبهه ، إذ لا بد فى فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى « القتل أكثر نفيـًا للقتل من كذا » ، فما هو هذا « الكذا » أيها الكاتب المتعثّر ؟

أليس تصور معنى العبارة وإحضاره فى الذهن قد أسقطها ونزل بها إلى الكلام السوقى المبتذل وأوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعة شعرية خيالية ملفقة كما أومأنا إلى ذلك آنفـًا ، حتى إذا أجريتها على منهجها من العربية رأيتها فى طريقة هذا الكلام العربى الأمريكانى كقول القائل : « الفرح أعظم من الترح » ، « الحياة هى التى تعطى للحياة » . . . ؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التى زعمها الكاتب لتلك الكلمة ، وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلا عن ثلاث .

ولنفرض « فرضـًا » أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم ، فما الذى فيها ؟

١ — إنها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟

وهل هو إلا بلاغة من الهذيان ؟

٢ — إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام ، لا يخرج لشأنه إلا مقرراً فى نفسه أنه إما قاتل أو مقتول ، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التكرار وأفظعه .

٣ — إن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شأن العرب ألا تُسلم القبيلة العزيزة قاتلا منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية ؛ فمن ثم لا ينفى عارَ القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلا قتلا وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معانى الكلمة : أى القتل أنفى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب .

٤ — إن القتل فى هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجيء مقترنا بها ، فهو مفتقر إليها فى هذا المعنى ، وهى تُلبسه الإنسانيةَ كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ؛ وهذا وحده إعجاز فى الآية وعجز من الكلمة .

* * *

وقبل أن نبين وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة ونستخرج أسرارها ، نقول لهذا الطفيلى : إنه ليس كل من استطاع أن يُطير فى الجو ورقة فى قصبة فى خيط — جاز له أن يقول فى تفضيل ورقته على منطاد زبلين ، وأن فيما تتقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثًا : الذيل ، والورق الملون ، والخيط . . .

يقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » .

١ — بدأ الآية بقوله (ولكم) ، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التى تطلب كمالها فى الإيمان ، وتلتمس فى كمالها نظام النفس ، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة ؛ فإذا لم يكن هذا متحققًا فى الناس فلا حياة فى القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية : القتل أنفى للقتل ، أى اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الذى يبقيكم أحياء وينفى عنكم القتل ؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية ، لتوجِّه هذه الإنسانية فى بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة .

٢ — قال : « فى القصاص » ولم يقل فى القتل ، فقيَّده بهذه الصيغة التى تدل على أنه جزاء ومؤاخذة ، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلَّ أو كثر .

٣ — تفيد هذه الكلمة « القصاص » بصيغتها (صيغة المفاعلة) مايشعر بوجوب

التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالا ، لأن الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع .

٤ ـ من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله تعالى سمى بها قتْل القاتل ، فلم يسمه قتلا كما فعلت الكلمة العربية ، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء ، فنزه سبحانه العدلَ الشرعى حتى عن شَبَهه بلفظ الجريمة ؛ وهذا منتهى السمو الأدبى فى التعبير .

٥ ـ ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتى فى عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شرًّا من قتل المقتول ؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة ، على حين أن أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله ؛ فعبرت الآية باللغة التى تلائم هذا العصر القانونى الفلسفى ، وجاءت بالكلمة التى لن تجد فى هذه اللغة ما يجزئ عنها فى الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة .

٦ ـ ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التى مرت بك ؛ فهى بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، فى حين أن كلمة القتل فى المثل العربى تنطق فى صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها ؛ ولذلك كان تكرارها فى المثل كتكرار الغلطة ؛ فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ ـ ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هى تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة ، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما ؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ ـ جاءت لفظة القصاص معرَّفة بأداة التعريف ، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة ؛ إذ هو فى الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها

٩ ــ جاءت كلمة (حياة) منوّنة ، لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين ؛ فقد يكون فى القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم فى بعض الأحوال عن أن تكون حياة .

١٠ ــ إن لفظ (حياة) هو فى حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفى القتل) ، لأن نفى القتل إنما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعانى السامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعى الساذج ؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفى القتل) تعبير غليظ عامى يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير ، كالذى يقول لك : إن الحرارة هى نفى البرودة .

١١ ــ جعْل نتيجة القتل حياةً تعبيرٌ من أعجب ما فى الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالا ، بل يتحول إلى تعبير علمى يسمو إلى الغاية من الدقة ، كأنه يقول بلسان العلم : فى نوعٍ من سلب الحياة نوعٌ من إيجاب الحياة .

١٢ ــ فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله : « يا أُولى الألباب » ، فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه ، إذ هو موجَّه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ، ولكنه فى حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع ، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً فى التركيب العصبى ، أو وراثة محتومة ، أو حالة نفسية قاهرة ، إلى ما يجرى هذا المجرى؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة ، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب ، وهى تحوِّل القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم ، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأى ، بل هى قبل ذلك باللب والبصيرة ، وفلسفة اللب هذه هى آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا .

١٣ ــ وانتهت الآية بقوله تعالى : « لعلكم تتقون » ، وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زمننا نحن : يا أولى الألباب ، إنه برهان الحياة فى حكمة

القصاص تسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد .

* * *

وبعد فإذا كان فى الآية الكريمة — على ما رأيت — ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة .

* * *

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نشرت مقالة (الكلمة المؤمنة) فى (البلاغ) ، كتب الأديب الفلسطينى الأستاذ إسعاف النشاشيبى : إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية ، وقد نقلها الثعالبى فى كتابه (الإيجاز والإعجاز) ، فنشرنا فى البلاغ هذا التعليق :

* * *

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبى فى كلمته بالبلاغ إن عبارة « القتل أنفى للقتل » ، ليست بعربية ولا مولدة ، بل هى مترجمة ؛ أى فهى مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقع الخطأ فى نقلها إلى العربية ، فكانت غلطة من جهتين .

وإنه ليسرنى أن تكون فوق ذلك زنجية نقلت إلى المالطية ، ثم ترجمت إلى العربية ، فتكون غلطة من أربع جهات ، لا من جهتين فقط . . . ولكن هذه الكلمة لم يشر إلى أصلها غير (الثعالبى) ، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأى ، بل أشار إلى ترجمتها فى صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال : « يحكى أن فيما ترجم عن أزدشير . . . » و (يحكى) هذه ليست نصًّا فى باب الرواية ، وقد يكون هذا الإمام اتقى الله فابتعد بالكلمة وطوح بها إلى ما وراء بلاد العرب ، أو تكون الكلمة أُلقيت إليه على أنها مشتبَه فى نسبتها ؛ ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة معزوّة إلى قائلها أو لغتها التى قيلت فيها .

ولقد ذكرها العسكرى فى كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم) ، أى العرب أو المولدين ؛ ونقلها الرازى فى تفسيره ، فقال : إن للعرب فى هذا المعنى كلمات منها « قتل البعض إحياء للجميع » ، وأحسنها « القتل أنفى للقتل » ؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير فى كتاب « المثل السائر » ولم يَعْزُها ؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيان فى تفسيره : إنها تروى برواية أخرى وهى : « القتل أوقى للقتل » ، وكل ذلك صريح فى أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبى .

ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسى ، فإن كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً .

(تنبيه) : نشرنا هذه الكلمة ومضت بعدها سنوات ولم يقف أحد على أن للعبارة أصلا فارسيًّا ، فلم يبق عندنا ريب أنها من صنيع بعض الزنادقة وقد ولَّدها من الآية الكريمة ليُجرِيَها فى مجرى المعارضة ؛ وقد كتب الأستاذ الكبير عبد القادر حمزة صاحب جريدة (البلاغ) أن تلك العبارة حكمة مصرية قديمة ؛ ولا نمنع أن يكون هذا ، فإن بعض الحِكَم مما تَتَوَارَدُ عليه العقول الإنسانية النابغة ؛ إذ كانت الطبيعة البشرية كأنها تُمْلِيه ؛ غير أن العبارة ليست فى كلام الجاهلية القديمة ولا الحديثة ، وألفاظ المصرية غير ألفاظ العربية ، فلم يبق إلا توارد الخواطر ، والله أعلم .

القتل أنفى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب فى البلاغ أن الكلمة جاهلية ، فتعقبناه بهذا التعليق :

* * *

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهرى فيما نشره فى البلاغ أن هذه الكلمة عربية فى دعواه ، واحتج لذلك بحجج ، أقواها زعمُه : « أنها وردت بين ثنايا عهد القضاء الذى بعث به سيدنا عمر إلى أبى موسى الأشعرى ؛ ولا ندرى أين وجد الكاتب كلمة : « القتل » ، فضلا عن : « القتل أنفى للقتل » — فى ذلك العهد المشهور المحفوظ ، وقد رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ، وجاء به المبرد فى الكامل ؛ ونقله ابن قتيبة فى عيون الأخبار . وأورده ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وساقه القاضى الباقلانى فى الإعجاز ؛ وفى كل هذه الروايات الموثقة لم تأت الكلمة فى قول عمر ، بل لا محل لها فى سياقه ، وإنما جاء قوله : « فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك » .

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها فى باب الرواية التاريخية وقد أصبح عاليها سافلها كما رأيت .

والذى أنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف فى العربية إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة ، وهذا الإمام الجاحظ يقول فى موضع من كتابه (البيان والتبيين) ، فى شرح قول على كرم الله وجهه : « بقية السيف أنمَى عدداً وأكثر ولداً » ، ما نصه : « ووجد الناس ذلك بالعيان للذى صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل؛ قال الله تبارك وتعالى: ” ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب “ وقال بعض الحكماء : « قتل البعض إحياء للجميع » .

ولم يزد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو

صنيعه فى كتبه* ، خصوصًا وهى أوجز وأعذب مما نسبه لبعض الحكماء ؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض . . .) هى التى زعم الرازى فى تفسيره أنها للعرب . . . فلا عبرة فى هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة ، وإنما الشأن للتحقيق التاريخى .

ونص الجاحظ فى كتاب « حجج النبوة » على أن قومًا منهم ابن أبى العوجاء ، وإسحاق بن الوت ، والنعمان بن المنذر : « وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالإيمان كفراً ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبثونها فى الأمصار ، ويطعنون بها على القرآن » ؛ فهذا عندنا من ذاك .

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفاسية بظهور أصلها فى تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام ، فهى ولا ريب مما وضع على طريقة ابن الراوندى الزنديق الملحد الذى كان فى منتصف القرن الثالث وألّف فى الطعن على القرآن وقال فى كتابه : « الزمردة » : « إنا نجد فى كلام أكثم ابن صيفى شيئًا أحسن من — إنا أعطيناك الكوثر — » ، فكأن واضع الكلمة يقول على هذه الطريقة : « إنا نجد فى كلام العرب شيئًا أبلغ من — ولكم فى القصاص حياة — » .

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيغ والضعفاء فى العلم — سبيلا إلى القول فى نقض الإعجاز ، ومساغًا إلى التهمة ، فى أن القرآن تنزيل ؛ والخطأ فى مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ فى البيان إلى معنى الكفر فى الدين ،

* أورد الجاحظ الآية الكريمة فى الجزء الثانى من كتابه (الحيوان) صفحة ٣١ ثم قال : إلى هذا المعنى رجع قول الحكيم الأول : بعض القتل إحياء للجميع . وهذا إلى ما تقدم هو نص على أن الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ولم يعرفها ، وقد توفى الجاحظ سنة ٢٥٥ للهجرة ، وألف كتابه (الحيوان) فى آخر عمره وهو مفلوج ، فلم تكن الكلمة معروفة إلى ذلك العهد ، لا فى الرواية ولا فى الترجمة ، مع انتهاء زمن الرواية واستبحار الترجمة عن الفارسية .

وذلك ما يرمون إليه ؛ وهذه بعينها هى طريقة المبشرين اليوم ، فكأن إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع أن يتغير ، ولا أن يكون . . . أن يكون مجدّداً . . .

* * *

تم الجزء الثالث من وحى القلم

وبه تمّ الكتاب

فهرس الجزء الثالث من وحى القلم

هذا الكتاب

آخر كتاب أنشأه الرافعيّ، لكنّه أوّل ما ينبغي أن يُقرأ له.. كتاب يجمع كلّ خصائص الرّافعيّ الأدبيّة والعقليّة والنفسيّة متميّزة بوضوح في أسلوبه ومواضيعه، ففيه خُلقه، وفيه شبابه وعاطفته، وفيه تزمّتُه ووقاره، وفيه غضبه وسخطه. وفيه فكاهتُه ومرحه.. في مجموعة فصول ومقالات وقصص من وحي قلمه وفيض خاطره، فيها روعة الفنّ، وسموّ الفكر، وإعجاز البيان.

والرافعيّ غنيٌّ عن التعريف.. إنّه الاديب الحقّ، أديب الأمّة العربيّة المسلمة المعبّر بلسانها والناطق عن ذات نفسها.. ومن شاء أن يزداد بالرافعيّ معرفة حقّة..

فليقرأ هذا الكتاب.

الناشر

